

نورمان ف. كانتور

# التاريخ الوسيط

## قصة حضارة البداية و النهاية

ترجمة و تعليق : د.قاسم عبده قاسم

نورمان ف. كانتور

# التاريخ الوسيط

## قصة حضارة: البداية والنهاية

ترجمة وتعليق

دكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب- جامعة الزقازيق

طبعة عام

٢٠٠٩م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Norman F. Cantor

Medieval History

The Life and Death of A Civilization

Mcmillan, N.Y. 1972

| بطاقة فهرسة | المستشارون |
| --- | --- |
| كانتور ، نورمان ف . | د . أحمد إبراهيم الهوارى |
| التاريخ الوسيط : قصة حضارة : البداية والنهاية / نورمان ف. كانتور ؛ ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم - الجيزة : عين للدراسات والبحوث الانسانية ، ٢٠٠٩ . | د . شوقى عبد القوى حبيب |
| ٦٨٩ صفحة ١٧×٢٠سم | د . قاسم عبده قاسم |
| تدمك ٦ ٨٥٢ ٢٢٣ ٩٧٧ | **المشرف العام :** د. قاسم عبده قاسم |
| العصور الوسطى- تاريخ | **المدير التنفيذى :** عمرو قاسم |
| أ- قاسم، قاسم عبده (مترجم ومعلق) | **مدير الانتاج :** جمال عابد |
| ب- العنوان | تصميم الغلاف: د. منى العيسوى |



**الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية**

**٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع. تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣**

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 33871693

web site: WWW.Dar -Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

# محتويات الكتاب

**الجزء الخامس : عصر الإصلاح الجريجورى**



**الجزء السادس : التعليم، التدين، السلطة**

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة المترجم

تاريخ العصور الوسطى وحضارتها مجال رحب للبحث والدراسة . ومنذ بدأ إدوارد جيبون التعرض لدراسة العصور الوسطى، ظهرت دراسات عديدة ، ولمعت أسماء كثيرة لعلماء وباحثين تخصصوا فى دراسة تاريخ هذه الفترة ، كما صدرت كتب ومؤلفات عديدة وبلغات شتى، تدور موضوعاتها حول الفترة التاريخية التى اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى . ومن خلال هذا النشاط المتزايد فى مجال دراسة هذه العصور تشكلت الملامح التى تميز المدارس العلمية المختلفة . وتمثلت نتيجة ذلك كله فى هذا التراث الهائل والذى يعجز المرء ، أو يكاد ، عن متابعته فى ميدان كتابة ودراسة تاريخ العصور الوسطى . وعلى الرغم من ذلك تبقى حقيقة مهمة مؤداها أن الكتب التى قامت بدراسة شاملة لكافة جوانب حضارة العصور الوسطى لاتزال قليلة ؛ ومن ثم فإن أية دراسة شاملة من هذا النمط لابد وأن تلقى ترحيبا من المهتمين بهذه الدراسات .

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء العرب ، نقلا عن اللغة الإنجليزية، واحد من هذه الدراسات الشاملة. ومؤلفه هو الأستاذ الأمريكى المعاصر نورمان ف. كانتور Norman F. Cantor وقد اختار لكتابه عنوانا معبرا هو "Mediaval History: The Life and death of a Civilization" وترجمته «التاريخ الوسيط قصة حضارة: البداية والنهاية» والواقع أن هذا الكتاب يمثل ذخيرة هامة لاغنى عنها لمن يرغبون فى اتخاذ فترة العصور الوسطى ميدانا لدراستهم فضلا عن أنه يفتح أمام القارئ صفحة مهمة من صفحات رحلة الإنسان ، التى لم تتم بعد، فى رحاب الزمان . وإذا كان الكتاب يركز على دراسة التاريخ الأوربى، فهو طبيعى ، لأن التقسيم الثلاثى للفترات التاريخية (عصور قديمة ، ووسطى، وحديثة) تقسيم أوربى النشأة والغرض، يتخذ من الحضارة الأوربية حضارة مرجعية ، ويجعل من هذه الحضارة حديثة النشأة مركزًا لحضارات العالم ، وهو أمر نراه طبيعيا بالنظر إلى تفوق الحضارة الأوربية الملموس حاليا ،

بيد أن هذا لايعنى أننا نوافق على تقسيم الفترات التاريخية لتاريخنا العربى الإسلامى (بما فى ذلك تاريخ الحضارات القديمة، قبل الإسلام فى المنطقة العربية الإسلامية) على أساس هذا التقسيم التعسفى، على الرغم من أن هذا التقسيم سائد فعلا فى جامعاتنا العربية، وثمة بدائل لتقسيم الفترات التاريخية يمكن أن تكون أكثر فعالية وجدوى(١)، ولكن المجال لايتسع لمناقشتها .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى تسعة أجزاء عالج فيها جوانب الحضارة الغربية فى العصور الوسطى ، رجوعا إلى عصر الامبراطورية الرومانية الأخير فى القرنين الثانى والثالث مدخلاً طبيعيًا لدراسة هذه الفترة التاريخية . ولست أظننا بحاجة إلى تكرار العرض الذى قدمه المؤلف لموضوعات الكتاب ، ففى الفهرس الذى يضمه الكتاب وضوح شديد .

وقد حرصت على الأسلوب العربى الخاص قدر طاقتى ، كما حرصت فى الوقت نفسه على حرفية النص الإنجليزى، بيد أننى أسقطت عبارات لاتزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، رأيتها لاتخدم السياق فى النص العربى.

وعلى الرغم من أننا قد نختلف مع المؤلف ، الذى نحترمه كثيرا ، فى بعض آرائه ؛ سواء ما كان يتعلق منها بآرائه عن أسباب سقوط الحضارة الرومانية القديمة فى المناطق الأوربية ، أو فى رؤيته لبعض جوانب الحضارة العربية الإسلامية ، أو المبالغة فى الدور التاريخى لليهود؛ فإن الكتاب يتناول باقتدار ، يشى بالمعرفة الواسعة والعلم الغزير ، كافة الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية لهذه الفترة من تاريخ البشرية فى هذا الجزء من العالم. ويستحق المؤلف كل التقدير بسبب ما عرضه من تطور جوانب حضارة أوربا العصور الوسطى ؛ فلسفة ، وأدبا ، وعلمًا، وديانة، واقتصاداً ، فضلاً عن عرضه لتاريخ الكتابة التاريخية نفسها. كما أن تحليله لكافة الظواهر التاريخية التى تناولها كتابه يكشف عن قدر كبير من المعرفة والذكاء والنظرة الثاقبة . وربما لا أكون مبالغًا عندما أقول إن هذا الكتاب ضرورى للباحثين والدارسين فى تاريخ العصور الوسطى ولعامة القراء والمثقفين على السواء.

---

(١) انظر للمترجم «مفهوم الزمن عند المؤرخين المسلمين : دراسة تطبيقية على «المقريزى » الموسم الثقافى ١٩٧٨ / ١٩٧٩ للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، حيث يعرض وجهة نظره فى هذا الموضوع كاملة.

وفي هذه الطبعة التي تقدمها دار عين ، حاولت إصلاح بعض عيوب وأخطاء ظهرت في الطبعات السابقة، وإن كنت أعترف بأن ظهورها كان نتيجة تقصيري الشخصي الذي أرجو القارئ ، أن يغفره لي . وقد تضمنت هذه الطبعة، التي تضم الترجمة العربية كاملة في مجلد واحد عدداً من الخرائط المهمة التي تكمل النص المدهش لهذا الكتاب. وربما يجد القارئ في هذا المجلد معينا يساعد على الفهم والتفسير الذي يشرح الكثير من أصول الظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وطبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربي / الإسلامي في عالم اليوم .

والله الموفق والمستعان

**دكتور قاسم عبده قاسم**

*الهرم- مايو ٢٠٠٩م*

# قصة حضارة : البداية والنهاية

حتى المدينة السماوية ، وهى فى حال حجها تفيد من السلام الأرضى .. وتجعل هذا السلام الأرضى اتجاها صوب سلام السماء .

– القديس أوغسطين مدينة الله

# فاتحة الكتاب

## جدوى التاريخ

عند البدء فى دراسة موضوع ما يحق لنا أن نسأل : ماهى فوائده ولم يجب علينا أن ننفق الوقت والجهد فى هذا الموضوع ، وما جدوى هذه الدراسة فى حياتنا ؟ وفيما يتعلق بدراسة التاريخ يبدو مثل هذا التساؤل النفعى أمراً مستهجناً فى بعض الأحيان ويقال إن علينا أن نشتغل بالدراسة التاريخية لنفس السبب الذى يدفعنا إلى تسلق جبل ما "لأن مانريده هناك" وثمة زعم بأن كل مافعله الإنسان فى الماضى يحمل أهمية مباشرة بالنسبة للإنسان ، وأن هذا الاهتمام الطبيعى يجعل التاريخ كله جديراً بالدراسة كما أن أى شخص لديه هذا الاهتمام الطبيعى يكمن فى داخله مؤرخ محترف ، ومع أن هذا المدخل المبالغ فيه لايصمد للنقد بطبيعة الحال ، فإن أى مدرس تاريخ يعلم أن الاهتمام الطبيعى بالتاريخ لايبدو أكثر انتشاراً من الإهتمام الطبيعى بالكيمياء أو الرياضيات ، فضلاً عن أن هناك عالماً من الاختلافات بين حب الاستطلاع العشوائى بقصد قضاء وقت الفراغ ، والذى يقود المرء إلى قراءة ممتعة حول بعض الشخصيات أو الحوادث التاريخية - مثل الملكة مارى ملكة اسكتلندا أو معركة جتسبرج Gettysburg وهما موضوعان شعبيان محببان - والتحقيق المنهجى الشاق ، والتأمل الذى تنطوى عليه الدراسات التاريخية الحقة .

ومن ثم يحق لنا أن نسأل ماهى فوائد التاريخ ؟ بادىء ذى بدء فإننا ندرس التاريخ لنفس السبب الذى يدفعنا إلى دراسة أى موضوع إنسانى آخر : ألا وهو تحقيق المعرفة بالذات الإنسانية ، وتحقق دراسة التاريخ الحكمة التى جعلها الإغريق أسمى غايات الحياة الانسانية : إعرف نفسك ، ويخبرنا سقراط أن "الحياة التى لاتخضع للفحص غير جديرة بأن نحياها" ويزعم أننا لاندخل منطقة الوعى بوجودنا الانسانى ، وننطلق على طريق الحكمة إلا حين نفتش ونستفسر عن طبيعتنا البشرية ، ولكن هل تقتصر دراسة الطبيعة البشرية على دراسة الكائن البشرى المفرد ؟ لقد التزم الاغريق فى الجانب الاكبر من بحثهم عن الانسانية بهذه الرؤية الضيقة وركزوا على النموذج التجريدى ، مع قدر ضئيل من الاهتمام بالناس فى علاقتهم التاريخية - الاجتماعية الحقيقية . وبعد تطور بطىء ومعقد للغاية للأفكار التى لم تصل إلى مرحلتها النهائية سوى فى القرن التاسع عشر ، اتضح أن هذا المدخل غير كاف لدراسة الطبيعة

البشرية ، والواقع أن الحضارة الغربية التى تميزت عن مختلف المدنيات الشرقية هى التى أبدت وعياً واضحاً بالإنسانية فى تركيبها التاريخى المتغير دائما وأبدا (١).

---

(١) الحقيقة أن هذا القول يجافى الواقع إلى حد كبير فإن الحضارة العربية الاسلامية والتى استندت إلى تعاليم الاسلام وتراث الشعوب الاسلامية من غير العرب ، أبدت تفهماً واضحاً للطبيعة الانسانية المتغيرة ، إذ جاء فى قوله تعالى (سورة العنكبوت : اية ٢٠) ، قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير" وعلى الصعيد الواقعى سار المسلمون فى الأرض ، واكتشفوا أن الإنسان فى تطور مستمر، فهاهو ابن خلدون يقول فى مقدمته (ص ٣٠ طبعة دار الشعب) . . ومن الغلط الخلفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال ، بتبدل الأعصار ومرور الأيام.. وذلك أن أحوال العالم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ." كما يقول (ص٣٥ : الطبعة نفسها) "... إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم ، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال .. وما ينشأ عن ذلك من الملل والدول ومراتبها ، ومايتنحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع" كما ان كثيرين من المؤرخين والعلماء المسلمين قد أدركوا بوضوح الحقيقة القائلة بأن البشرية فى حال من التغير والتبدل الدائم . نذكر منهم على سبيل المثال ، المسعودى ، والطبرى ، والمقريزى ، والقلقشندى ، وابن أياس .. ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن كتابات المؤرخ تقى الدين المقريزى بالذات تكشف عن وعى تاريخى عميق ، وهو الوعى المزدوج بالزمن والحقيقة : بالزمن فى صيرورته ومايتنتج عن ذلك من التبدل والتغير والحقيقة التى يبحث عنها فى أسباب الظاهرة التاريخية التى يعالجها ، وهو مايتجلى أوضح مايكون فى كتابه الرائع " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " وكتابه الصغير المدهش " إغاثة الأمة بكشف الغمة. (لمزيد من المعلومات عن المقريزى انظر : درلسات عن المقريزى لمجموعة من الأساتذة طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١) ومن ناحية أخرى ينبغى أن نشير إلى ماتدين به الحضارة الغربية للحضارة الاسلامية فى شتى المجالات ونحيل القارىء إلى كتابين شاملين فى هذا الموضوع هما :

١- شمس الله على الغرب " تأليف الدكتورة : سنجريد هونكة وترجمة الدكتور فؤاد حسنين على (النهضة العربية ١٩٦٤).

٢- أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية "لمجموعة من الأساتذة - بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو (الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧٠م).

ويمكن إدراك وفهم فائدة التاريخ باعتباره معرفة الإنسانية بذاتها - وهو مافطن إليه مفكرو القرن التاسع عشر والقرن العشرين تماماً - إذا ما بدأنا بالسؤال عن نوع الشخص الذى سيكونه أى إنسان إذا فقد الذاكرة ، ونسى كل ماتعلمه فجأة إنه ، طبعا ، لن يكون شيئا على الإطلاق ، وسيكون حيواناً لاغير ، بمعنى أن الطفل المولود حديثاً إن هو إلا حيوان ذو قدرات كامنة ، ولكن هل يمكننا أن نقيد الذاكرة فى إطار الانسان الفرد ونتجاهل الذاكرة الجماعية للجنس البشرى ؟ الواقع أننا لانستطيع ذلك إذا ماكان الهدف هو تحقيق المعرفة الكاملة بالذات "إننى جزء من كل ماقابلت " هذه الفترة المقتبسة من أوليسيس Ulyssess لتنيسون تمدنا بالمفتاح الذى يقودنا إلى أهم فوائد التاريخ فالحقيقة أننى جزء من كل ماقابلت لابصفتى الشخصية فحسب ، بل أيضاً بصفتى عضواً فى جماعة متمايزة من البشر ، مجتمعاً كانت أم حضارة . ذلك أننا فى تطور شخصياتنا المتمايزة لانكون محكومين بعلاقاتنا الشخصية أو الأسرية فحسب ، بل أيضاً بالتغيرات المتعددة فى الحياة الاجتماعية والتى وقع الكثير منها منذ قرون مضت ، وهو مانسميه التاريخ .

وسواء كنا واعين لهذه الحقيقة أم لا ، فاننا لانملك ذاكرة فردية فحسب ، بل إننا نشارك أيضاً فى الذاكرة الجماعية لكل مامر به النوع الانسانى من متغيرات فى الماضى . ومن ثم فإن كل فرد كائن تاريخى سواء كان يعلم بهذه الحقيقة البالغة الأهمية أم كان غافلاً عنها تماماً . إذ أن حياة كل منا محكومة بما وقع من أحداث فى بلاد بعيدة عنا منذ مئات السنين ، ونحن نتصرف فى حياتنا اليومية وفقاً لهذه الحوادث مهما كان هذا الفهم محدوداً . بيد أننا بالنظر إلى هذه الذاكرة الاجتماعية ، وذاكرتنا الفردية أيضاً ، قد نقول بحق مع سقراط " إن الحياة التى لم تخضع للفحص غير جديرة بأن نحياها " ذلك أن ذاكرة الماضى التى لم تفحص مجرد أسطورة وتحيز . وأيا كان تأثير الأسطورة والحكم المسبق على الفعل الاجتماعى فهى خطأ ، وليست حقيقة . أما التاريخ ، كعلم ونشاط عقلى ، فيخضع ذاكرة الماضى الجامعة للتدقيق الصارم . ومن خلال تطبيق المناهج العلمية التى ابتدعها علماء القرن الماضى ، يحاول التاريخ كشف النقاب عما حدث فى الماضى "كما حدث بالضبط" [٢] لاعلى أساس بعض الأساطير أو الأحكام المسبقة التى نمت وترعرعت لتملق بعض المجموعات أو الأمم .

---

(٢) صاحب هذه العبارة هو الألمانى " ليوبولدفون رانكه Leopold Von Ranke (١٧٩٥-١٨٨٦) ، الذى يعتبر كتابه الأول المسمى "تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية ، طرازاً جديدة من الكتابة التاريخية =

وبطبيعة الحال ، فإن فهم الماضى كما حدث بالضبط ، توصية تبغى الوصول إلى الكمال ، وفى الكتابة التاريخية - كما هو الحال فى مجالات أخرى فى الحياة - غالباً مالا يتحقق الكمال . إذ أنه حتى مع توفر أحسن إدارة فى العالم مع أعظم قدر من الحرص ، وأكبر قدر من النضج لمحاولة التحرر من الذاتية ، يظل المؤرخ نفسه متأثراً بالأسطورة والهوى الكامنين فى أغوار خلفيته الثقافية . وقد أفضت هذه الحقيقة ببعض المؤرخين إلى اليأس والسقوط فى هوة نوع من النسبية المركزة على الذات Egocentric Relativism وإلى الزعم بأن كل رجل مؤرخ نفسه ، وأن ليس ثمة حقيقة مطلقة فى التاريخ . ويقال إن أى تفسير للحوادث التاريخية يمكن أن يكون مساوياً فى جودته لأى تفسير آخر ، وأن كل التفسيرات التاريخية ، سواء قدمها الرجل العادى أو قدمها الباحث المتعلم ، ترتكز على أرضية من الأهداف الاجتماعية المرغوبة . بيد أن هذا اليأس كثيراً مايتجاوز الحد المعقول ، على الرغم من أنه يفسد على الأساتذة غطرستهم - وهو عمل طيب دائماً . فمع التسليم بأن المؤرخين الذين يبحثون عصراً بذاته من عصور الماضى قد يختلفون فى تفسيراتهم اختلافاً جسيماً ، وقد تختلف رؤية كل منهم عن الآخر للأسباب والنتائج فيما يبحثونه من أحداث ، فإنهم مع ذلك يظلون متفقين فى عدة أمور. وحين تطور التاريخ ليصير علماً فى القرن الماضى ، توصل المؤرخون إلى عدة استنتاجات عامة فيما يتعلق بتفسير الماضى ، على حين أنهم مايزالون مختلفين حول أمور غيرها . هناك إذن بالفعل وحدة فى المناقشة بين المؤرخين ، وأساس صلب من الحقائق المتفق عليها بشأن الماضى ، كما أن هناك جدلاً مستمراً حول جوانب أخرى من الماضى ، وربما يتم الاتفاق حولها فى نهاية المطاف .

إن الدارس المبتدىء فى ميدان التاريخ سرعان ماسيدرك أن هناك مناقشة جدلية بين المؤرخين ،وإذا كان يتمتع بقدر الذكاء فانه سوف يكتشف أن هذا الخلاف فى طريقه إلى الزوال

---

= فى عصره ، إذ اعتمد فيه على المصادر الأصلية إنطلاقاً من رأيه فى أن التاريخ ،هو تصوير ماحدث فى الماضى بالضبط ، الأمر الذى دفعه إلى الإهتمام بالوثائق والمخلفات الاثرية اهتماماً بالغاً لأنه رأى فى الوثائق الرسمية ، ومكاتبات الدول والأفراد ، وسجلات الحكومة والكنائس ، والمذكرات الشخصية ، أصدق مصادر الكتابة التاريخية . وتعود بداية ظهور علم الوثائق كعلم منهجى إلى تلك الفترة التى أخذ فيها تلاميذ "رانكه" يجوبون أنحاء أوربا سعيا وراء الوثائق و"رانكه" هو صاحب الفضل فى إنشاء اللجنة التاريخية فى اكاديمية بافاريا للعلوم ، التى قامت بنشر جديد العديد من الوثائق والحوليات ، كما أنشأ "المجلة التاريخية السياسية ، التى تعد من طلائع الدوريات التاريخية . (المترجم) .

ولكن ليس لأحد أن يتعامى عن حقيقة أنه بعد قرون من العمل الشاق الذى قام به آلاف العلماء أصبحنا نعرف فعلاً أشياء كثيرة عن الماضى بنفس درجة التأكد واليقين التى يعرف بها عالم الطبيعة أو الكيميائى أو البيولوجى الحقائق الأكيدة عن عالم الطبيعة . ولاينبغى للدارس المبتدىء أن يضل طريقه بسبب ماينشب أحياناً من منازعات مريرة بين المؤرخين ، مما يدفعه إلى الظن بأن التاريخ هو مجرد الغضب المحموم والأصوات العالية ، فعلى العكس من ذلك تستحق دراسة التاريخ أن يتناولها المرء فى زهو بمغزاها ، من حيث أنها تؤدى إلى معرفة الانسانية بذاتها ، ومن خلال معرفة الذات تقود الانسانية الى التحرر من الاسطورة ، والتحيز والأحلام التى مازالت تحكم تصرفات الشعوب غير الغربية التى لم تبدأ الدراسة العلمية للتاريخ إلا فى أضيق الحدود (٣).

وان تجعلنا المعرفة الصحيحة بالتاريخ "تتنبأ بالمستقبل" على نحو ساذج سخيف ، ولكنها سوف تساعدنا على أن نتصرف فى المستقبل بحكمة أكثر ، ذلك أن الانسان الذى يتمتع بالمعرفة الدقيقة بما حدث فى الماضى يكون أكثر اقتراباً من الفهم الكامل للطبيعة البشرية ، ومن ثم فهو قادر على أن يتصرف بالحكمة والثقة النابعتين من معرفة الحقيقة .

والتاريخ الوسيط عبارة عن لحظة طويلة ومعقدة فى تجربة الرجل الغربى ، إذ تشمل الفترة مابين عام ٣٠٠ وعام ١٥٠٠ بعد الميلاد تقريباً . وميرات تجربة العصور الوسطى فى الحضارة الغربية شاسع وشامل ، فما أن أهل عام ١٥٠٠ حتى بات واضحاً أن العصور الوسطى قد انتهت ولكنها كانت قد خلفت للعالم الحديث التراث الغنى بالكثير من مؤسساته ونظمه السائدة كالكنيسة المسيحية ، والحكومة النموذجية ، والنظام الرأسمالى ، والجامعة ، وبعض أفكاره الأكثر حركة وحيوية ، بما فى ذلك الفكر الرومانسى ، والفكر العقلانى ، والوطنية ، والمنهج العلمى ، فضلاً عن الطبيعة المركبة المتناقضة للإنسان نفسه . وإذا كانت فائدة التاريخ هى معرفة الانسانية بذاتها ، فإنها لاتستطيع الاستغناء عن الحياد والتفهم الكامل لخطوط التطور الرئيسية فى العصور الوسطى . فالكثير جداً من جوانب حضارة القرن العشرين ، ليست سوى نتائج تجربة العصور الوسطى . وإذا كان "الطفل هو أبو الانسان فى الواقع" على نحو مايخبرنا الشعراء وعلماء النفس ، فإن التجربة الوسيطة ماتزال تتحكم فى أقدارنا بما هو طيب ، وبما هو سيء حتى الآن وهدف هذا الكتاب أن يوضح الجوانب الأساسية فى هذه التجربة- أن يبين انجازاتها وأخفاقاتها ، وأمجادها ونكساتها ، رفعتها وسلبيتها .

(٣) هذا هو رأى كانتور المطلق فى الشعوب غير الغربية ، وهو رأى لاينطبق على الواقع تماماً .

وأخيراً ، ينبغي التأكيد على أن فهم تجربة العصور الوسطى فهما شاملاً لن يتأتى سوى من خلال فهم وإدراك درجة وعى الناس فى العصور الوسطى بالحوادث العظام التى حسمت مصيرهم ، إذ يجب أن نرى - بل يجب فى الواقع أن نحس - لا بالطبيعة الخارجية للحوادث فحسب بل بمكنونها وطبيعتها الداخلية أيضاً ، وهو مايعنى تأثيرها على فكرة من عاصروها ، إذ لايكفى أن نحدد مراحل الغزوات الجرمانية وأحداث عصر شارلمان ، أو أعمال الصليبيين، وإنما يجب أن نفهم كيف أثرت هذه الأحداث فى وجدان الناس الذين عاشوا أثناءها ، كما يجب أن نحاول فهم الكيفية التى صارت بها تلك الحوادث جزءاً مندمجاً ومكملاً لتجربة أهل العصور الوسطى . ويجدر بنا ، من ناحية أخرى ، أن نتجنب القيام بمجرد حصر " الأفكار العظيمة" دون بحث العلاقة بين هذه الأفكار وبين سياق الموقف الاجتماعى الذى حدد كيفية ظهور هذه الأفكار ، فإن تحديد فكر توماس الاكوينى Thomas Aquinas الدينى ، دون بحث علاقته بالمجتمع والحضارة التى أفرزته ، يعد عملاً محدوداً ضيق الأفق ، تماماً مثل محاولة حصر حوادث عصر شارلمان دون محاولة الفهم الشامل لما قدمته الامبراطورية الكارولنجية من الآمال والتطلعات ، ومدى ما أصاب المعاصرين من خيبة الآمال . وسيحاول هذا الكتاب أن يتجنب الوقوع فى فخاخ كل من الايجابية البلهاء والحذلقة الكاذبة (وتمثل الأولى إخفاقاً قديماً للغاية فى الكتابة عن الحضارة ، بينما تمثل الأخرى اخفاقاً جديداً إلى حد ما ، لاسيما فى أولئك الباحثين الذين يأخذون عبارات القانون الكنسى الوسيط باعتبارها حقائق الحياة الكنسية) . والحقيقة أن هدف المؤرخ هو أن يصف "الطريقة التى حدث بها الأمر" وهو نموذج سوف يبدو بسيطاً للشخص الساذج ، بيد أنه صعب التحقيق للغاية . هذا ماسوف نحاوله عن طريق تصوير المجريات الرئيسية لتطور حضارة العصور الوسطى ، وماذا كانت هذه المجريات الرئيسية تعنى حقاً فى حياة وفكر الناس فى العصور الوسطى ، ولن يكون عملنا مرضياً تماماً ، ولكننا بالكتابة بتعاطف مع مشاكل أهل العصور الوسطى ، وبالتصميم على توضيح إخفاقاتهم وانتصاراتهم ، نأمل أن نقترب بقدر أكبر نحو صورة حقيقية للمجتمع الوسيط .

# تقديم
# مجال التاريخ الوسيط

## ١- موجز تاريخي

من الممكن أن نحدد بالضبط اليوم الذى بدأت فيه بالفعل دراسة العصور الوسطى كفرع من فروع الأدب التاريخى ، ففى خريف سنة ١٧٦٤ قام رجل إنجليزى دعى ادوارد جيبون Edward Gibbon كان صاحب ضيعة متوسط الثراء من أبناء الريف ومن خريجى أوكسفورد[١] ، برحلة إلى إيطاليا بقصد السياحة ومشاهد آثار العالم الكلاسيكى . وفى ترجمتة الذاتية يخبرنا جيبون كيف جذبته التغيرات الواضحة التى طرأت على روما منذ أيام الأباطرة العظام لأن يقوم بكتابة تاريخ عن الطريقة التى حدث بها هذا التطور التاريخى العظيم :"كان ذلك فى روما ، فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٧٦٤ بينما كنت جالساً أتسلى بين أطلال الكابيتول والرهبان الحفاة يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبيتر ، حين خطرت ببالى للمرة الأولى فكرة الكتابة عن اضمحلال وسقوط المدينة ".

يجب أن تبدأ جميع الكتابات والبحوث التاريخية بإحساس بالدهشة أولاً ، ثم بسؤال واضح الصياغة . إذ أن المؤرخ بتمايزه عن مجرد هاوى الآثار القديمة يبدأ ، لا من حب الاستطلاع العشوائى ، وإنما من سؤال أصيل حول التغيرات التى طرأت على الحضارة والدول ، والشخصية الفردية . ومن هنا كان جيبون مؤرخا أصيلاً ، ذلك أنه جابه مشكلة حقيقية : إذ أراد أن يعرف مجرى وأسباب التغيرات العظمى التى أدت إلى بناء الأديرة الكاثوليكية على أطلال المعابد الرومانية الوثنية . ولكن ثمة عيوب كثيرة تشوب جيبون كمؤرخ . فقد كان منهجه فى تحليل المصادر أدنى فى مستواه كثيرا من منهج العلماء المتخصصين اليوم. وبسبب تردده العقيدى بين الكنيسة الإنجيلية والكنيسة الكاثوليكية والشك الذى كان ينتابه، وبسبب الموقف المعادى الذى اتخذته حركة التنوير فى القرن الثامن عشر حيال الديانات السماوية بشكل عام ، لم يحمل أى تعاطف تجاه المعتقدات الدينية التى تتسم بالعمق . كما كان يكن كراهية مرضية للنساء . ولاحظ أحد النقاد أن جيبون كان على الدوام ، متسامحاً ، وشفوقاً

---

(١) الحقيقة أن ادوارد جيبون التحق بكلية مجدالن Magdalen بجامعة أوكسفورد ، وبقى بها أربعة عشر شهراً فقط رحل بعدها إلى سويسرا وفرنسا ، وفى ابريل عام ١٧٦٤ سافر إلى إيطاليا . (المترجم)

إلا فيما يتعلق بالمواقف التى يستشهد فيها المسيحيون أو تغتصب فيها العذارى . ولكن على الرغم من أن "اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية" يعتبر من عدة نواح كتاباً مُضللاً مليئاً بالأخطاء فإن هذا الكتاب هو أول عمل عظيم فى مجال كتابة تاريخ العصور الوسطى .

اعتمد جيبون فى بحثة كثيراً على الكتابات القديمة التى دونها بعض علماء الرهبان الفرنسيين والبلجيك فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وباستخدام المناهج النقدية التى تطورت فى بحث الدراسات الكلاسيكية فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، توصل أولئك الديريون إلى طريقة لاختبار أصالة وثائق العصور الوسطى كما نجحوا فى وضع الأسس لتحقيق ونشر المؤلفات الوسيطة . وعلى أية حال ، لم يكن إهتمامهم موجها للتاريخ ، بل انصب على سير القديسين وأعمالهم hagiography إذ كان أولئك الديريون يحاولون نشر صورة دقيقة تمثل حياة القديسين ، وقد أرسى منهجهم الحذق فى الدراسة أسس البحث العلمى فى التاريخ الوسيط ، ولكن عملهم لم يكن فى ذاته مستلهماً من النماذج التاريخية الأصيلة .

كانت رؤية جيبون للعصور الوسطى باعتبارها فترة اضمحلال مطرد لعظمة الامبراطورية الرومانية منذ القرن الثانى للميلاد – وهى الفترة التى أسماها "انتصار البربرية والدين" – مستوحاة من موقف الانسانيين الايطاليين فى أواخر القرن الخامس عشر ، إذ كان لهؤلاء الانسانيين رد فعل تجاه حضارة أوربا الغربية فى الفترة السابقة على عصرهم مباشرة ، يماثل رد فعل كثير من مثقفى أوربا الحديثة وأمريكا تجاه حضارة وأحداث القرن التاسع عشر ، وكما نستخدم لفظ فيكتورى Victorian فى بعض الأحيان كمصطلح يدل على أمر مشين ، اخترع أيديولوجيو عصر النهضة اصطلاح العصر الوسيط medium aevum ليدل على العداء والاحتقار لثقافة أوربا الغربية منذ عصر الامبراطورية الرومانية حتى عصرهم . ولما تبنى كتاب القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر مصطلح" العصر الوسيط " بمفاهيم مماثلة أصبح هذا المصطلح مصطلحاً تاريخياً يقصد به الاساءة إلى الكنيسة ، والفلسفة المدرسية ، والأدب ، والفن على مدى فترة تزيد على ألف سنة من عمر الحضارة الغربية .

بيد أننا يجب أن نلاحظ أنه إذاكان اصطلاح العصر الوسيط قد استخدم فى بداية الأمر ، وعلى نطاق واسع فى المجادلات الموجهة ضد الكنيسة ، فإن فكرة وجود عصر تاريخى وسيط كانت فى حد ذاتها مفهوماً صاغه فى البداية مفكرو الكنيسة أنفسهم فى العصور الوسطى ، فقد اعتقدوا فى تصوراتهم الأُخروية بوجود عصر وسيط بين الخلق ويوم الحساب . أما إطلاق

اصطلاح العصر الوسيط على فترة تاريخية معينة ، فقد جاء نتيجة لإضفاء معنى زمنى على هذا المفهوم بفضل الإنسانيين فى عصر النهضة والعقلانيين فى القرن الثامن عشر .

فقط بمجىء الحركة الرومانسية ، فى أواخر القرن الثامن عشر ، صار اصطلاح" وسيط" واصطلاح "قوطى" الفنى المواكب له ، يعنيان أى شىء عدا البربرية والتدهور. ومن سوء الحظ أن النظرة التى نظر بها الشعراء وكتاب المسرح الرومانسيون إلى العصور الوسطى ، ربما كانت خيالية كنظرة الانسانيين فى عصر النهضة وخلفائهم العقلانيين ؛ فأوربا لم تعد مأهولة بالبرابرة المتوحشين والرهبان المتعصبين ، وإنما أصبح يسكنها فرسان من أهل الشهامة ، ونساء ذوات عفة وعاطفة خيالية . وتعتبر قصيدة كيتس Keats الشهيرة "ليلة الاحتفال بعيد القديسة أجنيس" The eve of St. Agnes مثالاً رائعاً للحماسة التى أولتها الحركة الرومانسية للعصور الوسطى .

كما أن النزعة القومية التى تميز بها القرن التاسع عشر ساهمت مساهمة فعالة فى تطور تدوين التاريخ الوسيط . ومن حسن الحظ أن مساهمة أصحاب النزعة القومية ساعدت على قيام الدراسة العلمية لأوربا الغربية فى الفترة من عام ٣٠٠ حتى عام ١٥٠٠ . ووفقاً لماهو معلوم ، فإن الهزيمة التى لحقت بالألمان على يد نابليون والجيوش الفرنسية أيقظت الشعور القومى فى ألمانيا فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، ولأن القوميين الألمانيين افتقدوا الوحدة والمجد فى بلدهم منذ العصور الوسطى ، فانهم ولوا وجوههم بإعجاب ووجدان متوهج شطر الأيام المجيدة للأمبراطورية الألمانية الوسيطة ، ومن أجل دراسة الكتب التى تناولت ألمانيا فى العصور الوسطى ونشرها أقامت الحكومة البروسية معهداً للبحث فى التاريخ الألمانى الوسيط. وكان من الممكن ألا يكون هذا المعهد شيئا سوى بوق للدعاية القومية النزقة ، ولكن من حسن الطالع أن تولى العمل فيه فى منتصف القرن التاسع عشر نخبة من الباحثين الممتازين المتمرسين بمناهج الدراسة فى العلوم الكلاسيكية ، ومن حسن الحظ أيضاً أن دراسة الامبراطورية الألمانية فى العصور الوسطى استلزمت دراسة البابوية وإيطاليا أيضاً فى تلك العصور . وهكذا كرس المعهد الألمانى للتاريخ الوسيط نفسه لدراسة قطاع كبير للغاية فى مجال الحضارة الوسيطة . وبالرغم من كل التغيرات التى مرت بها ألمانيا خلال السنوات المائة الأخيرة ، لايزال المعهد الألمانى العظيم لتاريخ العصور الوسطى - والذى نقل منذ الحرب العالمية الثانية إلى مدينة ميونيخ - يواصله عمله من أجل نشر "مجموعة ألمانيا التاريخية Monumenta Germaniae Historica " ، وبنهاية القرن التاسع عشر كانت الدراسة العلمية

للحضارة الوسيطة - متحررة من الأحكام المسبقة وتعصب الانسانيين فى عصر النهضة ، والشعراء والرومانسيين ، وحتى من الدعاية القومية - تسير على قدم وساق فى ألمانيا .

وخلال الشطر الأخير من القرن التاسع عشر شهدت فرنسا أيضاً قيام مدرسة لمؤرخى العصور الوسطى الذين قاموا أيضاً بأبحاثهم فى معهد تموله الحكومة . وبالرغم من أن حجم مساهمة الفرنسيين فى التاريخ الوسيط كان أقل بكثير من حجم مساهمة الألمان إلا أن علماء العصور الوسطى الفرنسيين قدموا لنا أروع الآراء فى مجال دراسة التاريخ الوسيط ، وهناك العديد من أهم تفسيرات التاريخ الوسيط مما أنتجته قرائح الباحثين الفرنسيين والبلجيك الذين يكتبون باللغة الفرنسية .

ومع بداية القرن العشرين دخلت بلاد أوربية أخرى حلبة الاهتمام بتراث العصور الوسطى ، وقد أولى الانجليز اهتماماً خاصاً لدراسة مؤسساتهم السياسية ونظمهم القانونية المميزة متتبعين أصولها فى العصور الوسطى .

أما أول أستاذ أمريكى فى التاريخ الوسيط فهو هنرى آدامز Henry Adams الذى تولى منصب الأستاذ فى هارفارد فى السبعينيات من القرن التاسع عشر . لم يكن آدامز ، شأنه فى ذلك شأن جيبون ، معداً لهذه المهمة سواء من حيث الدراسة أو استعداده الشخصى وسرعان ما انصرف عنها إلى مجالات أخرى ، ولكنه ، مثل جيبون ، كانت عبقريته التاريخية عظيمة لدرجة جعلته قادراً على التغلب على عيوبه كباحث . ولاتزال لدراسته عن الأدب والفن الفرنسى فى القرن الثانى عشر بعض القيمة حتى اليوم ، وما أن أذنت شمس القرن التاسع عشر بالمغيب حتى بدأ الباحثون الأمريكيون يدرسون فى أوربا . وهناك اثنان من بين هؤلاء الرجال جلبا إلى هارفارد المنهج العلمى للعلماء الأوربيين المتخصصين فى العصور الوسطى هما : تشارلز جروس Charles Gross وتشارلز هاسكينز Charles Haskins ويعتبر هاسكينز بالذات صاحب الفضل فى إنشاء مدرسة أمريكية للعصور الوسطى فى الولايات المتحدة . فلم يقدم هاسكينز إسهامات هامة عديدة فى التاريخ الوسيط فحسب وإنما قام أيضاً بتدريب جيل كامل من الباحثين فى هارفارد بين سنة ١٩١٠ وعام ١٩٣٠ على المنهج الأوربى الدقيق الصارم فى البحث التاريخى . وفى الثلاثينات من هذا القرن انضم إلى مدرسة هاسكينز بعض الألمان المتخصصين فى العصور الوسطى ممن يمتازون بالقدرة والكفاية ، والذين اضطروا إلى ترك وطنهم بسبب الاضطهاد النازى ، وقد يبدو من العجيب أن الولايات المتحدة تستطيع فى الوقت الحاضر أن تفتخر بمجموعة من مؤرخى العصور الوسطى لاتبزها مجموعة أخرى فى

العالم ، حتى فى فرنسا أو ألمانيا . وسيكون من المثير أن نعلم ماذا كان يمكن أن يقوله جيبون فى هذا التحول .

وليس من السهولة بمكان أن نقسم المؤرخين إلى فئات ، بل ولايجب أن يحدث هذا ، لأن كل مؤرخ يستحق منا أن نقيمه على انفراد ، شأن أى عمل فنى . ودائما مايختلف باحث عن آخر ولو قليلاً فى موقفه ، ومنهجه وطريقة تعبيره . فتدوين التاريخ - كأى شكل من أشكال النقد الأدبى أو أية معالجة فى تاريخ الفكر - دراسة لايمكن أن تكون دقيقة تماماً ، وبالرغم من هذا ، فإننا نستطيع مع مراعاة هذه المحاذير ، أن نقسم المؤرخين إلى مجموعات حسب فروضهم ومناهجهم . إن أى فرع من فروع المعرفة النظرية يتحسن بالوعى الذاتى عند من يمارسونه ، وذلك عن طريق تقييم المعايير التى تستخدم للوصول إلى استنتاجات تفسيرية ، وهذا يصدق أيضاً على الاعتبارات المتعلقة بمواقف المؤرخين ومناهجهم ، وهو مانسميه بتدوين التاريخ أو التأريخ Hisoriography وفى وسعنا أن نقوم بعرض المداخل المستخدمة لفهم الحضارة الوسيطة فى أبحاث السنوات الأربعين الماضية ، وأن نتحقق من خمسة مداخل عامة للتغير التاريخى فى العصور الوسطى .

وأول هذه المداخل ، وهو المدخل الذى يعتبر إلى حد كبير علامة على أبحاث المدرسة الألمانية ، والذى يتمثل على خير وجه فى مؤلفات "بيرسي أ.شرام Percy E. Schramm وجرد تلنباخ G.Tellenbach وكارل اردمان Karl Erdmann فينسحب على وجهة النظر الألمانية النموذجية فى التاريخ الروحى Geistesgeschichte ويمكن أن نحدده باصطلاح المدخل الجدلى الروحى dialectical - spiritual approach . وقد دفع البؤس الذى حاق بألمانيا سياسياً واقتصادياً منذ الحرب العالمية الأولى بالمؤرخين الألمان إلى الإقتصار على نطاق الأفكار الذى كانت تبدو فيه الحقائق التعسة فى تاريخ بلادهم منذ القرن الثالث عشر أقل إيلاماً ، والذى يمكن فيه اكتشاف الحقيقة والجمال . هذا الموقف حكم كتابة التاريخ الوسيط فى ألمانيا بصورة أوقع . فَربَّ تفكير فى معالجة التغير التاريخى الوسيط بالمناقشات الطنانة حول طبيعة مجتمع مسيحى - بكل المعانى التى تتضمنها مثله الامبراطورية والصليبية وتفسيراته المتضاربة لمعنى الحرية - أفضل بكثير من الخوض فى عيوب النظم الملكية ومثالب الملوك والنبلاء الألمان فى العصور الوسطى. ولاشك فى أن تأثير الفكر الهيجلى ، تدعمه جهود فيلهلم دلتى Wilhelm Dilthey يكمن أيضاً خلف هذا الاتجاه نحو الاهتمام المطلق بالتاريخ الروحى بين صفوة العلماء الذين تخصصوا فى دراسة العصور الوسطى فيما بين

الحربين العالميتين ، كما أن المدرسة الألمانية ظلت تتميز بمدخل جدلي مغرق فى الجدل : إذ أنها ساقت مقارنات صريحة بين مختلف الحركات الفكرية فى أوربا فى العصور الوسطى ، وحاولت بكل تأكيد أن تبين الأثر العميق على التطور اللاحق لبعض العصور الحرجة حين جابهت هذه الأفكار المتعارضة جدلياً كل منها الأخرى . واستطاعت المدرسة الجدلية - الروحية - أن تنجز دراستها عن أفكار العصور الوسطى بالتحكم البالغ فى أدوات البحث التى طورها المتخصصون فى الدراسات الكلاسيكية . كما كانت الجهود التى بذلتها أقسام تاريخ العصور الوسطى فى الجامعات الألمانية فى دراسة النصوص وتفسيرها تفسيراً علمياً وافياً نموذجاً للتحليل الدقيق لوثائق تاريخ الفكر الوسيط . وكانت مثل هذه الجهود سبباً من أسباب رواج التاريخ الروحى لدى العلماء الألمان المتخصصين فى دراسات العصور الوسطى ، كما كانت سبباً فى استمراره ؛ ولكن حماسة أتباعه فترت قليلاً بعد الحرب العالمية الثانية وحتى الآن .

ويعتبر أرنست كانتوروفيتز Ernest Kantorowicz واحداً من أشهر أعلام المدرسة الألمانية فى التاريخ الوسيط ، وقد أمضى الشطر الأعظم من حياته الأكاديمية فى الولايات المتحدة بعد أن طرده النازيون . فقد كانت دراسات كانتوروفيتز عن الفكر السياسى الوسيط تكشف دائماً عن الطريقة التى نظر بها الناس فى العصور الوسطى إلى الدولة والكنيسة ، كما تعكس أعماله أوجه القصور التى تشوب المدرسة الألمانية . فقد قيل إن الألمان يصفون التاريخ الذى لم يحدث ، وهذا أمر صحيح إلى حد ما ؛ إذ أن ناقدى المدرسة الجدلية الروحية الألمانية يشيرون إلى أن هذه المدرسة تعطى للأفكار أهمية كبيرة فى دراستها ، وأنها كثيرا ما توضح الفروق بين هذه الأفكار بينما كان هذا الوضوح الجدلى غائباً عن أذهان المعاصرين، ويمكن الرد على ذلك بالقول بأن فهم التغير التاريخى يشمل ماهو أهم من مجرد ترديد التناقضات العميقة التى تطرأ على سلوك الشخصيات المعاصرة ، إذ يجد المؤرخ أن من الأسلم والضرورى أن يوضح الفروق وأن يبرزها ، حتى لو لم يكن المعاصرون يرون النموذج الجدلى بهذا القدر من الوضوح .

وقد ظل التاريخ الثقافى يحظى بالاهتمام المنقطع النظير من قبل العلماء الألمان المتخصصين فى دراسات العصور الوسطى منذ سنة ١٩٤٥ ، غير أن كليفيتز H.K. Klevitz وهو بلانزاع وريث شرام المتحدث باسم المدرسة الجدلية الروحية ، قتل فى الحرب ، وهانحن نرى علماء الجيل الحالى البارزين من مؤرخى العصور الوسطى الألمان أمثال هربرت جروندمان Grundmann وتيودور شيفر Theodor Schieffer أكثر اعتدالاً فى رأيهم ، وأقل جدلية فى لهجتهم مما كان عليه أسلافهم العظام ، بل وأكثر اهتماماً بالشخصيات التاريخية والتغير الاجتماعى .

ومن هذه الناحية فإنهم يقتربون من موقف أبرز مؤرخى العصور الوسطى الانجليز فى العقدين الماضيين والذين يمكن أن نلقبهم بأصحاب المدرسة الدينية الشخصية - Devotional Personal School . وقد تزعم هذه المدرسة نولز M.D. Knowlse فى كمبردج ، وسوثرن R.W. Southern فى أوكسفورد وأحدثا مايشبه الثورة فى الدراسات الوسيطة بانجلترا ؛ ذلك أنه للمرة الأولى منذ تسعين عاماً نرى ألمع متخصصى العصور الوسطى الانجليز يهتمون بالتاريخ الدينى والثقافى أكثر من اهتمامهم بالتاريخ السياسى والقانونى .

فعلى مدى سبعين سنة ظل التاريخ الوسيط فى إنجلترا مرادفاً لتاريخ النظم السياسية . وكان السؤال الكبير الذى تعين على المجتمع المثقف أن يطرحه على مؤرخى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر هو : كيف تأتى لنظامنا الوطنى المستنير فى الحكم والقضاء أن يبرز إلى الوجود ؟ واهتم عدد من أقدر المؤرخين أمثال وليم ستبس W. Stubbs وميتلاند W. Meit-land وتوت T.F. Tout بالبحث عن أصول النظم السياسية الانجليزية فى العصور الوسطى ، غير أن اتجاها جديداً فى تدوين التاريخ الانجليزى الوسيط بدأ يظهر فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن فى دراسات بوويك F.M. Powicke فقد ترك اهتمام هذا الباحث بمظاهر التقوى فى العصور الوسطى أثراً لايستهان به على السيرة المسهبة التى كتبها عن الملك الانجليزى هنرى الثالث Henry III الذى عاش فى القرن الثالث عشر . ونشرت هذه السيرة فى سنة ١٩٤٧ . وهى تعتبر تحولا جذريا عن تاريخ النظم السياسية . إذ يحاول هذا الكتاب تقييم هنرى الثالث ومعاصريه باعتبارهم بشراً حقيقيين لامجرد ملك ، وموظفين وبارونات ، ويصور زعماء المجتمع الوسيط على أنهم قادة تجمعهم مثل عليا مسيحية واحدة . وعلى أية حال ، فإن المدرسة الدينية الشخصية تمثلت على أفضل وجه فى التاريخ الذى كتبه نولز عن الجماعات الدينية الانجليزية فى أربعة مجلدات والذى نشر منه المجلد الأول سنة ١٩٤٠ ، ويعد هذا الكتاب واحداً من أعظم الأعمال التاريخية التى انتجتها القرائح الانجليزية منذ ماكولى Ma-caulay [٢] ، إلا أن أهميته لاتكمن فى غرضه المعلن ، وهو إيراد تفاصيل تاريخ الديرية، بقدر ماتكمن فى قدرة الكاتب الفائقة على تحديد مواقف وأخلاقيات الزعماء الدينيين فى

---

(٢) هو "توماس بابنجتون ماكولى Thomas Babington Macaulay" (١٨٠٠-١٨٥٩) كان من رأيه أن الحقائق ليست سوى نفاية التاريخ ، ولذا فإن أهم مايوجه إليه من نقد أنه لايلتزم بالحقيقة فى معالجة الماضى ، ومع ذلك حقق كتابه "تاريخ انجلترا History of England" الذى أصدره فى أربعة مجلدات (ولم يكمل الخامس بسبب وفاته) نجاحا لايبارى .

العصور الوسطى ، إذ استطاع نولز أن يحقق المقياس النقدى الذى وضعه كولينجوود Col-lingwood (٣) فيلسوف ومؤرخ أوكسفورد الذى كان لكتابه "فكرة التاريخ Idea of his-tory" تأثير قليل نسبيا فى انجلترا - فقد كان من رأى كولينجوود أن التاريخ يجب النظر إليه من داخله ، كما يجب على المؤرخ أن يكون قادراً على استرجاع المثل العليا والمواقف التى ارتبطت بشخصيات العصور الماضية .

أما النموذج الآخر للمدرسة الدينية الشخصية الانجليزية فهو سوثرن الذى خلف أستاذه بوويك كرائد لمؤرخى العصور الوسطى فى أوكسفورد .

ويقدم لنا كتاب سوثرن المسمى "تكوين العصور الوسطى The making of the Middle Ages " أهم مناحى التغير الثقافى والدينى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على نحو لم يفعله أى كتاب آخر بأية لغة ، إذ أن الكاتب أضفى على تجربة أهل العصور الوسطى صفة ذاتية حتى أننا نراه يتحدث باقتدار عن رجال الكنيسة فى القرن الثانى عشر كما لو كانوا معاصرين له وأصدقاء ، وفى كتاب سوثرن أمست تيارات التقوى العاطفية العميقة التى نقلت إلينا قيم العصور الوسطى حقيقة ملموسة ومقبولة لدى القارىء العصرى للمرة الأولى .

وبالنظر إلى جهود بوويك ، ونولز ، وسوثرن بصفة عامة يمكن أن نقول إن هؤلاء الباحثين لايوضحون الفروق الجدلية بقدر مايرسمون صورة لحضارة تتجمع فيها الظلال المختلفة للافكار والمشاعر لتكون سوياً ملامح التدين الشامل للأمم المسيحية ، ويتمثل هذا الشمول فى تقوى زعماء العصور الوسطى ومثلهم العليا ، وتتبدى النتيجة بين يدى مؤرخ قدير مثل سوثرن ، فى الصورة البالغة الجاذبية لحضارة تؤكدها الوحدة الدينية . ويتمثل النقد الواضح لأعمال هذه المدرسة فى أن نتاجها يقلل من أهمية الوزن المادى لحياة العصور الوسطى ، كما أنها تضفى على عالم الفكر الوسيط وداعة متفائلة مفرطة بحيث تغفل المنازعات العنيفة التى شهدها العصر ، والتى كانت فى الحقيقة من طبيعة المجتمع المسيحى .

---

(٣) "روبين جورج كولينجوود Robin George Collingwood" الذى اهتم بالتقريب بين الفلسفة والتاريخ ، وله كتابان فى هذا الموضوع أولهما : فكرة التاريخ The idea of history (١٩٤٤) ، وهو مترجم إلى العربية فى أسلوب رصين ممتع ، وهو من ترجمة الأستاذ محمد بكير خليل (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨) ، والثانى هو فلسفة التاريخ Philosophy of history الذى يعتبر عادة أقل من الأول فى مستواه. (المترجم)

ولم تبدأ الدراسة الأكاديمية لتاريخ العصور فى الولايات المتحدة إلا قبل الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة ، وكان من الضرورى أن تتأثر هذه الدراسة تأثراً عميقاً بالاتجاهات المشايعة للمدرسة الانجليزية التى كانت سائدة آنذاك فى أوساط المثقفين وصفوة المجتمع . فقد بدأت المدرسة الأمريكية فى تدوين التاريخ الوسيط كامتداد للمدرسة الانجليزية بدراسة النظم، وذلك بالأعمال التى كتبها تشارلز جروس ، وهاسكينز ، وماكلوين GH. Ilwoin وإلى حد مايمكن القول بأن المدرسة الأمريكية فى تدوين التاريخ الوسيط لم تستطع أن تخلص نفسها أبداً من هذا المنطق ، أما التاريخ الثقافى وتاريخ العصور الوسطى الباكرة فيتولى الأساتذة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة تدريسهما على نطاق واسع فى الجامعات الأمريكية، وكان أول ماجذب إهتمام العلماء الأمريكيين دراسة النظم السياسية والقانونية فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وتقف مساهمة المدرسة الأمريكية المهتمة بالنظم فى معلوماتنا عن التغيرات التاريخية فى العصور الوسطى على قدم المساواة ، من حيث قيمتها ، مع مساهمة أية مجموعة أخرى من الباحثين المتخصصين فى العصور الوسطى ، إذ أن هؤلاء العلماء لم يتناولوا التاريخ الوسيط بأية اتجاهات مسبقة ، بل بقصد الكشف عن الكيفية التى ساهم بها التغير التاريخى فى العصور الوسطى فى خلق بدايات الدولة الحديثة ، بيد أن البحث فى أصول الدولة الحديثة يظل مشوباً بالعديد من أوجه القصور إذا مااعتمدنا فيه على مقياس نسبى نقيم به التغيرات التاريخية التى شهدتها العصور الوسطى ، وتتميز أعمال هاسكينز وتلاميذه بمزيج غريب ومحير من الذكاء المتوقد ، والاطلاع الواسع ، والنقص الخطير فى معالجة الكثير من القضايا التى شغلت رجال العصور الوسطى أنفسهم الى حد كبير ، وقد شاب أعمال هذه المدرسة الأمريكية نوع من اللامبالاة المستترة تجاه الصراعات المضنية فى المجتمع الوسيط .

وتمثل الحتمية الاقتصادية والتكنولوجية المدخل الرابع لمشكلة التغير التاريخى فى العصور الوسطى فى الأعمال التاريخية التى صدرت فى السنوات الأربعين الماضية ، إذ أن التغيرات الاقتصادية والتصنيع المطرد للدول النامية جعل كثيراً من مؤرخى العصور الوسطى – ومن أبرزهم هنرى بيرين Henri Pirenne روبير لوبيز Robert S. Lopez وميخائيل بوستان Michael Postan ولين هوايت Lynn White – يدركون التغيرات الجذرية المتشابهة على الصعيد المادى فى أوربا العصور الوسطى . وكما أصبح الحال بشكل عام فى مجال تدوين التاريخ الأوربى والأمريكى فى العقود الأخيرة ، ساهم مؤرخو اقتصاديات العصور الوسطى

مساهمة أكبر من مساهمة أى كتاب آخرين فى نواحى الحضارة الوسيطة ، إذ أن نمط التغير فى دوائر العمل ، وطرق التجارة ، وحياة المدن ، فضلاً عن ديموجرافية وتكنولوجيا العصر الوسيط، تجرى دراستها الآن على نطاق واسع ، بيد أن السؤال مازال مطروحاً ؛ فما أهمية التطور الاقتصادى فى حضارة لم يكن فيها ملاك الأراضى وعلماء الاكليروس على وعى تام بهذه التغيرات ؟ وكيف يكون التغير الاقتصادى هاماً فى مجتمع لايتمتع بعقلية اقتصادية ؟ إن العلاقة بين التغير الاقتصادى وسائر وجوه الحضارة لاتزال فى حاجة إلى البحث والنظر . فالتغير الاقتصادى ، على الأقل فيما يتعلق بالحضارة الوسيطة ، يجب أن يبقى فى الخلفية ، لأنه قدم إطاراً محدداً استطاع رجال العصور الوسطى من خلاله أن يحسموا إختيارهم فى مجالات الدين ، والحكم ، والفن ، والأدب ... وما إلى ذلك ، بيد أن التطور الاقتصادى فى حد ذاته لم يحسم شيئاً فى هذا الخصوص .

ويعد مارك بلوك Marc Bloch أهم باحث بين العديد من العلماء البارزين الذين بحثوا فى التطور الاقتصادى فى العصور الوسطى ، لابسبب مساهماته فى التاريخ الزراعى فحسب ، وإنما بسبب المناهج والمفاهيم التاريخية التى أرسى دعائمها ، وبسبب تأثيره على جيل جديد متمكن من مؤرخى العصور الوسطى الفرنسيين . كان مارك بلوك أستاذاً فى جامعة باريس وقتله النازيون فى سنة ١٩٤٤ بينما كان يقاتل فى صفوف المقاومة الفرنسية ، وتتميز أعماله بالإيمان بأن النظم لاتكتسب أهميتها التاريخية سوى عند دراستها فى ضوء وظائفها الاجتماعية ، وهى رؤية داخلية طبقها بالفعل منذ أواخر القرن التاسع عشر الباحث الانجليزى ميتلاند فى تحليله للقانون الانجليزى فى العصور الوسطى .

وعلى الرغم من أن بلوك كان يجنح أحياناً نحو الحتمية الاقتصادية ؛ إلا أنه كان يتمتع برؤية متكاملة شاملة للتاريخ الذى يفرض استخدام كل أنماط البحث التاريخى مجتمعة من أجل فهم نموذج مجتمع بأسره . وفى محاولته إيجاد رؤية شاملة "لمجتمع إقطاعى" وربطه بدراسة مقارنة فى النظم والمؤسسات ، وفى اقتناعه بأن المجتمع شىء أكثر من مجرد تجميع شذرات هنا وهناك ، كان بلوك يتبع التقاليد التى أرساها اميل دروكهايم Emil Durkheim وعلماء الاجتماع الفرنسيون ، ويمكن بشىء من التساهل أن نشير إلى بلوك وتلاميذه على أنهم يمثلون مدرسة اجتماعية فى التاريخ الوسيط ، وثمة اقتراحات كثيرة فى كتابات بلوك تحمل قيمة كبيرة فى معالجة وبحث التغير التاريخى فى العصور الوسطى ، منها أن الدليل الوثائقى لايوضح لنا سوى خط سير المجتمع الوسيط ، وأن على المؤرخين أن يستخدموا التخيل العقلى لاسترجاع الحضارة التى مازال خط سيرها باقيا ، وان تفانى المؤرخ الذى يهتم

بالنظم فى سبيل البحث عن الأصول يعتبر مهمة خطيرة وغير مجدية لأنها تخضع العقل لفكرة واحدة فحسب ، وأن أفضل وحدة زمنية فى تقسيم التاريخ هى تلك التى تجمع رجالاً يميزهم طابع عام ؛ أى ينتمون إلى جيل واحد .

ومنذ سنة ١٩٤٥ كانت أكثر مدارس التاريخ خصوبة هى تلك التى تكونت من زملاء بلوك وتلاميذه الفرنسيين روبير برتريش Robert Boutruche وروبير لاتوش Robert Latouche وجورج دوبى George Duby وفيليب ولف Philippe Wolff الذين كرسوا أنفسهم للدراسات الاقليمية المتعمقة ، بالاضافة إلى بعض الدراسات المقارنة الشاملة مقتفين بذلك أثر بلوك . ولم يحن الوقت بعد لتقييم التأثير الطويل المدى لهذه المدرسة على فهمنا للتغير التاريخى فى العصور الوسطى ، بيد أن هناك بعض التعليقات العامة التى يمكن الخروج بها من النظر إلى كتب أصحاب هذه المدرسة ؛ ففى المحل الأول يبدو تلاميذ بلوك وأتباعه أكثر اهتماماً بالتاريخ الاجتماعى منهم بتاريخ المجتمع . وهناك اتجاه للابتعاد عن التاريخ الكلى الشامل الذى كان بلوك يعمل فى سبيل الوصول إليه ، وذلك من أجل اجتهاد أكثر تحديداً ، وأكثر قيمة فى الوقت نفسه ، ألا وهو دراسة البناء الطبقى ، ولم يخرج من فرنسا فى الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن أى كتاب هام عن الملكية الفرنسية فى العصور الوسطى ، والباحث اللامع الوحيد فى هذا المجال هو روبير فوتييه Robert Fawtier الذى ينتمى إلى جيل أكبر . وبات من الواضح أن تلاميذ بلوك وأتباعه هجروا تاريخ التعليم والفلسفة فى فرنسا القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تاركين إياه بأيدى الباحثين الكنسيين، وتكشف الدراسات الفرنسية المعاصرة عن ميل نحو جمع المعلومات من أجل المعلومات ، كما نكشف عن كراهية للتأمل العام المستمد من النظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية . وثمة خاصية مزعجة أخرى تتسم بها المدرسة الفرنسية تتمثل فى تأكيد وإبراز الاتجاه الذى ظهر بالفعل فى كتابات بلوك ، إذ لصق بهذه المدرسة العيب الذى شاب علماء الاجتماع والمتمثل فى قلة اهتمامهم بالأفراد ، وميلهم التلقائى لرؤية الأفراد باعتبارهم مجرد جزء من مجموعة ، الأمر الذى يؤدى إلى إهمال الشخصية الانسانية الحقة .

وقد يستنتج الدارس المبتدىء أثناء المقارنة بين أعمال هذه المدارس الخمس ، أنه كانت توجد خمس حضارات فى العصور الوسطى ، ويسقط فى هوة النسبية اليائسة ؛ ولكن الحيرة هى بداية الطريق إلى الحكمة ، فمن خلال هذا التنويع فى المداخل التى تتناول التاريخ الوسيط، قد يكون بوسعنا أن نخرج بتوفيق أكثر عمقاً ووجاهة وحذقاً عما كان يمكن تخيله منذ نصف قرن مضى .

ويبدو الاتجاه نحو إيجاد توفيق بين المدارس التقليدية فى التفسيرات الحديثة لعالم العصور الوسطى واضحاً فى الدراسات الحديثة ، إذ تتميز أعمال روبير لوبيز Robert Lopez التى قدمها حديثا باهتمامها بالنموذج العام للتغير الاجتماعى ، كما تتمتع بخاصية التخيل والحساسية التى كانت تميز أهم دراسات بلوك ، أما الباحثان النمساويان هاينريش فيختناو Heinrich Fichtenau وفريدريش هير Friedrich Heer فإنهما يربطان التاريخ الثقافى بالمشاكل السياسية والاجتماعية ، أما عالم كمبردج بولجار R.R. Bolgar فقد مزج فى دراسته عن التراث الكلاسيكى فى العصور الوسطى بين مدخل نولز وسوثرن وبين اتجاه المدرسة الجدلية الألمانية فى التاريخ الثقافى ، واهتمام المدرسة الفرنسية بالحقائق الاجتماعية . وعلى أية حال ، فقد ظهر فى فرنسا وبلجيكا جماعة من شباب المؤرخين أخذوا فى إعادة تقييم النظم السياسية والقانونية فى العصور الوسطى ، ولايحدد هذا التطور انعطافاً فى اتجاه الدراسات الفرنسية والبلجيكية نحو الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فحسب ، بل إنه قد ربط كذلك بين النظم السياسية والقانونية ، وحقائق الحياة الاجتماعية والحضارية وذلك فى أعمال فان كينيجيم R.C. Van Caenegem ودونت Doohndt . وفى أواخر الستينيات من هذا القرن كان هناك اتفاق جديد فى الرأى حول النموذج المعقد للتغير الذى شهدته العصور الوسطى قد بدأ يتألق فى الافق .

## ٢- فترات التاريخ الوسيط

أظهر العمل المكثف فى ميدان البحث التاريخى على مدى أكثر من قرن من الزمان بما لايدع مجالاً للشك أن رؤية الانسانيين Humanists للفترة مابين القرن الرابع والقرن الخامس عشر كفترة لاتتميز سوى بالبربرية المتخلفة المجدبة رؤية خاطئة ولايقبلها العقل ، إذ أن هذه الفترة الممتدة فى التاريخ الأوربى ، والتى تزيد فى مداها مرتين عن الفترة الواقعة مابين عصر النهضة وعصرنا الحالى ، كانت فى حقيقة الأمر فترة تغير سريع ، بل فترة تغير ثورى فى بعض الأحيان . ولاتتسم فترة العصور الوسطى كلها بالوحدة ، إذ يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات متمايزة على الأقل ، ولذا فإن مؤرخى اليوم لايتحدثون عن العصر الوسيط ، ولكنهم يتحدثون عن "العصور الوسطى" وبينما يتحدثون عن "الحضارة الوسيطة" فإنهم يجنحون إلى تقسيم تطور الحضارة الوسيطة إلى ثلاث فترات متمايزة ، وقد غدا هذا التقسيم مقبولاً اليوم فى شتى أنحاء العالم ، كما صار تقليدياً لدى المؤرخين .

أولى هذه الفترات عصر طويل جداً يبدأ من اضمحلات الامبراطورية الرومانية ، ولنقل حوالى عام ٣٠٠ حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وهو العصر الذى بدأت فيه ملامح حضارة غربية متمايزة تظهر فى خلفية الصورة . ويستطيع المرء أن يدرك هذه الملامح فى تصادم الأفكار والنظم المسيحية واليونانية - الرومانية ، والجرمانية ، ولنأخذ بالصيغة المفضلة فنقول إن العصور الوسطى الباكرة هى مرحلة الطفولة والشباب ، أو ربيع العمر بالنسبة للحضارة الغربية ، وهى فترة تتسم بقدر كبير من الفوضى والاضطراب ، حيث ابتليت أوربا الغربية بالتمزق الداخلى والغزو الخارجي المستمر على أيدى الشعوب المتحالفة التى كانت فى الغالب أقل شأناً فى مستواها الحضارى ، ويرجع الفضل إلى حد كبير لزعامة الكنيسة فى نضال هذه الحضارة فى سبيل تطوير مثلها العليا ، ثم ماتحتم عليها من مواجهة المهمة الأصعب المنوطة بها ؛ وهى تطوير النظم والمؤسسات التى كان لها أن تجسد وتنشط هذه المثل العليا فى الحياة اليومية .

وبغروب شمس القرن الحادى عشر كانت معظم هذه الأفكار قد تحققت ، وتمثلت نتيجة ذلك فى انتعاش أوربا وازدهارها الملحوظين فى مجالات الفن والأدب والفلسفة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر اللذين يمثلان سويا مايسميه المؤرخون اليوم العصور الوسطى العالمية high middle ages وقد أثبت البحث المتزايد المطرد أن هذه الفترة المثمرة الناضجة المستقرة كانت قصيرة للغاية ، ومن المؤكد أنه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ظهر الصراع بين المثل القديمة والممارسات الجديدة ، وهو مايعتبر مؤشراً على تدهور أية حضارة .

وتمثلت نتيجة الفجوة التى تفصل بين المثل العليا والواقع فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذين يسميهما المؤرخون العصور الوسطى المتأخرة Larer middle ages وهى فترة أشبه ماتكون بسن الشيخوخة أو خريف وشتاء الحضارة الوسيطة ، ففى هذه الفترة تمزقت أوربا بالفوضى ، والانحلال الاقتصادى والسياسى ، حتى بدأت مُثل العصر الحديث ونظمه تظهر فى نهاية القرن الخامس عشر على أساس الدولة الحاكمة ، والقومية ، والفردية . ومن ثم فإن دراسة التاريخ الوسيط تقدم لنا حالة ممتازة نتتبع فيها نهوض حضارة من الحضارات ونرقب ازدهارها وأفولها ، وفيما يتعلق بأوربا العصور الوسطى فإن الوثائق اللازمة لدراسة تاريخها أكثر منها فى تاريخ أية حضارة أخرى أتمت تطورها واتضح نموذجها من حيث النمو والنضج ثم التدهور والاضمحلال أمام ناظرى من يدرسون المجتمع والحضارة .

ومع عدم إغفال قيمة مثل هذا التقسيم التقليدى لفترة العصور الوسطى ، وفعاليته العامة، فإن هذا الكتاب سوف يستخدم تقسيماً إضافياً أكثر جدوى ودقة من التقسيم التقليدى ، إذ أننا نبدأ بمناقشة اضمحلال حضارة البحر المتوسط ، وبزوغ الكنيسة المسيحية حتى القرن الرابع ، وهذه هى فترة الأسس اللاتينية والمسيحية لحضارة العصور الوسطى (الجزء الأول) ثم مناقشة ظهور مجتمع جديد متمايز فى العصور الوسطى فى الفترة من سنة ٤٠٠ حتى سنة ٧٢٥ ، وينبغى هنا أن نركز اهتمامنا على الأسس الجرمانية للحضارة الأوربية وتأثير التوسع الإسلامى (الجزء الثانى) ويلى ذلك من سنة ٧٢٥ حتى سنة ٩٠٠ عصر واعد بالكثير وإن لم يتحقق كل شىء . وهذا هو العصر الذى تحقق فيه أول توفيق بين المنابع اللاتينية والمسيحية والجرمانية ، ذلك التوفيق الذى خلق أوربا الأولى ، ومن الواجب أن نفحص مميزات أوربا الأولى هذه بالمقارنة مع حضارتين منافستين ومعاصرتين هما حضارة بيزنطة وحضارة الإسلام (الجزء الثالث) وفى فترة التوازن والتقدم الناجحة بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ أمكن تلاشى أخطاء أوربا الأولى ، وفى خلال هذا العصر بدأت نظم أوربية كثيرة فى الظهور (الجزء الرابع) وعلى كل حال ، فقد إنهار التوازن الذى شهدته العصور الوسطى خلال الفترة من سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١١٣٠ نتيجة لأزمة الوعى بين الكثيرين من زعماء الكنيسة . ويجدر بنا أن نفهم الصراعات الكبرى فى ذلك العصر الذى تميز بالاصلاح الجريجورى باعتباره نقطة تحول أساسية فى التاريخ الوسيط (الجزء الخامس) . بيد أن المشتركين فى تلك الصراعات سرعان ما أفسحوا الطريق أمام جيل جديد ، وتميزت الفترة من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١٢٠٠ بالنمو العظيم فى جميع نواحى الحياة ولاسيما فى الشئون الدينية ، والدراسات الإنسانية ، والسلطة الزمنية ، وينبغى أن نفحص بالتفصيل ماتحقق من إنجازات وأن ندرس الرجال الذين كانوا يقودون هذه التطورات (الجزء السادس) . ولكن ما أن أهل عام ١٢٠٠ حتى كانت نتائج النمو الذى شهده القرن الثانى عشر قد باتت واضحة ، وحينذاك بدأت محاولات يائسة من قبل قادة الفكر والسياسة الأوربيين لوضع الاتجاهات والميول المتعارضة المتنافرة فى صيغة متوازنة جديدة. وكانت الفترة من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٢٧٠ فترة تلخيص النتائج وتنظيم الأمور أكثر منها فترة خلق وابتكار (الجزء السابع) ، إلا أن هذه الجهود الجبارة أخفقت فى تجنب الصراع الذى تمثلت نتائجه فى المواجهات العنيفة المدمرة فى الفترة مابين سنة ١٢٧٠ وسنة ١٣٢٥ . وحينئذ إنقطع إتصال الأزمنة ، وإتضح عمليا الاضمحلال والفشل (الجزء الثامن) . أما الفترة الختامية فى التاريخ الوسيط فتهتم بالعصر الذى يمتد من سنة ١٣٢٥ حتى سنة

١٥٠٠ ، وهى فترة تميزت بالحروب ، والأوبئة ، والتدهور الاقتصادى ، فضلاً عن الخصومات الدينية والفكرية المريرة ، وبعض ملامح العصر الحديث (الجزء التاسع) .

وفى هذا التقسيم الجديد للتاريخ الوسيط نجد أن الأجزاء الأربعة الأولى تختص بالعصور الوسطى الباكرة والأجزاء الأربعة التالية تختص بالعصور الوسطى العالمية والجزء التاسع والأخير يختص الفترة الوسيطة المتأخرة .

## ٣- موضوعات التاريخ الوسيط الباكر

إذا ماتحولنا الآن صوب العصور الوسطى الباكرة ، فإنه سيكون من المفيد أن نؤكد ثلاثة موضوعات سيتم التركيز عليها فى الأجزاء من ١-٤ من هذا الكتاب .

وقد تم اقتراح الموضوع الأول بالفعل ، إذ كانت فترة العصور الوسطى الباكرة فترة ظهور حضارة غربية متمايزة ، وتشكلت المثل العليا التى ميزت الحضارة الأوربية الغربية من خلال ميراث العالم القديم فى ظل الظروف الجديدة ، وسوف نرى الناس فى العصور الوسطى يناضلون فى سبيل صياغة هذه المثل العليا منذ القرن الثامن ، وستتولى الكنيسة زمام هذا العمل لأنها كانت المؤسسة الوحيدة التى تتمتع بالقدر الكافى من القوة بحيث تستطيع القيام بدور القيادة المطلوبة ، وبحلول عام ٨٠٠ ، أثناء حكم شارلمان ، تمت صياغة الشطر الأكبر من هذه المثل العليا ، التى بدأت تؤثر فى كل مناحى الحياة السياسية والاجتماعية ، وعلى أية حال ، فإن القرن الحادى عشر لم يكد ينتهى حتى كان لدى أهل العصور الوسطى الوسائل الكافية لوضع مثلهم العليا موضع الممارسة بشكل ثابت وعلى نطاق عالمى فى إطار معقول .

أما الموضوع الثانى الذى نقصد بحثه فهو تأثير الكنيسة المسيحية والملكية الجرمانية المتبادل على كل منهما ، وهو مايقودنا إلى بحث المشكلات الناجمة عن علاقات الدولة والكنيسة ، تلك المشكلات التى لايزال بعضها قائماً حتى اليوم ، ومن ثم يجب علينا فحص عقائد وسلطة كل من الكنيسة والملكية والكيفية التى تؤثر بها كل منهما فى الأخرى .

وفى نهاية المطاف ، سنولى اهتمامنا لا لأوربا الغربية فقط ، ولكن أيضاً لعالم البحر المتوسط بأسره ، وسننظر إلى الحضارتين اللتين فرضتا وجودهما بجانب الحضارة الأوربية ، ونعنى بهما الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية باعتبارهما خليفتين للامبراطورية الرومانية فى حوض البحر المتوسط وسنقتفى أثر النضال الذى خاضته الحضارة الأوربية ضد هاتين الحضارتين من أجل البقاء أولاً ، ثم من أجل السيادة والتفوق .

من أين تبدأ دراستنا لقصة حياة وموت حضارة العصور الوسطى ؟ لقد تركت الدراسة الحديثة كلاً من البداية والنهاية مسألة تقديرية غير محددة . ولكن نفهم حضارة العصور الوسطى ، وكيف صارت على ماهى عليه ، ينبغى أن نحدد أصولها فى فترة تدهور العالم القديم بشكل واضح . ومن ثم فإن البداية الصحيحة للعصور الوسطى تبدأ بالأمبراطورية الرومانية واضمحلالها بعد مرحلة ازدهارها التى شهدها القرن الثانى بعد الميلاد .

# الجزء الأول
# المصير الرومانى
# من القرن الثانى حتى القرن الخامس

إن المصير الامبراطورى يسير باتجاه
صعب سوى فرقة أعدائنا .

**تاكيتوس**

إن العالم الرومانى يسقط ، ومع ذلك
فإننا نرفع رؤوسنا بدلاً من أن نحنيها .

**سان جيروم**

# الفصل الأول
# الاضمحلال والسقوط

## ١- الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد

كان ادوارد جيبون يعتقد أن الناس عاشوا أسعد أيامهم تحت حكم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد . وفى وسعنا أن نقوم بمناقشة معقولة للرأى القائل بأن ذلك العصر كان هو العصر الذهبى للانسان ، إذ أن الرومان لم يكونوا على قدر عظيم من الابداع ، وإنما كانت براعتهم تنحصر فى أنهم تبنوا أفضل أفكار عالم البحر المتوسط ونظمه ثم مزجوها فى نظام عضوى مترابط ، فعن حكام عالم البحر المتوسط السابقين أخذ الرومان الأفكار والنظم ثم صاغوها فى حضارة عالمية جديدة ، وساهم المصريون ، والأغريق ، والامبراطورايات الهلينستية والفرس جميعا مساهمة فعالة فى الحضارة الرومانية التى شهدها القرن الثانى ، ولاحظ الشاعر فرجيل Vergilius صاحب الإينيادة ، التى كانت تعبيرا واعيا عن أيديولوجية الحكم الامبراطورى ، أن "بناء الدولة الرومانية كان عملا عظيما " والواقع أن الرومان القدماء كانوا هم وحدهم بين كل شعوب البحر المتوسط الذين يتمتعون بصفات التضحية بالنفس ، وجنون العظمة ، وانعدام الرحمة والقسوة بالقدر الذى جعلهم يخلقون إمبراطورية عالمية .

ففى مطلع القرن الثانى كان الامبراطور الرومانى يحكم دولة عالمية عظمى تمتد من الفرات حتى استكتلنده ، ومن الدانوب حتى الصحراء . وفى هذه المنطقة عاشت مجموعات جنسية ولغوية وحضارية تتباين فيما بينها تباينا كبيراً ، ولكن اللغة اليونانية الهللينستية كانت هى اللغة السائدة فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، بينما كانت اللغة اللاتينية سائدة فى الغرب . وعلى قمة هذا الصرح الضخم تربع الامبراطور الذى كان فى القرن الثانى حاكما مستبدا تحيط به مظاهر تخلع عليه صفات مقدسة . وارتكزت حكومته على بيروقراطية نشيطة متواضعة فى حجمها وجيش كبير . وكان الأباطرة بشكل عام رجالا ذوى كفاءة خلقوا السلام الرومانى Pax Romana؛ وهو عبارة عن وحدة اقتصادية وسياسية شاسعة الأبعاد مركزها البحر المتوسط الذى قامت فى بلدانه مدن عظمى ، وكان الجزء الغربى من الامبراطورية، باستثناء ايطاليا ، أقل سكانا وتحضرا من النصف الشرقى . ولكى نفهم حوادث السنوات الألف التالية ، فإنه يجدر بنا أن نخلص أنفسنا من المفاهيم المسبقة عن تاريخ أوربا ، وهى المفاهيم التى كانت نتاجا لتطورات العصور الوسطى . أما شمال فرنسا وانجلترا ، اللتان

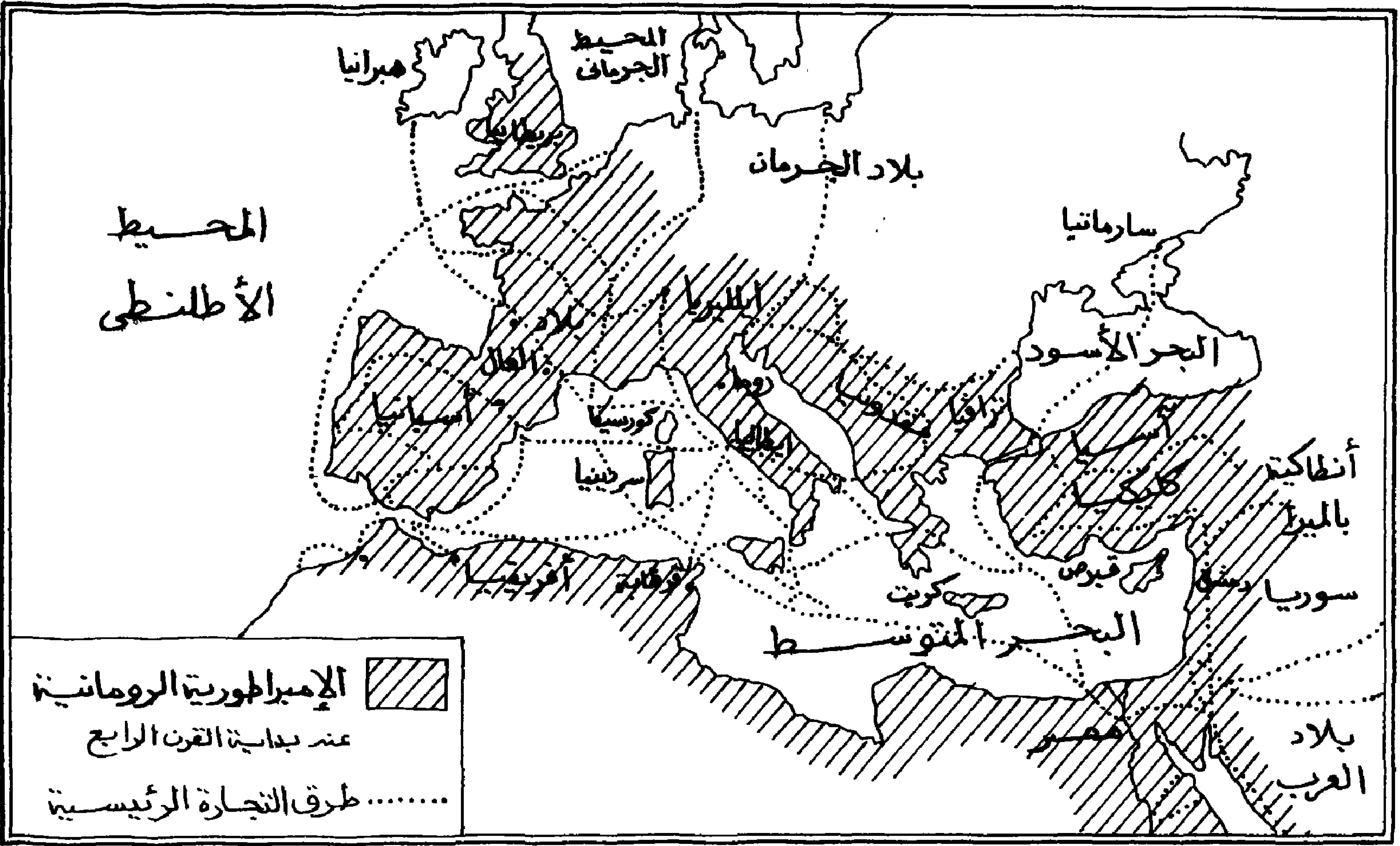
قدمتا الكثير من القيادات فى مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة الغربية ، فقد كانتا مجرد مركزى استطلاع خلفيين للعالم الرومانى .

وحتى وقت متأخر من القرن الثانى كان الامبراطور يسيطر على الحكومة والقانون ؛ ولكنه لم يكن يتدخل فى الحياة الاقتصادية والدينية والثقافية سوى بقدر محدود ، وأدى هذا التحرر من السيطرة الامبراطورية إلى الازدهار وممارسة كل أنواع التعبير الفكرى . وعلى أية حال ، يجب الاعتراف بأن الامبراطور كان يفتقر إلى الأداة البيروقراطية الكبيرة التى تمكنه من السيطرة على مقاليد الحياة الاقتصادية والثقافية . ولكن على الجانب الايجابى كان ازدهار الامبراطورية يتوقف إلى حد ما على انتشار المثل العليا للصالح العالم بين أفراد الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية . وقد أعلن فرجيل أن واجب الامبراطورية أن "تأخذ بيد المتواضعين وتسحق أبناء الكبرياء" وتكلم داعية آخر من دعاة الحكم الامبراطورى هو الشاعر هوراس Horasius كلاما مماثلا . وليس هناك فصل مجيد فى التاريخ الرومانى مثل الفصل الذى انتشرت فيه الدماثة الانسانية Humanitas بين أولئك الأجلاف الأنانين الذى قهروا عالم البحر المتوسط . وكان الأغريق على وجه الخصوص من بين كل الشعوب المغلوبة ، هم الذين لقنوا سادتهم الجدد المثل العليا الرواقية التى تدعو إلى الإخاء بين شعوب العالم ، كما تدعو إلى إيثار الغير ونكران الذات من أجل رفاهية الإنسان والدولة العالمية . وفى القرن الثانى صارت الفلسفة الرواقية فلسفة واسعة الانتشار بين أفراد الطبقة الارستقراطية وفى أوساط المتعلمين ، كما أثرت على تطور القانون الرومان إلى حد كبير ، وبحلول عام ٢١٢ أصبح كل الأهالى الأحرار فى الامبراطورية مواطنين فى روما [١] (كان لايزال هناك عدد كبير من العبيد) وتم تنفيذ هذا الإجراء بمقتضى القانون الرومانى ، كان الرومان مجددين فى مجال القانون ، إذ أنهم أبدعوا واحدة من أحسن مجموعات القوانين فى العالم ، وكانوا يعتقدون أن كل المواطنين مهما كانت أعرافهم يستظلون بحماية قانون موحد .

كانت هناك جوانب كئيبة فى حياة العالم الرومانى يفضل علماء الدراسات الكلاسيكية أن يغفلوها على الدوام ، فقد كانت هناك جموع غفيرة من العبيد ، وأحياء فقيرة شاسعة تكتظ بالسكان ، واستشرى هناك الفقر المدقع والشذوذ لجنسى، ومع ذلك تبقى حقيقة لانختلف

---

(١) هذه الاشارة إلى القانون الذى منح به الأمبراطور كاراكلا (٢١١-٢١٧) حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار فى الامبراطورية الرومانية . (المترجم)


هبرانيا
المحيط الجرماني
بريطانيا
بلاد الجرمان
سارماتيا
المحيط الأطلنطي
بلاد الغال
إلليريا
البحر الأسود
أسبانيا
روما
مقدونيا
تراقيا
كورسيكا
إيطاليا
آسيا
سردينيا
كليكيا
أنطاكية
بالميرا
قبرص
أفريقيا
نوميديا
كريت
سوريا
دمشق
البحر المتوسط
مصر
بلاد العرب
الإمبراطورية الرومانية
عند بداية القرن الرابع
طرق التجارة الرئيسية

عليها وهى أن الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى قدمت صورة لحضارة مشرقة انتشرت فيها المدن المزدهرة ، وعمت فيها الخدمات الصحيحة ، وسيطرت فيها الإدارة الحاذقة ، والنظام القانونى الذى لايبارى ، فضلا عن النشاط الثقافى المزدهر ، وثمة طريق سلمى آمن فعال كان مفتوحا فى القرن الثانى أمام أبناء الطبقة الوسطى والارستقراطية فى الامبراطورية الرومانية. وبالرغم من ذلك بدأ اضمحلال الامبراطورية منذ نهاية القرن الثانى .

## ٢- أزمة العالم الرومانى

عُرفت مشكلة سقوط الامبراطورية الرومانية بأنها أكبر مشكلة فى التاريخ ، لأنها جزء من المشكلة المتعلقة بالأسباب التى تؤدى إلى إخفاق أية حضارة من الحضارات . ولهذا السبب حاول كثير من المؤرخين اكتشاف عيوب الحضارة الرومانية وتمثلت نتيجة هذه المحاولة فى عدد كبير من الاستنتاجات .

كانت روما فى قمتها فى القرن الثانى ، ولكن عيبا أساسيا كان كامنا فى بنائها السياسى، فلم يكن ثمة مبدأ محدد لطريقة ولاية العرش الامبراطورى . فقد كان اعتلاء العرش فى القرن الثانى يتم بالتعيين من قبل الامبراطور السابق ؛ إلا أن هذا النظام انهار فى القرن الثالث ، وهو ما أدي إلى صراع مرير لعب فيه الجيش دورا كبيرا تسبب فى الأضطراب وعدم الاستقرار . وكانت الفوضى هى النتيجة المتوقعة إذْ أخذت كل فرقة من فريق الجيش تحاول إجلاس قائدها على عرش الامبراطورية . وفى النصف الأخير من القرن الرابع تقرر مبدأ وراثة العرش ، وهو المبدأ الذى ساد فى الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى . وقد نشبت قبل استقرار هذا النظام ، حروب أهلية وثورات متوالية ، وكان احتمال تمرد الجيش يهدد الامبراطور على الدوام . وبالرغم من أن روما أنجبت الكثيرين من رجال الدولة والسياسيين ورجال القانون، شأن سائر دول العالم القديم ، فإنها فشلت فى انجاز ثورة صناعية . ولهذا السبب تفاقمت الأزمات الاقتصادية فى أواخر القرن الثانى ، فقد بقيت الأساليب الصناعية على حالتها ؛ ومعنى ذلك أن الصناعة ظلت معتمدة على العمالة اليدوية ، ولم يتم تطوير سوى عدد قليل من الآلات بعد بداية العصر المسيحى ، وبالرغم من أن الاغريق عرفوا فكرة الآلة البخارية ، فإنها لم تستخدم فى الصناعة على الاطلاق فلماذا كان الفشل فى تطبيق العلم على التكنولوجيا ؟ كان هناك خطأ ما فى الفلسفة السائدة بين القادة الارستقراطيين الذين لم يحبذوا مثل تلك الأساليب ، ولم يكن هناك دافع قبل نهاية القرن الثانى يحث على اكتشاف مصادر جديدة للطاقة ، كما أنه لم تكن هناك حاجة لذلك طالما أن طاقة العبيد

المجلوبين من البلدان المستعمرة كانت كافية للانتاج ، وكان يمكن مضاعفة الانتاج عن طريق مضاعفة عدد العاملين من العبيد، كما أن سهولة الحصول على الطاقة الانتاجية من أعمال العبيد لم تشجع على اختراع آلات أو أساليب صناعية جديدة . ولذلك يمكن القول بأن الخطأ الجوهرى فى نظام الاقتصاد الرومانى كان ماثلا فى نظام العمالة .

وفضلا عن عدم تشجيع البحوث الصناعية والتطوير التكنولوجى فإن تشغيل العبيد حدد نوعية السلع المنتجة ؛ فقد أدى الانتاج البسيط نسبيا إلى سهولة التقليد ، كما وقف عقبة فى تطوير المنتجات . فعلى سبيل المثال كانت الملابس المنتجة سهلة التقليد بسبب بساطة تصميمها ، وتقدم صناعة الفخار مثالا آخر على سهولة تقليد السلع البسيطة . فالواقع أن صناعة الفخار اليونانية القديمة واجهت منافسة من جنوب بلاد الغال فى القرن الثانى ، وأدت هذه الحال إلى عدم انتعاش التجارة الخارجية لعدم وجود المنتجات المحلية الجيدة ، وبدلاً من التوسع فى تنشيط التجارة الخارجية كان هناك اتجاه متزايد نحو الاكتفاء الذاتى ، أى الانتاج من أجل الاستهلاك المحلى والاستغناء عن الاستيراد من الولايات الاخرى ، واذا كانت هناك بعض المحاولات الناجحة لإحياء التجارة الخارجية فى القرن الرابع ، فإن الامبراطورية الرومانية، كوحدة اقتصادية كانت قد بدأت فى التحلل والتفكك باطراد منذ أواخر القرن الثانى بشكل عام .

ومع ذلك فإن الرغبة المستمرة فى الحصول على السلع الترفيهية أبقت على التجارة مع العالم الواقع فى شرق الامبراطورية ، ولما لم يكن لدى روما من السلع الجيدة ما تقايض به على السلع الشرقية الفاخرة ، فقد كان عليها أن تدفع ثمن هذه السلع الشرقية بالنقد . ومن ثم كان هناك نزيف ملحوظ للذهب فى اتجاه الشرق ، مما أحدث صدعا فى نظام الامبراطورية الاقتصادى ، وهكذا كان الاقبال على استيراد البضائع الفاخرة من الشرق مؤشرا لإخفاق الرومان فى تثبيت نظام اقتصادى سليم . لقد كان للرومان فى الماضى نظام نقدى ثابت ، ولكن أباطرة القرن الثالث خفضوا قيمة العملة فى محاولة لتدعيم مالية الدولة ، ولم يدرك أغلب الأباطرة أن مثل هذا الاجراء لابد أن يؤدى إلى ارتفاع الأسعار ، لأنهم لم يفهموا هذه الأمور على أنها تضخم .

وكانت تقابل عيوب الامبراطورية فى مجالات التجارة والصناعة والمالية أزمات فى الحياة الزراعية ، فقد كانت الزراعة فى زمن الجمهورية تعتمد على صغار المزارعين الذين كانوا يمثلون العماد السكانى ، والذين قدموا للجمهورية قيادات فى المجالات السياسية والعسكرية . ومنذ

القرن الأول قبل الميلاد بدأت المزارع الصغيرة تتراجع أمام اللاتيفونديا Latifundia، وهى الضياع الكبيرة التى كانت تعتمد على عمالة العبيد ، والتى تعد الأساس لإقطاعيات العصور الوسطى . والحقيقة أن تشغيل العبيد كان يتم بصورة سيئة للغاية ، وكان صغار المزارعين ينزحون إلى المدينة ، بينما كان العبيد يواصلون العمل فى الأرض ، وكان مالك الضيعة هو الذى يجنى وحده الأرباح والمكاسب . وهذا النحو الذى سارت عليه الحياة الزراعية كان له أثر بعيد المدى على الحياة العسكرية ، لأن المواطنين الذين يعملون بالزراعة كانوا يشكلون العمود الفقرى للجيش الجمهورى والفرق العسكرية فى عهود الامبراطورية الأولى ، ولذلك فما أن حل القرن الثانى بعد الميلاد حتى برزت إلى الوجود مشكلة الحصول على الجنود اللازمين لتكوين جيش يعتمد عليه .

ويبدو أن الامبراطورية فى عهودها الأخيرة عانت من تدهور فى عدد السكان ، وهو التدهور الذى كان نتيجة لانتشار الأوبئة على الرغم من أن مشكلة القوة البشرية كانت نتيجة عوامل اجتماعية أكثر من كونها نتيجة عوامل ديموغرافية (سكانية) ، لأن الامبراطورية كانت فى عام ٣٠٠ تضم عددا يتراوح بين خمسين وسبعين مليون نسمة ، وهو عدد كبير يكفى للاحتفاظ بجيوش قوية ، غير أن الأباطرة كانوا يخشون تزويد الفرق العسكرية بأبناء الطبقة الارستقراطية حتى لايحاولوا الاستيلاء على الحكم . كما أن أبناء الطبقة المتوسطة لم يكونوا يرغبون فى ترك أعمالهم ، وكانوا شغوفين بأى شىء سوى الالتحاق بالخدمة العسكرية . ويبقى هناك مصدران للقوة البشرية : العبيد وبروليتاريا المدن ، والأعداء الرابضون على الحدود الشمالية ونعنى بهم العشائر الجرمانية . لقد كان الجرمان يريدون الأخذ بأسباب الحياة فى عالم البحر المتوسط ، وفى أواخر القرن الثانى بدأ الأباطرة فى توطين القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية لتكون حزام أمن ضد القبائل الجرمانية الأخرى . ومُنح هؤلاء المتحالفون الأرض والامتيازات فى مقابل هذه الخدمة . أما المتاعب التى نجمت عن هذه السياسة فقد كانت كامنة فى زعماء الجرمان ، إذ ارتقى هؤلاء الرجال وتولوا مناصب قيادية عليا فى الجيش الامبراطورى وكادوا يستولون على العرش على حين كانوا يتوانون عن مهاجمة أبناء عشائرهم من الجرمان ، فقد كشف تاريخ الغزوات الجرمانية عن خيانة بعضهم للامبراطور .

كانت المشكلة النهائية للامبراطورية تتمثل فيما أصابها فى الصميم ، فقد تدهورت روما نفسها كمركز اقتصادى ، بينما ظلت مركزا للحكم ، وبحلول عام ٤٠٠ كانت روما تغص بشراذم الغوغاء التواقين إلى التمرد والإخلال بالأمن . واضطر الأباطرة فى بعض الأحيان إلى مقابلة العنف باجراءات بالغة القسوة ، واضطروا فى أحيان أخرى إلى استمالة الرعاع بحفلات السيرك وعطايا القمح .

وعند وفاة ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius فى سنة ١٨٠ بدأت فترة عمت فيها الفوضى صفوف الجيش ، وسادها تدهور اقتصادي شديد ، وعلى مدى خمسين سنة (٢٣٥-٢٨٥) تعاقب على ولاية العرش ثمانية عشر امبراطورا كان جل اهتمامهم موجها إلى إغداق الأموال على الجنود ، بل إن واحدا من الأباطرة[٢] نادى صراحة بهذه السياسة ، وأسداها نصيحة إلى خليفته وهو على فراش الموت . واستمرت قيمة العملة فى الهبوط ، وأخذت تظهر علامات الفشل على برنامج السلام الرومانى ، وسرعان ما اخترق الجرمان مواقع الدفاع على طول الحدود ، ونشط القراصنة فى البحار . ولكن بالرغم من ذلك ظل المثل الامبراطورى الأعلى ماثلا فى الأذهان ، واستطاعت الامبراطورية أن تصلح من شأنها من جديد بعد أن عادت إلى سياسة المركزية فى عهد دقلديانوس وقسطنطين من سنة ٢٨٤ حتى سنة ٣٣٧ .

ورأى دقلديانوس، الذى كان قائدا بلقانيا من أصل ريفى ، أن الأوقات العصيبة التى تمر بها الامبراطورية تتطلب القيام باجراءات حاسمة ، فعمل على إصلاح النظام الاقتصادى ، وأقام نظاما مركزيا على غرار النظام المصرى القديم ، وجاء قسطنطين ليضع اللمسات الأخيرة فى هذا الصرح الضخم ، إذ أن دقلديانونس رفع الامبراطور إلى مكانة مقدسة على الطريقة الشرقية ؛ من حيث العرش المرتفع ، والتيجان ، والثياب الأرجوانية ، هذا الرفع المادى والمعنوى للمنصب الامبراطورى أعاد للامبراطور كثيرا من هيبته . فقد كان تأثير هذه الاجراءات عظيما على الناس ذوى التعليم البسيط والتفكير المتواضع ، ودعم دقلديانوس البيروقراطية بجهاز من الشرطة السرية والمخبرين ، كما فرض عقوبات تصل إلى حد التعذيب على المخالفين ، وعمل على الحد من امتيازات المدن التى كانت تتمتع فى أرجاء الامبراطورية بما يشبه الحكم الذاتى ، وغدت جميع المدن بذلك خاضعة للحكم المركزى ، وصدر مرسوم إمبراطورى فى محاولة لتثبيت الأسعار . وحتى فيما يتعلق بشئون الكنيسة صارت الكلمة النهائية للامبراطور . وأدى ذلك كله إلى إنعكاش اقتصادي محدود قام فى معظمه على أساس الثقة التى أشاعها تداول العملة الجديدة ؛ مما جعل معدل التدهور والاضمحلال أكثر بطئا ، بيد أنه قضى بذلك على رخاء الطبقة الوسطى بواسطة ما استحدثه من ضرائب لتمويل الجيش والجهاز البيروقراطى . واقتضى النظام الضريبى القاسى أن يضطلع أبرز رجال الأعمال (وهم مستشارو المدن Curials) بمسئولية جمع الضرائب فى مدنهم ، وتعين عليهم أن

---

(٢) هو الامبراطور سبتميوس ساويرس Septimius Severus ١٩٣-٢١١م الذى قال لأبنائه "إغدقوا المال على الجنود ، ولاتلقوا بالاً لغيرهم" . (المترجم)

يسددوا أى عجز من ذمتهم ، وبفضل هذا النظام البالغ القسوة وغيره من الالتزامات - مثل إجبار الرجل على البقاء فى مهنة أبيه ، وعلى دفع ضريبة ثابتة القيمة بغضّ النظر عن حالته ودرجة ثرائه - أجّل الامبراطوران المصلحان إنهيار الامبراطورية النهائى . ذلك أن اصطلاحات دقلديانوس وقسطنطين حفظت كيان الامبراطورية من السقوط على مدى قرن من الزمان إلى أن صارت الكنيسة قوية بالقدر الذى يمكنها من تولى قيادة المجتمع فى القرن الخامس . وعلى أية حال ، فقد كان الدواء ، الذى وصف للامبراطورية ، أكثر سوءا من الداء .

فى تناولنا لمختلف النظريات التى عالجت تدهور الامبراطورية وسقوطها ينبغى علينا أن نحدد بدقة ماهو المقصود . إذ يجب علينا أن نوضح ما إذا كان المقصود هو تدهور الحضارة ، أم المثل الأعلى ، للامبراطورية ، أم الدولة الرومانية ذاتها . لقد أثار اضمحلال الامبراطورية ، باعتبارها حضارة ، الجدل الأكبر بين المؤرخين . وفى وسعنا ، من غير شك ، أن نستبعد الأسباب المنافية للعقل مثل تلك التى ترجع سقوط الامبراطورية الى موجات وباء الملاريا ، وأن نتجاوزها إلى نظريات أكثر عمقا حول تدهور الحضارة الرومانية .

يوضح بعض الباحثين أن روح الحضارة القديمة نمت وتقدمت فى المدينة - الدولة City-State ومع التدهور الحضرى المطرد ، انهارت الحضارة وتلاشت روحها . ومن الممكن أن يكون هذا التفسير سليما ، ولكنه يهتم بالسببية الوسيطة فقط ويهمل الأسباب النهائية . فما الذى أدى إلى تدهور الحضارة ؟ وثمة نظرية أخرى تقول إن الاستشراق هو سبب الانهيار الرومانى ، لقد كان هناك بالفعل استشراق عن طريق التزاوج ، ولكن التغير الذى نتج عن ذلك لم يكن ذا بال وأهم من ذلك بكثير هو الاستشراق الأخلاقى والثقافى ؛ أى تسرب روح جديدة وحضارة جديدة من الشرق إلى كيان العالم الرومانى . وهذه النزعة الصوفية الجديدة جعلت الناس يتخلون عن اهتمامهم بأمور هذا العالم . ومن الواضح أن ثمة تغير فى قيم العالم الرومانى ومثله قد حدث بين عام ١٥٠ وعام ٤٠٠م ، ونتج عن ذلك أن افتقد المجتمع العناصر القيادية الحقة ، فالرجال الذين كانوا يتمتعون بمقدرة عظيمة ، مثل أمبروز Ambrose وأوغسطين Augustine ، كان من الممكن أن يعتركوا الحياة السياسية لو لم يكرسوا أنفسهم لخدمة الكنيسة ، وهم الذين كانوا سيوفرون الزعامة التى افتقرت إليها الامبراطورية .

يرى ميخائيل روستفتزف Michael Rostovstzeff ، أعظم مؤرخى الامبراطورية الرومانية ، أن تمرد الجماهير هو سبب التدهور . إذ أن أفراد الطبقات الدنيا من الكادحين والعبيد - أو ذرياتهم على الأقل - ارتقوا إلى أعلى المناصب وتمكنوا من السيطرة على الجيش

والحكومة ، ولم يكن لهذه الطبقات بطبيعة الحال حظ من التعليم فى العصور الكلاسيكية كما كان مفهومهم عن المثل الأعلى الامبراطورى غامضا ، ولم يكن لديهم الوعى الكافى لاحترام حرية الفرد والقانون . هؤلاء الرجال ذوو الأصل المتواضع والمجهول وصلوا الى مواقع السلطة فى القرنين الثالث والرابع ، وعجزوا عن فهم تقاليد الصفوة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية فى القرن الثانى . ولم تستطع حضارة الصفوة التى عرفها العالم القديم أن تقاوم استقطاب الجماهير لها . ويكمن الضعف فى تفسير روستفتزف فى أنه يقدم صورة واضحة قاطعة "للجماهير" فى مواجهة "الطبقات" . لقد حدث بالفعل أن تولى السلطة فى أواخر عصر الامبراطورية رجال من الكادحين والفلاحين ، رغم بقاء الكثيرين من أفراد الطبقة الارستقراطية فى المناصب الحكومية ، الا أن هؤلاء القادة الجدد للطبقة الدنيا لم تكن لديهم أية رؤية طبقية خاصة ، ومن المؤكد أنهم لم يعتبروا أنفسهم قائمين بثورة طبقية .

وفى العصر الحديث لاقت آراء أرنولد توينبى قبولا واسعا . ويقدم لنا توينبى تفسيرين أولهما : أن تدهور الحضارة القديمة بدأ منذ الحرب البلوبونيزية ؛ وما تاريخ الامبراطورية بأسره إلا خاتمة لإخفاق الحضارة اليونانية . وثانيهما ، أن الحضارة الرومانية ، شأنها شأن كل الحضارات فشلت فى استجابتها للتحدى ، وكل مافى الأمر أن استمرار هذا الفشل أدى إلى أن تبوأت الكنيسة المسيحية مكانتها ، وأن أصبحت الديانة المسيحية بمثابة الشرنقة التى سوف تخرج منها حضارة أوربا القادمة . وبينما تبدو النظرية الأولى غير معقولة . فإن الثانية تحصيل حاصل ، برغم أنها نظرية مفيدة وتفسر سبب التدهور إلى حد ما . الا أن مجرد وصف ماحدث فى عبارات فضفاضة لايعتبر شرحا للسبب .

وأخيرا ، فإننا قد نأخذ فى اعتبارنا نظريات أخرى ثلاث عن أسباب إنهيار الحضارة الرومانية ، ولكنها نظريات تحمل فى طياتها بذور الحقيقة . تتعلق النظرية الأولى بوجهة نظر الأخلاقيين فى العصر الفيكتورى عن فساد الحياة التى عاشتها الطبقة الحاكمة الرومانية باعتبارها سبب الاضمحلال . والحقيقة أن رجلا من رجال الكنيسة فى أواخر القرن الرابع يدعى سالفيان Salvian كان قد سبق الأخلاقيين الفيكتوريين إلى هذه النظرية ، فقد أدان سالفيان تلك "الحياة الفاسدة" التى عاشها معاصروه واعتبرها سببا لتدهور الامبراطورية . ويمكن الرد بأنه ليس من المؤكد أن الحياة الشخصية للطبقة الحاكمة أصبحت بالضرورة أكثر حطة فى العصور الامبراطورية المتأخرة ، إذ كان حكام الامبراطورية المبكرة يتصفون فى أحيان كثيرة بالضعة والفساد. وكانت الدعارة واحدة من أكثر المهن الرومانية رواجا وتنظيما ، كما كان الشذوذ الجنسى متفشيا فى أوساط الأرستقراطية الرومانية على سبيل تقليد المجتمع

اليونانى، وفى عصر الامبراطور أوغسطس أشار الشاعر هوراس Horace فى إحدى قصائده إلى أن يفضل الغلام على المرأة فى كل وقت . ولم يقدر المؤرخون النتائج الاجتماعية المترتبة على الفساد الجنسى حق قدرها . وفيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية فإن السؤال يمكن أن يطرح عما اذا كان للدعارة والشذوذ الجنسى تأثير سلبى على أداء العائلة الأرستقراطية لوظائفها . فقد ساهمت العائلة الارستقراطية مساهمة قوية للغاية فى أعمال الجمهورية الرومانية القديمة. ويمكننا ، على الأقل ، القول بأن الشذوذ الجنسى إذا لم يكن سببا للفساد الاجتماعى ، فهو من أعراض فساد النظام الاجتماعى والأخلاقى وعجزه عن أداء وظيفته فى المجتمع . ويجدر بنا أن نلاحظ أن الشذوذ الجنسى تفشى بين الصفوة الحاكمة فى مجتمعين آخرين عانيا من التدهور السريع ، وهما العالم العربى فى العصور الوسطى وانجلترا فى القرن العشرين .

وفيما يتعلق بالنظريات العامة للتدهور والسقوط ، نأتى الى كتاب عظيم هو كتاب "المسيحية والحضارة الكلاسيكية" لكوشرين C.N. Cochrane . وقد نشر سنة ١٩٣٩ ولكنه لم يلق من المؤرخين الاهتمام الذى يستحقه . وانطلاقا من رؤية كوشرين الأوغسطينية الجديدة ، يرى أن العيوب الأساسية للفكر الكلاسيكى كانت هى العقبة الكؤود فى سبيل استمرار الحضارة : فبسبب الايمان الساذج بقوة العقل الانسانى اللامحدودة خرج القادة السياسيون والثقافيون للحضارة الكلاسيكية عن نطاق قدراتهم وحاولوا أن يخلقوا النموذج والمثل الأعلى فى مجال السياسة والثقافة . وشادوا بالعقل عالما كان يرتكز فى حقيقة امره على ماهو غير عقلى فى الطبيعة الانسانية ؛ مثل الغرائز الحيوانية والايمان بالمقدسات التى استبعدتها نظرتهم الضيقة الى الأمور . ويختتم كوشرين نظريته بتأييد وجهة النظر المسيحية "الأوغسطينية" عن الطبيعة البشرية . وليس من الضرورى أن تكون للمرء حماسة أحد أصحاب النظرية الأوغسطينية عن الطبيعة البشرية ، مثل كوشرين ، لكى يعترف بأنه قد أبرز بحق أن الرؤية الخاطئة للطبيعة الانسانية (والتى افرزتها الحضارة الكلاسيكية) كانت سببا أساسيا فى عجز قادة العالم الرومانى عن التعامل الواقعى مع المشكلات السياسية والاجتماعية والثقافية التى فرضت نفسها على عصرهم .

وثمة موضوع جدلى ثالث - إلاَّ أنه يساهم فى تفسير تدهور الحضارة الرومانية - ركزت عليه البحوث والدراسات الحديثة ؛ ومؤداه أن الامبراطورية الرومانية لم تحقق سوى التجميع السطحى لحضارات عالم البحر المتوسط . ففى شرق المتوسط بصفة خاصة ، لم تكن هناك غير صفوة قليلة العدد من سكان المدن اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية على حين ظلت جماهير السكان متمسكة بشخصيتها اللغوية والدينية التى ترجع فى أصلها الى عدة قرون قبل ذلك .

وما أن بدأت الحكومة الامبراطورية تعانى من المشكلات العسكرية والاقتصادية ، وحين بات السلام الرومانى Pax Romana أقل جدوى ونفعا ، عادت هذه القوميات تفرض نفسها فى قوة واستطاعت أن تكتسب - بالتدريج - إلى صفوفها حتى تلك الصفوة التى كانت قد اتخذت لنفسها الصبغة الرومانية . وفى القرنين الرابع والخامس كانت قد اجتذبت جماهير السكان بعيدا عن الولاء للنظام الرومانى . ويقال فى هذا الصدد أيضا أنه حتى بعض أفراد الارستقراطية الرومانية القديمة لم يتوافقوا أبدا مع السلطة القيصرية ، وعملوا بحذق على تقويض دعائم الولاء للمثل الأعلى الامبراطورى فى قلب العاصمة الامبراطورية نفسها . ونتج عن هذا التخريب الذى قام به السكان الوطنيون والارستقراطيون الرومان أن تحولت السلطة الإمبراطورية الى مجرد واجهة لا أكثر ، كما تحول الأغنياء والفقراء الى قضايا داخلية بعيدة عن السلام الرومانى . وحين نشهد بأنفسنا فى أيامنا هذه مدى ضحالة التغلغل الحضارى الأوربى فى آسيا وافريقيا فى ظل حكم الإمبراطوريات الحديثة ، يمكن لنا أن نقدر أن عملية صبغ العالم بالصبغة الرومانية Roimanization لم تكن اكثر من مجرد تسرب ضحل واجهته مقاومة الحضارة الوطنية القديمة .

أيا كانت فعالية هذه النظريات المتضاربة ، فمن الواجب التأكيد على أن اضمحلال الامبراطورية الرومانية كمثل أعلى لم يحدث بشكل كلى على الاطلاق ، إذ كاد المثل الأعلى الامبراطورى أن يختفى خلال القرون الخامس والسادس والسابع فى الغرب . ولكنه بقى قويا فى الشرق متمثلا فى الامبراطورية البيزنطية وتم إحياؤه فى الغرب فى القرن التاسع فى امبراطورية شارلمان وخلفائه . ويعد استمرار فكرة روما فى العصور الوسطى أحد الموضوعات الأساسية فى التاريخ الوسيط ، فإن روما بالنسبة للشعب المسيحى كانت قد صارت مرادفا لوحدة العالم السياسية والحضارية ، كما أن البيزنطيين لم يتخلوا عن هذه الفكرة اطلاقا ، اذا كان امبراطور القسطنطينية يعتبر نفسه امبراطورا رومانيا يخضع له كل من عداه ، وبعد القرن السادس لم يعد هناك أساس واقعى للمفهوم البيزنطى عن الامبراطورية ، فقد كان أفضل ماتوصل اليه الحاكم البيزنطى هو الاحتفاظ بموقع مزعزع فى جنوب ايطاليا حتى بداية القرن الحادى عشر .

وفى الغرب ، إبان فترة الغزوات الجرمانية (٤٥٠-٧٥٠) ، كانت فكرة روما واهنة للغاية وحفظتها الكنيسة المسيحية والبابوية بصفة خاصة ، إذ أن البابا ، بوصفه أسقف روما ، اعتبر نفسه خليفه الامبراطور الرومانى . وبسبب منازعات البابوية مع الامبراطورية البيزنطية تطلعت البابوية إلى ملك غربى يعيد بناء الامبراطورية فى الغرب ، ويعيد بناء السلطة والوحدة السياسية الى البلاد الكاثوليكية اللاتينية ، وهو الإحياء الذى تم فى عهد شارلمان

فى بداية القرن التاسع ، وهكذا كانت فكرة الامبراطورية ذات أهمية فائقة فى الغرب الأوربى منذ القرن التاسع حتى القرن الرابع عشر ، كانت هذه فكرة ذات أهمية خاصة لدى ملوك الألمان منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر ، إذ أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء لشارلمان . ولم يكن بوسعهم أن يمدوا نفوذهم الى انجلترا أو فرنسا ، إلا أن حكمهم تخطى جبال الألب مع سيطرة ضعيفة نسبيا على ايطاليا ، ولكن انهيار سلطة الإمبراطور الرومانى المقدس فى ألمانيا وايطاليا فى القرن الثالث عشر حال دون أن تؤتى فكرة الامبراطورية ثمارها فى شكل وحدة سياسية حقيقية قوية تضم الغرب فى العصور الوسطى .

من السهل أن نفسر تدهور الامبراطورية الرومانية كدولة ، إذ كانت الامبراطورية كدولة مترامية الأطراف تشكل عبئا باهظا على سكانها . وبحلول عام ٤٠٠ صارت سلطة ضاغطة مسيطرة ، ولم تقدم سوى القليل فى مقابل هذا الظلم ، ولم تقم حتى بحماية السكان من غزوات الجرمان، ومع بداية القرن الخامس كان هناك تناقض واضح فى ولاء الناس للامبراطورية والامبراطور ، وحين اخترق الجرمان حدود الإمبراطورية فى النهاية ، لم يهتم بانقاذ الدولة الرومانية سوى نفر قليل من سكانها ؛ إذ كانت قد صارت وحشا لايستحق الانقاذ .

**٣- المطلب الدينى للعالم الرمانى**

كان لاستشراق الامبراطورية - أى استجلاب الأفكار والقيم الشرقية - مغزاه من حيث أنه كان يعنى أن الناس فى الامبراطورية بدأوا يتناولون أمور العقيدة بحرية متزايدة خلال القرون الثانى والثالث والرابع بعد الميلاد . وصارت الديانة واللاهوت عماد الحياة الثقافية والعاطفية بالنسبة للامبراطور وأبناء الطبقة الارستقراطية والطبقات الدنيا على حد سواء . ولم يكن الامبراطور دقلديانوس - الذى كان سيدا على نصف العالم - ليقدم على عمل مادون أن ينظر طالعه فى أكباد الدجاج المذبوح . وكانت ديانات قوى ماوراء الطبيعة تلقى إقبالا واسعا من الناس فى القرن الثالث .

فلماذا كانت مثل هذه الديانات تتمتع بهذه الشعبية المتزايدة ؟ كان الناس فى القرن الثالث يعانون من انعدام الأمن . وحين افتقدوا الأمن فى العالم أداروا وجوههم شطر العالم الآخر ، إذ كانت غالبية السكان فى العصر الامبراطورى المتأخر يقاسون البؤس وشظف العيش . كان عبء استبداد الامبراطور والحكومة الامبراطورية يرهق كاهل المواطنين ، على حين عاش قطاع كبير من الكادحين فى المدن يحصلون أقواتهم يوما بيوم اعتمادا عل الصدقات التى تغدقها

الحكومة عليهم . فضلا عن أن أعداداً كبيرة من السكان كانوا عبيدا لاحقوق لهم ، يحيون فى ظل أسوأ الظروف . ولم يكن بوسع أولئك الذين يئنون تحت عبء النظام الاجتماعى أن يعتبروا هذا العالم معقولا ، بل إنه حتى اولئك الذين تمتعوا بمستوى معيشى أفضل كانوا يخشون القوى الطبيعية إلى حد كبير ، كما أنهم كانوا جاهلين بأبسط قواعد الاقتصاد ، وعاشوا حياة يائسة فى عالم غير معقول . وإذ لم يكن بالإمكان التخلص من الشرور والأذى فقد تطلع سواد الشعب نحو الخلاص Soteria من هذا العالم وآلامه. وتركزت الآمال على إله منقذ يموت ويبعث من جديد يمكنهم الارتباط به والهروب من قيود الحياة الزائلة ، وتغلب افتنانهم بما وراء الحياة على سائر الاهتمامات الأخرى ، وبات كل فرد يبحث عن الوسيلة التى ينقذ بها نفسه ، بدلا من الاهتمام بإنقاذ الدولة . وبحلول القرن الرابع كان سكان العالم الرومانى قد فقدوا إيمانهم بالدولة والحضارة ، وانطلقوا يبحثون عن البديل المتمثل فى الخلاص الفردى ، وكانت هناك حلول عديدة مطروحة ، وان تأثر كل منها بالآخر ، وحتى الحلول التى اجتذبت عددا ضئيلا من الاتباع الدائمين كان لها تأثيرها الكبير على كل الحلول والديانات الأخرى وقد عرف هذا الخليط من الديانات باسم Syncretium ؛ وهو مايعنى بعبارة أخرى أنه كان هناك توفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة .

كانت للرومان ديانة رسمية state religion منذ بداية العصر الامبراطورى فى عهد أوغسطس ، وقامت هذه الديانات على أساس تأليه الامبراطور ، وإضفاء الصفات شبه المقدسة والخارقة على الامبراطور بعد مماته. وفى القرن الثالث تطورت عبادة الأباطرة فأصبحت أقل تواضعا ، إذ كان الناس يتقبلون ما يغدق على الامبراطور من صفات خارقة للطبيعة البشرية فى حياته ، وقام شعراء معينون بإذكاء الحماسة لهذه الحركة ، فقد تحدث كل من هوارس Horace، وفرجيل Virgil عن الامبراطور أوغسطس بعبارات تفيض بالتبجيل فى القرن الأول الميلادى (٣) وعلى أية حال ، فإن غالبية الناس لم يندمجوا عاطفيا فى عبادة الامبراطور،

---

(٣) عبر كانتور عن هذه العبارة بـ messiannic terms ، ومعناها "بعبارات مسيحانية" ولم يكن ممكنا أن ندخل هذا المعنى فى النص العربى لأن هوارس وفرجيل كتبا قبل مولد المسيح بنحو أربعين سنة ، ويرجع استخدام كانتور لهذه العبارة الى أن فرجيل كتب قصيدة رعوية - هى القصيدة الرابعة التى عرفت لدى نقاد الادب "بالقصيدة المسيحية"- تحدث فيها عن مولد طفل سوف يحكم العالم وسوف يعم الرخاء فى عصره، وقد فهم علماء الكنيسة فى العصر المسيحى أن الطفل هو المسيح وان فرجيل تنبأ بظهور المسيحية قبل مولد المسيح .

انظر : على الغمراوى ، مدخل الى دراسة للتاريخ الأوربى الوسيط (ط. الثانية : القاهرة ١٩٧٧) ص ٢١١- ص ٢١٣ .

والتى كانت فى بداية الأمر مجرد "ديانة رسمية" صيغت بهدف الحفاظ على الوحدة السياسية للعالم الرومانى ، أما ما أثار اهتمام الناس فى أواخر عصر الامبراطورية ، فهو البحث عن ديانة تضمن لهم الخلاص الفردى .

وكانت الديانة اليهودية فى الاسكندرية قد توصلت منذ زمن الى صياغة قانون أخلاقى صارم ومذهب دينى يؤمن بالوحدانية . وراق الأدب العبرانى للرومان من خلال الترجمة اليونانية للعهد القديم ، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية Septuaginta. وعلى الرغم من أن اليهود نادرا ماكانوا يقومون بأى نشاط تبشيرى ، فان يهود الاسكندرية كانوا يأملون فى تحويل البعض الى اليهودية ، وأحرزوا بعض النجاح فى هذا الصدد خلال القرن الميلادى الأول ؛ حين كانت الديانة اليهودية تجذب أنظار أبناء الطبقة الأرستقراطية الرومانية . وعلى أية حال ، فإن عدد الرومان الذين تمسكوا بيهوديتهم على المدى الطويل كان قليلا . إذ كانت الديانة اليهودية ماتزال غير واضحة فى مفهومها عن المخلص والخلود فى الحياة الأخرى وكان المخلص منقذا قوميا بالنسبة لليهود وظل كذلك حتى بداية العصر المسيحى (٤). كما كانت اليهودية ديانة صارمة ذات أخلاقيات سامية ، بيد أنها لم تقدم سوى القليل من سبل السعادة فى الحياة الدنيا ، وبسبب ضغوط الحياة فى ظل الامبراطورية الرومانية اتجه اليهود فى تردد صوب الحياة الأخرى (٥). وبالرغم من آن فيلون السكندرى حاول فى مطلع القرن الأول للميلاد أن يوفق بين التراث الفلسفى اليونانى ، والتراث اليهودى المحفوظ فى العهد القديم ؛ ومن ثم يوجد توافقا بين العلم والدين ، ورغم أن كتابات فيلون أثرت على آباء الكنيسة تأثيرا كبيرا ، فقد فشلت اليهودية فى أن تكون دينا للعالمين .

---

(٤) تأتى فكرة انتظار المخلص (ماشيح بالعبرية) لدى اليهود مرتبطة بفكرة تجديد العهد مع الرب لكى تصبح أمة الله جديرة به ، وتصبح اورشليم (بيت المقدس) مدينة لاتبارى حيث يقيم بها الرب على جبل صهيون ، وحيث يتجمع المشردون من بنى اسرائيل ، وتزول الاحقاد ، ويموت الموت نفسه . كما ان الحوادث الجسام التى تعرض لها اليهود أثناء السبى البابلى جعلت اليهود يتعلقون بهذه الفكرة واعتقدوا أن النبى ايليا سوف يأتى مبشراً بقدوم المخلص.

(انظر ملاخى ٤ :٥ "هاأنذا ارسل ايليا النبى قبل مجىء يوم الرب .. " وبالرغم من هذا فانه حين ظهر المسيح عيسى بن مريم لم يؤمن به اليهود وتعللوا بأن الشروط التى وردت عند الأنبياء السابقين حول المخلص المنتظر لم تتحقق فيه . (المترجم)

(٥) وهو مايعنى عدم اقتناعهم التام بهذه المسألة التى اضطرتهم اليها قسوة الحياة فى ظل الامبراطورية الرومانية . (المترجم)

كانت الفلسفة اليونانية واعدة الى حد بعيد من حيث إشباع المطلب الدينى فى عالم البحر المتوسط ، ولم يكن أرسطوطاليس الذى يعتبر اكثر فلاسفة اليونان الكبار علمية ووعيا – يحظى بإعجاب كثيرين من مفكرى العصر الرومانى لأن كتابات أفلاطون ظلت تحكم الفكر الغربى بصورة ما حتى القرن الثانى عشر ، كأساس للاهوت والفلسفة . وإذا كان فكر افلاطون يبدأ عقلانيا فإنه يبدو فى النهاية مفكرا دينيا وصوفيا ، إذ يرى أن أسمى فكرة للخير تتحقق فى خلاص الروح ، أما التعاليم الأخلاقية الأفلاطونية ؛ فقد أصبحت تتجسد فى الرواقية التى كانت فلسفة اكثر منها ديانة تثير العاطفة . ولهذا السبب نفسه كان ميل الناس الى الفلسفة الرواقية فى ذلك العصر محدود للغاية ، كما أن هذه الفلسفة انحصرت الى حد بعيد فى أوساط الارستقراطية ، رغم أن المبدأ الرواقى القائل بالأخوة العالمية كان له تأثير واسع النطاق. وكان للجانب الصوفى فى الفلسفة اليونانية التأثير الأعظم على الناس فى العالم الرومانى ، وقد أكد أفلوطين السكندرى – مبتدع الأفلاطونية الجديدة فى القرن الثالث – على الجانب الصوفى فى فلسفة افلاطون حين قرر أن الحقيقة المطلقة تأتى من خلال التجربة الصوفية والسمو الروحى ، كما شبه الاله بنافورة تدفع بالمياة المقدسة ، وكلما ابتعدت المياه عن النافورة قلّ نقاؤها ، والناس مثل المياه غير النقية وعليهم أن يمروا بعملية تطهير حتى يتحدوا بالإله. ومن ثم يجب التطهُّر من جميع الاهتمامات الفكرية والدنيوية ، اذ يجب على الانسان أن يخلص نفسه من المادة ، ويطهر روحه ، إلا أن صعوبة تحقيق هذا التطهُّر الصوفى جعل منه أمرا لايقدر عليه سوى أفراد قلائل ، فضلا عن أن الأفلاطونية الجديدة لم تقدم إلها مخلصا فى الوقت الذى طالبت فيه أتباعها بأن يبحث كل منهم عن إلهه بنفسه ، وهو الأمر الذى قلل من جاذبية هذه الفلسفة الى حد كبير . وعلى الصعيد العلمى تركت الأفلاطونية الجديدة بصماتها على اللاهوت بأسره ، ولكن الناس العاديين كانوا اكثر اهتماما بالبحث عن اله مخلِّص منهم بتلك التدريبات الروحية الشاقة التى يتطلبها التطهير الأفلاطونى .

وفى بحثهم عن ديانة تفى بحاجاتهم ، انجذبت فئات الكادحين صوب أسرار وطقوس الديانات الغامضة التى كانت قد شاعت فى العالمين اليونانى والرومانى منذ قرون ، وسرعان ماتبعهم فى ذلك المتعلمون والأثرياء . وفى القرنين الأول والثانى ازداد نفوذ ديانات الأسرار وشعبيتها وامتدت الى آفاق بعيدة وذلك حين تغلغلت ديانات وعقائد شرقية متعددة فى عالم البحر المتوسط . وكان الفضل فيما اتسمت به هذه الديانات الشرقية من جاذبية طاغية راجعا الى أن الجميع رأوا فيها فرص للخلاص ، ومن هذه الناحية كانت هذه الديانات أولى الديانات العالمية بحق ؛ لأنها تجاوزت الفوارق القومية والثقافية كديانات لها طقوسها الروحانية الخاصة

لقد حددت جميع الديانات الروحانية لنفسها إلها مخلصا يموت ويبعث من جديد ، فضلا عن الطقوس السرية التي تتيح للمؤمن ان ينال الخلود من خلال ربط نفسه بمعاناة الإله وانتصاراته. وبالرغم من أن هذه الاحتفالات السرية - مثل التضرج بدم عجل ذبيح- يمكن أن نرد أصولها إلى طقوس الإخصاب البدائية في كثير من الأحيان ، فإن الديانات الروحانية شجعت القيم الأخلاقية السامية كما شجعت وجود صيغة من التوحيد.

وفي أواخر القرن الثالث ، ظهرت ديانات روحانية عديدة . فقد كانت عبادة إيزيس عبادة شعبية في مصر ، كما كانت عبادة الأم العظمى ديانة محبوبة في آسيا الصغرى ويبدو أن عبادة ميترا Mithra (إله الشمس الذي لايقهر) كانت أكثر الديانات الروحانية أهمية ، فقد ظهرت في فارس في القرن الثاني ، وأخذت تنتشر في اطراد صوب الغرب ، وقد اعتنقها كثيرون من الجنود والضباط في الفرق الرومانية في الشرق والغرب على السواء بيد أنه لم يكن يسمح للنساء بالمشاركة في العبادة مما كان سببا في الفشل الذي حاق بها في النهاية. وكان الاله ميترا يضمن الخلاص لأتباعه ويلزمهم بالمبادىء التطهيرية السامية ، والحقيقة أن صلوات الميترائية التي وصلتنا تشبه الى حد كبير الابتهالات اليهودية والمسيحية الى الرب.

وفي ظل هذا الجو الذي يميزه الجدب الديني ظهرت المسيحية ، ولم تكن مجرد ديانة توفيقية؛ ولكن كان لها واقع تاريخي افتقرت اليه الديانات الروحانية الأخرى. فقد كان المسيح شخصية تاريخية عاشت في عصر تاريخي . لقد ظهر المخلص المسيحي في صورة آدمية ، ولم يكن مجرد شخصية اسطورية . ولم يكن هناك من الدلائل في القرن الثالث ما يؤكد انتصار المسيحية على الديانات الروحانية الأخرى . فقد كانت ديانة ميترا ، على سبيل المثال تتمتع بشعبية واسعة فضلا عن تأييد الكثير من اباطرة الرومان لها ؛ فمنذ عصر الامبراطورية المتأخر بات واضحا أن إحدى الديانات الروحانية سوف تنتصر على الديانات الأخرى إن عاجلا أو آجلا، ولما كان هناك امبراطور واحد في العالم الروماني كان من الضروري أن توجد ، إن عاجلاً أو آجلا ، ديانة عالمية واحدة ؛ اى إله واحد في السماء مثلما كان هناك حاكم واحد على الأرض ، بمعنى أن الشمولية السياسية فرضت الوحدة الدينية في النهاية .

لقد واجهت المسيحية منافسة عنيفة ، وبالرغم من هذه المنافسة - وربما بسببها - عملت المسيحية على أن تستوعب كل مزايا ديانات العصر جميعا ، إذ أنها ورثت عن اليهودية العهد القديم وأضافت اليه العهد الجديد ، كما استوعبت قانون الديانة اليهودية الأخلاقي ، فضلا عن أن فكرة الأخاء في المسيحية تشبه الى حد كبير فكرة الاخاء الرواقية ، كما اقتبس

المفكرون المسيحيون كثيرا من الفكر الصوفى والدينى فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وعلى أية حال ، فقد شعر أولئك المفكرون أن التطهير الذاتى الذى يحقق اتحاد الانسان بالله كان أمرا مستحيلا نظرا لفساد الجسد ، ومن ثم فمن الضرورى أن يكون هناك وسيط لتحقيق الاتحاد النهائى بالله ، ومنذ القرن الثانى فصاعدا ، كان آباء الكنيسة راضين عن الفلسفة الأفلاطونية فى صورتها الجدَيدة هذه. وقد ثار جدل عنيف حول ما إذا كان المسيحيون قد أخذوا الأسرار المقدسة عن الديانات السرية ، أم أن الجو الدينى العام هو الذى أنتج مظاهر مشابهة فى صورة سر مسيحى يساعد على الاتحاد بالمخلص . ومهما يكن من أمر ، فان وجود طقس سرى من طراز نقى بسيط(العشاء الربانى)- إذا ما أضيف الى مزايا المسيحية الأخرى - كان سببا فى جعلها أكثر الديانات جاذبية فى نظر سكان العالم الرومانى . إلا أن المسيحية فى القرن الرابع لم تكن قد أصبحت بعد هى الاستجابة الأكيدة الوحيدة للمطلب الدينى فى العالم الرومانى فإن نسبة المسيحيين فى الجزء الشرقى من الامبراطورية لم تكن تتعدى ثلث مجموع السكان . ولم يتأكد انتصار المسيحية إلا بعد أن كسبت تأييد الدولة الرومانية بعد سنة ٣١٢، لقد أنقذ دقلديانوس وقسطنطين الامبراطورية الرومانية من السقوط ، ولم يكن هذا سوى تأجيل للسقوط ؛ إلا أنه كان كافيا لأن يمنح المسيحية الفرصة لكى تصبح ديانة عالمية فى عالم البحر المتوسط. وهكذا كان تاريخ تدهور العالم الرومانى وانحلاله يسير فى خط مواز لنهوض الكنيسة المسيحية وانتصارها .

# الفصل الثانى

# الإمبراطورية المسيحية والكنيسة المسيحية

## ١- تشكيل الكنيسة الكاثوليكية

بدأ التحقيق الجدى لتاريخ الكنيسة المسيحية الباكرة فى القرن السادس عشر . إذ حدث إبان فترة الاصلاح الدينى أن حاول كل من علماء الكاثوليك والبروتستانت أن يقيموا الدليل على أن نظم الكنيسة الباكرة وعقائدها كانت أكثر ارتباطا بعقائد ومذاهب الطائفة التى ينتمون إليها . ولم تخمد جذوة الجدل الذى ثار حول هذا الموضوع على الاطلاق لا بسبب الاختلافات الطائفية فحسب ، وانما أيضا لأن مصادر معلوماتنا عن الكنيسة الباكرة تتسم فى كثير من الأحيان بالجزئية والنقص ، فضلا عن الغموض بل والتناقض ، وثمة جوانب كثيرة فى تطور الكنيسة قبل القرن الرابع لاتزال محل شك حتى اليوم ، وليس هناك مايضطر دارس التاريخ الوسيط الى محاولة حسم المشاكل الجدلية الناشبة حول تاريخ الكنيسة الباكر ، وبالرغم من هذا ، فإنه من الضرورى أن تكون لديه رؤية عامة لأفكار ونظم الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح لكى يفهم بوضوح ماكان عليه بناؤها فى القرن الرابع ومايليه. لقد حدد التطور الذى مرت به الكنيسة فى مطلع تاريخها طبيعة كنيسة العصور الوسطى من عدة جوانب .

عند موت القديس بولس ، فى منتصف القرن الأول الميلادى ، كانت المسيحية قد انتشرت انتشارا واسع النطاق فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية . إذ كانت المسيحية قد ولدت بفلسطين ، وأخذت تنتشر باتجاه الغرب على طول طرق التجارة فى شرق البحر المتوسط وساعد يهود الشتات (الدياسبورا Diaspora) - الذين كانوا يعيشون فى كبريات مدن البحر المتوسط - مساعدة كبيرة فى انتشار المسيحية فى بواكير تاريخها [1]. وعلى ذلك نظر مؤرخو الكنيسة منذ أوائل القرن الرابع إلى تشتت اليهود على أنه تمهيد إلهى لنشر المسيحية

فمنذ البداية كانت المسيحية موجهة إلى سكان المدن وظلت ديانة حضرية إلى حد كبير حتى أواخر القرن الرابع ، وكانت الوثنية مرتبطة بحياة الريف وسكان الضياع الزراعية ، إذ إن كلمة

---

(١) بدأت الدعوة المسيحية بين اليهود أساساً . ولما كانت هناك جماعات يهودية تقيم فى المدن الكبرى فى عالم البحر المتوسط ، فقد أدى ذلك إلى انتشار المسيحية فى هذه المدن . (المترجم)

Paganus ، [٢] أي وثني ، تعني "رجل ريفي" وبالتالي غير المسيحي ، وحين اعتلى قسطنطين العرش الامبراطوري كان هناك عدد يتراوح مابين عشرين إلى ثلاثين في المائة من سكان الجزء الشرقي اليوناني اللسان [٣] مسيحيين ، ومابين خمسة إلى عشرة في المائة من سكان الغرب اللاتيني ، الأقل تحضرا من الشرق ، يعتنقون المسيحية وبحلول سنة ٣١٢ ، ربما كان ثلث سكان مدن الامبراطورية من المسيحيين .

أشاع نيتشه ، فيلسوف القرن التاسع عشر ، فكرة أن المسيحية كانت ديانة للعبيد وأن أخلاقياتها أخلاقيات عبيد . وصحيح أن المسيحية قد جذبت تماما أبناء الطبقات الدنيا ، ولكن من المؤكد أنها استحوذت على إيمان أبناء الطبقات العليا بحلول القرن الثاني ، وكان أبطأ معدل انتشار لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية الرومانية ، فحتى عام ٣٥٠ كانت ماتزال هناك بعض عائلات ارستقراطية تقاوم المسيحية في روما . وبالرغم من ذلك فإننا يجب أن نؤكد أن الديانة المسيحية لم تكن دينا للعبيد وحدهم ، فقد جاءت قياداتها من بين أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمين النشطين ومنهم رجال من أمثال بولس احتلوا أسمى مكانة .

وهناك عدة أسباب وراء انتشار المسيحية ، فقد أشبعت الحاجة الدينية لدى الناس كما رأينا ؛ إذ وفرت لهم علاقة مشبعة عاطفيا تقوم على أساس رفقة الحب الديني agapa في المدن المعزولة ، فضلا عن أن المسيحية سرعان ماصارت ديانة ذات أدب راق جذب كثيرين من المتعلمين للانخراط في صفوف أتباعها ، وبينهم أفضل المفكرين في الامبراطورية الرومانية ، فقد استوعبت المسيحية الثقافة الكلاسيكية ، وأصبحت لها سمة فلسفية تشبه ماوصل اليه تراث العالم القديم في مجال الفكر .

وقد أطلق المسيحيون على أنفسهم في رفقة الدين اسم اكليزيا ecclesia وهي الكلمة التي استخدمتها الترجمة السبعينية للتوراة ، وكلمة اكليزيا تعني شعب الله المختار من بني اسرائيل. وعبر المسيحيون الأوائل عن قناعتهم بأنهم بني اسرائيل الجدد من خلال كلمة اكليزيا

---

(٢) لما كان التبشير بالمسيحية يتم أساساً في المدن - حيث يقيم يهود الشتات - في بداية الأمر ، فقد ظلت المسيحية ديانة تغلب عليها الصفة الحضرية حتى أواخر القرن الرابع. (المترجم)

(٣) كانت اللغة اليونانية هي اللغة المتداولة في أوساط المثقفين في بلدان شرق البحر المتوسط إلا أنها لم تكن هي اللغة المستخدمة في الحياة اليومية - عدا بلاد اليونان - فقد كانت لشعوب هذه البلدان لغاتها القومية بطبيعة الحال . (المترجم)

التى أطلقوها على أنفسهم ، وفسر معنى الكلمة على هذا النحو بأنه يشمل جميع المسيحيين فى كل مكان ، وبالرغم من وجود كنيسة ecclesia محلية وجودا ماديا متمايزا فى أنطاكية وفى الاسكندرية على سبيل المثال ، فإن المسيحيين اعتقدوا فى الوقت نفسه ، أن الكنيسة كيان عالمى خالد يمتد منذ الخليقة إلى يوم الحساب ، كما كان للفكرة القائلة بأن الكنيسة عروس المسيح تأثير عظيم على الفكر فى العصور الوسطى ، وسرعان ما أدى هذا المفهوم إلى مبدأ عدم زواج رجال الاكليروس . بل إن الأهم من ذلك هو ما أدى إليه هذا المفهوم من زيادة التوتر بين وجهة النظر القائلة بأن الكنيسة واقع دينوى مادى ، ووجهة النظر القائلة بأن الكنيسة كيان روحى خالد . وإذا كانت الكنيسة هى عروس المسيح فإلى أى مدى يمكن أن يصل اهتمامها بأمور الدنيا ؟ وإلى أى مدى يمكن إخضاع عروس المسيح للحكام العلمانيين ؟ من المؤكد أن كثيرا من المنازعات والمجادلات قد ثارت فى العصور الوسطى فى محاولة للإجابة على هذه الأسئلة الأساسية .

وكان على الكنيسة التى وصلت إلى هذا القدر من الوعى بذاتها أن تصر على أن تكون تعاليمها كاثوليكية ، أى عالمية تتميز بالاتساق ، وأن تكون هى التعاليم نفسها فى كل مكان ، وقد عبر القديس ايرنايوس Iernaeus عن هذا المفهوم الخاص بالكنيسة الكاثوليكية (العالمية) الواحدة بشكل واضح فى القرن الثانى . وعلى الرغم من ذلك ينبغى التأكيد على أنه حتى القرن الحادى عشر كانت الكنيسة - فى الغرب على الأقل - تميل إلى التسامح والتساهل بشأن النظم والمذاهب مما أوجد خلافات كبيرة بين المذاهب والأعراف الدينية .

ولسنا نعلم سوى القليل عن تنظيم الكنيسة فى أيامها الأولى . ومن الواضح أن كل جماعة كنسية كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال الذاتى وعلى قمتها زعماؤها يديرون شئونها . ويبدو أن أولئك الموظفين الاداريين قد اضطروا إلى تأكيد السلطة الدينية تحت ضغط الحركة الغنوصية [٤] وكان الغنوصيون يعتقدون أن بإمكانهم القيام بتجربة دينية باطنية

---

(٤) هم جماعات يهودية فى أصلها ، كانت تتفق على أن المعرفة هى الطريق الى الله ، وهى إدراك علم السموات والأرض . وبمرور الزمن تأثروا بالتراث العلمى والفلسفى لحضارات بابل والفرس والاغريق ، ومن ثم أخذوا يبتعدون عن اليهودية مما جلب عليهم نقمة اليهود ، وللغنوصيين (ومنهم الصابئة) دين خاص ونصوص مقدسة خاصة بهم مما جعل اليهود والمسيحيين يعتبرونهم كفارا ، بينما اعتبرهم الاسلام من أهل الذمة ، ومن أهم أركان دينهم: =

ويتلقون المعرفة gnosis عن الله مباشرة . وكرد فعل لهذه الفوضى الدينية الشاملة طورت الكنيسة سلطة حكومة كهنوتية قوية ، وظهر الأساقفة (رعاة شعب المسيح) كرجال يتمتعون بسلطة دينية وإدارية أيضا . فقد حددوا العقيدة الجوهرية dogma ومارسوا سيطرة مطلقة على رعيتهم . أما القسيس فقد ظهر ليكون مساعدا للأسقف الذى يتولى إدارة كنيسة إحدى المدن الهامة ، وتحت الأسقف ، كان القساوسة يساعدونه فى أعماق كاتدرائيته ، كما وجد القساوسة فى كل كنيسة بمفردها . وكان من المعتقد أن الأساقفة يستمدون سلطتهم من الرسل، على اعتبار أن ثمة تتابع مباشر للقوى الروحية المنبعثة من المسيح نفسه ، يمر خلال الحواريين والرسل ، ليصل الى جميع الأساقفة . وقد تبدت قوة الكنيسة وسلطانها الربانى الروحى واضحين فى رؤية المعاصرين لها على أنها فيض ينبع من المسيح فى خط مباشر يصل إلى كل من يتولى منصبا أسقفيا .

وساعد على تطور السلطة الكنيسة نمو نظام الأسرار المقدسة ، فمن خلال الطقوس الغامضة للأسرار الربانية كان بوسع المؤمن أن يحوز ، أو يستعد ، للدخول فى رحمة الرب المنقذة . وللكنيسة حاليا سبعة أسرار مقدسة ، بيد أن أعدادها لم تكن قد تحددت حتى القرن الثالث عشر . إذ أن أحد رجال اللاهوت البارزين فى القرن الحادى عشر يحدد لنا مالا يقل عن أحد عشر سرا مقدسا ، وكان التعميد والعشاء الربانى الأخير (افخارستيا) eucharistia أهم هذه الأسرار فى كل العصور . ولايرتبط التعميد فى أصله بظهور المسيحية ، ذلك أنه كان أحد طقوس التطهير لدى شعوب الشرق الأوسط كما هو ثابت من خلال شخص يوحنا المعمدان وتقاليد الطائفة الآسية اليهودية [٥] وفى المسيحية صار التعميد وسيلة للتطهير يستعد المؤمن

---

= (١) الايمان بموسى وتوراته - (٢) الايمان بالمسيح المنتظر واليوم الآخر (٣) الايمان بالملائكة والجن وتقديس بعض الكواكب ، وهو ماجعل البعض يعتقد أنهم من عبدة الكواكب ، وبمضى الزمن تفرق الغنوصيون فرقا وأحزاباً منهم الصابئة (انظر القلقشندى صبح الأعشى ط: ٤٢٩) والمندائيين الذين لاتزال جماعة منهم تعيش بالعراق . (المترجم)

(٥) هى فرقة يهودية كانت وقت ظهور المسيح من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطا واحتراما ، إلا أن المعلومات المتاحة عن هذه الفرقة لاتزال موضع شك حتى الآن . ولعل أهم ماكان يميز هذه الفرقة عزلة أفرادها على نحو يشبه حياة الأديرة المسيحية فيما بعد، ويحاول بعض العلماء الربط بين هذه الفرقة التى اشتهرت بحرص أفرادها على النظافة والطهارة وتمسكهم الشديد بالتعاليم الدينية اليهودية وبين الوثائق المعروفة باسم"لفائف البحر الميت" التى تم اكتشافها فى الأردن ، وبالتالى يعتقدون أن هذه الجماعة هى التى كانت تقيم فى قلعة مسعدة "الماسادا" حيث أبيد أفرادها على يد الرومان أثناء الثورة اليهودية فى القرن الأول=

بواسطتها للدخول فى رحمة الرب. ومن وجهة النظر الدنيوية كان التعميد استعدادا للانتساب إلى الكنيسة ، أما طقس العشاء الأخير (وهو طقس التناول) فقد كان تمثيلا رمزيا ، وهو عبارة عن تناول كسرة من الخبز (ترمز إلى جسد المسيح) وجرعة من النبيذ (ترمز إلى دمه) وهو الاتصال الضرورى للخلاص ، كانت المسيحية تؤمن بأن الانسان فاسد بالفطرة ، وأن العشاء الأخير هو فقط الذى يمكنه من المشاركة فى استحقاق افتداء المسيح المخلص حتى يستطيع الانسان أن يتلقى الرحمة وينعم بالخلاص ، فهل كان هذا الاحتفال احتفالا رمزيا أم إعجازيا ؟ لقد كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون ، كلهم تقريبا ، أنها معجزة وعن طريق المعجزة يتحول النبيذ والخبز بالفعل إلى جسد المسيح ودمه ، وكانت للاحتفال قيمة تجريبية نفعية كبيرة ، كما كان ممكنا أن يقوم به الأسقف فى كاتدرائيته الكبيرة ، أو أن يقوم به القسيس فى إحدى الكنائس الصغيرة . ففى جميع الأحوال كان الناس يعتقدون أن الكاهن الذى يقوم بهذا الطقس يرتبط مع المسيح فى علاقة خاصة .

وهكذا علا شأن أفراد الاكليروس Sacerdatium فوق سائر أعضاء الكنيسة (الشعب المسيحى) بفضل قيامهم بمعجزة العشاء الأخير، وربما كان لفظ Sacerdos أى قسيس يطلق على أى عضو فى الجماعة المسيحية فى أيام الكنيسة الباكرة ، ذلك أن كل المؤمنين كانوا قساوسة (هكذا يقول الباحثون البروتستانت). ومع وجود سلطة الكهنة صارت صفات القساوسة صفات كامنة غير ظاهرة فى عامة أعضاء الكنيسة (العلمانيون) الذين تم اخضاعهم آنذاك لسلطة الكنيسة ، أى لسلطة القساوسة والأساقفة . وتقول وجهة النظر الكاثوليكية أن وظيفة القسيس ، وليست مؤهلاته الفردية ، هى التى تمنحه الصلاحية التى تؤهله للقيام بالأسرار المقدسة ، وفى القرن الرابع ثار جدل كبير حول هذه النقطة ، فقد زعم الدوناتيون[٦] أنه يجب أن يكون القسيس نفسه فى حالة النعمة - أى ينبغى عليه أن يكون

---

= للميلاد بينما ينفى البعض الآخر إمكانية ذلك على أساس أن فرقة الآسين كانت فرقة مسالمة (لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع :

Edgell ( H.A.R ) : Dead Sea discoveries, Oxford. 1970

وكذلك حسن ظاظا ، الفكر الدينى الاسرائيلى ، معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٧١) . (المترجم)

(٦) نسبة إلى دوناتوس Donatus أحد زعماء الدوناتيين فى شمال أفريقيا فى القرن الرابع. (المترجم)

لكي يقوم بعمل السر المقدس على نحو سليم . والكاثوليكية ترغب، بطبيعة الحال ، في قديسا يحيا حياة طاهرة – أن يعيش القساوسة الذين يقومون بالأسرار المقدسة حياة لاغبار عليها ، ولكن على الرغم من هذا يقول الكاثوليك إنه بغض النظر عن سجايا القسيس الشخصية ، تكون الطقوس المقدسة صالحة لأن القسيس يقوم بها بوصفه موظفا في الكنيسة وممثلا للمسيح وليس بوصفه انسانا عاديا. هذه المشكلة أثيرت مرات ومرات خلال تاريخ المسيحية اللاتينية ؛ فقد أثارت المجادلات والمناظرات الدينية من حولها في القرن الرابع ، وفي العصور الوسطى العالية والمتأخرة ، وفي القرن السادس عشر أيضا .

وقد أثرت التقسيمات الجغرافية والسياسية في الامبراطورية على تنظيم الكنيسة ؛ إذ صار القسم الاداري المعروف باسم diocese[٧] والذي كان تقسيما اداريا استحدثه دقلديانوس هو منطقة النفوذ الأسقفي ، وعلى نفس المنوال جعل التقسيم الامبراطوري من الولاية منطقة نفوذ لكبار الأساقفة الذين طوروا سلطاتهم العليا عن طريق الحكم في كبريات المدن في الامبراطورية . والحقيقة أن كبير الأساقفة كان يسمى أسقف العاصمة. وفي النهاية ، اعترف المسيحيون الشرقيون بزعامة كبار الأساقفة في المدن الكبرى في شرق الامبراطورية ، وهي الاسكندرية وأنطاكية ، والقسطنطينية وحمل هولاء لقب "بطريرك" وعلى نحو مماثل كان أسقف روما ، أو البابا ، يتمتع بسلطة لاتقبل التحدي . فقد قامت كنيسة روما على أيدي القديس بطرس، والقديس بولس اللذين استشهدا في المدينة الخالدة ، ولم تكن هناك مدينة لاتينية لها مايضارع هذا التراث . فضلا عن أن مدينة روما كانت بالضرورة مرادفا للزعامة الدينية مثلما كانت لها الزعامة الدنيوية ، كما أن أسقف روما في القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح كان بالصدفة دائما في الجانب الرابح في أي نزاع مذهبي ، ولم يكن هناك مايسيء إلى سمعة البابوية ، بما في ذلك المذاهب الدينية المخالفة التي ظهرت بشكل مؤقت. بيد أنه على الرغم من هذه العوامل التي ساهمت في صنع سلطان البابوية العظيم سنة ٣١٢ ، فلم يكن مقبولا على نطاق العالم المسيحي ، بل وفي الغرب نفسه ، أن يكون البابا هو الزعيم المطلق الأوحد للعالم المسيحي . فقد قاوم البطاركة الشرقيون أية مزاعم بابوية في هذا الاتجاه وفي القرن الرابع كان أسقف روما متواريا تماما خلف ظلال الامبراطور الروماني المسيحي الجديد.

---

(٧) حين قام الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) باصلاحاته الادارية ضمن عملية الترميم التي قام بها لصرح الامبراطورية المتداعي ، قسم الامبراطورية إلى أربعة أقسام كبرى ، ثم قسم هذه بدورها إلى سبع عشرة وحدة إدارية اصغر في مساحتها عرفت كل منها باسم diocese . (المترجم)

ومهما كان من أمر ، فقد كسب البابا هيبة ضخمة خلال القرون الثلاثة الأولى ، كما أرسى التقاليد التى رسمت ما تمتع من به أهمية فائقة فى حياة الكنيسة . وبعد انهيار الامبراطورية فى القرن الخامس أفادت البابورية من هذا الإرث كثيرا .

ولم تهتم روما ، كدولة ، اهتماما حقيقيا بالمسيحية حتى القرن الثالث ، فقد بالغت الأساطير المتأخرة كثيرا فى أعداد الشهداء المسيحيين ، إذ كان اضطهاد المسيحيين محليا وقليل الحدوث . وكانت الدولة الرومانية متسامحة مع المسيحيين رغم أنهم لم يحوزوا موافقتها ، ورغم أنها لم تعترف بالمسيحية ديانة مشروعة ، كما كان المسيحيون يضايقون الدولة حين يرفضون أن يقسموا يمين الولاء للامبراطور أو يقيموا الشعائر الامبراطورية . وبالرغم من هذا فقد سمحوا للمسيحية أن تتطور لأنهم لم يتدخلوا فى شئونها إلا قليلا. فعلى سبيل المثال يطالب الامبراطور تراجان ، فى مراسلاته مع بلينى الأصغر حاكم آسيا الصغرى بشأن المسيحيين فى ولايته ، أن يتركهم وشأنهم . وفى النصف الثانى من القرن الثالث طرأ تغير على موقف الامبراطورية ؛ إذ أن تدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية فى العالم الرومانى سبب موجات من أعمال العنف ضد المسيحيين . وأصبحت الكنيسة بمثابة كبش الفداء فى الامبراطورية المثقلة بالمشكلات . وحين حاول الامبراطور دقلديانوس إقامة نظام شامل أدرك أن الكنيسة المسيحية دولة داخل الدولة الرومانية ، فقد اعتقد أن المؤسسات المسيحية القوية التى تفوق الحصر سوف تقلل من فعالية جهوده لتوحيد الامبراطورية وتقويتها. وعلى مدى عشر سنوات كانت هناك محاولة منظمة بأوامر من الامبراطور للقضاء على الكنيسة المسيحية ، واستشهد بعض المسيحيين كما تخلى كثيرون عن دينهم ، إلا أن العديد من الحكام المحليين لم ينفذوا أوامر دقلديانوس بدقة .

وعلى أية حال ، جاء تحول الدولة الرومانية ضد الكنيسة المسيحية متأخرا للغاية ، إذ كان من المستحيل اقتلاع المؤسسات المسيحية من جذورها عندما استطاعت أن تستحوذ على ولاء مايقرب من خمس سكان العالم الرومانى على الأقل ، ولم تستطع الامبراطورية أن تقضى على الكنيسة ، ومن ثم كان عليها أن تتعايش مع هذه القوة العظمى الجديدة التى ظهرت فى العالم. وفى سنة ٣٠٦ اعتزل دقلديانوس منصبه ، وبعدها بسبع سنوات أعلن إمبراطورا الشرق والغرب مبدأ حرية العقيدة فيما عرف باسم "مرسوم ميلانو" ومضى قنسطنطين حاكم العالم اللاتينى ، خطوات أبعد من ذلك حين أعلن تأييده الفعال للمسيحيين ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أخذت الامبراطورية الرومانية ترتبط أكثر بالكنيسة المسيحية .

**٢- قسطنطين الأمبراطور المسيحى**

لقد تحدد شكل الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى حد كبير بفضل اثنين من الأباطرة هما: قسطنطين فى القرن الرابع ، وجستنيان الأول فى القرن السادس ، وكانت أصولهما الاجتماعية متشابهة لدرجة ملحوظة ، فقد كان كلاهما من أصل ريفى بلقانى ، وقد خرج والد قسطنطين وخال جستنيان من هذا الأصل المتواضع ليصبح كل منهما قائدا بارزا يستولى على السلطة الامبراطورية فيما بعد . وكانت هيلينا أم قسطنطين (وهى القديسة هيلانه فى الكنيسة الشرقية) ساقية فى إحدى حانات البلقان وربما كانت تمتهن الدعارة .كما أن جستنيان تزوج من راقصة سيرك هى تيودورا التى ربما كانت تمتهن الدعارة أيضا . وقد تشابه قسطنطين وجستنيان من حيث الكفاية الإدارية ، والدأب والكد العظيم ، والاخلاص للكنيسة .

ولقد ولد قسطنطين حوالى سنة ٢٨٠ من أبويه هيلينا وقنسطنطيوس خلوروس Constantius Cholorus الذى كان قيصرا أو امبراطورا مساعدا فى الامبراطورية الغربية وكان مسئولاً عن بريطانيا وغاليا . وكان قنسطنطيوس خلوروس يعتنق ديانة تعتقد باله وثنى واحد (اله الشمس الذى لايقهر) أما قسطنطين نفسه ، والذى كان قد أرسل إلى بلاط دقلديانوس ، وسافر كثيرا فى أرجاء الامبراطورية الشرقية ، فقد تعرف على الكثير من المسيحيين فى مطلع حياته . وحين اعتزل دقلديانوس العرش سنة ٣٠٦ فشل النظام المعقد الذى وضعه لولاية العرش الامبراطورى ، والذى كان يتكون من اثنين من الاباطرة أحدهما امبراطور أكبر ، والثانى أدنى منه مرتبة ، واثنين من القياصرة أو الأباطرة المساعدين . وهكذا اندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت حتى عام ٣١٠ حين كان هناك ثلاثة من الزعماء يتنازعون السلطة ، كان هناك ليكينيوس Lucinius فى الشرق ومكسنتيوس Maxentius فى إيطاليا ؛ وقسطنطين الذى ارتكزت قوته على غاليا وبريطانيا اللتين كانتا أفقر أجزاء الامبراطورية وأقلها سكانا . وفى سنة ٣١٢ غامر قسطنطين بكل شىء فى زحفه عبر جبال الألب إلى روما لمقابلة خصمه مكسنتيوس الذى كان يتفوق عليه كثيرا فى عدد جنوده . وفى معركة القنطرة الملفية Milvian Bridge على مقربة من روما ، دارت واحدة من أهم المعارك فى التاريخ وانتصر قسطنطين على منافسة وقتله شر قتلة ، وجعله هذا النصر حاكما وسيدا على الغرب . وتقاسم قسطنطين حكم الامبراطورية مع ليكينيوس حاكم الشرق فيما بين عامى ٣١٢ و٣٢٤ ، وفى سنة ٣٢٤ هزم قسطنطين خصمه الشرقى وخلعه عن عرشه ليصبح الحاكم الوحيد للعالم الرومانى .

وقد حار المعاصرون فى تفسير فى تفسير انتصار قسطنطين الذى بدا وكأنه معجزة حدثت عند القنطرة الملفية ، وزعم قسطنطين فيما بعد أن الانتصار لم يكن حدثا عارضا ، وربما كان نتيجة لاعتناقه المسيحية قبيل المعركة . وقد صار اعتناق قسطنطين للمسيحية مثار جدل كبير بين المؤرخين ، وتأتى معظم الأدلة التى تبرهن على اعتناق قسطنطين للمسيحية مما أمدنا به كاتب لاتينى فى آسيا الصغرى هو لاكتانتيوس Lactantius الذى ألف حوالى سنة ٣٢٠ كتاب "موت المضطهدين" ، وهو كتاب لاقى رواجا كبيرا وشعبية واسعة فى العصور الوسطى ، وهو عبارة عن مجموعة من قصص الرعب حول سقوط أولئك الحكام الذين اضطهدوا المسيحيين. وفى ثنايا هذا الكتاب يناقش لاكتانتيوس الأحداث التى أدت إلى معركة القنطرة الملفية ، حيث يروى لنا أن قسطنطين تلقى تعليمات فى الحلم بأن يضع شارة الصليب على دروع رجاله حتى تجلب له النصر . كما أن الأسقف ايوزيبيوس Eusebius اسقف قيصرية ، وأول مؤرخى الكنيسة الكبار ، وأحد أصدقاء قسطنطين وموضع ثقته ، يورد لنا ثلاث روايات عن الأحداث التى أدت إلى الانتصار الكبير الذى أحرزه قسطنطين . ففى سنة ٣١٦ يقرر أن قسطنطين تقبل المسيحية ، ووضع شارة الصليب على دروع فرقه العسكرية ، وفى سنة ٣٢٥ يؤكد ايوزيبيوس فى كتابه "التاريخ الكنسى" أن قسطنطين صلى للرب المسيحى قبيل المعركة، كما أنه أقام لنفسه تمثالا فيما بعد فى روما يمثله حاملا الشارة المسيحية ، ولم يعثر حتى الآن على الدليل الأثرى لهذا التمثال ، وربما كانت رواية ايوزيبيوس فى هذا الشأن غير صحيحة . أما كتاب ايوزيبيوس عن "حياة قسطنطين" الذى كتبه بعد موت الامبراطور سنة ٣٣٧ بوقت قصير - فيقدم لنا نموذجا لحياة مثالية لحاكم مسيحى ، وهو النموذج الذى ظل يحتذى فى كتابة سير الملوك المسيحيين حتى القرن الحادى عشر . وفى هذا الكتاب يذكر المؤلف أن قسطنطين وجنوده شاهدوا قبيل عبورهم جبال الألب إلى ايطاليا ، حيث دارت المعركة ، صليبا يتلألأ فى السماء وتحته عبارة "بهذه الشارة سوف تنتصر" وهو الأمر الذى أدى إلى إشاعة أن قسطنطين مؤزر بقوة الرب المسيحى الذى حمل جنود قسطنطين شارته منذ ذلك الحين فصاعدا .

وثمة دليل تحمله المسكوكات على اعتناق قسطنطين المسيحية ، بيد أنه غير شامل فقد سكت على إحدى العملات صورة إله الشمس التى لاتقهر وسكت معها على نفس القطعة صورة الصليب . بينما أوضحت قطعة أخرى شارة المسيح تدمر إحدى الحيات رمزا إلى تدمير المسيحية للوثنية . وفى قطعة ثالثة يبدو قسطنطين فى زيه الحربى والشارة المسيحية تعلو

خوذته . وهناك ميدالية ترجع فى تاريخها إلى سنة ٣٣٠م بمناسبة تأسيس مدينة القسطنطينية، وهذه الميدالية ذات خصائص رومانية واضحة ، وتوضح الالهة فيكتوريا Victoria (٨) تتوج الامبراطور بيديها . ولو كان قسطنطين مسيحيا مخلصا ، فلابد أنه كان واعيا بضرورة التعبير عن قبوله للديانة المسيحية على عملاته (٩).

وبمضى الوقت حاول كثير من المؤرخين إقامة الدليل على اعتناق قسطنطين للمسيحية ، وصور المؤرخ السويسرى الناطق بالألمانية ياكوب بوركهارت Jacob Burkhardt فى كتابه "عصر قسطنطين العظيم" (الذى صدر سنة ١٨٥٢) قسطنطين كأمير ميكافيللى (انتهازى) . فقد كان بوركهارت صديقا لنيتشه ، كما كان يؤمن بالنظرية الألمانية عن الارادة والقوة وأوضح أن الامبراطورية كانت تعانى من الفوضى سنة ٣١٢ ، وكانت الكنيسة محط الآمال فى إعادة بناء السلطة والاستقرار .

ويصور بوركهارت قسطنطين فى صورة الرجل القوى غير العاطفى الذى أراد أن يفيد من قوة تنظيم الكنيسة المسيحية . وإذ لم يكن باستطاعته أن يقضى على المسيحيين ، فإنه انضم إليهم . ومن ثم فإنه استغل المسيحية لتدعيم قوة إمبراطوريته . وبالرغم من أن بوركهارت حاول أن يحط من شأن ايوزيبيوس باتهامه بأنه مجرد بوق دعاية وكذاب كبير ؛ فإنه شخصيا لم يقدم لنا أى دليل يفند الاعتقاد بأن قسطنطين كان يتصرف من خلال اقتناع دينى عميق ، وربما كان الناس فى القرن الرابع قد ضُللوا ، ولكنهم لم يعرفوا الهزل فى المسائل الدينية .

أما الباحث الفرنسى المعاصر أندريه بيجانيول A.Piganiol فيعتبر أن قسطنطين كان فلاحا مشوش الذهن ، نصف متعلم خلط بين الديانات وبعضها ، كما اعتبره " رجلا مخبولا" يتلمس طريقه كيفما اتفق دون أن يرى ماهو فاعل . إلا أن قسطنطين كان يعى بالتأكيد

---

(٨) ربة النصر عند الرومان .

(٩) كانت طرز العملة الرومانية بما تحمله من أساطير - والتى كانت تتغير سنويا - من أهم وسائل الدعاية الامبراطورية . وكان بوسع قسطنطين أن يستبعد مايشير إلى الآلهة الوثنية على عملاته . والراجح أن قسطنطين رغم إخلاصه للمسيحية وتعاطفه مع اتباعها ، لم يكن مسيحيا بمعنى الكلمة . إذ أنه لم ير بأسا فى أن توجد آلهة وثنية أخرى على عملاته.

انظر مناقشة تفصيلية لهذه المسألة فى :

Jones A.H.M. Constantine and the conversion of Europe, (Penguin, 1972), Pp.48 - 105.

مايفعله فى مجال الحكم ومجال الحرب ، فلماذا نفترض أنه كان مشوشا على هذا النحو فى شئون العقيدة ؟ لقد كان من الشائع فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن أن نفكر فى قسطنطين إما باعتباره رجلا مستهترا هازئا. وإما باعتباره انتهازيا ، وفى الأربعينيات والخمسينيات - نتيجة التغير الذى طرأ على فروض علم التدوين التاريخى - كان هناك رد فعل دينى تجاه هذه النظريات ، فإن المؤرخ الانجليزى بينز N.H. Baynes المتخصص فى التاريخ البيزنطى ، يصور قسطنطين فى صورة البطل المسيحى المخلص الورع . كما يقدم المؤرخ الفرنسى بالانك J.Z. Palanque نظريته عن المراحل الثلاث التى مر بها اعتناق قسطنطين للمسيحية . أولا ، إيمانه بوحدانية الشمس التى لاتقهر التى أخذها عن أبيه، ثانيا الاعتقاد فى الوهية روحية حوالى سنة ٣١٠ وأخيرا التقبل الفعلى للديانة المسيحية قبيل معركة القنطرة الملفية ، وفى رأى بالانك أن اعتناق قسطنطين للمسيحية بحق كان سنة ٣١٢ حين كان قسطنطين قد صار عضوا ثابتا ورعا تقيا فى الكنيسة ؛ رغم بقاء تأثير الخرافات على شخصيته ، ويعتبر تفسير بالانك لاعتناق قسطنطين المسيحية أفضل التفسيرات حتى الآن بالرغم من المبالغة الواضحة تعقيده والحذلقة التى لاضرورة لها .

وينبغى أن نتذكر أن قسطنطين لم ينل قسطا طيبا من التعليم . وأثناء حالة القلق التى أنتابته قبيل معركة الجسر الملفى اعتقد أن بوسعه أن يعقد صفقه مع الرب . ومن الواضح أن هذه المراهنة على المسيحية هى التى قادته إلى نصره ، ومن ثم أصبح مؤيدا للكنيسة . وكان قنسطنطين يعتقد فى جميع الحالات بقوة إله واحد ، كما أن الضغوط التى تعرض لها فى الفترة التى سبقت المعركة قوت إيمانه برب المسيحيين ووطدته ، صحيح الامبراطور لم يتلق المعمودية حتى اللحظة التى رقد فيها على فراش الموت ؛ ولكن تعميد الأطفال لم يكن شائعا فى تلك الأيام . وكان قسطنطين مسيحيا مخلصا طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياته ، كما تميز بنشاطه وحيويته المتدفقة ، أكثر من الروحانية والاهتمام بالنشاط العقلى ، كذلك كان قسطنطين أكثر جنوحا نحو الغضب والعنف ، وأقل ميلا إلى التفكير الهادىء المتأمل والواضح أنه لم يكن قديسا ؛ بيد أنه اعتبر نفسه رجلا أرسلته العناية الإلهية لانقاذ الامبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية . وكان يرى أن كلا من الامبراطورية والكنيسة ترتبط بالأخرى . ومنذ بداية ولايته للعرش الامبراطورى أدرك قسطنطين أن الكنيسة يمكن أن تكون بمثابة العمود الفقرى للامبراطورية ، ومن ثم فإنه بذل محاولات مستميتة فى سبيل الحفاظ على وحدة الكنيسة ، انطلاقا من إيمانه بأن الرب قد اختاره لهذه المهمة . وقد حفظت جهوده الدينية والسياسية الامبراطورية من السقوط حوالى مائة سنة ، كما أضعفت من قوة المذاهب المخالفة مثل الأريوسية والدوناتية ، وبرهن قسطنطين من خلال هذه الأعمال على أنه

رجل ثاقب النظر وله مثله العليا ، كما أكد نشاطه ومهارته الإدارية الفائقة . ولم يكن فهم قسطنطين للمسيحية فهما عقلانيا على الاطلاق إلا أنه كان يعتبر نفسه مسيحيا تقيا . لقد وضع الأساس ومهد الطريق أمام الكنيسة فى العصور الوسطى .

ومنذ بداية حكمه حاول قسطنطين مساعدة الكنيسة المسيحية عن طريق منح الامتيازات الخاصة للأساقفة ، ومن الواضح أنه قصد أن يتصرف باعتباره ممثل الكنيسة أمام السكان غير المسيحيين فى الامبراطورية ، فقد أطلق على نفسه اسم "أسقف الذين خارج الكنيسة"، كما تعمد أن يسمح للأساقفة بإدارة شئون الكنيسة الداخلية ، بيد أن قسطنطين سرعان ما أدرك أن ذلك أمر غير ممكن ، إذ كان الأساقفة يفدون عليه فورا من شتى إنحاء الامبراطورية لكى يحسم المنازعات الدينية التى أخذ تهدد بتمزيق وحدة الكنيسة ، فلم تكن الكنيسة قد طورت بعد نظاما من السلطة العليا التى يمكنها تحديد ملامح العقيدة ، وترك لكل أسقف أن يقرر مثل هذه المسائل بما يتلاءم مع مصلحة أسقفيته ، وأدى هذا إلى ظهور الحاجة إلى مجلس عظيم يضم كل أساقفة الامبراطورية لمناقشة هذه المشكلات ووضع الحلول المناسبة لها ، وكان مجمع نيقية الذى انعقد ٣٢٥ هو أول هذه اللقاءات العامة ، وقد رأس قسطنطين هذا المجمع وحاول أن يفرض معادلة مذهبية تخضع لها كل الفرق الدينية ونجح فى ذلك مؤقتا .

كان اشتراك الغرب محدودا فى مجمع نيقية ؛ لأن المشكلة الآريوسية التى كان على مجمع نيقية أن يحلها كانت مشكلة تهم الشرق وحده . فقد كان على الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى أن تتبنى ثقافة مختلف المناطق التى كان أتباعها يقطنون بها . وهكذا كان ثمة تمهيد لانفصال دينى ومذهبى بين الشرق والغرب ؛ إذ كان المسيحيون فى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، التى شاعت بها اللغة اليونانية راغبين فى صياغة العقيدة وتحديد جوهرها فى مصطلحات منطقية وفلسفية (١٠).

---

(١٠) الحقيقة أن هذا الاختلاف فى التفسير فى شئون الدين بين الشرق والغرب إنما يعود فى معظمه إلى القوانين التى ميزت الشرق بمستواه الحضارى وتراثه الفلسفى المستمد من الحضارات القديمة التى قامت على أرضه ومستوى سكانه الذين كان عدد كبير منهم من أهل المدن - التى قامت كثير منها فى أرجاء الشرق - عن الغرب بمستواه الحضارى المتواضع حيث الطابع الريفى هو السائد ، وحيث المستوى الحضارى المتواضع لسكانه الذين تميزوا ببساطة التفكير وسذاجته ، ومن ثم كان طبيعيا أن ينتشر المذهب الآريوسى بإطاره الفلسفى فى الشرق بينما انتشر مذهب أثناسيوس بإطاره العاطفى فى الغرب . على أن مايهمنا هو النتائج السياسية والاجتماعية البعيدة المدى لهذا النزاع الدينى الذى كان فى بعض جوانبه تعبيرا عن القوميات الشرقية وسيما مصر والشام. (المترجم)

أما العالم اللاتينى فى الغرب . فقد خلا فى معظمه من المذاهب التى اختلفت حول طبيعة المسيح والتى أصابت الكنيسة الشرقية ، وبدا الأمر فى نظر المسيحيين الغربيين وكأنما يحاول رفاقهم فى الشرق أن يحددوا مالا يمكن تحديده ، أى ثالوث الأب والأبن والروح القدس . وبدلا من المشكلات الفلسفية التى كانت ذات أهمية بالغة بالنسبة للشرقيين اهتم الغربيون بمشكلات عملية تهتم بإدارة الكنيسة ، والعلاقة بين الله والانسان ، وظلت مسألة تحديد الثالوث المقدس بعيدة عن قدرة العقل الانسانى فى نظر الكنيسة الغربية اللاتينية حتى القرن الثانى عشر حين حاول أبيلار Abellard أن يقوم بذلك . أما فى الشرق ، فقد داوم قادة الكنيسة منذ القرن الرابع حتى القرن السادس دون كلل على المهمة التى حددوها لأنفسهم وهى تحليل طبيعة المسيح . وقد أدى الإصرار الشرقى على التحديد الفلسفى والمنطقى للثالوث إلى كثير من المنازعات تركزت فى مذهبين كبيرين هما الآريوسية فى القرن الرابع ، والمونوفيزيتية (مذهب الطبيعة الواحدة) فى القرن السادس.

أما الآريوسية ، التى اشتقت اسمها من آريوس Arius القس السكندرى ، فقد أصرت على التمييز الشديد بين الله والمسيح ، وقد أدخلت هذه العقيدة فكرة تعدد الآلهة فى المفاهيم المسيحية ، وهى الفكرة التى أخذ بها العالم اليونانى - الرومانى القديم . لقد حاول آريوس ، مثلما فعل المفكرون الوثنيون ، أن يجعل هناك تمييزات ومستويات للألوهية وسرعان ما اتخذت الكنيسة الغربية موقفا معاديا للآريوسية ادراكا منها للخطر الكامن فى الارتداد إلى مثل هذا الشرك . وانشقت الكنيسة الشرقية تماما بسبب المسألة الآريوسية . وبالرغم من وجود المشاعر الوطنية ، التى جعلت الموقف يتفاقم ؛ فقد تولدت المرارة عن الصراع الطويل الذى نشب بين الاسكندرية وغيرها من كبريات مدن الشرق . فلم تكن الاسكندرية مستاءة وغيورة من أسقف القسطنطينية فحسب ، بل إن المصريين أيضا لم يكونوا راضين قط عن الحكم الامبراطورى . وكانت القومية المصرية تمر بموجة إحياء عظيمة فى القرن الرابع ، ومن الواضح أن مذهب آريوس قام فى معظمه على أرضية من الاختلافات الوطنية والفكرية . ومما زاد فى حدة الصراع أن أسقف روما والامبراطور قد ساندا بطريرك القسطنطينية فى موقفه أواخر القرن الرابع مما قوى رغبة المصريين فى الانسلاخ عن الامبراطورية ، وعبروا عن مشاعرهم الوطنية من خلال المذهب الآريوسى فى القرن الرابع ، والمذهب المونوفيزيتى فى القرن السادس ، واستمر الصراع فترة تزيد على قرنين من الزمن اتسمت بالمرارة ثم انتهت بتسليم المصريين البلاد بلا مقاومة إلى الفاتحين المسلمين فى القرن السابع .

أما المذهب الدوناتى فكان أكثر أهمية بالنسبة للمسيحيين ، فى الكنيسة الغربية ، إذ أدى هذا المذهب إلى إندلاع النزاع بين الدوناتية والكاثوليكية وهو النزاع الذى استمر منذ القرن الرابع حتى القرن السادس عشر وتخللته فترة من الهدوء من سنة ٧٠٠ إلى ١٠٥٠ . وهذا هو النزاع الأساسى فى الكنيسة الغربية . ففى القرن الرابع كان المذهب الدوناتى محدودا بإطار مكان مولده فى شمال أفريقيا (الجزائر وتونس حاليا) حيث كان المجتمع القديم ذو الطابع الحربى ينقسم إلى كنائس تتبع الإيمان القويم وكنائس منشقة ، وقد اشتق المذهب الدوناتى اسمه من الأسقف دوناتوس Donatus الذى كان أحد مؤسسيه ، وكان هذا المذهب هو إحدى النتائج غير المباشرة لاضطهادات دقلديانوس . فقد كان حاكم ولاية أفريقيا متساهلا تماما ، إذ كان يطلب من المسيحيين مجرد التنصل الرمزى من دينهم بتسليم كتبهم المقدسة له ، وركن المسيحيون الأغنياء إلى هذا التصرف . ولكن حينما انحسرت موجة الاضطهادات وجدوا أنفسهم متهمين بالخيانة من قبل جماعة من المتعصبين الذين كان معظمهم من أبناء الطبقات الفقيرة ، والذين طلبوا أن تقتصر عضوية الكنيسة على القديسين الأبطال الذين لم يخونوا دينهم على أى وجه .

وزعم المتزمتون أن أولئك الخونة خسروا رحمة الرب ، ولم يعودوا مسيحيين ، كما طلبوا أن تتم الأسرار المقدسة على أيدى قساوسة طاهرى الأرواح ، واعتبروا أن الاسرار التى تتم على أيدى قساوسة غير جديرين بذلك تعتبر باطلة ، أما الأغلبية الكاثوليكية فقد ظلت على اعتقادها بأن صحة الأسرار المقدسة تتوقف على منصب القسيس وليس على صفاته الشخصية. وكان هذا الأمر هو نقطة الخلاف - كنيسة من القديسين فى مواجهة كنيسة كاثوليكية لكل العالم - وعند نهاية القرن الرابع سخر القديس أوغسطين St. Augustine ، وهو أحد آباء الكنيسة الكبار ومن أبناء شمال أفريقيا - كل علمه وفصاحته ضد الدوناتيين مناصرا الموقف الكاثوليكى ، ولكن لا مجادلات الكاثوليك ، ولا الاضطهادات التى مارسها الامبراطور الأرثوذكسى استطاعت أن تقضى تماما على الدوناتيين ، إذ صار هؤلاء يشكلون كنيسة سرية ولكنهم لم يختفوا إلا بعد الفتح الاسلامى فى القرن السابع . وقد ظهرت الدوناتية من جديد فى الغرب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وكان اختفاؤها من على المسرح الدينى المسيحى لعدة قرون قد ساعد الكنيسة الكاثوليكية على تاكيد زعامتها لأوربا فى العصور الوسطى الباكرة وهى المهمة التى كانت الكاثوليكية لاتستطيع القيام بها لو أنها انساقت وراء المثل التى يطرحها المذهب الدوناتى ولم تجتذب الناس أجمعين إلى حظيرتها ، وتحاول أن تمدينهم.

وفى العصور الوسطى العالية ، طلب الرجال المتعلمون من أصحاب الوعى الأخلاقى بين العلمانيين أن يكون الأكليروس فى مستوى أخلاقى أكثر سموا ، منتهجين بذلك خطى أصحاب المذهب الدوناتى . وإذ لم يكونوا راضين بهذا الشأن ، فقد أنكر بعض المتعصبين الغلاة من بينهم التمييز بين العلمانيين ورجال الأكليروس . وبرزت إلى الوجود نظريات هرطقية فى أنحاء متفرقة من أوربا الغربية ترجع فى أصولها إلى المذهب الدوناتى ، وقد حاربت الكنيسة الهرطقات بكل الوسائل المتاحة ، ذلك أن الهرطقات كانت تضرب الأساس الذى قامت عليه الكاثوليكية ، بيد أن الكاثوليكية لم تتمكن أبدا من أقتلاع الدوناتية من جذورها تماما ، وبمجيء القرن السادس عشر شعر كثيرون أن المذهب الدوناتى كان سليما فى موقفه . فقد أظهرت حركة الاصلاح الدينى - وفقا للمفهوم البروتستانتى - تراثها الدوناتى : فلكى تكون عضوا فى الكنيسة بحق ينبغى عليك أن تكون قد مررت بتجربة اعتناق العقيدة، كما يتعين عليك أن تكون على اقتناع تام بقبول نعمة الايمان . وكانت المشكلة التى واجهتها الكنيسة الكاثوليكية تتمثل فى استيعابها للمجتمع ، وفى أنه بقدر ما كان يحتمل أن يتحضر المجتمع ويتطور من خلال ارتباطه بالكنيسه ، كان من المحتمل أيضا أن تتدهور الكنيسة بتأثير هذا المجتمع . وكان يمكن التقليل من هذه الأخطار لو أن المسيحية ظلت ديانة الصفوة ، كما كان يمكن تحقيق المثل الدوناتية عن كنيسة القديسين . إلا أن مجتمعا مسيحيا يقتصر على القديسين لم يكن ليستطيع أن يصبح فى الوقت نفسه كنيسة كاثوليكية (عالمية) تجلب الرحمة والنعمة لبنى الانسان جميعا ، ولم يكن ممكنا على الاطلاق التوفيق بين الكاثوليكية والدوناتية ، واحتار قسطنطين بسبب النزاع المذهبى حول المذهب الدوناتى . وكان من الضرورى ، ومن المحتم ، أن تفشل محاولاته لإقرار السلم بين الطائفتين .

كان قسطنطين يستشير صديقه ومؤرخ قصة حياته أيوزيبيوس أسقف قيصرية بفلسطين فيما يتعلق بتعامله مع الكنيسة ، ويعتبر كتاب أيوزيبيوس "حياة قسطنطين" واحدا من أهم الأعمال الأدبية فى العصور الوسطى . فهو يضع نموذجا لحياة مثالية لأحد ملوك العصور الوسطى.كان ملوك العصور الوسطى رجالا برابرة متوحشين حتى أواخر القرن الحادى عشر . وعلى أية حال فإن قصص حياة أولئك الرجال كتبها الوزراء الذين كانوا من رجال الكنيسة والذين كانوا يرغبون فى تصوير سادتهم فى صورة أصحاب الفضائل النبيلة الذين اختارهم الرب لمناصبهم ، كما صوروهم على أنهم أصدقاء عظماء للكنيسة يتمتعون بالنعمة ويتسمون بالرحمة . فإن جريجورى التورى (القرن السادس) فى كتابه "تاريخ الفرنجة" يقدم لنا حياة كلوفيس Clovis ملك الفرنجة ، على النحو الذى قدمه أيوزيبيوس لحياة قسطنطين ، بل إن

كلوفيس قد سمى "قسطنطين الثانى". وفى أواخر القرن العاشر كتب قس فرنسى اسمه دودو Dudo سلسلة تراجم لدوقات نورماندیا الأوائل ، كانت تعكس تأثيرات طريقة أيوزيبيوس . وتتجلى الحرفية العظيمة فى هذه الأعمال النورماندية ؛ فقد ظهرت بعد الأحداث بحوالى ثمانين أو مائة عام ، لتسير على نهج التراث الأيوزيبى (نسبة إلى أيوزيبيوس) فى محاولة خلق ما كان يجب أن يكون ؛ لاتقرير ماحدث بالضبط ، فإن الحقائق التاريخية فى هذه السير ماتزال موضع تساؤل ، لا لأن الذين كتبوها كانوا جاهلين بالحقيقة ، ولكنهم لأنهم طرحوا ماكانوا يريدونه بمهارة فائقة .

كان الأدب التاريخى أوائل العصور الوسطى ، مثل سير القديسين Hagiography، قائما على أساس مفهوم تقديم المثل الأعلى لاتقديم الواقع ، وقد تبع هذا النوع من التدوين التاريخى Historiography مفهوم الفلسفة الأفلاطونية عما يجب أن يكون عليه الملك أو الإمبراطور أو الأسقف . وتحفل الكتابات التاريخية فى العصور الوسطى بأخبار القديسين الذين تتم المعجزات على أيديهم ، وذلك تحقيقا لمفهوم الكاتب نفسه عن القديس المثالى ، كما تمتليء هذه الكتابات بأخبار الملوك الذين يتوافقون ويتلاءمون مع النموذج المثالى للملك . واستمر هذا الالتزام الأدبى بالمثل الأعلى فى كتابة التاريخ حتى القرن الحادى عشر على أقل تقدير . ولم يكن هناك مكان فى أدب العصور الوسطى المبكرة للشخصية الحقيقية ذات الميزات والخصائص الفردية ؛ فإن احتذاء الاتجاهات التى كانت واضحة بالفعل فى الكتابات الرومانية المتأخرة جعل المثل الأعلى والشخصية العامة يطردان الشخصية المتميزة الحقيقية من ميدان الأدب . ومن حين لآخر نجد فى الكتابات التاريخية أوائل العصور الوسطى رنة واقعية، فإن جريجورى التورى ، على سبيل المثال ، يزيح النقاب أحيانا عن كلوفيس الهمجى كما هو دون رتوش . وثمة سؤال يطرح نفسه عما إذا كان مثل هذا الخروج المؤقت عن تقاليد الكتابة التاريخية آنذاك راجعا إلى ضعف مفهوم المثل الأعلى أم أنه كان ببساطة تقليلا من حدة الصنعة الأدبية .

هكذا حاول ايوزيبيوس أن يصور قسطنطين كما يجب أن يكون ، لا كما كان بالفعل . كان قسطنطين فى نظر ايوزيبيوس تحقيقا لخطوط التطور العالمى التى أرسيت حين كانت الامبراطورية الرومانية (تحت حكم أغسطس) والكنيسة تبدآن حياتهما فى الوقت نفسه ، ووفقا لهذا الموضوع الذى كتبه ايوزيبيوس دخل العالم أعظم مرحلة من مراحل تاريخه بالبداية المشتركة لكل من الديانة المسيحية والسلطة الامبراطورية الرومانية اللتين تجسدتا فى شخص

قسطنطين . اعتقد ايوزيبيوس أن الامبراطورية ستضمن استمرار وبقاء المسيحية إلى الأبد ، وأن الرب لابد وأن يكافئها على ذلك بالسعادة والمجد العظيم . ولم ينحسر هذا النوع من التفاؤل إلا مع فشل الامبراطورية قرب نهاية القرن الرابع ، وتخلى التفاؤل القائم على اتحاد الامبراطورية والكنيسة عن مكانه للتشاؤم المصحوب بالتحقق من أن الامبراطورية بناء زائل فى نهاية الأمر ، وأن مصير الكنيسة مستقل عن مصير باقى الامبراطورية . وكان هذا هو موضوع كتاب "مدينة الله" لأوغسطين ، فقد عاش ايوزيبيوس فى زمن بدا فيه أن أشياء عظيمة سعيدة على وشك الحدوث ، ولم تحدث هذه الأشياء . بيد أننا لانستطيع أن نلوم ايوزيبيوس على تفاؤله ، فقد كانت كل مؤشرات عصره تشير إلى عصر هذه السعادة والتقدم الذى لم يسبق له مثيل . ولم يكن ثمة شك فى أن الرب سيكافىء الامبراطورية على اعتناق المسيحية . ولم يكن تشاؤم أوغسطين أقل ارتباطا بالظروف الاجتماعية ؛ ذلك أنه حين مات سنة ٤٣٠ كان الغزاة الوندال يطرقون أسوار مدينته الأسقفية .

وقد أساء النقاد المحدثون فهم ايوزيبيوس ؛ إذ أنهم غالبا مايزجون به بشكل ما فى مقارنة غير عادلة مع أوغسطين . فبينما كان كتاب أوربا العصور الوسطى يدينون بالكثير لأوغسطين فانهم لم يروا أن آراء ايوزيبيوس التاريخية ضحلة بالقدر الذى رأيناها نحن به . وكلما ظهر ملك يحابى الكنيسة هللوا له وأعتبروا أنه قسطنطين آخر ، وتسربت إلى الكتابات المعاصرة عن الحاكم نغمة متفائلة تقول بأن الرب سوف يكافىء الملك المسيحى التقى بالنصر والمجد ، بلا جدال !

كانت آخر جهود قسطنطين لصالح الكنيسة هى تأسيس روما جديدة فى القسطنطينية . فبالرغم من كل جهوده على مدى السنوات العشر الأولى من حكمه ظلت الأرستقراطية الرومانية على ولائها للآلهة الوثنية القديمة ، وحتى أواخر القرن الرابع لم تكن غالبية الطبقة الحاكمة القديمة فى المدينة الخالدة قد تحولت إلى المسيحية . ولم يكن قسطنطين يشعر أنه قوى بالقدر الذى يكفى لإجبار الارستقراطية القديمة على الدخول فى حظيرة الكنيسة ؛ ولكنه كان يأمل فى التقليل من شأن روما فى العالم وتدمير مكانة الوثنية الأرستقراطية وتأثيرها ، واستمرت الارستقراطية الرومانية فى التمتع بالثروة والسلطان فى الغرب وفي روما على وجه الخصوص. وببناء القسطنطينية جسد قسطنطين عاصمة امبراطورية جديدة حيث تتفوق المسيحية تفوقا لايقبل التحدى ، ويحكى ايوزيبيوس عن الحلم المعجزة الذى دفع بقسطنطين إلى بناء عاصمة جديدة فى بلدة بيزنطة الاغريقية القديمة على ضفاف البسفور ، حيث تتمتع بموقع حصين يحفظها من الهجوم بفضل مزاياه الاستراتيجية الفائقة .

وقد صممت القسطنطينية - العاصمة الجديدة - على نمط روما بتوجيه من قسطنطين ، وملئت بالأعمال الفنية القديمة المجلوبة من مدن البحر المتوسط . بل إن قسطنطين جلب من روما جموعا من العامة أسماهم " الشعب الروماني" لكي يضفي على المدينة الجديدة رونق وبهاء العاصمة القديمة . وعلى المدى الطويل ، ورغم جهوده وخططه العظيمة من أجل العاصمة الجديدة ، فإن القسطنطينية لم تؤد إلا إلى تصعيد عملية تقسيم الامبراطورية الرومانية . فان خلق عاصمة شرقية جديدة شجع على تقسيم الامبراطورية بين حاكم شرقي وآخر غربي ، وهو ما كان دقلديانوس قد حاوله بالفعل . وحدث عدة مرات في القرن الرابع أن وجد امبراطوران ، وبعد عام ٣٩٥م انفصم الجزآن اليوناني واللاتيني لعالم البحر المتوسط عن بعضهما انفصاما لم تضمهما من بعده وحدة سياسية أبدا ، وبحلول القرن السادس صارت القسطنطينية يونانية تماما في لغتها وثقافتها ، فقد حولت العاصمة الجديدة شعوب شرق المتوسط بعيدا عن روما وشجعت انفصالهم المتزايد عن الغرب اللاتيني وحضارته ، وكانت مجموعة قوانين جستنيان ، التي نشرت في القرن السادس ، آخر الأعمال التي كتبت باللغة اللاتينية في القطاع الشرقي من الامبراطورية .

بيد أن القسطنطينية كانت على الأقل قلعة جديدة عظيمة في الشرق ، واستطاعت أن تنقذ أوربا الغربية المسيحية أوائل العصور الوسطى بفضل كفاءتها . فقد كانت القسطنطينية ، بفضل موقعها الاستراتيجي على مفترق الطريق بين الشرق والغرب ، قادرة على التصدي لغزوات الأجناس والديانات الشرقية المختلفة ، وسد الطريق المؤدي إلى روما وأوربا الغربية أمامها . وأوضح الأمثلة على ذلك هو وقف الزحف الاسلامي عند أسوار القسطنطينية في القرن الثامن . فبسبب الدور الذي لعبته القسطنطينية كقلعة تحمي أوربا نجت الشعوب الأوربية في العصور الوسطى من الخضوع للسيطرة الدينية ، والسيادة العسكرية للجيوش الاسلامية .

وعلى المدى القصير ، فإن النتائج التي نجمت عن بناء القسطنطينية لم تحقق آمال قسطنطين . لأن هيبة روما ومركزها في العالم اللاتيني لم ينلهما أذى بسبب العاصمة الشرقية. فقد كانت القسطنطينية مجرد بديل لروما . وهنا تظل الأسئلة الحقيقية مطروحة عما إذا كان ممكنا تحويل الارستقراطية الرومانية القديمة إلى المسيحية ، وإذا ما كان تحويل روما النهائي إلى مدينة مسيحية يمكن أن يتحقق ؟ وقد تحقق هذا فعلا في القرن التالي لموت قسطنطين على أيدي خلفائه الأباطرة المسيحيين وأساقفة روما .

### ٣- الامبراطورية الرومانية المسيحية

أثيرت مشكلة العلاقة بين الكنيسة والملكية المسيحية للمرة الأولى فى القرن الرابع ، بعد اعتناق أباطرة الرومان للمسيحية ، وظلت هذه المشكلة واحدة من المشكلات المميزة فى حضارة العصور الوسطى ، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن علاقة الدولة بالكنيسة كانت هى الموضوع السائد والمستمر فى الشئون الأوربية الداخلية حتى القرن الثانى عشر .

وتكمن جذور هذه العلاقة فى الفترة السابقة على انتصار المسيحية . ففى العالم القديم كان ثمة تقارب شديد بين السلطة الملكية والسلطة الكهنوتية ، كانت سلطة الملكية ترتكز على دعامة وثيقة الصلة بالآلهة ، ومن ناحية أخرى كان رجال الكهنوت فى الغالب بمثابة قوة اجتماعية وسياسية أيضا . فمن المعلوم جيدا أن حكام بلاد النهرين ومصر كانوا مرتبطين بالآلهة ، بل إنه حتى الرومان المحدودى الأفق الذين عاشوا فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، كانوا متأثرين جزئيا بهذه التقاليد الخاصة بالملكية المقدسة ، وقد قطعت الديانات الشرقية التى تعبد الشمس والتى انتشرت فى العالم الرومانى فى القرن الثانى شوطا أبعد فى هذا السبيل ، وترتب على هذا أن تطورت كثيرا فكرة القداسة التى أضفاها الأباطرة على السلطة الامبراطورية . وتجسد ذلك فى نوع من الوحدانية السياسية ، إذ كان من المعتقد آنذاك أنه يوجد اله واحد فى السماء وامبراطور واحد على الأرض نائبا للذات المقدسة وشريكا لها .

وقبل قسطنطين ، كان قادة الكنيسة يبذلون مافى وسعهم لمقاومة هذه الوحدانية السياسية لأن إلههم لم يكن هو نفسه إله الدعاة الامبراطوريين . وكان غاية مايمكنهم قوله عن الملوك والأباطرة أنهم شر لابد منه ، كما كان كثيرون من المسيحيين الأوائل يعبرون عن عصيانهم للامبراطور أما سلبا أو ايجابا . ووفقا لعقيدة الكنيسة فى الحياة الآخرة ، فان سلطة القوى الأرضية (الحكام ، الملوك ، الأباطرة) كانت تعتبر سلطة مؤقتة ومقيدة إلى حد كبير وستزول فى يوم الحساب الأخير الذى يتوقعه المسيحيون فى المستقبل القريب .

إلا أن ارتقاء أحد المسيحيين للعرش الامبراطورى حتم على الكنيسة أن تعيد النظر فى موقفها من الملكية . فطالما كان الامبراطور غير مسيحى ، ومعاديا للكنيسة فى بعض الأحيان، لم تكن الأسئلة النظرية حول العلاقات بين الكنيسة والدولة تثار إلا فيما ندر . وكان بوسع الكنيسة أن تأخذ موقفا سلبيا من الدولة دون أدنى شك أو تردد من قبل قادتها . ولكن تتويج ملك مسيحى ، كان يثير زوبعة من المشكلات الجديدة التى لم يكن من اليسير أن يجدوا لها حلا .

كانت إعادة صياغة مفهوم الكنيسة عن الملكية مسألة حتمية بسبب تدخل كل من الامبراطور والأساقفة فى شئون الآخر فى القرن الرابع . ذلك أن الهرطقات ، والانقسامات ، وطلب الأساقفة لتدخل الدولة فى حياة الكنيسة من ناحية ، وما أسماه بيورى J.B. Bury "ميل الأباطرة الاستبدادي للتحكم فى جميع القوى الاجتماعية" من ناحية أخرى ، قد خلق إتحادا وثيقا بين الكنيسة والدولة .

ومنذ عصر قسطنطين أخذ الامبراطور المسيحى يلعب دورا هاما ورائدا فى حياة الكنيسة ، وقد تحدد تاريخ كنيسة القرن الرابع فى جزء كبير منه بسياسة مختلف الأباطرة المسيحيين المتقلبة وآرائهم الدينية ، وقد رأينا بالفعل كم كان هذا واضحا فى عهد قسطنطين الذى شهد تدخل الدولة فى منازعات الكنيسة ، وتضارب الأهداف الكنسية والعلمانية ، كما شهد تعاون الامبراطور والأساقفة والعداء الشديد بينهم أيضا ، فإن الحوادث الكئيبة ، والمثيرة للسخرية أحيانا ، فى مجرى العلاقات بين الدولة والكنيسة زمن قسطنطين تكررت مرات ومرات فى أيام خلفائه حتى نهاية القرن الرابع . ويجب علينا أن نتذكر أنه لم يمكن القضاء على الآريوسية بمجرد إدانتها فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ، إذ استمر الصراع بين الاساقفة الارثوذكس ، والفرقة الآريوسية والمجموعات الهرطقية الأخرى ، بشكل مدمر وعنيف غالبا ، حتى العقد الأخير من القرن الرابع .

وتسببت الفوضى الناشئة عن الانقسامات العنيفة فى الكنيسة حول مسائل العقيدة فى تدخل السلطة . كانت الفرق المسيحية المتنافسة فى القرن الرابع - وهى الآريوسية والارثوذكية الشرقية وما شابهها من الفرق - تولى اهتماما كبيرا للحصول على مساعدة الحكومة لإسكات معارضيها ، ومن ثم فانه مع بداية وجود الامبراطورية الرومانية المسيحية كان باستطاعة قسطنطين أن يرسى التقاليد التى جعلت من حق الامبراطور أن يقوم بحل مشكلات العقيدة ، وفقا لرأيه الخاص فى غالب الأحيان ، ولكى يدعو إلى عقد المجامع الكنسية ويرأسها ثم ينفذ قراراتها .

وأدى هذا الموقف إلى تشجيع التحول العام نحو بعث وحدانية القرن الثالث السياسية فى صيغة مسيحية ، كان قسطنطين يعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية لتولى المنصب الامبراطورى . وكان ايوزيبيوس يظن أن الامبراطور تفويض إلهى على الأرض يعلو فى مكانته على الكنيسة بأسرها . وطبق أيوزيبيوس الأفكار السياسية الخاصة باللاهوت التوحيدى على الامبراطور المسيحى ، وفى سياق للديح الذى أغدقه على قسطنطين حجب السلطة

الامبراطورية خلف ضبابية مقدسة ، وهنا تكمن بداية النموذج البيزنطى الذى ظهر فيما بعد (القرن السادس) عن الملك - الكاهن ، وهو النموذج الذى يجمع فيه الامبراطور حقا بين القيصر والبابا ، وما أن أهل القرن السادس حتى كان الامبراطور يوجه السياسة الكنسية وفقا لنظرية القيصرية - البابوية تلك التى تقول بأن الإمبراطور هو نائب الله على الأرض ، وأنه يتفوق فى سلطته الدينية على بطريرك القسطنطينية وجميع رجال الكنيسة ، ولم تواجه هذه النظرية بأى تحد فى بيزنطة حتى القرن الثامن ، وظلت دائما تعنى الاتجاه السائد فى العالم المسيحى الشرقى .

وليس من الصعب أن نحدد الضرر العظيم الذى لحق بكل من الامبراطورية والكنيسة بل والحضارة الغربية ، من جراء اعتناق القادة المسيحيين لمذهب الوحدانية السياسية فى القرن الرابع . ويرجع السبب الجوهرى فى فشل الكنيسة الكاثوليكية فى الحفاظ على وحدتها فى العصور الوسطى إلى أن مختلف وجهات النظر التى وجدت فى الشرق والغرب كانت قائمة على أساس فعالية وجدوى المحافظة على مبادئها والممارسات المتعلقة بعلاقة الدولة بالكنيسة. ذلك أن الاساقفة اللاتين الذين لايدينون بشىء للامبراطور ، والذين سايروا القيصرية - البابوية بسبب دوافع داخلية بسيطة ، بدأوا يطورون أفكارا مغايرة فى العقدين الأخيرين من القرن الرابع . وعند نهاية القرن الخامس كان أسقف روما ينكر حق الامبراطور فى التدخل فى شئون الكنيسة المذهبية وتنظيمها . وكان النزاع الذى استمر عدة قرون نتيجة لذلك بمثابة السبب الرئيسى فى الانشقاق بين الكنائس الشرقية اليونانية والكنائس الغربية اللاتينية . الا أن الغرب فى القرن الثامن أخذ بشىء يشبه الفكرة الرومانية - البيزنطية عن الملكية المقدسة إلى حد كبير ، وسرعان ما أصبح هذا سببا من أسباب الصراع والمنازعات التى شهدتها أوربا العصور الوسطى . هذه المذاهب الضارة القائلة بالسلطة الملكية المطلقة ، والتى لم يتم التخلص منها تماما فى العالم الحديث حتى القرن العشرين ، ترجع فى أصولها الأولى إلى الوحدانية السياسية ، أى نظرية الحاكم الواحد المقدس ، التى عرفها القرن الرابع .

وحتى فى بيزنطة نفسها ، فإن المزاعم المبالغ فيها والمستمدة من الوحدانية السياسية آتت نتائجها المدمرة ؛ ليس فقط لأنها أبعدت أسقف روما الذى لم يكن ممكنا أن تتحقق السيادة الكاملة للامبراطور الشرقى البيزنطى دون موافقته وتأييده ، ولكن أيضا لأن المزاعم نفسها هى التى أدت مباشرة إلى فقدان أغنى الولايات الشرقية التى فتحها المسلمون فى القرن السابع . ففى القرنين الخامس والسادس جعل الامبراطور من نفسه نائبا عن الرب ورئيسا للكنيسة وبذلك وجد نفسه مضطرا إلى اضطهاد مجموعات كبيرة جدا من الهراطقة فى مصر

وسوريا مما جعلهم يتحولون من الخلاف المذهبى إلى المعارضة السياسية ويرحبون بالعرب الفاتحين باعتبارهم منقذيهم .

وإذا كانت الآثار الطويلة المدى الناجمة عن استيعاب الفكر المسيحى لفكرة الملكية المقدسة غير ملائمة فى كثير من الأحيان ، فإنه ينبغى أن نلاحظ أن ثمة فوائد كثيرة قد تحققت من جراء قبول المسيحيين للوحدانية السياسية وتطبيقاتها . وذلك أن اعادة الامبراطورية والسلطة فى القرن الرابع لم يكن ممكنا بدون وجود ايديولوجية تعيد للامبراطور ولاء واخلاص عامة الجماهير فى الامبراطورية ، فمن الصعب أن نرى فى عصر قسطنطين أى أساس آخر لاستعادة ولاء الناس غير اضفاء صفة القداسة على المنصب الامبراطورى . كانت الوحدانية ضرورة سياسية ، كما كان ضغط الحاجة السياسية والاجتماعية هو الدافع إلى نمو مذهب الملكية المسيحية المقدسة أواخر عصر الامبراطورية ، وبينما استطاعت الايديولوجية الجديدة أن تحتفظ بالولاء الشعبى فى الغرب لمدة قرن من الزمان ؛ فإنها فى الشرق ، الأكثر سكانا وتحضرا ، وضعت أساسا للسلطة المطلقة للامبراطور المقدس التى استمرت إلى مابعد غزوات الجرمان . وكان للوحدانية السياسية أثرها من حيث النقد المستمر لوسائل أباطرة القرن الرابع فى تركيز كل سلطة الدولة بأيديهم . ويمكن الرد على هذا بالقول بأن هذا النظام الاستبدادى كان نظاما لايمكن لأى قائد مسيحى أن يتعاطف معه ، بيد أنه بات واضحا خلال الجزء الأكبر من القرن الرابع أن البديل الوحيد للامبراطورية ، هو انطفاء شعلة الحضارة ، وبالنسبة لأى زعيم مسيحى كانت الامبراطورية - بكل مزاعمها الدينية المتطرفة - أفضل من الفوضى الشاملة والبربرية .

وبمجىء العقدين الأخيرين من القرن الرابع ، بدأت تطرق أذهان مفكرى الغرب اللاتينى فكرة أنه من الممكن أن توجد حضارة تستمر بعد انهيار الامبراطورية ، وهو ما أدى إلى امكانية وجود موقف اكثر انتقادا للأيديولوجية الامبراطورية ، كما مهد الطريق للمقاومة التى شهدها القرن الخامس ضد القيصرية - البابوية ، بيد أنه كان بوسع الأساقفة آنذاك أن يتخذوا موقفا أكثر استقلالا لأن الأباطرة الرومان المسيحيين الذين خلفوا قسطنطين كانوا قد قضوا على أكثر أعداء الكنيسة خطورة ، أعنى الآريوسية من ناحية والفكر الوثنى فى معقل الارستقراطية الرومانية من ناحية أخرى ، فضلا عن أنهم عضدوا الكنيسة وساعدوها فى الوقت نفسه .

كانت إحدى المشكلات الرئيسية التى واجهت الأباطرة الرومان المسيحيين بعد موت قسطنطين هى فض النزاع الآريوسى التى تفاقمت خطورته على الكنيسة ، وكان الحزب الآريوسى قويا منذ البداية بدرجة لايمكن معها أن تسحقه المجموعة الآرثوذكسية دون مساعدة

الامبراطور ، واتجه الاساقفة الارثوذكس إلى الدولة الرومانية طالبين تدخلها لصالحهم ، ولكن اعتماد الكنيسة على الامبراطور في اقرار المنازعات المذهبية ، واستئصال الهرطقات على هذا النحو ، أدى في النهاية إلى صعوبات أكثر تعقيدا ، فكيف ستكون النتائج لو أن الامبراطور نفسه أصبح متعاطفا مع الآريوسيين ؟

لقد تم تعميد قسطنطين على فراش الموت على يد أسقف آريوسى [١١] ومال أبناؤه الذين خلفوه[١٢] إلى التعاطف مع المذهب الآريوسى ، وبمجىء العقد الخامس من القرن الرابع أصبح الموقف حرجا بالنسبة للارثوذكسية فقد أخرست الدولة كل الأصوات التى ارتفعت مؤيدة لقرارات مجمع نيقية (التى أدانت الآريوسية) ومحتجة على تدخل الحاكم العلمانى فى الشئون الكنسية ، بينما كانت هناك وظائف أسقفية كبيرة عديدة خالية ، أو يشغلها الآريوسيين أو من يتعاطف معهم على الأقل ، ولم يطرأ أى تحسن على حظ الفريق الأرثوذكسى سوى فى العقد السابع من القرن الرابع ، وكان سبب ذلك ببساطة هو أن أباطرة تلك الفترة صاروا متعاطفين مع عقائدهم ومن ثم تزايد عداؤهم تدريجيا للآريوسية .

وفى مطلع العقد الثامن من القرن الرابع أدينت الآريوسية إدانة صريحة من الامبراطور الارثوذكس ثيودوسيوس الأول (الكبير) ولم تقم لها قائمة بعد هذه الادانة . وأخيراً شن هذا الامبراطور حملة عنيفة سنة ٣٨٣ وسنة ٣٨٤ للقضاء على معاقل الاريوسية فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، وهو الجزء الذى كان يحكمه والذى كان بمثابة معقل الآريوسية ، كما أصدر المراسيم التى تحرم اجتماعات هذه الطائفة ، وكان أن شكل الناجون من الآريوسيين طوائف منعزلة لاحول لها ولا قوة فى شتى أنحاء الامبراطورية .

وهكذا استطاعت الكنيسة المسيحية فى القرن الرابع أن تقضى فى النهاية على المشكلة التى عكرت صفو الحياة الكنسية بشكل خطير ، بيد أنها لم تحقق ذلك إلا بإخضاع نفسها للامبراطور. وعلاوة على ذلك فإن القضاء على الآريوسية جاء متأخرا للغاية بحيث لم يمنع

---

(١١) أيوزيبيوس أسقف نيقوميديا .

(١٢) هم قسطنطين الثانى ، وقسطنطيوس ، وقسطانز ، ثم توحدت الامبراطورية فى عهد قسطنطيوس بعد موت قسطنطين الثانى ومقتل قسطانز ، وذلك فى الفترة من ٣٥٣ - ٣٦١ التى شهدت تفوق المذهب الآريوسى. (المترجم)

انتشار المذهب الآريوسى بين الشعوب الجرمانية ، فقد كانت الكنيسة الآريوسية أكثر نشاطا من الكاثوليكية فى ارسال البعثات التبشيرية إلى ماوراء الدانوب والراين مما أدى إلى تحول الكثيرين من الملوك الجرمان فى القرن التالى إلى مؤيدين للآريوسية ، وعلى حين كانت الآريوسية تخبو وتتلاشى داخل الامبراطورية نفسها قرب نهاية القرن الرابع ، ظهرت منازعات جديدة حول طبيعة المسيح فى الامبراطورية الرومانية الشرقية فى القرنين الخامس والسادس ، لقد كاد الامبراطور البيزنطى أن يكون على الدوام فى صف الارثوذكسية تقليدا للسياسة التى سار عليها ثيودوسيوس من قبل . وكانت النتيجة أن رحبت الكنائس الشرقية المخالفة بالفاتحين المسلمين الذين طرقوا بلادهم فى القرن السابع وبنفس الطريقة شجعت الكنيسة الدوناتية فى شمالى أفريقيا الفتح العربى . وهكذا فان المنازعات المذهبية فى القرن الرابع ألحقت ضررا جسيما بالمسيحية فى سوريا ، ومصر وشمال أفريقيا : فمنذ وقفت الدولة فى جانب الارثوذكسية ، على الأقل منذ عهد ثيودوسيوس ، تحول خصومها المذهبيون إلى الفاتحين المسلمين طلبا للنجدة ، وهكذا لم تستطع ارادة الامبراطور الرومانى أن توفر للكنيسة الحماية من كل النتائج المترتبة على المنازعات المذهبية الكبيرة التى اندلعت فى القرن الرابع .

وعلى نحو مماثل ، كان على قادة الكنيسة أن يعتمدوا على سلطة الامبراطور من أجل درء الخطر العظيم الآخر الذى هدد أمن وسلامة الكنيسة فى القرن الرابع ، وهو الخطر الذى تمثل فى بقاء الوثنية ، وهنا كانت السياسة الامبراطورية أكثر نجاحا منها فى محاربة المذاهب الهرطقية.

ومن الممكن أن يساورنا الشك فى أن يكون ظهور الأباطرة المسيحيين قد أفزع العديد من مناهضى المسيحية كما أن يكون هذا هو السبب فى تشجيع الوثنيين على إعتناق الدين الجديد. وعلى الرغم من هذا فانه يجدر بنا أن نتذكر أنه حين اعتنق قسطنطين المسيحية لم يكن هناك أكثر من ١٠٪ من سكان نصف الامبراطورية الغربى يدينون بالمسيحية ، وبسبب الارستقراطية الرومانية الوثنية ، أرغم قسطنطين على بناء العاصمة المسيحية الجديدة التى عرفت باسم القسطنطينية فى سنة ٣٣٠ ، وخلال القرن الرابع كان مايزال هناك أتباع غيورون للوثنية ، كما كان هناك مؤيدون نشطون لها . وحدث أكثر من مرة أن أدت مساوىء التطورات السياسية فى الامبراطورية إلى تعلق الوثنيين بالأمل فى تحول جديد فى الأحوال يكون فى صالحهم ويغير الموقف مرة أخرى .

وقد وجدت الوثنية أخلص المدافعين عنها بين صفوف الارستقراطية الرومانية فى أوساط المثقفين فى ايطاليا واليونان ، إذ ظل الوثنيون يحتفظون بقوتهم وثقلهم فى السناتو (مجلس الشيوخ) الرومانى والوظائف المدنية حتى أواخر القرن الرابع وتزايد احترام وحماسة الطبقات العليا للوثنية التى أصبحت أكثر روحانية خلال هذا القرن ، فتحت تأثير الرواقية والأفلاطونية الجديدة طور الكثيرون من أبناء الارستقراطية الوثنية نوعا من العبادات الوحيدية ، وتخلوا عن اخلاقياتهم القديمة المتراخية ليتجهوا نحو قانون جديد أكثر جدية وحماسة ، يعيد إلى الأذهان ذكرى الارستقراطية الرومانية فى أفضل أيام الجمهورية . ومن ثم فليس من الممكن أن نعتبر وثنية القرن الرابع بقايا من الماضى فى طريقها الى الزوال أمام تقدم المسيحية ، فضلا عن أن هذه الوثنية التوحيدية بقوتها الجديدة قد منحت الديانة القديمة فرصة جديدة للحياة كما شكلت تهديدا خطيرا على أمن الكنيسة المسيحية فى الغرب .

ولم يكن باستطاعة قادة الكنيسة أن يقضوا على هذه الوثنية المجددة القوى بمفردهم فتطلعوا إلى الأباطرة الرومان المسيحيين كى يساعدوهم فى أعمالهم التبشيرية. ومهما يكن من أمر ، فإن قسطنطين وأبناءه الذين خلفوه على العرش كانوا أميل إلى الحذر ، نظرا لقوة الوثنية بين الطبقة الارستقراطية الرومانية . وقد حال اعتلاء جوليان Julian ابن اخى قسطنطين العرش الإمبراطورى سنة ٣٦١ ، دون استمرار الجهود التى بذلها خلفاء قسطنطين لكبت الوثنية ، اذ أنه سرعان ما عمل على قلب السياسة الدينية التى اتبعها الأباطرة منذ قسطنطين رأسا على عقب .

ويعرف جوليان عموما باسم جوليان المرتد Julian the Apostate وقد تحول عن ديانته مثل قسطنطين ولكن فى الاتجاه المضاد - إذ أنه تحول من المسيحية إلى الوثنية ، فبينما نشأ جوليان على الدين المسيحى ؛ كان يتذوق الأدب الرومانى والفلسفة اليونانية وفى النهاية ارتد عن الديانة المسيحية إلى هذا النوع التوحيدى من الوثنية الذى سبق وصفه . وأخفى جوليان أمر ارتداده عن المسيحية طوال الفترة التى قضاها ابن عمه - ابن قسطنطين - على العرش ، بيد أنه لم يخف اعتناقه للوثنية بعد ارتقائه العرش .

وأثار جوليان المرتد اهتمام كثير من الباحثين ودارسى الأدب ، لاسيما أولئك الذين يقدرون الثقافة الكلاسيكية أكثر من تقديرهم للمسيحية. والحقيقة ، أنه رجل تشكلت شخصيته وأفكاره بفضل أحسن ما كان يمكن للثقافة الكلاسيكية أن تقدمه فى القرن الرابع ، فقد كان على قدر طيب من التعليم ودرس الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، كما درس النتاج الأدبى للفكر اليونانى - الرومانى وعاش على الدوام حياة واعية صارمة متقشفة ، وكان يشغله حلم كبير بإعادة الديانة الوثنية والثقافية الكلاسيكية إلى مستوى عال جديد . ولم يجد الوسائل

الكفيلة بتحقيق هذا المفهوم الطموح ، والواقع أن جوليان لم يحقق سوى قدر ضئيل من النجاح فى سبيل عرقلة انتشار المسيحية وإعادة الوثنية .

فما أن ارتقى العرش حتى بدأ يعيد بناء المعابد الرومانية القديمة ويعيد إليها بهاءها ، وكانت غالبية هذه المعابد قد تردّت فى هاوية الاضمحلال ، وسرعان ما أخذ يضطهد رجال الكنيسة المسيحيين ، ثم منعهم فى نهاية الأمر من الاشتغال بالتعليم . ولكن الشعوب غير المسيحية فى الامبراطورية كانت أكثر اهتماما بمختلف الديانات الغامضة الحافلة بالأسرار منها بوثنية جوليان التى كانت فرعا ثقافياً عالى المستوى - من الناحية الفكرية - من الوثنية الرومانية ، وعندما كان الامبراطور جوليان يطيل فى دفاعه عن الديانة الوثنية والثقافية الكلاسيكية إلى حد الاملال كانت عامة الجماهير فى سائر مدن البحر المتوسط تقابله إما بالصمت المطبق أو السخرية اللاذعة ، وقبل أن يتمكن من إلحاق أى ضرر بالكنيسة المسيحية، قتل سنة ٣٦٣ أثناء قتال الفرس ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان أباطرة الدولة الرومانية فى الشرق والغرب مسيحيين على الدوام (١٣).

على أن حكم جوليان ، بالرغم من عدم تأثيره ، قد شجع الارستقراطية الرومانية على مقارمة تقدم المسيحية بعناد وترك مشكلة الوثنية الباقية فى الشطر الغربى من الامبراطورية وهى أكثر صعوبة مما كانت عليه قبل ارتداد جوليان. فقد رفض الأباطرة فى العقدين السادس والسابع من القرن الرابع مساعدة الكنيسة فى قمع الوثنية بالرغم من كونهم مسيحيين وانتهجوا سياسة التسامح الدينى ، ولم تنجح الكنيسة فى الحصول على تأييد الامبراطور فى قمع بقايا الوثنية مرة أخرى إلا فى العقد الثامن من هذا القرن .

---

(١٣) قام أحد الكتاب السريان فيما بين عامى ٥٠٢-٥٣٢ ، بكتابة قصة جوليان المرتد التى تعتبر واحدة من أهم الكتابات التاريخية التى خلفها لنا الأدب السريانى فى القرن السادس ، والقصة فى أقسام ثلاثة تتناول على التوالى قصة قسطنطين وأبنائه الثلاثة ، ثم ايوزيبيوس وما لقيه من اضطهاد فى عصر جوليان ، ويتحدث القسم الثالث عن جوفيانوس الذى خلف جوليان وحكم فترة لاتزيد عن سبعة شهور عاودت فيها المسيحية انتصارها . وقد كتبت قصة جوليان المرتد على يد هذا الكاتب السريانى بغرض الاشادة بانتصار المسيحية على الوثنية وحث الوثنيين على اعتناق المسيحية ، ومن المثير أن التأثير الكبير لهذه القصة لم يقتصر على المؤرخين السريان ، مثل ابن العبرى ، فحسب ، بل شمل المؤرخين المسلمين الأوائل أيضاً، فقد تناول الطبرى فى الجزء الأول من تاريخه ، وربما يكون قد قرأها فى نص معرب ، ونقلها ابن الأثير وأبو الفدا واليعقوبى والمسعودى فى "مروج الذهب" لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر :

دكتور مراد كامل (وآخرون) "تاريخ الأدب السريانى" القاهرة سنة ١٩٧٤ . (المترجم)

وقد رأينا بالفعل كيف انحاز ثيودوسيوس إلى جانب الأرثوذكسية وقضى على الآريوسيين كما استطاع زعماء الكنيسة أن يحصلوا على تأييده فى سحق الوثنية ، واتخذ جراتيان Gra-tian (٣٧٥-٣٨٣) امبراطور الغرب خطوات هامة على نفس الطريق ، إذ فصل الوثنية عن الدولة الرومانية . فقد استبعد أخيراً لقب " الكاهن الأعظم Pontifex Maximus الوثنى من قائمة ألقاب الامبراطور ، كما أزال جراتيان مذبح النصر الذى ظل قرون عديدة يرمز إلى الرابطة التى تجمع بين الدولة والآلهة من قاعة السناتو فى روما ، وحرم كهنة الديانة القديمة من الاعانة المالية التى كانوا يتلقونها من الدولة ، وبهذه الطريقة تحررت اجتماعات السناتو ، والهيبة الامبراطورية من أى اتصال رسمى بالديانة التقليدية القديمة .

كانت إزالة جراتيان لمذبح النصر هى المناسبة التى تمت فيها المناظرة الكبيرة بين سيماخوس Symmachus زعيم الارستقراطية الوثنية ، وأقدر رجال الكنيسة فى إيطاليا إمبروز Am-brose أسقف ميلانو (القديس أمبروز)[١٤] وكانت نتائج المناظرة باهرة ومؤسفة فى الوقت نفسه بالنظر إلى ما نتج عنها من مساوىء فى تاريخ حرية الفكر ، فقد كان سيماخوس مثالا للمفكر الحر بكل محاسنه ومساوئه : كان متسامحا كريما ، بيد أنه كان ضعيفا سليم الطوية ، إذ كان من رأى هذا الرومانى الفاضل أن ثمة طرقا كثيرة تقود إلى الله - فلماذا لاتترك روما القديمة التى فى ظلها ازدهرت الدولة الرومانية لتعيش فى سلام ؟ إلا أن أمبروز كان هو الرجل الصلب الذى يعلم أنه يمتلك الحقيقة ، فقد كانت المسيحية هى الديانة الحقيقية الوحيدة فى رأيه، ولذا يجب تدمير كل الديانات الأخرى . وسوف يبنى القارىء اليوم حكمه فى هذا الشأن

---

(١٤) القديس أمبروز (٣٤٠-٣٩٧) ولد فى مدينة تريف Treves شمال وسط غالة لأبوين من أسرة نبيلة عريقة فى المسيحية ، وكانت تريف التى اتخذها عدد من الأباطرة على التوالى مركزا لاقامتهم بسبب غارات البرابرة ، مركزا حضارياً يضارع روما نفسها حيث وجدت بها المدارس والمكتبات ، كما قصدها المشاهير من الدارسين ورجال العلم . ورغم أنه بدأ حياته فى المجال السياسى حيث تولى عدة مناصب عامة ، إلا أنه اختير أسقفا لميلانو سنة ٣٧٤ بمحض الصدفة ، وإذ لم تكن لديه أية اهتمامات لاهوتية حتى ذلك الحين فقد كرس نفسه للدراسات الدينية وأحرز نجاحاً كبيرا فى هذا المجال حتى وصف بأنه "خادم جيد للصالح العام" Usus minister publici كما استحوذ على احترام الأباطرة . لمزيد من المعلومات عن هذا الرجل انظر :

L.K. Rand : Founders of the Middle Ages (Rover, New York, 1957). pp. 69-101.

وعن مؤلفاته وموقفه الحازم من الامبراطور ثيودوسيوس انظر : على الغمراوى ، المدخل ، ص ٥٧ ومابعدها . (المترجم)

وفقا لمشاعره الشخصية ، وهناك حقيقتان على كل حال هما : أن الرجال الأشداء الذين يمتلكون الحقيقة عادة مايتفوقون على المفكر الحر المتسامح الذى لايستطيع أن يصل بفلسفته الخاصة إلى حد القضاء على خصمه فى الوقت الذى يفعل خصمه كل ما فى وسعه للقضاء عليه ، ثانيا أننا سوف نلاحظ أن الفكرة الشمولية الحديثة عن الحرية - بمعنى أن الحرية لاتوجد سوى لطاعة الدولة - هى الصياغة العلمانية لمذهب أمبروز المستمد من رأى القديس بولس القائل بأن الحرية الحقيقية هى طاعة الحقيقة المتمثلة فى يسوع المسيح . فهل هى شطحة بعيدة أن نرى سر جاذبية الفلسفات الشمولية الحديثة كامنا فى حقيقة كونها هرطقات مسيحية؟ إن هذا القول ، لايعنى بأى حال ، أن المسيحية مسئولة بأية طريقة عن هذه الهرطقات ؛ وإنما يعنى أن المسيحية لايمكن أبدا أن تتعايش أو تتواءم مع هذه الهرطقات .

كان الوقت فى صالح أمبروز ، ولم يكن فى صالح سيماخوس ، وأيا كانت جدوى هذه المناقشات فإنها كانت موجهة لاقناع الامبراطور الرومانى ، الذى انحاز تماما - فى شخص ثيودوسيوس الأول - إلى جانب أسقف ميلانو ، فقد ذهب ثيودوسيوس - الذى كان قد قضى على أعداء الأرثوذوكية داخل الكنيسة فعلا - إلى مدى أبعد مما ذهب إليه جراتيان فى محاربة الوثنية ، وعمل على تدمير أعداء الارثوذوكسية خارج الكنيسة أيضا ، ففى عام ٣٩٢ وبعد أن أحكم السيطرة على الامبراطورية بأسرها ، أصدر تحريما رسميا للوثنية ، يقضى بمنع أى شخص فى أى مكان ، حتى ولو كان خاصا ، من ممارسة شعائر الديانة القديمة .

وأدت خطورة هذا التشريع المزعج إلى رد فعل خطير . إذ أن فلول الارستقراطية الوثنية الرومانية قاتلت قتالا يائسا فى سبيل المحافظة على ديانة الدولة الرومانية القديمة. وتجمعت هذه الارستقراطية فى النهاية حول قائد وعد بإعادة الوثنية إلى سابق مكانتها إذا مانجح فى الاستيلاء على السلطة ، ونجح هذا المغتصب ، بطل الوثنية الأخيرة ، فى السيطرة على روما فترة من الوقت ، ولكنه لقى هزيمة ساحقة على يدى ثيودوسيوس سنة ٣٩٤ ، وفى هذه المعركة هلك معظم المسئولين عن الحركة الوثنية المضادة .

وهكذا فإن انتصار ثيودوسيوس يعتبر مؤشرا على الهزيمة النهائية للوثنية ، وبعد موت ثيودوسيوس فى سنة ٣٩٥ بعد انتصاره العسكرى مباشرة ، أصدر إبناه اللذان خلفاه فى حكم الشرق والغرب مزيدا من القوانين ضد الوثنية (١٥) فصدرت أوامر بتدمير كل المعابد والهياكل

---

(١٥) هما أركاديوس فى الشرق ، وهونريوس فى الغرب، كما أن أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨م) أصدر مرسوما بتحطيم المعابد الوثنية واستخدام احجارها فى منشآت عامة. (المترجم)

المقدسة للآلهة اليونانية - الرومانية القديمة ، ولم يعد مسموحا بحرية العبادة فى الامبراطورية الرومانية ، وصارت المسيحية هى الديانة الشرعية الوحيدة فى الامبراطورية منذ ذلك الحين .

وهكذا تمتعت الكنيسة وحدها بالامتيازات المادية والمعنوية بعد عام ٣٩٤م. وهى الامتيازات التى كان قسطنطين قد أسبغها على الأكليروس الكاثوليكى ، لكى يضعهم على قدم المساواة مع الكهنة الوثنيين ، ومن خلال الانعامات الجديدة التى تلقتها الكنيسة من الأباطرة الأرثوذكس أواخر القرن الرابع ، تمتعت الكنيسة بعدد كبير من الامتيازات القانونية والمالية التى رفعتها فوق القانون العام فى الامبراطورية وجعلت منها دولة داخل الدولة. فمنذ عهد قسطنطين تمتع أفراد الاكليروس المسيحى بالاعفاء من الضرائب المفروضة على سائر المواطنين وفى العقدين الأخيرين من القرن الرابع ذهب الأباطرة الأرثوذكس خطوات أبعد فى طريق الاعفاءات المالية للكنيسة وسمح الأباطرة لملتزمى الضرائب فى المدن بترك الخدمة وأعفوهم من كل الالتزامات الضريبية المفروضة على بورجوازية المدن ، لكى يدخلوا فى عداد الاكليروس ، حيث لاتكون عليهم أية التزامات مالية تجاه الدولة. وبهذا يكون الأباطرة الأرثونوكس فى أواخر القرن الرابع قد ساعدوا على انهيار النظام الضريبى الذى أقامه دقلديانوس وقسطنطين من أجل تقوية صفوف الاكليروس .

وأضيفت إلى الامتيازات المالية التى تمتع بها رجال الكنيسة امتيازات قضائية. فقد سمح بأن يكون للكنيسة محاكمها الخاصة وبأن تطور قانونها الخاص وهو القانون الكنسى. واستطاع الاساقفة بطريق غير مباشر أن يخففوا من الأحكام التى أصدرتها المحاكم العادية فى الامبراطورية ، لدرجة أن تخلت الدولة الرومانية تماما عن سلطتها القضائية على الكنيسة المسيحية. وهكذا جعل الأباطرة الرومان المسيحيون فى القرن الرابع - وثيودوسيوس الأول على وجه الخصوص - من الكنيسة كيانا مستقلا تمام الاستقلال عن سلطان الدولة الرومانية القضائى .

ومع بداية القرن الخامس كان الأباطرة الرومان المسيحيون فى الغرب قد حرروا الكنيسة من تفككها المذهبى ، وسحقوا أعداءها الوثنيين ، ومنحوها الامتيازات الواسعة التى جعلت منها دولة داخل الدولة. ومن الممكن أن نجادل بأنه بتحرير الكنيسة من سلطان الدولة التشريعى قوض ثيودوسيوس والأباطرة المسيحيون الآخرون صرح النظام الاستبدادى الذى شاده دقلديانوس وقسطنطين، والذى حفظ الامبراطورية فى القرن الرابع ، وبالتالى يمكن القول بأن السياسة التى انتهجها الأباطرة الأرثوذوكس تجاه الكنيسة كانت سياسة انتحارية بالنظر إلى تأثيراتها على الدولة الرومانية .

ومهما يكن من أمر فإنه على المدى الطويل كانت سياسة أباطرة القرن الرابع المسيحيين تجاه الكنيسة من عوامل بقاء الحضارة الغربية . لأن الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد وهنت وضعفت بالفعل قبل مقدم الشعوب الجرمانية الغازية . وبطلوع شمس العقد الرابع من القرن الخامس لم يكن للامبراطورية الرومانى فى الغرب أى نفوذ خارج إيطاليا ، وبدأت الممالك الجرمانية تظهر فى غرب أوربا . وفى العقد السابع من القرن الخامس ، لم يعد يوجد بإيطاليا حاكم يحمل لقب " الامبراطور الرومانى" الضخم الفارغ من أى معنى ، ولو لم يتحد أباطرة القرن الرابع المسيحيون مع الكنيسة ويقوموا بحمايتها ومؤازرتها إلى المدى الذى جعلها دولة داخل الدولة ، لما أصبحت الكنيسة قوية بالقدر الكافى للوقوف فى مواجهة الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس . فبفضل الأباطرة الرومان المسيحيين ، كانت الكنيسة فى القرن الخامس ماتزال قوية بالقدر الذى يكفى لأن تبدأ فى تنصير الشعوب الجرمانية ، وتلقينهم الحضارة المسيحية اللاتينية ، ولو لم تكن هذه القوة قد بنيت فى القرن الرابع ، لكان من المحتمل أن تستسلم أوربا للبربرية الشاملة ، والظلام الحضارى الذى ساد أوائل العصور الوسطى ، فقد أقامت الامبراطورية الرومانية المسيحية سلطة الكنيسة المسيحية فى القرن الرابع ، وجاء الآن دور الكنيسة لكى تحل محل الدولة الرومانية .

كان الأباطرة الذى خلفوا ثيودوسيوس رجالا تنقصهم الكفاءة . فقد حرص ثيودوسيوس على مسالمة الجرمان ولكن ولديه (أركاديوس وهنريوس) ناصباهم العداء ، وفى سنة ٤٠٦ انهارت حدود الراين واندفعت قبائل عديدة إلى داخل الامبراطورية. ومن الناحية الرسمية كانت هناك امبراطورية غربية حتى سنة ٤٧٦ بيد أن الأباطرة الأواخر لم يكن لهم أى تأثير على مجرى الأحداث ، بل إنهم هجروا روما إلى رافنا Ravenna فى أوائل القرن الخامس ، مما ترك المدينة الخالدة مفتوحة أمام الغزاة ، وظهر أسقف روما كقائد وزعيم يملأ مكان الامبراطور الغائب.

وبينما كانت الامبراطورية الرومانية تتدهور فى القرن الخامس . بدأ اهتمام الناس يتحول رويدا رويدا تجاه المؤسسة الوحيدة التى كان يمكنها أن توفر قدرا من الوحدة وتتولى الزعامة فى مجالى التعليم والدين ؛ أى أسقفية روما حيث الزعيم المعترف به للكنيسة المسيحية فى الغرب.

كان أول البابوات الذين قاموا بالدور الأعظم فى الحضارة الغربية - هو ليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١) الذى يعرف عادة باسم "القديس ليو العظيم" فقد كان بابوات القرن الرابع

وأوائل الخامس رجالا ضعفاء غير طموحين لم يفيدوا شيئا من هيبة ومكانة المنصب الذى يشغلونه . فعلى سبيل المثال ، طلب قسطنطين من أسقف روما أن يحل المشكلة الدوناتية ، ولكن البابا فشل فى التصرف وخسر بذلك فرصة هائلة لتأكيد السلطة البابوية . وينبغى علينا ألا نفكر فى البابا (وهو الاسم الذى صار يطلق على أسقف روما) فى أوائل العصور الوسطى على ضوء المكانة التى أحرزتها البابوية خلال العصور الوسطى العليا ، ذلك أن البابوية لم تصبح قادرة على البدء فى إحراز مكانتها الضخمة سوى فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر ، وهى المكانة التى أمنتها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وذلك بعد فترة طويلة مؤلمة تعرضت فيها للكثير من تقلبات الأحوال وحركات التقهقر والتخلف. وكان ليو الأول هو الذى صاغ فى وضوح المذهب الذى استطاعت البابوية أن تقيم على أساسه مزاعمها فى الصلاحيات وهى المزاعم التى اقتربت من تحقيقها فى العصور الوسطى العليا ، ومن ثم يمكن القول بأن القديس ليو هو مبتدع نظرية بابوية العصور الوسطى .

ولد القديس ليو أواخر القرن الرابع ، وانتخب أسقفا لروما سنة ٤٤٠م . وكان ينتمى لعائلة ارستقراطية رومانية عريقة ، مما يوضح أن الكنيسة كانت قد بدأت تجتذب عددا من أبناء الطبقة الحاكمة القديمة فى روما لتولى زمام القيادة فيها . وكان نشاط ليو هو أكثر عناصر شخصيته فعالية ، وهى ميزة اتسم بها كل بابوات العصور الوسطى العظام . إذ عمل بلا كلل على رفع المستوى التعليمى والأخلاقى لرجال الكنيسة فى الغرب ، وتحسين خدمة القداس الكنسى ، كما لعب دورا رائدا فى المنازعات المذهبية التى نشبت فى عصره ، ففى مجمع خلقدونية الذى انعقد سنة ٤٥١ تقبلت الكنيسة اليونانية التفسير الذى قدمه ليو للثالوث المقدس ، كما أنه بذل الكثير فى سبيل تحسين القانون الكنسى .

وقد خرج ليو مرتين من روما سنة ٤٥٢ وسنة ٤٥٥ - وهو واع لانهيار الامبراطورية الرومانية الوشيك الحدوث - لمفاوضة ملوك الجرمان الذين غزوا إيطاليا وأقنعهم بترك مدينة روما. وفى المرة الأولى ، على الأقل ، أى أثناء مفاوضته مع الهون Huns ، كللت جهوده بالنجاح . بيد أنه كان أقل نجاحا سنة ٤٤٥م أثناء تعامله مع الوندال Vandal. ولكن الأمر لايخلو من دلالة هامة حين يقوم أسقف روما بدور المدافع عن المدينة الخالدة بدلا من الامبراطور الرومانى . ولم يستطع ليو ، سليل الارستقراطية الرومانية ، أن يقتنع بنهاية الامبراطورية بالرغم من وجود عدة مؤشرات فى أيامه توضح أن السلطة الامبراطورية كانت تنزلق فى طريق

الزوال ؛ إلا أن البابا عمل على جعل الأسقفية الرومانية خليفة للامبراطورية الرومانية فى الغرب .

وتمهد السبيل لنقل زعامة الغرب من الدولة الرومانية إلى أساقفة روما ، لا بفضل نشاطات ليو فحسب ، ولكن بفضل النجاح الذى زكى به مزاعم الأسقفية الرومانية بشأن التفوق النظرى داخل الكنيسة المسيحية بوجه عام ، وسادت هذه المزاعم فى أوربا إبان جميع تقلبات الأحوال التى مرت بالبابوية أوائل العصور الوسطى وشكلت تحديا مباشرا لمزاعم الامبراطور البيزنطى.

وقد قامت المزاعم التى أوجدها سان ليو حول أسبقية أسقف روما فى الكنيسة على أساس مايعرف باسم **المذهب البطرسى** ، ويمكن إرجاع هذا المذهب فى إصوله إلى القرن الثانى ، ويجد الكاثوليك أصوله طبعا فى العهد الجديد ، بيد أن سان ليو كان أول من عبر عنه تعبيرا كاملا قويا ، ويقوم المذهب البطرسى على أساس كلمات المسيح وهو يخاطب حوارييه فى إنجيل متى (١٦ : ١٥-١٩) **"قال لهم ، وأنتم من تقولون أنى أنا ، فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحى ، فأجاب يسوع وقال له طوبى لك ياسمعان بن يونا ، أن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء" وكل ماتحله على الأرض يكون محلولاً فى السماء".**

وتختلف تفسيرات هذا النص المقدس اختلافا كبيرا بقدر مايمكننا أن نتصور ، فإن وجهة النظر البروتستانتية العامة تقول بأن المسيح كان يخاطب كل الحواريين فى شخص قائدهم بطرس ، ومن ثم فإن كل الأساقفة - أو كل ممثلى المسيح - يتمتعون بهذه القوة التى منحها لهم الرب فى الربط والحل ، وكان ليو العظيم هو الذى أرسى أسس وجهة النظر الكاثوليكية التى لقيت القبول بفضل الرواية القائلة بأن بطرس كان هو أول أساقفة روما وأنه استشهد فيها ، وتتجه الأبحاث الأثرية الحديثة إلى محاولة البرهنة على هذه الرواية من الناحية التاريخية .

ويزعم المذهب البطرسى الذى نادى به ليو أن المسيح قصد أن يكون بطرس وكل من يخلفه فى كرسيه رئيسا للكنيسة بأسرها ، فهو الصخرة أو الأساس الذى قامت عليه الكنيسة ، ولذا يجب أن يتمتع بسلطان مطلق على العقيدة والأخلاق بوصفه نائب المسيح على الأرض ، وهكذا يكون أسقف روما هو الوحيد الذى يمتلك مفاتيح ملكوت السموات وهو وحده نائب المسيح على الأرض ، وهو الراعى الأول لشعب المسيح . ولم يلق هذا الرأى أى قبول من جانب الأساقفة

الشرقيين . والواقع أن مسيحيى شمال أفريقيا اللاتين قد أنكروه فى القرن الثالث . وفى أيام ليو تقبلت الكنيسة اللاتينية النظرية البطرسية وسلمت بها ، ولم يثر سؤال حول هذا الموضوع حتى القرن الثانى عشر . ولكن بينما اعترف أساقفة الشطر الغربى من الامبراطورية بمزاعم ليو حول المذهب البطرسى ، ظلت السلطة الفعالة للبابا قاصرة على إيطاليا ، إذ كانت كل من فرنسا وأسبانيا تهتم بأمر نفسها . وحين حاول البابا أن يمد نفوذه على هذه المناطق فى القرون التالية ليجعل من نفسه رئيسا حقيقيا للكنيسة الغربية ، ثارت مشكلات كثيرة . وكان مقدراً لمحاولة تحويل المذهب البطرسى إلى حقيقة واقعة أن تكون الموضوع الرئيسى فى تاريخ بابوية العصور الوسطى .

وعلى الرغم من هذا فمن الأهمية بمكان ، بالنسبة للحضارة الوسيطة ، أن اعترفت كنائس الغرب جميعا ، فى أيام ليو ، بالمذهب البطرسى . وخلال جميع المتاعب التى وجدت الكنيسة نفسها فى غمارها ، كان المذهب البطرسى الذى أرسى قواعده القديس ليو ، بمثابة المثل الأعلى الذى يحفز البابوية إلى فرض وصايتها واشرافها الفعلى على الكنيسة الغربية . ووجدت الكنيسة الرومانية فى النظرية البطرسية مثلا أعلى يدعوها لأن تحل محل الامبراطورية المتداعية فى الغرب كمؤسسة تتركز حولها الحضارة الغربية ، وبفضل القديس ليو صارت البابوية مؤسسة مستقرة وثابتة بحيث لم تستطع التغييرات العظيمة التى حدثت أوائل العصور الوسطى أن تقلل من فعاليتها أو تنال من مكانتها وتقضى على هيبتها . وبفضل أعمال القديس ليو وجدت الامبراطورية الرومانية خليفة لها فى شخص البابا الرومانى باعتباره القوة التى تلم شمل الغرب الأوربى .

وفى الختام فإننا نستطيع أن نرجع القهقرى ، عبر الفترة مابين موت قسطنطين ونهاية بابوية ليو العظيم ، لنرى أن الأباطرة الرومان المسيحيين أرسوا الأسس التى قامت عليها سلطة البابوية فى العصور الوسطى . وخلال القرن الرابع كان أساقفة روما سلسلة من الرجال الضعفاء الذى ينقصهم الطموح فلم يفيدوا إلا قليلا من تراثهم الكبير ومن قوة منصبهم العظيمة . ومن حسن الحظ أن الأباطرة هم الذين قاموا بأعمال البابوات نيابة عنهم ، فقد سحقوا الوثنية وحولوا روما إلى مدينة مسيحية – وهو ما فشل قسطنطين فى تحقيقه – وهو ما كان البابوات سيعجزون عن تحقيقه اعتمادا على جهودهم الذاتية . لقد قام الأباطرة بالقضاء على الهرطقات وأكدوا الوحدة المذهبية للكنيسة الغربية ، كما حققوا للكنيسة مكاسب مادية ضخمة أغدقوا عليها الامتيازات الكثيرة .

ثم سقطت الامبراطورية الرومانية فى منتصف القرن الخامس ، وكل ماكان ضروريا ومطلوبا هو الشخصية العظيمة للجلوس على عرش بطرس ، لقد كان المطلوب رجلا ذا فكر جرىء ونشاط جم ، وكان القديس ليو هو الرجل المناسب لتولى زعامة الكنيسة الغربية بدلا من الامبراطورية وبفضل أعمال الأباطرة المسيحيين تم إرساء قواعد السلطة البابوية ، صحيح أن الأمر استغرق خمسة قرون أخرى حتى يكتمل البنيان ، ولكن القديس ليو حدد للبابوية مهمتها آنذاك ، ومن خلال المكاسب المادية التى حصلت عليها البابوية من الأباطرة المسيحيين ، ومن خلال الايديولوجية البطرسية التى قدمها سان ليو ، كان من الممكن حينذاك أن يبدأ بناء السلطة البابوية فى كنيسة العصور الوسطى .

# الفصل الثالث

## بناء المسيحية اللاتينية

### ١- أثينا وأورشليم

إن توافق قادة الكنيسة المسيحية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة مع الثقافة الكلاسيكية أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الثقافة الغربية . فقد تمثلت نتيجة ذلك فى تبنى النظام التعليمى الذى وضعته الكنيسة فى أوربا العصور الوسطى لشطر كبير من الادب الكلاسيكى والفلسفة ، كما صار الشطر الأهم من نتاج الفكر اليونانى - الرومانى محورا تتركز حوله الثقافة اللاتينية المسيحية . وقد هلل كل الكتاب المحدثين تقريبا لما قامت به المسيحية من تطويع للثقافة الكلاسيكية ؛ بل إنهم صوروا ذلك على أنه تطور حتمى .

والواضح فعلا ، أن قادة الفكر فى الكنيسة ، منذ القرن الثانى على الأقل - إن لم يكن منذ عهد القديس بولس نفسه - تلقوا تعليما كلاسيكيا رفيعا ، ومن ثم يمكن القول بأن أولئك العلماء كانوا محدودين داخل إطار التعليم الذى تلقوه بحيث جلبوا معهم آداب الثقافة اليونانية - الرومانية وفلسفتها ، وبحيث طبعوا المسيحية اللاتينية بطابع الاتجاهات الجوهرية فى الفكر الكلاسيكى . بيد أن هذا التحول الثقافى الحاسم كان ضروريا . ولو كانت هناك محاولة لمقاومة هذا الاتجاه ، لما كان ذلك فى صالح التعليم المسيحى . ومع ذلك فقد انتقد الاتجاه إلى تبنى الثقافة الكلاسيكية واحد من أعظم المفكرين فى عصور الكنيسة المبكرة ، وهو المفكر المسيحى ترتوليان Terutllian الذى عاش فى شمال أفريقيا على مفترق القرنين الثانى والثالث [١].

وفى الامبراطورية الرومانية ، كانت أكثر أجنحة الكنيسة اللاتينية تمسكا بتقاليد المسيحية الأولى موجودة فى المدن الكبيرة الغنية فيما يعرف الآن بالجزائر وتونس . وربما كان هناك شىء ما فى البيئة فى شمال افريقيا هو الذى مكن لنزعة التعصب : ذلك أنه كان هناك اتجاه مماثل

---

(١) ولد ترتوليان حوالى سنة ١٦٠ بقرطاجة ، أو بالقرب منها ، ومات حوالى سنة ٢٤٠ . (المترجم)

فى شمال افريقيا فى وقت لاحق حين تحول هذا الاقليم الى الاسلام [٢].كان ترتوليان ، وهو المتحدث بلسان المسيحيين فى شمال أفريقيا فى الزمن السابق على عصر القديس أوغسطين ، رجل قانون مثقفا اعتنق المسيحية فى منتصف عمره ، والحقيقة أن ترتوليان على خلاف غيره من المفكرين ، لم يحاول أن يفرض ثقافته الكلاسيكية على الفكر المسيحى ، وأكد أنه ينبغى على الكنيسة أن تحافظ على رسالتها بتخليص نفسها من الفكر الكلاسيكى . ويبدو أنه كان قد تحقق - أكثر من غيره من آباء الكنيسة - من أن هناك فروقا شاسعة بين التراث اليهودى والتراث اليونانى ، وكان الوحيد بين آباء الكنيسة الأوائل الذى عارض اقحام ثنائية الروح والجسد فى الفكر اليونانى فى المسيحية ، وعمل على الحفاظ على فكرة الأنبياء العبرانيين عن النفس (نفش) ، أى الانسان ككل [٣] ، وحط من شأن الآداب الوثنية باعتبارها أراجيف فى نظر الرب ، كما أهاب بالمسيحيين أن يرفضوها تماما بدافع من حماسته المتعصبة ، وحقر الفلاسفة اليونان والرومان ووصفهم بأنهم "باعة يتجولون بالحكمة والفصاحة" وبأنهم" حيوانات

---

(٢) يشير المؤلف هنا الى انتشار مذهب الخوارج- بفرقه المختلفة - فى شمال افريقيا أواخر العصر الأموى وينبغى أن تشير هنا الى أن الظروف الاجتماعية والسياسية لبلاد المغرب آواخر القرن الهجرى الأول ، وأوائل القرن الثانى (أواخر السابع الميلادى وأوائل الثامن) كانت من أهم عوامل انتشار مذاهب الخوارج بين البربر فقد نجمت عن سياسة الامويين الاواخر فى جمع الأموال ، وسوء معاملة البربر واعتبار بلادهم دار حرب رغم اعتناقهم للاسلام ، والنزاع بين القيسية واليمنية الذى ترك آثاره السلبية على شمال افريقيا - التى ثبت أن غالبية من قاموا بفتحها كانوا من اليمنية - موجة من السخط مهدت التربة لانتشار مذاهب الخوارج التى تحض على الثورة على السلطان الجائر ، كما أن ما أعلنه الخوارج من أن الامامة حق متاح لكل مسلم جعل هذا المذهب يلقى قبولاً لدى أهل شمال افريقيا بما جبلوا عليه من البداوة الصريحة .

لمزيد من التفاصيل انظر : محمود اسماعيل، الخوارج فى المغرب الاسلامى (دار العودة بيروت ١٩٧٦)ص٢٨- ص ٤٥. (المترجم)

(٣) نفس Nephesh إحدى الكلمات الدالة على الروح فى الكتاب المقدس وهى تعنى النفس الحية حيث يحكى سفر التكوين (٢:٧) قصة خلق آدم: "وجبل الرب الاله آدم تراباً من الارض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية "وفى الفكر اليهودى يعتبر الانسان وحده مركبة من جسد وروح ، مما يؤكد الوحدة بين الروح والجسد وأن الانسان الحى ليس روحاً تسكن جسداً زائلاً ولكنه وحدة عضوية ، والبعث على هذا النحو استعادة للانسان ككل- انظر :

S.G.F. Brandon, The Idea of the Soul in Religion in ancient History, Studies in Ideas. Men, and events (Charles Scribner's sons, New York 1939. p.69.

(المترجم)

تمجد ذواتها" وزعم أن " جدل أرسطو الباعث على الرثاء" هو أصل لكل تجديف ، وخلص ترتوليان من هذا كله الى التساؤل بقوله: "أية وشائج ياترى بين الأكاديمية والكنيسة ؟ نحن لسنا بحاجة الى الفضول بعدما نادى به يسوع المسيح ، أو لتقصى حقيقة ماجاء به الانجيل".

والحقيقة أن المفهوم العبرانى عن النفس (نفش) ووجهة النظر اليونانية عن ثنائية الطبيعة البشرية ، متناقضان بشكل أساسى ، كما أن فكرة الوجود الانسانى التى تطرحها الأناجيل الثلاثة الأولى ؛ وحتى فى كتابات بولس (فى رأى كثير من الباحثين ) عبرانية فى أساسها ، بيد أن آراء ترتوليان لم تجد لها سوى قلة من الأتباع على مدى الأجيال المتعاقبة من المفكرين الكنسيين ، وقدر لرأيه هذا أن يظل تيارا خفيا فى الفكر المسيحى يثير مشاعر زعماء الكنيسة الذين قبلوا المعارف الدنيوية دون تحفظ ، كما قدر لهذا التيار أن يتفجر من آن لآخر فى اتجاهات ثورية متعصبة . ولكن الموضوع الرئيسى فى تاريخ الفكر المسيحى كان هو ذلك التطويع الذى خضعت له الثقافة الكلاسيكية بحيث تتواءم مع الكنيسة ، وهو الأمر الذى عارضه ترتوليان أيما معارضة .

كان التراث الكلاسيكى قد فقد قوته الابداعية فعلا فى عصر ترتوليان وصار يعتمد على التصنيف والاقتباس المتكرر. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن العمل الذى يمكن أن نعتبره عملا يتناول المسائل الدنيوية بحق فى أواخر عصر الامبراطورية ، هو كتاب "الحمار الذهبى" الذى ألفه أبوليوس Apuleius ، ويعتبر هذا الكتاب النموذج الأول لروايات مغامرات الصعاليك . فقد كتبت جميع الأعمال الهامة فى مجال الآداب اليونانية والرومانية والفلسفة قبل نهاية القرن الثانى ، وكتب معظم هذه الأعمال قبل نهاية سنة ١٠٠ ميلادية ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا انحصرت الثقافة الكلاسيكية فى أوساط الأكاديميين ، وغالباً ما استخدمت الكتابات الكلاسيكية ككتب مقررة على طلاب المدارس.

كان الشائع حتى نهاية القرن التاسع عشر - ولايزال شائعا حتى اليوم فى بعض الأوساط - أن ما وصلنا من أدب التراث الكلاسيكى انما هو ثقافة حرة ، واذا كان المقصود بالتعليم الحر هو تعليم "الرجل الحر" أى الرجل الذى يتمتع بدخل خاص يغنيه عن العمل لكسب العيش بالمعنى المعتاد للكلمة ، فهذا حقيقى ، إذ كانت مدارس النحو (مايقابل التعليم الابتدائى) ومدارس البلاغة (مايقابل المدارس الثانوية ومراحل التعليم العالى) الرومانية مخصصة لاعداد أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء الطبقة الوسطى لتولى مناصب القيادة فى الحكومة والقضاء ؛ ولذا لم يكن ثمة داع لأى نوع من أنواع التعليم الفنى . فقد كان المطلوب أن يكون المرء قادرا

على أن يقرأ بدقة وأن يكتب ويتحدث وفقا لمستويات الفصاحة المعترف بها فى الامبراطورية والتى كانت تهتم كثيرا بالمحسنات البديعية ، وكان الطالب الذى يتلقى هذا التعليم الحر فى ذلك الوقت - كما هو الحال فى عصرنا - يتميز على الآخرين بأن يصبح قادرا على أن يكتب ويتحدث ويقرأ بفهم ووضوح ، إلا انه فى الواقع لم يكن فى مقدور هذا الانسان المتعلم أن يضيف شيئا جديدا ، اللهم الا أقل القليل ، فمهما كانت معلوماته فى العلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد ، كان عليه أن يغترف من الكتب الكلاسيكية . وبحلول القرن الثانى ، ومع توارى الفكر الأرسطى خلف أستار النسيان ، لم يعد من الممكن دراسة كتب التراث الكلاسيكى التى كتبت بمنهج تحليلى دراسة متعمقة .

وهكذا كان التراث الكلاسيكى الذى قدر للمسيحية أن تتبناه في الغرب اللاتينى مضمحلا وكاد أن يكون مجدبا من الأفكار الجديدة . والواقع أن آباء الكنيسة هم الذين أعطوه دفعة جديدة للحياة ، إذ كانت كل الأعمال الهامة المكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية فى أواخر عصر الامبراطورية من انتاج رجال الكنيسة ، فلماذا أنقذ آباء الكنيسة التراث الكلاسيكى واستوعبوه، وتجاهلوا انتقادات ترتوليان الشديدة لاخفاق الثقافة الكلاسيكية وضلالها ؟ بوسعنا أن نقدم هنا اجابات لهذا السؤال : ففى المقام الأول كان آباء الكنيسة أنفسهم من نتاج مدارس النحو والبلاغة الرومانية ولم يكن فى استطاعتهم أن يتصوروا أى نظام تعليمى آخر ، أو أى برنامج دراسى مخالف لذلك الذى كان قد تبناه الرومان ونشروه فى شتى أرجاء امبراطوريتهم بطبيعة الحال . ولايمكن أن نقول بأن آباء الكنيسة قد اخطأوا لمجرد انهم لم يصلوا الى المستوى الذى يسمح لهم بالقيام بمحاولات للنهوض بالتعليم نهوضا كاملا ، فقد كان على العالم أن ينتظر ألف عام حتى يجىء جون ديوى John Dewey (٤).

وثمة عامل آخر حسم المسألة التى تبنت الكنيسة التراث الكلاسيكى على أساسها ، وهو العامل الذى تمثل فى وجود مستويين بين المؤمنين بالعقيدة المسيحية . وتحددت أبعاد المذهب القائل بوجود هذين المستويين بشكل واضح للمرة الأولى على يد اللاهوتى السكندرى أووريجين Origen الذى عاش فى أوائل القرن الثالث ، وقد تقبل هذا غالبية آباء الكنيسة بما فيهم

---

(٤) فيلسوف أمريكى ولد سنة ١٨٥٩ ، وكان له تأثير عميق ، لابين الفلاسفة فحسب بل ايضاً بين دارسى التعليم وعلم الجمال والنظريات السياسية ، وهو رجل (ليبرالى) النظرة غير ان التعليم كان يحتل مكان الصدارة بين اهتماماته وكان تأثير جون ديوى على التعليم فى امريكا شاملاً وعميقاً - لمزيد من المعلومات انظر :

Bertand Rusell : History of Western Philosophy. (10 th ed. 1967) pp. 664 - 82.

(المترجم)

القديس أوغسطين ؛ ولو أنهم تقبلوه ببعض الشك وبعد أخذ ورد . وينادى هذا المذهب بأن هناك مستوى لعامة الجماهير فى فهم الدين دون مناقشة ، ومستوى آخر يتناسب مع زعماء الكنيسة وهو الذى يفهم الدين من وجهة نظر فلسفية وبعد بحث وتمحيص . وبالنظر الى المعارضة العنيفة التي واجهتها الكنيسة من دوائر المتعلمين حتى القرن الرابع ، فليس هناك مايدعو للدهشة فى أن المتحدثين باسم الكنيسة كانوا يريدون التظاهر بأن عقيدتهم تناسب العلماء والفلاسفة الذين قرأوا أشعار فرجيل وكتب أفلاطون .

وقد مهدت كتابات الفيلسوف اليهودى فيلون Philo ، الذى عاش بالاسكندرية فى مطلع القرن الأول بعد الميلاد ، الطريق أمام التوفيق بين الايمان بالعهد القديم وكتب التراث الكلاسيكى . لقد كان التأثير العظيم الذى تركه فيلون على اللاهوتيين المسيحيين من بعده بمثابة السبب الثالث الذى حدا بالكنيسة الى معارضة آراء ترتوليان المتزمتة . كان اليهود قد نزحوا الى الاسكندرية فور تأسيسها فى زمن الاسكندر الأكبر ، وفى أيام قيصر وأوغسطس كان ربع سكان الاسكندرية البالغ عددهم مليون نسمة من اليهود ، وسرعان ما اصطبغ اليهود بالصبغة اليونانية فى غمرة الحياة المزدهرة الدائبة فى المدينة . أما اليهود الذين كانوا قد هاجروا الى بلاد النهرين ، فقد قاوموا الثقافة العلمانية التى اتصلوا بها وطوروا قانونا شرعيا جامعا وهو التلمود [٥] (تأسيس طائفة اليهود الربانيين) [٦] لكى يفصلوا أنفسهم نهائيا عن

---

(٥) "التلمود" مصدرها الكلمة العبرية "لمد" ومنها "تلمد" التى تقابل كلمة "تلميذ" فى اللغة العربية ، واسم التلمود مشتق من كونه يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة ، وهو عبارة عن جزئين احدهما "المشنا" (وهو كتاب عبرى فقهى بمنزله التفسير للتوراه) ويعتقد الربانيون أنه وحى أوحى به الله الى موسى اثناء الايام الاربعين التى قضاها فى طور سيناء وامره الا يكتبها ، ثم كتب فى عهد " يهوذا الناسى" (وهو ستة اسفار) وثانيهما "الجمارا" وهو شروح المشناه ويضم التلمود عدة ابحاث كتبها أحبار اليهود وفقهاؤهم وربانوهم فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما الى ذلك . وتقع فى ثلاثة وستين سفراً . وهناك تلمودان احدهما بابلى (بسبب السبى البابلى) والثانى أورشليمى (نسبة الى مدينة أورشليم ) والاورشليمى اقدم ، وهناك عدة اختلافات بين التلمودين – انظر .

مراد فرج : القراءون والربانيون ، ص ٣٦– ص ٤١، حسن ظاظا، الفكر الدينى الاسرائيلى ص ٧٨–٩٤ . (المترجم)

(٦) الربانون (ويعرفون ايضاً باسم الربيين او الربانيين) اشهر فرق اليهود واكثرهم عدداً وكلمة "ربانيم" بالعبرية تعنى الامام أو الفقيه أو الحبر ، وقد عربت هذه الكلمة الى "ربانى" ووردت بهذا النص فى القرآن الكريم (المائدة :٤٤) ، وقد تسمى ابناء هذه الفرقة "ربانيين " اشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقهائهم الواردة فى المشناه وفى التلمود وتقيدوا بهذا الاسم حتى صار سمة عامة لهم – انظر : =

المجتمع العلماني والفكر الدنيوى ، وحاول اليهود فى الاسكندرية من ناحية أخرى ، أن يبرزوا التوافق بين الديانة اليهودية والثقافية الكلاسيكية ، وكانت تحركهم الى ذلك رغبتهم فى أن يقبلهم الأمميون (٧) ، وهى الرغبة نفسها التى ألهمت التيارات اليهودية المتحررة فى عصرنا الحديث . وحاول فيلون السكندرى فى كتاباته العديدة أن يشيع أن ثمة معنى مجازيا كامنا فى نصوص العهد القديم يتوافق مع الفلسفة الأفلاطونية ، كما قال بأن العنصر التاريخى الواضح فى العهد القديم يكشف عن العناية الالهية. وكان هناك عنصر أخلاقى وراء هذه الآراء وهو العنصر الذى يحبذ الفضائل التى نادى بها افلاطون . وفى رأى فيلون أن من الممكن أن نكتشف فى أعلى مستويات المعنى المجازى مذهبا فلسفيا لاهوتيا يماثل التعليم الأفلاطونية الى حد كبير .

وتلاءم تفسير فيلون للتوراه - من حيث احتوائها على مذاهب تاريخية وأخلاقية وفلسفية- إلى درجة كبيرة مع المذهب الذى نادى به آباء الكنيسة فيما يخص مستويات الايمان ، ولم يكن هناك مايدعو الى ارتباك مفكرى الكنيسة من جراء ماورد بالتوراه من وجهات نظر لاتتوافق مع الفكر الأفلاطونى . فمثل هذه الأمور يمكن شرحها بطريقة مجازية ؛ ومن ثم كانت مدرسة المدافعين المزدهرة فى القرنين الثانى والثالث تعكف على كتابات فيلون تستقى منها آراءها فى اللاهوت ، كما انكبت بنفس الثقل على شرح التوافق بين المسيحية والتراث الكلاسيكى . وبالرغم من أن هناك مدرسة أخرى من مدارس التفسير المسيحى للكتاب المقدس ظهرت بأنطاكية فى مرحلة لاحقة فى القرن الخامس ، ونحت نحو التفسير الأدبى والتاريخى ، فإن المذهب السكندرى فى الشرح المجازى لنصوص العهد القديم توافق بشكل أفضل كثيرا مع مذهب العقيدة ذات المستويين الذى اتبعه آباه الكنيسة ، ومن ثم صار هو المنهج الواضح للتفسير المسيحى للكتاب المقدس منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس عشر .

وبينما ساورت الكنيسة اللاتينية ، التى اتخذت حيطتها ضد تعالى ترتوليان على التراث الكلاسيكى ، بعض الوساوس حول تقبل الثقافة اليونانية - الرومانية فإن الكنيسة الشرقية ، التى تبعت قيادة فيلون ، سرعان ما استوعبت التراث الكلاسيكى ، والمذهب الأفلاطونى على

---

= Universal Jewish Encyclopaedia. art, Rabbis, Rabbanite.

وانظر كذلك : حسن ظاظا ، الفكر الدينى الاسرائيلى، ص ٣٤٣-ص٢٣٢ (طبعة معهد الدراسات والبحوث العربية) .

(٧) أى غير اليهود . (المترجم)

وجه الخصوص . وفى الاسكندرية بدأ شارح الكتاب المقدس وعالم اللاهوت أوريجين (ت سنة ٢٥٤)- الذى يعد اكثر آباء الكنيسة الشرقية المبكرة غزارة فى علمه ومؤلفاته - تقليدا جديدا لتفسير العقيدة المسيحية فى اصطلاحات أفلاطونية وقدر لهذا التقليد أن يعمر على مدى زمن طويل . فقد أصّل أستاذه كليمنت السكندرى الأسطورة التى لقيت شعبية واسعة فى العصور الوسطى ، والقائلة بأنه يجب ترسم خطى المذهب الأفلاطونى بشكل متعمق لتفسير نصوص الكتاب المقدس ، ولم يعتذر أو يتحرج من اطلاعه الواسع فى الآداب اليونانية ؛ بل انه العكس من ذلك أرسى المبدأ الذى لقى قبولا عالميا تقريبا بين آباء الكنيسة وكتاب العصور الوسطى ، ألا وهو المبدأ القائل بأن التعليم الكلاسيكى شرط أساسى وضرورى لفهم الكتاب المقدس فهما كاملا .

وقد تركت مسألة تقرير مناقشات الآباء السكندريين المقنعة وحسمها الى من جاء بعدهم فى القرن الرابع . وفى كل من الكنيسة الشرقية اليونانية والكنيسة الغربية اللاتينية كانت المسألة تدور حول مجرد تحديد الكم اللازم من الثقافة الكلاسيكية لخدمة التعليم المسيحى ، وكان يخالج قادة الكنيسة الشرقية الكبار فى النصف الأخير من القرن الرابع قدر ضئيل من الشك حول ضرورة التطويع الحر للميراث الكلاسيكى . وكان القديس باسيل (ت، سنة ٣٧٩) الذى وضع لمساته على النظام الديرى فى الشرق متحمسا لقيمة الأدب اليونانى - الرومانى فى تلقين الفضائل التى تتوافق مع المفاهيم الأخلاقية للأنجيل ؛ وذلك بالرغم من ادراكه لأن التعليم الكلاسيكى ليس الا وسيلة لفهم الحقيقة فهما شاملا ، كما كان مدركا للحاجة الى خلق الانسجام بين العلم اليونانى وعقيدة الكتاب المقدس . بل إن هناك آباء آخرين فى الكنيسة اليونانية الشرقية كانوا أكثر حماسة للثقافة الكلاسيكية - فإن القديس جريجورى النازينزى St. Greogory Nasianzen الذى كان بطريرك القسطنطينية لفترة قصيرة (ت. سنة ٣٩٠) ، أدان المسيحيين الذين يحطون من شأن الثقافة الوثنية ووصمهم بأنهم أميون أجلاف لايقدرون مايعود على الكنيسة من مزايا من خلال التعليم . ولم يخطر ببال جريجورى أن باستطاعة المسيحية أن تطور مناهجها التعليمية الخاصة أو مذهبها المتمايز . وفى كتابات يوحنا ذهبى الفم (الفصيح) St. John Chrisostom الذى كان بطريركا للقسطنطينية ومات سنة ٤٠٧ ، وفى خطبه البليغة ، يمكن أن نجد المواقف الدالة على مذهب انسانى مسيحى بمعنى الكلمة ينظر الى الثقافة الكلاسيكية ، لا كمجرد أداة يمكن للكنيسة أن تستخدمها ، ولكن كشىء جذاب وله قيمته الخاصة . وتميز التاريخ الثقافى لبيزنطة فى الفترة التالية بموجات إحياء للدراسات الكلاسيكية ، من آن لآخر ، لاسيما فى القرن العاشر. ولم تحقق محاولة بيزنطة فى

مجال الدراسات الكلاسيكية ما كان ينتظر لها أن تحققه فى مجال الأدب : إذ كانت الآداب اليونانية فى القسطنطينية فى العصور الوسطى مستمدة من نماذج قديمة ، كما كانت تفتقر إلى الأصالة فى مجملها . ومن ناحية أخرى ، كان مقدرا للتراث الكلاسيكى الذى أتت به آراء آباء الكنيسة فى القرن الرابع أن يكون له تأثير قوى على طراز الفن البيزنطى مرة أخرى فى القرن العاشر بصفة خاصة .

وبينما كان الأدب الكلاسيكى اليونانى فلسفيا الى درجة كبيرة - أو عالميا فى محتواه على الأقل - كان الأدب اللاتينى لا أخلاقيا ، بل وفاضحا . ومن يقرأ افلاطون ، وما نظمه كاتوللوس Cattullus هياما فى محبوبته لسبيا Lesbia، وكتاب "فن الحب" الذى كتبه أوفيد Ovid يجد الدليل على ذلك . وادى هذا الموقف الذى سببته الاستجابه المتزايدة لآراء ترتوليان إلى أن اتخذ مفكرو الكنيسة الغربية فى القرن الرابع موقفا أكثر حذرا تجاه التراث الكلاسيكى من موقف رفاقهم اليونانيين . وعلى الرغم من ذلك فإنهم تخلوا عن موقف ترتوليان الذى جرد الأدب الكلاسيكى من أية قيمة ، وان كان ذلك بدرجات متفاوته بين رجل وآخر ، وحسموا بذلك مصير أوربا التعليمى والفكرى على مدى السنوات الألف التالية ، وكانت آراء القديس جيروم والقديس أوغسطين حاسمة بهذا الصدد .

وبالرغم من أن جيروم كان سليل عائلة مسيحية ، فانه تلقى تعليما كلاسيكيا شاملا ، ولم يلبث ان تخطى مرحلة دروس النحو والبلاغة العقيمة الى مرحلة التقدير العميق لجمال اللغة والصياغة في الأدب اليوناني والأدب الروماني ، وهو يحكى لنا كيف أنه سقط مريضا أثناء الرحلة التى قام بها إلى الشرق وهو فى أواسط عمره وكانت شهرته كعالم كبير قد رسخت بالفعل - وفى الحلم وجد نفسه متهما أمام العدالة المقدسة بأنه ليس مسيحيا بل شيشرونيا[٨]، ويبدو أنه عانى من انهيار نفسى ومعنوى شديد القسوة ، إذ أنه هرب الى برية مصر ، كما كان شائعا فى الأوساط التى اشتهرت بشدة تقشفها . وعلى مدى خمس سنوات عاش حياة ناسك مسكين ودرس اللغة العبرية أثناء هذه الفترة ، ويبدو أن شفاء جيروم كان سريعا مثل انهياره ، فقد هجر الصحراء المصرية الى القسطنطينية حيث استأنف إشباع ميله الى الدراسات الكلاسيكية ، ثم ذهب فيما بعد الى مدينة بيت لحم حيث استقر وقد صار رجلا مسنا واكمل ترجمته العظيمة للكتاب المقدس الى اللاتينية. وقد صارت ترجمة جيروم التى عرفت بالفولجاتا Vulgata[٩] هى النص المعتمد فى الكنيسة الرومانية وفى العصور الوسطى

---

(٨) نسبة الى شيشرون الخطيب الرومانى المفوه الذى عاش فى عصر الجمهورية الرومانية ، ويقصد المؤلف أن جيروم كان متعلقاً بالتراث الوثنى . (المترجم)

(٩) أى النسخة الشعبية وذلك لأنها كانت مكتوبة باللغة اللاتينية الدارجة . (المترجم)

والحديثة . وقد اعتمدت ترجمة الملك جيمس على ترجمة جيروم اعتمادا كبيرا ، وتعتبر ترجمة جيروم عملا فنيا عظيما وتمتاز بدرجة فائقة من الدقة ، ولم يكن ممكنا أن يقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية سوى فقيه لغة Philologist متمكن ، يتمتع فى الوقت نفسه بحساسية فائقة بدقائق اللغة اللاتينية .

وأجاب جيروم على زملائه ، حين ذكروه بحلمه الذى شاع أمره بين الناس ، بأن الحلم فى النهاية ليس الا حلما. وقد بات حلم القديس جيروم الشهير موضوعا شعبيا فى أدب العصور الوسطى وفنونها ، وغالبا ماكان غلاة المتعصبين يلجمون به علماء العصور الوسطى وباحثيها . وعلى أية حال ، فقد تمثل أهم أثر لأعمال جيروم فى أنه مضى قدما بعملية استيعاب الكنيسة اللاتينية للتراث الكلاسيكى . ولم يقدر معاصروه – ومنهم أوغسطين – مدى عظمة الترجمة اللاتينية التى قام بها للكتاب المقدس حق قدرها . بيد أنه بالنسبة لمن عاشوا فى العصور الوسطى الباكرة كانت حياة جيروم ومؤلفاته خير داعية للفكرة القائلة بأنه ليس من الضرورى أن يؤدى حب المسيحى المؤمن للأدب الكلاسيكى إلى إنحراف عن عقيدته . فعلى العكس من ذلك ، لم يكشف القديس جيروم عن الفكرة القائلة بأن الجمع بين التراث الكلاسيكى والديانة المسيحية ممكن وغير متناقض فحسب ، ولكنه أوضح أيضا أنه يمكن تسخير هذه الفكرة لخدمة الكنيسة فى مجالات التعليم المسيحى والدفاع عن العقيدة .

أما القديس أوغسطين فكان أقل محاباة لقيم الثقافة الكلاسيكية من معاصره العظيم جيروم ، إذ كان أوغسطين متمكنا من اللغة اللاتينية ، فقد عمل بتدريس البلاغة قبل أن يعتنق المسيحية فى منتصف حياته ، ولكنه لأسباب عقلانية من ناحية ، ولأنه كان أفريقيا شماليا عنيدا مثل ترتوليان من ناحية أخرى ، وجه انتقادات قاسية ضد بعض الجوانب الجوهرية فى التراث الكلاسيكى . ورأى أوغسطين أن يؤخذ من التراث الكلاسيكى مايبدو ضروريا ومفيدا لتحقيق غايات الكنيسة وأهدافها ، وأن تهمل النفايات ، وطرح عدة اقتراحات محددة عن كيفية تحقيق هذا البرنامج ، فقال إنه أوصى بإعداد ملخصات للفنون الحرة ، وملخصات دراسية لموضوعات الفلسفة الكلاسيكية والأدب الكلاسيكى التى تتوافق مع العقيدة المسيحية. والحقيقة أن أوغسطين نفسه قد نهل كثيرا من مورد الفلسفة الأفلاطونية فى كتاباته اللاهوتية.

وكان للاقتراحات التى وضعها أوغسطين عن العلاقة الصحيحة بين المسيحية والأدب الكلاسيكى تأثير هائل فى العصور الوسطى الباكرة . وفيما بين القرن الخامس والقرن الثامن

سار التعليم المسيحى على الخط الذى حدده أوغسطين : أى الدراسة المستمرة للنحو والبلاغة باعتبارهما قوام البرنامج التعليمى ، وتأليف ملخصات الفنون الحرة ، ولم يكن هذا راجعا إلى تأثير أوغسطين الفعال على التعليم المسيحى فحسب ، ولكنه كان راجعا أيضا إلى الظروف الثقافية العامة التى كانت سائدة فى تلك الفترة . ففى المحل الأول - عندما غدت الثقافة الكلاسيكية فى عصرها الأخير أكثر عمقا وحذلقة - كان هناك اتجاه عام ، حتى قبل أوغسطين، نحو تلخيص الفكر الكلاسيكى فى موجزات تسهل قراءتها ، الا أن مثل هذه الموجزات كانت هى بالضبط ما كان أوغسطين يدعو إليه ويحث عليه من أجل التعليم المسيحى. وثانيا أن العالم الذى كان يطغى عليه الجهل والفظاظة فى الفترة مابين الغزوات الجرمانية وقيام الملكية الكارولنجية المصلحة فى القرن الثامن ، لم يكن ليستطيع أن يهضم الزاد العقلى الذى تقدمه الثقافة الكلاسيكية ، وغاية ماكان يستطيعه هذا العالم أن ينهل من التراث الكلاسيكى من خلال الموجزات والملخصات والموسوعات .

وهكذا ، تسبب تأثير القديس أوغسطين من ناحية ، وظروف تاريخ الغرب الثقافى بين القرن الرابع والقرن الثامن من ناحية أخرى ، فى أن يصل التراث الكلاسيكى إلى الكنيسة المسيحية من خلال الملخصات والمقالات الموجزة فى البلاغة والفنون الحرة والعلوم . وعيوب مثل هذه المقالات تبدو واضحة بدرجة أكبر من مزاياها ، فهى متواضعة القيمة إلى أبعد الحدود ، فكثيرا ما كانت المعرفة العلمية التى تقدمها مستوحاة من عالم الخيال والخرافات . ومع أن هذه الموسوعات التى ضمت الفكر الوسيط لم تكن تفى بالحاجة المطلوبة ، فإنها كانت الجسر ما بين مدارس القرن الرابع والمدارس الكارولنجية التى أخذت فى الأزدهار منذ أواخر القرن الثامن .

كان أول أولئك الموسوعيين ، أو "الناقلين اللاتين" كما عرفوا آنذاك هو مارتيانوس كابلا Martianus Capella الذى كان من معاصرى أوغسطين ومن أبناء شمال أفريقيا . وليس من المؤكد ما إذا كان مارتيانوس مسيحيا - فان المسيحية لاتظهر اطلاقا فى ثنايا مقالته - ولكن المؤكد أن الناس فى العصور الوسطى كانوا يعتقدون أنه مسيحى، وظل مؤلفه يلقى شعبية واسعة ويؤثر فى الحياة الفكرية حتى القرن الثانى عشر. وتحمل مقالته عنوانا غريبا هو "زواج الفيلولوجيا ومركوريوس" ويبدأ موضوع المقالة بقصة مجازية ، وتنتهى ككتاب مدرسى عن الفنون الحرة السبعة . والواقع أن رسالة مارتيانوس كابلا هى التى حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وثبتت ذلك فى أذهان الناس فى العصور الوسطى الباكرة ، بالرغم من أنه كان فى نص الكتاب المقدس - بطبيعة الحال - ما يؤيد هذا التحديد ، وهو النص الوارد فى كتاب الأمثال

**"الحكمة بنت بيتها ، نحتت أعمدتها السبعة"** (١٠) بل إن جامعات العصور الوسطى العالية قسمت مجرى الفنون التى تدرسها على نهج تقسيم مارتيانوس . وفى رسالة مارتيانوس تقع الفنون السبعة الحرة (التى تبدو فى البداية كوصيفات الشرف للفيلولوجيا) فى مجموعتين إحداهما تضم ثلاثة فنون وتضم الثانية أربعة فنون ، أما المجموعة الثلاثية (التى أطلق عليها كتاب العصور الوسطى منذ ذلك الحين اسم تريفيوم Trivium ؛ فكانت تضم الفنون الأدبية : النحو والبلاغة والمنطق وكانت المجموعة الرباعية وهى الكوادريفيوم Quadrivium والتى تسمى كذلك بالمجموعة الرياضية ، أو مجموعة الفنون غير الأدبية أو الفنية ؛ فهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. ومن الأمور ذات الدلالة أن مارتيانوس قد حذف الطب والقانون من قائمة الفنون الحرة مما أدى إلى عزلها من كليات الدراسات الانسانية فى جامعات العصور الوسطى العالية بل ومن معاهدنا الأكاديمية الحديثة . وكانت حجة مارتيانوس كابلا فى ذلك متفقة مع رأى أوغسطين بأن الطب والقانون ليسا من الدراسات "الحرة" لأنهما يهتمان بأمور تطبيقية أو باعتبارهما مخالفين للعلوم النظرية. وقد صارت مقالة مارتيانوس عن الفنون الحرة أساس المنهج الدراسى فى مدارس العصور الوسطى الباكرة ، فان موقفه المتعالى من القانون والطب- والذى أصبح موقفا يحتذيه العلماء فى العصور الوسطى الباكرة - كان سببا أساسيا فى تدهور المعرفة الطبية أوائل العصور الوسطى وفى أن الطلاب نادرا ماكانوا يتابعون دراسة القانون الرومانى - خارج ايطاليا على الأقل - حتى القرن الحادى عشر . وازدهرت دراسة الطب والقانون من جديد كدراسة أكاديمية فى القرن الحادى عشر كدراسات عليا تؤدى بعد اتمام دراسة الفنون الحرة .

وفضلا عن مقالة مارتيانوس ، كان هناك مؤلفان موسوعيان كتبهما إثنان من علماء إيطاليا فى بواكير القرن السادس - كاسيودروس Cassiodours وبوئثيوس Boethius وكان كلاهما من أبناء العائلات الأرستقراطية الرومانية كما ارتقى كل منهما مناصب عليا فى حكومة ثيودروريك Theodoric ملك القوط الشرقيين . وكان قصد كاسيودروس الأول ، وهو يعمل فى سبيل الحفاظ على الميراث الكلاسيكى فى الممالك الجرمانية ، أن يؤسس نوعا من الجامعة المسيحية فى روما ، بيد أن اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية آنذاك حال دون تحقيق ذلك ، ولذا فانه عمل على توظيف الحركة الديرية فى خدمة هذا الغرض . وكان كاسيودوروس أول من أسس ديرا كمركز للدراسة ، وهو النمط الذى سارت عليه أديرة عديدة

---

(١٠) كتاب الأمثال ٩: ١-٢ .

فيما بعد ، أما الملخص الذى كتبه كاسيودورس عن الفنون الحرة فقد كان نتيجة للحاجة إلى صياغة برنامج لتعليم تلاميذه فى الدير . ولما كان كاسيودوروس يؤمن طبعا بأن الهدف من التعليم الديرى هو دراسة اللاهوت والكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ؛ فقد نادى بأنه يجب البدء بدراسة الفنون الحرة لكى يتحقق هذا الهدف على نحو سليم ، وهو التقليد الذى سار عليه العلماء المسيحيون فى الدراسات الانسانية فى الوقت الحاضر ، ومن ثم أعد كاسيودروس خطة لدراسة الفنون السبعة الحرة وهى عبارة عن نوع من المقررات المدرسية للمعرفة العامة ، وألحق بها قائمة بمصادر الكتابات الكلاسيكية التى توسع من دائرة مايقوم به الرهبان من دراسات حرة . وكان برنامج كاسيودوروس هو الأساس الذى قام عليه المنهج الدراسى فى المدارس الديرية أوائل العصور الوسطى . وهكذا كانت هذه الخطوة إسهاما فعالا للغاية فى الحفاظ على الميراث الكلاسيكى فى الغرب ، ونبه إلى أن الرهبان يحتاجون إلى نسخ عدد من الأعمال الكلاسيكية حتى يتمكنوا من قراءة هذه الأعمال . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، بدأ ظهور الأديرة كنوع من مراكز النشر ، ظهورا بطيئا . وفى هذه المراكز كانت تنسخ النصوص الكلاسيكية المختارة ؛ إما للمكتبات ، وإما لهذه الأديرة ذاتها ، أو لكى ترسل إلى الأديرة التى تفتقر إلى مثل هذه الامكانيات الطيبة ولاتتمتع بمثل هذا المستوى من التقدم العلمى .

وأخذ معاصر كاسيودروس الفيلسوف بوئثيوس ، على عاتقه مهمة ترجمة جميع مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة اللاتينية ولكن المنية وافتة قبل أن ينجز مهمته ، ولكن ترجمته لمنطق أرسطو كانت هى النص الوحيد المتاح فى الغرب من مؤلفات الفيلسوف الكبير فى العصور الوسطى الباكرة ؛ ومن ثم كانت مساهمة هامة للغاية فى الحفاظ على بعض مظاهر الفلسفة اليونانية فى العصور الوسطى . وتعد مقالة بوئثيوس المعروفة باسم "سلوى الفلسفة" إحدى الأعمال الفلسفية القليلة التى كتبت فى الفترة مابين عصر أوغسطين والقرن الحادى عشر ، ولايزال لديها ماتقوله للقارىء الحديث . وقد كتبت حين كان بوئثيوس ينتظر الاعدام لاتهامه بخيانة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وهى تمدنا بملخص متناسق للنظريات الأخلاقية الكلاسيكية ، رغم غلبة المسحة الصوفية عليها .

أما آخر المساهمين الكبار فى الميراث الكلاسيكى فى الغرب ، منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن ، فهو عالم القرن السابع ايسيدرور Isidore أسقف أشبيلية والذى كان ينحدر هو الآخر من صلب عائلة رومانية قديمة غير جرمانية ، وكانت عائلته قد نزحت من شمال أفريقيا إلى أسبانيا فى القرن السادس . وكان لايسيدور تأثير عظيم على التعليم فى العصور

الوسطى من خلال موسوعة تتألف من عشرين كتابا اسمها "الاشتقاقات أو الأصول". ويعكس هذا العنوان الغريب اعتقاد ايسيدور - وهو الاعتقاد الذى كان شائعا فى العصور الوسطى الباكرة نتيجة للاهتمام السائد آنذاك بالمجازية والرمزية - بأن الطريق الى المعرفة يمر من خلال أصول الكلمات. ولم تكن معلومات ايسيدور فى فقه اللغة كافية بالمرة لكى يتتبع اشتقاقات الكلمات على نحو صحيح. وعلاوة على ذلك فقد حفلت مؤلفاته بالخيال والخرافة، ولكنها مع ذلك لقيت اقبالاً واسعا كما كان لها تأثير عظيم لأن ايسيدور لم يقيد نفسه داخل إطار الفنون الحرة، ولكنه حاول أن يقوم بمسح كلى للمعارف فى العالم اليونانى - الرومانى، بما فى ذلك الطب وعلم الحياة، وعلم النبات والعمارة. وبالنسبة للناس فى العصور الوسطى الباكرة كانت أعماله تتميز أيضا بالترتيب الدقيق والايجاز، وبالرغم من أخطائه العديدة، فإنه عمل على أن ينقل إلى عالم العصور الوسطى الباكرة قدرا كبيرا من المعلومات المستقاة من خارج نطاق الفنون الحرة. وربما لايحق لنا أن نلومه، لأن العلماء فى العصور الوسطى قد درجوا، على مدى قرون عديدة، على أن ينظروا إلى عمله باحترام قد لايكون فى محله، كما أنهم يرددون آراءه الخيالية دون أدنى نقد. وقد استقى ايسيدور هذه الآراء بدوره من كتاب الامبراطورية الرومانية المتأخرة.

ولم يكن من يلقبون "بالناقلين اللاتين" مفكرين يتمتعون بقدر من الأصالة أو المعرفة الوثيقة باللغة؛ ولكنهم كانوا مجرد مدرسين ومؤلفين للكتب المدرسية. ولايكاد يكون هناك شيء مما كتبوه يستحق أن يقرأ لذاته. ولكن دورهم فى تاريخ الثقافة كان دورا هاما للغاية، فقد أنيطت بأولئك المفكرين، الذين أوقفوا حياتهم على هذه المهمة التى تفوق قدراتهم، مهمة تحقيق حفظ الكنيسة المسيحية للجزء الأكبر من التراث الكلاسيكى. لقد ظهر هذا البرنامج من خلال الجدل العظيم الذى دار حول قيمة الدراسات الكلاسيكية، وهو الجدل الذى كان بمثابة النغمة الدالة فى فكر آباء الكنيسة، فيما بين القرنين الثانى والخامس، وقد حسم آباء الكنيسة الكبار الأمر لصالح الثقافة المسيحية اللاتينية، وعارضوا النزعة الراديكالية المتزمته التى عرفت عن ترتوليان، وتركت لخلفائهم الذين كانوا أقل منهم فى هذا المستوى - منذ القرن الخامس حتي القرن الثامن - مهمة وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ بالوسائل المتاحة لديهم، وقد أحسنوا عملهم بالقدر الذى كان كافيا لأن تظل الكنيسة متعلمة ومرتبطة بالميراث الكلاسيكى. وثمة هوة هائلة فى المستوى العلمى والادراك العقلى تفصل بين أوغسطين وايسيدور الاشبيلى. وبالرغم مما كان يشوب "الناقلين اللاتين" فانهم مهدوا السبيل أمام الإحياء الثقافى فى القرن الثامن وطوال القرن التاسع فى العالم الكارولنجى الذى شهد - على أقل تقدير - عودة جزئية لعصر ثقافة آباء الكنيسة بما تميز به من ثراء وعطاء.

## ٢- حج أوغسطين

في سنة ٤٣٠ تحقق سكان مدينة هيبو Hippo في شمال أفريقيا (بالقرب من قرطاجة القديمة ، وهي قرطاجة الحديثة في تونس) أن الحضارة الرومانية كما عرفوها كانت تعيش أيامها الأخيرة . فمنذ سنوات خلت ، قام الوندال Vandal ، وهم من أكثر الشعوب الجرمانية بداوة ، بغزو شمال أفريقيا ، وفي سنة ٤٣٠ نفسها كانوا في طريقهم الى القضاء على ماتبقى من السلطة الرومانية في أفريقيا. وفي تلك الآونة الحرجة لم يكن هناك من يقوم بقيادة المجتمع والسهر على راحته سوى الأساقفة . إلا أن أسقف هيبو ، الذي كان هو القديس أوغسطين في ذلك الوقت - وهو أعظم مفكري عصره - كان يرقد مسجى على فراش الموت ، وكان بعض أساقفة شمال أفريقيا يريدون الهرب من البلاد ، وكتبوا إلى أوغسطين طالبين النصيحة ، فأجاب بأنه اذا تخلى الزعماء الروحيون عن رعاياهم ، فلن يكون لعامة الناس دليل يقودهم في مواجهة الموقف العصيب ، وفي هذا مساس بسمعة الكنيسة : فعلى الاساقفة أن يبقوا في مواقعهم حتى النهاية . ومن المعتقد أن أوغسطين مات قبل أن ينتهك الوندال مدينته ويُعْمِلوا فيها السلب والنهب . وعلى أية حال ، فقد بقيت مؤلفاته الضخمة لتصبح من المصادر الرئيسية التي تلهم المسيحيين وترشدهم كما تثير الخلافات بينهم حتى اليوم .

ومنذ القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين - وهي الفترة التي نشط أثناءها تيار التحرر الديني - انزوت مؤلفات أوغسطين في زوايا النسيان ، ولكن منذ الحرب العالمية الأولى ، حيث تعرضت الحضارة الغربية لتغيرات هائلة تشابهت مع الكوارث التي حدثت أثناء عصر أوغسطين ، عاد كثيرون من المفكرين الدينيين والعلمانيين العقلانيين على حد سواء واتجهوا صوب مؤلفات أوغسطين بحثا عن رؤية داخلية للعلاقة بين العالم والروح .

وليس من المحتمل أن يكون هناك أكثر من حفنة من أهالي مدينة هيبو في القرن الخامس قد تحققوا أن أسقفهم هو أعمق مفكر أنجبته الكنيسة المسيحية حتى ذلك الحين . وقد أدرك رفاق أوغسطين من الاساقفة أهميته الفكرية وحاولوا التخفيف من أعبائه الرعوية ؛ ولكنه لم يهمل شأن رعيته على الاطلاق . وتطورت معظم مذاهب أوغسطين كاجابات على قضايا الساعة التي كانت تواجهه خلال ممارسته لواجبه الرعوي ، فهو لم يكن أستاذا متفرغا في فقه الدين (اللاهوت) يمتلك الوقت الذي يمكنه من تطوير نظرية محددة ؛ وإنما كان رجلا من رجال الكنيسة يحاول مواجهة مايعرض له في كل يوم من مشكلات حول العقيدة والأخلاق . وقد تمثل تأثير هذه الطبيعة البراجماتية لكتابات أوغسطين في كونها تفتقر الى الوضوح في أغلب

الأحيان من جهة ؛ ولكنها من جهة أخرى ، كانت تعبيرا عن فهم وادراك المشاكل الحقيقية فى الحياة على نحو يندر أن نجد له مثيلا عند أى مفكر مسيحى آخر منذ عصره حتى الآن ، وعندما اقتربت حياة أوغسطين من نهايتها الف كتابا صغيرا بعنوان Retractationes[(١١)] (أى المراجعات أو الاستدراكات)، وقام فى هذا الكتاب بتقييم مؤلفاته كلها ، واعترف بأنه لم يكن فى هذه المؤلفات متوافقا مع ذاته تماما ، ذلك أنه فى الحقيقة ذكر فى غمرة احتدام الجدل والنقاش أمورا تبعد كل البعد عن رأيه الحقيقى . وكان مقدرا لهذه التناقضات والملاحظات المتطرفة أن تكون مصدر خلاف بين المسيحيين فى العصور الوسطى ، وفى عصر الاصلاح الدينى ، وحتى يومنا هذا. ومن ناحية أخرى ، فإن هذه التناقضات والملاحظات المتطرفة تجعل أوغسطين يبدو كأكثر علماء اللاهوت المسيحيين انسانية . وتعكس أعماله جهوده اليومية فى سبيل الوصول إلى تفسير للعالم فى ضوء العقيدة المسيحية ، اكثر مما تعكس ذلك التوافق والتطابق الذى يتميز به البحث النظرى .

وكانت أعظم المشكلات التى جابهت أوغسطين بوصفه أسقف مدينة هيبو ، هى مشكلة إخضاع الدوناتيين الذين ظلوا أقوياء كما ظل صوتهم عاليا فى شمال أفريقيا ؛ بالرغم من تلك القرارات التى صدرت من الكنيسة بحرمانهم والمراسيم التى صدرت عن الامبراطورية بتجريمهم ، ومن هذا الصراع استنبط أوغسطين مذهبه عن طبيعة الكنيسة والأسرار المقدسة ، وهو المذهب الذى تلقنه الكنيسة لأتباعها حتى اليوم . كما أعلن أوغسطين أن صلاحية الطقوس المقدسة لاتستمد من أخلاق القسيس الذى يقوم بأدائها لأن صلاحيتها تعتمد على المهمة المقدسة التى يضطلع القساوسة بأدائها ؛ أى أن الطقوس الربانية تستمد فعاليتها من الرب الذى يمنح النعم كلها ، وطالما أن القس تكرسه الكنيسة بصفة رسمية فإن قيامه بالسر المقدس يعتبر سليما . وفى مواجهة المثل الأعلى الدوناتى – الذى كان الكاثوليك يرون فيه مثلا متزمتا ، لأنه ينشد كنيسة لاتضم سوى القديسين – ذهب أوغسطين إلى تعريف الكنيسة المسيحية بأنها كنيسة كاثوليكية أى عالمية مسكونية ، ولم يستطع أن يرى أى مبرر لمزاعم الدوناتية القائلة بأن قوة الكنيسة وسلطانها سوف يضعفان إذا سمحت للأشرار بالانخراط فى صفوفها ، إذ أن الرب سوف يحكم بعدله بين الناس جميعا فى النهاية ويقصى الأشرار عن ملكوت السموات . وعلى أية حال ، فإن الكنيسة فى الحياة الدنيا إنما هى شكل أولى غير

---

(١١) أورد المؤلف عنوان الكتاب بصيغة المفرد هكذا Retractatis .

كاملة بالضرورة ، وهى تعبير دنيوى عن الروح القدس . ويخلص أوغسطين فى النهاية إلى أن هناك رجالا صالحين خارج الكنيسة ورجالا فاسدين بداخلها ؛ ولكن واجب الكنيسة أن تحاول ضم الناس جميعا إلى رحابها ، ومن ثم تتقدم نحو تحقيق المدينة السماوية . ونتيجة لذلك كان أوغسطين - استنادا الى النص العهدى الذى دعا فيه المسيح إلى ضم الناس إلى الجماعة المسيحية - يعتقد أن من الممكن تبرير استخدام القوة فى تحويل الناس إلى المسيحية ، وكان يعلم تمام العلم أن القوة لاتكفى ، ولكنه من ناحية أخرى كان يعتقد أنه من الاسهل كثيرا أن يكسب الناس إلى صفوف الدين المسيحى طالما أنهم كانوا ينتسبون إلى الكنيسة بصفة رسمية. وفى نضاله اليائس ضد الدوناتيين ناشد الدولة أن تعيد الهراطقة الذين ضلوا سواء السبيل إلى حظيرة الإيمان ، وبذلك تسهل مهمته كمعلم دينى وكميشر .

أما فكرة أوغسطين عن تنصير الناس جبرا فلم تجد نفعا مع الدوناتيين ؛ لأن السلطة الامبراطورية لم تكن من القوة بحيث تستطيع ذلك ، ولكن كنيسة العصور الوسطى تقبلت هذه الفكرة فى سياق تعاليمه عن طبيعة الكنيسة والأسرار المقدسة . ولسنا ندرى ما إذا كان أوغسطين سيوافق حقا على العنف الذى نال من الهراطقة واليهود فى القرون التالية ، ويجب أن نتذكر على أية حال أن مذهب أوغسطين عن العضوية الاجبارية فى الكنيسة كان انعكاسا ليأسه من عجزه عن إعادة الدوناتيين إلى رحاب الكنيسة الكاثوليكية ، كما كان يعكس خلفيته الثقافية الرومانية وهو ، مثل كثير من الرجال الذين تأثروا بالفكر الكلاسيكى ، كان يولى اهتماما كبيرا للحفاظ على نظام المجتمع ، ولم يكن الانسجام الدينى فى نظره ضرورة دينية فحسب ، بل كان ضرورة اجتماعية أيضا .

ومن ثم فإن أفراد رعية أوغسطين لم يعرفوه راعيا يلجأون اليه فى الملمات والمتاعب فحسب ، ولكن أيضا باعتباره عدوا لدودا ، وخصما يضطهد الهراطقة فى لحظات الضعف والخذلان . وفوق هذا كله عرفه أفراد رعيته واعظا من أفضل طراز . وقد امتاز فى هذا الميدان، وصارت خطبه ومواعظه نموذجا يحتذيه وعاظ العصور الوسطى ، بل والوعاظ البروتستانت فيما بعد. والحقيقة أن أوغسطين ألف رسالة عن كيفية كتابة الموعظة - وليس هناك جانب من جوانب الحياة الكنسية لم يعره اهتماما فى كتاباته - وهنا يمكن أن نرى كيف كانت تجربته الشخصية فى هيبو تنعكس على القواعد التى حددها للواعظ : أن يلم دائما بطبيعة الجمهور الذى يتحدث إليه وبطبيعة موضوعه ، كما يجب أن تكون اللغة التى

يستخدمها لغة بسيطة دائما بالقدر الذى يكفى لأن يفهمه سامعوه ، وإذا رأى الواعظ طوال استماعهم إلى الخدمة الكنسية ما يدل على أنهم لم يفهموه بالقدر الكافى ، كان عليه حينئذ أن يعيد صياغة فكرته؛ إذ يجب أن تنصب الموعظة على النقاط الأساسية وألا تتوه فى المسائل غير الهامة ، فضلا عن أيه يجب على الواعظ أن يوضح عرضه للعقيدة من خلال ربطها بالواقع الذى يعيشه من يستمعون اليه .

وثمة خاصية تميز أوغسطين كمفكر مسيحى هى استعداده للحديث عن مشاكل الخلاص فى ضوء تجارب رعاياه وتجربته الشخصية ، ولم يتوان فى الكشف عن أفكاره الخاصة وعن الأزمات الروحية التى عصفت بكيانة ، ولم يشبهه فى صراحته والحديث عن خصوصياته سوى نفر قليل من المفكرين المسيحيين . كان أوغسطين بتصلبه هذا وباعتقاده أنه على حق أشبه مايكون بواحد من الفريسيين (١٢) المتصلبين فى آرائهم ؛ على أنه من ناحية أخرى كان أبعد مايكون عن العالم توماس الأكوينى المتجرد من قيود الجسد . فقد انساق لكل مايمكن أن ينساق اليه الانسان من غواية ، كما عرف مرارة اليأس . والحقيقة أنه لم يعتنق المسيحية إلا عندما بلغ الثلاثين . ولم يكن هناك من اللاهوتيين المسيحيين من استطاع مثله أن يسبر أغوار الضعف الانسانى ، فلم تكن الخطيئة بالنسبة لأوغسطين (كما كانت بالنسبة لتوماس الأكوينى) مسألة عقلية يمكن تحليلها بالقياس المنطقى ، وإنما كانت واقعا حيا فى التجربة الانسانية منذ الخليقة ومن ثم ، ورغم أننا نرى فى أوغسطين رجلا متشائما ؛ فإنه كان بالنسبة لرعيته فى هيبو يبدو معلما رحيما يرشدهم إلى سبيل الأمل ، فقد كانوا يعلمون إلى أى درك تردى هو نفسه ، لأنه غالبا ماكان يذكرهم بذلك ؛ فقد كانوا يعرفون أنه قام برحلة حج ثقافى وروحى تحمل فيها العذاب المضنى ، أما إذا ارتكب المرء خطيئة ولم يشعر بالندم قط ، فإن هذا يعد فى نظر أوغسطين خطيئة فى حق الروح على نحو ماذكر فى واحدة من أفضل خطبه الوعظية وجاء بها :

---

(١٢) الفريسيون ، واسمهم بالعبرية "فروشيم" أى المفروزين الذين امتازوا عن الجمهور ، جماعة يهودية كانت تزعم نفسها معرفة بالشريعة الموسوية أدق من أى إنسان آخر ، وكانوا يطلقون على أنفسهم أيضا أسم "حسيديم" أى الأتقياء "وحبريم" أى الرفاق ، وكان أفراد هذه الفرقة من أشد خصوم المسيح خطراً عليه لأنهم كانوا أصحاب الكلمة العليا فى توجيه المجتمع اليهود آنذاك . وقد وصفهم الانجيل بالتزمت الأحمق والتناقض فى الأقوال والأفعال ، والتآمر والنفاق . (المترجم)

**" ليس من الواجب أن نحكم على هذا الكفر وهذا القلب السادر فى غيه طالما" "أن الانسان يحيا حياة الجسد لأنه ليس لنا أن نيأس من أى شخص طالما أن الصبر الالهى يقود الملحدين إلى التوبة ، ولايسرع بالملحد إلى نهاية حياته ، فإن الرب لايريد للمخطىء أن يموت وإنما يريده أن يؤوب من طريق الشر إلى سواء السبيل . فهو وثنى اليوم ، ولكن من يدريك أنه قد لايصير مسيحيا غدا ؟ .. ماذا لو أن أولئك الذين نراهم اليوم ، من الخُطاة .. تابوا قبل أن يحين أجلهم فى هذه الحياة الدنيا واكتشفوا أن الحياة الحقيقية هى الحياة الأخرى ، ومن هنا أيها الاخوة لاتلقوا بأحكامكم على عواهنها وقبل أن يحين الوقت ".**

لقد لخص أوغسطين بهذه الكلمات مجرى حياته على النحو الذى عرفناه .

فقد ولد سنة ٣٥٤ فى بلدة صغيرة بالقرب من قرطاجة فى شمال افريقيا ، وكان أوغسطين أكبر ثلاثة أطفال ، وكان أبوه أحد ملتزمى الضرائب Curiale بالمدينة ، وكان مثل غيره من أفراد هذه الطبقة المتوسطة ، من أبناء المدن ، فقيرا يقلد أبناء الطبقة الراقية : ولم يكن أوغسطين يحب أباه الذى عاش وثنيا طوال حياته ؛ على حين أخلص لأمه المسيحية المؤمنة إخلاصا عميقا وكان لأمه أعظم تأثير عليه طوال الشطر الأكبر من حياته . ولم تكن تجرى فى عروق أوغسطين دماء رومانية ، فلم يكن آريا وإنما كان من البربر ، وهو الجنس الذى اشتهر أيامه ، بل وفى العصور الوسطى والحديثة ، بتدينه العميق ، وقد أرادت أم أوغسطين له أن يكون مسيحيا . والحقيقة أن أباه لم يكن ليعترض على ذلك ، بل إنه كان على استعداد أن يقبل تعميده فى سن مبكرة لو حدث ذلك ، بيد أنه كان من الشائع أن يؤجل المرء معموديته حتى يصير رجلاً ناضجا ويطرح خلفه خطايا المراهقة ، ومع ذلك كان أوغسطين يهتم كثيرا بتعميد الأطفال فى سن مبكرة ، وكان هو فى الواقع المسئول عن إدخال مثل هذا التقليد فى الكنيسة الكاثوليكية .

وقد أفاض فى اعترافاته فى الحديث عن تمرغه فى خطايا الجسد . والحقيقة أن اعترافاته لم تكن سيرة ذاتية بقدر ما كانت تأملات لاهوتية ، ففى وصفه لأنانيته كطفل كان أوغسطين فى الحقيقة يشرح مذهب الخطيئة الأصلية ، وفى هذه القصة الشهيرة التى روى فيها سرقته للأجاص "الكمثرى" وهو طفل نعرف أن أوغسطين لم يسرق الثمار عن جوع أو عن حاجة إليها ، وإنما لكى يشد أنظار أترابه من الأطفال إليه . وغرضه من هذه الحكاية أن يبين طبيعة الخطيئة بوصفها تمردا ، وكل مانعرفه عن أوغسطين فى شبابه يوضح أنه كان جادا مقبلا على الدراسة ، بل كان فى حقيقة الأمر متزمتاً ، ويرسم لنا أوغسطين صورة لنفسه فى شبابه تصوره

ضجرا من الرغبة الجنسية التى لم يكن يقوى على كبتها. وهنا مرة أخرى نجد جدلا لاهوتيا لأن الجنس عند أوغسطين يوضح تماما عدم قدرة العقل على السيطرة على الارادة ، ومماينتج عن ذلك من ضعف الطبيعة الانسانية ، ومع ذلك ، فاذا كان أوغسطين قد أذنب وارتكب الخطيئة بمعنى الكلمة المتداولة ، فقد كان ذلك بسبب الرغبة الجنسية ، وقد حدث ذلك فى حدود المعقول فقط. وبعد أن أرسل الأبوان الطموحان ابنهما إلى قرطاجة لدراسة البلاغة ، التى كانت بمثابة المسوغ للنجاح فى مجال القانون والحياة العامة فى عصر الامبراطورية ، اتخذ أوغسطين لنفسه عشيقة عاشت معه خمسة عشر عاما ، وأنجب منها ابنا ، ثم هجرها حين اعتنق المسيحية فيما بعد .

وفى قرطاجنة مرّ أوغسطين الذى غمرته نشوة الايمان بالله بأول أزمة دينية كبيرة . والحقيقة أنه طالما درس العقيدة المسيحية ، وهيأ نفسه لتلقى المعمودية ، غير أن شغفه بدراسة الأدب الكلاسيكى والفلسفه صرفه عن اعتناق الدين المسيحى . ومن خلال ذلك بدت المسيحية فى نظر أوغسطين الشاب غير مقنعة ومجافية للعقل وبعيدة عن الفكر الكلاسيكى : وسرعان ماتخلص من هذه الأزمة الروحية التى عصفت بكيانه بأن اعتنق المانوية التى أخذت على مر تطورها بعض أفكار المسيحية الواردة فى كتابات بولس الأمر الذى جعلها تبدو فى النهاية كما لو كانت إحدى العقائد الهرطقية . وكانت المانوية بصفة مطلقة تؤمن بفكرة ثنائية الخير والشر ، التى تظهر فى الصراع الأبدى بين إله النور وإله الظلام : ففى هذا العالم ينقسم الناس إلى أقسام ثلاثة هى : النخبة الذين هم الزهاد وأبناء النور ، والسماعين الذين فى مرحلة التحضير ليكونوا أبناء النور ، والملعونين أتباع إله الظلام ، وقد رفض المانويون عقيدة أساسية فى المسيحية وهى عقيدة التجسد ، إذ كان المسيح فى رأيهم مجرد اسم آخر لاله النور. كما أنهم قصروا اهتمامهم على رسائل بولس التى كانت أكثر أسفار الكتاب المقدس تناولا للمسائل الفلسفية ، ورفضوا كل ماعدا ذلك باعتباره عبثا لامعقول وجهلا. وبالنسبة لشاب جاد مثل أوغسطين الذى تعمق فى دراسة الفكر الكلاسيكى كانت المانوية حلا لمشكلة الشر ، التى ربما كانت أصعب المشكلات الدينية التى أزعجت أوغسطين طوال حياته : إذ أن المانويين ببساطة ، أكدوا على أن الشر جوهر قائم بذاته ، ومن خلق إله الظلام . وظل أوغسطين يدين بالمانوية على مدى عشر سنوات فى الوقت الذى كان يدرس البلاغة ثم صار يلقى دروسه فيها فى قرطاجة ، ومالبث أن أخذ يرتقى على مهل درجات النجاح ، ولكنه ارتد عن المانوية فى النهاية ، وكان الفضل فى ذلك لأمه التى أقنعته بذلك من ناحية ، ولأنه توصل من ناحية أخرى إلى أن الحل الذى تطرحه المانوية لمشكلة الشر ليس حلا مقنعا .

وبالرغم من أن أوغسطين بوصفه أسقف هيبو ، كان خصما مريرا للمانوية فإن بعض العلماء المحدثين يرون أنه نقل فى كتاباته اللاهوتية بعض الاتجاهات المانوية ، كما يبرزون تمييز أوغسطين بين النخبة والملعونين على أنه تقليد يتماثل مع موقف المانوية فى هذا الصدد ، وبينما يعترفون أن أغسطين ارتد عن المانوية بما يميزها من فكرة المطلق فى الثنوية فإنهم يزعمون أنه كان يتورط أحيانا فى غمرة الجدل واندماجه فى الكتابة كما لو كان هناك شر مطلق وخير مطلق . ويمكن الرد على ذلك بأن رجلا له مثل طباع أوغسطين الحادة المتحمسة ، واهتمامه العميق بمشكلة الشر ، لابد وأن يضع فروقا واضحة وفاصلة يمكن أن تفسر بأنها انعكاس لتأثير المانوية ، ولكن الحقيقة أن لاهوت أوغسطين ينفى بشدة فكرة وجوده الشر كجوهر قائم بذاته .

والحل الذى طرحه أوغسطين لمشكلة الشر لايرجع فى أصله إلى المانوية بقدر ما يرجع إلى العقائد الأفلاطونية الجديدة التى اعتنقها بعد وصوله الى إيطاليا سنة ٣٨٣ بوقت قصير ، فقد كان ينتهج خطاً ناجحا كمعلم للبلاغة ، وكان مقدرا له أن يصل إلى مكانة مرموقة فى الحياة العامة ، وصدفته أزمة فكرية زلزلت حياته ، فترك عمله وأدار ظهره للعالم وكرس نفسه للتدريبات الروحية الأفلاطونية الجديدة واكتشف فى النهاية أن الافلاطونية الجديدة ، وماتتطلبه من تطهر مسألة مستحيلة ، فقد كان رجلا يستجيب تماما لغرائزه بحيث لايمكن أن يصبح روحانيا يستطيع أن يتحد بالذات الالهية اتحادا صوفيا . ولكن الافلاطونية الجديدة علمته أن جميع مخلوقات الله طيبة ، وأن الشر ليس إلا انحرافا عن الخير ، أى ابتعادا عما يصل بالله . وفيما بعد ضمن أوغسطين أفكاره اللاهوتية هذا المذهب الأفلاطونى الجديد ، وصارت هذه هى التعاليم الشائعة فى كنيسة العصور الوسطى والحديثة فيما يتعلق بطبيعة الشر .

وليس تحول أوغسطين عن الأفلاطونية الجديدة إلى المسيحية بالأمر المدهش إذا ما أخذنا فى اعتبارنا أنه عجز عن إنجاز تجربة روحية كاملة ، وهو يورد فى اعترافاته قصة أخاذة تبين كيف أنه بينما كان يتأمل فى الحديقة ، سمع صوت طفل يطلب منه أن يتناول الكتاب المقدس ويقرأه ، وليس من المدهش أنه أخذ كتابات بولس التى كان قد درسها أثناء اعتناقه المانوية، وهى الرسائل التى يوصى فيها بولس بأن يتبع المرء طريق المسيح ولا يستجيب لنزوات الجسد، وهو ما كان يعنى بالنسبة لأوغسطين أن الإيمان بالمسيح كمخلص ومنقذ يمكن للناس من أن يهربوا من قيود الجسد ويدخلوا فى اتحاد مع الرب ، وهو الأمر الذى كان مستحيلا أيضا من

ناحيـة أخرى . فـفى كل إنسـان إرادتان : الارادة الروحـيـة ، والإرادة الجسـدية ، أو الارادة السماوية والأرادة الارضيـة ، وهى التعاليم التى أخذ أوغسطين يلقيها فى خطبه فيما بعد . ومن خلال المسيح فقط يمكن للانسان أن يهرب من قيود الارادة الجسدية وأن يعيش للارادة الروحية . وبهذه الطريقة يشرح أوغسطين مذهب بولس فى تبرير الايمان ويؤكده .

وينطلق أوغسطين فى اعتـرافاته نحو الدعوة إلى مذهبه فى الخلاص وهو المذهب الذى استقاه من تجربته الشخصية . إذ كان يتخبط فى الظلمات طوال الوقت ، ليجرب نظاما فكريا تلو الآخر ، وكانت العناية الالهية تقوده الى تلك اللحظة التى تحقق فيها ، وهو فى حديقته ، من ضروره الايمان بالمسيح . ومايعنيه أوغسطين هو أن القضاء والقدر لايمكن استيعابه فى كل لحظة من لحظات الحياة الانسانية ، والحقيقة أنه يحتمل ألا نلحظ الجبرية فى التجربة الانسانية إلا فى أحوال نادرة . بيد أننا حين نتأمل تجاربنا بعد مرور سنوات عديدة يمكن أن نلاحظ يد الله الخفية وهى تقودها إلى أسمى لحظات الحقيقة ، حين تنبلج أمام أعيننا كالنور نعمة الله المنقذة ، وهذا هو ماكان أوغسطين يعنيه بقوله لرعاياه **"لا تحكموا بشىء قبل النهاية"** وعنده أن نعمة الله المنقذة ليست شيئا يمكن ملاحظة تأثيره يوما بيوم ؛ ولكننا نستطيع أن نرى أن الطريق الذى مضينا فيه لم يكن طريقا بلا هدف ، ولكنه طريق يتوافق مع الارادة الالهية ، وهو الأمر الذى يمكن الكشف عنه خلال الحياة الانسانية بأسرها ومن خلال موازنة صروف الدهر وتقلباته التى تشكل التجربة الانسانية . هذه هى رسالة الأمل التى يتوجه بها أوغسطين إلى جمهور السامعين ، وقد قصد باعترافاته أن يقول ضمنا إن نعمة الرب المنقذة قد حلت به وعلى ذلك فإن من الممكن أن تحل بأى إنسان آخر ، والواقع أن أوغسطين فى اعترافاته إنما يرمز إلى كل إنسان فهو يرمز إلى الكائنات البشرية ، بضعفها وحمقها ، وتخبطها الأعمى وهى تناضل فى حياتها اليائسة التى لايكون لها أى معنى إلاّ بما يقضى به الله .

وبعد اعتناق أوغسطين للمسيحية بوقت قصير تمت رسامته قسيسا ، ثم اختير أسقفا لهيبو سنة ٣٩٥ فى موطنه بشمال أفريقيا . ويعتبر الدور الذى قام به أوغسطين فى تاريخ الفكر بمثابة البوابة الواصلة مابين العصور القديمة والعصور الوسطى على نحو ما أوضح مارو H.I. Marrou وكان أوغسطين بتكوينه الفكرى لايعتقد فيما هو نفعى على الاطلاق . وكانت معرفته باللغة اليونانية ، والرياضة والعلوم محدودة ، كما كان يميل الى سير القديسين. وعرف بتمكنه من اللغة اللاتينية ، بحيث لم يتفوق عليه فى مهارته البلاغية سوى قلة من

الكتاب اللاتين ، وقد أخذ الكثير من أفكاره الفلسفية من التراث الأفلاطونى ، ولكن أعماله كانت بمثابة المسمار الأخير فى نعش الفلسفة القديمة ، لقد كان رائدا لرؤية عالمية جديدة . إذ كان كل من سقراط وأفلاطون يربط بين المعرفة والفضيلة : بمعنى أنه إذا كان هناك رجل يعرف الخير فسوف يفعله . والواضح أن الناس غالبا مايعرفون ماهو الخير ولكنهم لايقدرون على السير فى طريقه ، ويروى أوغسطين أن الانسان ليس كائنا عقلانيا ، وأن الارادة تتغلب على العقل ، كما أن اتجاهات الانسان العاطفية اللاعقلانية تمنعه من إتباع مايمليه العقل ، وهنا يبدو أوغسطين وقد فهم مسبقا الكثير من تعاليم علم النفس الحديث ، فالانسان يبدو عديم الحيلة فى السيطرة على قدره فى الحياة ، إلا أن الحياة يجب أن تمضى فى طريقها وأن تواصل نضالها اليومى فى سبيل الوصول إلى الطريق السوى . وسوف تأتى لحظة قد تبدو بلا معنى ، مثل الوجود الانسانى نفسه ، بالنسبة لأولئك المحظوظين الذين اختارهم الله على حد تعبير أوغسطين ، وعندها تغشى العيون من النور حين تتجلى الرؤية السارة البهيجة .

وربما يمكن أن نميز أى نظام ثقافى ، أيا كانت جوانبه الفنية ، من خلال نغمة معينة تترد فيه باستمرار ، وكانت النغمة الأوغسطينية هى البطولة التراجيدية .

### ٣- الموضوعات الرئيسية فى فكر آباء الكنيسة اللاتين

كان الفكر الراقى ، والثقافة فى العصور الوسطى الباكرة ، هى ثقافة الكنيسة . بل إنه حتى عندما اهتم ملوك الجرمان بعد القرن الثامن بتطوير جوانب معينة فى الحياة الثقافية كالنظرية السياسية مثلا ، ظل التعبير الأدبى تحت سيطرة رجال الكنيسة . ففى العصور الوسطى الباكرة ، لم يكن هناك فى أوربا بعد القرن السادس من يعرف الكتابة أو القراءة من غير رجال الكنيسة سوى نفر قليل من كبار الملوك مثل شارلمان وألفرد . ومن ثم ، فإنه حتى فى الوقت الذى كان يثور جدل كبير ، فى القرن الحادى عشر ، حول سلطات كل من البابا والملك ، ويزدهر الأدب من خلال الجدل حول هذه المسألة ، كان رجال الكنيسة هم الذين يعبرون عن كل من وجهتى النظر. أما الكتابات التى هاجم فيها العلمانيون الكنيسة فقد اختفت تقريبا فى العصور الوسطى الباكرة (حتى نهاية القرن الثامن عشر فى الحقيقة) ، بل إنه لم يكن ممكنا لأحد من غير رجال الكنيسة أن يكتب مقالا أو بحثا يهاجم به الكنيسة ، وذلك لأن رجال الكنيسة كانوا هم فقط الذين يتمتعون بمستوى التعليم والثقافة اللازمة للقيام بمثل هذا الأمر ، وعلى مدى قرون عديدة كانت الوسيلة الشائعة لتقرير ما إذا كان المتهم من الكنسيين أو من العلمانيين أن يطلب منه القراءة فى الكتاب المقدس ونادرا ماكان هذا الاختبار يؤدى إلى نتيجة خاطئة .

وتوضح هذه الاعتبارات أن التراث الثقافى الأدبى فى العصور الوسطى الباكرة ، باستثناء بعض الأعمال الشعرية الشعبية الألمانية مثل ملحمة البيوولف Beowulf (التى يحتمل أنها كتبت على يد رجال الكنيسة بشكل أو بآخر) ، (١٣) كان محكوما بتقاليد الكنيسة وماتحتاج إليه ، وربما كان السبب الرئيسى فى أن آداب العصور الوسطى الباكرة لاتستحوذ على اهتمامنا وعناية معظمنا راجعا إلى كونها آدابا كنسية . إن قلة اهتمام غالبية الناس بما يكتبه الأساقفة ومقدمو الأديرة فى العصر الحاضر مساو فى ضآلته لاهتمامهم بما كتبه أسلافهم فى العصور الوسطى الباكرة .

وبسبب الطبيعة الكنسية التى ميزت ثقافة العصور الوسطى الباكرة ، ينبغى دراسة مؤلفات أولئك الكتاب الذين عرفوا باسم "آباء الكنيسة" والذين تعرف أعمالهم بالتالى باسم أدب آباء الكنيسة ، على اعتبار أن أولئك الكتاب هم المفتاح إلى فهم فكر العصور الوسطى الباكرة . ذلك أنه حتى القرن الثانى عشر كان علماء الكنيسة يعملون دائما داخل إطار

---

(٣) البيولف Beowulf أو البيوفولف ملحمة جرمانية تدور حول بطل اسكندنافى عاش فى العصور السحيقة ، وقد ظلت هذه الملحمة محلاً للتداول الشفوى على مدى عشرات سنين، وربما عدة قرون ، ثم جمعت أشعارها ودونت فى منتصف القرن الثامن تقريباً على يد قسيس انجلو- سكونى ، وهذه الملحمة حافلة بأثار شتى من المصادر الأخرى ، وقد تأكدت بعض أحداث الملحمة وشخصياتها بورودها فى المصادر التاريخية التى ترجع إلى القرن الخامس ، والملحمة تضم فى ثناياها كما مدهشاً من أعلام وأحداث العصور الوسطى الباكرة ، كما تكشف عن النظرة الجرمانية التلقائية للأشياء وطريقتهم الطبيعية فى التعبير ، ويرى بعض الباحثين أن أن ماذكره تاكيتوس فى القرن الأول عن أحوال الجرمان يجد تأييداً له فى أبيات ملحمة بيولف التى تعتبر مصدراً محترما من مصادر معلوماتنا عن النظم الجرمانية فى وقت الغزوات حين كانت السيادة وعصبة الحرب قد صارت محور الحياة الجرمانية على نحو أشد تركيزا مما كانت عليه عند نهاية القرن الأول – انظر .

Norman F. Cantor . The Medieval World (Macmillan Co. New York 1968), pp. 61-63
Robert Brentono, The Early Middle Ages 500 - 1000 (Macmillan Co. New York 1964 (pp. 243-53) .

والجدير بالذكر أن الكتابين قد أوردا مختارات من ترجمة للملحمة ، كما أن هناك ترجمة كاملة لها – انظر:

Beowulf. transl. CB. Tinker (New York : New Dom & Co. 1902).

(المترجم)

الأفكار الواردة فى الكتاب المقدس كما فسرها آباء الكنيسة ، ووفقا للاهوت والنظريات التعليمية ، والمذاهب الأخلاقية والفلسفة السياسية ، وفلسفة التاريخ التى تضمنتها كتابات آباء الكنيسة . وقبل أن ندين علماء العصور الوسطى الباكرة بسبب هذا الموقف الفكرى المحافظ، ينبغى أن نتذكر أن هذا الأدب الذى كتبه آباء الكنيسة لم يكن دوره كخلفية ثقافية دوراً ضئيلا. فعلى العكس من ذلك كان آباء الكنيسة اللاتين الأربعة الكبار - أوغسطين وجيروم ، وأمبروز قرب نهاية القرن الرابع والبابا جريجورى العظيم عند نهاية القرن السادس - قد تركوا لنا قدرا ضخما من المؤلفات التى طرحت مناقشات مثمرة حول معظم المسائل المتعقلة بكنيسة العصور الوسطى ، ولم يحدث حتى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن كان هناك أحد يمكنه أن يقاربهم فى المستوى : وحتى القرن الثانى عشر كان علماء الكنيسة يعتبرون أنفسهم مجرد أقزام يجلسون فوق أكتاف آباء الكنيسة العمالقة ، وبطبيعة الحال لم يكن رجال الكنيسة فى العصور الوسطى هم وحدهم الذين تناولوا أدب آباء الكنيسة بالتبجيل والاحترام الكامل ، فقد ظل تأثير آباء الكنيسة ، ولاسيما القديس أوغسطين ، قويا حتى يومنا هذا ، فالكل يعرف مقدار مايدين به لوثر [١٤] وكالفن[١٥] لأوغسطين ، بيد أن الشىء نفسه يمكن أن يقال عن علماء اللاهوت فى عصرنا الحالى من أمثال كارل بارت Karl Barth ورينولدنيبورReinold Niebuhr ولايجب أن ننسى أن الذين ترجموا نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس إلى اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر اعتمدوا كثيرا على الترجمة

---

(١٤) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣-١٥٦٤)رائد حركة الاصلاح الدينى فى ألمانيا، والتى كانت أساساً لطائفة البروتستانت (المحتجون) . وقام مبدؤه على أساس أن الايمان وحده هو سبيل الخلاص ، مما عرضه لغضب البابا ليو العاشر والامبراطور شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فحرم من حقوقه الدينية ، ولكنه أصر على موقفه بأن الكتاب المقدس هو وحده المرجع فى شئون العقيدة ، ومن ثم فليس ثمة حاجة لوجود طائفة خاصة برجال الدين لأن كل مسيحى يمكنه أن يكون رجل دين ، وقد انتصر مذهب لوثر فى ألمانيا فى نهاية الأمر ، بيد أنه كان يعتمد فى صراعه على النبلاء وأهمل شأن عامة الشعب . (المترجم)

(١٥) حنا كالفن John Colvin (١٥٠٩-١٥٦٤) فرنسى الأصل من أتباع لوثر ، هرب إلى جنيف فراراً من اضطهاد فرانسوا الأول ملك فرنسا الكاثوليكى المتعصب . وقد امتازت حركة جون كالفن باهتمامها بجميع طبقات الشعب بخلاف اللوثرية التى اتخذت شكلا طبقيا بحيث اقتصرت على النبلاء ، ومن ثم فقد لقيت حركة كالفن انتشارا واسعا فاق انتشار مذهب لوثر بكثير . (المترجم)

اللاتينية المسماة بالفولجاتا Vulgata التى قام بها جيروم، وقد نقول إجمالا أن أدب آباء الكنيسة غنى بالفروض ، والمفاهيم والارشادات المتعلقة بكل جوانب الحياة تقريبا ، ولم يكن الناس الذين اعتبروا أوغسطين وجيروم وأمبروز وجريجورى علماء ثُقاة يرجعون إليهم حمقى أو جهلاء ، فقد كان آباء الكنيسة اللاتين مفكرين ذوى إطلاع واسع ، وتقوى عميقة ، وحكمة، كما تميزوا بعمق التفكير الذى كان يعلن عن نفسه بوضوح بين الآونة والأخرى . ويجدر بنا أن نتذكر أنه فى أوائل العصور الوسطى لم يكن فى الساحة الثقافية ماينافس أدب آباء الكنيسة فى مجال التأثير الفكرى ، ولم تكن هناك ثقافة راقية خارج الكنيسة ، وفى الداخل لم تكن ثمة حركة تقلل من شأن أدب الآباء مثل تلك الحركة الاحيائية للفكر الأرسطى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وهكذا فإذا كنا بصدد البحث عن مصطلح يصف ثقافة أوربا العصور الوسطى الباكرة بإيجاز فلن نستطيع إلا أن نستخدم عبارة " تراث آباء الكنيسة العهدى Biblical - Patristic إذ كان نص الكتاب المقدس ، بطبيعة الحال ، هو نقطة البداية لكل نظرية ، فقد كان الكتاب المقدس بمثابة المنبع الوحيد وأساس كل فكر وعقيدة (فى ميادين التاريخ ، والفكر السياسى ، والعلوم . . وما إلى ذلك) وكان كل ما يتناقض مع الكتاب المقدس لايحظى بالاحترام ، فعلى سبيل المثال ، لم يكن بوسع أحد أن يعتقد بخلود المادة ، لأن سفر التكوين يتحدث عن خلق العالم من العدم . وعلى أية حال ، كان الكتاب المقدس ، كما فسره آباء الكنيسة فى مؤلفاتهم الضخمة هو المرجع الأساسى لكل الأفكار. فعن طريق ترجمة الكتاب المقدس دخل حشد كامل من الاتجاهات الفكرية التى طورها آباء الكنيسة فى فكر العصور الوسطى .

فما هى هذه الاتجاهات السائدة فى فكر آباء الكنيسة اذا كان اعتمادهم على الكتاب المقدس اعتمادا مطلقا بوصفه أساسا لكل فكرة وعقيدة ؟ كان أولها اتجاها لجعل اللاهوت ممكنا ولجعل التفسير المجازى للكتاب المقدس ضرورة : وهو ماعرف باسم نظرية العقيدة : ذات الوجهين أى نظرية المستويين فى فهم العقيدة ؛ بمعنى أن هناك مستويين فى فهم العقيدة؛ مستوى عامة الناس ، ومستوى المثقفين من علماء الكنيسة ، وهى النظرية التى نشأت أصلا فى رحاب الكنيسة الشرقية أصبحت نظرية شائعة فى الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى الباكرة بفضل آباء الكنيسة ، ولاسيما أوغسطين . وعلى الرغم من أن هذه النظرية لم ينتج عنها ما يؤثر على الحياة فى هذه العصور تأثيرا حقيقيا - إذ كانت تفسر أحيانا على أنها

تعنى عدم الحاجة إلى تعليم العلمانيين ، حتى ولو كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك - فإن هذه النظرية سهلت سبيل الوصول الى لاهوت متطور على أساس من التفسير المجازى للكتاب المقدس .

وهناك اتجاه ثان يتعلق بفكر آباء الكنيسة يميز بين المسيحية اللاتينية الغربية ووجهة نظر الكنيسة اليونانية الشرقية . ففى أوربا الغربية ركزت الكنيسة على الجوانب الأخلاقية والقانونية للعقيدة ، أى العلاقة بين الله والانسان ، وهو مايميزها عن الكنيسة اليونانية الشرقية التى اكدت على البحث فى طبيعة المسيح وهو ما أدى الى كثير من الهرطقات والانقسامات . ويبدو هذا الاتجاه واضحا تمام الوضوح فى مؤلفات ترتوليان أول اللاهوتيين اللاتين الكبار ، فعلى الرغم من عدائه للثقافة الكلاسيكية ، لم يستطع أن يغض البصر عن جميع انجازات الفكر الرومانى . لقد كان ترتوليان من رجال القانون قبل أن يعتنق المسيحية ، وفى كتاباته أخذ الفكر المسيحى يتسم بالطابع القانونى الذى قدر له أن يؤثر بعمق فى مفهوم العصور الوسطى عن العلاقة بين الفرد والكنيسة من ناحية ، والذات المقدسة من ناحية أخرى. وفى كتابات ترتوليان - كما هو الحال فى كثير من المؤلفات اللاهوتية فى العصور الوسطى - يبدو المسيح شبيها بالأباطرة الرومان وهو يفرض مطالب محددة على رعاياه ، كما يصدر القوانين التى لايمكن انتهاكها خوفا من قسوة العقاب . وتمثل التراث الذى خلفه ترتوليان من بعده فى المفهوم القانونى للخطيئة باعتبارها دينا لابد من الوفاء به أمام الرب الشبيه بالامبراطور . وقد سار أوغسطين وجريجورى فى هذا الاتجاه ، وربطه كل منهما برؤية الكنيسة فى العصور الوسطى ، حتى بات هو الرأى الأكثر شيوعا فى التعبير عن الخطيئة فى آداب العصور الوسطى .

هذا المفهوم القانونى يفسر السبب فى أن العهد القديم كان أكثر جاذبية بالنسبة للناس فى أوائل العصور الوسطى من الأناجيل . إذ أن الفن والأدب فى العصور الوسطى الباكرة يصوران المسيح كامبراطور يحكم فى القضايا أى كإله للقانون والعقاب . اما الصورة التى يبدو فيها المسيح وقد برح به الألم والوجد ، والعذراء بجواره حزينة باكية ، فلم تداعب خيال الأدباء والفنانين فى العصور الوسطى الا عندما قامت الحركة الرومانسية الكبيرة فى القرن الثانى عشر ، وعندها فقط غلبت صورة المسيح ومريم العذراء كما وردت فى العهد الجديد على صورة الاله القاضى (الرومانية العبرانية) التى ظهرت من قبل .

وكان المبدأ الثالث فى فكر آباء الكنيسة متمثلا فى فلسفة تاريخ مسيحية متمايزة تقف على طرف النقيض من التدوين التاريخي عند اليونان والرومان . وفى هذا المجال كان كتاب "مدينة الله" لأوغسطين هو العمل صاحب الاثر الاكبر على الرغم من أن جيروم ساهم بإضافات هامة فى هذا المجال .

وتمثل المبدأ الرابع فى أدب آباء الكنيسة ، فيما قدموه من تفسيرات لكيفية الوصول الى الخلاص عن طريق النعمة الالهية ، وهنا تنوعت الآراء فثمة آراء تقول إن أوغسطين لم يكن له الأثر الأكبر وإنما البابا جريجورى العظيم ، إذ أن فكرة جريجورى عن الفضائل والخير ، حسب هذه الآراء هى التى صارت محورا فى فكر العصور الوسطى الباكرة ،لأن جريجورى يقول بامكانية الخلاص لكل مسيحى يطيع تعاليم الكنيسة وينال أسرار طقوسها المقدسة .

أما الموضوع الخامس فى فكر آباء الكنيسة فقد تمثل فى وجهة النظر الخاصة بمسائل الجنس والزواج ، وهى وجهة النظر التى ظل تأثيرها الكبير على الحياة الشخصية حتى عصرنا الحديث، والتى مازالت تحظى بأهميتها فى حياة الروم الكاثوليك حتى اليوم . وفى هذا الصدد كانت آراء آباء الكنيسة اجماعية فى الواقع .

واخيرا ، كان أحد آباء الكنيسة اللاتينية الكبار ، وهو القديس أمبروز ، أول من رفض بوضوح قبول حق الامبراطور فى التدخل فى المسائل الكنسية ، وأول من حدد المبادىء التى صارت هى النظرية السياسية التقليدية للكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة .

واذا مانظرنا الى التراث المستمد من الكتاب المقدس فى فكر العصور الوسطى ينبغى علينا أن نعترف بأن القديس جيروم كان أعظم من ساهم من آباء الكنيسة اللاتينية فى هذا المجال ، فقد كان جيروم حجة لايبارى فى ثقافة العصور الوسطى بوصفه مترجما وناقدا للنصوص ، وشارحا. لقد كانت هناك ترجمتان باللغة اللاتينية للكتاب المقدس ، غير أن هاتين الترجمتين شابهما كثير من النقص والقصور ، وكان من الضرورى أن يقوم عالم متمكن من اللغة اليونانية واللغة العبرية بكتابة ترجمة أمينة للكتاب المقدس ، وقد أنيطت هذه المهمة بجيروم الذى أخذ على عاتقة إنجاز ترجمة العهد القديم مباشرة من النصوص العبرية والآرامية التى تيسر له الحصول عليها. وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من زعماء الكنيسة فى زمن جيروم ، ومنهم أوغسطين، لم يظهروا أى اهتمام أو تأييد لعمله ، فإن ترجمته الفوجاتا Vulgata صارت بمرور الزمن النسخة الثقة فى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن التالى لموته .

أما أعظم وأفضل جزء فى عمل جيروم ، كشارح للكتاب المقدس ، فهو ماكتبه عن أسفار العهد القديم . وكان لهذه الشروح تأثير عظيم على تفسيرات الكتاب المقدس طوال العصور الوسطى ، لقد حدد جيروم وظيفة شارح الكتاب المقدس بأنها إقامة صرح روحى ضخم على أساس من الواقع التاريخى . ومع أنه استفاد من التفسير المجازى الذى أرسى أسسه فيلون وأوريجين ، فانه تجنب المبالغة فى استخدام هذا النمط من التفسير وغالبا ما قيد نفسه فى حدود التفسير التاريخى الأمين للنص ؛ وهكذا تقابلت تفسيراته مع اتجاهات اللاهوت فى مدرسة الاسكندرية لتفسير الكتاب المقدس . وبقدر ما وافق جيروم على مبدأ التفسير المجازى، صارت طريقته فى العرض طريقة مؤثرة فى كنيسة العصور الوسطى . وفى الوقت الذى تعودنا على التأكيد بأن آداب العصور الوسطى وفنونها كانت مكرسة للرمزية المجازية الى حد بعيد ، فقد يكون من الصالح أن نصف هذه النزعة فى الصورة التى وصلتنا ، بأنها نزعة تقليدية ، إن عددا كبيرا من الرموز التى تظهر فى الفن والأدب حتى فى العصور الوسطى العالية ليست سوى استمرار للنزعة التقليدية التى جسدها فى الأصل القديس جيروم وغيره من آباء الكنيسة . واذ أرسيت الرموز المجازية مرة أخرى على أيدى آباء الكنيسة ، فقد بقيت طوال القرون الوسطى ، وكان الفنان أو الكاتب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يستخدمها كمجرد مواد شائعة تدخل فى حرفته ، وكانت المسألة بمثابة تكرار تقليدى أكثر من كونها رمزية واعية .

كذلك أسهم القديس جيروم بقسط وافر فى الفكر التاريخى فى العصور الوسطى . فقد كانت المؤلفات التاريخية الكلاسيكية محدودة من حيث المكان والزمان ، وكان موضوع كل المؤرخين اليونان والرومان تقريبا يتمثل فى بلد واحد وفى فترة زمنية محدودة ، ولم يكن التاريخ العالمى معروفا . ولكن تجسد المسيح – وهو حادث تاريخى على مر العصور من وجهة النظر المسيحية– كان يتطلب كتابة تاريخ عالمى ؛ اذ يجب الربط بين الحوادث التاريخية قبل حياة المسيح وبعدها ، بهذا الحادث الجليل ، ولأن المسيح مات من أجل البشرية فإن الإقتصار على تاريخ بلد واحد لم يعد يفى بالحاجة . وقد حاول أيوزيبيوس أسقف قيصرية ، بالفعل ، أن يكتب قائمة زمنية عالمية تبين كيفية ارتباط جميع الحوادث التاريخية المعروفة بتجسيد المسيح، والتقط جيروم قائمة ايوزيبيوس وترجمها ، ثم نقحها وزاد عليها وقدمت مدونة أيوزيبيوس – جيروم التاريخية العالمية خيط البداية الذى سار عليه مؤرخو العصور الوسطى نحو كتابة للمدونات التاريخية . وتبدأ معظم المؤلفات التاريخية التى دونت فى العصور الوسطى الباكرة بقائمة زمنية أو جدول زمنى يضم الأحداث الهامة فى تاريخ العالم قبل المسيح،

ومنذ موته حتى زمن تلك المدونات . وحتى نهاية القرن الرابع ، كانت هذه المدونات التاريخية تنقل ببساطة من كتاب جيروم . والواقع انه لم تكن هناك مكتبة ديرية تعتبر كاملة مالم تكن تضم نسخة من مدونة ايوزيبيوس - جيروم التاريخية العالمية . وسيرا على هذا المدخل فى تدوين التاريخ بطريقة التتابع الزمنى Chronology كان لابد أن يبدأ المسيحيون فى استخدام سنة ميلاد المسيح بداية لحساب التاريخ ، صحيح أن إيسيدور الاشبيلى فى القرن السابع كان أول من استخدم هذا النظام الزمنى المسيحى ؛ ولكن مدونة جيروم العالمية هى التى جعلت هذا النوع الجديد من الحساب التاريخى أمراً لاغنى عنه .

وعلى أية حال ، فإن فلسفة التاريخ المسيحية تمثلت فى كتاب "مدينة الله" لأوغسطين بشكل أساسى . وربما يكون هذا الكتاب هو أكبر عمل مؤثر فى تاريخ الفكر المسيحى باستثناء الكتاب المقدس نفسه ، ومهما يكن من أمر ، فاننا لايجب أن نظن أن أوغسطين كان يريد أن يكتب بحثا اكاديميا عن تدوين التاريخ Historiography. فقد كان هدفه الأساسى أن يقدم تفسيرا مسيحيا لسقوط الامبراطورية الرومانية ، ولكن حاسته التاريخية كانت من النضج بحيث يتحقق من أن هذا التفسير لابد وأن يعتمد بدوره على فلسفة التاريخ . وفى نهاية الأمر وجد نفسه منساقا الى تأمل مسألة التدوين التاريخى عند اليونان والرومان برمتها. كما ظهر أخيرا أن من الضرورى القيام بعملية نقد لهذا التدوين التاريخى حتى يتسنى له أن يقدم جوابا عن السؤال الحاسم عن سقوط روما .

كانت نقطة البداية فى سلسلة الأحداث التى أدت الى كتابة أهم مؤلفات أوغسطين هى سقوط روما ، ثم استباحتها على مدى أيام قليلة على أيدى القوط الغربيين سنة ٤١٠ . فلأول مرة على مدى عدة قرون ، ترقد روما تحت أقدام قاهر مغرور متكبر ، ولو أن ذلك لم يستمر سوى أيام قلائل فقط . وبدا أنه من غير المستطاع مواصلة إنكار حدوث الانهيار الكامل للحضارة الرومانية .

لقد كان هذا الحادث صدمة كبيرة لكل من الوثنيين والمسيحيين على السواء. فالوثنيون ، الذين كان عددهم مايزال كبيرا فى غرب اوربا ، اتخذوا من انتهاك القوط الغربيين واستباحتهم لروما سببا يستطيعون من خلاله أن يكيلوا التهم والطعون فى حق الديانة المسيحية . "لقد سقطت روما زمن المسيحية" كانت هذه هى *الصيحة التى أطلقها أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا* من المسيحيين كبش فداء لما حل بروما من تدهور. فطللا ظلت روما على ولائها لمجمع الآلهة (البانثيون) القديم كانت المدينة تتقدم من نصر الى نصر ، وحين انصرف الرومان عن أقداس زيوس وأبوللو أخذت روما طريقها نحو التدهور والذبول .

ويقال عادة إن أوغسطين ألف كتاب "مدينة الله" ردا على هذه التهم التى كان يوجهها أعداء الكنيسة ، وهذا حقيقى الى حد ما ، الا أن هذه ليست كل القصة بل انها لاتشكل اكبر أجزائها . فإن كثيرين من المسيحيين فزعوا ، مثل الوثنيين ، حين طرقت أسماعهم أنباء اضمحلال روما . ولأنهم كانوا مواطنين مخلصين للامبراطورية ، واعضاء فى الكنيسة فى الوقت نفسه ، فانهم جنحوا الى الاعتقاد بأن اعتناق الأباطرة الرومان للمسيحية فى القرن الرابع لم يكن ليعرقل ؛ وانما على العكس قد ساعد كثيرا على زيادة هيبة الامبراطورية وثروتها . ومن المؤكد أنهم كانوا يجادلون بأن الرب كافأ الأباطرة الرومان لقاء اعتناقهم الدين المسيحى فى القرن الرابع بأن جعل ثروة الامبراطورية وسلطانها فى تقدم مستمر . أو لم يولد المسيح فى عهد اول الأباطرة الرومان ؟ إن هذا يوضح بالتأكيد أن مصائر العالم المسيحى والامبراطورية الرومانية سوف ترتبط ببعضها حتى نهاية العالم يوم الحساب . ولكن هذه الفكرة المسيحية عن التقدم كانت عرضة للنقد والتفنيد من أساسها بسبب الحقائق المثيرة التى أسفر عنها تدهور الامبراطورية ، وذلك بعد أن جعل الأباطرة من المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية وكان لابد من إعادة النظر فى مسألة العلاقة بين مجرى الأمور الدنيوية والعقيدة المسيحية ككل . وتمثلت نتيجة تأملات أوغسطين فى هذه المشكلات فى كتاب "مدينة الله" الذى استغرقت كتابته خمسة عشر عاما ، إذ أنه بدأ كتابته سنة ٤١٣ ، وأنجزه على عدة اجزاء، وهو مايكشف عن السبب فى أن العمل لايتسم بالاتساق الكامل ، فليست ثمة خطة عامة للكتاب يمكن تتبعها إذا تجاهلنا بعض الفقرات غير المتناسقة ، إذ أن الكتاب فى مجمله يتألف من اثنتين وعشرين كراسة : تهاجم الكراسات الخمس الأولى الوثنية وتناقش علاقة الانسان بالآلهة فى حياته ، على حين تشن الكراسات الخمس التالية هجومها على أولئك الذين يتطلعون الى الآلهة الوثنية لكى ينعموا بالحياة فى ظلها ، وفى الكراسات الاثنتى عشرة الأخيرة يتتبع أصل ومنشأ المدينتين ، وتطور كل منهما حتى النهاية ، وفى مجموعة الكراسات الأخيرة تكشف الكراسات الأربع الأولى عن أصل المدينتين : بينما تقدم الكراسات الأربع التالية صورا لمراحل تطورهما ، كما تناقش الكراسات الأربع الأخيرة المصير النهائى لكل من المدينتين .

وكان من الممكن من وجهة نظر التدوين التاريخى الكلاسيكى ، تطبيق النظرية الدورية على مشكلة اضمحلال روما الملحة ، كما أن من الممكن مناقشة هذه المشكلة من منطلق أن مرحلة التدهور فى الدورة التاريخية قد حدثت بالفعل ، وان العالم سوف يشهد عصرا من التدهور والانهيار ، ثم تبدأ عجلة التاريخ حينذاك دورة جديدة تماما . وكان يمكن لهذا التفسير أن يلقى

رضاء بعض الوثنيين ، ولكن هل كان بوسع المسيحيين أن يقبلوه ؟ أو لم يكن المسيح شخصا تاريخيا مات مرة واحدة ؟ وهل يمكن للمرء ان يقتنع أن هناك عددا غير محدود من شخص المسيح يموتون ويقومون خلال دورات الزمن جميعا ؟

من الواضح أن أوغسطين كان يواجه - أثناء كتابة "مدينة الله" - بالكثير من الأسئلة الهامة من الجانب المسيحى والجانب الوثنى على السواء . وعلى أية حال فان أصدقاءه كانوا يحثونه على أن يرد على الهجوم الوثنى أولا ، وهكذا كرس أوغسطين اهتمامه للرد على المزاعم الوثنية القائلة بأن روما سقطت فى زمن المسيحية ، فى الكراسات الثلاث الأولى من كتاب "مدينة الله".

وبدأ أوغسطين مناقشته ضد الانتقادات التى وجهتها الوثنية للمسيحية بالقول بأن انحلال الرومان أنفسهم كان كافيا لأن يجلب عليهم المصير الذى لقيته مدينتهم .

وهو يعترف بأن بناء الامبراطورية تم بفضل رجال ضحوا بأنفسهم فى سبيل الصالح العام للدولة كما كانوا يتصورونه ؛ ولكن على المدى الطويل كانت فضائل الرومان محدودة للغاية حتى فى أفضل أيام روما ، بل إن أوغسطين نفسه يؤكد أن الفضائل الرومانية ، لم تكن سوى "رذائل باهرة" .

ويجيب أوغسطين على التهمة القائلة بأن روما تعرضت لفترة جديدة حافلة بالكوارث بعد اعتناق الأباطرة للدين المسيحى بالقول بأن روما عانت الكثير من النكسات والمصائب حتى عندما كان الرومان مايزالون على عبادة آلهتهم الوثنية . وتبدو لنا هذه المناقشة مفتقرة الى الحجة وغير مقنعة . والواقع أن هناك دليلا ملموسا على أن اوغسطين نفسه لم يكن راضيا عنها . فبعد أن انحسرت موجة الصدمة الأولى الناتجة عن نهب روما ، وجد أوغسطين فسحة من الوقت لكى يفكر بطريقة متأنية فى الأهمية التاريخية لهذا الحادث . وعلى الرغم من أن مجادلته ضد الوثنيين ، والتى تتسم بالسطحية والضحالة ، تتركز فى الكراسات الثلاث الأولى من "مدينة الله" فالواضح أنه تخلى عن هذا المنطلق فى بقية كتابة وأخذ على عاتقه عبء البحث فى للمشكلة الأساسية وعن فلسفة تاريخية يمكن من خلالها الوصول الى رؤية سليمة لسقوط روما .

وأوكل الى واحد من مساعديه ، هو القس الأسبانى أورسيوس Orosius ، مهمة كتابة تاريخ مفصل يوضح ماهية المصائب التى حلت بمختلف الأباطرة الوثنيين خصوصا فى العالم الرومانى قبل انتصار المسيحية . وقد أنجز أوروسيوس هذه للمهمة بعد عدة سنوات. وتمثلت

نتيجة عمله فى كتابه المثير الذى أسماه "الكتب السبعة ضد الوثنيين " وهو يصور بقدر الإمكان ، كل جريمة وكل مصيبة عرفها العالم قبل العصر المسيحى ، أما أوغسطين الذى كان قد تقدم آنذاك نحو فهم تاريخى أكثر عمقا ، فربما هاله ذلك الحصر الذى قام به أوروسيوس لحوادث الرعب . ولكن مجموعة قصص الرعب التى جمعها أوروسيوس لاقت شعبية كبيرة فى العصور الوسطى . ولم يكن دفاعه عن المسيحية بهذه الطريقة الفجة أيسر على الفهم من نظريات أوغسطين المتحذلقة .

وبعد أن خانه التوفيق فى طرح التفسير التاريخى لسقوط روما ، أدرك أوغسطين أن عليه أن يقوم بتحقيق وبحث طبيعة العملية التاريخية فى شكلها النهائى ، وكان عليه أن يصوغ فلسفة تاريخ مسيحية يمكن على أساسها فهم الأحداث الزمنية ووضعها فى مكانها الصحيح ، وقد بدأ أوغسطين بمقالة نقدية لتدوين التاريخ عند اليونان والرومان ، مع أخذ النظرية اليونانية عن التجدد الدورى فى الاعتبار. وقبل أن يصبح بالامكان صياغة فلسفة تاريخ مسيحية ، كان من الضرورى حسم مدى صلاحية التدوين التاريخى الكلاسيكى .

ولم يكن علماء اللاهوت المسيحيون ، قبل أوغسطين ، قادرين على التحرر من ربقة النظرية الدورية اليونانية ، ذلك أن أعظم لاهوتى بين آباء الكنيسة الشرقية ، وهو أوريجين السكندرى ، قد احرز مكانته الكبيرة بفضل تبنيه للنظرية الدورية وصياغتها فى صورة مسيحية . فقد نادى اوريجين بانه وجد فى الكتاب المقدس مايدعم الرؤية اليونانية للتاريخ ، وذلك فى القول المأثور الوارد فى سفر الجامعة " فليس تحت الشمس بجديد " (١٦) ، ولايبدو هذا أمرا غريبا لأن سفر الجامعة هو ذلك الجزء من العهد القديم الذى يعكس تأثير الفكر الهللينستى فى أوضح صورة . وذهب أوريجين فى تأكيده الى القول بأن المسيح قد عانى وسوف يعانى الكثير على أساس أن ماكان مفيدا ذات مرة سيكون مفيدا على الدوام ، وكان يؤمن بأن الانسان يموت مرات ومرات ، وأن المسيح يقاسى مرات ومرات خلال دورات التاريخ .

كان أوغسطين هو أول من أدرك بوضوح أنه ليس هناك شىء يمكن أن يكون أشد خصومة للمسيحية وإيمانها بالتجسد من هذه النظرية الدورية فى التاريخ ، فقد حذر أوغسطين من انه من خلال النظرية الدورية "يسعى الكافر الى الحط من شأن عقيدتنا البسيطة ، وذلك بأن يجرنا بعيدا عن الطريق السوى ويجبرنا على السير معه" كما قال ان اولئك الذين يؤمنون بمثل هذا التفسير للتاريخ " لايعرفون كيف كانت أصول الجنس البشرى وأحوال الانسان الأخلاقية ،

---

(١٦) الجامعة ١ : ٩ .

ولاكيف ستنتهى . . " ويخلص أوغسطين الى القول بأن " الله يمنعنا من ابتلاع مثل هذا اللغو الفارغ والقائل بأن الثورات التى وقعت فى الزمن ، وان الأمور الزمنية ذاتها تتكرر ، ومقدر لها أن تتكرر خلال عصور المستقبل الفائقة الحصر" .

وفى مواجهة النظرية الدورية أبرز أوغسطين ان تجسد المسيح ، أى حياته على الأرض ، كانت حادثا فريدا غير قابل للتكرار أبدا فى التاريخ : أى أن المسيح قد مات مرة وإلى الأبد فداء لخطايا الانسان ، وفى رأى أوغسطين ان العقيدة المسيحية توضح - بغض النظر عن الظواهر كلها - أن التاريخ الانسانى لايتألف من سلسلة من الأنماط المتكررة وإنما هو تطور يسير صوب الغاية النهائية ، وإن كان خط التطور غير ثابت . فللتاريخ بداية محددة هى بداية خلق العالم ، كما أن له نهاية محددة هى يوم الحساب . وداخل هذا الزمن المحدد وقع أعظم حادث فردى ، ذلكم هو حياة المسيح ، وتجسد المسيح هو الذى يبدأ به العصر التاريخى السادس والأخير فى حياة العالم (١٧).

---

(١٧) تخلى المفكرون المسيحيون عن الرؤية الكلاسيكية التى تعتقد أن الزمن يمضى فى دورات تتم كل منها "بالسنة الكبيرة" وبالتالى يعيد التاريخ نفسه فى هذه الدورات ، كما تخلوا عن الرؤية الكلاسيكية القائلة بأن الزمن يمضى من الحاضر صوب مستقبل غير محدود وجعلوا للزمن بداية ونهاية هما يوم الخليقة ويوم الحساب لقد بدأ الزمن بالخلق كما سجل سفر التكوين (تكوين ١:١ - ٣١) ثم مضى الزمن خلال العهد القديم والعهد الجديد حتى الحاضر ، وسوف ينتهى بعودة المسيح ويوم القيامة . وقد حاول المسيحيون الأوائل تقدير عمر العالم انتظاراً لعودة المسيح ، فافترضوا أن العالم سيمر بستة عصور ، كل منها ألف سنة ، قياساً على خلق السموات والأرض فى ستة أيام (تكوين ١:٣١: "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا ، وكان مساء وكان صباح يوما سادساً ") وأضاف الالفيون سبتا هو العصر السابع . وحين تقوم القيامة ويعود المسيح يحل اليوم الثامن الذى يحل فيه الخلود محل الزمن والتاريخ وقد حدد أوغسطين مجرد.العصور الستة على النحو التالى : من آدم إلى نوح الطفولة ، ومن نوح إلى ابراهيم الصبا ، ومن ابراهيم الى داود الشباب ، ومن داود إلى الأسر البابلى الرجولة، ومن الأسر البابلى إلى يوحنا المعمدان العصر الوسيط الذى يقع بين مجىء المسيح الأول وعودته ، وهو عصر شيخوخة العالم . كما قسم كلا من هذه العصور تقسيماً فرعياً قياسا على الليل والنهار فجعل لكل عصر صبحه وظهره ومساءه .

Beryll Smalley, Historians in the Middle Ages (New york, 1971) pp. 27 - 35.

وكذلك . على الغمراوى ، نظرات هيستوريوغرافية فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى (مجلة الآداب والتربية - جامعة الكويت العددان ٣ ، ٤) ص ٢٣٤ - ٢٣٣ . (المترجم)

"لقد كان تجسُّد المسيح حدثا فريدا يمضى كل التاريخ السابق باتجاهه" كما يجب أن ينسب اليه مجرى التاريخ بأسره .

ومن هذا المفهوم الطولى للتاريخ نبعت نتائج هامة تركز على حياة المخلص (المسيح) التاريخية . لقد مات المسيح فداء لجميع البشر ، وليس هناك يهودى أو أممى ، بربرى أو يونانى، أمام الرب . ومن ثم فإن التاريخ هو تاريخ البشر أجمعين ، منذ آدم ، حتى الحساب. والتاريخ الوحيد الذى يمكن الأخذ به هو تاريخ الجنس البشرى بأسره . فالتاريخ الذى يتناول حياة شعب روما على سبيل المثال لم يعد كافيا أو حتى صالحا ، وهو ما ينقص من قدر التدوين التاريخى الكلاسيكى الذى اقتصر على هذا الاتجاه . فالمسيحية تستوجب أن يكون التاريخ عالمياً يكشف عن أعمال العناية الالهية وارتباطها ببنى الانسان . وكانت مدونة أيوزبيوس - جيروم التاريخية العالمية قد أخذت هذه الرؤية التاريخية بالفعل .

وقد تمخض مفهوم أوغسطين للتاريخ أيضا عن الرأى القائل بأن كل حياة انسانية وكل تصرف انسانى يحمل بحد ذاته قيمة بالنسبة للمؤرخ ، وهو ما أوضحه تيودور مومسن T.E. Mommsen، من حيث أنه يلعب دورا فى المسار الذى حددته العناية الالهية للتاريخ العالمى ، هذا الاتجاه الذى شاع فى القرن العشرين باسم " حركة العلم التاريخى His-toricism ، كان مناقضا لاعتقاد اليونانيين بصلاحية الأنماط المتكررة الدالة على المواقف والأنماط النفسية المتماثلة ، وهو اعتقاد لم يسمح بوجود شخصية متفردة ، أو بوجود مغزى للحادثة التاريخية الواحدة والشخصية التاريخية الفردية . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن مفهوم أوغسطين عن التاريخ قد كشف عن أهمية وقيمة الشخصية الانسانية المفردة ؛ إذ أن الله يحاسبنا كأرواح مفردة ، ومن ثم فاننا نحتل مكاننا فى العملية التاريخية التى قدرتها العناية الالهية بوصفنا شخصيات فردية غير قابلة للتكرار .

ومن هذا الهجوم على فلسفة التاريخ الكلاسيكية ، والاستعاضة عنها بنظرية مسيحية تقوم على أساس عقيدة التجسد ، ينتقل أوغسطين إلى الهجوم على الفكرة المسيحية التى تقول بالتقدم ، وهى الفكرة التى جعلت من العسير تماما على المسيحيين فهم سقوط روما . فيقول أوغسطين ، أننا إذا بدأنا بالروح الفردية ، سنجد أن هناك صراعا بين الارادة الروحية والارادة الجسدية على السيادة ، وأولئك الذين تسمو بداخلهم الارادة الروحية ، يحبون الله الى درجة تجعلهم ينكرون ذواتهم . ومن ثم فاننا قد نقسم الانسانية الى مجموعتين ؛ أى مجتمعين أو مدينتين ، إحداهما هى مدينة الله وهى مجتمع أولئك الذين انتصرت بداخلهم الارادة الروحية ،

والمجتمع الآخر هو المدينة الأرضية حيث أولئك الذين تسود بداخلهم الارادة الجسدية ، فمنذ سقوط الشيطان ؛ أى منذ عصر قابيل وهابيل وجدت المدينتان فى حالة من التناقض الصارخ والدائم ، واحداهما هى مدينة المسيح ، والأخرى مدينة للشر ، ويشير هذا التعميم الفضفاض إلى الملائكة كما يشير إلى البشر على السواء . ذلك أن هذا التعميم شامل للجنس البشرى بأسره ، لأنه يضم فى ثناياه جميع شعوب الأرض على اختلافها وتفرقها فى أصقاع المعمورة ، كما أنه يتضمن للتاريخ الانسانى برمته .

وتمتد حياة المدينتين منذ بداية وجود الجنس البشرى حتى نهاية العالم ، وخلال هذه الفترة من تاريخ العالم يختلط المجتمعان على المستوى المادى ؛ ولكنهما يظلان على انفصالهما الروحى والأخلاقى . ذلك أن حياة الانسان الداخلية ، وحال كل روح فردية هى فقط التى تحدد من ينتمى إلى مدينة الله ، ومن ينتمى إلى المدينة الأرضية ، وفى يوم الحساب سوف ينفصل مواطنو المدينتين على المستوى المادى أيضا . وسوف يحظى مواطنو مدينة الله بالحياة الخالدة ، على حين يعانى أعضاء المدينة الأرضية عذاب اللعنة الأبدية .

على أنه لايمكن - ونحن نحاول فهم النظرية التى صاغها أوغسطين عن المدينتين - أن نميز مدينة الله أو المدينة الأرضية ، أو نطبقهما على أية دولة أو مؤسسة قائمة ، فليست الامبراطورية الرومانية الوثنية هى المدينة الأرضية ، كما أن الكنيسة المسيحية ليست مدينة الله ، على الرغم من وجود علاقة مبهمة بين كل من الامبراطورية والمدينة الأرضية ، وكل من الكنيسة ومدينة الله ، وهى علاقة شبيهة بتأثير الأفكار الأفلاطونية على الأمور الدنيوية ، والصراع بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية صراع يحدث خارج دائرة التاريخ العادى : فهو يحدث داخل الانسان نفسه ، أى داخل النفس الفردية . ونحن نشير إجمالا إلى النفوس التى انتصرت بداخلها الارادة الجسدية على أنهم مدينة الأرض . بيد أن الخلاص يبقى مسألة تتعلق بالنفوس الفردية وليس بالمجموعات ، ويقول أوغسطين " أننا نطلق عليهم ، بطريقة محددة اسم المدينة السماوية والمدينة الأرضية" .

والمذهب الأوغسطينى عن المدينتين يجعل من المستحيل وجود فكرة مسيحية تؤمن بالتقدم الزمنى ؛ فالتاريخ ، من وجهة النظر المسيحية التى يمثلها أوغسطين ، يجب أن يتم معناه على مستويين ، المستوى العادى للأمور الزمنية وهو المستوى الذى يتميز بأهميته الكبيرة ؛ ذلك أن الأحداث التى تقع فى التاريخ الانسانى مقدرة سلفا بارادة الله ، وماهى إلا لحظات فى الخط الذى يمتد منذ الخليقة مرورا بتجسد المسيح إلى يوم الحساب . وبالتجسد بدأ العصر السادس

والأخير فى التاريخ الإنسانى ، ولكن بينما يتعين على المؤرخ أن يقيم كل حادثة مفردة فى التاريخ باعتبارها انعكاسا لأعمال الالهية ، فإنه لايستطيع أن يستنتج الغرض الذى توخاه الرب فى تقدير الأحداث التى تشكل مصير بنى الانسان . والمؤرخ المسيحى يهتم بالتدهور والفشل بقدر مايهتم بالنجاح الاقتصادى والرخاء ، فلابد أن يكون لتدهور الامبراطورية الرومانية مكان فى الخطة التى قررتها العناية الالهية لمسار التاريخ ، شأنه فى ذلك شأن العصر الذهبى الذى شهدته الامبراطورية فى قمة مجدها ورقيها. وعلى أية حال ، لايتعين على المؤرخ أن يكتشف الغاية التى تغياها الله من هذه التغيرات العنيفة فى مسار البشر والحضارة ، وليس لنا أن نعتبر أن فشل دولة ما ، أو حضارة ما ، عقابا من الرب ، كما أنه لاينبغى لنا أن نعتبر أن نجاح ورفاهية احدى الدول ، أو احدى الحضارات بمثابة المكافأة التى يمنحها الله لقاء الفضائل التى يتحلى بها البشر .

وما أحداث التاريخ الزمنى جميعا سوى الخلفية التى يقوم عليها التاريخ الداخلى ذو الأهمية الحقيقية لبنى الانسان ؛ أى تاريخ المدينتين . بيد أنه لما كان هذا التاريخ قائما على أساس العلاقة بين الله والنفس الفردية ، فهو تاريخ لايمكن إلا أن يكتبه كاتب ملهم وليس من عامة البشر ، فإن أهم الأحداث التى تقع فى التاريخ بعيدة عن متناول المعرفة التاريخية ، ومن ثم فإن أوغسطين يرى أن المسيحى يرى فى نهوض الحضارة وسقوطها عملا من تدبير العناية الالهية دون افتراض الحكم الدقيق على السبب الذى جعل العناية الالهية تقدر هذه التغيرات العنيفة فى تاريخ الانسانية ، وكل مانعرفه أن مثل هذه الأمور ترتبط بتجسد المسيح فى علاقة ما كما ترتبط بيوم الحساب ومن ثم فهى مسخرة لخلاص بنى الانسان ورفاهيتهم ، ويعرف المسيحى أن مايستحق الأهمية فى نظر الله ، هو تاريخ المدينتين كما يرى المسيحى لمحة من هذا التاريخ فى الصراع الدائر بداخله بين الارادة الروحية والارادة الجسدية ، إلا أنه فى يوم الحساب فقط - حين ينفصل سكان المدينة الأرضية عن سكان المدينة السماوية - سيكون من المتاح أن نفهم تاريخ المدينتين على نحو أكثر شمولا وكمالا .

وعلى الرغم من أن أوغسطين قدم اجابات كاملة على الشكوك والأسئلة المسيحية التى أثيرت حول سقوط روما ، بأن أوضح أن وجهة النظر الدورية فى التاريخ لاتتوافق مع العقيدة المسيحية ، كما أنه استبعد فكرة التقدم المسيحية ، فإنه لم يقدم جوابا شافيا على الانتقادات التى وجهها الوثنيون . ذلك أنه حول أرضية المناقشة بأن كشف النقاب عن منظور مناسب للرؤية المسيحية لسقوط روما ، وهى طريقة فى المجادلة لم يكن الوثنيون ليقبلوها بطبيعة الحال، ولكن أوغسطين كان من الحذق بحيث أدرك أنه لايمكن أن يكون هناك نزاع على شىء

سوى الفرض الأساسى . فهو يقول للوثنى : ان مجادلتك لاتعنى شيئا بالنسبة لى طالما أن فروضى مختلفة تماما ، ومن ذا الذى يمكن أن يلومه على هذا الموقف الناضج ؟ ويقول أيضا : باعتناق المسيحية تكون فلسفة التاريخ الوحيدة التى يمكن قبولها هى تلك التى طرحها فى كتاب "مدينة الله". وينبغى رؤية كتاب أوغسطين "مدينة الله" باعتباره نقطة تحول هامة فى المفهوم التاريخى . كان أوغسطين هو الذى أوضح نظرية التاريخ التى تضمنها الكتاب المقدس، وهى رؤية تاريخية تستحق النظر المتأنى حتى فى الوقت الحاضر ، بيد أن عدد المفكرين الذين ترسموا خطاها فى أى عصر كان ضئيلا للغاية ، وذلك لأن الفلسفة الأوغسطينية للتاريخ ، إنما تهدف إلى البحث فيما وراء التاريخ meta - historical .

وغالبا ما يقال إن كتاب "مدينة الله" لأوغسطين كان يسيطر على الفكر التاريخى فى العصور الوسطى ، والواقع أن هذا غير صحيح . قد حظى أوغسطين بالتبجيل إلا أن رؤيته للتاريخ كانت من الغموض والإبهام بالنسبة لكل كتاب العصور الوسطى ، بحيث لم يقدر أغلبهم على استيعابها. إذ كان المؤرخ فى العصور الوسطى يميل تماما إلى أن يجعل من الكنيسة مرادفا لمدينة الله ، وهو ما لم يقصده أوغسطين . وحين كان الكاتب فى العصور الوسطى يصف أحوال ملك آرز الكنيسة وعمل لصالحها ، فإنه سرعان ماكان يسقط فى حبائل اعتقاد ايوزيبيوس المتفائل فى التقدم الانسانى من خلال الاتحاد بين الدولة والكنيسة ، وهو الاعتقاد الذى كان أوغسطين يعارضه بشدة . وأخيرا ، فإن مؤرخ العصور الوسطى كان يحاول باستمرار أن يعثر على يد العناية الالهية فيما يصف من أحداث ، وهو مطلب كان أوغسطين يجده مطلبا أخرقا وخطيرا . فإن نظرية أوغسطين فى التاريخ تتطلب ضبط النفس والتدين العميق ، الأمر الذى كان فوق طاقة جميع كتاب العصور الوسطى تقريبا ، كما أنه بعيد أيضا عن متناول الكتاب المحدثين . فإننا لانزال نميل إلى ربط مصالح دولتنا بارداة الله ، ولانزال نعتقد أن تشجيع مصالحنا الوطنية يحظى بتأييد العناية الالهية . وضد هذه الاتجاهات كتب أوغسطين مؤلفه الأكبر ، ولكن أفراداً قلائل هم الذين اهتموا بأن يستمعوا إلى رأيه ، واستطاعوا فهم رأيه .

وبالمثل ، ففى مسائل القضاء والقدر وحرية الإرادة ، ابتعدت كنيسة العصور الوسطى بالفعل عن الموقف الأوغسطينى المحدد بشكل دقيق ، فإن مشكلة التوفيق بين القدرة الالهية الشاملة ، والحرية الانسانية لم تكن من ابتكار أوغسطين ، ولا حتى من ابتكار القديس بولس الذى تأثر أوغسطين بآرائه تأثراً كبيرا فى هذا الصدد . فقد أثيرت المشكلة بالفعل فى العهد

القديم ، وربما ثارت فى أية ديانة توحيدية أخرى . وأوضح أوغسطين أن الناس مسئولون عن خطاياهم ، ولكنهم ليسوا مسئولين عن الخلاص ، كما فسر اللعنة فى ضوء خطيئة آدم ، وليس باعتبارها نتيجة لتصرف فردى ، فالطبيعة الانسانية فاسدة والناس جميعا مدانون بسبب هذه الطبيعة . وبدون العون الالهى لن يستطيع أى انسان أن يهرب من قيود الطبيعة البشرية . وليست هذه حرية مطلقة ، ولكنها حرية أن تعيش وفقا لمشيئة الله ، وماهذه الحرية إلا نتيجة لما ينعم الله به من هبات ، وبعبارة أخرى ، فالرجال الأحرار هم فقط أولئك الذين يحيون وفقا للارادة الالهية ، أى الذين يهربون من قيود الارادة البشرية لأن الله اختارهم للخلاص . وقد تطور هذا المذهب الصارم على يد أوغسطين من خلال خلافه مع الراهب واللاهوتى البريطانى بيلاجيوس Pelagius الذى زعم أن الانسان يستحق الخلاص عن جدارة لأنه اختار أن يعيش عيشة شريرة . ولم يكن بوسع أوغسطين أن يقبل رأى بيلاجيوس عن الارادة الحرة لأنه ظن أن بيلاجيوس أنكر العقيدة المسيحية عن الانسان الخاطىء وحط من شأن الجلالة الالهية .

بيد أن الكنيسة وهى تعمل لرعاية الشعب المسيحى ، وجدت أنه من الصعب أن تأخذ برأى أوغسطين . فقد كان مذهبه متحذلقا صارما بحيث لايمكن استخدامه لتنصير جماهير الأميين ، وبدا أن المذهب الأوغسطينى لايجعل الخلاص ميسورا لكل أعضاء الكنيسة . وفعلا ، قام بعض الأساقفة الفرنسيين بالدعوة إلى موقف شبيه بموقف بيلاجيوس فى القرن التالى لموت أوغسطين ، وتمسكوا بأن الخلاص يعتمد على نعمة الرب ، ولكنهم قالوا أيضا إن أعضاء الكنيسة يمكن أن يكونوا جديرين بتلك النعمة : فقد أرادوا أن يكونوا قادرين على الوعد بثواب حال لقاء السلوك الأخلاقى لرعاياهم . وبينما كانت الكنيسة قد أخذت بالمذهب الأوغسطينى رسميا فى مجمع أورانج Orange سنة ٥٢٩ ، فإنها أهملت تعاليم أوغسطين وأهدرتها على أرضية الواقع . وكثيرا ما كان القادة المسيحيون فى العصور الوسطى يناقشون الخلاص فى عبارات أمكن لرعاياهم أن يفسروها على أنها تتضمن قدرا كبيرا من حرية الارادة الانسانية . لقد تم إرساء دعائم المذهب الكاثوليكى فى العصور الوسطى على يد البابا جريجورى العظيم قرب نهاية القرن السادس . إذ أن مدخله كان معقولا ، لأنه يقول إنه بينما كان الخلاص نتيجة للنعمة الالهية ، فإن الفرد المسيحى - الذى يقوم بأداء الأعمال الطيبة التى تدعو اليها الكنيسة - إنما يكشف عن نعمة الرب التى حلت به . وكان هذا يعنى فى الواقع أنه إذا كان عضو الكنيسة قد تلقى الأسرار الربانية المقدسة ، وسار على نهج التعاليم الأخلاقية التى تدعو الكنيسة إليها فليس له أن يقلق بشأن الخلاص ، ولم يكن هذا تحولا كبيرا

عن موقف أوغسطين ، ولكنه من ناحية أخرى لم يكن متوافقا تماما مع تعاليم أوغسطين ؛ إذ أن أوغسطين لم يكن ليقبل أبدا أن يكون القيام بالأعمال الطيبة علامة على تقبل النعمة الالهية . إلا أن جريجورى كان أكثر اهتماما بالعمل الرعوى للكنيسة منه بالتعريفات اللاهوتية الدقيقة . فقد كان يريد أن يؤكد لجمهوره أن كل من يصبح مسيحيا فى خلقه وفعاله جدير بالخلاص ، وكان من الصعب تماما حمل الناس على أن يعملوا هذا ، أى أن تدعو الكنيسة إلى تنفيذ تعاليمها وتظل غير قادرة على ضمان الخلاص للناس ، وهو الأمر الذى كان سيضع الكنيسة فى أكثر مواقفها حرجا ، وهى تناضل من أجل تحويل المجتمع الأوربى إلى المسيحية . وفى سبيل ضمان أكبر للخلاص قدمت الكنيسة فى زمن جريجورى العظيم خطة للتكفير عن الانحراف عن تعاليم الكنيسة يمكن من خلالها نيل الغفران . فقد كان يفترض أن هناك مرحلة وسيطة بين النعيم والجحيم تسمى المطهر . ولايدخل الجنة مباشرة أحد سوى القديسين ، بينما يتعين على الآخرين جميعا أن يمروا بعملية تطهير ، وكان المطهر هو المرحلة والمكان حيث يمكن القيام بهذا التطهور للنفوس ، وهذا هو العقاب الذى يناله الناس الطيبون ، تمهيدا لدخولهم الجنة فى النهاية . إلا أنه كان من الممكن - وفقا لتعاليم الكنيسة منذ زمن جريجورى - أن تتم هذه الكفارة التطهرية فى الحياة الدنيا ، ومن ثم تسهل على المؤمن عناء مرحلة المطهر وتقصرها . وإذا سلمنا بحقيقة أن الكنيسة أرادت أن تؤكد لرعاياها أنها تمتلك كافة الوسائل التى تمكنهم من نيل الخلاص ، وإذا سلمنا بالمفهوم القانونى للألوهية ، يكون من السهل علينا أن نرى كيف تم استنباط فكرة المطهر هذه ، وكيف استنبط مذهب التوبة .

وتجسدت تعاليم جريجورى عن الكفارة التى تقوم بها الكنيسة ، كما أصبحت هذه التعاليم جزءا هاما للغاية فى حياة كنيسة العصور الوسطى ، ولاتزال لها هذه الأهمية حتى العصر الحاضر ، وللتوبة مراحل أربع ، أولا ، إدراك الخطيئة والخوف من عقاب الله ثانيا ، الاعتذار عن ارتكاب الخطيئة أو الندم عليها ، وهذه المرحلة ذات أهمية قصوى ، وثالثا : الاعتراف أمام قسيس مكرس من الكنيسة ، وهو خزى واتضاع إرادى للتائب ، وأخيرا : يأتى العمل الفعلى للكفارة وهو مايسبغ عليه شعورا بالرضا لتكفيره عن الخطيئة .

وكان التكفير يتم بصور متعددة فقد كان من الممكن أن يقوم التائب بكفارته أمام الكنيسة فى صورة عمل بدنى شاق يسديه للكنيسة أو الحج إلى احدى المزارات المقدسة ، أو حتى أى عمل فنى من الأعمال التى لها غرض دينى . ومن المعلوم تماما أنه حدث فى أواخر العصور الوسطى أن أسىء استخدام التوبة ، مثلما حدث فى صكوك الغفران الشهيرة التى هاجمها مارتن لوثر بشدة . إلا أنه ينبغى ملاحظة أنه كان للتوبة غرض دينى ونفس سليم إلى حد كبير ،

إذ كانت التوبة تتيح للمسيحى أن ينال الغفران عن خطايا كثيرة ، ومن ثم تؤكد له من جديد خلاص روحه كما تسمح له أن يتطلع إلى الحياة الآخرة بقدر أقل من الخوف والهلع . وعن طريق مذهب جريجورى فى التوبة ضيقت الكنيسة من نطاق التشاؤمية التى طلع بها أوغسطين فيما يخص مصير غالبية البشر . والواقع أن مذهب جريجورى هذا لعب دورا كبيرا فى ادخال نظرة التفاؤل فى الفكر الدينى الغربى ، وهو ماكان يروق لمجتمع العصور الوسطى الباكرة على نحو أفضل .

كانت أهمية آباء الكنيسة اللاتينية ودورهم فى إرساء النظرية السياسية لكنيسة العصور الوسطى مساوية لأهميتهم من حيث تحديد الأسئلة التى أثيرت فى قضية القضاء والقدر ، فمنذ عصر أوغسطين كان الأباطرة هم حكام الكنيسة المسيحية حقاً ، بل إنهم لعبوا الدور الأول فى تحديد عقيدتها . وهيمنة الأباطرة هذه على الكنيسة هى التى تمت صياغتها فى مصطلح "القيصرية – البابوية Caesaro - Papism لقد ارتأى الأباطرة المسيحيون على مدى القرنين الرابع والخامس أن يضعوا نظرية يمكن أن يستند اليها مبدأ السيطرة الفعلية على مقدرات الكنيسة .

وتبدو الخطوط الرئيسية لهذه النظرية واضحة بالفعل فى خطبة ايوزيبيوس التى ألقاها فى مدح قسطنطين سنة ٣٣٦ ، فقد خرجت كل من الامبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية الى الوجود فى الوقت نفسه تقريبا ؛ ولذا فإن العناية الالهية هى التى خلقت الامبراطورية من أجل تقدم الدين المسيحى ومن أجل خير الكنيسة . كما أن اعتناق قسطنطين للمسيحية جعل الأهمية الدينية للامبراطورية تبدو جلية واضحة . وكان لابد وأن تتداخل مصائر وأقدار كل من الامبراطورية والكنيسة ، بل وتصبح كل منهما مرادفة للأخرى حقا . وفى ختام خطبته ، يقوم أيوزيبيوس باحياء المفاهيم السياسية فى الديانات التى تعبد الشمس ، والتى شاعت فى القرن الثالث فى صيغة مسيحية : ذلك أن المنصب الامبراطورى قد خلق بنعمة الرب ورحمته ، والامبراطور هو نائب الله على الأرض فى سبيل دعم رفاهية الكنيسة المسيحية والامبراطورية.

إلا أنه لا يتضح من خطبة أيوزيبيوس التى أطرى فيها قسطنطين ، ما إذا كان الامبراطور هو نائب الله الأول على الأرض ، أم أن الأساقفة كانوا له أندادا . وبحلول النصف الثانى من القرن الخامس أخذت دعاوى الامبراطور بشأن علو مكانته على الأساقفة – بسبب طبيعة منصبه – تتخذ شكلا أكثر وضوحا وصراحة . وخلال النصف الأخير من القرن الخامس كانت نظرية القيصرية – البابوية هذه قد نضجت وتمت صياغتها تماما .

وحوالى هذه الوقت كانت الامبراطورية قد تدهورت فى الغرب ، ولكن الأباطرة الرومان الشرقيين ، أو الأباطرة البيزنطيين استمروا فى انتهاج سياسة القيصرية - البابوية التى لم يثر حولها أى سؤال حتى القرن الثامن ، لقد كانت الكنيسة البيزنطية فى العصور الوسطى قسما من الدولة البيزنطية . وكان الامبراطور هو الرئيس النظرى والفعلى للكنيسة الشرقية اليونانية. كما صار بطريرك القسطنطينية مجرد مساعد الامبراطور فى الشئون الدينية . وكان باستطاعة الامبراطور أن يطرد البطريرك إذا خالف المراسيم الامبراطورية ، وقد حدث ذلك بالفعل فى بعض الأحيان .

وهكذا ، التقط الأباطرة البيزنطيون نظرية تدعم سلطتهم على الكنيسة وطوروا هذه النظرية التى كانت قد ظهرت بالفعل منذ زمن قنسطنطين . وعلى أية حال ، فإنه على الرغم من تقريظ أيوزيبيوس لقنسطنطين ، فإنه يبدو واضحا أن قنسطنطين كان يظن أن الله قد اختاره ممثلا عنه بصفته الشخصية فقط ، وأن نيابته لم تكن نابعة من منصبه الامبراطورى . وفى غضون قرنين من الزمان بعد قنسطنطين صارت هذه النيابة الشخصية نيابة رسمية عن الله : فمن دواعى منصب الامبراطور أن يكون حاكما على كل من الدولة العالمية والكنيسة العالمية .

وشيئا فشيئا اتخذت القيصرية - البابوية شكل مذهب الملكية الثيوقراطية ، أى فكرة أن الامبراطور ، بحكم منصبه ، تباركه سجايا وخصال مقدسة . وكان الامبراطور البيزنطى يعتبر بمثابة ملك وكاهن rex et sacerdos فى آن واحد . ولم يكن مجرد رجل علمانى ، فهو مثل الأسقف يتمتع بصفات مقدسة نابعة من طبيعة منصبه . ولم يكن هذا الرأى مجرد دعاية للامبراطور والبلاط الامبراطورى كما أن الكنيسة لم تثر أية تساؤلات حول صلاحيته . واستمر زعماد الكنيسة يفكرون بشكل يتسق مع الخطوط الرئيسية التى تبدو واضحة فى خطبة ايوزيبيوس التى مدح بها قنسطنطين . وفضلا عن ذلك كله كانت الامبراطورية ماتزال موجودة بالنسبة لهم ، فهل كان هناك ما يدعو إلى التساؤل حول الحقيقة القائلة بأن مصائر الكنيسة هى مصائر الامبراطورية المسيحية نفسها على نحو متطابق ؟

وفى الوقت الذى أخذت حضارة القسطنطينية فى العصور الوسطى تزداد تأثرا بحضارة الجزء الشرقى من الامبراطورية مع كل قرن يمضى، كانت نظرية الملكية الثيوقراطية تزداد تأثرا بمفاهيم الملكية المقدسة التى سادت الحياة السياسية فى الشرق الأوسط على مدى قرون عديدة . كان الملوك الشرقيون ، من أمثال الحكام الفرس ، يعتبرون ذوات مقدسة وشبه الهية بصفة

دائمة . فقد وضحت مظاهر البلاط الفارسى بالفعل فى الإمبراطورية الرومانية أيام دقلديانوس، وظلت مظاهر واحتفالات بلاط الملكية البيزنطية فى العصور الوسطى تأخذ عن مظاهر واحتفالات البلاط الفارسى التى تجعل من شخص الملك شخصا شبه الهى يسمو فوق جميع رعاياه بما فيهم الاساقفة .

على أية حال ، كان من الممكن تعضيد فكرة الملكية الثيوقراطية بالرجوع إلى صفحات العهد القديم . فالأمثلة والنصوص الواردة فى الكتاب المقدس ، والتى تدعم وتؤيد مزاعم الامبراطور ، قد استخدمت على نطاق واسع من قبل أبواق الدعاية الامبراطورية ، كما أن الكنيسة الشرقية لم تجد فى سوابق الكتاب المقدس شيئا غير صالح ، بل على العكس من ذلك، كان رجال الكنيسة اليونانية مأخوذين ومتأثرين بما جاء فى الكتاب المقدس من أصول تدعم سلطة الامبراطور ، وكان فى مقدور الأباطرة البيزنطيين ، أن يستشهدوا ، مثلا ، بمثال شاول الذى مسحه صموئيل ملكا باختيار الرب (١٨) ولم يكن لداود أن يرفع يده أمامه ، والراجح - كانت المناقشة تدور على هذا النحو - أن مسح شاول ملكا باختيار الرب أعطاه سلطة مقدسة . كذلك كان المدافعون عن مذهب الملكية الثيوقراطية يشيرون إلى المثال الوارد فى العهد القديم عن ملكى صادق الذى جاء عنه فى سفر التكوين أنه كان ملكا وكاهنا فى الوقت ذاته (١٩) ويعتبر ملكى صادق بمثابة التجسيم السابق لنمط الملك - الكاهن . كما أن المسيح ذاته ، كان سليل بيت داود ملك الملوك ، والكاهن الأكبر فى الوقت نفسه .

وفى القرنين الخامس والسادس مضت نظرية الملكية الثيوقراطية هذه شوطا أبعد فى الامبراطورية البيزنطية ، إذ غت حول شخص الامبراطور عاطفة دينية روحانية شرقية السمات . فقد كان الناس يرون أن الامبراطور يماثل المسيح ذاته ، فكما أن فى السموات اله واحد يجمع فى ذاته كل السلطة والقوة ، كان على الأرض ملك واحد أيضا . وقد حظيت هذه الفكرة بالتركيز الشديد القوى حين صارت موضوعا رئيسيا من موضوعات الفن البيزنطى .

---

(١٨) صموئيل ١٠ :١،" فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبله وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا".

(١٩) جاء فى سفر التكوين ١٤ : ١٨-١٩ "..وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا ، وكان كاهنا لله العلى وباركه ". (المترجم)

وفى مقابل نظرية الملكية الثيوقراطية ومزاعم الأباطرة البيزنطيين حول القيصرية البابوية ، طرحت البابوية فى العقد الأخير من القرن الخامس ، مفهوما عن علاقات الكنيسة والدولة يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الملكية الثيوقراطية . وقد عرفت هذه النظرية التى تطرح مفهوم العلاقات الصحيحة بين الكنيسة والدولة باسم النظرية الجيلازية Gelasian theory نسبة إلى البابا جيلازيوس الأول Gelasius الذى قدم الصياغة الكلاسيكية لهذه النظرية ، وكانت تلك هى النظرية التى أولاها المنظرون السياسيون اهتمامهم الأساسى فى العصور الوسطى الباكرة . وسوف نقتفى أثر الصراع بينهما ، ولكى نتعرف على أصل النظرية الجيلازية ينبغى أن نرجع القهقرى إلى القرن الرابع ، بل وإلى وقت مبكر عن ذلك .

كان السبب الأول فى تقبل زعماء كنيسة القرن الرابع لسيطرة الأباطرة الرومان ، عن طواعية ورضا ، راجعا إلى تعاليم القديس بولس لهم باحترام سلطة الدولة ، وبوسعنا أن نقول إن النظرية السياسية فى العصور الوسطى بدأت بالاصحاح الثالث عشر من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ، وهو الاصحاح الذى أخذ عنه كتاب العصور الوسطى السياسيون مرات ومرات :

**"لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، أنه ليس سلطاناً إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ، حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل الشريرة ، أفتريد أن لاتخاف السلطان ، إفعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله الصلاح ، ولكن إذا فعلت الشر فخف ، لأنه لايحمل السيف عبثاً ، إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر لذلك يلزم أن تخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً بسبب الضمير . فأنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً ، الجزية لمن له الجزية ، الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف والاكرام لمن له الاكرام".**

كان هذا البيان - بما له من أهمية كبرى فى جميع مراحل مجرى الفكر السياسى فى العصور الوسطى - محلا للاقتباس بشكل مستمر منذ القرن الثانى فصاعدا . فقد أوضح بولس أن السلطات التى رتبها الله (وهى سلطات الدولة والسلطات الدينية على حد سواء) تخدم الغايات الالهية ، ومن ثم فهى سلطات صالحة ، ويجب أن يبقى الناس على خضوعهم لأن حكام العالم يمثلون الرب وينوبون عنه ، وزعم بولس أن نظام الحكومة المدنية ترتيب الهى ،

كما أن رفض الخضوع للدولة يعنى رفض الخضوع لله . والغرض الحقيقى للدولة أن تكبت فى نفوس الناس الشر الذى تولد عن خطيئة آدم . وفى رأى بعض العلماء أن بولس هنا كان يطرح حلا مؤقتا فحسب ، لأنه كان يظن أن العالم سينتهى بحكامه عن قريب على نحو ما ، كما أنه اهتم بشكل خاص بأن يلزم المسيحيون فى روما الهدوء وألا يكتسبوا أية سمعة بأنهم يقومون بنشاط هدام مما يجلب لهم المتاعب ، وأيا كان قصد بولس ، فإن تعاليمه جعلت مجتمع العصور الوسطى عاجزا عن مقاومة السلطة الملكية ، ولكن المقاومة بدأت فعلا بالقديس أمبروز.

كان القديس أمبروز زعيم الكنيسة اللاتينية خلال العقدين الأخيرين من القرن الرابع حتى موته سنة ٣٩٧ وهو سليل أسرة مسيحية رومانية عريقة كانت لها مكانة سامية فى الادارة الامبراطورية وأرسل إلى ميلانو كحاكم امبراطورى ، واختير رئيسا لأساقفه ميلانو سنة ٣٩٤ باجماع شعبى أدهشه كثيرا ، وكرس نفسه على مدى العقدين التاليين لادارة شئون أسقفيته والكتابة فى اللاهوت والعبادات ، كما كرس نفسه لبناء سلطة الكنيسة فى مواجهة سيطرة الأباطرة المسيحيين .

وقد جرؤ أمبروز مرتين على التصدى للامبراطور الارثوذكسى العظيم ثيودوسيوس ، فقد أدانه على فعاله وألجأ الامبراطور إلى التسليم والتوبة . وفى كلتى الحالتين ذكر الامبراطور بأنه فى النهاية مجرد انسان وأن عليه أن ينصت الى ممثل المسيح لأن المسيح نفسه يحمى امبراطوريته . وقال أمبروز أنه سيكون من المستحيل عليه أن يقدم القربان المقدس لخاطىء غير تائب . وكان ثيودوسيوس ، من حسن طالع أمبروز ، رجلا عميق التدين ، وفى كلتى المناسبتين التى أثار فيهما حنق كبير أساقفة ميلانو استسلم فى وداعة .

وكان لانتصار امبروز على امبراطور العالم الرومانى بأسره رد فعل عميق فى ذلك الوقت ، كما أن المثل الذى ضربه أمبروز فى مقاومة السلطة الزمنية ترك أثره العظيم على الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى الباكرة . فغالبا ماكان يحدث فى العصور الوسطى الباكرة ، إذا ماتصدى أحد زعماء الكنيسة لمعارضة ملك ما ، أن يستشهد بالمثل الذى ضربه القديس أمبروز فى مقاومة الامبراطور ثيودوسيوس . ويمكن القول بأن استسلام ثيودوسيوس لمطالب رئيس أساقفة ميلانو يبدو كنقطة تحول فى تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة فى أوربا الغربية .

بل إن نظرية أمبروز عن علاقات الكنيسة – الدولة والتى وجد الفرصة للتعبير الدقيق عنها فى خطاباته إلى ثيودوسيوس ، وفى عظاته التى ألقاها أثناء نزاعه مع الامبراطور ، كانت أبلغ تأثيرا على التطورات اللاحقة من المثل الذى ضربه بشخصه ، إذ قال أمبروز إن الدولة ينبغى أن تساعد الكنيسة وأن تحميها ، ولكن فى المسائل الدينية ليست للحاكم الزمنى أية سلطة على الكنيسة "فالمسائل الإلهية ليست خاضعة لأحكام السلطة الامبراطورية الرومانية " وعلى الرغم من هذا ، دعا إلى الاستقلال الذاتى للكنيسة خارج اختصاصات الدولة ، لأنهما فى التحليل النهائى مؤسستان منفصلتان " فالقصور تختص بالامبراطور ، على حين تختص الكنائس بالأسقف " . وفى الكنائس يكون الحكم للاسقف وليس للامبراطور ، وهكذا شن القديس أمبروز هجومه على نظرية الحكم الثيوقراطى التى صارت أساسا لمذهب القيصرية – البابوية .

فالامبراطور هو الحاكم الزمنى الأعلى بيد أنه ليس شخصا مقدسا . ويخلص أمبروز فى النهاية إلى أنه : حين يكون هناك صراع بين القانون الالهى والقانون الامبراطورى يجب أن يكون للقانون الإلهى فضل السبق والصدارة على القانون الامبراطورى . وقد صاغ أمبروز المبدأ القائل بأن الكنيسة والدولة مؤسستان منفصلتان صياغة واضحة ، ويتضمن مذهبه من المغزى ماهو أعمق من ذلك : إذ يقول بأن الكنيسة هى السلطة الأعلى فى آخر الأمر لأنها تعمل على خلاص البشر ، بما فى ذلك الامبراطور نفسه . كما أوضح القديس أمبروز بصفة قاطعة أن تعاليم المسيح التى تقتضى بأن " أعط مالقيصر لقيصر ، وما لله لله " تنطبق أيضا على الامبراطور (قيصر) حين يكون من رعايا الكنيسة المسيحية .

وأكثر مايلفت النظر فى جسارة أمبروز فى هجومه على السلطة وهيمنتها على الكنيسة أنه كان يخاطب آخر الأباطرة العظام قبل انحلال الامبراطورية ، وهو الامبراطور ثيودوسيوس العظيم الذى عادت سياسته بالنفع الكثير على الكنيسة ، وربما لم يكن ليجرؤ على تحدى سلطة الامبراطور ، على نحو مافعل أمبروز ، سوى أسقف ينحدر من سلالة أعلى مراتب الارستقراطية الرومانية ، وكانت خطابات أمبروز إلى ثيودوسيوس هى التى حددت الخطوط العريضة للنظرية المثلى للكنيسة الغربية فى العصور الوسطى تماما مثلما قدم ايوزيبيوس ، فى مديحه لقسطنطين الاسس التى قامت عليها النظرية السياسية القيصرية – البابوية فى بيزنطة.

وقد جعل انهيار الامبراطورية الغربية – الذى بات أمرا واضحا بالفعل بعد عقدين من موت أمبروز سنة ٣٩٧ – من هذه النظرية محورا جوهريا للغاية فى حياة الكنيسة الغربية ، ذلك أن

السلطة الامبراطورية الوحيدة الباقية تمثلت في امبراطور القسطنطينية الذى رفض أن يعترف بالوضع الجديد للممالك الجرمانية التى قامت على انقاض الامبراطورية الغربية القديمة ، وادعى لنفسه الهيمنة على الامبراطورية بأسرها باعتبار أن السلطة الامبراطورية عادت كلها إليه (هكذا كانت صياغة النظرية) وكان هذا يعنى أنه سيحاول أن يمارس على البابا السلطة نفسها التى كان يمارسها على البطاركة الشرقيين . وحتى إذا ماكان الامبراطور سينجح فى استعادة الامبراطورية الغربية ، وهو الهدف الذى وضعه نصب عينيه ليقوم بتنفيذه حالما تتوافر له القوة الكافية ، فسيكون على الكنيسة الغربية أن تقبل مايفرضه الإمبراطور من قرارات فى شئون العقيدة . وفى مواجهة هذه التهديدات من جانب القسطنطينية كانت نظرية أمبروز تمثل الدعوى المضادة الأفضل . وقد أخذ البابا جيلازيوس الأول فى أواخر القرن الخامس ، وجهات نظر أمبروز فيما يخص علاقات الكنيسة بالدولة وطورها ، وصاغها فى تصريحاته التى رد بها على إمبراطور القسطنطينية .

ومهما يكن من أمر ، فإن أمبروز لم يكن هو الوحيد بين آباء الكنيسة الذى ساعد على تشكيل النظرية السياسية للكنيسة . ففى النظرية السياسية ، كما فى معظم مناحى الفكر الأخرى ، كان للأوغسطينية تأثيرها الكبير على كنيسة العصور الوسطى الباكرة ، وهو تأثير يصعب تحديد مداه بشكل دقيق . وعلى الرغم من هذا فان هذا التأثير كان عاما ، لقد كانت كارثة سنة ٤١٠ فى روما تعنى أن الربط الذى قام به ايوزيبيوس بين مصائر كل من الدولة والكنيسة قد أصبح غير ذى موضوع بالنسبة للكنيسة اللاتينية ، وكان الكتاب التاسع عشر من "مدينة الله" محكوما بهذا الوضع السياسى المتغير على نحو قوى . فقد طيب أوغسطين خواطر أخوته المسيحيين فى الكنيسة اللاتينية بأن أصر على أنه ليست للدولة أية وظيفة إيجابية فى الحياة الدينية ، وأن الخلاص مسألة قاصرة على العلاقات بين الله والنفس المفردة . ولاتقدم الدولة لحياة المدينة السماوية هذه الا القانون والنظام اللازمين فقط ، أى السلام الأرضى ، ليكونا بمثابة الخلفية التى تقوم عليها هذه المدينة . وهكذا تكون الدولة ، فى رأى أوغسطين ، مجرد مؤسسة تابعة ذات غرض وظيفى قصد بها أن تهيىء الظروف الاجتماعية والسياسية التى تلائم الممارسة السلمية للحياة الدينية ، ولكن الدولة فى طبيعتها الجوهرية ، لاتسهم فى الحياة الدينية ومن ثم ليست لها أية صلاحيات معنوية فى حد ذاتها ، وينتهى أوغسطين إلى أن الدولة فى حد ذاتها ليست سوى "عصابة من القراصنة" . ومن ثم فإن

أوغسطين لايجعل للدولة تلك المقاصد الدينية والأخلاقية التى تصورها أيوزيبيوس ، بل إنه لايعطيها الصلاحيات المقدسة التى يعطيها بولس للدولة فى رسالته إلى أهل روما (وهو الأمر الذى قد يدهشنا قليلا فى ضوء قبول أوغسطين لفكر بولس الدينى بشكل عام ) . لقد تركت الأوغسطينية السياسية تركتين لأيديولوجية الكنيسة ؛ فمن ناحية دعت الكنيسة الى التدخل فى شئون ونشاطات الحكام بشرط ألا يتدخلوا فى حياة الكنيسة ، وأن يهيئوا السلام والنظام اللازمين حتى لاتقف الفوضى الاجتماعية والسياسية حجر عثرة فى طريق الحياة الدينية ، ومن ناحية أخرى لاتجد الأوغسطينية السياسية ، بطبيعة الحال ، أية سجايا مقدسة فى طبيعة الملك، فالحقيقة أن الدولة ليست سوى مؤسسة تتلائم مع الظروف ، ولاتتمتع بأية صلاحيات أخلاقية بصرف النظر عن فائدتها للمدينة السماوية التى تعتبر الكنيسة صورتها المنعكسة كما أن الأوغسطينية تستنكر سلطة الدولة وتستهجنها .

وقد أثرت التركتان ، أو تمثلتا على الأقل ، فى الموقف الذى اتخذته الكنيسة تجاه مختلف حكام العصور الوسطى الباكرة . ويمكن القول بأن الكنيسة اقتفت أثر التركة الأولى وهى تتعامل مع الملوك الجرمان الضعاف فى القرون الثلاثة التى أعقبت الغزوات الجرمانية . فقد كانت الكنيسة تحث أولئك الملوك على حفظ القانون والنظام ، دون أن تجشم نفسها عناء البحث عن أوجه القصور الكثيرة - شخصية كانت أم تنظيمية - التى شابت الممالك الجرمانية المسيحية فى تاريخها الباكر ، بيد أنه عندما كان أحد الحكام الجرمان يمتلك من القوة مايمكنه من فرض سلطته على الكنيسة ، والبابوية على وجه الخصوص ، كانت الكنيسة تبادر الى الدفاع عن نفسها بمهاجمة الأسس النظرية التى تستند إليها الملكية ، موضحة أنه ليست للدولة أية صلاحيات معنوية غير تلك التى تستمدها من الكنيسة . وكان البابا جيلازيوس الأول هو أول من استخدم هذا المبدأ ضد الامبراطور البيزنطى .

وفى العقد الأخير من القرن الخامس حاول البابا جيلازيوس - الذى أفاد من آراء كل من أمبروز وأوغسطين - أن يصوغ للكنيسة نظرية سياسية ، فقد تولى جيلازيوس البابوية من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٦ ، وفى ذلك الوقت ، كان واضحا أن الشقاق سيحدث بين البابا والامبراطور ، إذ كانت الكنيسة البيزنطية والامبراطور يدينان بمذهب مخالف لمذهب الكنيسة الكاثوليكية عن طبيعة المسيح ، وأراد الامبراطور من جلازيوس أن يعلن قبوله لهذا المبدأ ، فأصدر البابا قرار الحرمان ضد بطريرك القسطنطينية.كما هاجم سلطة الامبراطور من أساسها .

وواصل سيره على هذا الدرب فحدد العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وقال بأن من الممكن أن يوجد فى الكتاب المقدس أشخاص مثل ملكى صادق والمسيح ملوك وكهنة ، ولكن الحاصل الآن أن سلطة المسيح مقسمة بين الكنيسة والدولة ، فإن هناك نظامين للسلطة فى العالم : كبار الكهنة أصحاب السلطة المقدسة ، والملوك والأباطرة الذين يمسكون بزمام السلطة الملكية ، وسلطة الكنيسة سلطة تشريعية Auctoritas ؛ على حين أن سلطة الحكام العلمانيين سلطة تنفيذية Potestas وفى القانون الرومانى كانت السلطة التشريعية أسمى من السلطة التنفيذية . وهكذا فصل جيلازيوس بين الكنيسة والدولة من ناحية ؛ الا أنه أوضح أن الكنيسة تحتل المكانة الأسمى من ناحية أخرى . لقد كان يريد أن يفصل بين الكنيسة والدولة بسبب الرغبة فى إبعاد الامبراطور عن شئون الكنيسة ، ولكن جيلازيوس ترك لنفسه خط الرجعة حين أوضح أن المؤسسة التشريعية (الكنيسة) هى التى تمنح السلطة للمؤسسة التنفيذية (الامبراطور) . وكان أمبروز قد قال إن الراعى مسئول أمام الرب عن أرواح رعيته، ويجب عليه أن يتدخل فى سلطة الحاكم اذا انتهكت الدولة المبادىء الأخلاقية للكنيسة ، وهو ماعبر عنه جيلازيوس بقوله إن للكنيسة السلطة التشريعية Acutoritas فى نهاية الأمر .

ويمكن أن تستخدم النظرية الجيلازية للرد على نظام القيصرية البابوية بالقول بأن السلطة الروحية والسلطة الزمنية قد أوكلتا إلى مؤسستين مختلفتين ، تستمد كل منهما سلطتها من الرب ، كما أن كلا منهما لها مكانتها المستقلة عن الأخرى ، فى حدود مجالها الخالص . ولكن النظرية الجيلازية كانت تنطوى على مغزى أكثر عمقا جعل من الممكن تطويرها إلى مذهب يقول بتفوق البابا على الامبراطور . كما أن هذه النظرية لم تكن قاصرة فى مدلولاتها على مجرد الفصل بين مجالات الكنيسة ومجالات الدولة ، وقد هيأت النظرية الجيلازية للبابوية مبدأ كان من الممكن أن يكون معتدلا ومتمشيا فى الوقت نفسه مع أصول الفكرة فى تطبيقاتها حسبما تسمح به الظروف . وحتى القرن الثامن كانت البابوية قانعة بأن تخرج من النظرية الجيلازية بأكثر الاستنتاجات اعتدالا ، وتحت ضغط الامبراطور البيزنطى الشديد ظلت البابوية قانعة بمبدأ استقلال الشئون الكنسية عن السيطرة الملكية . وكانت المعركة التى خاضتها لفرض هذا المبدأ معركة طويلة ومريرة ، ولم تحرز سوى نجاح محدود فى النهاية ، الا أن البابوية بدأت فى القرنين الثامن والتاسع تستخدم الجانب الراديكالى فى النظرية الجيلازية . وفى القرن الحادى عشر استخرج البابا جريجورى السابع كل المضامين الراديكالية فى النظرية الجيلازية ، ولم يكتف بطلب الفصل بين الكنيسة والدولة ، وإنما طالب بمبدأ سمو الكنيسة فوق جميع الحكام .

أليس بوسعنا أن نرى فى هذا الجانب المزدوج من النظرية الجيلازية التركتين اللتين خلفتهما الأوغسطينية السياسية ؟ لقد كان أوغسطين يعنى ضمنا أن مجالات المدينة السماوية (المنعكسة فى الكنيسة) منفصلة تماما عن مجالات الدولة ، وهذه هى أيضا وجهة نظر جيلازيوس فى أكثر الجوانب اعتدالا فى نظريته . ولكن أوغسطين يقول أيضا إن الصلاحية الأخلاقية للدولة ليست من سماتها الجوهرية ، ولكنها مستمدة فقط من المدينة السماوية (المنعكسة فى الكنيسة) وهكذا يقرر جيلازيوس أن السلطة التنفيذية الامبراطورية Potestas مستمدة من السلطة التشريعية البابوية Auctoritas فى الصيغة الأصلية لنظريته . والنظرية الجيلازية فى حقيقتها هى النظرية الأوغسطينية السياسية فى صورة أكثر بساطة ، وأكثر واقعية وقدرة على طرح نقاط الجدل والمساجلة .

لقد أرسيت أسس الفكر السياسى فى القرون الستة التى تلت كتابات آباء الكنيسة وسيكون علينا ، فيما بعد ، أن ندرس بالتفصيل أطوار الصراع الطويل بين فكرة الحكم الثيوقراطى والنظرية الجيلازية ، كما ندرس الخلاف بين وجهات النظر الراديكالية فى المذهب الجيلازى . وحتى قيام حركة إحياء الفكر الأرسطى فى القرن الثانى عشر كانت المساجلات حول علاقات الكنيسة والدولة تدور وفقا للخطوط العريضة لهذه النظرية السياسية .

والتساؤل عما إذا كانت النظرية الجيلازية لاتزال تشكل النظرية السياسية للكنيسة الكاثوليكية مسألة محل أخذ ورد . وفى ضوء التغير الهائل الذى طرأ على الفكر الكاثوليكى فى الستينيات من هذا القرن ، يثور بعض الشك أيضا عما إذا كانت الآراء التى عبرت عنها كتابات آباء الكنيسة عن الزواج والعلاقة بين الزوجين لاتزال هى تعاليم كنيسة اليوم ، بيد أنه يمكن القول بأن هذه الآراء قد شاعت فى الكنيسة الرومانية على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان ، ومن ثم فإن تعاليم آباء الكنيسة عن الزواج والعلاقة بين الزوجين كان مقدرا لها أن تؤثر فى حياة الملايين من البشر ، ومن المؤكد أن لهذه المسألة أهميتها من حيث مغزاها التاريخى ، وهى أهمية تماثل تصريحات آباء الكنيسة وأراءهم عن التاريخ الطولى والتاريخ الدورى ، وعلاقات الكنيسة بالدولة .

أن من يقرأ أدب آباء الكنيسة بتوسع لابد أن يتأثر بالنغمة التى نوقشت بها مشاكل الأسرة والعلاقة بين الزوجين . وبالنظر إلى حقيقة أن الآباء اللاتين قد صاغوا مذهبهم فى معظم الأحيان بدافع الحاجة إلى إرشاد رعاياهم ، فليس من المدهش أن نجد الموضوع وقد احتل حيزا كبيرا للغاية فى كتاباتهم . ويتفق جميع آباء الكنيسة على أن للاتصال الجنسى غرض واحد

فقط هو إنجاب الأطفال . وهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن إشباع الرغبة الجنسية بحد ذاتها خطيئة، كما أنها نتيجة الانحلال الخلقى لدى الانسان ومثال عليه . ويعبر القديس جريجورى عن هذا المبدأ بقوله : "فى حين لايكون حب انجاب الذرية ، بل حب المتعة ، هو الذى يحكم عملية الاتصال الجنسى ، فإن الأزواج يرتكبون أمراً يجعلهم يبكون ويحزنون بسببه " ويستمر جريجورى فيقول إن "الدين المسيحى أباح لهم ذلك ، ولكنه حذرهم من أن يكون الاتصال الجنسى بقصد المتعة " . وتتمسك الأفكار العبرانية ، والبروتستانتية ، والعلمانية الحديثة ؛ بل وبعض الأفكار الكاثوليكية الراديكالية فى العصر الحديث ، بأن البشر بحكم طبيعتهم يجدون المتعة فى الحب الجنسى ؛ ولكن آباء الكنيسة كانوا يرون أن الطبيعة البشرية تصل إلى ذروة سموها بالتركيز على الناحية الروحية ، وإنكار الرغبات الجسدية ، أى بالإحجام عن الحب الجنسى .

ونتيجة لهذا ، تمسك آباء الكنيسة بأن الطهر والنقاء هما الحالة المثلى للرجال والنساء . ودعموا دعواهم هذه بالمناقشة اللاهوتية والنفسية - الأخلاقية على السواء . وبالنسبة للقارىء اليوم ، تبدو كتابات جيروم المطولة ، والتى لاتكاد تنتهى حول هذا الموضوع ، ضربا من المبالغة وربما تدل على أن كاتبها قد خرج عن حدود العقل . ولكننا يجب أن نتذكر أن أوغسطين وأمبروز ، وجريجورى ، كانوا رجالا مكتملين ، يتدفقون حيوية ، كما كانوا متمرسين بالخبرة فى دروب الحياة ، لقد قالوا بأن السيدة مريم أم المسيح كانت عذراء وأن الكنيسة هى عروس المسيح العذراء ، ومن هنا فإن الحالة المثلى هى الإحجام عن الاتصال الجنسى ، بل وحتى عن الزواج . ويخبرنا القديس أمبروز بأن أولئك الذين لايتزوجون "كالملائكة فى السماء" ولكن ثمة تحولا آخر ، لايرقى إلى مستوى النظرية فى مسألة العذرية ، نجده عند أمبروز الذى يقيم قضية مقنعة فى إحدى مواعظه ضد الزواج فى ضوء مايسببه من الآم ومتاعب لاسيما بالنسبة للمرأة. وهو يسهب فى الكلام عن عناء تربية الأطفال وتنشئتهم النشأة السليمة ، كما يشير إلى "الخدمات والمساعدة الواجبة على الزوجات تجاه أزواجهن " بما تتسم به من مهانة وعبودية ويختتم كلامه بتقرير بيانى عن كيفية إفساد الزوجات لأرواحهن بواسطة مستحضرات التجميل، والعطور والملابس والمجوهرات حتى يحتفظن بجاذبيتهن فى عيون الأزواج . ويسأل أمبروز أسقف ميلانو الدقيق الملاحظة " ما الذى يتبقى لها إذا كان قد تغير هذا القدر الكبير ؟ ولكن أمبروز من ناحية أخرى ، شغوف بأن يبين النعمة التى تحل " بالعذارى السعيدات" اللاتى "تمتلكن حقاً جمالكن الخاص المستمد من حسن الفضيلة . ولتنشدن الله وحده قاضياً للمحبة ، فهو الذى يحب ، حتى فى الأجساد الأقل جمالاً أرواحاً أكثر جمالاً" . ومن الغريب أن آباء

الكنيسة ، وهم يناقشون مسألة العذرية . كانوا يبدون وكأنهم يقصرون حديثهم عن هذه الحال المثلى على النساء فقط على الرغم من أنهم كانوا يقصدون العذرية كحال مثلى للذكور أيضا ، وقد شاع استخدام هذا المعيار المزدوج بالنسبة للمرأة والرجل لدرجة أن آباء الكنيسة أنفسهم لم يتمكنوا من التحرر من تأثيره حين كان يتعين عليهم أن يدلوا بآرائهم فى المسائل الجنسية .

ولاتزال آراء آباء الكنيسة عن الجنس محل جدل كبير حتى اليوم . ومهمة المؤرخ أن يتسائل عن كيفية وصولهم إلى المناداة بهذه الآراء . فمن المؤكد أنها ليست مستقاة من العهد القديم ، لأن الفكر العبرانى يقبل الجنس كجزء طبيعى فى الحياة ويحث على الزواج بشدة . وفى رأى كثير من العلماء البروتستانت أننا لايمكن أن نجد فى الانجيل تحقيرا للحب الجنسى والزواج الذى نادى به آباء الكنيسة . ومن الواضح أن هذه الآراء مستمدة من تعاليم القديس بولس الذى حث الشعب المسيحى على أن يتشبه به فى عزوبيته ، والذى أكد أن الزواج يكون أحسن "من أن تكون متوقداً" (بالرغبة أو بالخطيئة لسنا متأكدين على الرغم من أنه يبدو أن القديس بولس لم ير فرقا كبيرا بين الخطيئة والرغبة الجنسية الجامحة).

وليس ثمة اتفاق بين العلماء عن السبب الذى دفع بولس إلى هذا القول . ويمكن القول بأن آراءه عن الجنس ، كانت مثل مذهبه السياسى ، مجرد قواعد أخلاقية أخروية ، أى أنها كانت انطلاقا من الاعتقاد فى نهاية العالم الوشيكة . ويمكن القول أيضا : بأن القديس بولس كان شديد التأثر بالثنوية اليونانية عن الروح والجسد ، أو أنه ببساطة كان عُصابيا فى مسألة الجنس . على أية حال ، فإن آباء الكنيسة ترسموا خطاه فى المسائل الجنسية ، على نحو أدق مما فعلوا بمذهبه السياسى . ومع التسليم بميلهم إلى النظر إلى المسيحية من منطق الفلسفة الأفلاطونية الجديدة - أى اقتناعهم بأنه إذا كان الله روحا ، فعلى الانسان أن يصير روحانيا بقدر الإمكان - يبدو استمرارهم فى اعتناق نظرة بولس العدائية للزواج وتضخيمهم لهذه العداوة أمرا لايدعو إلى الدهشة .

ولكى نفهم سبب تحقير آباء الكنيسة للجنس ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ذلك الفارق بين بيئتهم الاجتماعية والفكرية ، وبيئتنا الاجتماعية والفكرية ، وعلى الرغم من تركيزنا الشديد على أمور الجنس فى الأدب الحديث ، وفى الأحاديث التى يلوكها الناس بقصد التسلية ؛ فإن المسائل الجنسية فى العالم الرومانى كانت أكثر فسقا وإباحية منها فى عالمنا. وفى مقابل الإباحية التى اتصف بها الرومان ، ارتبط مفهوم الجرمان عن العلاقات الجنسية بفكرة الانتهاك والعنف ، وكان لابد أن يثور آباء الكنيسة ، باعتبارهم رجالا متعلمين ومؤمنين ، على فهم المجتمع للأمور الجنسية ، وكان من الطبيعى تماما أن يتطرفوا فى الاتجاه المضاد ، وألا

يستطيعوا اكتشاف شيء جميل في عملية الجماع اللهم باعتبارها وسيلة ضرورية لإنجاب الأطفال . ومن الممكن طبعا أن ندلل بشكل مقنع على أن تعاليم آباء الكنيسة لم تكن متطرفة وخاطئة بل كانت تتسم بالحكمة كما كانت لها قيمتها الاجتماعية ، إذ أنهم كانوا يعرفون - وهو الأمر الذي ننساه غالبا في الوقت الحاضر - أن الدافع الجنسي أضعف كثيرا من دوافع انسانية أخرى مثل الجوع والعطش ، والخوف ، كما أنه أسهل في كبته والتسامي به من أي دافع إنساني آخر . وإذ كان الناس في العصور الوسطى لايفرطون في طعامهم وشرابهم الا نادرا ، كما أنهم لم يتحرروا من الخوف الا في أوقات نادرة طوال عدة قرون ؛ فلا شك أن أمورا أكثر أهمية من الجنس كانت تشغل تفكيرهم . لقد كانت تعاليم آباء الكنيسة تتناسب تماما مع ظروف مجتمع العصور الوسطى الباكره ، وليس معنى هذا أن غالبية رجال ونساء العصور الوسطى كانوا أطهارا ؛ ولكنه يعني بالتأكيد أن الرجال والنساء الذين قطعوا على أنفسهم عهود العفة والطهارة لم يواجهوا سوى القليل من المعاناة في سبيل كبت رغباتهم لانتهاك مثل هذه العهود ، فقد كان رهبان العصور الوسطى الباكرة يعانون في سبيل الحصول على كفايتهم من الطعام ، بقدر أكبر كثيرا مما كانوا يعانون في سبيل الحفاظ على عفتهم . بل أنه حتى بين رهبان العصور الوسطى العالية والمتأخرة الذين كانوا أيسر حالا ، كان الشره في الأكل ، وليس الإفراط في مضاجعة النساء ، هو الذي يعتبر خطيئة كبرى . وفضلا عن ذلك ، فإننا يمكن أن ندلل على أن آباء الكنيسة كانوا رجالا يفهمون النفس الانسانية فهما جيدا ، إذ يبدو أنهم عرفوا أن الكبت والتسامي بالغريزة الجنسية يزيدان من اهتمام الفرد وقدراته في نواحي أخرى من الحياة ، مثل النواحي الفكرية والدينية ، بل إنه حتى في مجتمعنا الحالي الذي يتمتع بوعي جنسي عال ، ثمة حقيقة معروفة تماما مؤداها أن الكثيرين من الرجال ممن يتميزون بالبراعة الفكرية ، والكفاءة الادارية لايجدون الوقت الكافي لممارسة الحياة الأسرية.

وفي استعراضنا لفكر آباء الكنيسة قد يثور سؤال أخير عما إذا كان هؤلاء قد التقطوا أيا من جوانب تعاليم يسوع المسيح التي تشكل في مضمونها انجيلا اجتماعيا . فمن أقوال المسيح عن الفقير الذي يرث الأرض وعن الصعوبة التي تجابه الغني في محاولته الدخول إلى ملكوت السماء كان من الممكن صياغة فكر ثوري ظل ساريا على مدى ألف عام ، وهو الفكر الذي قدر له أن يشكل تيارا رئيسيا في الفكر المسيحي من القرن الحادي عشر حتى القرن السابع عشر ، ثم ظهر مرة أخرى في العصر الحديث . الا أن ما يمكن أن نجده من تأثيره هذا الفكر في كتابات آباء الكنيسة لايشكل سوى تأثيرات قليلة للغاية . لقد كان آباء الكنيسة واقعين تحت تأثير المفهوم الروماني عن النظام والمبادىء الهيراركية (أي تدرج المراتب في النظام الكنسي) بحيث أنهم لم يتمكنوا من صياغة الانجيل الاجتماعي .

ومهما يكن من أمر ، فمن الممكن أن نجد فى مواعظ القديس أمبروز قدرا محدودا من النقد الاجتماعى ، والموقف العدائى تجاه الأغنياء . وحتى الآن لم يقم المؤرخون بالكشف عن الأصول الأولى للانجيل الاجتماعى فى العصور الوسطى ، وهو الانجيل الذى ظهر بين عمال الصناعة فى المدن الايطالية فى القرن الحادى عشر. وعندما يحدث هذا ، فقد يتحول نقد أمبروز الاجتماعى- على الرغم من أنه لايظهر بوضوح فى مؤلفاته - إلى مصدر هام من مصادر هذا الفكر الاجتماعى الثورى المسيحى الذى شهدته العصور الوسطى المتأخرة .

وأدب آباء الكنيسة عبارة عن خضم واسع من الآراء والمعلومات التى لم تبرز منها سوى تيارات رئيسية معينة ، ونظرا لأن مثقفى العصور الوسطى الباكرة كانوا من رجال الكنيسة ، ولأنه لم يظهر فى أوربا قبل القرن الثانى عشر كتاب يقتربون ، من حيث اطلاعهم الواسع وسلطانهم الفكرى ، من مستوى آباء الكنيسة اللاتين ، فاننا يجب أن نستنتج أن تاريخ الفكر الوسيط حتى سنة ١١٠٠ ، فى جزء كبير منه ، عبارة عن بحث المدلولات الضمنية فى آراء أوغسطين وأمبروز ، وجيروم ، وجريجورى ، واستخراجها ثم وضعها موضع التنفيذ العملى . بل إن تأثير آباء الكنيسة كان كبيرا جدا حتى فى أثناء العصور الوسطى العالية والعصور الوسطى المتأخرة . ففى منتصف القرن الثانى عشر يشير حنا السالزبورى Jiohn Of Salis-bury إلى علماء ومفكرى عصره باعتبارهم أقزاما يجلسون على أكتاف آباء الكنيسة العمالقة، ومن الممكن أن نقدم الدليل المقنع الذى يدعم هذا التفسير للتطورات التى مر بها الفكر فى العصور الوسطى .

ويبدو آباء الكنيسة بعيدين تمام البعد عن مشاكلنا وعن عالمنا الفكرى ، وهو ما يجعل الناشرين يحجمون عن نشر خطب آباء الكنيسة الدينية ، الا أننا إذا نظرنا نظرة متأملة فاحصة إلى هذا القدر الهائل من تراث آباء الكنيسة أمكننا أن نعثر فى ثناياه على أفكار لاتزال وثيقة الصلة بعالم اليوم ، سواء فى مجال الدين أو الفلسفة أو الاخلاق أو التاريخ أو السياسة أو الجنس . وسواء وافقنا على آراء الكنيسة أم لم نوافق عليها ، فانه ينبغى علينا أن نصل فى النهاية إلى أن آباء الكنيسة اللاتين - نظرا إلى سعة أطلاعهم وسلطانهم الفكرى ، وشجاعتهم فى تناول المشاكل التى كان يعانى منها المجتمع المتدهور ، والمشاكل المرتبطة بالحضارة الصاعدة الجديدة - يقفون على قدم المساواة مع عمالقة الفكر فى العالم الغربى .

# الجزء الثانى

# تحول الحكومة والمجتمع الأوربى

# من القرن الخامس حتى القرن الثامن

إن قلبى ليغص بالحزن والأسى وأنا
أروى قصة الحروب الأهلية التى مزقت
جنس الفرنجة وممتلكاتها شر ممزق

جريجورى التورى

"قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم
الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله
،ولايدينون دين الحق من الذين
أوتواالكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد
وهم صاغرون" .

القرآن الكريم

# الفصل الرابع

## عصر الغزوات الجرمانية [1]

### ١- الجرمان

يغطي التقسيم الكبير الثاني لتاريخ العصور الوسطى الفترة مابين القرن الخامس حتى أوائل القرن الثامن ، وهي فترة تتميز بالغزو الذي تعرضت له أوربا الغربية ، وعالم البحر المتوسط ، من قبل مختلف الأقوام الرحل والشعوب البدائية : وهي شعوب المغول ، والجرمان[2] وتمثل تأثير ذلك في قرون ثلاثة تردت فيها الأوضاع ، وسادت الفوضى الشاملة ، وهو ماظهرت نتيجته في تحول الحكومة الأوربية والمجتمع الأوربي . وكانت أخطر الغزوات هي غزوات الشعوب الجرمانية وتوغلها في داخل العالم الروماني - فيما عرف باسم الغزوات البربرية - ذلك أن الجرمان قد استقروا في أوربا الغربية وحددوا مصيرها ، وهو مالم يفعله الغزاة المغول والعرب في معظم الأحيان .

---

(١) جعل كانتور هذا الفصل بعنوان The aga of the Barbarian invasions أي عصر الغزوات البربرية، وهو يقصد بذلك عصر غزوات الجرمان وغيرهم من شعوب الهون واللان ، ونظراً إلى أن غزوات الجرمان كانت هي الغزوات الرئيسية التي أدت إلى سقوط الامبراطورية في الغرب فقد رأينا أن نترجم هذا العنوان إلى اللغة العربية بعصر الغزوات الجرمانية . (المترجم)

(٢) ضم المؤلف العرب إلى هذه الشعوب التي أسماها بالشعوب البدائية ، والواقع أن إلحاق العرب بالجرمان والمغول في هذا المجال يعتبر مجافاة للحقيقة وتعسفاً غير محمود من كانتور ، فالحقيقة أن حركة الفتوح الاسلامية تختلف اختلافاً جذرياً عن الغزوات التي قام بها الجرمان ، أو الهون أو اللان سواء من حيث دوافعها أو من حيث نتائجها الحضارية . فقد خرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية تحت راية الجهاد الاسلامي ليبسطوا سلطانهم السياسي على مساحة شاسعة من العالم المعروف آنئاك ، بيد أن المسلمين لم يتعرضوا لأرواح أهل الأمصار أو حرياتهم أو معتقداتهم ، وسرعان ماتفاعلت هذه الحضارة العربية مع المفاهيم التي جاء بها الاسلام لتخرج لنا الحضارة الاسلامية التي كانت ثمرة رائعة لحركة الفتوح الاسلامية . أما الشعوب الرعوية الآسيوية مثل الهون واللان والشعوب الجرمانية ، فقد قامت بغزواتها بحثاً عن موطن أفضل ييسر لها سبل الحياة والحصول على الغذاء وبينما لم يخلف الهون مثلاً ، سوى ذكريات الدمار والفظائع التي ارتكبوها ، لم يبق من الممالك الجرمانية التي قامت في غرب أوربا وشمال أفريقيا سوى مملكة الفرنجة وكان على أوربا أن تنتظر طويلا حتى يبدأ أولئك في الأخذ بأسباب الحضارة والرقي ، وهنا كان الفضل للمؤثرات العربية الاسلامية التي دخلت الى الكيان الاووربي عبر أسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا ، ومن خلال الحروب الصليبية.

(المترجم)

أخـذ الرومـان كلمـة بربرى Barbarian عن اليـونانيين الذين اسـتـخدمـوها للدلالة على الأجنبى؛ أى بالتحديد ، للدلالة على من هو أدنى فى مستـواه الحضارى من الرجل اليونانى ، أما الرومان فقد استخدموا كلمة "بربرى" بمدلول الازدراء والتحقير للدلالة على الشعوب التى وفدت لتعيش على حدود الراين والدانوب ، كما أطلق الرومان على هذه الشعوب هذه جميعا اسم الجرمان Germani وهو الاسم الذى كانت تعرف به فى الواقع قبيلة واحدة فقط من القبائل القاطنة فيما وراء الحدود الرومانية ؛ إذ كانت هناك قبيلة أخرى تسمى الألمانى Allemani ، وهى الكلمة التى صارت فيما بعد أساسا للمصطلحات الفرنسية والأسبانية الدالة على الألمان، أما الجرمان فكانوا يطلقون على أنفسهم الكلمة التى صارت أساسا لكلمتى دويتش Deutsch وتيوتون Teuton الحديثتين ، وهى كلمة Theut (تيوت ومعناها "الشعب") .

فمن هم الجرمان ؟ من أين وفدوا ولماذا ؟ وماهى نظمهم الاجتماعية والسياسية ؟ هذه الأسئلة شغلت عقول الكثيرين من المؤرخين ، كما كانت مراحا لنشاطهم وخيالهم ، لاسيما فى ألمانيا حيث كانت من الطبيعى أن يشجعهم الشعور القومى على دراسة هجرات الشعوب Voelkerwanderungen وأيا كان الأمر فإن المصادر الأدبية ضئيلة القيمة إلى حد بعيد ، وكل معلوماتنا عن الجرمان قبل القرن الأول قبل ميلاد المسيح مستمدة من البحوث الأثرية . فقد كشفت هذه الدراسات الأثرية من أن الغزاة الجرمان الذين اقتحموا الامبراطورية الرومانية قد وفدوا فى الأصل من سكنديناوة ، ومن ثم فإن الفايكنج Vikings الذى ظهروا فى فترة لاحقة ، وهاجروا من مواطنهم فى القرن التاسع إلى أوربا وغزوها ، كانوا من الشعوب نفسها التى عرفها الرومان باسم الجرمان من حيث أصلهم العرقى ، وحوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد بدأ الجرمان يتحركون من مواطنهم الأصلية فى الدانمرك وجنوب النرويج والسويد الحالية صوب الجنوب . وحوالى سنة ١٠٠ قبل الميلاد وصلوا فى انتشارهم صوب الجنوب إلى نهر الراين . وفى وقت لاحق - ربما فى القرن الأول الميلادى - هاجروا إلى حوض نهر الدانوب.

وإذ بدأ الجرمان يضغطون عبر نهر الراين ، كان من اليسير عليهم أن يدفعوا أمامهم بالشعوب الكلتية Celts ، فقد كان الكلت شعباً مسالماً يشتغل الزراعة وكان لهم ولع شديد بالشعر والغناء ، ولولا ظهور يوليوس قيصر والفرق الرومانية على مسرح الأحداث فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد لتمكن الجرمان من هزيمة الغال Gaul ، مثلما فعلوا فيما بعد حين فتحوا بريطانيا ودفعوا بالكلت إلى جبال ويلز . وقد تمكن يوليوس قيصر ، بعد قتال مرير أن يدفع بالجرمان إلى ماوراء نهر الراين مرة أخرى واستعمر الرومان النصف الجنوبى فى بلاد الغال

هجرات الشعوب

(يوضح طرق الهجرات الجرمانية)

استعماراً كلياً ، وفى منتصف القرن الثالث عبر الجرمان نهر الراين لفترة مؤقتة ، وهى الفترة التى سبقت انهيار الامبراطورية مباشرة ، إلا أن استحكامات الحدود على جبهة الراين سرعان مابنيت من جديد . وحتى حدوث الانهيار النهائى لتحصينات حدود الراين سنة ٣٠٦ ، لم يعبر النهر الكبير إلى جوف الامبراطورية سوى القبائل الجرمانية التى أصبحت معاهدة فى الجيش الامبراطورى .

وما أن حل القرن الثانى بعد الميلاد حتى كان الجرمان قد استقروا فى حوض الدانوب بأعداد كبيرة ، وأخذ هؤلاء يضغطون على الحدود الامبراطورية فى هذا الاقليم . وكان الجرمان على طول امتداد نهر الدانوب خاضعين لقسمين كبيرين للأمة القوطية : الفيزيقوط (الحكماء) Vis-igoth الأوستروقوط Ostrogoth (الساطعون) ، وقد عاش القوط الغربيون بالقرب من الحدود الرومانية . وفى القرن الثالث الميلادى اخترق الجرمان جبهة الدانوب لفترة مؤقتة أيضاً ، ولكن القوط اضطروا للتراجع إلى ماوراء النهر مرة أخرى قبل أن ينتهى القرن ، ولم يسمح الرومان لأى من قسمى القوط بعبور الدانوب مرة أخرى قبل سنة ٣٧٦ .

وليس هناك دليل إيجابى عن أسباب هجرات الشعوب Voelkerwanderungen، وكل مانستطيعه هو أن نخمن الأسباب مسبقاً ، لقد ترك الجرمان سكنديناوة بسبب نقص الأقوات الناتج عن تزايد عدد السكان من ناحية ، وبسبب الحروب المستمرة بين القبائل والتى كان المهزومون فيها يطردون من مواطنهم لكى يبحثوا لأنفسهم عن موطن جديد فى الجنوب من ناحية أخرى . وحين اقترب الجرمان من حدود الامبراطورية ، اتصلوا بعالم الثروة ، والتقدم التكنولوجى ، ومناخ البحر المتوسط البديع ، لقد كان هدفهم أن يدخلوا إلى رحاب الامبراطورية لا أن يدمروها ، وذلك لكى يشاطروا سكانها مستواهم المعيشى المرتفع .

وقد أثارت طبيعة النظم السياسية والقانونية والاجتماعية الباكرة لدى الجرمان اهتماماً كبيراً بين المؤرخين ، ونشرت حول هذا الموضوع مجلدات عديدة ، وهذا الاهتمام الكبير بالموضوع لايعود إلى الدافع الوطنى فحسب ، ولكنه راجع أيضاً إلى أن كثيراً من النظم التى ظهرت فى أوربا فى فترة لاحقة ، تبدو وكأنها قد تطورت من خلال الأساليب الجرمانية الباكرة، أو ترتبط بها على نحو ما . وفى القرن التاسع عشر بالذات كرس العلماء جهداً ضخماً لدراسة النظم الجرمانية الباكرة ؛ إذ أنهم كانوا متفقين على الرأى القائل بعضوية التطور السياسى والقانونى ، وهو مايعنى أن النظام السياسى أو النظام القانونى الذى بلغ قمة تطوره ، كانت بذرته هى الشكل البدائى المتمثل فى نظام الجرمان .

والواقع أن مصادر الفترة الباكرة من تاريخ الجرمان ضئيلة . ويعتبر كتاب تاكيتوس Tacitus المسمى Germania ، الذى كتب سنة ٩٨ ميلادية ، أفضل وأقيم وصف كتبه مؤرخ قديم لأنماط الحياة عند الجرمان ، وهو يقع فى حوالى خمسين صفحة بالطباعة الحديثة ، ولم يزر تاكيتوس مناطق الحدود الجرمانية على الاطلاق ، إلا أنه كان يستطيع أن يجمع معلوماته من أحاديث الجنود الرومان العائدين من الجبهة ، كما كان بوسعه أن يطلع على الوثائق الحكومية وأن يطرح أسئلته على موظفى الحكومة باعتباره رجلاً أرستقراطياً ذا نفوذ ، ولسوء الحظ أن غرضه من كتابة مؤلفه Germania لم يكن يقصد النشر المحايد للمعلومات ، بل إنه أراد أن يصور لقرائه مدى التناقض بين الجرمان البسطاء الذين لم تفسدهم المدينة ، بنشاطهم وفضائلهم ، والرومان المراوغين المخنثين بانحلالهم الأخلاقى ، وقد يؤخذ تصويره المثالى لسيدة البيت hausfrau الجرمانية الفاضلة بتحفظ ، بيد أن هناك من المعلومات والتفاصيل الكثيرة عن ظروف وأحوال النظم السياسية والقانونية الجرمانية فى كتاب Germania ، مايجعل كتاب تاكيتوس هذا ذا أهمية فائقة بالنسبة للمؤرخ .

وتتألف المجموعة الثانية من مصادر تاريخ الجرمان من الشعر الشعبى الجرمانى . ومن سوء الحظ أن القصيدة الوحيدة الباقية من هذه المجموعة هى قصيدة بيوفولف Beowolf الأنجلو - سكسونية التى وصلتنا فى شكل قريب من القصيدة الأصلية ، بحيث يمكن أن تستخدم كمصدر تاريخى . كما أن ملحمة نيبيلونج Nibelungenlied الكبيرة ، التى كانت مصدر إلهام الأوبرات التى ألفها فاجنر Wagner لم تصلنا سوى فى نص يرجع إلى القرن الثالث عشر ، وهو نص مثقل بأفكار الفروسية التى لاتتوافق مع المفاهيم التى كانت سائدة فى الوقت الذى ظهرت فيه أنشودة نيبيلونج . أما ملحمة البيوفولف فقد دونها أحد رجال الدين فى أواخر القرن الثامن ، ويبدو التأثير المسيحى فيها سطحيا ؛ إذ أن القصيدة تكشف تماما عن مثل وأخلاقيات الفئة العليا فى المجتمع الجرمانى ، ومن الممكن تدعيم الصورة التى ترسمها ملحمة البيوفولف للمجتمع الجرمانى من خلال مقارنة هذه الصورة بالصورة التى ترسمها الحكايات النثرية والشعرية Sagas الايسلندية للمثل والأخلاقيات السائدة فى المجتمع الاسكندناوى . فبينما تصور هذه الحكايات المجتمع الأيسلندى فى العصور الوسطى العالية ، فإنها تكشف أيضاً عن مجتمع يمر بمرحلة مشابهة من مراحل تطوره، وهى المرحلة نفسها التى يمكن أن نضع أيدينا عليها أيضا فى الشعر الهرمرى [٣]. وهذه المرحلة أقرب

---

(٣) نسبة إلى هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا .

ماتكون إلى مايسميه العالم الانجليزى شادويك H.C. Chadwcik "بالعصر البطولى" Heroic age وباستثناء كتاب شادويك الرائد الذى ظهر منذ نصف قرن مضى ، فإن العلماء لم يبذلوا حتى الآن سوى القليل من الجهد فى سبيل القاء الضوء على الحياة الجرمانية الباكرة، من خلال استخدام هذا المنهج المقارن فى دراسة النظم الاجتماعية .

أما المجموعة الثالثة من مصادر تاريخ الجرمان الباكر ، فتتمثل فى المجموعة التى تعرف باسم مجموعة القوانين الجرمانية : والواقع أنها ليست مجموعات قانونية على الاطلاق ، وإنما هى تقارير مكتوبة قصد بها توضيح الشطر الأكبر من القانون الجرمانى الذى ظل شفويا وعرفيا ، وعلى الرغم من تحديدها الصارم ، فإن هذه القوانين الجرمانية ، مثل قوانين البرجنديين والفرنجة (القانون السالى) وقوانين الأنجلو سكسون (الأحكام the dooms )تحمل قيمة فائقة بسبب ماتحويه من معلومات عن الحياة السياسية والقانونية .

وأخيراً ، فإن الدليل الأثرى قد ساهم فى محاولة المؤرخين لاعادة تصوير الحياة الجرمانية الباكرة ، إذأن علم الآثار يمكنه أن يقتفى أثر هجرة أى شعب من الشعوب الجرمانية ، كما يستطيع أن يزيح النقاب تماماً عن المستوى التكنولوجى والحضارى لهذا الشعب . ويجب ، من ناحية أخرى ، أن نعترف بأن نتائج الأبحاث الأثرية التى تهتم بتاريخ العصور الوسطى تستعصى على التفسير فى أغلب الأحوال ، ويرجع السبب فى هذا إلى أن عالم الآثار المتخصص فى العصور الوسطى - على عكس من ينقب بحفائره فى أطلال الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد النهرين - مقيد فى بحوثه الأثرية بحقيقة أن مواقع الضياع والمدن والطرق التى كانت مستخدمة فى العصور الوسطى لاتزال مستخدمة حالياً فى معظم الأحوال، ولذا فإنه لايستطيع القيام بحفائر منتظمة فى هذه البقاع .

وفى السنوات الأربعين الأخيرة ، تغيرت صورة الجرمان الأوائل عدة مرات : إذ كان من الشائع فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن التأكيد على أوجه التشابه بين الحياة الجرمانية والحياة الرومانية ، وعلى استمرارية النظم الجرمانية خلال القرنين الخامس والسادس مما يؤدى إلى اعتبار أن الغزوات الجرمانية لم تكن ذات تأثير يذكر على الحكومة والمجتمع الأوربيين . وكان العالم النمساوى الفونسى دوبش Alfons Dopsch يتزعم هذا الرأى هو والمؤرخ البلجيكى هنرى بيرين Henri Pierenre ، وقد توصل دوبش فى كتابة الضخم "الأسس الاقتصادية والاجتماعية للحضارية الغربية" إلى أنه كان هناك فرق ضئيل للغاية فى المستوى الحضارى والاقتصادى عند كل من الجرمان وسكان العالم الرومانى . وقد بنى دوبش استنتاجه

هذا اعتمادا على دليل أثرى مبهم وقراءات خاطئة تماماً لنصوص المصادر ، فضلاً عن تفسيره الخاص لهذه المصادر . وعلى نفس المنوال يجادل بيرين بأن الغزوات الجرمانية لم تحدث أى صدع خطير فى التطور الاقتصادى والاجتماعى لأوربا الغربية ، فهو ينسب هذه النوازل إلى التوسع الإسلامى الذى حدث فى القرن الثامن وليس إلى الغزوات الجرمانية .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، فقد التفسير الذى قال به دوبش وبيرين لحياة الجرمان الأوائل فعاليته ، وأصبح غير ذى موضوع بفضل جهود العلماء الفرنسيين وعدنا مرة أخرى إلى الأخذ بوجهة النظر القديمة القائلة بأنه كانت للغزوات الجرمانية آثارها المدمرة . وقدم لنا سالن E.Salin دليلاً أثرياً يتعارض مع المادة التى رتبها دوبش واعتمد عليها فى بحوثه ، كما ناقش كورسيل Corcelle فى كتابه الفذ "التاريخ الأدبى للغزوات الجرمانية " مسألة ضرورة الأخذ بآراء المعاصرين حول مغزى الغزوات والتصرفات الجرمانية ، كما أنه كتب أحسن مؤلف تاريخى عام عن هجرات الجرمان ، ومواطن استقرارهم .

ومن خلال الأدلة الأثرية ، والكتابات المحدودة التى توفرت لدينا عن تطور المجتمع الجرمانى فى الفترة التى تبدأ باستقرار الجرمان على طول حدود جبهة الراين والدانوب ، وتنتهى بتأسيس الممالك الجرمانية فى أوربا الغربية - ولنقل أنها الفترة مابين سنة ١٠٠ قبل الميلاد وسنة ٥٠٠ بعد الميلاد - تبرز حقيقتان أساسيتان يجب أن نتحقق منهما إذا كنا نريد أن نفهم المجتمع الجرمانى فى عصر الغزوات على نحو سليم ، وأولى هاتين الحقيقتين هى أن درجة تأثر الشعوب الجرمانية عبر نهر الدانوب بالحضارة الرومانية قد اختلفت من قبيلة لأخرى. إذ وصلت بعض القبائل الجرمانية إلى مرحلة حضارية تقترب من مستوى سكان العالم الرومانى فى مناطق الحدود . وقد كرست هذه القبائل نفسها للزراعة ، كما تبادلت التجارة على نطاق واسع مع التجار الرومان ، واعتنقت هذه القبائل الجرمانية الدين المسيحى على المذهب الآريوسى على أيدى البعثات التبشرية الآريوسية فى القرن الرابع. ولم يكن مثل أولئك الجرمان يرغبون فى شىء سوى الدخول فى رحاب الامبراطورية كمعاهدين لكى يشاركوا عالم البحر المتوسط حياته ، وقد كانوا يحترمون السلطة الرومانية إلى حد كبير ، ولم تكن لديهم أية نوايا لإلحاق الأذى بها. وقد وصل القوط الذى عاشوا فى حوض الدانوب إلى هذا المستوى الحضارى لأنهم كانوا على اتصال بأغنى أجزاء الامبراطورية، وأكثرها ازدحاما بالسكان .

ومن ناحية أخرى ، فإنه يبدو واضحاً أن الشعوب الجرمانية الأخرى قد تأثرت قليلا بنمط الحياة الرومانية ، وظلت على بداوتها وجهلها كما كان أبناء هذه الشعوب برابرة بكل معانى الكلمة . والسبب فى هذا غير واضح . وعلى أية حال فإنه يبدو أن الجرمان فى هذه الحالة ظلوا على اتصال وثيق بموطنهم الاسكندناوى الذى كان أقرب إليهم من الامبراطورية الرومانية بطبيعة الحال ، وهنا أيضا كانت النسبة الكبرى من الشعوب الجرمانية أكثر ابتعاداً عن الامبراطورية وبالتالى أقل تأثرا بالاحتكاك الحضارى بها . وهكذا كان الفرنجة Franks أكثر عنفا وأقل تحضراً من بعض الغزاة الأوائل من أمثال البرجنديين Burgundians ، كما أن الأنجلو – سكسون Anglo - saxons الذين وفدوا مباشرة من منطقة بحر الشمال لم يتأثروا بالنمط الحضارى الرومانى .

وهكذا ، فان التعميم فيما يتعلق بالشعوب الجرمانية ليس أمرا سهلا ، إذ كانت بعض هذه الشعوب تتمتع بمستوى ثقافى واجتماعى يضارع مستوى فلاحى الامبراطورية ، على حين كان البعض الآخر على بدائيتهم بالفعل ، على الرغم من محاولة بعض المؤرخين الألمان المحدثين لتصويرهم كقوم متحضرين .

أما الحقيقة الأساسية الثانية ، التى تساعدنا على فهم المجتمع الجرمانى على نحو سليم ، والتى يجب أن تستقر فى الأذهان حول الجرمان الذين عاشوا أثناء فترة الغزوات الكبيرة ، فهى أن نظمهم السياسية والاجتماعية لم تبق على جمودها وثباتها طوال الفترة مابين سنة ١٠٠ قبل الميلاد حتى سنة ٥٠٠ ميلادية ، ولكنها تعرضت لتغيرات عميقة ، فقد كان المجتمع الجرمانى – شأن الكثير من الشعوب البدائية – يقوم فى تنظيمه فى البداية على أساس روابط الدم والعائلة والنسب . وبينما ظلت هذه الروابط مصونة إلى حد كبير حتى فترة الغزوات وأثناءها (كما يتضح من خلال طلب الثأر فى القضايا الجنائية) ، كان هناك شكل آخر من أشكال التنظيم الاجتماعى يفرض نفسه رويداً رويداً إلى أن صار هو الصيغة الاجتماعية المركزية إبان مرحلة الغزوات (٤٠٠ – ٦٠٠) ، ففى هذه الفترة ضعفت روابط الدم والنسب ، وتجلى ذلك واضحا فى تلك المنازعات التى كانت تنشب بين الاقارب ، وتحولت علاقة القربى السابقة على علاقة بين السيد والرجل Lord and man اللذين لم تكن هناك أية ضرورة لوجود أية رابطة قربى بينهما ، فقد كانت الرابطة الضرورية هى رابطة الولاء فقط . وهكذا شهدت هذه الفترة تدهورا فى قيمة وأهمية روابط الدم والنسب ، وتزايداً كبيراً فى الاعتماد على رابطة الولاء والطاعة .

وقد واكب هذا التغير فى التنظيم الاجتماعى تغير آخر فى التنظيم السياسى ، بل إنه ساعد على حدوثه ، وهو التغير الذى تمثل فى ظهور نمط من الملكية غير المسئولة لاتعتمد

على الشعب ، وإنما تعتمد على الهيبة العسكرية وكان الجند يبذلون طاعتهم للقائد العسكرى الذى يمكنهم من الحصول على الغنائم والأسلاب ، إلا أن هؤلاء الأتباع لم تكن تجمعهم مع "مليكهم" رابطة الدم نفسها ، كما لم يكونوا ينتمون إلى الشعب الذى ينتمى إليه مليكهم .

وهكذا كان هناك تحول سياسى واجتماعى كبير يجرى داخل المجتمع الجرمانى نفسه إبان فترة الغزوات الجرمانية ، وهو الأمر الذى كان فى جانب منه من نتائج ظروف الشعب المتحرك فى سبيل الغزو . وقد تحرر كثيرون من المقاتلين الأشداء من الالتزامات القبلية التى تتحكم عادة فى مجتمعات الشعوب البدائية . فضلا عن أن الأمراء الذين ظهروا بين الجرمان خلال تلك الفترة كانوا يتحررون إلى حد كبير من الالتزام بأية سلطة عامة لصالح قبيلتهم أو عشيرتهم ، وطالما كان بوسعهم أن يوفروا لجنودهم الطعام والمال ، كان أولئك المحاربون يبذلون لهم الطاعة والاخلاص ، ولم يكن للملك ، أو لعصبة المحاربين ، أية التزامات اجتماعية أو سياسية تجاه الشعب ككل . وسوف نرى هذا الموقف يتكرر عدة مرات بين الجرمان خلال مرحلة الغزوات الجرمانية ، ومن هذا السياق الاجتماعى والسياسى انبثقت المملكة الفرنجية فى القرن السادس .

ويمكن القول بأن النظام السياسى الأساسى لدى الجرمان ، كان هو نظام الأتباع أو الكوميتاتوس comitatus باللاتينية ، أو الجيفولجى Gefolge بالألمانية ، وهذا النظام الذى كان سائداً عند الجرمان قرب نهاية القرن الرابع كان يتألف من الرئيس أو الملك ، ومجلس الحرب الذى يدين له بالولاء ويقدم له الخدمات لقاء الحماية والعطايا التى يقدمها الملك أو الرئيس ، وكان باستطاعة الرئيس الذى يحكم مدة طويلة ، أو يتمكن من إحراز نصر عسكرى كبير ، أن يؤسس أسرة ملكية حاكمة ، وتزعم الأسرة أنها تنحدر من صلب فودين Wo-den[٤] ويتخذ أفرادها مظهراً مقدسا ، ويعتبرون العرش الملكى من أملاكهم الخاصة . بيد أن تولى عرش المملكة لم يتم بالوراثة المنحصرة فى الذرية لأن هذه الفكرة لم يعرفها الجرمان فى تاريخهم الباكر ، ولكن ولاية العرش كانت تتوقف على إعلان مجلس الحرب الولاء أو رفضه

---

(٤) الاله فودين Woden أو فودان Wodan هو كبير آلهة الجرمان ، وهو الذى أشار اليه تاكيتوس فى كتابه عن الجرمان تحت اسم ميركورى Mercury وقد حفظ اسم الاله فودان فى اسم يوم الأربعاء Wedenesday فى اللغة الانجليزية انظر :

Tacitus, Germania (translated By H. Mattingly, Penguin 1979), pp. 108 - 108, p. 155

(المترجم)

لذلك . فعند موت الملك كان زعماء الشعب الجرمانى يجتمعون لكى يختاروا أحق أفراد العائلة الملكية بالعرش ، وهو أحسن المحاربين بينهم . وبينما ظهر نظام وراثى محدود للغاية فى ولاية العرش فى الممالك الجرمانية الجديدة التى ظهرت فى القرنين الخامس والسادس ، ظل حق الشعب فى انتخاب الملك من التقاليد الراسخة فى الحياة السياسية فى العصور الوسطى على مدى عدة قرون ، لاسيما فى المناطق التى بقيت فيها النظم الجرمانية الأصلية على فعاليتها . وكان مبدأ انتخاب زعماء الجماعة للملك ساريا فى انجلترا أثناء ارتقاء الملك ألفرد Alfred الشهير للعرش الانجليزى ، كما أن الملك حنا John الذى ارتقى العرش سنة ١١٩٩ يدين بعرشه للمبدأ الانتخابى ، وقد كان المبدأ الانتخابى الجرمانى من عوامل الاضطراب الذى أعاق استمرار الأسرات الحاكمة فى الامبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى . والواقع أن هذا المبدأ الانتخابى الجرمانى ظل باقياً حتى القرن التاسع عشر ، ويرجع الفضل – جزئيا على الأقل – فى دوام هذا الشكل من النظم الجرمانية الباكرة إلى تأييد الكنيسة له ، لأنها اتخذت من مبدأ الجدارة بالعرش ذريعة للاعتراض على من يتولى العرش ممن لاترضى عنهم.

لقد كان الكوميتاتوس Comitatus بمثابة نواة ضعيفة للدولة فى العصور الوسطى ، والحقيقة أنه يمكن القول بأنه لم يكن لدى الجرمان أى مفهوم عن الدولة ، أو أية فكرة عن السلطة العامة ، أو أى مفهوم للولاء والطاعة غير مفهوم ولاء الفرد لرئيسه أو قائده . ويمكن القول ، بشىء من المبالغة ، أن النظرية السياسية الجرمانية لم تكن ترتفع فى مستواها عن مفاهيم عصابات البلطجية فى الشوارع فى العصر الحديث ، ذلك أن المسافة مابين الفكرة الرومانية العقلانية عن السلطة العامة والمنصب العام وعن الولاء للامبراطور الذى يمثل الدولة، بغض النظر عن شخصه ، وبين هذه الفكرة الجرمانية ، كانت مسافة شاسعة ، كما أن مستوى التفكير السياسى كان ضمحلا للغاية . ولكى نفهم تاريخ العصور الوسطى الباكرة الحافل بالكوارث ينبغى علينا أن نتذكر أنه قد تعين على الدولة فى العصور الوسطى أن تتطور انطلاقا من هذا المستوى الفج ، فقد كان البنيان السياسى فى العصور الوسطى الباكرة يتعرض باستمرار للتحديات بسبب عدم قدرة الجرمان على الاقتناع بمبدأ الولاء العام وفصله عن الولاء الشخصى ، ومن ثم لايثير دهشتنا أن الدولة فى العصور الوسطى لم تبدأ فى التكوين والتبلور حتى القرنين الثامن والتاسع ، كما أنها لم تدخل أول عصور عظمتها سوى فى منتصف القرن السابع عشر . بل إن ذلك النجاح الجزئى ، والمتأخر زمنيا ، الذى أحرزته الدولة ، لم يكن ممكنا إلا بإضافة المفاهيم الكنسية عن السلطة والولاء إلى التراث السياسى البدائى عند الجرمان .

أما المفاهيم القانونية الجرمانية الأصلية ، فكانت متقدمة قليلا عن رؤيتهم السياسية ، فلم يكن الغرض من ساحات القضاء الجرمانية ، ومن شكل الاجراءات التى تتم فى رحابها ، إقامة العدالة التى لم يكن لدى الجرمان أية وسيلة لتحديدها أو مجرد تعريفها ، ولكن الغرض ببساطة كان وقف الاقتتال. فقد كان هدف الاجراءات القانونية الجرمانية أن تمنع الثأر، وايجاد البديل عنه للعائلة التى تطلب ثأرها ، أو للأقرباء المفجوعين فى مصابهم ، وكانت هناك عدة سبل متنوعة لتحقيق ذلك . فقد كان الغرض من ساحات المحاكم أن تضع بدائل الثأر هذه موضع التنفيذ ، وكانت الدية التى عرفوها باسم فيرجيلد Wergeldهى أول هذه البدائل ، وهى دية نقدية تدفع لأسرة القتيل ، أو مبلغ أقل يدفع للشخص الذى أصيب بعاهة، وتتكون المجموعة المسماة "مجموعة القوانين الجرمانية" فى معظمها من قوائم الدية التى توضح مايجب دفعه تعويضا عن مقتل أحد النبلاء ، ومقدار دية الرجل الحر ، أو القن ، كما تبين مقدار التعويض الذى يدفع فى مقابل الذراع أو العين أو غيرها من أعضاء الجسد . وكانت الدية التى يطلبها المدعى باهظة للغاية ، بل انه فى حالة دفعها لم يكن هناك مايجبر أقارب القتيل ، أو الشخص المصاب على قبولها ، وربما يفضلون أن يشفوا غليلهم بالانتقام ، وكان من واجب المحكمة أن تقنع المدعى بأخذ الدية وبالتالى تستبعد احتمال عمليات الثأر ، وعلى الرغم من هذا ، فإن حوادث الثأر كثيرا ما كانت تقع فى المجتمع الجرمانى الأول ، ولدينا معلومات عن حالة ثأر حدثت فى انجلترا سنة ١٠٦٠ قضت على عائلات بأسرها . وإن نظرة على السجلات القانونية التى ترجع إلى أوائل العصور الوسطى لتكشف عن أن الحياة آنذاك كانت كريهة وحشية وقصيرة ، فقد كان المجتمع عنيفا يعج بمشاجرات السكارى التى تنتهى بالقتل ، وما ينتج عن ذلك بالضرورة من احتمال نشوب عمليات الثأر المتواصلة .

وفى العصور الوسطى الباكرة لم يكن الناس يعتبرون أن المشاجرة التى تفضى إلى الموت تمثل جريمة قتل ، ذلك أن مقتل رجل ما فى شجار عادل كان يحتم أداء ديته إلى ذوى قرباه بيد أن ذلك لم يكن يعد جريمة قتل . فقد كانت جريمة القتل تعنى أن يقتل الرجل غدرا ، فالجريمة فى رأيهم عملية لايعرف الجانى فيها على وجه التحديد ، وكان مثل هذا الموقف يسبب ضغطا شديدا على محاكم الجرمان : وذلك أنه إذا لم تكن المحكمة تستطيع أن تحدد هوية القاتل ، فإن أقارب القتيل كانوا يبادرون إلى أخذ العدالة بين أيديهم وينتقمون ممن تحوم حوله شكوكهم ، ومن ثم كان من الضرورى أن تعقد محاكمة لكى تثبت براءة المتهم أو إدانته. ولكن المحاكم الجرمانية لم تكن تعرف وسائل التحقيق التى حددها القانون الرومانى ، وهى الوسائل التى كانت تأخذ شكل التحقيق والاستجواب الشامل بواسطة هيئة من القضاة ، كما

أنها كانت تجهل نظام المحلفين فى القانون العام الذى عرف فيما بعد ، ولم يكن رؤساء المحاكم الجرمانية يعرفون كيف يقيمون الدليل حتى إذا قدم إليهم ، وهكذا لم يكن أمامهم سوى وسيلتين للإثبات هما : المحاكمة بواسطة وسائل قاسية تختارها القبيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أو مذنبا وهى المحنة ، وهى التى يعتبر الحكم فيها حكما إلهيا ، أما الوسيلة الثانية للاثبات فكانت التبرئة بالايمان التى يقسم بها المتهم على براءته .

وفي الاثبات عن طريق المحنة كان الخصوم يلقون بثقلهم على المدعى عليه ، ففى المحاكمة بوسيلة الحديد المحمى كان يفرض على المتهم أن يمسك بقطعة من المعدن الملتهب ثم تضمد يده فإذا شفيت الحروق بعد أيام ثلاثة ثبتت براءته وإلا كان مذنبا ، وفى محاكمة قبلية أخرى كان يفرض على المتهم أن يضع يده فى وعاء يغلى ، ويرفع حجرا من قاع الوعاء ، ثم تضمد ذراعه وتفحص بعد ثلاثة أيام لتقرر ما إذا كان مذنبا أو بريئا. وكانت المحاكمة عن طريق المياه الباردة هى الوسيلة المفضلة فى انجلترا حيث يوجد عدد كبير من الأنهار والبحيرات فكان يلقى بالمتهم فى الماء وهو مقيد اليدين والقدمين ، فاذا غاص كان بريئا ، وإذا طفا على سطح الماء يكون مذنبا على أساس أنهم يعتبرون الماء عنصرا مقدسا يرفض قبول الشخص المذنب . وفى الفترة الإقطاعية استحدثت محاكمة أخرى جديدة ، هى المحاكمة عن طريق النزال بين المدعى والمدعى عليه أو من ينوب عنهما ، ولأن البراءة أو الإدانة كانت تتقرر وفقا لقوة الخصم ، فإن المحاكمة عن طريق النزال لم تقدم الحل الكافى لمسألة العدل المقدس ، فقد كان بوسع الرجل الثرى أن يستأجر أضخم الرجال فى البلاد ، وبذلك يستطع أن يتخلص من أعدائه بتلفيق التهم لهم . وهكذا خضعت المحاكمة عن طريق النزال للقيود الشديدة التى فرضتها الملكيات القوية فى القرن الثانى عشر ، وذلك على الرغم من أن وسيلة الاثبات هذه ظل معمولا بها فى انجلترا حتى سنة ١٨٦٩ . وإذ كانت المحاكمات القبلية الثلاث التى سبق ذكرها قاسية وشديدة الوطأة على المتهم ، فإننا ينبغى أن نؤكد أنه قصد بها أن تكون كذلك ، لأن المتهم الذى كان يمر بهذا الاختبار يكون عادة ممن عرف بين جيرانه بالاجرام ، أو ممن أصل اجتماعى متواضع . ونادرا ماكان يمر بهذه المحاكمة القبلية رجل ثرى أو من أسرة طيبة ويتمتع بسمعة حسنة فى مجتمعه ، ومن ثم كانت المحاكمة طريقة يمكن بها إضفاء صفة القدسية على هذه الوسيلة المعتادة فى الحكم دون أدلة ، وعن طريق المحاكمة البدائية كان يمكن لكل محكمة من محاكم الشعب الجرمانى أن تطهر المجتمع من ذوى السمعة السيئة باتهامهم بارتكاب جريمة ما وإخضاعهم للمحاكمة .

وفى بداية الأمر ، كانت الكنيسة تتخذ موقفا معاديا من هذه المحاكمة الجرمانية ، ولكنها كانت تريد أن يكون لها تأثير على العملية القانونية فى العصور الوسطى ، وهو مادفعها إلى قبول هذه الطريقة العامة فى الاثبات ، وبعد تحول الجرمان إلى المسيحية فرضت الكنيسة قانونا دينيا على المحاكمة القبلية ، فكان على المتهم أن يمر بالكنيسة قبل ذهابه إلى المحاكمة، وهناك يقسم على الكتاب المقدس أو غيره من المقدسات أنه برىء فى الوقت الذى ينذره القسيس بأن يعترف بذنبه حتى لاتتعرض روحه للعنة وبذلك يخسر الحياة الخالدة كما خسر الحياة الدنيا. وفى ظننا أنه كثيرا ماكان المتهم يعترف بجريمته نتيجة لعملية غسيل المخ هذه ، وهو مايعنى إضفاء السمة العقلانية على هذه العملية القانونية ، وكان المتهم الذى تدينه المحاكمة يشنق فى المكان نفسه ، والجدير بالذكر أن الجرمان هم الذين أدخلوا أسلوب الشنق إلى أوربا. وفى بعض الأحيان كانت كنيسة العصور الوسطى الباكرة تنجح فى جعل الملوك يوقفون عمليات قطع الأعضاء التى تؤدى إلى الموت ، وذلك لأن الطب فى العصور الوسطى كان على حاله المعروف من التأخر وهو ما كان يعنى فى الغالب أن يؤدى بتر أى عضو من أعضاء الجسد إلى الموت البطىء . وثمة شك فيما إذا كانت محاكم الجرمان قد سمحت بمثل هذه الاعفاءات الانسانية .

أما التبرئة بالإيمان ، فكانت امتيازا للمتهم الذى يتمتع برأى شعبى إلى جانبه ؛ أى أن يكون المتهم فى العادة من الأغنياء أو سليل عائلة كبيرة ، والتبرئة تخدم المتهم إلى حد بعيد، إذ كان المتهم ينكر التهمة ببساطة بأن يقسم على ذلك ، ويقدم عددا معينا من الشهود الذين يؤدون اليمين ، وكان من المفضل أن يكون الشهود من ذوى المكانة الاجتماعية الراقية ، ويقسم الشهود على أن اليمين الذى حلفه المتهم كان قسما حقيقيا صادقا . وبينما كانت الكنيسة تحذر من مغبة الحكم دون دليل ؛ فإن المعلومات المتوفرة لدينا تؤكد أن هذه كانت وسيلة شائعة فى الإثبات ، ذلك أن المتهم الذى كانت تجمعه صلة القربى بأصحاب النفوذ ، أو بأحد السادة الأقوياء ، لم يكن يتعرض للادانة أبدا ، لأن أقاربه كانوا على استعداد لأن يكذبوا من أجله . ويتضح من شروط التبرئة أن القانون الجنائى الجرمانى كان طبقيا فى اتجاهاته. فالرجل الفقير ، والرجل غير الحر ، أو من لاسند له من السادة الأقوياء ، لاينقذه من حبل المشنقة سوى حسن الحظ ، وعلى العكس من ذلك ، كان الشخص الثرى ، الذى تربطه بأصحاب النفوذ صلات قوية ، يستطيع أن ينجو من العقوبة فى أكثر الجرائم افتضاحا وتكرارا ، حتى لو كان ضحايا جرائمه من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع .

ومن الواضح أنه ليس هناك سوى القليل جدا مما يمكن أن نحسبه من مزايا القضاء الجرمانى فى عصره الباكر ، ومع هذا فإن القانون الجرمانى ساهم مساهمة كبيرة فى الثقافة الغربية ، وكان دون مستوى القانون الرومانى بكثير فيما عدا مايتعلق بمضامينه السياسية : لقد وجد القانون الرومانى أصوله فى إرادة الامبراطور المستبد ، كما كان هذا القانون يحبذ السلطة السياسية المطلقة ؛ على حين أنه لم تكن للملك الجرمانى أية سيطرة على القانون وكانت وظيفته القانونية الوحيدة أن يتابع محاكم الجماعة وهى تنظر القضايا وتفصل فيها . وحتى فى هذه الناحية لم تكن مشاركته هامة فى غالب الأحوال ، فقد قام القانون الجرمانى على أساس أن القانون يعيش بين الشعب ، وأن القانون هو عادات المجتمع ولا يستطيع الملك أن يغير هذا القانون دون موافقة الجماعة ، وبسبب هذا الاختلاف بين القانون الجرمانى والقانون الرومانى ، ولأن انجلترا لم تتأثر بالقانون الرومانى حتى فى العصور الوسطى العالية، فقد اكتشف مؤرخو العصر الفيكتورى أن أصول النظم البرلمانية الانجليزية وفكرة حكم القانون أنما تعود فى جذورها إلى غابات ألمانيا وأحراشها حيث تعيش القبائل الجرمانية، وعلى الرغم من أنه من الشائع أن ينظر كتاب القرن العشرين نظرة إزدراء إلى هذا التفسير ، فانه يحمل جانبا من الحقيقة ، لقد أخطأ الفيكتوريون فى مفهومهم العضوى عن التطور الدستورى ؛ بمعنى ظنهم أن شجرة الليبرالية الانجليزية الباسقة لابد وأن تكون قد نمت من بذرة القانون الجرمانى ، ولكن هذا التطور فى تاريخ انجلترا الدستورى لم يكن تطورا حتميا على أى وجه ، ففى سنة ١٢٠٠ بدا وكأن انجلترا تسير فى اتجاه الحكم المطلق ، واستغرق الأمر عدة قرون من التجربة والنضال السياسى قبل أن تنتصر سيادة الشرعية البرلمانية . ولكن الحقيقة أن انجلترا أخذت عن القانون الجرمانى تقاليد سيادة الجماعة القانونية على الملك ، وكان من الممكن أن ترسى كل بلدان أوربا الغربية التقاليد القانونية نفسها ، إلا أن ماحدث هو أن مبدأ الحكم المطلق الذى عرفه القانون الرومانى قد ساد أنحاء أوربا بعد سنة ١١٠٠ ، على حين كانت انجلترا وحدها هى التى حافظت على الفكرة الجرمانية الباكرة عن أن القانون يوجد بين أفراد الشعب وليس مرهونا بإرادة الملك .

### ٢- القرن الأول للغزوات الجرمانية

من خلال مقارنة بسيطة بين سكان الامبراطورية الرومانية وأعداد الجرمان ، سيكون من الصعب أن نفسر السبب الذى أدى إلى نجاح القبائل الجرمانية فى الإقامة على التراب الرومانى فى السنوات المائة التى أعقبت عبور القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ ، فقد

كان عدد سكان الامبراطورية آنذاك يتراوح مابين خمسين مليونا وسبعين مليونا ، وبالمقارنة كان عدد الجرمان ضئيلا ، ذلك أن أكبر القبائل الجرمانية ، مثل القوط الغربيين ، كان تعدادها مائة ألف نسمة فقط ، بما في ذلك النساء والأطفال ، ولم يكن باستطاعة هذه القبيلة أن تدفع إلى ميدان القتال بأكثر من عشرين ألف مقاتل . وقد بلغ العدد الكلى للجرمان الذين دخلوا الامبراطورية في القرن الأول بعد الميلاد نسبة لاتزيد عن خمس عدد سكان حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى ، وربما يكون من الأصح أن نسبتهم كانت حوالى عشرة بالمائة من السكان .

ويجدر بنا ، بطبيعة الحال ، أن نتذكر أن الحكومة الرومانية جابهت عددا كبيرا ومتنوعا من المشكلات السياسية والاقتصادية والعسكرية ؛ فقد كان الجيش الرومانى يتألف في غالبيته من المعدمين والجرمان . وفي أحيان كثيرة ، كانت تصرفات القادة الجرمان العاملين في خدمة امبراطور الغرب تجعل الاعتماد عليهم أمرا مستحيلا ، فضلا عن أن حدود الامبراطورية كانت من الطول والامتداد بحيث بات الدفاع عنها أمرا صعبا ، ونتيجة لامتداد الحدود بهذا الشكل ؛ فإن الجيوش الجرمانية في أى مكان (غرب القسطنطينية على الأقل) كانت أكثر عددا من المدافعين الرومان . وكان لابد من الاحتفاظ بجيش كبيرا جدا في الشرق لصد الفرس الذين كانوا يشكلون تهديدا مستمرا للدفاعات الشرقية منذ القرن الثالث حتى القرن السابع ، ويجب أن نتذكر أن أقاليم الامبراطورية الغربية البعيدة عن حوض البحر المتوسط كانت قليلة السكان ، ومن ثم كان للاستقرار الجرمانى في كثير من أقاليم العالم اللاتينى تأثيره القوى على الوضع الديموجرافى .

وقد نشأ الدافع الى الغزوات الجرمانية في سبعينيات القرن الرابع بسبب غزو القبائل المغولية المعروفة باسم الهون (وهى القبائل المعروفة باسم هسيونج – هو Hsioung - Hu في موطنها الآسيوى) للغرب ، وحتى القرن السابع كان الغزاة الآسيويون الرحل يهددون غرب أوربا بشكل دورى ، وكان الأتراك آخر أولئك الغزاة الذين كان الهون أول طلائعهم . ومن المعتقد أن الهون كانوا يعيشون خلال القرن الثانى أو القرن الثالث فيما يعرف الآن باسم الصين الشمالية أو منغوليا . وقد حدثت تغيرات داخلية معينة في المجال السياسى في الصين أجبرت الهون على التحرك صوب الغرب وحاولوا غزو الهند ولكنهم طردوا منها فتحركوا بسرعة عظيمة باتجاه الغرب ، فمروا شمالى بحر قزوين والبحر الأسود ثم مروا خلال منطقة جنوب روسيا نحو البلقان . وحوالى منتصف القرن الرابع لخترقوا حوض نهر الدانوب وقهروا

القوط الشرقيين فى سهولة واستعبدوهم ، وزرعوا الرعب فى قلوب الجرمان الذين لم يكونوا يعتمدون على الفرسان سوى فى حدود ضيقة ، ولم يتمكنوا من الصمود فى وجه الجيوش الهونية التى كان أفرادها يحاربون من فوق ظهور الخيل [٥] ، وقد وصف مؤرخ رومانى معاصر الهون بأنهم شياطين لاتقهر ، لايحاربون فقط من فوق ظهور الخيل وإنما يعيشون فوقها أيضا . وزعم - ولاشك أنه بنى روايته على أساس القصص التى سمعها من الجرمان - أن الهون لاينزلون عن خيولهم لكى يأكلوا ، ولكنهم يدفئون اللحم المقدد تحت سروجهم ثم يواصلون المسير .

وتوسل القوط الغربيون الى امبراطور الشرق حتى يسمح لهم بعبور نهر الدانوب بحثا عن ملجأ يقيهم شر الهون . وكان القوط الغربيون ممتلئين رعبا لأنهم كانوا أقرب مايمكن من حدود الدانوب وكانوا يتلمسون فى يأس أى سبيل يجنبهم مصير بنى جلدتهم من القوط الشرقيين ، وقد أجابهم الإمبراطور إلى مايطلبون ، وبذلك حدثت أول هجرة واسعة النطاق لشعب جرمانى إلى داخل الأراضى الامبراطورية بطريقة سلمية سنة ٣٧٦ ، وسرعان ماثارت جميع المشكلات التى يمكن أن يسببها استقرار شعب نازح على أرض شعب آخر ، وهى مشاكل مألوفة لدينا فى القرن العشرين . فقد زعم القوط الغربيون أن الحكام والموظفين الرومان يخدعونهم ، ولم يكن السكان فى شمال بلاد اليونان راضين عن دخول المهاجرين البرابرة إلى بلادهم ، وبعد عامين من الشجار والمنازعات بدأ القوط الغربيون اليائسون يثورون ويحاربون الامبراطور ، ودخل الامبراطور المعركة بثقة مفرطة فى قوته ، ولذا فإنه لم يعد لها الإعداد الكافى كما أنه لم يكلف نفسه عناء احضار الفرسان . وكانت النتيجة هزيمة ساحقة لجيشه فى المعركة التى قتل هو فيها ، وهى معركة أدرنه Adrianople سنة ٣٧٨[٦] . ويمكن القول بأن هذه المعركة هى البداية الحقيقية للغزوات الجرمانية ، حقيقة أن الامبراطور ثيودوسيوس الأول قد هادن

---

(٥) يقول تاكيتوس عن القوة العسكرية للجرمان فى القرن الأول للميلاد : "وتعتمد قوتهم على المشاة أكثر من الفرسان ، ولذا فإن جنود المشاة يصاحبون الفرسان فى القتال ، وكانت سرعتهم فى الجرى على أقدامهم تكفى لأن يتمكنوا من أن يظلوا بقرب الفرسان ، وكان أفضل الرجال يختارون من بين صفوف الجيش كله من شباب المقاتلين ، ليكونوا مع الفرسان فى خط القتال " أنظر :

Tacitus, Germania (translated By H. Mattingly) Penguin 1970.p. 100.

(٦) الامبراطور هو فالنز Valenz حاكم القسم الشرقى من الامبراطورية (٣٦٤-٣٧٨) ، وكان هذا الامبراطور يهدف من وراء اسكان القوط الغربيين فى المنطقة التى تشكل شمال دولة بلغاريا الحالية أن يقيم سياجاً بشرياً كثيفاً يقف فى وجه موجة الغزو الهونى إذا مافكر الهون فى عبور نهر الدانوب . (المترجم)

القوط الغربيين عقب ذلك مباشرة [٧] ، وحقيقة أن الضرر المباشر الناتج عن المعركة كان ضعيفا ، إلا أن هذه المعركة أظهرت أن بمقدور أية قبيلة جرمانية أن تهزم جيشا رومانيا ، وكانت هذه الحقيقة المشئومة بمثابة جرس الموت للسلطة الرومانية .

وبعد موت ثيودوسيوس الأول ٣٩٥ ، عاود القوط الغربيون عدم الاستقرار مرة أخرى ، فانهم لم يقنعوا بأراضى بلاد اليونان التى كان ثيودوسيوس قد منحها لهم ، كما أنهم كانوا يشكون فى نوايا ولديه وخليفتيه تجاههم ، فقد تولى عرش الامبراطورية بعد الامبراطور الكبير ولداه اللذان اقتسما حكم الشرق والغرب ، وكانا غير ناضجين ، كما اتصفا بالحماقة والطيش . وأحاطت بكل منهما مجموعة من رجال البلاط المرتشين العاجزين عن معالجة الموقف الوشيك التفجر . وفى الوقت نفسه كان القوط الغربيون قد اختاروا ألاريك الجسور Alaric the Bold وهو واحد من أكثر زعماء الجرمان عدوانية وطموحا ، ولم تكن لدى الاريك أية نية لتدمير الامبراطورية أو حتى لإضعاف السلطة الامبراطورية ؛ بل كان كل ما يبتغيه هو الحصول على أرض جيدة لشعبه . ويمكن القول بأن القوط الغربيين لم يكونوا يريدون تحطيم الامبراطورية ، وإنما كان كل هدفهم أن يستقروا فى موطن ثابت ، وكل ماقدر لهم أن يسببوه من متاعب للامبراطورية فى ربع القرن التالى ، مما ترك أثره على السلطة الامبراطورية المحطمة فى الغرب، كان يمكن تجنبه لو أن الامبراطور قد أجابهم إلى مطلبهم المتواضع فى هدوء . ولكن الامبراطور الساذج أخذ بمشورة حاشيته السيئة ورفض تقديم أية تنازلات ، فلم يبق أمام ألاريك سوى أن يشن الحرب ضد السلطة الامبراطورية التى كان يحترمها كثيرا فى حقيقة الأمر.

وكان الغزو الذى قام به القوط الغربيون لايطاليا فى مطلع القرن الخامس ، أقرب فى طبيعته إلى المناوشات منه إلى الحرب ، فقد كان القوط الغربيون غير ميالين إلى تدمير القوة الرومانية ، ومن ناحية أخرى ، كان قائد الجيش الامبراطورى ستيلكو Stilicho منحازا عاطفيا إلى القوط الغربيين ، فقد منعهم من دخول إيطاليا ، بيد أنه لم يبذل أى جهد لدفعهم

---

(٧) عقد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨-٣٩٥) معاهدة مع القوط الغربيين أصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطورية كما صاروا بمثابة قوة احتياطية للجيش الرومانى . ومن ناحية أخرى منح ثيودوسيوس للقوط الغربيين موطناً فى إقليم تراقيا الحالى فى بلاد اليونان ، وبذلك هدأ روعهم وسكنوا حتى سنة ٣٩٥ ، عندما تولى الحكم أبناه اركاديوس فى الشرق وهونوريوس فى الغرب فانتهج كل منهما سياسية غير حكمية تجاه الجرمان . (المترجم)

خارج الحدود الامبراطورية ، أو حتى خارج الحدود الشمالية لولاية إيطاليا . وهرب الامبراطور المذعور إلى قلعة رافنا Ravenna المنيعة ، والتى كانت تبعد عن الطريق الرئيسى المؤدى إلى داخل إيطاليا ، ومن ثم فانه لعب دورا ضئيلا للغاية فى الأحداث المدمرة التى جرت فيما بعد وهكذا تعتبر سنة ٤٠٦ واحدة من أهم نقاط التحول فى القرن الأول من الغزوات الجرمانية .

وليس من السهل أن نحدد ماكان يدور بخلد ستيلكو ، ولكنه أغتيل سنة ٤٠٦ على أيدى الأرستقراطيين الحانقين وبموافقة الامبراطور الأحمق ، ومنذ ذلك الحين بات الطريق إلى إيطاليا مفتوحا أمام القوط الغربيين . وفى ٤١٠ استولى جيش ألاريك على روما واحتفظ بها لعدة أيام فى محاولة لإجبار الامبراطور على قبول مطالب القوط الغربيين بخصوص موطن يستقرون فيه ، وقد أشتهر هذا الحادث - الذى أثر على خيال المعاصرين ، ومنهم القديس أوغسطين تأثيراً كبيراً - بحادث نهب روما . والحقيقة كما أشار أوغسطين ، أن القوط الغربيين لم يلحقوا بالمدينة سوى قليل من الأذى وربما يكونوا لم ينالوها بأى أذى على الاطلاق ، لقد كان غرض آلاريك أن يسير بشعبه إلى القدم الايطالى ثم يعبر البحر المتوسط ليستقر فى ولاية شمال أفريقيا الغنية ، ولكنه مات أثناء مسيرة شعبه بعد الخروج من روما ، وخلفه على العرش صهره أتولف Atulf الذى أعلن أن سياسته هى إعادة بناء الامبراطورية تحت قيادة القوط ، وهى السياسة التى نفذها فيما بعد ثيودوريك Theodoric ملك القوط الشرقيين . وكى يجسد أتولف سياسته فى رمز ، خطف ابنة الامبراطور ثيودوسيوس وتزوجها

وهى امرأة ذكية عرفت كيف تستمع بكونها ملكة جرمانية ، كما لعبت دورا بارزا فى الشئون الدبلوماسية والسياسية المضطربة خلال السنوات الثلاثين اللاحقة. وعاد أتولف بشعبه الى شمال ايطاليا ثانية ثم عبر جبال الألب إلى غالة ، وأخيرا وفى سنة ٤١٨ منح الامبراطورية القوط الغربيين مايطلبون ، وسمح لهم أن يستقروا كحلفاء معاهدين للامبراطورية فى غرب بلاد الغال ، ومن هناك تدفقوا عبر جبال البرانس إلى أسبانيا ، وفى القرن السادس هزم الفرنجة مملكة القوط الغربيين وانتزعوا منها أملاكها فى غالة . وقد استمر حكم القوط الغربيين قائما فى أسبانيا حتى الفتح الاسلامى سنة ٧١١ ، وفى قصة غزو القوط الغربيين للامبراطورية يمتزج الهزل بالمأساة . فقد كان من اليسير تفادى الآثار المدمرة التى نتجت عن هذا الغزو ، لأن القوط الغربيين لم يكونوا يريدون فى أى وقت أن يمسوا السلطة الامبراطورية بأذى ، وإذا كانت هجرات القوط الغربيين قد فتحت الباب أمام غزاة آخرين ، فإن هذه كانت غلطة الحكومة. ومن أهم القبائل التى اندفعت عبر حدود الراين سنة ٤٠٦ كان البرجنديون Burgundians والوندال Vandals . فقد استقر البرجنديون فى وادى

نهر الرون وساهموا بأسمهم فى الجغرافية الفرنسية ، وكان البرجنديون شعبا مسالما شغوفا بالشعر بشكل واضح ، وقد استمدت الملحمة الشعرية المعروفة باسم نيبولنج Ni-belungenlied التى ترجع إلى القرن الثالث عشر - من القصص التى تعود فى أصلها إلى برجنديا فى القرن الخامس أو القرن السادس ، وفى مطلع القرن السادس ذاب البرجنديون فى مملكة الفرنجة .

أما الوندال الذين كانوا شعبا أكثر وحشية وبدائية ، فقد ساروا تحت قيادة ملكهم جايزريك الأعرج Gaiseric the Lame عبر فرنسا وأسبانيا إلى شمال أفريقيا . وسيظل عالقا بالأذهان أن الوندال قد حاصروا مدينة القديس أوغسطين التى مات بها . وبحلول العقد الخامس من القرن الرابع كانت ولاية شمال أفريقيا الغنية قد أصبحت مملكة الوندال ، وأساء الوندال معاملة رجال الكنيسة الكاثوليك وفشلوا تماما فى الحصول على تأييد سكان شمال أفريقيا ، ونتيجة لذلك كان من السهل إعادة فتح شمال أفريقيا على يد الامبراطور البيزنطى فى خمسينيات القرن السادس . وكان تأثير الوندال على تطور شمالى أفريقيا تافها لايستحق الذكر ، وعلى الرغم من هذا كان غزوهم لشمال أفريقية نقطة تحول هامة فى مجرى تدهور الامبراطورية فى الغرب ، فقد تحول الوندال إلى بحارة ممتازين . وبمجرد فتحهم لشمال أفريقيا كونوا أساطيل للقرصنة وقطعوا طريق المواصلات البحرية بين ايطاليا وبقية غرب أوربا؛ مما حال دون قيام الحكومة الامبراطورية بتدعيم جيوشها فى غالة واسبانيا ، كما ساعد على سرعة قيام ممالك جرمانية جديدة فوق الأرض الرومانية . وفى سنة ٤٢٠ كانت الفرق الرومانية قد انسحبت من بريطانيا بالفعل تاركة السكان المسيحيين من الكلت الوطنيين عرضة للغزو الذى قامت به قبائل الجرمان المتوحشة الهمجية الوافدة عبر بحر الشمال .

وكان آخر انتصار يحرزه جيش يحمل شارة الامبراطورية فى أوربا الغربية هو الذى حدث فى شالون Chalons فى غالة سنة ٤٥١ ، ففى هذه المعركة تم صد الغزو الهونى الذى قاده ملك الهون العظيم أتيلا Attila ، وسرعان ماتفككت امبراطورية الهون بعد ذلك ، إلا أن هذا النصر الأخير للجيش الرومانى لايحسب للرومان ، ذلك أنه فى الوقت الذى كان قائد الجيش الذى هزم أتيلا رومانيا ، كان أغلب جنوده من القوط الغربيين . وبعد سنة ٤٥١ أخذت الامبراطورية فى الغرب تتدهور باطراد ، ففى سنة ٤٥٥ مات آخر امبراطور من سلالة ثيودوسيوس ، ولم يكن الأباطرة الغربيون طوال السنوات العشرين التالية سوى ألعوبة فى أيدى القادة الجرمان الذين تصارعوا فى سبيل السيطرة على إيطاليا وكان النصر فى هذا الصراع من نصيب قائد جرمانى هو أدوفاكر Odovacar. وفى سنة ٤٧٦ خلع الامبراطور الحاكم ، ولم يختر من يحل محله (٨) . وحين أدرك آدوفاكر أنه لايستطيع أن يتخذ لنفسه

اللقب الامبراطورى ، حكم الشعب الايطالى بوصفه نائبا عن الامبراطور الشرقى ، ولكنه أطلق على نفسه لقب "ملك الجرمان فى إيطاليا ". وقد أفاد أدوفاكر من القانون الرومانى القديم الخاص بايواء الجند لكى يرغم أصحاب الأراضى الايطاليين على قبول استقرار جيشه على الأرض الايطالية .

فماذا كان موقف الشعب الرومانى تجاه هذه الطفرات الكبيرة التى حدثت فى ميادين الحكم وفى المجتمع خلال هذه السنوات المائة الأولى من تاريخ الغزوات الجرمانية ؟ الحقيقة أن كثيرين من الناس الذين كانوا قد سئموا الاستبداد وضجروا من ثقل وطأة الضرائب فى العصر الامبراطورى المتأخر كانوا إما غير مبالين بالغزوات وأما مرحبين بالغزاة . فقد كان هناك أمل ألا يتمكن الجرمان من الحفاظ على النظام السياسى والنظام الضريبى اللذين عرفهما الرومان، وقد تحققت هذه الآمال مع بعض الاستثناءات . ولدينا خطابات كثيرة كتبها الارستقراطيون الرومان فى غالة أوائل القرن الخامس تكشف أنهم حاولوا دون جدوى أن يتجاهلوا التغيرات التى كانت تجرى خارج أسوار ضياعهم . ولكن من ناحية أخرى ، كانت للغزوات جوانب سرعان مازرعت الخوف فى نفوس أبناء الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية ، وثمة تقارير معاصرة عن الفظائع التى ارتكبت فى حق السكان الرومان ، لاسيما على أيدى الوندال الآريوسيين فى شمال أفريقيا . وعلاوة على ذلك ، فانه حين تحققت التوقعات بانهيار الامبراطورية مرت بالأرستقراطية بعض المواقف التى أحيت مشاعرهم الوطنية ، فقد كانت طبقة النبلاء الغال الرومان (الغالورومان) تنظر إلى المرحلة الأولى من الغزوات دون مبالاة ، وفجأة وفى حوالى منتصف القرن الخامس كونوا جيوشا خاصة لمقاومة الغزو وحافظوا على بعض جيوب المقاومة حتى سحقهم الفرنجة أخيرا قرب نهاية القرن الخامس .

وكان لاعتناق القوط والوندال المسيحية الآريوسية أثره فى جعل الغزوات مشكلة صعبة فى مواجهة الكنيسة ، فبينما فسر أوغسطين وأوروسيوس الغزوات على أنها نتيجة لخطة العناية الالهية تمهيدا لتحول الجرمان الوشيك الى الكنيسة الكاثوليكية ، نظر القديس أمبروز والقديس جيروم إلى الغزوات بعين ملؤها الرعب، على حين وصف أسقف كاثوليكى آخر الجرمان بالديدان التى يجب القضاء عليها .

---

(٨) كان آخر سلسلة الاباطرة الضعاف فى الغرب هو الامبراطور الصبى الذى عرف لذلك بروملوس الامبراطور الصغير (أوغسطولوس) Romulus Augustulus الذى كان فى الثانية عشرة من عمره حين خلعه ادوفاكر . (المترجم)

وما أن حل النصف الثانى من القرن الخامس ، حتى كانت وجهة نظر أوغسطين قد بدأت فى الانتشار ، وأخذت النظرة المتشائمة ، والنواح على الكارثة التى حلت بالعالم من جراء الغزوات الجرمانية تنحسر أمام تيار الأمل المتزايد بين زعماء الكنيسة . وأظهر الموقف الذى وقفه البابا ليو الكبير الفرصة التى باتت سانحة أمام الكنيسة لزعامة العالم الغربى ، كنتيجة من نتائج تفكك الامبراطورية ، وبات واضحا أن نهاية الامبراطورية لاتعنى نهاية العالم ولاحتى الكنيسة اللاتينية .

وهكذا بات السكان الرومان فى الممالك الجرمانية سنة ٤٨٠ على حال من الترقب والانتظار، ترى ماهو الموقف الذى سيتخذه ملوك الجرمان تجاه الكنيسة فى النهاية ؟ هل يمكن تحويلهم إلى المسيحية الكاثوليكية ؟ لقد كان هناك احتمال بأن يقوم الامبراطور الشرقى بغزو الغرب لاسترداده ، وكان امبراطور الشرق مايزال منتظرا وأعلن أن مسألة استعادة الغرب مسألة وقت فحسب . وقد تدارس رجال الكنيسة اللاتين هذا الاحتمال بمشاعر مختلفة ، إذ أن الامبراطور سيكون أفضل من الاضطهاد الآريوسى الجرمانى ؛ بيد أنهم كانوا يعرفون أن الامبراطور سيحاول إخضاع البابا لسلطته ويملى رأيه على الكنيسة الغربية فى المسائل الدينية كما كان يفعل فى الامبراطورية الشرقية ، ألا يمكن أن يكون أى ملك جرمانى عنيف وفظ ولكنه يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية ، حاكما أفضل من الامبراطور للمدينة العلمانية ؟ ومن هنا كانت صياغة النظرية الجيلازية كما رأيناها من قبل . كانت هذه هى الأسئلة الحيوية التى طرحت نفسها عند نهاية المرحلة الأولى من الغزوات الجرمانية حوالى سنة ٤٨٠ ولم تظهر إجابات هذه الأسئلة إلا فى القرن التالى إبان المرحلة الثانية من الغزوات الجرمانية ، وكان لها أن تحسم مصير غرب أوربا .

### ٣- المرحلة الثانية من الغزوات

#### مملكة القوط الشرقيين - مملكة الفرنجة

بحلول عام ٤٨٠ كانت ثلاث ممالك جرمانية قد قامت فى غرب القارة الأوربية على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، إلا أنه لم يقدر لأى من هذه الممالك الثلاث أن تعمر إلى مابعد أوائل القرن الثامن أو أن يكون لها أى تأثير هام على الحضارات الوسيطة ، فقد كانت مملكة أودوفاكر فى إيطاليا بناء هزيلا تهاوى تحت وطأة غزو القوط الشرقيين سنة ٤٨٩م . وفى وادى الرون ذابت مملكة البرجنديين فى مملكة الفرنجة ودخلت تحت سيادتهم فى عشرينيات القرن السادس . وكانت مملكة القوط الغربيين تمتد خلال غرب فرنسا واسبانيا كلها ، ثم طرد الفرنجة القوط الغربيين أيضا من فرنسا فى أوائل القرن السادس .

وكان تأثير مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا فى تاريخ وحضارة أيبيريا ضئيلا ؛ فقد كان القوط الغربيون آريوسيين أصلا ، ولكنهم تحولوا إلى الكاثوليكية فى أواخر القرن السادس ، وحاول أساقفة القرن السابع الكاثوليك تقوية وتدعيم الملكية القوطية الغربية فى أسبانيا عن طريق ما للدين من سلطان ، وهى السياسة التى تبنتها الكنيسة مع الفرنجة فى القرن الثامن وآتت نتائج بالغة الأثر ، ولكن ملوك القوط الغربيين كانوا ضعافا وغير طموحين بدرجة لم يجد معها تأييد الكنيسة فى إنقاذهم ، وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها الكنيسة ؛ استسلم القوط الغربيون بسرعة أمام الفاتحين المسلمين سنة ٧١١م وحتى القرن الحادى عشر كان الأمراء الأسبان يعيشون فى جبال البرانس فقط . أما التراث الثقافى الوحيد الذى تركه القوط الغربيون فيمكن أن نجده فى مؤلفات إسيدور Isidore أسقف أشبيلية الذى لم يكن من القوط الغربيين بل كان من طبقة الارستقراطية فى أسبانيا .

وبعد الاخفاقات المتوالية لجميع الممالك الجرمانية الأولى ثار السؤال عما إذا كان من الممكن تأسيس مملكة جرمانية دائمة فى أوربا الغربية. وفى السنوات العشرين الأخيرة من القرن الخامس برزت إلى الوجود مملكتان جديدتان ، وبدا واضحا أن مصير أوربا السياسى سوف يتحدد من خلال شكل ومصير هاتين المملكتين الجديدتين ، فقد أقام القوط الشرقيون مملكتهم فى إيطاليا ، كما أصبح الفرنجة الساليون سادة غاليا ، وبات من المؤكد أمام الناس فى أوربا سنة ٥٠٠م أن المستقبل مع القوط الشرقيين . فقد أراد ثيودوريك ملك القوط الشرقيين إحياء الحضارة والإدارة الرومانية تحت صولجانه ، وبدا فى أوائل القرن السادس أن ثيودوريك سوف يحقق سياسته القوطية التقليدية فى التوفيق بين النظم القوطية والنظم الرومانية ، ولم يكن واضحا أن لدى مملكة الفرنجة فرصة مماثلة للنجاح ، إذ ظهر حاكمها كلوفيس الأول Clovis I فى صورة البربرى الذى لايكن أى تقدير للثقافة اللاتينية أو الحكومة الرومانية ، ومع ذلك عمرت مملكة الفرنجة بينما انهارت مملكة القوط الشرقيين بسرعة بعد موت ثيودوريك سنة ٥٢٦م . فبذهاب ثيودوريك استرد الامبراطور البيزنطى جستنيان إيطاليا ، واختفت مملكة القوط الشرقيين من التاريخ ، وهكذا انحصرت زعامة أوربا الغربية فى الفرنجة ؛ ومن ثم فإن فشل القوط الشرقيين ونجاح الفرنجة كان له أثره الحاسم فى تطور أوربا فى أوائل العصور الوسطى ، وتستحق أسباب هذه الحوادث الحاسمة أن نتوقف أمامها مليا .

وفد القوط الشرقيون إلى داخل الامبراطورية من حوض نهر الدانوب وقهرهم الهون واستعبدوهم فى سبعينيات القرن الرابع ، ولكن بعد موت أتيلا زعيم الهون سنة ٤٥٣ استعاد

القوط الشرقيون حريتهم وكان زعيمهم هو ثيودوريك الذى يعنى اسمه "قائد الشعب" والذى كان فردا فى الأسرة الملكية ، وقد أرسل فى صغره ليكون رهينة فى القسطنطينية ؛ حيث تعلم أن يقدر الثقافة ، والقانون وأساليب الحكم الرومانية . فى ثمانينيات القرن الخامس انتخب القوط الشرقيون ثيودوريك ملكا عليهم ، فلم يكن من تقاليد الجرمان أن يتولى ملكهم العرش عن طريق الوراثة ، فقد كان العرش بمثابة أملاك العائلة الملكية بأسرها ؛ ولكن الشعب كان يختار الملك من بين أفراد هذه العائلة على أساس مدى جدراته واستحقاقه للعرش.

وبنهاية العقد الثامن من القرن الخامس وجدت سياسة ثيودوريك فى توحيد المصالح القوطية والرومانية تشجيعا من جانب امبراطور القسطنطينية . فقد كان القوط الشرقيون قد بدأوا يهددون بغزو الامبراطورية البيزنطية ، ولكن الامبراطور اقنع ثيودوريك أن يقود شعبه إلى داخل إيطاليا حيث كان أودوفاكر قد بدأ يوطد استقلاله عن الامبراطورية الشرقية . وهكذا تمكن الامبراطور من إنقاذ بيزنطة من خطر القوط الشرقيين ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يؤكد سلطة الامبراطورية الرسمية على إيطاليا أكثر مما كان عليه الأمر تحت حكم اودوفاكر؛ وذلك لأن ثيودوريك ذهب إلى ايطاليا وفى ذهنه أن حقوق الامبراطور فى إيطاليا يجب الحفاظ عليها . واعتبر الامبراطور ملك القوط الشرقيين بمثابة مساعد له ، وكان يتوقع ألا تنتقص الغزوات الجرمانية من السيادة الامبراطورية .

وفى غضون أربع سنوات مابين سنة ٤٨٩ وسنة ٤٩٣ حطم ثيودوريك والقوط الشرقيون مملكة أودوفاكر وقهروا إيطاليا ، واتخذ ثيودوريك رافنا فى شمال شرق إيطاليا - حيث كان عدد من أباطرة القرن الخامس قد أقاموا مقر حكمهم فيها فعلا - عاصمة له . فماذا كان وضع ثيودوريك القانونى فى إيطاليا ؟ لقد كان ذلك استمراراً لنفس النظام الذى كان أودوفاكر يحكم تحت مظلته . فقد كانت سلطة ثيودوريك بتفويض من امبراطور الشرق لكى يقوم بتوجيه شئون الحكم العامة ، وفى الوقت نفسه حمل ثيودوريك لقبا ملكيا لكى يحتفظ له بهيبته وسطوته على شعبه . وكان من المعتاد أن يقوم القادة البرابرة بقيادة الجيش الامبراطورى فى الغرب على مدى قرنين من الزمان ، وإذ لم يعد هناك امبراطور فى الغرب آنذاك ، انتقلت سلطات الحكومة المدنية أيضا إلى يدى قائد الجيش ، وكان السكان الرومان معتادين على أن يحكمهم حاكم ينوب عن الامبراطور القابع بعيدا فى القسطنطينية ، يكون فى الوقت ذاته زعيم الشعب الجرمانى الذى حل بأرضهم ، وهكذا كانوا مستعدين لتقبل فكرة قيام مملكة بربرية تمارس سلطات الحكم العامة .

أوربا سنة ٥٢٦م

ظل ثيودوريك مدة تزيد على عشر سنوات قانعا بدوره كممثل للامبراطور ، وكقائد للجرمان المعاهدين ، ثم بدأ ينتهج سياسة جديدة أزعجت الامبراطور البيزنطى . فقد بدأ يفكر فى تأسيس مملكة جرمانية تحت قيادة القوط تشمل كلا من إيطاليا وغاليا وربما أسبانيا . واتبع سياسة المصاهرة الدبلوماسية التى كان من الممكن أن تؤدى إلى قيام مثل هذه المملكة العظيمة ؛ فقد تزوج سنة ٤٩٣ ، من أخت كلوفيس ، ثم زوج إبنته إلى ملك البرجنديين ، كما أصبح وصيا على ملك القوط الغربيين الذى كان قاصرا ، وبات واضحا أن ثيودوريك قد أخذ ينسلخ رويدا رويدا عن الامبراطور البعيد فى الشرق .

ولم يكن البيزنطيون ليتخلون عن إيطاليا أبدا ، لأن الامبراطورية الرومانية بدون روما كانت أمرا لايصدق ، وإذ أدرك الامبراطور أن ثيودوريك قد يصبح على درجة كبيرة من القوة فإنه عمل على موازنة قوة ثيودوريك بقوة مضادة ، فاعترف بسيادة كلوفيس على غالة ، وتحالف مع مملكة الفرنجة . وكان هذا واحدا من أفدح أخطاء ثيودوريك ؛ على الرغم من أنه كان من الصعب على أى فرد أن يتنبأ بالنتائج فى ذلك الوقت ، فقد جلبت محاولته لجعل القوط الشرقيين قوة بحر متوسطية ، تتمتع بالنفوذ فى فرنسا وأسبانيا وبالسيادة فى إيطاليا ، عداء الامبراطورية البيزنطية ، وسببت اعترافها بسيادة الفرنجة الشرعية على غالة ، وقد أدى الموقف إلى وقوع كارثة حلت بالقوط الشرقيين وذلك حين استطاعت الامبراطورية البيزنطية تحت حكم جستنيان استعادة قواها العسكرية لمهاجمة إيطاليا .

وإذا تساءلنا عن السبب فى إقدام ثيودوريك على انتهاج مثل هذه السياسة الخارجية العدائية ، التى وحدت الفرنجة والدولة البيزنطية ضد مملكة القوط الشرقيين وتسببت فى تدميرها ، لظهر لنا سبب هذه المخاطرة الجسيمة واضحا جليا ، إذ كان ثيودوريك يعتقد فى عشرينيات القرن السادس ، نتيجة لسياسته الداخلية ، أنه استحوذ على ولاء الشعب الايطالى ، أو ضمن حياده على الأقل ، وربما استحوذ على تأييد البابا زعيم الكنيسة الكاثوليكية .

لقد أعلن ثيودوريك منذ بداية حكمه أن قصده أن يعيد بناء سلطة الحكومة الرومانية وأن يجلب الخير للشعب الايطالى . ولم تكن مثل هذه السياسة جديدة على القوط ، إذ أن أتولف ثانى ملوك القوط الغربيين كان قد أعلن عن مثل هذه الأهداف. أما الجديد فى الأمر ، فهو أن ثيودوريك كانت لدية الفرصة لأن يحقق هذا الهدف وبذل كل ماوسعه فى هذا السبيل . وتمثلت أذكى تحركاته فى احتفاظه بالجهاز البيروقراطى للامبراطورية المتأخرة ، وهو الذى استمر

موجودا ، شكلا على الأقل ، أثناء معظم القرن الخامس حين كان آخر الأباطرة الرومان التافهين قابعين فى رافنا. واتخذ ثيودوريك رافنا عاصمة له آنذاك ، وأعاد بناء الحكومة البيروقراطية من جديد ، كما اختار الموظفين من بين صفوف الارستقراطية الرومانية ، وبحلول عام ٥٠٠ وجد ثيودوريك الرجل الذى رسم له سياسته الداخلية - وهو كاسيودوروس Cassiodorus الذى كان سليل عائلة ارستقراطية رومانية قديمة ، وكان بليغ اللسان ، واداريا قديرا ، كما كان "مندوبا صحفيا" عظيما لمملكة القوط الشرقيين . وقد أشار كاسيودوروس على ثيودوريك بالوسيلة التى تمكنه من كسب الشعب الايطالى ، وانكب على كتابة عدد من المؤلفات الدعائية كان من بينها الكتاب الرسمى "تاريخ القوط" الذى أظهر ثيودوريك أمام الشعب الايطالى فى أفضل الصور تألقا .

كان كاسيودوروس هو الذى صاغ شعار النظام الجديد وهو نظام المؤاخاة Civilitas الذى صك على العملة الملكية ، وأذيع فى خطابات ملكية عديدة كتبها كاسيودوروس ، فقد زعم أن القوط ليسوا أعداء للحضارة والثقافة بل على العكس ؛ قال إن هدف الحكومة الجديدة هو الحفاظ على الثقافة الرومانية وتدعيمها ، كما أن كاسيودوروس لم يشر فى كتاباته إلى القوط الشرقيين بوصفهم برابرة . والحقيقة أن كاسيودوروس فى كتابه "تاريخ القوط" يقرن القوط بالاسكيثيين Scythians، وهم شعب جاء ذكره فى الأساطير اليونانية القديمة ، ويرسم لنا كتاب "تاريخ القوط" الذى وصلنا من خلال مختصر وضعه جوردان Jordanes، صورة للقوط يبدون فيها وقد تساووا مع اليونانيين فى مستواهم الحضارى . ولم يكن هذا التفسير التاريخى المضلل ناتجا عن جهل كاسيودوروس ، وإنما كان نابعا من أيديولوجية خاصة ، كذلك كان الأسلوب البلاغى لخطاباته نتيجة لمحاولة واعية من جانبه للدعوة بأن الحاكم القوطى الشرقى كان حاميا التراث الكلاسيكى .

واكتسب برنامج المؤاخاة مسحة لا بأس بها من الحقيقة بفضل سياسة ثيودوريك الداخلية . فقد تم تنفيذ برنامج واسع للأعمال العامة ، كما فرضت عقوبات صارمة على اللصوصية وقطع الطرق ، وشجع الأمن الناتج عن ذلك على عودة الرخاء إلى إيطاليا ، ربما إلى المستوى الذى كان عليه أواخر القرن الرابع ، (أو هذا هو ما أخبرنا به المعاصرون على الأقل) ، وواصل السكان الرومان حياتهم فى ظل القانون الرومانى ، على حين استخدم القوط الشرقيون القانون الجرمانى . واستدعى ثيودوريك إلى بلاطه أبرز علماء عصره وشملهم برعايته - ليس كاسيودورس فقط ، ولكن أيضا بوئثيوس Boethius ، الذى كان أرستقراطيا رومانيا آخر ثم صار موظفا حكوميا عظيم القدر ، وبدأ فى ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة

اللاتينية ، بل إن مؤرخا من مؤرخي البلاط البيزنطي اعترف بأن ثيودوريك كان يعامل السكان الرومان بتسامح وكرم محمود .

وأيا كان الأمر ، فقد كان هناك جانبان فى سياسة ثيودوريك لم يكن من الممكن أن يرضى عنهما الايطاليون ، وقد اضطر للإبقاء عليهما بحكم منصبه كقائد للجيش القوطى الشرقى : وهما انتزاع الأرض الايطالية من أجل الجيش القوطى الشرقى من ناحية والآريوسية من ناحية أخرى . فمن الناحية القانونية كان القوط الشرقيون معاهدين Feodorati وكان لهم حق الايواء على أرض السكان الايطاليين المحليين وفقاً لقانون الضيافة الرومانى . وهكذا نجد أودواكر يأمر أصحاب الأراضى الايطاليين بتسليم ثلث مساحة أراضيهم إلى جنوده ، وهى نفس السياسة التى سار عليها ثيودوريك ، فما الذى كان يمكنه أن يقدمه لجنوده غير ذلك ؟ والمعلومات المتوفرة لدينا قليلة جدا بحيث لاتسمح لنا بتحديد الكيفية التى نظر بها أصحاب الأرض الايطاليون إلى هذه السياسة . وفى رأى بعض المؤرخين أنه كانت توجد ضياع كثيرة خالية فى ذلك الحين نتيجة الفوضى التى سادت القرن السابق ، وقد بلغت هذه الضياع الخالية حدا من الكثرة جعل الأراضى التى انتزع ثيودوريك ملكيتها قليلة للغاية . بيد أن الحقيقة القائلة بأن كاسيودوروس بذل الكثير لتبرير هذا التصرف على أساس أن القوط هم الجيش الرومانى ، توضح أنه كان هناك بالضرورة بعض الاستياء من جانب أصحاب الأراضى التى انتزعت ملكيتها .

أما فيما يتعلق بمسألة استمرار ثيودوريك على ولائه للآريوسية فإن المؤرخ يرتبك بسبب تفاهة المصادر فما الذى كانت الآريوسية تعنيه حقا بالنسبة لثيودوريك ؟ لقد بنى الكنائس الآريوسية ، ولكن من كان هؤلاء الأساقفة الآريوسيون ؟ المفروض أنهم كانوا من القوط الشرقيين ، ونحن لانعلم شيئا عن الموضوع . كل مانستطيع قوله إن الآريوسية صارت عقيدة الشعب القوطى ولم يكن بمقدورهم أن يتخلوا عن عقيدتهم كما لم يتخلوا عن قانونهم الذى ألفوه . وبذل ثيودوريك أفضل مافى وسعه ، فإذا كان قد بقى على آريوسيته : فإنه بذل مافى طاقته ليهدىء من روع الكنيسة الكاثوليكية بشأن عقيدته ، إذ اطلق حرية العقيدة ، كما شارك فى احتفال يوضح اعترافه بسلطة البابا ، لا على الكنيسة الكاثوليكية فقط ، بل على مدينة روما أيضا ، وفى سنة ٥٢٠م كان واضحا أن البابا هدأ وأن الكنيسة سوف تستمر فى تأييد سلطة ملك القوط الشرقيين حتى بعد موت ثيودوريك ، ومن ثم كان من الممكن لسياسته الخارجية المحفوفة بالمخاطر أن تنجح بفضل سياسته الداخلية الماهرة .

ولكن السنوات الأخيرة من حكم ثيودوريك شهدت اختلال توازن القوى الدقيق الذى أقامه فى غير صالحه ، وكان من الواضح تماما قبل موته سنة ٦٢٦م أن انهيار مملكة القوط الشرقيين لايمكن أن يتأخر كثيرا. ولسوء الحظ ، فإن مصادرنا هنا هزيلة جدا ، إلا أننا نستطيع أن نميز الخطوط العريضة المعتمة لما حدث من تغيرات ، ويبدو أن مفتاح الموقف كان هو سياسة الامبراطور ، فخلال معظم عهد ثيودوريك كان الامبراطور فى نزاع مع البابا ، وهو ما انتقص من السلطة الامبراطورية بفضل النظرية التى صاغها جلاسيوس الأول Celasius I فى العقد الأخير من القرن الخامس ، وأحس البابا أن الامبراطور قد وقع فى شباك الهرطقة وأنه يحاول فرض أخطائه على الكنيسة ، ومن ثم فإن البابوية والكنيسة تريان أن حاكما آريوسيا يبيح حرية العقيدة سيكون حاكما أفضل من الامبراطور البيزنطى . وفى سنة ٥١٨م تغيرت الأسرة البيزنطية الحاكمة بالقسطنطينية ، وكان الهدف العظيم للبيت الحاكم الجديد الطموح هو إعادة فتح الغرب ، [٩] وفى سبيل هذه الغاية يجب التضحية بكل شىء ، وأعلن الأمبراطور جستين الأول قبوله للفكرة اللاهوتية التى يعتنقها البابا (رغم أنه كان ينفر بذلك الكثيرين من رعاياه) ، وبدا واضحا أن الامبراطور والبابا قد توصلا إلى تفاهم سرى فى الوقت الذى كان البابا يقوم بدور سفير ثيودوريك لدى القسطنطينية . وألقى كثيرون من أبناء الارستقراطية الرومانية بثقلهم فى جانب البابا والامبراطورية البيزنطية ومنهم بوئثيوس ، ويحتمل أنهم كانوا قلقين من أن القوط الغربيين أقارب ثيودوريك والذين كانوا مايزالون على عدواتهم الشديدة للكاثوليكية قد أصبحوا رجالا بارزين فى بلاط رافنا عاصمة مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا .

وحين اكتشف ثيودوريك هذه المؤامرة كان رد فعله عنيفا ، فقد كان قلقا بشأن من سيخلفه على العرش ، ذلك أن الموت المفاجىء لم يبق من عائلته سوى إمرأة وطفل لخلافته ، إذا لم يكن هناك من يتطلع إلى العرش من زعماء القوط الشرقيين البارزين . وفى العامين الأخيرين من حكمه تخلى ثيودوريك عن سياسة التعايش وسجن البابا ، واعدم بوئثيوس وعددا من أبناء الارستقراطية الرومانية البارزين ، ولكن نجم مملكته كان قد أفل . وبدأ البيزنطيون فى استرداد إيطاليا فى السنوات العشر التى أعقبت موته .

---

(٩) هى الأسرة التى أسسها جستين الأول قائد الحرس الامبراطورى ، والتى برز من اعضائها الامبراطور جستنيان ابن أخت جستين الذى قام بآخر محاولات فرض السيادة الرومانية من جديد على الغرب .

(المترجم)

كان ثيودوريك ، من حيث سجاياه الشخصية ، أفضل ملوك الجرمان قبل شارلمان ، فقد كانت سياسته فى التعايش متماثلة مع أهداف الملكية الفرنجية سنة ٨٠٠ م من عدة جوانب . ومن ثم كان لفشل ثيودوريك فى تأسيس مملكة دائمة أعظم النتائج والآثار على أوربا فى العصور الوسطى ، فقد كان بوسع ثيودوريك أن يقيم فى عهدة سلطة عليا فى إيطاليا بيد أنه، فى حقيقة الأمر ، لم تكن لديه النية لفعل ذلك ، فقد كان هو نفسه يكن أعظم احترام لمجد روما ، وكان يريد أن يعيد بناء الامبراطورية فى الغرب ولكن تحت حكم ملك قوطى .

لقد انحرفت سياسة ثيودوريك نحو طريق الخطأ ، فأثار خوف الأباطرة البيزنطيين من أن تصبح مملكة القوط الشرقيين قوة عظمى بدرجة قد يستحيل معها أن تثبت بيزنطة سلطاتها فى ايطاليا . وخوفا من أن تنهض مملكة القوط الشرقيين كقوة بحر متوسطية تنافس بيزنطة ذاتها على سيادة عالم البحر المتوسط . وفى الوقت نفسه ، ونظرا لاحترام ثيودوريك للنظم والأفكار الرومانية فى إيطاليا فقد جعل القوط الشرقيين جماعة محايدة من الجنود الجرمان الذين لايتدخلون فى حياة البلاد الدينية والسياسية ، ولأن الملكية ظهرت على هذا القدر من القوة فى أيامه ، فقد ترك خلفاءه فى وضع مستحيل . إذ تركهم عرضه للهجوم المضاد الذى شنته عليهم القوة العسكرية البيزنطية فى عهد جستنيان . إلا أن ثيودوريك لم يكن قد اكتسب ولاء الشعب الايطالى بالدرجة التى تكفى لأن يتصدوا لحرب الاسترداد التى قام بها البيزنطيون .

وتظهر فى الصفحات الأولى من تاريخ الفرنجة مواقف كثيرة مناقضة لتطور القوط الشرقيين ؛ إذ كان الفرنجة أقل تأثرا بالثقافة الرومانية - وكان من الواضح أن ملوكهم أقل من أن يضارعوا ثيودوريك - ومع ذلك خرجت مملكة الفرنجة سالمة من غمار الفوضى والاضطراب اللذين سادا طوال القرنين الخامس والسادس ، وأصبحت أكبر وأهم مملكة قامت على التراب اللاتينى ، ومن ثم ارتبط تطور أوربا الغربية السياسى وتاريخها الثقافى والكنسى بمصير الملكية الفرنجية .

كان هناك فرعان على الأقل للشعب الفرنجى ، وقدر لأحدهما أن يلعب دورا هاما فى التاريخ ، وهم الفرنجة الساليون Salian Franks الذين كان موطنهم الأصلى غرب وسط المانيا الحالية ، وكانوا يعيشون فى منطقة بعيدة وراء حدود الراين كما كان اتصالهم بالرومان قليلا ، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الثقافية . وبعكس القوط الشرقيين ، لم يعتنق الفرنجة المسيحية على أيدى المبشرين الآريوسيين ، وحين دخلوا الامبراطورية كانوا أجلافا

وثنيين يتسمون بالعنف . وفى المجتمع الفرنجى كانت الغالبية من المزارعين الأحرار ، وإذا كانت ثمة طبقة من النبلاء قد وجدت فى نسيج هذا المجتمع ، فإنها لم تكن قوية ، وحتى فى أوائل القرن السادس كان جيش الفرنجة يتألف أساسا من الجنود الفلاحين المشاة ، وعدد محدود جدا من الخيالة . وكان المظهر الحضارى الوحيد فى المجتمع الفرنجى الباكر متمثلا فى اهتمامهم بالزراعة ، وبسبب هذا الاهتمام بالزراعة ، ولأنهم - شأن كل الجرمان - كانوا يريدون الاقتراب من ثروة الامبراطورية ، حصل الفرنجة من الامبراطور جوليان المرتد فى منتصف القرن الرابع على حق الاستقرار على طول الحدود الشمالية فى إقليم الفلاندر Flanders وهنا تصبح المميزات الفريدة لحركة الهجرة الفرنجية واضحة تمام الوضوح ، فسرعان ماعمر الفرنجة موطنهم الجديد بعكس غيرهم من الغزاة الجرمان ، وكرسوا أنفسهم للزراعة وتركوا بصمات ديموجرافية واقتصادية ولغوية قوية على المنطقة .

ومصدرنا الأدبى الوحيد الهام عن تاريخ الفرنجة الباكر هو الكتاب الشامل الذى كتبه جويجورى أسقف تور (جريجورى التورى Gregory of Tours) أواخر القرن السادس. وبطبيعة الحال كانت المعلومات التى كتبها جريجورى أكمل ماتكون فى الفترة القريبة من عصره ، إلا أنه استطاع أن يمدنا ببعض المعلومات المتناثرة عن تاريخ الفرنجة فى القرن الخامس اعتماداً على التراث الشفوى الفرنجى ، ويعتبر كتاب جريجورى المسمى "تاريخ الفرنجة" - برغم مافيه من بعض مظاهر الضعف التى تشوب أسلوبه ، وأحكام المؤلف المسبقة القاسية - أكمل تقرير لدينا عن أى من الشعوب الجرمانية ، كما أن من مزايا هذا الكتاب أنه يمدنا بدليل لأسماء الأمكنة فى تاريخ الفرنجة المبكر ، ونستطيع من خلال دراسة الجذور اللغوية لأسماء الأماكن فى إقليم الفلاندر وشمال فرنسا أن نتخيل كيف تمت الهجرة الفرنجية صوب الجنوب من إقليم الفلاندر إلى داخل غالة .

وبينما كانت القوة الرومانية آخذه فى التحلل والإنهيار فى القرن الخامس ، بدأ الفرنجة يتحركون فى بطء باتجاه الجنوب إلى داخل الامبراطورية ، وهناك لم يشكل استقرارهم احتلالا عسكريا فحسب ، كما كان حال الشعوب الجرمانية الأخرى ، ولكنه كان استعمارا حقيقيا شاملا . ومن المحتمل أن تكون إحدى العائلات فى ذلك الوقت قد تولت زمام قيادة الشعب الفرنجى ثم ارتفعت إلى مكانة الأسرة الملكية الحاكمة . وحتى منتصف القرن الثامن كان العرش الملكى الفرنجى بمثابة الأملاك الخاصة لهذه الأسرة ، دون أدنى اعتبار لعدم الكفاية الشخصية التى اتصف بها كثيرون من سلالتها. وزعمت الأسرة الملكية الفرنجية أنها تنحدر

من صلب الآلهة ، وهو ما كان مألوفا بين الجرمان ، ونسبوا تأسيس الأسرة الملكية إلى بطل أسطورى يدعى ميروفيش Merovech وقد اختلف الميروفنجيون فيما بينهم فى القرن الخامس من حيث صفاتهم ، وظهر أن بعضهم يفتقر إلى الكفاية الحربية وصفات الزعامة ، بيد أن الشىء الذى ميز جميع الحكام الفرنجة الأوائل حتى سنة ٥٠٠ هو عداؤهم شديد للثقافة الرومانية . وربما يكون الفرنجة قد خضعوا لسيادة القادة الرومان الأواخر فى غالة لمدة عشر سنوات أو نحو ذلك فى منتصف القرن الخامس . ويفسر لنا "هذا النير الرومانى الشديد الوطأة" على حد تعبير الوصف الذى جاء فى مقدمة القانون السالى ، حين نربطه بوحشية الفرنجة وبربريتهم الوطنية ، سبب كراهية الفرنجة للرومان ، وليس هناك مثيل لهذا الموقف السلبى من جانب أى من الغزاة الجرمان السابقين .

وبحلول العقد الثامن من القرن الخامس كان الفرنجة قد استقروا بأعداد كثيفة فى الأجزاء الشمالية من غالة ، وانسابوا نحو شمال مدينة باريس الرومانية القديمة ، وبينما كانوا يتحركون فى الأقاليم الوسطى والجنوبية جوبهوا بكثافة سكانية نسبية من الغالورمان ؛ وبالتالى كان تأثير الفرنجة على اللغة والنظم فى هذا الجزء من البلاد قليلا . ولأن السكان الغالورمان فاقوا الغزاة الفرنجة كثيرا فى عددهم فقد ظلت العامية اللاتينية لغة البلاد بأسرها ، بل إن الفرنجة أنفسهم مالبثوا أن تكلموا باللسان اللاتينى .

وفى ظل ظروف الفوضى وعدم التنظيم التى تفشت فى غالة فى القرن الخامس لم ينقص الفرنجة سوى قائد قوى يتقدم بهم من معقلهم الشمالى لفتح البلاد كلها ، وقد وجدوا ضالتهم فى كلوفيس الأول Clovis (٤٧١-٥١١) أفضل الملوك الميروفنجيين ، والذى وطد حكمه الطويل دعائم السيطرة الفرنجية غرب الراين .

وتبدو صفات كلوفيس الهمجية واضحة تماما فى صفحات كتاب جريجورى التورى ، كما يظهر كلوفيس فى الوقت نفسه فى صورة القائد الحربى الشديد المراس والداهية فى الشئون الاستراتيجية . وبعد سحق الجيوش الغالورمانية نهائيا أخضع كلوفيس شعوبا جرمانية أخرى كانت تعيش على طول الضفة الغربية لنهر الراين ثم مهد كلوفيس لخطواته التالية بتعميده وجيشه كله على يد كبير أساقفة رينس Rheims وعلى الرغم من الهالة الأسطورية التى أحيطت بها قصة إعتناق كلوفيس للمسيحية فيما بعد ، فإن سبب اعتناقه للمسيحية سنة ٤٩٦ كان بسيطا ، ذلك أنه رأى أن اعتناقة المسيحية على المذهب الكاثوليكى سيجعل منه الملك الجرمانى الوحيد الذى يتمتع بإيمان صحيح فى غالة - بل فى الغرب بأكمله ، ومن ثم

فسيكون من الأسهل بالنسبة له ، بوصفه البطل الكاثوليكى ، أن يستحوذ على ولاء السكان الغالو - رومان كلما مضى فى توسعاته . وعلاوة على ذلك ، فإن اعتناقه للمسيحية الكاثوليكية سوف يكسبه تأييد رجال الكنيسة الذين كانوا بمثابة القوة السياسية والاقتصادية والمعنوية الوحيدة الموجودة فى جميع أنحاء غاله . ولاتبين لنا حماسة جريجورى التورى ، المتحدث باسم الكنيسة الفرنجية فى القرن السادس ، أن اعتقاد كلوفيس كان فى محله فحسب بل تبين أيضا أنه نجح فى أن يحيط نفسه بهالة مقدسة ، وفى رواية جريجورى التورى نجد الزعيم البدائى المتوحش الذى يقود عصبة الحرب الفرنجية يتحول بعد اعتناقه المسيحية الى قسطنطين جديد .

وإذ توطدت سلطة كلوفيس بفضل تأييد الكنيسة ، واصل فتوحاته ، فتحرك أولا نحو الشمال الغربى ، أى فى الأراضى الواقعة مابين نهر السين ، ونهر اللوار ، ونجح فى اخضاعها رغم أن هذه المنطقة ظلت منفصلة خلال الشطر الأعظم من التاريخ الفرنسى الوسيط، وأخيرا ، أصبح كلوفيس مستعدا لتنفيذ مشروعه العظيم ، وهو فتح المنطقة الواقعة تحت حكم القوط الغربيين من بلاد الغال ، أى إقليم أقطانيا Aquitaine . وتمكن فى بداية الأمر من تحييد البرجنديين سنة ٥٠٠م بأن عقد معهم معاهدة تحالف ، وترك لأبنائه مهمة إخضاع البرجنديين ، وتم له ذلك فى العقد الثالث من القرن السادس . وعلى الرغم من أن القوط الغربيين كانوا قد شادوا مملكة شاسعة تمتد من أسبانيا حتى أقليم بريتانى Britany كانت عاصمتها تولوز Toulouse؛ فقد تعرضت مملكتهم لكثير من العوامل التى أدت إلى سقوط مملكة القوط الشرقيين ، إذ أنهم كانوا مجرد محتلين عسكريين ولم يكونوا مستعمرين، كما أنهم كانوا آريوسيين ، وكان انتصار كلوفيس على القوط الغربيين سريعا وحاسما ، وقد منحته الكنيسة تأييدها التام فى هذا الغزو . وفى رواية جريجورى التورى يبدو الفتح الفرنجى لتولوز فى صورة الحرب المقدسة . وفى الوقت نفسه ، تقريبا ، عقد كلوفيس معاهدة تحالف مع الامبراطور البيزنطى ضد القوط الشرقيين ، وفى سنة ٥٠٧م أعلن الامبراطور مباركته للغزو الفرنجى لغالة ، وذلك بأن خلع على كلوفيس لقبى قنصل Consul وأغسطس augustus كلقبين شرفيين ، وقصد بهما إضفاء صفة القدسية فى صيغة رزينة على تحالف الامبراطور وملك الفرنجة ضد القوط الشرقيين ، والاعتراف بسيادة كلوفيس فى غالة ، وهكذا استطاع كلوفيس رغم عدم احترامه للنظم والأفكار الرومانية ، أن يحوز موافقة الامبراطورية على فتوحاته .

وبقيت خطوة واحدة فى طريق تأسيس مملكة الفرنجة ، وهى اتخاذ باريس عاصمة لهذه المملكة . فقد كانت باريس تقع داخل المنطقة التى كان الاستعمار السالى فيها كثيفا ، ولكن الكنيسة الفرنجية - الغالورمانية الجديدة كانت قادرة على أن تجد فى باريس مجدا كبيرا فالحقيقة أن الرواية التى شاعت عن القديس دونى St. Denis تلميذ القديس بولس ، بأنه كان أول أساقفة باريس واستشهد فى هذه المدينة ، هذه الرواية اكتسبت أهمية كبيرة فى مطلع القرن السادس من جديد ، وشجع كلوفيس والكنيسة هذه الأسطورة وصارت باريس إحدى المدن المقدسة فى العالم المسيحى ، كما صارت مونمارتر Montmartre موضعا لاحدى المزارات الشعبية . وعن طريق ربط باريس بالقديس دونى ، أكد كلوفيس مكانته كبطل جرمانى للمسيحية الكاثوليكية ، فقد كان يعلم تمام العلم أن هذا الدور الذى قام به هو الذى سهل الغزو الفرنجى لغالة تماما .

وكان قهر غالة شيئا ، وكان حكمها شيئا آخر ، فقد كان تأثير الميروفنجيين كحكام أقل كثيرا من تأثيرهم كقادة لعصبة الحرب الفرنجية . وفى كل الظروف كانت الأسرة الميروفنجية غارقة فى الصعاب والمتاعب الناتجة عن المفاهيم السياسية القاصرة للشعب الجرمانى ، وفوق ذلك لم تكن المملكة الفرنجية تقتصر فقط على مايعرف اليوم باسم فرنسا بل شملت أيضا شطرا كبيرا من النصف الجنوبى من ألمانيا الغربية ، وامتدت هذه المملكة لتغطى مساحة شاسعة من الأراضى ، بحيث عجزت عن إدارتها نظم ومؤسسات القرن السادس المحدودة . ولكن أخطاء كلوفيس وخلفائه ، وعدم الكفاية السياسية التى اتصف بها معظم الحكام الميروفنجيين ، جعلت الموقف يزداد سوءا ، وكانت النتيجة أن صارت السلطة السياسية فى فرنسا فى مطلع القرن السابع بأيدى الطبقة الارستقراطية المحلية فى المقاطعات ، بينما تبقى للأسرة الملكية التاج الملكى ولاشىء سواه .

ومن المؤكد أن الحاكم الميروفينجى فى عهد كلوفيس كان يحكم من مركز ظاهر القوة بل من موقع الحكم المطلق - مع موارد ضخمة ، واعتبر كلوفيس وخلفاؤه أن البلاد أملاك خاصة بهم، ومن ثم فإنه حين يكون لاحد الملوك أكثر من ابن كان يأمر بتقسيم الأملاك الملكية بين ورثته كما كان يقسم التاج أيضا فيما بينهم . ولأن الحكام الميروفنجيين قبضوا على التاج وموارده على أساس أنها ممتلكاتهم الخاصة ، فقد مارسوا الحكم دون استشارة أحد : وتمثلت النتيجة فى خليط مذهل فى غرابته من الفوضى والأوتوقراطية البدائية ، ولم يقدم الحكام الميروفنجيون للشعب شيئا سوى قيامهم بالحملات العسكرية بين الحين والحين ، كما كانوا يقضون أوقاتهم فى أرضاء نزواتهم وإثراء أقاربهم ومواليهم .

وحين يكون هناك أكثر من ملك - وهو ما كان شائعا أثناء القرن التالى لموت كلوف س - كان اهتمامهم الرئيسى يتركز فى محاربة كل منهم للآخر وقتله ؛ ولذا فإن تاريخ الأسرة الميروفنجية فى القرن السادس وأوائل السابع عبارة عن رواية غاصة بالخيانات والمذابح .

ولم يبذل هؤلاء الرؤساء البدائيون أية محاولة للحفاظ على النظام الإدارى الرومانى ، ولم يتبق لنا من وثائق فرنسا الميروفنجية سوى بعض المواثيق السيئة الصياغة .

ومن الواضح أن أعمال الملكية كانت تتم دون أية إمكانيات ، وكان المظهر الوحيد من مظاهر الحكومة الرومانية الذى حاول الميروفنجيون أن يحافظوا عليه هو النظام الضريبى . بيد أنهم فى هذا الصدد كانوا يفتقرون إلى الموظفين الأكفاء المخلصين ، كما لم يكن ثمة شعور عام بأن هناك ماتدفع الضرائب من أجله ، وبحلوا عام ٦٠٠ أندثرت كل آثار النظام الضريبى الرومانى . فقد كان الملك الميروفنجى الذى يريد التخلص من أحد موظفيه يرسله لجباية الضرائب ؛ حيث لايسمع عنه أبدا بعد ذلك . وكان النبلاء الفرنجة الغالورمان الذين تجمعوا وتآلفوا بسرعة متفقين فى عدوائهم لهذه الملكية التى لم تساهم بشىء لصالحهم ؛ بل جلبت عليهم نظاما بائسا يتسم بالطمع والعجز .

وحاول الميروفنجيون أن يكسبوا فى خدمتهم بعض النبلاء عن طريق منحهم الوظائف المصحوبة بالإقطاعات ، أى الأملاك المرتبطة بالوظيفة لكى تضمن إخلاص صاحب الوظيفة فى خدمته للملك . وفى النهاية حول النبلاء المقربون هذه الوظائف والإقطاعات إلى ممتلكات خاصة، وكونوا من أنفسهم أسرات حاكمة فى المقاطعات ، وهكذا تحولت ألقاب مثل دوق Duke الذى كان فى الأصل لقبا دالا على الممثل العسكرى المحلى للملك ، ولقب كونت Count الذى كان يطلق فى الأصل على المندوب القانونى الملكى ، إلى ألقاب أرستقراطية يتوارثها جيل بعد جيل مع مايحلق بها من إقطاعات فى العائلات الأرستقراطية الكبيرة .

ومع بواكير القرن السابع كانت الملكية قد جردت تقريبا من كل سلطتها على أيدى أرستقراطية الولايات ، فلم يترك للملوك الميروفنجيين سوى ظل من سلطانهم الأصلى ، وجزءا ضئيلا جدا من الممتلكات الملكية لمملكة تسودها الفوضى التامة من الناحية السياسية ، إذ كان الولاء كله مكرسا للحاكم المحلى ، بينما لم يكن للملك نصيب فى هذا الولاء . وقد مكن ملوك القرن السادس - الذين كرسوا جهودهم للإقتتال ضد بعضهم البعض - للارستقراطية من عملية اغتصاب النفوذ الحكومى ، والاستيلاء على ثروة الأسرة الميروفنجية ، وكان كل الحكام الميروفنجيين فى القرن السابع أما نساء أو أطفالا تقريبا ، هؤلاء الحكام الذين لايستحقون

عروشـهم هم الذين كـانوا يحددون دائـما عـلامـة البـداية فى طريق نهـاية السلطة الملكيـة طوال العصور الوسطى المبكرة .

أما الكنيسة ، أو بالأحرى أساقفة غالة الذين قدموا للكنيسة كل قياداتها ، فقد خاب أملهم إلى حد بعيد فى الأسرة الميروفنجية بسبب ما أصابها من تدهور ، إذ بنى رجال الكنيسة تحالفهم مع كوفيس الأول ، وعقدت الآمال العظيمة على الفوائد المتبادلة التى كان يمكن جنيها من وراء هذا الاتحاد بين الأسرة الملكية والأساقفة الكاثوليك . ولكن خلفاء كلوفيس بلغوا درجة من العجز والبدائية جعلت الأساقفة ينحازون إلى النبلاء ضد الملكية فى أواخر القرن السادس . ويكشف لنا أحد الأساقفة فى زمن لاحق ، وهو جريجورى التورى ، عن نظرة رجال الكنيسة فى أواخر القرن السادس . فبالرغم من أن جريجورى التورى كان أفضل تعليما من أى من زملائه القساوسة فإن رؤيته كانت محدودة وذاتية فقد انصرف عن خلفاء كلوفيس بسبب ضجره من جرائمهم وحماقتهم ، وأخذ يندب انهيار التحالف الذى كان قائما فى بداية القرن السادس بين الملكية والكنيسة ، وإذا كان هناك من يتباهى بقسطنطين الثانى الفرنجى ؛ فهم أحفاد كلوفيس فقط ولكن جريجورى (مبتدع هذا اللقب) أخذ منذ فقد الأمل فى إعادة بناء التحالف القديم بين الأسرة الملكية والكنيسة يكرس نفسه بصفة أساسية لتشييد ثروة ومكانة كنيسة تور ، على نحو ما كان أى دوق أو كونت يكرس نفسه لخدمة مصالح أسرته .

وهكذا ، دفع الوضع السياسى لمملكة الفرنجة - بما كان له من تأثير على النزعات المحلية والإقليمية - برجال الكنيسة إلى أن يرموا بثقلهم فى جانب الأرستقراطية ، كما أن الكنيسة بتخليها وانفصالها عن الملكية الفرنجية فى القرنين السادس والسابع سببت ضعفا متزايدا باستمرار فى كيان الأسرة الميروفنجية . وكانت الكنيسة هى فقط القادرة على تقديم القيادة الكفء والموظفين المطلوبين لبناء حكومة قادرة فى فرنسا . ولكن الأساقفة باتباعهم سياسة الانفصال عن الملكية ، أضروا الكنيسة فى ذاتها بهذه الخطوة أيا كان المبرر الذى يمكن أن يوضح موقفهم فى ضوء انعدام الكفاية الشخصية لأفراد الأسرة الميروفنجية . لقد كانت الكنيسة الغالية الرومانية القديمة ، التى تألقت سنة ٤٠٠ بفضل ثقافتها وإخلاصها . قد صارت سيئة السمعة سنة ٧٠٠ بسبب جهلها وافتقارها إلى النشاط، وكان السبب الرئيسى فى هذا كامنا فى اتجاه جريجورى التورى وزملائه إلى ربط مصالحهم بمصالح النبلاء الذين صارت أنانيتهم ونزعتهم الاقليمية من خصائص رجال الكنيسة فى فرنسا فى القرن السابع ، ولو كان قد ظهر من بين الميروفنجيين عدد قليل من الحكام من طراز ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، لكان من الممكن بالتأكيد تجنب تدهور الكنيسة الفرنسية والملكية الفرنسية معا فى أواخر القرن السادس والقرن السابع .

وقد لعبت الملكية الميروفنجية دورا صغيرا فى التأثير على مجرى التغيرات الاجتماعية العظيمة التى طرأت على فرنسا فى القرنين السادس والسابع ، وبينما لم تبذل القيادات الملكية والكنسية فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ٧٠٠ سوى القليل من أجل إقامة نظم دائمة ، تم اندماج العناصر الفرنجية بالعناصر الغالورمانية على النحو الذى خلق البناء الاجتماعى الذى كان على الزعامة أن تتجه نحوه وأن تناضل من أجله فيما بعد . إذ كان المجتمع الفرنجى أوائل القرن الخامس منظما على أسس بسيطة نوعا ما ؛ فلم تكن الأسرة الملكية والنبلاء يشكلون أكثر من عشر الشعب الفرنجى ، وفى أسفل السلم الاجتماعى فى مجتمع الفرنجة الساليين كانت تقبع جماعة تكون حوالى ٧٠٪ من الشعب وتتألف من الفلاحين الأحرار والجنود . وقد استقطبت هذه المجموعة الكبيرة تحت ضغط الغزوات والحروب التى شهدها القرن الخامس ، إذ برز من صفوفها عدد قليل فى مجال القيادة العسكرية ولحقوا بطبقة النبلاء بينما فقد الكثير حريتهم وهبطوا فى السلم الاجتماعى درجة أدنى أو أكثر .

وزاد اندماج السكان الوطنيين من الغالورومان بالمجتمع الفرنجى من سرعة التدهور ، وذلك لأن كثيرين من الفرنجة الأحرار فقدوا حريتهم ، ولما كان النبلاء الفرنجة قد ربطوا أنفسهم بالارستقراطية ، فإنهم حاولوا بطبيعة الحال إجبار الجندى الفلاح الفرنجى على حال من العبودية معادلة لما كانت عليه أحوال الطبقة الدنيا فى المجتمع الغالورمانى . فقد كان مايقرب من نصف سكان غالة سنة ٤٠٠ أناسا غير أحرار ، وكان ٣٠٪ منهم على الأقل عبيدا لاحقوق لهم ، أما الباقون فكانوا مزارعين شبه معدمين Coloni وعلى قمة السلم الاجتماعى فى غالة تربع ملاك الأراضى الأثرياء الذين كان منهم دائما الأساقفة وغيرهم من زعماء الكنيسة وشكلت طبقة الملاك هذه حوالى ١٥٪ من مجموع السكان ، بينما تألفت نسبة الخمسة عشر بالمائة الباقية من الفلاحين الأحرار وصغار الكنسيين . وأخيرا سنة ٤٠٠ ، لاسيما فى جنوب فرنسا حيث كان السكان أكثر كثافة ، عاش الكثيرون من سكان المدن الذين لاينتمون إلى ملاك الأراضى أو إلى طبقات الفلاحين المختلفة ، وهؤلاء البورجوازيون الذين عملوا بالتجارة والصناعة كانوا يشكلون حوالى ٢٠٪ من مجموع سكان غالة .

وما أن بزغت سنة ٦٠٠م حتى كان المجتمعان الغالورمانى والفرنجى قد امتزجا تماما ، وظهر بناء اجتماعى فرنسى جديد ، فقد كان التزاوج بين العائلات الفرنجية والعائلات الغالو - رومانية سريعا وشاملا . ويعتبر جريجورى التورى آخر أساقفة غالة الذين يمكنهم أن يزعموا أنهم انحدروا من صلب الارستقراطية الغالورومانية تماما ، وقد تميز المجتمع الفرنسى الجديد بمجموعة كبيرة من الأقنان الذين كانوا يمثلون أدنى فئة فى المجتمع . وربما تكون نسبتهم قد

بلغت نحو ٦٠٪ من مجموع السكان ، وتكونت طبقة الأقنان من غير الأحرار فى المجتمع الغالو - رومانى والمجتمع الفرنجى المبكر ، بالإضافة الى العديد من الرجال الأحرار من الفلاحين الفرنجة المطحونين . ولم يكن القن عبدا شخصيا لسيده ، بل كان مرتبطا بالأرض وكانت له حقوق قانونية واقتصادية معينة ، وكان المفروض أن يقوم السيد بحمايته وأن يمده بوسائل العون الاقتصادى رغم أنه كان من المألوف أن يتجاهل السيد كلا الأمرين معا ، إذ كان كا مايبغيه من القن هو العمل فى أرضه وضياعه أو جزءا من محصوله ، وربما كان يطلب الأمرين معا . وكان ثمة تدرج كبير داخل طبقة الأقنان ، فقد كان بعض الأقنان ميسورى الحال تماما ، على حين كان البعض الآخر على حافة الموت جوعا ، ومع ذلك ، فإذا كان هناك اختلاف فى منشأ هذه الطبقة المستعبدة من الناحية الاقتصادية فإنه كان هناك وضع قانونى واحد يجمع أفرادها ، إذ لم يكن باستطاعة القن أو أحد أفراد أسرته أن يترك ضيعة السيد - أو الدائرة Manor كما عرفت فيما بعد - وكان القن ملتزما بأن يقدم جهده وواجبات التبعية لسيده ، كما كان واقعا تحت طائلة اختصاص المحكمة الواقعة فى دائرة السيد والتابعة له .

وربما كان القن أسعد حالا من عبيد الضيعة الرومانية Latifundia وربما كانت كمية طعامه أقل ، ولكنه تمتع بقدر أكبر من الحرية الشخصية ، وهو ما دعا بعض المؤرخين إلى الكلام عن "الاصلاح الاجتماعى " فى فرنسا القرن السادس حين أخلى نظام العبودية الرومانى مكانه لنظام القنية الذى عرفته العصور الوسطى . ومن الممكن تبرير هذا الحكم بالقول بأن البؤس الكلى قد استبدل ببؤس جزئى ، بيد أن التحول فى وضعية الفلاحين الاقتصادية والقانونية لم يستطع أن يرتفع بأكبر طبقات المجتمع وأدناها مرتبة عن مستوى الوجود الحيوانى ، وحتى القرن الثانى عشر على الأقل لم تكن حياة فلاح العصور الوسطى تختلف عن حياة حيوانات الحقل ، كانوا يكدون ، ويربون ، ثم يموتون ، كما كانوا يفتقرون فى القرن السادس حتى إلى مايمكن أن يقدمه لهم القسيس المحلى من الراحة والطمأنينة . إذ لم تكن هناك أبرشيات حتى ذلك الحين وكان الذى يقوم بتلبية مطالب الفلاحين الدينية هو القسيس الذين كان يزورهم بين الحين والآخر ترسله كاتدرائية أقرب مركز أسقفى ، وإذا كان فلاح القرن السادس أو القرن السابع يرى القسيس ويتلقى الأسرار المقدسة مرة فى العام فإنه كان يعد محظوظا للغاية . وفى مثل هذه الظروف لن يدهشنا أن نعرف أن مسيحية طبقة الأقنان كانت مسيحية إسمية تماما ، فسواء تم تعميد الفلاح أم لم يتم ، فإنه كان يستمر فى عبادة قوى الطبيعة كما كان يفعل من قبل وحتى عندما كان يفكر فى كونه مسيحيا ، وكانت رؤيته الدينية محكومة بعبادات الاخصاب والخرافات ، لقد كان عالم المسيحية بالنسبة لفلاح العصور الوسطى الباكرة خليطا من القديسين ، والآثار المقدسة والعفاريت .

وفى سنة ٦٠٠ كانت أعداد الطبقة الوسطى فى كل من المجتمع الفرنجى المبكر والمجتمع الغالو - رومانى قد تناقصت إلى حد بعيد . ومن المحتمل أنه لم يكن هناك أكثر من ١٠٪ من جمهور الفلاحين يحتفظون بحريتهم ، وقد تضمن هذا العدد صغار رجال الكنيسة . ومع تدهور فرنسا الاقتصادى ، والتناقص السريع فى عدد المدن الذى حدث فى أعقاب الغزوات الفرنجية اختفت الطبقة البورجوازية تماما ، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك أكثر من ٣٪ بين الفرنسيين سنة ٦٠٠ يسكنون المدن .

وعلى قمة الهرم الاجتماعى تربعت أقلية من الناس تمتلك ثروات خاصة طائلة ، كما تتمتع بالنفوذ والسلطان . وتكونت هذه الفئة من العائلة المالكة وأرستقراطية الولايات الكبار - أى الدوقات والكونتات بضياعهم الشاسعة وسلطانهم الاقليمى . ولم تكن هذه الطبقة المكونة من كبار الملاك - والتى يحتمل أنها ضمت الأساقفة وبعض القساوسة الهامين - تشكل أكثر من ٢٪ من مجموع السكان . وبالاضافة إلى هذه الطبقة الارستقراطية الكبيرة ، وجدت مجموعة كبيرة للغاية من الملاك المتواضعين والجنود الأحرار العاديين ، وكان بعض هؤلاء من ملاك الأراضى الأثرياء ولكن البعض الآخر لم يكونوا أكثر من جنود مأجورين وهم الذين كانوا يشكلون جيوش الملك والارستقراطيين . وربما كانت نسبة طبقة الملاك العاديين والجنود هذه قد بلغت حوالى ٢٥٪ من سكان فرنسا سنة ٦٠٠ .

أما البناء الاجتماعى فى فرنسا التى كانت أهم مملكة قامت على أنقاض الامبراطورية الرومانية الغربية فقد كان محكوما بالسادة والأقنان ، لقد اختفت الحياة الحضرية تماما ، وانحصرت الزعامات كلها فى طائفة صغيرة من الأمراء الملكيين وكبار الأرستقراطيين ، وكان اهتمام أولئك الرجال الأساسى منصبا على تكوين ثروات عائلاتهم ونفوذها ، وكانوا ينفقون معظم سنى حياتهم فى الحرب ، كما أنهم جهلوا فنون الحكم وعميت أبصارهم عن رؤية مثل العدالة والسلام . ولم يكن لديهم أى فهم للمشكلات الاقتصادية ، وكانت المسيحية بالنسبة لهم عالما من السحر ، والمعجزات وسير القديسين . ومن المحتم أن تؤدى بنا المقارنة بين هؤلاء القادة وبين رجال من أمثال ثيودوسيوس الأول وأوغسطين وسيماخوس ، إلى استنتاج أن انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية كان كارثة سياسية واقتصادية وثقافية من أفدح مايمكن .

# الفصل الخامس

# بيزنطة والاسلام [1]

## ١- لعنة السلطة البيزنطية

خضعت نظم الحكم ، والمجتمع والاقتصاد فى الغرب لعوامل التغير والتحول بفعل الغزوات الجرمانية ، بيد أن أوربا لم تترك لكى تتمتع وحدها بثمار هذه التغيرات الكبيرة فى القرنين السادس والسابع ، فقد تعرض عالم البحر المتوسط للغزو مرة أخرى من جانب البيزنطيين والمسلمين ، ولم يكن تأثير بيزنطة والإسلام على نفس درجة التأثير الجرمانى على أوربا الغربية ، إلا أن أهداف جستيان الأول ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لعبت دورا هاما فى تشكيل الحضارة الأوربية الحديثة .

ولقد كانت حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية على الدانوب ، والتى كانت حمايتها من مسئولية حاكم القسطنطينية ، هى أول ما اخترق الجرمان من حدود العالم الرومانى ، كما كانت أول هزيمة كبرى لحقت بالجيوش الرومانية على أيدى الجرمان هى تلك التى لحقت بالامبراطور الشرقى فى معركة أدرنة (أدريانوبل Adrianople) . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الإمبراطورية الغربية هى التى إنهارت فى القرن الخامس ، فلماذا إذن نجت الامبراطورية البيزنطية من الغزوات الجرمانية وعاشت بعدها ؟ من الممكن أن نقدم بعض الإجابات على السؤال . فأولا : كان سكان الامبراطورية الشرقية يتفوقون كثيرا من حيث العدد على سكان الجزء الغربى اللاتينى من حوض البحر المتوسط ، كما كانوا يتفوقون عليهم فى مستواهم الحضارى . ولم يكن الجرمان على درجة من الجهل بحيث لايدركون أنهم سوف يواجهون مهمة أكثر صعوبة إذا ما اتجهوا صوب الشرق بعد عبورهم لنهر الدانوب . ثانيا : أن الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وجدت فى القسطنطينية المنيعة بؤرة ومركزاً للحكم والثقافة والاقتصاد ، ولقد احتاج الأمر من المسلمين الذين كانوا يتفوقون على الجرمان عسكريا ، إلى سبعة قرون من الزمان حتى نجحوا فى الاستيلاء على القسطنطينية ، ومن الواضح أن الجرمان كانوا سيواجهون بالفشل أمام القسطنطينية ؛ وهو الأمر الذى أدركه الجرمان تماما . ومع ذلك فانه لم يكن هناك طريق آخر يمكن أن يدخل منه الجرمان إلى الشطر الغنى من الامبراطورية البيزنطية،

---

(١) عنوان الفصل كما كتبه المؤلف هو "جستنيان ومحمد" Justinian and Mohammed .

سوى طريق القسطنطينية ذاتها ، وقد كان لأباطرة الغرب فى القرن الخامس قلعة حصينة أيضا هى رافنا ، ولكن الجرمان كانوا يمرون فى بجوارها فى يسر دون أن يتعرضوا لأية مخاطرة ثم ينسابون إلى داخل ايطاليا .

أما السبب الثالث فى بقاء الامبراطورية الشرقية فهو قدرة الحكام البيزنطيين وكفاءتهم أثناء القرن الخامس ، فقد قاموا بالإصلاحات الحكومية مثل تخفيض الضرائب الباهظة التى كان أباطرة القرن الرابع قد فرضوها لكى يضمنوا تأييد الشعب لهم . وقد شجعوا التعليم كما وضعوا مجموعة قانونية شاملة . فقد وضع المشرعون البيزنطيون أول مجموعة قوانين شاملة حوالى سنة ٤٢٥ ، اقتداء بمشرعى القرن الثالث ، وسميت هذه المجموعة باسم الامبراطور ثيودوسيس الثانى Theodosius II ، وكان الحكام البيزنطيون على درجة من الحكمة جعلتهم لايتركون زمام السلطة العسكرية إلى القادة الجرمان على نحو مافعل حكام الغرب ، وأخيرا ينبغى علينا أن ندرك أنه كان للغزوات الجرمانية تأثير متراكم على قوة الامبراطورية وثروتها فى الغرب ، وهو الأمر الذى أمكن للشرق أن يتجنبه . فبسبب ضياع أراضى الامبراطورية الغربية ضاعت منها أيضا موارد الضرائب ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى تزايد الصعوبات التى واجهتها الحكومة فى سبيل الاحتفاظ بجيش قوى . كما أن نضوب مصادر القوة العسكرية من ناحية أخرى ، تسبب فى ضياع المزيد من أقاليم الامبراطورية مما زاد فى تدهور دخل الامبراطورية . أما الامبراطورية البيزنطية ، فقد استطاعت أن تتجنب مثل هذا الانهيار ، ومن ثم أمكنها أن تحافظ على منابع ضريبية ثابتة طوال القرن الخامس ، فضلا عن أن موقع القسطنطينية كمركز تجارى عظيم بين الشرق والغرب ساهم فى زيادة موارد الامبراطورية .

وقد بذل الامبراطور جستنيان الكثير من الجهد لتدبير الموارد ، لأنه كان مستعدا لاسترداد الغرب ، وإذ لم يكن هناك أمبراطور فى الغرب بعد سنة ٤٧٦ فقد أدعى الامبراطور الشرقى أن له السيادة على بلاد الغرب اللاتينى ، كما التزم بالمبدأ القائل بأن السلطة الإمبراطورية Imperium سلطة لاتقبل التحول وكان يتطلع إلى الوقت الذى سوف يتمكن فيه من إعادة بناء سلطته فى روما على نحو فعال . وفى مطلع القرن السادس بدا واضحا أن محاولات القوط الشرقيين لخلق إمبراطورية جرمانية فى حوض البحر المتوسط تشكل خطرا يحول دون تحقيق أهداف بيزنطة ، ونتيجة لذلك نفذ الامبراطور جستنيان فى سنة ٥٣٠ مشروعه لاسترداد الغرب ، وهو المشروع الذى كان أسلافه يعدون له على مدى قرن من الزمان .

لقد كان جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥) صاحب أثر على تطور بيزنطة يفوق تأثير أى امبراطور آخر منذ زمن قسطنطين حتى القرن العاشر . وكان خال جستنيان قائدا مقدونيا وتمكن من الاستيلاء على عرش الامبراطورية ، ذلك الرجل هو الامبراطور جستين الأول Justin I (٥١٨-٥٢٧) الذى درب ابن شقيقته على مهام الحكم لكي يخلفه على عرش الامبراطورية ، ولاشك أن جستنيان كان أفضل حكام العصور الوسطى من حيث درجة تعليمه وما حباه الله به من ذكاء فائق ولو لم يكن القدر قد أتاح له فرصة الجلوس على عرش بيزنطة لكان من المحتم أن يصبح محاميا كبيرا ، أو عالما فى اللاهوت . وقد كان رجلا صارما متزمتا ، كما كان من أكثر الرجال كدا فى العلم من أجل الامبراطورية التى كرس لها نفسه ، أما زوجته ثيودورا Theodora التى كانت فيما مضى راقصة فى سيرك ، فقد تحولت إلى امرأة نابهة مرموقة ساعدت زوجها كثيرا ، فقد كانت الجماهير التى تحتشد فى المضمار البيزنطى قد نظمت نفسها فى فئات غريبة تشكل منتديات رياضية متعصبة وجمعيات سياسية . وفى أوائل حكم جستنيان - وأثناء حوادث الشغب التى ثارت بين هذه الفئات المتصارعة ، والتى لم يكن باستطاعه الامبراطور أن يسيطر عليها - أحس جستنيان أنه مرغم على التنازل عن العرش ، ولكن ثيودورا التى تحولت من مجرد عاهرة إلى امبراطورة لم تكن لتترك زوجها يتخلى عن عظمته الامبراطورية . وبالفعل استطاع جستنيان أن يستعيد السيطرة على الموقف[٢]، ومالبث أن تحول حكمه الذى كان على وشك السقوط إلى حكم ظل خالدا فى ذاكرة الأجيال لأسباب عديدة .

---

(٢) كانت أحزاب الملعب مما ورثته الامبراطورية البيزنطية عن الامبراطورية الرومانية القديمة ، وكانت فى البداية أربعة ثم اقتصرت فى نهاية الأمر على حزبين فقط هما : الخضر والزرق ، وكانت أحزاب الملعب (السيرك) تتمتع بقوة سياسية ضخمة مما حدا بالدولة إلى تعيين عدد كبير من الموظفين على رأس كل حزب يتولى انتخابهم عدد من الأثرياء الذين ينفقون على مؤسسات التدريب والسباق ، فضلاً عن العاب الدببة والكلاب والالعاب البهلونية التى كانت تجرى أثناء الاستراحة ، وكان الحزبان يشلان خليطاً عجيباً من الانتماءات السياسية والاجتماعية والدينية فضلا عن الرياضة . وقد أثار النزاع بينهما كثيراً من الاضطرابات وفى بداية عهد جستنيان حاول أن يسيطر على زمام الأمور بإخماد الاضطرابات التى يسببها الزرق والخضر ، وحين حاول والى بيزنطة إعدام سبعة من الحزبين لاشتراكهم فى بعض الحوادث ثارت ثائرة الحزبين فاتحدا سويا وتحديا الامبراطور ، وسرعان ما اشتعلت نيران الثورة التى اتخذ المشاركون فيها كلمة Nika اليونانية (ومعناها إنتصر) لتكون كلمة السر ، وقد عرفت هذه الحركة باسم ثورة نيقا نتيجة لذلك . =

ولايزال هناك أثران باقيان من عهد جستنيان هما كاتدرائية أيا صوفيا St. Sophia (الحكمة المقدسة) فى القسطنطينية ، ومجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis المعروفة بمجموعة جستنيان ، وتعتبر كنيسة أيا صوفيا أعظم منجزات فن العمارة البيزنطى لأن طرازها يخلد الطراز المعمارى للكنائس التى صممت فى أواخر العصر الامبراطورى على طراز البازيليكا Basilica الرومانية . ولكن حجم كاتدرائية أيا صوفيا وخصائصها الكلية جعلت منها واحدة من أبرز إنجازات الفن والهندسة المعمارية فى العصور الوسطى ، إذ أن داخل هذا البناء الفخم مزين بفسيفساء يصور الإمبراطور فى صورة ممثل الرب على الأرض ، بشكل يجعل منها دعاية لعقيدة الحكم الامبراطورى . وفى السنوات الأخيرة فقط أزيلت الطبقة التى كانت تغطى الفسيفساء والتى كان الأتراك قد وضعوها ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى تسهيل تقدير المهارة والموارد التى سخرت لبناء الكنيسة الكبيرة التى افتتحها جستنيان ، كذلك شيد جستنيان كنيسة سان فيتالى St. Vitale فى رافنا ، وهى أيضا كنيسة لافتة للنظر بسبب فسيفسائها الفخم .

ومن بين جميع أعمال الأباطرة تعتبر مجموعة القانون المدنى أفضل وأهم الأعمال المعروفة من حيث تأثيرها على الحضارة ، وربما تكون مجموعة جستنيان هذه هى الإنجاز الرائد فى تاريخ التشريع ، وهى ليست أكثر من عملية لصياغة التاريخ القانونى لامبراطورية كبرى على مدى قرون عديدة فى مجلدات قليلة . ولم يكن من المستطاع أن يتم انجازها سوى برعاية أمبراطور يؤمن إيمانا راسخا بأنه "ليس هناك ماهو أجدر بالاهتمام من سيادة القانون" ويرحب بتكريس كل الموارد المتاحة فى دولته من أجل بدء هذا العمل الضخم وإنجازه . وكلف جستنيان أعظم مشرعى الامبراطورية لعمل مجموعته ، ووضع أمامهم برنامجا لإعداد مجموعة تضم جميع القوانين الرومانية على أساس من المنطق والترابط ومبادىء العدل وكل مايدعم السلطة

---

= وكاد الأمر يفلت من جستنيان وحاول الهرب ولكن شجاعة ثيودورا التى رفضت الهرب جعلت زوجها يتدارك الموقف فأمر جنوده بالقضاء على الفتنة ، كما قدمت رشوة للرزق لكى يتخلوا عن الخضر ، وانتهت المذبحة التى استمرت حتى منتصف الليل بمقتل حوالى ثلاثين ألفا من الحزبين وكانت ضربة لم يفق منها الرزق والخضر أبداً.

لمزيد من التفاصيل أنظر موس : ميلاد العصور الوسطى (ترجمة عبد العزيز جاويد ، الألف كتاب ٦٢٣) ص ١٤٩-١٥٣ ، أومان : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة د. مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣) ص ٥٩ ومابعدها . (المترجم)

الامبراطورية ، ومجموعة جستنيان تحبذ الحكم المطلق إلى حد بعيد فالامبراطور يعتبر بمثابة القانون الحى ، كما أن لإرادته قوة القانون التى لاتقبل التحدى "فالامبراطور وحده هو الذى يستطيع أن يضع القوانين ولايجب أن يفسرها سواه" وتتناقض مجموعة جستنيان القانونية تناقضا جذريا مع قانون الشعب الجرمانى من حيث أن هذه المجموعة تكرس السلطة الاوتوقراطية ، ومن حيث ماتتسم به من عقلانية وتنظيم ، ومن حيث مبادئها السامية عن العدالة والمساواة ، ومن حيث التزامها نظام الاجراءات القانونية التى تبرز سلطة القاضى فى المحكمة باعتباره ممثلا للامبراطور .

ولم تكن مجموعة جستنيان تدرس فى الغرب فى العصور الوسطى الباكرة ، ولكنها صارت أساسا لجميع النظم التشريعية فى البلاد الأوربية باستثناء أنجلترا ، بعد منتصف القرن الحادى عشر . حقيقة أن قبول الغرب للقانون الرومانى على هذا النحو قد جلب نتائج سياسية سيئة - لأنه وضع الأساس القانونى للحكم المطلق الذى عرفته العصور الوسطى المتأخرة ، وأوائل العصر الحديث - إلا أن خصائص مجموعة جستنيان الأخرى تتفق كثيرا مع الاتجاهات التحررية والعقلانية ، وهو ماجعل من هذه المجموعة نظاما قانونيا لايبارى . فضلا عن أنه ينبغى علينا أن نتذكر أنه إذا كانت مجموعة جستنيان قد روجت لمبادىء الحكم الأوتوقراطى الامبراطورى الرومانى - البيزنطى ، فمن غير المحتمل أن يكون هناك أحد غير الحاكم المطلق يمكن أن تتوفر لديه الموارد والسلطة الكافية لانجاز مثل هذا العمل القانونى الهام . ومن خلال النظام القانونى العظيم الآخر فى تاريخ الثقافة الغربية ، وهو القانون الانجليزى العام ، تتجلى الحقيقة التى تؤيد هذا القول ، بل إننا فى العصر الحاضر لانعتد بدرجة تجميع القانون العام إذا ما قارناها بما بذله جستنيان فى سبيل إنجاز هذه المجموعة القانونية ، وإضفاء الصفة العقلانية عليها منذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

ومن الممكن أن تكون كنيسة أيا صوفيا ، ومجموعة القانون المدنى آثارا كافية لأغلب الحكام ؛ ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لجستنيان ، ذلك أن جستنيان لم يهدأ حتى صار حاكما على المدينة الخالدة (روما) لعدة أسباب أولا : تقاليد الحكم الاوتوقراطى الامبراطورى. ثانيا : أن جو البلاط المحموم الذى كان يقدس الامبراطور قد رفعه إلى مرتبة نائب الجلالة السماوية. ثالثا : طموح جستنيان اللا محدود ، ولم يرد على بال الإمبراطور على الإطلاق أى تساؤل عما إذا كانت مثل هذه الحرب المرهقة لاسترداد الغرب فى صالح شعبه ورفاهيته أم لا ، وذلك لأن هذه لم تكن طريقة الأباطرة البيزنطيين فى التفكير . بل إن جستنيان لم يفكر حتى فيما

إذا كانت بيزنطة تملك من المواد ما يكفى لشن هذه الحرب الباهظة التكاليف لاستعادة الغرب ، وتجاهل تهديد الجرمان والسلاف والمغول على جبهة البلقان والامبراطورية الفارسية فى الشرق لأمن الامبراطورية . ولما كانت أطماع وتهديد القوط الشرقيين قد أثارت حفيظته فقد صمم جستنيان عند اعتلاء العرش على إعادة فرض سلطته " على البلاد التى كان الرومان القدامى يملكونها ، حتى حدود المحيطين ، والتى ضاعت بسبب " الاهمال المتوالى" . وإن إمبراطورا يزعم فى مجموعته القانونية الكبيرة أنه " التقى المحظوظ ذو السمعة الحسنة ، الفاتح ، المنتصر والمقدس إلى الأبد " ليس بالرجل الذى يحسب للفشل حسابا ، لقد أرسل جيشه وأسطوله لغزو شمال أفريقيا بعد سنوات ثلاث فقط من توليه العرش "معتمداً على عناية الثالوث المقدس".

وحتى قبل أن يرهق جستنيان موارد امبراطوريته العسكرية والاقتصادية فى ميادين المعارك بايطاليا ، فإنه كان قد حفر بسياسته الدينية مقبرة النفوذ البيزنطى . فمنذ القرن الرابع أخذ أباطرة بيزنطة يتعرضون للمتاعب بسبب المشكلات الدينية واستطاع ثيودوسيوس الكبير أن يقضى على المذهب الآريوسى ، ولكن مذاهب لاهوتية مخالفة جديدة استطاعت أن تستحوذ على تأييد كبير فى مصر وسوريا خلال القرنين الخامس والسادس ، وكانت هذه المذاهب مستوحاة من الفلسفة الافلاطونية من جهة ، ومن الشعور الوطنى الذى وجد متنفسا فى العقيدة من جهة أخرى ، فقد تخلت جموع كبيرة من أبناء مصر وسوريا عن المذهب التقليدى فى التجسد ، وأخذوا بالمذهب المونوفيزيتى Monophisite (مذهب الطبيعة الواحدة) ، الذى يزعم أن للمسيح طبيعة روحية واحدة ، وكان هذا الرأى ملعونا فى نظر الكنيسة اللاتينية فى الغرب لأنها كانت تؤمن بأن فى شخص المسيح طبيعتين ، احداهما إنسانية ، والثانية إلهية . هذا النزاع الدينى بين الكنيسة اللاتينية من جهة ، ومسيحيى مصر وسوريا من جهة أخرى ، وضع الامبراطور فى موقف صعب للغاية ، فاذا كان يريد أن يحوز رضاء وولاء البابا - الذى بدونه يتضاءل أمله فى استعادة سلطانه على ايطاليا - فانه لايستطيع موافقة المونوفيزيتيين على رأيهم : ومن ثم أرغم الامبراطور اساقفة الشرق فى مجمع خلقدنية Chalcedon ، الذى انعقد سنة ٤٥١ ، على قبول مذهب الكنيسة اللاتينية فى طبيعة المسيح بالصورة التى طرحها البابا ليو الأول ، بيد أن هذا لم يحل المسألة موضع الخلاف على أية حال . وفى أواخر القرن الخامس انحاز الإمبراطور إلى جانب المونوفيزيتيين ، مما جلب عليه سخط البابا جيلازيوس الأول . وأثناء الأعداد لغزو ايطاليا فى عشرينيات القرن السادس ، عاد الامبراطور جستين الأول إلى تأييد وجهة نظر الكنيسة الغربية حتى يضمن تأييد البابا له ضد القوط الشرقيين .

وواصل جستنيان سياسة خاله ، ولكن ذلك لم يكن إنطلاقا من الأسباب السياسية ذاتها ، ذلك أنه اعتقد ، بوصفه واحدا من رجال اللاهوت المتمرسين ، أن المونوفيزيتيين على خطأ ، وكان قراره هذا مبنيا على أسس مذهبية . وقد شن حملة إضطهادات قاسية ضدهم استمرت طوال حكمه وحكم خلفائه . وكانت النتيجة أن ساد السخط فى المدن الكبرى فى مصر وسوريا اللتين كانتا أهم أجزاء الامبراطورية وأكثرها قيمة بعد القسطنطينية . وبنهاية عهد جستنيان كان أتباع مذهب الطبيعة الواحدة المضطهدون قد تخلوا عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية . وأمست مصر وسوريا غنيمة سهلة لأى فاتح يبدى تسامحه تجاه المعتقدات الدينية لكنائس شرق البحر المتوسط المخالفة . وأيا ما كان يمكن أن يقال عن آراء جستنيان المذهبية من وجهة النظر اللاهوتية الخالصة فإن هذه الآراء قد جرت المصائب على وحدة الامبراطورية وأمنها ، على حد قول المؤرخ الكبير بيورى J.B.Bury الذى كتب عن تاريخ بيزنطة ، فقد علق على سياسة جستنيان الدينية بقوله : "إن وجود رجل لاهوت على العرش يمثل خطراً عاماً".

وهكذا كانت الآثار البعيدة المدى لمنازعات جستنيان مع المونوفيزيتيين فى غير صالح السلطة البيزنطية والنفوذ البيزنطى . فقد سهلت هذه المنازعات من إمكانية فتح ايطاليا بسبب المساعدات التى قدمتها البابوية للجيش الامبراطورى . والحقيقة أن جستنيان ، فى بداية حكمه ، مضى شوطا بعيدا فى سبيل كسب البابا إلى جانبه : فقد أصدر مرسوما يعترف بفصل الاختصاصات التشريعية للكهنوت Sacredatium عن الاختصاصات الامبراطورية Imperium وكان من الطبيعى أن يتخلى جستنيان عن قبوله للنظرية الجيلازية على هذا النحو وأن يرجع كلية إلى سياسة القيصرية - البابوية التى كانت سياسة بيزنطية تقليدية ، ولكن سنة ٥٣٠ كان جستنيان على استعداد لأن يخاطر بكل شىء فى سبيل نجاح مغامرته الكبرى، وكان على استعداد لأن يخاطر بكل موارده العسكرية والاقتصادية فى سبيل استعادة روما . وكان مستعدا لأن يعادي جموعا كبيرة من السكان فى أكبر مدن الأمبراطورية ؛ بل وأن يتغاضى عن عقائد البابوية السياسية ، وهكذا تعلق مصير كل من بيزنطة والغرب الأوربى على نجاح هذه المقامرة الكبرى .

كانت المرحلة الأولية من الغزو البيزنطى للغرب اللاتينى سهلة أمام الجيوش البيزنطية ، فقد هزمت قوات جستنيان ، تحت قيادة القائد العبقرى بلزاريوس Belisarius ، مملكة الوندال فى شمال أفريقيا فى سهولة ، وفى سنة ٥٣٣ كان بلزاريوس مستعدا لعبور البحر المتوسط إلى ايطاليا ، ورحب أسقف روما بالغزاة البيزنطيين ، وتخلى السكان الايطاليون والبابا عن

حكامهم من القوط الشرقيين الآريوسيين ، وكان القوط الشرقيون قد فقدوا ملكهم ثيودوريك ، ولم يكن هناك زعيم مثله يقودهم من بعده ؛ بيد أنهم على عكس الوندال ، لم ينسوا كيف يكون القتال . كان من شأن أي انتصار عسكرى سريع فى ايطاليا أن يجعل من خطة جستنيان حقيقة واقعة ، وأن يعيد عقارب الزمن إلى القرن الرابع (٣).

وبدلا من أن يحدث ذلك انقضت حوالى ثلاثين عاما حتى تمكن البيزنطيون من القضاء على مقاومة القوط الشرقيين . وقد عرفت هذه الحرب التى دمرت اقتصاد ايطاليا بالحرب القوطية ، إذ عانت ايطاليا من ضربة قاصمة لم تفق منها حتى القرن العاشر ، وبمنتصف القرن السادس حدث انهيار ملحوظ فى الحياة الحضرية ؛ فقد كانت كبريات المدن الايطالية مثل روما ونابولى وميلانو تعانى من نقص مخيف فى السكان ، وتحولت مدن البحر المتوسط الكبرى إلى مدن خاملة . وفى سنة ٥٠٠ كتب أحد المعاصرين يقول: "لم يبق لسكان ايطاليا شىء سوى الموت" وتعتبر الحرب القوطية بمثابة نقطة التحول الحاسمة فى تاريخ إيطاليا الاقتصادى والاجتماعى فى العصور الوسطى الباكرة ، ذلك أن هذه الحرب كانت تدهورا وانهيارا يفوق فى نتائجه الغزوات الجرمانية التى حدثت فى القرن الخامس كثيرا ، لقد تدهورت إيطاليا بسرعة ، وفقدت مكانتها كزعيمة لأوربا على الصعيد الثقافى والاقتصادى ، ولم تبدأ فى استرداد هذه المكانة إلا فى أواخر القرن الحادى عشر .

ولقد كانت الحرب القوطية الطويلة كارثة كبرى بالنسبة لكل من الدولة البيزنطية وإيطاليا ، إذ أن جستنيان قد اضطر ، فى سبيل تنفيذ سياسته الاستردادية إلى إعادة فرض الضرائب التى كانت تفرضها الامبراطورية الرومانية ، ولكن فى صورة أسوا ، مما أدى إلى إرهاق موارد

---

(٣) الحقيقة أن مسألة اعادة الزمن فى العملية التاريخية أمر مستحيل ، وذلك أن الزمن فى صيرورة دائمة ، ومن ثم فإن اللحظة التاريخية التى تنقضى إنما تمضى إلى الأبد . وهذا هو السبب فى عدم إمكانية أن يصبح التاريخ علما تجريبياً على نحو ما أراد العلماء الذين تأثروا بأورجانون فرنسيس بيكون فى العلوم الطبيعية ، الذى حل محل أورجانون أرسطو ، ومن ناحية أخرى فان الزمن فى صيرورته يضيف جديداً إلى الخبرة الانسانية والتراث الانسانى ، ومن ثم يصبح الانسان فى عصر ما مختلفاً عنه فى عصر آخر . فانسان القرن الرابع وظروف القرن الرابع تختلف بالضرورة عن انسان القرن السادس وظروف القرن السادس ، ولذا فان ما يقوله كانتور من أن انتصار بيزنطه السريع فى ايطاليا ، لو حدث كان سيعيد عقارب الزمن إلى الرابع قول مردود. وفى تصورنا أنه ربما يريد القول بأن القضاء على مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا كان سيجعلها جزءاً هاماً فى الامبراطورية كما كانت فى القرن الرابع . (المترجم)

دولته . وحين انتهى حكمه سنة ٥٦٥ كان أعضاء البلاط الامبراطورى - الذين كانوا يعتبرونه أعظم الأباطرة فى بداية عهده - يكرهونه مثل المونوفيزيتيين المضطهدين فى مصر وسوريا ، وقد عبر بروكوبيوس Procopius ، الذى كان سكرتير بلزاريوس فى كتاب "التاريخ السرى" عن هذا السخط الواسع الذى عم كل أرجاء الامبراطورية ، فى هذا الكتاب تبدو صورة الامبراطور الذى شيد كنيسة آيا صوفيا ، وأنجز مجموعة القانون المدنى ، فى صورة رجل ". . غشاش منحرف ، مزيف ، مولع بسفك الدماء والسلب والنهب ، مخادع ، جبار ، لاأمان له ، وعدو متآمر يرتج عقله بالقتل ولتخريب" وتعكس افتراءات بروكوبيوس رد الفعل الحتمى من قبل شعب مرهق مدمر ، تجاه القائد الذى تسببت سياسته البالغه الطموح فى جر هذا الشعب إلى الكارثة .

وفى الوقت الذى كان جستنيان ينفذ حملاته الكبرى فى أفريقيا ، فانه لم يفعل شيئا لكى يقلل من قوة الأعداء المتاخمين لحدوده ، وترك لخلفائه مهمة النضال اليائس ضد الفرس على الحدود الشرقية ، وضد هجمات قبائل المغول والسلاف والجرمان التى كانت تضغط على دفاعات الحدود الامبراطورية فى البلقان . وأخيرا ، قرر الأمبراطور هرقل الأول Heracius I (٦١٠-٦٤١) انتهاج سياسة جديدة لانقاذ الامبراطورية . فسمح للبلغار - إحدى قبائل الهون- ولمختلف الشعوب السلافية أن تستوطن البلقان مقابل إتاوة رمزية ، واحتفظ الامبراطور بحافة شبه الجزيرة فيما حول القسطنطينية فقط تحت سلطانه ، ونتج عن ذلك أن تغير التركيب البشرى لعناصر السكان فى البلقان بصورة كانت كافية لانقاذ القسطنطينية وآسيا الصغرى من الفرس . وقد نجح فى ذلك ، إذ أنه الحق بالامبراطورية الفارسية ، التى ظلت مصدر تهديد لروما على مدى عدة قرون ، هزيمة ساحقة نتج عنها أن تدهورت أحوال الدولة الفارسية [٤].

---

(٤) تمكن هرقل الأول ، بعد عدة حملات قام بها ضد الفرس فى آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، أن يحطم القوة العسكرية الفارسية ، بل وأن ينهى حكم الأسرة المالكة القائمة فى فارس ، فقد تمكن من استرداد مدينة بيت المقدس سنة ٦٢٩ من أيدى الفرس ، كما استعاد منهم صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم ، وطارد الامبراطور الفارسى المهزوم حتى نينوى مما سبب ثورة الجيوش الفارسية على كسرى وخلعه ثم قتله بعد تعذيب طويل .

أنظر موس ، ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢٣١ وص ٢٢٦؛ ج.م هسى ، العالم البيزنطى (ترجمة د. رأفت عبد الحميد - القاهرة ١٩٧٧) ص ١٢١-١٢٢ . (المترجم)




أوربا والبحر المتوسط عند موت جستنيان الأول سنة ٥٦٥ ميلادية

كان هرقل الأول واحدا من أعظم أباطرة بيزنطة وأسوأهم حظا فى الوقت نفسه ، فقد أنقذ الامبراطورية من الدمار ؛ بل وبدأ يرتب لاعادة تنظيم الدولة وإحيائها . ويمكن القول أيضا بأنه أنقذ أوربا من الفرس ، ذلك أنه لو كانت القسطنطينية قد سقطت فى يدى عدوها الشرقى، لم يكن هناك ما يحول دون تقدم الفرس داخل ايطاليا ، ولكن حين مات هرقل سنة ٦٤١ كانت هناك قوة جديدة آخذة فى الظهور ؛ هى قوة المسلمين الذين انطلقوا من شبه الجزيرة العربية . وبنهاية العقد الرابع من القرن السابع كان العرب قد فتحوا بلاد الشام ، ومضوا فى سبيلهم إلى فتح فارس ومصر ، وبعد ذلك بثلاثين عاما اكتسحوا سواحل البحر المتوسط وفتحوا الشمال الافريقى بأسره .

وهكذا سقطت أغنى أجزاء الامبراطورية وأكثرها سكانا ، خلال قرن بعد جستنيان فى أيدى سادة البحر المتوسط الجدد . ومن الضرورى أن نوافق بيورى فى حكمه القاسى بأنه "اذا كان هناك رجل يمكن اعتباره مسئولاً عن تفكك الامبراطورية الشرقية على هذا النحو، فإن هذا الرجل هو الامبراطور العظيم جستنيان" فقد تفرق الشرق بسبب المسائل المذهبية نتيجة لسياسته الدينية ، وأشاحت كل من مصر وسوريا بوجهها بعيدا عن القسطنطينية ، ولم تهتما بمقاومة الفاتحين المسلمين الذين تسامحوا معهما عملا بحرية العقيدة ، فضلا عن أن جستنيان كان قد أودى بموارد الدولة البيزنطية ؛ لدرجة أن خلفاءه لم يجدوا مايكفى من الرجال أو المال للحفاظ على الحدود الشرقية ، ففى بداية الأمر تخلى الامبراطور عن البلقان للبلغار والسلاف، ثم مالبث المسلمون أن استولوا على جميع أملاك بيزنطة عدا القسطنطينية وآسيا الصغرى .

وفى إيطاليا ، لم يكن رد الفعل الناتج عن أعمال جستنيان شاملا ومدمرا مثلما كان فى الشرق ، ولكن رد الفعل جاء فى إيطاليا أسرع منه فى الشرق . إذ لم تكد تدخل تحت حكم الإدارة البيزنطية حتى اندفع شعب جرمانى جديد عبر الدانوب ليغزو شمال إيطاليا فى سنة ٥٦٨م ؛ وهو شعب اللونجباردين Logobardi أو للمباردين Lombardi الذين كانوا من أكثر الغزاة الجرمان بدائية وهمجية . والحقيقة أنه لم يكن قد مضى على موت جستنيان أكثر من سنوات ثلاث ، حتى أقام هؤلاء الغزاة دولة تختلف تمام الاختلاف عن مملكة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين .

غير أن اللمبادريين لم يحكموا كل مناطق ايطاليا ، إذ أنهم بسطوا سيادتهم على البلاد الواقعة شمال روما ، باستثناء قلعة رافنا التى بقيت فى أيدى البيزنطيين حتى منتصف القرن

الثامن . وظلت معظم الأراضى الواقعة جنوب روما تحت حكم القسطنطينية ، على الرغم من أن اللمبارديين احتفظوا ببعض المراكز الخلفية فى الجنوب أيضا ، كما استولى المسلمون على جزيرة صقلية فى القرن السابع ، وهكذا قدر لإيطاليا أن تقسم بين حكام أربعة هم : البيزنطيين والبابا والمسلمين ، واللمبارديين ، ولم تتوحد مرة أخرى سوى فى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر .

ونظم اللبمارديون أنفسهم فى دوقيتين أو ثلاث دوقيات كبيرة ، وعدد قليل من الإمارات الأصغر حجما .. ولم يهتم اللمبارديون بالثقافة الرومانية والنظام القضائى الرومانى ، ولم يكن لدى البيزنطيين الوقت الكافى لنشر مجموعة جستنيان القانونية فى إيطاليا ، كما فعل الفرنجة الأوائل ؛ مما أدى إلى أن يبقى القانون الرومانى فى موطنه كمجرد قانون عرفى توارثته أجيال الايطاليين ، كما اختلط بالقواعد العرفية التى جاء بها قانون الشعب اللمباردى. وفضلا عن انحطاط اللمبارديين فى مجال السياسة والقانون ، فإنهم بقوا (فى أغلبهم) على المذهب الآريوسى على مدى قرن من الزمان بعد غزوهم شمال ايطاليا . ومن ثم فإنه لم تكن هناك أية علاقة بينهم وبين الكنيسة والبابوية ، والواقع أن البابا كان يعتبر الدوقات اللمبارديين أعداءه الألداء حتى القرن الثامن . وربما لم يكن هناك شعب من الشعوب الجرمانية يضارع الشعب اللمباردى المتخلف فى ضآلة ما قدمه للحضارة الغربية ، ذلك أنهم لم يسهموا فى الحياة الايطالية سوى بإسمهم ودمائهم فحسب ؛ فقد ترك إسمهم أثره على جغرافية شمال ايطاليا السياسية بينما أختلطت دماؤهم بدماء أهل شمال ايطاليا مما جعل البنية الجسدية للايطاليين الشماليين مختلفة عن سيماء البحر المتوسط التى تميز أهل الجنوب . ولم يكن لدى اللمبارديين سوى حسنات ضئيلة يمكن أن تعوض سياسة التعايش Civilitas التى كان ثيودوريك ينتهجها. ولم يكن جستنيان يقصد طبعا ، أن يحل الحاكم اللمباردى محل حكم القوط الشرقيين فى إيطاليا ، ولكن المخاطرة التى أخذها جستنيان على عاتقه ، فى سياق سياسته إزاء الجزء الغربى من امبراطوريته ، كانت جسيمة لدرجة أن الفشل الناتج عنها تحقق فعلا فى ظل ظروف أسوأ من تلك التى كانت سائدة فى بداية حكمه .

وبعد جستنيان لم تتوفر أبدأ للأباطرة البيزنطيين القوة اللازمة لإعادة بناء الامبراطورية الرومانية ، فقد جعل المسلمون بيزنطة تلتزم موقفا دفاعيا بسبب هجماتهم المتكررة ؛ مما جعلها تبتعد رويدا رويدا عن أوربا لتدخل فى نطاق حضارة خاصة بها . وتعتبر مجموعة قوانين جستنيان آخر أثر بيزنطى كبير يكتب باللغة اللاتينية ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، أخذت حضارة الامبراطورية الرومانية الشرقية تصبح مزيجا عن عناصر يونانية وبلقانية وشرقية متمايزة .

لقد أوضح فشل جستنيان أمام أهل الغرب أن إعادة توحيد الامبراطورية الرومانية بشكل فعال أمر غير ممكن بسبب الغزوات الجرمانية . وكان جستنيان – أعظم الاباطرة الرومان منذ قسطنطين – هو اللعنة التى أنزلتها الأقدار بالسلطة البيزنطية ، فقد انصرفت أوربا عن القسطنطينية منذ أواخر القرن السادس ، وخلال القرن السابع ، ولم تعد شعوب أوربا تتطلع إلى أباطرة بيزنطة وإلى الحضارة البيزنطية ، الغريبة عنهم ، إلتماسا للقيادة والتوجيه . وهكذا تمثلت نتائج أعمال جستنيان بالنسبة لأوربا القرنين السادس والسابع فى ظهور رجال الغرب ونظمه من خلال أحداث تلك المرحلة . لقد عاد الغرب إلى الاعتماد على موارده ، وكان عليه أن يكتشف قيادته من بين صفوفه نفسها ، فقد تولت الكنيسة والبابوية زمام القيادة وبجانبها المؤسسات الديرية ، والملكية الفرنجية ، وتسبب التحالف القصير الأجل بين البابوية والامبراطورية فى الكارثة التى حلت بإيطاليا فى نهاية المطاف . وبقى أن نرى ما إذا كان باستطاعة التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية أن يؤتى ثمارا أفضل .

**٢- تأثير الاسلام على أوربا فى العصور الوسطى الباكرة**

كان انتشار الاسلام عاملا حاسما فى تشكيل تاريخ العصور الوسطى . ذلك أنه أدى إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث هى : البيزنطية ، والأوربية والاسلامية ، وكان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية ، والاقتصادية ، واللغوية ، والدينية الثلاث واحدا من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى . فقد كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للامبراطورية الرومانية المتأخرة بدرجة أو بأخرى ، إذ كانت بيزنطة تمثل الاستمرارية المباشرة للقانون والادارة والفكر الرومانى ، كما ورثت أوربا الغربية جوانب كثيرة من التراث الرومانى، على حين استوعب العالم الاسلامى بعض جوانب التنظيم الرومانى وأفضل جوانب الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية . وعلى الرغم من هذا ؛ فإن الحضارة الاسلامية تدين بالكثير للتراث الشرقى ، لاسيما تراث مصر وفارس ، وقد أثرت الحضارة الشرقية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة أيضا ، ولكن الحضارة الاسلامية كانت أكثر حضارات العصور الوسطى احتكاكا بالتراث الشرقى .

وكان انتصار الاسلام على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط فى القرن السابع الميلادى نتيجة لآخر وأنجح محاولات القبائل العربية للتوغل فى عالم البحر المتوسط . فقد كانت جماعات البدو القاطنين فى صحراء بلاد العرب يقومون بغزوات دورية للهلال الخصيب منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، ولم يكن ظهور العبرانيين فى فلسطين سوى نتيجة لواحدة من

أمثال هذه الاندفاعات صوب الشمال . وقد حال التنظيم الذى فرضه الحكم الرومانى على عالم البحر المتوسط دون أي غزو واسع النطاق من جانب العرب ، كما أن الامبراطورية البيزنطية قد نجحت حتى مطلع القرن السابع فى صد هجرات قبائل الصحراء صوب الشمال (٥).

إذن ماهو الفرق الذى يمكن أن نتبينه فى هذا الغزو العربى الجديد الذى حقق نجاحا كبيرا ؟ أولا ، أن الهجوم الاسلامى على عالم البحر المتوسط جاء فى وقت كانت فيه الامبراطوريتان اللتان يمكنهما سد طريق الهجرة والفتح إما ميتة ، وإما منهكة . فقد كان هرقل الأول قد فرغ لتوه من تدمير الامبراطورية الفارسية ؛ بيد أن الموارد العسكرية البيزنطية كانت قد استنفدت تماما. ولم تستطع الجيوش الامبراطورية أن تصمد طويلا أمام العرب ، فضلا عن أن أكثرية جماهير المصريين والسوريين كانت قد تخلت عن ولائها للامبراطورية بسبب السياسة الدينية التى انتهجها الامبراطور الارثوذكسى . وهذه الكراهية أغضبت هرقل فشن حملة اضطهادات واسعة ضد اليهود الذى كانوا يؤلفون قسما هاما من سكان الاسكندرية وانطاكية وغيرها من المدن الشرقية الكبرى ، وفى ظل هذه الظروف ، لم يكن أمام العرب إلا أن ينجحوا بشرط أن يتوفر لهم الحد الأدنى من الوحدة والتنظيم .

---

(٥) قامت فى منطقة جنوب فلسطين ، أو بادية الشام ، عدة دويلات عربية على مر الأزمنة ، وقد لعبت هذه الدويلات دوراً هاماً فى حماية حدود الشام الجنوبية من غارات بدو شبه الجزيرة الذين دأبوا على مهاجمة هذه المناطق ، فقد قامت دولة الأنباط التى بلغت أوج ازدهارها فى القرن الرابع قبل الميلاد ،، ثم خضعت للحكم الرومانى حين فتحها كورينيوس بالما حاكم ولاية سوريا فى عصر الامبراطور تراجان ، وصارت ولاية رومانية عرفت باسم الولاية العربية Provincia. Arabia كما قامت فى هذه الانحاء مملكة تدمر اتى تحولت إلى مستعمرة رومانية أيضاً فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، وأهم حكامها هى الملكة "زنوبيا" أو "الزباء" التى نسجت حولها قصص خيالية كثيرة ، وقد تمكنت هذه الملكة من أن تهزم الجيوش الرومانية وأن تستولى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث ، ولكن الفرق الرومانية تمكنت من القضاء على جيش تدمر سنة ٢٧١ واحتلت المملكة ، وكانت امارة الغساسنة فى منطقة شرق الأردن الحالية آخر هذه الدويلات العربية على حدود الشام الجنوبية ، وقد ظلت هذه الامارة قائمة حتى الفتح الاسلامى ، وكانت هناك معاهدة دفاع مشترك- بتعبيرنا المعاصر - بين هذه الامارة وبين الامبراطورية الرومانية ، بيد أن العلاقات بين الجانبين أخذت تتدهور منذ عهد الامبراطور موريس (٥٨٣-٦٠٢) وظلت امارة الغساسنة تتدهور بشكل مطرد حتى طرقتها جيوش المسلمين .

عن هذه الدويلات العربية ، انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام (الاسكندرية ١٩٧٤) ، أحمد أمين ، فجر الاسلام (القاهرة ١٩٢٨) . (المترجم)

ولأول مرة تتجمع قبائل الصحراء المتقاتلة تحت لواء دين واحد وزعامة دينية واحدة . ومن هنا وفر الإسلام العامل الأساسى الذى جعل من الممكن للعرب أن يفتحوا ، بسرعة ، أغنى ولايات الامبراطورية الرومانية الشرقية . ومنذ زمن بعيد تم دحض وتفنيد الأسطورة التى تزعم بأن العرب اندفعوا بالسيف فى يد والقرآن فى اليد الأخرى : يخيرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الاسلام أو الموت ، فالحقيقة أن المسلمين تسامحوا مع من قهروهم من المسيحيين واليهود ، ولم يفرضوا سوى ضريبة الجزية وبعض القيود على الحقوق السياسية لأولئك الذين لم يعترفوا بأن محمدا عليه الصلاة والسلام نبى الله [٦]، وهكذا لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الاسلام .

وقد اقترح بعض العلماء سببا آخر للتوسع العربى ، هو الضغط الاقتصادى الناجم عن الجفاف المطرد ، وتدهور خصوبة التربة فى شبه الجزيرة العربية . إلا أن معلوماتنا عن أحوال

---

(٦) حدَّد الاسلام موقفه بشكل واضح من اليهود والمسيحيين ، أو أهل الكتاب ، وغيرهم من أهل الذمة فى آيات القرآن الكريم (أنظر على سبيل المثال سورة آل عمران : آية ٦٤ ، والبقرة : آية ٢٥٦ ، والشورى:آية ١٥ وآية ١٣٧ ، والعنكبوت : آية ٤٦) إذ يتضح من نصوص الآيات القرآنية ، وهى المصدر الأول للتشريع الاسلامى ، أن موقف الاسلام محدد بشكل حاسم فيما يتعلق بالدعوة إلى الاسلام ، إذ يجب أن تكون الدعوة طيبة تخاطب الناس فى رفق لمحاولة اقناعهم لا إكراه فيها ولاتهديد ولاتجب مجادلة أهل الكتاب " إلا بالتى هى أحسن" فان آمنوا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإن الامر متروك لله سبحانه وتعالى .

أما الجزية التى أشار إليها كانتور على أنها ضريبة رأس فليست فى حقيقة الأمر سوى ضريبة دفاع ، على حد تعبيرنا المعاصر . ذلك أنها مقابل مادى لما ينعم به أهل الذمة من حماية فى دار الاسلام ، وليست ضريبة رأس مثل تلك التى تفرضها الجيوش الغازية على الشعوب المغلوبة فثمة اختلافات هامة وجوهرية بين "الجزية" و " ضريبة الرأس " صحيح أن كلا منهما قد فرضت على الفرد - وهو سبب الخلط بينهما - ولكن شروط الجزية واختلاف تقديراتها حسب الظروف الاقتصادية لدافعيها تميزت بطابع انسانى ، إذ راعت اعفاء النساء والأطفال والشيوخ فضلا عن غير القادرين على الكسب ، كما اعفى منها الرهبان بشرط انقطاعهم فى اديرتهم ، كذلك كان من الممكن تأجيل تحصيلها من المعسر حتى تتحسن أحواله . زد على ذلك أن الجزية جزء من اتفاق عقد الذمة الذى هو التزام متبادل بين طرفين ففى مقابل هذه الضريبة يجب على المسلمين حماية أهل الذمة وحماية أموالهم ، وتعويضهم عما يتلف من ممتلكاتهم كما تكفل لهم حرى العقيدة والعلم والتنظيم الداخلى لطوائفهم . وقد نهى الاسلام عن تكليف أهل الذمة مالا قدرة لهم عليه ، كما نهى عن ضربهم أو تعذيبهم أو حبسهم بسبب الجزية .

أنظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٧ ، ص٢٣- ص٣١).

(المترجم)

شبه جزيرة العرب فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام قليلة للغاية . فقد كانت هناك مدن تجارية هامة قليلة من بينها مكة التى كانت أكبر هذه المدن وأكثرها رخاءً . إذ كانت التجارة العالمية تحمل بطريق البر إلى الشرق وتمر بهذه المدن كما أن طرق القوافل الكبرى امتدت عبر شبه الجزيرة . وكانت هناك بعض المناطق التى ازدهرت فيها الحياة الحضرية والزراعية فى شبه جزيرة العرب ، وعلى أية حال ، تبقى الحقيقة القائلة بأن الجزء الأعظم من شبه الجزيرة كان صحراويا ، وأن غالبية السكان كانوا من القبائل البدوية .

وقد انعكس هذا الوضع الاقتصادى والاجتماعى على حياة النبى محمد وعلى تعاليمه ، فقد كان النبى نفسه من سكان المدن ، إذ كان عليه الصلاة والسلام فردا فقيرا فى واحدة من أشهر عائلات مكة وأرقاها ، واشتغل رئيسا لقافلة تملكها أرملة ثرية تكبره بعدة سنوات ، وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية التى كانت سيدة تاجر ذات شرف ومال (٧). وعلى أية حال ، فإن عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم ، تعكس الثورة التطهرية لبدوى بسيط ضد الفساد الذى تسببه أخلاقيات المدن ، وذلك على نحو مشابه لديانة الأنبياء العبرانيين التى قامت على أساس ثورة العناصر الريفية ضد حياة المدن العبرانية المرفهة (٨) . ولسنا نعرف الكثير غير عن ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام مما يمكن أن يساعدنا على شرح تعاليمه :

---

(٧) أعدنا صياغة الجملة على هذا النحو حتى لاتبدو غريبة على القارىء العربى . (المترجم)

(٨) ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن المؤلف ليس مسلماً ومن ثم فهو ليس مطالباً بأن يؤمن بالرسالة التى جاء بها النبى عليه الصلاة والسلام ، بيد أن هذا لايمنعنا من أن نتعرض لآرائه بالنقد : ولنبدأ بكلماته نفسها ، فبينما يذكر أن النبى كان من سكان المدن - وهى حقيقة - يحاول تفسير العقيدة الاسلامية على أنها مجرد ثورة تطهرية لرجل بدوى بسيط ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن سكان الجزيرة كانوا ، آنذاك ، ينقسمون إلى بدو وحضر لكل منهم أسلوب حياة يختلف عن الآخر لأتضح لنا مدى التناقض فى كلمات كانتور . كما أن الأفكار والمثل والمفاهيم الجديدة التى جاء بها الاسلام كانت جديدة تماما عن واقع شبه الجزيرة بشكل يجعل من القول بأنها ثورة تطهرية لبدوى بسيط مجرد صياغة فضفاضة خالية من المعانى ، إذ كيف يتسنى لهذا البدوى البسيط ، وهو ابن بيئته ، أن يأتى بمثل هذه الأفكار والمفاهيم التى قامت على أساسها حضارة من أرقى حضارات الانسان ، ومن ناحية أخرى ، تحمل كلمات المؤلف ايحاء بأن هناك تأثيرات يهودية على العقيدة الاسلامية ، وهو أمر مردود تماماً نظراً للاختلافات الجذرية بين الاسلام واليهودية على المستوى النظرى ، والتصادم بين المسلمين الأوائل ويهود شبه الجزيرة على مستوى الواقع ومن ناحية أخرى فإن المؤلف يحاول اختلاق وجود تاريخى متمايز لليهود بشكل متعسف فى ثنايا كتابه ، وعلى الرغم من هذا ، فإن المؤلف يتحلى بقدر كبير من الموضوعية تتضح فى السطور القادمة . (المترجم)

فقد كانت معرفته باليهودية والمسيحية معرفة عابرة من خلال علاقات العمل ، وكان جبريل يأتيه بكلمات الله التى ينتظمها القرآن . وعلى عكس المسيح عليه السلام ، كان النبى محمد يتمتع بكفاية نادرة كمنظم سياسى وقائد عسكرى . وعلى الرغم من أن الأدب العربى قد حفظ لنا معلومات كثيرة عن النبى العظيم ، فإن معلوماتنا عن شخصيته مستمدة أساسا من الحقائق الواردة فى سيرته وفى القرآن الكريم ، وتكشف هذه الحقائق عن أنه كان رجلا صارما قويا ورعا .

ولم يتمكن أى زعيم روحانى آخر أن يدعو إلى دين يعتنقه مثل هذا العدد الهائل من الناس بمثل هذه السرعة . فالإسلام ، من بين كل ديانات البشر الكبرى ، هو الوحيد الذى يصلح لأن يكون دينا للعالمين . فما يقدمه القرآن سهل وبسيط لايستعصى على الفهم . إذ يصوِّر لنا رب العالمين الذى يفرض على البشر فروضا أخلاقية صارمة ، ولكنه يعدهم فى الوقت نفسه بالثواب فى الحياة الآخرة الخالدة اذا ما أطاعوا فروض الله . فهو سبحانه القوى العليم ، إله واحد صمد ، لاشريك له . وتبدو فكرة الثالوث المسيحى عند المسلمين إثما ولعنة وكفرا ، كما هى عند اليهود أيضا ، وكذلك فإن محمدا عليه الصلاة والسلام رسول يبلغ الناس رسالة ربه . ولكنه ليس الا آخر الأنبياء وأعظمهم " خاتم النبيين" . وهو ليس شريكا لله فى قدسيته بأية حال ، وفى رأى القرآن أن المسيح مثل إبراهيم ، عليهما السلام ، أحد الأنبياء العظام الذين مهدوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن محمداً أبعد اللاهوت المسيحى القائل بالثالوث ، بما يحمله من تأثيرات قوية للفلسفة الأفلاطونية ، من الصحراء العربية تحبيذا للوحدانية الخالصة .

"والاسلام" يعنى الخضوع لمشيئة الله عز وجل ، أى أن تسلم وجهك لله حنيفا ، ويفرض الله على البشر مجموعة من الفروض التطهيرية الصارمة ، لكى ينالوا الثواب العظيم الذى وعدهم به . فعلى المسلم أن يقيم الصلاة خمس مرات يوميا ، وأن يحاول الحج إلى منبع الدين الحق فى مكة مرة واحدة على الأقل فى حياته ، اذا استطاع لذلك سبيلا ، ويفرض القرآن سلسلة من التنظيمات والترتيبات لحياة المسلم اليومية : فعلى المسلم أن يقلع عن شرب الخمر ولعب الميسر ، ولايسمح للمسلم أن يتعامل بالربا ، وعموما فإنه يتعين على المسلم أن يتعامل مع رفاقه من بنى الإنسان وفقا لاسمى مبادىء الرحمة والعدالة . ويجب على المسلم أن يحسن إلى رفاقه وأن يكون كريما للغاية فى مساعدة البائسين والمعوزين من الناس . كما يؤكد القرآن على قيمة الحياة الأسرية ، وبينما يسمح للمسلم ، إذا استطاع أن يتزوج بأربع زوجات تحت شروط قاسية تكاد تجعل ذلك مستحيلا ، فإن أكثر المبادىء صرامة فى الاخلاقيات الجنسية

هى تلك التى يفرضها الاسلام ، وأخيرا ، فإن على المسلم أن يضحى بروحه وحياته إذ دعا الداعى للذود عن العقيدة ، ويكون ثواب المسلمين الذين يستشهدون فى سبيل الله حياة خالدة فى جنات النعيم . ذلك أن الجهاد ركن من أركان العقيدة الاسلامية .

والإسلام هو الدين الوحيد بين ديانات البشر العظمى الذى يطرح أشد النظريات وضوحا عن الثواب . فإن أولئك الذين يتبعون ما أمر الله به ويتقونه سبحانه وتعالى لهم ثواب الحياة الخالدة والسعادة الباقية . وقد تجنب الاسلام تماما التيارات المعذبة المضنية التى أثارها تيار بولس - أوغسطين فى الفكر المسيحى عن الثواب ؛ بل إنه خلا من الشكوك التى عكرت الفكر العبرانى أحيانا حول الثواب ، كما يتضح فى "سفر أيوب". وفضلا عن ذلك فإنه فى الوقت الذى يتسم المفهوم العبرانى عن السماء حيث الحياة الآخرة ، بالغموض والإبهام ، ويبدو فيه المفهوم المسيحى عن السماء روحانيا أثيريا ، تبدو الصورة القرآنية عن السماء محددة فى تفاصيلها من ناحية ، وجذابة للغاية بالنسبة لرغبات البشر من ناحية أخرى . فالواقع أن المسلم موعود بجنة سماوية يستطيع فيها أن ينال نصيبه من الملذات التى حرم منها فى الحياة الدنيا ، فقد يستطيع أن يشرب من خمر الجنة ، وأن يتمتع بصحبة الحور الحسان . فالديانة الاسلامية إذن متفائلة تعتقد فى إله عليم قدير يفرض مستوى ساميا كريما من التصرفات والسلوك ، ويعد من يلتزمون بهذه المبادىء بالثواب الأكيد فى السموات ، وهو الأمر الذى أصبح بمثابة واحة جذابة للغاية . وليس هناك سر حول السبب الذى جعل هذا الدين ينتشر بين بدو الصحراء العربية المحاربين ، ولكن تعاليم هذا الدين وأخلاقياته صارمة بشكل يجعله ملائما أيضا لمن نالوا أكبر قدر من التعليم والمران العقلى سواء فى العصور الوسطى أو اليوم.

وفى القرنين السابع والثامن إعتنقت الغالبية العظمى من سكان السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط هذا الدين الجديد الذى نادى به محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانت ضربة قاصمة ضد المسيحية حين سقطت أقدم وأغنى مراكزها فى أيدى المسلمين. بيد أنه من وجهة نظر تاريخ القيم الانسانية ، لايمكن أن نوافق على القول بأن ذلك كان مصيبة أو كارثة ، لاسيما إذا ما أخذنا فى اعتبارنا مايتميز به الفكر الدينى الاسلامى والأخلاقيات الاسلامية من سمو ورقى . ولايزال السر فى تحول المسيحيين إلى الاسلام بهذه السرعة غامضا ، خاصة وأنه لم يوجد مؤرخ استطاع أن يكشف تفاصيل هذا التحول حتى الأن . ومن الواضح أن المسيحيين كانوا يتوقون إلى اعتناق ديانة الفاتحين لكى يتحرروا من القيود التى فرضت على أولئك الذين لم يعتنقوا الاسلام ، بيد أن هذه القيود لم تكن قيودا قاسية . ومن المحزن والغريب فى الوقت نفسه أن الكنائس الكبرى فى سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا انهارت بمثل هذه السرعة أمام جاذبية إعتناق الاسلام ، حقيقة أن الكنائس المسيحية لم تختف

تماما ، ولاتزال هناك جماعات مسيحية موجودة فى البلاد الاسلامية حتى يومنا هذا ، ولكن بعد مرور مائتى سنة على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لم تعد لنفوذ الكنائس أو أتباعها ، على سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية ، قيمة تذكر . ولم تكن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنائس المخالفة اليونانية هى فقط التى فقدت غالبية أتباعها باعتناقهم الإسلام ؛ فإن الكنيسة اللاتينية فى شمال أفريقيا قد قد اختفت تماما بحلول سنة ٩٠٠ ، كما أن الكنيسة الاسبانية المسيحية عانت هى الأخرى من خسائر جسيمة . ويروى لنا كاتب مسيحى عاش فى القرن العاشر أن كثيرين من معاصريه الشبان كانوا يعتنقون الإسلام ، لابدافع من طموحهم السياسى فحسب ، ولكن أيضا بسبب جاذبيه الأدب العربى والثقافة العربية .

يمكن قياس آثار التوسع الاسلامى على شواطىء البحر المتوسط الشرقية والجنوبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الأقاليم تعتبر اليوم بمثابة قلب الحضارة الاسلامية : بمالها من مميزات سياسية واقتصادية وثقافية متمايزة . والواقع أن العرب ينكرون حق الشعوب الأوربية فى حكم هذه المناطق ، وأولئك الذين أفادوا من الدراسة التاريخية هم فقط الذين يعرفون أن هذه البلاد كانت المهد الأول للمسيحية والتراث الأفلاطونى - المسيحى الذى كان بمثابة المجرى الاساسى للحضارة الغربية حتى القرن الثانى عشر . فقبل أن ينزل الوحى على محمد عليه الصلاة والسلام بزمن طويل كانت الحياة الثقافية على شواطى البحر المتوسط الشرقية والجنوبية خاضعة لتأثير كل من القديس بولس ، وأفلوطين ، وأيوزيبيوس ، وأوغسطين ، بيد أن السيطرة الاسلامية كانت كاملة ونهائية لدرجة أن تونس ، التى كانت منبع المذاهب التى لازمت تطور الحضارة الغربية - لأنها كانت وطن القديس أوغسطين - تعد اليوم من البلاد الاسلامية الخالصة .

لقد استغرقت عملية الفتوح الاسلامية حوالى مائة سنة ، منذ وفاة النبى سنة ٦٣٥ حتى معركة تور Tours سنة ٧٣٢ حين هزم حاكم الفرنجة (شارل مارتل) جيوش المسلمين المتوغلة فى فرنسا . فبعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام أثارت عدة قبائل موجة من الاضطرابات وأعمال العنف ، فيما عرف بحروب الردة التى تمكن الخليفة أبو بكر الصديق من التغلب عليها ، ووجه القبائل إلى استئناف غاراتها العسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية .

وما أن أهل عام ٦٣٨ حتى كانت مدينة بيت المقدس فى أيدى الجيوش الاسلامية التى اكتسحت بلاد الشام وفارس ، بل وصلت إلى شمال الهند خلال الاعوام الثلاثين التالية. كما دخلت جيوش عربية أخرى مصر وفتحت الاسكندرية ، ثم تحركت بسرعة عبر الصحراء إلى شمال أفريقيا واستولت عليها بسهولة وانتزعتها من الحكم البيزنطى(٩) وفى سنة ٧١١

استطاعت الجيوش الاسلامية بمساعدة بربر شمال أفريقيا الذين اعتنقوا الإسلام ، أن تلحق بملك القوط الغربيين هزيمة فادحة ، أصبح العرب من بعدها سادة على أسبانيا ، واحتمى الأمراء المسيحيون بجبال البرانس حتى القرن العاشر حين بدأوا حرب الاسترداد البطيئة لاستعادة شبه شبه الجزيرة من المسلمين ، وهى الحرب التى لم تنته سوى فى القرن الخامس عشر .

وكان وضع المسلمين آمنا فى أسبانيا حتى القرن الثانى عشر ، فقد كانوا يسيطرون على معظم أنحاء شبه الجزيرة ، والواقع أنه حتى القرن العاشر لم يكن هناك خبر عن أولئك الأمراء المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى الجبال طوال هذه الفترة .

وربما كان العرب قد استنفدوا مواردهم أنذاك . وعلى أية حال ، فإنه لم يكن باستطاعتهم أن يفتحوا فرنسا ، بيد أن هزيمتهم فى معركة تور ، أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ أوقفت تقدم المسلمين صوب الشمال فظلوا قانعين بأسبانيا . وفى سنة ٧١٧ شن العرب آخر حملاتهم الكبرى ضد القسطنطينية فيما قبل القرن الخامس عشر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة العظيمة الرابضة على ضفاف البسفور . وسرعان ما صار العرب سادة على عالم البحر المتوسط ففتحوا صقلية وكريت ، مما مكنهم من أن يهاجموا القسطنطينية عن طريق البحر . ولكن القلعة المنيعة استطاعت صد الهجوم الاسلامى بفضل سلاح جديد ابتكره البيزنطيون ، هو النار الإغريقية : التى هى عبارة عن نوع من القنابل الحارقة استخدمه البيزنطيون وأحدث دمارا جسيما بالأساطيل الاسلامية ، وهكذا استطاعت القسطنطينية أن تنجو من الهجوم العربى ، ومن ثم أنقذت الغرب الأوربى من الغزو الاسلامى عن طريق شبه الجزيرة (البلقان) المهد. ومع ذلك فإن بيزنطة لم تحتفظ سوى بآسيا الصغرى من بين جميع ولاياتها الشرقية الغنية ، وعندئذ أضطر الامبراطور البيزنطى ، الذى نفدت موارده ، إلى التزام موقف الدفاع ولم يكن هناك أدنى احتمال بأن تقوم الدولة البيزنطية المرهقة بشن حرب استرداد ضد العرب قبل مرور مائتى سنة أخرى .

---

(٩) الحقيقة أن فتح أفريقيا لم يتم بسهولة كما يقرر كانتور ، بل إن فتح هذه البلاد اتسم بالصعوبة الشديدة على عكس الفتوحات الاسلامية الأخرى . وقد لقى المسلمون مقاومة عنيدة من جانب البربر ، ولم يتم فتح البلاد إلا بعد حوالى اثنتين وسبعين سنة .. ولعل مايقوله المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون من أن البربر ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة يجسد هذه الحقيقة إذ لم تثبت أقدام المسلمين فى هذه البلاد الا على يد موسى بن نصير .

لمزيد من التفاصيل حول فتح شمال أفريقيا انظر :

سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٧٨ – ص ٣٢١ . (المترجم)

وحتى منتصف القرن الثامن كانت الأراضى الشاسعة التى فتحها العرب خاضعة لحاكم واحد هو الخليفة الأموى الذى اتخذ من دمشق عاصمة له يحكم منها هذه الأراضى الشاسعة والشعوب الكثيرة وفقا لنظام فردى على نمط الملكية الشرقية فى فارس . وفى القرن الثامن لم تعد الشعوب غير العربية التى اعتنقت الاسلام راضية عن وضعها الأدنى ، وبدأت تطالب بنصيب فى حكم الدولة العربية الواسعة الارجاء ، كما طالبت هذه الشعوب بحقوق متساوية مع المحاربين القادمين من شبه جزيرة العرب ، وأخيرا ، وفى منتصف القرن الثامن الميلادى ثارت الشعوب الخاضعة ضد الخليفة الأموى القابع فى دمشق ، وانتقل لقب الخلافة إلى أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة العباسية ، التى بنت عاصمة جديدة فى بغداد ، واستندت إلى تأييد الفرس .

لقد كان سقوط الأمويين على أيدى العباسيين بمثابة إشارة البدء لحركات التمرد واللامركزية السياسية فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وما أن غربت شمس القرن التاسع حتى كان العالم الاسلامى قد انقسم الى عدة دول ، بدلا من دولة عربية عظمى واحدة ، واستمر حكام تلك الدول على احترامهم للخليفة باعتباره خليفة رسول الله . بيد أن السلطة السياسية فى العالم الإسلامى آنذاك قد انتقلت إلى بعض الأمراء المستبدين ، بما فى ذلك حاكم اسبانيا حيث ظلت الأسرة الأموية قائمة . وفى ذلك الحين توحد عالم البحر المتوسط فى ظل الدين الاسلامى واللغة العربية ، كما قام نظام اقتصادى عالمى كبير ، إلا أن الحضارة العربية لم تعد مجرد وحدة سياسية فحسب ، فمنذ القرن الثامن بات لفظ "عربى" يعنى حضارة عظيمة ترمى بظلالها الوارفة على سواحل البحر المتوسط فى الشرق والجنوب ، وتلك هى الحضارة التى ساهمت فيها شعوب كثيرة (اليونان ، الفرس ، السوريون ، اليهود ، البربر إلى جانب العرب) .

وكان مركز الخليفة ، بوصفة زعيما روحيا ، مركزا إسميا تماما ، وبنهاية القرن الثامن ظهرت فى الجماعة الاسلامية مذاهب ثلاثة كان ، ولايزال ، لها أتباع كثيرون[١٠] وكان أسبق هذه المذاهب هو مذهب السنة الذى كان أتباعه يفوقون الآخرين بدرجة ساحقة وتعتمد

---

(١٠) يقصد المؤلف بهذه المذاهب الثلاثة ، السنة ، والشيعة ، والخوارج . وعن الفرق الأحزاب السياسية الاسلامية وبداية نشأتها وتكوينها أنظر : د. محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٦٠. (المترجم)

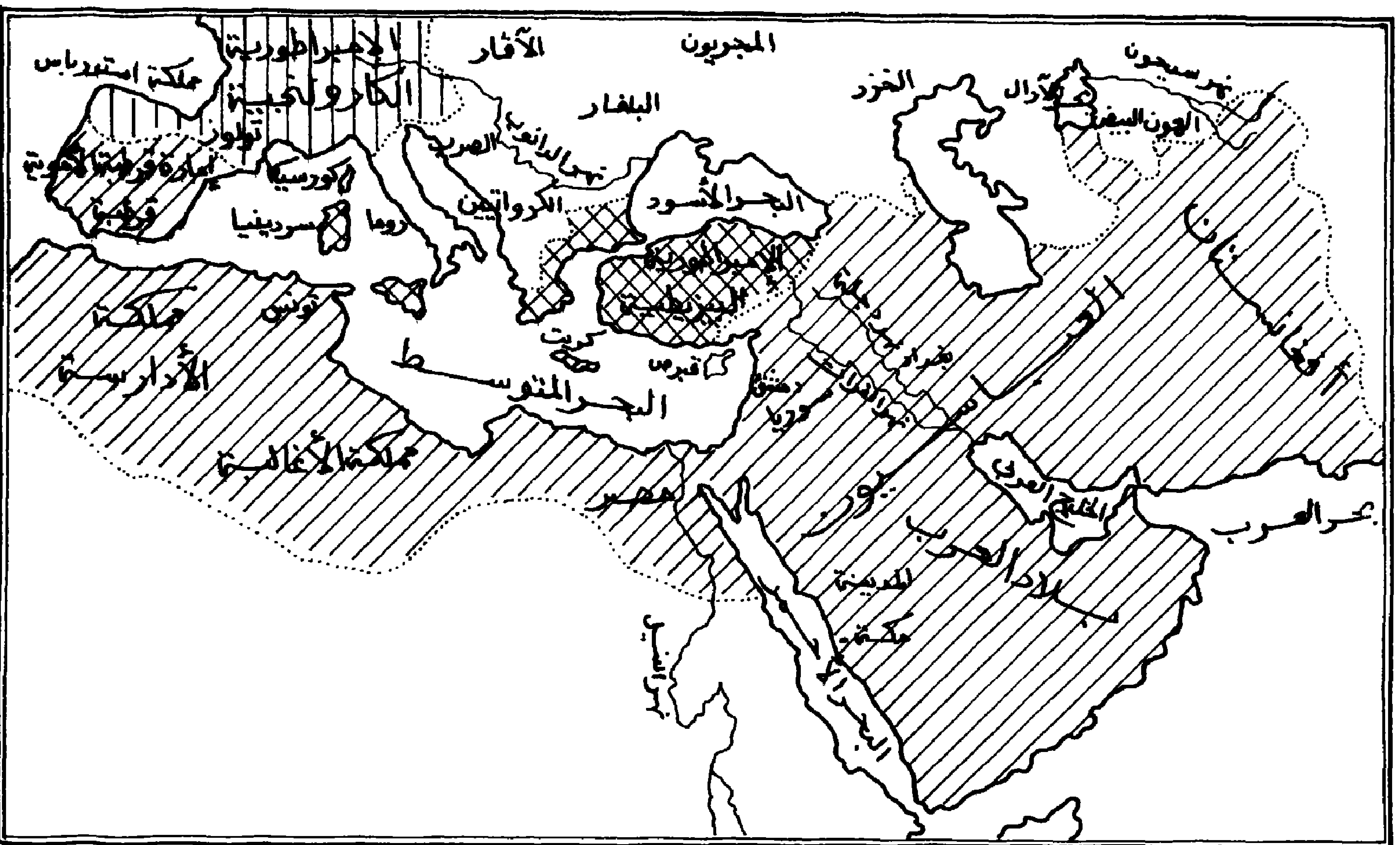
تعاليم السنة على القرآن الكريم والسنة النبوية كما اعتمد السنة على الشريعة المستمدة من التعاليم الدينية والأخلاقية الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية . وكان المفروض أن يحمى الخليفة السنة ؛ ولكن الواقع أنه لم تكن هناك سلطة دينية عليا فى الجماعة الاسلامية مثل البابوية ، فإن الاسلام لم يعرف مثل هذه الواسطة بين الفرد المسلم وربه ، وكان الأئمة السنيون فى شتى أرجاء العالم الاسلامى يتجمعون للدعوة إلى الحق الذى نزل به الوحى وإلى طاعة الله، وقد اعتمد نفوذهم وقوتهم على مدى تأييد الدولة لهم إلى حد بعيد . ذلك أنه حتى القرن الحادى عشر كان الحكام المسلمون أكثر تحررا وعلمانية من زعماء السنة ، وعلى الرغم من النفوذ الواسع الذى كان السنة يتمتعون به فى العالم الاسلامى ؛ فإنهم كانوا يفتقرون الى القوة اللازمة لمحاربة مخالفيهم فى المذاهب والمبادىء الشرعية .

أما المذهبان الإسلاميان الاخران اللذان ظهرا فى العصور الوسطى ، فكان أحدهما يؤمن بأئمة زعموا أنهم ينحدرون من نسل فاطمة بنت الرسول ، وعرف مؤيدو أولئك الأئمة باسم الشيعة ، وكان طبيعيا أن تنشأ عداوة مريرة بينهم وبين جماعة السنة الذين آموا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو آخر الأنبياء [١١] ولكن زعماء الشيعة فى الشرق الأوسط وشمال الهند نجحوا فى أن يحولوا دعاواهم الثيوقراطية إلى سلطان سياسى حقيقى ، فقدموا إلى

---

(١١) يبدو من كلام المؤلف أنه وقع فى خطأ التعميم من ناحية ، وعدم وضوح معلوماته التاريخية عن نشأة الشيعة ، وتطورهم من ناحية أخرى ، والحقيقة أن بداية ظهور هذا الحزب الاسلامى منذ مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وما نتج عن ذلك من إنقسام العالم الإسلامى إلى معسكرين كبيرين : أحدهما شايع "عليا" والثانى أيد "معاية" وإلى ذلك الحين كان الحزب الذى ناصر عليا بن أبى طالب يضم فى صفوفه من سيصيرون خوارج بعد حادثة التحكيم الشهيرة ، إلى جانب من سيطلق عليهم فى المستقبل اسم الشيعة ، فقد كانت نتيجة حادثة التحكيم ، التى انتهت كما تنتهى المسرحيات الهزلية ، أن تكون حزبان اسلاميان : أحدهما الخوارج الذى بدأ كحزب له شخصية واضحة على مسرح الأحداث ، وعقائد جلية متمايزة ، ونظام كفل له الوجود والتطور المستمر طوال عصور التاريخ الاسلامى ، وثانيهما ، الشيعة الذى بدأ على أساس عاطفى هو حب آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، واعجاب بشخصية على بن أبى طالب نفسه ، وصفاته النادرة المثال .

وقد تطور هذا الحزب من هذا الشكل العاطفى البسيط ، حتى أخذ صورة غامضة حافلة بالأحاجى والألغاز بفعل التأثير الفارسى على عقائد هذا الحزب ونتيجة لتوالى الأحداث المحزنة على الشيعة ، بعد مقتل على نفسه ، بطعنة خنجر مسموم ، ثم تخلى ابنه الحسن عن حقه وموته فى ظروف مريبة ، ثم الوحشية والقسوة التى اتسم بها اضطهاد الدولة الأموية للشيعة فمقتل الحسين فى كربلاء ، مما ترك آثارا من الحزن واللوعة=




عالم البحر المتوسط سنة ٨٠٠ ميلادية

بعض المناطق المعزولة حيث يجد أتباعم الملجأ المأمون ، والأغاخان هو سليل أولئك الأئمة الذين يزعمون أنهم ينحدرون من نسل النبى عليه الصلاة والسلام. أما التصوف فى الاسلام فقد جاء كرد فعل للقيود الصارمة التى فرضها السنة ، إذ تطلع المتصوفة المسلمون إلى علاقة مباشرة بالله ، وكانوا يتوقعون إلى تجربة دينية عنيفة كمهرب من التشريع السنى الصارم ، وبعد الانتصار النهائى للمذهب السنى فى القرن الثانى عشر كان الصوفية يقدمون الإسهام الفكرى الوحيد إلى جانب التراث القرآنى فى الثقافة الاسلامية . وقبل نهاية القرن الثانى عشر ظهر تيار علمانى قوى وثرى فى العالم الإسلامى جعل من العلماء العرب فى القرنين العاشر والحادى عشر أعظم علماء عصرهم وفلاسفته ، ومنهم استمد الأوربيون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر شطرا هاما للغاية من معارفهم فى هذه المجالات ؛ فقد تمت ترجمة الكتابات اليونانية فى الفلسفة والعلوم إلى اللغة العربية ، بما فى ذلك مؤلفات ارسطو الكاملة التى لم تعرفها أوربا سوى فى القرن الثانى عشر، وكانت هذه المؤلفات قد ترجمت فى سوريا فى القرن الثامن بمساعدة العلماء اليونانيين من الطوائف المسيحية الشرقية . وقد انتقلت كتابات أرسطو وغيرها إلى الغرب الأوربى عبر العالم الاسلامى كما وصلت إلى أسبانيا قرب نهاية القرن التاسع ، وكانت قرطبة فى القرن العاشر تشتهر بأنها مركز للأبحاث الناجحة والعلوم ، ووصلت شهرتها هذه إلى أعدائها من المسيحيين اللاتين . وفى القرن العاشر كتبت راهبة ألمانية تقول إن قرطبة "زخرفة جميلة" للحضارة ذاع صيتها بسبب جداول المعرفة السبعة الموجودة فيها . وحتى القرن الثانى عشر، كان الطب العربى أرقى من المعلومات الطبية التافهة فى غرب أوربا بدرجة كبيرة ، ولم يمنع الأطباء العرب من التوصل إلى الاكتشافات الطبية التى

---

= لايكن أن يمحوها الزمن ، ومن خلال هذه المآسى المتتالية برزت الشيعة وقد صاغت آراءها السياسية ، وأصبحت قوة كبرى فى الصراع السياسى ، ولايزال حزب الشيعة على قوته حتى اليوم .

والجدير بالذكر أن الشيعة ليسوا فرقة واحدة ، وإنما هم عدة فرق ، أولاها هى الكيسانية التى كانت تدعو الشيعة إلى مبايعة "محمد بن على" المعروف بابن الحنفية ، ومنذ ذلك الحين بدأت تتجسد فكرة "الأمامية" "المهدية" و"الرجعة" وغيرها من أركان مذهب هذه الفرقة التى أخذتها عنها الفرق الشيعية الأخرى . ثم تظهر فى فترة لاحقة فرقة "الرافضة" وفرقة "الزيدية" ثم تظهر فرقة رابعة هى" الاسماعيلية" فخامسة هى "الغلاة" الذين يغالون فى مذهبهم بشكل يخرجهم عن دائرة الاسلام .

أنظر : الشهرستانى ، الملل والنحل (طبعة الازهر ، ٣ج ، ص ٢٨٠ ومابعدها ؛ محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الاسلامية (الطبعة الثالثة الانجلو المصرية ١٩٦٠) ، ص ٤٣ - ص ٦١ .

تحققت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوربا سوى معارضة زعماء السنة للتشريح. وفى القرنين العاشر والحادى عشر كانت الرياضيات علماء عربيا خالصا ، وهو مايتضح من انتشار استخدام مصطلحات الرياضيات مثل الجبر والأرقام العربية فى اللغات الأوربية الغربية، صحيح أن الرياضيات العربية تدين بالكثير للدراسات والبحوث الصينية ؛ ولكن العرب ساهموا بعدة اسهامات أصلية فى هذا المجال . وفى العالم العربى قبل القرن الثانى عشر كانت الفلسفة والعلوم وقفا على مجموعة من العلماء الذين يعملون فى أعمال مدنية مثل الطب ، والتعليم ، والجهاز الحكومي . لقد كانت الزعامة الدينية منفصلة عن الزعامة الفكرية، فقد سيطر على الحياة الفكرية عدد من العلماء الذين تربطهم بالمذهب السنى وشائج قوية ، وقد أدى هذا الوضع إلى تلك الحيوية والشجاعة التى اتصفت بها العلوم العربية ؛ على الرغم من أنه - على المدى الطويل - جعل من التأمل العقلى هدفا للهجوم والتحقير من جانب أنصار المذهب السنى أثناء رد الفعل السنى الذى استمر طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وقد اشتهر العالم العربى فى العصور الوسطى ، لابسبب الانجازات الفكرية فحسب ، وإنما بسبب ثروته الزراعية وتجارته المزدهرة أيضا ، وكانت أوربا الغربية تبدو ، بالمقارنة مع البلاد الاسلامية ، منطقة متخلفة . وقد تمتع العرب بإدراك قوى جعلهم يبقون على نظم الرى التى كان معمولا بها فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى الباكرة ، وهى النظم التى كانت قائمة منذ العصر الرومانى ، وقبله بكثير فى أماكن عديدة . كما أن حسن إدراكهم هذا جعلهم يحافظون على التجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط ، وهى التجارة التى كان البيزنطيون يسيطرون عليها . ولم يكن لدى العرب مايسهمون به فى الحياة الاقتصادية لعالم البحر المتوسط ، ولكنهم سرعان ماتعلموا الاساليب الفنية فى التجارة من الشعوب التى قهروها.(١٢) ثم تحولوا إلى بحارة مهرة بشكل لافت للنظر ، كما بنوا الأساطيل الكبيرة

---

(١٢) عرف العرب فى كل العصور بأنهم أصحاب تجارة ، ومن البديهى أن العرب المقصودين بهذا هم أولئك الذين سكنوا على طول الطرق التجارية بين الشرق والغرب . وقد بلغت شهرة العرب فى التجارة حدا جعل استرابون يقول أن كل عربى تاجر أو سمسار ، فقد اشتغل اليمنيون بالتجارة منذ وقت مبكر فى التاريخ الانسانى . وكانت موارد التجارة تمثل ركنا هاما من أركان البناء الاقتصادى للدول التى قامت فى اليمن قبل الاسلام منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد (دولة معين ١٣٠٠-٦٣٠ق.م ودولة سبأ ٨٠٠-١٥٥ ق.م ثم الدولة الحميرية ١١٥ق.م إلى ٥٢٥ ميلادية) . كما أن بلاد الحجاز - التى كانت بمثابة الجسر الذى يربط بين بلاد الشام وحوض المتوسط من ناحية ، ودول شرق أفريقيا والمحيط الهندى من ناحية أخرى - قد شهدت نمو عدد=

وفرضوا سيطرتهم التامة على البحر المتوسط فى القرنين الثامن والتاسع ، وسك الحكام المسلمون عملة قوية للغاية صارت أساسا فى عمليات التبادل التجارية الهامة ، لا فى عالم البحر المتوسط فقط ، وإنما فى العديد من أنحاء غرب أوربا أيضا . وقد ظلت شعوب غرب أوربا تستخدم العملات الذهبية العربية فى عمليات التجارة العالمية بعد أن توقفت هذه الشعوب عن سك عملات ذهبية خاصة بها فى القرن الثامن ، وقد اكتشف الأثريون هذه العملات الذهبية العربية فى شتى أنحاء أوربا الغربية . وينبغى أن نتذكر أيضا ، أثناء تقييمنا للتجارة العربية ، أن الصورة الشائعة للتاجر العربى فى عالم العصور الوسطى الباكرة، كانت غالبا ، صورة رجل لايتحدث سوى اللغة العربية ، وربما كان مصريا أو سوريا ، يهوديا أو من البربر ، أو من أى شعب آخر من الشعوب الاسلامية .

كان انتشار الاسلام وتأثيره على اقتصاد أوربا الغربية موضوعا للجدل والخلاف الشديد بين المؤرخين . وربما تحوم بعض شكوك قليلة حول تأثير الاسلام على تطور أوربا الغربية فى المجال السياسى والفكرى فى العصور الوسطى الباكرة ، إذ أن تأثير الاسلام فى هذين المجالين كان ضئيلا ، وليس السبب فى ذلك راجعا إلى أن أوربا الغربية لم تجد ماتتعلمه من الحضارة الاسلامية ، بل على العكس من ذلك ، استطاع الأوربيون أن يتعلموا الكثير من العرب فى مجال الحكم ، الذى استوعب فيه العرب تقاليد الحكومة البيروقراطية التى خلفتها الحضارة الرومانية - البيزنطية ، كما أنهم استفادوا كثيرا من التعاليم العربية فى مجالى الفلسفة والعلوم ، ولكن لأنه لم يكن هناك مسلمون خاضعون لأى من الحكام المسيحيين الغربيين فى العصور الوسطى الباكرة ، ولأن الشعوب الغربية كانت ترى فى المسلمين مجرد هراطقة جامحين وأعداء ضارين ، فقد أغمضت هذه الشعوب عيونها عن المكاسب التى كانت يمكن لها أن تحصل عليها من خلال الاتصال بالشعوب العربية الاسلامية . وكان لابد أن تدفع أوربا العصور الوسطى الباكرة ثمن الستار الحديدى الذى فرضته على شعوبها وأن تدفع ثمن الحرب

---

= من المدن التجارية ومن بينها مكة ويثرب ، وقامت على ساحل البحر الأحمر موانىء هامة مثل الشعيبة (ميناء مكة القديم قبل جدة) وينبع ميناء مدينة يثرب ، ومنذ نهاية القرن السادس الميلادى احتكرت قريش التجارة التى نظمها (هاشم بن عد مناف) فى رحلتى الشتاء والصيف ، وهكذا نصل إلى أنه إذا كان العرب قد أبقوا على نظم الرى وأساليب الزراعة التى وجدوها فى البلاد المفتوحة ، فإن مساهمتهم فى مجال التجارة لم تكن ضئيلة بالقدر الذى يجعلنا نقول إنهم تعلموا أساليب التجارة من الشعوب المغلوبة .

حول هذا الموضوع أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام (الاسكندرية ١٩٧٤ ؛ محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية (القاهرة ٩٣٤) ، الجزء الأول . (المترجم)

الباردة التى شنتها ضد الإسلام ، فكان أن حرمت الشعوب اللاتينية نفسها من ثمار الحضارة الاسلامية بسبب سياستها الانغلاقية ، وعزلتها الحضارية . وقرب نهاية القرن العاشر فقط بدأت كراهية المسيحيين للتعاليم التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تتقهقر وتتراجع لتأتى فى المرتبة الثانية بعد إدراك المسيحيين الغربيين لما يمكنهم أن يحققوه من مكاسب من خلال الدراسة فى قرطبة . فقد ذهب جربردى أوريلاس Gerber d'Aurillace الذى كان أعظم علماء عصره والذى تولى بالبابوية فيما بعد ، إلى الأندلس لكى يدرس الفلسفة والرياضيات، وكان للتعليم الذى تلقاه على أيدى أساتذته المسلمين الفضل فى تفوقه على أقرانه من المسيحيين ، ونظرا لأن الفارق بين جربر ورفاقه من العلماء المسيحيين كان شاسعا ؛ فقد ساد الاعتقاد على مدى عدة قرون ، فى أنه كان يعتمد على قوى خفية تساعده على العرافة والتنجيم وآعمال السحر الأسود . ولم يرفع الستار الحديدى بين أوربا الغربية وأسبانيا الاسلامية إلا بعد سنة ١١٠٠م ، وكانت نتيجة ذلك أن دخلت كتابات أرسطو إلى غرب أوربا عن طريق أسبانيا إيذانا ببدء الثورة الفكرية .

أما الآثار الاقتصادية الناجمة عن انتشار الاسلام ، فهى غير واضحة ، وهو ماجعل المؤرخين يتنازعون طيلة الأعوام الستة والعشرين الماضية حول مسألة ظهور هذه القوة الجديدة فى حوض البحر المتوسط فى القرنين السابع والثامن ، وتأثير هذه القوة على العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب . واندلع هذا الجدل نتيجة لآخر مؤلفات المؤرخ الاقتصادى البلجيكى الذائع الصيت هنرى بيرين Henry Pirenne وهو كتابه المعنون "محمد وشارلمان" الذى نشر سنة ١٩٣٩م . وكان بيرين رجلا نادر المثال ، فهو باحث قدير غزير العلم ، ومفكر أصيل صاحب أسلوب حيّ مقنع . وبينما يميل معظم المؤرخين الى الحذر كلما تقدمت بهم السن، فإن بيرين على عكس ذلك ، صار أكثر ميلا إلى التعميمات المتسرعة ، وأخذ رفاق بيرين يدافعون عن آرائه دفاعا حارا فى كل مكان ، مما أدى إلى إعتناق الكثيرين لهذه الآراء . والواقع أن كتاب "محمد وشارلمان" قد أثر تأثيرا كبيرا على التفسير العام لتاريخ العصور الوسطى ، لدرجة أن الكثيرين من مؤرخى الجيل القديم كانوا يجدون صعوبة كبيرة فى التخلى عن كتاب بيرين ، أو حتى تعديله ؛ على الرغم من النقد البالغ القسوة الذى وجهه لهذا الكتاب علماء من أمثال لوبز ، ولاتوش وغيرهما فى السنوات الأخيرة .

فما هو الرأى الذى طرحه بيرين ؟ يمكن ايجاز هذا الرأى فى أن التوسع الاسلامى قد سبب الانهيار الاقتصادى لعالم البحر المتوسط ، كما أن التوسع الإسلامى كان السبب فى الانفصال

النهائى بين الشرق والغرب ، ونهاية وحدة عالم البحر المتوسط التى زعم بيرين أنها استمرت قائمة إبان فترة الغزوات الجرمانية . إذ أن أفريقية ، وأسبانيا اللتين كانتا على الدوام جزءا من العالم اللاتينى ، قد صارتا من منذ ذلك الحين تابعتين لحضارة أخرى مركزها بغداد وصار الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، وهكذا وجد الغرب نفسه محاصرا مما أجبره على الاعتماد على موارده الخالصة . وللمرة الأولى فى التاريخ يتحول محور الحياة إلى الشمال بدلا من البحر المتوسط ، وبانقطاع أوربا الغربية عن البحر المتوسط كان عليها أن تعود إلى إنتهاج نمط الاقتصاد الطبيعى (أى الاقتصاد الريفى) ، وظهرت نظم جديدة تلائم الدولة الاقطاعية ومجتمع الضيعة الاقطاعية . وفى هذا البحث الواضح الحاسم الذى قام به بيرين تبدو عوامل الجذب واضحة تماما ، فقد استطاع أن يقدم آراء مدعمة بالبراهين الجديرة بالاعتبار ، ولكن العديد من العلماء الذين كتبوا فى السنوات العشرين الأخيرة ، يميلون إلى القول بأن كتاب "محمد وشارلمان" مجرد مبالغة كبيرة ، وتبسيط شديد للأمور التى تتعلق بحضارة العصور الوسطى الباكرة .

وسوف نرى أن ثمة جانبين فى البحث الذى قام به بيرين فى حاجة إلى تدعيم لكى يكون تفسيره مقبولا ، وأولهما قوله إن الغزوات الجرمانية لم تكن نقطة تحول فى تاريخ غرب أوربا الاقتصادى ، وثانيهما قوله إن انتشار الاسلام كان هو نقطة التحول الحاسمة ، وفى رأينا أنه يجب تناول كل من هذين الموضوعين بحرص .

ففى رأى بيرين أنه على الرغم من الغزوات الجرمانية فإن وحدة عالم البحر المتوسط ظلت قائمة أثناء القرنين الخامس والسادس ، كما ظلت فرنسا الميروفينى جزءا من حضارة البحر المتوسط . وقد انبنى هذا الرأى على أساس القراءة الخاطئة ، سواء عن قصد أو غير قصد ، للصورة التى رسمها جريجورى التورى للمجتمع الميروفنجى . إذ لم تكن ثمة قطيعة كاملة مع تجارة البحر المتوسط وحضارته ، ولكن كان هناك تدهور واضح فى تأثير حوض البحر المتوسط على المجتمع الفرنجى ، ولم يكن اقتصاد غاله فى القرن السادس من ذلك النمط الذى تمثل التجارة وعمليات التبادل النقدى ركنا هاما من أركانه ، لأن فرنسا الميروفنجية كانت تعتمد إلى حد بعيد على الأرض فقط كمصدر أساسى للثروة . فلم تكن المدن التى يصورها جريجورى التورى فى تاريخه سوى مراكز سياسية وأسقفية ، ولم تكن مراكز تجارية ، فقد كانت طبقة التجار الرومانية قد اختفت ، وتحمل الشرقيون من السوريين واليهود عبء تجارة أوربا الغربية مع البلاد الشرقية . وبالمقارنة مع بيزنطة تعتبر فرنسا الميروفنجية منطقة متخلفة

تماما ، يقوم اقتصادها على الزراعة ، وليست للتجارة فى هذا الاقتصاد سوى أهمية ضئيلة ، ويبدو من المستحيل أن ننكر صحة هذه الصورة التى كان عليها العالم الميروفنجي ، لاسيما وأنها صورة يدعمها الدليل الأثرى . ومن الواضح إذن ، أن تدهور فرنسا الاقتصادى وتفكك وحدة عالم البحر المتوسط قد حدثا بالفعل قبل البعثة النبوية .

وليس معنى هذا أن الغزوات الجرمانية كانت بمثابة الكارثة المفاجئة التى سببت هذا التدهور الاقتصادى ، ذلك أن وحدة البحر المتوسط الاقتصادية ، وحجم التجارة العالمية ، أخذتا فى التدهور منذ القرن الثانى . وفى الوقت الذى لانزال فيه غير واثقين تماما إلى أى حد كانت الغزوات الجرمانية نقطة تحول حاسمة فى التاريخ الاقتصادى لغرب أوربا ، فإنه يبدو من المؤكد أن "تفاعل بدائية الجرمان مع الإنحلال الرومانى" على حد تعبير لوبيز ، قد زاد من سرعة التفكك الاقتصادى فى عالم البحر المتوسط ، وهو التفكك الذى أخذت أعراضه تبدو واضحة من النصف الثانى للقرن الثانى .

وتكشف الأبحاث التى قام بها أخيرا المؤرخون الاقتصاديون ، أنه حدث إحياء جزئى للتجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط قرب نهاية القرن السادس برعاية البيزنطيين . ويعتبر وجود التجار السوريين فى غرب أوربا أيام جريجورى التورى دليلا على ذلك . كما أن هناك دليلا على أنه كان هناك إحياء جزئى لتجارة التصدير فيما بين انجلترا والشاطىء الشرقى للبحر المتوسط فى منتصف القرن السابع ، فضلا عن أن هناك أدلة متفرقة على أن ايرلندا وبلاد البلطيق ، التى لم تكن تربطها صلة بالحضارة الرومانية ، قد شاركت فى النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط آنذاك .

ويبقى علينا الآن تمحيص الجزء الثانى من كتاب بيرين . ترى الى أى مدى كان انتشار الاسلام سببا فى القضاء على هذا الاحياء الجزئى للتجارة بين الشرق ؟ فى رأى بيرين أن كلا من المسلمين والمسيحيين يكرهون بعضهم بعضا ، ومنذ أن تحكمت القوة البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع أصبح استمرار العلاقات بين أوربا الغربية وحوض المتوسط أمرا مستحيلا ، ثم يسوق لنا مناقشة تخلط بين الأسباب والنتائج ، وربما كانت هذه المناقشة مضللة فى صياغتها التى تبدو منطقية ، إلا أن المؤرخين يرونها صحيحة فى أغلب الأحيان نظرا لعدم وجود البراهين الواضحة على خطئها . فقد أشار بيرين إلى انتقال مراكز الحياة الأوربية إلى الشمال الفرنسى ووادى نهر الراين وإلى تدهور موانىء فرنسا على البحر المتوسط . كما أشار إلى الاتجاه المطرد نحو الاقتصاد الريفى الخالص فى فرنسا خلال القرن

الثامن ، وخلص من هذا باستنتاج مؤداه أن السبب فى ذلك هو انقطاع التجارة بين الشرق والغرب نتيجة التوسع الاسلامى ، وقد استطاع بيرين أيضا أن يقدم فى بحثه بعض الأدلة التطبيقية الواضحة . ففى أواخر القرن السابع توقفت الكنيسة الغربية عن استخدام النبيذ المستورد من فلسطين فى طقس الأفخارستيا ، أى العشاء الربانى ، كما أنها بدأت تنشر وثائقها على الرق بدلا من ورق البردى المستورد من مصر . والاستنتاج الأكثر صحة هو أن الأوربيين لم يعودوا قادرين على شراء النبيذ الفلسطينى وورق البردى المصرى ، لأن استيرادهما كان يتكلف نفقات باهظة ، نتيجة الظروف التى ترتبت على الفتح الاسلامى لهذه البلاد .

وكان من الصعب على ناقدى بيرين أن يفسروا هذا الدليل التطبيقى ، وهناك رأى يقول بأن الطلب على مثل هذه البضائع الشرقية قد انخفض نتيجة للتغيرات التى طرأت على طعمها وطرق انتاجها ، بيد أن هذا الرأى غير مقنع على الاطلاق . وعلى أية حال ، فإن هناك دليلا يكفى لأن يفند رأى بيرين بشكل خطير ، فربما كانت التجارة بين الشرق والغرب قد توقفت تماما على مدى نصف قرن من الزمان أو أكثر قليلا ، بيد أنه من المؤكد أنه كانت هناك علاقات تجارية مستمرة بين أوربا الغربية والبلاد الاسلامية منذ منتصف القرن التاسع فصاعدا. وكانت سلع الصادرات الغربية إلى الشرق هى : العبيد ، والفراء ، والمنتجات المعدنية ، والأخشاب . وفى مقابل ذلك كان التجار المسلمون يفدون ببضائع الترف والرفاهية الشرقية التى كانت تجعل من حياة النبلاء الأوربيين الخشنة حياة أكثر راحة . ويبدو غريبا أن بيرين ، الذى كان حجة وعلماء من أعلام تاريخ تجارة العصور الوسطى ، قد تغافل تماما عن تجارة العبيد التى كانت تجارة رائجة بين أوربا الغربية ، وبلاد البحر المتوسط ، وقد لعب اليهود دورا هاما فى هذا النشاط التجارى فى بداية الأمر . وبحلول سنة ٩٩٠ تخلى البنادقة وغيرهم من التجار الايطاليين عن غيرتهم الدينية حتى يتمكنوا من القيام بدور هام فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ومن المؤكد أن التجارة فى البحر المتوسط كانت تتعرض لخطر القراصنة طوال العصور الوسطى الباكرة ؛ مما جعل من التجارة العالمية عملا محفوفا بالمخاطر ، كما رفع تكاليف النقل إلى درجة كبيرة للغاية ، بيد أن التجار الأوربيين كانوا يحصلون على مكاسب طائلة جدا من البضائع التى كانت تسلم من خطر القراصنة أو الغرق ، فقد كانت هذه البضائع عبارة عن مستلزمات الرفاهية والمواد الخام التى كان يقصد بها إشباع حاجات الطبقة الحاكمة ، ولم تكن تستورد بهدف الاستهلاك الشعبى ، ومن ثم فإن التكلفة المتزايدة بالضرورة لم تكن لتحول دون استيراد هذه البضائع .

ومن الممكن أن نسلم بأن إنتشار الإسلام قد تسبب فى تدهور النشاط التجارى فى عالم البحر المتوسط ، وأنه كان عاملا من عوامل تحول الاتجاه الاقتصاد الأوربى نحو الشكل الريفى Ruralization وانتقال مراكز الحياة الأوربية إلى فرنسا ووادى نهر الراين . ولكن انقطاع أوربا الغربية حقا عن تجارة البحر المتوسط لم يحدث إلا بشكل مؤقت ، هذا إن كان حدث مثل هذا الانقطاع على الاطلاق . ولايمثل إنتشار الاسلام سوى مرحلة واحدة من مراحل العملية الاقتصادية التى اتسمت بالاكتفاء الذاتى وتدهور الحياة الحضرية de - urbanization التى كانت تجرى منذ نهاية القرن الثانى بعد الميلاد . فإن الحروب الأهلية التى شهدها القرن الثالث، ثم الغزوات الجرمانية ، ثم الانتصار العسكرى العربى فى نهاية الأمر ، كانت أحداثا ساعدت على تكريس الاقتصاد الطبيعى فى غرب أوربا ، كما ساعدت على قيام النظام الأقطاعى فى القرن التاسع . وقد لعب بيرين دورا هاما فى فهمنا وإدراكنا لتاريخ العصور الوسطى ، وذلك لأنه لفت الانتباه إلى النتائج الاقتصادية للاسلام - على الرغم من أنه كان يبالغ فى أهميتها- إلى جانب نتائج الغزوات الجرمانية . إن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يحدد مصير عالم شارلمان ، على نحو ما اعتقد بيرين ، لأن نظم أوربا القرنين الثامن والتاسع لم تكن لتختلف جذريا لو لم يحدث التوسع الاسلامى . والحقيقة الأساسية فى تاريخ العصور الوسطى هى أن أوربا الغربية قد اتجهت إلى الاكتفاء الذاتى بعد أن فشل جستنيان فى إعادة بناء الامبراطورية الرومانية ، وأن أوربا هى التى حسمت مصير الحضارة الغربية بما تتميز به من نظم ومؤسسات، كما أن زعماءها كانوا من أبنائها .

# الفصل السادس

# نمو الزعامة الكنيسة

## ١- المؤسسات الديرية فى حضارة العصور الوسطى

لم يكن ممكنا أن تأتى القيادات التى أمست حاجة المجتمع الغربى - بما اتسم به من الفوضى والاضطراب فى القرن السادس - ملحة إليها إلا من داخل الكنيسة . فقد كانت الكنيسة تضم بين صفوفها جميع الرجال المتعلمين فى أوربا آنذاك ، كما كانت هى أقوى مؤسسات العصر ، بيد أن الكنيسة كانت قد عانت كثيرا من الغزوات الجرمانية ؛ إذ أن الاساقفة ربطوا مصالحهم بمصالح النبلاء . والحقيقة أنهم غالبا ماكانوا من أقرباء الملك أو من أبناء الطبقة الارستقراطية القوية النفوذ . وكان رجال الدين بشكل عام موصومين بالجهل ، والفساد ، كما أنهم عجزوا عن علاج المشكلات التى نجمت عن تنصير مجتمع ظل على وثنيته إلى حد بعيد رغم اعتناق جماهير المحاربين الجرمان للمسيحية بشكل رسمى . فقد تسربت الى رحاب المسيحية اللاتينية أشد ضروب الخرافات والخزعبلات فجاجة وبدائية ، كما علقت بالعقيدة فى القرنين السادس والسابع شوائب الاعتقاد فى الشياطين والسحر ، فضلا عن أحط وأدنى ضروب عبادة الذخائر المقدسة . وتسربت الى المسيحية عبادات القوى الطبيعية المحلية متمثلة فى تبجيل القديسين ، بالإضافة إلى ما أصاب العقيدة من انحطاط وتدهور عام بسبب البداوة الوثنية . ولم يكن هناك من رجال الكنائس الأبرشية من يستطيع أن يذهب إلى الريف لمجابهة مثل هذا الانحطاط ، وغالبا ما كان أحد قساوسة الكاتدرائية يقوم برحلة بين الحين والحين من مقره الأسقفى إلى الريف لإنجاز بعض الأعمال الدينية المتعلقة بالأسرار المقدسة . ولم يكن رجال الاكليروس العلمانيون يهتمون ، أو يرغبون ، فى القيام بالأعمال التبشرية الشاملة ، بل إن احدا لم يهتم بمجرد التنصير الشكلى للقبائل الجرمانية التى كانت تعيش داخل المملكة الميروفنجية ، وهى القبائل التى تسكن شرق نهر الراين . إذ أن أولئك الجرمان بقوا علي وثنيتهم حتى القرن الثامن ، ومع بزوغ شمس القرن السابع ، كان النظام الكنسى فى بلاد الغال غارقا فى حال من الفوضى والاضطراب . وتمثلت المشكلة الأساسية فى كيفية الحفاظ على المبادىء الكافية التى يمكن أن تستمر بها الطقوس والتعاليم المسيحية اللاتينية ، وتضمن إستمرار ما كانت تقدمه الكنيسة اللاتينية من إرشادات ، فقد

كان الكثير من القساوسة لايفقهون معنى ما يقولون فى قداس الكنيسة ولكنهم كانوا يتمتعون دون فهم ، بعبارات غامضة من اللغة اللاتينية جعلتها تبدو كما لو كانت رقايا أو "تعازيم" سحرية ، وذلك من أجل التأثير فى البدائيين فى المناطق الأبرشية القريبة .

ويرجع الفضل فى بقاء الكنيسة اللاتينية ، والحضارة الأوربية ، وصونهما من الزوال ، إلى المؤسستين الكبيرتين اللتين تمتعتا - دون غيرهما - بالقوة والكفاية اللازمتين لمجابهة التأثيرات السلبية للعالم البربرى المحيط بأوربا ، وهما الإكليروس النظامى (أى الرهبان) والبابوية . فمن بين جميع مؤسسات أوربا الغربية ، كانت الديرية والبابوية هما فقط القادرتين على إفراز قيادات المجتمع الأوربى ، وسرعان ماتمثلت نتيجة جهودهما المتواصلة فى تطوير الملكية الجرمانية وتحضرها ، وتحويلها إلى قوة خلق إضافية فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة . ولكن بينما كانت البابوية والملكية الجرمانية مكرستين تماما لقيادة أهل أوربا الغربية صوب الإتجاه الأكثر فعالية وجدوى ، كان الرهبان يشكلون القوة الاستمرارية فى ميادين التعليم ، والتنظيم والتقدم الاجتماعى فى الفترة مابين القرن السادس والقرن الثانى عشر ، كما كانوا من أكبر قوى الحسم فى تشكيل حضارة العصور الوسطى . فكيف تأتى للاكليروس النظامى - أى رجال الدين عاشوا فى ظل دستور ديرى - أن يلتزموا بهذه الإلتزامات الاجتماعية الضرورية ؟ إن الإجابة على هذا السؤال هى التى حدث شكل بناء الحضارة الجديدة التى قامت فى أوائل العصور الوسطى .

أما الديرية ، فهى شكل من أشكال النسك الدينى ، تضمن تنظيم وتقييد أو إنكار الذات فى الجوانب المادية والجسدية فى الحياة الإنسانية من أجل ضمان علاقة روحانية خالصة مع الرب تكون سبيلا إلى الخلاص ، وهكذا يهدف النسك الى الخلاص ، وهو هدف يمكن تحقيقه إما بانسحاب الناسك من المجتمع بمغرياته ولهوه المفسد ، وإما بالتحكم القاسى فى الحياة الاجتماعية لكى تكون البيئة مناسبة للناسك حتى يواصل حياته فى الدنيا ، وتسمى الوسيلة الأولى بالديرية بينما يمكن أن نطلق على الوسيلة الثانية اصطلاح "التطهيرية Puritanism". ومن الواضح أنه فى ظل الظروف التى كانت سائدة أوائل العصور الوسطى ، حيث المجتمع العنيف الفوضوى ، والذى كان غير مسيحى أساسا ، يصبح التحكم التطهيرى فى المجتمع من أجل ملاءمة العالم لحياة النسك أمرا مستحيلا . ومن ثم كان على الناسك أن يعتزل العالم لكى يؤكد انتصار إرادته الروحانية وخلاص روحه ، بيد أن طبيعة النظام الديرى فى أوربا اوائل العصور الوسطى فى شكله النهائى لم تسمح لمثل هذا الهروب من العالم بان ينجح تماما. وبدلا من ذلك : صار الدير مؤسسة اجتماعية فائقة الأهمية ، فقد قدم الرهبان المبرزون أعظم

الخدمات لكل من الكنيسة والملكية كما قدمت الديرية لكل من المؤسستين الدماء والقيادات الجديدة .

وعلى أية حال ، فإن الديرية كنظام لاترتبط بالغرب كما أنها لم تكن من نتائج العصور الوسطى ، إذ لايزال هناك رهبان بوذيون الى اليوم ، كما كان هناك رهبان يهود فى فلسطين ، قبل العصر المسيحى ، وهم أفراد الطائفة الآسينية الراديكالية ، الذى يعتقد انهم كانوا أصحاب وثائق البحر الميت[1] ، وربما كان القديس يوحنا المعمدان قد تأثر بمذاهب هذه الطائفة من حيث انتظارها المخلص المرتقب واعتقادها فى الحياة الأخرى . وعلى أية حال ، فإن يوحنا المعمدان قد مارس أشد أنماط حياة النسك تزمتا وصرامة ، ويمكن القول بأن المسيح قد حبذ مثل هذه الحياة باعتبارها أكثر أنماط الحياة مثالية ، وذلك حين أخبر حوارييه أنه يجب عليهم التحلل من كل القيود التى تربط الانسان بالحياة المادية بما فى ذلك حبه لأبويه لكى يدخلوا

---

(١) الطائفة الآسينية (الآسين أو الآسينيين) طائفة يهودية رأت أن تهرب من العالم لكى تحافظ على نقاء الجماعة وطهارتها ، وكان افرادها يعتقدون أنهم وحدهم اليهود الحقيقيون ، وقد وجدت هذه الفرقة قبل ميلاد المسيح وعاشت بعده وكانت أهم فرق اليهود وأكثرها احتراما ونشاطا حين ظهر ، ونظرا لقلة المعلومات المتاحة عن هذه الفرقة - بحكم العزلة التى فرضتها على نفسها - فانها تمثل مشكلة أمام الباحثين ، والمصدر القديم الوحيد عنهم تمثل فى الفقرات القليلة التى كتبها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابيه "حرب اليهود" تواريخ اليهود" وفيما كتبه عنه عالم الطبيعة الرومانى بلينيوس الاكبر (٢٣-٧٩) ، وقد حار العلماء فى تفسير اسم هذه الفرقة اليهودية كما حاروا فى تاريخها وعقائدها .

عن هذه الفرقة وعقائدها انظر : حسن ظاظا ، الفكر الدينى الاسرائيلى (معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١) ص ٣٦٤- ص٢٧٣ . أما وثائق البحر الميت التى عرفت ايضا باسم لفافات البحر الميت The Dead Sea scrolls أو مخطوطات قمران ، نسبة الى المكان الذى اكتشفت به بطريق الصدفة فى المناطق المجاورة للبحر الميت فى الاردن حاليا منذ عام ١٩٤٧ ، وهى عبارة عن كتب فرقة دينية يرجع تاريخها الى الفترة مابين سنة ١٥٠ق.م وسنة ١٣٥ ميلادية تقريباً ، وبينما يعتقد بعض العلماء أن لفافات البحر الميت تحمل تراث الآسيين فان البعض يقول ان اسم هذه الطائفة لم يرد مرة واحدة فى هذه الوثائق والنصوص ، ومعظم هذه الوثائق عبارة عن مقتطفات من العهد القديم ومن للمجموعة المعروفة باسم الابوكريفا (وهى كتب دينية يهودية مشكوك فى صحتها وأصالتها ولذلك فهى غير قانونية) والبعض الآخر خاصة بفرقة يهودية يميل بعض الباحثين إلى القول بانها فرقة الاسينيين . وتكمن اهمية هذه الوثائق فى انها تساعد على فهم الكثير من جوانب الفكر اليهودى آنذاك :

أنظر : H.A.R. Edgell, Dead Sea Scrolls, Oxford 1976

(المترجم)

فى الملكوت ، كما كان التحذير الذى أطلقه المسيح "لاتقدرون أن تخدموا الله والمال" (انجيل متى ، الأصحاح السادس) ، والنموذج الذى قدمته حياة المسيح ، الذى يُطيع أباه حتى الموت على الصليب ، ملهما لكل الأجيال المتعاقبة من النساك والزهاد المسيحيين جعلهم ينفصلون عن الحياة الدنيا ، ويحيون حياة روحانية خالصة بالقدر الذى يستطيعه الانسان . وكان لتغلغل الفلسفة الأفلاطونية العميق فى الفكر المسيحى فى القرون الأولى بعد الميلاد ، بثنائيتها عن الروح والجسد وتحللها من قيود العالم المادى ، أثره فى شيوع الإيمان بأن الروح تضمن خلاصها حين تحل الجوانب الروحانية فى البشر محل الجوانب الجسدية . وفى القرنين الثانى والثالث شعر بعض رجال الكنيسة الأتقياء - ممن فسروا الانجيل على هذا النحو الثنائى المتعسف - بالخطر العظيم الذى يهدد أرواحهم من جراء عيشهم فى المجتمع فهربوا إلى أماكن مقفرة لكى يقوموا بالممارسات الروحانية الخالصة . وكانت الصحراء المصرية هى المكان المفضل الذى يفر اليه أولئك المتدينون الميالون للعزلة والتأمل ، بيد أن آباء الصحراء اكتشفوا أن العالم لم يكن ليدعهم يذهبون بعيدا . فمنذ ذاعت أنباء تدينهم ، أخذ المريدون فى السفر اليهم عبر الصحراء المصرية طلبا لمساعدتهم فى التوسل الى الرب ، وهكذا فمنذ البداية الأولى للديرية المسيحية ، وجد الرهبان أنفسهم محاطين بالعالم الذى كانوا قد تركوه لتوهم احتقارا لشأنه ، كما أن المجتمع التمس منهم الشفاعة لأفراده لدى الرب . لقدكانت بداية حركة الزهد والنسك فى المسيحية دليلا على علاقة الشد والجذب بين الدير والعالم .

كانت صورة القديس - الناسك مألوفة وشائعة فى الكنيسة الشرقية ، ولم تتمكن الديرية الشرقية أبدا من التخلص من النموذج الذى أرسته الأصول الأولى لحركة الرهبنة الانفرادية فى الشرق .

وقدم أثناسيوس فى كتبه المسمى "حياة القديس أنطون" اشهر آباء الصحراء فى القرن الرابع . كانت حركة الرهبنة الشرقية تجنح الى التطرف لأن العامة كانوا يخلطون بين القداسة والمبالغة فى حرمان الجسد : كما فعلوا مع القديس السورى" سمعان العمودى Simeon Sty-lites " الذى عاش فى أوائل القرن الخامس ، واشتهر بانه أمضى الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته جالسا على قمة عمود يرتفع عن الأرض سبعين قدما . إلا أن بعض رجال الكنيسة الشرقية من ذوى العقول المتحضرة الحساسة لم يؤيدوا مثل هذا التعسف المتطرف ، فقد كان من رأى باسيل ST. Basil - وهو أحد كبار آباء الكنيسة الشرقية فى القرن الرابع وكانت ثقافته كلاسيكيه - أن على الرهبان إطاعه الوصية القائلة بأن على المرء أن يحب جاره مثل حبه للرب. لقد كان القديس باسيل رائدا فى تكوين نظام الديرية الجماعى فى الكنيسة

الشرقية ، وهو النظام الذى قدر له أن يتغلب بالتدريخ على نظام الرهبنة الانفرادى القديم ، ولكن نظام الديرية الجماعية الشرقية ظل فضفاضا ، إذ احتفظ للراهب الفرد بالقدر الأكبر من استقلاله فقد اتسم الدير اليونانى بكونه مجتمعا كبيرا عاش فيه الرهبان سويا بقصد التقارب، ولكن سيطرة مقدم الدير abbas عليهم كانت ضئيلة ، فقد كان مجرد رجل دين أعلى قدرا يحظى بتبجيلهم له .

أما الديرية الغربية ، فإن تطورها بدأ أيضا من الرهبنة الفردية . ذلك أن إنهيار عصب المجتمع الغربى ، إبان القرن الأخير من حياة الإمبراطورية الرومانية ، دفع بعض من فقدوا إيمانهم بالحضارة ، دون أن يفقدوا ايمانهم بالله ، الى محاولة ضمان خلاص ارواحهم عن طريق حياة الزهد والتقشف فى الكهوف والأماكن الموحشة . وغالبا ماذاع صيت مثل أولئك الرجال باعتبارهم قديسين صانعى معجزات ، فقد وضعت رفات القديس مارتن St. Martin ، أحد أولئك النساك اللاتين ، فى تور Tours التى صارت مزارا شعبيا شهيرا ، مما كان له اكبر الاثر فى نمو ثروة هذه الأسقفية ، وفقا لرواية جريجورى التورى التى يرويها فى فخر . ولكن النسك والتقشف الإنفرادى المتطرف لم تكن له أبدا تلك الأهمية التى أحرزها فى الشرق ؛ إذ حلت محل ذلك أنماط جديدة من الديرية الجماعية فى القرنين الخامس والسادس ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أسباب مناخية من جهة ، وإلى أسباب إجتماعية من جهة أخرى . فقد كانت المحاولة التى يقوم بها المرء لكى يصير ناسكا فى ظل ظروف مناخ شمال أوربا البارد مسألة جد مختلفة عن الحياة المنفردة فى مصر . فضلا عن أن التقشف والنسك الفردى المتطرف لايظهر سوى كرد فعل تجاه المجتمع الحضرى الثرى ، ولم يكن هناك مايبرر التبرؤ الدرامى من مظاهر الترف ، ذلك أنه كان من الشائع فى أوربا أوائل العصور الوسطى ألا يجد كل فرد تقريبا كفايته من الأكل . ولم يصبح النسك الإنفرادى حركة قوية فى الحياة الدينية الغربية إلا بعد وجود المجتمع الحضرى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وحتى ذلك الوقت كانت الديرية الغربية تتميز بارتباطها بالنظام الجماعى .

وتماثلت الأنماط الأولى من الديرية فى غرب أوربا تماثلا شديدا مع الكيان الفضفاض للجماعات الدينية الشرقية . والحقيقة ، أن الدير الذى أسسه "حنا كاسيان St. John Cassian" فى مرسيليا فى أوائل القرن الخامس ، كان من هذا النوع من الديرية . ويعتبر كتاب "المقارنات" الذى يحوى ما كتبه كاسيان عن محاوراته مع آباء الصحراء المصرية ، إسهاما فى تطوير النظام الديرى الغربى ، ويوضح كتابه هذا مدى ماتمتع به آباء الصحراء من قدسية ، كما يكشف عن الأخطار الناجمة عن عزلة حياة الزهد ، الأمر الذى جعل الكتاب مطلوبا فى جميع آديرة العصور الوسطى الباكرة .

وكانت أكثر الأديرة نجاحا فى القرنين الخامس والسادس هى تلك التى وجدت فى أيرلندة ؛ إذ تماثلت الأديرة الأيرلندية الى حد بعيد مع الأديرة الشرقية من حيث الشكل وربما كان ذلك نتيجة للتأثيرات المباشرة القادمة من شرق البحر المتوسط . فهناك بعض الأدلة على قدوم رجال الكنيسة الاغريقية الى أيرلنده في القرن السادس ، والراجح انهم تتبعوا طرق التجارة بين أيرلنده والشرق . وكان الرهبان الأيرلنديون يمثلون استثناء من حيث رقى تعليمهم وغيرتهم الدينية ؛ فقد قاموا بأعمال تبشيرية ممتازة ، كما كانوا روادا فى تحويل الأنجلو - سكسون الوثنيين الى المسيحية ، وفى محاولات إصلاح الكنيسة فى غالة . ولكن لم تكن لمقدم الدير الأيرلندى أية سلطة على الأخوة الرهبان الذين تمتعوا بحرية الذهاب والإياب كيفما تراءى لهم ، وبدلا من هذا الشكل الفضفاض للحياة الديرية ، قدر لنمط آخر من الحياة الديرية ، أكثر احكاما وصرامة - بل إنه كان فى الواقع شكلا من أشكال الديرية الجماعية - أن يصبح عماد النظام الديرى فى أوربا الغربية حتى القرن الحادى عشر .

ما أن غربت شمس القرن التاسع ، حتى كان نظام القديس بندكت النورسى St. Benedict of Nursia هو القاعدة التى تسير عليها جميع الأديرة الغربية باستثناء أديرة أيرلندة . وكان القديس بندكت (ت، سنة ٥٤٣) قد وضع هذا النظام للدير الذى أسسه فى مونت كاسينو Mont Cassino بالقرب من نابلى . وصار النظام البندكتى طابع الديرية الغربية ، ونظرا للمساهمة الهامة التي قدمها الرهبان السود (كما أطلق عليهم بسبب لون مسوحهم ) فى الحياة الدينية ، وللتعليم والحكومة الاقتصاد ، عرفت الفترة من سنة ٥٠٠ الى سنة ١١٥٠ غالبا باسم "القرون البندكتية" . ومن المؤكد أن القديس بندكت لم يقصد أن يرسى نظاماً أو يبنى مؤسسة تتصدى لزعامة مجتمع العصور الوسطى ، بل إن هناك خلافا وجدلا حول اذا ما كان قصده أن يطبق نظامه على نطاق عالمى فى جميع الأديرة اللاتينية ، ولكن من الثابت أن القديس بندكت كان يأمل فى أن يقلد الأخرون نمط الحياة الدينية فى مونت كاسينو ، ولم يتوصل الى الصيغة النهائية لدستوره الرهبانى[٢] إلا بعد سنوات عديدة من التدبر والتفكير المتأنى فى الحياة الدينية المثالية ، وبعد أن مرت به بعض التجارب الأليمة . ولما كان بندكت سليل الأرستقراطية الرومانية القديمة فإنه جلب الى الحياة الديرية المفهوم الجماعى الرومانى عن

---

(٢) عن "الدستور البندكتى" انظر:

Robert Brentano : The Early Middle Ages (Macmillan 1994), pp. 81-95.

Norman F. Cantor : The Medieval World (2ed. Macmillan 1968) pp. 99-111.

الجماعة ، والنظام ، والسلطة. وكان قد تمرد على المدرسة التى أرسله أبواه إليها فى روما ، وهرب إلى منطقة موحشة لكى يصير ناسكا ؛ ولكنه اكتشف أن حياة الزهد والنسك الانفرادى ليست حياة مرضية كما أنها خطيرة من الوجهة النفسية . ثم أصبح مقدما فى أحد المجتمعات الديرية الشرقية الحرة التى كانت شائعة آنذاك ، بيد أنه تكدر واغتم بسبب الفوضى والتراخى والتساهل التى قابلها هناك ، ومن هذه التجارب استمد انتقاداته القاسية التى وجهها فى مقدمة دستوره ضد الأشكال الديرية القديمة .

كان هدف الجماعة البندكتية أن تضمن الخلاص لأرواح أعضائها . فقد كانت الجماعة تتمتع بالاكتفاء الذاتى تماما ، اقتصاديا ، وسياسيا ، وروحانيا . ولم يكن لها أن تعتمد على العالم الخارجى فى شىء سوى فى أقصى حالات الفساد وسوء السمعة التى قد تلحق بالجماعة الديرية ، إذ كان التدخل الخارجى فى الدستور البندكتى مشروطا بحالة واحدة فقط هى أن تكون حياة مقدم الدير والرهبان ملطخة بالفضائح ؛ فحينئذ فقط يصبح من المتوقع أن يتدخل الأسقف أو أحد المؤمنين فى الجوار لإعادة بناء الحياة النظامية ، وفيما عدا هذا الاستثناء كان على الدير البندكى أن يحقق الاكتفاء الذاتى التام ، يمون نفسه بنفسه ويحكم نفسه فى عالم خاص به . وكان الرهبان ينتخبون مقدم الدير لمدى الحياة ، حيث تكون له السلطة على حياة وأرواح الأخوة الرهبان الذين تحتم عليهم أن يلتزموا بأعباء شديدة الوطأة ، وبالزهد ، وطاعة مقدم الدير لمدى الحياة ، وكانت سلطة مقدم الدير المطلقة تستند على مبادىء النظام الكنسى ، فإنه سوف يحاسب أمام الله على أفعاله بوصفه وزيرا مقدسا فى الدير . وكان هذا الالتزام السامى بمثابة التصديق على سلطته من جانب الجماعة ، وقد تمتع مقدم الدير بسلطة مطلقة فى تنظيم الحياة اليومية بالدير وتوزيع الأعباء المختلفة على الرهبان ، ومعاقبتهم عند الضرورة ، ولم يكن مسموحا للرهبان أن يتركوا الدير على الاطلاق ، إلا تحت ظروف إستثنائية للغاية ، وبموافقة مقدم الدير ، وكان على الرهبان أن يطيعوا أوامر مقدم الدير أيا كانت ، حتى لو كانت خاطئة فى رأيهم . ذلك أن مسئولية التصرف الخاطىء سوف تقع على عاتق مقدم الدير وليس على الراهب الذى كان يطيع القواعد التى حددها له رئيسه الكنسى .

وتتميز الحياة الديرية ، كما يصورها الدستور البندكتى ، بأنها حياة عامة غاية فى التنظيم، والترتيب الصارم والنظام الثابت . ولم يكن الدستور البندكتى يتضمن اية صورة من صور الرهبانية المتطرفة ، اذ كان بندكت يتمتع بحس رومانى متوازن ، وبنظرة سيكلوجية ثاقبة فيما يتعلق بالقيود التى يمكن أن تلائم طبيعة البشر . فلم يكن دستوره ينكر حق البدن – بل

على العكس من ذلك ، كان مقدم الدير مسئولا عن الحفاظ على صحة الإخوان فى الدير ، كما كان عليه أن يتأكد من أنهم يتناولون وجبتين يوميا . فضلا عن أن المريض ، والصغير والعجوز كانوا يلقون عناية خاصة . والواضح أن بندكت لم يلق بالا إلى أشكال التقشف المتطرفة مثل الجلد بالسياط ، وارتداء قمصان الشعر الخشنة ، والصيام الطويل فقد كان يؤمن بتنظيم حاجات الجسد ، لابتدمير النفس أو الكفر بالذات .

كان النظام اليومى فى الدير ، وفقا لما تصوره الدستور البندكتى ، يعتمد إلى حد ما على الفصل السائد من فصول السنة ، بيد أننا إذا أخذنا متوسطا عن العام كله ، سنجد أن الساعات الأربع والعشرين فى حياة الراهب اليومية ، كانت موزعة على أربعة أقسام فقد كرست أربع ساعات يوميا للقداس Opus Dei ، بينما خصصت أربع ساعات للصلاة الانفرادية والتأمل ، والقراءة الخاصة فى الأدب الدينى ، كما كرست ست ساعات للأعمال اليومية ؛ فقد كان على الدير أن ينتج طعامه بنفسه ، وأن يحقق اكتفاء ذاتيا كاملا ، أما الساعات العشر الباقية فقد تركت للأكل والنوم ، وتحتم على الرهبان السود أن يحيوا فى جو دائم من التقوى والورع يلفه الصمت ، ويميزه التجرد من الدنيا ، ولم يكن الصمت المطبق مطلوبا ، بيد أن الثرثرة الفارغة كانت ممنوعة . وأثناء تناول وجبات الطعام كان على أحد الاخوان أن يقرأ بصوت مرتفع فى أحد الكتب الدينية - المزامير أو مقارنات كاسيان - بينما يتناول الآخرون طعامهم فى صمت .

وكان بندكت موقنا من أنه لن يكون بوسع بعض الناس ، حتى الأتقياء منهم ، أن يحتملوا حياة على هذه الدرجة من القيود والتنظيم ، ومن ثم ، حدد متطلبات صارمة للإنخراط فى الجماعة الديرية ؛ فقد كان على من يتقدم للحياة الديرية أن يخضع لفترة تجريبية على مدى سنة كاملة قبل أن ينهال العهد النهائى . وفى هذه الأثناء يقوم مقدم الدير بمراقبة سلوك الراهب الجديد بحرص ، وكان القديس بندكت يعتبر ديره بمثابة مجتمع مصغر يضم كل الطبقات : الغنى والفقير ، المسن والشاب ، المتعلم والأمى ، والقساوسة والعلمانيين ، وكان الدستور البندكتى يسمح باستقبال الأطفال فى الأديرة كأشخاص منذورين لخدمة الرب .

لم يخطر ببال بندكت قط ، أن يكون الرهبان جميعا من الرجال المتعلمين أو من رجال الدين فقد أراد أن يقوم الرهبان بتعليم الأميين والجهلاء . إلا أنه بكل تأكيد لم يكن ينظر الى ديره باعتباره مركزاً تعليمياً ؛ فلم يكن لجماعته ان تقدم شيئاً للمجتمع أو أن تسدى أية خدمات للحضارة ، ولا حتى الكنيسة . وقد وجدت هذه الأنانية الجماعية لنفسها مبرراً على أساس

أنها تقدم المأوى الذى يجد فيه المتدينون مكاناً يسعون فيه إلى تحقيق أسمى غايات الانسان ، ألا وهو الحج الى "مدينة الله".

وفى القرون الثلاثة الأولى التى أعقبت موت بندكت ، تعرض النظام الديرى الذى ابتدعه لتغييرات هامة ، كما اندمج فى المجتمع كمؤسسة لها الأهمية الأولى ، ولم يكن هذا هو ما أراده بندكت أو أحب أن يكون ولكنه كما أوضح نولز جعله تطورا حتمياً بشكل ما ، بسبب فعالية وتأثير النظام الذى ابتدعه . فقد كان مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، بافتقاره الشديد الى النظام القادر على العمل ، يفرض على الرهبان التزامات إجتماعية معينة ، ولم يكن المجتمع قادراً على الاستغناء عن خدمات المتعلمين من الرجال والقادة القادرين الذين كانت تضمهم الجماعات الديرية ، بل جذبهم خارج تنظيماتهم الدينية لكى يسدوا إليه أهم الخدمات وأعظمها . كما أن طبيعة الاكتفاء الذاتى فى الدير البندكتى جعلت منه وحدة سرعان ما توافقت مع ظروف العصور الوسطى الباكرة ، وهو الأمر الذى بدأ ظهوره فى العالم الجديد الذى خلفته الغزوات الجرمانية ؛ حيث كانت الحياة السياسية والاقتصادية قد تحللت ، بينما صارت الوحدات المحلية فى المجتمع أكثر فعالية وتأثيراً ، فسرعان ما حلت الضيعة الاقطاعية، والقرية والمقاطعة محل الدولة والمدينة كمراكز للحضارة . وقد تلاءم الدير البندكتى تماماً مع النزعة المحلية كما أنيطت به عدة مهام هامة ، تعليمية ، دينية ، واقتصادية ، وسياسية بفضل كفاءته وقدرته الذاتية على الاستمرار .

وحتى فى أيام بندكت نفسه صور العالم الأرستقراطى الرومانى كاسيودوروس Cassiodor-us الأديرة باعتبارها أكثر الأماكن ملاءمة للتعليم ، كما اعتبر أنها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد . ويخبرنا كاسيودورس أنه كان يريد أن ينشىء مدرسة مسيحية للدراسات العليا على غرار المدارس الربانية ، اليهودية[٣] التى علم بوجودها فى الشرق الأوسط ، ولكنه وجد ذلك

---

(٣) الربانون (الربيون) هم غالبية يهود العالم المعروفين أكثر من غيرهم الآن ، كما كانوا فى العصور الوسطى، وتعنى كلمة "ربانيم" العبرية : الامام أو الحبر الفقيه ، وقد عربت هذه الكلمة إلى "ربانى" ووردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة المائدة آية ٤٣) ، "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون الأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .. الآية" وبمرور الوقت أصبح هذا اللفظ يطلق على الغالبية العظمى من اليهود ، وقد سمى أتباع هذه الفرقة ربانيين إشارة إلى تفاسير علماء اليهود الربانيين وهم يختلفون فى عدد من المسائل الجوهرية والفرعية مع =

مستحيلاً بسبب ظروف العصر ، وبدلاً من مثل هذا المعهد للدراسات ؛ كرس نفسه لانشاء نوع من المؤسسات التعليمية أقل من ذلك فى المستوى ولذا أسس ديراً لكى يستخدمه كمركز للتعليم والبحث المسيحى . وفى كتابه المسمى "مدخل إلى القراءات الدينية والدنيوية " يحدد كاسيودوروس بدقة برنامجاً للمدرسة الديرية أوضح فيه أنه يجب على الرهبان غرس تقليد دراسة كتابات آباء الكنيسة ؛ بيد أنه يجب عليهم أيضاً أن يحفظوا وأن يدرسوا نصوصاً كلاسيكية معينة ، لكى يتعلموا اللغة اللاتينية الضرورية لهذه الدراسة المسيحية . كان هذا العمل التعليمى يفترض مسبقاً ، كما بين كاسيودوروس ، أنه سيكون لدى الدير مكتبة جيدة من النصوص المسيحية والوثنية ، وأن هذه المكتبة بدورها تضم حجرة للنسخ Scriptorium تقوم بإعداد النسخ المراد دراستها فى المدرسة الديرية .

وفى القرنين التاليين لتأسيس دير كاسيودورس ذى الاتجاه التعليمى قامت الجماعات البندكتية فى شتى أوربا بتأسيس المدارس والمكتبات وحجرات النسخ المشابهة ، ولم يكن هذا راجعاً إلى تأثير كاسيودورس ورسالته التعليمية فحسب على الرغم من الأهمية العظمى لهذه المؤسسات فيما يتعلق بتلبية الحاجات الاجتماعية ؛ إذ أنه بانهيار الدولة الرومانية ، وتقلص المدن عدداً ، ومساحة ، وسكاناً فى غرب أوربا ، اختفت مدارس الدولة ومدارس البلديات . ولم تكن المدارس الأسقفية فى العصور الوسطى الباكرة سوى مؤسسات تخضع فعاليتها وتأثيرها للظروف السائدة ، فقد اعتمدت تلك المدارس اعتماداً كاملاً على تعضيد ورعاية الأساقفة الذين نادراً ماكانوا يهتمون بالحياة الفكرية ، بل إنه حتى حين كانت تقام مدرسة أسقفية مزدهرة ، فان الأسقف التالى غالباً مايكون من أنصاف المتعلمين فيسرح هيئة التدريس، ويبيع المكتبة . وكان الدير البندكتى هو المؤسسة الوحيدة القادرة على الاستمرار ، والتى تمتلك الموارد ، والمكتبة فضلاً عن المَدَد الدائم من المدرسين ؛ مما جعله مؤسسة تعليمية فعالة ، وقد تعين على الرهبان أن يقوموا بهذا العمل التعليمى من أجل الحفاظ على الأدب المسيحى . وما أن أهل عام ٨٠٠ حتى كانت الأديرة البندكتية الهامة فى شتى أنحاء أوربا تمتلك مدارسها المزدهرة ، وحجرات النسخ التى تنتج المخطوطات ، وبتقدير متحفظ فإن ٩٠٪ من الرجال المتعلمين بين سنة ٦٠٠ وسنة ١١٠٠ تلقوا تعليمهم فى مدارس ديرية .

---

= غيرهم من الفرق اليهودية مثل القرائين والسامرة . لمزيد من المعلومات عن اليهود الربانيين أنظر: قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ١٠٩ – ص ١١٠ ؛ مراد فرج : القراءون والربانون (القاهرة ١٩١٧) أنظر أيضاً على عبد الواحد وافى : اليهودية واليهود ، ص ٨٠ ومابعدها (القاهرة ١٩٧٠) وكذلك :

Universal Jewish Ency :Art Rabbanite.

(المترجم)

وليس بوسعنا أن نقول إن الأديرة البندكتية كانت مؤسسات تعليمية نموذجية ، إذ أن موقفها من التعليم كان موقفاً وظيفياً إلى أبعد الحدود ؛ فقد أولت اهتمامها لتدريس اللغة اللاتينية ، ونشر التراث الذى خلفته دراسات آباء الكنيسة من أجل الحفاظ على الوعى الثقافى للكنيسة . ومع بعض الاستثناءات القليلة ، نجد أن العلماء الديريين فى العصور الوسطى الباكرة قد اتخذوا موقفاً وظيفياً إتباعاً لموقف أوغسطين تجاه التراث الكلاسيكى ، إذ أنهم أهتموا بالأدب اللاتينى كوسيلة لتعليم تلاميذهم الكتابة بلغة لاتينية مقبولة لا أكثر ولا أقل. وقد أدى هذا الموقف إلى حرمان الأديرة من أن تصير مركزاً للفكر الخلاق ، ولكن مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، على أية حال ، لم يكن يمتلك وقت الفراغ اللازم للإبداع الفكرى ؛ فقد كان مطلوباً من جميع المتعلمين أن يقوموا بخدمة الكنيسة والملكية . وعلى الرغم من أن الناسخ الديرى فى أوائل العصور الوسطى لم يكن يقدر النصوص الكلاسيكية التى ينسخها تقديراً جمالياً ، فإنه قد حافظ تقريباً على جميع كتابات العالم القديم اللاتينية ذات القيمة ، وأقدم مخطوطات النصوص الكلاسيكية التى وصلتنا هى تلك التى نسخها الرهبان البندكتيون فى العصور الوسطى الباكرة .

وبينما صور القديس بندكت القداس باعتباره جزءا متميزا من اليوم الديرى فحسب ؛ أصبح القداس Opus Dei فى القرن التاسع المهمة الرئيسية فى كثير من الأديرة البندكتية ، وكانت الخدمة فى المذبح تستغرق كل ساعات النهار تقريباً لدى مثل هذه الجماعات . وقد نتج هذا التطور عن الاحترام الدائم والرهبة اللذين استمر المجتمع العلمانى ينظر بهما إلى الرجال الزاهدين ذوى الصفات القدسية . ومثلما كانت جماهير الاسكندرية تتوسل إلى القديس "أنطونى" أن يصلى من أجلهم ، اتخذ الناس الرهبان البندكتيين ، الذين استحوذوا على اعجابهم الشديد ، وسطاءهم وشفعاءهم الرسميين عند الله من أجل مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، كما أغدق الملوك والنبلاء الضياع ، بما تدره من مكاسب ، على الأديرة لقاء القداس الذى يقوم به الدير من أجل أرواح أقاربهم . وبحلول القرن التاسع كانت هناك أديرة كثيرة تنعم بالثروات الطائلة من وراء تلك الهبات والعطايا لقاء خدمة القداس . وألفى مقدم الدير نفسه سيداً على ضياع واسعة تعمل فيها جموع المزارعين التابعين . وحتى من هذه الناحية شارك الرهبان الديريون فى حياة مجتمع العصور الوسطى ؛ إذ كانت ضياعهم تدار بكفاية وذكاء أكثر من معظم ضياع النبلاء . فقد كان الرهبان رواداً فى أسس العلم الزراعى فى مطلع العصور الوسطى ، أيا كانت قيمة هذه الأسس . وبحلول القرن العاشر كان الرهبان السود يمتلكون جزءاً كبيراً من أجود الأراضى الزراعية فى أوربا الغربية .

هذا التطور وضع كثيرين من مقدمي الأديرة ضمن القوى المحلية ، وأنيطت بهم سلطات سياسية وقضائية على سكان ضياعهم ، شأنهم فى ذلك شأن النبلاء . وفى أثناء تطور النظام الاقطاعى إبان القرنين التاسع والعاشر ، صار أكبر مقدمى أديرة شمال أوربا أفصالاً إقطاعيين للملوك والدوقات ، بسبب ثروتهم ونفوذهم . وكان عليهم أن يرسلوا الفرسان للعمل فى جيوش سادتهم الإقطاعيين ، وكان مقدم الدير البندكتى فصلا Vassal ملكياً بالغ الأهمية فى معظم الأحيان . وكان أحد أولئك الأفصال الديريين فى انجلترا أواخر القرن الحادى عشر يقدم ستين فارسا للخدمة فى الجيش الملكى ، مما جعله واحداً من أهم ثلاثة أو أربعة من كبار الملاك فى المملكة . وقد كان مقدم دير بيورى – سان أدموندز Bury - St. Edmonds يتحكم فى أكثر من نصف أراضى كونتية نورفولك Norfolk فى القرن الثانى عشر . بل إن هناك أمثلة قليلة فى القرنين العاشر والحادى عشر تدل على أن بعض مقدمى الأديرة الفرنسيين كانوا يرتدون لباس الحرب ، ويتوجهون للقتال على رأس فرسانهم ، كما برز نفوذ مقدمى الأديرة على الصعيد السياسى نتيجة لاحتكار الأديرة للتعليم . إذ كان العلماء البندكتيون البارزون يعملون فى خدمة الكنيسة ، وخرج منهم أساقفة وبابوات ، وأعضاء فى مستشارية الملك أو الدوق ، كما كان منهم وزراء ملكيون ، ومستشارون يثق بهم الحكام ، ومنذ القرن الثانى عشر برزت أمثلة عديدة من رجال الدولة الديريين الذين كانوا يعملون فعلاً كوزراء فى خدمة الملكيات الغربية .

لقد تركت الإلتزامات الفردية والجماعية التى نهضت بأعبائها الأديرة البندكتية تأثيرها على الحياة الداخلية وتكوينات الجماعات الدينية بعد قرنين من وفاة بندكت . وما أن أهلت سنة ٨٠٠ حتى تخلت الأديرة عن سياسة الاكتفاء الذاتى ، ولم يعد الرهبان السود يقومون بالأعمال البدنية ، فقد كان الأقنان يعملون فى ضياع الرهبان فيوفرون لهم المؤن والأغذية ، على حين كرس الرهبان أنفسهم للعمل التعليمى وخدمة القداس ، كما أن عضوية الجماعة البندكتية فى القرن التاسع لم تعد انعكاساً لكل طبقات المجتمع إذ صار الرهبان من طبقة النبلاء دون سواها . وكان مقدمو الأديرة البدنكتية فى القرن العاشر من أعلى الطبقات الأرستقراطية فى العادة ، وفى كثير من الاحوال كانوا من الامراء . أما أديرة النساء البندكتية، التى بدأ تأسيسها عقب موت بندكت مباشرة ، فكانت تتسم بتجانس تكوينها الاجتماعى على نحو خاص ، فقد كانت راهبات القرنين التاسع والعاشر جميعاً من سيدات الطبقة الراقية ، وكان يستحيل تماماً قبول إحدى السيدات فى الأديرة البندكتية مالم تكن أرملة أو سيدة تنتمى بصلة القربى لأحد أصحاب النفوذ . وبينما ظل معظم الرهبان فى

أديرتهم مقيمين على عهودهم ، كان أكثرهم مقدرة غالباً ما يتركون جماعاتهم منذ القرن الثامن فصاعدا ليعملوا فى ميدان التبشير ، وفى الكنيسة ، أو فى السكرتارية الملكية . ولم يكن هذا هو الدير كما أنشأه القديس بندكت ، ولكنه كان مؤسسة لعبت دور القوة الاصلاحية الفعالة فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة ، فقد أمست الديرية ، التى بدأت كمهرب إلى الصحراء بعيداً عن العالم المتمدن ، جزءاً مندمجاً فى المجتمع وقوة إنقاذية هامة فى خضم الفوضى الى أعقبت الغزوات الجرمانية لأوربا فى العصور الوسطى الباكرة .

## ٢- جريجورى الكبير والبابوية أوائل العصور الوسطى

من الممكن أن نقيس مدى المساهمة البندكتية فى قيادة كنيسة العصور الوسطى الباكرة من خلال الحقيقة القائلة بأن كثيرين من البارزين فى الفترة مابين القرن السادس والقرن الثانى عشر كانوا من الرهبان السود . ففى سنة ٥٩٠ اعتلى أول أولئك البابوات الديريين ، وهو جريجورى الأول الكبير Gregory I The Great (ت سنة ٦٠٤) ، عرش القديس بطرس . وعلى الرغم من أن فترة بابويته لم تكن طويلة ، فانها تعتبر من أهم نقاط التحول فى تاريخ كنيسة العصور الوسطى ، وليس السبب فى هذا راجعا إلى أنه استطاع أن يتغلب مرة واحدة على الآثار المدمرة التى تركتها الغزوات الجرمانية على نظام وثقافة الكنيسة اللاتينية ؛ فإن تحقيق هذا الهدف استغرق خمسة قرون أصبحت أوربا بعدها قارة مسيحية بمعنى الكلمة ، ولكن أهمية جريجورى الأول تتمثل فى أنه صاغ بشكل واضح المنهج الذى كان على البابوية أن تنتهجه على مدى القرنين التاليين ، فقد أدرك تماماً أن مصير البابوية التاريخى يجب أن يتحدد فى غرب أوربا ، كما أدرك أن السبل إلى تأكيد زعامة البابوية للمجتمع الأوربى هو التحالف مع النظم الديرية ، والملكية الفرنجية .

وعقب انتخاب جريجورى لمنصب البابوية أرسل خطابات يعلن فيها أنه لم يكن يسعى إلى عرش بطرس ، وأنه كان يفضل حياة الرهبان بما فيها من عبادة وتأمل . وكان جريجورى صادقاً فى تصريحه ، على الرغم من أن مثل هذه العبارات المتواضعة صارت تقليداً عند البابوات اللاحقين ؛ حتى أولئك الذين سعوا منهم عدة سنوات من أجل الفوز بالكرسى البابوى . وكان جريجورى يعلم حينما اعتلى كرسى البابوية أن الكنيسة تسير فى طريق محفوف بالأخطار وأن مشاكل تأكيد زعامة البابوية فى غرب أوربا مشاكل مستعصية تماما ؛ فقد كانت الكنيسة اللاتينية فى عصره أشبه بسفينة يصدر عنها صرير الغرق . والواقع أن البابوية لم تمارس أى دور قيادى فعال منذ بابوية جيلازيوس الأول ، قبل قرن تقريباً ، ولم يبذل بابوات القرن

السادس أي جهد لعلاج التغير الذي طرأ على الحكومة والمجتمع الأوربي في أعقاب الغزوات الجرمانية ، إذ أن أساقفة بلاد الغال وضعوا مصالحهم في سلة واحدة مع مصالح الأسرة الميروفنجية . وحين تدهورت هذه الأسرة ربط هؤلاء الأساقفة مصالحهم بمصالح الأرستقراطية المحلية في المقاطعات . بل أن نظرة جريجوري التوري ، الذي يعد أفضل أساقفة غاليا آنذاك، تتسم بالقصور الشديد بالقياس إلى نظرة أمبروز وأوغسطين العالمية : فإن رؤيته القاصرة لم تتعد حدود الأبرشية الضيقة . وقد قال مؤرخ ألماني لامع من المتخصصين في تاريخ كنيسة العصور الوسطى الباكرة ، إن تاريخ الكنيسة الفرنجية قبل القرن الثامن ، يمكن كتابته دون ذكر روما على الإطلاق ، وهذا القول صحيح إلى حد كبير ، ولم يكن ينتظر من الكنيسة الأسبانية في ظل الحكم القوطي الغربي أن تقدم ماهو أفضل من ذلك ، إذ كان القوط الغربيون قد تحولوا من الآريوسية إلى الكاثوليكية . وارتبط الأساقفة الأسبان ارتباطاً وطيداً بالملكية القوطية ، وبتصرفهم هذا ربطوا مصير الكنيسة الاسبانية ، بمؤسسة عاجزة هي مملكة القوط الغربيين التي كانت تستمد قوتها من التأييد المعنوي الذي أسبغته عليها الكنيسة ، وهو مالم يكن كافياً لانقاذ مملكة القوط الغربيين في اسبانيا من الغزو الاسلامي في مطلع القرن الثامن.

وعندما ارتقى جريجوري الكرسي البابوي ، كان موقف الكنيسة الرومانية نفسها مزعزعاً للغاية[٤] فقد كان البابا محاطاً بالأعداء من كل جانب، فالى الشمال كان اللمبارديون البدائيون سادرين في تأييدهم للآريوسية على حين كانت قوات الامبراطورية البيزنطية في رافنا وجنوب إيطاليا تشكل تهديداً دائماً لأمن البابا . وكان التحالف بين روما وبيزنطة قد إنهار منذ زمن بعيد ؛ وهو التحالف الذي تمخض عن القضاء على مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا في النصف الأول من القرن السادس، ولأن كلا من الامبراطور والبابا كان يزعم أنه نائب الله في الأرض، فقد كانت العلاقات بينهما غير مستقرة ، وكانت بمثابة الهدنة في أفضل الأحوال . وكانت أيرلندة هي النقطة الوحيدة المضيئة في صورة كنيسة أواخر القرن السادس ، ولم يكن بوسع جريجوري أن يطرب للمستوى الراقي الذي تميز به الرهبان الكلتيون. ذلك أن الكنيسة الأيرلندية لم تنشأ بفضل توجيهات روما؛ مما أدى إلى أن تكون لرجال

---

(٤) حول هذا الموضوع أنظر :

Margaret Deanesly : A History of The medieval church (Methuen and co., London 9th ed.pp 15 - 28'; Geoffrey Barraclough : The Medieval Papacy, (Thomas and Hudson London 1968), pp. 27 - 34.

الكنيسة الكلتية أساليبهم الخاصة التى كانت تختلف عن أساليب الكنيسة اللاتينية ، كما أنهم كانوا يختلفون مع البابوية أيضاً حول المذهب البطرسى . كان هذا ، على الأقل ، هو الاستنتاج الذى كان على جريجورى أن يصل إليه حين تلقى خطابات القديس كولمبان St. Co-lumban المبشر الكبير الذى كان يعمل فى بلاد الغال ، والتى كانت تخاطب البابا بشأن الادارة العادية فى شئون الكنيسة ، بلهجة قاسية تخلو من الاحترام . فحين اعتلى جريجورى كرسى البابوية كانت البعثات التبشيرية الأيرلندية تتوغل فعلا فى شمال انجلترا ؛ محرزة بذلك قصب السبق فى تحويل الانجليز الوثنيين إلى المسيحية ، وهو ما كان جريجورى يعتبره خطراً يهدد بحدوث انقسام بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الكلتية .

ولم يتغلب جريجورى على أى من تلك المشكلات التى جابهت الكنيسة وقت أن اعتلى العرش ، ولكنه أرسى دعائم السياسة التى سار عليها خفاؤه فى نضالهم لحل تلك المشكلات ، كما أنه حرك سلسلة الأحداث التى بدأت فى تحسين حال الكنيسة اللاتينية والمجتمع الأوربى . وجريجورى هو البابا الوحيد فى الفترة مابين القرن الخامس والقرن الحادى عشر الذى حفظت لنا الأيام مراسلاته وكتاباته الأخرى كاملة ، ولدينا الوثائق الكافية لكتابة سيرته وتوضيح جوانب شخصيته ، وذلك أن ملامحه ليست مجهولة لنا مثل رجال الكنيسة الآخرين فى العصور الوسطى الباكرة ، ولكن شخصيته تصدمنا كشخصية غامضة مبهمة . فمن ناحية كان جريجورى إدارياً قديراً حاسماً ، ودبلوماسياً ماهراً حاذقاً ، كما كان زعيما على قدر كبير من الوضوح الفكرى ، ولكنه من ناحية أخرى يبدو من خلال كتابته راهباً ساذجاً يؤمن بالخرافات والخزعبلات ويعادى التعليم ، كما يبدو فى صورة رجل اللاهوت المحدود الأفق الذى يؤمن بالقديسين ، والمعجزات والذخائر المقدسة . وليس من الممكن أن نفسر هذا الغموض الظاهر سوى على ضوء خلفية جريجورى والوسط الذى عاش فيه ، فقد كانت ايطاليا أواخر القرن السادس تعانى من آثار الحرب القوطية الطويلة وآثار الغزو اللمباردى المدمرة ، إذ تدهورت الحياة الحضرية واضمحلت الثقافة ، كما أخذ الأتجاه نحو الاقتصاد الريفى يتزايد ، وانتشر الجهل وتفشت الخرافات . وكان جريجورى سليل عائلة رومانية قديمة ، وتعلم تعليماً كلاسيكياً طيباً ، ولكن اهتمامه الأول كان موجهاً ، وهو فى طور الرجولة ، الى خلاص روحه عن طريق الهرب من العالم وأنشأ ديراً عاش هو نفسه به راهباً متواضعاً ، وعلى الرغم من إعجابه الشديد بالقديس بندكت ، الذى كتب سيرته ، فان موقفه الشخصى من الحياة الديرية كان يفتقر إلى اعتدال بندكت واحترامه للطبيعة البشرية . فقد فرض جريجورى على نفسه قيوداً صارمة تركت آثارها الوبيلة على صحته بشكل دائم . وحتى حين تولى البابوية كانت نظرته

للامور تعكس آثار التعصب وغياب الحس الانسانى مع الكفاية والمقدرة التقليدية فى الحكم التى تميزت بها الارستقراطية الرومانية . لقد سمع جريجورى ذات مرة أن أحد الأساقفة فى بلاد الغال قد اعتزم انشاء مدرسة لدراسة الفنون الحرة ، وبدلاً من أن يهنىء رجل الكنيسة على جهوده لتطوير التعليم وتحسينه ، عاقبه على انشغاله فى هذا المشروع الذى كان البابا يراه مشروعاً سخيفاً . وثمة عيب آخر واضح فى شخصية جريجورى هو عدم اهتمامه بدراسة اللغة اليونانية ، حين كان قاصدا رسوليا (سفيرا بابويا) على مدى عدة سنوات فى القسطنطينية ، وتكشف لنا ثقافة جريجورى الشخصية عن النتائج المدمرة للتقلبات التى مرت بها إيطاليا إبان القرن السادس ، إذ تضمنت كتاباته آثارا تدل على ضيق الأفق والتفاهة والعناد المدمر الذى تتسم به كتابات معاصره جريجورى التورى . ومن حسن الطالع أن جريجورى الكبير لم تتسن له متابعة اتجاهه العنيد ، وإلا بقى مجرد راهب مغمور جاهل ، فقد كانت الكنيسة فى حاجة إلى رجل على هذا القدر من التعليم والذكاء والاخلاص والتجربة السياسية . وترك جريجورى ديره ليلتحق بخدمة البابوية ؛ وعلى نهجه سار كثيرون من الرهبان البندكتيين فى القرون التالية ، وجلس على عرش القديس بطرس مكرها ، وتنقسم أعماله كبابا إلى أقسام ثلاثة هى : مساهمته وإضافاته إلى المنصب البابوى ، وموقفه من البابوية ، وتسخيره للبعثات التبشرية فى خدمة الكنيسة .

وفيما يتعلق بالقسم الأول كان جريجورى مدركاً لحقيقة أنه عضو فى حكومة الكنيسة ، وفى "كتاب العناية بالرعية " حدد لرفاقه من رجال الكنيسة واجباتهم كرعاة لكنائس الشعب المسيحى ، مقارنا هذه الواجبات بالمزايا التى يتمتعون بها بوصفهم أمراء الكنيسة ، وهى المزايا التى كانت تحتل المركز الأول بين اهتماماتهم . ولايمكن القول بأن الرسالة التى كتبها جريجورى عن المنصب الكنسى قد أقنعت زملاءه باتخاذ مواقف أكثر غيرة وحماسة تجاه مناصبهم ولكنها ، على الأقل ، استخدمت فى القرون التالية كبيان تعريفى بطبيعة الوظيفة الكنسية ، وعلى أية حال ، كان جريجورى واعياً بالحقيقة القائلة بأنه كان أكثر من مجرد أسقف ؛ وإنما هو نائب للمسيح على الأرض لأنه أسقف روما ، ولم يقدم أى جديد لتطوير إيديولوجية البابوية ، ولكنه لخص المذهب الجيلازى ، ونظرية ليو الأول فى المذهب البطرسى تلخيصاً حاذقاً . وتلخصت نظرته إلى المنصب البابوى فى مصطلح "خادم خدام الرب Servus Servorum Dei" الذى استخدمه لقباً رسمياً له ، وهو اللقب الذى لايزال يظهر كلقب ثانوى فى الوثائق البابوية . وهكذا عبر جريجورى عن السلطة البابوية فى ضوء مبدأ الحكومة الكنسية الذى كان القديس بندكت قد استخدمه بالفعل لتبرير سلطة مقدم الدير المطلقة على

أرواح الرهبان فى ديره . ووجد مبدأ الحكومة الكنسية سندا له فى الكتاب المقدس فى عبارة المسيح فى إنجيل مرقص[٥] "**ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً** "؛ وهو مايعنى أن صاحب المسئولية الأكبر تكون له السلطة الأعلى ، ولما كان البابا مسئولا أمام الرب كزعيم للكنيسة المسيحية كان ينبغى ألا تكون سلطته مقيدة حتى يتسنى له القيام بأعباء العمل المقدس الموكل اليه .

بيد أن اقرار أيديولوجية البابوية كان شيئاً ، على حين كان تأكيد الزعامة الفعلية للبابوية فى غرب أوربا شيئاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف ، فقد كان من رأى جريجورى أن الضرورة الملحة تدعو إلى تأمين مركز البابا فى ايطاليا نفسها ، والعمل على توسيع رقعة الأراضى الخاضعة للحكم البابوى فيما وراء روما ، وبناء الدولة البابوية ، كما كان على وعى تام بالحاجة إلى دخل ثابت لكى يضفى على أعماله الادارية فى الكنيسة الفعالية اللازمة . وقد كرست خطابات كثيرة من خطابات جريجورى لارشاد وكلائه كيف يديرون الضياع البابوية فى جنوب إيطاليا بكفاءة .

وحتى إذا أحرز البابا وضعا مستقلاً آمنا فى ايطاليا ، كان عليه أن يقيم العلاقة مع الكنائس الأقليمية فى البلاد الجرمانية ، إذا ما كان يريد حقاً أن يؤكد وضعه كزعيم للعالم المسيحى . وكان جريجورى أكثر ادراكاً لهذه الحقيقة من أى بابا سبقه ، وهو ما يدعم المزاعم التى تجعل منه مؤسس البابوية فى العصور الوسطى ، فقد أيقن أن أوربا ليست مسالة جغرافية فقط ؛ ولكنها حضارة متمايزة وروح ترتبط بالمسيحية اللاتينية التى ربطت البابوية نفسها بمصيرها ربطا مطلقاً . وكان جريجورى يحترم امبراطور القسطنطينية ، لا لأنه كان يعتقد بأن هناك ما يمكن أن يقدمه الإمبراطور الرومانى ، وإنما فقط لأنه كان يهتم بالحفاظ على حالة السلام القلق مع القسطنطينية حتى يضمن للبابوية حرية متابعة أهدافها فى أوربا الغربية ، كما كان جريجورى يدرك تماماً أنه يجب على البابوية أن ترتبط بالتحالف مع الملكية الفرنجية على نحو ما ، لكى يتحقق وجود حضارة أوربية ، ولم تكن الملكية الفرنجية فى زمن جريجورى نظاما واعداً ، إلا أنها سيطرت على مستقبل أوربا السياسى نتيجة للتطورات التى عاشتها أوربا آنذاك .

---

(٥) مرقص ١٠ : ٤٣-٤٤ "بلى من أراد أن يصير فيكم عظيما ، يكون لكم خادما ، ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً" . (المترجم)

وإذ كان ملوك الفرنجة يتحكمون فى أراضى وسط أوربا من الناحية الرسمية على الأقل، ولأن مملكتهم كانت أكبر وأغنى ملكيات العالم المسيحى اللاتينى ؛ فقد كان من الضرورى أن تتصدى الملكية الفرنجية لقيادة المجتمع الأوربى ، بتوجيه من الكنيسة . وبفضل حيوية المملكة الفرنجية لم يستطع جريجورى أن يجد طريقاً آخر غير هذا يمكن أن يحقق هدفه ، ولأن جريجورى كان يعي هذه الحقيقة الأساسية فى الحياة الأوربية ، فقد كتب إلى الملك الميروفنجى شلدبرت الثانى Chidebert II خطابات تفيض احتراماً ، ولم يكن جريجورى غافلاً عن عجز ملوك الفرنجة الشديد ، ولكنه كان يتصور أن التحالف بين البابوية والأسرة الميروفنجية يمكن أن يحول الملكية الفرنجية الى ملكية إصلاحية قوية .

ولم تؤت خطابات جريجورى إلى الملك الفرنجى ثمارها فى عصره . فلم يحدث قبل القرن الثامن أن تولى حكم الفرنجة ملوك أذكياء بالقدر الذى يجعلهم يفهمون نمو قوتهم الذاتية من خلال التحالف بين البابوية والفرنجة فى القرن الثامن . وهو التحالف الذى قامت على أساسه الحضارة الأوربية الجديدة ، وبعد تولى جريجورى البابوية بزمن قصير ، ونتيجة لتحدى الكنيسة الكلتية ، شعر جريجورى بضرورة تحويل إنجلترا إلى المسيحية ، وكان طبيعياً بالنسبة له كراهب مجند فى خدمة الكنيسة أن يستخدم الرهبان البندكتيين فى الأعمال التبشيرية فى انجلترا . وأصدر تعليماته إلى أوغسطين ، رئيس البعثة التبشيرية ، بأن يبدأ نشاطه فى مملكة كنت Kent جنوب شرق انجلترا ، لأن حاكمها كان معروفاً بزواجه من أميرة مسيحية فرنجية . وعند موت جريجورى كانت بعثة أوغسطين قد أحرزت نجاحها الأولى حين نصّرت ملك كنت ونبلاءه وأقامت الكنيسة اللاتينية الأولى فى كانتربورى Cantrbury (ومعناها الحرفى مدينة كنت) . وفى منتصف القرن التالى لموت جريجورى كان الرهبان الكلتيون العاملون فى الشمال على اكتساب الشعب الانجليزى ، وفى النهاية فى سنة ٦٦٤ ، قرر مجمع دينى ضم رجال الكنيسة الانجليزية إخضاع البلاد بأسرها تحت إشراف الكنيسة الرومانية ، وكانت نتيجة هذا القرار أكبر من مجرد منع الإنقسام فى الكنيسة الغربية ، وهو ما كان جريجورى يناضل لتجنبه ، وإنما كانت المدارس البندكتية الانجليزية أكثر مدارس أوربا أزدهاراً فى أواخر القرن السابع ، كما أن البندكتيين الانجليز أرسلوا بعثاتهم التبشيرية إلى القارة فى القرن الثامن ، وبذلك بدأت عملية تطور الكنيسة الفرنجية والملكية الفرنجية ، وكان مقدرا لأحد البندكتيين الانجليز فى منتصف القرن الثامن أن يلعب دوراً قيادياً فى بناء التحالف البابوى - الفرنجى الذى كان جريجورى يعتبره أساساً ضرورياً لبناء حضارة أوربية جديدة .

# الجزء الثالث
# أوربا الأولى
# القرنان الثامن والتاسع

"ياشارل الفائق الحلاوة ، يامجد الشعب المسيحى . يامن تدافع عن كنائس المسيح ، ياسلوى حياتنا الحاضرة!..

من الضرورى على جميع الرجال أن يثنوا على بركتك فى صلواتهم وأن يساعدوك بشفاعاتهم ، طالما أن حماية الامبراطورية المسيحية تتأتى من خلال رفاهيتك ، وتجد العقيدة الكاثوليكية مدافعا عنها فى شخصك ، ويصبح حكم العدل سائداً بين الجميع .

– ألكوين

# الفصل السابع
# بناء الملكية الكارولنجية

## ١- الثقافة الأنجلو - أيرلندية والظاهرة الاستعمارية

توصل المؤرخون إلى كشف الكثير من أسباب تدهور واضمحلال الحضارات ، ولكنهم لم يبذلوا جهدا كبيراً لتفسير العوامل الرئيسية التى تؤدى الى صعود وتألق حضارة من الحضارات ، وكل مالدينا فى هذا الصدد مجرد صياغات فارغة مكررة عن التحدى والاستجابة. ومن المؤكد أن تفسير الفشل أيسر بكثير من محاولة فهم النجاح ، ذلك أن توضيح أسباب الترهل والإنهيار العصبى ، فى إطار الانهيار الثقافى ، أسهل من تبيان الطاقات الجديدة ، والقدرة العقلية ، والزعامة التى تعتبر من علامات البداية فى أية حضارة جديدة . فبعد قرون من التدهور والفوضى بدأت أوربا الأولى تتشكل فى القرنين الثامن والتاسع ، وكانت الحضارة التى حاول الأوربيون أن يخلقوها ، فى شكل بناء سياسى هو الامبراطورية الكارولنجية - متعدين بذلك حدود طاقتهم - حضارة أولية ناقصة ، فقد كانت الامبراطورية الكارولنجية أكبر من مواردهم ، ولقد عانوا من خيبة الأمل وسقطوا فريسة لصدمة عميقة ، بيد أن كثيراً من النظم والقيم والمبادىء التى تميزت بها حضارة العصور الوسطى تحددت خلال هذين القرنين وكانت بمثابة الأساس الذى قامت عليه تجارب سياسية أكثر نجاحاً فى القرنين التاليين .

ومن الممكن أن نستبعد الحسم الاقتصادى فى سياق توضيح كيفية تكوين أوربا الأولى . ذلك أن التحسن الذى طرأ على الحياة السياسية والكنسية والفكرية كان فى الحقيقة معاصرا للتدهور التجارى والاتجاه نحو الإقتصاد الريفى . ومن الكنيسة خرجت القوة الديناميكية فى عملية صعود الحضارة الأوربية فى القرن الثامن . فقد رحب الرهبان الأنجلو - سكسون والبابوية بتكوين أوربا الأولى ، وتمكنوا بالعمل سويا أن يغيروا من طبيعة الملكية الفرنجية كما أيقظوا الكفاءات السياسية بين شعوب القارة ؛ وهو الأمر الذى أدى إلى قيام الامبراطورية الكارولنجية وإلى تحسن ظروف الحياة التعليمية والثقافية فى القرنين الثامن والتاسع .

ويمكن الكشف عن أصول هذا التغير الكبير فى ثقافة أيرلنده فى القرنين السادس والسابع وفى ثقافة انجلترا فى القرنين السابع والثامن . وقد يبدو غريباً أن الأيرلنديين الذين لم يكونوا أبداً من العالم الرومانى والانجليز الذين كانوا سنة ٥٩٠ قوماً وثنيين ولا تربطهم بعالم البحر المتوسط صلة ، هم الذين قاموا بهذا الدور الكبير فى تكوين أوربا الأولى ، ويمكن تفسير هذا الأمر باعتباره تجسيداً لما يمكن أن نطلق عليه اسم "الظاهرة الاستعمارية" فى تاريخ العالم . فالناس الذين يعيشون على هامش امبراطورية ما ، أو حضارة ما ، أى رجال الحدود أو المستعمرون ، غالبا ما يكونون أكبر المساهمين فى بناء الدولة أو الحضارة التى اختاروا الإنتماء اليها . وبفضل حماستهم المتوقدة وجهودهم الواعية من أجل الحضارة التى يبعد مركزها عنهم ، يحق لهم أن يطالبوا بحقوق مواطنة مساوية لتلك التى يتمتع بها من يعيشون فى قلب الحضارة ، ذلك أن الآخرين يعيشون دنياهم كما هى فى الغالب ، ولايبذلون إلا القليل فى سبيل رقيها ودوامها. وقد أظهر الرهبان الأيرلنديون والانجليز ذلك النمط من حماسة المستعمرين الراغبين فى ربط أنفسهم بمراكز الحضارة ، فقد تحمل الأيرلنديون ، الذين لم ينعموا قط بثمار الحضارة الرومانية ، الكثير فى سبيل تأسيس العديد من المكتبات الكبرى التى كانت تضم النصوص الكلاسيكية وبرعوا فى اللغة اليونانية ، كما صار العلماء الانجليز فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن - وبينهم وبين ماضيهم الوثنى جيلان أو ثلاثة أجيال على الاكثر - اتباعا متعصبين للكنيسة الرومانية . وكان مؤرخهم الكبير بيديه Bede متعصباً للرومان لدرجة أنه أراد أن يتنكر لجهود البعثات التبشيرية الأيرلندية لتحويل انجلترا إلى المسيحية .

وتختفى البداية الأولى للثقافة اللاتينية - المسيحية فى أيرلندا خلف ضبابية الغموض ويبدو أنها سوف تبقى غامضة . وربما حدث فى القرن السادس ومطلع القرن السابع أن وفدت مجموعات ثلاث من رجال الكنيسة إلى أيرلندة وفى ركابها دخلت المسيحية والتعليم المسيحى، وكانت أولى هذه الجموعات مكونة من القساوسة البريطانيين الهاربين من الغزوات الأنجلو - سكسونية ، وربما كان القديس باتريك St. Patrick ضمن هذه المجموعة . أما المجموعة الثانية ، فقد تكونت من رجال الكنيسة الذين هربوا من غالة أثناء الغزوات الجرمانية فى القرنين الخامس والسادس بحثا عن الملجأ والمأوى فى أيرلندا . وربما تكون المجموعة الثالثة قد تشكلت من رجال الكنيسة الشرقية القادمين من شرق المتوسط على طول الطرق التجارية فى أواخر القرن السادس وأثناء القرن السابع ، وجلبوا معهم لغتهم ونصوصاً لم يكن ممكنا أن توجد فى أى مكان آخر بأوربا فى العصور الوسطى الباكرة . ولعل هذا

يساعدنا على فهم سبب معرفة العلماء الأيرلنديين باللغة اليونانية ، وإذا كان هناك من يعرف هذه اللغة فى القرن السابع والثامن والتاسع فلابد وأن يكون من أصل أيرلندى .

وقدأولت المسيحية الأيرلندية اهتماما بالغا بالتعليم كما تجلت حماستها للتبشير ، وقد تطورت بعيدا عن كنيسة روما بسبب بعض الخصائص التى فصلت بين الكنيسة الكلتية والكنيسة الرومانية ؛ فقد كانت الكنيسة الكلتية تحتفل بعيد الفصح فى تاريخ غير تاريخ احتفال الكنيسة الرومانية به ، كما كان الاكليروس كله من الديريين ، ولم يكن تنظيم الكنيسة الأيرلندية قائما على جزء من الإمبراطورية الرومانية فى يوم من الأيام ؛ فإنه لم يكن ثمة سبب يدعو الأيرلنديين لإنشاء الاكليروس الأسقفى ، ولم يكن زعماء الكنيسة الكلتية من الأساقفة، بل كانوا من مقدمى الأديرة الكبرى المزدهرة ، كما أن المدارس الديرية الأيرلندية أنشأت مكتبات عظيمة استمرت فيها دراسات الفنون الثلاثة الحرة trivium (النحو والبلاغة والمنطق) والفنون الأربعة quadrivium (الرياضة . الهندسة الفلك والموسيقى) وفى أوائل القرن السابع كان لدى الرهبان الأيرلنديين أفضل مراكز التعليم فى أوربا الغربية ، إلا أنهم توقفوا بعد سنة ٨٠٠ عن القيام بأى دور هام فى الحياة الثقافية الأوربية ، وانتهى أمر الكنيسة الكلتية الى الذبول . وحين قام البارونات الأنجلو - نورمان بغزو أيرلندا وجدوا الشعب الذى قهروة شعبا همجيا وجاهلا تماما ، وكان على أيرلندا أن تنتظر حتى أواخر القرن التاسع عشر حتى تنهض مرة أخرى ، ولم تكن هذه غلطة الأيرلنديين بطبيعة الحال ، لأنهم ظلوا عبيدا للانجليز على مدى سبعة قرون .

ويبقى السؤال على أية حال : لماذا تدهورت الكنيسة الكلتية المزدهرة المستنيرة على هذا النحو السريع بعد عام ٨٠٠ ؟ من الممكن اقتراح أسباب ثلاثة : أولها أن الايرلنديين عزلوا أنفسهم عن العالم المسيحى الغربى وقت كان هذا العالم يدخل إلى مرحلته الابداعية وذلك بترددهم فى الأخذ بطقوس الكنيسة الرومانية ؛ وبذلك فرضوا على أنفسهم عزلة ثقافية . والأمر الثانى هو أن هذا القرار قد برهن على كونه قرارا هداما لاسيما حين دمر الغزاة الاسكندنافيون كثيرا من الأديرة الايرلندية فى القرن التاسع . وأخيرا كان لاستمرار تفكك أيرلندا السياسى بسبب القبلية البدائية تأثيره السلبى ، على المدى الطويل ، على الحياة الثقافية والكنسية فى الجزيرة .

وخلال الشطر الأخير من القرن السادس وجد الرهبان الكلتيون متنفسا لحماسهم التبشيرى على الشاطىء المقابل للقنال الايرلندى حيث ظل الانجلو - سكسون على وثنيتهم ، وذلك قبل

بعثة أوغسطين التبشرية ودون أي اتصال بالمسيحية اللاتينية . فقد تتبعت عصابات الحرب الجرمانية الفرق الرومانية المنسحبة من بريطانيا حوالى سنة ٤٢٥ حتى عبروا بحر الشمال آتين من الآراضى الواطئة وتوغلوا فى مصاب النهر شرق بريطانيا ، وهزموا الأمراء البريطانيين المسيحيين بما فيهم آرثر Arthur كما استعبدوا الكثير من الوطنيين ودفعوا من بقى من الكلت نحو جبال ويلز وكورنوول والشاطىء المقابل على القنال الانجليزى حتى ذلك الجزء من جنوب فرنسا المعروف باسم بريتانى Britany . وتجسد الغزو الانجليزى البطىء لبريطانيا فى شكل كيانات سياسية مبعثرة فى انجلترا القرن السادس ، وأسس زعماء عصابات الحرب ممالك صغيرة - كان عددها التقليدى سبعة . ولكن العدد الحقيقى كان متذبذبا . وانغمسوا فى نزاعات وحروب ضد بعضهم البعض طوال القرون الثلاثة التالية ، وفى أواخر القرن السادس كان ملك كنت Kent سيدا مهابا في جنوب انجلترا ، وعلى مدى فترة طويلة من القرن السابع تمتع حكام نورثمبريا Northumbria بالسيادة ، وفى القرن الثامن كان ملك مرسيا Mercia فى بلاد الوسط الزراعية الغنية قد أكد تفوقه على كثير من الحكام الآخرين بيد أن البناء الاجتماعى والسياسى فى انجلترا الأنجلو - سكسونية لم يكن متقدما كثيرا عن المؤسسات التى وصفها تاكيتوس والتى عرفناها من ملحمة Beowulf ، وكانت قوة الملك تعتمد على كفاءته كقائد عسكرى ومدى قدرته على مكافأة رفقة الحرب ، أما البناء الاجتماعى فقد تميز بوجود أعداد غفيرة من الفلاحين الأحرار .

أما البعثات التبشيرية الكلتية التى بدأت نشر المسيحية شمال انجلترا فى أوائل القرن السادس وأوائل السابع فقد جلبت معها نظامها التعليمى الشامل ، فقد كانت المدارس الانجلو- سكسونية فى القرنين السابع والثامن مدينة بالفضل إلى مساهمة الدراسات الأيرلندية إلى حد كبير، ولكن إزدهار الثقافة الانجلو سكسونية كان راجعا فى الأساس إلى المؤثرات الوافدة من القارة الأوربية . ونتيجة لقرار رجال الكنيسة الانجليز بالانضمام الى الكنيسة الرومانية فى الستينيات من القرن السابع، أرسل البابا إلى انجلترا باحثا متعلما هو تيودور الطرسوسى Teodor of Tarsus الذى يرجع أصله إلى آسيا الصغرى، ليكون كبير أساقفة كانتربورى. وقد أسس تيودور فى كانتربورى مدرسة عظيمة قدر لتلاميذها أن يصبحوا مقدمى الأديرة البندكتية فى جنوب انجلترا. وفى الوقت نفسه تقريبا ، قام بندكت بيسكوب Benedict Biscop، وهو قسيس أنجلو-سكسونى من طبقة النبلاء ببناء ديرجارو Jarro الكبير فى

نورثمبريا (يوركشاير). وكان بندكت قد جاب القارة طولا وعرضا فى أسفاره ، ويقال إنه أحضر معه إلى انجلترا نواة مكتبة المدرسة الديرية فى "جارو"، بل وبعض الأعمال الفنية من القارة .

وصار "جارو" بمثابة مركز للتعليم فى شمال انجلترا ، على حين كانت كانتربورى وأديرتها المزدهرة تقدم القيادة فى الجنوب ، ومنه تخرج بيديه Bede (ت سنة٧٣٥) وهو أعظم الباحثين الأنجلو - سكسون ، وقد أمضى بيديه ، الذى يعد أفضل الباحثين تعليما فى أوائل القرن الثامن ، حياته راهبا فى جارو ولم يبرح موطنه المجدب القليل السكان اطلاقا ، وهو مايعتبر من أفضال المدرسة النورثمبرية ، كما يعيد تأكيد مجرى الظاهرة الاستعمارية ، إذ أن وجود أكثر الرهبان تعليما فى مجتمع الحدود فى شمال انجلترا ، أمر يمكن مقارنته مع وجود أعظم باحث فى أمريكا فى منتصف القرن التاسع عشر فى غابات الميسورى الخلفية ، وهو أمر يبدو مستحيلا وإن كان مدهشا .

كان بيديه نفسه مدرساً أولا وقبل كل شىء ، ورئيسا للمدرسة الديرية فى جارو ، ورجلا يحافظ على التراث الذى خلفته كتابات الآباء وطبق ماتعلمه لخدمة حاجات الكنيسة ، ولم يكن مهتما بالتأمل الفلسفى كما كان يطبق معلوماته فى الرياضيات والفلك فى علاج مشكلة حساب عيد الفصح ، وكتب موجزا لمعلوماته العلمية التى استقاها أساسا من كتاب التاريخ الطبيعى لبلينى Pliny . وقد تركزت دراساته الأساسية فى التاريخ ، وكان بيديه هو الذى نفذ اقتراح ايسيدور الأشبيلى Isidor of Sevile بعمل تقويم مسيحى إبتداء من تجسد السيد المسيح ، وقد جعل بيديه من هذا التقويم الطريقة الأوربية الشائعة فى حساب الزمن التاريخى. وتمثلت أعظم جهود بيديه فى مجال كتاب "التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى " وهو أحد الأعمال القليلة جدا فى أوائل العصور الوسطى التى لاتزال تحتفظ بجاذبيتها بين أوساط عامة المتعلمين ، فهو كتاب مرتب فى حذق ، ويعرض مناقشاته بدهاء بحيث يجعل للكنيسة الرومانية الدور الحاسم فى صياغة الحضارة الانجليزية . وكان دور بيديه فى الكتابة التاريخية أكثر علمية من دور أى كاتب آخر فى العصور الوسطى فى الفترة مابين جريجورى التورى والقرن الحادى عشر ، فبينما تبدو كتاباته عن سير القديسين فجة غير ناضجة مثل سائر كتاب سير القديسين فى العصور الوسطى ، نجده يتحرر فى كتابة التاريخ بشكل ملحوظ من أوهام المعجزات ؛ إذ يحمل تاريخه رنة واقعية منضبطة صارمة ، فقد تجشم العناء فى سبيل جمع أية معلومات حفظتها الذاكرة الشعبية عن الغزو الانجلو - سكسونى . وفى سبيل ماكتبه عن بعثة

أوغسطين التبشيرية ، أرسل راهبا إلى روما لكي يبحث فى المحفوظات البابوية عن خطابات جريجورى الكبير الخاصة بانجلترا ، وهى الخطابات التى نشرها كاملة فى تاريخه ، وتختلف خاصية فكر بيديه فى وضوح عن خاصية فكر باحث انجلو - سكسونى آخر عاش فى القرن الثامن هو ألكوين Alcuin الذى انتقل فى الثمانينيات من القرن الثامن من منصبه كرئيس لمدرسة يورك ليصبح مساعدا بارزا لشارلمان فى إصلاح الكنيسة الفرنجية ، فبينما كان ألكوين خياليا ، عاطفيا ، ومنغمسا بشخصه فى مشاكل عصره السياسية ، كان بيديه صارما ، حذرا ، محدود الاهتمام للغاية بالملكية وبمشاكل المجتمع العامة .

وفى نهاية كتابه "التاريخ الكنسى" يبدى بيديه بعض الملاحظات الكئيبة عن ذبول وتدهور حيوية الثقافة الانجلو - سكسونية . وبينما يحتمل أن يكون هذا مجرد ترديد للنغمة التقليدية فى تعليقات الكبار على الأجيال الجديدة ، يؤكد تاريخ الكنيسة الأنجلو سكسونية اللاحق أن بيديه كان مهتما بالتقدم المستمر للكنيسة التى كرس نفسه لها ، فضلا عن أن التطور اللاحق فى انجلترا الانجلو - سكسونية بعد القرن الثامن عبارة عن قصة طويلة من الإخفاق وخيبة الأمل ؛ خصوصا إذا نظرنا إلى تفوق البندكتيين الإنجليز فى مجالات الثقافة الأوربية فى عصر بيديه وألكوين . فبعد سنة ٨٠٠ فقد رجال الكنيسة الانجلو - سكسونية مكانتهم كزعماء ثقافيين لأوربا إلى الأبد ، وخلال القرنين العاشر والحادى عشر كانت الكنيسة الانجليزية تنتظر من القارة الإرشاد والتوجيه ، وفى سنة ١٠٠٠ لم يعد هناك شك فى أن انجلترا منطقة متخلفة ثقافيا فى أوربا . ومن الأمور التقليدية أن يوجه اللوم الى الاسكندنافيين ، الذين كانوا ينتشرون فى جميع الأرجاء ، على هذا التدهور الذى لحق بالثقافة الانجلو سكسونية ، فقد دمر الغزاة الفيكنج Viking "جارو" فى نهاية القرن الثامن . وعلى مدى المائتى وخمسين عاما التالية لم ينل الشعب الانجليزى سوى مهلة يلتقط فيها أنفاسه بين كل موجة وأخرى من الموجات المتتالية من الغزاة الاسكندنافيين الذين استنفدوا طاقة الشعب الانجليزى فى نضاله ضدهم .

وثمة سببان آخران وراء تدهور انجلترا فى العصور الباكرة . فقد صار الملوك الأنجلو سكسون أشخاصا غير ملائمين . إذ ظلوا محاربين فى المحل الأول ، بينما فشلوا فى خلق وتطوير أية مؤسسات ملكية فعالة . ونتيجة الغزو الدلفركى لم يبق من بين جميع أمراء الانجلو- سكسون سوى ألفرد Alfred ملك وسكس Wessex . ورغم أن ألفرد - الذى كان يراد له فى الأصل أن ينضم إلى الكنيسة - كان عالما جيدا ، ورغم أنه حارب الاسكندنافيين حتى اقتسم انجلترا معهم ؛ فإنه لم يسهم بأى قدر فى تقدم الزعامة الملكية للمجتمع الانجلو - سكسونى ، وقد بسط خلفاؤه فى القرن العاشر سيطرتهم على أراضى الدينلو Danlaut ، وهو

الاسم الذى كان يطلق على المنطقة التى غزاها الاسكندنافيون ، ولكنهم لم يتمكنوا من وقف تقدم نفوذ السادة المحليين . وكان أكثر الملوك تأثيرا فى التاريخ الأنجلو سكسونى هو كانيوت Kanute قاهر الدانيمرك فى بواكير القرن الحادى عشر ، وحاول الكنسيون الإنجليز فى القرن التاسع تدعيم الملكية الأنجلو - سكسونية العاجزة عن طريق الصفات الأخلاقية والصفات التى أسبغوها عليها ؛ بيد أن نجاحهم فى هذا المضمار لم يزد كثيرا عن نجاح أساقفة القوط الغربيين فى أسبانيا . فقدكان ضعف الملكية الأنجلو - سكسونية ، وانتقال زعامة المجتمع إلى النبلاء المحليين عاملين من العوامل التى أدت إلى تدهور الكنيسة الأنجلو - سكسونية وانحدارها من مكانها المزدهر الذى كانت تتمتع به فى عصر بيديه ، أما السبب الأخير الذى يمكن أن يرتبط بهذا التطور ، فهو سبب بسيط نسبيا ، ذلك أن الكنيسة الانجليزية التى كانت تفيض حماسة وغيرة فى القرن الثامن أرسلت عددا كبيرا للغاية من مبشريها وباحثيها المبرزين العمل فى القارة ؛ مما جعلها تفقد خيرة زعمائها وأكثرهم كفاءة وتستنفد مواردها . فقد كان تكريس الكنيسة الانجلو - سكسونية لصالح أسقف روما أمرا خدم البابوية أكثر مما خدم مصالح الكنيسة الانجليزية .

بدأت البعثات التبشيرية الانجلو - سكسونية إلى القارة فى العقد الأخير من القرن السابع، وبدأ المبشرون الديريون عملهم بين الوثنيين فى البلاد الواطئة التى كانت الموطن الأصلى لمعظم القبائل الانجليزية ، وأراد المبشرون الانجليز أن يجلبوا معهم مكاسب الخلاص من أجل الوثنيين الذين اعتبروهم بنى جلدتهم ، وسرعان ما اتصل المبشرون الانجلو - سكسون بالكارولنجيين - العائلة الحاكمة الجديدة فى فرنسا آنذاك - وعملوا تحت توجيه بيبن الثانى Pepin II رأس العائلة الكارولنجية الذى كان يرغب فى بسط نفوذه على الأراضى الواطئة ، والذى اعتبر المبشرون الأنجلو - سكسون بمثابة الطليعة للغزو الفرنجى . فقد عمل قائد البعثة الانجليزية فى الأراضى الواطئة تحت سلطة البابوية أيضا وذهب الى روما ، بإذن من بيبن لكى يرسم أسقفا على فريزيا . كان هذا هو المثال الأول من نوعه على العلاقة المحددة بين البابوية والحكام الفرنجة ، مما أرسى نمط ارتباطهما الثابت فى النصف الأول من القرن الثامن بسبب تأييدها المتواصل لجهود المبشرين الانجلو - سكسون[1] .

---

(١) يرجع الفضل إلى حد كبير ، فى تنصير "ألمانيا" إلى جهود المبشرين الانجليز ، وقد بدأت هذه الجهود على يد ويلفريد Wilfrid أسقف يورك الذى كان مبحرا فى طريقه إلى روما ، ولكن سفينته غرقت أمام شاطىء فريزيا (هولندا) فظل يبشر بالمسيحية هناك على مدى شتاء كامل ونجح فى تعميد عدد كبير من الرؤساء الوثنيين واتباعهم . بيد أن تحويل الأراضى الواقعة حول منصب نهر الراين إلى المسيحية بشكل حقيقى كان ثمرة جهود راهب آخر من نورثمبريا هو ويلبرود Wilibroad الذى بدأ أعماله التبشيرية بمعاونة أحد عشر راهباً ولقى تشجيعاً من بيبن هرستال Pepin of Heristal دوق الفرنجة الذى سمح له بالعمل=

وكان صعود الأسرة الكارولنجية إلى مراكز السيادة فى فرنسا هو الدرجة القصوى التى وصلت إليها عملية اغتصاب الطبقة الارستقراطية للسلطة الملكية فى القرن السابع. فقد كان جميع الحكام الميروفنجيون بعد الثلاثينيات من القرن السابع إما نساء أو أطفالا ، أو معتوهين؛ وهو مايعنى أنهم كانوا فى جميع الأحوال عاجزين عن منع أرستقراطيى الأقاليم من الاستحواذ على السلطة والممتلكات الملكية . ووصل التدهور إلى حد أن الملوك الميروفنجيين لم تكن لهم أية سلطة فعالة خارج ضياعهم الخاصة ، وبمنتصف القرن فقدوا هذه السلطة على ضياعهم : إذ انتقلت إلى "عمد القصر" وهم الموظفون المسئولون عن إدارة القصر . وعلى الرغم من هذا فإن العوامل الأصلية فى إحياء السلطة الملكية فى فرنسا كانت كامنة فى هذا الموقف الشاذ : ذلك أن عمد القصر ، وقد اغتصبوا مابقى من السلطة والممتلكات الملكية ، وجدوا أنه من صالحهم أن يحصلوا على مايمكنهم الحصول عليه من الخزانة الملكية التى كان أرستقراطيو الاقاليم قد اغتصبوها . وبحلول العقد الثامن من القرن السابع أفادت أسرة نمساوية أو شرقية، عرفت فيما بعد باسم الكارولنجيين ، من سيطرتها على وظيفة عمدة القصر فى إرساء دعائم سيادتها : لاعلى الطبقة الارستقراطية فى الجزء الألمانى الشرقى من المملكة الميروفنجية فحسب ، ولكن أيضا على دوقات وكونتات الغرب الأكثر رومانية .

وكان الكارولنجيون يتلمسون السبل لإعادة بناء السلطة الملكية فى فرنسا التى كانت بأيديهم وقد رحبوا بنشاط المبشرين الأنجلو - سكسون على طول حدود المملكة الفرنجية فى أواخر القرن السابع وفى النصف الأول من القرن الثامن . وكان موقف التعاطف الذى اتخذه

---

= على الحدود الشمالية لأملاكه ، ورحل إلى روما حيث رسم أسقفا سنة ٦٩٥ ، وأعطاه ببين فيليتابرج Wiletaburg بالقرب من أوترخت Utrecht لتكون مركزاً لكرسيه الأسقفى . ولكن أعماله التبشيرية لقيت بعض المتاعب من قبل الأمير الفريزى رادبود Radbod؛ فاضطر إلى العمل فى الأراضى الفريزية الخاضعة للفرنجة ، حيث بنى عدة كنائس وأديرة وحاول أن ينشر المسيحية بين الدانمركيين ولكنه لم يحقق سوى نجاح ضئيل ، وقد هاجمه الفريزيون فعاد إلى فريزيا الفرنجية بعد ذبح أحد رفاقه . على أن مركز الكنيسة فى هذه الأنحاء لم يكن آمناً على الدوام ، وحين مات ببين ثار رادبود وهزم شارل مارتل فى معركة بالقرب من كلونى Cologne وأستعاد الأراضى الفريزية من الفرنجة فحرق الكنائس وطارد القساوسة حتى أجبر ويليبرورد على ترك كرسيه الأسقفى (ليصبح مقدما لأحد الأديرة) وفى السنوات الثلاث الأخيرة من عمره عمل معه مبشر انجليزى شاب هو بونيفاس Boniface الذى لعبه دورا هاما فى مجال التبشير كما يتضح من كلام المؤلف فى الصفحات التالية

انظر : Margeret Deansely : A hist of the Medieval Church pp. 19 - 51.

(المترجم)

الكارولنجيون حيال البعثات التبشيرية الانجلو - سكسونية نابعا من رغبتهم فى الظهور بمظهر أصدقاء الكنيسة التى يمكن أن يكون تأييدها المعنوى مفيدا بصفة خاصة فيما يتعلق بحقهم فى العرش الفرنسى ، وهو ما كان محل شك ، ولأنهم كانوا يعتقدون أن تحويل قبائل الحدود الجرمانية إلى المسيحية سيجعل ذوبانهم داخل أملاك الملكية الفرنجية أكثر سهولة .

وكان بين المبشرين الانجلو - سكسون العاملين فى فريزيا فى أواخر القرن السابع شاب بندكتى يدعى وينفريد Wynfrid - وهو أكثر شهرة باسمه اللاتينى الذى سمى به فيما بعد وهو القديس بونيفاس - كان ينحدر من صلب عائلة نبيلة مرموقة فى جنوب انجلترا ، وقد لاقت أهمية أعمال بونيفاس تجاهلا من جانب المؤرخين ، ولكن الأبحاث التى تمت فى الربع الأخير من القرن العشرين وضعته فى مكانه الصحيح كواحد من المبدعين المبرزين حقا فى أوربا الأولى ، وبوصفه رسول ألمانيا ومصلح الكنيسة الفرنجية والمحرك الرئيسى للتحالف بين الكنيسة والأسرة الكارولنجية .فبعد أن عمل عدة سنوات مبشراً فى البلاد الواطئة ، قرر أن يبدأ فى تنصير القبائل الألمانية التى كانت تعيش داخل المملكة الميروفنجية ، فى المنطقة التى أصبحت جنوب غرب ألمانيا الحالية ، وعاد بونيفاس إلى انجلترا حيث جند عدة رفاق من الأديرة البندكتية ، وفى سنة ٧١٨ رحل إلى القارة حيث عمل كمبشر وأسقف ومبعوث بابوى حتى موته سنة ٧٥٤ .

وقد تمت أعمال بونيفاس بتأييد كل من الأسرة الكارولنجية والبابوية ، كما حدث بالنسبة لأعمال المبشرين الانجلو - سكسون فى الأرض الواطئة ، ولكن لأن اهتمام بونيفاس كان موجها لضم منطقة كبيرة فى نطاق المملكة الميروفنجية إلى حظيرة الحضارة المسيحية اللاتينية، فإن أهمية هذا الاتجاه (التبشيرى) المستمر كانت أكبر فى حالته . فقد تمت غالبية أعمال بونيفاس التبشرية فى عهد شارل مارتل ، وهو محارب خشن الطبع أصبح بطل أوربا المسيحية بفضل انتصاره على المسلمين سنة ٧٢٣.[٢] وكان شارل حريصا فى موقفه تجاه روما ، ولم يكن على استعداد للدخول فى تحالف قوى مع البابوية ؛ ولكنه حين سمح لبونيفاس بالعمل

---

(٢) هذه إشارة إلى معركة تور - بواتييه أو معركة بلاط الشهداء كما اسماها المؤرخون المسلمون ، وفى هذه المعركة انتصر شارل مرتل (أى شارل المطرقة) على الجيش الاسلامى الكبير بقيادة عبد الرحمن الغافقى والى أسبانيا ، والواقع أن هذا الانتصار قد أنقذ دولة الفرنجة من الغزو الاسلامى ، وقد أعاد المسلمون محاولتهم حيث استولوا على ارل وآفينيون ، وظلوا بها سنوات ثلاث حتى اخرجهم عنها شارل مارتل .

(المترجم)

تحت سلطة البابوية مباشرة ، فتح الطريق لدخول النفوذ البابوى فى المملكة الفرنجية ، كما فتح الطريق أمام المعاهدة التى عقدها ابنه بيبن الثالث مع البابوية فى الخمسينيات من القرن الثامن وأوضح بونيفاس فى خطاباته مدى اعتماده على مساعدة شارل مارتل "بدون حماية أمير الفرنجة ، لا استطيع أن أحكم شعب الكنيسة ، ولا أن أدافع عن القساوسة والشماسة والراهبات ، كما لا أستطيع منع ممارسة الطقوس الوثنية وعبادة الأصنام دون تكليف منه بذلك، ودون المهابة والرهبة التى يوحى بها اسمه".

وقام بونيفاس بثلاث رحلات إلى روما فى سياق أعماله التبشيرية فى المانيا وهى الأعمال التى استمرت حتى سنة ٧٣٩ ، وأثناء زيارته لروما تلقى تكليفا بابويا بتحويل الشعب الألمانى إلى المسيحية ، كما منحه البابا اسمه اللاتينى رمزا لوضعه الجديد كممثل للكنيسة الرومانية فى ألمانيا . وفى زيارته الثانية لروما رسم بونيفاس أسقفا ، وتمثلت نتيجة مقابلته الأخيرة مع البابا فى تنظيم الكنيسة الالمانية بالتعاون بين البابوية وهذا الراهب الانجليزى الذى أصبح كبير أساقفة مينز Mainz (٣).

كان تحويل بونيفاس لألمانيا إلى المسيحية انجازا ضخما ، إذ أنه ضم منطقة جديدة بأكملها إلى حظيرة المسيحية اللاتينية ، وانتهى إلى تأسيس الكنيسة الألمانية التى لفتت الأنظار اليها

---

(٣) تم تنظيم الكنيسة الالمانية سنة ٧٤١م ، وبذلك صار لبونيفاس الاشراف على الجماعات المسيحية التى تكونت بفضل جهوده فى الاقاليم الوسطى والاقاليم الجنوبية من المانيا ؛ وبذلك أصبح بوسع بونيفاس أن يحول اهتمامه إلى اصلاح الكنيسة الفرنجية التى كان نظامها قد انهار فى غمار الفوضى التى تردت فيها فى القرن السابع ، ولهذا الغرض تم عقد عدة مجامع دينية Synods كبيرة ، ففى سنتى ٧٤٢ ,٧٤٣ عقد مجمعان لدراسة أحوال القسم الشرقى من مملكة الفرنجة ، وفى سنة ٧٤٤ عقد مجمع خاص بالغرب وأخيراً عقد مجمعان فى عامى ٧٤٥ ,٧٤٧ لبحث شئون المملكة بأسرها .

عن هذا الموضوع أنظر : Geoffrey Barraclough : The medieval Papacy :pp. 47.50

وأنظر كــذلك : Margaret Deansaly :A hist. of The Medieval Church :pp: 50-51.

حيث يتناول بالتفصيل حياة بونيفاس (وينفريث Winfrith) وأعماله التبشيرية - أنظر أيضاً :

هـ. موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢٣٠/ص٢٣١ (ترجمة عبد العزيز جاويد - سلسلة الألف كتاب) وكذلك. هـ. ا.ل فيشر تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ص٧٦ .

(المترجم)

فى القرن العاشر لما تميزت به من التدين الشديد ، وقد أنجز بونيفاس عملية تأسيس المسيحية الألمانية عن طريق بناء الأديرة العظيمة ، مثل الدير الذى بناه بنفسه فى فولدا Fulda وقد أصبحت هذه الأديرة مراكز تعليمية قدمت الأشخاص الذين كانت الكنيسة الألمانية ، التى ظهرت فى مطلع القرن الثامن ، بحاجة إليهم . بل انه حتى القرنين العاشر والحادى عشر ، كانت الأديرة الكبيرة التى أسسها بونيفاس ومساعدوه هى المراكز الحيوية للحياة الكنسية الألمانية ، ومنذ أيام بندكت بيسكوب فى القرن السابق كان الرهبان الانجلو - سكسون جميعا من البندكتيين . فقد كانت القاعدة البندكتية هى القاعدة التى فرضها بونيفاس على الأديرة الكبيرة التى أنشأها فى ألمانيا ، كما كان للصيغة القانونية لديره فى فولدا مغزى خاص . فقد حصل له بونيفاس على امتياز Privilegium الاعفاء من السيطرة الأسقفية وبذلك جعله خاضعا البابوية ، باعتبارها رأس العالم المسيحى ، مباشرة . وقد ظهر فى هذا النوع من الاشراف الخاص على يد جريجورى الكبير الذى أخضع أديرة بندكتية معينة للارتباط المباشر مع البابوية ؛ بيد أن ذلك لم يحدث إلا فى حالات نادرة . وذاع صيت فولدا وغيره من الأديرة الألمانية بسبب ما كانت تحويه من مكتبات كبيرة وحجرات النسخ ، وقد انتجت مدرسة فولدا الديرية بعض الأعمال الكبيرة فى الفن الكارولنجى ، وهى المخطوطات المزودة بالرسوم والصور التوضيحية .

ولكى يتم هذا الانجاز التبشيرى على نحو فعال كان لابد من تسخير كل موارد الكنيسة الانجلو - سكسونية فى القرن الثامن فى هذا السبيل . ولدينا خطاب موجه من بونيفاس إلى جميع قساوسة وشمامسة الكنيسة الانجليزية طالبا مساعدتهم فى أعماله التبشرية **"نحن نرجوكم فى تواضع .. إن كلمة الرب قد تمضى قدما إلى الأمام وتحظى بالمجد" إننا نتوسل إليكم أن تبدأوا الصلاة بأن الرب . . قد يحول قلوب السكسون الوثنيين الى العقيدة الكاثوليكية . . ويجمعهم مع أطفال الكنيسة الام ، كونوا بهم رحماء لأنهم يقولون الآن : "نحن وإياكم من دم واحد وعظام واحدة " . . وفضلا عن ذلك ليكن معلوماً لديكم ، أنه فى حالة انجاز هذا فإن لدى موافقة وقبول ومباركة اثنين من أحبار الكرسى الرسولى "**. ويوضح هذا الخطاب مدى وعى رجال الكنيسة الانجلو - سكسون بخلفياتهم الجرمانية ، كما يوضح فى الوقت نفسه الولاء الحار الذى كانوا يحملونه للبابوية فى القرنين السابع والثامن . وقد أدت النداءات التى وجهها بونيفاس إلى مواطنيه إلى هجرة كثيرين من انجلترا إلى القارة ؛ وهو الأمر الذى تمثلت نتائجه فى قيام مستعمرة دينية أنجلو - سكسونية فى ألمانيا .

وبتعيين بونيفاس رئيسا لأساقفة مينز صار هو الرجل الأول فى الكنيسة فى الشطر الشرقى من الامبراطورية الفرنجية . وبعد سنة ٧٣٩ تحول من حوارى أو رسول للألمان ليبدأ فى اصلاح الكنيسة الفرنجية ، وساعده فى هذا العمل التأييد الذى أسبغه عليه ولدا شارل مارتل ، بيبن الثالث ، وكارلومان Carloman اللذان تقاسما حكم المناطق الشرقية والغربية من المملكة الفرنجية . أما كارلومان ، فهو أول ملك من طراز الملوك القديسين الذين يهتمون بالتكريس الدينى أكثر من اهتمامهم بالسلطة الملكية ، وهو الأمر الذى سوف يظهر كثيرا فى القرون الثلاثة التالية والذى يعتبر مؤشرا على التأثير المتنامى للدين على المجتمع الجرمانى . ففى سنة ٧٤٧ تنازل عن العرش ليصير راهبا فى مونت كاسينو ، وكان قد بدأ مع بونيفاس فى إصلاح الكنيسة الفرنجية خلال السنوات الثمانى السابقة . وقد أعلن مجمع دينى ضم رجال الدين الفرنجة الولاء للبابا ، ولكن هذا لايوضح أنه كانت للبابوية سيطرة حقيقية على الاساقفة الفرنسيين ؛ بل إنه يعتبر مؤشرا دالا على روح جديدة وموقف جديد من جانب رجال الكنيسة الذين لم يعترفوا بمثل هذا الولاء للبابوية من قبل على الاطلاق . وبدأ بونيفاس عملية إعادة إحياء الأديرة الفرنسية ، وقبول هذه الأديرة الفرنسية للقاعدة البندكية فضلا عن تأسيس أول المدارس الديرية الهامة فى المملكة الميروفنجية . وكان تكوين أكليروس علمانى على مستوى الأبرشية المحلية خارج المدن الاسقفية واحدا من أهم حاجات الكنيسة الفرنجية ، فقد كان على الاساقفة المتعلمين أن ينشروا تعاليم العقيدة فى كل قرية "حتى يصبح اعتناق أوربا للمسيحية حقيقة أبدية " . ومن الممكن أن نرجع البدايات الغامضة للنظام الأبرشى فى العصور الوسطى- وهو النظام الذى يمكننا أن نقول إنه كان نظاما حقيقيا فى بعض أجزاء فرنسا القرن التاسع - إلى أعمال بونيفاس .

وبعد أن صار بيبن الثالث حاكما على المملكة الفرنجية بأسرها سنة ٧٤٧ امتد الاصلاح الذى كان بونيفاس قد بدأ فى أسقفيته إلى غرب فرنسا بمساعدة بيبن ، ولم تكن علاقة بيبن بالكنيسة تتسم بذلك التدين الشخصى العميق الذى كان أخوه يتميز به ؛ فقد كان يرى فى أعمال بونيفاس الفرصة والوسيلة لنقل المملكة والاستيلاء على العرش من الميروفنجيين عن طريق التحالف مع البابوية ، وهو الأمر الذى هيأ بيبن نفسه له بقبول خطة بونيفاس لإصلاح الكنيسة فى مملكته ، وفى الوقت نفسه كان الاعتقاد السائد فى روما أن نتائج أعمال بونيفاس سوف تفتح الطريق لتحقيق أيديولوجية البابوية التى كانت قد بدأت تتطور منذ زمن جريجورى الكبير . وفى أواسط القرن الثامن ، كانت نتائج التطور الذى ظل مضطربا طوال

عدة قرون تتجمع فى بؤرة حادة . وأخيرا بدأت الخطوط والملامح العريضة لأوربا الأولى تكتسب شكلها المميز . وتشكل هذه الفترة (منتصف القرن الثامن) واحدة من أهم نقاط التحول فى التاريخ الوسيط ، فقد تميزت هذه السنوات العشر باستقلال البابوية النهائى عن الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وحلول الأسرة الكارولنجية محل الأسرة الميروفنجية فضلا عن سيادة فكرة الملكية الثيوقراطية فى أوربا الغربية ، والوجود القانونى للدول البابوية . وبعد ذلك بنصف قرن فقط تم إحياء اللقب الامبراطورى فى الغرب كنتيجة مباشرة للحوادث التى جرت فى منتصف القرن الثامن ، وترتكز جميع هذه الانجازات الحاسمة على خلفية ضرورية تمثلها أعمال القديس بونيفاس ومساعديه الذين ساهموا فى تحويل أوربا إلى المسيحية.

وفى سنة ٧٥٤ عاد بونيفاس إلى العمل التبشيرى فى الأراضى الواطئة ، ممارسا نفس العمل الذى كان قد تركه قبل أربعين سنة ، حيث استشهد على يد الفريزيين البدائيين ناكرى الجميل . وبالنظر إلى سير القديسين فى العصور الوسطى تكون حياته فى خدمة الكنيسة قد انتهت على هذا النحو نهاية كاملة مضبوطة . وقد وصفه كاتبو سيرته بأنه " الحوارى المرسل إلى الألمان" وإذا كانت الكنيسة الألمانية المتحمسة ، والتى كان البندكتيون يسيطرون عليها فى العصور الوسطى الباكرة ، هى الأثر الجدير بتخليد الخدمة التى أسداها للمسيحية اللاتينية، فإن الملكية الكارولنجية فى القرنين الثامن والتاسع ، كانت هى الأخرى من نتائج أعماله إلى حد كبير . وعلى أية حال فقد كانت الملكية الكارولنجية أثرا لم يكن هو نفسه ليقدره أو يريد أن يفتخر به : ذلك أن نضال البندكتيين الانجليز البطولى من أجل نشر المسيحية فى الغرب ، قد حرك مجموعة معقدة متشابكة من الأفكار والنظم التى شكلت حضارة وثقافة أوربا الأولى التى كانت عالما تجاوزت توتراته ، وطموحاته ، وانجازاته ، واخفاقاته ، المثل العليا والتوقعات البسيطة النقية للمبشرين الإنجليز .

**٣- اللغز الكارولنجى**

يتسم مجرى التاريخ الكارولنجى بالغموض المحير ، وكلما زاد البحث فى هذه الفترة كلما بدت أكثر غموضا وأكثر صعوبة من حيث فهم النموذج العلم للتاريخ الأوربى فى القرنين الثامن والتاسع . واللغز الكارولنجى لغز مزدوج سواء فى طبيعة أحداث الفترة نفسها ، أو فى التفسيرات العامة المتضاربة للباحثين المحدثين . والتاريخ الكارولنجى مفعم بالتضارب والتناقضات الحادة ، والتطرف مابين المثالية والبربرية ، والذكاء والعنف الجاهل ، والانجاز

السريع الواضح ، والانهيار المتماثل السرعة . وقد وجد كثير من المؤرخين ، لاسيما من أتباع المدرسة القديمة ، أن النغمة الرئيسية لتلك الفترة إنما تتمثل فى صراعاتها الايديولوجية ، وفى استخلاص الأفكار العقلانية المعقدة التى تبدو واضحة للعيان فى المصادر الوثائقية للتاريخ الكارولنجي . بينما استبعد فريق آخر من المؤرخين هذه الآراء الأيديولوجية باعتبارها التفكير الذى كان الرهبان ، الذين انتجوا كل أعمال هذا العصر الأدبية ، يرغبون فيه ؛ وبدلا من ذلك أكد هؤلاء الباحثون على ما بدا لهم أنه حقائق الحياة الاجتماعية والسياسية : أى السيادة ، والاقتصاد الريفى ، والفوضى المألوفة فى المجتمع الجرمانى . ومن هذا التفسير تبرز صورة شارلمان Charlemagne ، لا باعتباره الامبراطور المسيحى الكبير فى أوربا المتحدة ، وإنما باعتباره ملكا - محاربا King- Warrior من النمط الجرمانى المدمر ، العنيف ، مما جعل التمييز الحاد بين العالم الميروفنجى والعالم الكارولنجى يختفى ليحل محله النموذج العام "للغرب البربرى " قبل القرن العاشر .

ويكمن حل اللغز الكارولنجى فى إدراك أن أوربا فى القرنين الثامن والتاسع تندرج تحت الشكل العام للمجتمع النامى فى مرحلة ما قبل التصنيع ، والذى بدأ لتوه فى الإفادة من الزعامة الذكية ، ولأن السلطة فى هذه المجتمعات تتركز فى صفوة ضئيلة - كانت هذه الصفوة فى العالم الكارولنجى ممثلة فى الملك ، وقادة الكنيسة ، وعدد قليل من كبار الارستقراطيين - فإنه يكون واضحا أن التطورات الهامة يمكن انجازها بسرعة كبيرة . وفى مثل هذا الموقف تكون ايديولوجية الصفوة بالضرورة عاملا هاما فى بدء التغيير الاجتماعى ، فإذا كان عدد قليل من زعماء القمة يقفون إلى جانب التقدم والتنوير ، فإن المحلية والفوضى قد تتخلى عن مكانها فى الحال للمركزية والنظام ، وبينما لايتوافق هذا الاصلاح الاجتماعى مع مثل مجموعة الصفوة إلا نادرا ، فإن التقدم الحقيقى يمكن أن يتم فى وقت قصير نسبيا حيث يسيطر القادة على الأذكياء والمتعلمين الموجودين فى مجتمعهم . وعلى أية حال ، فإن الموقف يظل مزعزعا بسبب ما يسود المجتمع من تراث الفوضى والمحلية والعنف .

إذ أن مجرد موت عدد قليل من القادة المستنيرين ، أو حتى اختفاء أحد الشخصيات الكبيرة فجأة ، يمكن أن يتسبب فى إنهيار النظام بأسره ، ويفتح الطريق أمام ردة سريعة إلى الفوضى والبربرية . ذلك أن المجموعة المستنيرة فى هذا المجتمع ، الذى يمر بمرحلة ما قبل التصنيع ، محاطة بجماهير المحاربين المتوحشين والفلاحين الخاملين الذين لايفهمون على الاطلاق ما يحاول القادة عمله ، ومن ثم فحين يضطرب التوجيه المركزى ، يحدث الإنزلاق السريع المتقهقر تجاه البربرية . وفى المجتمعات الصناعية الحضرية ، والكثيفة السكان ،

المتعلمة ، الحديثة ، يكون من الصعب على مجموعة صغيرة من الرجال أن تفعل ماهو أكثر من إعطاء إنطباع ما . ولكن من ناحية أخرى ، لاتنهار هذا المجتمعات حضاريا ولاتتعرض للفوضى السياسية على هذا النحو نتيجة اختفاء واحد أو اثنين من زعمائها المهمين .

وهكذا تصبح تقلبات أحوال العالم الكارولنجي مفهومة فى ضوء نموذج المجتمعات النامية. فقد كانت للمثل التى اعتنقتها مجموعة الصفوة المركزة فى البلاط الملكى والكنيسة أهمية قصوى باعتبارها من عوامل الحسم فى التغير الاجتماعى والسياسى . وفى الوقت نفسه يجب أن نتذكر أن هذه المجموعة كانت تعمل فى مجتمع يتسم بالطابع الريفى والمحلى إلى حد كبير، بل إن الغالبية العظمى من السادة الفرنجة لم يفهموا إطلاقا الشطر الأكبر من الايديولوجية العقلانية التى قدمها المنظرون الكنسيون ، كما كرهوا التورط فى معظم الأمور التى تعذر عليهم فهمها ، ولم تكن ثمة وحدة تجمع مجموعة الصفوة [٤] التى كانت تضم الملوك والأساقفة ومقدمى الأديرة والبابوات والدوقات من حيث تصورهم للمجتمع المسيحى المثالى . بيد أنه كان هناك صراع خفى لايقبل المصالحة بين موقف قادة المجتمع المسيحى وتوقعاتهم العامة من جهة ، وحقائق الحياة السياسية والاقتصادية البشعة من جهة أخرى ، وهذا هو السبب فى تميز التاريخ الكارولنجي بوجود الايديولوجية العقلانية المعقدة من ناحية ، والحيوية المتزايدة للسيادة وعلاقات الضيعة الاقطاعية Manorialism من ناحية أخرى ، الأمر الذى يفسر لنا سبب ظهور شارلمان بمظهر الامبراطور المسيحى وصورة السيد البربرى فى آن واحد ، كما يفسر أهداف قادة أوربا البعيدة المنال ، وما أحرزوه من انتصارات قصيرة المدى فضلا عما لاقوه من خيبة آمالهم . إلا أن استمرار وجود النظم الجرمانية ، بما تحمله من تأثيرات سلبية أعاقت تحقيق مثل رجال الكنيسة العليا فى تلك الفترة ، لايمثل أكثر جوانب التاريخ الكارولنجي أهمية ، وإنما يتمثل هذا الجانب ، إلى حد ما ، فى التعبير عن هذه المثل ، وفيما بذل من جهود عظيمة لبناء المجتمع المسيحى . هذه العوامل الجديدة هى التى تميز أوربا الأولى عن العالم الذى وجد عقب الغزوات الجرمانية مباشرة ، ورغم أن التوقعات العظيمة للملوك الكارولنجيين ، ورجال الكنيسة لم تتحقق فى زمنها ؛ فإن الشطر الأكبر من إيديولوجيتهم ونظمهم ظلت موجودة حتى بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية ، كما كانت ركنا هاما من أركان النظام الاجتماعى الأكثر نجاحا الذى وجد فى القرنين العاشر والحادى عشر [٤].

---

(٤) عن الصفوة وأعمالها فى العصر الكارولنجي أنظر :

Phillppe Wolf :The awakening of Europe (Penguin Book 1967)p. 36 - 56.

## ٣- الملكية والبابوية

يتركز جزء من تاريخ أوربا القرن الثامن والقرن التاسع حول ثلاث إيديولوجيات ، وطرق تعبير هذه الإيديولوجيات عن نفسها ومواجهاتها وتفاعلها فيما بينها ، هذه الإيديولوجيات الثلاث هى : مفهوم السلطة البابوية ومذاهب الملكية الثيوقراطية ، ثم المثال الامبراطورى أو المثل الامبراطورية بتعبير أدق . وكان زعماء العالم الكارولنجى يتحركون فى قوة بدافع من واحدة أو أكثر من هذه الايديولوجيات ، كما كان تطور سياسة الملكية والبابوية محكوما إلى حد بعيد بالمحاولات الرامية إلى تحويل هذه الإيديولوجيات إلى خطط عملية .

كان مذهب السلطة البابوية قد تشكل مابين عام ٧٣٠ وعام ٧٦٠ ، وإلى حد ما ، كان التعبير عن هذا المذهب من نتائج النزاع الأيقونى مع بيزنطة . ففى أواخر العشرينيات من القرن الثامن حرم الامبراطور[٥] استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية الممثلة للأشخاص (الأيقونات) باعتبارها مظاهر وثنية وعبادة أصنام ، كما أمر بأن تزال من الكنائس الخاضعة

---

= وعن حياة شارلمان أنظر :

Two Lives of Charlemgne : The Vita Caroli of Einhard, and The De Carlo Magna of Notker The Stammerer. Monk of Saint Gall.

وقد ترجمها وقدم لها لويس ثورب. (Penguin Books 1974) Lewis Thorpe

وكذلك أنظر عن حياة شارلمان الترجمة الواردة لجزء من حياة شارلمان التى كتبها اينهارد فى:

The Early Middle Ages, pp. 251- 61.

أنظر أيضاً المختارات التى أوردها نورمان كانتور فى كتاب : The Medieval World 300 - 1300

عن حياة شارلمان كما كتبها اينهارد ، وخطابات الكوين ، والمراسيم الدورية الملكية فى الصفحات من : 153 - 139 وعن العصر الكارولنجى بصفة عامة أنظر : هـ. موس: ميلاد العصور الوسطى ، ص ٣٣٦-٣٧٣ وسعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ص ١٨٦/ ٢٠٥ ، جـ٢ : ص٣٥/ص٨٧ .

(٥) هو الامبراطور ليو الثالث الأسيوى الذى بدأ سنة ٧٢٦ حملة ضد الآيقونات وعبادتها . وقد حكم هذا الامبراطور من سنة ٧١٧ إلى سنة ٧٤٧ .

(المترجم)

لحكمه . وكانت النتيجة نزاعا انشقاقيا عنيفا امتص طاقات الدولة البيزنطية والكنيسة البيزنطية على مدى قرنين من الزمان حتى انتصر الأيقونيون المدافعون عن الصور الدينية فى نهاية الأمر . وقد فسرت دوافع الامبراطور الذى أثار النزاع الأيقونى عدة تفسيرات ؛ فقد كان الأباطرة الذين حرموا الصور الدينية من آسيا الصغرى حيث يوجد الإمداد البشرى اللازم للجيش البيزنطى فى ذلك الحين ، وقد فسر موقفهم اللاأيقونى على أنه نتيجة لتأثر الرجال الذين ارتقوا سلم السلطة فى الامبراطورية الرومانية بالتراث الدينى لدى شعوب الشرق الأوسط مثل المسلمين واليهود الذين كانوا يحرمون الصور فى بيوت العبادة الخاصة بهم (٦). وفى رأى أصحاب هذا التفسير أن النزاع اللاأيقونى قد نشب نتيجة الاستشراق المتزايد للحضارة البيزنطية ، وثمة رأى آخر يعود بأصل الحركة اللاأيقونية إلى محاولات أباطرة القرن الثامن لزيادة سلطة الدولة البيزنطية ، وحيث وجدوا أن الشعبية التى يتمتع بها الرهبان البيزنطيون سوف تكون عقبة فى طريقهم . واعتقد الأباطرة أن هذه الشعبية جاءت نتيجة للاعتقاد الشائع بأن الأيقونات المحفوظة فى المؤسسات الديرية قادرة على صنع المعجزات ؛ ومن ثم اعتقد الأباطرة أن سياستهم اللاأيقونية كانت أساسا ضروريا لإعادة إحياء السلطة الامبراطورية .

وأيا كانت دوافع الامبراطور لإصدار مراسيمه اللاأيقونية ، فإنه لم يكن بوسع البابا الإذعان لها ، فقد كان الامبراطور قد أمره بالالتزام بسياسته الجديدة . وفى المحل الأول ، لم يستطع البابا أن يسلم بحق الامبراطور فى التشريع لمثل هذه المسائل المذهبية الهامة . وثانيا ، كانت الكنيسة الغربية تعارض الموقف اللاأيقونى معارضة شديدة ، وقد جسد جريجورى الكبير موقف الكنيسة الغربية من مسألة وضع الصور فى الكنيسة ، فبينما كان جريجورى يرفض ، بطبيعة الحال ، فكرة أن تكون للصورة الكنسية أية قوى إعجازية ، فإنه مع ذلك كان يدافع عن استخدامها كوسيلة تثقيف وتعليم فى الارشاد الدينى ، وفى سنة ٧٤٠ كان البابا هو جريجورى الثانى ، الذى كان لإسمه أهمية ومغزى ؛ ذلك أنه كان من عادة البابوات عند ولايتهم أن يتخذ الواحد منهم اسم أحد البابوات السابقين يكون محل إعجابه أكثر من غيره ،

---

(٦) الحقيقة أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر فى سنة ١٠٤هـ (٧٢٢)م بكسر الصلبان فى كل مكان ومحو الصور من الكنائس فى جميع أنحاء الدولة العربية الاسلامية مما قد يشير إلى تأثر ليو الثالث بما فعله جيرانه المسلمون. ولسنا نفهم السبب وراء إقحام المؤلف لليهود ، الذين كانوا أقلية ضئيلة لاقيمة لها ، فى هذا الموضوع . (المترجم)

وكان جريجورى الثانى يرغب فى منافسة جريجورى الكبير ، كما كان يريد أن يضع برنامجه الخاص بزعامة البابوية لأوربا موضع التنفيذ العملى ولم تكن البابوية قادرة على ذلك خلال القرن السابع بسبب ضعف الملكية الفرنجية من جهة ، وبسبب وقوع البابوية فى متناول الامبراطور وجيشه الرابض فى إيطاليا من جهة أخرى .

وقد وصل النزاع اللاأيقونى بالأمور الى غايتها كما منح جريجورى الثانى فرصة تنفيذ سياسة سُمَيِّه فأرسل خطابا غاضبا الى القسطنطينية ينكر فيه حق الإمبراطور فى التدخل فى المسائل المذهبية ، مؤكدا أنه إذا عاود الإمبراطور محاولة استخدام القوة ضد اسقف روما ، فإن العالم الغربى بأسره سوف يقف على قدم الاستعداد لمساعدة البابا . والحقيقة أنه لم تكن هناك وسيلة يعرف جريجورى بها مدى صدق هذا الزعم .

فقد رفض شارل مارتل المجىء الى ايطاليا بناء على طلب البابوية لحمايتها فى مواجهة الامبراطور واللمبارديين سنة ٧٥٩ ، ولاشك فى أن شارل كان يشعر أن لديه من المشاغل فى وطنه ما يكفيه . وكان ملك الفرنجة ، على أية حال قد صار على علاقة طيبة بالقسطنطينية منذ عهد كلوفيس ، ولكن جريجورى الثانى ، لسبب لاندريه ، كان يعتقد أن الوقت قد حان لكى تعلن البابوية استقلالها عن الإمبراطور الرومانى لكى تربط نفسها بالعالم الغربى ومن ثم بالأسرة الكارولنجية التى كانت تحكم معظم أراضى أوربا .

وفى سنة ٧٥١ آتت سياسة جريجورى الكبير ، وسميه جريجورى الثانى ثمارها وذلك حين لجأ بيبن الثالث الى روما فى طلب المساعدة فى الحصول على التاج الفرنجى . فقد كان الملك الميروفنجى فى القرن الثامن مجرد شخص لا أهمية له على الإطلاق ، فلم تكن لديه السلطة ولا الممتلكات ، كما كان يركب عربة تجرها الثيران مثل أى فلاح ؛ بيد أنه كان مايزال يملك اللقب الملكى . ووفقا للقانون الفرنجى لم يكن هناك من سبيل يمكن عمدة القصر الكارولنجى من انتزاع اللقب لنفسه ، فكان بحاجة إلى تأييد الكنيسة ، والسلطة البابوية على وجه الخصوص ، لكى يغتصب العرش الفرنسى . وكان بيبن الثالث يملك من المهارة ما يكفى لأن يفعل ذلك حين تواتيه الفرصة ؛ ذلك أنه من المحتمل أن يخرج من بين الملوك الميروفنجيين ، الذين ظلوا على مدى قرن من الزمان أشخاصا من ذوى العاهات الجسدية أو العقلية ، كلوفيس آخر . واتضح أمام بيبن السبيل الذى يجب أن يتبعه بفضل أعمال بونيفاس فى المملكة الفرنجية ، وازدياد نفوذ الكنيسة فى المجتمع الفرنجى ، والنظرة الجديدة المفعمة بالاحترام التى نظر بها رجال الكنيسة الفرنجية الى البابوية .

فقد كان متوقعا أن يعلو قانون الكنيسة ، وماتفرضه البابويه من عقوبات فوق التقاليد الفرنجية . ومن ثم فإنه طلب من بونيفاس أن يحمل إلى روما سؤالا عما إذا كان يجب للرجل

الذى يمارس السلطة الفعلية أن يكون ملكا أم لا . وكانت البابوية قد انتظرت قرنا من الزمان من أجل هذه اللحظة ، ولم يكن بمقدور البابا الا أن يعطى بيبن الإجابة التى كان يريدها [٧]. ولكن الحقيقة أن القرار البابوى بحق بيبن فى خلع الملك الميروفنجى الحاكم وأخذ التاج الفرنسى كان متوافقا مع تقاليد النظرية السياسية لكنيسة العصور الوسطى الباكرة . ذلك أن المنظرين الكنسيين لم يتأثروا قط بمزاعم الوراثة ، وكانوا ينادون على الدوام بأن ولاية العرش تتوقف على ملاءمة الشخص للمنصب ، وهو مايعنى أن يتمتع المرشح للعرش بمؤهلات تجعل منه حاكما كفؤا عادلا ، ولم يكن بيبن قادرا على الإفادة من هذا الرأى ؛ ذلك أن مبدأ استحقاق العرش عن جدارة كان قد اختفى من فرنسا فى القرن الخامس ، وحلت محله تقاليد الحق المطلق للأسرة الميروفنجية فى العرش . وربما يكون هذا التحول الذى طرأ على أسس الملكية الفرنجية راجعا فى الأصل الى مزاعيم الميروفينجيين ، فى عصور ماقبل المسيحية ، بأنهم من سلالة الآلهة . وقد تدعم هذا التحول فى مطلع القرن السادس حين غزا كلوفيس غالة وزعم أن المملكة بأسرها ملك خاص لأسرته . وكان من الواضح أن قرار نائب الله فى الأرض (البابا) فقط هو الذى يمكنه كسر الارتباط الفرنجى بالبيت الميروفنجى ؛ هذا الارتباط الذى أكده تساهل الفرنجة على مدى أكثر من قرن مع سلسلة من المعتوهين الملكيين .

وقد ارتقى بيبن عرش الفرنجة وفقا للقانون الكنسى والبابوى خلال احتفال دينى رمزى متقن، فقد مسح القديس بونيفاس ، بوصفه ممثل البابوية فى فرنسا ، بيبن بالزيت المقدس بنفس الطريقة التى يتم بها ترسيم الأساقفة ، ثم توجه ملكا على الفرنجة . وكان لهذا التتويج المقدس للحاكم الكارولنجى أثره المرجو من حيث إيجاد الإنطباع بحق بيبن فى العرش لدى رجال الكنيسة الفرنجية والسادة العلمانيين على حد سواء . وأرسل آخر الميروفنجيين إلى أحد الأديرة، وبذلك اختفت أسرة كلوفيس . وكان مسح بونيفاس لبيبن بالزيت المقدس علامة على نقطة تحول هامة فى تطور الملكية فى أوائل العصور الوسطى لأنها كانت تتضمن فى طياتها فكرة الملكية الثيوقراطية التى عرفتها أوربا الغربية . وثمة دليل على أن أساقفة القرن السابع الأسبان قد جربوا أيديولوجية واحتفالا مشابهين فى محاولة لمنح بعض التأييد المعنوى والدينى للملكية القوطية الغربية الضعيفة ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفتح الإسلامى لشبه جزيرة أيبيريا ، ولايبدو انها كانت مفيدة كسابقة فى التتويج المقدس للحاكم الكارولنجى .

---

(٧) البابا المقصود زكريا (٧٤١ - ٧٥٤) .

فلماذ إذن قدمت البابوية التتويج المقدس للملكية فى غرب أوربا ، وقدمت معه أيديولوجية الملكية الثيوقراطية التى ناضلت البابوية ضدها فى صيغتها البيزنطية نضالا مريرا منذ القرن الخامس ؟ يجب أن نؤكد أن البابوية اخطأت فى استحداث هذه البدعة من حيث نتجانها البعيدة المدى ؛ فقد صارت الملكية الثيوقراطية مذهبا سبب من المتاعب للكنيسة فى صيغته الغربية أكثر مما عانت منه فى صيغته البيزنطية ، ولم يكن هذا شيئا يمكن رؤيته فى منتصف القرن الثامن . وكانت غلطة الملكية الجرمانية ، فى نظر الكنيسة أنها كانت غاية فى الضعف بحيث تعجز عن قيادة المجتمع أو حماية الكنيسة ؛ وليس كونها أداة للاستبداد وتهديدا مسلطا على زعامة الكنيسة المعنوية للمجتمع . وأخيرا سنحت الفرصة للبابوية سنة ٧٥١ لكى تضع برنامج جريجورى الكبير موضع التنفيذ الفعلى ، وأن تضع الملك الفرنجى فى موقف المدين بعرشه لروما ، بيد أنه كان عليها ، لكى تفعل هذا ، أن تتحكم فى التقاليد الفرنجية الراسخة ، وأن تحصل على التاج لحلفائها الكارولنجيين. وكان التطبيق الكامل للعقوبات الدينية هو أضمن وسيلة لتحقيق هذه الأهداف ، وهو ما يؤدى إلى رفع الأسرة الكارلونجية إلى منصب مقدس . وبدا الأمر وكأنه احتفال درامى رمزى أخاذ يمكن أن يحقق هدف الحصول على العرش الفرنجى لبيبن ؛ ولكنه لايشكل أى تهديد لزعامة البابوية للمجتمع الغربى . وكان المنظرون الكنسيون يعرفون مضامين الملكية الثيوقراطية والتتويج الملكى المقدس ، ولكن البابوية فى منتصف القرن الثامن لم تكن تتوقع أن الملوك الجرمان الأميين سوف يفيدون من هذا التتويج على نحو يتعارض مع مصالح روما ، أو إنهم سوف يدركون كل ما تضمنته المذاهب العقلانية المعقدة .

فضلا عن أن البابوية لم تكن مهتمة بتقديم الملكية الثيوقراطية فى غرب أوربا ؛ لأنها كانت قد شكلت أيديولوجيتها الخاصة عن سيادة البابوية على ملوك أوربا الغربية ، وقد حصلت من بيبن على الاعتراف الواضح بسلامة هذا المذهب .

وقد صيغت فكرة السلطة البابوية على العالم الغربى فى أشهر وثائق العصور الوسطى وهى هبة قسطنطين التى كانت أشهر علمية تزييف فى التاريخ ، وهناك بعض الشك حول تاريخ كتابة هبة قسطنطين فى الشكل الذى وصلتنا به ، وربما يكون النص الموجود قد كتب فى منتصف القرن التاسع ؛ إلا أن هناك دليلا قويا على أن هبة قسطنطين الأصلية وهى تماثل فى جوهرها نفس الوثيقة التى وصلتنا ، قد كتبت فى المقر البابوى فى منتصف القرن الثامن ، وقدمها البابا شخصيا إلى بيبن فى باريس سنة ٧٥٤ وتقبلها الملك الفرنجى على أنها إقرار حقيقى بصلاحية السلطة البابوية .

لقد شعرت البابوية أن من الضرورى لها أن تعبر عن أيديولوجيتها من خلال وثيقة مزورة ترتبط بالامبراطور قسطنطين ؛ وذلك بسبب المفاهيم القانونية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى الباكرة ؛ إذ كان القانون الجيد هو القانون القديم ، فقد كان القانون مساوياً للعادة ، وكان لابد للدعاوى الجديدة من بعض الأسس التاريخية أو المرتبطة بالعادات والتقاليد . وإذا ما اخذنا فى اعتبارنا أيضا ما كان الناس فى مجتمع أغلبه جاهل يكنونه من الاحترام تجاه الوثائق المكتوبة ؛ يصبح من السهل علينا أن نفهم دوافع رجال الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة الى تزوير الوثائق من أجل إيجاد أساس قانونى لدعاويهم . ولاتدمغ هبة قسطنطين المزورة بابوات القرن الثامن بالدناءة الأخلاقية ؛ لأن الوثيقة كانت مجرد وسيلة قانونية للتعبير عن إيديولوجية البابوية ، فضلا عن أنه من المحتمل أن تكون البابوية قد اعتبرت التفسير الخاص لعهد قسطنطين تفسيرا حقيقيا ، وهو التفسير الذى استندت اليه الهبة والذى اوجز فى ديباجة الوثيقة التى اعتقدوا أن قسطنطين قد أصدرها حقا ، ولذا فإنهم زوروا وثيقتهم الخاصة بنفس الطريقة التى زورت بها كثير من أديرة العصور الوسطى نسخا جديدة من الوثائق الأصلية التى فقدت .

ويعتمد كاتب هبة قسطنطين على أسطورة القديس سيلفستر St. Sylvester التى أشار إليها جريجورى التورى فى كتابه "تاريخ الفرنجة" والتى ربما يكن أصلها راجعا إلى ايطاليا أواخر القرن الخامس فى وقت معاصر لتكوين المذهب الجيلازى . إذ تقدم الأسطورة ، فى شكل تاريخى – قانونى ، الجانب الراديكالى فى مفهوم جيلازيوس الأول عن العلاقة بين البابوية Auctoritas والملكية Potestas وتحكى الأسطورة التى بنيت هبة قسطنطين على أساسها ، أن البابا سيلفستر الأول عالج الامبراطور الرومانى من مرض الجذام ؛ واعترافا بالجميل عينه قسطنطين أسقفا للعالم الرومانى وتنازل أيضا عن تاجه الامبراطورى وعن جميع سلطاته للبابا ، وكرمز لخضوعه للبابا سيلفستر ؛ قام الامبراطور بوظيفة سائس الخيول البابوية ، وفى مقابل ذلك رد البابا الكريم على قسطنطين تاجه الامبراطورى . وعلى أية حال فقد هجر الامبراطور روما وايطاليا والعالم الغربى وتركه للبابا وذهب ليقيم فى القسطنطينية . والمذهب الكامن خلف هذه القصة مذهب راديكالى للغاية ، إذ يعنى أن البابا فوق جميع الحكام ؛ بما فى ذلك الامبراطور الرومانى الذى يدين بتاجه البابا ؛ ومن ثم يمكن عزله بمرسوم بابوى ، كما أن للبابا الحق المطلق ، لا على روما وكنيسة القديس بطرس فقط ؛ ولكن أيضا على إيطاليا والعالم الغربى بأسره اذا ما اختار أن يمارس ما زعمه لنفسه من سلطات .

وربما يمكن تفسير جسارة وراديكالية هبة القسطنطينية من خلال نجاح البابوية فى تحقيق سياسة جريجورى الكبير . إذ أن بابوات النصف الأول من القرن الثامن حصلوا على استقلالهم عن القسطنطينية وعقدوا حلفا مع المملكة الفرنجية . ثم كانت لهم الزعامة الأخلاقية على أوربا الغربية بشكل واضح ، وفى أواسط القرن الثامن بدا أن مطامح البابوية فى تحقيق السلطة لاتنتهى عند حد ، فضلا عن أن البابوية تشجعت للتعبير عن ايديولوجيتها حين قام الملك الفرنجى بوظيفة سائس الخيول البابوية بشكل رسمى ، إذ أنه قام بقيادة حصان البابا مسافة قصيرة بشكل يتوافق مع دور الامبراطور الرومانى كما حددته هبة قسطنطين ، ثم أقيم احتفال كبيرا آنذاك بكنيسة سان دونى St. Denis التى هى بمثابة الدير الملكى فى فرنسا- وهى الكنيسة التى كانت ترمز الى الارتباط بين روما وباريس بسبب تكريسها لتلميذ القديس بولس الرسول . ولم يقتصر البابا على مسح بيبن فقط بالزيت المقدس بل مسح زوجته وأطفاله أيضا كما منح الملك الفرنجى لقب حامى الرومان Patricius Romanorum (والرمان هنا تعنى الكنيسة الرومانية) . ولتحقيق هذه الوظيفة الجديدة تعهد بيبن بأن يعيد للبابوية حكم إقليم رافنا ، الذى كان قد سقط بأيدى اللمبارديين سنة ٧٥١ ، ولكن بين أقسم أن يعيده : لا إلى البيزنطيين الذين كان الأقليم تابعا لهم ، إلى وقت قريب ، وإنما إلى أوقاف القديس بطرس تمشيا مع ماجاء فى هبة قسطنطين من أن ايطاليا بأكملها منحة القديس سيلفستر وخلفائه . وفى العام التالى بر الملك الكارولنجى بوعده للبابا ، فقد غزا إيطاليا ، وانتزع رافنا من اللمبارديين ، وسلمها الى البابوية رغم احتجاجات البيزنطيين التى ضاعت هباء . وقبل رجوعه الى فرنسا سنة ٧٥٦ أودع على مقبرة القديس بطرس فى روما وثيقة عرفت باسم "هبة بيبن" تؤكد على استقلال أوقاف القديس بطرس . وهكذا كان لدى البابوية فى نهاية خمسينيات القرن الثامن سبب قوى يجعلها تعتقد أنها أحرزت زعامة أوربا الأولى ، وأن الملكية الفرنجية المتجددة الحيوية يمكن أن تكون مؤيدا يدافع عن البابوية ويفيد فى خلق نظام مسيحى عالمى .

إلا أنه أصبح واضحا ، خلال ثلاثين عاما بعد هذه الأحداث الخطيرة التى شهدها منتصف القرن الثامن ، أن أوربا الأولى كانت تتشكل بطريقة لاتتوافق مع الايديولوجية البابوية التى تعبر عنها هبة قسطنطين ، فلم تكن زعامة أوربا الغربية بأيدى أساقفة روما ، وإنما كانت بيد شارلمان ابن بيبن (٧٦٨-٨١٤) ، ووجد البابا نفسه فى تراجع مستمر ليصبح فى المحل الثانى بعد الملك الكارولنجى . كما أن شارلمان لم يحافظ بشكل حقيقى على هبة قسطنطين ، فقد التزم بهبة أبيه فى البداية ، ولكنه فى سبعينيات القرن الثامن دمر المملكة اللمباردية واتخذ نفسه لقب ملك اللمبارديين ، وهكذا عارض شارلمان ، بما ادعاه من حقوق فى شمال ايطاليا ،

كلا من هبة قسطنطين وهبة بيبن ، وعلاوة على ذلك اتخذ البابا سبيل الحذر حين وجد شارلمان يأخذ مايعنيه تتويجه على يد البابوية مأخذ الجد . فقد كان علماء بلاط شارلمان يسمونه الملك داوود الذى كان النموذج الأصيل للملك المقدس وكان واضحا أن أيديولوجية الملكية الثيوقراطية قد برزت فى المملكة الكارولنجية لنفس الغرض الذى تطورت من أجله فى بيزنطة، وقد اخطأت البابوية فى القرن الثامن فى حساباتها حيث أنها لم تفهم أن الكنيسة الفرنجية التى تم إصلاح احوالها ، لم تكن لتخضع للبابوية رغم اعترافها الرسمى بالولاء لروما. فضلا عن أن الأساقفة ومقدمى الأديرة ربطوا انفسهم بالتحالف الوطيد مع الحاكم الكارولنجى الذى كان بإمكانه ان يقدم لهم مناصب هامة فى حكومته وفى البلاط ، أو يظلهم بالحماية والأمان على الأقل . وإذا كان الملك الفرنجى ، آنذاك ، يشغل منصبا مقدسا ، وإذا كان ملكا وقسيسا Rex et Sacerdos . فقد كان لرجال الكنيسة الفرنجية عذرهم فى الارتباط بالملكية ، لقد افترضت البابوية أن وجود كنيسة فرنجية مستنيرة ناجحة يعنى أن تولى هذه الكنيسة وجهها شطر روما ، وكان هذا خطأ قاتلا .

وأخطأ البابا حساباته أيضا من حيث عدم سماحه ببروز شخصية قوية فى الأسرة الكارولنجية ، فلم يظهر فى العصور الوسطى الباكرة شخص أكثر تأثيرا من شارل العظيم ، فقد كان محاربا عظيما أنفق سنوات حكمه فى محاوله مد مملكته فى جميع الاتجاهات ، وضم شمال غرب المانيا إلى المملكة الفرنجية ، كما ذبح فى غزواته الآلاف من السكسون الوثنيين دون تردد . إذ كان من طبيعة الملكية الجرمانية ، أن تكون مقدرة الملك كمحارب عظيم محل إعجاب السادة الشديد وولائهم ، مهما كانت مزاياه الأخرى التى تدعو الى الاعجاب . فلم يكن أولئك السادة يحترمون أية صفات عدا الكفاءة فى ميدان المعركة ، بيد أن شارلمان كان بالفعل يتمتع بميزات أخرى عدا الكفاءة فى ميدان المعركة ، ضمنت له ولاء اقدر رجال الكنيسة ، واخلاصهم ، فضلا عن خدماتهم ، لافى ممتلكاته الشاسعة فحسب ، بل أيضا فى انجلترا وشمال ايطاليا . وشارلمان ككل ، على حد وصف كاتب سيرته وسكرتيره رجل الكنيسة اينهارد Eindard ، يبدو شخصية مؤثرة للغاية ، وإذا كان اينهارد يحبس نفسه من حين لآخر فى اطار كتاب سويتونيوس Suetonius "قصة حياة القياصرة الاثنى عشر" أثناء وصفه لسيده وبطله ، فمن الممكن تبرير ذلك من ناحية بعينها . ذلك أن شارلمان يستحق أن يحتل مكانه بعد أعظم الأباطرة الرومان مباشرة ، وعلى الرغم من كونه نصف متعلم - إذ لم يكن يقرأ اللاتينية جيدا ولم يكن يستطيع رسم اسمه الا بصعوبة - فقد كان يتمتع بذكاء حاد استخدمه فى حل جميع المشاكل التى واجهت حكمه ، كان محارب عصره العظيم ؛ إلا أنه فى

الوقت نفسه تكفل باستمرار أعمال بونيفاس لتطوير وتحسين نظام الكنيسة ، وتطوير التعليم فى المدارس الديرية داخل مملكته ، وقد جند أشهر عالم فى عصره ، وهو الانجليزى الكوين Al-cuin ؛ لكى يطور ويرقى المدارس الديرية الفرنجية ، كما أحاط نفسه فى البلاد برجال الكنيسة المتعلمين المتحمسين سائلا إياهم النصيحة ومتبعا لها . وبين الآونة والأخرى كان الرئيس الجرمانى البدائى يخترق هذه الواجهة الحضارية (مظهرا الوجه الآخر لشارلمان) . فقد كان لشارلمان عدد كبير من الأبناء غير الشرعيين ، وكان يسىء معاملة بناته بالإضافة الى أنه خطط لتقسيم مملكته بين من يخلفه من أبنائه كما لو كانت قطعة من ضيعة إقطاعية ومثلما كان يفعل أقل الميروفنجيين نضجا . بيد أن هناك قدرا كافيا من أعمال شارلمان يتسم بالذكاء والمثالية التى استخدمت فى الحكم لتكون علامة التحول الشامل الذى طرأ على الملكية الجرمانية ، فقد كان أول ملك جرمانى منذ ثيودوريك ملك القوط الشرقيين يتجه بوعى وباستمرار نحو الاصلاح الاجتماعى . وإذ أدرك رجال الكنيسة المعاصرون هذا ، رفعوه الى مرتبة بطل المسيحية اللاتينية ، واحتفظوا للبابا بمكانة محترمة ولكنها أدنى من مرتبة شارلمان. كما أن شارلمان لم يزعم مثل الامبراطور البيزنطى انه الممثل الأول لله على الأرض ، ولم يشرع فى المسائل المذهبية ؛ وإن تمتع ببصيرة نافذة ووعى بقدره ، الأمر الذى وافق هوى رجال الكنيسة العاملين فى بلاطه تماما ، فجعلوا منه زعيما للمجتمع الأوربى .

ولم يتبق للبابوية فى ترسانتها الروحية سوى سلاح وحيد كانت تستطيع بمقتضاه تأكيد سلطتها على الملك الكارولنجى ، فإن الامبراطور ، وفقا لما تقوله هبة قسطنطين ، تنازل عن لقبه الامبراطورى ثم تلقاه ثانيه من سيلفستر ، وتستمر المناقشة البابوية فى القول بأنه منذ ذلك الوقت فصاعدا صار اللقب الامبراطورى من حق البابا الذى يمنحه أو يمنعه . وبدأ الأمر منذ ثمانينيات القرن الثامن حيث يوجد دليل على أن البابوية كانت تعد العدة لكى "تترجم" (تنقل) اللقب الامبراطورى من القسطنطينية الى المملكة الكارولنجية ، وأوقف البابا تأريخ الوثائق البابوية بسنة تولى الامبراطور الرومانى العرش واستبدلها بسنة تولى شارلمان . وفى تسعينيات القرن الثامن أرسل البابا الاعلان الرسمى باختيار الملك الفرنجى عوضا عن الحاكم البيزنطى كما كانت العادة . وكان منح اللقب الامبراطورى لشارلمان ، كوسيلة لاعادة تأكيد السلطة البابوية فى غرب أوربا ، اجراء يائسا ولكنه كان المخرج الوحيد المتاح امام البابوية ، وأضفى التتويج الإمبراطورى لشارلمان فعالية جديدة على هبة قسطنطين ، ولما كان للبابا الحق فى أن ينزع اللقب الامبراطورى ؛ فقد كان معنى ذلك أن تتمتع البابوية بصلاحيات قوية فى مواجهة الملك الكارولنجى . وفهم شارلمان بطبيعة الحال ، مغزى التتويج الامبراطورى على يد

البابا ، مما وضع عقبة فى سبيل تحقيق خطط البابا . وعند نهاية القرن الثامن بالضبط وجدت البابوية نفسها مجبرة على الاسراع فى تنفيذ برنامجها الخاص بنقل اللقب الامبراطورى الى الغرب .

فقد تجدد تهديد أمن وسلامة أسقف روما ، من جانب طبقة النبلاء الرومان ، الذين ناضلوا لانتخاب واحد منهم لولاية عرش التديس بطرس . ونتيجة لهذا النزاع الداخلى تعرض ليو للضرب من قبل عامة الرومان ، كما اتهمه اعداؤه من النبلاء الرومان بالخسة الأخلاقية ، ففر صوب الشمال طلبا لمساعدة "حامى الرمان" الرسمى الذى كان مشغولا فى ذلك الوقت بحربه الطويلة ضد السكسون . وعملا بنصيحة ألكوين ، تصرف شارلمان فى روية وبطء شديدين فى استجابته لتوسلات البابا ، وأعيد البابا إلى روما تحت الحراسة وبقى تحت الحراسة لحمايته حتى تمكن شارلمان من عبور جبال الألب قرب نهاية ٨٠٠ ، وفى الثالث والعشرين من ديسمبر بدأ ليو نفسه يواجه التهم الموجهة ضده فى محاكمة على الطريقة الجرمانية رأسها شارلمان ، وكان لمجرى الحوادث على هذا النحو مغزاه فقد حطت من قدر البابا بشكل مريع ، كما تضاءلت شخصيته أمام الحاكم الكارولنجى ، فصمم على استعادة هيبة منصبه وسلطته من خلال التتويج الامبراطورى لشارلمان . وفى يوم عيد الميلاد ، وبينما كان شارلمان ينهض من الصلاة أمام مقبرة القديس بطرس ، وضع البابا ليو التاج فجأة على رأس الملك ، وصاح رجال الكنيسة أفراد الشعب الرومانى – الذين كانوا قد تدربوا على هذه الصيحة جيدا – قائلين : "شارل اغسطس امبراطور الرومان العظيم مانح السلام ، له الحياة والنصر" وكان شارلمان حانقا ومتكدرا للغاية فى هذا اليوم حتى انه قال ، وفقا لرواية اينهارد ، "انه لم يكن ليدخل الكنيسة إطلاقاً فى ذلك اليوم ، رغم انه كان يوم عيد هام جدا ، لو كان يعلم بنية البابا". وبذل شارلمان مافى وسعه ليهدىء من ثائرة البيزنطيين الغاضبين ، الذين زعموا أن لقبهم الامبراطورى سرق منهم ، ولم يستخدم شارلمان أبدا لقب امبراطور الرومان الذى منحه البابا اياه ، وكان راضيا بلقب "امبراطور وملك الفرنجة واللمبارديين" الذى يوضح الأسس الحقيقية الفعالة التى قامت عليها سلطته .

وأثار التتويج الامبراطورى لشارلمان نزاعا شديدا بين المؤرخين ، فاستبعد كثيرون منهم عبارة اينهارد على انها تواضع زائد من جانب شارلمان ، والحقيقة ان شارلمان لم يكن يريد أن يتوج إمبراطوراً على الرومان لأن كلمة "رومان" كانت تعنى عنده "بيزنطيون" فى المحل الأول ، كما لم تكن لديه أية رغبة فى إثارة غضب حاكم القسطنطينية ، وثانيا لأنه فهم المغزى

الدستورى للتتويج البابوى . ولم يكن عنده أدنى نية لوضع نفسه فى موضع المدين أو موضع الضعف بالنسبة لأسقف روما . وعلى أية حال ، فإنه مما زاد فى تعقيد الموقف ، وتسبب فى حيرة كثير من المؤرخين أنه كان ثمة مثال امبراطورى يحتل مكان الصدارة بين "المثل" المنتشرة بين رجال الكنيسة فى المملكة الكارولنجية ، الا أن هذا المثال لم يكن نفس مفهوم مثال الامبراطورية السائد فى روما أو القسطنطينية ، إذ تحفل خطابات ألكوين ، على نحو خاص ، بالاشارات الى "الامبراطورية المسيحية" وإلى "اوربا" ؛ أى المنطقة المرتبطة بالمسيحية اللاتينية والتى كان شارلمان زعيمها . وبالنظر الى مابذله شارلمان لصالح أوربا ، ووضعه كأعظم ملك فى أوربا ، كان ألكوين وغيره من الكنسيين فى البلاد قد بدأوا يفكرون فى انه يجب أن يأخذ شارلمان لقب الامبراطور . وعلى أية حال ؛ فقد كان لهذا اثره الضئيل من حيث إثارة غضب الامبراطور الرومانى القديم أو حاكم القسطنطينية ، وكان المقصود بهذا أن يكون مركز شارلمان، كزعيم العالم المسيحى ، مقدسا وربما كان التتويج الامبراطورى لشارلمان سيحدث لو لم يسبق البابا الملك الفرنجى ومستشاريه فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ . ومن المؤكد ان شارلمان لم يكن ليسمح للبابا أن يقوم بتتويجه ، بل كان احتفال التتويج الذى يفضله هو ذلك الذى تم سنة ٨١٣ حين قام هو بنفسه بتتويج ابنه ووريثه - لويس - امبراطورا ، وبما انه قد توج على يد البابا ، فقد اختار شارلمان ان يفسر لقبه الامبراطورى بالطريقة التى حددها ألكوين . فقد رفض اعتبار نفسه امبراطور الرومان وتجاهل الحقوق التى يضمنها تتويجه بواسطة البابا ، واستمر يسمى نفسه ملك الفرنجة واللمبارديين : واعتبر اللقب بمثابة تعبير عن مكانته كبطل مسيحى عسكرى وملك ثيوقراطى ، وزعيم للكنيسة الفرنجية .

ولعبت الفكرة الامبراطورية دورا أكثر أهمية فى سياسة ابن شارلمان وحفيده ، لويس التقى، وشارل الأصلع ، كما اصبحت مفهوما تأثرت صياغته كثيرا بالايديولوجية الأصلية وابتعد رجال الكنيسة الكارولنجية فى القرن التاسع عن امبراطورية شارلمان المسيحية واتجهوا نحو السلفية السياسية Political antiquarianism الهادفة الى الاحياء الكامل للأفكار الرومانية الامبراطورية عن طريق تقليد احتفالات البلاط المزخرفة المزينة التى يستخدمها الأباطرة البيزنطيون ، واستخدام اللقب الكامل : امبراطور الرومان . وفى سنة ٨١٦ حدث بالفعل أن سمح لويس التقى للبابا أن يتوجه بهذا اللقب . وحتى القرن التاسع كان تأكيد الحكام الكارولنجيين ومؤيديهم من رجال الكنيسة على اللقب الامبراطورى وربط الحاكم

الكارولنجى بالأباطرة الرومان هو الدعامة التى يستندون اليها فى مواجهة تدهور السلطة الملكية المطرد بعد موت شارلمان ، ذلك أن الأيديولوجية صارت بديلا عن شهرته كقائد عسكرى جرمانى ، ولكن الايديولوجية لم تستطع أن تفعل شيئا حيال مد المحلية المرتفع ، ونمو السيادة الاقطاعية . لقد دبج أساقفة القرن التاسع الرسائل حول أبحاث الامبراطورية والملكية كما زخرف الأباطرة الكارولنجيون احتفالات بلاطهم ؛ ولكنهم لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بزعامة حقيقية فعالة فى مملكتهم .

وعلى المدى الطويل ، لم تربح البابوية أكثر مما ربحه الكارولنجيون من إحياء اللقب الامبراطورى فى الغرب وتقبل الكارولنجين للايديولوجية الرومانية . وفى منتصف القرن التاسع اكد البابا نيوكولاس الأول Nicholas I المذهب الراديكالى لهبة قسطنطين بشكل عدوانى ، وبرع البابوات فى استخدام سيطرتهم على اللقب الامبراطورى لمضايقة الكارولنجيين المتأخرين ، ولكن ذلك لم ينقذ البابوية من الكارثة التى ألمت بها فى نهاية القرن التاسع ، ذلك ان البابوات كانوا فى حاجة لحاكم كارولنجى يحميهم من لصوصية طبقة النبلاء الرومان . ومع ذبول القوة الكارولنجية دخلت البابوية واحدة من أظلم فتراتها فى أواخر القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر ؛ حين صارت دمية فى أيدى النبلاء الحاكمين ، وفقدت مكانتها كزعيمة للعالم الأوربى تماما .

وإذا كان تاريخ امبراطورية القرن التاسع هو تاريخ الفشل فى كل الاتجاهات فلا يجب أن نعمى أبصارنا عن حقيقة أن عنصرا جديدا ظهر فى الحياة السياسية فى أوربا الغربية . وفى الشطر الأخير من القرن العاشر اخذت الملكية الألمانية التى قامت على انقاض المملكة الكارولنجية الشرقية ، اللقب الامبراطورى لنفسها ، وكان على الملوك الألمان حتى منتصف القرن الثالث عشر أن يجعلوا اللقب الامبراطورى جزءا هاما للغاية من سياستهم ، وكان على خلفائهم أن يحتفظوا باللقب حتى سنة ١٨٠٦ .

# الفصل الثامن

# الثقافة والمجتمع فى أوربا الأولى

## ١- العالم الكارولنجى

تتميز المصادر الأدبية والأدلة الوثائقية التى خلفتها لنا الفترة الكارولنجية بأنها أكثر بكثير منها فى أية فترة زمنية أخرى بعد القرن الرابع الميلادى . فبينما تعتمد معلوماتنا عن فرنسا القرن السادس ، بشكل أساسى ، على ما أمدنا به جريجورى التورى ، وبينما تتسم مصادر تاريخ الملكية الفرنجية الميروفنجية فى القرن السابع بكونها مجرد شذارت متناثرة إلى حد بعيد ؛ حفظت لنا الأيام مئات الصفحات من المدونات التاريخية ، والخطابات ، والوثائق الحكومية ، والمعاهدات التى تغطى الفترة فيما بين سنة ٧٥٠ وسنة ٩٠٠ بعد الميلاد . ويعتبر ارتقاء مستوى التعليم فى ظل الدولة الكارولنجية ، مؤشرا على تقدم الحضارة وآية على تخطى آثار الغزوات الجرمانية ، وحركة الفتوح الاسلامية ، كما يعتبر دليلا على ظهور ثقافة متمايزة ومجتمع متمايز فى غرب أوربا . ففى سنة ٤٠٠ بعد ميلاد المسيح لم تكن أوربا تعنى ماهو أكثر من تعبير جغرافى ، فقد كانت الحضارة الرومانية ترتكز على البحر المتوسط ، كما كانت فرنسا وانجلترا ، ووادى نهر الراين مجرد مناطق متاخمة للعالم الرومانى . أما فى سنة ٨٠٠ ، فكانت أوربا تعنى حضارة جديدة آخذة فى التواجد فى المنطقة المسيحية اللاتينية خلقها التفاعل بين التراث الجرمانى والثقافة المسيحية - اللاتينية ، وإذا ماقورنت أوربا ، آنذاك ببيزنطة أو بالعالم الاسلامى لبدت فقيرة ومتخلفة ؛ ولكنها كانت مع ذلك قد طورت أفكارا ونظما خاصة بها ، كما وجدت لنفسها قياداتها من بين صفوف أبنائها ، فضلا عن أنها باتت واعية ومدركة لوجودها ومصيرها فى المستقبل .

كانت أوربا الأولى تضم فرنسا وانجلترا وألمانيا الغربية وايرلندا ووسط وشمال إيطاليا إلى جانب الأقاليم الجبلية فى شمال أسبانيا ، ولم تكن المراكز الحيوية للحضارة واقعة على البحر المتوسط وإنما فى وديان الأنهار فى شمال فرنسا وأراضى الراين . أما ثقافة أوربا الأولى فقد توحدت تحت راية اللغة اللاتينية التى كان رجال الكنيسة ، والملوك وأبناء الطبقة الارستقراطية يستخدمونها جميعا . فقد كانت هى اللغة التى تستخدمها الحكومة الكنسية والحكومة العلمانية على حد سواء كما كانت هى اللسان الذى تتم به مناقشة جميع الأمور الثقافية والعقلية، وبها كان يتم تدوين مثل هذه الأمور . وفى جميع الأحوال كان الدراسون الكنسيون-

الذين كانوا كلهم تقريبا من نتاج المدارس الديرية المزدهرة فى شتى أنحاء العالم الكارولنجى . هم الذين يتولون القيام بالكتابة باللغة اللاتينية ؛ سواء كان ذلك لصالح الملكية أو لصالح الكنيسة أو لصالح الدوق (الحاكم المحلى). أما لغة الحياة اليومية التى كان عامة الناس ، بما فى ذلك غالبية النبلاء يستخدمونها ، فقد اختلفت من اقليم لاقليم . ففى انجلترا كانوا يتحدثون اللغة الأنجلو - سكسونية ، وقد صارت هذه اللغة لغة قومية فى القرنين الثامن والتاسع . وفى أيرلندا صار اللسان الكلتى هو لغة الناس ، على حين كانت المناطق الشمالية فى القارة تتكلم اللغة الالمانية ، أما الجنوب والغرب فقد انتشر فى ربوعهما خليط من اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة ، وهى اللغة التى كانت عامة الناس يتحدثون بها فعلا فى رحاب الامبراطورية الرومانية من قبل . هذه اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة كانت بمثابة البشائر التى خرجت منها اللغات الرومانسية ، وبحلول منتصف القرن التاسع كانت كل من اللغة الألمانية واللغة الفرنسية قد برزت كلغة قائمة بذاتها ، ففى عهد ستراسبورج Oath of Stasbourg سنة ٨٤٢ جاءت توقيعات ملوك الأجزاء الشرقية والغربية من الامبراطورية الكارولنجية باللهجات الفرنسية الألمانية المتعارف عليها آنذاك . وهكذا ، فإنه بحلول منتصف القرن التاسع كان هناك إنفصال بين اللغات الشعبية أو المحلية فى كل من الاجزاء الشرقية والأجزاء الغربية من الامبراطورية الكارولنجية ، وقد ساهم ظهور اللغة الفرنسية واللغة الألمانية فى تفكك وانحلال الامبراطورية الكارولنجية . بقدر ما كانت اللغة اللاتينية ، من ناحية أخرى ، عاملا فى توحيد مختلف أقاليم أوربا الأولى تحت راية ثقافة عليا مشتركة.

كانت الكنيسة فى سنة ٤٠٠ ميلادية تحت سيادة الامبراطورية الرومانى ، وما أن جاءت سنة ٨٠٠ حتى كانت الكنيسة قد تحررت من آخر قيود السيطرة البيزنطية ، بيد أن رجال الكنيسة كانوا خاضعين لنفوذ الحكام الكارولنجيين ، كما كانوا يضعون مصالحهم ومصالح الملكية الفرنجية فى سلة واحدة . ولم يكن الحكام الكارولنجيين يتدخلون فى شئون العقيدة ، ولكنهم اهتموا بتحسين نظام الكنيسة ، كما كانوا يهدفون إلى تسخير موارد الكنيسة العقلية، بل وحتى مواردها المالية ، فى خدمة الملكية . وقد اعترف الكارولنجيون بالنظرية البطرسية ، وبأكثر جوانب المذهب الجيلاسى محافظة ، كما انهم سلموا بأن الكنيسة ملك للأساقفة ، غير أنهم كانوا يعتقدون بأن الأساقفة ملك الكارولنجيين . وقد تعين على رجال الكنيسة فى للملكة الفرنجية أن يوافقوا على هذا الموقف من منظور يرى الحاكم الكارولنجى فى مكانة ملك باركته الكنيسة ، وامبراطور مسيحى ، فضلا عن كونه حاميا للكنيسة .

ويعتبر كبير الأساقفة هنكمار الريمسى Hincmar of Rheims (ت ٨٧٦) نموذجا نمطيا لكبار رجال الإكليروس فى القرن التاسع ، فقد كان صديقا ومستشارا وداعية لشارل الأصلع ، كما كان خبيرا فى الاحتفالات الحكومية واحتفالات البلاط ، وفى الوقت نفسه كان داعية ونصيرا نشطا لامتيازات أسقفيته ولامتيازات الوظيفة الأسقفية بصفة عامة ، وكانت التزامات رجال الاكليروس الكارولنجى ومصالحهم الدنيوية من ناحية ، ودعاوى ملوك القرنين الثامن والتاسع الروحية من ناحية أخرى ، هى العلامة الدالة على مدى تداخل كل من الكنيسة والعالم فى الآخر . وهو الأمر الذى قدر له أن يكون السمة المميزة لحضارة العصور الوسطى على مدى القرون الثلاثة التالية ، ففى أوربا الأولى كان قد بات واضحا بالفعل ذلك التوتر بين السلطة والروح ، وبين المثال والمادة ، وهو التوتر الذى صار أكبر قوة من قوى التغيير فى التاريخ الأوربى .

وفى سنة ٦٠٠ كانت الحياة الحضرية ماتزال على قدر من الأهمية ، ولكنها لم تكن ذات أهمية تذكر فى أوربا الأولى ، كانت المواصلات والاتصالات سيئة بدرجة يصعب تصديقها ؛ إذ باتت أسوأ بكثير مما كانت عليه زمن الامبراطورية الرومانية . فثمانون بالمائة ، على الأقل، من جمهرة السكان لم يكونوا يتحركون أبدا مسافة تزيد عن عشرة أميال من مواطنهم الأصلية، كما كان خطر المجاعة شبحا يتهدد الناس بشكل دائم ، والعنف هو الحقيقة التى تفرض نفسها على الحياة اليومية ، ولم يكن متوسط عمر الفرد ليزيد عن ثلاثين سنة . أما فى مجال العلوم فكانت معلومات الناس فى الأراضى الكارولنجية ضئيلة للغاية ، على حين كانت معلوماتهم شبه منعدمة فى مجال الطب . وفى ظل هذه الظروف لم يكن من المثير للدهشة أن تتفشى الخرافة بين الناس ، وأن تكون القوى الاعجازية المنسوبة إلى القديسين المحليين هى الملاذ الوحيد أمام بلايا الطبيعة والأمراض . وكان رجال الدين المتعلمون يناضلون ضد الخرافة، كما كانوا يحاولون الحد من الظهور المتوالى والمستمر للقديسين المحليين ، وذلك بطلب وضع القوانين المنظمة للكنيسة ؛ بيد أن ذلك لم يأت سوى بنتائج محدودة .

كانت مراكز الحياة الكارولنجية هى القلعة ، والدير ، والكاتدرائية ، بل إن ما كان يسمى بالمدن فى المملكة الفرنجية مثل آخن Aachen عاصمة شارلمان ، أو مدينة ريمس Rheims الكاتدرائية ، كانت لا تتألف سوى من مبنى الحكومة تحيط به عدة منازل يضمها جميعا سور. وكانت ماتزال توجد بقية من المدن الرومانية الكبرى فى شمال إيطاليا ، مثل المدينة الخالدة (روما) نفسها ، غير أن كثيرا من الشوارع فى المدن الايطالية كانت مهجورة ولم يبق من

المنازل غير أطلالها . كذلك توقف نظام المياه ونظام الصرف الصحى الجيد الذى كان الرومان قد شادوه فى هذه المدن عن العمل ، بل إن المبانى الحكومية والعسكرية والكنسية فى العالم الكارولنجى كانت متواضعة للغاية ؛ فعادة ما كانت القلعة الكارولنجية عبارة عن مبنى خشبى، أما الكنائس وغيرها من المبانى المشيدة بالأحجار فكانت منخفضة واطئة ومبنية على غرار الحمامات الرومانية .

وفى سنة ٨٠٠ كانت الغابات الكثيفة أو الأراضى التى تملؤها المستنقعات والتى لاتصلح للزراعة تغطى نصف مساحة أوربا تقريبا ، وكانت طبوغرافية المناطق الزراعية وكذلك شكل الاقتصاد الريفى قد تحدد بتأثير المحراث الثقيل ذى العجلات والذى تجره الثيران ، وهو المحراث الذى كان مستخدما فى العالم الرومانى . وكان نتاج عمل يوم كامل للفلاح عبارة عن شريط طويل ضيق يشقه المحراث ، ومن ثم حدث أن غلبت على المناطق الريفية الحقول الكبيرة المفتوحة التى كانت تقسمها تلك الشرائط التى شقها المحراث الثقيل ، ولأن المخصبات والأسمدة لم تكن موجودة كان لابد أن يترك كل حقل دون زراعة كل سنتين أو كل ثلاث سنوات لراحته . ولم يكن جميع الفلاحين فى أوربا ؛ بل ولا حتى الغالبية الكبرى منهم ، أقنانا مربوطين بالأرض يخضعون لسيد الضيعة . وفى ألمانيا وشرق انجلترا على وجه الخصوص كانت قرى الفلاحين الأحرار الذين يشتركون فى ملكية الحقول المفتوحة ، ويتقاسمون الشرائط الحقلية تمثل القاعدة فى الحياة الريفية . ففى هذه الأماكن ظل البناء الاجتماعى الجرمانى يتسم بوجود أعداد ضخمة من الفلاحين الأحرار فى ثناياه . وفى المملكة الفرنجية غرب الراين ، وكذلك فى الأراضى الزراعية الغنية فى وسط انجلترا ، كانت ضيعة العصور الوسطى manor هى بالفعل الوحدة الأساسية فى النظام الاقتصادى ، فقد كان السيد lord يحتفظ بجزء من الأرض الصالحة للزراعة فى القرية تحت تصرفه الخاص ، وكان تقسيم هذه الأراضى أيضا يأخذ شكل الشرائط الحقلية . أما الفلاحون - الأقنان فكانوا يحصلون على شرائط فى الحقول المفتوحة لقاء قيامهم بالعمل فى أرض السيد وكان أولئك الأقنان مربوطين بالأرض كما كانوا خاضعين لسلطة السيد وسلطانه القضائى ، فضلا عن التزامهم بأداء بعض الالتزامات تجاهه ، مثل ضريبة الوراثة التى كانت تعرف باسم heriot، وقدر للحقول المفتوحة المقسمة إلى شرائط أن تظل أساس النظام الاقتصادى فى شطر كبير من ريف أوربا حتى القرن الرابع عشر ، وكان هذا نظاما زراعيا عقيما لايساعد على التقدم كما كانت انتاجيته ضئيلة ، بيد أنه كان النظم الوحيد المتاح فى ظل ظروف التكنولوجيا المتيسرة آنذاك .

كانت الضيعة وحدة اقتصادية مكتفية ذاتيا ، وكان هذا ضروريا بالنظر إلى صعوبات النقل فى تلك الفترة ، ولم تكن التجارة العالمية تخدم غير مطالب الأثرياء ، وغالبا ما كانت هذه التجارة بأيدى التجار الأجانب من البيزنطيين واليهود والمسلمين . ولم تكن المجتمعات المحلية تحتاج إلى استخدام النقود تقريبا ، أما التبادل التجارى المحلى ، فكان يتم عن طريق المقايضة. فقد اقتربت أوربا الأولى جدا مما أطلق عليه كتاب القرن التاسع عشر مصطلح "الاقتصاد الطبيعى" إذ أن حجم التجارة العالمية البالغ الضآلة قد حال دون وجود الحاجة إلى سك العملات الذهبية ، واكتفى الكارولنجيون بسك العملات الفضية فقط ، وعادة لم تكن تبرز الحاجة إلى غير هذه العملات لأن الظروف كانت تتيح شراء بقرة بأصغر قطعة فضية ، وحين كانت تظهر الحاجة إلى استخدام العملات الذهبية كان الناس يستخدمون العملات البيزنطية والعملات الإسلامية .

كان الفقر والسمة المحلية التى غلبت على أوربا الأولى يجعلانها تبدو منطقة غير هامة إذا ماقيست بالامبراطورية الرومانية التى وجدت من قبل ، أو بحضارة كل من بيزنطة والاسلام المعاصرتين ، ولكن العالم الكارولنجى كان يتميز بأنه كان قد بدأ فى استخدام ملكة الفهم والاستنتاج فى حل مشكلات المجتمع . وبينما قد لاتبدو الانجازات فى هذا المجال كبيرة نسبيا ؛ فإن هذا التطور على قدر كبير من الأهمية فى حضارة العصور الوسطى . ذلك أنه يعتبر علامة على نقطة البداية والانطلاق صوب النمو السياسى والثقافى الذى شهدته القرون التالية . وفى المحل الأول ، كانت أعمال الكارولنجين قد حققت وجود طبقة متعلمة فى المجتمع الجرمانى كان عليها النهوض بأعباء العمل فى خدمة الكنيسة الملكية ، وكان قائد هذه الحركة التعليمية الكبرى هو ألكوين Alcuin الانجليزى (٨٠٤م) الذى كان شارلمان قد استقدمه من انجلترا لكى يطور المدارس الديرية ويحسنها فى رحاب مملكته ، ولكى يواصل العمل الذى كان بونيفاس Boniface قد بدأه . وقد أحرز ألكوين نجاحا رائعا فى إنجاز المهام التى عهد بها شارلمان إليه ، إذ أنه قام بتأسيس وتوسيع المدارس والمكتبات وحجرات النسخ Scriptoria فى الأديرة المنتشرة فى شتى أنحاء فرنسا ، كما أنه ألف الكتب المدرسية، وأعد قوائم الكلمات وجعل المجموعة الثلاثية trivium والمجموعة الرباعية quadrivium جزءا ثانيا من المنهج التعليمى فى المدارس الكارولنجية . ويمكن رصد أثر هذا العمل من خلال الزيادة الكبيرة فى المواد الأدبية والوثائقية التى خلفها لنا العصر الكارولنجى ، كما يمكن رصده من خلال النصوص الكلاسيكية التى كتبت مخطوطاتها بأيد كارولنجية . فضلا عن أنه يمكن رصد هذا الأثر من خلال انتشار طقوس الخدمة الكنسية الرومانية فى الكنائس الفرنسية،

وفى بعض الإسهامات الأصلية التى قدمها رجال الكنيسة أنفسهم فى هذا المجال . ويمكن رصد أثر هذا العمل أيضا من خلال حقيقة أن أول مجموعات القوانين الكنسية الكبرى يرجع تاريخها الى منتصف القرن التاسع ؛ وذلك على الرغم من عدم منهجيتها وتضمنها للكثير من المراسيم المزورة .

كان العمل الذى قام به ألكوين فى مجال التعليم حاسما للقرنين التاسع والعاشر ، فلم تعد هناك على الاطلاق إمكانية لأن تواجه أوربا مخاطر البربرية والأمية ، أو احتمال اندثار الثقافة اللاتينية ، وهى المخاطر التى كانت قائمة فى القرن السابع . لقد أتم الكوين العمل الذى كان بونيفاس قد بدأه : وباتت المسيحية اللاتينية ترتبط بأوربا الغربية ليس على المستوى النظرى فحسب ؛ وإنما على مستوى الواقع أيضا . وثمة اختبار هام لمدى تغلغل المسيحية اللاتينية فى حياة العالم الكارولنجى يتمثل فى التأثير الذى أحدثه تحلل الامبراطورية وغزوات الفيكنج على التعليم . لقد كانت هناك بعض التأثيرات - مثل ذبول واضمحلال بعض المدارس الديرية نتيجة للأحوال المحلية المضطربة أو من جراء الهجمات الى قام بها المغيرون الفيكنج - ولكن المدارس الديرية استمرت فى أداء عملها بنجاح خلال الفترة الصعبة بشكل عام . وفى البقاع التى لم يتوغل فيها الفيكنج ، أى فى الجزء الشرقى من المملكة الألمانية ، ازدهرت المدارس بشكل مطرد وأخذت زمام القيادة من أديرة الأقاليم الغربية .

وفى إبان القرن التاسع ، وعلى حين يتوالى جيل بعد آخر من المدارس الديرية ، يمكننا أن نلاحظ أن ثمة تقدم ونمو ثابت فى مدى وعمق العملية التعليمية التى كانت تقوم بها هذه المدارس . لقد كان الكوين يناضل فى سبيل فرض نمط من التعليم الأساسى على الكنيسة الكارولنجية ، وما أن حل منتصف القرن التاسع حتى كانت هذه المشكلة قد تلاشت ، ومع وجود الخط الأول الذى كان قد تم تحقيقه فى الميدان الثقافى ، باتت المدارس الديرية قادرة على أن تمضى قدما صوب دراسات أكثر عمقا وشمولا . وكان الهدف الذى تسعى إليه هذه المدارس سعيا واعيا هو استعاده تراث أدب الآباء فى القرن الرابع ، والواضح أنه بمغيب شمس القرن التاسع كان هذا الهدف قد تحقق ، وقد وجدت مكاتب نسخ نشيطة وكبيرة فى اثنتى عشرة مدرسة ديرية أو أكثر ؛ فضلا عن تلك المكاتب التى وجدت فى الأديرة التى أسسها (أو على الأقل بثوا فى أوصالها النشاط من جديد) الرهبان الأنجلو سكسون أو الأيرلنديون فى القرن السابع والثامن . وهذه المكاتب حفظت نصوص الكتاب المقدس وجميع كتابات الآباء ونشرتها ، وقد تمت دراسة أوغسطين بصفة خاصة فى عناية . ويمكن الوقوف على مدى الجهد الثقافى

الذى كرسه علماء القرن التاسع لدراسة الكتاب المقدس من خلال المخطوطات المصورة الرائعة التى أنتجوها . ويبدو تأثير فن تزيين الأيقونات Iconography البيزنطى واضحا فى الرسوم التوضيحية الكارولنجية التى ألحقت بهذه المخطوطات ، بيد أن غطها الفنى يتميز بقدر أكبر من النزعة الطبيعية الكلاسيكية ، وقدر أقل من النزعة الرمزية غير التجسيدية التى تتميز بها النماذج البيزنطية .

وقد اتصلت التيارات الثقافية الصغيرة ، ذات الاتجاه الانسانى ، والتى كانت تطفو على سطح النشاط الثقافى فى المدارس الديرية ، بما كان فى البداية يعتبر مجرى مختلفا تماما من مجريات الثقافة فى العصر الكارولنجى . إذ أن شارلمان جمع حوله فى "مدرسة القصر"(١) مجموعة من العلماء المرموقين بينهم عدد من الايطاليين ، وكان ألكوين ينضم الى هذه المجموعة أحيانا . وقد كرس هؤلاء أنفسهم لتنظيم وترتيب كراسات من الشعر اللاتينى فضلا عن قيامهم ببعض ألعاب البلاط بالمشاركة مع الامبراطور . وفى عهدى لويس التقى وشارل الأصلع كانت هناك مجموعات بلاط مشابهة . وثمة ملاحظة تدل على النزعة السلفية الواعية والتقليدية التى تسرى فى أعمال هذه المجموعات ، وأطلق على هذه الحركة اسم حركة الإحياء الكارولنجى Carolingian Renaissance كما بولغ فى أهميتها كثيرا . فقد كان علماء البلاط عبارة عن مجموعة صغيرة من الرجال المتعلمين (على الرغم من اقتباسهم للنصوص الكلاسيكية، كان بهم هوى إلى الاعتماد على المجموعات والمختارات الأدبية Anthologies) الذين أضفوا مسحة ثقافية رومانية على البلاط الكارولنجى ، وفى المقابل نالوا مكافآت سخية . ومن الصعب أن نخرج من أعمالهم بما هو أكثر من ذلك ، كما أننا لايمكن أن نربطهم بعلماء القرن الثانى عشر أو علماء القرن الخامس عشر . لأنهم كما يقول كل من فيتختناو H. Fitchtenau, وبولجار R.R. Bolgar كانوا على قدر كبير من الجهل بحاجات البشرية ، ولم يسخروا تعليمهم فى حل مشكلات المجتمع ، وإنما استخدموه فقط ليزينوا البلاط الملكى ويضيفوا إليه واجهة من العظمة القديمة . ولم يكن بين علماء البلاط الكارولنجى سوى مفكر واحد يتمتع بقدر من الأصالة هو حنا سكوت John the scot ، وهو ايرلندى كان يعمل فى بلاط شارل الأصلع . إذ أن حنا سكوت هذا ترجم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، التى تنسب إلى الراهب السورى الذى كتب فى القرن الخامس تحت اسم ديونيسيوس Dionysius ، كما

---

(١) عن هذه المجموعة ودور شارلمان أنظر :

Philippe Wolff. the awakening of Europe, The pelican history of European thought I.pp. 36 - 53.

أضاف من لدنه بعض التأملات الأفلاطونية الجديدة ، بيد أن حنبا سكوت لم يكن رائد حركة فلسفية ، لأن أحدا لم يتابع ما بدأه من عمل ، كما أن نصيبه من الأهمية فى تاريخ الفكر الأوربى محدود . أما تأثير ألكوين على التطور الثقافى فى العصور الوسطى فكان نتيجة لجهوده التى بذلها فى ميدان التعليم وبتأثير فكرته عن الامبراطور المسيحية ، على حين تبدو أشعاره الرتيبة المملة التى نظمها كعضو فى مدرسة القصر ذات أهمية ضئيلة ، وربما لاتكون لها أهمية على الاطلاق .

ومع أن أكثر العلماء الكارولنجيين حظا من التعليم لم يحاولوا علاج مشكلات المجتمع ، وإنما كرسوا أنفسهم للتدريبات التعليمية العقيمة ، فإننا يمكن أن نشهد فى الفترة الكارولنجية بشائر تسخير ملكة الفهم والعقلانية فى علاج المشكلات الاجتماعية . إذ أن شارلمان ومستشاريه الكنسيين لم يكونوا راضين بالاعتماد على تراث الجرمان السياسى ، وإنما انطلقوا انطلاقة واعية صوب تحسين النواحى التنظيمية والفنية فى نظام الحكم . وبعد ثلاثة قرون من الفوضى والارتجال أفرز العالم الكارولنجى نماذج تدل على التخطيط والإبداع بشكل يناقض ماكان سائدا فى قرون الفوضى . وتقوم المخطوطات التى ترجع للعصر الكارولنجى دليلا على هذا ، ذلك أنه بينما تكاد تستحيل قراءة الخط الميروفنجى فإن أي فرد يعرف اللاتينية يمكنه قراءة الوثائق الكارولنجية بعد ساعتين فقط من التدريب والتوجيه ، ولأن المخطوط الكارولنجى معقول للغاية وواضح فقد أقبل عليها ناشرو الكتب الأوائل فى القرن الخامس عشر ، وترتب على هذا أن صارت المخطوطات الكارولنجية محل استخدام واسع النطاق الآن ، بل إن المخطوط الكارولنجى قطع شوطا أبعد من المخطوط الرومانى الذى لم يكن يستخدم سوى الحروف الكبيرة ، إذ اخترع الناسخون الكارولنجيون الحروف الصغيرة .

ويمكن الكشف عن ملكة العقلانية والاستنتاج ذاتها فى طيات النظم النقدية والنظم القانونية الكارولنجية . فبعد ثلاثة قرون من الفوضى النقدية أسست الحكومة الكارولنجية عملة جديدة يمكن الاعتماد عليه وتقوم على أبسط المبادىء . فقد أمر الكارولنجيون دور سك العملة باتخاذ رطل من الفضة وتقسيمه الى ٢٤٠ قطعة ، تمثل كل منها قطعة من العملة الكارولنجية وأطلقوا على هذا النوع من العملة اسم الدينار denarius ، وهو اسم إحدى وحدات النظام النقدى الذى كان قسطنطين قد وضعه . وأثبتت العملة الكارولنجية صلاحيتها بشكل جعل الانجليز يقلدون هذا النظام الذى مايزالون يحتفظون به كأساس لنظامهم النقدى . وثمة عنصر عقلانى آخر يدخل فى طيات التأثير الكارولنجى على تطور القانون الجرمانى. فقد ابتكرت المحاكم الكارولنجية نظام التحرى والتحقيق كوسيلة للخلاص من قصور الوسائل

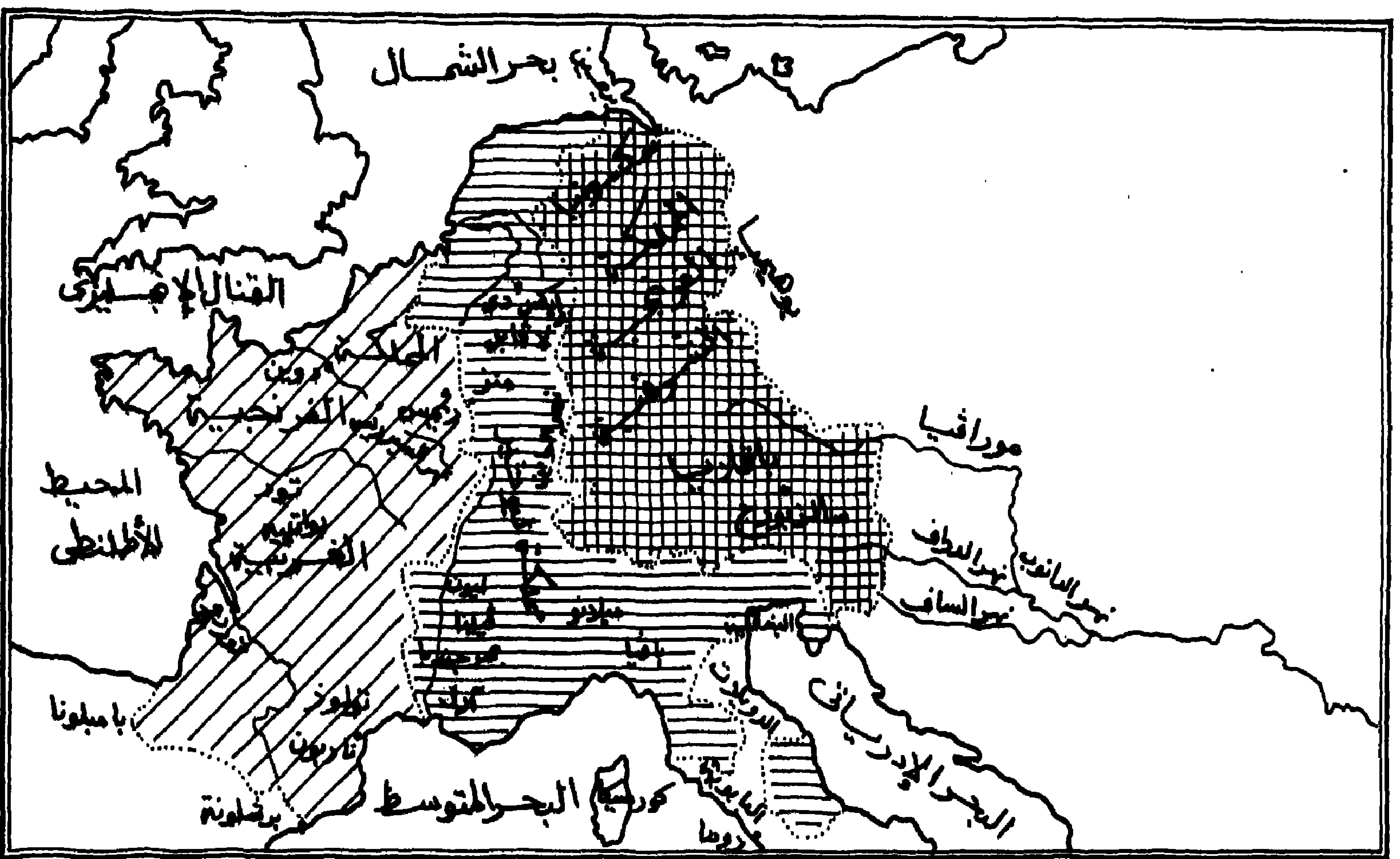
الجرمانية فى التحرى ، والنظام الكارولنجى للتحرى والتحقيق يقوم من خلاله مجموعة من الرجال ذوى المكانة من سكان المناطق القريبة بابداء الرأى فى المنازعات التى تنشب حولة ملكية الأرض . وقد ظل نظام التحرى قائما فى القرنين العاشر والحادى عشر فى نورمانديا حيث انتقل إلى انجلترا فى الشطر الأخير من القرن الحادى عشر على يد "وليم الفاتح" ، وهناك تطور إلى شكل نظام المحلفين فى القانون الانجليزى العام .

ويكشف نظام الحكم الكارولنجى من عدة جوانب عن استخدام ملكة الفهم والاستنتاج والأسلوب العقلانى فى حل مشكلات الملكية الجرمانية ، فشارلمان على نحو خاص لم يكن قانعا بمكانته ، سواء بوصفه سيدا وقائدا عسكريا أو بوصفه ملكاً ثيوقراطيا ، وبذل جهدا فى سبيل تأسيس إدارة فعالة ، كما أنه كان يمتلك أفضل جهاز بيروقراطى منذ ثيودوريك الأوستروقوطى . وكانت الخطوة الأولى فى سبيل إصلاح نظام الحكم الكارولنجى تتضمن تأسيس مجلس قضائى إدارى ملكى يتألف من العلماء الديريين ويهتم بإصدار الوثائق المتعلقة بمختلف نواحى الحياة المدنية والمجتمع الكنسى والتى كان الملك مهتما بها . وقد اتخذت الوثائق الكارولنجية شكل المنشورات الدورية التى يعالج كل منها على حدة مختلف مشكلات الحكم . وهذه المنشورات تذكرنا بالمراسيم الامبراطورية الرومانية ، إذ كان المنشور الدورى المتعلق بالكنيسة يأمر رجال الاكليروس بإنجاز المهام والالتزامات التعليمية وأن يرتقوا إلى مستوى النظام المطلوب منهم ، على حين يخاطب منشور آخر المشرفين على الضياع الملكية موجها إياهم إلى تحمل مسئولية إدارة الضياع ، وكانت هذه ضرورة بالنظر إلى الحقيقة القائلة بأن الأراضى المملوكة للملك الكارولنجى كانت تمثل مصدر دخله الرئيسى . وثمة منشور دورى آخر يطبق الأسلوب العقلانى فى حل مشكلة تكوين الجيش ، فقد كان النظام العسكرى فى الامبراطورية الفرنجية مايزال قائما على أساس مبدأ الشعب تحت السلاح folk - in - arns؛ وحين كان الملك ، بوصفه قائدا حربيا ، يدعوهم كان المفروض أن يلتحق كل الرجال القادرين جسديا بالجيش الملكى . وقد أدرك شارلمان ووزراؤه مدى مافى هذا النظام من اهدار للجهد ومدى ما يشوبه من قصور . ومن ثم وزع الملك منشورا دوريا يسمح للقرويين بأن يتحدوا سويا فى جماعات تقدم كل منها فارسا واحدا ، ولاشك أن هذا الفارس كان أكثر جدوى من الجماعات الغوغائية التى كانت تتألف من الفلاحين المسلحين بالعصى والمساحى .

وربما كانت أهم مراسيم شارلمان قاطبة هى التى تعالج مشكلات الحكم المحلى ، فحين كان الملك ومعه المجلس القضائى الإدارى ، والبلاط والجيش ، يحل بأية منطقة لم تكن تظهر أية

مشكلة تتعلق بولاء سكانها لها ، ولكن نظرا لسوء الاتصالات والمواصلات ، ونظرا لطبيعة العلاقات الاجتماعية المجزأة ، كانت المشكلة تتمثل فى كيفية الحفاظ على النفوذ الملكى فى المناطق الواقعة خارج نطاق التأثير الممكن لشخصية الملك . كيف كان يمكن إخضاع الدوق (الموظف العسكرى المحلى) والكونت (ممثل الملك المحلى فى شئون القانون والمالية) للسيطرة فى المناطق البعيدة عن نطاق التأثير المباشر للبلاط الملكى ؟ هذا هو السؤال الذى أربك الميروفنجيين ، وكان عجزهم عن حله من أكبر أسباب انهيار السلطة الملكية فى القرنين السادس والسابع . وقد استمرت هذه المشكلة عقبة كأداء فى طريق الكارولنجيين ، والواقع أنه يمكن القول بأن هذه المشكلة كانت أكثر المشاكل التى واجهتها ملكية العصور الوسطى صعوبة واستمرارية . وتمثل الحل الكارولنجى فى إرسال ممثلين من البلاد ، أو مبعوثين missi، فى رحلات دورية للتفتيش فى الأقاليم على أمل مواصلة السيطرة على الموظفين الملكيين ومنع اندماجهم فى الارستقراطية الاقليمية .

كان نظام المبعوثين missi ابتكارا ذكيا ومقنعا إلى درجة كبيرة فى مجال نظام الحكم عند الكارولنجيين ، كما كان برهانا على المهارة الادارية التى كان يتمتع بها رجال الكنيسة الذين خدموا شارل الكبير (شارلمان) من أمثال ألكوين واينهارد . ولكن فى آخريات سنوات شارلمان كان على الحكومة المركزية أن تواجه مشكلة الحد من نمو طبقة ارستقراطية جديدة فى الأقاليم ، إذ كان من الممكن إرسال النبلاء خارج البلاط الملكى للعمل فى وظائف دوق أو كونت ، وكان اختيارهم يتم بعناية من بين الرجال المخلصين ، بيد أنهم كانوا بمجرد وصولهم إلى إقليم بعيد مثل اكويتانيا أو غيرها ، يتجهون إلى ترسيخ جذورهم فى المجتمع المحلى . كما يحولون ألقابهم والضياع الملكية المرتبطة بالألقاب إلى أملاك وراثية ، وبعد موت شارلمان زاد معدل التفسخ والتحلل السياسى بهذه الطريقة . ولم يكن بوسع المبعوث الملكى missi أو أى مبعوث آخر ، أن يجابه العوامل الجديدة التى فرضت نفسها وسببت تدهور السلطة الكارولنجية فى القرن التاسع . لقد كان الابن الشرعى الباقى من أبناء شارلمان هو خليفته لويس التقى (٨١٤-٨٤٠) ، الذى كان رجلا ذكيا حسن الطوية ، ولكنه لم يكن قط قادرا على زعامة المجتمع الجرمانى ، فلم يكن يصلح كجندى على الاطلاق ، وقد أفقده هذا احترام النبلاء العلمانيين الذين كانوا يشعرون بأنهم أحرار فى أن يفعلوا ما يشاءون وأن ينطلقوا فى سبيل زيادة موروثاتهم . وازداد الموقف سوءا بفعل الصراعات المريرة التى نشبت بين أبناء لويس التقى فى سبيل الفوز باللقب الملكى ، الذى كان قد تدهور بالفعل قبل موت لويس . وكان ذلك فى جوانب عديدة منه ، تكرارا لأسوأ لحظات تاريخ الملكية الفرنجية . وأخيرا ، وفى سنة ٨٤٣ قرر أبناء لويس الثلاثة تقسيم الامبراطورية بمقتضى معاهدة فيردن Verdun . وكان هذا




الإمبراطورية الكارولنجية
(بعد معاهدة فردن ٨٤٣ ميلادية)

يعنى قيام ثلاث ممالك كارولنجية ، المملكة الغربية والمملكة الشرقية ، ومملكة ثالثة فى الوسط كانت تمتد حوالى ألف ميل فى الأراضى الواطئة ، بطول الراين ، وعبر جبال الألب لكى تضم شمال ايطاليا . وكادت المملكة الوسطى أن تنهار فى الحال ، تاركة وراءها بقايا من الامارات الهزيلة فى المنطقة الممتدة ما بين الفلاندر ولمبارديا ، أما بقايا المملكة الوسطى على طول نهر الراين فكان مقدرا لها أن تدخل فى نطاق الامبراطورى الألمانية فى القرنين العاشر والحادى عشر ، وكان غزو هذه الأجزاء هدفا من أهداف الملكية الفرنسية القوية التى قامت فى القرن الثالث عشر . ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المنطقة سببا فى الحروب التى استمرت بين ألمانيا وفرنسا حتى القرن العشرين .

ولم ينته الخط الكارولنجى فى ألمانيا حتى سنة ٩١١ ، على حين استمر الكارولنجيون فى حكم فرنسا حتى سنة ٩٨٧ ، بيد أن الملك الكارولنجى ، منذ الربع الأخير من القرن التاسع ، لم يكن أكثر من مجرد نكرة لايحسب أحد حسابه . لقد كانت السلطة فى المانيا بأيدى رؤساء القبائل الذين تدعم مركزهم بفضل الكارولنجيين الذين منحوا كلا منهم لقب دوق ، أما فى فرنسا فقد اغتصب الدوقات والكونتات سلطة الحكومة المركزية ، وظل هؤلاء قادة للمجتمع الفرنسى حتى منتصف القرن الثانى عشر .

كان الموقف فى المملكة الكارولنجية الغربية قد تدهور بفعل غارات الفيكنج الذين توغلوا حتى وادى نهر اللوار ووادى نهر السين بقصد السلب والنهب . وكان الهجوم الاسكندنافى على أوربا الغربية قد نشأ عن الصراعات الغامضة التى دارت فى الدانمرك والنرويج بين الجماعات السكانية والتى نتج عنها طرد الجماعات العسكرية المهزومة إلى خارج اسكنديناوة . هذه الجماعات المهزومة لاذ بعضها بالفرار داخل الأراضى الروسية ، على حين لجأ البعض الآخر إلى قواربهم الطويلة لكى يشنوا بواسطتها غارات النهب فى وديان الأنهار فى أوربا الغربية ، وقد عبر بعضهم مضيق جبل طارق وهاجموا بعض موانىء إيطاليا . ولكن الأماكن التى شعرت بثقل وطأة الفيكنج كانت هى شمال فرنسا والجزر البريطانية ، ولم يكن لدى الاسكندنافيين شىء يمكنهم أن يشاركوا به فى صنع حضارة أوربا الغربية ، فلم يكن مستواهم الثقافى والحضارى ليزيد عن مستوى أكثر القبائل بدائية بين الجرمان بنى جلدتهم الذين غزوا أوربا فى القرنين الخامس والسادس . وكانت الوحدة الأساسية فى المجتمع الاسكندنافى نوعا من عصبة الحرب التى ورد ذكرها فى ملحمة بيوفولف Beowulf وكان رئيس عصبة الحرب الذى يمنح الهبات والعطايا هو وحده القادر على كسب أولئك المحاربين المتوحشين ، ولم يكن الملوك

الدانمركيون والسويديون يتمتعون سوى بقدر ضئيل من السلطة والنفوذ . والحقيقة أن الاسكندنافيين كان بهم هوى إلى إغراق ملوكهم فى الآبار ، ولم تنتشر المسيحية اللاتينية بين الشماليين (الفيكنج) حتى القرن العاشر ، وإنما كانوا حتى ذلك الحين وثنيين مغرمين بنهب الأديرة الكبرى التى اكتشفوا بسرعة مدى ثرائها الفاحش .

وكان الملوك الكارولنجيين الأواخر عاجزين تماما عن مواجهة أولئك الغزاة الجدد . فإن أحفاد شارلمان هؤلاء كانوا أتقياء وعقلانيين للغاية ، ولكنهم جميعا كانوا جبناء . وفى جميع الأحوال، لم يحاول أحدهم أن يشتبك مع الفيكنج ولو فى معركة واحدة ، وإنما كانوا يقدمون الرشاوى للغزاة الذين لم يكونوا يقنعون بها سوى لفترة قصيرة . أما الاسكندنافيون الذين هاجموا فرنسا فى القرن التاسع فكانوا قلة محدودة العدد ، ولم يكن توغلهم ليشكل حدثا فاجعا إذا ماقورن بالغزوات الجرمانية ، إلا أن هجماتهم زرعت الرعب والفوضى التى أدت بدورها إلى تشجيع الناس على البحث عن أقوى سيد فى المناطق المجاورة لكى يستظلوا بحمايته فى مقابل ما يقدمونه من خدمات وولاء . وقد أكدت الغزوات الاسكندنافية من جديد الأمر الذى كان واضحا منذ ثلاثينيات القرن التاسع - أعنى حقيقة أن الكارولنجيين لم يعودوا محاربين عظماء ، وأن الارستقراطية الاقليمية لم تعد بحاجة إلى أن تشغل نفسها بعد ذلك بالامتثال لما تحمله المنشورات الملكية الدورية .

أما رجال الكنيسة الفرنسيون الذين شهدوا هذه الأحداث الكئيبة فقد انزعجوا وخابت آمالهم إلى أبعد الحدود . ويتسم أدب السنوات الخمس والسبعين الأخيرة من القرن التاسع بكونه أدبا تشاؤميا يحمل مرارة واضحة . ولم يكن هذا ناجما عن تصدع النظام الاجتماعى تصدعا كاملا ، وانما أرجح أن السبب فى ذلك هو أن العالم الذى شهد الأساقفة تباشير وجوده كان يختلف اختلافا بينا عن العالم الذى تصوره مثلهم العليا . لقد كانوا يحلمون بالوحدة السياسية التى تضم أوربا المسيحية تحت راية الامبراطورية الكارولنجية التى يقودها ملك مقدس صالح - وفقا لتعاليم أوغسطين - ينشر السلام والعدالة فى الأرض بمشورة زعماء الكنيسة . هذا الحلم تبدد ، وكانت الامبراطورية قد قسمت ، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى أيدى أبناء الطبقة الارستقراطية ، وتضاءلت ، رويدا رويدا ، قدرة الملوك الكارولنجيين على الاحتفاظ بسيطرتهم على الحكومة والقضاء داخل ممتلكتهم ، كما عجزوا عن التصدى للغزاة المتوحشين من الأجانب الذين توغلوا فى المناطق الداخلية ونهبوا الكنائس دون أن ينالهم عقاب ما . وجاء القرن التاسع ليفيق رجال الكنيسة من أحلامهم ، فلجأوا إلى وسائل واجراءات

يائسة بفعل المرارة التى غصبت بها قلوبهم . وحاول بعضهم أن يكتسب للملكية مكانة جديدة وهيبة متجددة ، وذلك عن طريق زيادة خصالها المقدسة ، ومن خلال الجوانب الاحتفالية فى الملكية ، على حين تحول البعض الآخر ، وهم متأففون ، عن الملوك الكارولنجيين العاجزين ورموا بثقلهم إلى جانب البابوية ، وقاموا بنشر موجز شامل للقانون الكنسى ، يتضمن كثيرا من المراسيم المزورة التى نسبت إلى سان ايزيدور St. Isidore والتى تضع سلطة البابوية على الملوك وعلى كبار الأساقفة فى موضعها الذى يتفق ومحتوى هبة قسطنطين . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الاجراء ليساعد رجال الكنيسة الفرنسية على ضوء نمو سيطرة النبلاء الرومان (فى إيطاليا) على البابوية .

وبعد سنة ٩٠٠ تلاشت النغمة اليائسة المريرة . فقد ربط رجال الكنيسة أنفسهم بالملكية الألمانية الجديدة التى قامت فى المنطقة التى كانت تتألف منها فيما مضى المملكة الكارولنجية الشرقية ، ووجدوا فى أسرة أوتو Otto خلفاء جديرين تماما بأن يخلفوا شارلمان ، وفى القرن العاشر تخلى الأساقفة ومقدمو الأديرة عن أحلامهم بقيام الامبراطورية ، وتوافقوا من النظام الاقطاعى الجديد .

## ٣- التنظيم الاقطاعى للمجتمع

كان المؤرخ القانونى الانجليزى الكبير ميتلاند F.W. Maitland معتادا على تسلية تلاميذه فى كمبردج بقوله بأن النظام الاقطاعى قدم إلى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، وكان يعنى بهذا أن كلمة اقطاع Feudalism لم تكن اصطلاحا مستخدما فى العصور الوسطى . فقد ابتكرها رجال القانون الفرنسيون والانجليز فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وغالبا ما كان هذا المصطلح يفسر بالنظام القديم ancien regime وبامتيازات الارستقراطية الفرنسية التى زادت من حنق البورجوازية الفرنسية . ومن ثم فإن اصطلاح اقطاع Feudalism قد استخدم فى القرن الثامن عشر بمعنى الازدراء والتحقير على الاطلاق ، واخذه كارل ماركس عن الراديكاليين الفرنسيين ، واستخدمه للدلالة على اقتصاد ما قبل الرأسمالية . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأ العلماء المتخصصون فى العصور الوسطى ، ولاسيما فى فرنسا وألمانيا ، يربطون بين المصطلح وبين أوربا الغربية فى العصور الوسطى ، محاولين استخلاص تاريخ هذا المصطلح . وفى ضوء الحقيقة القائلة بأن اصطلاح Feudalism لم يكن معروفا فى العصور الوسطى ، وأن الفلسفة الاجتماعية الحديثة اكسبته عدة معان ، فربما يكون من الحكمة للمؤرخين المشتغلين بالعصور الوسطى أن يتجنبوا استخدام هذا الاصطلاح ، وأن يستخدموا

بدلا منه كلمات شاعت فى العصور الوسطى مثل التبعية Vassalge والسيادة Lorship . وعلى أية حال ، فإنه لم يكن بوسع المتخصصين فى العصور الوسطى أن يكونوا على هذا القدر من التحفظ فى هذه المسألة ، فقد كان عامة المتعلمين يطلبون منهم تعريفا مدرسيا للاقطاع ، وتقدم جمع كبير من المؤرخين الثقات بتفسيراتهم .

وقد طرحت الأبحاث العديدة التى تمت فى النصف الأول من القرن العشرين عدة تفسيرات متعارضة حول طبيعة الاقطاع ، فثمة مدرسة تعتبر الاقطاع بمثابة طائفة من المؤسسات السياسية والقانونية ، مثل نظام الحكومة اللامركزية ، "حيث تكون السلطات العامة فى أيادى خاصة" على حد تعبير ستراير J.R. Strayer الممتاز . وهو مايعنى أن الاقطاع ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع مع تفكك الامبراطورية الكارولنجية . وهذه المدرسة لاتعتقد بأن الاقطاع كان مرتبطا بالضرورة بأى نوع من الأنظمة الاقتصادية ، وهى تبرز أنه كانت ماتزال هناك نظم اقطاعية فى ظل النظام النقدى المتنامى فى القرن الثالث عشر ، وأنه بدلا من مكافأة الاتباع الاقطاعيين (الافصال Vassals) بمنحهم الضياع ، كان هؤلاء يتلقون اقطاعات نقدية fief - rentes أى معاشات . وهذا الرأى يفصل تماما بين الاقطاع Feudailsm وبين نظام الضيعة manorialism لأنه يوضح أن الاقطاع كان نظاما من العلاقات السياسية والقانونية القائمة بين رجال أحرار ، على حين كان نظام الضيعة نظاما زراعيا يشترك فيه الفلاحون الأتباع . وتميل براهين التفسير السياسى – القانونى للاقطاع ، أو التفسير الصارم كما يمكن تسميته ، إلى الشك فى إمكانية استخدام الاصطلاح فى مجال آخر غير مجال التاريخ الأوربى ، فالاقطاع Feudalism هو نمط محدد من نظم الحكم اللامركزية التى سادت أوربا منذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر . وأبرز العلماء الذين تبنوا هذا التفسير هم هينريخ ميتيس Heinrich Mitteis فى ألمانيا وجانشوف F.L. Ganshof فى بلجيكا ، وستنتون F.M. Stenton فى انجلترا وهاسكينز C.H.Haskins ، وستراير J.R. Strayer وبرايس ليون Bryce Lyon فى الولايات المتحدة الأمريكية .

أما التفسير البديل الشائع للاقطاع فإنه يرجع إلى حد كبير إلى أبحاث مارك بلوك Marc Block وتلاميذه فى فرنسا ، وقد طرح هذا التفسير فى الدراسة القيمة التى قام بها بلوك تحت عنوان "دراسة اقطاعية " فى سنة ١٩٤٠ . وباعتباره مؤرخا اقتصاديا واجتماعيا ، لم يكن مارك بلوك مستعدا لأن يحدد الاقطاع فى ضوء المصطلحات السياسية والقانونية الخالصة وإنما نظر إليه على اعتبار أنه نظام شامل تتركز فيه كل جوانب الحياة – لا السياسية

منها فقط ، بل والاقتصادية والكنسية والثقافية أيضا - فى مفهوم السيادة Lordship . لقد كان الاقطاع نظاما سياسيا ، ونظاما له قيمه ومثله العليا ، ففى مقدورنا أن نتحدث عن الاقتصاد الاقطاعى ، والكنيسة المتأثرة بالاقطاع ، والأدب الاقطاعى ، بالطريقة ذاتها التى نستخدم بها مصطلح "الرأسمالية " لكى نشير ، لا إلى نمط معين من الانتاج والتبادل فحسب بل أيضا إلى نظام الحكم ، والفكر ، والروح Spirit . ويقترب تفسير بلوك الواسع للاقطاع من الرؤية الماركسية ، ولكنه يختلف عنها أساسا من حيث أن مايحدد طبيعة الاقطاع ليس هو النظام الاقتصادى ، وإنما هو عدد معين من العوامل من بينها نظام الضيعة . وأولئك الذين يأخذون بهذا التحديد الواسع للاقطاع يميلون إلى اعتباره مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى وجدت فى أزمنة مختلفة فى أماكن أخرى غير أوربا مثل اليابان ، والدولة البيزنطية ، وروسيا.

أما وقد رسمنا صورة للأبحاث المكثفة التى تمت فى النصف الماضى من هذا القرن ، واعتمدنا على كل من المدرستين فى التفسير - بيد أننا نميل أكثر إلى رأى بلوك - فإننا يمكن أن نعرف السيادة بأنها عنصر لاغنى عنه فى الاقطاع ، وأن نحاول وضع تعريف من لدنا . فالاقطاع شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى حيث تكون غالبية السلطات السياسية والاقتصادية ، أو جزء كبير منها على الأقل ، بأيدى النبلاء الذين يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وتقوم قوة النبلاء الاقتصادية فى أساسها على سيادتهم على الضياع الكبيرة ، وسيادتهم على فئة الفلاحين التابعين . أما القوة السياسية والعسكرية للنبلاء فإنهاترتكز على أساس سيطرتهم على الجنود من الرجال الأحرار وسيطرتهم على الضياع الكبيرة ، وسيطرتهم على المؤسسات الحكومية والقضائية اللامركزية . وهذا هو شكل التنظيم الاجتماعى الذى كان يميز فرنسا منذ القرن التاسع حتى أواخر القرن الثانى عشر ، ولم يظهر هذا التنظيم الاجتماعى فى انجلترا قبل أواخر القرن الحادى عشر ، كما أنه لم يظهر فى ألمانيا حتى سنة ١١٠٠ تقريبا ، فضلا عن أنه لم يظهر فى إيطاليا على الاطلاق . وليس معنى هذا أن المناطق غير الاقطاعية فى أوربا الغربية لم تعرف السادة Lords على الاطلاق ، ولكن هؤلاء لم يستحوذوا على السلطات السياسية والاقتصادية بشكل يكاد يكون مطلقا . كما أن التعريف لايعنى أن طبقة النبلاء الوراثية قد فقدت أهميتها فى أوربا بعد سنة ١٣٠٠ بل على العكس، ظل النبلاء يحتفظون بأهميتهم فى الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان كبار الارستقراطيين يتمتعون بنفوذ سياسى هائل فى شتى أنحاء أوربا ، ولكن قوة النبلاء لم تعد ترتكز فى أساسها على سيادتهم على الأقنان serfs والضياع

الاقطاعية ، وهيمنتهم على المؤسسات الحكومية والقضائية اللامركزية . وفى العصور الوسطى قام النظام الاقطاعى فى مناطق أخرى من العالم ، وهو أمر منطقى تماما ، ولكن لكى يظل هذا الفرض على فعاليته فإنه يجب أن يستند إلى دليل تطبيقى يؤكده مؤرخو هذه الحضارات الأخرى .

فكيف نشأ النظام الاقطاعى ، كما عرفناه ، فى فرنسا فى القرن العاشر ؟ هذا سؤال تصعب الاجابة عليه للغاية ، فمن الصعب أن نتتبع أصول ونمو النظم الاقطاعية بسبب تفرق الأدلة والبراهين وندرتها فى الفترة السابقة على القرن التاسع ، وكان هذا بدوره من نتائج الأمية التى كان يعيش تحت نيرها المجتمع الأوربى من ناحية ، ونتيجة لإجراءات السادة الاقطاعيين كانت غالبا تتم فى شكل تصرفات مؤقتة ، ولم تكن تصرفات دائمة وثابتة تشهد عليها الوثائق من ناحية أخرى .

وفى النظام الاقطاعى الكلاسيكى الذى شهدته فرنسا القرنين العاشر والحادى عشر يمكن أن تميز ثلاثة عناصر هى : أولها الشخصى وهو (السيادة والتبعية Lordship and Vass-salge) والثانى هو الواقعى أى عنصر الامتلاك (الإقطاع fief) والثالث هو لامركزية الحكم والقضاء . وإبان التطور الذى مر به الاقطاع حتى القرن العاشر ارتبط العنصران الأخيران بالسيادة والتبعية ، وفضلا عن ذلك أصبح الاقطاع يشكل نظاما من المثل والقيم الاجتماعية.

وقد أضاع مؤرخو القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من الجهد ، وكما كبيرا من الأوراق فى مناقشة ما إذا كانت النظم الاقطاعية رومانية أم جرمانية فى "الأصل" . وقد يقول معظم العلماء اليوم أن هذه مشكلة قد حملت أكثر مما تحتمل على نحو سيء وأنها مشكلة مصطنعة فى أساسها ، لأن همزة الوصل التى تربط بين النظم الاقطاعية فى القرن العاشر قد تكونت من خلال أشكال سياسية وقانونية واقتصادية معينة ، جرمانية فى بعض الأحوال ورومانية فى أحوال أخرى وذلك استجابة لحاجة اجتماعية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب .

كانت السيادة Lorsdhip هى النظام الاجتماعى والسياسى الأساسى فى المجتمع الجرمانى. فقد كان الكوميتاتوس Comitatus أو gefloge أى مجلس الحرب الجرمانى الذى وصفه تاكيتوس Tacitus وكما ورد فى ملحمة البيوولف ، يقوم على أساس ولاء المقاتلين لرئيسهم فى مقابل حماية الأخير لهم وكرمه معهم ، وكان هذا هو الشكل الجنينى للنظام الاقطاعى فى العصور الوسطى . وقد ظل هذا الضرب من ضروب الولاء قائما فى القرنين

الخامس والسادس بفضل وجود نظام مشابه فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة هو نظام التبعية Patrocinium ، وفى غمار الأحوال المضطربة التى سادت الامبراطورية الرومانية المتأخرة جمع بعض الارستقراطيين حولهم الشباب القادرين على القتال وأغدقوا عليهم الهبات والحماية فى مقابل ولائهم وخدماتهم . لقد كان الأفصال فى القرنين السادس والسابع ببساطة استمراراً لعصبة الحرب gefolge الجرمانية ، والتبعية Patrocinium اللاتينية . وكان الأفصال الاقطاعيون Vassals رجالا أحرارا أخضعوا أنفسهم طواعية لأحد سادة الجند البارزين فى منطقتهم ، بيد أنه من ناحية أخرى كان مؤهلهم الوحيد هو قدراتهم القتالية . وقد اشتق اصطلاح فصل Vassal من الكلمة الكلتية التى تعنى "ولد Boy" ووفقا لما يدل عليه اشتقاق الكلمات Etymology فان افصال القرنين السادس والسابع كانوا ببساطة هم "الأولاد" أى جماعات البلطجية الذين كانوا يقاتلون رجالا كبارا فى المناطق المجاورة ، فقد كانوا أبعد مايكونوا عن الفرسان ذوى الشهامة الذين يصورهم الأدب الرومانسى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . كان أولئك الأفصال مجرد بلطجية يضربون الناس ويحطمون المنشآت تنفيذا لمشيئة سيدهم فى مقابل حمايته لهم واعالتهم واقتسام الأسلاب معه . واعتمد الوضع الاجتماعى للأفصال على سيدهم الذى يقومون بخدمته ، وذلك بصرف النظر عن حقيقة أنهم كانون جميعا من الرجال الأحرار فى الحقيقة ، وعلى سبيل المثال ، فقد كان الحراس الشخصيون body guards لملوك الميروفنجيين يتمتعون بثروة كبيرة وأهمية كبيرة ، وكان يطلق عليهم antrustiones تمييزا لهم عن غيرهم .

وحتى ذلك الحين لم تكن التبعية الاقطاعية vassalage ترتبط بملكية الأرض ، فقد كان الأفصال يعيشون فى قلعة ذات جدران خشبية سميكة يقيمها سيدهم الذى يتكفل أيضا بإطعامهم وكسوتهم ، وتسليحهم . وفى المرحلة التالية من مراحل تطور النظم الاقطاعية تم الربط بين التبعية الاقطاعية وملكية الأرض ، وهو ماكان يقصد به مكافآة الأفصال على خدماتهم وتأييدهم لسيدهم . وإنها لحقيقة ذات أهمية كبرى أن هذا "الخلق للعلاقات الاقطاعية" - على حد تعبير جانشوف Ganshof - كان بطيئا للغاية ، كما أن تطور هذه العلاقات لم يتم بشكل متسق . فحتى فى القرن العاشر لم يكن غالبية الأفصال فى فرنسا يمتلكون أية أراضى وكانوا مايزالون يقيمون فى منزل سيدهم ، وحتى مطلع القرن الثانى عشر ، كان هناك عدد من الأفصال الذين لايملكون أرضا فى المناطق المكتظة بالاقطاعيين فى شمال فرنسا والجلترا ، على الرغم من أن هؤلاء الأفصال كانوا يشكلون أقلية بكل تأكيد . ويبدو أنه فى أيام الميروفنجيين لم يكن يمتلك الأراضى سوى الرجال البارزين فى المجتمع ، وكان

الحكام الميروفنجيون يمنحون الهبات benefices، التى كانت عبارة عن قطع من الأراضى تعطى على سبيل الهبة ، للدوقات والكونتات لكى يضمنوا ولاءهم من ناحية ، ولكى يعيشوا على دخلها لقاء قيامهم بأداء خدماتهم الحكومية فى المقاطعات من ناحية أخرى ، ولكن كبار الأرستقراطيين الذين كانوا يتلقون هذه الضياع كانوا يعتبرونها ضياعا وراثية ، وكانت تلك هى بداية الربط بين الضياع الوراثية وخدمة السيد الاقطاعى ، وقد شاع تقليد نظام الاعانات على نطاق أضيق فى مجال العلاقة بين بعض كبار الارستقراطيين وأهم أفصالهم .

وثمة تغيير بطىء ، ولكنه أساسى ، فى الأساليب العسكرية حدث ما بين القرن الخامس والقرن الثامن ، وزاد من ضرورة الربط بين التبعية الاقطاعية ، والاقطاع fief وهو الاسم الذى صارت الضيعة الاقطاعية تعرف به بعد القرن الثامن . فقد كان الجرمان يستخدمون المشاة فى جيوشهم فى أغلب الأحوال ، ولكنهم كانوا يتبعون المبدأ العسكرى القائل بتجنيد الشعب كله لحمل السلاح Folk - in - arms وللملك أن يستدعى جماهير المزارعين الأحرار لمساعدته فى حروبه . ولكن تفوق الفرسان المسلحين - الذين اشتركوا فى القتال فعلا أثناء الغزوات الجرمانية ، ضد جيوش الامبراطورية الرومانية والهون Huns ، وبعض القبائل الجرمانية - بدا واضحا أكثر فأكثر . وما أن بزغت شمس القرن الثامن حتى كان هناك عدد متزايد من سادة الجند المستنيرين يتلمسون بناء جيوش على أساس الجندى الراكب المدرع أى الفارس chev-alier أو cniht وحين نقلت أوربا الغربية استخدام الركاب فى الخيول عن عالم البحر المتوسط، زادت كفاءة الفرسان ، إلا إن معدات تجهيز الفارس كانت باهظة التكاليف ، وكان على السيد الذى يرنو إلى تكوين جيش قوى من أفصاله أن يمنحهم الضياع أو الاقطاعات التى قد يحصلون منها على الدخل الذى يكفى لأن يجهزوا أنفسهم للمعركة .

ولم يكن منح الاقطاع fief يعنى أن يمنح الفصل الاقطاعى كافة حقوق ملكيتها ، إذ كان له أن يفيد من عائد الأرض كمكافأة له على خدماته ، ولكى يتمكن من إعداد نفسه الاعداد اللائق كفارس . ولكن ، من الناحية القانونية كانت ملكية الأرض بصفة نهائية حقا للسيد الذى يمكنه استعادتها إذا لم يلتزم الفصل بالولاء له . وعندما يموت الفصل كان الاقطاع يعود إلى السيد بشكل تلقائى ، ومن المعتقد أن أصل الحيازة الاقطاعية كان هو نظام حيازة الأرض الذى كان معروفا فى القرنين السابع والثامن باسم بريكاريوم Precarium وهو النظام الذى كان معمولا به فى أراضى الكنيسة على نحو خاص . ووفقا لنظام الحيازة المؤقتة هذا ، كان مقدم الدير أو الأسقف ، الذى يمتلك مساحة من الأرض أكبر مما يمكنه أن يديرها بنفسه ، يسمح للمدنيين بالافادة من هذه الأراضى لقاء إيجار معين ، مع العلم بأنه يمكن لصاحب الأرض أن يستردها متى شاء .

ومنذ وقت مبكر أدرك ملوك الأسرة الكارولنجية ، بفضل عبقريتهم المعهودة ، مدى ما يمكن تحقيقه من مزايا عسكرية من خلال اسباغ الاقطاعات على أفصالهم . وهكذا كان شارل مارتل Charles Martel وهو يبنى جيشه لمواجهة الغزاة المسلمين فى أربعينيات القرن الثامن ، يسعى إلى الحصول على أكبر قوة عسكرية ممكنة من الفرسان ، ونجح فى أن ينتزع الاقطاعيات لافصاله من أراضى الكنيسة ، ربما على أساس الحيازة المؤقتة . وخلال النصف الثانى من القرن الثامن كان الحاكم الكارولنجى يكافىء أفصاله الارستقراطيين بالاقطاعيات الكبرى المأخوذة من الأراضى الملكية ذاتها ، وسرعان ما أخذ السادة الكبار فى النصف الغربى من المملكة الكارولنجية في محاكاة الملك وحولوا فرسانهم إلى فرسان مقطعين ، وكان لهذه الرابطة المتنامية بين الاقطاع والتبعية الاقطاعية تأثيرها من حيث الارتفاع بمكانة الفصل الاجتماعية ، فمن البلطجى الأجير، كان هذا الفصل نفسه ، يصبح سيدا محليا مرموقا فى كثير من الحالات ويتمتع بالسيطرة على اقطاع أو أكثر . وبطبيعة الحال ، كان هناك تباين شديد بين الدوق أو الكونت التابع للملك ، وبين عامة الأفصال من الفرسان ، الذين ظلوا على مدى عدة قرون تالية ، قوما أفظاظا خشنى الطباع .

وكانت نتيجة الربط المتزايد بين التبعية الاقطاعية والاقطاع أن نشأ جوع إلى الأرض فى أوساط الافصال فى المجتمع الاقطاعى الذى استمر على حاله الطيبة حتى القرن الثانى عشر . فقد كان الاقطاع يعتبر قبل ذلك مكافأة لقاء الخدمة والولاء فى الفترة السابقة ، أما الآن فقد أخذ الأفصال يبحثون عن سادة مستعدين لأن يقدموا لهم الاقطاعات ، وأولئك الافصال الذين كانوا يملكون الاقطاعات بالفعل أخذوا يبحثون عن امتلاك المزيد من اقطاعات ، كما سعوا إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التى حازوها من سيدهم . وعلى الرغم من أنه من الناحية الفنية لم يكن الاقطاع وراثيا ، وكان يؤول إلى السيد بعد موت الفصل ، فإنه بمنتصف القرن العاشر صار الاقطاع وراثيا بالفعل ، وبدفع ضريبة وراثة تسمى relief كان ابن الفصل المتوفى يقدم ولاءه ويمنح الاقطاع لقاء ذلك . ويبدو جوع افصال القرنين التاسع والعاشر للأرض واضحا فى الملحمة الاقطاعية العظيمة المعروفة باسم Raoul de Cambrai التى - رغم أنها وصلتنا فى اشعار تعود إلى القرن الثانى عشر - تعكس بشكل غامض حادثة حقيقية وقعت فى القرن الثامن ، كما تعكس أخلاقيات الطبقة الأقطاعية فى تلك الفترة ، وفى الملحمة يغفل الامبراطور منح "راؤل" الاقطاع الذى كان بيد والده فيبادر راؤل إلى رفع السلاح ضد سيده فى محاولة لإجباره على منحه ما اعتبره ميراثه الشرعى .

وتمثلت المرحلة النهائية فى تطور النظام الاقطاعى فى إنتقال السلطة الحكومية والقضائية إلى كبار أفصال الملك الذين نقلوها بدورهم إلى أفصالهم ، وهذه المرحلة هى نتاج القرن التاسع وهى نتاج أيضا لعجز الكارولنجيين الأواخر عن الحفاظ على سيطرتهم على الدوقات والكونتات الذين اغتصبوا السلطة الملكية فى دوقياتهم وكونتياتهم وحولوها إلى اقطاعات وراثية. وتضمنت السيادة على الضياع الاقطاعية دائما السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين التابعين ، بيد أن هذه السلطة كانت ضئيلة الى حد بعيد ، ذلك أن الأمراء الاقطاعيين فى القرن التاسع قد استطاعوا أن ينتزعوا من الملكية الضعيفة حق جمع الضرائب وعقد المحاكمات فى القضايا الهامة "حق العدالة السامية" High Justice وسلطة شنق المجرمين فى دوقياتهم وكونتياتهم . وعلى نفس المنوال جاهد السادة الاقطاعيون الأقل قدرا فى سبيل كسب بعض السلطات العامة لأنفسهم وممارسة بعض السلطات السياسية والقضائية داخل اقطاعاتهم . وما أن حل منتصف القرن العاشر فى فرنسا حتى كانت المحاكم الاقطاعية الخاصة قد ابتلعت سلطات ونفوذ الملك الكارولنجى ومارست صلاحيات قضائية متطابقة ومتضاربة فى عملية ترقيع مجنون للسلطة اللامركزية .

لقد كان بروز نمط اقطاعى من التنظيم الاجتماعى مقدمة لعملية التهذيب والتبرير التى خضعت لها جوانب كثيرة من جوانب السيادة فضلا عن تعزيز مجموعة من القيم الاجتماعية التى قامت على أساس من مثل الولاء . وفى خلال احتفال علم معقد كان الفصل يعلن عن ولائه لسيده. وكان الفصل المرشح يركع أمام سيده ، على حين يحتضن الأخير يدى الفصل بين يديه ، وأضافت الكنيسة الواجهة المسيحية المعتادة على إحتفال الولاء Fealty وذلك بأن ألزمت الفصل بأداء اليمين المقدس بالولاء لسيده .

وفى منح الاقطاع للفصل ، كان السيد فى العادة يسلمه رمزا للاقطاع على هيئة سنبلة أو سكين أو غير ذلك ، وأصبح من المعتاد (حين أخذت نسبة التعليم تتزايد فى المجتمع) أن يتم التصديق على منحه الأرض بفعل قانونى كان يسمى ببساطة "الحجة" أو الوثيقة . وبشكل عام كانت الوثيقة فى العصور الوسطى تتألف من خمسة أجزاء وهى : التحية التى كانت توجه فى العادة إلى الرجال البارزين فى المناطق المجاورة للاقطاع . ثم الخطبة التى توضح سبب المنحة ، وغالبا ما كانت هذه الخطبة مسهبة إذا كان للمانح من رجال الدين ، ثم تأتى الفقرة التى تتحدث عن الحيازة ، وهى عبارة عن قائمة توضح فى تفصيل كبير موضع الاقطاع وحدوده ، فاللعنة التى كانت توقع عقوبة الحرمان الكنسى على أى شخص يجرؤ على مخالفة شروط

الحجة أو الوثيقة ، وأخيرا قائمة الشهود التى كان يصدق عليها بأختامهم الخاصة أولئك الذين شهدوا عملية منح الاقطاع . وغالبا ما كان الكاتب فى الوثائق الملكية يكتب اسم أى شخص يكون حاضرا فى البلاط فى تلك الأثناء حتى يصل إلى نهاية قطعة الرق التى تكتب عليها الوثيقة ، وهكذا كانت الحجة فى العصور الوسطى وثيقة رائعة مؤثرة وكافية - حتى القرن الثانى عشر على الأقل - لأن تكون دليلا حاسما فى أية دعوى أو قضية مدنية تتعلق بملكية الأرض . وليس من المثير للدهشة أن نعرف أن رجال الكنيسة كثيرا مازوروا الحجج لتدعيم مزاعمهم فى ملكية الضياع ، وإنما المدهش حقا هو كيفية إهمال السادة الإقطاعيين فى حفظ هذه الوثائق ، وذلك أنهم نادرا ماكانوا يستطيعون تقديم حجة الاقطاع إذا ما اضطروا إلى ذلك ، وهو ما أدى إلي نشوب نزاعات لاتنتهى حول ملكية الضياع .

وبغروب شمس القرن العاشر كانت حقوق وواجبات كل من السيد الاقطاعى والفصل قد تحددت واستقرت تماما ، فقد كان الفصل ملزما بتقديم الخدمة العسكرية لسيده بحيث لاتتجاوز مدتها أربعين يوما فى السنة ، وإذا كان هذا الفصل رجلا هاما يحوز اقطاعا كبيرا ، كان عليه أن يقدم - علاوة على الخدمة العسكرية - فرقة من الفرسان لجيش سيده ، فضلا عن أن الفصل كان ملزما بأن يحضر إلى محكمة السيد الخاصة للمداولة فى القضايا التى تنشب بين أقرانه ، أى أفصال السيد الآخرين وأن يقدم المشورة لسيده إذا طلبها . كذلك كان الفصل خاضعا للنظام الضريبى الاقطاعى - فقد كانت هناك ضريبة الاعانة relief وهى التى تحصل من أملاك الفصل إذا مات دون أن يترك وريثاً بالغا ، فيقوم السيد بالوصاية على أملاكه مقابل هذه الضريبة ، وكان على الفصل أيضا أن يدفع ضريبة غير منتظمة هى "المساعدة الاقطاعية" Feudal aids وهى عبارة عن مبالغ كان على الفصل أن يدفعها إلى سيده حين ينصب ابنه الأكبر فارسا ، أو يزوج ابنته الكبرى أو يدفعها لافتداء هذا السيد من الأسر ، وفى المقابل كان على السيد أن يحافظ على فصله ، إلا أنه لم يكن من حقه أن "يحط من شأن" الفصل باهانته بطريقة أو بأخرى . وإذا لم يف الفصل بقسم الولاء الذى قطعه لسيده كان يتعرض لأن ينتزع منه اقطاعه بعد محاكمته فى محكمة سيده ، أما إذا تصرف السيد تجاه فصله على وجه غير لائق ، يكون للفصل حق التحلل من الرابطة الاقطاعية ، وهو الحق الذى عرف آنذاك باسم Diffidatio وعادة ما كان يبدأ بتكسير السنبلة الرمزية أو السكين الرمزى الذى يعنى انتقال الاقطاع إليه ، وعادة ما كانت الحالة الأولى والحالة الثانية أيضا تعنى الحرب ، بيد أن الحرب كانت حقيقة يومية فى المجتمع الاقطاعى على أية حال .

وبنهاية القرن العاشر كان تقسيم الاقطاع الى اقطاعات أصغر Subinfeudation قد أصبح أمرا شائعا ، وغالبا ماكانت هذه العملية تتم خلال عدة درجات فى السلم الاقطاعى بداية بالملك أو الدوق تنازليا حتى أصغر الاقطاعيين ، وأقلهم مرتبة وهو "الفافاسور Vavasour". وكان هناك سؤال يطرح نفسه آنذاك ، عما إذا كان يجب على أولئك الأتباع الصغار أن يلتزموا بالولاء للسيد الأعلى أم يجب أن يقتصر ولاؤهم على سادتهم المباشرين فحسب ، ولم تكن هناك إجابة عامة على هذا السؤال ، فقد كانت المسألة تتوقف على قوة السيد الأعلى أو ضعفه، فإذا كان قويا ونشيطا كان يجبر الأفصال الصغار Subvassals على أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية باعتباره زعيما لهم ، أو رئيسا ، أو سيدا . وقد ثارت مشكلة مشابهة من جانب الفرسان الذين كان جوعهم للأرض يدفعهم إلى أن يصبحوا أفصالا لاثنين أو أكثر من السادة الاقطاعيين حتى يمكنهم الحصول على اقطاعات اضافية . وكان مثل هذا الموضع الشاذ يمكن حله إذا ما تمكن أحد السادة الاقطاعيين أن يؤكد حقوقه على هؤلاء الافصال كسيد أعلى، أما إذا لم يحدث هذا ثم حدث أن اضطر السيدان الاقطاعيان ، الذى يتبع الفصل لكل منهما فى الوقت نفسه ، إلى قتال بعضهما البعض وطلب كل منهما من الفصل نفسه أن يساهم فى القتال إلى جانبه ، فإن الفصل ينضم إلى السيد الذى يرجح فوزه حتى يتخلص من ورطته .

وفى بداية الأمر كان رجال الكنيسة فى الامبراطورية الكارولنجية يوجهون إلى نظام السيادة الاقطاعية انتقادات مريرة ، لأنهم كانوا يعتقدون - وبحق - أن هذا النظام سوف يؤدى إلى انهيار الامبراطورية المسيحية ، ولكنهم لم يلبثوا أن توافقوا مع النظام الاجتماعى الجديد وإندمجوا فيه ، وصار الأساقفة ومقدمو الأديرة سادة اقطاعيين وأفصالا شأنهم فى ذلك شأن النبلاء . كما أنهم إندمجوا فى شتى وجوه حياة المجتمع الاقطاعى اللهم إلا المشاركة الشخصية فى شئون الاقطاعية ، وبذل رجال الكنيسة كل مافى وسعهم لاقرار السلم فى المجتمع الاقطاعى ، ومحاولة اضفاء الصبغة المثالية المسيحية على العلاقات الاقطاعية ، ولذا فانهم أضافوا الاحتفال الدينى الذى يقوم الفصل فيه بأداء يمين الولاء للسيد الاقطاعى ، كما صاروا خبراء فى تعديد الالتزامات المتبادلة بين السيد الاقطاعى والفصل ، وصياغة هذه الالتزامات الاقطاعية على شكل شروط كانت تفترض مسبقا وجود مستوى حضارى وأخلاقى أسمى من مستوى أولئك المقاتلين الأجلاف الذين كانوا مايزالوا يمثلون نسبة تبلغ حوالى ٩٥٪ من الطبقة الاقطاعية . وبذلت الكنيسة مافى طاقتها لمحاولة حصر نطاق الحرب فى المجتمع الاقطاعى خلال القرن الحادى عشر ، وذلك عن طريق الترويج لحركة "سلام الله" التى كانت

تفرض على النبلاء الاقطاعيين أن يكونوا جماعات لحفظ السلام ، وأن يعدوا بعدم القتال فى أيام معينة ، وكانت حركة السلام هذه فاشلة بشكل عام ، لأنها لم تكن تحرز نجاحا إلا حين يرعاها حاكم قوى يرى أنه سوف يجنى منها عدة مكاسب لنفسه .

وكقاعدة عامة ، فإن النظام الاقطاعى كان قطبا مضادا للسلطة الملكية وكان هذا النظام - كما رأينا - يعنى لامركزية الحكم ، وتمرير السلطات العامة إلى أيادى خاصة ، والواقع أن الهرم الاقطاعى الذى يتربع الملك على قمته - كما يحب مؤلفو الكتب المدرسية تصويره - يعطى إنطباعا خاطئا عن طبيعة هذا النظام الاقطاعى . فقد كان ملك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر سيدا على كبار الأمراء الاقطاعيين بيد أنه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من الدوقات والكونتات ، لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على افصالهم الصغار . وطالما كان الملك القابع فى باريس عاجزا عن أن يهزم دوق نورماندى ، أو كونت تولوز ، فانه لم تكن له أية سيطرة عليهما أو على غيرهما ، وذلك على الرغم من أنهما يتبعانه من الناحية الرسمية ، فقد كان جيش دوق نورماندى أقوى كثيرا من جيش الملك ، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقا بأن الملك هو سيدهم الأعلى . ومن الناحية العملية ، فإن ملك فرنسا - سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة ٩٨٧ - لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس ، وقد كان الوضع مشابها فى التنظيم الإقطاعى لألمانيا فى القرن الثانى عشر .

إذن ، أين وجد النظام الاقطاعى حقيقة ؟ لقد كان ذلك فى انجلترا بعد الغزو النورمانى سنة ١٠٦٦ ، والسبب فى هذا أن الدوق النورمانى كان قد تعلم خلال القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر كيف يستخدم النظم الاقطاعية بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية ، ولم تكن هذه هى الطريقة التى سار عليها النظام الاقطاعى فى الامبراطورية الكارولنجية المتأخرة .

وجميع النظم الاجتماعية تقوم على أساس مجموعة من الافتراضات حول الصواب والخطأ فى العلاقات الانسانية ، وتظل هذه الافتراضات فترة طويلة تفرض نفسها حتى بعد أن تنقضى الضرورات الاجتماعية التى كانت تفرضها . وكانت القيم التى تخدم النظام الاقطاعى والسادة الاقطاعيين ثلاثا هى : أولا : كانت البطولة والبسالة العسكرية تعتبر من الحسنات الاجتماعية ، وذلك لأن الرجل القوى كان هو فقط الذى يستطيع توفير الأمن والحماية فى ذلك

العصر ، ثانيا : كان الولاء الشخصى هو عصب النظام الاجتماعى ، كما كانت العلاقات بين الأفراد هى الوسيلة الوحيدة لاقرار الالتزامات السياسية والقانونية . وثالثا : كانت روابط الولاء هذه مرتبة خلال نظام تصاعدى بحيث تمتد خلال طبقات المجتمع وتصعد إلى مناطق سماوية .

وبمقتضى الفرض الثالث والأخير (تدرج روابط الولاء فى نظام تصاعدى) كان رجال الكنيسة يوافقون على العلاقات الاقطاعية ، لأنهم كانوا متمرسين على القواعد القانونية القديمة التى تحدد تدرج الرتب فى السلك الكنسى . والواقع أنه يحتمل أن يكون رجال الكنيسة هم الذين أكدوا على هذه القيمة الاقطاعية ، وجعلوا التدرج فى السلك الاقطاعى أكثر تركيزا وجهودا فى المجتمع الاقطاعى . أما القيمة الاقطاعية الثانية ، أى الولاء ، فقد كان مفيداً للملوك والدوقات الطموحين الذين كانوا يتوفون لفرض سلطاتهم السيادية على مجتمع القرنين الحادى عشر والثانى عشر الزراعى . ومن مثل الولاء استوحت العصور الوسطى فكرة حساسة عن العلاقات الشخصية ، كانت هذه عبارة عن رؤية عاطفية للرابطة بين كائن بشرى وآخر ، وهذه الرؤية صارت قاسما مشتركا فى فكرة العصور الوسطى عن الحب كما صارت إلهاما للحركة الرومانسية فى القرن الثانى عشر .

أما القيمة الاقطاعية الأولى ، وهى التى تتعلق بالقيمة الاجتماعية للبطولة والبسالة العسكرية فقد تحولت إلى المثل الأعلى الذى تحتذيه الزعامة الارستقراطية فى المجتمع ، والاعتقاد الذى شاع فى القرن العشرين ، بكون الفارس قائدا طبيعيا فى مجتمع العصور الوسطى ، حيث كان من يمتطى فرسا يجد من يخدمه لقاء حمايته ، وقد ظل إعتراف المجتمع الاقطاعى بفضل القوة الجسدية ساريا . ومنذ القرن الثانى عشر حتى القرن العشرين ظل مبدأ تفوق الأقوى على الضعيف أساسا لسياسة الدولة الأوربية ولاتزال رواسب الاقطاع هذه تتلكأ وتصب شرورها الملعونة ، وتذل أعناق الدعاة إلى السلام ، وتسحب البشرية بمنأى عن السلام والسعادة .

# الجزء الرابع

# التوازن فى العصور الوسطى الباكرة

# القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر

" إنه بحق السلطة المقدسة ، وتقاليد وتراث الآباء المقدسين ، يتم تكريس الملوك فى كنيسة الرب ، أمام المذبح المقدس ، ويتم مسهم بالزيت المقدس، وتسبغ عليهم البركة المقدسة ، لكى يمارسوا سلطة الحكم على المسيحيين ، شعب الرب .. وعلى كنيسة الرب القدس" .

– مؤلف مجهول من يورك

# الفصل التاسع

# الكنيسة والعالم

## ١- طبيعة التوازن فى العصور الوسطى الباكرة

بحلول سنة ٩٠٠ بات من المؤكد أن مثال الوحدة السياسية للحضارة اللاتينية المسيحية الجديدة مستحيل التحقيق ، وأن الشعوب الأوربية لابد وأن تقنع بكيانات سياسية أقل حجما . وخلال القرن العاشر بدأت هذه الدول فى التشكل والظهور . ذلك أن اللامركزية السياسية ، والفوضى الاجتماعية اللتين ميزتا الفترة الأخيرة من القرن العاشر ، استمرتا فى الوجود ، كما برز إلى الوجود مثالان ناجحان للقيادة السياسية في شمال غرب فرنسا ، وفى ألمانيا ، فقد كانت دوقية نورماندیا الاقطاعية ، وامبراطورية أوتو Otto الألمانية قد قامتا إلى حد كبير، على أساس من أنماط متضاربة من النظم والمؤسسات ، بيد أنهما كانتا تتميزان ، عموما ، بخاصية أساسية من خواص الحضارة الأوربية الجديدة : فالمثل الكنسية والعلمانية ، والزعامة والموارد قد اندمجت فى بعضها بقوة وتفاعلت لكى تخلق وتطور هاتين الدولتين . وهذا التداخل المتبادل نفسه بين الكنيسة ecclesia والعالم mundus ، يمكن رصده فى شتى أنحاء أوربا القرن العاشر ، وحتى فى الملكية الأنجلو سكسونية المخيبة للآمال بحكومتها المركزية الواهية ، بل وفى الملكية الكابية الأكثر ضعفا .

كان التوازن بين الكنيسة والعالم هو حصاد الصراع الطويل على طريق تنصير المجتمع الأوربى ، فقد كان جريجورى الكبير ، وسان بونيفاس قد أسسا هذه الحركة ، التى تقدمت إلى حد كبير فى أواخر القرن الثامن وفى القرن التاسع على أيدى الملوك الكارولنجيين وكبار رجال الكنيسة . وقد أوضح فشل الملكية الميروفنجية مدى حاجة الملكية الجرمانية إلى التزكية الدينية والأدبية ، وغيرها من المساعدات التى كان يمكن للكنيسة أن تقدمها . وقد بذل قادة الكارولنجيين جهودهم فى سبيل خلق نظام عالمى تعمل فيه الكنيسة والملكية جنبا إلى جنب ، ولكن هذه الجهود لم تؤت سوى الفشل المرير الأليم . وعلى أية حال استغل الدوقات النورمان والأباطرة الألمان ، هذا التداخل بين الكنيسة والعالم من ناحية والتمايز بينهما من ناحية أخرى، لكى يقيموا المزيد من الكيانات السياسية المحدودة ، بيد أن هذه الكيانات أظهرت مميزات فائقة من حيث القوة والاستمرار كما ضربت للحضارة الأوربية الأمثلة الأولى على نجاح القيادة السياسية .

وقد قامت قوة كل من الأباطرة والدوقات النورمان فى القرنين العاشر والحادى عشر ، إلى حد كبير على مدى السيطرة التى كان بوسعهم أن يمارسوها على الكنيسة فى أراضيهم ، لاسيما الأديرة البندكتية ، وعلى مدى المساعدة والتأييد اللذين تقدمها الكنيسة لهم فى شكل عوائد ، أو فرسان ، أو أفراد للعمل فى الجهاز الإدارى ، فضلا عن الترويج لمشاعر التبجيل العام للحاكم التقى الذى يحض على صداقة الكنيسة . وكانت الكنيسة من جانبها تكسب الحماية ضد النبلاء العلمانيين المارقين ، والهبات التى تغدق الضياع الكبرى والأبنية الدينية ذات الطابع الرومانى الفخم ، على الأديرة والأسقفيات ، فضلا عن ترقى كبار رجال الأكليروس إلى الصفوف الأولى بين طبقة النبلاء ، والفرص الكثيرة التى تسنح لزعماء الأكليروس للمثول فى بلاط الحاكم ومجلسه الشورى ومن ثم يؤثرون على سياسته . هذا النوع من العلاقة بين الزعماء الدينيين والعلمانيين تدعم من خلال العقيدة الواعية بتمايز كل من الكنيسة ecclesia والعالم mundus وهو التمييز الذى كان شائعا بالضبط فى الفترة التى تحقق فيها توازن العصور الوسطى الباكرة . ومنذ القرن التاسع كان هناك اتجاه متزايد لدى الكتاب الكنسيين إلى وصف الكنيسة . التى اعتبروها جسد المسيح الغامض ، كمؤسسة تحضن العالم، وفى هذه النظرة لم تكن ثمة مجالات منفصلة للكنيسة والعالم ، ولكن الكنيسة كانت جسدا للمسيح ، يتميز بأنه جسد عالمى واحد لايتجزأ يدخل ضمنه العالم بأسره . وفى القرن الحادى عشر باتت هذه النظرية بمثابة القاسم المشترك بين كبار المفكرين بل ومن هم دونهم من الكتاب فى الكنيسة اللاتينية . كانت "الكنيسة" "والعالم" مصطلحين يستخدمان باعتبارهما مصطلحين متمايزين مترادفين فى الوقت نفسه ، ومن ثم كانت الممالك والامبراطوريات تعتبر كيانات ، ليس خارج الكنيسة بقدر ماهى داخلة فى حدودها العالمية . وهذه النظرية القائلة بامتصاص المملكة الدنيوية داخل المملكة الروحية كانت استلهاما من العلاقة التى كانت سائدة بالفعل بين الكنيسة والملكية فى غرب أوربا فى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر .

### ٣- الدولة الاقطاعية النورمانية

أخيرا فى سنة ٩٨٧ فقدت السلالة الكارولنجية اللقب الملكى فى غرب الراين ، فلم يكن أحفاد شارلمان يمارسون أية سيطرة فعالة على كبار الأمراء الاقطاعيين على مدى مائة سنة ، كما أن الملكية لم تكن لها أية موارد ذاتية . إلا أن استمرارية التقاليد الجرمانية والمسيحية المتعلقة بالملكية حولت التاج الفرنسى إلى ملكية خاصة يستحقها أقوى سيد إقطاعى فى المنطقة المعروفة باسم Ile - de - France وهو ماحدث بالنسبة لهوف كابيه Hugh Capet

الذى أزاح الكارولنجيين جانبا ، وتحمل عناء تأمين ارتقائه للعرش من خلال عملية الانتخاب الرسمية الجرمانية . وقد أضفت الكنيسة على حكمه المسحة الشرعية من خلال عملية المسح بالزيت المقدس ، كما صار مقدم دير سان دونى St. Denis الملكى يكرس نفسه لهوف قدر ماكان يكرسها للكارولنجيين من قبله ، وبفضل تأييد الكنيسة استطاع هوف كابيه أن يورث ابنه اللقب الملكى . والحقيقة أنه قيض للأسرة الكابية أن تتولى العرش الفرنسى فى خط مباشر من التتابع الوراثى حتى القرن الرابع عشر ، ولم يحدث شىء هام فى القرنين العاشر والحادى عشر ، فكل ماحدث أن أسرة ضعيفة ذهبت لتحل محلها أسرة ضعيفة أخرى . وقبل القرن الثانى عشر كانت شهرة آل كابيه تقوم على أمرين لاثالث لهما : التدين المتطرف ، والشراهة الجنسية ، وربما كان هذا التناقض فى صفات آل كابيه الأخلاقية راجعا إلى حقيقة أن كل مانعرفه عن الكابيين الأوائل مستمد من الوصف الوارد فى المدونات التاريخية الديرية التى يقوم حكمها على الأمور على أساس معايير محدودة للغاية . بيد أنه من الأمور ذات الدلالة أن ملوك آل كابيه فى القرنين العاشر والحادى عشر لم يلفتوا الأنظار إليهم سوى بممارساتهم الدينية أو بفضائحهم الجنسية ، وكانت هذه أعمالا شخصية خالصة بمعنى أن ملوك آل كابيه لم يتركوا أثرا على الحكم والمجتمع فى فرنسا . وقد تصرف كبار الأمراء الاقطاعيين، الذين كانوا أفصالا لآل كابيه من الناحية الإسمية ، بشكل مستقل ولم يقدموا لهم أى عون ، والحقيقة أن أولئك الملوك لم يكونوا آمنين حتى على أملاكهم فى المنطقة المعروفة بأسم Ile - de - France والتى كانت تغص بقلاع البارونات اللصوص . والحقيقة أن ملوك آل كابيه كانوا يحملون اللقب الملكى ، كما أنهم غرسوا تقاليد الملكية المقدسة بمساعدة مقدم دير سان دونى وكبير أساقفة ريمس ، وبينما صارت هذه التقاليد مفيدة بالنسبة للكابيين الأواخر ، فإنها لم تكن ذات فائدة بالنسبة لملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر إلا بقدر قليل للغاية. لقد كان من الممكن أن تصير الملكية الثيوقراطية قوة أدبية مؤثرة ، بشرط أن تكون مرتبطة بقوة مستمدة من المؤسسات الفعالة التى لم يكن للملكية الكابية أى نصيب منها .

ومن بين زعماء فرنسا الاقطاعية فى القرن العاشر كان كونت الفلاندرز ودوق أكويتانيا يبرزان بفضل سيطرتها الفعالة على الافصال الاقطاعيين فى إمارتيهما ، أما كونتات شامبنى Champagne وتولوز Toulouse وأنجو Anjou ، فقد كانوا هم أيضا أشخاصا بارزين فى المجتمع الاقطاعى الجديد . بيد أن دوقات نورماندیا كانوا هم البارزين بين أفصال ملك فرنسا ، وفى أواخر القرن العاشر وخلال النصف الأول من القرن الحادى عشر جعلوا من منطقة الحدود الخلفية فى نوستريا Neustria ، فى شمال غرب فرنسا ، بلادا تشتهر بأديرتها الكبيرة

ومؤسساتها العظيمة ، كما أنهم تعاملوا مع المؤسسات الاقطاعية بطريقة مبتكرة ساعدتهم على خلق أقوى دولة أوربية غرب نهر الراين .

لقد ولدت نورماندیا كدوقية إقطاعية فى سنة ٩١١ حين قام روللو Rollo ، الذى كان قائدا همجيا لواحدة من عصابات الفيكنج المقاتلة بانتزاع منطقة من الملك الكارولنجى المذعور، وهى المنطقة الملاصقة لمقاطعة روين Rouen الكنيسة ، وقد صار روللو هذا فصلا إقطاعيا للملك الفرنسى ، كما حمل لقب دوق ، بيد أنه استمر يتصرف بطريقة مستقلة تماما ، كما أنه واصل توسيع رقعة دوقيته الأصلية . لقد كان حجم الاستيطان الاسكندنافى صغيرا ، ولكن سرعان ماتزاوج رجال الشمال مع السكان الأصليين واتخذوا الفرنسية لغة لهم . وقد اعتنق روللو ورفاقه المسيحية على أيدى كبار أساقفة روين Rouen ولكن اعتناقهم لها لم يغير أسلوبهم فى الحياة ، فعلى مدى سبعين عاما كانت نورماندیا میدانا للحروب الداخلية والصراعات الدموية بين السادة الاقطاعيين النورمان ، كما أن سلطة الدوقات الأوائل كانت تقوم على أساس من قدراتهم كمحاربين ، كما أن تاريخ نورماندیا قبل سنة ٩٨٠ لايحمل أى شىء يمكن أن يكون تمهيدا للتطور الذى شهدته المؤسسات النورمانية فى الفترة اللاحقة . فكيف إذن ، استطاع النورمان ، فيما بين سنة ٩٨٠ وسنة ١٠٥٠ ، أن يبنوا أقوى إقطاعية فى غرب أوربا ؟

هناك مراحل ثلاث يمكن تحديدها فى مجرى بروز سلطة الدوقات النورمان ، ففى ثمانينيات القرن العاشر ، شارك أولئك الدوقات فى ارتقاء "هوف كابيه" عرش فرنسا ، ونتيجة لذلك لم يحاول ملوك آل كابيه التدخل فى شئون الدوقية إبان الفترة الحرجة التى شهدت بناء الدولة النورمانية . ولم يدرك الملك الكابى مغزى قيام نمط جديد من الدول الاقطاعية فى الدوقية المجاورة لأملاكه فى منطقة جزيرة فرنسا Ile - de - France[1] سوى فى ثلاثينيات القرن الحادى عشر ، وعندها كانت فرصة إزالة هذا الخطر قد ولت إلى غير رجعة . أما المرحلة الثانية، والأكثر حسما ، فى خلق نورماندیا ، فجاءت فى إطار العلاقات بين الدوقات النورمان والكنيسة فى أملاكهم ، إذ كان الدوقات النورمان أثناء الفترة الأخيرة من القرن العاشر وبواكير القرن الحادى عشر أكثر حذقا من أسلافهم وكانوا على وعى بمدى تخلف نورماندیا الثقافى فاستقدموا العلماء الديريين البارزين من أراضى الراين وشمال إيطاليا لكى

(١) يطلق الفرنسيون اسم جزيرة فرنسا Ile - de - France على المنطقة التى تقع باريس فى وسطها .

يبدأوا تطوير وتحسين ظروف الكنيسة النورمانية . وبنى الدوقات الأديرة ومنحوها الأوقاف ، كما أيدوا المدارس الديرية ودعموها ، وأتاحوا الفرصة لأولئك العلماء المقتدرين لكى يؤسسوا ألمع المراكز التعليمية في غرب أوربا ، ولم تكن علاقتهم بالكنيسة مقيدة داخل إطار هذه الحماية بأى حال من الأحوال ، فقد لجأوا إلى تسخير موارد الكنيسة واستخدام رجالها فى تقوية سلطتهم على أملاكهم . وربما كان زعماء الحركة النورمانية قد شجعوا النورمان ووجهوهم بمشورتهم فى هذا المجال ، لأن أولئك الكنسيين كانوا قد وفدوا إلى نورمانديا ، فى معظم الأحوال ، من مناطق تقع داخل نطاق الامبراطورية الألمانية ، التى كان حكامها يستخدمون الكنيسة لتحقيق غرض مماثل ، ومن المؤكد أن كبار رجال الكنيسة فى نورمانديا لم يشغلوا أنفسهم بنوع العلاقات بين الكنيسة والدولة النورمانية قبل سنة ١٠٣٥ ، إلا أنهم تقبلوها ولم يجدوا غضاضة فى ذلك .

لقد كانت خطة الدوقات أن يفرضوا التزامات إقطاعية باهظة على كبار رجال الاكليروس وأن يسخروا الفرسان الموجودين فى أراضى الكنيسة ليكونوا نواة لجيش يمكن به التغلب على النبلاء العلمانيين . والواقع أنه بحلول منتصف القرن الحادى عشر ، كان بمقدور الدوق النورمانى أن يحصل على الخدمة العسكرية من أكثر من ثلاثمائة فارس من أفصاله الاقطاعيين . وكانت هذه القوة كافية للقضاء على قوة النبلاء وزيادة . وحصل الدوق على امتيازات عديدة من جراء بدئه لعلمية فرض النظام الإقطاعى فى نورمانديا ، وذلك من خلال فرض التبعية الاقطاعية vassalage على رجال الكنيسة ، وعندما انتهى من ذلك استدار نحو النبلاء العلمانيين . فلم يكن رجال الكنيسة يستطيعون الزواج بطريقة قانونية ، وعلى الرغم من أن كثيرين منهم كان لديهم أطفال ، فإن هؤلاء الأطفال كانوا غير شرعيين ولايمكنهم وراثة الاقطاع بحكم القانون الاقطاعى ، ومن ثم فإنه لم يكن بوسع أى أسقف أو مقدم دير أن يتابع المصالح الأسرية من خلال الاقطاع الذى يحوزه . ومهما يكن من أمر ، فإن الاقطاع كان يرتبط بالمنصب الكنسى ولم يكن أملاكا شخصية للأسقف أو مقدم الدير فضلا عن أن الدوق كان متحكما فى انتخابات كبار رجال الاكليروس ، إذ كان هو الشخص المبجل لدى الكنيسة النورمانية ويجب الأخذ برأية قبل أن يشرع الرهبان أو القساوسة فى الكاتدرائية فى اختيار مقدم الدير أو الاسقف ، كذلك كانت للدوق سلطة الاعتراض Veto على كبار رجال الأكليروس المنتخبين ، ذلك أنه مالم يكن الدوق مرحبا بقبول الأسقف أو مقدم الدير المنتخب فصلا إقطاعيا له ، فإن الأخير لم يكن يستطيع أن يستحوذ على الأملاك المرتبطة بمنصبه .

وفى عشرينيات القرن الحادى عشر بدأت المرحلة الأخيرة من مراحل ظهور السلطة الدوقية بفرض التبعية والالتزامات الاقطاعية على النبلاء العلمانيين ، وقد تيسر هذا العمل بفضل حال الجوع إلى الأرض وازدياد عدد طبقة الفرسان فى نورمانديا . وفى العقد الثانى من القرن الحادى عشر كان عدد السادة الاقطاعيين النورمان غير المستقرين قد رحلوا بالفعل قاصدين جنوب إيطاليا لكى ينتزعوا لأنفسهم أملاكا فى هذه البلاد الغنية . أما الفرسان الذين لا أرض لهم ، والذين بقوا فى مواطنهم فلم يكن أمامهم سوى فرصة الحصول على إقطاعات من الدوق بشرط أن يبدوا استعدادهم لتقبل الالتزامات الاقطاعية الباهظة ، أما كبار السادة الاقطاعيين فى نورمانديا ، والذين كانوا فى الواقع من ملاك الأراضى التابعين ، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى قبول التبعية الاقطاعية بسبب قوة الدوق العسكرية . هذه المرحلة الأخيرة والناجحة من مراحل بناء الدولة النورمانية الاقطاعية توقفت فجأة حين رحل أحد الدوقات ، فى نوبة تقوى مفاجئة ، فى رحلة حج إلى بيت المقدس ومات وهو فى الطريق ، وخلف لوراثته طفلا تحوم سحب الشك حول شرعيته بسبب حقيقة أنه ولد قبل زواج والديه . وقد تميز الشطر الأول من حكم وليم الثانى ابن الزنا William II the Bastard (١٠٣٥ - ١٠٨٧) بمحاولات يائسة من جانب أعداء السلطة الدوقية - أى الملك الكابى فى فرنسا والنبلاء الايطاليين - للقضاء على ماتم خلال نصف القرن السابق . وعلى أية حال ، ظل التحالف بين العائلة الدوقية ورجال الكنيسة النورمانية على حاله ، كما أن توحيد قوة الأفصال الكنسيين وقوة وليم العسكرية الفائقة جلبت النصر النهائى للدوق على اعدائه فى نهاية أربعينيات القرن الحادى عشر ، وحينذاك انطلق وليم مواصلا سياسة أسلافه ، أى بناء أقوى سلطة إقطاعية فى أوربا ، وهو الحلم الذى تحقق عند نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر . ذلك أنه لم يفرض التبعية الاقطاعية Vassalage على جميع النبلاء المدنيين فحسب ، وإنما استطاع أيضا أن يطالبهم بالخدمة العسكرية التى كانت مرهقة ومحددة بشكل دقيق للغاية ، كما أنه استطاع أن يتغلب على نقائص التقسيمات الاقطاعية الدنيا بأن جعل نفسه السيد المباشر لكل فصل اقطاعى داخل حدود دوقيته . وكان حجم الخدمة الاقطاعية الذى يدين به حائزو الاقطاعات لسيدهم قد تقرر بشكل محدد فى نورمانديا ، وذلك فى متواليات عددية تبدأ بخمسة فرسان حتى يصل العدد إلى فيلق إقطاعى يتألف من مائة وعشرين فارسا ، تبعا لمساحة الأرض التى كان الأفصال الاقطاعيون يحوزونها من الدوق . وبحلول سنة ١٠٦٠ كان بوسع الدوق النورمانى أن يتولى قيادة جيش قوامه ألف فارس ، وهو جيش أكبر من أى جيش

كان باستطاعة أى حاكم غرب نهر الراين أن يجنده ، وقد حظر وليام بناء القلاع دون ترخيص منه واحتفظ لنفسه بحق سحب هذا الترخيص ، كما كان صارما للغاية فى إلزام أفصاله الاقطاعيين بالمثول فى بلاطه . أما الموظف المحلى Viscount الذى عينه فى الأقاليم نائبا عنه، فكان بمثابة أداة يمكنه بواسطتها سحب الصلاحيات القضائية والضريبية من السادة الاقطاعيين إلى نطاق السلطة الدوقية .

أما التزكية الأدبية لهذه السلطة العسكرية والإدارية الفعالة فجاءت من خلال التأييد الذى لقيه وليام من الكنيسة ، فقد كان مثل أسلافه ، يغدق حمايته وهباته الكثيرة على الأديرة . كما ظلت المدارس النورمانية تجتذب ألمع العقول فى أوربا ، وكان بين هؤلاء لانفرنك Lan-franc الذى كان مدرس قانون سابقاً فى بافيا Pavia فى شمال إيطاليا ، ثم صار راهبا فى نورماندیا وذاع صيته كواحد من ألمع اللاهوتيين فى منتصف القرن الحادى عشر ، ثم أصبح وحدا من أشد المعجبين بوليام . وكان وليام قد حاز إعجاب رجال الكنيسة فى شتى أرجاء أوربا لأنه أخذ حركة "سلام الرب Peace of God " مأخذ الجد ، فقد كان وليام يرى فى هذه الحركة وسيلة تكسب بها السلطة الدوقية مناصرة رجال الدين ، كما رأى فيها وسيلة لفرض المزيد من القيود على الحروب الجزافية التقليدية التى سادت المجتمع الاقطاعى ، وهو أمر لم يكن يتوافق مع مفهومه عن الدولة الاقطاعية . وجعل وليم من نفسه رئيسا لحركة "سلام الرب" فى نورماندیا ، كما أجبر أفصاله على القسم بالالتزام بها ، وفى سنة ١٠٦٠ كان يتعين على من يفكر فى العصيان ضد الدوق من السادة الاقطاعيين النورمان أن يتحسب لمجابهة الهزيمة الساحقة ، وفقدان أملاكه ، فضلا عن إدانه الكنيسة له .

وباكتمال بناء السلطة الدوقية بات وليم حرا فى البحث عن ميادين جديدة للغزو والانتصار، إذ كان وراءه جيش كبير ، ومجموعة من النبلاء العدوانيين تحدوهم الرغبة فى البحث عن متنفس يرضى تعطشهم للقتال وجوعهم للأرض على حد سواء . ومن ثم شرع وليام، عند منتصف القرن الحادى عشر ، فى تحويل اهتمامه إلى مايجرى من أحداث عبر القتال الانجليزى ، وبدأ يخطط فى كيفية الفوز بالعرش الانجليزى . فقد كان ، الموقف فى انجلترا يمثل تنقاضا دراميا مع الموقف السائد فى نورماندیا ، إذ أن سلطة الملكية الأنجلو سكسونية المتأخرة كانت آخذه فى التلاشى أمام السيادة الاقطاعية Lordship الآخذة فى الصعود ، فقد استولى كبار السادة الاقطاعيين على الاقطاعات الضخمة كما تحكموا فى المؤسسات القانونية والإدارية والمالية الملكية فى أقاليمهم ، وكانت نورمانديا بلدا صغيرا

فقيرا قليل السكان بالمقارنة مع انجلترا ، بيد أن الدوقات النورمان نجحوا فى التحكم فى جميع موارد بلادهم على حين كانت السلطة العامة فى انجلترا تنتقل إلى الأيادى الخاصة بسرعة كبيرة . كما أن سلطة الملك كانت على حافة التلاشى ، كذلك كان الدوق النورمانى يبدو مجرد دعى حديث النعمة إذا ماقورن بالملك الأنجلو سكسونى ، سليل بيت وسكس Wes-sex الذى تولى حكم انجلترا أو أجزاء منها على مدى خمسة قرون ، ولم يستطع الدوق النورمانى أن يعيد شيئا من مذهب الملكية الثيوقراطية الذى ساد انجلترا منذ منتصف القرن العاشر ، إلا أنه مع ذلك كان يمتلك مايفتقر إليه الأنجلو سكسون ، أعنى المؤسسات الفعالة ، والشخصية القوية ، والكفاية العسكرية ، وهذا المزيج من الصفات الايجابية كان علامة على منعطف جديد فى طريق تطور الملكية فى العصور الوسطى .

### ٣- الامبراطورية الأوتوية

فى شرق الراين لم تكن المؤسسات الأقطاعية تتضمن قواعد التنظيم الاجتماعى ، كما كان الحال فى فرنسا . ذلك أن البنيان السياسى والاجتماعى للملكية الكارولنجية الشرقية كان ما يزال رهن التقاليد الجرمانية الأصلية ، فقد اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة ، أو "الأفخاذ Stems" كما كان يطلق عليها – وهى الفرنجة السكسون ، السوابيون ، الآفار ، اللوثرنجيون ، الثورنجيون – بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق الادارى ، وحولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعى إبان الفترة الكارولنجية . وكان يلى دوقات القبائل فى السلم الاجتماعى مجموعة صغيرة من النبلاء الكبار ثم تتلوهم جماهير الفلاحين الأحرار . أما فى الجنوب والغرب فكانت علاقات الضيعة الاقطاعية Manori-alism ، ومبدأ السيادة الاقطاعية Fuedal Lordship تشق طريقها إلى الوجود ، ولكنهما اتخذتا شكلا جنينيا محدودا للغاية بحيث لم يكن لظهورهما أى تأثير على السلطة السياسية، وكان قادة المجتمع الجرمانى هم دوقات القبائل ، وكبار النبلاء والأساقفة ومقدمى الأديرة الألمانية ، كما كان لرجال الكنيسة تأثيرهم بفضل سيطرتهم على مجال التعليم بأسره ، وعلى قدر كبير من ثروة البلاد المرتبطة بالأرض الألمانية ، وذلك لأن الأديرة الكبيرة ، التى كان بونيفاس وأتباعه قد شيدوها فى وديان الانهار فى المنطقة التى تعرف الآن باسم المانيا الغربية، كانت بمثابة الطلائع التى مهدت للتوسع الكارولنجى بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس ، وتأسيس مراكز للتعليم والحضارة ، كما أوجدوا الكنيسة الألمانية . وبعد أن كان ذلك قد تم بالفعل بدأ الملوك الفرنجة يمارسون الحكم بصورة فعالة فى مناطق شرق الراين .

ألمانيا سنة ١٠٠٠ ميلادية

المملكة الألمانية

الإمبراطورية الرومانية المقدسة

بحر الشمال
البرسيون
بوميرانيا
مستعمرات الشمال
جنيسين
دوقية بولندا
بريمن
دوقية سكونيا
الإمبراطورية الرومانية
مستعمرات الشرق
كونتية الفلاندرز
مملكة اللورين الأدنى
دوقية فرانكونيا
براغ
دوقية بوهيميا
مورافيا
دوقية أعالي اللورين
فينا
النمسا
دوقية سوابيا
دوقية بافاريا
سالزبورج
بودا
مملكة هنغاريا
مملكة برجنديا السفلى
دوقية كارنثيا
فيرونا
البندقية
مملكة إيطاليا
مملكة كرواتيا
ليون

ومع غروب شمس القرن التاسع كان الملوك الكارولنجيون قد تحولوا إلى نكرات ، ولم يكن باستطاعتهم أن يقودوا القبائل فى صراعها لصد الغزاة على طول حدودهم . ففى الغرب كان الخطر متجسدا فى الاسكندنافيين ، أما فى الشرق فكان توغل المجريين - وهم غزاة آخرون قدموا إلى أوربا من مناطق وسط آسيا - والسلاف بشكل خطرا داهما على وجود الدوقيات الألمانية . وفى سنة ٩١١ مات آخر الملوك الكارولنجيين ، فاختار دوقات القبائل الذين مارسوا المبدأ الانتخابى الجرمانى ، كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونيا Franconia ملكا . ولايمكن القول بأن هذا الحدث كان علامة تحول هام فى تاريخ الملكية الألمانية ، فلم يكن كونراد قادرا على ممارسة أى سلطة على الدوقات القبليين الذين بقوا على استقلالهم ، وحين مات كونراد فى سنة ٩١٨ انتخب الدوقات هنرى الأول الصياد Henry I the Fowler دوق سكسونيا الذى كان أكبر مناوئى كونراد ، ملكا . وقيض لأسرة هنرى ، التى عرفت فيما بعد بأسم أسرة أوتو Ottonians ، أن تحكم فى ألمانيا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، ومن ثم فان بداية حكمه تعتبر دائما هى البداية الحقيقية للملكية الألمانية . ولكن الحقيقة أنه لم يكن أكثر توفيقا من سلفه ، وعندما تولى أبنه أوتو الأول Otto I العرش سنة ٩٣٦ لم تجد الملكية الألمانية المؤسسات أو الايديولوجية التى تمكنها من السيطرة على كبار الدوقات . والواقع أن دوق بارفاريا كان يحاول أن يربط دوقيته بلمبارديا ، وهو الأمر الذى كان سيجعله أقوى منه لو ربط نفسه بالدوقات السكسون ، والذى كان كفيلا بالقضاء على أى قدر من الوحدة تتمتع به المملكة الألمانية .

لقد تم بناء الملكية الألمانية على يد أوتو الأول الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣) ، وقد صاغ السياسة التى بيت النية على إتباعها فى الطريقة الرمزية الواعية التى تم بها تتويجه. فقد أصر على أن يتم مسحه بالزيت المقدس وتتويجه على يد كبير أساقفة مينز Mainz وهو الذى كان كبير أساقفة الكنيسة الألمانية وهو الذى كان كبير أساقفة فى آخن Aachen عاصمة شارلمان القديمة . وبذلك كان يعنى أنه يربط نفسه بالكنيسة الألمانية القوية . وكان يقصد أن يفيد من أيديولوجية الملكية الثيوقراطية . لقد كان أبوه يخشى الأساقفة ومقدمى الأديرة الأقوياء ، كما رفض أن يتم تتويجه على يد أى من رجال الكنيسة ، أما أوتو فقد عقد العزم على أن يضع الكنيسة تحت سيطرته ، وأن يستخدم مواردها ورجالها فى سبيل إرساء الأسس التنظيمية للسلطة الملكية فى ألمانيا . ولم تكن هناك طريقة أخرى كان يمكن للملكية الألمانية بواسطتها أن تحصل على الثروة والدعم العسكرى والادارى اللذين تحتاج إليهما لكى تتمكن من التغلب على قوة الدوقات القبليين الوطيدة . وكان رجال الاكليروس الألمان على استعداد

للتعـاون مع الملك الذى كـان يقدم لهم الحـماية ضد النبلاء ، ويغـدق الهبات السـخيـة على المؤسسـات الكنيسة ، فضلا عن اتاحة الفرصة لرجال الكنيسة للخدمة فى مجلسه الاستشارى وتولى وظائف الوزراء الملكيين .

ومن الممكن أن نحدد ثلاثة أسس تنظيمية قامت عليها سيطرة أسرة أوتو على الكنيسة وأهم هذه الأسس هو النظام الذى اصطلح منتقدوه فى أواخر القرن الحادى عشر على تسميته بالتـقليد العلمـانى Lay investiture والذى كـان يشـار اليـه حتى ذلك الحين باسم "التـقليـد الملكى للكنائس" . فقد كرس الملك حق تقليد الأساقفة ومقدمى الأديرة برموز مناصبهم ، ووجد التأييد النظرى لهذا الزعم فى خاصيته كملك مسح بالزيت المقدس (أى باركته الكنيسة) . وبدون التقليد الملكى لم يكن الأسقف أو مقدم الدير المنتخب يستطيع تولى مهام منصبه ، فقد كان الهدف هو اتاحة الفرصة للملك للتحكم فى عملية انتخاب كبار رجال الكنيسة ، وفى سبيل المزيد من الضمانات لسيطرة الملك على التعيينات الكنيسة ، كانت فروض الطاعة التى يقدمها الكنسيون مرتبطة بالتقليد العلمانى لدرجة أن الأسقف أو مقدم الدير المنتخب لم يكن يستطيع أن يحوز الأملاك المرتبطة بمنصبه الا بعد أن يصير فصلا اقطاعيا للملك . وفى ظل هذه الظروف تحولت الانتخابات الكنسية إلى مجرد شكل رسمى داخل الامبراطورية الأوتوية ، فـقد كـان الملك يملأ المناصب الكنسيـة بأقـاربه ، وبالكتـاب الموالين العـاملين فى مـجلسه الاستشارى ، والذين كان يعينهم أيضا على رأس الأديرة الالمانية الكبرى .

وقد تدعمت سيطرة أوتو على الكنيسة بفضل استمرارية الافكار القانونية الجرمانية المتعلقة بالملكيـة والتى كانت بمثابة الأساس الـذى قام عليـه نظام الكنائـس الامتلاكيـة Eigenkirchen، ولم يكن هذا النظام قاصرا على ألمانيا بأى حال من الاحوال ، وإنما وجد فى شتى أنحاء أوربا فى النظام المعروف باسم Advowson [٢] ، ولكن نظام الكنائس الامتلاكية لم ينل أهمية كبرى سوى فى الامبراطورية الألمانية إبان القرنين العاشر والحادى عشر ، وذلك لأنه صار أحد الأسس التى تستند اليها السلطة الملكية . فقد كان القانون الألمانى يشترط أن يكون أى بناء يقـام فـوق أرض أحـد الملاك ، من حق هذا المالك بقـوة القـانون ، بما فى ذلك البنايات الكنسية . وهكذا كان بمقدور ملاك الأراضى التى قامت عليها الكنائس والأديـرة أن

---

(٢) يعنى هذا النظام حق صاحب الأرض فى التقدم إلى منصب كاهن الابرشية والتمتع بالدخل المرتبط بهذا المنصب من أوقاف الكنيسة . (المترجم)

يمارسوا دور السادة الاقطاعيين ويعينوا الموظفين الكنسيين من لدنهم ، ولم يكن هذا أمرا مهما اذا ما كانت الكنيسة كنيسة صغيرة ، الا أن أهميته كانت تبدو واضحة إذا كان الأمر يتعلق بدير كبير يمتلك ضياعا واسعة . وقد استحوذ ملوك أسرة أوتو على حقوق امتلاكية على أسقفيات وأديرة ألمانيا بفضل هباتهم للكنيسة من جهة ، وبفضل وسائل أخرى ، أكثر عنفا ، من جهة أخرى ، مما ترتب عليه أن صار من حقهم تعيين الأعضاء الهامين من كبار رجال الاكليروس كما تمكنوا بذلك من السيطرة على دخل الكنيسة ومواردها .

أما الأساس التنظيمي الثالث الذى قامت عليه سيطرة أسرة أوتو على الكنيسة الألمانية فكان هو نظام الوصاية Advocacy، فقد كان الوصي Advocate رجلا علمانيا يتولى إدارة الضياع المملوكة للكاتدرائية أو الدير ، مما يتيح له فرصة الاستحواذ على جزء كبير من الدخل، وجانب كبير من حقوق السيادة الاقطاعية على الناس فى الضياع الكنسية ، وكانت أسرة أوتو حريصة كل الحرص على تجميع غالبية حقوق الوصاية فى يديها .

وبمنتصف القرن العاشر كانت ثروة الملكية الالمانية وقوتها العسكرية تنمو بمعدل متزايد نتيجة لهذه الوسائل التى استخدمت لاحكام السيطرة على الكنيسة . ومن المعلوم أن نصف الجيش الألمانى الذى استخدمه أوتو فى ايطاليا سنة ٩٨١ كان مجندا من الأراضى الكنسية . كذلك استخدم أوتو كبار رجال الاكليروس فى جهازه الإدارى على نطاق واسع ، ولم يكن استخدامهم قاصرا على المجلس الاستشارى الملكى وحده ، وفى أحيان كثيرة تمتع مقدمو الأديرة بسلطة الكونتات ، كما أنيطت بهم مهام كبيرة فى الإدارة المحلية لصالح الملك ، ولم يجد أوتو صعوبة فى إخضاع الدوقيات القبلية ، بما فيها اللورين . وبحلول سنة ٩٥٥ صار أوتو هو المتدخل فى كل شئون الشمال الايطالى ، التى اتسمت بالفوضى ، بفضل زواجه من اديلاد Adelaide التى كانت "ملكة" ايطالية ، وقد إدعى لنفسه الحق فى التاج اللمباردى .

لقد كانت تلك السنة منعطفا هاما فى مسار حكم أوتو ، فقد ألحق هزيمة نكراء بالمجريين فى معركة ليشفيلد Lechfeld وصار بطل الغرب الأوربى ، كما بدا فى عيون النبلاء الالمان أنه قد جعل من زعمه بأنه خليفة شارلمان حقيقة واقعة . وفى الميدان الذى شهد انتصاره على المجريين رفعه كبار السادة الاقطاعيين على دورعهم على الطريقة الجرمانية وأعلنوه إمبراطورا ، وبعد ذلك بعدة سنوات ، أي فى سنة ٩٦٣ ، ذهب أوتو الى روما وهناك توجه البابا امبراطورا .

انخرط المؤرخون الألمان المحدثون فى نقاش كبير حول ماهية الدوافع الكامنة وراء التتويج الامبراطورى لأوتو . ومن الواضح أن هناك عوامل عديدة كانت وراء ذلك . منها رغبته فى أن يخضع المملكة الوسطى القديمة لسلطانه ، ولاسيما مناطق اللورين وشمال ايطاليا ، كما أنه كان بحاجة إلى اللقب الإمبراطورى حتى بعد السند القانونى لمزاعمه فى هذا الخصوص . لقد ركز أوتو اهتمامه على الشمال الايطالى بشكل خاص ، وكانت أحوال تلك المنطقة نهبا للفوضى ، كما أنه كلن يريد أن يفرض على دوقات الجنوب الألمان أن يقوموا بمحاولات جديدة لغزو لمبارديا . وثمة دافع آخر تمثل فى حاجته إلى احتذاء خطى شالمان قدر المستطاع حتى يقوى من الأساس القانونى لسيطرته على الكنيسة الألمانية . أما السبب الثالث وراء إرتداء أوتو التاج الامبراطورى فقد تمثل فى الخوف من تجديد اللقب الامبراطورى واحيائه خارج المانيا على يد الملك الفرنسى أو أحد الدوقات الفرنسيين . وثمة موضوع آخر ، حبذه المؤرخون الألمان بشدة فى ثلاثينيات القرن العشرين ، وهو رغبة أوتو فى الحصول على اللقب الامبراطورى حتى يتسنى له أن يكون الزعيم المعنوى للتوغل الالمانى فيما وراء نهر الألب Elbe . هذه الدوافع جميعها أو معظمها ، ترتبط بالتتويج الامبراطورى لأوتو ، ولكن مهما كانت طبيعة الأسباب الخاصة التى أدت إلى إحياء أوتو اللقب الامبراطورى ، فقد كان ذلك هو التداعى الطبيعى لمركزه كأقوى حكام أوربا وأبرزهم . فقد كانت تحت إمرته أكبر قوة عسكرية شهدتها أوربا منذ شارلمان ، كما كان ملكا ثيوقراطيا يفرض سيطرته على الكنيسة داخل مملكته ، فضلا عن أنه كان ، فى نظر المجتمع الجرمانى ، المحارب البطل . هذه السجايا والميزات جعلت أوتو يبدو ، أمام نفسه وأمام معاصريه على السواء خليفة جديرا بخلافة شارلمان ، واذا كان شارلمان إمبراطورا ، فينبغى أن يصير أوتو إمبراطورا هو الآخر ، لقد كان لقبه الإمبراطورى تكريسا لحكمه على المانيا وشمال ايطاليا .

لم يكن ثمة شىء رومانى فى مفهوم أوتو عن اللقب الامبراطورى ، وقد صب مؤرخو الملكية الألمانية Kleindeutsch فى القرن التاسع عشر لومهم على الملك السكسونى لأنه أوقع الملكية الألمانية فى شباك سحر ايطاليا الخطير الموهن ، بيد أن أتو لم يكن يقضى فى ايطاليا سوى أوقات قليلة ، بل إنه لم يبذل أى جهد فعلا للمشاركة فى انقاذ البابوية من النشاط الهدام الذى كان النبلاء الرومان يقومون به ضدها . لقد كان أوتو الكبير جنديا صعب المراس وادرايا حازما كما كان ذكيا بالقدر الذى جعله يفيد من الأيديولوجية ، الا أنه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذين تلهمهم الأفكار . وعلى أية حال فانه سقط فريسة النزعة الوصولية حين اراد أن يحصل على اعتراف للمجتمع بوريثه ، وكان الاعتراف الوحيد الذى يبدو مناسبا لابن الامبراطور الألمانى هو الزواج من أميرة بيزنطية . وفى بداية الأمر رفض البيزنطيون أوتو

باعتباره بربريا حديث النعمة ، الا أنه عندما تغيرت الأسرة الحاكمة سمح الامبراطور البيزنطي لإبن أوتو بالزواج من واحدة تنتمي له بصلة القربى من بعيد [٣] . وكان زواج أوتو الثاني فاتحة نمط من السلفية السياسية التي تميزت بها الإمبراطورية الكارولنجية بعد شارلمان . وتحت تأثير زوجته البيزنطية حول انتباهه إلى بناء سلطة فعالة في جنوب الألب ، وقد أتاح أوتو الثاني للسلاف فرصة تدمير المستوطنات الألمانية في شرق نهر الألب ، على حين قام جيشه في حمله في جنوب ايطاليا ، حيث لقى حتفه وهو يحارب ضد المسلمين في سنة ٩٨٣[٤].

وخلال حكم أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) أبن أوتو الثاني ، توطدت العلاقة بين الامبراطورية الألمانية وروما ، وأهملت سياسة أوتو الأول إهمالا تاما . وبفضل قوة المؤسسات التي أوجدها أوتو الكبير لم يحدث إنهيار الملكية الألمانية في عهد حفيده ، ذلك أن أوتو الثالث ارتقى العرش وهو طفل ، وحتى سنة ٩٩٥ كانت أمه البيزنطية ثيوفانو هي التي تحكم الامبراطورية ، ثم أعقبتها جدته أديلاد Adelaide ، وخلال السنوات السبع التي قضاها أوتو الثالث في الحكم لم يذهب إلى ألمانيا الا نادرا ، ولكنه كرس نفسه لتحقيق وانجاز خطة طموحة لبناء امبراطورية تكون روما مركزا لها . وكانت هذه الخطة نتيجة للنفوذ والتأثير الذي أحدثه في نفس الأمبراطور الشاب مدرسه الفرنسي جربير الأورلاكي Cerbert d'Aurillac ، الذي كان قد درس في أسبانيا الاسلامية وصار واحدا من أعظم علماء عصره ، وكان جربير وغيره من رجال الكنيسة ممن احتلوا مكانة وطيدة في بلاط أوتو الثالث يتحدثون عن "تجديد الامبراطورية الرومانية". وقد استطاع جربير أن يكسب أوتو الثالث الذي كان شابا سريع

---

(٣) عندما اعتلى عرش الامبراطور البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ - ٩٧٦) أراد تصفية موقف سوء التفاهيم القائم بين الامبراطورية الألمانية عن طريق المصاهرة . وبالفعل تمت الموافقة على زواج أوتو الصغير ولي العهد الألماني من الأميرة ثيوفانو Theophano ابنة رومانوس الثاني امبراطور بيزنطة الاسبق على أن يكون الصداق الذي تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية في ايطاليا ، وتم هذا الزواج فعلاً سنة ٩٧٢ ، أنظر : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ٣ج١ ص ٢٩٤ ص ٢٩٥ . (المترجم)

(٤) في سنة ٩٨٢ ، وإبان الصراع بين المسلمين وجيوش الأمبراطور ، نصب المسلمون كمينا للقوات الامبراطورية بالقرب من خليج كولون Colonne ومزقوها شر ممزق ، وهرب الامبراطور نفسه بصعوبة ، وفي الوقت نفسه جاءت الأخبار بارتداد السلاف إلى الوثنية وقتلهم لبعض رجال الكنيسة . فعقد الامبراطور أوتو الثاني مجمعاً في فيرونا سنة ٩٨٣ وقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب ضد المسلمين، وفي غمرة الاستعداد لهذه الحرب مات الامبراطور في نهاية هذه السنة ، ودفن بكنيسة القديس بطرس في روما . (المترجم)

التأثر إلى جانبه ، وأقنعه بخططه لبناء إمبراطورية رومانية جديدة تكون روما فيها مركز العالم الغربى مرة أخرى ، وبناء على ذلك اتخذ أوتو الثالث روما مركزا لاقامته ، كما أقام جربير على العرش البابوى تحت اسم سيلسفستر الثانى Sylvester II . وكان المقصود أن تكون هذه اللحظة أهم لحظة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ عصر قسطنطين ، فقد كانت المسكوكات ، والمخطوطات المصورة والأشعار التى خلفها لنا بلاط أوتو الثالث كلها تدعو إلى ايديولوجية امبراطورية مركبة متشابكة تفوق السلفية السياسية التى عرفتها الفترة الكارولنجية المتأخرة . فقد كانت مدينة روما ترمز إلى وحدة العالم السياسية ووحدة الكنيسة فى رأى واضعى النظرية الامبراطورية فى بلاط أوتو الثالث . وثمة وثيقة ترجع إلى عهد أوتو الثالث امبراطور الرومان ، كلماتها : "نحن أوتو ، عبد الحواريين ، وأوغسطس إمبراطور الرومان ، بمشيئة السيد المخلص ، نعلن روما عاصمة العالم ، ونعتز بأن الكنيسة اللاتينية هى الكنيسة الأم لجميع الكنائس" . وقد صورت هذه الأفكار فى الرسوم التى تم تنفيذها بمهارة فائقة فى عصر أوتو الثالث ، وهناك صورة يبدو فيها أوتو جالسا على عرشه وقد أحاط به من الجانبين القديس بطرس والقديس بولس ، وفى صورة أخرى تبدو بلدان أوربا وهى تقدم له الهدايا دليلا على ولائها وخضوعها .

ولم تقتصر خطة جربير على الجانب الايديولوجى ، والفن واحتفالات البلاط فحسب . فقد كانت روما ، باعتبارها رأس العالم ، تستدعى انتهاج سياسات بعينها يمكن اذا نفذت ، أن تكون ذات أثر شامل على تطور أوربا . وكانت أولى هذه السياسات تتضمن خلق امبراطورية فيدرالية كبرى تضم شرق وسط أوربا حتى تتحاشى تجدد الصراع بين الألمان والسلاف . والواقع أن أوتو قام برحلة إلى بولندا لكى يمنح دوق بولندا المسيحى لقبا تشريفيا ، ولكى يضمه الى الامبراطورية الرومانية المجددة ، كذلك تم ترتيب فيدرالى مماثل مع المجر . أما السياسة الثانية التى دفع جربير أوتو الثالث إلى تبنيها ، فكانت فى مجال العلاقات بين البابوية والامبراطورية . فلم تكن البابوية قد لعبت أى دور فى الحياة الأوربية على مدى مايقرب من قرن من الزمان بسبب خضوعها المخزى للنبلاء الرومان ، ولأن البابا سلفستر الثانى كان على وعى بالصراع الذى قد ينشأ بين الامبراطور الألمانى والبابوية فى حالة إحيائها. ومن هذه النظرة لم يكن ينبغى للبابوية أن تدعى لنفسها مزاعم دنيوية ، ولكنها ينبغى أن تصير مؤسسة روحية خالصة ، ولم يكن جربير يعتقد أن هبة قسطنطين هبة حقيقية ، وأقنع الامبراطور بأنها "أكاذيب انتحلها بعض البابوات ونسبوها إلى اسم قسطنطين الكبير".

وفى سنة ١٠٠٢ مات أوتو الثالث ، ولحق به سلفستر الثانى بعد سنة واحدة ، ومعها تلاشى مشروعهما الطموح . ففى السنة الأخيرة من حكم أوتو كان السكسون النبلاء قد أعلنوا عصيانهم بالفعل ، لأن ايديولوجية أوتو الامبراطورية تجاهلت المانيا ، كما كانت تسير فى اتجاه مضاد لمصالحهم . وقد تخلى خليفة أوتو ، وابن عمه ، هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) تماما عن خطط أوتو ، وكرس نفسه لمواصلة تدعيم السلطة الملكية فى ألمانيا . ومن المؤكد أن هذه الوسيلة كانت أكثر واقعية فى معالجة المشكلات التى واجهت الملكية الألمانية من الوسائل التى أتخذها كل من أوتو الثانى وأوتو الثالث . وثمة شك فى أن المؤسسات التى أقامها أوتو الكبير كانت قادرة على اقامة حكم آخر على غرار حكم ابنه وحفيده . وعلى أية حال ، فإنه مما يلفت النظر أن جربير تنبأ باثنين من أكثر الصراعات مرارة وهما : صراع الألمان ضد السلاف ، والنزاع بين الامبراطورية والبابوية . وهناك جوانب كثيرة من خطة تجديد "الامبراطورية الرومانية" تبدو غير ذات نفع وخالية من أى مضمون حقيقى ، الا أن جربير وتلميذه أوتو الثالث أبديا تفهما واعيا لهاتين المشكلتين اللتين كانتا من المشاكل الأساسية رغم أنهما كانتا ماتزالان فى طور التكوين .

لقد كانت الامبراطورية الأوتوية تفسر أحيانا على أنها مجرد استمرار للملكية الكارولنجية، وقد أبرز الدارسون أن ملوك أسرة أوتو كانوا يعتمدون فى سلطانهم على الرابطة التى تربطهم بالكنيسة ، وأنهم استفادوا من منهب الملكية الثيوقراطية ، كما أنهم زعزعوا الايديولوجية الامبراطورية ، وهذه كلها أفكار ومؤسسات يمكن أن نجدها فى عصر شارلمان وخلفائه . حقا أن أسس الحكومة الأوتوية كانت قد أرسيت بالفعل فى زمن الملكية الكارولنجية ، بيد أن ملوك أسرة أوتو استخدموا هذه السوابق لكى يقيموا على أساسها ملكية ناجحة طويلة العمر ، على حين لم تنتج الجهود الكارولنجة سوى الفشل المرير . ولم يكن ملوك أسرة أوتو مضطرين إلى التعامل مع مثل هذه المنطقة الشاسعة ، كما أنهم لم يصادفوا أية متاعب من جراء التأثيرات اللامركزية التى نجمت عن مبدأ السيادة الاقطاعية . وفضلا عن هذه الميزات الأولية ، فان نجاح الامبراطورية الأوتوية يجب أن يعزى إلى التحكم الصارم فى موارد الكنيسة ، وهو ماكان أوتو الكبير قد بدأه ليصير هو الأساس الذى قامت عليه السلطة الملكية القوية حتى فى غياب الملك ذى الشخصية القوية كما حدث فى ألمانيا إبان عهدى أوتو الثانى وأوتو الثالث ، لقد استطاع الحكام الساليون فى أواسط القرن الحادى عشر أن يبنوا فوق المجازات بنى جلدتهم الأوتويين ، بحيث فاقوا ما حققه الكارولنجيون من قبل ، وأضفوا مزيدا من القوة على الأسس التنظيمية للامبراطورية الألمانية .

والفترة الأوتوية ، التى تعتبر فاتحة التاريخ الألمانى ، تبدو صورة مصغرة لكل تقلبات الأحوال التى شهدتها الحضارة فيما بعد ، ففى الامبراطورية الأوتوية نرى هذا الامتزاج بين الكفاءة العدوانية التى لاترحم من ناحية ، والتعبير عن الأفكار الصبيانية الخيالية من ناحية أخرى ، أو على حد تعبير أحد الكتاب الألمان الوحدة بين الـ Macht والـ Geist وهو الأمر الذى غالبا ما تتميز به الفترة المتأخرة من تاريخ المنطقة الواقعة بين نهرى الراين والألب .

**٤- المثال الكونى**

كان التداخل بين الكنيسة Celcesia والعالم Mundus ، والذى اتسمت به الأسس التنظيمية لكل من الامبراطورية الالمانية والدوقية الرومانية قائما إلى حد بعيد على موارد الأديرة البندكية وما تقوم به نشاط . والواقع أن العلاقات بين الكنيسة والملكية فى القرنين العاشر والحادى عشر ، والنظرية المعاصرة فى التمييز بين الكنيسة والعالم ، قد قامت بفضل التعاون الوثيق بنين البندكتيين وزعماء المجتمع العلمانى ، فقد كان النظام الديرى هو حجر الأساس الذى قام عليه التوازن الدولى فى العصور الوسطى الباكرة .

هذا التوازن ، حين صارت أسسه ثابته وطيدة فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، كان يتميز بخاصية القيم والمثل والأنشطة النابعة من دير كلونى Cluny فى برجنديا والأديرة المنتسبة له . وصار البرنامج الكلونى هو التعبير الثقافى عن النظام العالمى السائد لأنه كان يجسد قيم زعيم الحركة الديرية الغربية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، إذ كان مقدم دير كلونى هو أكبر رجل دولة فى أوربا فى منتصف القرن الحادى عشر ، وكان الرهبان الكلونيون قد ارتبطوا بحكومة الأسرة السالية الألمانية التى اعتلى أول ملوكها العرش الألمانى سنة ١٠٢٤ . وقد لعب الرهبان الكلونيون دورا بارزا فى بناء الكنيسة النورمانية ، أما دير كلونى نفسه فكان أكبر أديرة أوربا وأكثرها أوقافا ، وأعظمها مكانة وهيبة فقد حاز اعجاب رجال الكنيسة واخلاص العلمانيين ، وكانت الحياة الدينية التى يلقنها تحتل مكانة القلب فى نفوس المتدينين فى مطلع القرن الحادى عشر .

كانت الحياة التى يجسدها دير كلونى فى مجملها ، استمراراً وتكثيفا" للشكل البندكتى الذى وجد فى القرن التاسع ، فقد اكتسبت الحركة الكارولنجية شكلا رسميا من خلال النظم التى وضعت سنة ٨١٧ لتنظيم الحياة الديرية ، وهى النظم التى وضعها بندكت الأنيانى St. Benedict of Aniane الذى كان لويس التقى قد عينه رئيساً" لجميع الأديرة فى المملكة الكارولنجية . وكان هدف بندكت الثانى هو تدعيم القاعدة التى وضعها بندكت الأول ، وأن

يعترف بما طرأ على الحياة الديرية الغربية من تطورات وتغيرات إبان القرون الثلاثة السابقة ، حين أخذت جماعات الرهبان السود على عاتقها القيام بالمهام الاجتماعية الضرورية . فقد تحقق بندكت الأنيانى من أن الرهبان أهملوا العمل اليدوى ، كما أنهم بدلا من ذلك باتوا يتصرفون باعتبارهم وسطاء رسميين للمجتمع العلمانى لدى الرب من خلال صلواتهم وطقوسهم الدينية ، كذلك فإنهم قاموا بمهام تعليمية وسياسية واقتصادية . هذا النمط من أنماط الحياة الديرية هو الذى تميز به دير كلونى إبان القرنين العاشر والحادي عشر .

أما البداية الحقيقية لدير كلونى فكانت متواضعة تماما فى سنة ٩١٠ ، فقد تأسس هذا الدير فى ركن مجهول من برجنديا Burgandy على يد دوق اكويتانيا فى موضع كان يشغله أحد أكواخ الصيد ، بل إن الدوق ترك كلاب الصيد فترة دون أن يفكر فى نقلها حتى يفسح مكانا للرهبان . ومع ذلك صار كلونى هو الدير القائد فى أوربا على مدى قرن من الزمان ، كما صاغ لنفسه نظاما خاصاً به ، وكانت هناك أديرة كثيرة تخضع لمقدم دير كلونى خضوعا مباشرا ، كما أن ديركلونى نفسه أسس عدة أديرة تابعة . كذلك قام عدد كبير من الأديرة التى سبقت دير كلونى فى الوجود بالانتساب إلى دير كلونى واعترفت بزعامة رئيسه ، فقد كان لدير كلونى نفوذ قوى على دير جورز Gorze الكبير فى اللورين ، كما أن الكلونيين أصلحوا دير فليرى Fleury الملكى الفرنسى الواقع على نهر اللوار ثم فرضوا سيطرتهم عليه . كذلك كان تأثير دير كلونى قويا على عملية إحياء الديرية الانجليزية التى قادها سان دونستان St. Dunstan فى أواخر القرن العاشر ، هذا كله فضلاً " عن أن دوق نورماندیا استخدم أحد الرهبان الكلونيين ، وهو مقدم دير ديجون Dijon ، لكى يبدأ عملية تطوير وتنمية الكنيسة النورمانية .

ويجب أن نعزى نجاح دير كلونى فى جانب منه إلى حقيقة أن الدير كان محصناً" ضد التدخل العلمانى والكنسى على حد سواء وأنه كان تحت الاشراف المباشر للبابا . وبما أن البابوية كانت ، فى منتصف القرن الحادى عشر ، تعانى من التدهور الشامل ، فإن رهبان دير كلونى كانوا يوجهون مصير جماعتهم بحرية تامة . وقد اختاروا لديرهم سلسلة من الرؤساء اتصفوا بالمهارة والقدرة الفائقة ، كما أنهم كانوا من أصول أرستقراطية عادة ، وتولى أولئك الرؤساء قيادة هذا الدير حتى وصلوا به إلى مكانته البارزة فى أوربا ، وهذه المقولة تصدق بشكل خاص على اثنين من مقدمى الدير توليا رئاسته معظم سنى القرن الحادى عشر وهما : أوديلو Odilo (ت ١٠٤٩) وهوف الكبير Hugh the Great (١١٠٩) . وطالب دير كلونى الأديرة الكلونية وغيرها من الأديرة المستقلة والأديرة المنتسبة إليه أن تلتزم بالقاعدة البندكتية

كما عدلها بندكت الأنيانى . وقد أحرز رهبان كلونى شهرتهم بفضل احتفالاتهم وطقوسهم التى كانوا يمارسونها فى الدير ، فقد كان الملوك والنبلاء فى شتى أنحاء أوربا ، ممن أخذوا تعاليم الكنيسة مأخذ الجد وحرصوا على ضمان الخلاص لأرواحهم وأرواح أقاربهم ، متحمسين لإغداق الأوقاف الضخمة على الدير حتى يرد ذكر أسمائهم فى الصلوات الكلونية . ولكن لم يكن هذا الفرض الصارم للنظام الديرى ، ولاربط هذا النظام بالتدين الشعبى من مكونات رصيد زعامة كلونى للعالم الأوربى فى القرن الحادى عشر . فبينما كان دير كلونى نفسه خارجا عن نطاق أية سيطرة علمانية ، لم يحرص مقدمو الدير على جعل هذا الاستقلال مطلبا أساسيا لسائر الأديرة الكلونية والأديرة المنتسبة إلى كلونى ، بل على العكس من ذلك ، كان الرهبان الكلونيون العاملون فى جميع أنحاء الغرب الأوربى يبدون اهتماما وشغفا كبيرا بالحصول على حماية الملوك والدوقات لأديرتهم ، كما كان مقدم دير كلونى ينظر بعين ملؤها الاحترام والاعجاب إلى أصدقاء الكنيسة الحاكمين فى ألمانيا ، وفرنسا ، ونورمانديا ، وانجلترا وغيرها من الدول فى غرب أوربا .كذلك كان الرهبان الكلونيون تواقين إلى تقديم خدماتهم الاستشارية ولم يكونوا يتحرجون من قبول الهدايا المعتادة مكافأة على هذه الأعمال - أى التعيين فى المناصب الأسقفية ، وقد تقبل الكلونيون انتشار مذهب الملكية الثيوقراطية فى ألمانيا ، بل إن بعضهم شجع هذا الانتشار ، كما أنهم تزعموا حركة تبجيل الحاكم باعتباره حاميا للكنيسة وصديقا لها حتى فى نورمانديا التى لم يكن بها وجود لمثل هذه التقاليد .

وقد دخلت الحركة الكلونية إلى ألمانيا عن طريق برجنديا واللورين فى مطلع القرن الحادى عشر . ومنذ البداية كان موقف الحكام الألمان مشوبا بالتعاطف إزاء نشر الحركة الكلونية فى المانيا ، وكان كونراد الثانى Conrad II (١٠٢٤ - ١٠٣٩) ، أول ملوك الأسرة السالية ، جنديا خشن الطباع ، واداريا فذا ، فاستغل رجال الكنيسة الألمانية شر استغلال ، بيد أنه كان يحبذ انتشار الحركة الكلونية فى ربوع مملكته . إلا أن التقدم الكبير فى مدى النفوذ الكلونى فى ألمانيا حدث أثناء عهد ابن كونراد ، هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) ، الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية فى مملكته ، فقد كان هنرى قد تزوج من إبنة دوق اكويتانيا الذى، كانت أسرته قد أسست دير كلونى فى مطلع القرن العاشر ، إلا أن حمية هنرى لصالح الكلونيين كانت قائمة على دوافع أكثر عمقا من مجرد الرابطة التى تربط زوجته بأكبر أديرة أوربا الغربية . ذلك أننا يمكن أن نجد فى شخصية هنرى الثالث وقيمه ومثله العليا مانراه فى المظهر الخارجى والسلوك الظاهرى لحكام فرنسا وانجلترا ونورمالنديا فى منتصف القرن الحادى عشر - أى الحرص على تنصير أوربا تماما . فقد كان زعماء الغرب الأوربى ، وهم تقريبا حكام تلك الفترة ، وكثيرون من النبلاء العاديين ، يأخذون تعاليم الكنيسة مأخذ

الجد بحيث تتحكم فى حياتهم . وكان معاصرو هنرى الثالث يشعرون أنه راهب فى ثياب دنيوية ، كذلك كان ادوارد المعترف Edward the Confessor ملك انجلترا ، الذى كرس قديسا فى فترة لاحقة ، من نفس الطراز . ففى جميع أنحاء أوربا منتصف القرن الحادى عشر كان الملوك والدوقات والنبلاء يشيدون الكنائس ويغدقون الأوقاف على الأديرة . وقيض للاكليروس النظامى (الرهبان) على نحو خاص ، أن يلاقوا من المجتمع العلمانى كافة ضروب الإخلاص والاحترام ، فقد كانت الوساطة أو الشفاعة التى يقوم بها الديريون ضرورية للدخول فى رحاب الرحمة السماوية ، ومن ثم كان النبلاء حين يحسون بدنو المنية يلجأون إلى أقرب دير حيث يموتون وهم فى ثياب الرهبنة ، ولم تكن الهبات تمنح للأديرة من أجل خلاص أرواح أقارب محددين بالاسم ، وإنما كانت تعطى من أجل جميع المؤمنين الأحياء منهم والأموات ، وفى القرن الحادى عشر تم تثبيت يوم عيد أرواح الموتى [٥] فى تقويم الكنيسة .

ولم يكن انتشار روح التقوى بين العلمانيين يعنى ، بأى حال من الأحوال ، أن الملوك والدوقات كانوا على استعداد للخضوع للسلطة الكنسية . فعلى العكس ، أتاح هذا الانتشار المزيد من الأسس العقلانية لسيطرة الملوك على الكنيسة ، لأنه جعل الملوك يشعرون أنهم روحانيون مثل رجال الكنيسة بالضبط . وليست هناك حالة يمكن أن نلاحظ ذلك من خلالها مثل حالة الامبراطور الألمانى هنرى الثالث . فلم يكن مجرد حاكم وراع كبير للتنظيم الكلونى فى ألمانيا ، ولكنه هو نفسه كان به هوى إلى تبنى المواقف الديرية ، فقد كان من أعظم دواعى سروره أن يشارك فى تحويل الذخائر المقدسة (مخلفات القديسين ورفاتهم) إلى مزار جديد ، كما أنه كان ولوعا بإلقاء الخطب التى يعلن فيها العفو عن جميع أعدائه ، وفى الوقت نفسه ، كان يعتقد أنه قد تولى منصبا قدسيا عندما تم تتويجه ، وأن لديه سلطة روحية كاملة تخول له أن يخلع رموز المنصب الكنسى على الأسقف أو مقدم الدير ، كما تخول له أن ينظم شئون الكنيسة . وكان يعتقد أن المسيح يبارك سلطته الملكية كما يبارك عمل القسيس فى احتفال القداس . وباعتباره ممثلا للمسيح على الأرض ، كان هنرى الثالث يشعر أنه مضطر إلى حكم الكنيسة الألمانية ومرغم أيضا على تنظيم أمور البابوية التى كانت فى حال من الهوان وغارقة فى الفضائح على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وفى سنة ١٠٥٤ كان هناك ما لايقل عن ثلاثة بابوات يتنافسون على عرش القديس بطرس فى روما ، وكانوا من سلالة النبلاء الرومان المشاغبين الفاسدين . ويعتبر مجمع سوترى Sutri الذى عقد سنة ١٠٥٤ ، والذى دعا إليه وتولى رئاسته هنرى الثالث ، الخطوة الأولى على طريق إصلاح البابوية فى القرن الحادى عشر ،

---

(٥) يحل فى الثانى من نوفمبر كل سنة .

وفى مدى عامين عين هنرى ثلاثة من الأساقفة الألمان على عرش القديس بطرس ، وصارت بابوية آخرهم ليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ - ١٠٥٤) هى المنعطف الهام فى طريق تطور وتقدم بابوية القرن الحادى عشر .

ولم تكن اهتمامات هنرى الثالث فى مجال التقوى والكنيسة لتحتجب وراء مواصلته للعمل الذى كانت أسرة أوتو قد بدأته ، أو وراء إضافاته إلى الأسس التنظيمية للسلطة الملكية فى ألمانيا . ولأنه كان شخصية قوية ، ومحاربا مقتدرا ، وملكا ثيوقراطيا ، واداريا عظيما ، فإنه كان بمثابة التجسيد الحى للملكية فى العصور الوسطى الباكرة ، فقد جمع كل السجايا والميزات التى تخلق الملكية الناجحة . وقد أدرك هنرى الثالث أن الملكية الألمانية ماتزال بحاجة إلى المؤسسات القوية الثابتة ، كما أدرك أنها ماتزال تعتمد على موارد الكنيسة ، وعقيدتها ، ورجالها بشكل شامل ، وقد توصل إلى نمط جديد من الجندى الملكى والإدارى الملكى فى النظام المعروف باسم المنستر ياليس Ministerialis وهو اصطلاح يدل على الفارس - القن الذى حصل على أفضل تدريب وتجهيز عرفه ذلك الزمان ، ولكنه لم يكن يتمتع بالمكانة القانونية للرجل الحر ، ولم يكن دخوله فى علاقة التبعية الاقطاعية Vassal-age تطوعا أو بإرادته ، وإنما كان اعتماده على سيده اعتمادا كاملا . ولم يكن الفرسان - الاقنان Serf-knights نظاما ألمانيا شاملا ، بل إنهم لم يلعبوا أى دور هام خارج الامبراطورية السالية ، ويبدو أن رجال الكنيسة الألمان هم أول من جندوا الأقنان فى ضياعهم ودربوهم كفرسان ، ولكن هنرى الثالث كان هو الذى جعل من نظام Ministerialis مؤسسة ملكية هامة. فقد استخدم هذا النظام لتوفير حاميات القلاع التى كان يشيدها فى شتى أنحاء الشمال الألمانى ، وكانت خطته أن يوصل سكسونيا بفرانكونيا ، مسقط رأس الأسرة السالية، ويجعل من هذه الدوقيات جزءا من أراضى التاج الدائمة . وهكذا اكتشف هنرى الثالث نمطا جديدا من الأفراد لجيشه ولأجهزة الحكم المحلى ، وفى غمرة اهتمامه بتكوين أراضى التاج الألمانى وضع أسسا سياسية مشابهة لتلك السياسة التى كان ملوك آل كابيه ينتهجونها بنجاح كبير فى آخريات القرن الثانى عشر وابان القرن الثالث عشر . كما جعل عاصمته عند قلعة جوسلر Goslar الكبيرة فى سكسونيا ، التى كانت تقع بالقرب من مناجم الفضة التى اكتشفت فى عهد أوتو الأول ، ثم انطلق مستخدما فرسانه الكنسيين والفرسان الأقنان Serf - Knights فى عملية اخضاع النبلاء السكسون المتمردين والفلاحين الأحرار لسيطرة الأسرة السالية التامة .

وفى سنة ١٠٥٠ كان يبدو أن مصير ألمانيا السياسى لابد وأن يتأثر بسلطة الحكومة المركزية الآخذة فى النمو ، على نحو ماحدث لنورماندیا . ولم يكن العالم الذى كان فيه دير

كلونى هو القوة الروحية الرائدة يتميز فقط بأنه شهد المرحلة الأخيرة من مراحل تنصير أوربا ، ولكنه أيضا شهد فى كل من نورمانديا وألمانيا تحقيق قدر من التنظيم السياسى والاجتماعى لم تكن أوربا الغربية قد عرفته منذ انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية .

لقد اتخذت المثل والقيم والملكية التى سادت فى القرن الحادى عشر شكلا ثابتا تمثل فى طراز المبانى التى اختار لها مؤرخو الفن المحدثون اسم الرومانسك Romanesque وفى وديان الأنهار فى ألمانيا الغربية ، وفرنسا ، وشمال أسبانيا قامت عند منتصف القرن الحادى عشر كثير من الكنائس المشيدة بالأحجار لكى تفى بحاجات الصفوة من الملوك والاقطاعيين ورجال الكنيسة ، وهذه الكنائس التى وصفت بأنها من طراز الرومانسك تكشف عن اختلافات اقليمية ومحلية شديدة فى طريقة بنائها ، إلا أنها ، مع هذا تشترك فى عدة أمور عامة . هذه الأبنية الكنسية تتجه إلى صغر الحجم إذا ما قارناها بالكنائس الفخمة التى شيدت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . فقد كانت الكنائس الرومانسك مجرد كنائس صغيرة للهيراركية العلمانية والدينية ، على حين كانت الكنائس القوطية اللاحقة قد صممت على أساسا استيعاب الجماهير فى الصلوات العامة . والأمر الثانى العام بين الكنائس الرومانسك ، هو أنها كانت قلاعا كنسية ، إذ أنها بنيت على أيدى نفس المهندسين والفنانين الذين شيدوا القلاع الاقطاعية فى القرن الحادى عشر ، لقد كانت الكنيسة الرومانسك هى قلعة الرب ، وكانت تعكس الرؤية التى ترى المسيح رئيسا للهيراركية الاقطاعية والملوك الثيوقراطيين . أما الأمر الثالث ، فهو أن الكنائس الرومانسك كانت معتمة من الداخل ، فقد كانت بالحوائط نوافذ قليلة تسمح للضوء بالدخول ، ولم تكن هذه نتيجة التخلف التكنولوجى فحسب ، وإنما كانت أيضا من نتائج الشخصية الخاصة لهذا النوع من بيوت العبادة باعتبارها مكانا للصفوة. وأخيرا فإن الطراز الرومانسك يتميز بوفرة الزخارف والتماثيل ، التى تتميز بسماتها الفردية وبكونها أقل عالمية من الطراز القوطى الذى شاع فى القرن الثالث عشر ، ومرة أخرى تعكس هذه الخاصية الشخصية الخاصة التى تمثل الصفوة وهى الخاصية التى يتميز بها الفن الرومانسك . بيد أنها تكشف أيضا عن ازدياد الوعى بالذات وعن الثقة التى سادت فى العالم الكلونى فى منتصف القرن الحادى عشر . وباعتبار الكنائس الرومانسك المشيدة بالأحجار الأساس الذى تقوم عليه الهندسة الانسانية ، فانها تعد علامة على التقدم المذهل الذى فاق الكنائس الكارولنجية بكثير . وفى حوض الراين وجنوب فرنسا ، وشمال أسبانيا لاتزال معظم هذه المبانى قائمة كآثار تشهد على العقلانية ، والتقوى والثروة ، والسلطة العامة النامية – وهى كلها أمور تميز بها عصر هنرى الثالث ، كما تشهد أيضا على قيادة دير كلونى للحياة الثقافية فى أوربا .

# الفصل العاشر

# بيزنطة والعالم الاسلامى والغرب

## ١- مواطن الضعف فى الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية

فى ستينيات القرن العاشر أرسل الامبراطور الألمانى أوتو الأول اسقفا من لمبارديا ، هو لويدبراند الكريمونى Liudprand of Cremona فى سفارة الى القسطنطينية للبحث عن عروس من الأميرات البيزنطيات لابنه . ولم تنجح هذه السفارة ، ولكن لويدبراند ترك تقريرا عن خبراته أثناء هذه السفارة صور فيه رؤيته التوضيحية من داخل العلاقات بين الحضارة الأوربية التى كانت ماتزال فى طور حداثتها ، وحضارة البحر المتوسط العريقة الثرية . فقد كان البيزنطيون يعتبرون الألمان برابرة همج من محدثى النعمة ، كما كان لويدبراند نفسه مدركا لحقيقة انه لم يكن هناك شىء فى الغرب يمكن أن يتشابه ، ولو من بعيد ، مع ثروة القسطنطينية ورفاهيتها ، وتعين عليه أن يعوض شعوره بالنقص بأن يصم البيزنطيين بأنهم مخنثون فاسدون، يعيشون على أمجاد عصر غابر . وقد رسم صورة لبطله أوتو يبدو فيها رجلا شجاعا أمينا ، على حين صور الامبراطور البيزنطى فى صورة الجبان الملتو . ويعكس التقرير الذى كتبه لويدبراند عن سفارته المواجهة بين القديم والجديد ، أو المواجهة بين حضارة بدأت لتوها فى تطوير شكلها المميز ، وحضارة وصلت إلى أقصى حدودها . ففى منتصف القرن العاشر كانت المقارنة بين حضارة غرب أوربا من ناحية ، والحضارتين البيزنطية والاسلامية من جهة اخرى ، تكشف عن ان غرب اوربا منطقة متخلفة فقيرة ، وبعد ذلك بمائة سنة بدأت بيزنطة تدخل طريقها الطويل صوب السقوط - كذلك كان العالم العربى قد وصل الى قمة نموه الثقافى والسياسى - على حين كانت أوربا العصور الوسطى على أعتاب عصر الابداع والتقدم ، كما كانت الشعوب اللاتينية قد بدأت توغلها الاقتصادى والسياسى فى عالم البحر المتوسط . هذا التغير الأساسى فى المواقف النسبية لكل من بيزنطة والعالم الاسلامى والغرب يعتبر علامة على نهاية فترة العصور الوسطى الباكرة .

وفى منتصف القرن العاشر دخلت بيزنطة آخر عصورها الذهبية تحت حكم الأسرة المقدونية الذى اتسم بالحكمة والعدوانية معا ، ولاسيما خلال عهد باسيل الثانى Basil II (٩٦٣-١٠٢٥) فقد تبدت قوة النظام الحكومى ، والاقتصاد ، والحياة الثقافية البيزنطية فى عنفوان قوتها على نحو لم يحدث منذ عهد جستنيان فى القرن السادس . فقد أخمدت الأسرة

المقدونية النزاع الأيقونى ، الذى ظل ناشبا بصورة متقطعة منذ النصف الأول من القرن الثامن، وأخذت برأى الكنيسة الارثوذكسية فى مسألة الصور المقدسة ، كما أن ملوك هذه الأسرة تولوا حماية طبقة الفلاحين من النهب الذى كانوا يتعرضون له من قبل ملاك الأراضى الأثرياء الذين كان هدفهم تحويل السلطة السياسية الى سلطة لامركزية على النحو الذى أودى بالامبراطورية الكارولنجية . وقام باسيل الثانى بالقضاء على قوة البلغار الآسيويين الذين كانوا يضغطون على الحدود البيزنطية فى البلقان ، كما شن هجوما مضادا ضد القوى الاسلامية فى الشرق الأوسط ، واستعاد انطاكية وقبرص وكريت تحت الحكم البيزنطى من جديد ، كما أفاد الامبراطور من سيطرته على تجارة القسطنطينية التى ربما كانت أغنى مدينة فى العالم فى القرن العاشر . هذه الانجازات السياسية والاقتصادية كانت مصحوبة بازدهار ورواج ثقافى أطلق عليه مؤرخو الفن "النهضة المقدونية Macedonian Renaissance ، وقد تميزت المخطوطات المصورة الفخمة بدرجة عالية من الطبيعة الكلاسيكية فى تصورها للشخوص الانسانية .

ولكن العصر المقدونى كان آخر انجازات بيزنطة قبل أن يبدأ الغروب الطويل للحضارة البيزنطية . فقد أدى ظهور مبدأ السيادة الاقطاعية ، بعد الربع الأول من القرن الحادى عشر ، إلى اضعاف سلطة الدولة البيزنطية من الداخل . وفى منتصف القرن الحادى عشر جاءت موجة من الغزاة الآسيويين يطرقون عالم البحر المتوسط ، أولئكم هم الاتراك السلاجقة الذين أجبروا البيزنطيين مرة أخرى على الدخول فى صراع من أجل البقاء ، ومع بداية سبعينيات القرن الحادى عشر كانت الاماكن التى فتحها باسيل الثانى قد عادت من جديد الى المسلمين ، وتعين على الامبراطور اليائس أن يطلب المساعدة من البابوية حتى لاتسقط القسطنطينية .

إن تاريخ بيزنطة عبارة عن دراسة للفشل والاخفاق ، إذ أن الامبراطورية ، التى اتخذت من القسطنطينية مركزا لها ، بدأت حياتها بجميع المميزات المتحصلة من موروثها فى ميادين السياسة ، والاقتصاد والفكر فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ، وباستثناء مجال الفن ، الذى امتاز فيه البيزنطيون ، لم تضف بيزنطة شيئا ذا بال الى هذا الاساس . ذلك أن الامبراطورية الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى لم تقدم أية مساهمة هامة فى مجال الفلسفة أو اللاهوت أو العلوم أو الآداب ، وبقيت مؤسساتها السياسية ثابتة فى مقوماتها الأساسية ولم تتغير عن تلك المؤسسات التى كانت موجودة زمن ثيودوسيوس الكبيرفى نهاية القرن الرابع . بينما استمر البيزنطيون يستمتعون بحياة حضرية وتجارية نشيطة ، فإنهم لم يحرزوا أى تقدم أساسى فى تكنولوجيا الصناعة والتجارة يخرج بها عن حدود التطورات التى

تمت فى مدن العالم القديم . وكثيرا ما أنحى المؤرخون المحدثون المتخصصون فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية فى الوسطى باللائمة ووجهوا النقد المرير الى الاتجاه الذى ساد بين مؤرخى القرن التاسع عشر لتصوير بيزنطة كما لو كانت حضارة ذابلة ضامرة . ومع هذا فانه يصعب أن نجد ، خارج نطاق الفن ، أية مساهمة من جانب الشعوب الناطقة باليونانية سواء من خلال الافكار الابداعية أو من خلال المؤسسات والنظم . وربما كانت طبيعة بيزنطة العصور الوسطى غير التقدمية راجعة الى الميراث الشاسع الذى خلفه العالم الرومانى ، والذى ورثه البيزنطيون كما هو . ومن الواضح أن العالم البيزنطى كان فعلا قد وجد الحل لمعظم مشاكله فى مجال الحكم والاقتصاد والفكر الراقى . ومن ثم فإن المهمة التى كرس البيزنطيون أنفسهم لها كانت مجرد مهمة واحدة هى الحفاظ على الكيان المريح المرضى الذى ورثوه . وبطبيعة الحال ، ينبغى أن تعزى جوانب القصور فى الحضارة البيزنطية الى الضغوط الهائلة التى تعرضت لها الامبراطورية بلا انقطاع تقريبا ، منذ القرن السادس فصاعداً، فقد كان على البيزنطيين ان يسخروا كل الموارد التى فى متناولهم لكى يصدوا العرب وغيرهم من الأعداء ، وبهذا أهدروا طاقاتهم على نحو جعل ثقافتهم تتخذ طابع الجمود رويدا رويدا .

ولم يكن توغل الاتراك السلاجقة فى عالم البحر المتوسط نعمة على الحضارة الاسلامية فى القرن الحادى عشر ، فقد كان مستوى الثقافة التركية أقل كثيرا من مستوى الشعوب المتحضرة الناطقة باللغة العربية فى شرق البحر المتوسط . وقد نتج عن محاولة الاتراك الاستحواذ على السلطة السياسية فى الشرق الاوسط أن انقسم العالم الاسلامى على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وعند الطرف الغربى من البحر المتوسط حدث توغل مماثل فى القرن الحادى عشر حين تمكن رجال قبائل البربر البدوية القاطنة فى صحراء شمال أفريقيا من عبور مضيق جبل طارق وفرضوا سيطرتهم على اسبانيا الاسلامية . وهكذا كان العالم الاسلامى عند طرفى البحر المتوسط فى منتصف القرن الحادى عشر يعانى من انتقال السلطة السياسية الى التطهريين المتعصبين الذين لم يكن يعنيهم شيء من الانجازات الرائعة التى أحرزها الفكر العربى ، والذين استجابوا للقيود السنية على الفلسفة والعلوم . وبعد القرن العاشر بات ضعف التراث السياسى العربى اكثر وضوحا ، اذ كانت المؤسسات السياسية الاسلامية القائمة آنذاك هى بالضبط مؤسسات الطغيان والاستبداد الشرقى . ويتميز تاريخ الاسلام السياسى فى أواخر العصور الوسطى بعدم مسئولية الحاكم عن رفاهية الرعية ، كما يتميز بتعدد ثورات القصر التى هى من لوازم هذا النمط من النظام الاسلامى . وقد نتج عن عدم الاستقرار السياسى الذى تفشى فى العالم الاسلامى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر أن أهمل نظام الرى فى حوض البحر المتوسط ، وهو النظام الذى عرف طريقه إلى الوجود فى بعض

الأحوال منذ ثلاثة آلاف سنة وقامت عليه رفاهية ورخاء البلاد العربية . ومع ذلك فان العالم الاسلامي لم يكن قد دخل بعد مرحلة التدهور العميق فى سنة ١٠٥٠ ، فقد كان المستقبل مايزال يخبيء له بعض أعظم انجازاته العسكرية والفكرية ، كذلك كان التاجر المسلم مايزال هو المسيطر فى عالم البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر ، بيد أن أعظم أيام الاسلام كانت قد ولت ، كما أن قوة الحضارة الاسلامية كانت قد بدأت تنزل عن مستواها الابداعي . هذه النقائص التى شابت الحضارة الاسلامية هى السبب وراء عدم قدرة العرب على منع الشعوب الأوربية من التوغل فى عالم البحر المتوسط فى القرنين العاشر والحادى عشر .

### ٢- صعود أوربا

كان الغرب الأوربى فى القرن العاشر ما يزال منطقة فقيرة متخلفة ريفية الطابع ، وقليلة السكان بالنسبة إلى العالمين البيزنطى والاسلامى . ولكن بينما كان البيزنطيون والعرب قد وصلوا إلى أبعد مدى فى تطورهم الاقتصادى كانت أوربا الغربية تبدأ لتوها ثورة ديموجرافية وتكنولوجية قدر لها أن تحمل العالم اللاتينى ، خلال قرنين من الزمان ، إلى مستوى تجارى وصناعى يفوق فى مداه الانجازات الاقتصادية التى تمت فى أى مكان ، وخلال أية فترة فى العصور الوسطى الباكرة ، بل وربما فى العالم القديم أيضا . فأوربا الغربية فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ تتوافق مع المرحلة الثانية من نظرية روستور W.W. Rostow عن مراحل النمو الاقتصادى ، وهو تفسير للتاريخ الاقتصادى نشر سنة ١٩٦٠ ، ووفقا لرأى روستو تكون المرحلة الزراعية التقليدية هى أولى مراحل النمو الاقتصادى ، وهو ماينطبق على شكل الاقتصاد الأوربى فيما بين سنة ٥٥٠ وسنة ٩٠٠ وبعد ذلك يحقق المجتمع الشروط اللازمة "للإنطلاق" إذ تكون "الوسائل الزراعية المتطورة قد حررت المزيد من السكان من ربقة الممارسات الزراعية" و"استخدمت الوسائل التقنية من أجل إيجاد مصدر للتصدير ، كما تم رصد الأموال العامة لخدمات النقل ، والتعليم ومصادر الطاقة" . هذا الوصف يلخص تاريخ أوربا الاقتصادى بين سنتى ٩٠٠ ، ١٠٥٠ وقد كان للتطور فى مجال السكان والتكنولوجيا ، والتجارة والصناعة خلال هذه السنوات المائة والخمسين فضل وجود فترة الانطلاق التى شهدت نموا سريعا فى عدد من القطاعات الأساسية فى المجال الاقتصادى . هذه المرحلة الثالثة التى خلالها "يتم النمو بشكل تلقائى ، وتظهر الاستثمارات الكافية لتحقق الزيادة فى معدل الانتاج بالنسبة الى المستهلكين - هذه المرحلة تنطبق على الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر .

والمرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادى ، أى المرحلة التى مهددت ظروف ما قبل الانطلاق صارت ممكنة بفضل التوازن الدولى فى اوربا اوائل العصور الوسطى ، فالنظام السياسى والاجتماعى الجديد ، والتحسن الذى طرأ فى مجال السلم والتنظيم الحكومى الجيد ، وتنصير اوربا ، وانتشار التعليم والذكاء الاجتماعى - كل ذلك خلق مناخا شجع على التفاؤل، والقيام بالمشروعات ، والاتصالات المتطورة ، والابتكارات التكنولوجية . وكانت الحياة الأوربية ماتزال تعانى قدرا كبيرا من العنف بيد أنه كان هناك قدر كاف من السلم والنظام فى مناطق عديدة اتاح للناس أن يسخروا طاقاتهم فى سبيل شىء أفضل من الحرب التى كان الكل يشنها ضد الكل - هذا الشىء هو تحسين احوالهم المادية . وفى القرن العاشر أخذ الشعب الاوربى بوسائل التطور التكنولوجى التى كانت متاحة فى عالم البحر المتوسط منذ قرون سلفت. فقد أتاح استجلاب لجام الفرس والركاب للناس فى اوربا فرصة زيادة استفادتهم من طاقة الخيل ، وقال بعض المؤرخين ان الركاب قد أتاح الفرصة لظهور الفارس الذى يستطيع الوقوف فى الركاب وقذف الحربة ضد خصمه ، ولكن هذا الشكل المتقدم من الفروسية العسكرية لم يظهر فعلا حتى القرن الثانى عشر ، وحتى ذلك الحين كما توضح الرسوم المعاصرة ، كان فرسان العصور الوسطى يقذفون حرابهم الخشبية بسنونها المعدنية بطريقة محاربى الكومانش Comanche فى القرن التاسع عشر . أما الابتكارات فى مجال التحكم فى قوة الخيل ، فقد تركزت أساسا فى نطاق تحسين وسائل النقل فى اوربا القرن العاشر ، كما أن الأوربيين بدأوا يفيدون من قوة المياه على الأرض ، ومن قوة الريح فوق البحر بدرجة أكبر من ذى قبل ، وكان اختراع الطواحين المائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال مما ساهم فى توفير المزيد من الطعام ، كذلك استخدمت قوى المياه لتشغيل مصانع نشر الأخشاب بحيث أمكن توفير قدر اكبر من الأخشاب الجيدة اللازمة للبناء ، كما أن تطور الشراع أتاح للسفن العاملة فى تجارة شواطىء المحيط الاطلنطى وبحر البلطيق أن تبحر ضد الريح ، وهو الأمر الذى لم يكن ممكنا باستخدام الشراع المربع القديم . واستخدم الايطاليون ، فى إبحارهم وتجارتهم البعيدة المدى فى البحر المتوسط سفنا بيزنطية الطراز كانت تطويرا لسفن العالم القديم ذات المجاديف .

هذه التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية تساعدنا الى حد كبير فى تفسير تزايد عدد سكان أوربا تزايدا مطردا منذ منتصف القرن العاشر ، إذ لم يكن هناك ثمة تغير فى أحوال أوربا فى مجال الطب الذى كان مايزال على بدائيته ، كما لم يطرأ أى تحسن أو زيادة فى متوسط العمر، بيد أن توفر الطعام قد أدى بالضرورة الى تناقض وفيات الأطفال ، ولاح الأمل أمام

جميع طبقات المجتمع فى إمكانية التحكم فى البيئة الطبيعية ، كما كان الأمل يزداد فى حياة أفضل ، وقد أدت الثقة فى المستقبل ، وانتشار تعاليم المسيحية بين جميع الطبقات الى ازدياد احترام قيمة الحياة الانسانية ، كما خلقت مناخا أفضل لوجود الاسرات الكبيرة العدد .

ولاشىء يكشف عن تأثيرات التغير الاجتماعى والتكنولوجى فى غرب أوربا بطريقة أفضل مما يتضح من خلال الأبناء الكثيرين للسيد الاقطاعى ، والفارس ، والفلاح ، وغيرهم من الناس الذين كانوا يبحثون عن حياة أفضل لأنفسهم ، وقد تمكن أحفاد العائلات الارستقراطية أن يحصلوا لأنفسهم على أملاك شاسعة فى اقاليمهم التى كانت السلطة المركزية فيها فى أضعف حالاتها . وبينما انتقل آخرون الى مناطق الحدود أو حتى الى ماوراء البحار سعيا وراء محاولة انتزاع اقطاعات لأنفسهم ، وكان صغار الفرسان يتنافسون مع بعضهم البعض لكى يصيروا أفصالا لسيد اقطاعى ذائع الصيت ، فاذا ما فشلوا فى ذلك راحوا يتبعون النبلاء الطموحين فى مغامراتهم المتجددة بقصد السلب والنهب ، كذلك كانت الفرصة متاحة أمام الفلاحين الفقراء فى القرن العاشر على نحو أفضل من ذى قبل ، وأفضل من الفترة اللاحقة على مدى قرون أربعة على الأقل . لقد كان القرن العاشر هو أعظم فترات استعمار أوربا من الداخل ، أى تحويل بعض المساحات الشاسعة التى تشغلها الغابات وتغطيها المستنقعات إلى أراضى زراعية . فقد تعلم الفلاحون كيف يستفيدون اكثر من الدورة الزراعية ، بأن يتركوا حقلا او إثنين من الحقول المفتوحة فى زمام القرية فى كل سنة لكى تستعيد خصوبتها ، ومن ثم تزيد غلتها ، وفى المانيا كان ابناء الفلاحين الأقوى جسديا ينالون فرصة من نوع خاص لتحسين احوالهم ، وذلك بأن ينخرط بعضهم فى سلك الفرسان - الأقنان Ministerialis وفيه كانوا يترقون حتى يصل الواحد منهم الى رتبة قائد قلعة ملكية .

وفى مناطق عديد من اوربا القرن العاشر ، لجأ بعض فقراء الفرسان والفلاحين الاذكياء الى وسيلة لم يسبق لها مثيل لتحسين احوالهم الاقتصادية ، فقد اقاموا بالمدن وصاروا تجارا وحرفيين . وتبدو عملية ظهور الحياة الحضرية فى اوربا القرن العاشر غامضة بسبب المعالجة التقسيمية التى قام بها هنرى بيرين فى مقالة الرائع "Medieval cities" فقد اصر بيرين فى هذه المقالة ، وفى مؤلفاته الأخرى القيمة ، على أن مدن القرن العاشر نبتت اصلا فى ظل التجارة الدولية . فقد ذكر ان التجار المشتغلين بالتجارة العالمية قد تجمعوا طلبا للحماية فى ظل قلعة ما Burg يملكها أمير علمانى أو أمير كنسى ، وقام أولئك البورجوازيون بتحويل مدنهم إلى مراكز للتجارة العالمية ، وعندما تزايد عدد البورجوازيين بنوا سورا حولهم، ومع نمو

الضواحي بات من الضرورى ، بعد خمسين أو مائة سنة اخرى ، بناء سور جديد . وهكذا استطاع بيرين ، قياسا على الاسوار الباقية فى مدن وطنه بلجيكا ، أن يوضح ان نمو المدن قد تم على شكل دوائر متحدة المركز ظلت تقوم بدورها كمؤشرات دالة على النمو المستمر للمدن التجارية . هذا النموذج المرتب للنمو الحضرى فى العصور الوسطى وجد بالفعل فى اقليم الفلاندرز واراضى الراين ، بيد أنه كانت هناك مدن فى مناطق أخرى من أوربا كانت بداياتها وطبيعتها مختلفة الى حد ما ، فقد كانت معظم المدن الايطالية موجودة منذ العصور الرومانية ولكنها تعرضت للاهمال ونقص السكان على مدى قرون عديدة . وفى القرن العاشر بدأ الناس يتحركون من المناطق الريفية المجاورة الى داخل المدن لكى يعملوا فى التجارة والصناعة ، ومرة أخرى تحولت هذه المدن الى مراكز للحياة الحضارية كانت هناك بعض المدن التى ظهرت فى بداية الأمر من القلاع Burghs ، ثم آل امرها الى أن صارت مجرد مراكز للتجارة المحلية ، وبحلول سنة ١٠٥٠ ظهرت فى شتى بقاع اوربا مدن كانت مجرد قرى كبيرة تسكنها مجموعة من الفلاحين الأثرياء الطموحين فحولوها الى أسواق لخدمة جيرانهم المباشرين . وهناك العديد من المدن الصغيرة فى انجلترا مايزال الشارع الرئيسى فى كل منها يحمل اسم سوق الغلال .

وثمة رجل من رجال الكنيسة الانجليزية فى القرن العاشر حدد لنا ثلاث طبقات فى المجتمع هى : من يحاربون ، ومن يصلون ، ومن يعملون ، ولم يذكر شيئا عن البورجوازيين الذين لم يكن لهم مكان فى البنية التقليدية للمجتمع ، بل إن القانون الجرمانى لم يجعل للبورجوازى دية Wergeld فهل كان البورجوازى رجلاً حراً أم كان غير حر ؟ فى ذلك الحين لم تكن هناك إجابة واضحة على هذا السؤال فى مناطق شمال اوربا ، ولم تستطع المدن أن تحصل على حق إدارة شئونها الداخلية قبل مضى ثلاثة قرون ، وعندها صار الرجل البورجوازى يتمتع بنفس مكانة الرجل الحر فى دوائر المحاكم الملكية والدوقيات ، وعادة ما كان يتم شراء هذه الحقوق بأثمان باهظة يمنح الملك أو السيد الاقطاعى أو الأسقف مقابلها وثيقة للمدينة تتضمن كافة حقوقها وحرياتها .

لقد كان السواد الأعظم فى المجتمع ، آنذاك ، ينظرون بعيون ملؤها الشك والريبة الى مجموعة من الرجال الذين كانت أصولهم متواضعة وغامضة للغاية ، ويكسبون عيشهم بسبل ارتبطت ، بالضرورة بطريدى المجتمع والأجانب من أمثال اليهود والعرب . وبينما كان ملاك الأراضى يستمتعون بعوائد التبادل التجارى والانتاج الصناعى ، التى كان البورجوازيون يعطونها لهم ، لم يكن الملوك والدوقات والأساقفة والسادة الاقطاعيون يرون فى أكثر

البورجوازيين ثراء ندا لهم ، كما أنهم كانوا يرفضون منح شعب المدينة حريته . كان بورجوازيو القرنين العاشر والحادى عشر يتعرضون للضغوط والابتزاز والضرائب الباهظة ، كما كانوا يلقون الكثير من صنوف الامتهان والاحتقار ، وقد أدى هذا إلى اعتماد البورجوازيين على مواردهم الخاصة ، وهو ما أدى إلى التضامن والنظام اللذين كانا من أبرز سمات مدن العصور الوسطى ، ففى القرن العاشر ، بدأ سكان المدن ، الذين كانوا يسكنون المنازل الصغيرة المعتمة على جانبى الشوارع القذرة المليئة بالنتوءات والكسور ، والذين يحيط بهم عالم معاد لايحفل بهم على الاطلاق - بدأوا ينظمون كافة جوانب الحياة الحضرية بكفاءة أخاذة .

وفى أخريات القرن العاشر كانت قد وجدت بالفعل نقابات للتجار والحرفيين فى ايطاليا بل وفى حوض الراين ، وهى النقابات التى نظمت التجارة والصناعة على أسس واعية . وكانت نقابات التجارة تجمعات تضامنية تضم المشتغلين بالتجارة العالمية ، أما النقابات الحرفية فكان يسيطر عليها معلمو الحرف الذين كانوا يضعون أسس تحديد مستوى المنتجات الصناعية ، ويحددون الأسعار ، ويتحكمون تماما فى الصناع والصبيان العاملين فى حوانيتهم . وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر اتبعت المدن الإيطالية نظام الكوميون - اى الرابطة التى تقوم على اداء اليمين من قبل اناس تجمعوا سويا لغرض ما - الذى كان معروفا فى المناطق الريفية ، وصار هذا النظام بمثابة الأساس القانونى الذى بمقتضاه تحولت المدن الايطالية إلى جماعات تتمتع بالاستقلال الذاتى ، وبحلول سنة ١٠٥٠ كانت ثمة ملامح عامة من ملامح الحياة فى العصور الوسطى قد تبدت واضحة فى أوليجاركية صغيرة من كبار التجار الذين فرضوا سيطرتهم على نقابات التجار فى كل مدينة ، كما تحكموا فى حكومة المدينة ، وفى مدينة ميلانو ، التى كانت مركزا آخر .

وقد شهدت المرحلة الثانية من مراحل النمو الاقتصادى ، التى كانت اوربا تعانى مخاضها فيما بين سنة ٩٠٠ وسنة ١٠٥٠ ، توجيه بعض المصادر الطبيعية الى التصدير . وكانت المدن الفلمنكية هى التى اكتشفت اول انتاج رئيسى فى التجارة العالمية فى اوربا العصور الوسطى؛ فقد قام الفلاحون فى أواخر القرن العاشر بتجفيف مستنقعات الفلاندرز ، رحين اكتشفوا أن الاراضى التى استصلحوها لاتصلح للزراعة استخدموها كمراعى للماشية ، وكانوا يحصلون على قدر من الصوف يكفى لصناعة أقمشة التصدير ، وعلى أساس هذه التجارة ازدهرت مدينتا جنت Ghent ويبرس Ypres الفلمنكيتان فى القرن الحادى عشر . وببزوغ شمس سنة ١٠٥٠ ، وجدت أولى طرق التجارة الداخلية ، وكانت هذه الطرق تمتد من الفلاندرز مرورا

بوسط أوربا حتى شمال ايطاليا ..وكان التجار المرتادون لهذه الطريق يرحبون بتبادل بضائع الشرق الفاخر مقابل الأقمشة الفلمنكية ، وكانت أرض اللقاء بين التجار الفلمنكيين والتجار الايطاليين هى بلاد شامبانى Champagne التى كان حاكمها فى القرن الثانى عشر يقيم معرضا سنويا فيها .

أما مدن شمال إيطاليا فقد كونت ثروتها أساسا من دورها فى الوساطة بين التجارة البيزنطية والتجارة الاسلامية . فقد حصل البنادقة ، الذين كانوا من رعايا الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر ، على امتيازات تجارية خاصة فى القسطنطينية مكنت لهم من أن يصيروا وسطاء تجاريين بين أوربا وبيزنطة . ولم يقنع البنادقة بهذه التجارة ذات الارباح الطائلة، فأقاموا علاقات مع كافة المراكز التجارية الاسلامية فى البحر المتوسط ، وفى العقود الاخيرة من القرن العاشر ، بدأت كل من جنوة وبيزا ، على ساحل ايطاليا الغربى ، تبحث لنفسها عن نصيب من ثروة العالم الاسلامى ، وهو ماتمكنتا من الحصول عليه عن طريق التجارة والقرصنة على السواء . لقد كان للتجار الجنوية والبيازنة فضل جعل وادى الرون جزءا من عالم البحر المتوسط مرة اخرى ، كما كانوا هم أول من بدأوا فى استخدام ممرات جبال الالب كطريق للتجارة مع شمال اوربا .

وفى أعقاب إحياء مشاركة أوربا فى حياة البحر المتوسط الاقتصادية جاء التوغل السياسى والعسكرى خلال العقدين الأولين من القرن الحادى عشر ، ذلك أن الفرسان الفرنسيين الذين تميزوا بطموحهم الشديد وجوعهم للأرض احتذوا خطى التجار الايطاليين فى محاولة للحصول على نصيب من الثروة الاسلامية الاسطورية . وظهر القراصنة النورمان فى صقلية إبان العقد الثانى من القرن الحادى عشر ، وبدأوا صراعا طويل المدى فى سبيل الحصول على ممتلكات خاصة بهم فى جنوب ايطاليا التى كانت تفوق فى غناها احلام الجشع الاقطاعى ، وكذلك انضم مغامرون آخرون من النورمان والفرنسيين الى الصراع الذى كان دائرا فى شمال اسبانيا ضد المسلمين ، هذا التقدم من جانب نبلاء الغرب الأوربى هو الذى قيض له أن يبلغ أوجه فى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .

لم يكن البورجوازيون ، والنبلاء ، والفلاحون هم وحدهم الباحثين عن فرص جديدة فى أواخر القرن الحادى عشر ، فقد بدأ رجال الكنيسة يظهرون قدرا اكبر من الحركة ، فقد ذهب أحد الفرنسيين وعدد من الألمان الى ايطاليا حيث تولوا المنصب الاسقفى هناك ، كما أن أحد النورمان الفرنسيين تولى منصب كبير أساقفة كانتربورى فى انجلترا فترة من الوقت فى

خمسينيات القرن الحادى عشر ، كذلك كان زعماء الحركة الكلونية يتحركون فى جميع أرجاء أوربا يؤسسون الاديرة ، ويقدمون مشورتهم الى الحكام ، أما الامر الذى لم يسبق له مثيل فى كنيسة العصور الوسطى الباكرة فكان ظهور نمط جديد من العالم المتجول الذى كان يجوب الآفاق البعيدة سعيا وراء المناخ الثقافى المناسب ، أو من أجل التتلمذ على واحد من الاساتذة المشهورين ، كما كانت المدارس الديرية الكبرى فى نورمانديا تجتذب باستمرار أشهر العلماء الايطاليين ، وكان آخرون غيرهم يشقون طريقهم صوب المدن الكاتدرائية فى شمال فرنسا وفى اللورين لكى يدرسوا اللاهوت والقانون الكنسى ، بل إن بعض ذوى الهمم العالية كانت شجاعتهم تدفعهم الى السفر الى الأراضى الاسلامية لكى يدرسوا الرياضيات والعلوم فى قرطبة . هؤلاء العلماء المغمورون ، خاويو الوفاض ، هم الذين كانوا يمهدون للصحوة الأدبية الهائلة فى مجال الحياة الثقافية .

وفى سنة ١٠٥٠ ، كانت هناك مجموعات من الناس ، فى كل بلد من بلدان أوربا تتجمع حول نمط ما من المشروعات الجديدة ، فلم تعد أوربا تلهث وراء بيزنطة والعالم الاسلامى بل إنها تجاوزت أعظم إنجازات هاتين الحضارتين ، اللتين كانت الشعوب الناطقة باللاتينية أنذاك تنافسهما فى سبيل الهيمنة على عالم البحر المتوسط ، فى بعض الميادين ، ففى جميع مجالات النشاط الإنسانى كانت ثمة أهداف جديدة يسعى الناس اليها ، وأساليب جديدة يجربها الناس فى أوربا الغربية ١٠٥٠ . لقد تشكلت الحضارة من اتحاد الثقافات اللاتينية والمسيحية والجرمانية ، وبدأت تدخل مرحلة من الابداع والانجازات التى لم يسبق لها مثيل، أما السؤال الذى يبقى فى إنتظار الإجابة ، فهو عما إذا كان النظام الإجتماعى فى ظل التوازن الإجتماعى الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة ، والذى كان بمثابة الخلفية التى ارتكز عليها النجاح السياسى والاقتصادى والثقافى ، قادرا على أن يظل سائدا فى العالم المتغير الذى كان فجره وشيك البزوغ .

# الجزء الخامس

## عصر الإصلاح الجريجورى

### أواخر القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر

« كأنما تلقينا مملكتنا منك أنت ؛ وكأنما
بيدك أنت المملكة والإمبراطورية لابيد الرب
... لقد وضعت يدك عليَّ أنا الذى توجت
على العرش ، على الرغم من عدم جدارتى
بأن أكون بين المتوجين » .

– هنرى الرابع إلى جريجورى السابع

« إن الجميع ليعرفون أن الملوك والأمراء
ينحدرون من نسل رجال لايعرفون الرب » .

– جريجورى السابع

# الفصل الحادي عشر
# على مشارف العصور الوسطى العالية

## ١ - حضارة العصور الوسطى العالية فى المنظور التاريخى :

لقد حظيت الفترة التى تمتد على مدى قرنين ونصف قرن فى التاريخ الأوربى ، من منتصف القرن الحادى عشر حتى بداية القرن الرابع عشر ، بدراسة أكثف من الدراسة التى حظيت بها أية فترة أخرى فى العصور الوسطى . وقد جرت عادة الكتب الدراسية التى تتناول التاريخ الوسيط على اعتبار الفترة السابقة ، الأكثر طولاً ، بمثابة فترة تمهيدية للسنوات المائتين والخمسين التى كونت العصور الوسطى العالية . وتميل المعالجة التاريخية ( الهستوجرافية ) لحضارة العصور الوسطى إلى اعتبار فترة العصور الوسطى العالية فترة النضج والإبداع فى ثقافة العصور الوسطى ، على حين تعتبر الفترة السابقة مجرد فترة واعدة ولكنها غير ناضجة. أما الفترة التى تلت سنة ١٣٠٠ فهى مرحلة اضمحلال وذبول وتحلل . والحقيقة أن العصور الوسطى العالية High Middle Ages تعتبر هى العصور الوسطى « الحقيقية » ؛ إذ أنها هى الفترة التى تكشف عن تلك الخصائص والأخلاقيات والمثل التى تنطبق بحق على مصطلح ومفهوم كلمة « وسيط » .

والأصل فى أن الفترة مابين سنة ١٠٥٠ وسنة ١٣٢٥ قد استرعت انتباه العلماء والأدباء هو أن الشواهد الباقية من حضارتها ماتزال واقعًا ملموسًا فى غرب أوربا ، مثل الكاتدرائيات التى ماتزال ، حتى اليوم ، تمثل ثقافة العصور الوسطى . لقد بدأ الكُتَّاب الرومانسيون فى مطلع القرن التاسع عشر هذه النزعة لتبجيل ماخلفته العصور الوسطى من آثار ، متخذين بذلك موقفًا مناقضًا تمامًا لموقف الإنسانيين الإيطاليين وكُتَّاب حركة التنوير فى القرن الثامن عشر الذين كانوا يرون فى فن البناء « القوطى » فنًا يعج بمظاهر الهمجية والبربرية التى تستفز فيهم مشاعر الاحتقار . واكتشف الأدباء الرومانسيون وأسلافهم الثقافيون ، الذين أدانوا مظاهر الثورة الصناعية والحضارة الميكانيكية فيما بعد ، فيما خلفته العصور الوسطى من آثار فنية ، عالما مثاليًا يحفل بالجمال والإخلاص والصوفية . فبالمقارنة إلى مغزل القطن ، أو أية منشأة جديدة ، تبدو بنايات الكاتدرئيات فى نوتردام ، وشارتر ، وسالزبورى ،

وكولونى ، وغيرها من البنايات الكنسية الباقية من القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، انعكاسًا حقيقيًا لحضارة أكثر وداعة ، ومثالية ، وإنسانية .

لقد جاء اكتشاف ما فى أدب العصور الوسطى وموسيقاها من جاذبية فى أعقاب اكتشاف قيمة الآثار المعمارية الكبرى المتخلفة عن العصر القوطى . كم كانت المشاعر العامة نبيلة ومخلصة فى ذلك العصر الذى أفرز أبطال المؤلفات الأدبية من طراز ملحمة الملك آرثر ، وكم كانت جياشة ومنظمة روح التدين فى تلك الحضارة التى تمثلت أروع إنجازاتها الموسيقية فى الترانيم الجريجورية ! كان هناك كثيرون من ذوى العقول الحساسة فى القرن التاسع عشر ، وعرف القرن العشرون منهم عدداً أقل ، وقد تمرد هؤلاء وأولئك على المجتمع الصناعى وأداروا له ظهورهم ناجين بأنفسهم من الطمع والفساد الذى استشرى فى الدول الحديثة ليجدوا لأنفسهم الملجأ والعزاء فى الماضى ؛ أى فى العصور الوسطى . مثل هذه المواقف تتجسد فى كتاب هنرى آدمز Henry Adams الذى يحمل عنوان Mont St. Michel and Charters وهو كتاب يشي بأن ثقافة فرنسا فى القرن الثانى عشر كانت محكومة بالشخصية الرمزية للعذراء . كما أن كتاب تيلور H.O.Taylor عن العقل فى العصور الوسطى Medieval mind تعبير باكر عن موقف مشابه تجاه العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى مايزالون يوصون بهذا الكتاب حتى الآن ، فإنه لايقدم سوى القليل من المعلومات عن التاريخ الثقافى للعصور الوسطى .

وهناك فئات أخرى اجتذبتها حضارة العصور الوسطى العالية بقوة . فقد كان علماء الكنيسة الكاثوليكية عمومًا أشد اهتمامًا بالقرنين الثانى عشر والثالث عشر منهم بالعصور الوسطى الباكرة ، ولا غرو فإنهم رأوا فيها ازدهاراً للمسيحية الوسيطة فضلاً عن تحقيق الزعامة الكنسية فى المجتمع الغربى . ذلك أن الدور الهام الذى لعبته الفلسفة التوماسية والقانون الكنسى فى الحياة الثقافية والإدارية فى الكنيسة الكاثوليكية الحديثة ، جعل من الضرورى أن يقوم العلماء الكاثوليك بدراسة مكثفة حول أصول هذه النظم الفلسفية والقانونية، وكيفية نموها فى الفترة مابين ١٠٥٠ وسنة ١٣٠٠ . لقد تأسس فهمنا للحياة الثقافية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بدرجة كبيرة ، على بحوث العلماء الكنسيين الذين عكفوا على البحث والدراسة بحمية وإخلاص قلما يوجد له نظير بين المؤرخين العلمانيين المتخصصين فى العصور الوسطى . وهناك من الكتاب الكاثوليك من تخطى حدود الدراسة

العلميـة بحيث أعلنوا أن القرن الثالث عشر هو « أعظم القرون » . وأن هذا القرن أسعد فترات التاريخ لما اتسم به من الوحدة ، والتوافق ، والتقدم والرضا .

كذلك وجد المؤرخون الوطنيون فى العصور الوسطى العالية حقلاً خصبًا للدراسة . إذ أن المؤرخين الألمان ركزوا اهتمامهم بالفترة الواقعة مابين سنة ١٠٥٠ وسنة ١٣٠٠ بسبب الإنجازات المجيدة التى حققتها الإمبراطورية الألمانية فى العصور الوسطى ، وأيضًا بسبب العناصر التى حسمت مجرى التاريخ الألمانى فى الفترة التالية . أمّا بالنسبة لمؤرخى فرنسا ، فكانت العصور الوسطى العالية مرحلة هامة لغاية ، لأن هذه هى القرون التى شهدت تكوين فرنسا . ففى سنة ١٠٥٠ لم تكن فرنسا أكثر من مجرد تعبير جغرافى ، ومن غمار الفوضى التى سادت إبان السنوات المائتين وخمسين التالية خرجت فرنسا الدولة ، وبرزت اللغة والثقافة الفرنسية . فكيف حدث هذا التحول بين الإمارات الإقطاعية غرب الراين ؟ إن المؤرخين الفرنسيين مايزالون عاكفين على البحث عن إجابة لهذا السؤال . أما مؤرخو إنجلترا ، فإنهم يعطون للقرنين الثانى عشر والثالث عشر أهمية توازى أهميتهما بالنسبة لمؤرخى فرنسا . فقد افترض هؤلاء أن السنوات المائتين والخمسين التى أعقبت معركة هاستنجز Hastings فى سنة ١٠٦٦[١] تمثل الفترة التشكيلية للتقاليد السياسية الإنجليزية المتمايزة فى مجال القانون العام والبرلمان ، وهو الأمر الذى أكده المؤرخون فى القرن التاسع عشر ، ولأن المؤرخين الإنجليز تأثروا بالاتجاه المستمد من الداروينية الاجتماعية Social Darwinism[٢] وهو الاتجاه الذى يرجع

---

١ – تنسب هذه المعركة الهامة فى تاريخ إنجلترا إلى مدينة هاستنجز فى جنوب شرق إنجلترا على ساحل القنال الإنجليزى . وفى هذه المعركة استطاع النورمان بقيادة وليم الفاتح أن يهزموا الأنجلو – سكسون وأن يقتلوا ملكهم هارولد الثانى ملك وسكس Harold II of Wessex وترتب على هذه المعركة نجاح الغزو النورمانى لانجلترا وما أعقبه من نتائج – انظر مايلى عن تأثيرات الغزو النورمانى . ( المترجم ) .

٢ – رائد هذا الاتجاه فى التفسير الاجتماعى هو هربرت سبنسر H . Spencer ( ١٨٣٠ – ١٩٠٣ ) ، الذى يعتبر ثانى الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع . ويعد المبدأ التطورى هو الأساس الحقيقى لمذهب سبنسر . وقد نشر أول مقالاته فى هذا الصدد فى مجلة The Non Conformist سنة ١٨٤٢ عبر فيها عن وجهة النظر التى تذهب إلى أن تكييف الإنسان لوظائفه الاجتماعية يتطور بشكل أسرع حينما لايحدث تدخل مصطنع فى حياته . وحين نشر تشالز داروين فى سنة ١٨٥٩ م كتابه عن أصل الأنواع ، استوعب سبنسر المفاهيم الجديدة التى نشرها داروين لقربها من أفكاره بل إنه أشار إلى أنه سبق داروين فى التوصل إليها .

عن هذا العالم الاجتماعى وآرائه انظر : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع – طبيعتها وتطورها (ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرين ، دار المعارف ١٩٧٤ ) . ص ٦٣ – ٧٨ . ( المترجم ) .

كل شئ إلى أصوله الأولى ، فإنهم أحسوا منذ القرن التاسع عشر ، وحتى الآن ، بأن عليهم أن يقوموا بتحليل دقيق للغاية لمامرت به بلادهم من تطورات سياسية وقانونية خلال العصور الوسطى العالية .

أما المتخصصون الأمريكيون فى تاريخ العصور الوسطى ، فقد مالوا إلى دراسة القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأغفلوا العصور الوسطى الباكرة ، التى كانت دراستها فى الجامعات الأمريكية وقفًا على المهاجرين الألمان فى غالب الأحوال . وبالإضافة إلى النزعة الهروبية الرومانسية التى يمثلها كل من هنرى آدامز ، وتيلور ، ظهر حافز جديد فى عشرينيات القرن العشرين دفع بالعلماء الأمريكيين إلى تركيز الدراسة فى فترة القرنين الثانى عشر والثالث عشر . أما الواقعيون أصحاب الرؤوس الصلبة من أمثال تشارلز هاسكينز وتلاميذه ، والكثيرون ممن ساروا على دربه ، فقد خلبت مؤسسات العصور الوسطى وغوها ألبابهم . لقد تميزت العصور الوسطى الباكرة بالمجتمع الزراعى والتفكك السياسى . وما أن تطلع شمس سنة ١٣٠٠ حتى يستطيع المؤرخون أن يجدوا البرهان الساطع على ظهور دولة بيروقراطية ذات طابع حديث ، فضلاً عن أشكال الرأسمالية التى تعدت طور النشأة . وبذلك وجد المتخصصون الأمريكيون فى تاريخ العصور الوسطى فى الفترة مابين سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١٣٠٠ بدايات العالم الحديث ، وعكفوا على كشف المسارات الأولى للحكومة البيروقراطية والمجتمع الرأسمالى عن طريق تحليل المؤسسات والنظم الحكومية ، والقانونية ، والإدارية ، والمالية . وأبطال العصور الوسطى الذين احتلوا صفحات كتبهم ، لم يعودوا هم القديسيين ، وشعراء التروبادور ، والفنانين الرومانسيين ، بل هم كبار الإداريين ، والمُشرِّعين ، وجباة الضرائب ، وقد يُقال إن المدرسة الأمريكية ، فى تناولها للعصور الوسطى ، إنما تعكس التجربة والحاجات الاجتماعية ، مثل أية مدرسة أخرى فى مجال دراسة التاريخ فى أوربا . ذلك أن هذه المدرسة جاءت انعكاسًا لاهتمامات الفرد الأمريكى المتوسط التعليم بكافة أشكال النشاط السياسى ، وربما تكون دراسة أوربا فى العصور الوسطى العالية قد اجتذبتهم لأن هذه الفترة شهدت نفس التطور السريع من الفوضى السياسية إلى الحكومة المركزية الذى يميز الولايات المتحدة . فلا غرو أن نجد « هاسكنز » ، وواحداً من ألمع تلاميذه هو ستراير J . R . Strayer قد كرسا بعض مؤلفاتهما الأولى فى التاريخ الأمريكى لدراسة الفترة الاستعمارية .

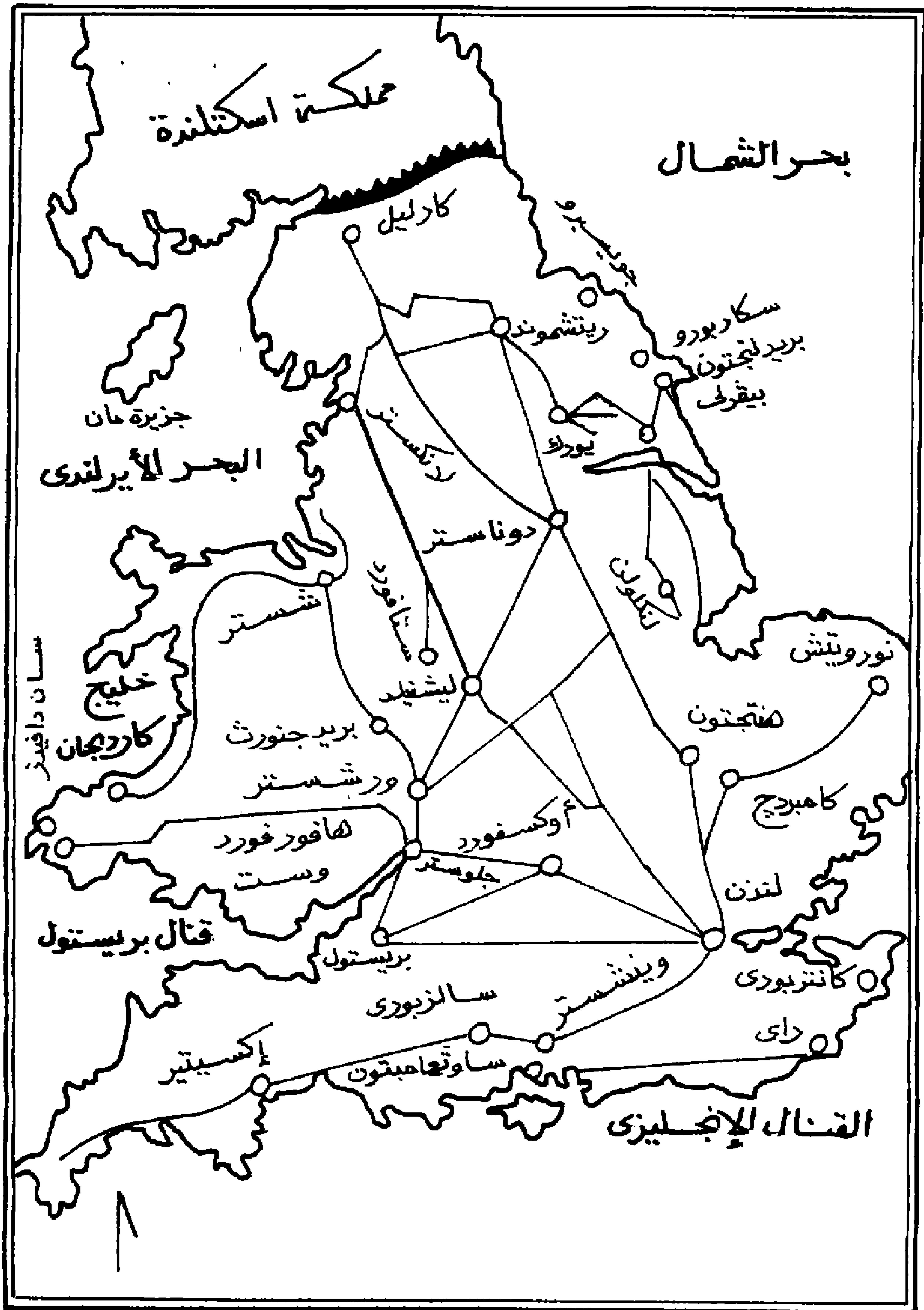
والقيم التى اكتشفتها هذه المجموعات المختلفة من المؤرخين فى العصور الوسطى العالية قيم لايمكن إنكارها ؛ على الرغم من أنه يجب تقييم كل منهم تقييمًا كليًا . فلا يمكن لأحد أن

ينكر الجمال ، والتدين ، والنظام ، والإبداع ، والإنجازات السياسية التى تمت فى غضون القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ ولكن السؤال هو : إلى أى مدى استمرت هذه الصفات فى الوجود ، ومامدى أهميتها فى البنيان الكلى لحضارة العصور الوسطى ؟ فضلاً عن أنه ينبغى وضع الصفات المحببة والإنجازات التى تمت إبان العصور الوسطى العالية فى مواجهة جوانب القصور والإخفاق . ولايجب أن يغيب عن البال أن حضارة العصور الوسطى قد تحللت وانهارت فى النهاية . إذ أن الكنيسة لم تتمكن من الاحتفاظ بزعامتها ، بل إن الدول الوطنية تعثرت ، ولو مؤقتًا ، وإلى جانب الجمال والنظام وجدت الفوضى والعنف . وإذا ما قرأنا ما كتبه الناس فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر لتأكدنا أن أكثرهم تدينًا لم يكونوا قديسين ؛ وإنما كانوا بشراً حقيقين غالبًا ما أضنتهم هموم المشكلات المحيرة ، فخلف واجهة كنيسة نوتردام ، أو شارتر ، لايوجد قدر من السلام والرضى أكثر من ذلك الذى يكمن خلف قصر فرساى ، أو قصر الأمم فى جنيف ، أو مبنى الأمم المتحدة - بل إنه يمكن أن يكون أقل . إن العصور الوسطى العالية تقدم صورة معقدة للمجتمع ، وهى صورة حقيقية ذات تفاصيل كاملة ، وليست مجرد صورة سطحية للإنجازات البارزة . لقد تم تقييم مغزى هذا الإبداع وأهميته بالنسبة لمجتمع العصور الوسطى ، كما جسدت دلالته على المدى الطويل ، بيد أن هذا تم فى الغالب بفضل أولئك الذين لم تلهمهم فلسفة العصور الوسطى وفنونها . ومن الصعب ، بطبيعة الحال ، أن نعمم مثل هذه الأحكام على حضارة العصور الوسطى العالية، التى فُسِّرت فى أغلب الأحوال على ضوء بعض القيم ذات المقاييس الأحادية . بيد أن على المؤرخ أن يتساءل عن السبب فى أن حضارة ما استطاعت أن تحقق هذا القدر الكبير من الإنجازات ، ثم عجزت عن حل بعض المشكلات الجوهرية التى كانت واضحة منذ البداية ، وأن يتساءل أيضًا عن السبب فى تفكك هذه الحضارة وتحللها بمثل هذه السرعة .

وبينما تكشف الفترة بين منتصف القرن الحادى عشر ومطلع القرن الرابع عشر عن بعض الخصائص التى تجعل منها فترة واحدة متمايزة فى التاريخ الأوربى ، يكشف الفحص الدقيق عن أن هذه السنوات المائتين والخمسين تنقسم إلى أقسام أربعة . أول هذه الأقسام هو عصر الإصلاح الجريجورى منذ حوالى سنة ١٠٥٠ حتى حوالى سنة ١٣٠٠ . وكان ذلك العصر شبيهًا بعصر الثورات العالمية فى التاريخ الحديث ( ثورة البروتستانت ، الثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعية ) من عدة وجوه ، كما أنه تميز بالكثير من الجدال والمناقشات التى دارت حول طبيعة المجتمع المسيحى . أما القسم الثانى من العصور الوسطى العالية فإنه يتميز بازدهار التعليم ، والتدين ، والسلطة من سنة ١١٣٠ حتى سنة ١٣٠٠ . وعلى الرغم من أن

هذا التقدم كانت قد بدأت إرهاصاته قبل سنة ١١٣٠ ، فإن أهميته احتجبت خلف المنازعات التى أثارها الإصلاح الجريجورى ، ولم يحدث قبل نهاية السنوات السبعين ، التى ميزها السكون النسبى عقب نهاية الثورة الجريجورية ، أن تجلت واضحة تلك القوى الهائلة التى تمثلت فى الروح الإبداعية والإنجازات التى تمت فى القرن الثانى عشر .

لقد تأثرت كل جوانب الحياة بهذا النمو الإبداعى فى مجالات : الدين ، والأدب ، والفلسفة والاقتصاد ونظم الحكم . بيد أن هذه القوى الإبداعية جلبت معها مشكلات خطيرة للغاية ، وبينما كانت شمس القرن الثانى عشر تميل نحو الغروب كان على الحضارة الأوربية أن تواجه المشكلة الأساسية حول إمكانية التوفيق بين نتائج التعليم ، والتدين ، والسلطة ، أو احتمال أن تقضى التقلصات المتصارعة فى هذه المجالات علي وحدة الحضارة الوسيطة وتدمرها. ويتسم القسم الثالث من العصور الوسطى العالية ، منذ حوالى سنة ١٢٠٠ إلى حوالى سنة ١٢٧٠ بالجهود الجهيدة ، بل واليائسة ، التى بُذلت لحل هذه المشكلة الأساسية ، وإقامة توازن جديد في مجتمع العصور الوسطى . لقد كانت هذه الفترة محكومة بالبرامج والأهداف التى حددها البابا إنوسنت الثالث ، ومن الممكن أن نسمى الاستقرار النسبى والهدوء الذى تميز به القرن الثالث عشر « **سلام إنوسنت الثالث** » دون أن نكون قد تجاوزنا حدود العدل . هذه الفترة تتميز أيضًا ببعض من أعظم الإنجازات فى الحياة الدينية فى العصور الوسطى ، واللاهوت ؛ وهى الإنجازات التى نربطها باسم كل من سان فرنسيس الأسيسى St. Francis of Assisi وسان توماس أكويناس Thomas Aquinas . أما القسم الأخير من العصور الوسطى العالية فيمتد على طول نصف القرن الذى أعقب وفاة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٧٠ . فقد حدث انهيار فى الزعامة ، بدأ بطيئا فى أول الأمر ، ثم لم يلبث أن صار سريعًا للغاية ، وفشل الوفاق ليبدأ عهد جديد من العنف . ولكن هذا العنف لم يعد هو نفس الشراسة الفردية التى عرفتها العصور الوسطى الباكرة ، وإنما كان عنفًا أكثر عقلانية وتنظيما تقوم به دولة ضد دولة ، أو تقوم به الدولة ضد الكنيسة . ومن ثم فإنه يتعين على من يؤرخ للعصور الوسطى العالية أن يفسر أصول الثورة الجريجورية العالمية ويؤكد على نتائجها ، كما ينبغى عليه أن يوضح ماتحمله إبداعات وإنجازات القرن الثانى عشر من دلائل ومضامين ، فضلا عن تجسيد النظام الجديد الذى شاده إنوسنت الثالث ، وتفسير الإنهيار السريع الذى حاق بهذا النظام فى أخريات القرن الثالث عشر .




الطرق الرئيسية فى إنجلترا العصور الوسطى

( وفقًا لمعلومات وردت فى خريطة ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى )

٢ - أوربا سنة ١٠٥٠ :

كيف كانت أوربا تبدو سنة ١٠٥٠ ؟ ماهى الملامح والقسمات اللافتة للنظر فى ذلك العصر؟ وما الذى كان يسترعى انتباه الرحالة الذى كان يجوب أنحاء أوربا فى تلك السنة ؟ من الممكن أن يتاح لنا قدر من الرؤية الداخلية فى إجابات هذه الأسئلة من خلال مصاحبتنا لراهب أنجلو - سكسونى قام برحلة من ديره فى يوركشاير البعيدة المقفرة إلى المدينة ( روما ) سنة ١٠٥٠ .

ذات يوم ، وبينما كان صاحبنا الراهب عاكفًا على العمل فى حجرة النسخ بالدير ، ينسخ المخطوطات ، استدعاه رئيس الدير ليخبره أنه قد أختير للقيام برحلة إلى روما لغرضين :

أولهما : أن يبلغ احترام رئيس الدير وتبجيله إلى البابا ليو التاسع الذى كان يقوم بتغييرات شاملة فى الإدارة البابوية ، ليعيد للبابوية هيبتها التى كانت قد تدهورت كثيراً طوال قرنين من الزمان .

وثانيهما : أن رئيس الدير أراد من الراهب الشاب أن يحصل على الطلاق لابن عمه الذى كان من النبلاء ، وكان لابد من الترخيص البابوى بهذا الطلاق . وفى ذلك الوقت كان يمكن الحصول على الطلاق على أساس وجود قرابة من الدرجة السابعة بين الزوجين ( فى القرن الثالث عشر اقتصر على قرابة الدرجة الرابعة ) ، ولأن كثيرين من نبلاء أوربا كانوا يتزوجون قريبات لهم داخل نظطق درجة القرابة هذه ، فإن الحصول على الطلاق لم يكن صعبا بشرط موافقة البابا .

وانطلق صاحبنا الراهب الشاب على الطريق الرومانى القديم المتجه جنوبا عبر حدود مقاطعة يوركشاير الموحشة ، حيث كانت معظم المستوطنات الدينية التى ازدهرت فى القرن الثامن قد باتت خرابًا بسبب غزوات الفيكنج . وحين وصل إلى المناطق البعيدة فى جنوب انجلترا ، راعه حجم حركة البناء والتشييد التى كانت تجرى فى تلك الأنحاء . والواقع ، أنه فى شتى أرجاء أوربا سنة ١٠٥٠ ، كانت الأصوات التى تطرق أذن المرء هى الأصوات الناتجة عن بلطة تقطع أخشاب الأشجار ، أو منشار يعمل فى البنايات الجديدة . وفى أماكن قليلة ، ولاسيما فى المدن الكاتدرائية الكبرى فى القارة ، كانت الأبنية الحجرية قد بدأت تحل محل الأبنية الخشبية المعتادة ، على الرغم من أن الصناع الأوربيين كانوا مايزالون يفتقرون إلى الكثير من الخبرة فى البناء بالأحجار ، وفى سنة ١٠٥٠ كانت الغابات تغطى مناطق كثيرة من أوربا ، كما كانت

الغابات أكثر بكثير من الغابات الموجودة اليوم ، على حين كان النمو السكانى يفرض ضغطا متزايداً على طلب الغذاء . وكان لابد من إزالة الغابات وتعمير الأراضى الجديدة . وعلى أية حال ، فإن الأخشاب التى كانت تتوفر عن إزالة الغابات كانت مطلوبة جداً لبناء المساكن ، والقلاع ، والكنائس فى المناطق الريفية والحضرية على السواء .

وبعد رحلة دامت عدة أيام وصل راهب يوركشاير الشاب إلى كانتربورى ، التى كانت أول كنيسة لاتينية فى انجلترا ، والتى كان أسقفها بالتالى هو رأس الكنيسة الإنجليزية . وحين وصل صاحبنا الراهب إلى كاتدرائية كنيسة المسيح ، أى كانتر بورى ، لم يدهش كثيراً حين وجد جمعًا كبيراً من الناس هناك ، بينهم الملك إدوارد المعترف Edward the Confessor . كان إداورد ، كما يستدل من اسمه ، رجلاً تقيا وقديسا إلى أبعد الحدود ، على الرغم من أنه كان ، مثل كل القديسين الجالسين على العروش ، ضعيفا عاجزاً . ووجد راهب يوركشاير الملك إداورد مشغولا بأحب الأعمال إلى قلبه ؛ أى وضع ذخائر مقدسة جديدة فى كنيسة المسيح. وقد لاحظ الراهب نظرات الاحتقار والازدراء فى عيون النبلاء الإنجليز وهم ينظرون إلى مليكهم العاجز عن القيام بوظيفة الملك كما يراها الجرمان ، أى أن يكون قائداً حربيا . وحين واصل رحلته جنوبا لاحظ أيضا الفوضى المستشرية والحروب المستعرة بين النبلاء الإنجليز، مما كان دليلا على أن المملكة كانت على شفا حفرة من التدهور والانحلال .

وعبر راهب يوركشارير القنال الإنجليزى لينزل على ساحل نورماندى . وهناك وجد عالما يختلف عن انجلترا ، خاصة من حيث التنظيم الحكومى والحيوية الثقافية . ذلك أن حاكم نورماندى لم يكن قديسا بأى حال ، فهو الدوق وليم ابن الزنا Wiliam the Bastard ، على الرغم من أنه أثبت أنه صديق عظيم للكنيسة ، كما كانت علاقته بالبلاط البابوى وطيدة للغاية . وكان على النقيض من إداورد المعترف ، إذ كان يسيطر تماماً على النبلاء فى دوقيته، واستغل المؤسسات الاقطاعية لتدعيم سلطته ولتوحيد أراضيه . وفى نورماندى تأثر راهب يوركشاير كثيراً بالبناء الذى يجرى على قدم وساق ، ولاسيما بناء الكاتدرائيات والأديرة الكبرى . ولقد لفت انتباه الراهب أن كثيرين من زعماء الكنيسة فى نورماندى كانوا من أصول إيطالية أو من مناطق الراين ؛ وفى أى من الحالين فإنهم وفدوا من مناطق خاضعة للإمبراطورية الألمانية ، إسميا على الأقل . وقد جندهم الدوق ، كما فعل أسلافه من قبله لتحسين وتطوير الخصال الثقافية لرجال الكنيسة النورمانديين ولكى يساعدوه فى الأعمال

الإدارية والقانونية . كان الراهب معتاداً على الكنائس الخشبية فى انجلترا لدرجة أنه لم يكن هناك أى مبنى حجرى فى وطنه ، وإذا وجدت مبانى حجرية فإنها حقيرة صغيرة . وقد أدهشته كثيراً المحاولات التى كانت تجرى لإقامة المنشآت الكنسية العالية ، والاهتمام الجديد بالخط الرأسى فى البناء . ولاشك فى أن هذا كان أمراً جديداً فى عمارة الكنائس فى شمال أوربا ، ولم يكن له مثيل فى انجلترا ، على الرغم من أن أنماطا معمارية مشابهة كانت قائمة فى شمال إيطاليا حيث وفد كثيرون من زعماء الكنيسة النورماندية .

وفى نورماندى تقابل الراهب الإنجليزى مع قس كان عائداً من جنوب إيطاليا ، حيث كان قد ذهب موفداً من قبل بارون نورمانى . وكان هذا الأخير قد انضم إلى حملة للنهب قبل عدة سنوات ، وكان آنذاك مشغولا بغزو هذه البلاد الثرية . وسمع الراهب الأنجلو - سكسونى من القس النورمانى عن عالم غريب ، أى مناطق البحر المتوسط النائية الغريبة ، التى يسكنها المسلمون ، الذين كان الغرب يخشاهم ويكرههم ، والبيزنطيون الخطاة . وكان هذا العالم ينعم بحياة حضرية مريحة تفوق أحلام الشماليين وجشعهم . ففى سنة ١٠٥٠ كانت السيادة الإسلامية والبيزنطية على هذه البلاد الأسطورية تواجه التحدى من جانب الفرنجة الهمجيين للمرة الأولى ، وكان معروفا كذلك أن أمراء أسبانيا المسيحيين كانوا قد بدأوا فى دفع أعدائهم المسلمين حتى فى أسبانيا ، حيث كان حكم الصليب محصوراً فى إمارات جبلية ضئيلة لفترة طويلة ، على حين تمتع المسلمون بثروات ومباهج قرطبة وغيرها من المدن الذهبية فى أيبيريا[١].

ومن نورماندى عبر الراهب الإنجليزى إلى أراضى الفلاندرز ، حيث كانت هناك عدة أديرة كبيرة قام بزيارتها وفى أثناء وجوده فى الفلاندرز أدرك لأول مرة وجود نوع من الناس لم يعرفهم من قبل ، قوم يعيشون فى مدن مسورة ويطلق عليهم اسم « البورجوازيون Bour-geois . ولم يكن هؤلاء من الاكليروس ، أو الأقنان العاملين فى خدمة السادة الإقطاعيين ؛ وفى مدن مثل غنت Ghent ويبرس Ypres كانوا يؤلفون طائفة جديدة فى مجتمع العصور

---

١ - استخدم المؤلف عبارات قاسية فى وصف المسلمين للدلالة على هذا المعنى نفسه . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن المسلمين فى الأندلس كانوا يتمتعون بثمار حضارة هم الذين أرسوا دعائمها ولم يرثوها عن الفيزيقوط ( القوط الغربيين ) الذين كانوا على حال من الجهل والتخلف لم تمكنهم من الصمود أو حتى المساهمة فى حضارة شبه الجزيرة على الرغم من مساندة الكنيسة الكاثوليكية لهم . وفى هذا المقام اكتفى بماذكره كانتور نفسه عن القوط الغربيين فى الفصل الرابع من كتابه . ( المترجم )

الوسطى ، كان الراهب الإنجليزى يعرف ثلاث طبقات اجتماعية لاغير - أولئك الذين يحاربون، والذين يُصلّون ، والذين يعملون - ولكن هؤلاء البورجوازيين كانوا يتكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات الصوفية والاتجار فيها . وكان يأخذون بعض هذه المنسوجات إلى معارض فى شمبانى Champagne حيث تباع وتصدر إلى إيطاليا وغيرها من البلاد البعيدة . وقد خرج العديد من البورجوازيين من خلفية اجتماعية غامضة ومجهولة ؛ إذ أن بعضهم جاءوا من الشرائح الدنيا من طبقة الفرسان ، وقيل إن البعض كانوا أقنانا فى الأصل . ولم يكن البورجوازيون قوما يتميزون بالبشر والسرور ؛ ذلك أنهم كانوا يفتقرون إلى الأمن ، وقد لفهم الخوف بردائه البغيض . إلا أنهم فى الوقت نفسه كانوا على قدر كبير من المهارة وقوة الشكيمة . فقد كانت بنيتهم النفسية والثقافية أكثر عقلانية من بنية طبقة النبلاء والفرسان ، بل إنها كانت أشد تعقيداً من بنية كثيرين من رجال الكنيسة . كانوا يبدون جشعين غير أمناء، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا أتقياء ومتدينين كأفراد وجماعة بدرجة حيرت الراهب البسيط القادم من يوركشاير . ولم تكن لهؤلاء البورجوازيين ، الذين يقفون خارج نطاق البناء الاجتماعى التقليدى ، أية سلطة سياسية ، كما أن وضعيتهم فى ساحات القضاء لم تكن قد تحددت بعد على شكل دقيق . أما الشئ الوحيد الذى كان بحوزتهم . فهو ذلك القدر الكبير من المال الذى وظفوه فى بناء أسوار قوية حول مدنهم ، وفى إقامة الكنائس البلدية ، وبناء المساكن المريحة إلى حد ما فى الشوارع الضيقة المزدحمة القذرة فى مدنهم ، كما أنهم استخدموا هذا المال أيضا لشراء امتيازات الحكم الذاتى من كونت الفلاندرز .

أيقن الراهب الإنجليزى أن الطريق مايزال طويلا أمامه حتى ينهى رحلته بالوصول إلى روما ، وأنه قد آن الأوان لكى يترك الأديرة المريحة ، ومدن أقليم الفلاندرز العجيبة . وحتى إذا كان باستطاعته أن يتبع الطريق المباشر إلى روما من خلال وسط فرنسا - وهو الأمر الذى لم يكن ليقدر أن يفعله لأن مناطق الوسط لم تكن خاضعة لسيادة أحد ، كما كانت تغص بالبارونات اللصوص - فإن الرحلة كانت ستستغرق شهرين . فاتجه من الفلاندرز إلى باريس بقصد أن يأخذ طريق الراين جنوبا مروراً بالمركز الكنسى فى ليون .

وكان ما أثر فيه آنذاك وهو يتابع رحلته هو ذلك العدد الكبير من السادة الإقطاعيين ، والتجار ، والكنسيين الذين قابلهم على الطريق . كان ثمانون بالمائة من الناس فى أوربا مايزالون لايتحركون بعيداً عن مسقط رأسهم طوال حياتهم لمسافة تزيد عن عشرين ميلا ،

ولكن الطبقات العليا فى أوربا كانت قد بدأت تتحرك . وكانت الرحلة والسفر أمراً محفوفًا بالمخاطر : إذ كانت الطرق سيئة بدرجة لاتصدق ، كما كان اللصوص وقطاع الطرق ينتشرون فى كل البقاع . ولكن فى رحاب هذه الحضارة التى كان إيقاع الحياة فيها يتصاعد ، تحتم على الرجال ، وعلى النساء أحيانًا أن يسافروا إلى مسافات بعيدة . وقد سهل استخدام اللجام والحدوة للخيول ، والذى عرفته أوربا قبل مائتى سنة ، من عملية السفر إلى حد كبير .

كانت باريس مدينة غريبة إلى حد ما ، إذ كانت تعكس الظروف الخاصة التى كانت الملكية الفرنسية تجتازها . فعلى مسافة عشرة أميال فقط من المدينة كان الريف محكومًا بالقلاع التى يسكنها البارونات اللصوص ، ويقال إن ملوك آل كابيه كانوا يخشون الخروج من أسوار مدينتهم . أما أكثر شئ مس شغاف قلب راهب يوركشاير فهو دير سان دونى St. Denis الملكى الكبير ، والذى كان أكثر ارتباطا بمصائر ملوك آل كابيه من ارتباط نظيره دير ويستمنستر Westminister القائم عبر القنال الإنجليزى بمصائر الملوك الإنجلو - سكسون . ففى دير سان دونى كانت تحفظ التيجان والشعارات الملكية ورموز التاج الفرنسى . وهو مايعنى أن الملكية الكابية كانت ذات خصال مقدسة . ولكن الاحتفال الفخم الذى كان يتم فيه المسح المقدس والتتويج لم يكن ذا تأثير على الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا ، على الرغم من أنه كان تأكيداً على التزام ملوك آل كابيه تجاه الكنيسة ، لأن الأمراء كانوا مستقلين ولم يعترفوا بسيادة باريس إلا على نحو شكلى فارغ .

وقد طلب رئيس دير سان دونى من زائره الإنجليزى أن يتوقف ، وهو فى الطريق إلى روما ، فى دير كلونى الكبير قرب ليون . ذلك أن رئيس الدير نفسه كان فى الأصل من رهبان دير كلونى ، مثل كثير من رجال الكنيسة فى نورماندى . والواقع أن الراهب الإنجليزى كان قد سمع بالفعل روايات مدهشة عن كلونى ، الذى كان أكبر أديرة ذلك الزمان ، والذى قيض له أن يعبر عن وجهة نظر الكنيسة فى أواسط القرن الحادى عشر . ولم يخب ظن الراهب الإنجليزى ؛ إذ كان دير كلونى مطابقا لما كان مفروضا أن يكون عليه . وقد تأثر ، مثل غيره من الزائرين ، بعظمة البناء ، وتعقد مراسم الخدمة الكنسية فيه ، فضلا عن النظام والإخلاص اللذين اتسم بهما الرهبان الكلونيون . والحق أن أولئك الرهبان كانوا يعيشون حياة أكثر راحة ويأكلون أفضل بكثير مما كان الرهبان البندكتيون السذج فى يوركشاير ينعمون به . فلم يكن الرهبان الكلونيون يقومون بأية أعمال بدنية ، كما أنهم لم يكرسوا وقتا كثيراً للتعليم

والدراسة . لقد قنعوا بالعيش على ريع الضياع والأوقاف التى أغدقها عليهم حكام أوربا المعجبون بهم ، من أمثال الإمبراطور الألمانى هنرى الثالث الذى كان يؤازر النظام الكلونى مؤازرة خاصة . ألم يكن الوقت قد حان بعد لأن تكون حياة الرهبان انعكاسا للزعامة الديرية فى المجتمع ؟ ألم يكن الرهبان الكلونيون هم حقا أمراء الكنيسة ؟ الواقع أن كثيرين من الرهبان الكلونيين كانوا من أصل أرستقراطى أو من أحفاد الأمراء ، أفلم يكونوا بذلك جديرين بزعامة الكنيسة ؟ لقد أجاب الكلونيون على هذه الأسئلة بالإيجاب ، بل إن الرهبان الذين كرسوا أنفسهم لحياة أكثر بساطة وخشونة تعين عليهم أن يسايروهم مدة طويلة . كان الكلونيون قانعين بالعالم كما هو ؛ فقد كان واضحا أنه عالم يتسم بالكمال ، لأنه عالم يمارس فيه المتدينون أمثالهم تأثيراً سياسيا قويا ، كما كان الحكام الألمان والإنجليز والفرنسيون يحققون ما يمليه عليهم ارتقاؤهم عرش الملكية الثيوقراطية .

كان الصوت الذى غالبا ماطرق أذنى الراهب الإنجليزى فى رحلته ، بعد صوت فئوس الفلاحين فى الغابات ، هو صوت الأجراس التى كانت تتجاوب أصداؤها من ذلك العدد المتزايد من الكنائس والأديرة . وفى كل مكان ذهب إليه الراهب الإنجليزى شاهد كنائس جديدة تبنى فوق الأرض التى تملكها الكنيسة والتى أوقفها عليها كبار النبلاء . لقد كان التدين يبسط جناحيه على المجتمع ؛ وكان من دواعى سروره أن يجد فى كل مكان رجال الكنيسة المخلصين ، والنبلاء ، والبورجوازيين ، بل والفلاحين الذين يفهمون مذاهب العقيدة وينظرون إليها بجدية بالغة - تلك المذاهب التى كان أتباع سان بندكت قد حملوها إلى حدود أوربا منذ زمن طويل .

هذه المتع السعيدة التى عاشها راهب يوركشاير انقطعت بوصوله إلى مدينة ميلانو بعد رحلة عبر ممرات جبال الألب . وكما كان الحال زمن سان أمبروز ، كانت ميلانو تدين بالسيادة لأسقفها ، بيد أن عناصر جديدة كانت قد طرأت على الحياة فى ذلك المركز الكنسى الكبير ، وهى عناصر وجدها الراهب الإنجليزى مثيرة للدهشة ومثيرة للاضطراب أيضًا . فقد كانت تعيش هناك طائفة كبيرة من البورجوازيين المعادين لحقوق الأسقف السياسية التقليدية ، وإلى جانبها طبقة من البروليتاريا الصناعية التى تغص بالمرارة ضد جميع السلطات التنظيمية بحيث تحولت إلى طبقة ثورية من العامة بفعل المذاهب الألفية والمتعلقة بسفر الرؤيا . وهنا وجد الراهب الإنجليزى نفس التدين الفردى الحضرى المكثف الذى وجده من قبل بين سكان المدن

الفلمنكية . ولكن هذا التدين فى ميلانو تضخم إلى الحد الذى جعل منه مشكلة كبيرة تعين على الكنيسة مواجهتها . وكان البورجوازيون المتعلمون ينظرون بازدراء إلى كثيرين من رجال الكنيسة ، الذين كانوا فاسدين وغير أهل للثقة فعلاً ، لقد كان الجو الدينى فى المدينة هو جو الشوق الروحى الذى وصل إلى حافة التمرد والهرطقة ، ولم يكن من السهل تحويله أو إرضاؤه.

كان الراهب الإنجليزى مسروراً لأنه ليس مضطراً لرعاية البورجوازيين والبروليتاريا فى ميلانو ؛ وقد كان من دواعى راحته أن يسمع أن بابوية ليو التاسع الإصلاحية تعجل بالاهتمام بمثل هذه المواقف المتفجرة . ولكنه حين وصل فى نهاية المطاف إلى روما وجال عبر بناياتها الخربة المهجورة ، ومر بشوارعها القذرة المنفرة ، ليصل إلى كنيسة القديس بطرس اكتشف أن ثمة أفكاراً مريبة تدور بين الناس . فقد كان ليو التاسع ألمانيًا مثل الإمبراطور هنرى الثالث ، ولكنه كان يكرس نفسه لإصلاح البابوية تحت رعاية الإمبراطورية ، ولكن الكرادلة الشبان الذين أحضرهم إلى روما كانوا يرون الأمور بمنظور مختلف فيما يبدو . إذ أنهم لم يكتفوا بالحديث عن التدهور والفساد المتفشى بين رجال الكنيسة بلهجة تقطر بالمرارة ؛ وإنما انتقدوا فى بعض الأحيان مدى صلاحية التناول الكلونى للحياة الدينية . وهناك ترددت نغمة جديدة تبعث على الانزعاج ، ويبدو أنها قد جرت فى اتجاه مضاد لكل ماحاز إعجاب الراهب الإنجليزى أثناء رحلته إلى الجنوب . فقد وجد فى كلام الكرادلة الشبان ومواقفهم من التهور والطيش مايتشابه على نحو ما مع تهور البورجوازيين فى ميلانو والمدن الفلمنكية . وكان راهب يوركشاير الشاب سعيداً بإنجاز مهمته على وجه السرعة وحصل لسيده على الطلاق . وهاجه الشوق لأن يبدأ رحلة العودة إلى وطنه عبر أوربا التى لم يكن يعترف بحال الكمال فيها كل أولئك الذين كانت سعادتهم وغبطتهم تبدو أمراً عابراً .

# الفصل الثانى عشر
# الثورة الجريجورية العالمية

## ١ - طبيعة الإصلاح الجريجورى وأصوله :

تعتبر السنوات الثمانون التى تمتد منذ منتصف القرن الحادى عشر حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر من أكبر منعطفات التاريخ الأوربى . إذ كانت تلك فترة التغيرات ذات الأهمية الحيوية فى شتى جوانب الحياة والتى تحدث فى آن واحد معا وبسرعة كبيرة لاتجعل أيا من المعاصرين يستطيع التنبؤ بنتائجها البعيدة المدى . والمؤرخ أيضا لايستطيع ، على الرغم من أنه يتأمل الأحداث بعد وقوعها بفترة ، وعلى الرغم من الجهد الشاق المضنى الذى يبذله ، أن يحل الغموض الذى يكتنف كافة العلاقات السببية التى تسببت فى بداية هذه الطفرات فى الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، والفكرية ؛ ومن ثم فإنه من هذه الناحية فقط تتشابه هذه السنوات الثمانون مع الفترات الحرجة التى مر بها العالم الحديث : فى النصف الأول من القرن العشرين . ففى هذه الفترات الفاصلة فى تاريخ الغرب انفجرت قوى التغيير التى عانت طويلا من الإحباط مثل الطوفان مخلفة وراءها حطام نظام قديم ، وأساسا لنمط جديد متغير من الحياة الاجتماعية . وفى معظم الأحيان يظهر الإنسان الغربى كمن يسير وهو نائم ، إذ أنه يتقبل بطريقة سلبية البناء الاجتماعى الذى تم على مدى القرون الماضية . فهو يتابع مثالاً معينًا يكون بمثابة الإلهام للحركة الثقافية . ومع الجديد فى حياته يتحرك الإنسان فى الغرب بعيون مفتوحة ، ولكن وعيه باتجاه حركته مايزال وعيا جزئيا .

كان العصر الذى شهد الإصلاح الجريجورى والنزاع حول التقليد العلمانى واحداً من تلك الفترات التاريخية التى تتميز بحركة تغير أساسية وسريعة فى الوقت نفسه . فقد كانت تلك هى فترة النمو التجارى الضخم ، وفترة نمو المجتمعات الحضرية ، وفترة التعبير الأول عن نفوذ الطبقة البورجوازية الجديدة فى الميدان السياسى . وقد شهد ذلك العصر ميلاد أول ملكية ناجحة حقًا فى العصور الوسطى فى إنجلترا الأنجلو- سكسونية على أساس من المؤسسات الاقطاعية والوسائل والهيئة الإدارية التى كونها الدوقات النورمان بنظرتهم الثاقبة ورؤيتهم المستقبلية . كان ذلك عصراً انتهت فيه عزلة حضارة غرب أوربا الجديدة عن عالم البحر المتوسط . وبدلا من هذه العزلة ، التى كانت قائمة منذ القرن الثامن ، توغلت شعوب غرب

أوربا سياسا واقتصاديا فى حوض البحر المتوسط بهدف النيل من المسلمين والبيزنطيين الذين طالت سيطرتهم على أراضى عالم البحر المتوسط وتحكموا تماما فى تجارة البحر المتوسط من الشمال . لقد كان ذلك عصرا يتسم بالحيوية الفكرية الفائقة التى شهدت أهم الإسهامات فى اللاهوت المسيحي اللاتينى منذ أوغسطين ، كما شهد ذلك العصر كيف تحولت بعض المدارس الكاتدرائية فى فرنسا وبعض مدارس البلديات فى شمال إيطاليا إلى جامعات القرون التالية . لقد كان ذلك عصراً يتسم بالحيوية الدافقة فى الفكر التشريعى ، ففيه تمت دراسة القانون الرومانى دراسة متأنية للمرة الأولى منذ عصر الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس ، كما شهد ذلك العصر خطوات واسعة فى سبيل جمع القانون الكنسى وترتيبه .

ولكن ، مثلما هو الحال فى فترات التغير الأساسى فى التاريخ الحديث ، ينبغى على المؤرخين أن يضعوا هذه الإنجازات فى المرتبة الثانية من الأهمية بعد النضال الإيديولوجي . ذلك أن حصيلة النزاع الطويل المدى حول النظام السليم الذى يجب إقامته فى العالم تتمثل فى النموذج الحضارى العالمى الذى سيبرز من طيات هذا الصراع ليسود طوال القرون التالية . كانت الفترة بين سنة ١٠٥٠ وسنة ١١٣٠ محكومة بمحاولة لثورة عالمية تركت تأثيرها الفعال للغاية على كافة جوانب التغير الاجتماعى الأخرى . ويبدو ، بالنظر إلى الماضى القريب ، أنه كان من الضرورى للانقضاض الثورى أن يهز النظام الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة من الأساس ، وذلك حتى تتاح للقوى السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية الجديدة أن تنال فرصتها فى التطور والتقدم فى مواجهة المؤسسات والأفكار القديمة .

يتميز تاريخ الغرب بأن مصيره قد تشكل بفضل أربع ثورات عالمية انهارت فى طياتها الاتجاهات القديمة وخرجت من غمارها أفكار ونظم جديدة . فالثورة العالمية ثورة واسعة النطاق، متغلغلة ، وشاملة على الصعيد العالمى ، وفيها تبرز أيديولوجية جديدة ترفض نتاج قرون عديدة من التقدم الذى ينتظمه النظام السائد وتنادى بنظام جديد فى العالم . هذه الثورات العالمية التى حدثت فى التاريخ الحديث معروفة تماما : ثورة البروتستانت فى القرن السادس عشر ، والثورة التحررية فى القرن الثامن عشر ، والثورة الشيوعية فى القرن العشرين . ويعتبر النزاع حول التقليد العلمانى ، والذى أوجده الإصلاح الجريجورى ، أولى الثورات العالمية الكبرى فى التاريخ الغربى ، كما أن مساره يتبع نفس النموذج الذى سارت عليه الثورات المعروفة فى التاريخ الحديث .

إذ أن كلا من الثورات العالمية بدأت بشكوى عادلة من الأخطاء الأخلاقية الكامنة فى النظام السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الدينى السائد . وفى النزاع حول التقليد العلمانى كانت شكوى زعماء الثورة ، الذين عرفوا باسم « المصلحين الاجتماعيين » ، منصبة على سيطرة العلمانيين على الكنيسة ،وتورطها فى الالتزامات الاقطاعية . فقد أدى هذا النظام إلى حالات حادة من سوء الاستغلال ، لاسيما فيما عرف باسم « السيمونية » ( أى بيع الوظائف الدينية ) . الذى تم تعريفه بشكل عام بأنه تدخل العلمانيين فى النظام الصحيح للوظائف الكنسية والمقدسة . وكان الجريجوريون على حق تماما فى إدانتهم للسيمونية باعتبارها هرطقة وخروجا على الدين .

ومن سمات جميع الثورات العالمية وخصائصها ، على أية حال ، أنه على الرغم من أن كلا منها بدأت بشكوى من الفساد المتفشى فى النظام العالمى السائد ، فإن الهدف النهائى الذى كان يحدده المنظرون والمفكرون الثوريون لم يكن هو إصلاح النظام السائد ، وإنما القضاء عليه واستبداله بنظام جديد . وفيما يتعلق بالنزاع العلمانى ، كان التحرر الكامل للكنيسة من سيطرة الدولة ، وإنكار أية صفات مقدسة للملكية ، وسيادة البابوية على الحكام العلمانيين هى أسس النظام المثالى الجديد .

وكما فى جميع الثورات العالمية ، كانت إيديولوجية الجريجوريين تستوجب معارضة قوية من جانب كل من أصحاب المصالح والمنظرين المخلصين المدافعين عن النظام القديم . وبعد عدة منازعات شرسة ، وفيض من الكتابات الدعائية ، كانت النتيجة حربا لا هوادة فيها ، كما أن استقطاب المجتمع المتعلم بين الثوريين والمحافظين قد أدى إلى وجود مجموعات كبيرة من المعتدلين المحايدين وبينهم بعض أفضل مفكرى ذلك الزمان ، ممن كان بمقدورهم إدراك جوانب الخطأ والصواب لدى كل من الجانبين .

وكما هو الحال فى كافة الثورات العالمية الأخرى ، كان نجاح المفكرين المشتبكين فى النزاع العلمانى محدداً فى مجال خلق النظام الجديد . لقد نجحوا فى تدمير النظام القديم ، ولكن العالم الجديد لم يكن هو المدينة الفاضلة التى كان الثوريون يحلمون بها . وإنما كان بناء النظام السياسي والدينى علي أساس كل من العناصر القديمة والجديدة على حد سواء ، كما كانت الفرصة متاحة أمام النقائض البشرية المتمثلة فى الطمع وحب السلطة . لقد كسبت الكنيسة تحرراً واسع المدى من السيطرة العلمانية ، كما كان هناك تحسن ملحوظ فى المستوى الأخلاقى

والفكرى لرجال الدين ،. ولكن الكنيسة نفسها ، منذ عصر النزاع العلمانى ، صارت أكثر اهتماما بالشئون الدنيوية ، وبذلك دخلت بابوية العصور الوسطى العالية فى منافسة مع الملوك والأباطرة على الثروة والسلطة وفازت فى هذه المنافسة . لقد صارت الكنيسة نفسها دولة تحكمها الإدارة البابوية .

وكما هو الحال فى جميع الثورات العالمية الأخرى ، كان المفكرون أنفسهم أثناء النزاع العلمانى متحدين على أشد أهداف الثورة إلحاحا وأكثرها تحديدا . وعندما مضت الثورة فى طريقها انقسم الجريجوريون إلى جناح معتدل وجناح راديكالى متطرف ، وعلى رأس كل من الجناحين عدد من الكرادلة البارزين . فقد كان على رأس الراديكاليين هومبرت Humbert وهليدبراند ، على حين تزعم المعتدلين بطرس داميانى Peter Damiani . وكما هو الحال فى الثورات العالمية الحديثة ، ظل الراديكاليون لفترة قصيرة يسيطرون على حركة الإصلاح الجريجورى ، وهى فترة كانت كافية لتدمير النظام القديم . ولكن عندما أدرك المحافظون والمعتدلون فى النهاية أهداف الراديكاليين الحقيقية وشراستهم التى لاتعبأ بالنتائج ، فقد الراديكاليون زعامتهم وباتوا غير قادرين على تحقيق مثلهم الخيالية .

وكما هو الحال فى الثورة العالمية الحديثة ، خسر الراديكاليون زعامتهم ، ولم يتولها المعتدلون من جماعتهم والذين كانوا قد أزاحوهم جانبا من قبل ، وإنما تولاها السياسيون ، ورجال الدولة الواقعيون الذين أوقفوا مسيرة الثورة محاولين إعادة تركيب توليفة جديدة من شظايا النظام القديم وإنجازات الثورة ، أى توليفة تضمن التقدم . هذا الاتجاه واضح تماما فى البابا اربان الثانى Urban II فى العقد الأخير من القرن الحادى عشر ، وقد صار هو الاتجاه السائد فى البابوية فى عشرينيات القرن الثانى عشر .

وكما هو الحال فى جميع الثورات العالمية ، لم يصل النزاع حول التقليد العلمانى قط إلى حل نهائى وكامل . ذلك أن الأفكار الجديدة التى تولدت عند الأجيال الجديدة أفرغت المسائل القديمة من مضمونها ، وتحول أبناء الأجيال الجديدة إلى اهتمامات أخرى ومشكلات جديدة ، ومثلما لم يستطع فولتير وهيوم أن يفهما السبب الذى جعل الناس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يحاربون من أجل مبادئ لاهوتية غامضة معقدة فإن رجال الكنيسة المتعلمين فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر لم يفهموا السبب الذى جعل البابوات والملوك يتنازعون على التقليد العلمانى قبل عشرين أو ثلاثين سنة فقط .

وربما يمكن أن نعتبر ، بحق ، أن عصر النزاع العلمانى هو نقطة التحول فى تاريخ حضارة العصور الوسطى . لقد كان هذا العصر هو إنجاز العصور الوسطى الباكرة ، لأنه فى هذه العصور اعتنقت الشعوب الجرمانية الدين المسيحى ، ومن ناحية أخرى ، فإن نموذج النظام الدينى والسياسى الذى ساد فى العصور الوسطى العالية قد برز من خلال حوادث وأفكار النزاع حول التقليد العلمانى .

والرأى القديم ، القائل بأن الحركة الكلونية كانت هى الإلهام المباشر للإصلاح الجريجورى ، لم يكن ساذجا فحسب ، وإنما كان يناقض الحقيقة تماما . لقد ثار الجريجوريون ضد توازن العصور الوسطى ، ومن ثم كانت ثورتهم ضد كثير من الأشياء التى كان دير كلونى والأديرة التابعة له يمثلونها فى القرن الحادى عشر . فما هى إذن أصول وأسباب حركة الإصلاح الجريجورى التى كانت سببا فى نقطة التحول الحاسمة فى التاريخ الوسيط ؟ إن من يحاول تفهم أسباب الثورات العالمية الحديثة ومراحلها الأولية لن تدهشه صعوبة تحديد أسباب الثورة العالمية فى العصور الوسطى ورصد مراحلها . ذلك أن كثيراً من جوانب هذه المشكلة لم تخضع بعد للدراسة المكثفة . ولاسيما أن عدداً محدداً من قادة كنيسة القرن الحادى عشر هم الذين حظوا بدراسة جادة عن حياتهم . ولكن معلوماتنا عن تلك الفترة تقدمت بالقدر الذى يكفى للكشف عن أصول الثورة فى خطوطها العريضة على الأقل .

لقد كانت حركة الإصلاح الجريجورية هى النتاج الطبيعى ، ولكنها لم تكن أبداً النتاج الحتمى ، للتوزان الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة . إذ أنه عندما توغلت الكنيسة فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر فى شئون العالم تدخلا مطرداً ، لكى تفرض مثلها وقيمها على المجتمع العلمانى ، بدأت تواجه احتمالا خطيراً بفقدان هويتها المتمايزة وبذلك تخسر زعامتها للمجتمع الغربى . لأنه بينما كان التدين ينمو باطراد فى شتى أنحاء الغرب الأوربى ، ظلت الصفات الخاصة لرجال الكنيسة أقل من المطلوب . ولم يعد الموقف المخلص من العقيدة والأسرار الكنيسة وتبجيل القديسين وذخائرهم كافيا للتمييز بين الرجل العلمانى ورجل الكنيسة . فمع منتصف القرن الحادى عشر بات واضحا أن المتدينين العلمانيين قد وصلوا فى حالات كثيرة إلى مستوى من الإخلاص الدينى يضارع مستوى أكثر رجال الكنيسة وعيًا . فقد لاحظ الكاردينال داميانى ، الذى تعتبر كتاباته مؤشراً على المواقف السائدة فى القرن الحادى عشر ، أن كل مسيحى مؤمن هو صورة للكنيسة بأسرها « أن كل

مؤمن يبدو كنيسة مصغرة » . ويؤكد دامياتى أنه إذا رفع الروح القدس بعض المؤمنين إلى مرتبة السهر على الهيبة الكنسية ، فإنه ينبغى أن يقوم وزراء الرب هؤلاء بكشف النقاب عن صفاتهم الشخصية المقدسة ، وذلك بأن يحيا كل منهم حياة دينية سامية . فضلا عن أن الرهبان الذين يحيون حياة دينية كاملة يجب أن يتصرفوا باعتبارهم جيش المسيح .

لقد أدى انتشار مشاعر التدين بين العلمانيين إلى خلق مشكلة جديدة أمام الكنيسة ، كما أن مذهب الكنيسة التقليدى عن سلطة الكنيسة ، والذى تعكسه عبارة دامياني ، جعل المشكلة أكثر إلحاحا . وقبل ذلك لم يكن ثمة شك فى أن المطلوب من رجال الكنيسة على طريق الروح كثير ؛ لأن هذا كان مايبرر السلطات المقدسة فى عقول العامة . إلا أن الشكوك بدأت تثور حول هذه المسألة . فقد اتضح للكثيرين من رجال الكنيسة فى القرن الحادى عشر أن الأخلاقيات الراقية ، والحماسة الدينية المتأججة فى صدور رجال الكنيسة لاتكفى وحدها لتبرير سلطان الكنيسة الشاملة وإلا فإن الكنيسة سوف تذوب فى العالم الذى اعتنق المسيحية، وبذلك يفقد الكنسيون موقعهم المميز فى المجتمع .

ومع منتصف القرن الحادى عشر كان رجال الكنيسة فى جميع أنحاء الغرب الأوربى يجابهون هذه المشكلة الجديدة الحرجة . إذ أنهم عرفوا أن الملوك من أمثال هنرى الثالث الألمانى ووليم المعترف كانوا رهبانا فى ثياب دنيوية ، وأنهم شغوفون بقيادة المسيرة الدينية . واكتشفوا أن العديد من النبلاء أخذوا حركة « سلام الرب »[1] مأخذ الجد ، وأوقفوا الأراضى والأملاك على الأديرة والكاتدرائيات كما قاموا برحلات الحج الشاقة ، وكان أملهم أن يموتوا

---

١ - حركة دينية اجتماعية بدأت فى غرب فرنسا فى القرن العاشر كرد فعل للفوضى الاقطاعية . وكانت الكنيسة تتولى الدعاية . وفى سنة ١٠٨٧ اجتمع مجمع كنسى فى شارو Charrou وأصدر مرسوما بالسلام بين المسيحيين ، مهدداً بتوقيع عقوبة الحرمان على من ينتهكون السلام . وقد رفع الأساقفة السلاح لفرض احترام السلام مما نتج عنه توسيع ضياعهم الاقطاعية وزيادة عدد أفصالهم . وفى القرن الحادى عشر تحولت حركة « سلام الرب » إلى حركة « هدنة الرب Truce of God » التى منعت الهجوم على الاكليروس وغير المحاربين . وتقييد الحروب فى فصول معينة وثلاثة أيام فى الأسبوع . وحين لقيت الحركة تأييد الكلونيين انتشرت في فرنسا وإيطاليا والمناطق التى كانت السلطة الملكية فيها ضعيفة ، ولكنها فى انجلترا وألمانيا استبدلت بالسلام الملكي أو الإمبراطورى . وبعد أن أيدت البابوية هذه الحركة سنة ١٠٥٨ تأسست مؤسسات للسلام ، مثل المحاكم التى كانت مهمتها الحيلولة دون نشوب الحروب الاقطاعية . وقد أنشئت المليشيات لفرض السلام على المخالفين . وفى القرن الثانى عشر ، ومع إحياء السلطة الملكية فى فرنسا استخدم الملوك مؤسسات السلام لفرض سلطتهم . (المترجم)

وهم فى مسوح الرهبان . بل أن البورجوازيين الأدنياء أظهروا من الدلائل مايشير إلى أنهم سايروا هذا الاتجاه الجديد ، بدعمهم للكنائس البلدية وإخلاصهم للاحتفالات الدينية . وكان لابد لمثل أولئك العلمانيين أن يتوقعوا أن يظل رجل الكنيسة على تفوقه الأخلاقى بالنسبة لهم كما كان الحال فى الأيام الخوالى عندما كان المجتمع وحشيا وثنيا . لقد كان من الممكن الاحتفاظ بسيطرة الكنيسة على المجتمع العلمانى ، والإبقاء على احترام العلمانيين للرهبان بصفة خاصة ، عن طريق زيادة مشاعر التقوى وتدعيم القيم الأخلاقية فيما بين الرهبان أنفسهم.

لقد قدم البندكتيون العدد الأكبر من قيادات الكنيسة فى القرن الحادى عشر ، مما جعل الرهبان أشد حساسية تجاه المد الدينى فى صفوف العلمانيين . وتكمن أصول حركة الإصلاح الجريجورى فى الاتجاهات الجديدة التى تطورت فى الحياة الديرية فى القرن الحادى عشر وفى روح جديدة جعلت الكثيرين من الرهبان يسخطون على الحياة الدينية الكلونية السائدة وأدت بهم إلى تكريس مثل ديرية مختلفة أشد صرامة . ومن ثم يمكن أن نجد جذور الحركة الجريجورية فى الأزمة التى عانتها الديرية الغربية فى القرن الحادى عشر .

لقد ظهرت البوادر الأولى للموقف الجديد تجاه الحياة الديرية ( والأرجح أنه ، على وجه الدقة، موقف قديم جداً أعيد احياؤه ) فى شمال إيطاليا سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريبا . فللمرة الأولى منذ القرن الرابع على الأقل ، ظهر الشكل المتقشف للديرية بشكل ملحوظ فى غرب أوربا . ولاغرو فى أن يكون أول ظهور أولئك النساك فى شمال إيطاليا . والزهد المتطرف ليس من خصائص المجتمع الزراعى النامى حيث يكون مستوى المعيشة هامشيا وقانعا بالقليل فى جميع الأحوال . فلابد للزهد من مجتمع ثرى ، وأطايب الحياة والتنافس الذى يميز الاقتصاد الحضرى ، لكى يثور ضده . وكان هذا هو الواقع الذى يعيشه عالم شرق المتوسط فى القرن الرابع عندما ذاع صيت آباء الصحراء ، كذلك كان هذا هو الحال فى شمال إيطاليا عند بداية القرن الحادى عشر حيث وجد المجتمع الحضرى للمرة الأولى في تاريخ تطور أوربا الغربية فى العصور الوسطى . ففى شمال الألب بدأت حركات تقشفية جديدة تظهر فى منتصف القرن الحادى عشر . وفى شمال فرنسا ، والفلاندرز ، وأراضى الراين بصفة خاصة ، نسمع عن رهبان مخلصين يديرون ظهورهم للراحة والأمن فى رحاب الأديرة الكلونية ، ليذهبوا إلى مناطق الحدود فى مجموعات صغيرة لكى يشكلوا جماعات رهبانية جديدة صارمة فى تقشفها . هذه

المؤسسات الديرية الجديدة المنعزلة تبلورت فى القرن الثانى عشر فى الحركة السسترشيانية الكبرى وغيرها من النظم الرهبانية الجديدة . وعلى أية حال ، فإنه على الرغم من ظهور جماعات زاهدة جديدة أكثر صرامة فى شمال إيطاليا ، ظلت شخصية الناسك - القديس الجوال قوة دفع أساسية فى الحياة الدينية فى القرن الثالث عشر لتبلغ الذروة فى الحركة الفرنسسكانية.

وسواء كان القادة الروحيون لحركة الزهد فى الديرية الغربية يسيرون على هدى الديرية الباكرة ، أو يحتذون خطى الرهبان المتأخرين ، فإنهم اتفقوا على انتقاد النمط الكلونى السائد فى الحياة الدينية . إذ أنهم كانوا يعتقدون أن دير كلونى وغيره من الأديرة البندكتية الكبرى فى ذلك الزمان قد قصرت بشكل محزن فى التزامها بالقاعدة التى كان مؤسس النظام قد أرساها . وبعض النظر عن التهليل للتأثير الدنيوى وممتلكات البندكتيين الشاسعة ، فإن زعماء الحركة التقشفية قد شكوا من أن ثروات الأديرة وسلطتها كانت مصدر إفساد لأعضائها ، لأنها كانت تنأى بهم عن تحقيق المثل الديرى . وتمثل الحل آنذاك أمام النساك من أعضاء الجماعات الديرية الجديدة فى الخضوع الصارم لقسم الفقر : بمعنى أن يعيشوا مثلما كان رهبان مونت كاسينو يعيشون فى زمن القديس بندكت ، أى أنه يجب عليهم العودة إلى المثال الروحى الذى ضربته كنيسة الحواريين . وفى هذا الصدد ، كما فى غيره ، يتحدث بطرس داميانى إلى جيل جديد من رجال الكنيسة ذوى الميول التطهرية بقوله : « إننا لانتخلى عن الوظائف النبيلة والمكاسب الدنيوية فحسب ، ولكننا أيضا نتخلى عن هذه الأشياء بشكل دائم» . وقد تمكن الرهبان ، بانتهاج هذا الإصلاح العظيم فى الحركة الديرية ، أن يحتفظوا بزعامتهم للمجتمع المسيحى ، وهو ماكانوا به جديرين .

كيف تمثلت نتيجة هذه التغيرات الحرجة فى الثورة الجريجورية والصراع الذى لم يلبث أن نشب حول النظام العالمى الصحيح ؟ لم يكن حتميا أن يؤدى أى منهما إلى الآخر ، ولكن ذلك كانو تطوراً طبيعيا فى ظل ظروف العصر . فقد كان جميع الرجال الذين تبوأوا مكان الصدارة فى البلاط البابوى فى خمسينيات القرن الحادى عشر من الرهبان ، وكان طبيعيا بالنسبة لهم أن يحملوا اهتماماتهم التقشفية التطهرية خطوة واحدة خارج الدير لكى يطبقوها على الكنيسة بأسرها . وهكذا كرس داميانى سنوات طويلة فى محاولة إصلاح رجال الكنيسة الفاسدين فى شمال إيطاليا . وكانت الخطوة الأولى تبدو منطقية على الرغم من كونها غير حتمية ، هذه

الخطوة هى نقل النبض التقشفى والتطهرى إلى العالم نفسه . كان هذا هو أصل الهجمة الجريجورية على النظام السائد فى العالم نفسه ، وهو مايمكن تفسيره فى ضوء ظروف التوازن الذى شهدته العصور الوسطى - أى تداخل كل من الكنيسة والعالم فى الآخر . وإذا كانت الكنيسة والعالم مرادفين لبعضهما ، كما قال كثير من المعاصرين ، فكيف يمكن إذن لحركة التقشف والإصلاح أن تتوقف داخل نطاق الكنيسة ؟ لأن الكنيسة لم تكن لها حدود ، أو لأن حدودها على الأقل كانت هى حدود العالم نفسه ، فإن الثورى الجريجورى كان يشعر أنه مضطر إلى تطبيق مثله التطهرية على كافة جوانب الحياة الاجتماعية وإلى بناء نظام مسيحى عالمى موحد Christianitas ، على حد تعبير جريجورى السابع . لقد أخذ الجريجورى التعريف العام للكنيسة والعالم فى القرن الحادى عشر مأخذ الجد تماما ، ومن ثم كانت أيديولوجويتهم تفرض عليهم أن يحملوا النبض التقشفى الإصلاحى من النساك والجماعة الديرية الجديدة ، إلى أكثر جوانب الحياة حيوية خارج حدود الدير . وتأكدت الدروس المستفادة من أيديولوجيتهم من البناء القائم على المؤسسات فى العالم الذى كانوا يعيشون فيه بحيث كان يصعب الاقتناع بأن أى تغيير حاسم فى الحياة الديرية لن يؤثر فى الكنيسة ويؤدى إلى إصلاحها ككل . كذلك كانت الكنيسة والملكية فى معظم أنحاء أوربا مرتبطتين ببعضهما بحيث كان الإصلاح الكنسى الثورى يستوجب ثورة سياسية واجتماعية .

٢ - النقاش حول أسس المجمع المسيحى :

مع بداية خمسينيات القرن الحادى عشر كان مساعدو البابا الرئيسيون قد انتظموا فى «هيئة الكرادلة » . ومصطلح « كاردينال Cardinal » مشتق من الكلمة اللاتينية التى معناها « مفصّلة » الباب ؛ أى أن الكرادلة كانوا هم « المفصلات » التى يتحرك عليها الباب البابوى الكبير . وكان مصطلح « كاردينال » يتناسب بصفة خاصة مع الرجال الذين كانوا يسيطرون على البابوية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وهم الذين حاولوا تنفيذ الإصلاح الجريجورى . وكان عددهم قليلا بشكل ملحوظ إذ لم يكونوا جميعا يزيدون عن إثنى عشر شخصا على مدى فترة استمرت أكثر من نصف قرن ، ولكن أهميتهم بالنسبة للحركة الجريجورية كانت فائقة . والواقع أنه لم يتول العرش البابوى من الراديكاليين الحقيقيين سوى إثنين فقط هما جريجورى السابع ( ١٠٧٣ - ١٠٨٥ )، وباسكال الثانى (١٠٩٩ - ١١١٨). أما المصلحان الجريجوريان الآخران البارزان فهما الكاردينال بطرس داميانى ( ت ١٠٧٢ ) ،

وهيومبرت ( ت ١٠٦١ ) . وغالبا ماكان هذا الأخير يعرف باسم هيومبرت من سيلفا كانديدا Humbert of Silva Candida ، نسبة إلى الكنيسة الصغيرة الكائنة فى روما والتى كان هو المسئول أدبيا عن رعايتها إلى جانب منصبه الكاردينالى ، كما جرت العادة آنذاك .

كان المصلحون الجريجوريون الأربعة الذين تزعموا الحركة مجموعة متميزة من الرجال مثلما كان يحدث طوال التاريخ الأوربى . وهم لم يسيطروا فقط على الكنيسة فى القرن الحادى عشر، ولكنهم أيضا ساهموا فى التيارات الثقافية الرائدة فى ذلك العصر . وفى جميع الحالات ظلت المذاهب التى روجوها باقية بعدهم وحتى بداية القرن الثانى عشر ، ولكنها دخلت فى المجرى الرئيسى للفكر فى العصور الوسطى . لقد خرجت الأفكار الجريجورية العالمية فى اتجاهات شتى دون أن تنحصر فى حدود الكاثوليكية الضيقة . وانبرى نفر آخر من الكنسيين المتعلمين المخلصين لتحدى المذاهب التى نشرها الجريجويون حول طبيعة المجتمع المسيحى ، ومن غمار هذا الصراع الثقافى برزت فى النهاية الخطوط العريضة لكافة المواقف الأيديولوجية التى قيض لها أن تتطور على نحو أكثر اكتمالا فى القرون الخمسة التالية . وكثير من المناقشات التى دارت إبان فترة الإصلاح الجريجورى ماتزال وثيقة الصلة بتجاربنا ومشكلاتنا الحالية .

ومن بين الرجال الذين نطلق عليهم اسم المصلحين الجريجوريون كان سان بطرس داميانى هو الوحيد الذى يحظى بحب الجميع واحترامهم ، كما كان أقلهم إثارة للنزاع فى زمانه . ومع هذا فإن ذلك النموذج الملهم ، وما تضمنته مذاهبه من دلالات تستعصى على مداركنا أكثر مما خلفه غيره من المصلحين الجريجوريين بسبب طبيعتها المسهبة ، وبسبب تغلغلها وتأثيرها فى ثقافة العصور الوسطى وآدابها ككل . ولقد كان دانتى منصفا حين وضع داميانى فى « الكوميديا الإلهية » فى واحدة من أعلى دوائر السماء واعتبره سلفا لسان فرنسيس . والحقيقة أنه يمكن القول بأن سان فرنسيس لم يكن سوى التطور الختامى لحركة دينية كان داميانى هو أبرز وأقوى مؤسسيها .

وتعكس كتابات داميانى الضخمة الحال الروحية فى شمال إيطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، أى حين قدم إلي البلاط البابوى . وُلد داميانى حوالى سنة ١٠٠٧ . وكان يتيما من عائلة فقيرة فتبناه أحد القساوسة ، وتلقى تعليما راقيا فى اللاهوت والقانون الكنسى ، ثم صار واحداً من زعماء حركة الزهد الجديدة فى شمال إيطاليا . وقد استرعى

انتباه البابا ليو التاسع بسبب إدانته العنيفة لفساد الرهبان فى المدن الإيطالية ، فعينه البابا كاردينالا وحاول أن يسخر طاقاته فى خدمة روما . ولم يسعد داميانى قط بوظيفة الكاردينال؛ فقد كان من طراز الناسك - القديس الجوال والمبشر أكثر منه مصلحا نظاميا . وأوفد داميانى إلى ميلانو فى محاولة لإصلاح كنيستها ، ولكنه لم يحقق نجاحًا كبيراً . إذ أنه وجد نفسه على خلاف مع هيلدبراند ( الذى صار البابا جريجورى السابع فيما بعد ) ، وهيومبرت ، زميليه فى هيئة الكرادلة ، وكان يعجب بهما ولكنه رأى فيهما التهور والرعونة . لقد كان من ذلك الطراز من الرجال الذين يلهمون الثوريين ، بيد أن وداعته ، وميله إلى الإحسان ، كانت تحول بينه وبين أن يصير هو نفسه رجلا ثوريا . وكانت وفاته فى السنة السابقة على ارتقاء هيلدبراند للعرش البابوى أمراً هامًا للغاية : لأن موته قد أزال من على المسرح الرجل الوحيد الذى كان يستطيع كبح جماح جريجورى السابع .

لقد كان داميانى هو زعيم المجموعة المعتدلة فى هيئة الكرادلة ، وهى المجموعة التى حاولت تفادى الانفصال النهائى بين البابوية الإصلاحية والإمبراطور الألمانى . ولكن تعاليمه كانت على درجة كافية من الثورية ، بمعنى أنها قد توصلت إلى أسس التجربة الدينية فى العصور الوسطى وساعدت على تحويل القيم الروحية . فقد شهد القرن الحادى عشر تغيراً عظيما فى مفهوم العلاقة بين الألوهية والبشرية . فالرب الحاكم ، الحانق ، البعيد الذى يصوره العهد القديم ، والذى حكم النظرة الدينية فى العصور الوسطى الباكرة ، قد تخلى عن مكانه لابن محب ، منكر لذاته يصوره العهد الجديد مع أمه الباكية الحانية . لم يعد الدين مسألة قاصرة على العبادة والطاعة الشكلية ، بل صار تجربة شخصية . هذه النظرة الروحية الجديدة ظهرت للمرة الأولى فى الحركة الديرية التقشفية فى شمال إيطاليا ، كما ظهرت من خلال التجربة الروحية العميقة التى مرت بها المجتمعات الحضرية الإيطالية . وبمنتصف القرن الثانى عشر ، كانت روح التدين الجديدة هذه قد انتشرت فى شتى أنحاء أوربا ، وتوغلت إلى أعمق أعماق الضمير الأوربى ، كما أثرت الفن والأدب وارتقت بهما مكانة نبيلة فى حضارة العصور الوسطى . وكان سان فرنسيس هو التجسيد النهائى لهذا التطور ، كما أن سان برنار لعب دوراً هائلا في تقديم الروح الدينية الجديدة ونضجها فى القرن الثانى عشر ، ولكن سان بطرس داميانى كان أول من عبر بوضوح عن إنكار الذات ، والإله المحب والروح الإنسانية الصاعدة

فى أمل ، وهى السمات والخصائص التى ميزت حركة التدين فى العصور الوسطى العالية عن التدين قبل ذلك .

وهكذا ، فإذا كان داميانى قد لعب دوراً رئيسًا فى إثراء المذهب الكاثوليكى وإكتماله فى العصور الوسطى ، فإنه يجب علينا أن ننظر إليه فى الوقت نفسه باعتباره مؤسسا لحركة عاطفية جارفة ، وهى حركة لاتستحق ثناء كثيراً لأنه كان يصعب على الكنيسة أن تتحكم فى هذا المفهوم حتى على المدى الطويل . ذلك أن مشاعر التدين العاطفى الجديد ، قد خلقت تعصبا طائشا يمكن أن ينتج من مظاهر العنف ما لا تستطيع أية سلطة عامة أن تسيطر عليه . وكان رد الفعل الشعبى تجاه الحملة الصليبية الأولى من أكبر الأمثلة على هذا . وليس مما يدعو إلى الدهشة أن نجد أن مذبحة اليهود سنة ١٠٩٦ كانت استجابة شعبية للدعوة الصليبية التى وجدت ذريعتها النهائية فى كتابات داميانى نفسه . بل إن التعصب ظهر فى آراء هذا القديس وفى الحركة الصوفية التى انتشرت فى أوائل القرن الحادى عشر ، باعتباره الجانب الآخر من التدين الشخصى العميق الذى بذل داميانى جهداً كبيراً لاستثارته . لقد بدأت الزيادة فى الأدب المعادى للسامية فى أخريات القرن الحادى عشر بكراستين كتبهما داميانى الذى لم يصل عطفه الودود إلى غير المسيحيين .

ويتمثل الازدواج والتوتر فى المذهب الذى نادى به داميانى فى حقيقة أنه على الرغم من كونه أشد المدافعين عن فعالية الطقوس الكنسية وضرورتها كوسائط للرحمة المقدسة وعن سلطة القساوسة وحدهم فى إدارة شئونهم - على الرغم من هذا كانت الاتجاهات الخفية الأساسية فى تعاليمه تتجه إلى تقليل التلازم بين القساوسة والطقوس المقدسة . لأنه إذا أمكن تحقيق الربط الشخصى بين الروح الإنسانية والمسيح المحب ( فى العقلية العامة على الأقل ، إذا لم يكن ذلك فى المجالات اللاهوتية ) ، يكون هناك طريق بديل إلى الرب قد صار مفتوحا . وفى القرن الحادى عشر لم تكن دلالات هذه الورطة الكامنة واضحة للعيان ، وإنما قيض لها أن تصير مصدراً للفوضى ، والشك والصراع المضنى فى العالم المسيحى في غضون المائتى سنة التالية . ومن ثم ، فإننا لانغالى إذا استنتجنا أن الإستنباط بعيد المدى فى تعاليم داميانى كان يسير فى الاتجاه القائل بأن الفردية الدينية سوف تمزق نسيج العالم المسيحى فى العصور الوسطى . ولايعنى هذا أننا نقول إن داميانى كان « مسئولا » عن هذا الاتجاه المتأخر فى الجوانب الصوفية والعاطفية فى الحياة الدينية فى العصور الوسطى ، ولكننا نشير إلى أننا إذا

اقتفينا أثر هذا التيار الرئيسى للفكر الثورى ، ونحن نعود القهقرى من القرن الرابع عشر حتى مصادره الأولى فى القرن الحادى عشر ، فإن الصورة القديسية لهذا الرجل سوف تبدو فضفاضة للغاية . وهكذا ، فإننا إذا اعتبرنا أن مذاهب دامياتى تسير ضد البناء الكلى لثقافة العصورالوسطى ، فإن هذه المذاهب سوف تبدو ثورية مثل جميع أقوال هيومبرت أو هيلدبراند وفعالهما ، وذلك على الرغم من أن داميانى نفسه ، باتجاهاته الشخصية ، يعتبر أقل المصلحين الجريجوريين ثورية .

كان منافس داميانى فى الزعامة الثقافية للبابوية الجريجورية هو الكاردينال هيومبرت من سيلفا كانديدا ، وهو مفكر يتشابه مع داميانى من حيث تعليمه وسطوته ، وهو من بعض الوجوه أكثر منه فطنة ، وأصالة ، وعقلانية ، فقد جاء هيومبرت من اللورين حيث كان ليو التاسع يتولى منصب الأسقف . ومن الثابت أن هيومبرت كان من رهبان دير كلونى ، وراوده إحساس قوى بأن كلونى قد خان المثل والقيم التى كان مؤسسه قد أرساها . وفيما عدا ذلك فإن سيرته تتشح برداء الغموض . وهو مثل جميع الكولونيين تقريبا ، وربما كان سليل الطبقة العليا من النبلاء ، وهذه الخلفية الطبقية تساعدنا على تفسير كراهيته للملكية الألمانية التى دعمت سلطتها على اللورين على حساب المعارضة المحلية القوية . ولاشك فى أن هيومبرت قد درس فى مدارس القانون الكنسى الجديدة التى ازدهرت فى اللورين وكانت معلوماته وافرة فى اللاهوت والتاريخ الكنسى ، ومن المحتمل أنه كان نادرة ثقافية - إذ كان يعرف اللغة اليونانية جيداً ، مع أنها لم تكن لغة مألوفة فى غرب أوربا آنذاك . وعلى الرغم من مزاجه الناقد اللاذع ، وغطرسته الثقافية الى تكشف عن نفسها فى كل صفحة سطرتها يده ، فإنه لم يكن بوسع الكنيسة أن تستغنى عن خدماته . فقد كان من دواعى سرور الباب ليو التاسع أن يوظفه فى خدمة البابوية حيث جعلته طاقته الخلاقة وعلمه الغزير شخصية بارزة . ولم يحل دونه وعرش القديس بطرس سوى وفاته المبكرة ، إذ توفى سنة ١٠٦١ ، وعمره لايزيد على خمسين سنة .

ومعرفة هيومبرت باللغة اليونانية هى التى هيأت له سبيل القيام بدور المبعوث البابوى إلى القسطنطينية . ذلك أن موقف البابوية الهجومى المتجدد قد أدى إلى إعادة النظر فى العلاقات البابوية مع الكنيسة البيزنطية ، كانت المزاعم القديمة المتعارضة لكل من البابا والإمبراطور قد بدأت تستعيد أهميتها . فالغزو النورمانى لجنوب إيطاليا ، حيث كان يعيش كثيرون من

اليونانيين المسيحيين ، أعاد إلى أذهان البلاط البابوى مشاكل العلاقات اللاتينية البيزنطية . ولم يكن هيومبرت بالرجل الذى يتحفظ أو يتذلل فى مفاوضاته مع الكنيسة البيزنطية . وقد أنهى مهمته سنة ١٠٥٤ بحرمان بطريرك القسطنطينية ، وبذلك تم الإعلان الرسمى للإنقسام الذى كان يتطور منذ القرن الخامس . وهو الانقسام الذى لم ينته حتى يومنا هذا ، على الرغم من محاولات الوفاق العديدة التى بذلت عبر القرون .

وبعد عودته إلى روما صار هيومبرت هو مُنَظّر حركة الأصلاح وزعيم الجناح الراديكالى فى هيئة الكرادلة . وكانت سنة ١٠٥٩ هى التاريخ الحاسم الذى تجلت فيه نتائج خططه ونظرياته . ففى هذه السنة كان هو المسئول عن نشر كتابين كانا بمثابة إشارة البدء للثورة الجريجورية . وأولهما مرسوم الانتخاب البابوى الذى يحدد الطريقة القانونية لانتخاب البابوات . وقد جعل الانتخاب برمته بأيدى الكرادلة واستبعد تدخل كل من الإمبراطور الألمانى والشعب الرومانى . وبالنظر إلى حقيقة أنه قبل أقل من عشرين سنة كان هنرى الثالث يعين البابوات بشكل منتظم، فإن ذلك يعتبر علامة على تغير كبير جداً فى العلاقة بين روما والإمبراطور الألمانى . ولكن هنرى الرابع ( ١٠٥٦ - ١١٠٦ ) كان مايزال قاصراً فى ذلك الحين ، وكانت أسرته تحارب ضد عصيان النبلاء الألمان : وهو ماأتاح لهيومبرت أن يقوم بـ « انقلابه » دون خشية القصاص . أما الكتاب الثانى الذى نشره هيومبرت فكان فى سنة ١٠٥٩ وهو عبارة عن رسالة تتناول علاقة الدولة بالكنيسة وعنوانها « الكتب الثلاثة ضد السيمونيين » . وهو يعتبر بمثابة الصياغة الإيديولوجية للثورة الجريجورية فهو كتاب يطفح بالكراهية العنيفة ضد الإمبراطور الألمانى وينادى بقوة بالتحرر الكامل للبابوية من ربقة السيطرة العلمانية . ولكن هناك ماهو أكثر فى رائعة هيومبرت ، فهى فى أساسها هجوم على التوازن الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة بين الكنيسة والدولة ككل .

ومثلما تعكس كتابات داميانى أحد التيارات الثقافية الرئيسية فى ذلك الزمان ، أى روح التدين الجديد ، تعكس مؤلفات هيومبرت الروح الجدلية الجديدة - أى التأكيد على صياغة المناقشات وفقا للقوانين الصارمة للمنطق الأرسطى بالشكل المعروف به آنذاك . وكان هيومبرت فارسا لايشق له غبار فى هذا الميدان ، وكانت تلك طريقة للمناقشة تتناقض تماما مع ذلك النوع من النثر البلاغى الباهت الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة . وقد استخدم هذه الأداة الجديدة باقتداره الرائع لتقويض النظام العالمى القائم . إذ أنه كان يقول إن السيمونية ليست

مجرد بيع وشراء المناصب الكنسية ؛ وإنما هى تدخل العلمانيين فى شئون الكنيسة . وقد أدان بهذا التعريف كثيراً من مؤسسات النظام السائد فى المجتمع الغربى - مثل التقليد العلمانى ، والكنائس الامتلاكية ، والتدخل الملكى فى شغل الوظائف الكنسية - باعتبارها أخطاء تشوب العقيدة . وبناء على منطق هيومبرت ، لم يكن هناك ملك أو نبيل فى غرب أوربا ، فضلا عن بعض رجال الكنيسة ، تبرأ ساحته من المشاركة فى الأعمال التى تدين روحه .

كان هذا دواء ناجعا لداء الكنيسة العضال ، إلا أن هيومبرت لم يقنع حتى بالتوقف عند هذا الحل الجذرى . ذلك أن سحر الجدل القاتل ، قاد بعضًا من ألمع مفكرى العصور الوسطى إلى مستنقعات الهرطقة خلال القرون الثلاثة التالية ، وزعموا أن هيومبرت كان الضحية الأولى على طريقهم . ذلك أن نزعته التطهرية دفعت به عبر الخطوات المنطقية إلى استنتاج أنه إذا لم يتم إصلاح الاكليروس ، بطريقة أو بأخرى ، فإن الناس سوف يمحصون الشخصية الأخلاقية لقسيسهم ، فإذا ما وجدوها غير مرضية فإنهم بالضرورة سيرفضون الطقوس المقدسة التى يقوم بها . وهكذا انساق هيومبرت إلى إحياء المذهب الدوناتى القائل بأن قيام قسيس ما بالطقوس المقدسة وهو يفتقر إلى الجدارة والاستحقاق يجعلها كأنها لم تكن ، ومايترتب على ذلك بالضرورة من حق العلمانيين فى الحكم على القساوسة . لقد عمل سان أوغسطين بدأب ضد هذه المبادئ نفسها قبل أكثر من ستة قرون ، وكان حصاد عمله أن أدانت الكنيسة المذهب الدوناتى باعتباره أخطر الأخطاء . لقد كان مقرراً أن الكاهن يقوم بالطقوس المقدسة باعتباره ممثلا للرب ، وأن صلاحية الطقوس لاتعتمد على السجايا الشخصية للقسيس ، وإنما على المركز الذى يشغله ، وبذلك ليس من حق العلمانيين الحكم على رجال الكنيسة . وينبغى أن ننظر إلى إحياء هيومبرت للدوناتية على أنه نتاج مباشر لتطور مشاعر التدين بين العلمانيين . فمن الواضح أنه كان يحترم آراء كثير من العلمانيين ، أكثر من احترامه لرعاتهم الرسميين .

والواضح أن هيومبرت قد سقط فى خطأ منهجى ، وأن تأثير تعاليمه التى لقيت قبولا واسع النطاق لم يتعد هدم سلطة القساوسة وإنكار المفهوم الكاثوليكى عن تفوق المنصب على الشخصية الأخلاقية الفردية لرجال الكنيسة . لأن ذلك ببساطة ، كان سيؤدى إلى حلول كنيسة من القديسين محل الكنيسة الكاثوليكية . وقد سارع دلميانى إلى التنبيه إلى الاتجاهات الدوناتية فى مقالة هيومبرت ؛ فقد كان ذلك بالنسبة له درسا فى مخاطر الجدل الذى كان يشك كثيراً فى جدواه بالنسبة للكنيسة . ومع ذلك فإن أشخاصا آخرين ، ممن ألهبتهم نار التعصب

التطهرى ، وتأثروا بشخصية الكاردينال هيومبرت القوية وسطوته الفكرية الهائلة ، لم يدركوا المخاطر والنتائج المدمرة لجدل هيومبرت بمثل هذه السرعة . أما هيلدبراند الذى كان واقعًا تحت تأثير هيومبرت القوى ، فقد تباطأ فى دحض المذهب الدوناتى الجديد الذى جاء به هيومبرت ولم يحاول إدانته سوى فى الشطر الأخير من بابويته .

ومع أن البابوية أدانت إحياء الإيديولوجية الدوناتية على يد هيومبرت الذى كان كاردينالا بارزا ، كما كان أقدر المنظرين فى القرن الحادى عشر - على اعتبار أن هذا الإحياء من أخطر الأخطاء على العقيدة ، وهو موقف لم تحد عنه الكنيسة الكاثوليكية إلى اليوم - فإن إحياء الإيديولوجية الدوناتية كان حادثا ذا مغزى فائق الأهمية بالنسبة لتطور كنيسة العصور الوسطى . ففى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت الدوناتية هى النبع الفياض الذى نهلت منه الحركات الهرطقية والمذاهب المخالفة التى تبلورت فى البروتستانتية فى القرن السادس عشر . وحتى الآن لم يقم أى باحث بتحديد الخط الدقيق الذى يربط بين مقالة هيومبرت « ضد السيمونيين » والهراطقة الذين ظهروا بأعداد كبيرة بشمال إيطاليا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر . وعلى أية حال فلن نبالغ إذا افترضنا أن تعاليم هيومبرت ، التى أدانتها البابوية فى نهاية الأمر ، قد دخلت ضمن مقومات الحياة الدينية النشطة التى شهدتها مجتمعات شمال إيطاليا الحضرية ، كما أنها لعبت دوراً رئيسيا فى تحول حركة التدين العلمانى الجديد إلى هرطقة شعبية .

إذا ماقارنا هيلدبراند بكل من داميانى وهيومبرت لوجدنا أنه ليس مفكراً أصيلا . إلا أنه كان لايبارى كواحد من الإيديولوجيين . فقد نهل من عدة موارد فى آن واحد ، كما تشرب الأفكار الثورية التى انتشرت فى أيامه ، وصاغ هذا كله فى برنامج صلب شامل للثورة . وحين تولى البابوية تحت اسم جريجورى السابع حاول أن يفرض هذه المذاهب ، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الصراع المرير بين البابا والإمبراطور ، وهو الصراع الذى هز المجتمع الغربى من أساسه . وأيا كان الحكم على أيديولوجيته ، وجدواها ، والإنجازات التى تمت أثناء بابويته ، فإن جريجورى السابع يجب أن يعتبر من البابوات الثلاثة الكبار فى العصور الوسطى ، فمن بين جميع البابوات الذين تعاقبوا على عرش القديس بطرس قبل القرن السادس عشر ، لم يمكن مقارنة أحد بجريجورى السابع غير جريجورى الأول وإنوسنت الثالث . ولم يكن هناك من البابوات من أثار حوله من الجدل مثلما فعل جريجورى السابع . ذلك أنه لم يكن بمقدور أحد

فى أوربا فى سبعينيات وثمانينيات القرن الحادى عشر أن يحتفظ لنفسه برأى محايد تجاه جريجورى . فقد كان محل إعجاب البعض وحبهم الشديد ، كما كان فى الوقت نفسه مثيراً لمشاعر الكراهية والاحتقار التى لم تلحق بغيره من البابوات .

وبسبب الجدل والنزاع حول جريجورى السابع يصعب علينا أن نقرر بعض الحقائق الأساسية فى سيرته والجوانب الأساسية البارزة فى شخصيته . وقد بلغت القصص والأساطير التى رويت لصالحه أو ضده حداً جعل شخصيته شخصية غامضة إلى حد ما . فقد كان من مواطنى روما ، وانخرط فى خدمة البابوية وهو علي أعتاب الرجولة . وقبل بابوية ليو التاسع سنة ١٠٤٩ كان هيلدبراند قد صار بالفعل رجلا هاما فى الدوائر البابوية . وعلى الرغم من أنه على مدى ربع قرن تخطاه فى الانتخابات البابوية مرشحون أقل منه مقدرة ، فإنه كان قوة مسيطرة فى هيئة الكرادلة كما كان هو الرئيس الفعلى للإدارة البابوية . كان موقف هيلدبراند من الكرسى البابوى وطنيا ، إذا صح التعبير ، أو علي الأقل محصوراً فى نطاق روما . وبغض النظر عن المسائل الأيديولوجية المطروحة ، فإنه أدان الإمبراطور الألمانى باعتباره دخيلا أجنبيا لايحق له التدخل فى الشئون الإيطالية التى يجب أن تترك للسياسة البابوية . وكما أشار سوثرن R . W Southern . فإن آخر كلمات هيلدبراند حين مات فى جنوب إيطاليا سنة ١٠٨٥ ، بعد أن طرده الجيش الألمانى من روما ، كانت ذات مغزى عميق ، إذ قال « **أحببت العدل ، وكرهت البغى ، ولهذا أموت منفيًا** » . أى أن أى مكان خارج المدينة الخالدة كان بمثابة المنفى لهذا المواطن الرومانى .

من الصعب أن نتعرف على الخلفية الأسرية لهيلدبراند . فقد زعم بعض المعاصرين أنه كان من البورجوازيين ؛ وربما كان هذا افتراء ، بيد أنه إذا كان حقيقة فإنه سوف يساعدنا على تفسير كراهيته العنيفة للنظام القائم . ولاشك فى أن هيلدبراند كان رجلا صعب المراس . إذ أن مقدرته الإدارية الفذة ، وحماسته التطهرية ، وطاقته الخيالية جعلت منه قائداً كبيراً ، ولكنها أيضًا جعلت منه زميلا شديد الوطأة . بل إن داميانى العطوف يشير إليه بعبارة « الشيطان المقدس » . كما أن هيو رئيس دير كلونى ، الذى كان عجوزاً مدققًا من رجال كنيسة القرن الحادى عشر ، كرهه عندما رآه واعتبره شخصا يسعى إلى المناصب لاغير ، وبذل كل ما فى وسعه للحيلولة دون تنفيذ خطط جريجورى .

كان هيلدبراند عليما بالقانون الكنسى ، دون أن يكون عالما عظيمًا أو مفكراً منهجيا ، كما كان عارفا باللاهوت والتاريخ الكنسى ، ومع أن هيلدبراند كان ينقصه اهتمام العالم

الحقيقى بالمعرفة فى حد ذاتها ، فإنه استفاد بسرعة من حركة التعليم فى القرن الحادى عشر فى تدعيم وجهة نظره ، وهو عمل علمى كان يتم فى الوقت نفسه فى شمال فرنسا واللورين . وكان القانون الكنسى يضم كمًا هائلا غير منظم من المواقف المتناقضة فأراد جيرجورى أن يتأكد من أن جمع القوانين وتنظيمها قد تم فى اتجاهات تخدم السلطة البابوية . ولو كان هيلدبراند قد فعل هذا فقط ولم يفعل شيئًا آخر ، فإنه يكون بهذا قد ساهم مساهمة كبيرة فى النهوض بالسلطة البابوية ، ذلك أن هذه العملية بدأت تؤتى ثمارها فى منتصف القرن الثانى عشر فى شكل قانون كنسى يؤكد سلطة الكنيسة المطلقة ويرفض تراث العصور الوسطى الباكرة بأسره .

وعقب تولى هيلدبراند لعرش القديس بطرس سنة ١٠٧٣ ، واصل بحثه فى القانون الكنسى لصالح البابوية . وهو نفس الغرض الذى جعله ينشر الـ Dictatus Papae الذى هو تقرير للسلطة البابوية . وهذا المقال يؤكد أن الرب وحده هو الذى أسس الكنيسة الرومانية ، وأن المنصب البابوى فقط هو صاحب السلطة العالمية ، كما أن البابا وحده هو الذى يملك حق عزل الأساقفة ، أو إعادتهم لوظائفهم السابقة ، أو نقلهم إلى أسقفيات أخرى . ولايمكن أن يكون ثمة مجلس كنسى شرعى دون موافقة البابا . كما أنه ليس باستطاعة أحد أن يدين من يستأنف قضيته أمام البلاط البابوى ، الذى هو أعلى محكمة فى العالم المسيحى . وليس هناك كتاب أو مرسوم يمكن اعتباره قانونيا بدون الموافقة البابوية . فضلا عن أن البابا يسمو فوق أى إنسان ؛ فالرب وحده هو الذى يحكم على أعماله . والكنيسة الرومانية ، أى البابوية لم تخطئ أبداً ، كما أنها لن تخطئ أبداً وفقا لما ورد فى الكتاب المقدس . وزعم هيلدبراند أن البابا قد اكتسب قداسته بفضل موافقة القديس بطرس . كما قال إن أحداً لايمكن أن يكون كاثوليكيا صادقا ما لم يوافق على ما يأتيه البابا من فعال . وهناك فروض أخرى فى كتاب الإملاء البابوى تتناول العلاقة بين الدول والبابوية . وأكد على أن من حق البابا وحده الاحتفاظ بالشارات الإمبراطورية ، على اعتبار أنه هو الخليفة الحقيقى لقسطنطين . كما أدعى هيلدبراند أن للبابا الحق فى عزل الأباطرة ، وأن القانون يقضى بأن يتقدم الرعايا باتهاماتهم ضد حكامهم إلى المحكمة البابوية .

لقد كان الـ Dictatus Papae وثيقة ثورية مثيرة إلى أبعد الحدود ، ومن غير المعقول أن نظن أن هيلدبراند كان من السذاجة بحيث لا يتأكد من أنه سوف يخلق مثل هذا الانطباع . لقد

كان هذا الكتيب إقراراً للبرنامج الثورى الذى قصد جريجورى أن يسير على هديه : أى خلق نظام عالمى جديد يناسب المجتمع المسيحى القائم على أساس أن السلطة البابوية وحدها هى السلطة العالمية الكاملة ، على حين أن جميع السلطات فى العالم ، سواء الأباطرة ، أو الملوك، أو الأساقفة ، سلطات خاصة ناقصة . وفكرة كمال السلطة البابوية لم تكن فكرة جديدة بأى حال من الأحوال ؛ إذ أننا نجدها فى الجوانب الثورية من المذهب الجيلازى ، وفى هبة قنسطنطين، وفى تصريحات البابا نيقولاس الأول فى القرن التاسع . وباستطاعة جريجورى أن يزعم ، بحق ، أن كل فرض من الفروض الواردة فى كتاب الإملاء البابوى كان مجرد اقتباس من نص سابق ورد فى أحد القوانين الكنسية فى العصور الوسطى الباكرة . إلا أن الخاصية الثورية فى أى برنامج لايقلل من شأنها أن هناك من قالوا نفس الأقوال فى الماضى . لقد كان الـ Dictatus Papae وثيقة ثورية بالنظر إلى عمق تأكيده للسلطة البابوية المطلقة ، ومن حيث تناقضه مع النظام العالمى السائد . لقد ظلت البابوية على مدى مائتى سنة سلطة موقوفة ، وقد ازدهرت الأسقفيات والأديرة فى غرب أوربا فى تلك الأثناء بمساندة ضئيلة من روما ، وربما بدون مساندة منها على الإطلاق ، ومن المؤكد أن هذا الازدهار قد حدث دون إشراف من البابوية على شئونها . ولهذا لم يستطع كبار رجال الكنيسة فى شمال أوربا مغالبة شعورهم بالقلق من جراء هذا التأكيد المطلق على خضوعهم النهائى لروما ، وهو أمر يتناقض تماما مع التجربة العامة . إذ لم يكن باستطاعتهم أن ينكروا الأسس القانونية ، وربما اللاهوتية ، التى تقوم عليها مزاعم جريجورى ، ولكنهم أحسوا أن برنامج جريجورى غير ضرورى ومتهور ، فضلا عن أنه يمثل خطراً يتهدد أسلوب حياتهم ككل . فقد مضت الكنيسة فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا دونما متاعب أو صعاب على مدى قرنين من الزمان دون أن تعتمد على مساعدة البابوية . وكان كثيرون من رجال الكنيسة فى أوربا ، وربما كانوا هم الغالبية ، يرون أن الـ Dictatus Papae ليس سوى تأكيد صارخ للسلطة البابوية التى رقدت طويلا فى غياهب النسيان ، والتى لم تجد من يمارسها بشكل كامل سوى فى القليل النادر ، كما أنه ليس سوى توظيف لهذه النظرية فى خدمة الطموح الشخصى لهيلدبراند .

أما بالنسبة لملوك غرب أوربا فإن كتاب الإملاء البابوى كان يبدو بالضرورة ثوريا ومزعجا إلى أبعد الحدود . فقد كان يدعى التفوق والسمو للبابوية على الملكية ، وهو أمر لم يحدث من قبل فى التاريخ الأوربى على الإطلاق . ومع التسليم بأن هبة قنسطنطين تحمل مزاعم مماثلة ،

فإن أحداً من حكام أوربا العصور الوسطى البارزين لم يسمح للبابا بالتدخل فى شئون مملكته . هذا التأكيد على الملكية البابوية المتفوقة كان صدمة لزعامة ملوك الغرب فى المجتمع ، ولسلطتهم المطلقة على الكنائس الإقليمية ، وهى الزعامة والسلطة التى كانوا يمارسونها منذ أيام شارلمان .

وكان على رجال الكنيسة وملوك غرب أوربا أن يعرفوا أن جريجورى السابع قد عقد العزم على تنفيذ برنامجه الذى أعلنه بوضوح فى الـ Dictatus Papae ، بمجرد ارتقائه للعرش البابوى . كما تعين عليهم أيضا أن يعرفوا أن هذه الأيديولوجية كانت أكثر ثورية مما يبدو من الفروض القانونية البسيطة الواردة فى البيان الأول لبرنامجه . فقد مضى جريجورى خلال السنوات الأثنتى عشر العاصفة التى تولى فيها البابوية فى صياغة أيديولوجيته الثورية وتهذيبها ، مسترشدا بخطى سان أوغسطين من ناحية ، ومستلهما المنابع العاطفية لروح التدين الجديدة التى سرت بين الناس من ناحية أخرى ، ومتأثراً بتعاليم هيومبرت من ناحية ثالثة . وكل خطاب تقريبا من بين مراسلاته الرسمية الضخمة يتضمن قدراً من هذا المذهب ، ولكن نظريته النهائية عن النظام الاجتماعى المسيحى قد صيغت ككل وطرحت على نحو قوى فى خطابه الشهير باسم « خطاب إلى هرمان الميتزى » Herman of Metz فى سنة ١٨٠٢ . والخطاب عبارة عن عدة إجابات على أسئلة طرحها أسقف ميتز ، ولكنه فى الواقع عبارة عن كتيب عام . وقد نشر فى نسخ عديدة ، وأرسل إلى بلاط كل ملك فى أوربا ، كما أرسلت منه نسخ إلى الكنائس الهامة فى شتى أرجاء أوربا .

ومنذ القرن التاسع كانت الأوغسطينية السياسية آخذة فى الضمور والتلاشى . ذلك أن التحسن الاجتماعى الذى كان من نتاج حكم كل من شارلمان ، وأوتو الأول ، وهنرى الثالث ، كان يتناقض بشكل واضح مع العيوب وأوجه القصور التى كان أوغسطين قد نسبها إلى الخاصية الأخلاقية للدولة . لقد كان رجال الكنيسة يرون فى ملوك القرنين العاشر والحادى عشر الثيوقراطيين زعماء أرسلتهم العناية الإلهية لتحقيق عمل الرب ، ولم يكونوا هم أولئك القراصنة الذين تحدث عنهم أوغسطين . لقد كان التمييز بين الكنيسة ecclesia والعالم mundus فى عمومه موقف يختلف تماما عن ذلك الفصل الحاد الذى كان أوغسطين قد وضعه بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية . فقد كانت وجهة النظر الأوغسطينية القائلة بأن الدولة ليست لها أية سجايا أخلاقية خاصة بها ، وإنما تستمد خصالها فقط من خلال وضعها كخادم

للكنيسة ، تبدو رأيا فارغا وخاليا من المضمون فى عالم لم يكن به خط واضح يفصل بين الكنيسة والدولة . ولكن هذه النظرة الأوغسطينية السياسية هى التى أحياها جريجورى السابع فى أكمل وأعمق صيغة .وفى خطابه إلى هرمان الميتزى قال إن السلطة السياسية فى أصلها من خلق البلطجية والقتلة ، وأن الدولة ظلت تحمل طابع قابيل ( الذى قتل أخاه ) . كما قال إنه فى التاريخ العالمى ككل لم يوجد أكثر من ستة ملوك استطاعوا أن ينجوا بأرواحهم من اللعنة ، وهؤلاء الملوك من أمثال قنسطنطين ، وثيودوسيوس الكبير ، هم الذين أنقذوا أنفسهم من إغراءات السلطة الدنيوية القاتلة بخضوعهم للكنيسة . وقال إن هناك كثيرين من المسيحيين البسطاء ، كانوا أكثر اطمئنانا بدخولهم فى رحاب الرحمة المقدسة من الملوك الكبار الأقوياء ، الذين هم فى معظم الأحوال مجرد أدوات يعبث الشيطان بها .

وإذ استمر جريجورى على نفس الخط الذى سار عليه أوغسطين ، فإنه توصل إلى استنتاج أن السلطة الشرعية الوحيدة فى العالم هى سلطة القساوسة ، ولاسيما أسقف روما باعتباره نائب المسيح على الأرض . وأولئك الذين يخضعون لهذه السلطة التى أرستها السماء هم فقط الذين يمكنهم أن يأملوا فى أن تضمهم مدينة الرب . لأنه كان يؤكد بشدة على المفهوم البولصى – الأوغسطينى عن الحرية ، فقد أوضح تمامًا أن حرية الرجل المسيحى تتمثل فى اخضاعه إرادته الأنانية للغايات المقدسة التى ترعاها البابوية فى العالم . والنظام العالمى الذى تتحقق فيه هذه المذاهب هو فقط النظام الذى يمكن أن نسميه نظاما عادلا وصحيحا . وأصر جريجورى على أن العدالة ليست مسألة عادة ، أو تراث ، أو تعود ؛ وإنما هى تحقيق للمثال المسيحى كما كان هو يراه . ولايمكن لأية مزاعم عن الاقتناع أو العادة أن تصمد فى مواجهة مذاهبه . ذلك أنه كان يذكر منتقديه بأن الرب لم يقل « **أنا التقاليد** » ولكنه قال « **أنا الكلمة** » . وبحماسة استمدها من سفر الرؤيا طالب بنظام جديد صحيح يحقق المثل المسيحية عن العدالة والحرية كما حددها هو . ولم يكن ليقبل شيئا أقل من هذا النظام المسيحى العالمى Chris-tianitas ؛ إذ لم يكن باستطاعته أن يتصالح مع الشيطان .

لقد تأثرت آراء جريجورى بروح التدين العاطفية الجديدة التى انتشرت فى القرن الحادى عشر بدرجة تقارب درجة تأثر داميانى بها . إذ أن كتاباته تحفل بالإشارات إلى العذراء وإلى المسيحيين الفقراء Pauperes Christi الذين كانوا يدعون إلى مساعدتهم وكان ينشد صالحهم. وفى رأى جريجورى أن هذا الفقر الذى عانى منه المسيحيون لم يكن مسألة اقتصادية

أو طبقية أو هى مسألة اتخذت الطابع الاقتصادى أو الطبقى بمحض الصدفة . فهو يساند الفقراء ، والمستضعفين ، والمتواضعين ، والمضطهدين من أية طبقة أو طائفة ويقف إلى جانبهم روحيا ، وهو عدو للغنى ، المتكبر ، القوى أيا كان وأينما كان . وكراهيته لأقوى رجال أوربا ليست قائمة على أساس من الوعى الطبقى ، وإنما على أساس من التعاطف النفسى والعاطفى تجاه المستضعفين والعداء تجاه سادتهم ومضطهديهم . وهكذا كان مفهوم أوغسطين عن الفقر المسيحى محاولة شاذة بالنسبة للمجتمع الذى كان قائما على أساس طبقى فى القرن الحادى عشر . وفى الوقت نفسه ، فربما كانت كراهيته العنيفة لزعماء المجتمع المعاصر ، وأهتمامه العاطفى الكبير بالمسيحيين الفقراء Pauperes Christi أعراضا هستيرية لجنون العظمة ودلائل على اضطرابه العصبى .

وأيا كانت جذور مفهوم جريجورى المتأجج بالعاطفة عن الفقر المسيحى ، فإنه بذلك يفتح مساراً هامًا فى فكر العصور الوسطى آنذاك ، وإذا ما استثنينا عظات سان أمبروز ، فإن النقد الاجتماعى والإنجيل المسيحى الاجتماعي لم يكن قد ظهر بعد فى حضارة العصور الوسطى . ولم يكن هذا متوقعا فى المجتمع الزراعى الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة ، التى كانت أشكال التعبير الأدبى فيها تساند طبقات ملاك الأرض . وحين ظهرت جماعات بورجوازية جديدة فى القرن الحادى عشر ، لا سيما فى شمال إيطاليا ، تأثرت بالتدين العاطفى الذى جعلها تتجه إلى تغيير هذا كله . وأيا كان قصد جريجورى من تأكيده على التفوق الروحى للفقراء المسيحيين ، فإن تعاليمه أدت إلى تشجيع الطبقات الطموحة المحرومة من الامتيازات فى المدن الأوربية . وحين توفر لسكان المدن الاتجاه الدينى الذى استوعب كافة أشكال الفكر فى القرن الحادى عشر إلي جانب النظرة الدينية ، عبر عصيانهم الاجتماعى عن نفسه فى مذاهب ألفية وأخروية . فقد كان المحرومون من الامتيازات هم الفقراء الذين يستحقون وراثة الأرض ، أو على الأقل يرثون منها قدراً أكبر كثيراً من ذلك القدر الذى كان ملاك الأراضى يسمحون لهم به . وهكذا وجد موقف جريجورى العاطفى من الفقراء المسيحيين تربة خصبة فى التمرد الاجتماعى والاتجاهات الألفية والأخروية التى تفشت فى المجتمعات الحضرية الجديدة .

والإنجيل نفسه يشجع المعنى المزدوج فى الفقر ، بمعنى نقص الثروة ، ونقص المتع الروحية على السواء . إذ أن المسيحيين الأوائل ، أعضاء كنيسة الحواريين ، تلاميذ للمسيح الحقيقيين ، كانوا فقراء بكل معنى الكلمة ، روحيا وحرفيا . فهل كانت هذه علاقة ضرورية ؟ وهل كان من

الضرورى للمرء أن يحرم نفسه من المباهج الدنيوية حتى يحوز هذه الحال المثلى من فقر الروح ، أى هذا التواضع الذى هو من دلائل الرحمة المقدسة ؟ لقد قُيِّض لهذا السؤال أن يصير مشكلة مضنية معذبة لكنيسة العصور الوسطى العالية . وقد أدت حماسة جريجورى للفقر المسيحى إلى التشديد على أهمية هذه المشكلة فى فكر العصور الوسطى دون أن يطرح لها حلا .

أما آخر المصلحين الجريجوريين الأربعة ، فهو البابا باسكال الثانى Paschal II ، وهو الوحيد من الراديكاليين الجوريجوريين الذى تولى عرش البابوية بعد جريجورى السابع . وقد مضى بالنقاش شوطا أبعد من جريجورى ، وقدم الإجابة الحاسمة على الرغم من أنه لم يكن مقبولا من غالبية زعماء الكنيسة فى عصره . كان باسكال راهبا فى دير فوللا مبروسا Vol-lambrosa بالقرب من فلورنسا ، وكان هذا الدير واحداً من الأديرة التقشفية الإصلاحية . ثم دخل فى خدمة البابوية وتتلمذ على جريجورى السابع ، وظل كذلك حتى آخر أيامه . بعد أن كان المد الثورى العالى قد بدأ فى روما جريجوريا قويا عارما . وبعد أن خدم كمبعوث بابوى فى أسبانيا حيث جعله تعصب المسيحيين الأيبيريين المشتبكين فى حرب الاسترداد أكثر حماسة وتطهرية . وفى سنة ١٠٩٩ انتخب لاعتلاء العرش البابوى . وكانت السنوات التسع عشرة التى أمضاها على عرش البابوية تتسم بالاستمرارية العنيدة لمواصلة النضال ضد الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس ، والصراع ضد الملك الإنجليزى حول علاقات الكنيسة والدولة ، كما أنه فى هذه الأثناء أسبغ تأييده على مشروع طائش فاشل لحملة صليبية ضد بيزنطة . وفى سنة ١١١١ أذهل أوربا بإعلان التوصل إلى اتفاق مع الإمبراطور الألمانى لإنهاء الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية . ولكن عندما نشرت شروط معاهدة السلام ثار الكرادلة وغضبوا فأجبروه على نقض المعاهدة .

لقد كان حل باسكال الثانى للنزاع حول العلاقات بين الكنيسة والدولة بسيطًا وثوريًا فى آن واحد . فبما أن أصول النزاع تكمن فى مسألة الاختصاصات النسبية لكل من المملكة erg-num والكنيسة Sacerdotium فإنه اقترح على الإمبراطور أن يسلم الكنسيون الألمان للتاج الإمبراطورى كافة أملاكهم ومناصبهم العلمانية لكى يجعلوا من أنفسهم كنيسة روحانية تمامًا . وفى المقابل وعده هنرى الخامس بعدم التدخل فى شئون الأساقفة ومقدمى الأديرة الألمان ؛ وكان طبيعيًا أن يعد الإمبراطور المبتهج بأن يفعل هذا نظراً إلى ذلك القدر الهائل من الثروة العقارية والمناصب العامة التى قدمها له باسكال فى اقتراحه .

وقد فشل المؤرخون بشكل عام فى إدراك مغزى التنازل الذى قدمه باسكال . ولم يكن هذا تصرفا غير محسوب من رجل غريب الأطوار ، كما ظن البعض ، ولم يكن نتيجة سبب قهرى من جانب الإمبراطور كما ادعى البلاط البابوى فيما بعد وهو ينقض المعاهدة . فقد كانت معاهدة سنة ١١١١ متوافقة تمامًا مع موقف باسكال الأيديولوجى ، الذى كان بدوره نتاجا للجريجورية الثورية . وكما قطعت الجماعات الديرية التقشفية الجديدة على نفسها عهداً بالفقر تقليداً لكنيسة الحواريين ، كذلك تحرك باسكال ، الذى كان نتاجًا لهذه الحركة ، فى اتجاه فكر الفقر الحوارى للكنيسة كلها ، كما تحرك فى اتجاه مذهب يقول بكنيسة روحية تماما و « فقيرة» بكل معنى الكلمة . ويمكن القول بأن هذا كان تطوراً منطقيًا نابعًا من ترحيب جريجورى السابع بالفقر المسيحى .

ويظهر المذهب القائل بفقر الكنيسة مثل الحواريين لأول مرة فى سياسة آخر البابوات الجريجوريين . ولأن هذا المذهب قد لاقى الرفض من جانب بابوية العصور الوسطى العالية ، كما سبب الرعب والهلع لرجال الكنيسة الأثرياء فى غرب أوربا ، فقد وجد ترحيبا من الحركات الهرطقية الشعبية فى القرون ١٢، ١٣، ١٤ . وفى أواخر القرن الثالث عشر اعتنقه الجناح الثورى من الفرنسسكان ، والذى كان يستمد تراثه الدينى من نفس حركة الزهد التى سرت في شمال إيطاليا فى أواخر القرن الحادى عشر والتى كان باسكال الثانى من ثمارها . لقد أدانت البابوية مذهب الفقر الحوارى باعتباره هرطقة فى سنة ١٣٢٣ ، ولكن هذا المذهب ظل قائمًا فى الوجود على مدى عشرات من السنين بعد ذلك ليكون مصدراً للنزاع والفوضى فى الحياة الكنسية فى العصور الوسطى . وفى طيات الأفكار العالمية الغامضة التى طرحتها الحركات الهرطقية الشعبية فى العصور الوسطى العالية نجد مذهب الفقر الحوارى يرتبط تمامًا بالإنجيل الإجتماعى الألفى الذى نجد جذوراً له هو الآخر فى تعاليم جريجورى السابع .

وينبغى أن ننظر إلى نتائج الإصلاح الجوريجورى الفكرية باعتبارها نتائج غاية فى التعقيد وعدم التجانس ، لقد روج الجريجوريون للمذاهب التي شادت السلطة البابوية ، والتنظيم المركزى للكنيسة ، وسلطة المنصب الكنسي - كما أنهم قوضوها فى الوقت نفسه ، ذلك أن المذاهب القائلة بالسلطة المطلقة وعصمة البابوية ، وخضوع الملكية للكنيسة ، كلها مذاهب جريجورية . إلا أنه من تعاليم المصلحين الجريجوريين أيضًا نبعت تلك الأفكار التى لم تلبث أن لعبت دوراً هامًا فى تقويض النظام العالمى فى العصور الوسطى : أى الفردية الدينية ، والمذهب الدوناتى ، والإنجيل الاجتماعى الألفى ، ومذهب الفقر الرسولى للكنيسة .

ولم يكن الجريجوريون يحتكرون لأنفسهم ساحة النقاش العام . فعلى العكس كانت مناقشاتهم حول طبيعة النظام المسيحى العالمى تستدعى مختلف التعليقات ، والانتقادات ، والمقالات التى تعكس كل ظل من الرأى تقريبًا . ومن الأمور ذات الدلالة ، بالنسبة للمشاعر الجارفة التى أحياها الإصلاح الجريجورى ، وبالنسبة لازدياد حركة التعليم فى القرن الحادى عشر ، أن ماخلفته لنا تلك الفترة من مؤلفات حول علاقة الدولة والكنيسة تملأ مايزيد على مائتى ألف صفحة بمقاييس الطباعة الحديثة . وليس من قبيل المبالغة أن نقول أنه فى سنة ١١٠٠ تقريبًا كان كل راهب فى غرب أوربا يؤلف كتيبًا عن الكنيسة والدولة .

ويمكن أن نأخذ فى اعتبارنا ثلاثة تعبيرات نمطية تدلنا على طبيعة الانتقادات التى وجهت ضد الجريجوريين . فبادئ ذى بدء كان ثمة موقف ناتج عن التركيز على تراث العصور الوسطى الباكرة حول الملكية الثيوقراطية ، مؤكداً على أن الرب هو الذى عين الملك « وبفضل الرحمة الإلهية فهو بمثابة الرب » على حد تعبير القسيس الإنجليزى المجهول صاحب المقالات التى تحمل عنوان « المؤلف المجهول من يورك » فى سنة ١١٠٤ . وثانيًا كان هناك الموقف الكلونى المحافظ الذى تمثل فى « مقال فى السلطة الملكية والكنيسة » الذى كتبه هوف راهب فليرى Hugh de Fleury وفليرى هو الدير الفرنسى الملكى المتحالف مع دير كلونى . ويشن هوف هجومًا مباشراً على أفكار جوريجورى حول الخاصية الأخلاقية للملكية ، ويخلص إلى أن الملكية يجب أن تستمر فى تفوقها وسموها على الكنيسة فى سبيل إقامة نظام صحيح فى المجتمع . أما الموقف الأخير فهو من أهم المواقف وأكثرها إثارة فى تلك الفترة ، ذلك هو موقف القانونى الكنسى الكبير ايفو Ivo أسقف شارتر Chartres . فقد عبر هذا العالم الحكيم النابه عن شكوكه فى أن النظام العالمى السائد يتناقض حقًا مع القانون الكنسى ومتطلبات عقيدة الكنيسة . وقال أنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن القيمة الأخلاقية للعادة الاجتماعية يجب أن تعلو حتى فوق ضرورات القانون الكنسى واللاهوت المكتوبة . فبما أن النظام السائد يحظى بمثل هذا التأييد الواسع من جانب العلمانيين ، بل ومن جانب رجال الكنيسة ، فإنه تستحيل إزالته دون حدوث صدع وانشقاق فى المجتمع . وقد خلص ايفو إلى أنه من الأفضل للاصلاحيين أن يقتنعوا بالاعتراض المتحفظ وأن يأملوا فى حدوث إصلاح بطئ. وعلى أية حال فإن المنظرين للبابوية الجريجورية لم يكن لديهم أى استعداد للاستماع إلى الآراء المعتدلة الى كان ايفو اسقف شارتر ينادى بها ، كما أنهم كانوا يرفضون الاستماع إلى وجهات

نظر من يمثلون ردود الفعل الملكيـة ، أو الاحتـجـاجـات المريرة التى جـهـر بهـا الكلونيـون المحافظون.

كان كثيرون من رجال الكنيسة المعاصرين ، ممن امتازوا بالإخلاص والتفانى ، لايرون فى الجوريجوريين خطأ مذهبيًا كبيراً ، وإنما رأوا فيهم قومًا متهورين ، ساذجين ، محدودى الأفق . وفى البلاد التى كانت الملكية فيها قوية مثل انجلترا النورمانية ، والإمبراطورية الألمانية ، كان كبار رجال الكنيسة يحترمون الملكية ، كما ظل المتعلمون منهم يخدمون الملكية كمستشارين ووزراء . أما الجريجوريون ، فإنهم على النقيض من أمثال هؤلاء الكنسيين ، كانوا بالفعل ساذجين وضيقى الأفق . وكلهم تقريبًا وفدوا من اللورين وشمال إيطاليا حيث كانت السلطة الملكية ضعيفة وغير منظمة ، وحيث لم يكن بوسع أحد من الرهبان أن يحترم الملكية . كذلك لم تتح الفرصة لأى منهم للعمل فى بلاط ملكى أو أن يتعرف على شخصية مثل هنرى الثالث أو وليم الفاتح ، أو أن يرى من الداخل تلك المشكلات الضخمة التى كانت تواجه الحكومة فى القرن الحادى عشر . وبالنسبة للجريجوريين كانت الملكية فكرة يجب دراستها عند أوغسطين أو جيلاسيوس ؛ فهى بالنسبة لهم لم تكن حقيقة فظة من حقائق الحياة اليومية ، كما أنها لم تكن فكرة جيدة ( كما كانت بالنسبة لكبار الاكليروس فى إنجلترا وألمانيا ) . لقد كان الجريجوريون متعلمين ، ومخلصين ، وشجعان ، بل وكانوا رجالا يتألقون فى سماء الفكر ، ولكنهم كانوا يفتقرون كثيراً إلى الحكمة والاعتدال اللذين توفرهما سنوات التقارب مع الملكية والسلطة – وهى نوع من الحكمة لم يكن ممكنًا أن تتوفر لهم بقراءة الكتب فى أدب آباء الكنيسة ، أو مجموعات القانون الكنسى ، أو بالإخلاص فى الحياة الديرية ، أو حتى بمتابعة المصادر الفكرية الثرية لحركة التدين والجدل الجديد .

٣ – النزاع الألمانى حول التقليد العلمانى :

فى سنة ١٠٧٥ كان الإمبراطور الألمانى هو أقوى حاكم فى أوربا ، أو على الأقل فى مناطق شرق نورماندى . ومع هذا فإن « الشيطان المقدس » ، جريجورى السابع ، الذى كان قد انطلق فى سبيل تطبيق برنامجه عن العدالة والحرية ، لم يتورع عن أن يطلب من الملك الألمانى فوراً أن يوقف نظام التقليد العلمانى الذى كان يتيح له فرصة التحكم فى تعيين كبار رجال الكنيسة فى مملكته ، وهدد البابا بخلع الإمبراطور إذا لم يتمثل للمرسوم الذى أصدره . وكان هجوم جريجورى على الأسس التنظيمية للسلطة الإمبراطورية فى وقت حرج بالنسبة

للإمبراطورية ؛ فقد عجل بنشوب صراع امتد على مدى خمسين سنة ، وهو صراع يرى المؤرخون الألمان أنه حسم مصير ألمانيا .

كان هنرى الرابع قد اعتلى عرش الإمبراطورية عقب وفاة أبيه الباكرة فى سنة ١٠٥٦ . فقد كانت السياسة المركزية العدوانية التى انتهجها هنرى الثالث قد أخافت النبلاء الألمان . وبذلك صمموا على انتهاز فرصة النكسة التى حلت بالبيت الإمبراطورى لكى يحدوا من حجم سلطة التاج ، إذ سار هنرى على الخطوط التى كان أباطرة أسرة أوتو قد أرسوها فى القرن العاشر . فإنه بنى سلطته على أساس التحكم فى موارد الكنيسة والسيطرة على رجالها ، استناداً إلى مذهب الملكية الثيوقراطية والتقليد العلمانى ، ونظام الكنائس الامتلاكية ، والوصاية على الأديرة الكبرى فى مملكته . كذلك أفاد هنرى الثالث من نظام الفرسان – الأقنان mini-steriales لكى يقيم الحاميات فى الحصون الكثيرة التى بناها فى شتى أنحاء المملكة ولا سيما فى دوقية سكسونيا الشمالية ، التى واصل نبلاؤها وفلاحوها إظهار ميولهم الانفصالية القوية . ويبدو أنه كان فى نية هنرى أن يضم الدوقية السكسونية المشاكسة إلى أملاك التاج ، ويضيف هذا الإقليم إلى دوقية فرنكونيا لتكون أملاكًا شاسعة للتاج . وكان تحقيق هذه السياسة هو الذى سيضع الملكية الألمانية فى موقف الهيمنة والسيطرة على النبلاء الألمان ، وهو ما يعتبر أساسًا لبناء السلطة الملكية فى ألمانيا ، وهو ما كان أوتو الأول قد بدأه فى منتصف القرن العاشر .

وصمم النبلاء الألمان بقيادة السكسون المشاغبين ، على الإفادة من الموت المفاجئ للإمبراطور العظيم هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ ووجود قاصر على العرش . وتمثلت النتيجة فى سنوات تسع من العصيان والحرب الأهلية فى ألمانيا ، وفى خلال هذه السنوات التسع كشفت الدوقيات عن الاتجاهات والميول الانفصالية التقليدية . ولكن الكنيسة الألمانية ، حتى فى سكسونيا ، ظلت على ولائها للملكية وحفظت العرش للشاب هنرى الرابع . وهكذا تأكد من جديد ذلك التحالف الحكيم الذى كان أوتو الأول قد عقده مع الكنيسة الألمانية .

وحين صار هنرى الرابع ملكًا بالفعل سنة ١٠٦٥ تصدى للاتجاهات الانفصالية فوراً ، وانطلق فى سبيل إتمام العمل الذى كان أبوه قد بدأه . وربما كان هنرى أقدر حكام ألمانيا فى العصور الوسطى وأكثرهم حكمة . فلاشك فى أن أحداً غيره من الملوك لم يظهر هذا القدر من الحيوية الماكرة ، والعزم الذى لايلين على تطوير السلطة الملكية . كان هنرى يعتقد أن دوقية

سكسونيا هي مفتاح المشكلة ، وهناك واصل سياسة أبيه في بناء القلاع ، كما انتهج سياسة لاتكتفي بتجريد النبلاء من امتيازات الحكم الذاتي التي كانوا يتمتعون بها ، وإنما تهدف أيضًا إلى تحويل جماهير الفلاحين الأحرار إلى أقنان يعملون في الضياع التي تعتمد بشكل كلي على التاج . وكانت النتيجة الحتمية لذلك نشوب عصيان كبير آخر في ألمانيا ، لقي فيه النبلاء والفلاحون الثائرون العون من كافة الارستقراطيين المنشقين في سائر أنحاء المملكة ، بل ومن بعض الأساقفة الغاضبين أيضا . وعلى أية حال ، لم يكن الصراع متكافئا ، لأن الغالبية الساحقة من الأساقفة كانت تقف إلى جانب الملك ، ومعهم الفرسان - الأقنان الملكيون ، وكثيرون من صغار النبلاء فضلا عن الأديرة الغنية الخاضعة للسلطة الملكية ، والطبقات الجديدة في مدن الراين . وبحلول سنة ١٠٧٥ كان هنري الرابع قد حقق نصراً مؤزراً كاملاً . فقد تم إخضاع قادة الأرستقراطيين الثائرين ، كما خسر الفلاحون الساكسون أعداداً كبيرة من القتلى في ساحة المعارك وانتابهم إحساس بأن النبلاء قد خانوهم . وبدا الطريق آنذاك مفتوحًا لبناء دولة موحدة وقوية في ألمانيا ، تماثل درجة السلطة المركزية في الأراضي الخاضعة لحكم دوق نورماندي ، وتعتبر إرهاصًا للملكية الألمانية في القرن الثالث عشر .

عند هذه النقطة الحركة تلقى الملك الألماني المرسوم البابوي ضد التقليد العلماني مع التهديد بعزله إذا لم يظهر الطاعة فوراً . ولم يكن هنري بغافل عن التغير الكبير الذي كان يجري في روما . فخلال الفترة التي كان فيها تحت الوصاية جرده المرسوم الانتخابي البابوي من حق التحكم في الانتخابات البابوية ، وهو الحق الذي كان أسلافه يتمتعون به على مدى قرن من الزمان . ولكنه إذ كان مشغولاً بالمشكلات الداخلية الضاغطة ، ترك الأمور في إيطاليا تأخذ مجراها على الأقل حتى يتمكن أن يوليها كامل اهتمامه . ويبدو أن موقف هنري الطبيعي من روما كان موقفًا حذراً معتدلا ، وربما لم يكن ليتدخل في الاستقلال الجديد الذي نعمت به البابوية لو تركته وشأنه . ولكن السياسة العداونية التي انتهجها جريجوري السابع منذ بداية بابويته جعلت من المستحيل على هنري أن يتجنب خوض الصراع ضد روما . هذا النزاع الأول بين البابا والإمبراطور كان مسألة بسيطة نسبيًا ، بيد أنه كان بادرة لصراع أعمق كامن تحت السطح . فبعد أن ارتقى هيلدبراند عرش البابوية بقليل ، صار كرسي أسقفية مدينة ميلانو شاغراً ، وأخذ كل من هنري وجريجوري يناور ليضمن فوز مرشحه . واعتبر جريجوري هذا دليلا على أن الملك الألماني لم يتخل عن مزاعمه في السيطرة على شئون إيطاليا ، وربما كان

هذا هو السبب الذى دفع جريجورى إلى تصعيد هجومه على الأسس التنظيمية للسلطة الإمبراطورية - أى تحالفها مع الكنيسة الألمانية - فوجه إنذاراً بابويًا نهائيًا سنة ١٠٧٥ . ولأن هنرى كان منتشيا بانتصاره الكبير على النبلاء ، فقد قرر أن ينتهج أقوى سياسة ممكنة فى التصدى لمطالب جريجورى ، ووجد تأييداً حماسيًا لسياسته بين رجال الكنيسة الألمان . ذلك أنهم كانوا منذ زمن طويل قد تنبهوا أكثر من الملك للنهج الثورى الذى انتهجته البابوية فى عهد هيلدبراند ، ولم تكن بهم أدنى رغبة فى التخلى عن نظام العلاقات السائد بين الكنيسة والدولة فى ألمانيا .

ومن ثم أعد العلماء الكنسيون فى البلاط خطابا لكى يرسل فى سنة ١٠٧٦ باسم الملك إلى روما رداً على المرسوم البابوى ضد التقليد العلمانى ، وهذا الخطاب يلعن « **هيلدبراند الذى لم يعد بابا حاليا ، وإنما راهب مزيف** » بأقسى مايمكن من الألفاظ . كان خطاب هنرى واحداً من أبرز الأمثلة على البلاغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، وهو يعكس درجة تعليم المجلس الملكى ومهارة أعضائه الأدبية ، ولكنه لم يكن أكثر من دفاع عن النظام العالمى السائد ، وإعلان الحرب على البابا الذى نادى بتقويض هذا النظام الخير . فقد قال هنرى للبابا جريجورى أن أداءه لوظيفته البابوية قد جلب الفوضى والفساد على الكنيسة بالدرجة التى جعلته يجرؤ على أن يعصى السلطة الملكية التى تلقاها هنرى من الرب ، وأنه تجرأ على أن يهدد بخلع هنرى من مملكته التى عينه الرب على عرشها . وزعم أن جريجورى قد اغتصب العرش الرسولى ، فقد مارس العنف تحت ستار الدين مخالفا بذلك تعاليم القديس بطرس . وخلص إلى أن جريجورى مأمور من هنرى ، الملك بفضل الرب ، ومن سائر أساقفة الإمبراطورية بأن ينزل عن عرش القديس بطرس . وبعض النسخ تضيف اللعنة الأبدية على البابا .

لقد كان خطاب هنرى الرابع جريجورى السابع صرخة يائسة من جانب ملكية العصور الوسطى لتبرير كيانها ، وهى الملكية التى وصلت إلى ذروتها على يد الأسرة السالية فى عصر هنرى الثالث وابنه . ولكن يبدو أن جريجورى السابع كان يتوقع مثل هذه الإجابة ، فلم يخش الجيش الإمبراطورى ، لأن البابوية كانت قد وجدت فى السنوات العشرين السابقة حلفاء أقوياء لها فى بريطانيا يوازنون القوة ضد الملك الألمانى الكبير - هؤلاء هم الحكام النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . لقد اتخذت البابوية فى بداية الأمر موقفا عدائيا من الغزو النورمانى لمناطق الجنوب الإيطالى ، ولكن مع نهاية خمسينيات القرن الحادى عشر كان البلاط البابورى قد

أدرك أن النورمان يمكن أن يستخدموا كقوة فى مواجهة النبلاء الرومان المشاغبين ، ثم ضد الإمبراطور الألمانى الذى كانت مزاعمه حول السلطة على إيطاليا تلقى معارضة النورمان والبابوية على السواء . وكان الحكام النورمان - الإيطاليون يحتاجون بدورهم إلى الموافقة البابوية لكى تضفى على حكمهم سمة من الشرعية فى إمارات الجنوب الإيطالى التى كان يحكمها من قبل خليط من الأمراء المسلمين ، والبيزنطيين ، واللاتين . وكان من بواعث سرور البابوية أن تمنح اعترافها للحكام النورمان فى سبيل تدعيم التحالف معهم لأن جيوشهم كانت تمثل الدعم العسكرى الضرورى الذى كانت البابوية تحتاج إليه . وبالإضافة إلى هذا التأييد الجنوبى كان بوسع جريجورى أن ينتظر المساعدة من الشمال من ماتيلدا Matilda كونتية توسكانيا الثرية القوية ، وكانت أرملة ترتبط مع جريجورى نفسه بعلاقة صداقة . وتعتبر ماتيلدا أول مثل لطراز السيدة الأرستقراطية المستقلة ذات السلطة والمكانة الكبيرة ، وقد قيض لمثل هذا الطراز من السيدات أن تلعبن دور هامًا فى السياسة والمجتمع فى العصور الوسطى العالية . وعلى الرغم من أن ماتيلدا كانت تمت بصلة قرابة بعيدة للإمبراطور الألمانى، فإن جريجورى كان يشعر أنه يستطيع الاعتماد عليها فى حمايته من غضب هنرى الرابع إذا ماجاءت المناسبة .

ولما كان جريجورى يتصرف بسرعة وتصميم واضح ، فقد بادر بخلع هنرى فور تسلمه لخطابه المتمرد المهين ، وأرسل العملاء البابويين إلى ألمانيا لكى يحولوا رماد العصيان الذى لم يكد ينطفئ إلى نار جديدة للحرب الأهلية ، وبهذا وجدت كل العناصر المناوئة فى ألمانيا ذريعة لم يسبق لها مثيل لمهاجمة الملكية ، وهكذا اكتسب العصيان ، الذى ثار لأسباب ذاتية ، مسحة مقدسة . ويبدو على أية حال أنه كان بمقدور هنرى الرابع أن يصمد لهذه العاصفة لو لم يكن جريجورى السابع قد اتخذ حيطته لمنع استمرار التأييد التقليدى من جانب كبار الكنسيين الألمان للتاج .

فقد علم الأساقفة ومقدمو الأديرة عن طريق العملاء البابويين ومن خلال الخطابات التى وصلتهم من روما مباشرة أنه لم يعد ثمة مايدعوهم إلى الاعتراف بهنرى الرابع ملكا عليهم بعد أن صدر ضده قرار حرمان . وكان الحرمان مايزال سلاحًا قويًا للغاية فى الترسانة الروحية للبابوية ؛ إذ كانت أوربا ماتزال بعيدة عن تدهور هذا السلاح بسبب كثرة استخدامه . فضلاً عن أنه كان هناك احتمال حقيقى بأن ينتصر جريجورى فى صراعه ضد الملك الألمانى ، وقد

تردد رجال الكنيسة فى ألمانيا بدافع الخوف على أمنهم الشخصى ، فى أن يغامروا بوظائفهم ومكانتهم إذا ماوافقوا صراحة إلى جانب هنرى الرابع . وهكذا تمثل الأثر المباشر للمرسوم البابوى بخلع الإمبراطور فى الانهيار المروع للسلطة الملكية . ولأن ثلثى الجنود على الأقل فى جيش هنرى كانوا يجندون من أراضى الكنيسة ، فإنه فقد الجزء الأكبر من قوته العسكرية دونما ضربة واحدة . وبنهاية سنة ١٠٧٦ وجد الملك نفسه يكاد يكون معزولا ، لأن رجال الكنيسة الذين تملكهم الخوف والوجل سحبوا تأييدهم للبيت السالى . وابتهج النبلاء لهذا الانقلاب غير المتوقع فى حظهم ، فأعادوا إحياء المبدأ الانتخابى القديم فى الملكية الألمانية استجابة لاقتراح من البابا ، وبدأوا بالفعل فى عملية انتخاب ملك جديد من خارج الأسرة السالية .

واستطاع الموظفون الكنسيون العاملون فى البلاط أن يقنعوا الملك أن المخرج الوحيد هو أن يستسلم لجريجورى ويحصل على العفو البابوى عن أفعاله الخاطئة حتى يمكنه أن ينقذ عرشه . فعقد العزم على أن يسافر إلى إيطاليا بنفسه لكى يطلب الغفران من البابا . وكان من الضرورى لهنرى أن يفعل هذا على وجه السرعة ، لأن جريجورى كان قد أعلن عن نيته بالذهاب إلى ألمانيا لكى يرأس مجلس النبلاء الألمان الذى سيجرد هنرى من عرشه رسميا ويختار ملكًا جديداً .

وثمة مؤرخ ألمانى معاصر من الرهبان الموالينُ للملك أمدنا برواية ربما يغلفها الخيال تحكى كيف أن هنرى الرابع اليائس قد اندفع جنوبا ، وليس بصحبته سوى مجموعة من الخدم ، فى أرض تغص بالأعداء . وفي هذا الوقت ، كان جريجورى مسافراً بطريقة أكثر تأنيا واحتفالا بالمظاهر ، فى طريقه من روما إلى ألمانيا قبل أن يطلب الملك مقابلته . وقد كسب هنرى هذا السباق الميلودرامى الذى شد انتباه أوربا بأسرها . فقد لقى البابا عند قلعة كانوسا Canossa التى كانت من أملاك ماتيلدا كونتيسة توسكانيا فى إيطاليا ، وحيث كان جريجورى قد حل ضيفا على الكونتيسة .

وتشكل الحوادث التى جرت فى كانوسا شتاء سنة ١٠٧٧ واحداً من أكبر المواقف الدرامية فى التاريخ الأوربى . إذ يضيف لنا المؤرخ الملكى المعاصر ، بقدر من المبالغة المحمودة ، كيف وقف هنرى فى الجليد أياما ثلاثة حتى أعلن البابا فى النهاية عن استعداده لمقابلته ، وقبول توسلاته التائبة بالعفو والغفران . والواقع أن الحوادث التى جرت فى كانوسا لم تكن دراما عالمية فقط ، ولكنها كانت أيضا مواجهة سياسية عصبية كانت لها نتائجها الكبيرة على

التطورات التالية فى النزاع حول التقليد العلمانى مع ألمانيا ، كما كان كل من الإمبراطور والبابا يعلم عن يقين . فقد كان هنرى فى حاجة إلى الغفران البابوى لكى يحتفظ بعرشه ، ولم يكن جريجورى على استعداد لتقديم هذه المنحة فى اللحظة التى شهدت انهيار سلطة هنرى ، وحين كان البابا فى طريقه لحضور الاجتماع الذى سيجرى فيه انتخاب ملك ألمانى جديد توافق عليه البابوية . وبحكم تقاليد الكنيسة وقانونها ، على أية حال ، لم يكن باستطاعة أى قسيس ، ناهيك عن أن يكون هو نائب المسيح على الأرض ، أن يرفض توبة مخطئ صادق التوبة ومعترف بخطيئته . وقد راود الشك جريجورى كثيراً ، وله عذره فى ذلك ، حول مدى صدق توبة هنرى ، بيد أنه كان من الصعب عليه أن يعلن ذلك على الملأ بسبب ما أبداه هنرى علانية من التوبة وعذاب الضمير . وبالتالى ، ظل البابا يتجاهل طلب الإمبراطور بمقابلته ثلاثة أيام . ثم تدخلت ماتيلدا كونتيسة توسكانيا لصالح قريبها ؛ ذلك أنه لم يكن هناك حاكم أو سيد كبير ، خارج ألمانيا على الأقل ، يستمتع بمشاهدة استمرار التحقير لواحد من أكبر ملوك العالم المسيحى .

وربما حتى وساطة ماتيلدا لم تكن لتحرك جريجورى فى لحظة انتصاره ، فقد كان ظهور هوف رئيس دير كلونى فى كانوسا فى وقت غير مناسب لجريجورى ، وتدخله الدائب لصالح الإمبراطور هو فقط الذى أرغم جريجورى على الاستجابة . إذ أن هوف كان هو رجل الكنيسة الذى يحظى بأكبر قدر من الاحترام والحب فى زمانه ، وكان هو وهيلدبراند يكرهان بعضهما على الدوام ، فضلا عن أن وجهة النظر العالمية الجريجورية كانت تصطدم بشدة مع وجهة النظر العالمية الكلونية . ولكن جريجورى لم يكن ليجرؤ على تجاهل نصيحة رئيس الدير المبجل المقدس . ولو فعل جريجورى هذا لعرض مركزه فى أوربا للخطر إذ أنه كان يدرك تماما أن رؤوس أوربا المتوجة تتطلع فى هلع إلى الأحداث الجديدة التى تجرى فى كانوسا . كما كان يعلم أن المعارضة النشطة من جانب الراهب الكلونى المعمر تكفى لتحويل الرأى العام ضده ومؤازرة ملوك وحكام أوربا الآخرين للملكية السالية المقهورة . وعليه فقد سمح جريجورى فى نهاية الأمر بمقابلة هنرى ، واستمع إلى اعترافه ، ومنحه الغفران ، ثم جعله يقطع على نفسه عهداً بإطاعة المراسيم البابوية وأعاده إلى عرشه .

كان رأى البابا ، والنبلاء الألمان الخائبين ، أنه لم تعد هناك حاجة لانتخاب ملك جديد . فقد تخلى البابا عن رحلته عبر جبال الألب ، وأرسل خطابا تفوح منه رائحة النصر إلى النبلاء الألمان يخبرهم بالأحداث التى جرت فى كانوسا والسلام الذى عقده مع الملك التائب الذى أقسم

أن يكون خادما مخلصا للبابوية . فقد أنقذ عرشه وسنح له الوقت لإعادة بناء سلطته . ومن غير المحتمل أنه كان ينوى الحفاظ على القسم الذى أقسمه فى كانوسا ، ففى خلال سنة واحدة كشف عن نواياه فخلعه البابا عن عرشه مرة أخرى . بيد أن هنرى لم يرجع أبداً إلى الموقف اليائس الذى وجد نفسه فيه عند نهاية سنة ١٠٧٦ ، والحقيقة أنه فى خلال السنوات الخمسين لتى استغرقها النزاع حول التقليد العلمانى ، لم يحدث أبداً أن أقتربت البابوية من نصرها النهائى مثلما حدث فى صبيحة ذلك اليوم الذى شن فيه جريجورى السابع هجومه الأول على الملكية الألمانية . فبعد كانوسا أعاد بعض رجال الكنيسة الألمان التفكير فى مواقفهم ثم عادوا إلى الوقوف فى صف البيت السالى . وعلى سبيل المثال ، تولى رئيس دير فولدا الكبير ، الذى أسسه سان بونيفاس ، رئاسة المجلس القضائى الملكى فى السنوات الأخيرة من عهد هنرى الرابع . واستطاع الملك الألمانى أن يستعيد مركزه فى الحرب الطويلة المريرة ضد النبلاء الألمان بفضل مساعدة بعض رجال الكنيسة والأقنان الملكيين فضلا عن الجيوش التى تم تجهيزها من الأراضى المملوكة للتاج . وفى سنة ١٠٨٥ كان هنرى قويا بالقدر الذى يكفى للانتقام ، فطرد البابا من روما ليعيش لاجئا بين حلفائه النورمان فى جنوب إيطاليا حتى موته . واتسمت السنوات الأخيرة من حياة هنرى الرابع بالمرارة الناجمة عن عصيان ابنه الذى انضم إلى النبلاء الألمان ضده ، بيد أن هذه كانت مسألة عائلية وشخصية فى المقام الأول . لأن هنرى الخامس واصل الحرب ضد البابوية وحلفائها فى ألمانيا فور ارتقائه العرش الألمانى سنة ١١٠٦ .

وقد ناقش كثيرون ممن عاصروا هذه الأحداث ، ومن الكتاب المحدثين على السواء ، مسألة من هو الذى ربح أكثر من مواجهة كانوسا الدرامية ، البابا أم الإمبراطور ؟ كان واضحا أن كلا من الفريقين قد ربح شيئًا وخسر شيئًا آخر ، وأن أيا منهما لم يحقق النصر الكامل . لقد أعادت كانوسا التاج الألمانى إلى هنرى ، ولكن بالنظر لخضوعه المهين أمام البابا ، تكون كانوسا قد وجهت ضربة قاضية إلى أيديولوجية الملكية الثيوقراطية التى كانت الأسرة السالية تعول عليها كثيراً . فضلا عن أن هنرى ، وقد أجبر على طلب الغفران البابوى ، قد دعم المزاعم الجريجورية حول حق البابوية فى محاكمة وعزل أكبر الحكام فى أوربا . ومن المؤكد أن جريجورى قد تسبب فى التهليل بأن السلطة الأخلاقية للبابوية قد تبدت واضحة حين تم إجبار أعظم حكام الغرب على أن يركع تائبا عند قدمى البابا . لقد كانت كانوسا تعنى أن أسقف روما ، الذى ظل يلعب دوراً هاما فى شئون أوربا السياسية على مدى قرنين من الزمان ، قد صار فى ذلك الحين شخصًا محوريا تدور حوله شئون الدول الأوربية .

وعلى أية حال ، فإن انتصار جريجورى لم يكن مطلقا . ذلك أن كانوسا أظهرت بذور الشك حول مقاصد البابا ومستواها الأخلاقى ، وهى البذور التى نمت سريعًا فى القرن التالى . فقد اتخذ ملوك أوربا حيطتهم كما أجبروا مرغمين على أن يعيدوا النظر مليا فى علاقتهم بالكنيسة . كما أن كانوسا قضت على التوازن الدولى الذى عرفته أوربا القرن الحادى عشر . بل إن رجال الكنيسة المخلصين الواعين تساءلوا آنذاك عن السبب الذى يجعل حاكما مخلصا وقديراً مثل هنرى يقف مثل هذا الموقف المهين . وفى مناقشة ماجرى فى كانوسا ، بعد ذلك بمائة سنة ، رفض المؤرخ أوتو الفريزى ، الذى كان أسقفا ملكيا ، أن يقرر أن أحد الجانبين كان على خطأ أو على صواب بشكل مطلق . فقد أحس بأن جريجورى قد تطرف فى خصومته ، وتشكك فى فطنة هذا البابا وذكائه ، ومن ثم تشكك فى أن يكون حسن النية . وهكذا كان لاستعراض القوة البابوية فى كانوسا تأثير معقد وبعيد المدى على الوعى الأخلاقى فى مجتمع العصور الوسطى ، فقد كان مؤشراً على نهضة الزعامة البابوية فى أوربا ، كما أنه فى الوقت نفسه حرك سلسلة طويلة من المنازعات والتناقضات التى انتهت بعد قرنين وربع فى مدينة إيطالية أخرى صغيرة بالقضاء على بابوية العصور الوسطى .

وبعد كانوسا ظل جريجورى وهنرى يتحاربان بكراهية مقيتة ، واستخدما كافة الموارد المعنوية والمادية التى استطاعا تعبئتها . فقد أعلن البابا مرة أخرى عزل الإمبراطور ، وانضم إلى الأمراء المتمردين لتنصيب إمبراطور غيره . وبالمثل وجد هنرى أسقفا من شمال إيطاليا على استعداد للمغامرة باعتلاء العرش البابوى بدلا من جريجورى . هذه المناورات كان لها تأثير ضئيل ، وربما لم يكن لها تأثير على الإطلاق ، فقد طال أمد الصراع حول التقليد العلمانى . وبعد موت جريجورى سنة ١٠٨٥ ، وفى بابوية الراهب الكلونى الإصلاحى إربان الثانى ( ١٠٨٨ - ١٠٩٩ ) خاصة ، بدأ عزم البابوية يخور . وبينما أكد إربان ولاءه لسياسة جريجورى رسميا ، أخذ يبحث عن مخرج من حرب الإنهاك التى تورطت فيها البابوية . وحاول أن يوحد أوربا خلف البابا من خلال الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى . وقد اتضح أن إربان قد تخلى عن أيديولوجية جريجورى حين منح الحكام النورمان فى انجلترا وجنوب إيطاليا حق السيادة على الكنائس الموجودة فى أراضيهم ، وهى نفس السيادة التى كان إربان قد أدانها فى ألمانيا . ولكن إنهاء الصراع مع ألمانيا حول التقليد العلمانى كان قد بات أمراً بالغ الصعوبة ، لأنه كان يتطلب انقاذ ماء وجه كل من الطرفين . ولم يكن بوسع إربان أن يجد

مخرجا من هذا الطريق المسدود . ولاحاجة بنا إلى القول بأن أحداً ممن كانوا يؤيدون الإمبراطور الألمانى لم ينضم إلى الحملة الصليبية الأولى .

وقام باسكال الثانى ، خليفة إربان ، بتجديد الصراع ، ولكن بعد عشر سنوات كان هذا الجريجورى العنيد يرغب فى أن يوقف هذا الصراع الذى بدا وكأنه بلا نهاية . وابتهج هنرى الخامس بالحل الجذرى الذى اقترحه ، ولكن أحداً سواه لم يوافق عليه كما رأينا . وفى أخريات العقد الثانى من القرن الثانى عشر كان جيل جديد من الكرادلة يسيطر على الحكومة البابوية. وقد حكمت تجاربهم القانونية والإدارية بأن تكون نظرتهم للعالم معبرة عن وجهة نظر البيروقراطيين الحذرين وليس عن وجهة نظر المفكرين الجسورين . لقد بدت سياسة جريجورى المتطرفة أمراً خطيراً لاموجب له فى نظر أولئك الرجال الجدد . فقد رأوا أن السلطة البابوية يمكن أن تتدعم من خلال الوسائل التنظيمية للمركزية الكنسية فى مجال القانون والإدارة ، بدلا من خوض حرب يائسة ضد حكام أوربا . وكان الزعماء الجدد فى روما يوافقون بشكل عام على أهداف جريجورى النهائية ، ولكنهم لم يكونوا يميلون إلى استخدام نفس أساليبه . كان ما يريدون الحفاظ عليه فى برنامج جريجورى هى الإصلاحات التنظيمية التى كان قد بدأها ؛ أى زيادة حجم الأداة البيروقراطية فى البلاط البابوى ، وإرسال القصاد الرسوليين ، أو السفراء البابويين ، إلى شتى أنحاء أوربا ، وتأسيس المحكمة الرومانية لتكون هى أعلى ساحة قضائية للكنيسة . لكنهم كانوا على استعداد للتأنى فى تحقيق هذه الغايات وأن يتصالحوا مع ملوك غرب أوربا إذا اقتضت الضرورة ، وأن يساوموا بصلابة وباستمرار من أجل الحصول على تنازلات محدودة بدلا من المخاطرة بالدخول فى صراع أساسى . كانت هذه الروح الاعتدالية البيروقراطية القانونية هى التى ميزت بابوية القرن الثانى عشر عن الثورة الجريجورية . فقد حلت سياسة « المرحلية » محل سياسة « الشمولية » .

لقد كان الجيل الجديد من الكرادلة يعتبرون النزاع مع الملوك بسبب التقليد العلمانى عقبة تخلفت عن عصر آخر فى طريقه إلى الزوال ، وكانوا على استعداد لتقديم تنازلات بعيدة المدى فى سبيل التوصل إلى اتفاق مع هنرى الخامس . ومن ثم أعيد المبدأ الذى كان أساسا لإنهاء النزاع مع الإنجليز حول التقليد العلمانى والذى استمر فترة قصيرة من سنة ١١٠٣ إلى سنة ١١٠٧ ، والذى وضعه كاليكستوس Calixtus II وهنرى الخامس ضمن اتفاقية وورمس سنة ١٠٢٢ ، فقد تخلى الإمبراطور الألمانى عن التقليد العلمانى وكل ما يرتبط به من مذهب

الملكية الثيوقراطية . واحتفظ بحقه فى أن يطلب ولاء الأساقفة ومقدمى الأديرة فى مملكته قبل ترسيمهم فى مناصبهم . وهكذا منحت البابوية للإمبراطور الألمانى حق الاعتراض Veto على تعيين رجال الكنيسة الألمان ، وهو ماكان يعنى أنه ظل صاحب الصوت الحاسم فى اختيارهم .

كان هذا الاتفاق قد أتاح للملك الإنجليزى أن يواصل سيطرته الفعلية على الشئون الكنسية فى مملكته . ولكن تأثير اتفاقية ورمس ، لم يكن بأية حال عودة إلى حالة ماقبل الحرب Status Quo ante bellum ، لأن نصف القرن الذى شهد النزاع حول التقليد العلمانى قد سبب تغيرات بعيدة المدى فى البناء السياسى والاجتماعى الألمانى بحيث لم يعد الإمبراطور قادراً على أن يستفيد بشكل كامل من التنازلات البابوية . ففى أجزاء كثيرة من الإمبراطورية كان الدوقات الكبار قد حققوا لأنفسهم سيادة شبه كاملة على أقاليمهم . وكانوا هم ، وليس الإمبراطور ، الذين أفادوا من نصوص الإتفاقية التى تتيح لهم التحكم فى التعيينات الكنسية فى دوقياتهم . وفى أجزاء أخرى من ألمانيا ، ولاسيما فى أراضى الراين ، كان كبار الأساقفة أنفسهم قد صاروا أمراء أقليميين ولم يعد باستطاعة الإمبراطور أن يتحكم فيهم . وهكذا ، فإن اتفاقية ورمس فى الواقع قد منحت هنرى الخامس وخلفاءه حق التحكم فى تعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة فى الأراضى التى تملكها عائلاتهم فقط .

هذا التدهور المدمر فى سيادة التاج الألمانى التقليدية على أمور الكنيسة ورجالاتها كان مصحوبًا بخسائر أخرى لحقت بالملكية فى اتجاهات أخرى . فقد أثبت كثيرون من الفرسان – الأقنان Ministeriales ، الذين كانت الملكية الألمانية تعتمد عليهم كثيراً فى القرن الحادى عشر ، أنهم غير أهل للثقة . إذ أنهم انتهزوا فرصة الفوضى الناجمة من الحرب الأهلية الطويلة واغتصبوا السيادة على القلاع الملكية التى كانوا يتولون حراستها لكى يساوموا على حريتهم الشرعية مع الملك أو الملك المضاد ، وبذلك صاروا سادة عن جدارة واستحقاق . ومع بواكير القرن الثانى عشر بدأ بعض هؤلاء الفرسان – الأقنان السابقين يتزوجون من عائلات النبلاء القديمة . وكثيرون من كبار الأرستقراطيين الألمان ينحدرون من سلالة الفرسان – الأقنان السالبين . هذا الضعف الذى اعترى المؤسسات الملكية كان مصحوبًا بتقدم سلطة الأمراء المحليين . وفى التاريخ الألمانى تعنى فترة النزاع حول التقليد العلمانى النمو الهائل فى السيادة الإقليمية للدوقات وغيرهم من كبار السادة الإقطاعيين كما تعنى خلق الحكم الذاتى

فى الأقاليم ، وهو أمر لم يتم التغلب عليه حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومن ثم يقول كثير من المؤرخين الألمان ، بحق ، أن الفترة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١١٢٢ هى التى حسمت المصير الألمانى .

لقد نمت السيادة الإقليمية والسلطة الأرستقراطية فى ألمانيا بسبب تحول البلاد إلى النظام الإقطاعى للمرة الأولى . ولم تكن التبعية الإقطاعية vassalage مجهولة فى ألمانيا قبل النزاع حول التقليد العلمانى ، ولكن النموذج الإقطاعى كان جزئيا ، وقليل الأهمية ، لا سيما فى الشطر الشمالى من البلاد . وقد نتجت عن السنوات الخمسين التى استغرقتها الحرب الأهلية تغييرات سياسية واجتماعية بعيدة المدى . فقد فرض السادة الإقطاعيون الكبار التبعية على فرسانهم ، ونصبوا أنفسهم قادة للجيوش الإقطاعية . وفى عشرينيات القرن الثانى عشر تبلورت روابط التبعية الإقطاعية بين طبقات ملاك الأراضى . وكان هذا التحول الشامل للمجتمع الألمانى إلى مجتمع اقطاعى كارثة حاقت بالملكية الألمانية ، لأن الهرم الإقطاعى الألمانى كان مبتوراً مثلما كان الحال فى فرنسا قبل سنة ١١٥٠ . ذلك أن الروابط الإقطاعية لم تكن تتصاعد حتى مستوى الملك ، وإنما كانت تنتهى بهيمنة كبار الأرستقراطيين. ولم تكن ثمة روابط إقطاعية تربط أفصال كبار السادة الإقطاعيين بالملك ومن ثم كان ولاؤهم مكرسا للأمراء الإقليميين ، الذين كانت لهم آنذاك جيوش كبيرة جيدة التدريب على استعداد للحرب ضد الملك . وكانت قوة الملك العسكرية مستمدة فقط من وضعه كواحد من كبار السادة الإقطاعيين فى دوقيته . ولكن كونه محاطا ، آنذاك ، بالأمراء الإقليميين المستقلين، جعل موارده الخاصة غير كافية لإعادة بناء الصرح المتهدم للسلطة المركزية . وانتهز كثيرون من كبار السادة الإقطاعيين فرصة هذا الاستقلال واغتصبوا السلطة التى كانت للملك من قبل على الأملاك الكنسية بفرض الوصاية على الأديرة الكبرى والسيادة على الكنائس الامتلاكية . وهكذا تبنى النبلاء بعض المؤسسات التى كانت أثيرة لدى ملوك أسرة أوتو ، والملوك الساليين ، لتقويض السلطة الملكية .

وفى سبيل تأكيد استمرار ضعف الملكية ، حافظ النبلاء على المبدأ الانتخابى فى الملكية الألمانية . وعلى الرغم من أن المبدأ الانتخابى لم يختف إطلاقا من النظرية الدستورية ، فإن الممارسة الفعلية تشهد على أن التتابع الوراثى على العرش قد حل محل المبدأ الانتخابى ، إذ كان ملوك البيت الأوتوى والبيت السالى يتخذون من الاحتياطات ما يضمن انتخاب أبنائهم قبل وفاتهم . ولكن النبلاء أعادوا إحياء الفكرة الانتخابية بتحريض من البابوية الجريجورية .

وقد ألف المنظر الكنسى مانجولد اللاوتنباخى Maneggold of Lautenbach مقالة تطرح وجهة نظر وظيفية خالصة عن الملكية الألمانية التى يقارن فيها الملك بمربى الخنازير ، الموظف بغرض معين ، والذى يمكن طرده إذا ما أثار حفيظة مستخدمه . هذا الرأى الراديكالى الأوغسطينى عن الملكية الألمانية كان مبعث سرور الأمراء الأقليميين الذين كانوا ، بطبيعة الحال، يرون فى الملك موظفا ذا سلطات محدودة جدا يتم اختياره أو عزله ، إذا دعت الضرورة، بواسطتهم . وعلى مدى ربع قرن من الزمان بعد وفاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥ كانت الملكية الألمانية متوافقة مع المبدأ الذى نادى به مانجولد . إذ كان النبلاء يختارون الملك ، ولايسمحون له بأية موارد خارج نطاق دوقيته الخاصة ، كما كانوا يحولون بينه وبين ممارسة أية سلطة أو زعامة حقيقية فى مملكته . وفوق ذلك ، كله كان اللقب الملكى ينتقل من أسرة إلى أخرى للحيلولة دون نمو أية مصالح أسرية فى التاج الألمانى .

وهكذا ، عندما تم اختيار فريدريك الأول هوهنشتاوفن Fredrick I Hohenstaufen ملكا سنة ١١٢٥ ، كانت السلطة الملكية قد فقدت فعاليتها على مدى ربع قرن ، كما رسفت فى أغلال وقيود شتى على مدى ثمانين عاما . وكانت الموارد الوحيدة التى لم تمس للتاج الألمانى موجودة فى شمال إيطاليا ، وهى المنطقة التى كانت للإمبراطور الألمانى السيادة الإسمية على مدنها الغنية . ونتيجة للصراع حول التقليد العلمانى كان كل ملك ألمانى يريد استرجاع السلطة التى كانت للأباطرة السالبين مضطراً إلى التطلع صوب إيطاليا . ولكن عصر النزاع حول التقليد العلمانى كان قد شهد أيضا تغيرات فى شمال إيطاليا كان من شأنها أن تجعل م أية ممارسة حقيقية للسلطة الإمبراطورية هناك مسألة محفوفة بالمخاطر . فمنذ عصر هنرى الثالث لم تكن المدن الإيطالية قد وقعت تحت الحكم الفعلى لسيدها الألمانى الرسمى . وكانت تلك بالضبط هى الفترة التى شهدت النمو الهائل فى ثروات المدن الإيطالية والزيادة الكبيرة فى سكانها وتطور مؤسساتها الكومونية . فمدن الشمال الإيطالى ، فى منتصف القرن الثالث عشر كانت تحكمها أوليجاركية صغيرة من التجار والحرفيين والصناع ، الذين كانوا مستعدين وقادرين على القتال فى سبيل الحفاظ على مكانتهم وسلطتهم . وكانوا هم الحلفاء الطبيعيين للبلاط البابوى الذى كانت فرائصه ترتعد من عودة الإمبراطور للظهور فى إيطاليا . ولم يجد الإمبراطور سبيلا لإعادة بناء السلطة الملكية فى ألمانيا سوى عن طريق غزو شمال إيطاليا ، ولكن البابا أحس بأن انتصار الإمبراطور فى إيطاليا لايعنى سوى القضاء

على الاستقلال البابوى . وإذا كان النزاع حول التقليد العلمانى قد قلص موارد التاج الألمانى ، فإنه من ناحية أخرى قد شد البابوية إلى صراع حتمى ضد أول أمير طموح يعتلى عرش ألمانيا بعد اتفاقية ورمس . وعلى أية حال ، فإن تغير أحوال الشمال الإيطالى إبان فترة الصراع حول التقليد العلمانى ، قد جعل نجاح مثل هذه المغامرة الإمبراطورية أمراً مستبعداً .

ويمكن أن نضيف إلى هذه النتائج المدمرة التى أفرزها الصراع بين البابا والإمبراطور تلك الكارثة التى تمثلت فى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوربا . ففى سنة ١٠٥٠ كانت الأديرة الألمانية الكبرى مراكز كبرى للتعليم والفن ، كما كانت مدارس اللاهوت والقانون النكسى الألمانية لا تبارى . ويبدو أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعات الشرسة بين الدولة والكنيسة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها . فقد كان رجال الكنيسة مثابرين على تدبيج المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة ، ولكنهم تجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كان يجرى خلال الفترة نفسها فى مناطق غرب الراين وجنوب جبال الألب . وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى ألمانيا عن عصرها ثم مالبثت أن باتت متخلفة وعتيقة . وعند بداية القرن الثانى عشر كان العلماء الفرنسيون والإيطاليون عاكفين على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى ، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحرية الفكرية فى العصور الوسطى العالية ، ولكن أول جامعة من هذا النوع لم تقم فى ألمانيا قبل القرن الرابع عشر . لقد تخلف الألمان ثقافياً كما تخلفوا سياسيا فى غمار النزاع حول التقليد العلمانى ، ولم يستعيدوا مكانتهم الرائدة أبداً ، على الأقل فى العصور الوسطى .

# الفصل الثالث عشر

# الملكية الأنجلو - نورمانية وظهور الدولة البيروقراطية

## ١ - انتصار وليم الفاتح[1] :

يبدو أن جريجورى السابع قد تساءل بينه وبين نفسه فى أخريات أيامه عما إذا كان قد شن الحرب ضد العدو الحقيقى . فقد كان مهتمًا بالسياسة الكنسية للملكية الأنجلو - نورمانية ، ولكنه لم يكن بقادر على الانتقاص من سلطة « وليم ابن الزنا » الذى عرف آنذاك باسم «وليم الفاتح » ، وهيمنته على الكنيسة بأية وسيلة . فمع تدهور الملكية السالية فى ألمانيا برزت مكانة الحاكم الأنجلو - نورمانى فى أوربا باعتباره ملكًا لانظير له . وكان وليم وأبناؤه قادرين على التقدم بالمؤسسات الملكية الإنجليزية إلى درجة من الكمال والكفاءة لم تكن أوربا تعرفها فى ذلك الحين . وقد توصلوا فى النهاية لتطوير نوع جديد من الملكية يعتمد على الإدارة والقانون لتوحيد المملكة ، كما يتيح لهم أن يستغنوا عن الأسس الأيديولوجية التقليدية للحكم الملكى . ففى ذات الوقت الذى كانت فيه الثورة الجريجورية تهدم الأساس الدينى للملكية ، كان الحكام النورمان فى إنجلترا يصوغون بديلا فعالا يتحاشى الانتقادات البابوية بشكل نسبى . وهكذا كانت للغزو النورمانى لإنجلترا أهمية عظمى بالنسبة لحضارة العصور الوسطى، إذ أنه أتاح الفرصة لخلق نوع جديد من الملكية ، كما أنه افتتح الحركة تجاه العلمانية والسلطة المطلقة التى ميزت الدولة فى القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر .

فى سنة ١٠٦٦ كانت انجلترا « أرضا قديمة Old Land » على حد تعبير المؤرخ الاقتصادى « ريجنالد لينارد Reginald Lennard » . وعلى الرغم من أن الشطر الشمالى من البلاد ، الذى لم يكن يصلح للزراعة كان قليل السكان للغاية ، فإن نصفها الجنوبى ، خاصة المنطقة الوسطى الخصيبة ، كان كثيف السكان . وكان عدد سكان إنجلترا زمن الغزو النورمانى حوال مليون نسمة ؛ أي أنها كانت بلداً كثير السكان إلي حد ما . وبعد خمسة

---

١ - استخدم المؤلف عبارة The triumph of Wiliam the Bastard وترجمتها الحرفية « انتصار وليم ابن الزنا » ، وقد رأينا ترجمتها على النحو الذى وضعناه فى العنوان ( المترجم )

قرون كان عدد سكان إنجلترا أقل من أربعة ملايين نسمة . وفى سنة ١٠٦٦ كانت لندن قد صارت مدينة تجارية هامة بالفعل ، كما كانت موانئ أخرى تقوم بتجارة نشيطة مع القارة الأوربية . وفى العصور التالية كانت إنجلترا تبدو بلداً واسع اثراء . فقد كانت العملة الأنجلو - سكسونية من أحسن عملات أوربا ، كما كانت ضريبة الدانجلد Danegeld[٢] التى كان الملك الإنجليزى يفرضها لقتال الغزاة من الاسكندنافيين قد جلبت قدراً هائلا من العملات . فضلا عن أن الأنجلو - سكسون كانوا شعبًا متدينا ذكيًا . فقد كان منهم القديسون المشهورون، والشعراء المجيدون ، والفنانون المهرة الذين عكفوا على تزيين المخطوطات وصقل المجوهرات .

وعلى الرغم من كل هذه الظروف الواعدة ، فإن انجلترا وقعت فريسة سهلة للغزو الأجنبى فى منتصف القرن الحادى عشر . لقد ضرب الأنجلو - سكسون أول الأمثلة عن شعب كان مجيداً فى كل شئ عدا فن الحكم والحرب ، وكان هذا هو العيب الذى أودى بالملكية الأنجلو سكسونية . فقد كانت المقاطعة الإنجليزية المحلية Shire والمحاكم المائة تبدو مؤسسات فعالة إلى حد معقول ، ولكن المؤسسات الإدارية للحكومة المركزية كانت ضعيفة وبدائية . فقد كان كبار السادة الإقطاعيين يغتصبون اختصاصات التاج القانونية والمالية بسهولة . وكان هذا التخلف السياسى مصحوبا بالضعف العسكرى . فبينما كان الفارس المسلح قد بات هو عماد جيوش القارة الأوربية ، كان الإنجليز فى سنة ١٠٦٦ مايزالون جاهلين بفنون القتال على ظهور الخيل . وعلى مدى ثلاثين سنة فى مطلع القرن الحادى عشر كانت إنجلترا جزءاً من إمبراطورية دانمركية كبرى ، وربما كان الملك كانيوت Canute الاسكندنافى هو أكثر الحكام فعالية فى التاريخ الأنجلو - سكسونى . وبعد موت كانيوت تمزقت إمبراطوريته الكبرى . ووجد النبلاء

---

٢ - الدانجلد ضريبة فرضها الملوك الأنجلو - سكسون فى القرن العاشر كوسيلة لتمويل الجزية التى كان ينبغى دفعها للغزاة الدانمركيين منذ عهد الملك ايثلريد الثانى Ethelred II ( ٩٨٧ - ١٠١٦ ) . وعادة ما كانت قيمتها شلنين ولكنها أحيانا كانت تصل إلى أربعة شلنات وأكثر . وعلى الرغم من أن الجزية كانت تدفع منذ سنة ٩٩١ ، فإن مصطلح Danegeld لم يعرف إلا بعد الغزو النورمان . وقد استمر الملوك الأنجلو - نورمان فى فرض هذه الضريبة ولاسيما وليم الفاتح وهنرى الثانى حتى سنة ١١٦٢ لأغراض حربية خاصة ، أو لمواجهة النفقات الإضافية . ( المترجم )

العلمانيون والكنسيون فى أحد أديرة القارة واحداً من سلالة الملك ألفرد(٣) وأجلسوه على العرش الإنجليزى . وكان عهد إدوارد المعترف ( ١٠٤٢ - ١٠٦٦ ) هو العهد الذى شهد المراحل الأولى للتحلل السياسى للمملكة فى مقابل نمو السلطة الإقليمية لكبار السادة الإقطاعيين . ونتيجة لموت إدوارد دون أن يخلف وريثًا نشبت أزمة حول العرش ، قام ملك النرويج بتجهيز أسطوله لغزو انجلترا . وقام النبلاء الأنجلو - سكسون باختيار أقوى النبلاء ، هارولد جونسون ، على أساس من المبدأ الانتخابى الجرمانى القديم ، ليكون ملكًا على الشعب الإنجليزى . ولكن « وليم ابن الزنا » ، دوق نورماندى الطموح ، أدعى أن العرش حق له بالوراثة عن طريق جدته ، كما قال إن كلا من إدوارد وهارولد قد وعداه بالعرش عند موت إدوارد .

أطلق المؤرخ هاسكينز ، المتخصص فى تاريخ المؤسسات النورمانية ، اسم « رجال القرن الحادى عشر الخارقون » على النورمان . أما أوردريك فيتاليس Ordricus Vetalis ، المؤرخ الأنجلو - نورمانى المعاصر ، فقال إن النورمان شعب طيب وقادر حين يحكمهم حاكم قوى ، ولكنهم يتجهون إلى العنف والفوضى عندما يكون حاكمهم ضعيفا . ولقد استطاع وليم ابن الزنا أن يوجه الخصائص العدوانية لشعبه فى اتجاه بناء . فقد سار على نفس الخطوط التى كان أسلافه قد أرسوها من قبل ، بفضل مشورة وتأييد رجال الكنيسة المجربين المتعلمين الذين جاءت غالبيتهم من مناطق تدخل ضمن نطاق الإمبراطورية الألمانية السالية . وبذلك بنى أكبر

---

٣ - هو ألفرد الكبير Alfred the Great ( ٨٩٤ - ٨٩٩ ) ملك وسكس Wessex . وقد شاركه أخوه ايثلريد Aethelred الحكم تاركا إياه يقود الحرب ضد الدانمركيين . وقد هزمهم فى سنة ٨٨١ م عند آشدون Ashdown ، وعلى الرغم من عودتهم استطاع أن يمنعهم من غزو وسكس . ونتيجة للصراع المستمر بينه وبين الدانمركيين انقسمت البلاد إلى قسمين : جزء أنجلو - سكسونى مستقل يحكمه ملك وسكس ، وجزء يحكمه الدانمركيين The Danelaw . وقد بنى الفرد نظاما قويا للدفاع ويعتمد على الخدمة الإجبارية لكل الأحرار فى المملكة ، والحصون ، والأسطول . وكان الفرد أول ملك أنجلو - سكسونى يوقف الغزوات الدانمركية للبلاد . وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يحرر البلاد من الدانمركين تماما فإن إنجازاته ضمنت له مكانا خاصا فى التاريخ الإنجليزى . وقد أسس فى بلاطه مدرسة لأبناء النبلاء كما تولى رعاية البحث العلمى . وشجع الأديرة على أن تكون مراكز للتعليم والبحث بل أنه نفسه كتب فى التاريخ والجغرافيا مؤلفات تعتبر أول ما كُتب نثراً فى اللغة لأنجلو - سكسونية . انظر :

Asser , Life of Alfred the Great ( 1904 ); B.A. Lees , Alfred the Great (1915) .

( المترجم )

دولة إقطاعية فى أوربا على أساس مركزى ، كما نجح فى الوقت نفسه فى اكتساب سمعة يحسد عليها كصديق للكنيسة وحام لها مما جعله يحتل مركزاً وطيداً فى روما .

استطاع وليم أن يستفيد من كل هذه الأسس الاقطاعية والكنسية التى قامت عليها سلطته فى الإعداد لغزو انجلترا . فقد عبأ كل الجيش الاقطاعى فى الدوقية تقريبًا ، وكان قوامه حوالى ألف من افرسان . ذلك أن الازدياد المستمر فى عدد السكان المالكين للأراضى في الدوقية ( وهو تزايد لم ينقص معدله رحيل المغامرين من النورمان التواقين للنهب إلى جنوب إيطاليا ) كان يعنى نقص الإقطاعات في نورماندى بشكل جعل الطبقة المحاربة تتحرق شوقًا إلى المغامرات فى الخارج . وبالإضافة إلى ذلك ، جند وليم المرتزقة من بين الفرسان الذين لايملكون أرضًا فى الفلاندرز وبريتانى ، واستطاع أن يعبر القنال الإنجليزى بجيش قوامه ألف وخمسمائة فارس بالإضافة إلى رماة السهام وقوات المشاة التى تساندهم . وكانت تلك قوة عسكرية مهولة بمقاييس القرن الحادى عشر .

كان احتمال نجاح وليم كبيراً بفضل التأييد المعنوى الذى أسبغته عليه البابوية . فقد أرسل البابا إلى الدوق بيرقا بابويا ، بتحريض من الكاردينال هيلدبراند ، وحمل وليم هذا البيرق معه إلى إنجلترا . فلماذا أيدت البابوية الغزو الذى قام به وليم الفاتح ؟ لقد كان الدوق النورمانى يدعى لنفسه حقًا فى وراثة العرش ، وهو الأمر الذى كان هارولد ( منافسه على العرش ) يفتقر إليه ، وكان يمكن الاحتجاج بأن وليم أحق من العرش من الإيرل Earl الإنجليزى ، لأنه كان أقدر منه على تحمل تبعات الحكم . بيد أن هذه الأسباب كانت تعتبر أسبابًا هامشية فى تقدير البابوية . إذ أن البلاط البابوى لم يكن راضيًا عن حال الكنيسة الإنجليزية ، التى كانت تدير أمورها بشكل مستقل تماما ، وثبت أنها متخلفة وفاسدة للغاية ، والواقع أن أسقفية كانتربورى فى سنة ١٠٦٦ كانت ترزح تحت وطأة أوضاع فاضحة ؛ وادعت البابوية أنه لم يتم انتخاب كبير الأساقفة القائم وفقًا لقوانين الكنيسة وخلعته من منصبه ، ولكن هارولد جودنسون كان من الجرأة بحيث رفض تنفيذ القرار البابوى . وكانت الإدارة البابوية تحت توجيه هيلدبراند تتوقع أن يؤدى غزو وليم لإنجلترا إلى إصلاح الكنيسة الإنجليزية وإلى ربطها برباط وثيق مع روما . ولكن هيلدبراند فشل فى تقييم سياسة وليم تجاه الكنيسة تقييمًا واقعيًا . فقد كان واقعًا تحت تأثير سمعة وليم كصديق متدين وتقى ومؤيد للكنيسة ، ولكنه لم يضع فى حسبانه العلاقات بين الكنيسة والدولة فى نورماندى ، وهى

العلاقات التى كانت تشبه إلى حد كبير العلاقات التى كانت قائمة فى الإمبراطورية الألمانية السالبة . هذا الخطأ فى الحسابات الذى وقع فيه هيلدبراند هو الذى فتح الطريق لبناء النظام النورمانى للعلاقات بين الكنيسة والدولة فى إنجلترا .

والتقرير التصويرى الذى تحويه لوحة بايبى Bayeux المنسوجة(٤) ، والتقارير الحية التى أمدنا بها الكتاب المعاصرون ، على الرغم من أنها متضاربة إلى حد ما ، تصور لنا معركة هاستنجز التى حسمت مصير إنجلترا ، فهى توضح أن الأنجلو - سكسون خاضوا الحرب بصورة طيبة - أفضل مما كان متوقعًا منهم فى ظل الظروف السائدة آنذاك ، لأن جيش هارولد كان مرهقًا من جراء نضاله ضد النرويجيين الذين كان قد فرغ لتوه من دحرهم فى الشمال ، ثم كان عليه أن يقطع إنجلترا بطولها لمواجهة القوات النورمانية الشديدة المراس . لقد أحرز وليام نصره الكبير بفضل أسلحة أكثر تقدمًا ، وأساليب قتال أكثر تفوقا . وحارب الأنجلو - سكسون بشجاعتهم المعهودة ، وكانت معركة هاستنجز مواجهة دموية للغاية بمقاييس العصور الوسطى. إذ أن عدداً كبيراً جداً من النبلاء الأنجلو - سكسون لقوا مصرعهم فى ساحة القتال، على حين تم تجريد غالبية الناجين منهم من أراضيهم وربما تحولوا إلى أقنان . وهكذا تسبب الغزو النورمانى فى القضاء على الطبقة الإنجليزية الحاكمة واستبدالها بالسادة الاقطاعيين الفرنسيين، على الرغم من أنه لم يؤثر فى أوضاع الفلاحين الإنجليز وظروفهم .

وعلى مدى أربعين سنة بعد الغزو النورمانى أبدى النورمان احتقارهم التام لكافة وجوه الثقافة الأنجلو - سكسونية . وربما يكون قد تم تدمير بعض أعظم الأعمال الفنية الأنجلو - سكسونسية فى تلك الفترة ؛ إذ أن بعضًا من أفضل المخطوطات الأنجلو - سكسونية المصورة لم يعثر عليها سوى فى القارة ، وهى مخطوطات كانت قد أرسلت على سبيل الهدية للحكام أو لرجال الكنيسة فى بلدان أوربا ، ولم يعثر فى إنجلترا نفسها على أى من هذه المخطوطات .

---

٤ - نسبة إلى مدينة بايى فى نورماندى بفرنسا . واللوحة النسيجية الشهيرة التى ترجع إلى القرن الحادى عشر محفوظة بمتحف البلدية فى هذه المدينة الفرنسية حتى الآن . وهى على الطراز الفنى المعروف باسم الرومانسك Romanesque نسجتها الملكة ماتيلدا زوجة وليم الفاتح ووصيفاتها لتصوير معركة هاستنجز والغزو النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦ وطولها ٧٠ سم وعرضها ٥٠ سم ، وهى تصور الحملة من الاستعدادات فى نورمانى حتى الإبحار ثم المعركة نفسها . وفضلا عن قيمتها الفنية فإنها تعتبر أيضًا مصدراً تاريخيًا فائق القيمة لفن الحرب والسلاح والسفن والأدوات . ( المترجم )

لقد كان النبلاء النورمان يتحدثون اللغة الفرنسية ، كما أنهم كانوا يمثلون الثقافة والحضارة الفرنسية . وأمست اللغة الأنجلو - سكسونية هي لغة الفلاحين ، ولم يتم إحياؤها في شكلها الأدبي سوى في القرن الرابع عشر . وعلى مدى قرن ونصف قرن على الأقل بعد الغزو النورماني ظلت إنجلترا مجرد مقاطعة تابعة لفرنسا . وعلى الرغم من الخسائر التي لحقت بالأدب المحلي والفن الوطني ، كان الغزو النورماني مصدر نفع كبير لإنجلترا ، التي كان مقدراً لها أن تفقد استقلالها في ستينيات القرن الحادي عشر . إذ أن إنجلترا كانت على عتبة التحلل والتفكك السياسي ، مما جعلها فريسة سهلة لأي غزو أجنبي . وكان مقدراً لها أن تصبح تابعة لاسكندنافيا أو فرنسا . لقد تمثلت نتيجة الغزو النورماني في التوحيد السياسي للبلاد ، كما أن هذا الغزو أتاح لإنجلترا فرصة المشاركة في الحياة الثقافية والدينية والفنية الفوارة النشطة التي عاشتها فرنسا في القرنين الحادي والثاني عشر . أما الغزو الاسكندنافي، لو حدث ، فإنه كان سيحرم إنجلترا من جميع هذه الإنجازات .

وتمكن وليم ، بفضل مهارته السياسية المتميزة ، من الإبقاء على ماكان يمكن استمراره من المؤسسات الأنجلو - سكسونية . فقد أبقى على المقاطعة المحلية Shire والمحاكم المائة ، كما أبقى على المكاتبات الأنجلو - سكسونية الملكية ، وهي الاتصالات المكتوبة التي كان المجلس الاستشاري الملكي يطلبها من نوابه المحليين ، كذلك أبقى على نظام التتويج الأنجلو - سكسون بنغماته المثيرة التي تحبذ الملكية الثيوقراطية . بيد أن هذه الأيديولوجية لم تكن سوى مسألة هامشية ، لأن الملكية الأنجلو - نورمانية أقامت سلطانها على أساس مؤسسات جديدة استوحيت من نورماندي ؛ بل إن مؤسسات ماقبل الغزو التي استمرت في الوجود اكتسبت حيوية وأهمية جديدة بفضل مكانها في النظام السياسي والتشريعي .

لقد تم صبغ المملكة بالصبغة الاقطاعية تماما على يد وليم الفاتح ؛ وبنهاية حكمه في سنة ١٠٨٧ كان الشطر الأكبر من هذه العملية قد تم إنجازه . وباعتباره السيد الأعلى على كل ضيعة إقطاعية في إنجلترا بموجب حق الفتح استطاع أن يبني هيكلا إقطاعيا حذراً يتركز حول الملك باعتباره السيد الاقطاعي لكل فارس في المملكة . وكما هو الحال في نورماندي ، تم إخضاع الأساقفة ومقدمي الأديرة لالتزامات إقطاعية باهظة في بادئ الأمر ، ثم منحت الاقطاعات للنبلاء المدنيين .وباستثناء السادة الإقطاعيين في مناطق الحدود والذين منحوا امتيازات خاصة ومساحات شاسعة من الأراضي ، كانت ضياع أي سيد إقطاعي كبير موزعة

بين مقاطعتين أو ثلاث مقاطعات للحيلولة دون نمو أية نزعة استقلالية إقليمية . وكما هو الحال في نورماندى أيضا ، كان عدد الفرسان الواجب تقديمهم للخدمة في الجيش الملكي مقابل كل ضيعة إقطاعية ملكية ، يتدرج من خمسة فرسان إلى ستين فارسًا على الأكثر ، وكان مجمل حجم الخدمة العسكرية الإقطاعية التي يدين بها الأفصال للملك الأنجلو - نورماني يصل إلى خمسة آلاف فارس ، وهو رقم كبير بمقاييس ذلك الزمان ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يبني قلعة في البلاد دون إذن ملكي ، كذلك تعين على الأفصال الإقطاعيين الملكيين أن يحضروا إلى « بلاط الملك Curia regis » ثلاث مرات سنويا على الأقل ، لكي يستمعوا إلى الملك وهو يعلن خططه ، ويقدموا له مشورتهم السياسية ، ولكي يشاركوا في نظر القضايا القانونية التي تتعلق بالاقطاعات الملكية . وكانت شئون الحكم تدار بواسطة مجموعة صغيرة من النبلاء العلمانيين والكنسيين والكتاب الديريين الذين كانوا أعضاء في المجلس الاستشاري الملكي . أما النواب المحليون للملكية الأنجلو - نورمانية فقد احتفظوا بلقب شريف Sheriff الإنجليزي القديم ( ومعناه حاكم المقاطعة Shire reeve ) ، ولكنه كان هو نفس الفيسكونت Viscount النورماني من حيث الواقع ، وهو اللقب الذي غالبًا ما ترد الإشارة إليه في الوثائق الملكية الرسمية . فلم يعد ذلك المندوب الملكي الضعيف العاجز الذي كان قبل الغزو ، والذي كان كبار السادة المحليين يتحكمون فيه ، ولكنه صار هو الصوت القائد في شئون الحكم والقضاء في المقاطعة . ومع أن الشريف ، من حيث إمكانياته الخاصة ، كان مجرد واحد من ملاك الأراضي المتوسطين ، فإنه تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بسبب وضعه كممثل لحكومة ملكية على درجة كبيرة من الكفاءة والفعالية ، وهي حكومة لم تكن تطيق أي تمرد حتى من جانب أكبر السادة الإقطاعيين المحليين في البلاد ، كان الشريف يرأس محكمة المقاطعة ، كما كان هو المندوب المحلي للخزانة الملكية .

وقد أدهش وليم الفاتح وأبناؤه معاصريهم بمدى اتساع مواردهم المالية ، ولم يكن هذا بسبب ثروة إنجلترا فقط ، إذ أن من المؤكد أن فرنسا وألمانيا كانتا أكثر ثراء ، وإنما لأن الملك الأنجلو - نورماني استطاع أن يفرض الضرائب على موارد مملكته بدرجة تتعدى كثيراً قدرة أي حاكم آخر في أوربا . لقد كان الملك بحاجة إلى المال لتوطيد مركزه ومركز أسرته ، ولدعم إدارته المركزية ، وتمويل مندوبيه المحليين ومؤسساته العسكرية . هذه الكفاءة النسبية للنظام الضريبي الملكي الإنجليزي الذي شيده وليم الفاتح ، تعتبر مفتاحًا غاية في الأهمية لفهم التاريخ السياسي في العصور الوسطى . فهي تساعدنا على إدراك السبب في أن الملك

الإنجليزى كان حتى القرن الخامس عشر يستطيع أن يلحق الهزائم الساحقة بالملوك الفرنسيين الذين كانوا يحكمون بلاداً بلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان إنجلترا ، والذين كانت ثرواتهم الزراعية والصناعية والتجارية ( إذا ما استطعنا تقديرها بدقة ) أكبر كثيراً من ثروات إنجلترا . وفى العصور الوسطى ، كما هو الحال فى القرن العشرين ، كانت الحروب تتكلف أموالا كثيرة ، وكانت سلطة أى ملك وقوته تستند إلى كفاءة نظامه الضريبى وشموليته . ومن هنا ظل الملك الإنجلو - نورمانى على مدى قرن علي الأقل متفوقا على ملوك آل كابيه فى فرنسا ، كذلك لم يكن هناك حاكم ألمانى على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يستطيع التحكم فى موارد بلاده المالية مثل الملك الأنجلو - نورمانى .

كان مورد الدخل الرئيسى لملوك العصور الوسطى هو ضيعاتهم الخاصة ، وكان وليم بطبيعة الحال يستمد جزءاً أساسيا من دخله من الأملاك الملكية التى كان الشريف مسئولا عن إدارتها. كذلك كانت المحاكم مورد دخل وفير ، ولكن المهارة فى استغلال الإمكانات الإقطاعية فى جباية الضرائب هى التى كانت مصدر الموارد المالية الضخمة للحكام الأنجلو - نورمان . وكان وليم يتمتع بالحقوق الإقطاعية على أفصاله ، شأن أى سيد إقطاعى آخر ، واكتشف القائمون على خزائنه أن هذه النظم يمكن أن تكون مصدراً لمبالغ طائلة . إذ لم تكن الالتزامات الإقطاعية تجاه التاج وقفا على الأفصال الإقطاعيين العلمانيين ، بل كانت الأسقفيات والأديرة خاضعة لنفس هذه الأنماط الضريبية . وبالإضافة إلى هذه الموارد كلها ، والتى كانت تشكل الدخل الملكى ، بدأ وليم يسمح لأفصاله بعدم إرسال فرسانهم للخدمة فى الجيش الملكى الإقطاعى لقاء مبلغ من المال يتم تقديره على أساس حجم الإقطاع الذى يملكه كل منهم ، وقد عرف هذا النظام باسم سكوتاج Scutage ( ومعناها الحرفى « نقود الدرع Shield money ) فى أوائل القرن الثانى عشر . وقد فرح أفصال وليم لتحررهم من عبء مواصلة تدريب فرسانهم وتجهيزهم للحرب ، كما أن وليم كان يفضل أن يستغل المال الذى يحصل عليه من السكوتاج فى استئجار المرتزقة لشن حروبه داخل القارة . ومن دلائل التناقض أن الملك نفسه ، الذى وصل بالنظم الإقطاعية إلى أعلى مراحل تطورها واستخدم هذه النظم بكفاءة عالية لتدعيم الملكية ، كان هو أول من أدرك عدم فعالية النهج الإقطاعى فى تكوين الجيوش . فبموجب القوانين الإقطاعية كان على الأفصال أن يخدموا فى جيش الملك أربعين يوما فقط فى السنة وهو الأمر الذى كان يسبب إزعاجا فى أية حملة عسكرية طويلة ؛ كما أن الفرسان الذين كانوا

ينضمون إلى جيشه الإقطاعي ، لم يكونوا دائما على درجة كافية من التسليح والتجهيز ؛ وكان من الأفضل للملك أن يترك معظم الجيش الإنجليزي على أرض الوطن ليتصدى لأية غزوة إسكندنافية أخرى كبيرة ، وهو خطر كان يلوح دائما خلال عهد وليم الفاتح ، كذلك كان وليم يعانى من مشكلة خاصة هى مشكلة نقل الخيول والفرسان عبر القنال الإنجليزى ، وهو أمر كان مكلفًا ومحفوفا بالمخاطر فى آن واحد . فكان وليم يفضل استئجار المرتزقة من الفرسان الذين لايمتلكون أرضا فى نورماندى والفلاندرز وبريتانى لكى يستخدمهم فى حملاته التى كان يقوم بها على الحدود ضد مختلف الأمراء الفرنسيين . وسرعان ماأدرك أعداء الملك الأنجلو - نورمانى من ملوك وأمراء القارة الحاسدين مغزى التجديد الذى كان يقوم به فى أداته العسكرية. وقد أشار أحد الوزراء الرئيسيين فى بلاط الملك الفرنسى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر إلى الملك الإنجليزى بقوله : « هذا الرجل الثرى يشترى الفرسان ويجمعهم على نطاق واسع » . كان وليم هو أول من بادر بإحلال القوات المرتزقة محل الجيوش الإقطاعية، وكان هذا واحداً من التطورات العسكرية الأساسية فى العصور الوسطى العالية .

لقد تجلت عبقرية حكومة وليم وقدرتها من خلال التجديدات القانونية والسياسية والعسكرية على السواء . ففى سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولت محاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة ، أو المُحلَّفين juries كما أطلق عليهم فيما بعد . وكان الأنجلو - سكسون قد استخدموا مثل هؤلاء المحلفين أحيانا لتوجيه التهم الجنائية فى ساحة المحاكم الشعبية ، ولكن ملوك فترة ماقبل الغزو كانوا من العجز بحيث أنهم لم يدركوا قيمة هذا النظام فتلاشى واختفى قبل القرن الحادى عشر . كذلك جلب ولم الفاتح نظام الاستجواب إلى إنجلترا مرة أخرى ، دون أن يعرف شيئًا عن تجارب الأنجلو - سكسون الخائبة معه ، وهو النظام الذى يمكن أن نجد أصوله فى العصر الكارولنجى . وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان نظام التحرى بواسطة المحلفين يستخدم فى القضايا الجنائية وفى القضايا المدنية على السواء ، ثم صار هو أساس العملية القانونية الإنجليزية .

تجلت طاقة الملكية الأنجلو - نورمانية وذكاؤها بوضوح فى السنة الأخيرة من حياة وليم ، وذلك عندما تمت عملية مسح شامل للأملاك والملاك فى إنجلترا ، كما كانت قبل الغزو ، وما صارت إليه فى سنة ١٠٨٦ . ولم يكن باستطاعة أية حكومة أخرى فى أوربا أن تحقق هذا

الإنجاز قبل القرن الثالث عشر . هذا الإنجاز جمعت نتائجه فى سفرين هائلين عرفا باسم Domesday Book . هذا السجل وفر للحكومة الملكية والمحاكم حصراً شاملا عن الثروة وملاك الأراضى فى إنجلترا لأغراض الضرائب وإجراءات التقاضى . وكان المبعوثون الملكيون يستخدمون هذا السجل إلى جانب المعلومات المستقاة من شهادات المئات من المحلَّفين المتعلمين. وهو يمدنا بأكثر السجلات تفصيلا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى إنجلترا العصور الوسطى . وقد ظل متفوقا فى قيمته كمصدر للمعلومات الإحصائية على غيره من المصادر فى أوربا حتى القرن التاسع عشر . ويبقى هو أهم الآثار الدالة على أعمال وليم الفاتح ومساعديه الكنسيين ، الذين حولوا إنجلترا من دولة متخلفة إلى دولة من أكثر دول أوربا تقدما ، وذلك فى غضون عشرين عاما فقط .

٢ – مغزى النزاع الإنجليزى حول التقليد العلمانى :

حتى رجال الكنيسة الأنجلو – سكسون المستاءين الساخطين أعجبوا بإنجازات وليم الفاتح وحازت احترامهم ، ولكن جريجورى السابع لم يبتهج كثيراً بنجاحه المؤزر . فبينما كانت قوة الإمبراطور الألمانى تتدهور تحت وطأة الهجوم البابوى ، برز زعيم علماني جديد ذو قدرة أكبر ليلعب دوره علي مسرح السياسة الأوربية . ولم يكن مغزى هذا التطور ليغيب عن ناظرى جريجورى . فقد كان هذا يشكل تهديداً ، على المدى الطويل ، للإنجاز الذى تم تحقيقه فى ظل النظام العالمى الجديد الذى تصوره ، وهو خطر يفوق فى مداه الخطر الكامن في شخص الإمبراطور الألمانى . فضلا عن أن العلاقات بين الكنيسة والدولة فى ظل النظام الأنجلو – نورمانى كانت به وجوه شبه مزعجة بالموقف فى ألمانيا عشية النزاع حول التقليد العلمانى . ولم يهتم وليم بتأكيد تقاليد الملكية الثيوقراطية ، ولكنه استطاع أن يسيطر تماما على شئون الكنيسة الإنجليزية من خلال التقليد العلماني ، وربط الأساقفة ومقدمى الأديرة برباط التبعية الإقطاعية للملك . ومع ذلك ، كان رجال الكنيسة موالين تماما للملك الذى لم يكن مصدر خوفهم فحسب ، وإنما كان محل إحترامهم وإعجابهم أيضا ، مثلما كان الحال فى ألمانيا . فقد تركزت الأعمال التى تتطلب تعليما راقيا بأيدى الكتبة الديريين المخلصين الذين ترقوا بفضل خدماتهم القيمة ليتولوا المناصب الديرية والكنسية الشاغرة . وكان لانفرانك كبير أساقفة كانتربورى ، الذى ذاع صيته فى سائر أنحاء أوربا كعالم من علماء اللاهوت والقانون الكنسى، يوافق تماما على هذا الرباط الوثيق الذى يجمع بين الملك والكنيسة . وربما كان هو المسئول عن تقوية هذه الرابطة وتهذيبها باعتباره مستشاراً ثقة لوليم .

لقد نتج عن الغزو النورمانى تحسن كبير فى المستوى الأخلاقى والثقافى لكبار رجال الكنيسة فى انجلترا . فقد ازدهرت الأديرة فى ظل حماية الملكية ، كما تمت دراسة مجموعات القانون الكنسى ذات الصبغة المحافظة فى الفترة السابقة على العصر الجريجورى . وفى ظل الحماية تأسست المكتبات الديرية الكبرى ، كما دب النشاط فى مجال الدراسات المتعلقة بالطقوس الكنسية والكتابات التاريخية . وبنيت كنائس حجرية فخمة على الطراز النورمانى الرأسى ، وهى الكنائس التى تعتبر كاتدرائية دورهام Durham مثالا بارزا عليها ، فضلا عن أن عدد رجال الكنيسة قد تزايدوا وتهذبت خصالهم .

بيد أن جريجورى اكتشف أن الكنيسة الإنجليزية بعد الغزو لم ترتبط بروما أكثر من ذى قبل . وأصدر وليم مرسوما يمنع أيا من رجال الكنيسة الإنجليز من الذهاب إلى روما ، أو استقبال المندوبين البابويين ، أو اللجوء إلى المحكمة البابوية دون إذن منه . وكانت مثل هذه القيود مخالفة للسياسة البابوية فى العصر الجريجورى مخالفة صارخة ، ومع ذلك لم يستطع جريجورى أن يتدخل . فلم يكن فى إنجلترا أمراء متمردون يمكنه استغلالهم كعنصر مناوئ ضد الملكية ، كما كان واضحًا أن لانفرانك رئيس أساقفة كانتربورى الواسع النفوذ لم يكن متحمسا للإصلاح الجريجورى ، ولم يكن جريجورى من الحماقة بحيث يدخل فى قطيعة مكشوفة مع وليم على حين كان هنرى الرابع مايزال قائما فى الساحة . وعلى أية حال ، لم يكن بوسع البابا أن يقاوم رغبته فى تأكيد سلطته على الملك الإنجليزى وكبير الأساقفة . وقد زعم جريجورى أن غزو وليم لإنجلترا قد تم تحت بيرق البابوية ، وفى ظل الشروط العامة لهبة قطسطنطين ، مما يستوجب أن يكون الفاتح فصلا إقطاعيا تابعا له . ولم يلق وليم بالا إلى هذا الكلام بطبيعة الحال . ثم طلب البابا من لانفرانك أن يحضر إلى روما بنفسه ليقدم آيات خضوعه للبابا ، ولكن كبير الأساقفة راوغ ورفض أن يغادر إنجلترا ، ثم دخل فى مفاوضات سرية مع البابا المضاد الذى كان الإمبراطور الألمانى هنرى قد عينه على سبيل الحيطة . وبهذا لم يستطع جريجورى أن يؤثر فى الموقف الإنجليزى بأية حال .

وبعد موت وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ ، ثم موت لانفرانك سنة ١٠٨٩ بدأت دلائل الضعف تظهر على التحالف الوطيد بين الملكية والكنيسة فى إنجلترا . فقد استغل خليفة وليم ، وثانى أبنائه ، روفوس Rufus ( ١٠٨٧ - ١١٠٠ ) حقوق التاج الاقطاعية فى فرض الضرائب الباهظة على الكنيسة . فضلا عن أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسى ، كما كان يظهر تعاطفا

غريبا تجاه اليهود ، مما أفقده حب رعاياه . كذلك كان رئيس أساقفة كانتربورى سان آنسلم St.Aneselm العجوز ( وهو راهب نورمانى - إيطالى أيضا كان أعظم علماء اللاهوت فى زمانه ) أكثر تعاطفا تجاه برنامج الإصلاح الجريجورى من معلمه وأستاذه لانفرانك . ونشب نزاع مرير بين آنسلم والملك وتعاطف رجال الكنيسة مع كبير الأساقفة المبجل لشخصه ولكنهم لم يساندوه ، لأنهم كانوا يخشون غضب روفوس من ناحية ، ولأنهم كانوا ضد فكرة إدخال برنامج الإصلاح الجريجورى إلى انجلترا من ناحية أخرى . وتركوا آنسلم فى مواجهة الاختيار البديل الوحيد وهو الذهاب إلى روما لطلب التدخل البابوى . وكان لابد لجريجورى السابع من اقتناص الفرصة لو كان هو القائم على عرش بطرس ، ولكن البابا آنذاك كان شخصا آخر من الرهبان الكلونيين هو أربان الثانى الذى لم يكن يميل إلى الدخول فى منازعات مريرة . فقد كان أربان قد فرغ لتوه من عقد معاهدة مع حاكم صقلية النورمانى مكنته من إحكام سيطرته على الكنيسة فى صقلية ، وكان من دواعى حزن آنسلم وغمه أن مضى البابا فى سبيله لكى يعقد معاهدة مماثلة مع الملك الإنجليزى . وكان هذا ببساطة إعمالا لمبدأ المعاملة بالمثل quid pro quo ، إذ أن روفوس اعترف بأربان الثانى بدلا من البابا المضاد ، كما أعلن أربان موافقته على نظام العلاقات بين الكنيسة والدولة الأنجلو - نورمانية .

وجاء إرتقاء هنرى الأول ( ١١٠٠ - ١١٣٥ ) الأخ الأصغر لروفوس ، والذى كان على شاكلة أبيه فى كل شئ ، لعرش إنجلترا ، وارتقاء باسكال الثانى لعرش البابوية ، ليغير الموقف بشكل جذرى . وما أن حلت سنة ١١٠٣ حتى كان كل من الملك الملك الإنجليزى والبابا منغمسين فى نزاع مرير حول التقليد العلمانى . فقد وقع البابا قرار الحرمان على أحد الدوقات النورمان ، وكان كبيراً لمستشارى هنرى ، وهدد البابا بتوقيع قرار الحرمان على الملك نفسه فى الخطوة التالية . ولم يعد بإمكان أحد ، حتى آنسلم ودعوته إلى الاعتدال ، أن يغير من إتجاه الصراع الممتد . وكلف الملك الأنجلو - نورمانى القوى ، أبرز مؤيديه الكنسيين ، وهو كبير أساقفة يورك ، جيرارد ، بإحياء تقاليد الملكية الأنجلو - سكسونية دفاعا عن الحق الملكى فى تعيين رجال الكنيسة . ومقالات مؤلف يورك المجهول Anonymus of York ، التى كانت نتاجًا لهذا الصراع ، مبعث بهجة وسرور للدراسين المهتمين بالنظرية السياسية فى العصور الوسطى الباكرة ، ولكنها لاتنقل لنا بأى حال شكل ونمط الملكية الأنجلو - نورمانية ، التى جعلت أساس الملكية هو الأداة البيروقراطية القانونية والإدارية بدلا من الأيديولوجية الدينية

التى لم توافق حاجات العصر . وعلى أية حال ، كان هنرى يعتبر أنه حتى تقاليد الملكية الثيوقراطية البالية يمكن أن تكون ذات فائدة فى حال نشوب صراع طويل الأمد ضد البابوية .

ومهما يكن من أمر ، فإن النزاع الإنجليزى حول التقليد العلمانى كان قصير الأمد . فقد انسحب آنسلم إلى منفاه تاركًا الملك والبابا يخوضان الصراع فيما بينهما ، وظل الأساقفة ومقدمو الأديرة الإنجليز على ولائهم للنظام السائد فى العلاقات بين الدولة والكنيسة . وتحول اهتمام باسكال الثانى سنة ١١٩٦ صوب مشروع حملة صليبية ضد القسطنطينية ، وكان يأمل، دون جدوى ، فى أن يؤيد هنرى هذا المشروع . ولذا وافق على اقتراح الملك بالمصالحة على أساس المبدأ الذى سارت عليه الملكية الأنجلو - نورمانية طويلا ، وهو مبدأ التمييز بين الإمكانات الدينية والإمكانات الإقطاعية - السياسية لكبار رجال الكنيسة . وبمقتضى معاهدة لندن سنة ١١٠٧ ، أعلن هنرى خضوعه الرمزى لروما بأن تخلى عن التقليد العلمانى ، لكنه احتفظ لنفسه بسلطة كاملة على الأساقفة ومقدمى الأديرة فى إنجلترا بفضل التبعية الإقطاعية التى فرضها على الكنيسة .

ولم يمر النزاع حول التقليد العلمانى دونما نتائج . إذ أن هنرى تنبه إلى الأخطار الكامنة فى طيات التحالف بين الملكية الإنجليزية والكنيسة ، وهو التحالف الذى كان يتهدده التدخل البابوى ، كما أن هذا النزاع شجع هنرى على تنمية قوته العلمانية الخالصة من خلال مواصلة بناء البيروقراطية الإدارية . وبعد النزاع حول التقليد العلمانى تخلى هنرى عن سياسة آبائه فى استخدام العلماء الديريين فى الجهاز الإدارى ، لأن الرهبان أثبتوا أنهم أكثر تأثرًا بالأفكار الجريجورية وأكثر خضوعا لروما . واستخدم بدلا منهم كتبة من رجال الكنيسة - لأنه لم يكن هناك متعلمون من غير رجال الكنيسة فى إنجلترا آنذاك - الذين يرون مصالح الملك باعتبارهم بيروقراطيين محترفين مخلصين . ومثل أولئك الموظفين الذين جمعوا بين الغلظة والقسوة من جهة ، والمقدرة الفائقة من جهة أخرى ، هم الذين كافأهم الملك بتعيينهم فى الوظائف الأسقفية ذات العائد الكبير . وقد توسع هنرى فى استخدام البدل النقدى Scutage الذى ابتدعه أبوه لكى يقلل من اعتماد الملكية الأنجلو - نورمانية على خدمة الفرسان المجندين من أراضى الكنيسة . وازدادت كفاءة الخزانة الإنجليزية بفضل إقامة جهاز حسابى متحكم عرف باسم وزارة المالية Exchequer ، وهى وزارة اقتبست من القارة الأوربية نظام المحاسبة على أساس تعدادات مختلفة . وكانت وزارة المالية تحفظ السجلات الخاصة على الدخل والنفقات الملكية ،

وهى السجلات التى عرفت باسم Pipe rolls ، ولم يكن هناك نظام شبيه بهذا النظام فى المحاسبات فى مملكة آل كابيه بفرنسا حتى مطلع القرن الثالث عشر . كذلك أمكن تحقيق الفعالية للمحاكم ، كما أحكمت السيطرة على محاكم المقاطعات عن طريق إرسال لجان دورية من القضاة الجوالين العاملين فى بلاط الملك Curia regis لكى يترأسوا محاكم البلاد . وبحلول سنة ١١٣٥ كانت مؤسسات الملكية الإنجليزية تسبق الممالك الأوربية كثيراً ، لدرجة أن الكتاب الملكيين كانوا قادرين على أن ينسبوا إلى الملك هنرى الأول اختصاصات الإمبراطور فى القانون الرومانى « **فهو الذى يشع منه القانون والسلطان ليغمر كافة أرجاء المملكة** » . وكان هذا هو الموقف السائد أيضا فى نورماندى التى انتزعها من أخيه الضعيف روبرت بالغزو.

وحينما كان نبلاء فرنسا وألمانيا فى ذروة ازدهار سلطاتهم الإقليمية ، كان البارونات الإنجليز ، محكومين تماما بالمؤسسات الملكية النامية ، كما أخذت امتيازاتهم الإقطاعية تتبخر إزاء تقدم الجهاز البيروقراطى الملكي . وكانت الإمكانية الوحيدة لإعادة نمو السلطة الملكية تتوقف على حدوث أزمة حول وراثة العرش مما يتيح للبارونات الإنجليز أن يلعبوا بمرشح ضد آخر ، وكان من أسباب خيبة أمل هنرى أن صار هذا الاحتمال وارداً بالفعل بعد موت ابنه الوحيد . وكانت ابنته ماتيلدا هى وريثه الشرعى الوحيد الباقى ، وكانت قد تزوجت مرة من الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس ، وكانت آنذاك زوجة لكونت أنجو Anjou . ولم يكن ثمة مبدأ فى القانون الإنجليزى يحرم المرأة من تولى العرش . ولكن ماتيلدا كانت حمقاء متعالية بحيث جلبت على نفسها عداء الجميع ، كما أن النبلاء ، على أية حال ، كانوا قد عقدوا العزم على انتهاز هذه الفرصة النادرة لكى يوقفوا المد المتزايد للسلطة الملكية . وبعد موت هنرى الأول أعاد كثيرون من النبلاء الطموحين إحياء المبدأ الإنتخابى الجرمانى ونفضوا عنه غبار الأهمال ، ليقفوا بجانب ابن أخت هنرى ( أحد أبناء بنت وليم الفاتح ) ، وهو المغامر المستهتر ستيفن بلوا Stepen of Blois الذى ظهر فى إنجلترا مطالبا بالعرش . وقد عرفت السنوات العشرون التى دارت أثناءها رحى حرب أهلية مدمرة باسم « عصر الفوضى anarchy » . بيد أن هذه الفترة لم تكن كذلك بكل تأكيد ، لأن الأداة المركزية السياسية ، والقانونية ، والمالية للحكومة الملكية لم تختف بأى حال ، على الرغم من الضعف الذى اعتراها بسبب اختفاء قوة الدفع . ومع غروب شمس أربعينيات القرن الثانى عشر ، كان صغار النبلاء فى انجلترا ، ممن

عرفوا باسم طبقة الفرسان ، قد سئموا استمرار الصراع الذى لم يكن يخدم سوى مصالح عائلات كبار البارونات ، بل إن كثيرين من أولئك السادة الإقطاعيين اللامعين باتوا يتوقون إلى السلام والأمن الذى تحققه العدالة الملكية . وتم التوصل إلى اتفاق وسط تولى العرش بمقتضاه هنرى الثانى ، ابن ماتيلدا ، أول ملوك أسرة أنجو ، ومات ستيفن بلوا سنة ١١٥٤ .

وكان على هنرى والإداريين العاملين أن يكدوا ويكدحوا لاستعادة الأراضى التى خسروها إبان العشرين سنة السابقة ، ولكن الملك أفاد من الدروس المكتسبة أثناء الحرب الأهلية نفسها. فى عمله من أجل إعادة بناء المؤسسات الملكية التى كانت قائمة فى عهد جده ، ثم لتطوير سلطة البيروقراطية وبعد أكثر من ستين سنة من تركيز السلطة فى انجلترا كانت طبقة ملاك الأراضى قد ذاقت طعم الفوضى الإقطاعية السائدة فى أوربا . ولكنهم فى سنة ١١٤٥ كانوا قد اقتنعوا تماما بالفوائد والمكاسب التى حققها وليم الفاتح وأبناؤه لإنجلترا ، وكانوا مستعدين للامتثال لعملية تطوير الدولة الأنجلو - نورمانية .

# الفصل الرابع عشر
# الحملة الصليبية الأولى ومابعدها

## ١ - أصول المثال الصليبى :

فى المفهوم الشعبى ترتبط حضارة العصور الوسطى ارتباطا فعليا بالحروب الصليبية . فالحادث الوحيد الذى يعرفه الخريج العادى من الجامعات الأمريكية من بين حوادث القرن الحادى عشر هو بالضرورة الحملة الصليبية الأولى التى حدثت سنة ١٠٩٥ ، والتى لابد أن يتصورها فى صورة فرسان عمالقة يرتدون بزات عسكرية براقة ، ويمتطون جياداً فارهة ، يتبعون شارة الصليب ليحرزوا النصر على أبناء القبائل العربية ذوى البشرة الداكنة والعزائم الخائرة . وليس هناك جانب واحد صحيح تماما فى هذه الصورة . ذلك أن متوسط قامة الفارس فى أواخر القرن الحادى عشر لم تكن تتعدى خمسة أقدام وثلاث بوصات ، بسبب سوء التغذية فى الصغر ، وبسبب سوء التغذية والعلاج بشكل عام . وكان فرسان الحملة الصليبية الأولى ، فى غالبيتهم ، يرتدون قمصان الزرد وليس البزات المصفحة التى لم ينتشر استخدامها سوى فى الشطر الأخير من القرن الثانى عشر . أما خيولهم ، فكانت هزيلة جداً بالمقاييس الحديثة ، بل وحتى بمقاييس القرن الثالث عشر ؛ إذ أن التهجين المتزايد بسلالات الخيول العربية الأرقى هو الذى حسّن نسل الخيول الأوربية فى القرني التاليين . لقد تبع فرسان الحملة الأولى شارة الصليب حقا ؛ ولكن ذلك لم يكن لأغراض دينية بحتة . وأخيراً ، فإن العرب كانوا يماثلون فرسان الغرب شجاعة ومهارة فى القتال ، وكان الضعف الداخلى الذى اعترى العالم الإسلامى، وليس عدم الكفاية الشخصية للمحاربين العرب ، سبب نجاح الحملة الصليبية الأولى .

ووجه الخطأ فى المفهوم التاريخى الشعبى عن الحملة الصليبية الأولى لايتمثل فى هذه الأغلاط التفصيلية ، بقدر مايتمثل فى الميل إلى المبالغة فى أهمية المثال الصليبى فى الحياة فى العصور الوسطى . بل إن الكثيرين من المؤرخين المحترفين ممن تخصصوا فى العصور الوسطى ، ولاسيما فى الولايات المتحدة ، يميلون إلى النظر للحروب الصليبية باعتبارها العامل الأساسى فى التغير التاريخى منذ القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر ، كما أنهم شغوفون بالكتابة بحماسة تنقصها الدقة تجعل القارئ غير الفطن يخلط بين الحروب الصليبية وحضارة العصور الوسطى ذاتها . ومثل هذه الآراء ليست سوى لغو فارغ . فالحرب الصليبية فصل هام فى تطور العصور الوسطى ، ولكن السبب فى ذلك يرجع أساسا إلى كونها

تعبيراً عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك . وكان لها بالفعل تأثير بسيط على مجرى التطور الأوربى ، ولكن هذا التأثير لم يكن كافيا لتغيير اتجاه تطور الحكومة والاقتصاد والثقافة على أية حال . فالحروب الصليبية فى جوهرها توضيح درامى له مغزاه الهام للجوانب الرئيسية فى حضارة العصور الوسطى ؛ إذ أنها عامل سببى محدود للغاية فى التغير التاريخى الذى حدث فى تلك الفترة . وعامة ، يمكن القول بأن الحروب الصليبية تكشف عن الناس فى العصور الوسطى فى أفضل أحوالهم وأسوئها فى آن واحد ؛ فهذه الحروب مسرح كبير تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادى ؛ وهذا فقط هو السبب الذى من أجله تستحق الحروب الصليبية أن ندرسها .

لقد قام مؤرخ العصور الوسطى الألمانى الكبير كارل اردمان Carl Erdmann بتحليل ذكى لأصول المثال الصليبى فى ثلاثينيات القرن العشرين ، وقد لقى كتابه المثير للجدل - ربما لأنه يضع الحروب الصليبية داخل المنظور العام لثقافة العصور الوسطى - تجاهلا كبيراً من المهتمين بدراسة الحروب الصليبية فى الجامعات الأمريكية . ومن الضرورى أن نبحث عن أصول فكرة الحروب الصليبية فى طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، وأن نتأمل كيف خرجت الفكرة اللاتينية عن الحرب المقدسة من هذه الخلفية . فحين فتح المسلمون شبه جزيرة أيبيريا فى القرن الثامن ، لاذت مجموعة صغيرة من الفرسان المسيحيين وأتباعهم بالجبال الشمالية ، ومن هذه الجبال بدأوا حرب الاسترداد reconquista فى القرن العاشر . وفى القرن الحادى عشر أحرز أولئك المسيحيون الأسبان أولى انتصاراتهم بفضل التشرذم السياسى الذى عانى منه المسلمون الأسبان ، وما أن أهلت سنة ١١٠٠ حتى كانوا يسيطرون على مساحة تتراوح بين ربع وخمس المساحة الكلية للبلاد . وقد زحف مد حركة الاسترداد ببطء عنيد صوب الجنوب ، ومع أن طرد المسلمين نهائيا لم يتم سوى فى سنة ١٤٩٢ م . فإن الشطر الأكبر من شبه الجزيرة كان قد خضع لحكم للملوك المسيحيين منذ منتصف القرن الثالث عشر . لقد كانت حركة الاسترداد هى النغمة الدالة فى تاريخ أسبانيا المسيحية . وفى رأى بعض المؤرخين أنها كانت عامل الحسم فى تكوين الشخصية الأسبانية المتميزة . إذ أن المجتمع الأيبيرى ككل قد نمت أصوله فى ساحة حرب طاحنة ضد الإسلام على مدى خمسة قرون من الزمان ، كما أن بنية المؤسسات الأسبانية قد نظمت على أساس الالتفاف حول قائد الحرب وضرورات الحرب الهجومية . وربما يكون الأسبان المسيحيون قد قلدوا ، وربما بطريقة غير واعية ، مبدأ الجهاد الإسلامى بعقيدته القائلة إن أفضل نهاية للإنسان أن يموت مجاهداً فى سبيل الله . وقد صار التعصب الدينى والبسالة الحربية هى الخصال التى تلقى ترحيب المجتمع الأسبانى وتقديره أكثر

من غيرها ، وقد قيل إن هذا هو المفتاح الذى يحل أحاجى التاريخ الأسبانى وألغازه . إذ أن الطبقة المسيحية الحاكمة لم تتعلم شيئا على الإطلاق سوى القتال ، وبينما أدت الطاقة العداونية والمهارة العسكرية إلى قيام الإمبراطوريات الأيبيرية الكبرى فيما وراء البحار ، ظلت أسبانيا تفتقر إلى الخبرة السياسية والاقتصادية ، وإلى مؤسسات الفن والسلام ، مما حرمها من أن تفيد من هذه الانتصارات الأولية على المدى الطويل .

وأخذت البابوية الجريجورية تراقب الموقف فى حرب الاسترداد عن كثب بواسطة القصاد الرسوليين . ولعدة أسباب ، فكرية واستراتيجية ، وجدت أن هذه الحركة جديرة بالتقليد على المستوى العام . فقد كانت صلاحية الحرب المقدسة وإراقة الدماء فى سبيل الرب محل أخذ ورد. ذلك أن المسيحية زمن الحواريين أظهرت اتجاهات سلمية قوية ، ولكن سان أوغسطين برر استخدام القوة لصالح الكنيسة . وقد رأينا كيف كانت نظرة هيلدبراند تعبيرا قويا عن هذه الاتجاهات الأوغسطينية الجديدة . وقد أكد اردمان على أن النزعة العسكرية القوية لمسيحية القرن الحادى عشر ، والتى تجلت واضحة فى موقف زعماء البابوية الإصلاحية ، جعلت من الحرب ضد الإسلام اقتراحا جذابا . هذه هى العوامل الفكرية التى ألهمت جريجورى السابع أن يقترح شن حملة ضد الشرق ، تقودها البابوية ضد المسلمين . وعلى أية حال ، كانت هناك عوامل أخرى كامنة . فإن مثل هذه الحملة ستكون تعبيراً عن سمو زعامة البابا الأدبية على العالم الغربى ( وكان هذا واحداً من مذاهب جريجورى الرئيسية ) ، كما أنها سوف تشد شعوب الشمال إلى علاقات أكثر توطداً مع البابوية فى روما . وأخيراً فإن الغزو اللاتينى للشرق يمكن أن يكون خطوة كبيرة على طريق تأكيد الهيمنة البابوية فى الأراضى البيزنطية . فقد كان البلاط البابوى مهتما باستمرار الشقاق الذى وقع سنة ١٠٥٤ ، وكان يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تكون أداة فعالة فى تأكيد مازعمته البابوية طويلا من سموها على الكنيسة البيزنطية (١).

---

١ - الواقع أن هناك جدلا شديدا بين المؤرخين حول إمكانية أن يكون جريجورى السابع هو الذى وضع الأصول الأولى للحروب الصليبية ، حقيقة أنه كان قد اقترح تكوين حملة تحت زعامة البابوية تكون وجهتها القسطنطينية التى واجهت الخطر الإسلامى بعد معركة مانزكرت والهزيمة الساحقة للجيوش البيزنطية على أيدى الأتراك السلاجقة ، وحقيقة أيضا أن جريجورى السابع قد طلب من هنرى الرابع ، قبل اندلاع الصراع بينهما أن يرعى البابوية فى غيبته فى الشرق وقد رأى نفسه فى سرحة من سرحات الخيال قائداً لجيش =

كان الموقف في الشرق الأوسط في سبعينيات القرن الحادي عشر يمثل فرصة ممتازة لهذا التدخل اللاتيني . إذ كانت الدولة البيزنطية قد خارت قواها من جراء نمو السيادة الإقطاعية ، وبرهنت على عجزها عن الصمود أمام جيوش الأتراك السلاجقة المسلمين ، الذين كانوا آخر موجات الغزاة الآسيويين الذين توغلوا في عالم البحر المتوسط ذي المعاناة الطويلة . إذ كان الأتراك قد استعادوا أنطاكية من المسيحيين كما ألحقوا هزيمة ساحقة بالبيزنطيين في معركة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وكانوا آنذاك قد توغلوا في آسيا الصغرى وخشي الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus الذي كان يتميز بذكاء خارق وقدر من التردد ، من الخطر الذي بات يتهدد القسطنطينية نفسها ، ويمكن قياس مدى الخوف والوجل الذي اعترى الإمبراطور البيزنطي من خلال الحقيقة القائلة بأنه لجأ إلى البابا ، عدوه التقليدي ، يطلب منه المساعدة العسكرية . ولو كان جريجوري قد استطاع أن يقهر هنري الرابع ، فلاشك في أنه كان سيحاول أن يجعل من استغاثة اليكسيوس ميزة عاجلة تفيد منها البابوية حين تجرد جيشًا هدفه خدمة القضية اللاتينية وليس لخدمة البيزنطيين . ولكن استمرار الصراع حول النزاع العلماني حال دون تنظيم أية حملة صليبية أثناء بابوية جريجوري السابع . وقد ترك هذا الأمر لكي يقوم به إربان الثاني ، الذي كان أكثر اعتدالا من جريجوري السابع ، ولكنه لم يكن أقل منه طموحًا .

كان إربان يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق أربعة أهداف فضلا عن هدفها الواضح الظاهر ، أي استعادة الأرض المقدسة من المسلمين . أول هذه الأهداف هو أن هذه الحملة ستؤدي إلى إعادة توحيد العالم المسيحي بعد المنازعات المريرة التي سببت انقسامه حول الإصلاح

---

= مسيحي يدخل القسطنطينية ليخلصها من الخطر الإسلامي ويوحدها تحت سيادة البابوية ، ولكن الحملة الصليبية كما جرت أيام أربان الثاني لم تكن تخطر بباله . ولم يكن تغيير الهدف الجغرافي من القسطنطينية إلى بيت المقدس هو وجه الاختلاف الوحيد ، وإنما شكل الحملة وهدفها النهائي أيضا مما جعل بعض المؤرخين يرون أن أربان الثاني هو الذي بدأ الحروب الصليبية وليس جريجوري السابع . ونحن نميل إلى أن نأخذ برأي هذا الفريق خاصة وأن مصطلح الحملة الصليبية ومثالها لم يعرف في الغرب سوى بعد أن اكتملت أحداث الحملة الأولى وحققت انجازاتها المذهلة . كذلك فإن المشتركين في الحملات الصليبية لم يطلق عليهم لقب «صليبي» سوى في أخريات القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣ ، وكان لقب المشارك في أية حملة صليبية حتى ذلك الحين هو «الحاج» (المترجم)

الجريجورى ، وثانيهما أنها ستزيد من هيبة البابوية فى وقت كان فيه أنصار الإمبراطور الألمانى موجودين حتى فى روما نفسها . وثالث هذه الأهداف أن هذه الحملة ستعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية . وكان إربان قد حاول أن يُخْضِع الكنيسة البيزنطية فى جنوب إيطاليا لسيطرة البابوية ، إلا أن خطته تحطمت على صخرة نزاع لاهوتى حول العلاقة بين الإله والإبن والروح القدس ( وهو النزاع الذى عرف باسم النزاع الفيليوكى fil-ioque controvresy ) كذلك كان يمكن للحملة الصليبية أن تدخل فى لب المسألة بأن تجعل الإمبراطور البيزنطى يعتمد على ، أو حتى يخضع ، لجيش لاتينى . أما القيمة الرابعة التى رآها إربان الثانى فى الحملة الصليبية ، فقد نبعث من كونه فرنسيا . إذ كان يعرف تماما أن الألمان لن ينضموا إلى مشروعه ، وأن الحاكم الأنجلو - نورمانى القوى لن يميل إلى المشاركة . وكان لابد أن تكون الجيوش الإقطاعية الفرنسية بمثابة العمود الفقرى للجيش الصليبى ، بغض النظر عن قوات النورمان الإيطاليين . وأدرك إربان أن الحملة صوب الشرق ستكون مواتية لحاجات الكثيرين من السادة الإقطاعيين والفرسان الفرنسيين ، كما أنها فى الوقت سوف تسخر طاقاتهم فى خدمة الكنيسة . فما أن غربت شمس القرن الحادى عشر حتى كانت حدود الدوقيات والكونتيات الفرنسية قد صارت حدودا ثابتة ، ونشأ نوع من التوازن البدائى فيما بينها . ومن ثم لم تكن هناك فرصة لدى كبار الأمراء الإقطاعيين الفرنسيين للغزو داخل أراض الوطن ، وهو الأمر الذى أقلق الكثيرين منهم وجعلهم يتحرقون شوقا للمغامرة فى الخارج . وفضلا عن ذلك ، فإن ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعنى ازدياد عدد الفرسان الذين لايملكون أرضا فى فرنسا والمستعدين لأن يدلوا بدلوهم فى حملة تتيح لهم الحصول على الضياع والممتلكات فى الشرق الأوسط ، كذلك كان إبان الثانى يعلم تماما العلم أن موجة التدين السائد بين العلمانيين قد أثرت فى النبلاء الفرنسيين ، وكان إخلاصهم الظاهرى ، على الأقل ، للدين المسيحى مؤشراً على أن فكرة الحرب المقدسة سوف تروق لهم .

وقد خطط البابا لإعلان الحملة الصليبية بعناية شديدة . فقد دعا إلى عقد مجمع كنسى فى كليرمون بوسط فرنسا سنة ١٠٩٥ ، وحض الأساقفة ومقدمى الأديرة الفرنسيين على أن يحضروا معهم السادة الإقطاعيين البارزين فى مناطقهم . وقبل أن يصل إلى كليرمون كان يعلم بالفعل أن هناك واحداً على الأقل من كبار الأمراء الفرنسيين ، هو ريمون السانجيلى Raymond of St. Giles كونت تولوز ، سوف يأخذ شارة الصليب . وبما أن إربان بدأ دعوته العاطفية إلى « جنس الفرنجة » طالبا منهم الانضمام إلى الحملة الصليبية فإنه كان يتوقع

منهم استجابة طيبة حقا . وكانت خطبته مثالا رائعا على الخطب البليغة المؤثرة فى التاريخ الأوربى . فقد لمس أوتار كل دافع كان يمكن أن يكون موجوداً لدى أى من الفرسان الفرنسيين ؛ سواء كان هذا الدافع دينيا أو غير ذلك ، يدفعه إلى أخذ شارة الصليب . وأسهب إربان فى ذكر مايعانيه المسيحيون فى الأرض المقدسة على أيدى الأتراك السلاجقة ، وذكر الخطر الجسيم المحدق ببزنطة من جراء الزحف الإسلامى . وذكّر الفرسان الفرنسيين بما اشتهروا به من شجاعة وتقوى ؛ داعيًا إياهم إلى إنقاذ الضريح المقدس من أيدى المسلمين . كما طرح أمام مستمعيه إمكانية إقامة ممالك فى فلسطين « **الأرض التى تفيض باللبن والعسل** » . ووعد ببسط الحماية البابوية على أملاك وعائلة كل من يشارك فى الحملة الصليبية . وأخيراً ، فإنه باعتباره من يحفظ مفاتيح ملكوت السماء وعد من يشاركون فى الحملة بغفران خطاياهم .

هذا الحافز الأخير يقترب من التأكيد القرآنى بأن الجنة نصيب المقاتل الذى يستشهد فى سبيل الله ، وقد أسئ استخدام الغفران الصليبى فى القرون التالية بدرجة كبيرة بحيث كانت صيغته النهائية عرضه للهجوم الذى شنه مارتن لوثر فى القرن السادس عشر ، كما تعرضت أيضا للهجوم من جانب مجمع ترنت Trent . وفى القرن الثانى عشر طورت الكنيسة نظام الغفران لمن ينيب عنه شخصا فى الحملة الصليبية أى عن طريق إعانة الصليبيين بالمساعدة المالية . وبحلول القرن الرابع عشر كانت البابوية تسمح ببيع صكوك الغفران حتى بدون هذه الذريعة الصليبية ، على النحو الذى أجاد شوسر Chaucer تصويره فى « حكايات كانتربورى Cantirbury Tales[٢] . ولكن فكرة إربان الأصلية عن الغفران الصليبى لم يكن بها شئ

٢ - جيوفرى شوسر Geoffrey Chaucer شاعر إنجليزى كان أبنا لأحد تجار الخمور فى لندن ثم خدم كوصيف فى بلاط إدوارد الثالث ، وتبعه فى حملاته ضد فرنسا . وقد أسر سنة١٢٥٩ فدفع الملك فديته وحرره. وبعد عودته إلى انجلترا أستأنف الخدمة فى بلاط إدوارد فى مهام متعددة من بينها المهام الدبلوماسية، وفى عهد ريتشارد الثانى استمر فى خدمة البلاط الملكى خلال المناصب الصغيرة التى تولاها . وأهم مؤلفاته « حكايات كانتربورى » الذى كتبه مابين سنة ١٣٨٦ وسنة ١٣٩٠ ، وهو المؤلف الذى جعل له هذه الشهرة المدوية . والحكايات التى يرويها عن الحياة الإنجليزية فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، التى تدور حول رحلة إلى مزار سان توماس بيكيت فى كانتربورى ، حيث تتوافد مختلف أنماط الطبقات الاجتماعية لزيارة القديس وحيث يتبادل الجميع القصص والروايات - هذه الحكايات تعتبر تمثيلا حقيقيا للواقع التاريخى آنذاك . لأن « حكايات كانتربورى » فى مجملها تعبير عن الروح العلمانية التى سادت فى ذلك الحين ، كما أنها تعتبر نقداً يتناول تصرفات الأكليروس ويعبر عن نظرة العلمانيين إليهم . انظر :

H.S.Benett , Chaucer and 15th Centuty England (1947) .

(المترجم)

من سوء المقصد . فقد كان الغفران فى رأية شكلا إعفائيا من التكفير عن الذنوب ، وكان يعتمد فى صلاحيته على التوبة الحقة . وعلى أية حال ، فإنه ترك هذه الجوانب اللاهوتية عن الغفران الصليبى غامضة إلى حد ما ، ومن المحتمل أن كثيرين من الفرسان الفرنسيين انساقوا إلى الاعتقاد بأن أخذ شارة الصليب فى حد ذاته يضمن لهم المكافأة السماوية . ومع أن الدوافع التى تشكلها المصالح الذاتية لعبت دوراً هامًا للغاية فى بدء الحركة الصليبية - والواقع أن إربان قد شجع هذا الاتجاه فى خطبته - فالحقيقة أن كثيرين قد أخذوا شارة الصليب لأسباب دينية . إذ أخبرنا شهود العيان أنه عندما انتهى إربان من خطبته فى مجمع كليرمون ردد المجتمعون صيحة هائلة تقول Deus vult « الرب يريدها » وتقدم العديد من السادة الإقطاعيين والفرسان لأخذ شارة الصليب . ومُزقت العباءات الحمراء إلى شرائط خيطت على شكل صلبان فوق صديريات الفرسان .

هذا المشهد العاطفى تكرر فى شتى أنحاء فرنسا وجنوب إيطاليا استجابة لرسالة إربان التى تولى نشرها المندوبون البابويون ، أو القصاد الرسوليون . والواقع أنه يبدو أن إربان لم يكن يتوقع لخطبته فى كليرمون أن تؤتى مثل هذه النتيجة . ذلك أنه لم يكن على استعداد لأن يقوم بتنظيم سريع لجماعات الفرسان المختلفة التى أخذت تصخب آنذاك بالاستعداد للانطلاق صوب الأرض المقدسة . ولم تبدأ الحملة الصليبية الأولى سوى فى العام التالى . ومن المؤكد أن أحداً فى البلاط البابوى لم يكن يتوقع هذا التأثير المدوى للدعوة التى وجهها إربان فى كليرمون . وقبل أن يتمكن الفرسان الفرنسيون من الانطلاق فى حملتهم ، انطلقت «حملة شعبية » تألفت من الغوغاء الجامحين فى أحياء مدن الراين القذرة بصورة عشوائية صوب الأرض المقدسة . وتحت قيادة المبشرين الشعبيين من طراز « بطرس الناسك » ارتكبوا مذابح شنعاء ضد جماهير اليهود الأغنياء فى مدنهم ، ثم تحركوا عبر ألمانيا والبلقان مثل أسراب الجراد حتى وصلوا إلى بوابات القسطنطينية ، وسرعان مانقلهم الإمبراطور البيزنطى الخائف عبر الدردنيل حيث قضى عليهم الأتراك السلاجقة . كان رد الفعل الشعبى هذا واحداً من أهم جوانب الحملة الصليبية الأولى ، لأنه كشف بجلاء عن النظرة الألفية المتعلقة بسفر الرؤيا والتى كانت الطبقات الوسطى والدنيا فى مدن أوربا ترى الأمور بها . كانت البابوية قد واجهت المشاعر الألفية فعلا فى ميلانو : حيث عبر التمرد الاجتماعى عن نفسه من خلال التدين العاطفى . لقد كانت دعوة إربان تعنى شيئا لمن شاركوا فى الحملة الصليبية الشعبية لم

يكن البابا نفسه يفهمه . فقد كانوا يتوقون إلى التحرر من ربقة الإحباط والفقر اللذين خيما على حياتهم التعسة ، واكتشفوا في عبارات البابا نغمات أخروية خلاصية كانت في الواقع أبعد ماتكون عن نظرة البابا الدنيوية . إن الحملة الشعبية لمحة غير عادية تسلط الضوء على الأشكال المغرقة في العاطفية والثورية التي أتخذتها حركة التدين الجديدة في مناطق المدن التي انبعثت منها حركات الهرطقة الشعبية في أخريات القرن الثاني عشر ، كما تجلى من خلالها عجز البابوية عن مواجهة هذا التدين الجماهيري . بل إن المؤرخ الإنجليزي اللامع نورمان كوهن Norman Cohn قد توصل إلى مغزى أكثر شمولا في « أثر الألف سنة » الذي ألهم الحملة الشعبية : فهو يعتبر أنها المرة الأولى في التاريخ الأوربي التي يتجلى فيها هذا التعصب الشعبي للطبقات الدنيا ، وهو التعصب الذي يرى أنه عبر عن نفسه تعبيراً ناضجًا في الفاشية الحديثة . هذا التفسير له بعض المبررات ، ولكننا قد نرى أيضا في أتباع بطرس الناسك النماذج الأولى لدعاة إعادة التعميد Anabaptists ، والداعين إلى إلغاء الفوارق الطبقية Levellers وغيرهم من الديموقراطيين الدينيين الذين ظهروا في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

على أية حال ، فإن البابوية أشاحت بوجهها عن الزلزال الاجتماعي الذي أحدثته الحملة الشعبية دونما مبالاة ، وعكفت على تنظيم الأمراء والفرسان الإقطاعيين الفرنسيين في جيش صليبي . وتكشف الدوافع المختلفة لدى زعماء الحملة الصليبية الأولى عن الاتجاه العقلاني المتزايد بين النبلاء الأوربيين ؛ وهي العقلانية التي تميز مواقفهم عن تلك النظرة الطائشة المتهورة التي كانت تحكم أبناء هذه الطبقة في القرن العاشر . فقد كان التدين الحقيقي دافعًا لغالبيتهم ، ولكنهم كانوا يتحركون صوب الأرض المقدسة لأسباب ودوافع أخرى أيضا ، فالبعض مثل ريمون كونت تولوز ، وجودفرى دوق اللورين ، كان يؤرقهم عدم وجود فرصة لإظهار البسالة والمغامرة في الوطن . والبعض الآخر مثل روبير كورتوز Robert Curthose دوق نورماندي والأبن الأكبر لوليم الفاتح ، كانوا يريدون استعادة الهيبة التي فقدوها في وطنهم بإحرازهم نصر كبير في الشرق . وقد انضم ستيفن بلوا إلى الحملة لأن زوجته ، الإبنة الطموح لوليم الفاتح ، قد حملته على الإنضمام . أما النورمان في إيطاليا فكانوا مدفوعين بكراهيتهم المتأصلة للإمبراطورية البيزنطية ، وبرغبة أكيدة في أن ينتزعوا لأنفسهم بعض الممتلكات في الشرق على حساب الإمبراطور . ذلك أنهم كانوا يرون في الحملة الصليبية

تجريدة ضد الإمبراطورية البيزنطية أكثر من كونها حربًا ضد الإسلام . فقد كان بوهمند ، أبرز زعمائهم ، قد قاد حملة فاشلة لغزو الإمبراطورية ، ثم جرب مغامرة فاشلة أخرى بتشجيع من البابوية سنة ١١٠٦ . أما المدن الإيطالية التجارية فى الشمال ، والبندقية على نحو خاص ، فكانت متحمسة للحملة الصليبية ، ولكن لأسباب غير دينية . فقد كانت هذه المدن التجارية ترى أن الحملة الصليبية خطوة أخرى على طريق توغلها فى عالم البحر المتوسط لمنافسة التجار المسلمين على نحو أكثر فعالية . وقد نال البنادقة مكافأتهم على قيامهم بنقل الإمدادت للصليبيين بمجرد وصولهم إلى سوريا وفلسطين .

وعلى الرغم من أن أحداً من الملوك الأوربيين لم ينضم إلى الحملة الصليبية الأولى ؛ فقد كان زعماء هذه الحملة فى غالبيتهم أمراء يتميزون بالقدرة والبسالة . وتمثلت نقطة ضعفهم الكبرى فى عدم اتفاقهم على قائد واحد ، وكان السبب فى ذلك أنهم كانوا جميعا أبناء شريحة اجتماعية واحدة ، وأخيراً ، عين البابا أسقفًا فرنسيًا ليكون قائداً إسميا للحملة ، ولكن الحملة الصليبية تميزت من بدايتها إلى نهايتها بالشجار بين الأمراء وبين أفصالهم . وهناك عيب آخر يمكن اغتفاره تمثل فى جهل زعماء الحملة الفادح بالمعالم الجغرافية والمناخ ، والنظم السياسية فى البلاد الإسلامية ، ولكن الصليبيين تأقلموا مع بيئتهم الجديدة بسرعة لافتة للنظر . وقد زودهم اليكسيوس كومنينوس ببعض المعلومات القيمة ، كما أمدهم البنادقة بالمزيد من هذه المعلومات .

وأخيراً ، انطلق الصليبيون فى سنة ١٠٩٦ على الطريق البرى عبر ألمانيا والبلقان إلى بيزنطة ، التى كانت نقطة الوثوب على العالم الإسلامى . كانت الحملة الشعبية قد عبرت هذا الطريق من قبل ، وتصرف الفرنج - وهو الاسم الذى أطلقه العرب والبيزنطيون على الصليبيين جميعا - بطريقة مماثلة . إذ أنهم ارتكبوا المذابح ضد اليهود فى مدن الراين ، كما أساءوا إلى شعوب البلقان وسرقوها أثناء عبورهم لهذه المناطق . وقد رحب بهم اليكسيوس كومنينوس ترحيبًا حذراً وتوجس منهم شراً . لقد سره أن يتلقى مدداً لاتينيا ، ولكن المؤكد أن هذا لم يكن هو نوع المساعدة التى كان يتصورها ، كما كان يخشى أن يتطلع الصليبيون إلى انتزاع ماتبقى من الإمبراطورية البيزنطية ، قدر اهتمامهم بمهاجمة المسلمين ، لاسيما حينما رأى بوهيموند ، عدوه القديم ، بين الصليبيين . ونقلهم عبر المضيق إلى آسيا الصغرى بأقصى سرعة ممكنة . ولم يكن رد فعل الفرنج تجاه القسطنطينية ليختلف كثيراً عن موقف لويدبراند ،

قبل خمسين سنة من هذا التاريخ ، فى كريمونا Cremona . فحين ألفى زعماء الحملة الصليبية أنفسهم وجها لوجه مع ثروة بيزنطة وقوتها العسكرية أدركوا مدى ضآلة فرصتهم فى الاستيلاء على المدينة الذهبية القائمة على ضفاف البسفور . وكان عليهم أن يقنعوا بتكوين إمارات إقطاعية فى بلاد الشام وفلسطين ، وبذلك ينالون من الإمبراطور حين يقيمون إمارات لاتينية فوق الأرض التى تنادى القسطنطينية بملكيتها ، وحين يبنون معقلا للكنيسة الرومانية فى شرق المتوسط .

فى مواجهة عظمة بيزنطة وحضارتها انتاب الفرنج شعور بالنقص كبير فلجأوا إلى تعويض بداوتهم وغلظتهم بالقول بإن البيزنطيين مخنثون فاسدون . والواقع أن أعضاء البلاط البيزنطى المهذبين كانوا على حق فى النظر إلى الفرنج باعتبارهم أجلافا غير متحضرين . كان هناك قدر من الصحة فى النقد الذى وجهه كل طرف للطرف الآخر ، ولكن الفرنج كانوا يمثلون حضارة فتية تتدفق حيوية ، على حين كانت بيزنطة عاقراً تعانى من الذبول والتدهور ، كما كان على بيزنطة أن تعتمد على أعدائها الغربيين للخلاص من عدوها الجاثم على أنفاسها . هذه المواجهة الأخاذة بين البلاط الإمبراطورى البيزنطى ، قلعة الحذلقة ، وبين الإقطاعيين الفرنسين الأجلاف الواعدين كانت ذات مغزى كبير ، لأنها كانت رمزاً للمواجهة بين يوم يميل إلى الغروب ويوم يبزغ نور فجره .

لقد حالت سذاجة زعماء الحملة الأولى بينهم وبين إدراك مدى عظمة المهمة التى أخذوا على عاتقهم القيام بها . فلم تكن قوة الجيش الصليبى كلها تزيد عن خمسة آلاف فارس ، وربما أقل ، ولم يكن العالم الإسلامى فى حالة اتحاده ليجد صعوبة تذكر فى القضاء على الغزاة . ولكن توغل الأتراك السلاجقة فى شرق المتوسط قلب النظام السياسى السائد رأسا على عقب، وتسبب فى منازعات داخلية مريرة بين الأمراء العرب . وقد أبدى الصليبيون شجاعة لاتبارى ، وأظهروا مهارة عسكرية فائقة ، وفى لحظة حرجة ، وحين كانت قلوبهم تخفق من الخوف والوجل، دفعهم اكتشاف ما أشيع أنه بعض الذخائر المقدسة الهامة إلى مواصلة الغزو [٣].

---

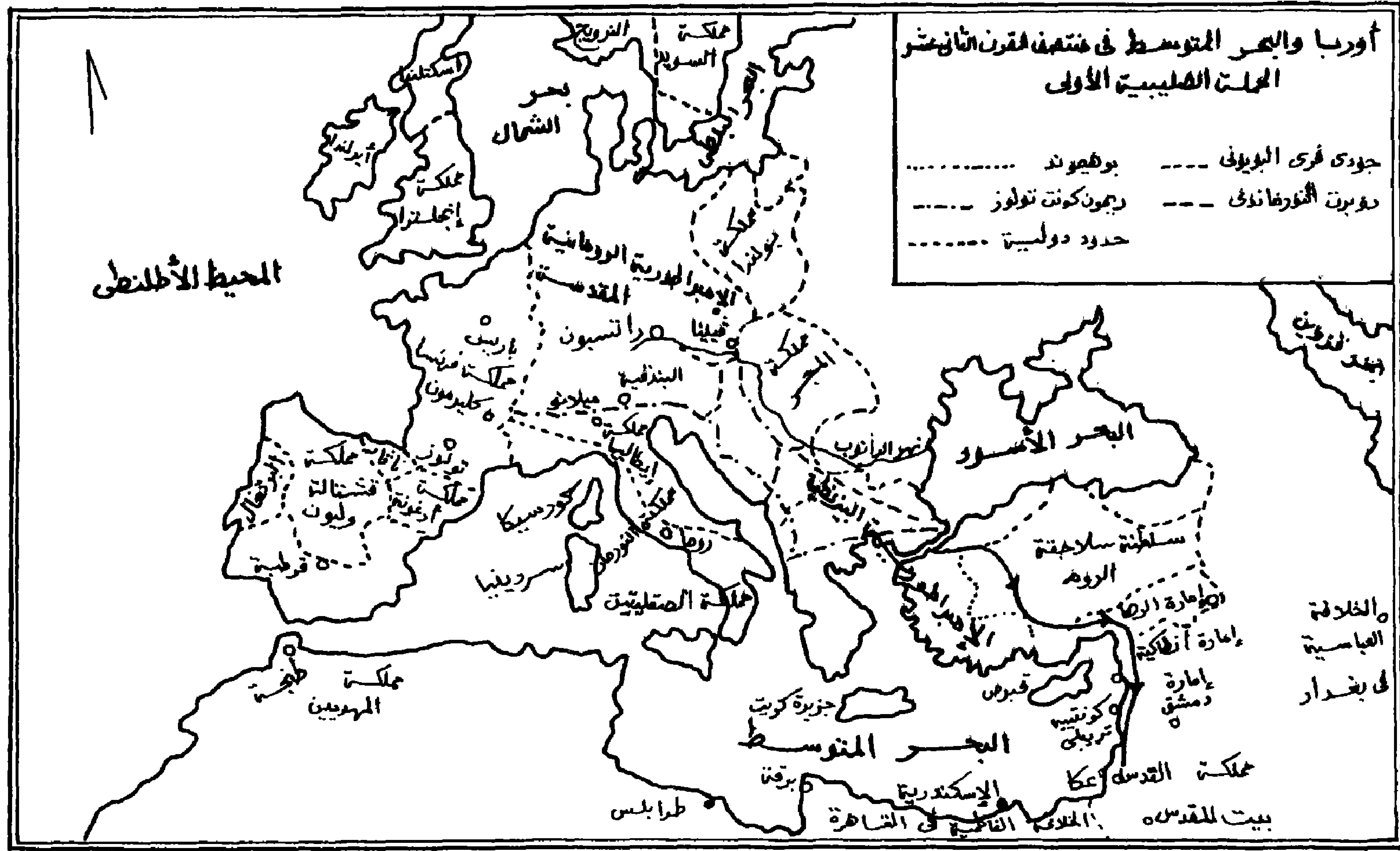
٣ - هذه إشارة إلى الحوادث التى جرت فى أنطاكية بعد احتلال الصليبيين لها ثم وصول قوات الجيش الإسلامى الكبير لتحاصرهم بقيادة كربوقا داخل المدينة حتى ساءت أحوالهم ، وجاعوا بالدرجة التى جعلتهم يأكلون حشائش الأرض ونباتاتها البرية ، ويذبحون دوابهم ليأكلوها . وبدا أن الصليبيين المحاصرين فى أنطاكية فى حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة . وقد حدثت المعجزة حين خرج أحد القساوسة =

ولكن الحقيقة تبقى أن تفرق المسلمين المؤقت وعجزهم عن إقامة جبهة موحدة هو الذى لعب دوراً هائلا فى النصر الذى أحرزه الصليبيون ، فقد ساروا عبر آسيا الصغرى إلى بلاد الشام واستولوا على أنطاكية بعد حصار طويل . واغتصب بوهيموند لنفسه حكم المدينة ، وجعل نفسه أميراً على أنطاكية فى زمن قصير ؛ كما كان هناك زعيم آخر من زعماء الصليبيين يناضل ليقيم إمارة إقطاعية فى الشرق الأوسط . ولكن الآخرين واصلوا السير ، واستولوا على القدس بعد صراع مرير وقضوا على المدنيين من المسلمين واليهود فى مذبحة بشعة .

لقد كان نجاح الحملة الصليبية هو النتيجة الختامية للتوغل فى عالم البحر المتوسط الذى بدأته مدن الشمال الإيطالى منذ القرن العاشر ، وهو التوغل الذى تصاعدت حركته بسبب غزو النورمان لجنوب إيطاليا . لقد كان ذلك نتيجة ، ولم يكن سببا ، لتغيرات أخرى هامة جرت على الحضارة الغربية . وبينما لايثور الشك فى أن الحملة الصليبية الأولى قد زادت من إدراك الأوربيين لثروات الشرق الأوسط ، وزادت من إقبال أوربا على التوابل وغيرها من المنتجات الشرقية ، فمن المؤكد أيضا أنها لم تتسبب فى إقامة العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لأن هذا التطور كان قد تم بالفعل على نطاق واسع فى القرن السابق . كما أن الحملة الصليبية الأولى لم تلعب دوراً فى إقامة العلاقات الفكرية والثقافية بين العالم الإسلامى والعالم اللاتينى ، وهى العلاقات التى تسببت فى الثورة التى شهدتها الفلسفة والعلوم الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . إذ لم تتم أية ترجمة لاتينية لكتابات المفكرين الإغريق والمفكرين العرب فى الإمارات الصليبية ؛ لأن هذه الإمارات لم تسهم بشئ فى مجال التعليم الغربى . وإنما تمت هذه الترجمات فى مناطق التفاعل اللاتينى - العربى القديمة فى أسبانيا وصقلية . لقد كان الأثر الباقى الوحيد لقيام كيان لاتينى فى الشرق الأوسط هو تعليم

---

= البروفنساليين المغمورين بحكاية عن رؤيا مقدسة شاهدها فى منامه تخبره بأن الحربة التى اخترقت جسد المسيح منذ أحد عشر قرنا مخبوءة داخل إنطاكية فى مكان حدده هو للصليبيين ، وتم الحصول على الحربة بسهولة لأن القس إدعى أن الرؤيا حددت موقعها بالضبط . هذه الحيلة ( على حد تعبير ابن الأثير ) جعلت الروح المعنوية للجيش الصليبى ترتفع بفعل الآية السماوية الملفقة . وفى الوقت نفسه كانت روح التشرذم السياسى فى العالم الإسلامى قد كشفت عن وجهها القبيح فى تفكك جيش قربوغا ، وعدم اتفاق فصائله المختلفة على خطة واحدة لضرب الصليبيين الذين لم يلبثوا أن خرجوا فى هجوم ساحق استمر يومًا كاملا ضد قوات الحصار الإسلامية . وانتهى الأمر بتفرق جيش قربوغا وانتصار الصليبيين . وقد كشفت الصراعات التى دارت بين زعماء الصليبيين بعد ذلك عن مدى الإفلاس الأيديولوجى للحركة الصليبية . ( المترجم )



أوربا والبحر المتوسط في منتصف القرن الثاني عشر
الحملة الصليبية الأولى
جودي فري البويوني
بوهيموند
روبرت النورماندي
ريمون كونت تولوز
حدود دولية
المحيط الأطلنطي
بحر الشمال
النرويج
مملكة السويد
اسكتلندا
أيرلندا
مملكة إنجلترا
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
مملكة بولندا
مملكة المجر
راتسبون
فيينا
البندقية
ميلانو
مملكة إيطاليا
ريمس
مملكة فرنسا
كليرمون
تولوز
مملكة نافار
مملكة أرغونة
مملكة قشتالة وليون
البرتغال
قرطبة
كورسيكا
سردينيا
روما
مملكة الصقليتين
مملكة المهوديين
طنجة
نهر الدانوب
البحر الأسود
بيزنطة
سلطنة سلاجقة الروم
إمارة الرها
إمارة أنطاكية
إمارة دمشق
الخلافة العباسية في بغداد
قبرص
جزيرة كريت
البحر المتوسط
طرابلس
برقة
الإسكندرية
عكا
مملكة القدس
بيت المقدس
الخلافة الفاطمية في القاهرة

الشعوب الأوربية التسامح تجاه من ينتمون إلى ثقافة أو ديانة أخرى . ذلك أن الفرسان اللاتين الذين عاشوا فى الدول الصليبية اكتشفوا أن جيرانهم المسلمين كانوا ، على الأقل ، يتمتعون بذكاء وأخلاقيات تماثل ذكاؤهم وأخلاقياتهم(٤)، وهو اكتشاف كان من المحتم أن يهدم التعصب والكراهية تجاه الشعوب التى لم يعرفوا عنها سوى أن أبناءها كفار متوحشون . وسرعان ماتعود سادة الدويلات الصليبية على طعام وملابس جيرانهم من أمراء المسلمين ، كما أخذوا عنهم بعض القيم الأخلاقية . وعلى أية حال ، فإن هذه المواقف المتسامحة الواقعية تجاه المسلمين لم تكن قد تغلغلت فى وجدان الغرب الأوربى حتى النصف الثانى من القرن الثالث عشر .

٢ - تقلبات الحركة الصليبية وتدهورها :

لقد أدت الحملة الصليبية الأولى فى سنة ١٠٩٦ إلى قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وهى إمارة صغيرة قامت على أرض فلسطين ومركزها بيت المقدس وعكا ، وتم تنظيمها على أسس اقطاعية . وكان أول حكامها هو جودفرى اللورينى على الرغم من أنه لم يتخذ لنفسه لقب ملك ، ثم خلفه أخوه بلدوين Baldwin الذى سمح له رجال الدين وغيرهم من الصليبيين باستخدام اللقب الملكى . ومنذ بداية وجود المملكة اللاتينية كانت تتهددها مخاطر الاسترداد الإسلامى ، وعلى مدى القرنين التاليين عانت هذه المملكة من حرب إنهاك بطيئة ولكنها كانت قاضية ، وبين الحين والحين كانت البابوية وكبار رجال الكنيسة يحضون الحكام الأوربيين على القيام بحملات لمساعدة المملكة اللاتينية ، ولكن أيا من هذه الحملات لم تحقق نجاحًا كبيراً ، بل إن بعض هذه الحملات انتهت نهاية مفجعة . والواقع أن رأس الجسر الغربى فى شرق

---

٤ - يبدو من صياغة هذه الجملة أن المؤلف يجسد النظرة الاستعلائية الأوربية تجاه الشعوب الأخرى على الرغم إدانته لظاهرة التعصب الأوربى فى العصور الوسطى . فالواقع أن هذه الصياغة توحى بأن الصليبيين كانوا على نفس مستوى المسلمين الحضارى ، وهو أمر ينافى الحقيقة التاريخية تماما . ومن يقرأ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، أو يقرأ التعليقات التي أوردها المؤرخون المسلمون المعاصرون على تصرفات الصليبيين يعرف أن الصورة التى ترسمها المصادر التاريخية العربية للصليبى ، صورة إنسان ذى مستوى حضارى أدنى كثيراً وهذه الصورة تجد لنفسها التأييد من بين طيات المؤرخات التى كتبها المؤرخون الأوربيون المعاصرون للحرب الصليبية ، خصوصًا جيمس الفيترى ، كما أن واقع الحال فى المجتمع الأوربى نفسه وفى المجتمع الصليبى كما أثبتتها الدراسات الحديثة تؤكد هذا . وعلى هذا فإننا لانرى ضرورة لإسقاط النظرة الأوربية والغربية الحالية بما فيها من استعلاء وغطرسة ، على نظرة الصليبيين الذين كانوا يعرفون حقًا أنهم أقل فى الحضارة والذكاء والأخلاقيات من أعدائهم المسلمين . ( المترجم )

المتوسط ، أى المملكة اللاتينية ، حققت أكبر اتساع لها مع بداية تاريخها . ومع بزوغ شمس القرن الثالث عشر ، كانت هذه المملكة قد تقلصت تحت وطأة الهجمات المضادة التى شنها الحاكم المصرى صلاح الدين بحيث انحصرت فى شريط ضيق من الأراضى . وقد استولى المسلمون على مدينة القدس نفسها ، وفى سنة ١٢٩١ م تم القضاء على المملكة اللاتينية . والتاريخ الكئيب للحملات الصليبية التى تلت الحملة الأولى ، والتى وقعت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، يطرح السؤال الهام عن السبب فى أن أوربا الغربية أبدت عجزاً واضحًا عن الحفاظ على مملكة بيت المقدس اللاتينية .

كانت المسألة عدم اهتمام أكثر منها نقصًا فى المقدرة . ولاشك فى أنه لو كرست كافة موارد البابوية والملكيات الأوربية فى أى وقت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للحركة الصليبية ، لأمكن دحر الجيوش الإسلامية المحيطة بالمملكة اللاتينية (٥) . وعلى أية حال تبقى حقيقة أن قادة المجتمع الغربى كانت لديهم اهتمامات أخرى أكثر إلحاحًا ، ومهما كانت آراؤهم العلنية بشأن الحروب الصليبية ، فإنها كانت بالنسبة لهم حركة هامشية إلى حد ما . لقد أخذ كثيرون من الملوك وكبار الإقطاعيين فى غرب أوربا شارة الصليب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكن نسبة ضئيلة منهم فقط هم الذين رحلوا فعلاً إلى الأرض المقدسة ، وغالبًا ماكانت البابوية تغض النظر عن هذه الردة ، لأنها كانت تضع من يقسم بأخذ شارة الصليب فى موقف المدين روحيًا للبابوية ، مما كان يتيح للبابا أن يكلفه بأى شكل آخر من أشكال الخدمات للكنيسة ثمنا لإعفائه من القسم الصليبى . وحتى عندما كان أحد كبار الملوك يذهب فعلاً فى حملة صليبية ، فإنه غالبًا ما كان يذهب فى شكل تظاهرى لقتال المسلمين ، فيأخذ معه جزءاً صغيراً من جيشه ، ثم يمكث عدة شهور قليلة فقط فى الأرض المقدسة ،

---

٥ - يسرف كانتور كثيراً فى استخدام « لو » فى علاجه للقضايا التاريخية ، ولما كان التاريخ كعلم ، يهتم ببحث الواقع التاريخى كما حدث بالفعل ، ولا يناقش فروضا فلسفية أو احتمالات غير واقعة بالفعل ، فإننا لا نستطيع مسايرة المؤلف فى هذا الموقف الفكرى . وعلى أية حال فإنه حين يعرض لأسباب الفشل الصليبى فى السطور القادمة يتحدث عن موقف الغرب الأوربى فقط ناسيًا ، أو متناسيًا ، أن الحروب الصليبية كانت بين طرفين ، وأن الطرف الآخر ، أى العالم العربى الإسلامى قد نجح فى القضاء على الكيان الصليبى نتيجة لنجاحه فى خلق الجبهة الإسلامية الواحدة منذ زنكى حتى صلاح الدين ، وانتهاء بالظاهر بيبرس والأشرف خليل قلاوون الذى قضى على آخر الصليبيين فى عكا . حقيقة أن الفشل الصليبى يمكن تفسيره فى ضوء انشغال الظهير الأوربى باهتماماته الداخلية عن مساندة الصليبيين . ولكن النجاح الإسلامى أيضًا يمكن تفسيره على ضوء الوحدة وتركيز القوى الإسلامية فى الصراع ضد الصليبيين . ( المؤلف )

ولايشتبك مع المسلمين سوى فى مناوشات سطحية ، وأخيراً يعقد مع أحد السلاطين معاهدة من ذلك النوع الذى يحفظ ماء الوجه ، حتى يبدو فى صورة بطل المسيحية عندما يعود إلى وطنه . ومن الأمور المتناقضة أن الزعماء الصليبيين الذين أخذوا مهمتهم مأخذ الجد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانوا هم أسوأ الجنود ، ولم يحققوا شيئًا سوى ذبح فرسانهم على أيدى العرب . لقد كان المثال الصليبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر متنفسًا شعبيًا لحركة التدين التى انتشرت انتشاراً واسعًا آنذاك ، ولكنه كان مجرد شكل واحد بين أشكال متعددة لهذا التدين . كما كان أخذ شارة الصليب واجبًا ضروريًا بالنسبة للملوك وأمراء الغرب الأوربى تحض عليه البابوية وكبار رجال الكنيسة . فقد كان هذا شيئًا يجب عليهم القيام به تعبيراً عن مكانتهم فى المجتمع وإرضاء للرأى العام ؛ ولكنهم جميعًا كانوا يأخذونه كمسألة شكلية لا تكلفهم سوى النزر اليسير من طاقاتهم ومواردهم .

لقد دعا سان برنار الكليرفوى St. Bernard of Clairvaux الذى كان الزعيم الأدبى للكنيسة فى القرن الثانى عشر ، إلى الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٤ م ، استجابة للاستغاثات الملحة الصادرة عن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس طلبًا للمساعدة ضد القوة العربية الناهضة . ونجح سان برنار فى استقطاب اثنين من رؤوس أوربا المتوجة هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا . وقد أضفى هذا على الحملة الثانية هيبة أكثر من الحملة الأولى ولكنه لم يزدها فى القوة العسكرية ، لأن كلا من لويس وكونراد لم يكونا من المتميزين فى الكفاءة القتالية ، كما أن جيشيهما لم يكونا كبيرين . ولم يصل أى منهما إلى فلسطين قط ، فقد تمزقت قواتهما إربًا فى ربوع آسيا الصغرى . لقد كانت النتيجة الوحيدة هى توتر العلاقة الزوجية بين لويس وزوجته اليانور الاكوتانية Eleanor of Aquitaine التى صحبته فى الحملة ، والتى اتهمها لويس بخيانته مع أحد قادة جيشه . وكان طلاق الملك الكابى من دوقة اكوتانيا ثم زواجها بعد ذلك من هنرى الثانى ملك إنجلترا ذا أثر هام على مجرى التطور السياسى فى أوربا القرن الثانى عشر .

هذا المزج بين المأساة والملهاة ، الذى كان من سمات الحملة الصليبية الثانية ، تكرر فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠ ، وهى الحملة التى كانت أكثر الحملات اللاتينية على الأرض المقدسة طموحًا ، على الأقل من حيث بدايتها . إذ كان لابد من تحدى قوة صلاح الدين بجيش صليبى يضم الشطر الأكبر من القوة العسكرية فى أوربا ، نظريًا على الأقل . فقد

انطلق أكبر ثلاثة ملوك فى غرب أوربا آنذاك ، ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا صوب الأرض المقدسة على رأس جيوشهم القوية . وغرق بربروسا فى الطريق ، وانتهى الأمر بالألمان بالتفرق والمشاركة الرمزية فقط . وسرعان ماظهر أن فيليب أوغسطس المستخف الساخر لم يكن يقصد سوى المظاهرة العسكرية ؛ فإنه كان تواقًا إلى العودة إلى وطنه لمواصلة دسائسه ومؤامرته ضد ملك إنجلترا . أما ريتشارد قلب الأسد فقد أخذ الحملة بجدية شديدة . وقد اشتهر ببنيته العملاقة وقوته الجسدية ، إذ كان طوله ستة أقدام ، وكان شغوفًا بإظهار قوته وبسالته الفردية التى كانت عظيمة دون شك ، ولكن مهارته كقائد كانت مسألة مختلفة تماما . فقد كان ريتشارد طفلا باكر النمو فاسداً ، وعادى كل حكام أوربا تقريبًا فى الوقت الذى توجه فيه إلى الأرض المقدسة . وهناك نجح فى إذكاء نار العداوة فى صدر الملك الفرنسى ضده ، كما جلب على نفسه كراهية الألمان . وسرعان ما تفككت الحملة ، وبعد أن أرضى الملك الإنجليزى غروره فى معارك قليلة ، قبل صلاح الدين الداهية عقد معاهدة سلام أبقت الوضع علي ماهو عليه . ثم اكتشف ريتشارد أن لا سبيل أمامه للعودة إلى الوطن ، لأن جميع الطرق كان يسدها الأعداء. واختار أكثر الطرق التفافًا . وعبر ألمانيا ، وقبض عليه وأودع السجن رهن فدية طلبها هنرى السادس . هذه الحوادث الدرامية بالغت فى قيمة ريتشارد كفارس بيد أنها كشفت عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية . فقد كان الملوك الأوربيون مشغولين برعاية مصالحهم الأسرية والإقليمية بحيث لم يقدموا للحركة الصليبية ما هو أكثر من الدعم الهامشى .

أما الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م ، فلاشك فى أنها كانت أكثر الحملات نجاحًا بعد الحملة الأولى ، ولكنها نجحت ضد بيزنطة لاضد العالم الإسلامى . ولم يكن البابا إنوسنت الثالث الذى دعا إلى هذه الحملة يقصد فى الأصل أن تتخذ هذا الشكل[٦] . ولكن البنادقة

---

٦ - كان الهدف المباشر للحملة الصليبية الرابعة هو مصر . وفى سنة ١٢٠١ توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية ، بات واضحًا أن تكاليف الحملة تفوق طاقة الصليبيين ، وقد عرض عليهم البنادقة تسهيلات كبيرة مقابل الاستيلاء على مدينة زارا Zara المجرية ، التى كانت شوكة فى حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتى .

وفعلاً استولى الصليبيون على زارا التى كانت مدينة مسيحية فى مملكة مسيحية ثم تلى ذلك قرار مصيرى آخر ، فقد وجد الصليبيون فرصة للتدخل فى شئون بيزنطة بسبب النزاع الداخلى حول العرش الإمبراطورى . وفى سنة ١٢٠٤ م عصف الصليبيون بالقسطنطينية ، وصار بلدوين أمير الفلاندرز أول إمبراطور لاتينى لها ، كما صار أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى لها . وتم تقسيم الإمبراطورية البيزنطية مثل سائر الأسلاب والغنائم بين المنتصرين . (المترجم ).

الذين قدموا الأسطول للجيوش الصليبية ، أصروا على هذا التغيير فى الخطط ، وبما أنهم كانوا يقدمون القروض للصليبيين فقد أجبروهم على الامتثال لمطالبهم . وعلى الفور وافق إنوسنت الثالث على هذا التغيير فى الخطط ، ورأى فيه وسيلة لتأكيد السيطرة البابوية على القسطنطينية . ذلك أن الاتجاهات المعادية للبيزنطيين فى الحركة الصليبية ، والتى كانت قد اتضحت منذ بدايتها فى القرن الحادى عشر ، أتت ثمارها فى الحملة الصليبية الرابعة . كانت القسطنطينية قد صمدت فى مواجهة الجيوش الإسلامية على مدى خمسة قرون ، ولكنها هذه المرة سقطت أمام البنادقة والفرنسيين الذين نهبوا المدينة ، وأهانوا رجال الكنيسة البيزنطية ، وأقاموا المملكة اللاتينية فى القسطنطينية بمباركة البابوية . وعلى مدى ستين سنة ظل الأمراء اللاتين يحكمون القسطنطينية ، واستغلت البابوية هذه الفرصة لمحاولة إخضاع المسيحيين البيزنطيين لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما . وأخيرا نجح أمير بيزنطى سنة ١٢٦١ فى استعادة العرش الإمبراطورى ، وحدث الانشقاق الذى لم يلتئم حتى الآن بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية . ولم تفق القوة الإمبراطورية أبداً من الكارثة التى سببتها الحملة الصليبية الرابعة ، ومع أن القسطنطينية لم تسقط فى أيدى المسلمين سوى سنة ١٤٥٣ ، فإنها لم تلعب فى عالم البحر المتوسط منذ ذلك الحين فصاعداً سوى دور ضئيل .

لقد كشفت الحملة الصليبية الرابعة للبابوية عن إمكانية استغلال الحركة الصليبية لتحقيق أغراض أخرى غير إنقاذ مملكة بيت المقدس . وفى القرن الثالث عشر كانت الحملات الصليبية توجه ضد أعداء البابوية فى أوربا بمعدل فوق معدل توجيهها ضد المسلمين . ولم يواصل النمط القديم من المغامرة الصليبية سوى ملك قديس هو لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد حملتين ، والإمبراطور الألمانى فردريك الثانى هوهنشتاوفن Frederick II Hohenstaufen ولم تنجح أى من هذه الحملات الصليبية الثلاث فى مساعدة مملكة بيت المقدس اللاتينية المتدهورة . إذ شن لويس هجومًا جسوراً على المسلمين فى معاقلهم ، مرة فى مصر ومرة فى تونس ، ولكنه هزم هزيمة شنعاء فى المرتين . أما حملة فردريك الثانى فكانت استعراضًا رمزيًا تدخل فيه عناصر هزلية ، لأن الإمبراطور كان واقعًا تحت عقوبة الحرمان البابوى حين قام بحملته الصليبية . وبقدر مالعبت الحركة الصليبية دوراً هاما فى الحياة الأوربية فى القرن الثالث عشر ، فإنها اتخذت شكلا جديداً مقلوبا وتحولت إلى حروب ضد أعداء البابوية . والمثال الأول على ذلك هو الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة فى جنوب فرنسا ، وهى الحملة التى دعا إليها إنوسنت الثالث ، وقد لقيت هذه الحملة قبولا عامًا فى غرب أوربا على الرغم من أن الطريقة التى تم بها تبرير غزو النبلاء لجنوب فرنسا كانت طريقة ذميمة . ولكن كلما مضت

البابوية قدمًا فى استغلال الحركة الصليبية كلما أدينت كقوة روحية تتناقض مع مثلها الأصلية تناقضًا صارخًا . وفى أربعينيات القرن الثالث عشر أدين فردريك الثانى بالهرطقة ، وأسبغ الوضع القانونى للحملة الصليبية على الجيش الفرنسى الذى أستولى على أملاكه فى جنوب إيطاليا . وفى ثمانينيات القرن الثالث عشر صارت الحملة الصليبية مؤسسة سياسية خالصة . فقد منحت الشارة الصليبية لفيليب الثالث ملك فرنسا لقاء هجومه على ملك أرغونة ، الذى لايمكن أن يكون هرطقيًا مهما شطح بنا الخيال ، ولكن غزوه لصقلية أقض مضاجع البابوية . هذا الاستغلال السياسى البحت للحملات الصليبية جاء فى نفس الوقت الذى كانت فيه مملكة بيت المقدس اللاتينية تحتاج إلى التعزيزات من أوربا لإنقاذها من الهلاك .

والحقيقة أن الزعماء الأوربيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر لم يكونوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد الإسلام ، وكان هذا راجعًا فى جانب منه إلى موقف أكثر تسامحا وإستنارة . ذلك أن هؤلاء الزعماء توصلوا ، مثل مستوطنى مملكة بيت المقدس ، إلى أن العرب قوم أذكياء قادرون . وبحلول سنة ١٣٠٠ كان الإهتمام موجها إلى تحويل الشعوب الشرقية إلى المسيحية بدلا من شن الحرب ضدها . وكان للرهبان الفرنسسكان قصب السبق فى هذا المجال التبشيرى . فقد كان اهتمامهم موجها بشكل خاص نحو محاولة تنصير المغول ، آخر الجحافل الآسيوية التى هددت شرق المتوسط . وكان الفرنسسكان ، تؤازرهم البابوية ، يأملون فى تحويل المغول عن الإسلام واعتناقهم المسيحية اللاتينية مما يؤدى إلى إنهاء السيطرة الإسلامية على الأماكن المقدسة . ولكن الشعوب الأوربية لم تكرس جزءاً كبيراً من نشاطها لهذا التوجه السلمى . ويكشف إرسال اثنين من الرهبان الفرنسسكان إلى بلاط خان المغول أن هذا المشروع كان يحظى باهتمام كبير بين الأوربيين . ولابد أن الشعوب الأوربية كانت تولى اهتماما كبيراً بتنصير المغول ، ولكن تبقى حقيقة أن الطبقات الحاكمة فى أوربا ، والبابا من بينهم ، كانت غير راغبة فى كبت الشئون المحلية الحاكمة بشكل يجعلها تكرس قدراً أكبر من اهتمامها لتنصير الشعوب الشرقية [٧] . أن لقاء الشرق والغرب نموذج جدير بالاهتمام ،

---

٧ - كثيراً مايقع كانتور فى شباك وهم أن الأوربيين فى العصور الوسطى كانوا يملكون زمام المبادرة وأن حدوث الظاهرة التاريخية التى كانوا طرفا فيها فى مقابل طرف آخر يتوقف عليهم هم دون الطرف الآخر ويتضح هذا من عرضه لمحاولات التبشير بالمسيحية بين المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام فى أواخر القرن الثالث عشر ، ويذكر أن سبب فشل المحاولات التبشيرية راجع إلى انشغال أوربا بمشكلاتها الداخلية فقط ، وهذه مسألة يكررها كثيراً خصوصا فيما يتعلق بالمواجهة بين العالم الإسلامى وأوربا العصور الوسطى . وهو هنا يتجاهل حقيقة أن الدين الإسلامى دين قوى والتبشير بين المسلمين بدين آخر أمر مستحيل ، بل ينسى =

ولكنه لم يكن ذلك النموذج الذى يروق فى عيون الناس فى العصور الوسطى العالية . ذلك أن مشكلات الحكم ، والاقتصاد ، والثقافة الأوربية إمتصت طاقاتهم ، والقليل الذى تبقى منها لمؤازرة الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر وجهته البابوية ضد أعدائها فى داخل القارة الأوربية .

لقد كانت الحروب الصليبية ميراثا ورثه القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن موجة الحماسة والتعصب الناجمة عن الإصلاح الجريجورى . وكان مقدراً لها أن تخرج عن هدفها ، وأن تتعرض لتقلبات كثيرة ، وأن تضمحل فى النهاية بسبب التغيرات العميقة التى جرت على الحضارة الأوربية نفسها .

ومع هذا ، فإن المثال الصليبى الذى كان شيئا يختلف عن الحملات الصليبية التى كانت مغامرات عسكرية وسياسية . كان ذا تأثير عميق ، وأن لم يكن طيبا ، على الحياة فى العصور الوسطى . فقد أضفت الحروب الصليبية مسحة أخلاقية ودينية على الاتحاد بين القوة العسكرية والإخلاص الدينى . لقد كانت الحملات الصليبية الخارجية ، تلك المغامرات الطائشة ضد الإسلام فى شرق المتوسط ، ضئيلة الأهمية فى الحياة السياسية والاجتماعية فى الغرب . أما الحملات الداخلية ، التى جرت داخل أوربا الغربية ، فكانت آثارها المباشرة أقوى كثيراً . ولكن أخطر ما خلفته الحروب الصليبية هو ذلك الدرس الذى وعاه الأوربيون - أن القتل والتدمير فى سبيل القيم المسيحية حق . لقد كانت المعاناة المباشرة الناجمة عن هذا الاعتقاد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من نصيب اليهود والهراطقة . أما الذى عانى على المدى الطويل فكان هو المجتمع الأوربى بأسره . لأن الدول البيروقراطية الجديدة فى القرن الثالث عشر اعتنقت المذهب الذى جعل من استخدام القوة العسكرية أمراً مشروعًا ، بحيث صار هذا المذهب هو المركز الذى تقوم حوله ذات السلطة المطلقة والنزعة الوطنية فى القرون الستة التالية . هذا الإيمان بحق القتل والتدمير فى خدمة المثل العليا لم يتضاءل فى القرن العشرين .

---

= ماذكره هو نفسه فى الفصل الخامس من هذا الكتاب من أن الإسلام « ... هو الوحيد بين ديانات البشر الكبرى الذى يصلح لأن يكون دينا للعالمين ، فما يقدمه القرآن سهل وبسيط ، ولا يستعصى على الفهم ... » . فإذا كان هذا هو الإسلام الذى اعتنقه المغول ، فكيف يمكن أن نفسر فشل التبشير الكاثوليكى فى ضوء انشغال الأوربيين الداخلى فقط ؟! أن خطورة هذا المنطق أنه يجعل أوربا مركزاً للفعل وذاتا فاعلة يحول العالم المعاصر لها آنذاك إلى مناطق سلبية ، وموضوعا للفعل لايصدر عنه مجرد رد الفعل ، وهذا فى تصورنا ظلم شديد للحقيقة التاريخية . (المترجم)

# الجزء السادس

## التعليم ، التدين ، والسلطة

### القرن الثانى عشر

" إن رفاقى القدامى على الجبل ( فى باريس ) ... والذين مازال الجدل يعوقهم .... لم يتقدموا سوى فى نقطة واحدة ... فهم معتدلون غير متعلمين » .

– حنا السالزبورى .

« إن وباء الكنيسة فى داخلها . ولايمكن الشفاء منه ».

– سان برنار .

" إن سلطة الإمبراطورية الرومانية تسود إلى حد كبير بفضل فضائل أميرنا المظفر ... فقد تغيرت الأمور نحو الأحسن».

– أوتو الفريزى .

# الفصل الخامس عشر
# النمو الثقـــافى فى أوربا

## ١ - ارتفاع معدل التغير الثقافى :

بانتهاء الصراع حول التقليد العلمانى ، بما سببه من انقسامات وإرهاق ، أتيح لعلماء العصور الوسطى ومفكريها أن يركزوا طاقاتهم حول التغيرات الهائلة التى كانت جارية بالفعل فى مجال الثقافة الراقية . وغالبا ما أطلق على هذا التصاعد في التغير الثقافى وماصاحبه من إبداع وتقدم تجلى فى كافة جوانب حضارة العصور الوسطى - بما فى ذلك الحياة الفكرية - اسم « نهضة القرن الثانى عشر » . وقد شاع هذا المصطلح بفضل كتاب نشره شارلز هاسكينز فى سنة ١٩٢٨ يحمل هذا العنوان . واستخدم هاسكينز هذا المصلح بغرض الجدل إذ أعلن أن مفكرى القرن الثانى عشر قد كرسوا أنفسهم للتراث الكلاسيكى ، وأنهم طرحوا أفكاراً هامة شأنهم فى ذلك شأن الإنسانيين الإيطاليين فى نهضة القرنين الرابع عشر والخامس عشر الشهيرة . لقد كان من الضرورى ، فى أيام هاسكينز ، تبرير دراسة تاريخ العصور الوسطى فى الجامعات الأمريكية بالقول بأن العصور الوسطى جديرة بالدراسة مثل النهضة الإيطالية . ومن حسن الحظ أن مثل هذه الجهود الساذجة التى تستجدى الأسئلة لم تعد مطلوبة ، وربما يمكن الآن دراسة التاريخ الثقافى للقرن الثانى عشر دونما رسم متوازيات ملفقة مع عصر بترارك وليوناردو دافنشى .

والحقيقة أن مصطلح « نهضة القرن الثانى عشر » يشوبه القصور لأسباب عديدة . فهو لا يتلاءم مع التاريخ الثقافى لتلك الفترة ، إذ أنه يبدو فضفاضا للغاية فى بعض الجوانب ، على حين يبدو غاية فى الضيق فى جوانب أخرى . لقد كانت نهضة القرن الثانى عشر ، إذا كانت هناك نهضة بالفعل ، قد قطعت نصف الشوط تقريبا بحلول سنة ١١٠٠ م . إذ أن البعث الثقافى المزعوم كان قد بدأ بالفعل حوالى سنة ١٠٥٠ م ، وربما يكون من الأصلح أن نسميها « نهضة القرن الحادى عشر » . كذلك انتهت الفترة التى شهدت القدر الأعظم من الحيوية الثقافية والأصالة الفكرية فى منتصف القرن الثانى عشر ، ثم تبعتها فترة استيعاب وانتشار وتدعيم لنتائج الفترة الإبداعية .

فما هو الشئ الذى يفترض أنه قد بعث من جديد فى القرن الثانى عشر ؟ إذا ما أخذنا فى اعتبارنا المساهمة الأوربية فى الفلسفة والعلوم ، فمن الأصح أن نصف هذه المساهمة بأنها ميلاد وليست بعثا ، لأن كثيراً من الحركات الفكرية فى القرن الثانى عشر خلقت ماهو جديد؛ أى أنها لم تقم بإحياء تراث قديم . هذا الإبداع وهذا التقدم هما اللذان يميزان ثقافة القرن الثانى عشر عن النهضة الإيطالية فى أخريات العصور الوسطى . فلم يكن مفكرو القرن الثانى عشر مجرد إحياء للطراز الكلاسيكى فى الأدب والفن . وكان عكوفهم على التراث الكلاسيكى بحثا عن نقطة إنطلاق صوب اتجاهات وأبعاد جديدة فى شتى جوانب الحياة المتحضرة : فى الدين ، والقانون ، والحكومة ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والتعليم ، والأدب ، والفن ، والفلسفة ، والعلوم . وقد اتسم الازدهار الثقافى فى القرن الثانى عشر بأن مدى اهتمامه كان أوسع كثيراً من مدى اهتمام النهضة الإيطالية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وحين نطبق على هذا التطور مصطلح « نهضة Renaissance » فإننا نقلل من عظمة إنجازاته وتنوعها . فقد أثرت الروح الإبداعية فى القرن الثانى عشر تأثيراً عميقا فى كافة وجوه الحياة الاجتماعية التى كانت تتطلب بعض المحاولات الثقافية ؛ إذ أنها لم تكن مجرد حركة تدعمها مجموعة من المثقفين أو المدافعين عن نمط معين من الأساليب الفنية ؛ وإنما كانت حركة واسعة معقدة غير متجانسة مثل حضارة العصور الوسطى نفسها . هذا التصعيد غير المسبوق والتكاثر والتوالد الذى تميز به التغير الثقافى فى العصور الوسطى العالية لايمكن أن نفهمه على نحو كاف من خلال مصطلح « نهضة القرن الثانى عشر » .

كذلك لم يكن النمو الثقافى محدوداً بحدود بلد واحد ، كما كان الحال فى نهضة القرنين الرابع عشر ، والخامس عشر ، وعلى الرغم من أن الزعامة كانت لفرنسا ، فقد ساهمت كل من إنجلترا وإيطاليا وألمانيا ( وإن كانت مساهمتها أقل ) فى الإنجازات الفكرية التى جرت في القرن الثانى عشر . فقد ولد حنا السالزبورى Jonh of Salisbury الذى كان واحداً من أبرز شخصيات القرن الثانى عشر ، فى إنجلترا ، وتعلم فى فرنسا ، وعمل فى إيطاليا ، ثم عاد فيما بعد إلى إنجلترا ، واختتم حياته العملية فى فرنسا حيث شغل منصب أسقف شارتر Chartres . لقد كانت حركة الإبداع الثقافى فى القرن الثانى عشر حركة أوربية كما أن الشعور القومى فيها كان ضئيلا ، فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين فى القرن الخامس عشر ، ولا حتى على الأوربيين الطيبين من أمثال إراسموس Erasmus .

لقد اتخذت النهضة الإيطالية موقفا انتقاديا من الفلسفة الأرسطية ، كما أنها ، فى أساسها ، كانت ذات روح مضادة للعلم . فهى لم تقدم أية مساهمة دائمة فى اللاهوت أو فى تطور الحياة الدينية فى غرب أوربا . وعلى العكس من ذلك كانت التغيرات الثقافية التى طرأت فى القرن الثانى عشر سببا فى إدخال الأرسطية - التى كانت أفضل نظام علمى متاح فى أوربا آنذاك - فى مجرى الفكر الأوربى . كذلك شهد القرن الثانى عشر تصاعد النمط الجديد من التدين الشعبى كما شهد ظهور الاتجاه نحو التدين العاطفى ، وهو الأمر الذى أدى إلى بروز رؤية لاهوتية جديدة زادت من الوعى الأوربى برفعة الإنسان وسموه . لقد اشتهر زعماء النهضة الإيطالية بطاقاتهم ، واتساع نطاق اهتمامهم . بيد أن ماتميز به القادة الثقافيون فى القرن الثانى عشر من حيوية وجسارة كان أمراً غير مسبوق . فقد أظهروا شغفا عجيبا بتجربة انساق ثقافية جديدة ، والخوض فى مشكلات جديدة ، وانتهاج مناهج وأساليب فكرية جديدة ، كما كانوا مفرطين فى التفاؤل بقدرتهم على عمل الأشياء الجديدة فى مدى زمنى قصير . وأول مثال على ذلك هو اختراعهم لطراز جديد فى البناء سرعان ما انتشر على نطاق واسع فى مدى جيل واحد . ولم يشهد تاريخ البناء فى أوربا منذ القرن الخامس قبل الميلاد مثل هذه الروح الابتكارية ، كما أنه بم يحدث قبل القرن العشرين أن كشف تاريخ الهندسة المعمارية عن مثل هذا الابتكار السريع لطراز معمارى جديد .

إن ماتميزت به ثقافة القرن الثانى عشر من تفاؤل وإقدام يبدو واضحا فى محاولة حل مشكلات المجتمع حلا عقلانيا . فد خرج التعليم والفكر الراقى من نطاق الاهتمام الضيق باللاهوت والأدب إلى نطاق الاهتمام بتحسين البنيان الاجتماعى والسياسى آنذاك . وأبرز مثال على ذلك يتمثل فى الطفرة التى حدثت فى ميدان القانون الأوربى إبان القرن الثانى عشر ، وهو الأمر الذى كانت له نتائجه المشهودة على تطور الدولة فى العصور الوسطى . لأن التطور القانونى كان يهتم بالحاجات الاجتماعية ، ولأنه استلهم التراث الكلاسيكى دون أن يقع رهين أسره ، ولأنه أوجد طائفة جديدة متمايزة فى المجتمع ، فإن هذا التطور يكشف عن الأنماط التى صيغت فيها أهم جوانب الإبداع الثقافى والتطور الفكرى خلال تلك الفترة ، وربما يكون هو أفضل مدخل لفهم خصائص التغير الثقافى في القرن الثانى عشر .

٣ - المكونات القانونية فى حضارة العصور الوسطى :

لقد ساهم القرن الثانى عشر فى الحضارة الغربية بالمحامى المحترف ذى الأهمية الفائقة . ففى العالم القديم لم يكن المحامون أكثر من أشباه محترفين ؛ إذ كان تدريبهم يعتمد على

البلاغة أساسا ، ولم يكن منهم سوى عدد قليل يمتلكون ناصية العلوم القانونية . أما فى القانون العرفى الجرمانى فلم يكن المحامى المحترف معروفا . فقد كانت التقاليد القانونية والحفاظ عليها مسئولية المسنين من أفراد الشعب الجرمانى بل إن القضاة لم يكونوا يتلقون تدريبا محدداً . ولم يحدث قبل القرن الحادى عشر أن ظهر المحامى المحترف ، الذى تدرب من خلال تعليم صارم فى العلوم القانونية . بحيث يكون على استعداد لتسخير علمه فى سبيل تنظيم العلاقات الإنسانية على أسس عقلية ، وبحيث يكون مهيئا للارتباط بالحياة العامة والقيام بالأعمال الحكومية فقد كان الانشغال بالقانون أكثر مهن المتعلمين قيمة من الوجهة الاجتماعية فى الحضارة الأوربية ، على الأقل حتى ظهور العالم المحترف فى القرن التاسع عشر ، كما أن المحامى مابرح يلعب دوراً هامًا فى حياتنا الحالية . وبحلول سنة ١٢٠٠ كان المحامون قد صاروا عنصراً لاغنى عنه فى الملكيات الغربية وفى الكنيسة على السواء ، وكان مجرى التطور السياسى فى العصور الوسطى العالية محكوما إلى حد كبير بمواقف هذه الطائفة الجديدة من الزعماء الاجتماعيين وطموحاتهم . وخلال القرن الثانى عشر أيضا بدأت النظم القانونية فى مختلف الدول الأوربية ، وداخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تتخذ أشكالا تنظيمية استمرت فى معظمها حتى يومنا الحالى ، وصارت من العوامل القوية فى تشكيل مواقفها السياسية المختلفة .

لقد كانت التجديدات التى شهدها القرن الثانى عشر فى المؤسسات القانونية والهيئات العاملة فيها نتيجة للظروف السلمية الجديدة التى طرأت على المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . فقد نعمت أوربا بدرجة أكبر من النظام والاستقرار السياسى أتاح للحكومات الأوربية أن تتأمل أوحال ورذائل التراث القانونى بما يتسم به من فوضى وتناقض ، وهو التراث الذى تخلف عن الإنقلابات الفجائية التى جرت فى العصور الوسطى الباكرة . وفى سنة ١١٠٠م لم يكن ثمة شئ فى أية دولة أوربية ، أو داخل الكنيسة ، يقترب من النظام القانونى الشامل المنظم . إذ أن الحكومات العلمانية فى غرب أوربا ، وهى تحاول تأكيد نفوذها فى المجتمع واتخاذ تدابير تضمن الأمن والعدالة ، كانت تصطدم بالقيود والصراعات بين مختلف التقاليد العرفية الجرمانية . ففى بلدان البحر المتوسط كانت العمليات والمبادئ القانونية الجرمانية تصطدم بالشذرات الباقية من النظام القانونى الرومانى . أما فى شمال فرنسا وإنجلترا فقد كان القانون الإقطاعى يطرح طائفة أخرى من التقاليد الداخلة فى حلبة

المنافسة . ولم يكن بالإمكان التوفيق بين التقدم السياسى والاجتماعى من ناحية وهذه الفوضى القانونية من ناحية أخرى . فقد كان النظام السياسى الجديد وما واكبه من تحول بطئ صوب الاقتصاد النقدى يتطلب تبريراً قانونيا وصياغات قانونية أيضًا . ولم تكن النتائج مشجعة ، ذلك أنه حتى العلماء الذين استخدمهم هنرى عجزوا عن أن يؤلفوا نظاما شاملا يجمع بين التقاليد الجرمانية والإقطاعية والكنسية .

وبفضل الحاجة الاجتماعية إلى الإصلاح القانونى وسن القوانين ، وبسبب ضخامة هذا العمل، كانت بداية دراسات قوانين جستنيان فى شمال إيطاليا حدثا مدويا فى تاريخ الحكم والقانون الأوربى . فقد كان ذلك سببا فى الحماسة المتأججة التى ملكت على علماء شمال إيطاليا قلوبهم فانكبوا على دراسة القانون المدنى ، كما كان من أسباب الإنتشار السريع لهذه الحركة الاحيائية القانونية للقانون الرومانى شمال جبال الألب . ومع مشرق شمس القرن الثانى عشر كان عمل العلماء القانونيين يعتبر عملا ذا فائدة اجتماعية ، كما اعتبر عملا لصالح الدولة أو الكنيسة ، شأنه فى ذلك شأن اكتشافات علماء الذرة التى تعتبر ذات أهمية وقيمة اجتماعية فى القرن العشرين .

ولايقطع مؤرخو القانون فى العصور الوسطى برأى حول الطريقة التى تم بها الكشف عن قوانين جستنيان فى شمال إيطاليا ، أو الكيفية التى بدأت بها دراسة هذه القوانين . فقد افترض البعض أن تكون الدراسات القانونية التى تمت لصالح السلطة البابوية قد تمت بناء على أوامر جريجورى السابع وأنها قد أدت إلى الكشف مصادفة عن نسخة منسية من كتاب مجموعة القوانين المدنية Corups Juris Civilis فى إحدى المكتبات الإيطالية . ومن ناحية أخرى ، يبدو جليا أن تجار مدن الشمال الإيطالى ، حيث تركزت دراسة القانون الرومانى ، قد جلبوا نسخة من قوانين جستنيان من القسطنطينية مباشرة . ومن المحتمل ، بطبيعة الحال ، أنه كان هناك أكثر من مصدر لنص القانون المدنى الذى بدأت دراسته بكثافة وتركيز لأول مرة فى سبعينيات القرن الحادى عشر على أيدى العلماء فى مدن الشمال الإيطالى . وليس المهم هو كيفية حصولهم على النص ؛ إذ لم يكن من الصعب الحصول عليه ، وقد تجاهله الغرب الأوربى على مدى خمسة قرون من الزمان لأنه لم يكن يلائم الظروف السائدة فى مجتمع العصور الوسطى الباكرة . والمهم هو القيمة الاجتماعية الكبرى التى أسبغها أولئك العلماء القانونيون النابهون فى أواخر القرن الحادى عشر على قوانين جستنيان ، وهى القيمة التى حدت بهم إلى دراسته دراسة مكثفة .

لقد كانت عملية صياغة النظام القانونى الذى ينتمى إلى حضارة سابقة فى ملخص مكتوب ، وعلمى ، وشامل وعقلانى ، تتناغم مع الحاجات الاجتماعية لغرب أوربا آنذاك بشكل مثالى . فقد كانت الحكومات القوية ، التى كان التطور السياسى الأوربى يمضى صوبها ، تجد لنفسها سنداً فى مذهب السلطة المطلقة الذى يتضمنه قانون جستنيان ، فضلا عن أن القادة التجاريين للمدن الإيطالية كانت تشدهم مجموعة القوانين لأنها تختص بمجتمع حضرى وتتعامل مع جوانب فى الحياة يجهلها من يعيشون فى مجتمع ريفى بدائى يكتفى بالتقاليد والأعراف الجرمانية . وقد زادت جاذبية مجموعة قوانين جستنيان فى نظر طوائف بعينها ، ولاسيما العلماء الذين كان يحكمهم إحساس قوى بالتراث الكلاسيكى ، وتحركهم حماستهم للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان سبب هذه الجاذبية راجعًا إلى حقيقة أن مجموعة قوانين جستنيان كانت تلخيصا للقوانين التى أصدرها الأباطرة الرومان العظام . بيد أن الدراسة المكثفة لقوانين جستنيان والتى بدأت فى شمال إيطاليا ، لم تكن بالدرجة الأولى نتاجا للسلفية الأدبية أو السلفية السياسية ، وإنما كانت نتيجة مباشرة لحاجات المجتمع الأوربى العاجلة .

لقد كانت مجموعة القوانين المدنية Corpus Juris Civilis هى أكبر مجموعة قانونية تم جمعها . وكانت تصور القانون فى الدولة على أنه انعكاس للقانون الطبيعى ، أى مبدأ العقلانية فى الكون . وقد جعلت قوانين جستنيان السلطة المطلقة فى إصدار القوانين وتنفيذها رهنا بمشيئة الإمبراطور . فقد كان هناك زعم بأن القانون يوجد أصلا بين الشعب الرومانى ، ولكن مايسمى بقانون الملك ( أو القانون الملكى Iex regia ) هو الذى يجعل الشعب يتنازل عن سلطاته التشريعية للإمبراطور الحكيم الخير . إن هدف القانون هو تحقيق المساواة أو العدالة ، وفى سبيل أن يتحقق هذا يحق للمحكمة أن تبدل ، أو توقف القوانين السائدة فى حالة معينة مطروحة أمامها وتحكم فى القضية على أسس أخلاقية خالصة . فالمحكمة الرومانية مركز قضائى . والمفروض أن يكون القضاة رجالا ذوى علم وتجربة ، يسمون فوق الفساد ، بل وفوق العاطفة . هذه السلطة مستمدة من وضعهم كممثلين للإمبراطور ، «القانون الحى » ، الذى يعينهم فى مناصبهم . وفى سبيل التوصل إلى الحقيقة يتلقى القضاة شهادات مكتوبة من المدعين ومن محاميى الدفاع ، ويستجوبون الشهود بأنفسهم ، وإذا لزم الأمر يستخدمون محققا « يضع السؤال » فى مصطلح القانون المدنى . وبغض النظر عن استخدام

المحقق على هذا النحو ، وهو أمر يمكن أن يكون مثار جدل ومناقشة ، فإن النظام القانونى الرومانى كان يشوبه عيبان فقط . فلم يكن ثمة جزاء يوقعه القضاة عقابا على الكذب وشهادة الزور ؛ إذ كان المفترض دوما أن المحلفين رجال ذوو حكمة بالغة ، ونزاهة ، وعزيمة حقة . وهذه المثل العليا المرتبطة بالفضائل القانونية صعبة التحقيق فى الواقع . أما العيب الثانى ، والأكثر خطورة ، فى النظام القانونى الرومانى فيتعلق بوضع المحكمة والهيئة القضائية كأدوات فى الدولة . ففى المسائل المتعلقة بقضايا الجنايات العادية يمكن أن يكون القانون الرومانى كافيا تماما ، ولكن المتهمين فى قضايا التمرد وغيرها من الجرائم التى ترتكب ضد الدولة كان يمكن أن يلقوا تحيزاً من القضاة ضدهم ، لأن القضاة من موظفى الدولة . وبعبارة أخرى ، فإن النظام القانونى الرومانى يكون فى أسوأ حالاته فى القضايا التى تتعلق بالضمير، كما أن المحكمة الرومانية تتحول ببساطة إلى أداة للظلم والاستبداد .

وفى نهاية القرن الحادى عشر كانت مظاهر الضعف فى القانون المدنى تكاد تتوارى أمام الخدمات الكبيرة لتى كان يمكن لهذا القانون أن يسديها لكل من الحكومة والمجتمع فى أوربا . فقد بدا القانون الرومانى متفوقا بدرجة هائلة على النظام القانونى الجرمانى ، الذى كان يفتقر إلى مفاهيم المساواة ، كما كان يفتقر إلى الوسائل العقلانية للتحرى ، وينقصه القضاة المحترفون ، كما كان مبعثراً لكونه عبارة عن مجموعة متضاربة من الأعراف والتقاليد غير المكتوبة . ومن ثم استوجب اكتشاف نص قوانين جستنيان البداية الفورية للدراسة المكثفة لهذه القوانين فى مدن الشمال الإيطالى . وقد تمت هذه الدراسة تحت رعاية بلديات المدن ، لأن رجال الأعمال الموسرين الذى كانت لهم السيطرة على حكومات المدن فطنوا إلى أن مجموعة القوانين المدنية تهتم بالعقلانية والنظام اللذين كانا قوام وجود هذه الحكومات . ومع أخريات القرن الحادى عشر كانت قد تأسست مدرسة كبرى لدراسة القانون فى بولونيا Bologna ، وهى المدرسة التى ظلت مركزاً لتعليم القانون المدنى طوال العصور الوسطى العالية . فقد كانت الجامعة Universitas ، أى المؤسسة التى تجمع بين الأساتذة والطلاب فى بولونيا ، رائدة فى مجال تنظيم التعليم العالى ، كما كانت تمثل جانبا من أهم جوانب التطور الثقافى فى القرن الثانى عشر .

إن الخاصية التجميعية العقلانية التى إتسم بها القانون المدنى هى التى جعلت منه موضوعا مناسبا للدراسة الأكاديمية . ومن ناحية أخرى ، كانت الطبيعة الأكاديمية للدراسة

القانونية الرومانية ذات تأثير عميق على نظرة المحامين فى القارة الأوربية فى العصور الوسطى . فقد كان من الضرورى لمن يرغب فى العمل بالمهن القانونية فى البلاد التى قبلت القانون الرومانى أن يكرس سنوات عديدة للدراسة الأكاديمية الرسمية فى ظل نظام صارم للغاية . وقد ساعد هذا على تجسيد الحقيقة القائلة بأن المحامين الشبان فى العصور الوسطى كانوا يبدون كما لو كانوا قد قطعوا من قماش واحد ؛ إذ كانوا جميعا ذوى تعليم عال وحماسة متوقدة ، بيد أنهم كانوا أيضا خاويى الوفاض بشكل عام ، كما كانوا لا إنسانيين بشكل ما ، فضلا عن أنهم كانوا مستعدين لبيع خدماتهم لمن يدفع أكثر . لقد كانوا بيروقراطيين تماما . وفى الوقت الذى كانت حكومات أوربا قد بدأت تطلب خدمات الموظفين المدنيين المحترفين الذى تلقوا تعليما قانونيا ، كانت قد تأسست فى بولونيا مدرسة بدأت فى تخريج نوعيات جديدة من الموظفين البيروقراطيين . ولم يحدث قبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر أن أخرجت جامعة بولونيا ، ومدارس القانون الأخرى التى قامت فى مناطق شمال جبال الألب عدداً من الخريجين يفى بحاجات الملكيات الأوربية . وبحلول سنة ١٢٠٠ كانت الإدارات العاملة فى خدمة دول القارة الأوربية القوية تتكون من رجال القانون المدنى Ma-gistri .

لقد سارت المعالجة الأكاديمية لقوانين جستنيان وفقا للخطوط التعليمية التى كانت تستخدم فى دراسة الكتاب المقدس منذ زمن طويل . إذ كان الأساتذة يقرأون النص لتلاميذهم ويضيفون تعليقاتهم وشروحهم عن طريق الملاحظات الهامشية ؛ ولذلك فإن العلماء الذين قاموا بالتعليق على قوانين جستنيان فى القرن الثانى عشر قد عرفوا باسم الشراح Glos-sators ومالبثوا أن نشروا النص المشروح بحيث صار مرجعا لابد لكل من يريد أن يصبح خبيراً فى القانون المدنى أن يدرسه بعناية . وأشهر رواد هذا المنهج فى الدراسة القانونية هو العالم والمدرس البولونى إيرنيريوس Irnerius ( ت ١١٣٥م ) الذى كان يجتذب الطلاب من شتى أنحاء أوربا . فقد كانت القواميس والمعاجم التى ضمَّنها إيرنيريوس شروحه علمية وتطبيقية فى آن واحد ، لأنه لم يقنع بمجرد شرح النص موضوع المناقشة ، وإنما كان يحاول أيضا أن يطبق القانون على بعض المواقف فى زمانه . وأبرز تلاميذ إيرنيريوس يعرفون بشكل عام باسم « الدكاترة الأربعة Four Doctors » وقد واصلوا عملية دمج القانون المدنى الرومانى فى حضارة القرن الثانى عشر على هذا النحو . وعندما توفى إيرنيريوس كانت جموع الطلاب تتوافد على بولونيا ، من فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، لينهلوا من موارد العلم القانونى الجديد

الذى لم يكن يقدم لهم النظام الثقافى الصارم فحسب ، وإنما كان يقدم لهم أيضا الوسيلة التى تمكنهم من الاشتغال بمهنة جديدة .

كان فردريك الأول بربروسا Fredrick Barbarossa ، إمبراطور ألمانيا فى ستينيات القرن الثانى عشر ، هو أول حاكم هام فى المنطقة الواقعة عبر جبال الألب يفيد من صحوة القانون المدنى ومن وجود القانونيين المحترفين الجدد . فقد اجتذبه القانون المدنى لسببين . إذ كان باستطاعته أن يستخدم رجال القانون فى حكومته وإدارته ، فضلا عن أن مجموعة قوانين جستنيان كانت توفر له الأيديولوجية التى تمكنه من إعادة الملكية المقدسة القديمة التى كانت قد اختفت فى طيات الصراع حول التقليد العلمانى . واستطاع بربروسا ، عن طريق الزعم بحقه فى ممارسة إختصاصات الإمبراطور الرومانى ، أن يبرر إستبداده السياسى وزيادة سلطته فى ألمانيا ؛ كما استطاع أن يستغل البراهين التى تضمنتها مجموعة قوانين جستنيان فى تأكيد سيادته على المدن الإيطالية . وحين دخل إيطاليا لأول مرة أثناء حملته الاستردادية الكبرى ، والتى قادها بنفسه ، جمع مجلسا قام فيه القانونيون العاملون فى خدمته بطرح الأسس القانونية لدعاواه فى حق السيادة المطلقة على المجتمع الإيطالى . وبطبيعة الحال ، لم يكن الأوليجاركيون فى شمال إيطاليا ليسعدون بالفوائد التى جناها الإمبراطور الألمانى من إحياء القانون الرومانى الذى بدأت دراسته أصلا بمساندتهم . بيد أن حماسة فردريك لقوانين جستنيان أوضحت كيف كان يمكن لأعمال الشرُّاح أن تتحول إلى ميزة تفيد منها الحكومات الملكية فى شمال أوربا . وعلى الرغم من أن التقاليد الوطنية القوية فى القانون الجرمانى فى الإمبراطورية قد حالت دون التطبيق الفورى للنظام القانونى الرومانى على المستوى المحلى ، فإن القانون المدنى الرومانى كان يلقى القبول في ألمانيا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، كما ظلت إجراءات هذا القانون تشكل الأسس التى يقوم عليها النظام القانونى الألمانى حتى اليوم.

وبسبب ماقام به بربروسا من ربط بين إحياء القانون الرومانى من جهة ، وسياسته وأيديولوجيته هو من جهة ثانية ، توخى ملوك آل كابيه فى فرنسا أواخر القرن الثانى عشر الحذر فى إدخال القانون المدنى إلى فرنسا . ولكن ما أن هلت سنة ١٢٠٠ حتى كان الملك الفرنسى قد اكتشف أن المحامين هم أكثر الناس صلاحية للعمل فى جهازه الإدارى النامى . ولم يتأخر دخول القانون المدنى إلى فرنسا كثيراً ، لأن رجال القانون المدنى هم الذين كانوا يسيطرون على الجهاز الحكومى الفرنسى إبان القرن الثانى عشر . وقامت مدرسة هامة لدراسة

القانون فى مونبليبه Mont pellier ، ورويدا رويدا إنتزع رجال القانون المدنى ، الذين سيطروا على الهيئة القضائية الملكية ، ماتبقى من رواسب القانون الإقطاعى والقانون الجرمانى ، وجعلوا من مجموعة قوانين جستنيان أساسا لسلطات المحاكم الملكية . وعند منتصف القرن الثالث عشر كانت المحاكم الفرنسية تتبع الإجراءات الرومانية ، على الرغم من أن هذه المحاكم كانت ماتزال تحتفظ بشخصية قضائية مستقلة . فقد تغلبت الملكية الكابية على شكوكها الأولية فى مجموعة قوانين جستنيان حين تجلت قيمة هذه المجموعة فى عملية التوحيد القانونى للمملكة بشكل أكثر وضوحًا . فضلا عن أن الملك الفرنسى اكتشف أن بوسعه إستغلال مبادئ القانون المدنى فى تدعيم مذهب الاستبداد السياسى على نحو مافعل الملك الألمانى . فقد فسر القانونيون الفرنسيون المنصب الإمبراطورى في قوانين جستنيان بطريقة تعميمية ، وخلصوا إلى أن « **كل ملك إمبراطور فى مملكته** » ، وهو مايعنى أن تكون له حقوق السلطة القانونية التى تجعلها مجموعة القانون المدنى حقا للإمبراطور الرومانى .

لقد كان تأثير إحياء مجموعة قوانين جستنيان عميقا على النظم القانونية فى فرنسا وألمانيا وكذلك فى داخل الكنيسة نفسها . إذ كان القانون الكنسى ، فى فترة تكوينه وتشكيله فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، محكوما بمفاهيم القانون المدنى وإجراءاته إلى حد بعيد . ففى منتصف القرن الحادى عشر كان العلماء الكنسيون قد بدأوا محاولة تنظيم القوانين الكنسية وجمعها من بين طيات الكم الهائل غير المرتب من الأحكام والتراث المتراكم منذ العصور الوسطى الباكرة . وكان أول من بدأ هذا العمل الصعب إثنان من الأساقفة من أبناء الشمال هما ، بيرشر الورمسى Burcher of Worms وايفو الشارترى Ivo of Char-tres . وفى سنة ١٠٥٠ م كان قانون الكنيسة يتألف من مجموعة متوارثة من التصريحات والأحكام التى أخذت عن الكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة ، والمجامع الكنسية ، والبابوات ، والأساقفة . وفى العصور الوسطى الباكرة تم عمل مجموعات مختلفة غير رسمية من القوانين الكنسية ، كانت أشهرها هى تلك المجموعة التى تنسب زوراً إلى القديس ايزيدور الإشبيلى ؛ ومن ثم عرفت باسم Pseudo - Isidorian Dectretals . وكان على الجيل الأول من القانونيين الكنسيين أن يجابهوا كما ضخما من المواد التى وضعت سويا دون الالتزام بأى مبدأ نقدى أو عقلى ، والتى كانت تحوى الاقتراحات القانونية التى يتعارض كل منها مع الآخر، بل كانت تتضمن بعض المواد المزورة . وعلى أية حال ، كان القانونيون الكنسيون

الشماليون الرواد فى القرن الحادى عشر علماء مخلصين ومقتدرين إلى أبعد الحدود ، وليس هناك شك فى أنهم كانوا يستطيعون التوصل إلى نتائج طيبة من خلال تجميعهم للقانون الكنسى . بيد أن البابوية الجريجورية لم تسمح لهم بذلك . فقد كان هيلبراند وزملاؤه فى مجمع الكرادلة يتوجسون خيفة من عملية تجميع القوانين الكنسية فى أيدى العلماء الشماليين لأنها قد تكون ضد ذلك النوع من السلطة البابوية المطلقة التى كانوا يزعمونها ، بل إنها ربما كشفت عن ماكان معتاداً فى العصور الوسطى الباكرة من منح الأسقفيات قدراً من الإستقلال الذاتى . ومن ثم قامت البابوية بتوجيه عملية تجميع القانون الكنسى وتصنيفه ، ومع مطلع القرن الثانى عشر كان قد تم إنجاز الشطر الأكبر من هذا العمل على أيدى العلماء الإيطاليين وتحت الإشراف البابوى ، وقد التزم العلماء الإيطاليون بتأكيد مذهب السلطة البابوية المطلقة .

وكان لتقدم دراسة القانون المدنى أثره فى مساعدة رجال القانون الكنسى الرومانى على استكمال عملهم . فقد جعلوا مركز البابا فى الكنيسة قرينا لمركز الإمبراطور فى الدولة . إذ تركزت كافة السلطات التشريعية فى الكنيسة فى إرادة البابا ، كما اعتبر البلاط البابوى بمثابة المحكمة العليا فى الكنيسة ، وله السيطرة الكاملة على أية محكمة كنسية أخرى فى أوربا . ومنذ السنوات العشر الأولى فى القرن الثانى عشر كان كافة القانونيين الكنسيين قد تدربوا تدريبا مكثفا فى القانون المدنى ، وكانوا يرون فى البابا إمبراطوراً مطلق السلطات فى مملكته الكنسية العالمية . هذا العمل الدؤوب لتجميع القانون الكنسى وتصنيفه آتى ثماره فى Decretum الذى أصدره المشرع والمبعوث البابوى جراتيان Gratian سنة ١١٤٠[1] . فقد

---

١ - هذه المجموعة تعرف باسم Decrtum Gratiani ، وهى عبارة عن مجموعة من القرارات والمراسيم ، والأحكام البابوية صدرت حول مختلف أمور النظام القانون الكنسى (decretals) . وكانت هذه فى الأصل خطابات بابوية مرسلة إلى الأساقفة إجابة على أسئلة أو تقارير أو دعاوى ، وقد جمعها جراتيان حوالى سنة ١١٤٠ - ١١٤١م تحت عنوان Concordantia Discordautium Canonum والمجموعة تحتوى على مايقرب من أربعة آلاف إشارة إلى مصادر كنسية عديدة ؛ مثل الدساتير الرسولية ، ونصوص آباء الكنيسة ، والقوانين الصادرة عن المجامع الكنسية فضلا عن المراسيم البابوية decretals سواء كانت أصلية أم مزورة ، وهى مؤرخة مابين القرون المسيحية الباكرة وعصر جراتيان نفسه ، بل إنها تتضمن قرارات مجمع اللاتيران سنة ١١٣٩م . وجميع هذه المصادر ، التى تتناول النظام الكنسى رتبت على نسق علمى وفقا للمنهج المدرسى Scholastic method تجعل التناقضات بين مختلف سلطات الكنيسة تبدو متوافقة بالإشارة إلى موضوع محدد . وسرعان ما أعتبرت هذه المجموعة بمثابة كتاب أساسى فى القانون الكنسى لاسيما فى مدرسة القانون فى بولونيا ، وباريس وأوكسفورد ، وصارت مرجعا ثقة فى المحاكم فى جميع أنحاء أوربا . وقد إجتذبت هذه المجموعة الكثيرين من الشراح والمعلقين منذ القرن الثانى عشر فصاعدا ، ومنهم البابا إسكندر الثالث . وهى تشكل الجزء الأول من مجموعة القوانين الكنسية Corpus Juris Canonici .

انظر : Geoffrey Barraclough , The Medieval Papacy ( London 1968) p . 96.pp. 103- ff .

(المترجم ).

عكف جراتيان على تجميع القوانين الكنسية ليواصل بذلك العملية التى كانت قد بدأت منذ قرن من الزمان ، على مبادئ القانون الكنسى ، ووفقا للمنهج الجدلى الجديد الذى كان الفلاسفة فى الجامعات الفرنسية قد بدأوا يستخدمونه . والعنوان البديل لمجموعته هو « ترتيب القوانين الكنسية المتنافرة » ( Concordati Discordautium Canonum ) ، وهو عنوان يشى بالمنهج الذى استخدمه جراتيان . إذ أنه وضع كل مبدأ متناقض وراء الآخر ، أى أنه كان يضع النظرية فى مواجهة النظرية المضادة لها ، ثم يقوم بمناقشة هدفها بُغية الوصول إلى حل منطقى للمتناقضات . وعندما كانت مصادره تختلف حول نقطة ما ، كان هو الذى يقرر مايدعم نظرية سمو السلطة البابوية . لقد أضفت البابوية على مجموعة جراتيان Dcre-tum وضعًا قانونيًا ، بحيث ظلت هى الأساس الذى يقوم عليه القانون الكنسى حتى يومنا هذا . ووضعت له ملاحق خلال القرن التالى بفضل التعليقات التى وضعها مفسرو المجموعة الذين عرفوا باسم Decretists ، وبفضل التصريحات الصادرة عن البابا إسكندر الثالث والبابا إنوسنت الثالث ، وأخيراً مجموعة جريجورى التاسع التى صدرت سنة ١٢٣٤م لتكون بمثابة كتاب إضافى عن القانون الكنسي .

لقد أدى وجود مجموعة شاملة ومنظمة من القوانين الكنسية إلى تسهيل عملية إيجاد نظام قضائى كنسى عالمى كبير ، يرتكز علي البلاط البابوى ، إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر . لقد كان تأييد القانون الكنسى لمبدأ سمو السلطة البابوية من أهم العوامل التى ساعدت البابوية فى علاقاتها مع كبار رجال الكنيسة عبر جبال الألب . ومع هذا فإننى أخطئ إذا افترضت أن كل جملة وردت فى كتاب القانون الكنسى أو فى شروح المعلقين عليه كانت تتفق وحقيقة الأمور فى العصور الوسطى . لقد كان رجال القانون الكنسى يميلون إلى الاهتمام بما هو مرغوب وماهو مثالى فقط مثل قانون وتقاليد الكنيسة العالية . ففى بلاد مثل إنجلترا حيث كان كبار الكنسيين يرتبطون بالملكيات القوية ارتباطا وثيقا ، ظلت مواد كثيرة فى القانون الكنسى معطلة ، لقد بات من الشائع بين المؤرخين فى العصر الحديث أن يأخذوا منطوق القانون الكنسى باعتباره تقريرا سليما عن وضع الكنيسة الحقيقى إبان العصور الوسطى العالية .

كان لعملية إحياء القانون أثرها على كنيسة القرن الثانى عشر من خلال طريقتين بعينهما . ففى المحل الأول وضعت هذه العملية أمام القانونيين الكنسيين نموذج الإجراءات التى

استخدموها فى ساحات القضاء الكنسى . فقد تبنت الكنيسة إجراءات المحاكم الإمبراطورية الرومانية وممارستها ، كما جاءت فى مجموعة جستنيان ، مما جعل المؤرخين الآن يتحدثون عن الإجراءات القضائية الرومانية - الكنسية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر ، كما لو كانت نظاما قانونيا واحداً . ولأن القانون المدنى كان يدعو إلى محكمة يرأسها قاض ، كما يدعو إلى منح السلطات المطلقة لممثلى الإمبراطور التشريعيين ، فقد راق هذا القانون فى عيون القانونيين الكنسيين الذين كانوا يميلون إلى السلطة البابوية المطلقة . ومن ثم ، لم يكن هناك جديد فى الإجراءات التى اتبعتها محاكم التفتيش البابوية الشهيرة فى القرن الثالث عشر . إذ كانت محاكم التفتيش محكمة مؤقتة خاصة بغرض معين ad hoc كلفتها البابوية بالتحقيق مع الهراطقة والمنشقين . فقد اتبعت إجراءات القانون المدنى أساسا ، ومن المؤكد أنها لم تبتدع شيئا من وسائل التعذيب التى تعد من حقائق تاريخ القانون الرومانى .

أما المساهمة الخاصة الثانية التى ساهمت بها عملية إحياء القانون المدنى فى تطور كنيسة العصور الوسطى العليا ، فتتمثل فى إمداد الكنيسة بالأفراد المدربين للعمل فى الإدارة البابوية النامية . فقد كانت البابوية تطلب رجالا متعلمين للعمل فى محاكمها وفى المناصب الإدارية ، وكانت مدارس القانون المدنى الجديدة تقدم أولئك الأفراد للبابوية مثلما كانت تقدمهم للعمل فى الإدارات النامية للملكيات الأوربية ، ومن ثم كان بمقدور من يتخرج من إحدى جامعات العصور الوسطى ، بعد دراسة القانون ، أن يدخل فى خدمة أي حاكم علمانى ، كما كان باستطاعته أن يواصل تدريبه بعد تخرجه فى مجال القانون الكنسى بحيث يعمل فى خدمة الكنيسة . فإذا ما تبع المسار الأول ، كان من المحتمل أن يصير يوما الوزير الأول لأحد الملوك الأقوياء المتصارعين مع البابوية ؛ فإذا ما اتخذ السبيل الثانى ( أى دراسة القانون الكنسى ) كان من الممكن له أن يختتم حياته العملية بارتقاء العرش البابوى نفسه . وكان الاختيار الأساسى للشباب الحديث التخرج من مدرسة القانون يقوم عادة على أساس وظيفى بسيط . وبحلول النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت البابوية تجند كل العاملين فى جهازها الإدارى تقريبا من خريجى مدارس القانون الأوربية ، وجميع البابوات الذين اعتلوا عرش القديس بطرس فيما بين سنة ١١٥٠ وسنة ١٣٠٠ تلقوا تعليمهم الأولى فى القانون الكنسى ، باستثناء واحد فقط . وكان هذا يعنى أن العاملين فى الجهاز الإدارى البابوى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانوا مدربين بشكل جيد وعلى قدر كبير من المهارة ، بيد

أن هذه الخلفية التشريعية المتجانسة لزعماء البلاط البابوى كانت لها أيضا نتائج أقل توفيقا. فهى ، من ناحية ، تعد من أسباب الصعوبات الجسيمة التى جابهتها البابوية فى العصور الوسطى العليا حين اصطدمت بمشكلة توجيه موجة التدين الشعبى الجديد والسيطرة عليها . فقد كان البابوات - القانونيون الذين اعتلوا عرش البابوية فى القرن الثالث عشر أكثر نجاحا فى إنجاز المهام الإدارية منهم فى القيام بالمسئوليات الروحية المنوطة بمناصبهم . ذلك أن تعليمهم القانونى وخبرتهم البيروقراطية لم تعلمهم كيف يتعاملون مع روح التدين العاطفى والاتجاهات الهرطقية التى استشرت فى المجتمعات الحضرية .

كانت انجلترا هى البلد الأوربى الوحيد التى لم يخضع نظامها القانونى لتأثير مجموعة قوانين جستنيان خضوعا كاملا . فبينما كان القانون المدنى قد بدأ يتسرب داخل النظم القانونية فى ألمانيا وفرنسا فى القرن الثانى عشر ، كان القانون الإنجليزى يسير فى اتجاه آخر، ويطور النظم والمؤسسات والمبادئ التى كانت تختلف اختلافا بينا عن الأسس النظرية والإجراءات التى يقوم عليها القانون الرومانى . وكان لهذا البعد أثره العميق على كل من الحكومة والقضاء فى انجلترا فى العصور التالية ، وهو يُشكِّل واحداً من أبرز الأمثلة الدالة على طريقة تأثير التغيرات الثقافية فى القرن الثانى عشر على مجرى التاريخ الأوربى فيما بعد . ومن ثم ، فإن أية دراسة للقرن الثانى عشر لايمكن أن تتجنب السؤال الذى يطرح نفسه عن السبب فى أن انجلترا قد طورت نظامها القانونى الخاص بمنأى عن النظام القانونى الرومانى . وكثيرون من المؤرخين الإنجليز تجاهلوا هذه المشكلة تماما . وافترضوا ببساطة أن القنال الإنجليزى كان كافيا لأن يبعد انجلترا عن التغيرات الكبرى التى كانت تجرى فى القارة. وعلى أية حال ، فإن هذا الفرض ليس صحيحا لأن انجلترا القرن الثانى عشر كانت تابعا ثقافيا لفرنسا . ذلك أن الفن الإنجليزى والأدب والتطور الدينى فى القرن الثانى عشر كان واقعا تحت التأثير الفرنسى إلى حد كبير ؛ فلماذا إذن كان القانون الإنجليزى خارج نطاق هذا التأثير الثقافى ؟ .

وليس حقيقيا أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن معروفة فى انجلترا . فقد كان هناك واحد من أبرز العلماء البولونيين يقوم بالتدريس فى انجلترا منذ أربعينيات القرن الثانى عشر، كما أن كثيرين ممن عملوا فى الجهاز الإدارى الملكى ، فى الشطر الأخير من عهد هنرى الأول ، تلقوا تعليمهم فى فرنسا وإيطاليا . كما كانت غالبية القضاة فى عهد هنرى الثانى من رجال

الكنيسة الذين تلقوا الدراسات التمهيدية المعتادة فى الإجراءات القانونية الخاصة بالقانون الرومانى والقانون الكنسى ومبادئ كل منهما . ومن المؤكد أنهم كانوا على درجة كافية من الدراية بالقانون الرومانى بحيث يدخلونه إلى انجلترا . وقد افترض المؤرخون الليبراليون الإنجليز فى القرن التاسع عشر أن التراث القانونى الجرمانى ، الذى يرجع أصلا إلى الفترة الأنجلو - سكسونية ، كان من النقاء والقوة بحيث لم تكن أمام القانون الرومانى أية فرصة للتفوق عليه . هذا الرأى ينطوى على قدر من الحقيقة ، بيد أنه لايأخذ فى الحسبان بعض حقائق الموقف الفعلية . فبينما أدى الغزو الأنجلو - سكسونى إلى طمس معالم القانون الرومانى الدارج فى انجلترا طمسا تاما بحيث صار النظام القانونى الجرمانى هو الذى يحكم الممارسات والمذاهب القانونية الإنجليزية خلال فترة ماقبل الغزو النورمانى ، لم يكن الحكام الأنجلو - نورمان ، بعد الغزو ، ليهتمون بالحفاظ على القانون الرومانى . ولم يكن ثمة مايدفع الملوك الإنجليز بعد سنة ١٠٦٦م إلى التحمس للمدلولات السياسية فى القانون الجرمانى ، الذى كان قد انحرف فى اتجاه مصالح الجماعات المحلية ضد الحكومة المركزية القوية . لقد كانت السلطة القانونية المطلقة والمركزية التى تنطوى عليها مجموعة قوانين جستنيان أكثر توافقا مع سياسة الملوك الأنجلو - نورمان وملوك أسرة أنجو من النظام الجرمانى القديم . وكان لهنرى الثانى أن يفرض القانون المدنى الرومانى على انجلترا ، فقد كان ذلك يتلاءم مع ميوله العامة مثلما كان مناسبا للاتجاه العام لبربروسا ، أو أسرة كابيه . وينبغى فى النهاية أن نشير إلى أن وجود قانون جررمانى بسيط فى الإمبراطورية لم يمنع الحكام الألمان من تطبيق القانون المدنى الرومانى فى بلادهم فى نهاية المطاف . أما سلطة هنرى الثانى على انجلترا فكانت أعظم كثيراً ، ومن المؤكد أنه كان يستطيع أن يفرض مجموعة قوانين جستنيان على مملكته ؛ بيد أنه لم يفعل ذلك . وهكذا يبقى السؤال مطروحا : لماذا بقيت انجلترا خارج منطقة النظام القانونى الرومانى ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال تبرز من طيات الجدول الزمنى لأحداث القرن الثانى عشر . ولأن الملكية الأنجلو - نورمانية كانت تسبق أية حكومة أخرى فى أوربا بنصف قرن على الأقل من حيث تطور مؤسساتها المركزية . فإنها أحجمت فى النهاية عن قبول القانون الرومانى . وخلال فترة تأسيس السلطة الملكية فى انجلترا ، فيما بين سنة ١٠٦٦ وسنة ١١٣٥ ، لم تكن

نصوص مجموعة قوانين جستنيان متاحة فى مناطق شمال الألب التى لم تكن تحصل على حاجتها من خريجى مدارس القانون الجديدة للعمل فى الأجهزة الإدارية . فقد تعين على الحكومة الملكية ، وهى تبنى سلطتها ، أن تستخدم كافة ما يتاح لها على الرغم من أن هذا المتاح لم يكن مناسبا لبناء السلطة الملكية المركزية المطلقة . وقد أبقى الملوك الأنجلو - نورمان المقاطعة Shire والمحاكم المائة ، التى ترجع أصلا إلى النظم الجرمانية القديمة ، كما أتاحوا لها أن تبقى بإجراءاتها القضائية ومبادئها القانونية ثابتة دونما تغيير فى أساسها . إذ استمرت سيطرة الرجال البارزين فى المناطق المجاورة ، أو فى الكونتية ، على المحكمة ، كما استمر نظام المرافعة الشفوية ، فضلا عن استمرار استخدام التعذيب كوسيلة للتحقيق ضمن الإجراءات الجنائية . لقد كانت الحكومة الملكية تنشد لنفسها نوعا من الإشراف العام على ممارسات المحاكم المحلية عن طريق إرسال مجموعات من القضاة الجوالين ليتولوا رئاسة هذه المحاكم فى أيام التقاضى ولكن مهمة القضاء كانت تنحصر فى مجرد الاطمئنان على اتباع الإجراءات الصحيحة ، وفرض أحكام العقوبات ، وجمع الغرامات والعقوبات المالية . وظلت المحاكم المحلية الإنجليزية محاكم للجماعة ، كما أن مبادئها حافظت على المبدأ الجرمانى القائل بأن القانون ينتمى إلى الجماعة ولايمكن تغييره دون موافقة الأمة السياسية ، أى الطبقات الهامة فى المجتمع .

وقد أعاد القانون الإقطاعى الذى سارت عليه المحكمة الملكية Curia regis لهذا التراث الجرمانى قوته . فقد كان الملك برأس المحكمة الملكية ويسودها ، إلا أنه لم يكن يسيطر عليها سيطرة كاملة . إذ كانت التغييرات التى تجرى فى القوانين تتم بموافقة الكبار ، وهو الأمر الذى يتناغم مع التقاليد الجرمانية القاضية بالسلطة التشريعية للشعب ، وفى القضايا التى كانت تنشب بين الملك وأحد أفصاله كان القرار يصدر عن السادة الإقطاعيين المجتمعين . وقد حسن وليم الفاتح من الإجراءات الجرمانية البالية غير الفعالة عندما أدخل نظام الاستجواب الفرنجى - النورمانى إلى انجلترا وكلف القضاة بأن يستخدموه فى القضايا المدنية ، ولكن هذا أيضا لم يكن سوى تدعيم للمذهب الذى يقوم عليه القانون الجرمانى . إذ كان نظام الاستجواب يتطلب من القضاة أن يزيدوا من اعتمادهم على آراء الرجال البارزين فى المجتمع، لأنهم كانوا يشكلون هيئة المحلفين الذين كانت شهادتهم من عوامل الحسم فى القضايا

القانونية المتعلقة بالشئون المدنية . وقد شجع نجاح نظام الاستجواب فى الشئون القانونية الدقيقة الحكومة الملكية على استخدامه فى أغراض إدارية . كذلك ، فإذا كان بوسع القضاة أن يدلوا بشهادتهم فى أمور مثل دخل السادة الإقطاعيين المحليين ( وهى شهادة كانت مطلوبة لأغراض ضريبية ) ، فإن الحكومة لن تكون مضطرة إلى تعيين مندوبين ملكيين للقيام بهذه الأعمال . وفى الأيام التى سبقت ذلك الفيض من خريجى مدارس القانون الأوربية ، كان من الصعب.وجود الأفراد الذين يمكن الاعتماد عليهم فى شئون الإدارة . وهكذا ، كانت الملكية الإنجليزية فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر قد اعتادت على أن تستخدم ممثلين دون أجر فى المجتمعات المحلية يقومون بالشطر الأكبر من المهام القانونية والإدارية فى الكونتيات.

حين اعتلى هنرى الثانى العرش سنة ١١٥٤م ، وجد نظاما قانونيا يتألف من عناصر جرمانية وإقطاعية ، إلى جانب عناصر إضافية أخرى جمعها رجال القانون الملكيون بعد نصف قرن فى قانون عام يحكم المملكة بأسرها . هذا النظام المتمايز كانت له نقائص محددة . إذ كان مايزال يعتمد على المرافعة الشفوية ، التى جعلت منه نظاما فوضويا بالقياس إلى النظم القانونية المدنية التى كانت آخذة فى الانتشار فى شتى أرجاء أوربا . ولم يكن هذا النظام ينطوى على أية مفاهيم عن المساواة ، كما كان يفتقر إلى وسائل وقف القانون فى الحالات الخاصة لصالح العدالة المجردة . والحقيقة أن هذا النظام القانونى كان يفتقر إلى فكرة العدالة ، على الرغم من كونه مكرسا للسلام والنظام . ففى القضايا الجنائية كانت إجراءات القانون العام تتحيز تحيزاً شديداً ضد المتهم ، ولاسيما إذا كان ينتمى إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع. ذلك أن الفرد الذى كانت تسوء سمعته فى مجتمعه تتضاءل فرصته فى النجاة لأن رأى جيرانه كان هو العامل الحاسم فى القضايا الجنائية ، ولأن التحقيق والبحث عن الأدلة والبراهين من خلال المحكمة لم يكن معروفا . ولأن هنرى الثانى كان رجلا فرنسيا ذا فكر عالمى ، كما كان من أفضل ملوك القرن الثانى عشر تعليما ، فقد أدرك تماما أن القانون العام لايصمد للمقارنة أمام القانون الرومانى من عدة وجوه ، كما أن القانونيين العاملين فى خدمته ، والذين تدربوا على إجراءات القانون الرومانى/ الكنسى لم يكونوا غافلين عن هذه الحقيقة . إلا أن حكومة هنرى الثانى قررت أن تترك القانون العام ساريا وعدم القضاء عليه بإدخال إجراءات القانون المدنى ومؤسساته . إذ كان القانون العام قائما بالفعل ؛ فقد كان يؤدى دوره بسلاسة ويحظى بالقبول الشعبى . وفضلا عن ذلك كله ، كان هنرى الثانى يحبذه لأنه كان رخيص التكاليف .

فقد كان يتطلب عدداً قليلا للغاية من القضاة بالمقارنة مع النظام الرومانى ، ومع ذلك فإنه كان يدر مكسبا ثابتا للتاج . كما أن استخدام المحلفين فى الأغراض الإدارية على المستوى المحلى أتاح للحكومة الإنجليزية أن تعمل بأقل عدد ممكن من الموظفين المكتبيين ، وأن تستعيض بالخدمات المجانية التى يقدمها النبلاء المحليون عن أعداد جيش كثير النفقات من المندوبين الملكيين . وقد أطلق أحد المؤرخين على هذا النظام اسم « الحكم الذاتى بأمر الملك » . ولو لم تكن هذه النظم الإنجليزية المتمايزة سارية بالفعل قبل سنة ١١٥٤ ، فلاشك فى أن هنرى الثانى كان سيدخل إلى انجلترا النمط الرومانى فى القضاء والإدارة المركزية الذى عرفته الملكية الكابية فى أواخر القرن الثانى عشر . فقد قنع هنرى بتحسين الإجراءات القانونية الإنجليزية بالتوسع فى استخدام نظام المحلفين فى القضايا المدنية ، وإدخال القضاة الكبار المحلفين فى الدعاوى الجنائية . وكانت وسائل التعذيب ( المحنة ) ماتزال تستخدم لإقامة الدليل فى القضايا الجنائية ، ولكن هذا الأمر انتهى بقرار مجمع اللاتيران الرابع سنة ١٢١٥م، وفى القرن الثالث عشر كان القانون الإنجليزى العام قد استكمل صيغته ونظمه المعروفة مع تطور قانون المحلفين .

وهكذا كان الحفاظ على القانون العام ، بنغماته الجرمانية القوية ، نتيجة لانسجامه مع مطالب حكومة هنرى الثانى . ولم يكن هنرى ومعاونوه بغافلين عن حقيقة أن النظرية السياسية فى القانون العام كانت أقل تأييداً للسلطة الملكية المطلقة من قوانين جستنيان . بيد أن المزايا العامة للقانون العام كانت أكثر من أن تُهمل في سبيل هذا الأساس النظرى للسلطة الملكية . كان هنرى يعتقد أن بوسعه أن يحرز السلطة الفعلية المطلقة من خلال الاستغلال الكفء للنظم الإنجليزية القائمة . وبينما قدر له أن ينجح فى مسعاه صوب هذا الهدف بدرجة ملحوظة تماما ، فقد حفظ القانون العام للأجيال المستقبلة فى انجلترا فكرة أن القانون يوجد فى السلطة التشريعية لكل من الملك والمجتمع ، وأنه ليس مجرد تعبير عن الإرادة الملكية . وهكذا ، فإنه بينما تنص قوانين جستنيان على أن « إرادة الإمبراطور لها قوة القانون » تنص النظرية القانونية الإنجليزية على أن الملك يخضع للقانون ، شأنه فى ذلك شأن أى فرد فى المجتمع . وقد لاحظ أحد المشرعين الإنجليز فى القرن الثالث عشر أن القانون الإنجليزى يقوم على قواعد وليس على الإدارة . ويبدو تأثير تراث انجلترا القانونى فى القرن الثانى عشر واضحا حتى اليوم ، كما هو الحال بالنسبة لفرنسا وألمانيا والكنيسة الكاثوليكية .




المراكز الثقافية والدينية فى أوربا العصور الوسطى

### ٣ - جيل عظيم : زعماء خمسة للفكر والمشاعر فى القرن الثانى عشر

كان لابد لأى طالب فى جامعة باريس سنة ١١٤٠ أن يواجه مباشرة ، أو بطريقة غير مباشرة ، الزعماء الخمسة الكبار الذين قادوا الفكر والتعبير الأوربى أثناء موجة المد العالمية التى واكبت الإحياء الثقافى فى القرن الثانى عشر . وهناك إيقاع واضح فى التاريخ الثقافى ، يشد العبقريات الخلاقة إلى بعضها البعض ، فى جيل واحد مبدع على نحو إعجازى ، كما يربط بين أعمالهم ذات الحيوية الفائقة وبين أحد المراكز الحضارية ، وذلك بعد أن تكون قد مرت عصور طويلة من التفكير الاجترارى والتقليدى . ذلك أن أثينا بريكليس ، ولندن شكسبير ، وباريس فولتير وديدرو ، ترد على البال مباشرة . إنه درس من التاريخ يعلمنا أن العبقرى لايظهر فى صحراء فكرية أو مادية ، ولكنه يتطلب التحدى والحماية من بيئة تمتلك زمام المبادرة ، كما يتطلب صحبة غيره من العقول والشخصيات العظيمة . وقد كشفت حضارة العصور الوسطى عن مثل هذه اللحظة الخلاقة والمكان الإبداعى فى باريس إبان العقدين الرابع والخامس من القرن الثانى عشر . فقد ظهر خمسة من قادة الفكر والمشاعر تلاقى كل منهم مع الآخر على ضفاف نهر السين ، وكانوا يمثلون كافة الجوانب الهامة فى التغير الثقافى فى تلك الفترة كما كانوا هم سادة هذا التغير . ومن الممكن أن نعتبر أن تاريخ الفكر فى العصور الوسطى فيما بعد كان نتاجا لما خلفوه من تراث ثقافى واسع الثراء . ذلك أن الفترتين التاليتين فى التطور الثقافى فى العصور الوسطى ، بما تميزتا به من دقة وحرج فيما بين سنة ١٢٤٠ وسنة ١٢٧٠ ، ثم ما بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٢٠ ، اهتمتا أساسا بمجابهة التحدى الذى طرحته الأفكار والعواطف التى غرسها الزعماء الثقافيون الكبار فى القرن الثانى عشر فى تيار الفكر الوسيط . وقد مات أربعة من أولئك القادة الثقافيين فى أربعينيات أو خمسينيات القرن الثانى عشر : وهم سوجيه Suger وأبيلارد Abelard وأتو الفريزى Otto of Freising ، والقديس برنار St.Bernard - ويمكن بشئ من التجاوز أن نعتبرهم أبناء جيل واحد . أما الخامس ، وهو حنا السالزبورى John of Salisbury فكان ينتمى إلى جيل أصغر وعاش حتى ثمانينيات القرن الثانى عشر ، ولكنه قام بمعظم أعماله الثقافية الهامة قبل سنة ١١٦٠ ؛ ومن ثم يمكن اعتباره معاصراً للأربعة الآخرين . كان ثلاثة من هؤلاء فرنسيين ، وألمانيًا واحداً ، وإنجليزيًا واحداً ؛ ولكن أي دراس فى باريس كان بوسعه أن يكتشف بصماتهم الفكرية على جميع ماحوله ، وكان لابد أن يجرب ذلك الشعور النادر بالرضى والنشوة الذى ينتاب المرء حين ينال امتياز الدراسة فى المركز الحيوى لعصر ثقافة جديدة تلوح بشائره .

فخلال شوارع باريس الضيقة الملتوية ، حيث كانت الذئاب ماتزال تظهر فى بعض ليالى الشتاء ، كان الطلاب من شتى أرجاء القارة الأوربية يشقون طريقهم صوب الكاتدرائية القائمة فى « الحى اللاتينى » . وتحت رعاية أسقف باريس كانت قد تأسست مدرسة للدراسات العليا. وكان مقدراً لجامعات شمال أوربا أن تنمو من صلب هذه المدرسة الكاتدرائية ومثيلاتها، مثل مدرسة شارتر التى يحتمل أنها كانت أول مدرسة يتم تنظيمها . وبالمعنى الفنى لم تكن المدرسة الكاتدرائية تتطلب سوى اندماج الأساتذة فى الجامعة Universitas ، أو نقابة ، لكى يحدث هذا التقدم . وكان العلماء الذين يحصلون على تصريح من أسقف باريس للتدريس فى مدرسته يتناولون بالدراسة موضوعات لم يكن لها مكان فى العالم الفكرى المحكوم بظروف الدير . وكان هؤلاء على استعداد لتحليل وحل المشكلات العويصة فى الفكر الغربى بفضل استخدامهم لأدوات الجدل الثقافية التى استمدوها من ذلك الجزء من منطق أرسطو الذى كان بوئثيوس قد ترجمه إلى اللاتينية فى القرن السادس الميلادى : هذه المشكلات تتعلق بطبيعة العالم ، وطبيعة الإنسان ، وفوق هذا وذاك طبيعة الألوهية ، والعلاقة بينهم جميعًا . ولم يحدث مثل هذا التأمل والتفكير منذ عصور آباء الكنيسة سوى فى القليل النادر ؛ فقد كان عالم العصور الوسطى عالمًا يناضل فى سبيل البقاء المادى ، على حين كان الإبقاء على التعليم نفسه نضالاً مستمراً ، بل إنه كان عالمًا يرسى أسس النظام الاجتماعى مما أوجب عليه أن يشغل نفسه بأكثر المشكلات إلحاحًا ، ولم يكن بمقدوره أن يترك أفضل العقول لمجرد التفكير والتأمل ، وكان هذا هو الحال فى القرنين التاسع والعاشر . وفى أخريات القرن الحادى عشر كان بوسع أوربا أن تستمتع بترف الفكر الراقى ، وفى ظل حماية الأساقفة الأثرياء المثقفين فى شمال فرنسا ؛ فى شارتر أولاً ثم فى غيرها من الأماكن مثل ليون وباريس واستؤنف الحوار الثقافى الكبير فى تاريخ الحضارة الغربية . وعلى مدى عشرين أو ثلاثين سنة كانت المناقشات الدائرة حول طبيعة العالم المسيحى تسترعى انتباه بعض أفضل العقول فى الفلسفة ، والعلوم ، واللاهوت . ولكن انتهاء النزاع حول التقليد العلمانى حرر الطاقة الفكرية الزائدة فى أوربا لكى تنشغل فى الاستدلالات الفكرية التأملية .

لقد كان من الصعب إرواء الظمأ الثقافى للجيل الذى وصل سن النضج حوالى سنة ١١٠٠ ميلادية . فمن مناطق فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، ومن إيطاليا أيضا سار الدارسون الكنسيون على الطريق بغية التتلمذ على أحد الأساتذة المشهورين ممن وصلت شهرتهم إلى

مواطن أولئك الدارسين . وفى ستينيات القرن الحادى عشر ظهر برنجار التورى Bréngar كأول مثال على ذلك النمط من الأساتذة الذين لم يلبثوا أن انتشروا ليجتذبوا ألمع الشبان بفضل سحر عقولهم وجاذبية شخصياتهم . وجاء سقوط برنجار فى فخاخ الهرطقة تأكيداً لشكوك المعادين للثقافة مثل داميانى واللاهوتيين المبالغين فى الحيطة والحذر من أمثال لانفرانك ، وهى شكوك مؤداها أن الجدل يمكن أن يكون بسهولة فى غاية الخطورة كما يمكن أن يُساء استخدامه ، ولكن هذا لم يكن يمثل عقبة فى سبيل انتشار الحركة الثقافية الجديدة أو ازدياد عدد من يقلدون برنجار . ففى عالم ينمو ليكون أكثر تنظيما ، وثراء وسكانا ، وتعليما ، لم يكن ممكنا أن تقنع أفضل العقول من أبناء الجيل الصاعد بامتلاك ناصية المعرفة فى تراث الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة . ذلك أن استفسارهم الفكرى القلق هشم الإطار الذى كان الكوين ، وبيديه ، بل وأوغسطين يعملون داخله وعادوا القهقرى عبر قرون الصمت يلتمسون العون والهداية من الفلسفة والعلوم اليونانية .

ولم يكن هناك أحد فى سنة ١١٠٠ ، أو حتى فى سنة ١١٤٠ ، على يقين من الاتجاهات النهائية لحركة التعليم الجديدة . فلم يكن بمقدور أحد أن يتصور فى وضوح إعادة بناء عالم الفكر المسيحى الذى سوف ينجم عن التحقيقات الجديدة فى الفلسفة والعلوم واللاهوت . ومع هذا ، فإنه لم يكن هناك أحد ، ولا حتى أولئك الذين راودتهم الشكوك حول جدوى أو أهمية الوسائل الجديدة اجتماعيا ، بقادر على أن يتجاهل التحقيقات والبحوث الجديدة التى يقوم بها الأساتذة والطلاب فى المدارس الكاتدرائية فى شمال فرنسا . وفى بواكير القرن الثانى عشر كان يتضح يومًا بعد يوم أن المعرفة قوة ؛ فقد انطلق كثيرون من أبناء الجيل الذى وصل إلى سن النضج حوالى سنة ١١٠٠ صوب المدارس الكاتدرائية الجديدة للمشاركة فى الثورة الثقافية دون أن يعبأ بضخامة وصعوبة العمل الذى اضطلعوا للقيام به ، بل ودون أن يفكروا فى استخدام محدد لهذا التعليم الجديد . وتقدم المعاصرون البارزون ، ممن لم يستسيغوا المناهج الجدلية الجديدة ، والذين كان اهتمامهم منصبا على تأثيرهم البعيد على عالم الفكر المسيحى التقليدى عن طريق نظم بديلة مستمدة من الأفلاطونية الجديدة التى انتشرت فى العصور الوسطى الباكرة ، ومن النزعة الإنسانية الكلاسيكية ، أو من المصادر العاطفية لمشاعر التدين الجديدة . ولكن هذا لم يوقف الطفرة الثقافية التى أدلت فيها الجامعات بدلوها . إذ أضاف إليها جوانب جديدة كما أثرى تأثيرها وكثف من وقعه . هذان المدخلان الإضافيان ساعدا على

جعل النمو الثقافى فى القرن الثانى عشر حركة أكثر تعمقا وأشد تعقيداً ؛ بحيث تؤثر على كافة الجوانب الأخرى فى الثقافة الراقية ، كما ساعدت على تعدد وجسامة المشكلات التى كان على الأجيال اللاحقة من مفكرى العصور الوسطى أن يعالجوها .

كان كثيرون من الطلاب فى أربعينيات القرن الثانى عشر يمرون بدير سان دونى الملكى وهم فى طريقهم إلى المدرسة الكاتدرائية . وكانت تنتابهم الدهشة من نتائج إعادة بناء كنيسة سان دونى الكارولنجية القديمة تحت إشراف سوجيه رئيس الدير . فقد جرؤ رئيس الدير على أن يبتعد بشكل جذرى عن فن بناء الكنائس فى شمال إيطاليا والقسطنطينية حيث كان طراز الرومانسك Romanesque هو الطراز الشائع فى الفن الغربى . وكان الطلاب الوافدون إلى باريس من إنجلترا أو نورماندى يظنون أنهم رأوا فى عمل مقدم الدير تأثير الكاتدرائيات النورمانية التى كانت قد بدأت تنصرف عن التأثير الرومانسكى ، الذى يهتم بخطوط البناء الأفقية ، وتتجه إلى الشكل الرأسى والعقود المضلعة . إلا أن كثيراً من جوانب البناء الذى أعاد سوجيه بناءه لايمكن أن نجد لها مثيلاً فى أى مكان ؛ فقد كان ذلك البناء طرازاً فرنسيا جديداً ، مبتكراً ومذهلا مثل الأفكار الجديدة التى كانت تجرى مناقشتها فى المدارس الكاتدرائية . ففوق مدخل كنيسة سان دونى وضعت نافذة وردية من الزجاج المرسوم ، تشهد صناعتها بعبقرية ومهارة الصناع الذين استخدمهم رئيس الدير . وتم بناء جوانب الكنيسة على أساس التأكيد علي الخطوط الرأسية ، وبعكس الحوائط الصماء الموجودة فى الكنائس الرومانسك ، فتحت فى الواجهة الصخرية نوافذ كبيرة تسمح بدخول الضوء لكى يغمر داخل الكنيسة وينير المذبح .

وللوهلة الأولى لايبدو سوجيه مناسبًا لدور من يبدأ طرازاً معماريًا جديداً فى غضون ألف وسبعمائة سنة . إذ أنه يبدو من مظهره رجلا نمطيًا من رجال العصور الوسطى الباكرة . كما يبدو متوافقا مع الثقافة الكلونية التى سادت القرن العاشر أكثر منه مع عالم الثورة الثقافية الذى كانت باريس تمثله فى القرن الثانى عشر . فقد أمضى حياته كلها فى دير سان دونى ، وهو الدير الذى كان قد ارتبط بالملكية الفرنسية منذ القرن التاسع . ولأن دير سان دونى ينتسب إلى دير كلونى ، كما كان هو الدير الذى يحفظ التاج والصولجان والشعارات الملكية الفرنسية ، فقد كان لابد له من أن يتورط فى شئون الأسرة الملكية . وقد صورت الرابطة الوثيقة التى تجمع بين سان دونى والأسرة الملكية الكابية بطريقة رمزية على واجهة كنيسة

سوجيه . فقد صار هو الوزير الأول ، ثم كاتب سيرة لويس السادس . واستمر سوجيه يسدى خدماته الجليلة حتى وفاته سنة ١١٥١م إلى لويس السابع الذى تولى هو تعليمه ، وعندما كان لويس غائبًا فى حملته الصليبية المنكودة [٢]، قام سوجيه بعمله نائبًا عنه وأدار الحكومة الكابية باقتدار . وهكذا يمكن القول بأن رئيس دير سان دونى كان آخر رجال الدولة الكبار فى العصور الوسطى ، فقد كان خليفة لسان بونفياس ، والكوين ، ولانفرانك أسقف كانتربورى . ومن المؤكد أن خلفيته كانت تميزه تماما عن كبار موظفى الملكية الفرنسية فى القرن الثالث عشر.

ويبدو أن ثقافة سوجيه أيضًا تميزه واحداً من أهل العصور الوسطى الباكرة ؛ إذ أنه كان مفكراً محافظًا ليس له احتكاك بالتيارات الفكرية السارية فى زمانه . ويمكن التعبير عن فلسفته فى الفن ؛ وهى التى برر بها الطراز الذى أعاد بناء كنيسته وفقا له ، من خلال مصطلحات الأفلاطونية الجديدة التى سادت العصور الوسطى الباكرة . فقد تأثر كثيراً بكتابات ديونيسيوس الزائف Pseudo-Dionysius ، وهو راهب سورى مجهول عاش فى القرن الخامس اعتبره صنوا لسان دونى ، تلميذ القديس بولس وحوارى فرنسا الذى كانت كنيسة سوجيه مكرسة له . وكانت الفلسفة الديونيسيوسية / الأفلاطونية الجديدة مرجعًا لسوجيه فى القانون الكنسى ؛ إذ أنه استخدم تشبيه هذه الفلسفة للألوهية بالنور فى تفسيره لوظيفة النوافذ الجديدة فى كنيسته حين قال إن وظيفتها هى إنارة المذبح بفيض مقدس .

هذه الجوانب من حياة سوجيه العملية وعقائده ، التى تبدو كما لو كانت مخلفات عتيقة تخلفت عن عصر مضى ، تقابلها خصال أخرى تجعله واحداً من زعماء جيل من المبدعين . وبينما كان أكثر محافظة من المحامين الذين قُيضَّ لهم أن يسيطروا على الجهاز الإدارى للملوك آل كابيه فى نصف القرن التالى ؛ فإنه يشبه أولئك القانونيين magistri من حيث استخدامه لملكة الذكاء والنقد فى حل مشكلات الحكم فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن الملوك الفرنسيين كانوا مايزالون يتوجون بنفس الأسلوب الكارولنجى القديم ، فإن سوجيه لم يحث سادته الملكيين على التأكيد المستمر للدعاوى الثيوقراطية التى عادت بالامتهان على الملوك الكابيين الأوائل ، بل وعلى لويس السادس . وبدلاً من ذلك فإنه ساند السياسة الواقعية المعقولة التى تبنى السلطة الملكية بحرص فى المناطق المحيطة بباريس ile - de - France .

---

٢ - الحملة الصليبية الثانية التى جردها الغرب الأوربى بعد أن استرد المسلمون الرها سنة ١١٤٤ ميلادية وقد فشلت فشلا ذريعًا . ( المترجم)

ويبدو أن التركيز على موارد الممتلكات الملكية باعتبارها منطلقًا لتدعيم السلطة الملكية ، وهى السياسة التى صارت سياسة أساسية للملكية الكابية فى الفترة الأخيرة من حكم لويس السابع - يبدو أن هذا قد بدأ للمرة الأولى على يد رئيس دير سان دونى .

ولاينبغى أن تحول اقتباسات سوجيه من كتابات ديونيسيوس الزائف بيننا وبين فهم المغزى الأساسى لابتكارته الفنية . إذ أن الغرض من إنجازه المعمارى كان إيجاد مكان للعبادة أكثر إلهامًا . ذلك أنه لم يكن يعتبر كنيسة سان دونى مجرد كنيسة صغيرة للرهبان ، وإنما اعتبرها كنيسة يمكن للناس فى باريس أن يشعروا فى رحابها أنهم أقرب إلى الرب منهم حين يكونون داخل البنايات الكنسية التى انتشرت خلال العصور الوسطى الباكرة . فخلف المنظر الخارجى الخشن لرجل الدولة الراهب يمكن أن يتوارى ذكاء مخلص متألق يعى تمامًا ويدرك موجة التدين الشعبى الجديد والحماسة المتأججة فى صدور العلمانيين لإقامة علاقة أكثر وداً مع الرب . وفى مقالته عن إعادة بناء كنيسة سان دونى ، يصف سوجيه بالتفصيل خططه لإثراء داخل الكنيسة وتجميله . كما أن تقريره عن بحثه عن الأوانى الفخمة والجواهر اللازمة للمذبح ، بالإضافة إلى ابتكاراته المعمارية التى أضاءت داخل الكنيسة ، تشى بإحساس عميق بالوظيفة التعليمية للفن الدينى .

ومع ذلك فهناك جانب آخر فى أعمال سوجيه يجعله جديراً بأن يكون معاصراً لأساتذة وطلاب مدرسة باريس . إذ أنه تمثل ، ونفذ ، طرازاً جديداً من البناء الكنسى دون الاعتماد على أية طرز سابقة . هذه الروح الإبداعية كانت تنطوى على جسارة وجرأة فى التخلى عن المواقف الفكرية التى شاعت فى العصور الوسطى الباكرة ، وهى مواقف كانت غايتها الحفاظ على أفضل ماخلفه الماضى من تراث . وبفضل ثقة سوجيه فى صلاحية أحكامه ، وبفضل جسارته فى متابعة نتائج هذه الأحكام فإنه يقف متميزاً باعتباره واحداً من ذلك الطراز الجديد من المفكرين التقدميين الذين يعتزون بأنفسهم والذين ظهروا فى غضون القرن الثانى عشر . لقد تمت إعادة بناء كنيسة سان دونى بعمل هائل وعناية فائقة . وكان على سوجيه أن يغامر بإنفاق شطر كبير من ثروة الدير الذى يرأسه ، كما تعين عليه أن يجند عمال البناء ويستشير المهندسين المعماريين ، وأن يجند الحجارين ، وقاطعى الزجاج ، فضلا عن العمال العاديين ، ثم يشرف بنفسه على أعمالهم جميعًا حتى يتم له البناء بالشكل الذى يريده .وبعد كل هذا الوقت وكل هذا المال الذى أنفقه لم يكن هناك مايؤكد أن النافذة الوردية ، والجزء الذى يضم جميع

النوافذ لن يسقط لكى يتحطم فوق رؤوس جمهور المصلين . إن ماتميز به سوجيه من اعتداد بأفكاره ، ومهارة فى التنظيم تعتبر عناصر أهم كثيراً فى تكوين خلفيته من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى نبعت منها رؤيته الفنية ، وهى الفلسفة التى كانت قائمة فى الوجود منذ تسعمائة عام قبل عصره دون أن تفرز شيئًا يقارب البناء القوطى ولو من بعيد . وهناك تماثل واضح بين عمل سوجيه والمناقشات الفلسفية واللاهوتية التى كانت تدور فى زمانه على مسافة أميال قليلة من سان دونى ، أى فى مدرسة باريس الكاتدرائية . ففي الجامعة الفتية ، كان الأساتذة والطلاب أيضا يستخدمون المذهب القديم لتحقيق غايات جديدة ؛ إذ إنهم كانوا مثل سوجيه يخلقون بنيانًا جديداً لم يوجد له مثيل من قبل .وعلي الرغم من تفاؤلهم ، فإن مدى فعالية هذا البنيان واستمراريته لم تكن لتتأكد قبل أن يتم إنجازه تمامًا . وليس هناك من يمثل الجرأة والعزيمة ، والذكاء النفعى الذى استشرى فى منتصف القرن الثانى عشر أكثر من رئيس دير سان دونى .

لقد كان سوجيه يمثل نمطًا اجتماعيا قديما خلق بإنكاره لذاته ثورة فنية . أما حنا السالزبورى فكان من جميع الوجوه رجلا من الطراز الجديد الذى كان إفرازاً للثورة الفكرية والتعليمية . ولكنه على الرغم من هذا ، وربما يكون بسبب هذا أيضا ، كان واعيًا بالانفصال المتزايد بين الثقافة المعاصرة والفكر العالمى الذى كان شائعًا فى العصور الوسطى الباكرة ، لقد حاول الحفاظ على القيم القديمة فى مواجهة التغير السريع ، وأخذ يبحث عن الوسائل التى تكفل له السيطرة على آثار حركة التعليم الجديدة والسلطة الجديدة فى القرن الثانى عشر . كان حنا قسًا إنجليزيا من أصل اجتماعى غامض ، وربما كان من أصل متواضع ، وفى مطلع شبابه وفد إلى مدرستى شارتر وباريس لينال حظه من الدراسة . وفى ثلاثينيات القرن الثانى عشر تتلمذ على كبار علماء الجدل واللاهوت فى ذلك الزمان ، وتمدنا رواياته الحية عن أساتذته ورفاق دراسته ببعض من أهم معلوماتنا عن بداية الجامعات الفرنسية . ثم توجه إلى روما بحثًا عن وظيفة . وأصبح سكرتيراً للبابا أدريان الرابع Adrian IV ( نيقولاس برسكبير) الذى كان إنجليزى الأصل فى مطلع النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وكانت خلفية هذا البابا التعليمية هى نفس خلفية حنا . لقد كانت تلك هى المرة الوحيدة فى التاريخ التى يدير فيها الشئون البابوية رجل إنجليزى ؛ كذلك كان الكردينال روبرت بولان Robert Pullan إنجليزيا من نتاج المدارس الفرنسية . وكان هو الآخر من الموظفين اللامعين فى خدمة

أدريان الرابع . وفى سنة ١١٣٥ عاد حنا إلى انجلترا لكى يصير سكرتيراً لتيوبولد Theo-bold كبير أساقفة كانتربورى . وكان محتماً أن يكون قريبا من توماس بيكيت Thomas Becket ، الذى كان قساً إنجليزيا شابا درس هو الآخر فى فرنسا ، وكان رئيس المجلس الاستشارى لكبير الأساقفة . وقد عاين حنا القوة النامية للدولة الإنجليزية فى بداية عهد هنرى الثانى ، ويبدو أنه فى إحدى المناسبات جلب على نفسه حنق الملك الذى اعتبره عميلا للبابوية. وفى ستينيات القرن الثانى عشر عاين حنا بشكل مباشر الصراع الذى نشب بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت ، الذى كان قد صار آنذاك كبيراً لأساقفة كانتربورى بعد أن عمل كمستشار فى خدمة الملك . كان حنا سكرتيراً لتوماس بيكيت وصحبه إلى منفاه . كما كتب سيرة شهيد كانتربورى ، ولكنه لم يكن غافلا عن الأخطاء الكامنة فى شخص سيده . وباعتباره قسيسا ، أعيد حنا إلى فرنسا مرة أخرى لكى يقضى سنوات عمره الأخيرة أسقفا على شارتر حتى وافته المنية سنة ١١٨٠ ، فى نفس المكان الذى توجه إليه قبل نصف قرن تقريبا وهو قس مغمور للدراسة فى المدرسة الكاتدرائية ، وليس هناك شخص آخر انغمس مثله ، شخصيا ، فى مثل هذا العدد الكبير من التطورات الهامة المختلفة . ومع هذا فإن حنا السالزبورى كان شاهداً متأملا فى هذه الأحداث أكثر من مشاركًا فعالا فيها . ولأن مزاجه كان تأمليا أكثر من كونه مزاجًا نشيطًا ، رحيما متسامحا أكثر منه ناقداً ، وبفضل عمله الواسع الغزير وذوقه السليم ، فإنه كان هو الشخص المثالى الذى يصلح لملاحظة وتأمل مغزى التغيرات الكبرى التى كانت تجرى فى زمانه .

كان حنا متمكنا من علوم المنطق والفلسفة واللاهوت الجديدة التى كان يجرى تدريسها فى المدارس الفرنسية ؛ ولكنه صار واحداً من أبرز نقاد الاتجاهات الفكرية الجديدة . إذ أنه كان يعتبر أن مايقوم به المدرسون فى باريس وشارتر من أعمال علمية ليست ذات جدوى - فهو يصف لنا أنه ، بعد أن عاد إلى باريس بعد غيبة طالت سنين عديدة ، وجد الأساتذة والطلاب يتابعون نفس المناقشات دونما تقدم محمود ، اللهم فى زيادة غطرستهم - بل إن هذه الأعمال كانت فى رأية تشكل خطراً على الأسس التى يقوم عليها عالم الفكر المسيحى . ومن هذه الناحية كان حنا متفقا مع داميانى وسان برنار اللذين عاصراه فى موقفيهما المعاديين للفكر . بيد أنه لم يسايرهما فى الاستعاضة عن الطريق الجدلى لمعرفة الله بالطريق الصوفى ، والحقيقة أن عقلية حنا السالزبورى كانت عقلية رجل أخلاقى ؛ إذ أنه لم يكن مهيئا بطبعه لتقبل المدخل العلمى أو المدخل العاطفى لفهم الحياة . وكان من رأيه ألا ضرورة للكشف عن الحقيقة، لأنها معروفة بالفعل ، وإنما المشكلة هى كيفية تلقين الحقيقة للجيل الصاعد . ففى كل مكان

حوله كان يمكنه أن يرى التأثيرات المفسدة للتعليم ، والثروة ، والسلطة الجديدة ، كما كان بمقدوره أن يلمس نفس الآثار المدمرة الناجمة عن تقويض القيم القديمة . ومن ثم ، فإن حنا السالزبورى ، إن لم يكن مبتدعًا لأحد المذاهب التعليمية الأساسية فى الحضارة الغربية ، فهو واحد من أفصح المعبرين عن ذلك المذاهب القائل بأن وظيفة التعليم وظيفة أخلاقية وليست فكرية . فالغرض من المدارس ، وفقا لرأيه ، يجب أن يكون هو الحفاظ على القيم التقليدية وتعليمها ، ومجابهة الآثار المفسدة للسلطة الفكرية ، والمالية والسياسية ، فضلا عن تعليم الناس كيف يحيون حياة صالحة . وقد أحزن حنا كثيراً أن يرى الفنون الحرة تفقد أهميتها وتذوى فى مرتبة ثانوية فى الجامعات الجديدة حيث يوجد أساتذة الجدل المتغطرسون الذين يفتقرون إلى الإحساس بالمسئولية . وكان يعتقد أن السبيل الوحيد لتعليم الناس أسس الحياة الصحيحة يوجد فى طيات الأدب العظيم الذى خلفه التراث الكلاسيكى ، الذى كان يتوارى فى غياهب النسيان أمام زحف الجوانب الفلسفية والعلمية فى ذلك التراث . فقد كان فرجيل ، وليفى ، وشيشرون وغيرهم من كبار الكتاب اللاتين الآدباء قد طرحوا أمام معاصريهم هذه الأسس التى تقوم عليها الرقة والدماثة الإنسانية وضبط النفس ، وهى الخصال التى كانت قد بدأت تتوارى رويداً رويداً فى ضباب التجاهل أثناء القرن الثانى عشر . لقد كانت تعاليم حنا السالزبورى هى أنقى صيغة ظهرت للنزعة الإنسانية المسيحية . كما أنه فاق معاصريه فى إدراك مدى التأثير المفسد للسلطة . وإذا كان التراث الكلاسيكى قد أثمر من حيث تحديد الرؤية الأخلاقية للطبقات الحاكمة فى أوربا منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين ، فإن ذلك يكشف باستمرار عن اتساع مدى النفع الكامن فى العلاج الذى اقترحه حنا السالزبورى للمشكلة التعليمية . ولكن معاصريه ، الذين غرهم التعليم والثروة والسلطة ، لم يكونوا على استعداد لسماع نصيحته . إذ أن الفنون الحرة كانت قد فقدت أهميتها فى الجامعات ، ولم تجد النزعة الإنسانية المسيحية التى نادى بها حنا السالزبورى من يأخذون بها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وإنما وجدت لنفسها أتباعا في بترارك ، ومور ، واراسموس . لقد كانت الرؤية الأخلاقية عند حنا السالزبورى مماثلة لمذاهب الإنسانيين فى عصر النهضة ، سواء من حيث اهتمامها بالحفاظ على القيم الإنسانية فى المجتمع من خلال التعليم الكلاسيكى ، أو من حيث فشلها فى إدراك مزايا وإمكانيات العلم والفكر التأملى .

لقد كان الشر الكامن فى المجتمع الذى عاصره حنا السالزبورى ، وأقض مضاجعه كثيراً ، هو ذلك الشر المتمثل فى التأثير المفسد للسلطة السياسية – أى إذلال الروح الإنسانية الناتج

عن السلطة التى تجعل رجلا واحداً ، أو مجموعة من الرجال ، يتحكمون فى جميع الناس . ولم يكن هو بغافل عن الحال داخل الكنيسة إذ أنه وجه إلى السادة الكنسيين الجشعين انتقادات مريرة ، وفى إحدى المناسبات أخبر أرديان الرابع صراحة ، أن ما اكتشفه فى روما يزعجه كثيراً ؛ وهو مايقوم دليلا على أن البيروقراطية المتغرطسة ترفض مايوجه إليها من انتقادات متزايدة . وعلى أية حال ، فإن انجلترا فى أواسط القرن الثانى عشر وواجه الجهاز الإدارى العلمانى لدولة آل أنجو . وتمثلت نتيجة هذه المواجهة فى مقالته التى نشرها سنة ١١٥٩ تحت اسم Policraticus وهى مقالة تتناول التنظيم الصحيح للحياة السياسية . والمقالات التى نالها من سوء التفسير مانال هذه المقالة قليلة جداً فى تاريخ النظرية السياسية. ذلك أن ما مس شغاف قلوب معظم دارسى البوليكراتيكوس هو أنها تؤيد النظرية السياسية القديمة للكنيسة . إذ أن حنا السالزبورى يصور المجتمع كله فى صورة الجسد الذى تحتل الكنيسة فيه موضع القلب ، على حين تشغل الدولة مكان الرأس من هذا الجسد . وهو بذلك يعيد ترسيخ النظرية الهيروقراطية التقليدية والتى تقضى بأن الدولة يجب أن تكون فى خدمة الكنيسة التى تسمو عليها باعتبارها الكائن الروحى . هذا التكرار للمذهب القديم يكاد يكون عديم الأهمية ؛ لأن حنا كان قد أمضى سنى حياته كلها فى خدمة الكنيسة ، وكان قد عاد لتوه من روما حيث قضى عدة سنوات ، ولم يكن يعرف أية نظرية أخرى . أما المهم حقا ، فهو تردده الهادئ ، وتقييمه لمزايا المذهب الهيروقراطى فى مواجهة التجربة السياسية التى شهدتها انجلترا فى عهد أسرة أنجو .

ولم يكن بوسع أى مراقب محايد ، وهو يعيش فى انجلترا منتصف القرن الثانى عشر ، مثل حنا السالزبورى أن ينكر حقيقة أن زعامة المجتمع الإنجليزى كانت للملكية ولم تكن للكنيسة . فقد كانت الحكومة الملكية تفرض إرادتها بصورة متصاعدة على الشعب من خلال نظمها القانونية والمالية ، كما كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخرى منافسة . فقد كان السيد الإقطاعى ، والأسقف ، والفارس ، والمزارع مشدودين إلى الارتباط بالسلطة الملكية . وهذه الحقائق التى كانت تنضح بها الحياة الاجتماعية كانت تلقى ظلالا كثيفة من الشك حول القيمة التطبيقية الحقيقية للأوغسطينية السياسية القديمة ، بيد أن حساسية حنا السالزبورى جرته إلى منزلق الخلط بين الوجود الواقعى للسلطة والزعامة العلمانية من جهة والمثل والقيم السياسية القديمة للكنيسة من جهة أخرى . ومقالته المسماة بوليكراتيكوس عبارة عن حوار

داخلى لأن حنا كان يحاول أن يقنع نفسه بأن ظهور الدولة لم يمزق هيكل النظام القديم وكيانه . ولكن مناقشاته كانت تفتقر إلى قوة الاقناع . والدليل على ذلك هو الإبهام والغموض الذى يكتنف مقالته . وهو إذ يساير النظرية الهيروقراطية التقليدية يعترف بأن نهاية الدولة هى إدراك الحقيقة وثواب على الفضيلة وهو مايشير إلى أن الدولة تعضد نفسها بنفسها إذا ماسعت صوب غايات أخلاقية . وهو مايخالف الأوغسطينية السياسية بشكل دقيق وفائق الأهمية ؛ وكان لابد للتعديل الذى أجراه حنا السالزبورى للمذهب الهيروقراطى أن يستثير حنق جريجورى السابع وسخطه . وهو أول مثال يدل على التحول من النظرة المتشائمة إلى الدولة نحو نظرة أخرى متفائلة ، وهو الأمر الذى قيض له أن يكون النغمة الدالة فى الفكر السياسى طوال السنوات المائة والخمسين التالية . فقد كان حنا هو أول مُنَظِّر كنسى يواجه نتائج التغيرات السياسية فى العصور الوسطى العالية ، وكل صفحة تقريبا فى البوليكراتيكوس تعكس سخطه ويأسه . فلم يكن باستطاعته أن يتخلى عن النظرية الهيروقراطية القديمة ، ولا أن يتجاهل الزعامة الجديدة ، أى الدولة ، التى كانت تمارس دورها فى المجتمع وذلك لكونه مراقبا ذكيا بالغ الحساسية تجاه أخلاقيات عصره . وكان الحل الوحيد أمامه هو أن ينسب السجايا الأخلاقية إلى الدولة ، وبذلك يحافظ على الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى . بيد أن ذلك كان يعنى إعطاء الدولة صلاحيات أخلاقية وأن يزيد ، بالضرورة ، من سلطاتها . ولم يكن حنا يجهل ما يتضمنه مذهبه من دلالات ثورية . وحاول أن يحل المشكلة من خلال التمييز بين الملك والطاغية ، ولكى يجعل مناقشته مقنعة أخذ يفكر فى إمكانية قيام حكم استبدادى على أسس عادلة . وعلى أية حال ، فإنه أدرك تماما ماهية النتائج الخطيرة التى يمكن أن تعود على النظام الاجتماعى من جراء هذا المبدأ ، ولم يخلص إلى أية إجابة حاسمة على السؤال المشكلة . لقد كانت مقالة حنا السالزبورى نتاجا لعملية مؤلمة مضنية قام بها أحد الأخلاقيين التقليديين لمواءمة نفسه مع حقائق الحياة السياسية ؛ بيد أن ألمه وعذابه ليس هو الأهم ، وإنما المهم هو عملية المواءمة فى حد ذاتها . إذ كانت تلك العملية علامة البداية على طفرة فى الفكر السياسى الأوربى .

أما أوتو أسقف فريزيا Bishop Otto of Freising ( ت ١١٥٨م) ، والذى كان معاصراً لحنا السالزبورى ، فقد سار خطوة أبعد منه فى تطوير الوعى السياسى الأوربى . ففى كتابات أوتو يبدو الانفصام بين القديم والجديد أكثر حدة ، كما تبدو الحركة من النزعة التشاؤمية إلى

النزعة التفاؤلية أكثر وضوحا ؛ فضلا عن أن الاعتراف الواعى بالحقيقة المعاصرة فى كتابات حنا يتخلى عن مكانه لنغمة احتفاء هستيرية تهلل لما فى الزعامة العلمانية من سلطة أخلاقية بشكل ينذر بسوء العاقبة .

وبينما كانت الخلفية الاجماعية لحنا السالزبورى متواضعة ، كان أوتو سليل واحدة من أعرق العائلات الأرستقراطية فى أوربا ؛ فهو من بيت أمراء الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الألمانى . وتتجلى جاذبية الحركة التعليمية ونزعة التدين الجديدة بشكل واضح من خلال الحقيقة القائلة أن أوتو تلقى العلم فى مدرسة باريس من سنة ١١٧ رلى سنة ١١٣٣ ، ثم صار راهبًا من السترشيان فرئيسا لأحد الأديرة . وفى سنة ١١٣٧ تم انتخابه أسقفا لفريزيا ، فسخر طاقته الهائلة ومهارته الأدبية العظيمة فى كتابين تاريخيين يتصفان بقدر بالغ من العقلانية والنزعة الفلسفية . وفى سنة ١١٤٦ نشر أول هذين الكتابين ، وهو كتاب «المدينتين» الذى هو عبارة عن مسح بالغ التشاؤم لتاريخ العالم كتبه انطلاقا من موقف اللاهوت الأوغسطينى . لقد أخذ أوتو على عاتقه أن يكشف عن الصراع بين المدينة الأرضية والمدينة السماوية على مسرح التاريخ العالمى . وهو المسرح الذى كان أوغسطين يعتقد أنه واضح أمام الرب وحده دون سواه . ومع هذا فإن أورسيوس Orosius فى كتابة الشهير «الكتب السبعة ضد الوثنيين » كان قد بدأ بالفعل فى رؤية العناية الآلهية فى طيات التاريخ، وكان مقدراً للاتجاهات العامة فى كتابة التاريخ فى الصور الوسطى أن تحدد مجري كل من المدينة السماوية والمدينة الأرضية على مسرح التاريخ العالمى . وعلى الرغم من أن أوتو لم يلتزم تماما بمذهب أوغسطين عن « ماوراء التاريخ Meta-History » ، وعلى الرغم من محاولته للكشف عن التطور الحقيقى للمدينتين فى التاريخ العالمى ، فإن نظرته العالمية العامة كانت محكومة بالنزعة التشاؤمية الأوغسطينية ، لاسيما فيما يتعلق بالسلطة العلمانية . ففى كتاب « المدينتين » لايستطيع أسقف فريزيا أن يرى أى خير فى تاريخ الممالك الأرضية . إذ أن الحوليات الجزئية التى تتناول تاريخ هذه الممالك تكاد ألا تكون شيئا غير سجل للجرائم الكريهة . وفى رأى أوتو أن تاريخ المدينة الأرضية يرتبط بتطور الملكية ، وكتاب « المدينتين» عبارة عن طرح تاريخى للنزعة التشاؤمية الأوغسطينية ، كما أنه تقديم تاريخى لكراهية السلطة العلمانية ، وهى الكراهية التى كانت تطل بوجهها المخيف من بين طيات المذاهب التى نادى بها جريجورى السابع . ولم يكن هناك سبب يدفع أوتو ، الذى وعى

تجربة العصر ، إلى أن يهون من وطأة حكمه القاسى على إمكانيات السلطة المدنية ؛ ولأنه كان يكتب فى ألمانيا بعد عشرين سنة من النزاع حول التقليد العلمانى ، فإنه لم يستطع أن يرى أية قيمة أخلاقية فى المنصب الإمبراطورى .

والمقارنة بين كتاب « المدينتين » والكتاب التاريخى الهام الآخر لأوتو ، وهو كتاب «أعمال فردريك بربروسا » ( الذى انكب على العمل فيه حتى وفاته ، ثم أتمه سكرتيره رايفين Rahewin ) تكشف عن تناقض صارخ . ومن الصعب أن نصدق أن هذين الكتابين من تأليف مؤرخ واحد . إذ أننا فجأة ننتقل من التحقير الأوغسطينى للدولة إلى ترحيب متفائل بها تماما ، وحفاوة عاطفية جداً بالإمكانات الأخلاقية والمسيحانية الكامنة فى السلطة الإمبراطورية. ولايمكن أن نغفل حقيقة أن فردريك الأول بربروسا ، الذى اعتلى العرش الإمبراطورى سنة ١١٥٢م كان ابن أخت أوتو وموضع ثقته . لكن كتاب « أعمال فردريك بربروسا » ليس مجرد دعاية لأسرة حاكمة ؛ فقد كان أوتو رجلا صارما ومستقلا كما كان على قدر من الإخلاص للصالح العام المسيحى بحيث لم يكن يسمح لنفسه بأن يمتهن علمه على هذا النحو . فقد كان يعتقد مخلصا أن سياسة فردريك لإعادة بناء السلطة الإمبراطورية فاتحة عصر جديد أفضل بالنسبة للمجتمع المسيحى . وأنه قد آن الأوان لكى تمضى مصالح المدينة قدما من خلال السلطة العلمانية.ولم يكن بمقدور النزعة الأوغسطينية التشاؤمية أن تصمد في مواجهة اتجاه حضارة القرن الثانى عشر صوب الإبداع والتقدم . إذ كانت روح ذلك العصر روحا بناءة ، جسورة ، متطلعة تفاؤلية ، كذلك لم يكن بمقدور النزعة التشاؤمية الأوغسطينية أن تقاوم النجاح والإنجاز سواء فى مجال الحكم أو فى الفن المعمارى ، وهو النجاح والإنجاز الذى جعل النزعة النفعية تلقى قبول المجتمع ورضاه . ومن ثم ، يظهر فردريك بربروسا فى كتاب أوتو فى صورة البطل الذى يعيد بناء سلطة التاج الألمانى ، ويجعل من انتصار المدينة السماوية هدفا قريب المنال . فقد جعل أوتو ، وهو العالم الكنسى المخلص والراهب السترشيانى ، للبابوية مكانا ثانويا فى تلك السماء التى كان فردريك بربروسا يشيدها على الأرض . إذ أن كتاب أوتو يعتبر البابا موظفًا أجنبيًا ؛ محترم حقا ولكنه بعيد .

وهكذا يتجلى واضحا فى كتاب أوتو ماكان يبدو ضمنيا واستنتاجيا فى كتاب بوليكراتيكوس لحنا السالزبورى ؛ فالدولة فى القرن الثانى عشر تستوعب فى داخلها السجايا والخصال الأخلاقية والعاطفية ، بل والصفات المقدسة التى تعتبر الدعامة التى تقوم عليها

السلطة التشريعية والإدارية المطلقة . وكانت هذه الاعترافات الإضافية هى كل ماتحتاج إليه الملكيات الجديدة فى غرب أوربا حتى تجعل من نفسها كيانات قائمة بذواتها ، ولها السلطة المطلقة . لقد كان التاريخ الذى كتبه أوتو الفريزى بداية للآثار العكسية الناجمة عن النزاع حول التقليد العلمانى . وبينما يعترف حنا السالزبورى بالميزة الأخلاقية للدولة بطريقة ضمنية يقوم أوتو الفريزى بإبرازها وتكريسها . وقد شهدت السنوات المائة والخمسون التالية مواقف كثيرة لرجال الكنيسة فى شمال أوربا كانت فى جوهرها تكراراً لموقف أوتو تجاه البابوية والملكية . ويعتبر أوتو النبى الذى بشر بالدولة الحاكمة ، الصالحة ، المتدثرة بالأخلاقيات التى عرفها القرن الثالث عشر .

وعلى الرغم من المكانة الفائقة الأهمية التى يحتلها كل من سوجيه وحنا السالزبورى ، فإنهما ليسا الشخصيتين المحوريتين فى حركة النمو الثقافى التى عاشتها أوربا القرن الثانى عشر . فقد احتل هذا المركز كل من بطرس أبيلار Peter Abelard وخصمه سان برنار الكليرفوى St. Bernard of Clairvaux . وسوف نبالغ إذا أكدنا أن تاريخ الفكر والمشاعر الأوربية فى الفترة التالية لعصرهما لم يكن سوى سلسلة من الملاحق والأعمال التكميلية لما قام به كل من أبيلا وبرنار ؛ إلا أن هذه المبالغة لاتخلو من قدر من الحقيقة .

لقد مرت شهرة أبيلار ( ١٠٧٩ - ١١٤٢ ) بكثير من التقلبات بين المؤرخين . ففى القرن التاسع عشر كان يعتبر سابقة وتمهيداً للحركة البروتستانتية . وفى النصف الأول من القرن العشرين سرت موجة من التجاهل والتقليل من شأن أعماله . وفى الدراسات الجديدة للفكر الوسيط بدأت أهميته تتضح ، ولكن الحاجة مازالت قائمة إلى دراسة أعماله دراسة عميقة متأنية .

كان أبيلار ابنا لسيد إقطاعى صغير فى بريتانى Brittany وهو إقليم موحش على الحدود ، كانت العادة أن يخرج منه المحاربون المتوحشون ولم يكن معتاداً على إنجاب العلماء أو الفلاسفة . ويمكن قياس مدى التأثير الاجتماعى الهائل لحركة التعليم الجديدة من خلال جاذبيتها التى شدت مثل هذا الرجل الغامض إليها . فقد شق طريقه صوب مدرستى الفلسفة واللاهوت الجديدتين فى شارتر وباريس . ومنذ البداية اعترف الجميع بأنه طالب ذكى ونادر المثال ، ومالبث أن امتلك ناصية المناهج الجدلية الجديدة . بيد أنه كان أيضا شخصا صعب المراس ، متغطرسا ، لايتصرف إلاّ بوحى من داخله ، كما أنه كان مغاليا فى تصيد الأخطاء

وانتقادها ، وكان يفتقر إلى الذوق واللياقة . كذلك كان من عادته بعد أن ينهى دراسة موضوع ما ، أن يجعل من نفسه محاضراً فى الموضوع لكى ينافس بذلك أستاذه السابق . ولم يكن من ذلك النوع من الباحثين الذى يكون صحبة أكاديمية طيبة ، وهو نوع من العلماء كان يخلق المتاعب فى القرن الثاني عشر مثلما يحدث الآن فى القرن العشرين . ومع هذا فقد وقع فى المتاعب نتيجة لفضيحة شخصية على حد روايته . فقد أغوى فتاة تدعى ايلواز Héloise[٣]، كانت ابنة أخت قسيس مرموق فى كاتدرائية باريس ، وهو يخبرنا أن عائلة الفتاة عاقبته « بأن قطعت من جسدى تلك الأجزاء التى فعلت بها ما سبب لهم الأسى والأسف » . وكانت بقية حياته سلسلة من المآسى والمصائب . فقد تولي منصب رئيس أحد الأديرة فى بريتون Breton ، ولكنه هجر المنصب حين اكتشف أن الرهبان كانوا جميعا من البلطجية . ثم دخل دير سان دونى حيث أحس بالتعاسة وعدم الاستقرار . واتهمه سان برنار بنشر المذاهب الهرطقية ، ومن ثم كان عليه أن يمثل أمام مجمع كنسى حيث أجبر على أن يعترف علنا بأن معتقداته خاطئة . وقضى أبيلار السنة الأخيرة من حياته معتزلا فى دير كلونى ، حيث لقى معاملة حسنة . ذلك أن الرهبان الكلونيين ، مثل جميع الأرستقراطيين الحقيقيين ، لم يكونوا يحملون فى قلوبهم ضغينة أو حقداً .

ولاشك فى أن أبيلار كان عبقريا من الطراز الأول . فقد تأثر كل من لقيه بقوة شخصيته وسلطانه العقلي . وربما تعكس حياته العاصفة القلق النفسى الناتج عن فشله فى الاهتداء إلى المناخ الملائم لممارسة موهبته الفذة ممارسة كاملة . ويبدو أن متاعب أبيلار الشخصية ترجع إلى حقيقة أنه سبق عصره بقرن كامل من الزمان . فقد كان رائدا فى مجال استخدام المنطق الأرسطى ، كما كان رائداً فى البحث الصارم عن الحقيقة العقلية . وكان هناك آخرون يفعلون

---

٣ - كانت قصة أبيلار وايلواز العابسة التى حدثت فى القرن الثانى عشر تعتبر واحدة من قصص الحب العظيمة . فقد كشفت خطابات هذين العاشقين المسيحيين عن أنهما وجدا فى الشفقة والرحمة الذاتية سبيلا لقبول علاقة مغايرة ولكنها مستمرة . وبينما قامت شهرة ايلواز على تعليمها وعبقريتها الإدراية كرئيسة دير، كان أبيلار أشهر أساتذة المنطق فى عصره ، وقد تناقلت الأجيال الأوروبية قصة الحب المتسعة التى عاشها الاثنان من خلال الخطابات المتبادلة بينهما .

انظر ترجمة ما كتبه أبيلار عن مصائبه Historia Calamitatum وخطاباته الشخصية ، وخطاب توجيه كتبه لايلواز يوضح لها كيف تطبق الدستور البندكتى على الراهبات . وعدد آخر من كتاباتها فى : The Letters of Abelard and Helois ( Transl . with an introduction by Betty Radice ) , Penguuin Books , London 1979 .

الشئ نفسه ، ولكن تأثيرهم وفعاليتهم كانت أقل كثيراً ، كما أن بزوغ نجم أبيلار جعل منه كبش الفداء لأولئك الذين كانوا يشكون فى نتائج ودلالات المنطق الجديد . ولو أنه عاصر توماس أكويناس Thomas Aquinas لأثار قدراً أكبر من الإهتمام ، ولكنه كان حتما سيبدو أقل تميزاً وخصوصية . ولو عاش فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لعاش حياة أكاديمية عادية وتولى منصب الأستاذية فى إحدى الجامعات الكبرى ، ولتجنب تلك التعاسة والبؤس الذى خيم على حياته .

وأهم جانبين فى فكر أبيلار هما إكتشافه المتجدد للشخصية الفردية وآراؤه فى مشكلة الكليات Universals . وفى كلتى الحالين كان يقوض بنيان الفلسفة الأفلاطونية التى سادت الفكر الأوربى فى العصور الوسطى الباكرة . فمنذ القرن الثالث فصاعداً كان الاعتراف بالشخصية الفردية ضئيلا ، وربما لم يكن هناك اعتراف بها على الإطلاق . فقد اختفى الشخص الحقيقى بخصائصه المتفردة خلف غياهب الاهتمام الأفلاطونى بالنماذج والأنماط المثالية . كما أن ثقافة العصور الوسطى الباكرة لم تكن تحفل كثيراً بالشخصية ؛ إذ أن الأدب لم يكن يرسم سوى صورة النمط التمثيلى من منظور الخلود والدين . واختفت السيرة الذاتية تماما . لأن المتعلمين لم يكونوا يجدون لحياتهم أهمية أو مغزى سوى بقدر توافقها مع نموذج مثالى ما . وكان وصف المميزات الشخصية يعتبر مباهاة وغطرسة خاطئة . فقد كانت اعترافات أوغسطين هى آخر سيرة ذاتية كتبت قبل القرن الثانى عشر ، بل إنها ليست سيرة ذاتية بالضبط ، لأن أوغسطين إهتم بأن يكشف عن نفسه باعتباره نموذجا لكل إنسان . وفى العصور الوسطى الباكرة كانت السير التى تستحق هذا الاسم قليلة للغاية ، وكان هناك فيض من أدب الهاجيوجرافى ( أى سير القديسين ومعاناتهم ) ينسج على منوال نماذج تقليدية ويصوغ موضوعاته قسراً فى قوالب جاهزة ليحولهم إلى قديسين من الجص . وعادة ما كان الملوك يصورون بأقلام العاملين فى خدمتهم فى صورة تتوافق مع النموذج المثالى للملك المسيحى الذى أرساه أيوزيبيوس أسقف قيصرية فى كتابه « حياة قنسطنطين » . وحين كانت تبرز الشخصية الحقيقية فى هذه السير الملكية ، فإنها تكون نتيجة لفشل ما فى السياق الفنى؛ أى نتيجة عجز الكاتب عن الاستمرار فى الصياغة النمطية .

لقد أدت روح الإبداع التى شاعت فى القرن الثانى عشر إلى تقدير الإنجازات الفردية التى تجعل للسيرة أهمية ومغزى . وهكذا ، قام سكرتير سان آنسلم St. Anselm ، عالم اللاهوت

وكبير أساقفة كانتربورى ، بكتابة سيرتين لسيده . كانت إحداهما قطعة من سير القديسين التقليدية ، على حين كانت الأخرى صورة حافلة بالعديد من التفاصيل عن الفترة التى قضاها آنسلم فى منصب كبير الأساقفة . وفى السيرة الأولى يبدو آنسلم قديسا تقليديا ، ولكنه فى الترجمة الثانية يبدو شخصا حقيقيا يفقد أعصابه من حين لآخر ، كما يعتريه الجبن ، ويعانى اللوعة والكرب ، ويسقط فريسة للمرض ... وما إلى ذلك . وفى عشرينيات القرن الثانى عشر كتب راهب فرنسى سيرته الذاتية ، وفى الفترة ذاتها قام المؤرخ الأنجلو - نورمانى ، وليام المالمسبورى Willam of Malmesbury بنشر مجموعتين من السير والتراجم ، إحداهما عن الملوك الإنجليز ، والثانية عن الأساقفة ومقدمى الأديرة في زمانه . والكتاب الأخير يهتم فى روايته بدقائق الأمور ويحوى كثيراً من التفاصيل بدرجة اضطرت وليام إلى كتابة نسخة منقحة منه . وفى نصف القرن التالى حدث تغير جذرى فى الموقف من الشخصية ، واكتشف الأوربيون فن كتابة التراجم . وبحلول العقد الثامن من القرن الثانى عشر كان هذا التطور قد وصل إلى درجة أن يقوم راهب بكتابة أسفار أربعة ملأها بروايات عن تجاربه وذكرياته ، بحيث أعطانا تقريرا حيا ، يفيض بالمرح أحيانا ، عن بلاط هنرى الثانى ، وعن السياسة الكنسية المعقدة الملتوية ، فضلا عن عادات الأيرلنديين البليدة .

والترجمة الذاتية التى كتبها أبيلار بعنوان « تاريخ المصائب التى حلت بى » ، كانت هى نقطة التحول الحرجة فى اكتشاف القرن الثانى عشر للشخصية الفردية من جديد . فهذه الترجمة تقف على النقيض تماما من النمطية التى ميزت العصور الوسطى الباكرة . ذلك أن أبيلار يتلذذ بعرض خصاله وسجاياه ، ويبتهج وهو يكشف للعالم عن حقائق حياته ، حتى ما لم يكن يحظى برضاه المجتمع وقبوله من هذه الحقائق . والواقع أنه ، مثل كثيرين من كتاب التراجم اللاحقين ، ربما يكون قد جعل تجربته تبدو أكثر دراميـة وتألقا مما كانت عليه فى الواقع. وروايته عن قصة غوايته لايلواز لاتبدو رواية حقيقية فى جميع الأحيان . ومن المؤكد أنه كان يهدف إلى دغدغة حواس قرائه وصدمتهم ، على الرغم من أنه من غير المحتمل أن يكون قد نسج القصة كلها من الخيال . والنقطة الهامة هى أن أبيلار أراد أن يكشف عن نفسه للعالم كشخصية متفردة لايمكن أن تختلط سيرته بسيرة غيره . فلم يكن راغبا فى صورة كلية جامعة وإنما كان همه أن يرسم صورة فردية خاصة . وهكذا يعتبر كتابه « تاريخ مصائبى » هجوما على الأفلاطونية التى جعلت الكلى يبتلع الفردى .

لقد كان تحطيم أبيلار للقديم ، وكانت نزعته الفردية انعكاسا لحقيقة أنه كان شخصية حضرية ، أى من أهل المدن . فقد كان ظهور جامعات العصور الوسطى فى مناطق المدن من أهم جوانب تاريخ هذه الجامعات . ذلك أن المدارس الديرية كانت توجد فى المجتمع الريفى فى عزلة لاتتيح فرصة كبيرة لتبادل الآراء . وفى المجتمع الريفى ، بخطوطه الطبقية الصارمة ، ونموذج الحياة التقليدى ، كانت الفرصة ضئيلة ، وربما لم تكن هناك فرصة على الإطلاق ، أمام أسلوب الحياة الفردى الأصيل . إذ يولد الناس فى طبقة معينة ، ويسيرون على هدى الأخلاقيات التى تتلاءم مع مكانتهم الاجتماعية . ولكن « هواء المدن يجعل الإنسان حراً » ، ليس بالمعنى القانونى فحسب ، وإنما أيضا بمعنى توفير البيئة الملائمة لخلق شخصية ونموذج فكرى أصيل . وكان هذا يصدق على الأكاديميين أكثر من رجال الأعمال . فقد كان الأساتذة والطلاب فى الجامعات الناشئة يعيشون فى مجتمع يحكمه التنافس ؛ إذ كان المدرس الذى لايجتذب الطلبة ، أو يمثل أهمية ما ، يفقد طلابه ، وإذا كان هناك أستاذ ناجح ، فإن نجاحه يكون نتيجة للانطباع الذى تركه فى نفوس سامعيه بما له من مزايا عقلية وغيرها . وحتى فى جامعات القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والتى كانت أكثر تنظيما ، كان المدرس الممتاز علما يجتذب الطلاب من شتى بقاع القارة الأوربية إلى قاعة محاضراته المزدحمة . وفى زمن أبيلار كان الأكاديميون يعتمدون تماما على بديهتهم ؛ فإذا لم يكن بوسع الأستاذ أن يجتذب الطلاب لايعود له شئ آخر يعول عليه ، ولابد لحياته أن تنتهى بالفشل الذريع والفقر المدقع . وحينما كان كبار العلماء من أمثال أبيلار يجد طلابا من شتى أركان القارة الأوربية يفكرون فى كل كلمة يقولها ، فإنه لم يكن يملك سوى أن يتحول إلى عاشق لذاته ، والحقيقة أن حب الذات وتضخيم هذا الإحساس من أبرز الخصائص النفسية العامة التى تميز أى مدرس ناجح متفوق . وفى ضوء الظروف الخاصة التى حكمت العالم الأكاديمى الذى عاش فى كنفه أبيلار كان على المدرس أن يقنع نفسه بأنه شخصية فردية بطولية ( كارزمية ) . ذلك أن الهيبة والوقار اللذين كان الطلاب ينظرون بهما إليه كانا يتحولان إلى فكرة ذاتية داخلية عن نفسه ، حتى يشعر أن كل جانب من حياته ، وحتى مصائبه ، جديرة بأن يكشف عنها للعالم . إن الفردية والذاتية المتطرفة التى قيض لها فى القرون الأخيرة أن تكون من الخصائص المميزة للأخلاق الفنية التى كانت فى زمن أبيلار من خصائص الأكاديميين . وبينما كان المعماريون والفنيون الكبار فى القرن الثانى عشر ، وهم رجال يستحقون عن جدارة أن نضعهم فى مرتبة

ميخائيل أنجلو ودافنشى - بينما كان هؤلاء مايزالون من غير المشاهير ولانعرف عنهم شيئا ، كان أساتذة باريس يعتقدون أنهم من الشخصيات العظيمة .

كانت مساهمة أبيلار فى النقاش الدائر حول الكليات على قدر من الأهمية فى تشكيل الإتجاهات الفكرية فى عصره يوازى ماقام به حين كشف عن نفسه كشخصية فردية متمايزة . والحقيقة أن هذين الجانبين من جوانب فكر أبيلار يتصل كل منهما بالآخر ، لأنه فى كليهما تحدى المذهب الأفلاطونى القائل بأن العام والكلى هو كل شئ ، على حين لايمثل الخاص والفردى شيئا ، وهو المذهب الذى تحكم فى الفكر الغربى منذ القرن الثالث الميلادى . لقد بدأ النقاش حول المفاهيم الكلية ، أو الأفكار المجردة ، فى أخريات القرن الحادى عشر واستمر هادئا حينا ، وهادرا حينا آخر ، حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . واستمر النقاش داخل أروقة المؤسسات الأكاديمية فى لغة فلسفية راقية كانت تتطلب معرفة بالمنطق والميتافيزيقا حتى يتيسر الفهم الكامل . وعلى أية حال ، فإن هذا لايعنى أن النقاش لم يكن يتناول المشكلات العامة فى حضارة العصور الوسطى ؛ وإنما على العكس ، كان إستقرار الفكر المسيحى يعتمد على حصاد هذا النزاع الفلسفى . ولم يكن العلماء الإنسانيون فى حركة النهضة الإيطالية يستسيغون المنطق والجوانب الفنية فى الميتافيزيقا ، ولأنهم لم يستطيعوا فهم النقاش الدائر حول الكليات ، فقد سخروا منه وتجاهلوه باعتباره لغواً فارغا . وزعموا أن فلاسفة العصور الوسطى كانوا من الحماقة بحيث كانوا يتناقشون حول عدد الملائكة الذين يمكنهم الرقص فوق رأس دبوس . والحقيقة أنه كانت هناك مناقشات تدور حول موضوعات من هذا القبيل فى جامعات العصور الوسطى ، وكان الجاهل فقط هو الذى يرى أنها عديمة الأهمية وفارغة من المعنى . فقد كان الفرض القائل بأن الملائكة يرقصون فوق رأس دبوس وسيلة للتعبير عن مشكلة اللانهائية ، وهى مشكلة كانت من أهم مشكلات الفكر الجدلى والرياضى آنذاك . كما أن الإنسانيين الإيطاليين لم يستطيعوا فهم فلسفة العصور الوسطى أو تقديرها أكثر من فهم الرجل العادى فى القرن العشرين وتقديره لما أنجزه أينشتين فى مجال الطبيعة . وعلى مدى أربعمائة سنة كان أفضل مفكرى أوربا يتناقشون حول طبيعة الكليات ، على حين كان المجتمع المتعلم يحبس أنفاسه وهو ينتظر حلا لهذا النقاش . وكان حصاد هذا النزاع الفلسفى ذا أثر كبير على مفاهيم العصور الوسطى عن علاقة الإنسان بالله ، وعن طبيعة

الكنيسة ، والطقوس والأسرار الكنسية ، ورجال الكنيسة ، فضلا عن العلاقة بين العلم والعقيدة الدينية .

كان النزاع حول طبيعة الكليات فى العصور الوسطى هو الشكل الذى اتخذته أكثر مشكلات الفلسفة الغربية إلحاحًا ، وهى المشكلة التى ماتزال تسترعى انتباه بعض ألمع المفكرين وأكثرهم استنارة فى عالم اليوم . هذه المشكلة هى ، هل المفاهيم العامة الكامنة فى أذهاننا ؛ مثل العدالة ، والحقيقة ، والجمال والله ، والكنيسة ، والدولة .... وغيرها ، لها وجود حقيقى خارج أذهاننا ؟ وهل المفاهيم الأكثر بساطة ؛ مثل شجرة ، وحصان ، وكرسى ... وغيرها ، لها وجود حقيقى خارج عقولنا ؟ هل هى تصورات عقلية خالصة ، ومصطلحات ذهنية ، أم أن هذه التصورات والمصطلحات تعبر عن حقيقة مادية واقعة خارج نطاق العقول الفردية ؟ وحين يتكلم الناس عن فكرة العدالة أو فكرة الكرسى ، هل هم يستخدمون مصطلحات غامضة فحسب ، أم أنهم يصفون عالما قائما بذاته له وجوده البعيد عن الكلام والفكر الإنسانى ؟ فى العصور الوسطى الباكرة لم يكن هناك نقاش حول هذه المسائل ، لأن جميع مفكرى العصور الوسطى قبل القرن الحادى عشر كانوا مرتبطين بالفلسفة الأفلاطونية . إذ أن نظام أفلاطون الفلسفى قد قام على أساس الاعتقاد فى حقيقة الأفكار الكلية . فقد زعم أن فكرتنا الخالصة عن العدالة أو الكرسى لم تكن سوى إنعكاس غامض لشكل قائم بذاته ، ميتافيزيقى خالد . والحقيقة أن أفلاطون أنكر معرفتنا بالعدالة أو الكرسى لمجرد أن هذه الحقائق الميتافيزيقية الخالدة تقع خارج نطاق عقولنا . وهذه إحدى صيغتين أساسيتين يمكن أن تكون الإجابة عليهما هى الإجابة عن مشكلة الكليات . وفى الفلسفة الحديثة يطلق على أتباع أفلاطون اسم المثاليين لأنهم يعتقدون أن الأفكار حقيقية ؛ أما فى مدارس العصور الوسطى فكان يطلق عليهم اسم الواقعيين . إذ أنهم كانوا يعتقدون أن الأفكار أشياء res ، ومن ثم فإنهم كانوا يعتقدون أن الكليات لها وجودها المستقل خارج نطاق العقل الإنسانى المفرد .

ومع بداية القرن الثانى عشر كانت الشكوك قد بدأت تحوم حول صلاحية الواقعية الأفلاطونية للمرة الأولى . ولو كان الناس فى العصور الوسطى الباكرة قادرين على قراءة كتابات أرسطو الميتافيزيقية لاكتشفوا أن مذاهب أفلاطون كانت تجابه تحديا خطيراً من جانب أرسطو . إلا أن كتابات أرسطو فى الميتافيزيقا لم تكن قد ترجمت إلى اللاتينية حتى النصف

الثاني عشر ؛ وحتى ذلك الحين لم يكن قد ترجم من مؤلفات أرسطو سوى ذلك الجزء الذى ترجمه بوئيثيوس من المنطق الأرسطى وعرفته أوربا المسيحية اللاتينية . هذه الأداة النشطة التى استخدمها المفكرون النشطون الناقدون فى أخريات القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثاني عشر ، كانت كافية لتقديم المنهج الذى سهل سبيل التحقق من صلاحية مذهب أفلاطون على نحو دقيق . فقد كان المناطقة الجدد غير قانعين بقبول المذهب الأفلاطونى باعتباره الفلسفة المسيحية ذات الإلهام الدينى ، وإنما كانوا يريدون اختياره بطريقة منطقية صارمة . ومنذ البداية أدت هذه المحاولة إلى زيادة درجة الاهتمام والقلق فى أكثر العقول رجعية ومحافظة . ولم يحدث هذا لمجرد أن التراث السائد كان محكوما بالتأثير الأفلاطونى القوى ، وإنما لأن هذه المسألة تتعلق بحقيقة الكليات فى سياق المعرفة المسيحية . فقد كان أمراً مريحًا أن يعتقد المرء أن العقل البشرى يمكن أن يتوصل إلى نفس المفاهيم الكلية عن الله ، والخلود ، والعدالة ، والكنيسة ؛ وهى المفاهيم التى تم الكشف عنها فى بداية الأمر فى الكتاب المقدس والعقيدة الدينية . وعلى أية حال ، فإذا كان باستطاعة الفلاسفة أن يستنتجوا أنه يستحيل على العقل البشرى أن يصل إلى حقيقة هذه المفاهيم . فإن الدين سيكون هو المنبع الوحيد للمعرفة المسيحية ، كما أن الامتزاج الذى تيسره الأفلاطونية بين الدين والفكر العقلانى سوف تنفصم عراه . ومنذ ستينيات القرن الحادى عشر ، كان بطرس داميانى قد استوعب تماما المضامين الخطيرة الكامنة فى المنطق الجديد . فقد استشعر أن التساؤل الطائش عن حقيقة الكليات يمكن أن ينتهى إلى إنفصام وشقاق بين عالم العقل وعالم الدين ، وبين حركة التعليم الجديد والدين ، وهو الأمر الذى كان سيؤدى إلى الحط من شأن الدين والاستخفاف به .

لقد حذر داميانى من المجرى الذى كان الفكر الفلسفى يسير فيه ، ولكن هذا التحذير فشل فى الحيلولة دون التساؤل عن صلاحية المذهب الأفلاطونى عن الكليات . إذ كان الشك الذى أبداه الكاردينال الكبير تجاه المنطق يبدو شكًا على غير أساس لأن النتائج المباشرة لاستخدام المنطق الجديد أكدت صلاحية الأفلاطونية بشكل قوى . وفى العقد الأول من القرن الثانى عشر قال القديس آنسلم ، كبير أساقفة كانتربورى ، أنه يمكن « للدين أن يبحث عن الفهم » من خلال الفلسفة العقلانية والعلم . كما أوضح كيف يمكن استخدام المذهب الواقعى للبرهنة على وجود الله . كما كان يجادل فى مناقشاته ( التى عارضها توماس أكويناس فى القرن الثالث عشر ، ثم أحياها فيما بعد كل من ديسكرانيس Descrates وليبنتز Leibnitz بأنه مادامت

الأفكار أشياء res ، ومادمنا نحمل فى عقولنا فكرة عن « ذلك الذى لايمكن أن نفكر فيما هو أعظم منه » ، أى الله . فإن الله موجود بالضرورة . وكان لمكانة آنسلم الكبيرة ، كعالم وقديس ، الفضل فى تدعيم مناقشاته ، كما أوضحت أن البحث الفلسفى الجديد لم يكن يشكل أى تهديد على الواقعية الأفلاطونية .

وعلى كل حال ، فإنه لم يلبث أن ظهر مذهب فلسفى مضاد . ففى العقد الثانى من القرن الثانى عشر كان أحد كبار المدرسين البارزين فى المدارس الفرنسية ، وهو روسيلين Rosselin، قد اتخذ موقفًا معارضًا لوجهة النظر الواقعية ونفى فروض آنسلم . إذ أعلن أن الكليات ليست أشياء res ، ولكنها مجرد كلمات voces ، أو أسماء nomina ، أى أن الكليات مصطلحات استخدمت للتوضيح فى السياق البشرى ، ولكنها لاتمتع بأى وجود مستقل خارج نطاق العقول الإنسانية الفردية . هذا الموقف الأساس عرف بالاسمية nominalism ، وهو المذهب الذى يعارض الواقعية realism بشكل مباشر . وكانت النتيجة المباشرة لتعاليم روسيلين تتلخص فى أنه بينما يحتمل أن تكون الكليات موجودة فعلاً ، فإن وجودها لايرتبط بتفكيرنا فيها . وبعبارة أخرى ، فإن العقل لايمكن أن يصل إلى حقيقتها ، ولكننا نعرفها من خلال الدين . فليس ثمة سبب ظاهرى يدعو إلى الريبة فى مذهب الاسمية nominalism ؛ فقد كان موقف أتباع هذا المذهب تجاه قوى العقل الكامنة موقفًا يزيد من أهمية الدين . فمن خلال الدين فقط كان يمكن التوصل إلى معرفة المفاهيم الكلية فى الدين المسيحى . وبنفى سلطان العقل ، انتهى روسيلين وأتباع مذهب الاسمية إلى جهالة مطلقة . فقد كان من الصعب على أى إنسان أن ينكر صحة إيمان روسيلين ، ولكنت مبالغته فى أهمية الدين كمنبع وحيد للمعرفة المسيحية جعله هو والاسميين يتخذون موقفًا فكريًا أدى إلى اضمحلال أسس المعرفة المسيحية ، على حين كانت الخلفية التى قام عليها التراث الأفلاطونى فى العصور الوسطى الباكرة دعمًا عقليًا للعقيدة الدينية .

وفى ثلاثينيات القرن الحادى عشر نشب نقاش واسع النطاق فى المدارس الفرنسية بين الموقف الواقعى والموقف الاسمى ، أى بين أتباع آنسلم ومؤيدى روسيلين ، ووقف المتعلمون من رجال الكنيسة فى شتى أرجاء أوربا يرقبون الحوار الدائر فى خوف مما قد يسفر عنه من نتائج. وكان لابد لأبيلار أن يتخذ موقفا مؤثراً ومثيراً للغاية . ذلك أنه بوصفه أبرز أساتذة زمانه ، وألمع عقلية وأقوى شخصية فى الجامعات ، كان لابد أن تكون لآرائه تأثيرات بعيدة المدى .

والحقيقة أن أبيلار كان قد تتلمذ على روسيلين ، ولكنه كان يستمع أيضًا إلى محاضرات الواقعيين . وكان يدرك تمامًا أهمية النقاش وأهمية مشاركته فيه ، وحين طرح آراءه فى ساحة النقاش تجنب تطرفه المعهود . وقد استنتج أبيلار أن الكليات « صورة عامة مضطربة » . وهو مايعنى أنها كانت صوراً عامة تطورت فى العقل من خلال الاستنباط من انطباعات عامة . ومن ثم كان رأيه أن الكليات لم تكن أشياء أو مصطلحات وإنما مفاهيم مفيدة ولكنها ليست حقيقية بالضرورة . وكان ذلك موقفًا معتدلاً ، ولكنه كان يميل ناحية التيار الإسمى ، ومن المؤكد أنه ألقى ظلالا من الشك حول حقيقة الدعم العقلى لتعاليم الدين ، على الرغم من أنه لم ينكر إمكانية حدوث هذا إنكاراً مطلقًا . ولو لم يكن أبيلار يتفوق على الفلاسفة المعاصرين، ولو لم يكن شخصًا عدوانيًا غير عادى يشايعه أتباع كثيرون من الطلاب ، لما استرعت آراؤه الإسمية المعتدلة انتباه الناس . فقد ظهر وكأنه يقود هجومًا على الأسس الأفلاطونية للفكر المسيحى ، ولاشك فى أن مضامين فلسفته كانت إلى حد كبير ، تهدف إلى هذا . بل إنه عندما عبر أبيلار عن استنتاجاته بطريقة معتدلة ، كان من الواضح أن اتجاه فلسفته عمومًا يسير فى اتجاه مضاد للتراث الأدبى المستمد من الكتاب المقدس وكتابات الآباء . لم يحصل أبيلار على مساعدة تلاميذه ذوى الميول الراديكالية المتأججة ، التواقين إلى انتقاد أية تقاليد راسخة ، ولكنه أثار مخاوف واسعة النطاق من أن يكون زعيمًا للشباب فى عملية تهدف إلى الإطاحة بالنظام المسيحى . فقد قام واحد من تلاميذ أبيلار ، هو أرنولد البريسكى Arnold of Brescia ، بإثارة تمرد اجتماعى فى روما وأعدمه فردريك بربروسا فى تاريخ لاحق . وأمثال أولئك التلاميذ السيئى السمعة لم يكن باستطاعتهم شئ سوى تكريس سمعة أبيلار كعنصر هدام يمثل خطراً جسيمًا على المثل المسيحية ، ومفسد شرير يغوى أجيال الشباب .

كان أبيلار رجلاً تحت المراقبة ، ولم يلبث أن سقط . ويبدو أنه كان به ميل إلى المعاكسة أتاح الفرصة الكاملة أمام أعدائه لتدميره . فقد عكف على تأليف كتاب حول طبيعة الثالوث، وهو موضوع كان المفكرون الغربيون يتحاشونه دائمًا بسبب الهرطقات التى خاض فيها اللاهوتيون الشرقيون حين حاولوا أن يحددوا ، فلسفيًا ، العلاقة بين الإله الأب ، والإله الابن، والروح القدس . حين ظهر كتاب أبيلار تأكدت أسوأ المخاوف التى كانت تجيش بصدور رجال الكنيسة المحافظين . وكان قد أقض مضاجعهم حين نشر كتابه « نعم ولا » Sic et Non

الذى صاغه صياغة جدلية ، مع وضد ، آراء مختلف آباء الكنيسة فى المشكلات اللاهوتية . وقد سبق أن استخدم جراتيان هذا المنهج نفسه فى كتاب الدكريتوم Decretum ، كما حدث فى كتاب اللاهوت القياسى الذى وضعه بطرس اللمباردى فى منتصف القرن الثانى عشر باسم Sentences أى « الأحكام » ، كما أن كتاب « مجمل اللاهوت Summa Theologica » ، الذى ألفه توماس أكويناس استخدم نفس الأسلوب الجدلى فى المناقشة – مع فارق جوهرى هو أنهم حلوا التناقضات الكامنة فى الفروض التي عالجوها على حين تركها أبيلار دون حل . وبدا وكأنه يسخر من آباء الكنيسة ثم يشكك فى صلاحية أعظم الأسرار المسيحية . وكان لابد من أن يدان بالهرطقة ويفقد مكانه الأكاديمى . وقد حالت المصائب الشخصية التى توالت على أبيلار بينه وبين مواصلة البحث فى طبيعة الكليات . وعلى أية حال ، فإن الفكر الأوربى توسع فى قبول مؤلفات أرسطو إبان السنوات الخمسين التى أعقبت وفاة أبيلار ، مما غير النقاش الذى دار بين الواقعيين والاسميين فى النصف الأول من القرن الثانى عشر بشكل ما . وكان من المحتم أن يعجز مذهب أبيلار عن مسايرة العصر بسبب تأثير الفلسفة اليونانية والفلسفة العربية الإسلامية على الفكر الغربى . هذه الحقيقة لاتقلل من أهمية مذهب أبيلار فى الثقافة الراقية فى العصور الوسطى . فقد كان هو أهم من يتحدث باسم حركة البعد عن الواقعية الأفلاطونية Platonic realism التى كانت بمثابة اللحمة والسداة فى عالم الفكر فى العصور الوسطى الباكرة . وقد انقضى القرنان التاليان فى تاريخ الفكر المسيحى فى صراع مع ماجاءت به هذه الطفرة الفكرية من مضامين .

كان ممثل الإدعاء فى محاكمة بطرس أبيلار بتهمة الهرطقة هو سان برنار St . Bernard مقدم دير كليرفو Clairvaux الذى جعل من نفسه ضمير الكنيسة فى القرن الثانى عشر . ومنذ البداية اتخذ برنار موقفًا عدائيًا تجاه جامعة باريس . وكان يشك فى أولئك الذين يتعلمون « **لمجرد المعرفة** » ؛ إذ أنه قال : « **أن مثل هذا الفضول أمر يستحق اللوم** » . كما أنه اتهم أبيلار وأمثاله بأنهم يرغبون فى « **أن يتعلموا ، لا لسبب سوى أن ينظر الناس إليهم كمتعلمين ، وهو غرور باطل وسخيف** » . وباعتباره خليفة بطرس داميانى فى الميدان الثقافى فى العصور الوسطى ، لم يكن يرى أية قيمة فى حركة التعليم الجديدة . أما المعرفة الدنيوية الوحيدة التى كانت يرحب بها ويضفى عليها كل القيم فهى الفنون الحرة ، التى كان يرى أنها يجب أن تكون فى إطار الهدف التقليدى المحدد بغرض توظيفها فى خدمة التعليم الكنسى .

وكان برنار يزعم أن القراءة والكتابة والتعليم ليست هى الطريق إلى الله . فكل مايحتاجه المرء لتحقيق الخلاص هو « **ضمير نقى وعقيدة راسخة** » . هذه المقولات تبدو كما لو كانت تميز سان برنار باعتباره الزعيم المحافظ لجيله ، وكان يحب أن يرى نفسه فى هذه الصور . ولكننا حين نفحص أفكاره ككل ، نجدها تبدو نوعًا من التحدى الثورى لعالم الفكر فى العصور الوسطى الباكرة وشأنها فى ذلك شأن أفكار أبيلار ومذاهبه ، على الرغم من أن أفكار برنار اتخذت اتجاها مختلفًا بطبيعة الحال . لقد كان سان برنار هو لسان حركة التدين الجديدة التى عرفتها أوربا القرن السادس عشر ، مثلما كان أبيلار داعية لحركة التعليم الجديدة . وتبدو النظرة البرنارية أبعد ماتكون عن روح الرجعية والمحافظة ، وإنما تتألق باعتبارها من أكثر مذاهب القرن الثانى عشر تضمنا للمبادئ الثورية .

وقد تعرضت سمعة برنار لكثير من تقلبات الأحوال مثلما حدث مع أبيلار . ففى العصور الوسطى كان يحظى بتبجيل كبير ، كما كان يصور فى غالب الأحيان ( على الرغم من أن الذين عرفوه شخصيًا لم يصوروه فى هذه الصورة ) كنموذج للقديس الملائكى . ونظراً لعاطفته وإيمانه الراسخ ، فإنه لم يحظ بالقبول لدى الكتاب المحدثين قط ؛ إذ أنهم تصوروه رجلا كثير الشكوى والتذمر ، متغطرسًا ، عصابيًا . والترجمة الوحيدة التى كتبت فى صالح سان برنار فى القرن العشرين هى تلك التى نشرت فى مناسبة الذكرى الثمانمائة لوفاته سنة ١١٥٣م وكتبها الرهبان السسترشيان . ذلك أن تعصبه وعدم تسامحه يجعل منه شخصية ينفر منها الذوق الحديث ، ولكننا كلما أوغلنا فى دراسة ثقافة العصور الوسطى اكتشفنا المزيد من تأثيره البعيد المدى على هذه الثقافة . وليس من السهل أن نحب برنار ، ولكن من المستحيل أن نتجاهله ، أو حتى نبالغ فى أهميته بالنسبة لتطور حضارة العصور الوسطى .

كان برنار سليل إحدى الشرائح العليا فى طبقة النبلاء الفرنسيين . وقد أمضى شبابه فيما يشغل أى محارب أرستقراطى ، ولكنه تمرد على أخلاقيات الطبقة التى ينتمى إليها ، ومر بتجربة تحول قوية وجهته صوب الحياة الدينية ، كما حدث فيما بعد مع سان فرنسيس وسان اجناتيوس ليولا اللذين انحدرا من أصول اجتماعية مشابهة . وعلى حد تعبير العصور الوسطى صار « **جنديًا من جنود المسيح** » ، أى أنه صار راهبًا . وانضم إلى طائفة الرهبان السسترشيان الجديدة ، وهى الطائفة التى تزعمت حركة النسك والتقشف فى مناطق شمال الألب ، وأخذ معه بعضًا من أصدقائه النبلاء . ومالبث أن عين رئيسًا لدير كليرفو

السسترشيانى . وكان هو أشهر عضو فى طائفته ، كما أن شهرته ساهمت فى النمو السريع للحركة السسترشيانية . وعلى أية حال ، فالواقع أن برنار قد أخطأ وجهته ؛ إذ أن طبيعته المتقلبة لم تكن تناسب الحياة التأملية . فقد كان رجلاً على درجة من التعقيد والحيوية بحيث لايصلح أن يكون راهبًا من رهبان القرن الثانى عشر ، كما كانت أخلاقه السيئة وموقفه المتغطرس نتيجة لعدم قدرته البقاء فى ظل قيود الدستور السسترشيانى ووطأة الشعور بالذنب الذى تعاظم لديه حينما قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته بعيداً عن ديره .

وقد أتاحت شهرة برنار بوصفه زعيمًا للسسترشيان الذين حازوا الإعجاب ، وشخصيته الفذة ، ووضعه كمتحدث غير رسمي باسم حركة التدين الجديدة ، كل هذا أتاح له الفرصة لكى يلعب دوراً عظيمًا فى المجتمع . وفيما بين سنة ١١٢٥ وسنة ١١٥٣ ، كان برنار يبدو وكأنه سيد الكنيسة الغربية . فقد كان يصنع البابوات ، ويخطب فى الملوك ويحثهم على الحركة ، ويدعو إلى الحملات الصليبية ، ويسدى النصح إلى رجال الكنيسة . وقد أدان اليهود ، ثم منع المذابح الجماعية ضدهم ، وعمومًا ، فقد جعل من نفسه مصدر إزعاج للآخرين . ولدينا مثال على سلوكه فى النزاع حول الانتخابات للبابوية سنة ١١٣٠ والذى كان نتيجة لانقسام هيئة الناخبين . فقد انتخب أغلبية ضئيلة أناكليت الثانى Anaclete II ، ولكن الكرادلة البارزين اختاروا إنوسنت الثانى Innocent II . وأعلن برنار أن الأصوات يجب أن تخضع لعملية تقييم ، ولايكفى عددها ، وبهذا ضمن عرش البابوية لإنوسنت الثانى . ولأن قاعدة الانتخاب بالأغلبية كانت هى الطريقة الشائعة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فإن المعاصرين لم يغفلوا عن حقيقة أن برنار قد تصرف بطريقة مغرضة ، لأن إنوسنت الثانى كان واحداً من تلاميذه . والقراءة المتأنية الفاحصة لمراسلات برنار البالغة الكثرة تكشف عن أمثلة كثيرة مشابهة من الأحكام المتحيزة . كما أنه كان قاسيًا فى انتقاداته لطائفة الرهبان الكلونيين . وأخذ على عاتقه مهمة التحقير من شأن فن العمارة الكلونى ، الذى كان فى رأيه شديد البهرجة ولم يكن خشنًا بما يتفق مع روح الزهد والتقشف ، كما أنه لم يتورع عن مهاجمة سوجيه مقدم دير سان دونى ، الذى اتهمه بصاحبة رفاق السوء بشكل كان يعرض روحه للخطر. وقد انشرحت صدور الكثيرين من رجال الكنيسة سراً حين انتهت الحملة الصليبية الثالثة ، التى دعا إليها برنار ، بكارثة . وتعجب برنار وتساءل عن السبب فى أن الرب قد خذله على هذا النحو ، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة التصرف كما لو كان هو المتحكم فى

شئون أوربا . وقيل فى بعض الأحيان إنه كان زعيم أوربا المسيحية طوال حياته . ومن المؤكد أن نفوذه كان كبيراً ، ولاشك فى أنه كان يرى نفسه على هذه الصورة ، بيد أن سيطرته على الأمراء الكنسيين والعلمانيين كانت تبدو أكبر من حجمها الواقعى . إذ وصل الملوك والبابوات إلى حد الشعور بأن أى خطاب أو محاضرة يلقيها سان برنار أشبه بمحنة تعودوا أن يتحملوها ، ولكنهم غالبا ماكانوا يتجاهلون مايطلبه منهم .

كان ما يريده برنار هو الإصلاح الأخلاقى لأوربا ، أى التنظيم الصارم للحياة وفقا للتعاليم المسيحية . ولم يكن أقل من هيومبرت وهيلدبراند فى نزعته التطهرية ، وكان يرغب فى خلق مدينة الله عل الأرض ، ولكنه لقى القبول لأنه ألزم نفسه باستخدام النهج الأخلاقى لتحقيق هذه الغاية ، على عكس هيومبرت وهيلدبراند . وكان هذا هو السبب فى استعداد قادة المجتمع للتسامح معه ؛ فقد كان من كبار المتدينين وكان يحظى باحترام الجميع ، كما كان مبشراً مفوهًا وفصيحًا للغاية اتخذ لنفسة دور ضمير أوربا الأخلاقى ، إلا أنه لم يكن يتمتع بأية سلطة رسمية ، فلم يكن هو البابا ، كما أنه لم يوقع عقوبة الحرمان على أحد ، ولم تكن له سلطة خلع الملوك ، وكان الملوك ورجال الكنيسة على استعداد لسماع خطبه ومواعظه لأنه لم يكن يتدخل فى شئونهم بطريقة تعوق زيادة سلطتهم أو تعرقل سياساتهم المعتادة .

ولم تكن أهمية سان برنار نابعة من مناشدته لزعماء المجتمع ، وإنما جاءت هذه الأهمية من مذاهبه الدينية وعزفه على أوتار المنابع العاطفية الهائلة لحركة التدين الجديدة ، لكى يزيد من سرعة حركة تحول المسيحية فى العصور الوسطى . وفى هذا الصدد واصل برنار أعمال داميانى وجهوده ، وزاد من تكثيف الجوانب العاطفية فى حركة التدين الأوربية ، كما مهد الطريق أمام سان فرنسيس الآسيسى St. Francis of Assisi . كذلك فإنه كان ، مثل داميانى ، معاديًا للفكر ، فوجه انتقاداته المريرة إلى أساتذة المدارس الفرنسية لمحاولتهم إيجاد طريق عقلانى للمعرفة الآلهية ، ولكنه لم يقنع مثل أبيلار بأن يكون هناك مدخل وحيد للألوهية يمر من خلال الوسائل التقليدية عن طريق الدين والأسرار المقدسة . فقد كان يؤمن بالتجربة الدينية المباشرة ، أى الاتحاد بين المحب والله والروح المسيحى . وقال إن غاية الدين هى « **معرفة يسوع ، ومعرفة يسوع مصلوبًا** » - أى معرفة المسيح ليس فى جلاله ، وإنما فى تضحيته بذاته . وللمرة الأولى فى تاريخ العصور الوسطى جعل لاهوت برنار الحب فى مكانة أعلى من الإيمان . وفى رأى برنار أن الاتحاد بين الرب والإنسان يقوى كثيراً بشفاعة مريم المقدسة « **إن العذراء**

**هى الطريق الإلهى الذى جاءنا المخلص منه »** . وهى « الزهرة التى تستقر عليها الروح القدس» . لقد لعب سان برنار دوراً رائداً فى تطور مذهب العذراء الذى يعد واحداً من أهم مظاهر حركة التدين الشعبى فى القرن الثانى عشر . ولم يكن هو مبتدع المريمية ؛ فقد اكتشف رجال كنيسة العصور الوسطى أن هذا المذهب كامن فى الأناجيل نفسها . ولكن مريم العذراء لعبت دوراً ثانويا للغاية فى الحركة الفكرية فى العصور الوسطى الباكرة ، ولم يحدث سوى عند ظهور المسيحية العاطفية فى القرن الحادى عشر أن بدأت تلعب دور شفيع الإنسانية الأول لدى الرب . فقد تم تصويرها فى صورة الأم المحبة للجميع ، والتى تتسع رحمتها اللانهائية لكافة من ينشدون المساعدة بقلب تائب محب ، وتقدم لهم إمكانية الخلاص . وقد ساهم سان آنسلم وبعض تلاميذه مساهمة هامة فى النمو السريع لمذهب العذراء فى نهاية القرن الحادى عشر ، ولكن سان برنار كان هو الذى جعل المريمية مذهبًا هامًا فى الإيمان الكاثوليكى ، وجعل منه مذهبًا تعدى التعاليم الدينية الصارمة بحيث يثرى الرؤية الفنية والأدبية فى العصور الوسطى العالية إثراء كبيراً .

وهكذا ، بفضل تعاليم برنار تصير مريم العذراء جانبًا إضافيا من جوانب الألوهية وتساعد الابن والروح القدس فى التوحيد بين الإنسان والرب . ولكن هناك مدخلا قائمًا وممكنا ومباشراً؛ هو الطريق الصوفى للرؤية الجمالية . ومذهب برنار هو الذى يضع الاتجاهات الصوفية فى لاهوت داميانى موضع التحقيق. ولم يكن مقدم دير كليرفو هو المتحدث الوحيد باسم الطريق الصوفى للاتحاد بالرب فى منتصف القرن الثانى عشر . ففي غمار الجو الدينى المشحون عاطفيا فى ذلك الزمان ، كان لابد لفكرة التجربة المباشرة مع الألوهية أن تلقى قبولا واسع النطاق . وفى أيام برنار قام بعض الكتاب فى دير سان فيكتور فى باريس بكتابة بعض الآداب الصوفية ولكن برنار كان هو أقوى داعية إلى المدخل الصوفى إلى الألوهية فى الفترة مابين ظهور داميانى وظهور فرنسيس . وفى المقاطع الأخيرة من الكوميديا الإلهية يجعل دانتى ، بما تميز به من فطنة وحذق ، سان برنار ممثلا للرؤية الجمالية فى مسيحية العصور الوسطى . لقد كان الاتحاد الصوفى مع الرب عند برنار أسهل كثيراً مما هو عند أوغسطين وآباء الكنيسة . فهو يقول إن أى إنسان يملؤه الشوق المضطرم إلى الاتحاد بالمسيح لدرجة أنه **«يرغب فى ذلك بشدة ، ويتعطش إليه بحماسة ملتهبة ، ويعول على الأمل فى هذا الاتحاد دون كلل أو ملل ، وحينئذ سوف يشعر بنفسه بين أحضان العروس وسوف يتلقى فيضا حلواً**

**من الحب الإلهى** » ، وسوف تعانى روحه « **ذلك الموت الذى تعانيه الملائكة** » . ولسوف يهرب من الأشياء المادية فضلا عن هربه من الأفكار والصور المتعلقة بها والتى تؤرقه ، كما أنه سينعم بنشوة التأمل ؛ أى أنه سوف يدخل فى علاقة نقية من « **صورة النقاء ومثاله** » .

هذا المذهب الصوفى هو الذى يشكل الثورة الأكثر شمولا فى الفكر المسيحى ، لأنه إذا أمكن للروح أن تهرب فى حياتها الحاضرة من قيودها البشرية على هذا النحو ، فما هى ضرورة الكنيسة وأسلوب أسرارها المقدسة كوسيلة للخلاص ؟ إن الكنيسة والأسرار المقدسة ضرورية باعتبارها تمهيداً للرؤية الجمالية على حد تعبير برنار الذى يضيف إنها ضرورية أيضا لأولئك الذين يعجزون عن الحياة الروحية الخالصة . ولكن أولئك الذين اتبعوا التدريبات الروحية التى اقترحها برنار تخلوا فى الواقع عن ضرورة الوسائل الكنسية للخلاص ؛ إذ أنهم دخلوا فى علاقات مباشرة مع الألوهية ؛ أى أنهم ماتوا موت الملائكة ؛ وهو مايعنى أنهم صاروا هم الأطهار السماويين . وحينما نزل أولئك القديسون الملائكيون من عليائهم الروحية - أى عندما تخلوا فى نفس اللحظة عن معانقة العروس الإلهية - فمن ذا الذى سيخبرهم عن ماهية الحقيقة ومن ذا الذى يمكنه أن يفرض سلطانه عليهم ؟ هل هم القساوسة ، وزراء المسيح الرسميون ؟ كم من هؤلاء القساوسة ظفروا بالرؤية الجمالية ، وكم منهم عانى تجربة العناق السماوى ؟وهل يمكن لأمثال هؤلاء أن يحكموا الملائكة ؟ هذه هى الأسئلة البارزة التى أثارتها الآراء البرنارية ولم يحدث أن أثيرت هذه الأسئلة بشكل ضمنى فقط . إذ أن برنار الذى كانت وظيفته الوحيدة فى الكنيسة هى وظيفة مقدم لأحد الأديرة السسترشيانية الصغيرة ، كان يفترض فى نفسه صلاحية الحكم على الكنيسة ورجالها فى زمانه . واكتشف أن « **هناك فساد مدمر يزحف فى سائر أوصال الجسد الكنسى** » . وهو داء عضال لاسبيل لشفائه نظراً لاستشرائه ، كما أنه بالغ الخطورة بسبب عمقه ورسوخه . وقد أعلن برنار من موقعه الملائكى « **أن الوباء الذى يجتاح الكنيسة وباء داخلى ولايمكن شفاؤه** » . فرجال الكنيسة في زمانه « **بعظمتهم المبهرجة الزائفة** » و « **سلوكهم الشائن** » قد خانوا الرب « **فهم قد حازوا شرفا قدمهم بفضل خيرات الرب ، على حين أنهم لايفعلون شيئًا ، شرفًا أو خيراً ، للرب** » . والأساقفة الكبار هم « **وزراء المسيح الدجال** » . لقد صارت الكنيسة من أملاك «**شيطان الظهيرة** » المسيح الدجال الذى « **لاشك فى أنه ابتلع كل أنهار وسيول الأقوياء** » . والعصر النهائى الذى يتحقق فيه سفر الرؤيا هو فقط الذى سوف يشهد قضاء المسيح على المسيح الدجال « **بفضل الضياء المنبعث من مقدمه** » .

وإذا ما قارنا أقوال رئيس دير كليرفو ، التى سرت فى كل اتجاه ، بأكثر تصريحات أبيلار تطرفا ، لبدت لنا تصريحات أبيلار معتدلة فى قصدها . ففى كلام برنار عن الكنيسة تصير حركة التدين الجديدة خارجة عن نطاق كل سيطرة وتتحول ضد النظام القائم . ولم يحدث أبداً أن فكر أحد باتهام برنار بالخطأ العقيدى ، ولكن كتاباته هى أكثر المصادر وضوحًا وأهمية بالنسبة لكثير من المذاهب التى نشرتها الحركات الهرطقية فى الشطر الأخير من القرن الثانى عشر ، ثم فى القرن الرابع عشر . ففى جميع هذه الحركات توضع سلطة القديس الملائكى قبل السلطة الرسمية للجهاز الكنسى وفوقها ، كما أن الأخلاقيات الفردية تجب المنصب الكنسى . ودونما قصد من برنار باعتناق المذهب الدوناتى ، فتح الطريق لرواج المبادئ الدوناتية فى أخريات القرن الثانى عشر . لقد كانت مذاهبه تجسيداً مسبقًا لتعاليم يواقيم الفلورى Joa-chim of Flora ، الذى كان راهبًا ومهندسا معماريا من جنوب إيطاليا ، ظهر بعد قرن من الزمان . ولم يقل برنار إطلاقا إن البابا هو أداة المسيح الدجال ، ولكنه أدان كل درجة أخرى فى الجهاز الكنسى من كبار الأساقفة والشمامسة باعتبارهم خداماً « لشيطان الظهيرة » . وما كان على يواقيم ، فيما بعد ، سوى أن يضيف أن نائب المسيح هو بالفعل نائب المسيح الدجال لكى يصل إلى لب نظريته الثورية . وحتى الفكرة الأخروية القائلة بأن العالم قد دخل عصر المسيح الدجال ، وأن قدوم المسيح سيحدث فى أعقاب هذا العصر ، وهى الفكرة التى اتخذها يواقيم أساسا للاهوته فى التاريخ – هذه الفكرة تتجلى واضحة فى كتابات برنار .

إن النمو الفكرى فى أوربا ، بما اتسم به من غموض وما خلفه من نتائج متعددة الجوانب ، يتجلى حيا فى النظرة البرنارية . فهى نظرة رجعية محافظة ومعادية للفكر من بعض النواحى، لأن برنار كان يرى مخاطر حركة التعليم الجديدة ، ويدرك للمضامين المنذرة بالشر فى شخصية أبيلار وفلسفته ، ولكن برنار من جانبه كان يوجه حركة التدين الجديدة فى اتجاهات لم تكن الكنيسة فى أواخر القرن الثانى عشر قادرة على السيطرة عليها . ذلك أنه حين رفع القديس التطهرى إلى مكانة تسمو فوق مكانة وزراء المسيح ، وحين أصدر أحكامه المنحازة على القساوسة وأدانهم بأنهم أدوات المسيح الدجال ،أعلن ميلاد المذاهب التى قيض لها أن تشكل الخطوط العامة للهرطقات الشعبية . لقد أعطى برنار لكاثوليكية العصور الوسطى بعداً عاطفيًا جديداً أثراها وأعاد لها حيويتها ، ولكنه فى الوقت نفسه يجب اعتباره أول من حفر قبر السلطة الكنسية .

٤ - الأدب والمجتمع فى القرن الثانى عشر :

كان النمو الفكرى فى القرن الثانى عشر يتضمن الآداب الإنسانية شأن سائر أشكال الفكر والمشاعر . فقد شهد ذلك القرن تزايداً كبيراً فى حركة التعليم . كما شهد تطور الدوافع الهامة الجديدة للتعليم والتى كانت ذات تأثير قوى على الآداب الأوربية حتى القرن العشرين ، إلى جانب خلق الآداب الشعبية للمرة الأولى . ذلك أن أحداً من كتاب العصور الوسطى الباكرة ، باستثناء سان أوغسطين ، وربما بوئثيوس وعدد قليل من الشعراء الأنجلو سكسون ، لايجد من يقرأ مؤلفاته اليوم لأغراض أخرى غير الأغراض التاريخية البحتة . وعلى أية حال ، فقد أنجب القرن الثانى عشر الشعراء الفرنسيين ، والأسبان ، والألمان الذين مازالت مؤلفاتهم تحظى بحفاوة وتقدير النقاد الأدبيين وتجتذب جمهرة من القراء . هذه المؤلفات ، التى كتبت غالبيتها باللغات الشعبية ،تمثل صورة حية من مثل وأخلاقيات المجتمع الأوربى ، لاسيما فى أوساط ملاك الأراضى . وليس هناك جانب من جوانب التغير الثقافى فى القرن الثانى عشر أكثر صعوبة فى تقييمه من المدلولات الفكرية والثقافية للأشكال الأدبية الجديدة .

فما هى نوعية الناس الذين كانوا يكتبون الأدب فى القرن الثانى عشر ؟ لقد كانت الغالبية العظمى من الكتاب ، حتى الذين كتبوا باللغة الدارجة ، مايزالون من رجال الكنيسة. ولكن بدلا من الكتاب الرهبان الذين كانوا هم الغالبية من قبل ، والذين تميزت بهم الفترة السابقة على سنة ١١٠٠م ، يكشف القرن الثانى عشر عن كتابات غزيرة كتبها القساوسة ، الذين كان معظمهم من العاملين فى الكاتدرائيات . وكانت هناك فئة جديدة من الكتاب هم طلبة الجامعات ، الذين كانوا من رجال الكنيسة فى مناطق شمال الألب . وفضلا عن القساوسة ، الذين أنتجت قرائحهم الشطر الأكبر من أدب القرن الثانى عشر ، ساهم العلمانيون ، للمرة الأولى فى العصور الوسطى ، فى الأدب الأوربى ، ذلك أن كثيرين من النبلاء ، لاسيما فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا ، ثم غرب ألمانيا أواخر القرن الثانى عشر ، كانوا ذوى حظ من التعليم كبير ؛ وصار بعض أبناء الأرستقراطية الألمانية والفرنسية مؤلفين يكتبون بلغاتهم المحلية . وكانت الضرورة تقتضى أن يكون هناك عدد كبير من البورجوازيين القادرين على القراءة والكتابة لإعداد التقارير والمشاركة فى المراسلات المتعلقة بالعمل . ولم يحدث سوى حوالى سنة ١٣٠٠ أن بدأ أدب بورجوازى متمايز فى الظهور .

لقد كانت اللغة اللاتينية ، فى أخريات القرن الثانى عشر ، ما تزال هى اللغة المستخدمة دون غيرها فى الموضوعات ذات الطابع الفنى والفكرى : مثل الفلسفة ، واللاهوت ، والقانون، ووثائق الكنيسة والدولة . وظلت اللاتينية هى اللغة الأكاديمية العالمية حتى القرن الثانى عشر. وماتزال شئون الكنيسة الكاثوليكية توجه باللغة اللاتينية إلى حد كبير . ولكن بعد سنة ١٢٠٠م بدأ استخدام اللغات المحلية فى العمل الإدارى وساحات القضاء فى الممالك الوطنية النامية . وفى القرن الثانى عشر كان مايزال هناك قدر هائل من الأدب يكتب باللغة اللاتينية، بل إن بعضا من أفضل القصائد اللاتينية ظهرت بعد سنة ١١٠٠م ، كما أن الطقوس الكنسية الكاثوليكية ورثت تراثا غنيا عن القرن الثانى عشر : مثل الترانيم الجريجورية فى صيغتها المعروفة اليوم ، ومثل قصائد سان برنار وترانيمه الدينية .

لقد شهد القرن الثانى عشر كذلك ظهر ماعرف باسم « **الشعر اللاتينى العلمانى** »؛ وهو عبارة عن قصائد عاطفية وأغنيات تدور حول موضوعات غير دينية . وكانت تلك أشعاراً كتبها الدارسون الجوالون على حد التعبير الشائع ، والذين يقصد بهم طلاب الجامعة . وفى هذا الشعر تعبير عن الشكل النمطى للطالب فى أى عصر من العصور : بطموحه المحُبط ، واستخفافه الظاهرى بالأمور ، ومغامراته العاطفية والمرات التى يقبل فيها على شرب الخمر . وأفضل ماتبقى من قصائد الطلبة كتبها اثنان من خريجى جامعات العصور الوسطى هما : كبير الشعراء Archpoet [٤] ، الذى كان كاتبا فى حاشية المجلس الاستشارى لفردريك بربروسا ، والرئيس Primate ، الذى كان رجل قانون كنسى بارزاً فى كاتدرائية أورليانز . وغالبا ماتردُ الإشارة إلى هذه القصائد العاطفية باسم الشعر الجولياردى Golirdic poet-ry، لأن كثيراً منها مكرس بطريقة هزلية إلى من يسمى جولياس Golias أو جوليات Go-liath ، ويفترض أنه مرادف للشيطان . هذه القصائد « الشيطانية » التى تحض على مغريات الحياة الماجنة ، فسرت فى بعض الأحيان ( لاسيما من جانب الباحثات العاطفيات )

---

٤ – يعرف باللاتينية باسم Archipoeta وهو شاعر لاتينى مجهول . وقد أطلق عليه هذا الاسم تعبيرا عن إعجاب الجولياردين Goliards ( مجموعة من الشعراء الجوالين ينسبون إلى أب أسطورى هو Golias ) به . وكان واحداً من أفضل الشعراء الجوالين ، امتدح فى قصائده الحب والخمر والنساء . ويبدو من قصائده أنه عاش فى ريف منطقة الراين بألمانيا . وقد انتقد الكنيسة وتتناول قصيدته الشهيرة « الاعتراف » قصة شاعر يخوض فى الرذيلة والخمر والنساء ، وهى مصادر إلهامه التى تمهد له الطريق إلى الفردوس . وفى أشعاره يتمنى أن يموت فى حانة خمر . ( المترجم )

على أنها تقرير دقيق عن الحياة التى كان طلبة الجامعة يحيونها ، والمثل والقيم التى كانت سائدة فيما بينهم . وهذا الرأى لايصمد للنقد أكثر مما يصمد التفسير المماثل لما يكتبه الطلاب الأمريكيون المعاصرون فى صحفهم . إذ كانت الخمر ، والنساء ، والغناء تمثل جزءاً هامشياً فى حياة طلاب القرن الثانى عشر ، بل إنها كانت أقل أهمية مما هى فى حياة طلاب اليوم .

إن الموقف المستهزئ بالهيراركية الكنسية ، والذى يفرض نفسه من ثنايا القصائد الجوليادرية يحمل بعض الأهمية والمغزى ، ولكن علينا أن نتذكر أن مؤلفى هذه القصائد كانوا من موظفى الكنيسة . ومن الواضح أن القصائد الجوليادرية أكثر دنيوية من ترانيم سان برنار التى كرسها للعذراء ، ولكن مسحة التشاؤم الشبابية الواضحة فيها لاتخفى ماوراءها من إخلاص عميق للدين فى العصور الوسطي . وفى تقييم الشعر الجوليادرى ومايشابهه من شعر الطلبة فى القرن الثانى عشر ، ينبغى التأكيد على أن أولئك الكتاب الذين أعلنوا أنهم عقدوا العزم « على أن يسقطوا جثثا هامدة فى الحانة » هم أنفسهم الذين كانوا يستمعون بانتباه شديد إلى محاضرات أبيلار ومواعظ برنار . فبعد أن أنهى كبير الشعراء Archpoet وصف حياته الماجنة كسكير ، مقامر ، وزير نساء يتوسل إلى الرب كى يمنحه الرحمة والخلاص ، كما يطلع إلى تحية « الملائكة الذين ينشدون القداس لخلاص الأرواح فى فرح أبدى » . لقد كان الشعر الجوليادرى تعبيراً عن مدى التنوع والتعقيد فى حياة القرن الثانى عشر ، ولكنه لايصلح دليلا على الموقف العلمانى الحقيقى . فعلى العكس ، يوضح هذا الأدب كيف أن موجة التدين الجديدة قد قللت من حدة عصيان الطلاب ، وكيف ساعدت على تحويل البوهيميين الشبان فى الحى اللاتينى إلى رجال مسئولين ولم يكتب لطيشهم ونزقهم أن يبقى سوى فى صورة خيالية يرسمها الحنين إلى الماضى .

لقد توارت إنجازات الأدب اللاتينى فى القرن الثانى عشر خلف ظلال المؤلفات الكثيرة التى كتبت باللغات المحلية آنذاك . فقد كان من الشائع فى الأوساط العلمانية فى العصور السوطى الباكرة أن تستخدم اللغة المحلية فى المحادثات العادية . ولكن العمل الأدبى الوحيد الذى كُتِبَ قبل سنة ١١٠٠ ، أو سنة ١٠٥٠ - لأن هناك صعوبة كبيرة فى تحديد تاريخ هذه الأعمال الأدبية - يتألف من الشعر الأنجلو - سكسونى الذى تعتبر قصيدة البيوفولف Beo-wulf خير مثال عليه . فاللغة الفرنسية ، التى ظهرت بشكل متمايز منذ القرت التاسع

انبثاقا من اللغة الرومانية lingua romana التى كانت هى الصيغة الدارجة من اللاتينية الكلاسيكية ، أنتجت أول مؤلفاتها الأدبية قبل أو بعد سنة ١١٠٠ بعشرين سنة أو ثلاثين سنة . كذلك بدأ استخدام اللهجات الرومانسية الأدبية فى التعبير الأدبى فى الوقت نفسه تقريبا ، وربما بعده بقليل . ولم يظهر الأدب الألمانى المحلى سوى عند نهاية القرن الثانى عشر، أما فى إيطاليا ، حيث كانت اللغة اللاتينية ذات تأثير شديد على الأدب الشعبى ، فإن المؤلفين لم يبدأوا فى استخدام اللغة الدارجة سوى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . وقد أدى الغزو النورمانى لانجلترا ، وما نتج عنه تحويلها إلى تابع ثقافى لفرنسا ، إلى إعاقة الأدب المحلى الإنجليزى حتى القرن الرابع عشر . والحقيقة أن نمطا من اللغة الفرنسية الهجينة ظل يستخدم فى السجلات القانونية والحكومية الإنجليزية حتى منتصف القرن الخامس عشر .

وأهم المؤلفات الأدبية الى كتبت باللغة المحلية فى القرن الثانى عشر ، سواء من حيث عددها أو من حيث أهمية عناصرها الأساسية وأساليبها الفنية هى تلك التى كتبت بلهجات جنوب فرنسا وشمالها . إذْ أن أى قارئ للأدب الفرنسى الغزير فى القرن الثانى عشر لابد وأن يرى للوهلة الأولى انعكاسا لبعض الجوانب الهامة فى حركة التغير الفكرى والاجتماعى ، ولكن هناك خلافا بين العلماء حول مدى مباشرة هذا الانعكاس ودقته . ذلك أن مؤرخى الأدب غالبا ما يأخذون الروايات الواردة فى مصادرهم بقيمتها الظاهرية ويقبلونها كما لو كانت صوراً دقيقة لأخلاقيات وقيم الطبقة الحاكمة فى القرن الثانى عشر ؛ أما المؤرخون السياسيون الأكثر حنكة فإنهم يبذلون مافى طاقتهم لتجاهل الروايات الأدبية ويعتبرونها وجهات نظر مشوشة على أحسن الفروض ، ويرون فيها بعداً عن حقائق الحياة فى العصور الوسطى بدرجة تجعلها لاتصلح برهانا تاريخيا على أسوأ الفروض . أما الدراسة والبحث التاريخى الحديث ، والذى يرتبط بمنظور اجتماعى واسع ، وتحكمه الحساسية تجاه حالات الوعى والصيغ التى تأخذ شكل النظم والمؤسسات ، فقد اكتشف فى أدب القرن الثانى عشر دلائل على تغيرات شاملة فى المشاعر تركت بصماتها على طوائف هامة فى عالم العصور الوسطى .

ويمكن تقسيم تراث الشعر المحلى الفرنسى فى القرن الثانى عشر إلى مجموعات ثلاث متمايزة : أولها أغنيات الرموز Chansons de Geste ثم أغانى التروبادور ، ثم الملحمة الرومانسية التى هى من نتائج التأثير المتبادل بين الشكلين الأولين . وكانت أغنيات الرمز

عبارة عن قصائد ملحمية طويلة ترتبط بشمال فرنسا وتصور أعمال البطولة وغيرها من جوانب حياة النبلاء الإقطاعيين . ومن المؤكد أنها كتبت لتسلية البلاط الأرستقراطي ، وربما كانت قصصا متداولة شفويا ، ثم ازدادت ببطء على مدى ثلاثة قرون قبل تدوينها في نهاية القرن الحادي عشر أو مطلع القرن الثاني عشر . وكانت هذه القصائد مبنية على الحوادث ، التي نعرف بعضها من المصادر التاريخية ، والتي حدثت في العصر الكارولنجي . هذه القصائد الملحمية ، التي كتبت لتسلية النبلاء الإقطاعيين الفرنسيين ، يفترض أنها تصور كبار السادة الإقطاعيين في الشمال الفرنسي في الصورة التي كانوا يحبون أن يروا أنفسهم فيها . وجاءت النتيجة صورة مثالية للحياة الإقطاعية ، ولكنها صورة يمكن التعرف على ملامحها من خلال مانعرفه عن الحياة الإقطاعية من المصادر غير الأدبية ، بل إنها تؤكد هذه المعرفة تأكيداً حيا في كثير من الأحيان . أما الأدب الأيبيري المسيحي فقد بدأ حوالي منتصف القرن الثاني عشر بالملحمة الأسبانية الكبيرة « ملحمة السيد The Cid »[٥] ، التي هي رواية عن أعمال محارب أسباني شهير في القرن الحادي عشر ، والأفكار والمثل والمواقف التي تعبر عنها ملحمة السيد هي ذاتها التي تعبر عنها أغنيات الرمز الفرنسية .

إن هذه الأغنيات تصور الإقطاعيين في صورة زعماء المجتمع ؛ كما أنها تصور الملك - الإمبراطور بعيداً في أحسن الأحوال ، وفي أحوال أخرى تصوره ضعيفًا وجلا ، أما رجال الكنيسة فتصورهم كمجرد مساعدين للنبلاء الإقطاعيين ، وتصور الفلاحين في صورة قوة اجتماعية يمكن تجاهلها ، فليس لهم من وظيفة سوى أن يكدحوا ويكدوا من أجل سادتهم ، وتحصدهم مجازر الحروب الإقطاعية حين تنشب ، ولايكاد سكان المدن يظهرون في صفحات

---

٥ - « ملحمة السيد » Cantor De Mio Cid عبارة عن قصيدة ملحمية قشتالية كتبها شاعر مجهول عند مطلع القرن الثالث عشر . وهي تتناول مغامرات Ruy diaz de Bivar أو السيد كانبيادور Cid Campeador ( وهو بطل الملحمة )من صغار النبلاء القشتاليين عمل في خدمة الملك ألفونسو السادس الذي أرسله في بعثة إلى أشبيلية لتحصيل الجزية ، ثم نفاه الملك بتهمة تتعلق بمهمته سنة ١٠٨٨ ، وقدم بيفار خدماته إلى حاكم سرقسطة المسلم وأحرز شهرة واسعة في معاركه ضد المسيحيين ، وخلال تلك الفترة عرف باسم السيد Cid وهو اشتقاق من كلمة السيد العربية ) وقد خلد باعتباره بطلا أسبانيًا عظيمًا ، وقد خلط الشاعر بين الحقائق التاريخية وعدد من الأساطير والمأثورات الشعبية ، فهو لايكتفي بتصوير « السيد » في صورة الملك الشجاع الكامل ، ولكنه يجعل منه مسيحيا تقيا كرس حياته للقتال ضد أعداء المسيح .

انظر : الدراسة التي أعدها الدكتور طاهر مكي تحت اسم ملحمة السيد ، وصدرت عن دار المعارف سنة ١٩٧٨م.

هذه الملاحم . أما القوة فى أغنيات الرمز فهى قوة الولاء ، ودائما يكون موضوع القصيدة موضوعا يتعلق بالتبعية الإقطاعية وتحقيقها ، أو الخروج عليها . وهكذا نجد البطل فى أنشودة رولان Chanson de Roland ( وهى أول مؤلف فى لأدب الفرنسى تعين على أجيال عديدة من الطلاب فى العصر الحديث أن يتعبوا بين طيات صفحاتها وسطورها ) واحداً من الكونتات يفى بقسمه الذى قطعه بالولاء لشارلمان حتى لو أدى ذلك إلى موته المؤكد . كذلك فإن قصيدة راؤل الكامبرى Raoul de Cambari التى تعتبر أكثر القصائد الملحمية قيمة بالنسبة لمن يؤرخ للحياة الاجتماعية ، تدور حول المتاعب والعنف الذى ينجم عن عدم مكافأة الإمبراطور لأحد كبار أتباعه بالإقطاع الذى يدعى أن وراثته حق له . وفى قصيدة راؤول تتجلى النزعة العدوانية للنبلاء الإقطاعيين : فالبطل المخطئ يشترك فى حركة عصيان دموية ومذبحة يروح ضحيتها رجال الكنيسة وسكان المدن الذين لاذنب لهم . ومن الواضح أن جمهور الأرستقراطيين كانوا يستمتعون وهم ينصتون إلى رواية مثل هذه الحوادث . وفى بعض مناطق الحدود المتخلفة مثل بريتانى والمناطق الجبلية كان مثل هذا العنف سمة عامة حتى سنة ١٢٠٠م. هذه الإشارات إلى الفوضى الإقطاعية تتشابك وتتداخل فى القصيدة نفسها مع الإشارات الواردة إلى موجة التدين الشعبى الجديدة . كما أن القصيدة التى تتخذ من حياة سيد إقطاعى يسمى « روبرت الشيطان » موضوعا لها تصف كيف أن البطل ، بعد سنوات عديدة من السرقة والسطو ونهب الأديرة ، يعانى من تبكيت الضمير ، فيذهب إلى روما ويحصل على الغفران لروحه من خطاياه ، ثم يقضى الفترة الأخيرة من حياته راهبًا قديسًا . ويتأكد الربط بين العنف والتدين فى أغنيات الرمز من خلال معرفتنا العامة عن أخلاقيات نبلاء القرن الثانى عشر . وعلى أية حال ، فهناك عنصر إضافى يتمثل فى نوع من العاطفة المبتذلة فى القصائد التي لاتتوافق مع تصوراتنا التاريخية العامة لنبلاء الشمال الفرنسى فى بداية القرن الثانى عشر . وهكذا فحين يخبر شارلمان خطيبة راؤول بموت البطل ، تروح فى غيبوبة وما تلبث أن تموت كسيرة الفؤاد . وتخبرنا القصيدة أن المأساة جعلت كبار النبلاء فى بلاط شارلمان ينخرطون فى بكاء مرير . هذه العاطفة المخنثة تتعارض بشدة مع الرجولة الخشنة التى اتصف بها أبناء طبقة ملاك الأراضى فى شمال فرنسا فى الزمن الذى كتبت فيه أغنيات البطول ( أى القرن الثالث عشر ) . وإذا كانت لها أية قاعدة تاريخية ، فإنها تكشف فقط عن أنه داخل الحدود الضيقة لبعض مجالس البلاط الإقطاعية ظهرت حساسية جديدة مع بزوغ شمس القرن الثانى عشر .

وعلى أية حال ، فإن الحساسية ، والعاطفية ، والتعاطف المخنث لم تكن هى الخصائص التى تميز هذه الأغنيات بشكل عام . إذ أن اقحام هذه المواقف الرومانسية على نظرة النبلاء الأوربيين ، لم تنشأ أصلاً فى إمارات الشمال الإقطاعية وإنما فى بيئة الجنوب الفرنسى الاجتماعية المختلفة إلى حد ما . فهنا فى البروفانس ، وأكويتانيا ، وتولوز كانت ثمة ثقافة تتطلع جنوبا صوب عالم البحر المتوسط . وكان تأثرها بالشمال قليلا فى القرن الثانى عش . ذلك أن النزعة العسكرية لدى نبلاء الجنوب تضاءلت ، كما تغير أسلوب حياتهم بفعل عدة عوامل تداخلت مع بعضها . فقد استقرت حدود الإمارات الإقطاعية فى الجنوب ، وكانت الفرصة لنشوب الحروب الإقطاعية ضئيلة ومحدودة . لأن كثيرين من نبلاء لانجدوك Lan-guedoc ، بلاد اللهجة الجنوبية ، اتخذوا لأنفسهم مستقراً فى المدن ، كما أن مواقفهم تحولت تدريجيا بفعل موقف سكان المدن المعادى للعنف والفوضى . كما كان لحركة التدين الجديدة تأثير شامل على النظرة العالمية لنبلاء الجنوب ؛ إذ أن حماستهم الجديدة للقديس والعذراء جعلت النبلاء الأذكياء يقللون من أهمية الانخراط فى سلك الطبقة المحاربة .

لقد قيض للحياة الاجتماعية فى الجنوب الفرنسى أن تتركز فى بلاط الكونت أو الدوق ، كما أن الظروف المحيطة بها أتاحت الفرصة لسيدات الطبقة الأرستقراطية لتلقين النبلاء الأخلاقيات اللطيفة الرقيقة . وبدأ مصطلح « بلاط Court » ، الذى كان معناه قبل ذلك حكوميا قانونيا لاغير ، يكتسب معنى إضافيا كمركز اجتماعى أرستقراطي ، وأصبحت كلمة « بلاطى Courtly » مرادفًا لكلمة « مهذب » وكلمة « ناضج اجتماعيا » ( على دراية بشئون الحياة ) . وأخيراً ، فإنه يحتمل أن تكون المواقف الرومانسية التى عرفها بلاط الأمراء المسلمين ردحًا طويلا من الزمن ، والتى وصفتها قصص ألف ليلة وليلة ، قد تغلغلت فى جنوب فرنسا عن طريق الإمارات العربية المجاورة فى الأندلس . هذه العناصر جميعا قد استخدمت لتفسير القيم والمثل العليا الرقيقة العاطفية التى تنطوى عليها أغانى التروبادور التى شاعت فى جنوب فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر . لقد كان بعض شعراء التروبادور شعراء محترفين يتعيشون من الغناء فى بلاط الأمراء . وكان البعض الآخر من النبلاء أنفسهم ، ومنهم بعض دوقات أكويتانيا الأقوياء . وقيم التروبادور ومثلهم العليا هى أول تعبير واضح عما اصطلح على تسميته بقانون الفروسية. والمصطلح ليس مصطلحا جيداً ؛ لأن الأفكار والمشاعر المتضمنة فضفاضة وغامضة

لدرجة أنه لايمكن تحديد القانون المذكور حتى على نحو يماثل تعريفنا للتبعية الإقطاعية ، كذلك فإن مصطلح « فروسية Chivalry » مصطلح غامض ، لأنه فى حد ذاته لايعنى شيئًا غير أسلوب حياة الفارس . ولكن فى كل مرة يستخدم فيها المصطلح يحتمل أن يتضمن معنى جديداً فى نظر الأرستقراطيين فى جنوب فرنسا عند مطلع القرن الثانى عشر . .

والفروسية ذوات معنيين فى وقت واحد ؛ أحدهما فضفاض والآخر محدود . ويوحى المعنى الواسع الفضفاض للمصطلح بأن عادات الطبقة المحاربة كانت فى سبيلها للتراجع أمام أخلاقيات السادة الأرستقراطيين . ففى الفترات الطويلة التى تخللت الحروب كان النبلاء الجنوبيون ينغمسون فى وسائل التسلية فى البلاط ، وهى تسلية لم يكن بوسع أية طبقة أخرى فى المجتمع أن تقلدها ، وكانت فائدة هذه الحفلات - والتسلية المكلفة وغير العملية : مثل المآدب والصيد بالصقور ، ومباريات المبارزة ، والغناء ، والاستماع إلى قصص التروبادور ... وما إلى ذلك - أن تحافظ على هوية الطبقة التى كانت قد فقدت وظيفتها الحربية أو كادت . وبعبارة أخرى ، أكثر دقة وتحديداً ، كانت الفروسية ترتبط بقيم وممارسات العلاقات الغرامية فى البلاط . ففى أغنيات التروبادور تتم مخاطبة السيدات بأسلوب رقيق وعاطفى لم يكن يعرفه السادة الأفظاظ فى العصور الوسطى الباكرة ، والذين كانوا ينظرون إلى النساء باعتبارهن أدوات للمتعة الجسدية وإنجاب الأطفال لاغير . وإذ انتقلت غراميات البلاط من أكويتانيا إلى بلاط شمبانى Champagne فى الشمال فى منتصف القرن الثانى عشر ، طورت لنفسها قانونا خاصا كتبه من يدعى أندرو القس Andreas Capellanus . وقام هذا القانون على أساس مبدأ الحب الرومانسى ، أى الحب بين الرجل وأمرأة من الأرستقراطيين غير متزوجين ولايمكن أن يتزوجا ، بل ولا يريدان الزواج ، لأن المفروض أن الحب لايوجد سوى خارج الزواج . وتقضى الحبكة الرومانسية عبر طقوس تبادل الرسائل المشجعة ، وتبادل قسم الوفاء ، والتذكارات . وتصبح المرأة بالنسبة للنبيل هى السيدة المثلى التى تجسد كل الفضائل والجمال، والتى باسمها يأتى بكافة الأعمال الباسلة والرائعة .

وقد مضى وقت صعب للغاية على مؤرخى حضارة العصور الوسطى وهم يحاولون تفسير مغزى غراميات البلاط فى أكوينانيا وشمبانى . واعتبرت هذه الغراميات المحرك الرئيسى للحياة الأرستقراطية فى شتى أرجاء الغرب الأوربى ، وكان يفترض أنها وفدت إلى فرنسا ثم

انجلترا فى ركاب اليانور الأكوتيانية Eleanor of Quitaine [٦] . وكان الناس ينظرون إلى هذا النمط من الحب كما لو كان هرطقة خطيرة مستوردة من العالم الإسلامى أطاحت بالأخلاقيات المسيحية التقليدية . وفسرت هذه الغراميات كذلك على أنها الصيغة العلمانية لمذهب تقديس العذراء والرؤية البرنارية عن الحب المقدس ، وهكذا يسود الاعتقاد بأن هذه الغراميات ساهمت مساهمة بارزة فى الثقافة الغربية حين أعلت من شأن المرأة وأثرت الأدب الأوربى بعنصر رومانسى جديد . كذلك كان هذا الحب عاملا غامضا فى الحياة الأوربية لاوجود له سوى فى أذهان فئة قليلة من شعراء البلاط الفارغين الذين كانوا تحت تأثير كتاب « فن الحب » لأوفيد ، وهو كتاب انتشر وشاع فى القرن الثانى عشر . بل أن البعض قال إن كتاب أندرو القس عن غراميات البلاط كان مقصوداً به المزاح أو النقد الساخر البارع .

ومن الواضح أن إناسا كثيرين تحدثوا عن غراميات البلاط أكثر مما مارسوها ، بل إن الذين تكلموا عن هذه الغراميات لم يزيدوا عن حفنة من السيدات الأرستقراطيات ومن يتقربون إليهن من المتعلمين . بيد أن غراميات البلاط تمثل ، فى صيغتها المتطرفة ، الخصائص العاطفية السامية الجديدة التى تبنتها الطبقة الأرستقراطية الأوربية حينما ، وحيثما ، كانت وظائفها العسكرية التقليدية آخذة فى الضمور والتلاشى . ولم يكن هناك من بين النبلاء الأوربيين فى القرن الثانى عشر ، حتى فى شمبانى وأكويتانيا ، من هم عشاق حقا ، ولكن زاد عدد الأستقراطيين الذين يتصرفون بطريقة متحضرة راقية ، على الرغم من أنهم لم يكونوا

---

٦ - إبنة وليم التاسع آخر دوقات أكويتانيا ( ١٨٢٢ - ١٢٠٤ ) ، وقد تزوجت لويس السابع سنة ١١٣٧ وصارت ملكة على فرنسا ، وكان لها تأثير شديد على زوجها الذى هام بها حبًا . وقد صاحبته فى الحملة الصليبية الثانية ، وفى أثنائها فقدت تأثيرها على زوجها وتشاجرا . وفى سنة ١١٥٢ أقر مجمع بوجنسى Beaugency انفصال الزوجين الملكيين ، وعادت إليانور إلى بلاطها فى بواتييه ثم تزوجت هنرى الثانى الذى صار ملك انجلترا فيما بعد ، وضمت أكويتانيا إلى أملاكه ، وكانت شخصية نشيطة بسطت حمايتها ورعايتها على الشعراء والفنانين فى بلاطها . وبعد موتها سنة ١٢٠٤ دفنت فى مقبرة فنية فى دير فونتر فولت Fontrevault قرب زوجها هنرى الثانى ، وإبنها الحبيب ريتشارد قلب الأسد وكانت شخصيتها محل أحكام متناقضة من معاصريها . فقد حظيت بالاحترام فى أكويتانيا واشتهرت بأنها راعية للفنون والآداب ، ولكنها أيضا أتهمت بالخيانة الزوجية من قبل المؤرخين الفرنسيين الذين قالوا أيضا أنها ساحرة . انظر :

A.Kelly , Alianor of Aquitaine , ( 1952) .

Robert S.Hoyt and Stanley Chodorow , Europe in the Middle Ages ( New York 1976 ) , pp . 341 - 344 .

يتورعون عن ذبح الفلاحين ، وإهانة البورجوازيين ( سكان المدن ) . إلا أنهم كانوا يتصرفون برقة تجاه الجنس الآخر ، ولاسيما النساء من طبقتهم ، هذا التحول البطئ في مواقف النبلاء الاجتماعية تزايد بفضل نمو الملكيات الأوربية ، لأن حكومات هذه الملكيات كانت تضع قيوداً صارمة على العنف والبلطجة ، وبذلك أجبرت النبلاء على انتهاج أسلوب أكثر مسالمة في الحياة .

لقد كان الفرد العادى من أبناء طبقة ملاك الأراضى فى القرن الثانى عشر يأخذ تعاليم الكنيسة مأخذ الجد ويظهر دلائل التدين . إذ كان يحضر الخدمات الكنسية والقداس ، ويبجل القديسين والعذراء ، ويحترم الرهبان ، وساهم بماله فى أوقاف الكنيسة ، كما يقوم برحلات الحج ، ويشارك أحيانا فى الحملات الصليبية إلى الأرض المقدسة . ولكن أقلية من أبناء الشريحة العليا فى طبقة النبلاء كانت أكثر تأثراً بالعاطفة والعقل مما كانت هذه الطبقة الإقطاعية قد اعتادت عليه فى سلوكها . فقد كان هناك قانون رومانسى عرفى للشرف بدلا من قانون الولاء القديم . ولم تكن مثل هذه الأنماط الأصيلة بين من يجمعهم قانون الفروسية تزيد فى قيمتها فى القرن الثانى عشر عما هى اليوم . فقد خسر روبرت كورتيز العاطفى دوقيته فى نورماندى أمام أخيه هنرى الأول ملك انجلترا ذى العقلية الصارمة ، كما أن ستيفن بلوا السخى الجواد الذى حاول أن يكسب العرش الإنجليزى فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر ، كان يفتقر إلى كفاءة الجندى ومقدرة رجل الدولة . وكان أشهر فارس فى القرن الثانى عشر هو الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد . وكانت الحوادث الدرامية التى مرت بها حياته موضع حفاوة شعراء التروبادور وقصاصى البلاط ، ولكن الملك الفرنسى الذى لم يتحل بأخلاق الفرسان استغفله فى سهولة : ،كانت أعظم خدمة أسداها ريتشارد إلى شعبة الذى عانى طويلا هى أنه ظل خارج انجلترا طوال فترة حكمه تقريبا ، ولم تكن حياته شيئا كما أنها ذهبت هباء. ذلك أنه لم يكد يرجع إلى انجلترا من أسره فى ألمانيا حتى اندفع صوب فرنسا ، تخفق راياته وبيارقه ، لكى يفرض الحصار على قلعة تابع اقطاعى صغير رفض أن يسلم للملك مبلغا تافها. وجاء سهم طائش أطلقه أحد الرماة المتسكعين فوق سور القلعة المحاصرة ليقطف زهرة الفروسية الأوربية قبل الأوان .

وربما استطعنا تقييم النظرة العادية للأرستقراطية الأوربية فى القرن الثانى عشر من خلال شخصية وحياة أحد معاصرى ريتشارد . وهو وليم مارشال William Marshal ( ت ١٢٣٣م) ،

الذى كان أكثر نبلاء زمانه حظًا بإعجاب الجميع . كانت عائلته تظن أنه جدير بأن يصبح قدوة عامة بحيث أنهم استأجروا قسا ليكتب سيرته . هذه السيرة هى قصة هوارتيو الجير Horatio Alger التى شاعت فى القرن الثانى عشر ، والتى تكشف لنا عن القانون الحقيقى الذى كان يوجه تصرفات أحد الفرسان من أبناء القرن الثانى عشر . فقد كان وليم مارشال فارسا بلا أرض بدأ حياته دونما فرس أو سلاح . وكانت الإمكانية الوحيدة لتقدمه ورقيه هى قرابته لأحد نبلاء نورماندى ، وهو الذى جهزه كفارس وأرسله ليشترك فى أحدى مباريات المبارزة . وعلى حد الوصف الوارد فى قصة وليم مارشال ، كانت مباريات المبارزة فى أخريات القرن الثانى عشر مجرد مباريات قتال ، ولم تكن مباريات فردية يقوم بها فرسان بواسل فى سبيل سيدات جميلات . إذ كانت مجموعتان من الفرسان المدججين بالسلاح يصطفون فى مواجهة بعضهم البعض على كل من جانبى ميدان فسيح ، ثم يقذفون بأنفسهم فى أتون المعركة ويكر كل منهم صوب الآخر . وكان هدف كل فارس أن يطرح أكبر عدد ممكن من الخصوم من فوق جيادهم حتى يمسك بهم طلبا للفدية . وأبدى وليم مارشال براعة فائقة فى هذا القتال الفوضوى ، الذى اتخذ منه موقفا ارتزاقيا للغاية . بل أنه كان يصطحب معه كاتبا فى هذه المباريات مهمته أن يسجل بدقة المبالغ التى يستحقها وليم على منافسيه . وأدت انتصاراته العديدة إلى تكوين ثروة كبيرة له ، واكسبته شهرة ذائعة كمحارب عظيم ، مما أدى لى تعيينه مدربا عسكريا لوريث عرش هنرى الثانى . وسرعان ماكوفئ على خدماته لأسرة أنجو بالزواج من أغنى وريثة فى انجلترا فصار وصيا على العرش ، وبذلك صار أقوى إيرل earl فى المملكة . وفى السنوات الأخيرة من حياته كان هو الوصى على التاج وكان يحظى بإعجاب جميع أفراد الطبقة الحاكمة الإنجليزية . ومن المؤكد أن وليم كان شخصية متحضرة ، وكان لماحا مقتدراً فى شئون الحكم والإدارة ، ولاشك فى أنه كان مهذبًا فى سلوكه تجاه السيدات ، ولكن لايوجد دليل واحد على أنه كان لديه الوقت أو الميل إلى القانون المعقد لغراميات البلاط . وتشى سيرة وليم مارشال بأنه فى سنة ١٢٠٠ لم يكن نموذجا للنبلاء من البارونات اللصوص ، كما أنه لم يكن واحداً من الفرسان المتحضرين . فقد كان السادة الإقطاعيون الأوربيون يتحولون تحت ضغوط كثيرة – سياسية ، دينية ، وثقافية ، واقتصادية – إلى الطبقة الأرستقراطية الأوربية فى شكلها الذى استمرت عليه حتى القرن التاسع عشر . كانت هذه الطبقة تتمتع بامتيازات معينة ، كما كانت تستمتع بوسائل ترفيه خاصة بها كانت محرمة على سكان المدن

والفلاحين ، ولكن أفرادها كانت عليهم أيضا مسئوليات والتزامات باهظة ، وكانت المسئوليات والالتزامات محصورة فى نطاق العائلة وميراثها بالنسبة للنبيل العادى ، وكان هناك عدد قليل من كبار الأرستقراطيين ، مثل وليم مارشال يضطلعون بهذه المسئوليات والالتزامات تجاه المجتمع ككل .

وفى نهاية المطاف اصطدم شعراء التروبادور ، فى أكويتانيا وشمبانى ، بنمط الحياة الذى كان يحياه أبناء الطبقة الأرستقراطية من أمثال وليم مارشال وهم يساهمون فى صياغة نظام جديد للقيم جعل للمشاعر وللحاجات الفردية الأولوية الكبرى . هذه الفردية والإحساس بالذات ذابت فى صمت فى خضم الأسلوب الأرستقراطى للحياة . لقد تمثلت البيئة الأولى لتعليم الأرستقراطية فى ظل هذا النظام فى صيغة جديدة من الأدب المحلى الذى تطور بعد سنة ١١٣٠ ، فى انجلترا وفرنسا ، ثم فى ألمانيا .

لقد اصطدمت العناصر الرومانسية فى أغنيات التروبادور بأغنيات الرمز Chansons de geste الشمالية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وحولتها إلى روايات المغامرات ، التى كانت نوعا من الشعر الملحمى يتسم بالعاطفية المفرطة والمثالية والخيال . ذلك أن ملحمة شارلمان « أحوال فرنسا » لم تتحْ لمؤلفى روايات المغامرات الفرصة الكاملة لممارسة طاقاتهم الإبداعية الرائعة ، ومن ثم قامت تجاربهم على أساس الحروب الطروادية ، أو أعمال الإسكندر البطولية الأسطورية ، وحتى هذه الموضوعات لم تترك لهم الفرصة لكى يظهروا خيالهم الرومانسى كاملاً . ووجدوا ضالتهم فى ملحمة آرثر (٧) « أحوال انجلترا » .

---

٧ - آرثر Arthur ، بطل أسطورى من البريتون الكلتيين نسجت حول شخصه روايات وأعمال أدبية كثيرة. والخاصية الأسطورية التى تميز المدونات التاريخية فى القرن الثانى عشر ومابعدها ، وربما يكون لها أساس من الصحة التاريخية ، ففى سنة ٥٤٠ كتب المؤرخ الكلتى جلداس Gildas عن أنه فى مطلع القرن السادس نجح محارب يدعى آرثر فى صد الغزو الأنجلو سكسونى فى غرب بريطانيا وكسب عدداً من المعارك أهمها معركة مونز بادونيس Mons Badonis فى القرنين التاسع والعاشر . وضعت المدونات التاريخية آرثر باعتباره زعيما مسيحيا حارب ضد الأنجلو سكسون الوثنيين . ومنذ بداية القرن الثانى عشر تحولت الشخصية إلى شخصية أسطورية هى شخصية الملك آرثر . « الذى قضى شبابه فى التجوال ، وحدثت له معجزات عديدة ، وحين تولى العرش فتح بلاداً أوربية مثل أسبانيا وإيطاليا . وكان يعقد فى بلاطه « دائرة مستديرة » يجلس حولها أثنا عشر فارسا ، يرمزون إلى الحواريين الذين صاحبوا المسيح ويمثلون فكرة الفارس الكامل . ولكن موردرد Morderd ابن أخته أعلن العصيان وغزا مملكته . وإذ كان آرثر جريحًا بجرح بالغ فقد لجأ إلى جزيرة أفالون Avalon مع أخته الساحرة مورجان Morgain التى كان يمكن رؤية أرضها من بعيد ولايمكن الوصول إليها ( أى أنها كانت كالسراب ) وبقى هناك زمنا طويلا فى انتظار الوقت المناسب لكى=

وأول من كتب فى الأساطير الآرثرية كان كاتبا علمانيا هو جيوفيرى المونموتى Geoffrey of Monmouth الذى كان يكتب فى ظل رعاية أسقف لنكولن . وفى سنة ١١٣٦ نشر جيوفرى كتابه المسمى « تاريخ ملوك بريطانيا » ، الذى زعم ، وربما كان هازلا فى زعمه ، أنه كشفه فى مخطوط قديم فى أكسفورد ، ولكنه كان يتألف من قصص يبدو واضحا أنها شاعت وانتشرت فى ويلز زمنا طويلا ، إذ كانت ويلز موطن جيوفرى . ومن المحتمل أن آرثر كان شخصا حقيقيا عاش فى القرن الخامس ، وكان أميراً مسيحيا مات وهو يحارب الغزاة الأنجلو - سكسون الوثنيين . وقام مواطنو آرثر الذين اختبأوا فى جبال ويلز طوال قرون عديدة باردة ، بتحويله إلى بطل مسيحى ذى قدرات خارقة . وقد انتشرت الأسطورة الآرثرية باتجاه الشرق فى أنحاء أوربا بسرعة تماثل سرعة انتشار أى وباء من الأوبئة التى عرفتها العصور الوسطى . وفى أثناء انتشارها كانت تزداد تعقيداً وعاطفية . وأهم المساهمات التى ساهمت فى نمو الملحمة الآرثرية هى التى قام بها Chrétien de Troyes الذى كان من معاصرى أندرو القس، الذى اشتهر بغراميات البلاط ، كما كان من مواطنيه . وكان كرتيان هو الذى رفع من شأن الشخصيات الثانوية الواردة فى الأسطورة الآرثرية مثل لانسلوت 'Lancelot ، كما كان هو الذى قدم موضوع البحث عن الكأس المقدسة .

ومن شمبانى وصلت الملحمة الآرثرية إلى ألمانيا الغربية فى غروب شمس القرن الثانى عشر. فقد كانت تلك هى الفترة الإبداعية فى الأدب المحلى الألمانى ، وكان ذلك هو عصر شعراء التروبادور أو المنسينجرز minnesingers ، كما كان يطلق عليهم . وكان أشهر هؤلاء هو الشاعر الغنائى فالتر فون دير فوجلفيد Walther Von der Vogelweide ، الذى كان تحت حماية أسرة هوهنشتاوفن الملكية . وقد انتجت قرائح الشعراء الألمان ، من أمثال جوتفريد الستراسبورجى Gottfried of Strassburg ، الذى كان من طبقة النبلاء ، روايات خيالية اختلطت فيها الملحمة الآرثرية بالصوفية الدينية ، ووصلت إلى أعلى شكل فنى لها فى رأى بعض النقاد.

---

= يعود وينقذ انجلترا من الغزاة الأجانب . هذه الرواية الأسطورية صارت منذ سنة ١١٦٠ أساسا لأعمال أدبية كثيرة ظهرت فى فرنسا ، ولاسيما فى بلاط شمباني ، وكان الملك آرثر وفرسانه الإثنى عشر موضوعات لكثير من القصائد والروايات الخيالية التى تمجد الفروسية الفرنسية وتمجد الفرسان الفرنسيين كمحاربين ومؤمنين وحكماء ومسيحيين كاملين وعند نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر تزايد عدد هذه القصائد وكتب بعضها بالألمانية . بذلك بدأت أكثر الموضوعات شعبية فى أدب العصور الوسطى . انظر عن هذا الموضوع:

R.S. Loomis (ed) , The Arthurian Litrature in the Middle Ages (1959) .

(المترجم ).

لقد كانت موضوعات الروايات الخيالية الآرثرية ، مثل أشعار كرتيان دى تروى ورواية Parzifal التى كتبا فولفرام فون ايشنباخ ، تدور حول الحب بشكليه الدينى والدنيوى اللذين يرتبطان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا . وتبدو لهفة البطل على محبوبته صعبة المنال ، باعتبارها الجانب الدنيوى ( الأرضى ) المقابل للشوق الصوفى إلى الاتحاد غير الممكن بالذات الآلهية ، كما أن مجهودات الفارس هى المقابل الدنيوى للتدريبات الروحية التى يقوم بها المتصوفة المقدسون . فالسيدة التى يحبها الفارس غامضة ، بعيدة ، ورحيمة مثل مريم العذراء نفسها . كما يظهر الخلط بين العالم المقدس والعالم الأرضى فى موضوع الكأس المقدسة . إذ أن بطلاً رومانسيًا شابًا ، تلهمه مثالية سامية ، يأخذ على عاتقه مهمة البحث عن الكأس المقدسة ، ولم يحل دونه وذلك أى عائق ، ماديًا كان أو اجتماعيا . وبتعبير علمانى كانت الكأس المقدسة هى الكأس التى شرب منها المسيح فى عشائه الأخير . ولكن فى الخيال الحاذق للشعراء الرومانسيين كانت هذه الكأس رمزًا للمثال الذى لايمكن تحقيقه ، فهى الظرف الكامل والمستحيل المنال لتحقيق السعادة الإنسانية التى يمثل البحث عنها هدف الحياة ومبعث السرور فيها .

وفى الملحمة الآرثرية نجد مجالاً كاملاً مفتوحًا أمام الأدب الأوربى ، وهو مجال الحب الرومانسى الذى لم يكن يظهر فى أدب العالم القديم سوى بشكل متقطع . وهو ، بجميع المقاييس ، مساهمة أصيلة من القرن الثانى عشر فى الحضارة الغربية . هذه النزعة الرومانسية تتمثل أسمى قيمها الاجتماعية فى صياغة مذهب أخلاقى تحررى كان تعبيراً عن ثورة شاملة ضد التركيب الاجتماعى الاقطاعى الكنسى ونظيره الأيديولوجى ، أى ضد النظرة الهيراركية للعالم التى تتجاهل الوعى بالذات والمشاعر الفردية وتكبتها . فالحب الرومانسى ، موقف شخصى وفردى تمامًا يدعو إلى إقامة نظام من القيم على أساس من الحاجات العاطفية فى مواجهة الأوضاع الموروثة والسلطة البيروقراطية السياسية . ذلك أن بحث البطل الرومانسى عن الكأس المقدسة جعل الأولوية للسعى الفردى بحثًا عن تحقيق الذات والتمرد ضد الطبيعة الجامدة للهيراركية الإقطاعية والكنسية . وعلى العموم ، فإن المؤلفين من رواد البلاط ومن الأرستقراطيين الذين نظموا هذه القصائد كانوا يريدون تحرير الشخصية الإنسانية الفردية من الخضوع المزرى للسلطة والتقاليد . ويكشف الأدب الرومانسى الجديد عن عدم قناعة العقليات الحساسة الراقية بالثقافة الكنسية التقليدية وعدم رضاها بها . كما أن التأثير الطويل المدى

للتمرد الرومانسي على الفكر الأوربي والثقافة الراقية ، تأثير لايمكن تقديره بسبب تشعبه وتعدد جوانبه .

من الصعب أن نصدق أن النبلاء الذين كانوا هم جمهور المستمعين لروايات المغامرات الخيالية هذه كانوا يفهمون بوضوح المزج الحاذق بين الحب الديني والحب الدنيوي وغيره من جوانب الرمز الرومانسي . لقد كان غالب مايخرجون به من الأشعار - وإن لم يكن هو الشئ الوحيد - هو الحبكة الخيالية التي كان المؤلفون الأذكياء بمهارتهم الفائقة ينسجون بها مذاهبهم ورموزهم الفنية . وإذا كان قد فات الجمهور الأصلي لروايات المغامرات بعضًا من ظلال المعاني الراقية ، فإن أحداً ممن كانوا يقرأون هذه الأشعار أو يستمعون إليها لم يكن ليغفل عن ذلك الأفق الجديد من آفاق التجربة الإنسانية التي طرقت الملحمة الآرثرية أبوابه . فقد علَّم الأدب الرومانسي أبناء الطبقة الأرستقراطية في أواخر القرن الثاني عشر أن المشاعر الشخصية والمطالب الفردية قيم تستحق أن يعترف الناس بها ، وأن يتم التوفيق بينها وبين التزامات الفرد تجاه مقتضيات النظام الاجتماعي .

كما أن الأدب الرومانسي علمَّ أبناء الطبقة الأرستقراطية أن الحساسية ، التي كانت حتى ذلك الوقت من دلائل النقص والتخنث ، قد صارت فضيلة يمارسها أبطال مثل لانسلوت وبارسيفال Parsifal ، وتريستان Tristan وبتحويل الخصال الأنثوية إلى خصال بطولية ، رفع الشعراء الرومانسيون من قيمة المرأة التي خلعوا عليها صفات متمايزة قيمة . فقد كانت تعاليم آباء الكنيسة في القرن الرابع حول الجنس والزواج هي الخطوة الأولى لتحرير المرأة في الحضارة الغربية . وجاءت الآراء الرومانسية في القرن الثاني عشر بمثابة الخطوة الثانية في هذا السبيل.

ولكن ، إذا كانت روايات المغامرات الخيالية قد ساهمت جزئيًا في تحرير المرأة من جهة ، فإنها من جهة أخرى أرست الأسس الفكرية للقياس المزدوج للأخلاقيات الجنسية التي وجدت في الحضارة الغربية حتى القرن العشرين . ذلك أن الأسس الرئيسية للقياس المزدوج لم تكن أسسًا فكرية ، وإنما كانت أسسًا اجتماعية وقانونية . ففي مجتمع لايرث فيه الأرض واللقب سوى الابن البكر ، وتكون عدم الشرعية عائقًا مشئومًا يحول دون الوراثة ، كان لابد من وجود قياسين مختلفين للسلوك الجنسي لكل من الزوج والزوجة . فقد كان بوسع السيد أن يصاحب من يشاء من الخليلات ، وينجب ما يستطيع سفاحا ، لأن نتائج مضاجعاته العديدة

مع النسـاء لن تكون واضحـة للعـالم ، ولكن العكس تمامًا كـان يصدق على الزوجـة ، التى لم يكن ممكنًا غفران سلوكها الخاطئ بسهولة . ذلك أن مجرد الشك فى أن سيدة من الطبقة الإقطاعية قد اقترفت الزنا ، وما يترتب على ذلك من شكوك حول شرعية أبنائها ، كان يمكن أن يؤدى إلى سلسلة لاتنتهى من القضايا ، ويقضى على ميراث كبير ومن ثم كان من الضرورى على النبيل أن يضع زوجته تحت مراقبة دقيقة للغاية حتى يحول دون أية شكوك حول شرعية أبنائه . لقد كان المفهوم الرومانسى عن المرأة ، والذى أرساه شعراء التروبادور ، وما توحى به غراميات البلاط من مفاهيم ، وروايات المغامرات الخيالية - كانت تلك جميعًا هى التى طرحت المبرر للقياس المزدوج وحجب المرأة . فقد صورت نساء النبلاء فى صورة مخلوقات عاطفيات تستسلمن للغواية بحيث لايمكن السماح لهن بالحرية التى يتمتع بها الرجال. إذ كان لابد من حمايتهن وتكبيلهن بأغلال الفضيلة .

وهكذا ، كان لتطور الأدب المحلى فى القرن الثانى عشر أثره الشامل على مجالات حركة الثقافة الراقية ، كما كانت له بعض تأثيرات على أحوال الحياة الاجتماعية . كذلك لعب الأدب المحلى دوراً فى تطور الملكيات الوطنية . ذلك أن نمو الآداب المحلية فى القرن الثانى عشر ضمن مكانًا للغات الدارجة فى المجتمع الأوربى ، وهذا هو ماجعل الشعوب الأوربية تدرك أكثر فأكثر حقيقة انفصالها عن بعضها البعض ، كما قلل من مواقف النبلاء الأوربيين ذات الطابع العالمى ، وشجع على كراهية الأجانب التى صارت أمراً شائعًا فى القرن الثالث عشر . هذا التشرذم والتفكك اللغوى ، والفكرى ، والاجتماعى ، الذى عاناه المجتمع الأوربى فى القرن الثانى عشر ، كان بمثابة التمهيد الحتمى قبل بزوغ النزعة الوطنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

# الفصل السادس عشر

# الفكر الإسلامى والفكر اليهودى : التحدى الأرسطى

## ١ - مشكلة التعليم :

بحلول سنة ١٢٠٠ تعرضت زعامة الكنيسة للمجتمع الغربى للتحديات فى مجال التعليم والتدين والسلطة ، وهى المجالات التى نمت وتقدمت خلال القرن الثانى عشر . ذلك أن مدلولات التغير الكبير الذى حدث فى المجالات الفكرية والدينية والسياسية فى القرن الثانى عشر كانت تتطلب من الكنيسة أن تعيد تقييم سياستها ونظمها ، وأن تعدلها بحيث تستطيع أن تتعامل بشكل ناجح مع نتائج التقدم والإبداع الأوربى . لقد كان مصير حضارة العصور الوسطى بعد سنة ١١٥٠ يستند إلى مضامين التعليم ، والتدين ، والسلطة ومغزاها أولا ، ثم على الطريق التى اتخذها رد الفعل الكنسى إزاء هذه المضامين ، وأخيراً على مدى فعالية الكنيسة فى تعديل مواقفها .

كانت أقوى التحديات التى طرحتها حركة التعليم الجديدة فى مواجهة النظام القديم متمثلة فى الفلسفة والعلم الأرسطى . إذ كانت جهود أبيلار فى ثلاثينيات القرن الثانى عشر قد أوضحت بالفعل كيف كان يمكن لأنماط التفكير الجديد المستفادة من الفكر الأرسطى أن تقوم بدور المذيب القوى لعالم الفكر الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة بأسسه الأفلاطونية الراسخة . وقد أتيح لأبيلار أن يطلع على جزء صغير فقط من التراث الأرسطى الكبير : هو ذلك الجزء الذى كان بوئثيوس قد ترجمه من المنطق الأرسطى . ولكن أرسطو كان قد ألف أيضا كتبا أخرى فى المنطق فضلا عن فلسفة شاملة قام عليها العلم فى العالم القديم ، بما فى ذلك الكوزمولوجيا ، والميتافيزيقا ، والأخلاق ، وعلم النفس ، والنظرية السياسية . وفى العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، بدأ العمل الضخم لإعداد الترجمات اللاتينية للمعرفة الأرسطية ، وبحلول منتصف القرن كان العمل قائما على قدم وساق فى هذه الترجمات . ومع هذا ، فلم يحدث سوى فى نهاية القرن الثانى عشر ، بعد فترة أولية من التأمل والتدبر فى الفلسفة والمذاهب والأرسطية ، أن بدأ العلماء اللاتين محاولة الربط بن هذا الكم الهائل من العلم وتراث الكتاب المقدس وكتابات الآباء . لقد كان ذلك إنجازاً رائعًا وخالداً جعل بعض

رجال الكنيسة المحافظين يعتقدون أنه سوف ينتهى بكارثة تطيح بتراث الكنيسة وتقاليدها . وإذا كان أبيلار ، بقدر ضئيل من المنطق الأرسطى ، قد سبب كل هذه المتاعب ، فكم سيكون تأثير قبول العلم الأرسطى خطيراً وثوريا ! لقد كانت تلك نقطة تحول فى تاريخ الفكر الغربى ، وكانت « أزمة وعى » عبقرية ، لا توازيها سوى تأثيرات العلم النيوتونى والداروينية فيما بعد .

لقد صارت مؤلفات أرسطو ، وغيرها من كتب العلم الإغريقى ، بمتناول الغرب بفضل الترجمات التى أعدت فى أسبانيا وصقلية ، والبروفانس . وحتى الربع الأخير من القرن الثانى عشر كانت الترجمات تتم نقلا عن النصوص العربية لكتابات أرسطو ، وليس نقلا عن النصوص اليونانية الأصلية . فقد كان العلماء المسيحيون يعملون بمساعدة المترجمين من صقلية وأسبانيا ، أو بمساعدة المترجمين اليهود كما كان يحدث فى البروفانس . وكانت النصوص المترجمة دقيقة بدرجة مذهلة إذا ماأخذنا فى اعتبارنا مصاعب الترجمة للنص الأصلى . وفى غضون السنوات الخمس والسبعين الأولى من القرن الثانى عشر ، كان يندر أن يوجد عالم غربى يعرف اللغة اليونانية وكان لابد من طلب مساعدة المترجمين الذين يتحدثون العربية . وبحلول سنة ١٢٠٠ ، بدأت ترجمة مجموعة جديدة من كتابات أرسطو عن اللغة اليونانية مباشرة . وكان توماس أكويناس ، أول فيلسوف مسيحى يمتلك الترجمة الجديدة الكاملة فى منتصف القرن الثالث عشر . وكانت هذه الترجمة ، طبعا ، أكثر دقة من الترجمة اللاتينية المنقولة عن اللغة العربية ، بيد أن الفروق بين الترجمتين لم تكن لافتة للنظر .

ولم يتم تنظيم أعمال مترجمى القرن الثانى عشر بواسطة أية سلطة مركزية . فقد كان هناك عدد قليل من المترجمين يتمتعون برعاية الأساقفة والأمراء ، ولكنها كانت مسألة أفراد يحركهم العلم الذى تلقوه فى الجامعات ، فيأخذون على عاتقهم مهمة الترجمة الصعبة حتى أمكن إثراء الفلسفة والعلم فى غرب أوربا بهذه المادة الجديدة إلى حد كبير . ومن الأمور ذات الدلالة على الفكر الأوربى أنه لم يحدث سوى فى القرن الثانى عشر أن بذلت مجهودات جماعية فى سبيل الحصول على العلم والفلسفة اليونانية ، التى كانت متاحة للعرب على مدى قون عديدة ، من العالم العربى . فالترجمة عموما عمل يقوم على إنكار الذات ؛ إذ أن المترجم يجعل المعرفة ميسورة للكافة بحيث يسخرونها فى أعمالهم الفكرية . ولكن الترجمة التى تمت فى القرن الثانى عشر لمؤلفات أرسطو كانت إنجازاً بطوليا خاصًا . ذلك أن المترجمين لم يكونوا

يتقاضون أجوراً ، أو كانت أجورهم ضئيلة ، كما أنهم لم يحظوا بأى قدر من الشهرة ؛ ولم يكن هناك دافع آخر يدفعهم للعمل سوى الإخلاص للحقيقة والمعرفة . وما زاد من صعوبة عمل المترجمين العزلة التى كانت تفصلهم عن بعضهم ، وهى عزلة كانت تتسبب أحيانا فى التكرار وإهدار الوقت فى مؤلف واحد يقوم بترجمته إلى اللاتينية إثنان أو ثلاثة من العلماء فى وقت واحد بمعزل عن بعضهم البعض .

ولم يكن أرسطو هو الكاتب الإغريقى الوحيد الذي ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر . إذ قام العلماء اللاتين بترجمة كل ماوجدوه من مؤلفات الإغريق فى الفلسفة والعلوم . وما أن غربت شمس القرن الثانى عشر حتى كانت قد توفرت معلومات جمة عن العلم الطبيعى ، والطب ، والكوزمولوجيا كانت مجهولة قبل ذلك ، ثم أخذت تفيض فى جامعات الغرب الأوربى . وبمعنى ما ، أدى المترجمون عملهم على نحو طيب بحيث ظل التفكير النقدى الأصيل من جانب فلاسفة أوربا المسيحية مكبوتا على مدى نصف قرن من الزمان بسبب ذلك القدر الهائل المتنوع من المعلومات التى وفرها من قاموا بالترجمة . فقد إنكب المفكرون الغربيون على أرسطو وغيره من الكتاب الإغريق بشكل منعهم من التأمل النقدى الأصيل ، المنهجى . ومن المؤكد أن هذا كان من أسباب عدم إفراز غرب أوربا لأى مفكر من طراز أبيلار طوال مايقرب من مائة عام . ولكن لم يكن باستطاعة العلماء الأوربيين أن يغضوا الطرف عن فرصة التعرف على الثروات الفكرية للحضارة الإغريقية . كانت الفلسفة والعلوم هى أفضل ما أنتجته القرائح الغربية فى هذه الميادين ؛ وكان من الضرورى لمفكرى العصور الوسطى أن يستوعبوا أولا أفضل الأفكار والأقوال التى طرحت قبلهم ، قبل أن يواصلوا العمل لتطوير المناهج الخاصة بهم .

كانت صقلية هى أهم مركز لترجمة الكلمات فى الموضوعات الأكثر فنية : كالطب ، والعلوم الطبيعية والرياضيات . ذلك أن ثقافة صقلية غير متجانسة ، وسكانها الذين كانوا خليطًا من اليونان والعرب والإيطاليين جعلت منها مركزاً مثاليا لنقل المعرفة من عالم البحر المتوسط إلى غرب أوربا . أما أسبانيا ، فكانت هى المصدر الوحيد الذى خرجت منه الترجمات فى مجال الفلسفة وعلم الأخلاق اليونانية . وفى سبيل إنجاز هذا العمل ، كان على الباحثين المسيحيين أن يقيموا فى قرطبة وغيرها من المدن الإسلامية ، وهو أمر كان ينطوى على قدر من المخاطر بالسلامة الشخصية ، إذ ماوضعنا فى اعتبارنا الحروب التى لم تنقطع تقريبا بين أتباع الديانتين على تراب شبه الجزيرة الأيبيرية . وكان إقليم البروفانس هو المركز الثالث

والأخير لنقل المعرفة . وهنا يبدو أن العمل قد تأثر إلى حد كبير بالتعاون بين العلماء المسيحيين واليهود .

وحين بدأت مؤلفات أرسطو تتوفر بين أيدى المفكرين الغربيين ، فى النصف ا انى من القرن الثانى عشر ، اكتشف هؤلاء أن هذه المؤلفات لم تصلهم بمفردها وإنما جاءت فى أثرها سحابات من التعليقات والشروح الإسلامية واليهودية . واكتشف المفكرون الغربيون أنهم ليسوا أول من تناول مشكلة العلاقة بين العلم والدين ، لأن بعضا من أعظم العقول فى العالم الإسلامى ، مثل ابن سينا وابن رشد ، وبعض علماء اليهود ، مثل ابن ميمون ، كانوا قد تناولوا بالفعل بعض نتائج المذهب الأرسطى على عقائدهم الأصلية ، أو كانوا فى سبيلهم لعمل ذلك إبان القرن الثانى عشر . وتتجلى أهمية أساليب المفكرين الكبار من المسلمين واليهود لمواجهة التحدى الذى تطرحه الفلسفة الأرسطية فى مسارين . أولهما : أن بعض المذاهب التى اقترحها الشراح والمعلقون المسلمون واليهود تركت تأثيرها على مواقف المفكرين الغربيين . فالواقع أن فلسفة ابن رشد تعتبر تياراً هامًا فى الفكر المسيحى الغربى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وثانيا ، أن مذاهب العلماء المسلمين واليهود جديرة بالاعتبار لأنها تطرح متوازيات ومتناقضات مثيرة مع ردود الفعل الغربية تجاه الأزمة الفكرية التى نجمت عن تقديم العلم الأرسطى ، ومن ثم تقدم خلفية مضيئة تكشف عن تاريخ أوربا الفكرى فى القرن الثالث عشر .

فالإسلام واليهودية والمسيحية ، كلها ديانات توحيدية . وبسبب طبيعتها العامة ، كان لابد أن يتكرر التحدى الذى تطرحه المذاهب الأرسطية أمام إحدى هذه الديانات مع الأخرى . إذ أن الصعوبة التى كان يمثلها المذهب الأرسطى أمام أى مؤمن بالدين الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى كانت ذات أبعاد ثلاثة . فبدلا من الله الواحد الذى تحدد مشيئته مسار العالم باستمرار ، يضع أرسطو إلها آليا هو مجرد محرك أولى . إذ أنه يبدأ فى تحريك مجرى الأحداث العالمية ، ولكنه لا يشارك مشاركة نشيطة بعد أن يكون قد ابتدأ سلسلة الوجود الطويلة . ويميل المفهوم الأرسطى عن الألوهية إلى منع الاعتقاد فى العناية الإلهية ، ولايرى أية جدوى فى الصلاة . هذه الآراء تتناقض بشكل حاد مع تعاليم القرآن والكتاب المقدس . أما العقبة الثانية التى يضعها المذهب الأرسطى أمام العلماء من أتباع الديانات الثلاث ، فقد تمثلت فى إنكار خلق العالم من العدم ex nihilo . إذ أن أرسطو يفترض خلود المادة ، وهذا يتناقض مع الاعتقاد المسيحى / اليهودى . والاعتقاد الإسلامى بأنه لم يكن ثمة شئ فى البداية غير الله . وتتمثل الصعوبة الثالثة التى يضعها أرسطو أمام أولئك المفكرين الذين

كانوا يرغبون فى إظهار التوافق بين العلم والدين ، فى فشله فى تأكيد مذهب خلود الروح المفردة . وكان أفلاطون قد ناقش باستفاضة مسألة الخلود الشخصى ، وهذا هو سبب تقبل المفكرين المسيحيين للمذهب الأفلاطونى قبل القرن الثانى عشر . ولكن أرسطو كان يعول على مذهب يقول بالخلود الجماعى وليس الخلود الفردى ، وهو مايعنى أنه قد أوضح أن الذكاء الإنسانى الفردى يبقى بعد الموت بفضل الاتحاد مع العقل العام للكل . لقد كان من الصعب تماما إيجاد التوافق بين رأى أرسطو والعقيدة التقليدية عن الخلود الفردى . وهكذا اتضح التناقض بين الفلسفة الأرسطية والدين فى نقاط حرجة . وكان الخيار مطروحًا أمام المفكرين المسلمين واليهود فى القرن الحادى عشر ، ثم أمام خلفائهم من المفكرين المسيحيين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فقد كان عليهم أن يختاروا بين رفض المذهب الأرسطى برمته ، وهو المذهب القائل بفصل عالم العلم عن عالم الدين ، وبين محاولة إثبات الانسجام النهائى بين العقل والدين .

٢ - العقل والدين فى الفكر الإسلامى والفكر اليهودى :

لقد تحدد النموذج الذى احتذاه الفكر الإسلامى والفكر اليهودى فى مجابهة التحدى الأرسطى بإنجازات بعض كبار المفكرين وبالبيئة الاجتماعية العامة التى تعين عليهم أن يعملوا فى إطارها ، وهو ماحدث أيضا فى أوربا المسيحية . ففى تناقض صارخ مع العالم اليهودى والعالم المسيحى ، حافظ الإسلام باستمرار على الفصل بين السلطات الدينية والمدرسين والعلماء فى مجالات الفلسفة والعلوم . إذ كان قادة الفكر فى الإسلام ، إما من الأصوليين والفقهاء الذين يستمدون جميع معارفهم فى الدين والأخلاق من القرآن والسنة النبوية ، وإما من الصوفية الذين اكتشفوا ، من خلال التجربة الدينية المباشرة ، طريقا إضافيا يوصلهم إلى الكشف عن الحقيقة الإلهية . ولكن زعماء الفكر الإسلامى لم يحاولوا قط أن يشيدوا لاهوتا عقلانيا عن طريق تبنى مدلولات ومضامين العلوم الأرسطية . فقد كان المفكرون والتأمليون فى العالم الإسلامى مستقلين [1]؛ يتكسبون عيشهم من العمل كيميائيين ، أو موظفين فى

---

١ - يبدو أن كانتور يفكر فى ضوء تطور المسيحية الغربية ، ولهذا اكتفى برصد ظاهرة استقلال المفكرين الإسلاميين كظاهرة اجتماعية دون أن ينتبه إلى أن الإسلام فى جوهره لايوجد مجالا لرجل الدين المحترف بالمفهوم المسيحى ، كما أنه يمنع قيام أية سلطة دينية على الناس الذين يتساوون جميعا فى كونهم مسلمين يحاسب كل منهم على عمله الذى يتحمل وزره . وكان المفكرون المسلمون يفسرون أمور الدين للناس دون أن تكون لهم سلطة روحية عليهم ودون أن ينالوا على ذلك أجراً . وهذا هو الذى أدى إلى الجسارة التى تميز بها الفقهاء والمفكرون المسلمون فى عصور إزدهار الحضارة العربية الإسلامية . ( المترجم )

الجهاز الإدارى ، أو فقهاء وقاضة ، أو مدرسين محترفين . هذه الخلفية الاجتماعية المتمايزة للفكر الراقى فى العالم الإسلامى كانت تعنى من ناحية ، أن المفكرين فى هذا العالم كان يتميزون بالجسارة لأنه لم يكن هناك عائق أمامهم ، سواء تمثل هذا العائق فى قلقهم حول مدى التوافق بين العقل والدين ، أو تمثل فى خوفهم من فقدان وظائفهم بتهمة الدعوة إلى الزندقة . ومن ناحية أخرى ، كان هناك خطر جسيم يتهدد التطور البعيد المدى للفلسفة الإسلامية يكمن فى الفصل بين الزعامة الدينية والزعامة الدنيوية على هذا النحو . ولو أن السنة والصوفية كانوا قد أحسوا بأن الديانة التقليدية كانت فى خطر حقيقى من جراء النشاط الهدام للمفكرين التأمليين ، ولو أنهم استطاعوا الحصول على مساعدة الدولة فى هذا السبيل ، لأخرسوا ببساطة كل تعبير عن الفكر العقلانى . والحقيقة أن هذا هو مابدأ يحدث فى الشطر الأخير من القرن الحادى عشر ، وبعد سنة ١٢٠٠ ، كان التفكير العلمى فى العالم الإسلامى قد انتهى(٢) . هذا التطور البائس يطرح تناقضا مع ماكان يحدث فى الفكر التأملى المسيحى . لأن جميع المؤلفات الفلسفية فى أوربا العصور الوسطى العالية قد أنجزت داخل نطاق المؤسسات التعليمية التى كانت خاضعة للسلطات الكنسية ، ولأن جميع الفلاسفة الغربيين البارزين كانوا من رجال الكنيسة ( من الناحية الاسمية على الأقل ) فقد كان المفكرون الغربيون فى البداية أكثر إدراكًا للصراع المضنى بين العقل والدين ، وكانوا يتحركون بمعدل أبطأ من حركة المفكرين المسلمين ، ولكن عملهم كان فى مأمن من هجوم المتعصبين لأنه كان يتم تحت رعاية الكنيسة (٣).

---

٢- فى هذا القول تعميم خطير لايمكن أن نوافق المؤلف عليه. ويبدو أنه يربط بين إنتصار المذهب السنى عقب سقوط الخلافة الفاطمية ، وبين مايزعمه من إنهيار التفكير العلمى فى العالم الإسلامى . ولكن النظر إلى التراث العلمى والأدبى فى شتى صنوف المعرفة خلال العصرين الأيوبى والمملوكى فى الشرق . وماكانت مراكز الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس تتميز به آنذاك ، يكشف عن مدى وهن هذه المقولة العامة وخطئها . وإذا ما استعرضنا أسماء أعلام الحضارة العربية الإسلامية منذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، وحتى الغزو العثمانى فى العقد الثانى من القرن السادس عشر ، لوجدنا طائفة كبيرة من المفكرين الأصلاء فى كافة وجوه المعرفة . ولكن يبدو أن كانتور يركز فى هذه الدراسة على الناحية الفلسفية فقط فى الثقافة العربية الإسلامية . ( المترجم )

٣ - هذه نقطة خلاف أخرى مع المؤلف ، لأن عبارته هنا توحى بأن الكنيسة كانت ترعى حرية الفكر فى العصور الوسطى ، وهو مايتعارض مع الواقع التاريخى تماما . فالواقع أن الفلاسفة الذين نعموا بهذه الحماية هم فقط أولئك الذين ساهموا فى تدعيم مركز الكنيسة وسلطاتها ، على حين اعتبر المخالفون هراطقة تمت مطاردتهم بكافة الوسائل العامة ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى فى هذا الكتاب نفسه ( المترجم ) .

لقد تمت ترجمة مؤلفات أرسطو إلى اللغة العربية فى القرن الثامن ببلاد الشام على أيدى علماء مسلمين اعتمدوا إلى حد كبير على مساعدة القساوسة المسيحيين . ثم انتشرت النصوص المترجمة بمعدل بطئ فى كافة أرجاء العالم الإسلامى حتى وصلت إلى أسبانيا فى القرن العاشر ، وهناك تمت دراستها بعناية فى مدارس الفلسفة والعلوم الكبرى بقرطبة وغيرها من المدن . وكان أول من شرحوا أرسطو وعلقوا عليه باللغة العربية عالم مسلم عرفه اللاتين باسم Avicenna ولكن اسمه العربى هو « ابن سينا » ( ت ١٠٣٧ ) . وكتان كاتبًا موسوعيًا إلي أبعد الحدود ، كما كانت إضافاته فى مجال الطب شائعة فى أوربا القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وفى مجال الفكر الفلسفى كان ابن سينا يمثل تراثًا قديمًا لم تكن الأرسطية فيه قد قضت على الأفلاطونية الجديدة تمامًا ، وهو ماتمخض عن نظام فلسفى خاص يمزج بين عناصر التراث الأرسطى والتراث الأفلاطونى الجديد . وتمثلت النتيجة فى خليط من الكل الهيراركى لأفلاطون والعوالم الآلية لأرسطو . وهو نظام فلسفى ساذج للغاية ، ولكنه كان يتعارض مباشرة مع بعض المفاهيم الأساسية للإسلام . كما أنه نفى خلق العالم وأنكر الخلود الشخصى ، محتجا بأن الروح الإنسانية لاتجد حياة أخرى سوى بالاتحاد مع العقل الكلى(٤) .

هذه الاستنتاجات نفسها وصل إليها أعظم فلاسفة المسلمين ، وهو أندلسى اسمه ابن رشد ( ت ١١٩٨ ) ، وهو الذى كانت الكنيسة الغربية تعرفه باسم Averroes . وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية ، فقد استوعب كل الفلسفة الأرسطية من خلال الترجمات وصار أكبر شراح أرسطو فى العالم العربى ، وفى العالم اللاتينى بدرجة كبيرة . وقد وصفه توماس أكويناس بأنه « المعلق » على أرسطو . ولم يتورع ابن رشد عن الفصل بين عالم العلم كما يمثله أرسطو وعالم الدين كما يمثله القرآن. فالعلم يكشف بوضوح عن أن الله هو محرك

---

٤ - يرى الدكتور محمد عاطف العراقى ( مذاهب فلاسفة المشرق ، دار المعارف ١٩٧٦م الطبعة الخامسة، ص ١٥٢ ) أن ابن سينا استفاد من آراء الفلاسفة اليونان وأسلافه من فلاسفة الإسلام وهضمها تماما ، ثم أضاف إليها عناصر جديدة لانجدها عند من سبقه سواء فلاسفة اليونان أو فلاسفة العرب . ونستطيع أن نتعرف عليها من خلال كتاب « الشفاء » ، والنجاة » و « عيون الحكمة » و « دانش نامه » والإشارات والتنبيهات وكذلك رسائله الصغيرة فى القسانيات ، وكتابه « القانون فى الطب » . وهذه العناصر الجديدة هى التى جعلت له تأثيرا عظيما فيمن جاء بعده . بعد أن ترجمت كتبه إلى اللاتينية . وفى رأيه أنها لو كانت مجرد صدى وترديد لآراء من سبقوه لما كانت له هذه المكانة التى قلما توافرت لفيلسوف غيره .

( المترجم)

الكون : بمعنى أنه أداة بعيدة تمامًا عن التدخل فى الحياة البشرية . كما أن العلم الأرسطى يؤيد خلود العالم وينكر العقيدة الإسلامية عن الخليقة . وأخيراً ، فإن ابن رشد واضح فى إنكاره للخلود الشخصى ، وفى تأييده لمذهب العقل العام ، أو الروح الكلية . ولم يكن معنى هذا أن يتخلى ابن رشد عن العقيدة الإسلامية . فقد كان يعتبر نفسه مسلمًا تقيًا ورعًا ، وواجه التناقض بين العلم والدين بالاعتراف الصريح بوجود « حقيقة مزدوجة »[٥]. فهناك حقيقة واحدة للعلم ، وحقيقة أخرى للدين . وليس بمقدور العقل البشرى أن يوفق بينهما . فلا بد أن يكون للجهلاء دينهم . أما المتعلمون فإنهم يعرفون هذه الحقيقة المزدوجة . وقد أغضبت تعاليم ابن رشد زعماء السنة المسلمين . وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن ابن رشد لم يتطاول على المذهب القرآنى وصحته ، فإن ما استنتجه من تعارض هذا المذهب مع العلم ، ووضعه للمعرفة العقلية إلى جانب الدين ، ظهر وكأنه محاولة لإهانة العقيدة الإسلامية والحط من شأنها . ومنذ القرن الحادى عشر كانت السلطة السياسية فى الأندلس قد انتقلت إلى جماعات المهاجرين من شمال أفريقيا ممن أظهروا نزعة من التعصب والتقشف كانت جديدة على الإمارات الإسلامية فى شبه جزيرة أيبيريا . ولم يكن من الصعب على المدافعين عن وسائل المعرفة التقليدية من خلال الدين والتجربة الصوفية أن يقنعوا الأمراء المسلمين باتخاذ تدابير ضد استمرار الاتجاهات الفكرية المتحررة ، فاضمحلت المدارس الكبرى ، وأدين ابن رشد ، وكان على العالم العربى أن يخضع زمنًا طويلاً لطغيان التعصب والجهل . ولكن تعاليم ابن رشد التى وفدت إلى الغرب مع نصوص ترجمات أرسطو ، قيض لها أن تستمر فى الوجود ليكون لها تاريخ طويل فى أوربا اللاتينية ، وليكون لها تأثير قوى على مجرى الفلسفة المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

والعلاقة بين العقل والدين والفكر اليهودى فى العصور الوسطى ، فى بعض جوانبها ، تتشابه مع التاريخ الفكرى المسيحى أكثر مما تتشابه مع التجربة الإسلامية . إذ لم يكن

---

٥ - ذهب الرشديون اللاتين إلى أن ابن رشد قال بالحقيقة المزدوجة ، أو الحقيقة ذات الوجهين ، أى أن ماهو صادق فى المجال الدينى قد يعد خاطئًا فى المجال الفلسفى . وعلى أساس هذا الاعتقاد اندلعت الخلافات حول موقف ابن رشد . انظر :

R.R Walzer , " Arabian philosophy " , Ency . Brit II , p . 195 .

وعن تلخيص آراء هؤلاء حول ابن رشد انظر : محمد عاطف العراقى ، النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ( دار المعارف ١٩٦٨ ) ، ص ٢٨٧ - ص ٣٩١ . ( المترجم )

الفصل بين عالم العلم وعالم الدين واضحًا بين يهود العصور الوسطى مثلما كان عند المسلمين[٦]. فقد كانت الغالبية العظمى بين الربيين اليهود من الأصوليين والفقهاء ، شأنهم فى ذلك شأن المفكرين المسلمين . ولكن أفضل المفكرين بين يهود العصور الوسطى ، الذين تولوا أيضًا رئاسة الجماعات الدينية ، حاولوا التوفيق بين العلم والدين ، وإيجاد نمط من اللاهوت العقلانى . وأظهروا من الاهتمام بالوصل بين العقل والدين ، ما يماثل ذلك الاهتمام الذى تدرب عليه ذكاء المفكرين اللاتين وخيالهم ، وقد سبقت أفكار موسى بن ميمون أفكار توماس أكويناس فى هذا المجال .

ففى بداية العصر المسيحى كانت هناك بالفعل جماعات يهودية كبيرة خارج فلسطين فى مدن شرق المتوسط وبلاد النهرين . وكان تدمير الجماعة اليهودية فى فلسطين فى أعقاب تمرد فاشل ضد الحكم الرومانى فى النصف الثانى من القرن الميلادى الأول سببًا فى زيادة حجم هذه المجتمعات فى الدياسبورا أو الشتات [٧]. وكانت أهم جماعتين هما الجماعة البابلية ، وجماعة الإسكندرية كبيرة العدد . وكانت هاتان الجماعتان تمثلان موقفين متناقضين تمامًا عن مسألة العلاقة بين اليهودية والثقافة العلمانية . وقد وجد اليهود السكندريون من يتحدث باسمهم فى شخص الفيلسوف الكبير فيلون philo ، الذى أظهر التوافق بين اليهودية والفلسفة الأفلاطونية ، وكرس نوعًا من اليهودية الإصلاحية تتشابه فى كافة النواحى مع

---

٦ - ينصب كلام كانتور هنا على العلوم الأرسطية باعتبارها العلم الوحيد المتاح آنذاك ، ومن ثم فإنه حين يتحدث عن الفصل بين العلم والدين يقصد الفصل بين الدين الإسلامى والفلسفة الأرسطية . إلا أننا يجب أن نلاحظ أن المسلمين قد طوروا علومهم الخاصة بهم ، والتى كانت أساسًا للحضارة العربية الإسلامية . وإذا كان المسلمون قد صاغوا علومهم الخاصة بهم فإن هذه العلوم كانت ترتبط بالدين وتتوافق معه بدرجة أو بأخرى. وعلى عكس مايوحى به كلام كانتور ، فإن الدين الإسلامى دين يدعو إلي المعرفة والبحث عن الحقيقة، وليس هناك تعارض إطلاقا بين تعاليم الدين الإسلامى والبحث العلمى ، والدليل على ذلك أن هذا الدين كان عماد الحضارة العربية الإسلامية التى عاشت الدنيا فى رحابها زمنًا طويلا . ولم يحدث أن انتصر الإسلام على حساب العلم والمعرفة ، كما أن انتصار العلم لم يكن على حساب الإسلام مثلما حدث فى الكنيسة الغربية التى كان انتصار العلم فى الغرب الأوربى هزيمة لها. ( المترجم )

٧ - يشير المؤلف هنا إلى التمرد اليهودى ضد الحكم الرومانى فى فلسطين والذى انتهى بالقضاء على المتمردين اليهود على أيدى قوات القائد الرومانى تيتوس ( الذى أصبح إمبراطوراً فيما بعد ) فى سنة ٧٠ ميلادية . وقد روى أحداث هذه الحرب المؤرخ اليهودى « يوسف ماتياس » ( ٣٧ - ١٠٥ ) الذى اختار لنفسه اسمًا رومانيا هو « فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus » وقد عرف هذا المؤرخ اليهودى باسم خائن أورشليم نظراً للدور المشين الذى قام به فى الحرب اليهودية وانحيازه الكامل إلى الرومان ضد بنى جلدته- انظر: Josephus , The Jewish War (transl . by G.A. williamson ) penguin 1967 .

يهودية القرن العشرين الإصلاحية . أما الربيون فى الجماعة البابلية فقد اتخذوا موقفا عكسيًا تمامًا . إذا استبعدوا الثقافة الدنيوية من الحياة اليهودية ، وحافظوا على يهودية الفريسيين بأن شادوا حائطا شاهقًا من القوانين الدينية والأخلاقية حصروا الشخص اليهودى فى داخله . هذا المدخل التقليدى الفقهى اليهودى لليهودية وجد التعبير عن نفسه فى التلمود ، الذى هو كمية هائلة من الشروح والتعليقات على التوراة تستند إلى اليهودية التقليدية فى طرح نظام فقهى يحول تماما بين اليهود وبين التفاعل الفكرى مع الأمميين (أى غير اليهود ) . فكل جانب من جوانب الحياة اليومية لليهودى قد نظمه التلمود ؛ ونتج عن هذا الصراع بين المفهومين المتناقضين للحياة اليهودية ( واللذين كانت تمثلهما جماعة الإسكندرية والجماعة التلمودية ) المحور الرئيسى فى التاريخ اليهودى حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وبالتدريج خضع يهود غرب أوربا لنفوذ الجماعة التلمودية بسبب تدهور الجماعة السكندرية بفعل الاضطهاد المسيحى فيما بين زمن فيلون والفتح الإسلامى الذى حرر اليهود فى القرن السابع . وقد ازدهر اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى الباكرة بسبب وضعهم كتجار وصيارفة فى وسط مجتمع زراعى . كما أنهم لعبوا دوراً هامًا فيما كان قد تبقى من النشاط التجارى العالمى بين غرب أوربا وعالم البحر المتوسط بعد القرن السادس [٨]. وكانوا يعانون من الاضطهاد بين الحين والحين ، لاسيما فى أسبانيا تحت حكم الفيزيقوط ، ولكن

---

٨ - فى العصور الوسطى الباكرة ازدهرت الجماعات اليهودية بسبب الدور الذى قام به أفرادها فى مجال التجارة والمال فى المجتمع الأوربى الذى كان قد تحول إلى مجتمع زراعى ذى اقتصاد طبيعى يقوم على سد حاجات الاستهلاك المحلى وعلى المقايضة ، وفى مثل هذه المجتمعات تصبح للنقود قيمة هائلة . كذلك لعب التجار اليهود دوراً هامًا فى النشاط التجارى العالمى الضئيل آنذاك ، إذ تركز ما بقى من التجارة المحلية بأيدى التجار المحليين negotiatores ولكن تجارة البحر المتوسط البعيدة ، بما كانت تدره من مكاسب وفيرة، ومكانة اجتماعية راقية . ظلت تحت سيطرة التجار الشرقيين من السوريين واليونانيين واليهود . وإذا كانت حركة الفتوح التى قام بها المسلمون لم تتسبب فى قطع أواصر العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، فإنها من ناحية أخرى جذبت التجار السوريين تجاه الأسواق الآسيوية الجديدة المزدهرة التى وفرتها الفتوح الإسلامية فى آسيا . ومن ناحية أخرى لم يفلح الغزو اللمباردى لجنوب إيطاليا فى القضاء على الوجود البيزنطى فى هذه النواحى ، ولكن التجار اليونانيين وجدوا فى سياسة الحكومة البيزنطية ما يشجعهم على البقاء فى بلادهم لكى يفيدوا من تجارة المرور التى كانت القسطنطينية من أهم مراكزها . وهكذا بقى لليهود وحدهم القيام بدور حلقة الوصل بين أوربا الكاثوليكية والبلاد الأخرى الأكثر تقدمًا فى العالم الإسلامى والإمبراطورية البيزنطية بل وفى الهند والصين - انظر :

Robert S . Lopez , The commercial ervolution of the Middle Ages , 950 - 1350 Cambridge Univ . press 1976) , pp . 60 - ff .

(المترجم )

الممالك الجرمانية بصفة عامة كانت تجد فى خدماتهم كتجار وصيارفة يقرضون الأموال أمراً نافعًا للغاية بحيث لم تكن تسمح للأساقفة المتعصبين بارتكاب المذابح ضدهم . وقد ازدهر اليهود بشكل خاص تحت حكم الكارولنجيين ، الذين كانوا يقدرون الخدمات الاقتصادية التى كان اليهود يسدونها للمجتمع النامى فى القرن التاسع . وليس حقيقيًا بأى حال من الأحوال أن اليهود فى أوربا المسيحية ، فى العصور الوسطى الباكرة ، كانوا يتعيشون من التجارة وإقراض الأموال فحسب . ففى بعض الأماكن كان مسموحًا لهم بامتلاك الأراضى ، ومع مطلع القرن الحادى عشر كان بعضهم يملك ضياعًا شاسعة فى إقليم جنوب فرنسا حيث تنمو الكروم .

ويأتى الخط الفاصل فى تاريخ اليهود فى أوربا المسيحية فى منتصف القرن الحادى عشر . ذلك أن النزعة العسكرية الجديدة التى استولت على المسيحية اللاتينية ، وازدياد حركة التدين الشعبى قد ساهمت فى تصاعد موجة معاداة اليهود Judophobia بمعدل رهيب ، وهو العداء الذى عبر عن نفسه تعبيراً دراميًا فى المذابح التى ارتكبها الصليبيون فى تسعينيات القرن الحادى عشر . فضلا عن أن التغيرات التى طرأت على الحياة الاقتصادية والسياسية تسببت فى تدهور أوضاع اليهود . فقد أدى تطوير وتحسين النظم والمؤسسات الإقطاعية إلى استحالة امتلاك اليهود للأراضى ، لأنهم لم يكونوا يقدرون على أن يقسموا الأيمان الضرورية والعهود اللازمة لعلاقة التبعية الإقطاعية . كما أن نمو نقابات التجار التى قيض لها أن تسيطر على التجارة العالمية ، أدى إلى استبعاد الوسطاء اليهود من حقل العمل . وفى مطلع القرن الثانى عشر كان الربا هو المورد الرئيسى لليهود . وقد فسر الربيون اليهود التحريم الوارد فى الكتاب المقدس ضد الربا تفسيراً يجعله قاصراً على التعامل داخل الجماعات اليهودية وحدها ، بل وأباحوا التعامل بالربا بين اليهود والأمميين . والواقع أن زعماء الكنيسة المسيحية قد توصلوا إلى نفس الاستنتاج . إذ أنهم فسروا نفس الأقوال الواردة فى الكتاب المقدس على أنهم تحريم للمعاملات بالربا بين الإخوة المسيحيين ( على الرغم من أن هذا التحريم كان ينتهك فعلا على أوسع نطاق ) ، كما أنهم أباحوا التعامل بالربا مع الأمميين واليهود . ولم تكن تلك مسألة مذهبية في جوهرها ، وإنما كانت مسألة اجتماعية اقتصادية . فقد كان اليهود يملكون رأس المال ، ولم يكن أمامهم سبيل للعيش سوى بإقراض الأموال . وكانت التجارة والصناعة الأوربية النامية تحتاج إلى خدمات اليهود ، كما كان النبلاء المبذرون ورجال الكنيسة المفلسون، والحكومات الملكية الناشئة تحتاج إلي هذه الخدمات . وكان المرابون اليهود يفرضون

أرباحًا عالية - تصل أحيانا إلى خمسين فى المائة من أصل المبلغ . ولم يكن السبب فى هذا راجعًا إلى أنهم كانوا قبيلة من أمثال شابلوك ولكن لأن ثمة مخاطر جسيمة تهدد أعمالهم . إذ كان من الصعب تماما استرداد قروضهم طالما كان المدينون يتمتعون بمكانة فى ساحات القضاء كانوا هم أنفسهم يفتقرون إليها . وكانوا يعتبرون أنفسهم محظوظين إذا تكنوا من استرجاع نصف المبالغ التى أقرضوها كذلك كان المرابون من غير اليهود يفرضون هذه النسبة العالية من الأرباح مثل اليهود . ومع هذا فقد تزايد نشاط المرابين اليهود .

إن نزعة معاداة السامية تعود إلي عصر الإصلاح الجريجورى والحملة الصليبية [٩] . ومع منتصف القرن الثانى عشر أدى ظهور افتراءات الدماء - وهى الأساطير التى تتحدث عن قيام اليهود بطقوس لذبح الأطفال المسيحيين - وغيرها من دلائل الكراهية الشعبية ضد اليهود ، إلى تكرار المذابح ضدهم . وكانت الحماية التى تمتع بها اليهود والتى فرضها الملوك والأمراء فى مواجهة المذابح ، ذات ثمن فادح . ومع مشرق شمس القرن الثالث عشر كان يهود أوربا قد تحولوا فعلا إلى عبيد لحكومات الدوقات والملوك الذين أباحوا لهم التعامل بالربا وسمحوا لهم بالبقاء على دينهم ، وحموهم من القتل الجماعى ، مقابل مبالغ طائلة كانوا يسددونها للخزائن الملكية التى استخدمتهم كوسائط لابتزاز الأموال من الجماهير المطحونة .

وحتى قبل تدهور الوضع الاقتصادى والاجتماعى لليهود ، كانت الحياة الداخلية فى الجماعات اليهودية فى غرب أوربا تتجه نحو مسايرة مفاهيم اليهودية التلمودية ، ولكن لم يحدث سوى عند نهاية القرن الحادى عشر أن انفصل الفكر اليهودى تماما عن التراث الكلاسيكى والثقافة الدنيوية العامة . ففى ذلك الوقت كانت الجماعات اليهودية فى أوربا

---

٩ - الواقع أن الاضطهادات التى تعرض لها اليهود فى أثناء الحركة الصليبية كانت نتاجًا لظروف خاصة مختلفة عن ظروف الاضطهادات التى لحقت بهم فى عصور وأماكن أخرى ، ولكن هناك ميلا دائما لدى المؤرخين اليهود إلى مناقشة الموقف الصليبى من اليهود فى إطار الموضوعات المتعلقة بتاريخ معاداة السامية. والحقيقة أن هناك من المؤرخين للمسيحيين من يجاريهم فى هذا الموقف ( انظر التعقيب الذى كتبه د . محمد خليفة حسن فى كتاب عالم الصليبيين ترجمة د . قاسم عبده قاسم ود . محمد خليفة حسن ، دار المعارف ١٩٨٠ ، ص ٢٤٦ - ص ٢٧٤ ) انظر أيضًا :

J.Parkes , The conflict of the church and the synagogue , A study in the origins of Anti-semitism ( New York 1969 ) .

وفى رأينا أن هذا الموقف الفكرى يعتبر تحايلا على الواقع التاريخى وليا لعنق الحقيقة التاريخية لصالح الموقف الدعائى للحركة الصهيونية . فدراسة الحملة الأولى ، مثلا ، تكشف عن أن الاضطهادات التى واكبت الحركة الصليبية لم تكن سوى إفراز للواقع التاريخى فى أوربا القرن الحادى عشر ، وهو واقع يختلف بطبيعة الحال عن القرون اللاحقة وماحدث لليهود فى أوربا أثناءها . ( المترجم )

المسيحية تسير على هدى نموذج عام . فقد كان يتولى حكم الجماعة صفوة صغيرة من العائلات الرأسمالية أو الربانية لها حق قيادة جماهير اليهود الذين كانوا من الحرفيين وصغار التجار . وإذ حيل بين اليهود وبين المجتمع المسيحى والثقافة المسيحية ، فقد كان هَمُّ الصفوة هو العمل على تقوية الطبيعة التعاونية فى الطائفة اليهودية من خلال التطبيق المنظم لقوانين التلمود . أما المفكر البارز الذى يمثل هذه الصفوة فهو راشى Rashi ( الربى سليمان بن اسحق ت ١١٠٥ ) الذى كان رئيس الجماعة اليهودية فى تروى Troyes . وقد انحصر نشاطه الفكرى كله فى نطاق التراث التلمودى إذ أنه أضاف شروحًا جديدة على التوراة لكى يوفق بين مفاهيمها الأخلاقية والفقهية والحاجات اليهودية فى زمانه . ولاتزال شروح راشى على الكتاب المقدس ذات قيمة بالنسبة لليهود ، كما أن شروحه على الهوامش ماتزال تُطبع على نطاق واسع مع النص العبرى للكتاب المقدس . وتتميز تفسيراته بموقفها النفعى المتعقل الذى يتناقض بشدة مع التفسير المغرق فى الرمزية الذى طرحه فيلون ، والذى استخدمه العلماء المسيحيون على نطاق واسع . ولهذا السبب وجد بعض العلماء المسيحيين فى القرن الثانى عشر شيئًا طريفًا ومضيئًا فى مؤلفات راشى . كانت عقلية راشى عقلية متوقدة فطنة ، كما كان على وعى بمشكلات الحياة اليومية التى كان بنو جلدته يواجهونها . وقد حاول أن يبين لهم سبيل المحافظة على المفاهيم الأخلاقية والشرعية فى الكتاب المقدس فى غمار الظروف التى كانت تتدهور بسرعة . وبهذا أسدى خدمة جليلة للجماعات اليهودية الأوربية طوال القرون الثمانية التالية . إلا أن شروح راشى وتعليقاته عادية وغير ذات أهمية فى قيمتها الفكرية . فهى لاتتميز بالنزعة الصوفية ، كما تخلو من أية محاولة للربط بين اليهودية والعلم والفلسفة. وإنما هى تكشف بوضوح شديد عن الفقر الفكرى الذى أناخ بكلكله على اليهود فى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى .

وقد تدهور الموقف اليهودى فى أوربا المسيحية بصورة متزايدة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . إذ أن مجمع اللاتيران الرابع فى سنة ١٢١٥ أوصى بعزلة اليهود التامة ، وأصدر قراراً بأن على جميع اليهود أن يرتدوا العلامات الصفراء كناية عن مكانتهم كمنبوذين. ومع ظهور المؤسسات المالية المسيحية أخذت الخدمة التى كان بمقدور الرأسماليين اليهود أن يؤدوها فى التدهور المستمر . وكانت النزعة التقليدية التى روج لها أفراد الصفوة من الأحبار والربيين نزعة سلفية معادية للفكر الفلسفى . ولا غرو أن يتحول بعض اليهود إلى

المسيحية فى ظل هذه الظروف . ولكن عدد اليهود الذين هربوا من التزاماتهم ومن الاضطهاد باعتناق المسيحية كانوا يشكلون أقلية ضئيلة للغاية . وإذ لم يستطع اليهود المضطهدون فى القرن العشرين الهروب من موجات معاداة السامية ، كذلك لم يكن اليهود فى العصور الوسطى يحصلون على حريتهم سوى باعتناق المسيحية . ومع هذا كانت حالات اعتناق اليهود للمسيحية قليلة لأسباب ثلاثة : أولها أن إحساس اليهود بالعناية الإلهية ونظرتهم الأخروية قادتهم إلى الإيمان بأن عصر الاضطهادات ليس سوى تمهيد لمجئ المخلص وخلاصهم الوشيك . وثانيها أن الطبيعة التآزرية للطائفة اليهودية فى العصور الوسطى كانت تترك المتَنصرِّين الذين هجروا عائلاتهم وطائفتهم مكشوفين تماما لأنهم تركوا طائفتهم الاجتماعية ودخلوا فى رحاب العالم المسيحى . وثالثها أنه بينما كانت الكنيسة ترحب باليهود المتنصرين وتكافئهم كانت جماهير العلمانيين تعاديهم خوفًا من المنافسة الاقتصادية من جانب اليهود المتنصرين .

وفى العقد الأخير من القرن الثالث عشر قام ملك إنجلترا وملك فرنسا بطرد اليهود من بلادهما استجابة لمشاعر الكراهية الشعبية من جهة ، ورغبة فى الاستيلاء على ممتلكات اليهود من جهة أخرى . وقد انتقل كثيرون من اليهود المطرودين إلى ألمانيا فى الشرق حيث كان يعيش عدد كبير من اليهود فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وهناك تحدث اليهود باللغة الألمانية التى تحولت على لسانهم لى اللغة اليدية Yiddish الحديثة بعد إضافة بعض مفردات عبرية وكتابتها بالحروف العبرية . وهناك أيضا عانى اليهود مرة أخرى من ويلات المذابح الجماعية . وقد أدى هذا إلى دفع اليهود إلى الهجرة صوب الشرق إلى بولندا وروسيا حيث كان ينتظرهم المزيد من العذاب .

ولاشك فى أن اليهود كانوا أكثر المجموعات الجنسية أو اللغوية تعليمًا فى مجتمع العصور الوسطى . وكان انفصالهم عن الثقافة الأوربية العامة بعد القرن الحادى عشر ، نتيجة الاضطهادات والعزلة من ناحية ، وبسبب تعليمات الربيين المتشددين من ناحية أخرى ، خسارة فادحة للحياة الفكرية فى عالم العصور الوسطى وعقبة كؤوداً فى سبيل تقدم الحضارة الغربية. ويمكن إظهار مدى فداحة هذه الخسارة بمقارنة المساهمة اليهودية الضئيلة فى ثقافة أوربا بالإنجازات التى حققوها فى الأندلس[١٠] .

---

١٠ - يقوم هذا الرأى على أساس من النظرة العنصرية المتعصبة التى تحاول القول بأن اليهود شعب متفوق . وأصحاب هذا الرأى ، وهم من اليهود ، يحاولون باستمرار أن ينسبوا كل الإنجازات الحضارية فى=

فقد كان وضع اليهود فى أسبانيا الإسلامية حتى نهاية القرن الحادى عشر أفضل كثيراً منه فى أى بلد أوربى آخر من عدة وجوه . فالواقع أن الأمراء العرب قد تقبلوهم على أساس المساواة ، وأرتقى اليهود المناصب العليا فى الجهاز الحكومى ، كما لمعوا فى التجارة وفى المهن الثقافية ، ولاسيما الطب ، وخلال القرن العاشر والقرن الحادى عشر ازدهرت طائفة من اليهود الأرستقراطيين الذين عملوا فى بلاط الحاكم فى مراكز الحكم الإسلامى . وللمرة الأولى، بين زمن فيلون السكندرى والقرن الثامن عشر ، يتم قبول جماعة يهودية كبيرة داخل المجتمع وتتاح لها فرصة المشاركة فى كافة جوانب الحياة . ونتيجة لهذا انجذب العلماء اليهود فى الأندلس صوب الثقافة الدنيوية ، وبذلك قدموا المساهمة الوحيدة من جانب اليهود فى ثقافة العصور الوسطى العالية . وكان هناك قدر كبير من التنوع فى التناول اليهودى للتعليم والمعرفة يساوى ماكان يحدث فى العالم المسيحى تقريبًا . ذلك أن بعض المفكرين اليهود كانوا يؤيدون الأفلاطونية الجديدة ؛وكان أبرز المعبرين عن هذه المدرسة أفيسبرول Avicebrol (سليمان بن جبريل . ت ١٠٥٨ ) . وأهم كتبه هو كتاب « نافورة الحياة » الذى ترجم إلى اللغة اللاتينية وانتشر على نطاق واسع فى كافة أرجاء أوربا المسيحية . ومقالة سليمان بن جبريل الأفلاطونية الجديدة مقالة فلسفية خالصة ، وليس فيها مايمكن أن يدل على أن كاتبها يهودى . والحقيقة ، أنه لم يتم التعرف على مؤلف هذه المقالة سوى فى القرن التاسع ؛ فقد كان العلماء اللاتين فى العصور الوسطى يفترضون أنها كتبت بقلم مؤلف مسيحى .

وثمة جانب آخر من جوانب الثقافة اليهودية فى الأندلس تمثل فى أكبر شاعر عبرى فى العصور الوسطى ، هو يوداه هاليفى Judah Halevi ( وتوفى حوالى سنة ١١٤٠ ) ، وكانت أولى قصائده تدور حول موضوعات الحب الدنيوى ، وهى موضوعات شبيهة بموضوعات شعراء التروبادور البروفنساليين والشعراء العرب أيضًا فى تلك الفترة . وهناك نغمة تدور حول

---

= التاريخ الإنسانى لليهود . والقول هنا بأن الإنجاز الثقافى لليهود فى الأندلس مرجعه إلى العبقرية اليهودية التى أتاح لها التسامح الإسلامى سبيل الظهور ، قول مردود لأن الناظر فى تراث الحضارة العربية الإسلامية . سوف يكتشف على الفور أن المساهمات فى هذه الحضارة من غير المسلمين لم تقتصر على اليهود ، فهناك أسماء عديدة لمسيحيين تألقوا داخل دار الإسلام وساهموا فى هذه الحضارة التى قامت على أساس من حرية العقيدة والتسامح .

كذلك فإن القول بأن اليهود « مجموعة جنسية » مغالطة تاريخية كبير فى إطار الموقف الدعائى للحركة الصهيونية ، فلم يكن اليهود جنسًا خالصًا قائمًا بذاته ، وإنما هم أتباع ديانة شأنهم فى ذلك شأن الجماعات التى تعتنق ديانات أخرى . ( المترجم )

الشذوذ الجنسى تفرض نفسها على هذه القصائد بشكل عام . وعلى أية حال ، تبدو قصائد هاليفى ذات نغمة معادية للفكر محلية الرؤية ؛ فلأنه كان يعيش فى مجتمع غنى تخلق فيه كثيرون من اليهود بأخلاقيات البيئة التى عاشوا فى رحابها ، فقد اهتم بالحفاظ على اليهودى التقليدى ، كما صار هو العدو اللدود للثقافة اليهودية الدنيوية . وعلى أية حال ، فإنه كان إنسانى النزعة بحيث لايمكنه اعتناق الرؤية الفقهية التى تميز اليهودية التلمودية . وأعظم كتب هاليفى هو الكوزارى Kuzari الذى جاء إلهامًا لنوع من الوطنية الخيالية ، وهو نمط من الصهيونية البدائية لايقصر اهتمامه على التراث القانونى والدينى اليهودى ، وإنما يروج لفكرة التفوق الأخلاقى للشعب اليهودى . وقد لقى كتاب الكوزارى رضاء الصهاينة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، لسبب واضح هو أنه « إذا تحملنا النفى والإهانة فى سبيل الرب ، كما هو حادث بالفعل ، فإننا سوف نفخر بالجيل الذى سيأتى بالمخلص ويعجل بيوم الخلاص الذى نأمل فيه ... وينحصر دور الأمميين فى تمهيد الطريق أمام المخلص المنتظر ، الذى هو الثمرة ، وسيكونون جميعًا فاكهته . ثم إذا اعترفوا به سيكونون جميعًا شجرة واحدة ... وسوف يمكن إعادة بناء أورشليم فقط حين تحترق إسرائيل شوقًا إليها إلى المدى الذى يجعل الإسرائيليين يقبلون أحجارها وترابها » لم يكن أسلوب هاليفى مجرد أسلوب قوى جذاب ، ولكن المثل والقيم التى روّج لها فى كتابه الأخير كانت تحمل نغمة متمايزة ذات نزعة وطنية خيالية وعدوانية ، وهى النزعة التى كانت مصدر إلهام الحركة الصهيونية فيما بعد . وربما يمكن القول، بأن هاليفى قد سبق عصره بثمانية قرون . وحين مات وهو فى رحلة حج إلى الأرض المقدسة انتهت بموته محاولة بناء قوة ثالثة فى الحياة اليهودية لاهى تلمودية ولاهى فيلونية .

ولكن سليمان بن جبريل ، وهاليفى ، أوغيرهما من الكتاب اليهود فى الأندلس لم يسترعوا انتباه معاصريهم مثل ذائع الصيت موسى بن ميمون ( ١١٣٥ - ١٢٠٤ ). فقد كان سليل أسرة بارزة من الربيين فى الأندلس ، وكان أشهر علماء التلمود فى زمانه ، وفى رأى البعض أنه كان أعظم علماء التلمود فى كل العصور . وفى الوقت نفسه ، كان قد وجه اهتمامه إلى الفسلفة والعلوم اليونانية ، واهتم بدراسة العلاقة بين الأرسطية واليهودية ، كما اهتم بأن يوضح أن ديانته يمكن أن تتوافق مع أسمى الجوانب العقلية .ومن ثم فإنه عمل على سد الفجوة الفاصلة بين المعرفة التلمودية والمذهب الأرسطى . وكان ذلك عملا غاية فى الصعوبة ، ولفت انتباه العلماء اليهود تمامًا . فقد كان ابن ميمون رجلا مستقلا يتدفق حيوية،

ولم يكن ممكنا أن يعوقه شئ عن إنجاز عمل اختار لنفسه أن يقوم به ، حتى ولو ساءت أحواله وظروفه الشخصية . ففى القرن الثانى عشر عانى اليهود من اضطهاد المتعصبين المسلمين الذين تولوا السلطة فى الإمارات الأندلسية . ذلك أن النزعة الدينية العسكرية التى آذت اليهود فى العالم المسيحى ، بدأت تهاجم يهود الأندلس أيضا . وهرب موسى بن ميمون وعائلته إلى شمال أفريقيا ، حيث اعتنق الإسلام ظاهريًا . وفى السنوات الأخيرة من حياته لم يكن يرى بأسًا فى هذا . ومن شمال أفريقيا هاجرت أسرته إلى مصر ، حيث صار موسى بن ميمون طبيبًا لوزير صلاح الدين ، ولم يمنعه هذا من أن يواصل عمله فى التعليق على الكتاب المقدس ، أو محاولة الوصل بين المذهب الأرسطى والدين اليهودى .

وتمثلت نتيجة أعمال موسى بن ميمون فى شروح جديدة ضخمة على العهد القديم فى كتاب « دليل الحائر » الذى يعتبر نموذجًا للفكر اليهودى فى العصور الوسطى . هذا الكتاب كان الهدف منه مساعدة اليهود المتعلمين فى مواجهة التناقض بين العلم والدين . وقد استبعد موسى بن ميمون مذهب ابن رشد عن الحقيقة المزدوجة ، مثلما فعل توماس أكويناس من بعده. وقد زعم أن وراء العلم والدين حقيقة واحدة أعطاها الله . وكانت تلك عاطفة نبيلة ، إلا أن موسى بن ميمون مر بوقت عصيب للغاية فى سبيل الحفاظ عليها ؛ إذ يبدو أن كتابه قد زاد من حيرة اليهود بدلا من هدايتهم . ففى سبيل الوصول إلى النتائج التى كان يبتغيها ، كان عليه أن يغوص فى مذاهب أرسطو ، وينغمس فى نوع من الكناية والتورية فى قراءة الكتاب المقدس مثلما فعل فيلون من قبل للتوفيق بين اليهودية والأفلاطونية . وكان من رأى موسى ابن ميمون أن الله هو المحرك الأول حقًا ، ولكن المفهوم الأرسطى عن الألوهية لم يتناول سوى جزء من طبيعة الله ؛ الذى هو أيضا الله الواحد الذى تدين به اليهودية والذى يتدخل باستمرار فى شئون البشر . وحاول موسى بن ميمون عبثا أن يبين أن خلق العالم يمكن أن يجد له سنداً من العقل ، بيد أنه كان عليه أن يعترف بأن أدلته كانت مجرد أدلة ترجيحية ولم تكن مؤكدة. وكان هذا كافيًا لتوجيه النقد المرير إليه من زعماء اليهودية التلمودية التقليدية . وعلى أية حال ، فإنه ورَّط نفسه فى أكبر المصاعب عندما بدأ يناقش مسألة الخلود . فمن المثير للسخرية، أن ابن ميمون نفسه كان قد لعب دوراً رائداً فى جعل خلود الروح مبدأ أساسيًا من مبادئ العقيدة اليهودية . وليس هناك مثيل لهذا المذهب فى الكتاب المقدس . وقد جلب إلى اليهودية من فارس فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح على أيدى الفريسيين ، وكان العلماء اليهود يتوجسون منه خيفة على الدوام . ولكن بعد جعل الخلود العام الذى أقض مضاجع

الفلاسفة المسلمين الذين تبنوا المذهب الأرسطى . وبدا فى النهاية أنه يؤيد مذهب ابن رشد عن الخلود من خلال الاتحاد مع العقل الكلى . وقد أدت تعاليمه المحددة وموقفه العقلى العام الذى انتهجه فى كتاب « دليل الحائر » إلى إثارة السخط والخوف فى نفوس زعماء اليهود الربيين . وأدين بالهرطقة ، وبينما صار الملخص الذى كتبه للقانون اليهودى مرجعًا ، حُرِّمت مؤلفاته الفلسفية ولقيت تجاهلاً تامًا ، ولم يعاود العلماء اليهود دراستها سوى فى القرن التاسع عشر . وقد عارضه بعض نقاده فى البروفانس ، حيث كانت توجد مدرسة الدراسات التلمودية الكبرى ، معارضة مريرة لدرجة جعلتهم يطلبون من محاكم التفتيش أن تحرق مقالاته الفلسفية ، وهو طلب أثلج صدور المسئولين عن محاكم التفتيش أن يلبوه . ويمكن القول ، دفاعًا عن موقف الربيين البروفنساليين ، أنهم كانوا يخشون أن يؤدى انتشار مقالات ابن ميمون ذات النزعة الأرسطية إلى أن يوجه المسئولون عن محاكم التفتيش اللوم إلى اليهود ويتهمونهم بالتحريض على نشر الهرطقة المسيحية .

وهكذا انتهت محاولات كبار المفكرين المسلمين واليهود لتناول العلاقة بين الدين والعلم الأرسطى الجديد بهزيمة وكارثة فى مطلع القرن الثالث عشر . إذ انصرف العالم الإسلامى عن العلم الأرسطى لأن الزعماء الدينيين اعتبروه خروجًا على الدين ، وكان أولئك قادرين على الحصول على مساعدة الحكام المتعصبين فى القضاء على الفكر العقلانى المتحرر . ولاشك فى أن التدهور العام الذى لحق بروح الإبداع في الحضارة الإسلامية قد لعب دوراً فى القضاء على الحركة الفلسفية والعلمية العظيمة فى العالم العربى . وفى الوقت نفسه أدارت اليهودية ظهرها للفكر والعلوم الدنيوية ، من ناحية بسبب عداء الربيين المتشددين لهذه العلوم ، وبسبب عزلة اليهود الأوربيين التى بدأت فى القرن الثانى عشر من ناحية أخرى . وقد أدى هذا إلى فصل العلماء اليهود عن علوم الحضارة الغربية وفلسفتها طوال قرون ستة ، كما انحصر الفكر اليهودى فى نطاق الدراسات التلمودية الغامضة . وفى العصور الأخيرة من تاريخ الثقافة الإسلامية والثقافة اليهودية لم يكن مسموحًا سوى للصوفية أن تقوم كطريق إضافى إلى جانب الطريق الأصلى الذى يقود إلى الحقيقة الموجودة فى رحاب الدين . وبعد سنة ١٢٠٠ ، لم يكن هناك سوى المفكرين المسيحيين فى غرب أوربا يطرحون الفرصة لبناء نظام فكرى جديد يأخذ فى حسبانه التحدى الأرسطى .

# الفصل السابع عشر
# تنوع التجربة الدينية

١ - مشكلة التدين :

بغياب شمس القرن الحادى عشر كانت الكنيسة قد استطاعت أن تفرض قيمها ومثلها العليا على المجتمع . إذ كانت طبقات ملاك الأراضى يأخذون المسيحية مأخذ الجد ، بل إن الفلاحين بمستواهم الفكرى الأدنى كانوا يأخذونها مأخذ الجد ؛ إذ كانت المسيحية قد انتشرت فى قراهم إنتشاراً فعليا بفضل نظام الأبرشيات . وكانت مشكلات التدين من حقائق الحياة بالنسبة للناس فى غرب أوربا . ولأنهم كانوا يأخذون الإيمان مأخذ الجد، فقد حاولوا بمختلف الوسائل أن يتواءموا مع المثل العليا المسيحية . ومن خلال بحثهم عن تعبير كاف عن تدينهم نتجت آثار عميقة تركت بصماتها على جوانب عديدة من جوانب حضارة العصور الوسطى . فقد كان فن البناء ، والفن التشكيلى ، والشعر اللاتينى ، والموسيقى الكنسية فى القرن الثانى عشر من نتائج هذا التدين العميق . ولكن زعماء الكنيسة انتابهم القلق لاهتمامهم بالسيطرة على الشعور الدينى وتوجيهه فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر . فقد كان التعبير عن موجة التدين الجديدة قبل سنة ١٠٥٠م مسألة بسيطة إلى حد ما . إذ كان الرجال الأتقياء والنساء الورعات ممن كانت تملكهم مشاعر قوية تدعوهم إلى حياة الرهبنة بحيث ينفصلون عن عائلاتهم وينضمون إلى الجماعات البندكتية المستمرة النمو . أما أولئك الذين لم يكن بمقدورهم أن يكونوا رهبانا ، فقد ساعدوا الربان الكلونيين وغيرهم من البندكتيين بمختلف أنواع الهبات والخدمات . ولكن بعد منتصف القرن الحادى عشر ، صارت أشكال التجربة الدينية أكثر تنوعًا . إذ لم يعد الشكل الكلونى للديرية يشبع النزعات التقشفية لدى كثيرين ممن ألهمتهم موجة التدين الجديدة ، فأخذوا ينشدون تعبيرات تنظيمية جديدة عن النزعة التقشفية . وكانت النتيجة أن تكاثرت النظم الديرية فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر بدرجة هائلة . وقد وجد الكثيرون ممن لم يشاركوا فى هذه الموجة الجديدة من الإنسحاب التقشفى من العالم ، لاسيما بين جماهير سكان مدن غرب أوربا - وجدوا مايشفى غليلهم فى ذلك النمط من التدين الشعبى الذى أرسى مذاهبه المبشرون الشعبيون . وما أن مالت شمس القرن الثانى عشر للمغيب حتى

واجهت القادة الكنسيين مهام مفزعة لم يسبق لها مثيل ، فقد كان عليهم أن يتحكموا فى عملية تكاثر النظم الرهبانية الجديدة ، وأن يوجهوا النزعة التقشفية إلى الوجهة التى تجعلها ذات فائدة بالنسبة للكنيسة والمجتمع ، وأن يوجدوا وسائل وسبلا جديدة لارواء الشوق المتأجج فى صدور العلمانيين ، كما كان عليهم أن يقضوا على الانقسامات التى نجمت عن الهرطقة الشعبية .

٢ – تنظيم الزهد :

كان الشمال الإيطالى ، عند نهاية القرن الحادى عشر ،مسرحا للإرهاصات الأولى لثورة شاملة فى الديرية الغربية . ذلك أن الاهتمام الجديد بالزهد والاتجاهات النسكية الجديدة كانت قد بدأت تصبح بمثابة الواجهة للحياة الدينية . ولم يحدث أبداً أن احتل شخص الناسك فى الديرية الغربية تلك المكانة الهامة التى كانت له فى العالم المسيحى الشرقى . إذ أن الممارسات التقشفية المتطرفة لم تكن من خصائص الحياة البندكتية فى دستورها الأصلى . ولاحتى فى شكلها الذى اتخذته فى العصر الكارولنجى ، أو فى الديرية الكلونية . وكان ظهور المدن فى شمال إيطاليا فى أواخر القرن العاشر ، مع وجود فرص الثراء والراحة ، قد أوجد فى أوربا ، وللمرة الأولى ، غواية الحياة المرفهة التى يثور الناسك المتقشف ضدها . ففى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية ظهر نمط الناسك – القديس فى شمال إيطاليا ؛ الذى انسحب من العالم ليهرب من الانحطاط الروحى الماثل فى حياة البلاط فى قصور الأمراء وفى حياة المدن الغنية ، ولكنه كان يعود بين الفينة والأخرى ليبشر بنوع من الإحياء الأخلاقى والروحى بين جماهير المدن ، وقُيض لهذه النزعات التقشفية والنُسكية القوية لدى أولئك النساك – القديسين الموجودين فى كل مكان أن يصيروا هم التيار الأساسى فى الحياة الدينية فى شمال إيطاليا على مدى القرون الثلاثة التالية .

وبمنتصف القرن الحادى عشر كانت الحركة الديرية قد اتخذت شكل حركة واسعة الانتشار فى المنطقة الواقعة مابين روما وجبال الألب ، وأسس بعض أولئك الزهاد جماعات ديرية استطاعت أن تطرح تناقضات قوية مع الحياة البندكتية السائدة . فقد أسس نظام الكمالدولى Comaldoli جماعة ديرية من النساك عاشوا فى قلايا انفرادية . كذلك ثار دير جماعة فالومبروسا Vallombrosa ، قرب فلورنسا ، ثورة واعية ضد الحياة الكلونية ، وكان يهدف إلى الالتزام الصارم بما جاء بالدستور الأصلى الذى وضعه سان بندكت . وفى سبيل انجاز هذا

الهدف ضم فالومبروسا إلى جماعته بعض الأخوة العلمانيين من غير المتعلمين إلى جانب القساوسة القادرين على القيام بالخدمة الكنسية . هذا الفصل بين الأخوة العلمانيين والكنسيين داخل النظام نفسه ، والذى أتاح الفرصة لغير المتعلمين من أبناء الطبقة الدنيا للإنخراط فى سلك الرهبان ، كان تغييراً ثورياً سارت النظم الديرية الجديدة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر على نهجه .

وفى شمال الألب ظهرت نزعة تقشفية مماثلة فى منتصف القرن الحادى عشر ، على الرغم من أنها لم تصل أبداً إلى المدى الذى وصلت إليه الديرية الإيطالية فى تمسكها بحياة النسك والتقشف . ويظهر أول تغير هام فى هذا الصدد سنة ١٠٤٣ بتأسيس « بيت الرب » بالقرب من ليون ، على يد راهب كلونى سابق أضجرته الحياة الدينية فى أكبر أديرة الغرب الأوربى . وخلال نصف القرن التالى كانت هناك اعتراضات مماثلة عل النموذج الكلونى تدعو إلى حياة دينية أكثر خشونة فى إطار جماعات ديرية تقلل من ارتباطها وتداخلها فى المجتمع والتزاماته وإغراءاته الماثلة ، مثلما كانت عليه الحال قبل عدة قرون خلت . ولاشك فى أن عملية الاستعمار الداخلى فى أوربا آنذاك قد شجعت المتقشفين على تأسيس صوامع ( قلايا ) صغيرة فى مناطق الحدود يعيشون فيها اعتماداً على مواردهم الخاصة فقط . وفى أراضى الراين وجنوب فرنسا أيضا يظهر نمط القديس المبشر الرحال قبل نهاية القرن الحادى عشر ، بالشكل الذى أكدته تماما الحملة الصليبية الشعبية فى سنة ١٠٩٥ .

وقد ساهمت التقلبات التى تعرضت لها حركة الإصلاح الجريجورى مساهمة قوية فى تزايد تأثير هذه الاتجاهات الجديدة داخل الديرية الغربية . إذ كان الجريجوريون قد أخذوا إلهامهم الأول عن النزعات التقشفية الجديدة فى القرن الحادى عشر ، كما أن جميع قياداتهم قد خرجت من طيات هذه الحركة . وفى حركة الإصلاح الجيجورى اتخذت حركة الزهد شكلا تطهريا ؛ ذلك أنها كانت تحاول أن تخلق عالما يمكن أن يكون مناسبا للحج إلى مدينة الله دونما عوائق . وقد كشف الفشل الذى حاق بحركة الإصلاح عن أن حركة الزهد لايمكن أن تأمل فى فرض مثلها العليا على المجتمع ، لأن ذلك يعنى أن تحول العالم بأسره إلى دير برأسه رئيس عالمى يفرض الطاعة على الحكام جميعا . كذلك أتت بابوية جريجورى السابع إلى المسيحية بالسيف بدلا من السلام ، ولم تستطع أن تحقق لها المزيد من القوة ، وإنما جلبت عليها الانقسامات العنيفة والفوضى والشكوك . ومن ثم أدار كثيرون من أفضل الناس ظهورهم للعالم فى

السنوات الثلاثين الأولى من القرن الثالث عشر سعيا وراء خلاصهم وسلامهم مع الرب بعيداً عن العالم وفى إطار الجماعات الديرية الجديدة التى كان هدفها الإنسحاب من العالم تماما . وقد وقعت كثير من الأديرة القديمة ( منها دير كلونى برئاسة بطرس المبجل فى الرابع الثانى من القرن الثانى عشر ) تحت تأثير النزعة الجديدة للإنسحاب من العالم .

هذه التغيرات الخطيرة ، التى جرت على الحياة الديرية الغربية كانت نتيجة لتضاءل قيمة الرهبان بالنسبة للمجتمع . وفى أخريات القرن الحادى عشر ، وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر لم تعد الخدمات التى ظل الرهبان البندكتيون يسدونها للحضارة الغربية ، على مدى قرون ، مطلوبة فى المجتمع . وكان التطور الأول والأكثر حسما فى هذا الصدد هو فقدان الرهبان لسيطرتهم على التعليم العالى . إذ كانت المدرسة الديرية تقوم بالوفاء بالحاجات التعليمية الضرورية للمجتمع قبل القرن الحادى عشر - أى الحفاظ على القاعدة الأساسية من المتعلمين من خلال تلقين الفنون الحرة ، وتراث الكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة . ولكن المدرسة الديرية كانت محدودة جداً فى اهتماماتها وصارمة فى نظامها بحيث فشلت فى أن تكون مركز الإنجازات الهائلة فى مجال الفكر الحر والقانون إبان عشرات السنين التالية.

وقد أدى فقدان الرهبان لزعامتهم فى مجال التعليم إلى تدهور مكانتهم فى الحياة السياسية . إذ أن المدارس البلدية التى قامت فى شمال إيطاليا ، والمدارس الكاتدرائية التى قامت فى شمال فرنسا ، والتى كانت بمثابة الوطن لحركة التعليم العالى الجديد - كانت هذه المدارس قد بدأت فى تخريج كتبة وموظفين علمانيين ومحامين مدنيين يمتازون بالفطنة ، وحسن التعليم ، والمهارة الفائقة . وحل هؤلاء محل العلماء الديريين فى وظائف الخدمة المدنية فى الحكومات الملكية الأوروبية إبان القرن الثانى عشر . وفى الوقت نفسه ، كانت أهمية الأديرة الكبرى تتضاءل فى نواحى أخرى بالنسبة للملكيات القوية . ففى النصف الأخير من القرن الحادى عشر كان اعتماد الحكام النورمان والألمان على الموارد العسكرية للأديرة قد تضاءل إلى حد ملحوظ ، ووجد أولئك الحكام القادرون العدوانيون موارد جديدة يجندون منها جيوشهم . وقد كان نظام فرض نوع جديد من خدمة الفرسان على الأديرة النورمانية قد انتهى فى سنة ١٠٥٠م ، كما توقف العمل بهذا النظام فى انجلترا سنة ١٠٨٠ . ولم يكن هذا راجعًا فقط إلى أن خدمة الفرسان من الاقطاعات العلمانية آنذاك قد صارت متاحة بشكل كاف ، ولكن أيضا لأن حكام النورمان كانوا يستخدمون المرتزقة على نطاق واسع اعتماداً على

مواردهم المالية من نظام الضرائب الإقطاعي ، ثم نظام البدل النقدي scutage فيما بعد . على نفس المنوال ، كان اعتماد الملوك الساليين كاملا على الفرسان - الأقنان ministeriales في تكوين قواتهم العسكرية . وفي الربع الثاني من القرن الثاني عشر كان الالتزام الأساسي للراهب البندكتي هو القيام بالوساطة والشفاعة من أجل المجتمع العلماني ، لدى المسيح والعذراء ، ولدى القديسين . وكان هذا كافيا في القرن الثاني عشر نظراً لإستمرار شعبية البندكتيين في نفوس العلمانيين ، على الرغم من أن القساوسة كانوا يوجهون إليهم انتقادات مريرة ، لأن القساوسة كانوا يطمعون في امتيازات البندكتيين وممتلكاتهم التي تمتعوا بها عبر القرون . ولكن حتى في المجال الديني كانت أهمية الجماعة البندكتية قد تدهورت بشكل ملحوظ. إذ أن الكاتدرائية والكنيسة الأبرشية كانت قد صارت هي مراكز التعبير عن التقوى والإخلاص الديني لجماهير الناس في المدن والريف ، كما أن الإعجاب الحار الذي كان البندكتيون يحظون به في العصور الوسطى الباكرة ، تحول في القرن الثاني عشر نحو نظم دينية جديدة .

وبعد سنة ١١٠٠ كان الاتجاه المتصاعد في المجتمع الأوربي هو الاستغناء عن الخدمات التعليمية ، والسياسية ، والعسكرية ؛ بل والخدمات الدينية التي كان الرهبان يسدونها للمجتمع ، وقد كان هذا حافزاً على ظهور نظم ديرية جديدة تكرس نفسها للإنسحاب من العالم إلى حياة الزهد . ومن بين الأديرة الفرنسية العديدة التي تأسست في أخريات القرن الحادي عشر كان دير سيتو Citeaux ، الذي كانت روحه القائدة متمثلة في رجل إنجليزي قديسي الصفات اسمه ستيفن هاردنج Stephen Harding . وسرعان ماجتذب دير سيتو البارزين من الشباب ذوي الميول النسكية القوية ، ومن بينهم برنار الذي كان أكبر عقلية دينية في القرن الثاني عشر . وبسرعة تمكن دير سيتو من بناء أديرة تابعة ، وضم في رحابه جماعات رهبانية مستقلة . وفي غضون ثلاثينيات القرن الثاني عشر كان السسترشيان قد صاروا نظاما ديريا رئيسيا جديداً ، يلي النظام البندكتي من حيث الحجم . وكان أسلوب الحياة السسترشياني ، منذ البداية ، يختلف بشكل واع وقوي مع النموذج البندكتي السائد ، وتجسد هذا المغزى في أن الرهبان قد ارتدوا المسوح الأبيض بدلا من المسوح الأسود . وطلب السسترشيان من حُماتهم العلمانيين أن يمنحوهم حق الاستقرار في المناطق غير المأهولة ، لرغبتهم في تجنب الامتيازات والالتزامات التي جلبتها علي الأديرة البندكتية الممتلكات المزروعة والمسكونة . وادعى الرهبان البيض أن الضياع الإقطاعية التي يديرها الأقنان تشجع

على الترف والجشع الديرى ، وتحول دون الفقر الرسولى الذى كان يمثل جانبًا ضروريا من جوانب الحياة الديرية الحقيقية . وفى عشرينيات القرن الثانى عشر كان سان برنار ، أفصح المتحدثين باسم النظام الجديد ، على الرغم من أنه لم يكن راهبًا سسترشيانيا نمطيا ، ينتقد بعنف ثروة دير كلونى والراحة التي يعيش فى ظلها رهبانه ، بل إنه وجه انتقاداته العنيفة إلى الجمال الفنى . كذلك تعرض البندكتيون لهذا الهجوم الصريح نفسه من زعماء آخرين للرهبان البيض . وكان رد البندكتيين الذى ضايقهم الهجوم يحمل قدراً مساويا من المرارة . فقد احتجوا بأنه من الظلم أن نتوقع من المؤمن أن يتحمل المشاق التى تحملها الحواريون فى خضم العداوة الوثنية والاضطهاد فى وقت كانت الكنيسة فيه قد قهرت أعداءها . كما أوضحوا أن السسترشيان ، فى تفاخرهم بأنهم على حق ، لم يهربوا من فخاخ الغرور ، كما زعموا بأنه يوجد بين الرهبان البيض الذين يحتقرون الدنيا « كثيرون من المدعين الزائفين المخادعين » فعلاً .

كانت الظروف الدينية والاجتماعية السائدة فى القرن الثانى عشر من عوامل انتصار الرهبان السسترشيان والنمو السريع لنظامهم . ففى شتى أنحاء أوربا كان يوجد شباب جادون أتقياء يهتمون بسلامة أرواحهم فى عالم كان يتحول باطراد إلى عالم حضرى غنى ، ومن ثم فإنه كان فى نظرهم عالما يحفل بخطر كبير يتهدد تحقيق الحياة الروحية . والواقع أن الرغبة فى الإنضمام للسسترشيان كانت حركة جماهيرية فى القرن الثانى عشر ، وبعد سنة ١١٥٠ أسس السسترشيان أديرة للنساء تسير على الدرب نفسه . وفى أواخر القرن الثالث عشر كان عدد الأديرة السسترشيانية فى أوربا لايقل عن سبعمائة دير . إذ كان ملاك الأراضى فى كل مكان يحيون السسترشيان بحماسة بالغة ، ويسمحون لهؤلاء الرهبان البيض بأن يستوطنوا الأراضى التى لم تزرع من قبل داخل أملاكهم ، لكى يمهدوا هذه المناطق الحدودية للاستقرار السكانى فيما بعد . وفى شتى أنحاء أوربا القرن الثانى عشر كان الرهبان السسترشيان بمثابة الرواد فى الحركة التعميرية . وكان نشاطهم فى هذا المجال واضحًا في شرق ألمانيا ، بصفة خاصة ، حيث لعبوا دوراً هامًا فى تطوير الطريقة الجديدة لتقسيم الأرض الزراعية إلى مربعات بدلا من الشرائط . والأديرة السسترشيانية فى القرن الثانى عشر هى التى طورت تربية الأغنام فى أراضى التلال الواسعة شمالى انجلترا . وسرعان ما أخذ ملاك الأراضى العلمانيون فى يوركشاير يقلدون هذا الابتكار وبهذه الطريقة تم تعمير هذا الإقليم الحدودى . وفى القرن الثالث عشر بدأت التجارة الخارجية الإنجليزية بتصدير الصوف إلى مدن النسيج الفلمنكية .

وعلى الرغم من الشعبية الهائلة التى أحزها السسترشيان بين جميع طبقات المجتمع فى القرن الثانى عشر ، فإن المجال كان مايزال فسيحا لقيام نظرية ديرية صغيرة لها مواقف وأهداف مماثلة . فقد كان النظام الكارتوسى Carthusians نظاما ديريا انتقائيا صارما مالبث أن أحرز شهرة لسببين : أن هذا النظام الديرى لم يتعرض أبداً للتقلبات التى تعرضت لها النظم الكاثوليكية ، لدرجة أن الكارتوسيين استطاعوا أن يزعموا فيما بعد أنهم لم يحتاجوا إلى الإصلاح أبداً ، كما أنهم لعبوا دوراً هامًا فى اختراع البراندى أول مشروب روحى قوى فى أوربا ، خلال القرن الثالث عشر . أما نظام فونتريفولت Fonter-Vault ، الذى كان له أربعون ديرا سنة ١٢٠٠ ، فقد كان مصصما للرهبان للقيام بالخدمة الدينية والأعمال البدنية الشاقة . وكان نظام فونتريفولت يختلف بشكل حاد عن أديرة الراهبات فى العصور الوسطى الباكرة ( التى كانت أماكن أرستقراطية زاعقة ) من حيث أنه كان يقبل النساء من جميع الطبقات ، كما كان ملاذا للنساء الساقطات ، والأرامل المعوزات ... وما إلى ذلك من النسوة اللاتى كان يوجد منهن عدد كبير فى أوربا العصور الوسطى . ويكشف ظهور هذه المنظمات الديرية وغيرها من المنظمات الصغيرة إلى جانب النظام السسترشيانى عن شيوع روح التدين فى جميع أنحاء أوربا القرن الثانى عشر ، كما يكشف أيضا عن الاتجاه المتصاعد نحو تنظيم الحركات الدينية فى منظمات متمايزة . ولم يكن الرهبان البندكتيون فى العصور الوسطى الباكرة متوافقين فى نظرتهم ، ولكن المجموعات المختلفة التى وجدت بين الرهبان البندكتيين لم تكن تعتبر أن من الضرورى أن تشكل نفسها فى منظمات منفصلة . ذلك أن الروح القانونية والنزعة التنظيمية التى شاعت فى القرن الثانى عشر قد تركت تأثيرها حتى على الحياة الديرية ، وشجعت على توالد وتكاثر العديد من المنظمات الديرية المتمايزة .

كانت جميع المنظمات الديرية الجديدة ترتبط بأشكال رومانسية شديدة العاطفة من المسيحية ، ولاسيما مذهب العذراء . فقد كان اتجاه الأنماط الديرية الجديدة يميل إلى الابتعاد عن المسيحية العقلانية ليتجه صوب نمط شخصى جداً من التجربة الدينية . هذا القصور أدى إلى فصل النظم الديرية الجديدة عن الإنجازات التى تمت فى مجال الفلسفة والعلوم على أيدى القساوسة فى الجامعات ، ولكنه أدى إلى إيجاد الإتساق بين مواقفهم الدينية والتيارات الرئيسية فى حركة التدين العلمانى ، وحقق السسترشيان ومقلدوهم درجة عالية من القبول الاجتماعى . ومع هذا فإنه بحلول سنة ١٢٠٠ كان قد بدأ يتضح أن إنسحاب السسترشيان

من العالم لم ينجح تماما ، ذلك أن المبالغة فى الإطراء على الرهبان البيض فى السنوات الخمسين الأولى من عمر تنظيمهم ، انقلبت إلى نقد يماثل ماعاناه الرهبان السود (البندكتيون) من قبل.

فقد كان البندكتيون يخسرون رضاء المجتمع باطراد ، خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومن السهل أن نعرف السبب فى ذلك . فقد قبعوا خلف أسوار أديرتهم المريحة يستمتعون بمواردهم الهائلة بحيث لم يقدموا للمجتمع شيئًا . كانوا موجودين ، كما ظلوا يجتذبون أعضاء جدد إليهم ، ولكن لم يكن بينهم كثيرون من أصحاب العقليات المستنيرة فى ذلك العصر . كما أن أهميتهم فى الخدمة الكنسية كانت تتضاءل ، ولم تعد لهم أية وظيفة اجتماعية أخرى . وهنا وهناك كانت ماتزال توجد إحدى حجرات النسخ scriptorium البندكتية وماتزال تنتج المخطوطات المصورة القيمة ، أو يوجد راهب بندكتى يكرس نفسه لكتابة تاريخ عصره ، مثلما كان يحدث فى الأيام الخوالى . ولكن البندكتيين عموما ، فى أواخر القرن الثانى عشر ، لم يعودوا يقدمون أية مساهمة فى الحضارة الأوربية ، وإذا مانظرنا إلى حقيقة أنهم لم يجتذبوا أكثر المتدنيين إخلاصا ، فلا غرو أن كثيرين من الرهبان السود قد وقعوا فى شباك خطيئة الملل accidia الرهيبة . ولدينا رواية تفصيلية واضحة عن أكبر وأغنى الأديرة البندكتية الإنجليزية ، وهو دير بيورى سان ايدموندز Bury St. Edmunds فى حولية جوسلين البراكليوندى Jocelin of Brakelond الذى كان سكرتيرا لمقدم الدير . ويبدو سامسون Samson ، مقدم الدير ، كما وصفه جوسلين فى صورة الإدارى المخلص الكادح ، ولكنه عموما لايهتم بالحياة الفكرية . ويلاحظ جوسلين أن مقدم الدير « يقدر الموظفين الأكفاء أفضل من الرهبان الطيبين » . ومع هذا فإن جوسلين يعتبر رئيسه زعيمًا ديريا بارزًا ![1] .

ولم يعان السسترشيان من التحجر بقدر ماعانوا من الفساد . فتاريخ السسترشيان المتأخر واحد من أكثر موضوعات التاريخ الوسيط وضوحًا . وبحلول سنة ١٢٠٠ كان المعاصرون على إدراك تام لهذه الحقيقة . فقد إتضح أن السسترشيان قد كشفوا عن الحقيقة المأثورة القائلة بأن لاشئ يفشل مثل النجاح . فقد تولوا قيادة الإنسحاب الديرى من العالم ، ولكن العالم تبعهم

---

١- كتاب جوسلين المسمى « أعمال سمسون الراهب » معروف جيداً للمهتمين بتاريخ كنيسة العصور الوسطى وقد تألق مؤلفه فى تصوير الشخصيات ، والكتاب يقدم مجالا واسعًا للدارسين الراغبين فى التعرف على أفعال كل من الحكومة المحلية والحكومة المركزية فى القرن الثالث عشر ، لأن جوسلين يقدم تفاصيل قيمة عن العلاقات بين الملك والدير من ناحية ، وبين الدير والمقيمين به من ناحية أخرى . انظر : بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى ( ترجمة وتعليق د . قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ١٩٧٩ ) ، ص ٢٠٣ .

ولم يكن بمقدورهم أن يقاوموا إغراءاته . وكانت الأديرة السسترشيانية قد تأسست فى مناطق حدودية غير مأهولة . ولكن بحلول سنة ١٢٠٠ صارت هذه المناطق من أكثر بقاع أوربا إزدهاراً . كما أنهم أحرزوا من التقدم فى زراعة أراضيهم ماجعلهم من أبرز ملاك الأراضى . وكانوا ممنوعين ، بحكم القسم الذى قطعوه على أنفسهم من استخدام الأقنان ، ولكنهم تحايلوا على روح هذا القسم بأن تركوا ضياعهم للسادة العلمانيين مقابل إيجارات عالية . وكثير من الأديرة السسترشيانية كونت لنفسها رؤوس أموال كبيرة ، واستخدمه رؤساء هذه الأديرة فى إقراض المال لأصحاب الأراضى ورجال الكنيسة الفقراء . ومع مشرق شمس القرن الثالث عشر كان السسترشيان قد صاروا مشهورين بسوء سمعتهم بسبب مهارتهم فى ميدان المال وتشابههم مع المرابين اليهود . وإنفصلت عن الرهبان البيض مجموعة غيورة ، أرادت العودة إلى المثل الأصلية التى أرساها ستيفن هاردنج ، ولكن الأغلبية كانت على استعداد لقبول الرفاهية على أنها نعمة من الله . وتميزت الفترة المتأخرة من تاريخ الرهبان البيض بالصراعات الداخلية المريرة ؛ وفى القرن السابع عشر كان الجناح التقشفى قد إنفصل ليكون نظام الترابيست Trappist [٢]. وقد كان فشل السسترشيان فى طرح شكل نظامى مُرضٍ للتدين راجعا لعدم وجود الإدارة الكافية . فقد نما النظام السسترشيانى بسرعة فائقة على حين كانت أداته الإدارية متواضعة للغاية . وكان المفروض فى مقدم الدير الرئيسى فى سيتو Citeaux أن يشرف عل شئون الأديرة التابعة ، ولكن هذا صار مستحيلا من الناحية العملية بسبب ضخامة عدد الأديرة السسترشيانية . هذه الإدارة القاصرة والنظام الناقص أتاح الفرصة لتسرب رجال فى صفوف الرهبان البيض ممن خانوا المُثُل الديرية التى أرساها مؤسسو النظام . وبالإضافة إلى ذلك ، كان من سوء حظ السسترشيان أنهم اختاروا أسلوبًا للحياة يتوافق تمامًا مع المطالب الاقتصادية فى القرن الثانى عشر . إذ أنهم نظموا أنفسهم كنظام ديرى دينى كرس نفسه للإنسحاب من العالم . ولم يكن لدى السسترشيان التنظيم أو الخبرة ، أو الزعماء الذين يتعاملون مع الموقف الذى ألفوا أنفسهم فيه مُلاكًا للأراضى ورأس المال ، فى ذات المناطق التى كانت مناطق انسحابهم الزاهد . ولم يكن لدى الرهبان البيض تراث أو تقاليد خاصة بالتعليم أو العقلانية الدنيوية ؛ إذ كانوا معادين للفكر ينقصهم ماكان البندكتيون يتمتعون به من معرفة بالحكومة والسيادة . وكان محتومًا أن يقعوا ضحية تورطهم فى العالم،

---

٢- نسبة إلى الدير الذى كان تأسس فى سولينى لاتراب Soligny - La - trappe سنة ١١٤٠م .

وانتهى انسحابهم من المجتمع ، الذى كان فصلا مجيداً فى تاريخ التدين فى القرن الثانى عشر ، بخليط من المأساة والمتناقضات .

كان فشل النزعة التطهرية فى القرن الحادى عشر والإنسحاب الديرى فى القرن الثانى عشر فى تحقيق أهدافهما من عوامل تشجيع ونمو وانتشار نمط جديد من النظام الدينى ، كان مزيجًا بين نقيضين من النظم الديرية . هذا الشكل الجديد المنظم من النسك أتاح لأتباعه حياة تقليدية تتسم بالزهد والفقر والطاعة ، كما أتاح لهم فى الوقت نفسه ، أن يعملوا فى العالم ويساهموا بشكل شخصى مباشر فى رفاهية المجتمع . وكانت التجارب المختلفة التى مر بها هذا النظام الديرى الجديد هى الخلفية التى برزت منها جماعة الأخوة الفرنسسكان والأخوة الدومينيكان فى القرن الثالث عشر ، وكان ظهورهما علامة على أهم مرحلة من مراحل تطور النظم الديرية الكاثوليكية منذ الدستور الذى وضعه سان بندكت . هذه النظم الجديدة العاملة فى العالم سرعان ما شكلت الوسائل التنظيمية التى أمكن بواسطتها استغلال النزعة التقشفية فى مواجهة التحدى الذى كانت تطرحه موجة التدين العارمة بين جماهير سكان المدن فى أوربا .

وكانت التجارب الأولية فى القرن الثانى عشر مع النوع الجديد من النظام الدينى قد تمت على أيدى الرهبان ونظم الرهبنة العسكرية . إذ أن القساوسة الكاتدرائيين فى العصور الوسطى كانوا مشهورين بسوء السمعة لإفتقارهم إلى الإخلاص . وحدث فى مطلع القرن الثانى عشر أن بدأ العمل بنظام الإيراد الكنسى ، الذى جعل لكل موظف كنسى دخلا ثابتًا ، مما زاد فى سوء الموقف . فقد جعل القساوسة فى الكاتدرائية مستقلين تماما عن الأسقف من الناحية المالية ، مما جعل وظائفهم مصدر إغراء لشباب النبلاء . وكان تأسيس نظام بريمونتر Premontre فى فرنسا ، فى عشرينيات القرن الثانى عشر ، محاولة لعلاج هذا الموقف . وكان الهدف من هذا النظام هو إيجاد نظام ديرى مفتوح للرجال والنساء الراغبين فى الحياة الديرية بحيث تكون لهم حرية العمل الدنيوى مثلما كان القساوسة الكاتدرائيون وغيرهم من رجال الكنيسة يفعلون ، ولهذا عرفوا باسم « القساوسة النظاميون Regular Canons » . وكان النظام البريمونتيرى فى بعض جوانبه مستوحى من نفس المبادئ التى أثرت على السسترشيان الأوائل . ذلك أن دير بريمونترى ، وهو الدير الأصلى لهذا النظام ، قد بنى فى مكان منعزل « كشفت عنه » العذراء . ولكن بينما كان الرهبان البيض يهربون من العالم ، كان القساوسة النظاميون نشطين فى المناطق الحضرية النامية فى حبهم لعمل الخير ، وأعمالهم

الخيرية ، والعلاجية ، كما نشطوا فى مجال العمل كقساوسة أبرشيين . فى القرن الثانى عشر ظهرت مجموعة أخرى من الرهبان العاملين فى العالم ، هم مجموعة القساوسة الأستينيون (الأغسطينيون ) ، الذين ذاع صيتهم ، وأحرزوا قصب السبق فى انجلترا خاصة .

كان نظام القساوسة النظاميون هو الإرهاص الذى مهد لمولد منظمات الأخوة الرهبان الكبرى التى تأسست فى القرن الثالث عشر : سواء من حيث شكلهم التنظيمى أو من حيث أهدافهم . ولكن لم يكن لهم التأثير الذى مارسه الدومينيكان والفرنسسكان على حضارة القرن الثالث عشر . ولم تقدر البابوية حتى مطلع القرن الثالث عشر قيمة النظم الديرية العاملة في المجتمع ، والمناطق الحضرية على نحو خاص ، حق قدرها . فقد كان من الممكن أن يكون للقساوسة النظاميين تأثير على أوربا القرن الثانى عشر ، يوازى تأثير الأخوة الرهبان فى الفترة اللاحقة ، ولكن عددهم لم يكن يكفى للوفاء بهذا الغرض . وكان بابوات القرن الثانى عشر إداريين مقتدرين ومخلصين ، ولكن الواضح أنهم لم يكونوا يشعرون بتيارات التدين بين العلمانيين ، ولم يطرحوا أى برنامج منظم لمواجهة المدلولات الثورية فى موجة التدين التى استشرت بين سكان المدن . وكان القساوسة النظاميون مضطرين إلى العمل بمساعدة ضئيلة للغاية من جانب زعماء الكنيسة ، ولم يحدث أن تفهمت روما أهمية هذا الشكل الجديد المنظم من النسك قبل بابوية إنوسنت الثالث فى العقد الأول من القرن الثالث عشر .

وربما كان من الممكن أن تستفيد الكنيسة والحضارة الأوربية من عدة جوانب لو أن جزءًا من الثروة والطاقة التى خصصت لدعم النظم الرهبانية العسكرية فى القرن الثانى عشر قد خصص لدعم القساوسة النظاميين . فقد كانت النظم الرهبانية الصليبية نتاجًا لمحاولة تطبيق روح الديرية الجماعية ونظمها فى خدمة الأهداف الصليبية . وكانت هى أكثر التعبيرات تطرفا عن التيار العسكرى الذى سرى فى مسيحية القرن الثانى عشر . إذ كان يبدو للناس كافة فى القرن الثانى عشر أنه ينبغى على من كرسوا أنفسهم للخدمة المقدسة أن يقتلوا الكفار وفاء بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم . وكانت النظم الرهبانية العسكرية تجتذب أولئك النبلاء الذين كانوا يريدون أن ينتهجوا الحياة الديرية والإستمرار فى إستغلال مهاراتهم العسكرية . وكان هناك على الدوام توافق بين النظام الديرى والنظام العسكرى ، كما كان يشار إلى الرهبان دائما على أنهم جنود المسيح . وفى النظم الرهبانية العسكرية اتخذ هذا المصطلح أهمية أكثر من مجرد المعنى المجازى .

تأسست أولى المنظمات الرهبانية الصليبية فى بداية الأمر كوكالات للدعاية ، أى لتقديم الخدمات الثانوية للصليبيين والحجاج ، ولكنها سرعان ماشكلت نفسها فى منظمات عسكرية قوية فعالة . وكان فرسان المعبد ( الأخوة الفقراء فى معبد أورشليم )[٣] قد بدأوا أصلا حوالى سنة ١١٢٠ بمجهود عدد قليل من الفرسان الفرنسيين لحماية الحجاج فى الطريق إلى الأراضى المقدسة . وقد شكل سان برنار أولئك الفرسان فى نظام ديرى جماعى مكرس للقتال فى الأراضى المقدسة . وكان هناك تقسيم ثلاثى لطبقات فرسان المعبد : الجنود الأرستقراطيون ، والقساوسة ، ثم الأخوة العلمانيون الذين ينحدرون من أصول طبقية دنيا . وكان على هؤلاء مساعدة الفرسان النبلاء كتابعين وسائسي خيول . أما فرسان المستشفى ( فرسان القديس حنا فى أورشليم )[٤]، فكانوا أكبر منافسى المعبديين . كان هدف فرسان المستشفى الأصلى هو القيام بالخدمة الطبية بين الصليبيين ، ولكنهم سرعان ماتحولوا إلى منظمة رهبانية عسكرية ، وتنافسوا مع فرسان المعبد على المكانة والهيبة والنفوذ فى شئون مملكة بيت المقدس اللاتينية . وكانت الحروب الإقطاعية الداخلية التى نشبت بين الجنود الديريين من عوامل ضعف الدولة الصليبية فى فلسطين .

ويكشف تاريخ الداوية اللاحق عن إستسلامهم لمغريات المال التى أفسدت النظام السسترشيانى. ففى خضم النمو الاقتصادى فى القرن الثانى عشر كان من الصعب تماما ألا تجنى مجموعة قوية ثروة لنفسها ، فإذا ماكانت الهيئة التى تضم هذه المجموعة مكرسة للخدمة الدينية أيضا ، كانت الهبات تنهمر عليها من جميع الجهات . ونتيجة للنجاح الكبير الذى حققه الداوية بزيادة ميزانيتهم ، تورطوا أكثر من ذى قبل فى أساليب تكوين رأس المال ونقله. وبحلول القرن الثالث عشر ، صاروا هم أعظم رجال البنوك فى أوربا ، وكانت البابوية وملوك فرنسا هم عملاءهم . وفى القرن الثالث عشر لم يقتل الداوية كثيراً من المسلمين ، وإنما صاروا خبراء فى وسائل زيادة رأس المال ، وجعلوا مقر رئاستهم فى باريس . وكان أن تحول الموقف الشعبى تجاه الداوية من الإعجاب الحار إلى الإستخفاف والغيرة ، ولكن ذلك لم يكن يقلق زعماء النظام فيما يبدو .فقد إحتجوا بأن نشطاتهم المصرفية خدمة للرب، وبأنهم يقومون

---

٣- يعرفون فى المصادر التاريخية العربية باسم « الداوية » .
٤ - عرفتهم المصادر العربية باسم الاسبتارية .

بها فى إخلاص وبرح زاهدة . وتاريخ الداوية يعتبر حالة وثائقية نكشف عن كيفية تسخير الدين فى نمو الرأسمالية .

وإذا كانت نزعة التقشف المنظمة ، كما يمثلها فرسان الداوية ، قد إنتهت بتأسيس بنك ، فإن منظمة الفرسان التيوتون ، التى تأسست سنة ١١٩٠ ، كانت هى الأصل الذى بزغت منه النزعة البروسية Pryussianism ، على حد تعبير المؤرخ الألمانى الوطنى هنريخ تريتسشك Heinirich Treitchke الذى عاش فى القرن التاسع عشر . ففى زمن الحملة الصليبية الثالثة كون بعض السادة الاقطاعيين الألمان منظمة رهبانية عسكرية للقتال فى الأراضى المقدسة . ولكنهم فى غضون ثلاثين سنة نقلوا منطقة عملياتهم من الشرق الأوسط إلى حدود ألمانيا الشرقية ، وقيض لهم أن يلعبوا الدور الرئيسى فى الزحف شرقا Drang nach Osten أى التحرك صوب الشرق فى الأراضى السلافية ، وهى حركة كانت قد بدأت قبل قرن من هذا التاريخ . وكانت المثل الروحية الأصلية لهذه المنظمة موجهة لخدمة الطموح السياسى . فقد كان الفرسان التيوتون يهاجمون المسيحيين والوثنيين فى شرق أوربا دونما تمييز . فقد كانوا أساسا عبارة عن دولة فى مسوح منظمة رهبانية . لكن شكلهم الديرى هو الذى وفر لهم الكفاءة الجماعية والغيرة المتعصبة ، كما ساهم إلى حد كبير فى تلك السلسلة الطويلة من الإنتصارات التى أحرزوها . فقد استولوا على بروسيا من السلاف وحكموها حتى أخريات القرن الخامس عشر . وإندفعوا داخل ليتوانيا ، وايستونيا ، وروسيا حيث أوقف تقدمهم فى النهاية بعد سنة ١٤٠٠ بقليل . وكان الفرسان التيوتون يشكلون واحدة من أنجح المنظمات الرهبانية العديدة التى وجدت فى القرن الثانى عشر . ذلك أنهم ظلوا أوفياء لقسمهم متمسكين بنظامهم كما أنهم كانوا جنوداً وإداريين أكفاء على مدى ثلاثة قرون تقريبا .

ومع السنوات الأخيرة من القرن الثانى عشر ، ونتيجة لما قام به القساوسة النظاميون والنظم الرهبانية العسكرية ، كانت فكرة وجود رهبان يعملون فى العالم قد باتت فكرة شائعة ومقبولة . والحقيقة أن العقود الأخيرة من هذا القرن شهدت مولد نظم رهبانية غامضة قامت على أساس مبدأ خدمة المجتمع مع الحفاظ على حياة الزهد . ففى سنة ١١٨٩ قام فى فرنسا ، مثلا ، نظام يسمى « بناة القناطر » Bridgebuilders للمساهمة فى رفاهية البشر عن طريق تحسين المواصلات . وقد إنزعج البلاط البابوى من توزع النزعة التقشفية وتفرقها فى كثير من النظم الرهبانية المتمايزة . وفى مجمع اللاتيران الرابع فى سنة ١٢١٥ صدر مرسوم بابوى

يقضى بالحد من التراخيص لقيام منظمات رهبانية جديدة ، ولكن البابوية سرعان ماأدركت ضرورة تأسيس نظام الرهبان الكاثوليك الجديد لمواجهة التحديات التى فرضتها موجة التدين بين سكان المدن ولمواجهة الهرطقات الشعبية . وكانت المساهمة الأصلية من جانب المنظمات الديرية فى القرن الثانى عشر هى التوفيق مابين التطرف التطهرى والتطرف الديرى وتوجيه النزعات الروحية فى إتجاه خدمة المجتمع المسيحى . من هذه الخلفية نبتت المنظمات الدينية التى كانت أمراً لاغنى عنه فى صراع الكنيسة من أجل الإحتفاظ بزعامتها للحضارة الأوربية.

٣ - أبعاد الهرطقة الشعبية :

كان العداء ضد رجال الكنيسة ومعاداة السلطة ألكنسية هما الصيغتين اللتين كانتا تهددان بتقويض المركز التقليدى للكنيسة فى مجتمع العصور الوسطى خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وهما الصيغتان اللتان أجبرتا البابوية ، فى عهد إنوسنت الثالث وخلفائه ، خلال العقود الأولى من القرن الثالث عشر ، على خوض صراع يائس لإعادة توطيد الزعامة الكنسية . ذلك أن نزعة معاداة الإكليروس مهدت الأرض لظهور نزعة معاداة السلطة الكنسية، ولكنهما كانتا نزعتين تمثلان موقفين ومذهبين مختلفين . فقد كانت نزعة معاداة الإكليروس anticlericalism نقدا لرجال الكنيسة لعدم قيامهم بواجباتهم التى تقتضيها مناصبهم ، لم يكن هذا خطأ فى العقيدة . أما معاداة السلطة الكنسية antisacerdotalism فكانت تنكر على رجال الكنيسة ما لمناصبهم من سلطة ، وتزعم أن الخدمة الكنسية التى يقومون بها ليست صالحة . هذا الرأى ، بطبيعة الحال يمثل الهرطقة الدوناتية ، كما يتناقض مع الأسس التى تنبنى عليها الكاثوليكية .

والإتجاه العام بين مفكرى العصور الوسطى لتقريب مفاهيم القديس أوغسطين عن مدينة الرب إلى أذهان العامة ، وميلهم إلى القول بأن الكنيسة تمثل المجتمع السماوى - هذا الإتجاه هو الذى خلق القاعدة الفكرية التى قامت عليها نزعة معاداة الكنيسة . لأنه لو كانت الكنيسة هى مدينة الله ، فلابد أن يكون زعماؤها أكثر الناس قدسية ونقاء ، ولابد أن تقوم وزارة المسيح على أساس من القدسية الشخصية ، وليس على أساس السلطة الرسمية غير الشخصية التى يتمتع بها القساوسة .

وكان من الممكن لنزعة معاداة رجال الكنيسة أن تؤدى إلى نمو الحركات المعادية لسلطة الكنيسة ، كما حدث فى القرن الثانى عشر . ذلك أن النقد المستمر والمسهب للخصال

الشخصية للهيئة الكنسية والإصرار على الفصل بين مثلهم العليا وممارساتهم مالبث أن أثار الشكوك فى عقول بعض الأتقياء حول حقيقة أن يكون القساوسة وزراء الرب . بيد أنه ينبغى التأكيد على أن هذا النقد الذى وجه إلى رجال الأكليروس لكسلهم وفسادهم لم يكن هرطقة بحد ذاته . والحقيقة أن مثل هذا النقد قد يكون هو التمهيد الضرورى لعملية إصلاح الكنيسة وإحيائها . وهكذا يمكن أن يكون هناك رجلان يتحدثان عن مساوئ الأكليروس، ولكن موقف كل منهما يختلف عن موقف الآخر تماما . فأحدهما يريد من رجال الكنيسة أن يمارسوا ما لوظيفتهم من سلطة بشكل يتوافق مع مثل الكنيسة العليا ، على حين ينكر الآخر أن يكون لرجال الكنيسة أية سلطة دينية . فالأول يمثل ممارسة نقدية ، أما الثانى فيمثل الإنكار وعدم الإعتراف . وقد دوت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر أصوات مجلجلة تهاجم الكنيسة ، وجابهت الكنيسة مهمة صعبة هى تقييم هذه الانتقادات ، والتمييز بين أولئك الذين يريدون قساوسة كاثوليك أفضل ، وأولئك الذين يريدون تدمير الكنيسة الكاثوليكية ، لكى يضعوا مكانها أنماطا جديدة من الجماعات الطائفية الدينية .

ومع كل عقد يمضى فى القرن الثانى عشر ، كان النقد ينهال من جميع الأرجاء على سلوك الكنيسة بشكل أكثر كثافة . وجاءت بعض الانتقادات القاسية جداً من داخل الكنيسة نفسها. فقد شن الرهبان هجوما على القساوسة واتهموهم بالفساد والمادية . وزعم القساوسة أن الرهبان أنانيون ولافائدة منهم ؛ كما أن المنظمات الديرية المتنافسة أخذت تكيل لبعضها البعض انتقادات تحط من شأنها جميعا . فقد أدان سان برنار وتلاميذه الحياة الناعمة التى كان الأمراء الكنسيون يحبونها بأقسى العبارات كما أن البابا إنوسنت الثالث وبخ كبار الكنسيين فى جنوب فرنسا ونعتهم بأنهم « **كلاب خرساء لم يعد بمقدورها أن تنبح** » . وفى العقود الأخيرة من القرن الثانى عشر شاع بين الشعراء ، وطلبة الجامعات ، وكتاب البلاط تأليف الهجائيات التى تدين رجال الكنيسة بالطمع والفساد . وكان بلاط أى ملك يعانى المتاعب مع البابوية ، مثلب ملوك الهوهنشتاوفن ، ينسب إلى البابا والكرادلة أشنع الصفات وأقبحها . وقد أيد مغنى البلاط « فالتر فون دير فوجيلفد » سيده وراعيه الهوهنشتاوفنى بتصوير البابوية كذئب يتضور جوعا ، ولم يتورع هذا المغنى عن تسخير الأساطير القديمة القائلة بأن سلفستر الثانى كان ساحراً . ومنذ القرن الثانى عشر كان كل فرد تقريبا خسر قضية فى بلاط البابا فى روما يعزى هذا إلى حب الكرادلة للنهب ؛ بل أن سكرتير سان آنسلم ، أسقف كانتربورى الملائكى ، زعم مثل هذا الزعم فى سنة ١٠٩٥ . وكان المندوبون

البابويون مجالا مفتوحا لكل أشكال النقد فى مناطق شمال الألب لأنهم كانوا من الأجانب الإيطاليين الذين يتدخلون فى شئون الكنائس الإقليمية بشمال أوربا . وقد صُور المندوبون الإيطاليون فى صورة المخادعين الكذابين الذين لاتحكمهم المبادئ ، فقد أكد أحد الكتاب الإنجليز أن أحد الكرادلة من المندوبين البابويين كان به ميل إلى معاشرة بنات الهوى . والصورة التى رسمتها قصص بوكاشيو Boccaccio [٥] فى القرن الرابع عشر للقسيس كرجل جاهل ، عبيط ، شهوانى ، خليع - هذه الصورة يمكن أن نجدها فى أدب سكان المدن فى القرن الثالث عشر ، وهو الأدب الذى يعكس بدوره الإنطباعات التى ترد فى أذهان الكثيرين من سكان المدن المتعلمين عن أساقفتهم وقساوستهم قبل سنة ١٢٠٠ .

ومن كل هذه الأدلة الأدبية يمكن لنا أن نكون أشد الصور سواداً عن رجال الكنيسة فى القرن الثانى عشر . وهذا مافعله المؤرخ كولتون G.G.Coulton ، الذى يعادى الكنيسة الكاثوليكية عداء وحشيا ، فى عشرينيات القرن العشرين ، فقد حاكم رجال الأكليروس فى العصور الوسطى لفشلهم المزرى فى الإرتفاع إلى مستوى وظيفتهم . ولاشك فى أن هناك دليلا دامغا على مثل هذه الإدانة . وتقدم سجلات مفتشى الأساقفة فى أسقفياتهم ، والتى صارت أمراً مطلوبا بعد سنة ١٢١٥ م ، الدليل الوثائقى على كافة الممارسات الخاطئة التى

---

٥ - جيوفانى بوكاشيو Giovani Boccaccio ( ١٣١٣ - ١٣٧٥ ) كاتب إيطالى ولد بباريس لأسرة من التجار الفلورنسيين . وبعد موت أمه عاد أبوه إلى فلورنسا حيث تزوج أمرأة أخرى وصحب معه بوكاشيو الذى لقى معاملة سيئة من زوجة أبيه . وكانت أول قصص كتبها بوكاشيو تثنى على أمه وتصف متاعبه فى طفولته . وكان أبوه يريد أن ينخرط فى زمرة التجار ، وذهب إلى نابولى سنة ١٣٢٨ لدراسة القانون ودنيا رجال الأعمال . ولكن بوكاشيو كان يمضى معظم وقته فى صحبة العلماء والكتاب ، وربما كان على اتصال بالشاعر شينو البستوى Cino of Pistoia وفى سنة ١٣٣٦ قطع علاقته بأبيه وكرس نفسه للأشتغال بالأدب. وكانت قصة حبه مع ماريا اكوينو Maria DÁquino الإبنة غير الشرعية لروبرت أنجو ملك نابولى إلهاما لأعماله الشعرية التى تكشف عن تأثره بالشعراء الرومان . وخلال الفترة من ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٤٠ كان يتردد كثيراً على القصر الملكى . فى سنة ١٢٤٠ صالح أباه وعاد إلى فلورنسا حيث تبوأ مكانة مرموقة بوصفه مثقفا وكاتبًا . وعين فى مجلس المدينة وأرسل فى بعثات دبلوماسية ، وفى سنة ١٢٤٨ بدأ العمل فى أهم مؤلفاته Decameron الذى أتمه فى سنة ١٣٥٣م . وخلال هذه الفترة تغيرت شخصية بوكاشيو وسلوكه تماما ، فقد صار رجلا متدينا وهجر الكتابة وقرض الشعر . بل أنه أراد أن يحرق كل مؤلفاته الخاطئة . ولكن صديقه بترارك منعه من ذلك . ولم يعد بوكاشيو أبداً إلى الكتابة باللهجة المحلية . ومنذ سنة ١٣٦٣ ألف كل كتبه باللاتينية . ومات سنة ١٣٧٥ فى بلدة قريبة من فلورنسا . وخلف مؤلفات عملية كثيرة لاسيما فى التاريخ . وانتقد رجال الكنيسة وخلص إلى أن الناس ينبغى أن يعتمدوا على تقديرهم وحكمتهم . انظر :
T.C. Chubb , The life of Giovani Boccaccio (1930) .

يمكن تصورها من جانب القساوسة والرهبان على حد سواء . وعلى الجانب الآخر من القضية ، نرى حقيقة الإنجازات الضخمة والحيوية التى تمتعت بها كنيسة القرن الثانى عشر ، ونعم بها مئات من رجال الكنيسة فى بقاع أوربا ، سواء من الأساقفة ومقدمى الأديرة أو من أصغر الرهبان والقساوسة الأبرشيين ، الذين نعرف أنهم كانوا مقتدرين ومتحمسين ، بل أنهم أنكروا ذواتهم فى سبيل إنجاز واجباتهم . وفى بحثنا عن السبب فى ظهور نزعة معاداة السلطة الكنسية بهذا الشكل الحاد فى أواخر القرن الحادى عشر ، نجد دليلا قويا على أن التغير الاجتماعى والفكرى هو مفتاح المشكلة ، وليس ماحدث من تدهور فى أخلاقيات رجال الكنيسة .

ففى سنة ١٢٠٠ كان عدد المخلصين فى الهيئة الكنسية أكثر من ذى قبل ، ولكن المستوى الذى كان العلمانيون يتوقعونه من قساوستهم كان أعلى من ذلك المستوى الذى كان مقبولا فى منتصف القرن الحادى عشر ، ولم يكن لدى الكنيسة العدد الكافى من الأفراد للوفاء بهذه المطالب . وفى المناطق الحضرية على نحو خاص ، حيث وصل التعليم والتدين بين العلمانيين إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، كانت الكنيسة تضطر إلى إرسال أفضل القساوسة تعليما وأشدهم تقوى ، ولكن مثل هؤلاء كان عددهم محدوداً ، ويمكن أن ترجع العلاقة بين النمو الرأسمالى والمواقف الدينية ( التى نسبها ماكس فيبر إلى القرن السادس عشر ) إلى القرن الثانى عشر دون تردد . فقد كان التاجر أو الحرفى فى القرن الثانى عشر ، بالضرورة ، يحس بمهنته إحساسا قويًا للغاية . إذ كان يعرف أنه لو لم يحقق الإمكانيات التى تطرحها المهنة التى اختارها لنفسه ، فإن مصيره سيكون التردى فى هوة الفقر البائس ، وكان هذا يجعله غيوراً جداً من الطوائف الأخرى فى المجتمع ، وهى طوائف لم تكن مضطرة إلى الاعتماد تماما على جهودها الذاتية – ولم يكن هؤلاء هم النبلاء فقط ، وإنما كان منهم رجال الكنيسة أيضا . لقد كان البورجوازى فى العصور الوسطى مشاغبًا لايعرف التسامح ، كما كان يميل إلى الحكم على الآخرين بمقاييس حياته هو . كما كان يشعر أنه يجب على كل من رجال الكنيسة أن يعمل لكسب عيشه ، وأنه لايجب أن يتمتع رجل الكنيسة بسلطة المنصب الكنسى وامتيازاته مالم تكشف حياته الشخصية عن جدارته بهذا حقا . فقد كان من الضرورى للبورجوازى أن يكون من رجال الأعمال على حين ينبغى على القسيس أن يكون قديسا : إذ يجب على كل إمرئ أن يفى بما للمهنة التى اختارها لنفسه من إلتزامات . ولكن البورجوازى حين كان يطبق

هذا المقياس الحديدى من العقلانية على العالم من حوله ، كان يكتشف أن الكثرين من رجال الكنيسة لم يكونوا يؤدون عملا طيبا ، بل إنهم فى الحقيقة ربما كانوا أقل جدارة بمناصبهم من البورجوازى نفسه . وكان هذا يثير فيه مشاعر السخط والغضب على القساوسة .

وتمثلت غلطة البابوية فى القرن الثانى عشر فى أنها لم تكيف نفسها بالسرعة والحيوية اللازمة مع النتائج البعيدة المدى للتغير الاجتماعى ، ولم تتمثل هذه الغلطة فى سماحها بالفضائح المدوية دونما قصاص . فقد كانت الكنيسة ، عند نهاية القرن الثانى عشر ، ماتزال منظمة على أساس العمل فى المجتمع الريفى أساسا ، وكانت محاولاتها للوفاء بالحاجات الدينية فى مناطق أوربا الحضرية تتسم بالفتور أحيانا وبالسطحية أحيانا أخرى . وهو موقف أدى بالبورجوازيين ، ولاسيما فى المدن الثرية ذات الكثافة السكانية فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا ، إلى البحث عن حل خاص لمشكلاتهم الدينية . فقد كانوا ينشدون العقيدة التى يمكن أن تتيح لكل منهم تجربة دينية شخصية وعميقة وتربطهم برباط عاطفى مع المسيح والعذراء والقديسين . كما كانوا قد ساهموا فى تشييد البنايات الكاتدرائية الفاخرة فى كافة المدن الأوربية لأنهم كانوا يريدون مكانا للعبادة يشعرون فى رحابه بأن رباطا قويا يشدهم إلى الروح القدس . ولكن عدداً كبيراً جداً من القساوسة الذين كانوا يعملون فى المناطق الحضرية لم يكونوا قادرين أو راغبين فى إتباع هذا المدخل الشخصى الخالص إلى الديانة المسيحية . ذلك أن النوع القديم من قس الكاتدرائية أو قس الأبرشية كان يعتقد أن مهمته كراع مسيحى ينبغى أن تقتصر على القيام بالطقوس المقدسة ، والاستماع إلى الاعترافات ، وإنجاز المهام المتعلقة بالقداس والخدمة التقليدية . ولم يكونوا مستعدين لإلقاء خطب ومواعظ ملهمة ، من النوع الذى يخدم البورجوازيين كمقوم أساسى لغذائهم الدينى ، ومورد رئيسى لإرشادهم فى خضم الحياة القاسية ، المعقدة المتشنجة التى عاشتها مدن العصور الوسطى .

لقد كان الوسط الاجتماعى والدينى فى شمال إيطاليا ، وأراضى الراين ، وجنوب فرنسا قد أفرز بالفعل مبشرين جوالين ذوى سمعة قديسية ، كانوا فى القرن الحادى عشر يلقون مواعظهم على أسماع البوراجوازيين ، ويقدمون لهم الأسلحة الأخرى التى يخوضون بها التجربة الدينية الشخصية ، وهو مالم يكونوا يجدونه فى الخدمات الكنسية المعتادة . وبعد سنة ١١٥٠ بدأ هذا النوع من الزعماء الروحيين الشعبيين يمارسون تأثيراً متصاعداً ويجتذبون أعداداً كبيرة وقوية من الأتباع . وكانت الكنيسة بطيئة جداً فى إدراكها للمخاطر الكامنة فى

مثل هذا الموقف غير المألوف . وظهر المبشرون الجدد كمجرد استمرار ومتابعة للنزعة الدينية الجديدة التى عبر عنها داميانى وبرنار . ولكن مع كل عقد يمضى كان يتضح أكثر أن كثيرين من أولئك الزعماء الشعبيين يتخطون هذه الحدود . ذلك أنهم كانوا يدعون إلى مذاهب معاداة الأكليروس وإلى مذهب معاداة السلطة الكنسية ، وهى مذاهب أدينت فى القرن الرابع فى الهرطقة الدوناتية التى أدانتها الكنيسة مرة أخرى ، على الرغم من إحيائها المؤقت على يد الكردينال هيومبرت سنة ١٠٥٩م ، ثم مرة أخرى بعد سنة ١٠٨٠ وكان البورجوازيون تواقين إلى سماع القديسين الجوالين الذين كانوا يزعمون أن قدسية الحياة والإخلاص للرب هو الذى يحدد أعضاء وزعماء جماعة المسيحيين وكان هذا المذهب يبعث السرور فى نفوس سكان المدن الغيورين الذين كانوا يشعرون أنهم متفوقون فى حالات عديدة على قساوستهم فى الذكاء والإخلاص . وفى الوقت نفسه أعطى هذا المذهب مركز الزعامة فى الجماعات المنشقة الجديدة للمبشرين الجوالين . وكانت الكنيسة اللاتينية ، بطبيعة الحال ، قد جابهت مذاهب انشقاقية قبل ذلك فى حالات منفردة ، ولكن منذ الهرطقة الدوناتية فى القرن الرابع لم يعكر صفو الكنيسة اللاتينية هرطقة لها هذا العدد الكبير من الأتباع ، فضلا عن ارتباطها بالسخط الاجتماعى والفكرى المتأجج فى صدور الجماهير . ولم تكن الكنيسة قد اكتشفت الوسيلة التى تعالج بها هذا الخطر المحدق بوحدة الكنيسة وسلطة القساوسة حتى نهاية القرن الثانى عشر .

كانت نزعة معاداة السلطة الكنسية تتطلب ، بحكم طبيعة مذهبها ، ديانة معينة أكثر مما تتطلب ديانة كونية . وكان هناك عدد من الطوائف المخلصة لزعمائها القديسين ، إلا أن التعاون فيما بينها كان قليلا أو معدوما . وكانت الطائفة الوحيدة ، من بين الطوائف المعادية لسلطة الكنيسة فى أواخر القرن الثانى عشر ، التى اتخذت طابعا أكبر من مجرد الطابع المحلى المعزول هى طائفة الوالدنسيين Waldensians . وقد أخذوا اسمهم عن بطرس والدو Peter Waldo الذى كان تاجراً قديسا من أهالى ليون فى جنوب شرق فرنسا . وقد كانت ليون وضواحيها منذ زمن بعيد قد اشتهرت بالزعماء النساك المتطرفين . فبالقرب من ليون تأسست فى أربعينيات القرن الحادى عشر أول الأديرة المعادية للنظام الكلونى فى منطقة شمال الألب . وكان كبير أساقفة ليون فى ثمانينيات وتسعينيات القرن الحادى عشر هو أكثر أتباع البابا جريجورى السابع إخلاصا فى شمال أوربا . وقد أطلق والدو وأتباعه على أنفسهم اسم رجال ليون الفقراء . ولم يكونوا يدعون إلى مذهب معاداة السلطة الكنسية ، ورجال الكنيسة،

وإلى المذهب الدوناتى فحسب وإنما كانوا يدعون أيضا إلى نظرية الفقر الحوارى للكنيسة ، وهى النظرية التى تركت تأثيرها فيما بعد على سياسة البابا الثورى باسكال الثانى فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر . ولم تكن الكنيسة التى ينشدها الوالدنسيون هى المؤسسة الكاثوليكية السائدة وإنما هى كنيسة تضم رفقة روحية خالصة من القديسين والقديسات الذين جربوا الحب الإلهى والرحمة السماوية . وقد انتشرت الطائفة الوالدنسية فى مدن الشمال الإيطالى حيث كان يوجد الشطر الأكبر من أتباعها فى أخريات القرن الثانى عشر . لقد كان أتباع والدو هم أسلاف طائفة البروتستانت الذين طرحوا ، وللمرة الأولى ، طرحا واضحا المذاهب التى اعتنقتها أكثر طوائف البروتستانت ثورية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . فقد كانت مذاهبهم تتضمن ذلك الخلط بين الحرية والسلطة ، والتجربة الدينية الشخصية ودستور القديسين ، وهو الخليط الذى يميز أتباع مذهب إعادة التعميد An-abaptists الذين ظهروا فى القرن السادس عشر ، وطوائف ( التطهرين ) Puritans الإنجليز الذين ظهروا فى القرن السابع عشر ليكونوا آخر أتباعهم . وعلى الرغم من أن الوالدنسيين قد طردوا فيما بعد من مدن الشمال الإيطالى بواسطة الكنيسة ، فإنهم بقوا فى أعداد صغيرة جداً فى قرى جبال الألب حتى القرن السابع عشر ، وهم أولئك « القديسون المذبوحون » الذين يتحدث عنهم جون ملتون John Milton فى قصيدته الشهيرة .

وقد تأكدت النغمة الأخروية المرتبطة بسفر الرؤيا فى الحركات المعادية للسلطة الكنسية واتسع مضمونها بفضل الأفكار الفلسفية التى طرحها مقدم دير مغمور فى جنوب إيطاليا هو يواقيم الفلورى Joachim of Flora قرب نهاية القرن الثانى عشر . وقد حظيت مقالاته بالرواج السريع . فقد سار يواقيم على نهج المقترحات التى كان سان برنار قد طرحها ، فإدعى أن العالم قد دخل فعلا فى زمن المسيح الدجال ، الذى يسبق مباشرة ، البعث الثانى للمسيح ويوم القيامة . ولكن بينما قنع برنار بأن يدين كبار الأساقفة بأنهم أسرى الشيطان ، جعل يواقيم من البابوية نفسها المسيح الدجال . هذا المذهب الثورى ، الذى قلب نظرية سلطة الكنيسة رأسا على عقب ، برهن على شعبيته الكاسحة لدى كافة الحركات الهرطقية بما فى ذلك زعماء البروتستانت فى القرن السادس عشر . فقد سهل على المنشقين إدانة الكنيسة وأتاح لهم أن يطلقوا لأنفسهم العنان فى التعبير عن كراهيتهم للقساوسة الكاثوليك . وكان بوسع هذا المذهب وأتباعه أن يستبعدوا حتى أكثر فعال البابوية حمية وأخلاقية على أساس

أنها مجرد حيل خادعة للمسيح الدجال . واستمد أتباع اليواقيمية من قناعاتهم الأخروية القوة للصمود فى مواجهة أية هجمة مضادة من جانب الكنيسة . فقد تصوروا أنهم وحدهم الأتباع المخلصين للسيد المسيح الذى سينتصرون عند قدومه المظفر . لقد كانوا رجالا ذوى قناعات لم يكن ممكنًا زحزحتها تحت دعوى التقاليد ، أو العقل ، أو التريث .

ويظهر المضمون المزدوج لأفكار يواقيم بشكل أقوى ومطلق فى الحركة الهرطقية التى كسبت عددا هائلاً من الأتباع فى جنوب فرنسا ؛ وهى ديانة الكاتارى Cathari ( الأطهار أو القديسون ) أو الديانة الألبيجنسية ( نسبة إلى مدينة ألبىAlbi فى تولوز حيث تمركزت قوة الهراطقة ) ، أو مانوية العصور الوسطى ، كما يطلق عليها أحيانا . هذه الهرطقة ، التى كانت أشهر هرطقات القرنين الثانى عشر الثالث عشر وكانت تمثل الخطر الأكبر على وحدة المسيحية اللاتينية ، تتسم أصولها وتعاليمها الدقيقة بغموض محير كان محل نقاش العلماء ونزاعهم . ومالبثت كنيسة القرن الثالث عشر أن قضت عليهم قضاء تامًا بحيث أن كل مانعرفه عن الكاتارى تقريبا مستمد من الأوصاف التى نعتهم بها أعداؤهم ، ومن سجلات محاكم التفتيش الكنسية التى حاكمتهم وأدانتهم . والحقيقة المحورية هى أنه عند نهاية القرن الثانى عشر كان البورجوازيون الأثرياء ، وكثيرون من نبلاء تولوز والبروفانس ، وربما أيضا كونت تولوز وعائلته ، قد انضموا إلى كنيسة هرطقية تتشابه كثيراً مع مانوية القرن الرابع التى كان سان أورغسطين قد اعتنقها فترة ثم أدانها بأقسى العبارات حين أعتنق المسيحية . وكان كثيرون من أهل جنوب فرنسا ممن لم ينضموا فعلا إلى الكنيسة الألبيجنسية معجبين بزعمائها القديسيين على مايبدو ؛ ومن المحتمل جداً أن كونت تولوز كان من بين هؤلاء . وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا ثروة هذا الجزء من أوربا ، ومدى حيويته الثقافية ، لأدركنا أن تباعده المتزايد عن الكنيسة الكاثوليكية كان يهدد بحدوث إنقسام بالغ الأهمية فى العالم المسيحى . لقد كانت سيطرة الألبيجنسيين على جنوب فرنسا تعتبر فى نظرية البابوية وغيرها من القوى المسيحية فى كل مكان ، سرطانا يستشرى فى جسد الحضارة الأوربية ويجب اجتثاثه من جذوره أيا كان الثمن .

وأصول الحركة الكاثارية ليست معروفة على وجه اليقين . فقد ظهرت هذه الحركة على استحياء فى مدن الشمال الإيطالى وجنوب فرنسا . واختفت فى شمال إيطاليا ، ولكن أتباعها ازدادوا فى جنوب فرنسا بمعدل بطئ ، وبعد سنة ١١٥٠ برزت الحركة سافرة لكى

تتحدى الكنيسة بصفاقة ونجحت فى هذا . فقد كان قساوسة جنوب فرنسا مشهورين بعدم كفائتهم وفسادهم ؛ وهو موقف أتاح التربة الخصبة لنمو الهرطقة الشعبية ، كما كشف عن عقم الجهود السطحية التى بذلت لوقف نمو الكنيسة الألبيجنسية . ولابد أن ندين بابوية القرن الثانى عشر بتهمة التجاهل الطويل المدى للخطر الألبيجنسى ، وبتهمة التردد والرجعية فى علاج الموقف ، وهو العلاج الذى يتمثل ببساطة فى الدعوة ضد الكاثارى . وإن الحركة هرطقية تضرب مثل هذه الجذور العميقة فى المجتمع لايمكن القضاء عليها بأفصح المواعظ والخطب التبريرية . ومع هذا فإن ظهور الكنيسة الهرطقية الشعبية على مثل هذا النطاق الواسع كان أمراً جديداً في المسيحية اللاتينية . ولم يدرك القانونيون المحنكون الذين كانوا يسيطرون على الحكومة البابوية حتى سنة ١٢٠٠ أنه لابد من استخدام أساليب جديدة وجذرية للقضاء على الهرطقة الألبيجنسية .

لقد أكد ستيفن رنسمان وغيره من العلماء البارزين على أن هناك خطأ مباشراً من الأفكار يمتد القهقرى عبر الزمان ليربط الكاثارى فى القرن الثانى عشر بالمانويين فى القرن الرابع . ويقول هذا الرأى بأنه بينما اختفت المذاهب المانوية فى العالم اللاتينى فى القرن الرابع ، فإنها غزت الإمبراطورية البيزنطية من مكانها الأصلى فى فارس لتصل إلى بلغاريا فى القرنين العاشر والحادى عشر . والواقع أنه كانت هناك طائفة من المانويين فى البلقان تسمى البوجوميلين Bogomils ، وقال البعض إن مذاهب هذه الطائفة انتشرت فى شرق أوربا على طول الطرق التجارية فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر . وهذا رأى مقنع عل الرغم من عدم وجود الدليل الوثائقى الذى يدعمه . وعلى أية حال ، كان من الممكن استقاء اللاهوت الثنوى ، الذى هو جوهر المانوية ، من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى كانت تسيطر على الاتجاهات الفلسفية واللاهوت فى العصور الوسطى الباكرة . ويؤمن المانويون بأن هناك إلهين ، إله الخير وإله الشر ، إله النور وإله الظلام ، وهما يتصارعان فى سبيل الفوز فى العالم . والإنسان خليط بين الروح الخيرة والمادة الشريرة . والكاثارى هم الزهاد « الكاملون » الذين حققوا لأنفسهم روحانية خالصة . أما أولئك الذين لايحيون حياة نسك خالصة فيمكنهم، مع هذا ، أن يضمنوا لأنفسهم الخلاص عن طريق الاعتراف بزعامة الكاثارى . وهؤلاء هم « السماعون » للعقيدة الحقيقية يتلقون طقسا على فراش الموت يمسح عنهم كل ذنوبهم السابقة، ويتيح لأرواحهم فرصة استعادة اتحادها بالروح القدس . ومن الممكن أن نصل إلى

هذا اللاهوت عن طريق صياغة محورية للفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، وهى صياغة تصور الرب فى صورة نافورة تفيض منها الروح التى يعود إليها الصوفيون من خلال التطهر . ومع افتراض أن إمكانية الحصول على رحمة الرب من خلال القساوسة الكاثوليك مسألة منكورة ، فإن المسيحيين سوف يستنتجون أن التطهر هو المدخل الوحيد إلى الرب ، وسوف يكون عليهم أن يأخذوا بالتناقض الصوفى الحاد بين الروح والمادة . وهكذا ، إذن ، يبدو اللاهوت الألبيجنسى نتاجا للمزج بين نزعة معاداة السلطة الكنسية والفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، وحتى إذا كانت بعض الأفكار المانوية النقية قد وصلت أوربا عن طريق البلقان أو بيزنطة ، فقد كانت قوة هذين المذهبين فى أوربا القرن الثانى عشر هى التى مهدت السبيل أمام الهرطقة الشرقية وأوجدت الحافز الثقافى الكامن وراءها .

وقد نسب أولئك الذين أضطهدوا الألبيجنسيين فى القرن الثالث عشر إلى هذه الطائفة معتقدات أخرى كثيرة إلى جانب لاهوتهم الثنوى الأصلى . فقد زعموا أنهم كانوا ينكرون تجسيد المسيح لأنه كان يعنى سجن الألوهية فى المادة الشريرة . كما أكدوا على أن المفهوم الكاثارى بأن المادة شر قد أدى إلى الأفكار والقيم الأخلاقية الشاذة . وقيل أن الألبيجنسين كانوا يعارضون الزواج لاعتقادهم أنه من عوامل استمرار مسخ الجنس البشرى الذى تحبس فيه الروح القدس داخل الجسد الشرير القبيح .وعلى أية حال ، فقد قيل أنهم لم يكونوا يسمحون بالإفراط الجنسى ، بقدر ماكانوا يتجنبون إنجاب الأطفال . وكانوا يحبذون نوعا من الانتحار الجماعى والفردى على حد سواء ؛ فقد كانوا يتركون الأطفال المولودين فى العراء كما كان قديسوهم « الكاملون » يجيعون أنفسهم حتى الموت . كذلك كانوا يعتقدون أنه مهما فعل السماعون ( وهم الرعايا العلمانيون فى الكنيسة الألبيجنسية ) قبل تلقى طقس التطهر الأخير يسقط الذنب عنهم . وبالتالى ، فقد أدعى أعداء الألبيجنسيين أن العلمانيين منهم كانوا يحيون حياة داعرة ماجنة للغاية ، إذ لم تكن هناك ضرورة للأخلاقيات إذا كان الجسد البشرى شريراً بطبيعته ، ويكفى طقس واحد لتحرير الروح .

ومن الصعب ، بسبب ندرة الأدلة ، أن نقرر ما إذا كانت هذه الاتهامات مجرد فكر ملفق وضعه رجال الكنيسة الكاثوليكية لإدانة الألبيجنسيين ، أم أنها تهم حقيقية . وكثيرون من الكتاب المحدثين المعادين للكاثوليكية ، أو العاطفيين ، شأنهم فى ذلك شأن من ينصبون أنفسهم حماة للمقهورين فى كل زمان ومكان ، لاسيما الروائيات من السيدات فى القرن

العشرين ، استبعدوا هذا الاتهامات تماما على اعتبار أنها مزيفة وملفقة ، وصوروا الألبيجنسيين جميعا فى صورة القديسيين الأتقياء الزاهدين ، وهو مايصدق دون شك على «الكاملين» . وكل من عارضوا «الأطهار» ( الكاتارى ) أدينوا باعتبارهم زبانية وأعداء للفكر الحر ، تحركهم أحط الدوافع وأدناها . ولكن التهم التى كيلت للألبيجنسيين ككل تدخل فى نطاق المعقول . فالوصف الوارد عن اللاهوت المانوى الأساسى فيه رنة صدق بسبب مانعرفه عن الفكر فى القرن الثانى عشر ؛ إذ يمكننا أن نرى فيه عناصر من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ومذهب معاداة السلطة الكنسية antisacerdottalism كما أن الشكل الرمزى للزعامة القديسية للألبيجنسيين كان شائعًا فى جميع الهرطقات الشعبية فى القرن الثانى عشر . فضلا عن أن المذاهب المستقبحة والممارسات الذميمة المنسوبة إليهم ، استنتاجات منطقية من المبادئ التى قامت عليهم ديانتهم . ذلك أن هذه الأفكار المتمايزة والأخلاقيات الخاصة كان يمكن أن تنتج ، وأن تلقى تشجيعًا ، عن الحياة اللاهية التى كانت مناطق جنوب فرنسا تحياها ، وعن ثروة واستقلال سكان المدن فى هذا الإقليم ، فضلا عن صفات التخنث التى ميزت أبناء طبقة النبلاء المستأنسة التى ركنت إلى الطابع الحضرى فى هذه المناطق .

لقد كان الألبيجنسيون أتباع ديانة مختلفة أكثر منهم مجرد مسيحيين منشقين . وكانت تلك الديانة ديانة مريضة ، جاءت نتاجًا لحضارة مريضة . وكانت الحضارة مريضة بالقدر الذى جعلها تعرض الأطفال المولودين للموت فى العراء ، كما كانت حضارة انتحارية بالقدر الذى جعلها تؤمن بتدمير نفسها . وفى إطار بيئة الجنوب الفرنسي المحمومة كان يمكن لمشاعر التدين أن تؤدى إلى نتائج غريبة وعكسية . وأن تؤدى إلى ديانة لايقتصر تهديدها على وحدة العالم المسيحى وسلطة الكنيسة فقط ، وإنما يمتد إلى النظام الأخلاقى للحضارة الأوربية .

# الفصل الثامن عشر
# تدعيم الزعامة الدنيوية

## ١ - مشكلة السلطة :

أطاح النزاع حول التقليد العلمانى بالتوازن الذى شهدته العصور السطى الباكرة ، كما أنهى التداخل بين كل من الكنيسة ecclesia والعالم mundus . ذلك أن الملكية فى العصور الوسطى ، التى كانت من خلق المثل العليا الكنسية ومن صنع رجال الكنيسة إلى حد كبير ، وجدت نفسها مضطرة إلى تطوير مؤسسات وسلطات جديدة ، وتمثلت النتيجة ، فى أخريات القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر ، فى وجود المثال الأول للدولة البيروقراطية العلمانية التى تجلت مقوماتها الأساسية فى الملكية الأنجلو - نورمانية . وكان النمو الفكرى شهدته أوربا خلال القرن الثانى عشر ، والذى لعب رجال الكنيسة الدور الأكبر فيه ، تدعيما للسلطة العلمانية أكثر منه تدعيما للزعامة الكنسية فى بعض جوانبه . إذ أن التحسن الذى طرأ فى مجالات التعليم والقانون جاء خدمة لأهداف الملكية ، بل إن إزدياد التدين كان فى صالح هذه الأهداف . فقد نتج عن ظهور الجامعات أن خرج جيل جديد من الإداريين الذين عملوا فى خدمة الحكومة الملكية . كذلك مهدت الزيادة الكبيرة فى مجال المعرفة القانونية السبيل أمام الملوك لإحكام سيطرتهم على المجتمع . كما زودتهم بأيديولوجية قانونية عوضتهم عن تراث الملكية الثيوقراطية الذى شاع فى العصور الوسطى الباكرة ، وهو تراث كان قد تلاشى أمام هجمات الإصلاحيين الجريجوريين . كذلك فإن مانتج عن حركة التدين العلمانية من آثار مدوية ساهم فى تعزيز السلطة الدنيوية . فقد سهلت الانتقادات الشائعة حول رجال الكنيسة على الحكومة الملكية مهمة تأكيد زعامتها فى المجتمع . كما أن المشكلات العديدة التى ثارت بسبب حركة التدين الجديدة منعت الهيئة الكنسية من توجيه عنايتها لما كان يحدث فى الحياة السياسية ، وأتاحت للملوك حرية أكبر فى متابعة مصالحهم ودونما تدخل من جانب الكنيسة .

كان البلاط البابوى فى القرن الثانى عشر ينتهج سياسة واحدة ثابتة فقط تجاه ملوك غرب أوربا : مؤداها ضمان عدم تهديد الحكام الشماليين لاستقلال البابوية بغزو إيطاليا . وأن

يتخذ البابوات موقفا مرنا ونفعيا تجاه الملوك الأوربيين محاولين أن يكسبوا منهم بعض التنازلات المحدودة ، مثل الاعتراف بالمحكمة البابوية قضاء مركزيا للكنيسة . وكان الهدوء حين يخيم على العلاقات بين الدولة والكنيسة يتيح للملكية أن تستغل التعليم الجديد لتحسين أساليب الإدارة فيها ، وتدعيم جهازها البيروقراطى ، فضلا عن تحسين الأيديولوجية التى تتيح للملكية تعزيز زعامتها للمجتمع . وفى إنجلترا وفرنسا ، تحت حكم آل كابيه خاصة ، كانت كل الطبقات والطوائف سنة ١٢٠٠ قد بدأت تعتاد الممارسة المنتظمة للسلطة الملكية فى مجال القانون والضرائب ، إذ أن أهمية الحكومة المركزية فى حياة النبلاء والبورجوازيين وكبار الكنسيين قد صارت أمراً معتاداً . فإذا ماكان الملك شخصية قوية ، تكون أداة السلطة الملكية من القوة بدرجة يصعب على البابوية أن تسيطر عليها . وقد ظهر إثنان من الملوك الذين تتجسد فيهم الكارزما ( الصفة البطولية ) فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، هما : هنرى الثانى ملك انجلترا وفردريك بربروسا ملك ألمانيا . وبحلول العقد الأخير من هذا القرن كانت مسألة تقدم السلطة الملكية محل اهتمام عميق فى البلاط البابوى. فقد ظهر نجاح الملكية فى كافة الجوانب ، وكان على البابوية حينذاك أن تجابه مشكلة التعليم لكى تتعامل مع الملوك الذين كونوا موارد هائلة للثروة والقوة العسكرية بطريقة أو بأخرى ، كما استحوذوا على ولاء رعاياهم فى بعض الأحوال .

٢ - قيمة الكارزما :

لقد قامت قوة الدولة فى العصور الوسطى على أسس ثلاثة : صفات الحاكم الشخصية ، وأيديولوجية الملكية ، وقدرة المؤسسات الإدارية والقانونية والمالية . وفى المرحلة الأولى من حياة الملكية فى العصور الوسطى كانت سلطة الملك تعتمد على شخصيته بشكل يكاد يكون تاما . فإذا كان محاربا قويا ، استأثر بالولاء ، على الأقل بين المحيطين به ، أما إذا لم تكن فيه من الصفات والسجايا ماينال إعجاب الطبقة المحاربة ، فإن السلطة والممتلكات الملكية تقع فريسة الاغتصاب من جانب السادة المحليين ، ولا يبقى للملك سوى التجاهل والإهانة . ومنذ القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر كانت الكنيسة تساند مؤسسات الملكية القاصرة بالتأييد المعنوى والدينى ، وكان اعتماد ملوك تلك الفترة على الأيديولوجية كبيراً لضمان ولاء السادة الإقطاعيين من العلمانيين والكنسيين . وتفاوت مقدار نجاح كل منهم بحسب ظروفه : كما أنهم خاضوا تجارب مريرة لتطوير المؤسسات الإدارية الفعالة . وبعد أن

كانت البابوية الجريجورية قد وجهت ضربة لمذهب الملكية المقدسة القديم ، تحول الاهتمام إلى الأسس التنظيمية للسلطة الملكية ، على حين أخذ الملوك أيضا يبحثون عن دعائم جديدة ، أخلاقية ونظرية ، لسلطتهم . وقد أفادت ملكية القرن الثانى عشر من المؤسسات الإدارية ومن الإيديولوجية بدرجات متفاوتة ، ولكن خصال الملك وصفاته الشخصية كانت ماتزال ذات أثر قوى على السلطة الملكية . وحيثما وجدت البيروقراطية القادرة على الاستمرار والواعية بذاتها ، كانت الحكومات تستطيع أحيانا أن تظل قائمة دون انتقاص سلطتها فترة من الزمن، حتى لو كان من يشغل العرش شخصا غير كفء وغير جذاب . بيد أن قوة وكفاءة أمهر الأجهزة البيوقراطية كانت لابد أن تضعف إذا اعتلى العرش ملك قاصر فى شئون الحرب والحكم فترة طويلة . فإذا كانت شخصية الملك شخصية بطولية ( كارزما ) ، مقتدراً فى فنون الحرب والسلام ، وزعيما يحظى بإعجاب ملاك الأراضى ، كان لابد للسلطة الملكية أن تنمو بسرعة . فقد كان الملك ذو الصفات البطولية ( الكارزمية ) يستطيع أن يترك تأثيراً عميقا على المجتمع ، حتى بدون مساندة التراث الإدارى المركزى .

وعلى مدى أربعين سنة بعد سنة ١١٥٠ كانت الحياة محكومة بشخصيتين بطوليتين هما : هنرى الثانى ملك انجلترا ، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا . وقد أظهر كل منهما مزيجا نادراً من الصفات التى جعلت كل منهما يبدو كما لو كان شخصا خارقا أمام معاصريه : فقد جمع كل منهما بين طول العمر ، والطموح اللانهائى ، والمهارة التنظيمية الخارقة ، فضلا عن العظمة فى ميدان القتال . وارتقى كل منهما العرش فى مطلع رجولته ، وكان كل منهما وسيما بارعا فى سلوكيات البلاط ، التى كان بعض نبلاء ذلك الزمان يجدون فيها جاذبية خاصة ، وذلك دونما أن تنالها نعومة المثل والأخلاقيات السائدة فى البلاط . وكذلك أفاد كلاهما من ضربات حظ فائقة فى مراحل حرجة من حياتهما . وكان كل من هنرى وفردريك رجل عمل ونشاط ولم يكن رجل بحث ودراسة . ولكنهما كان يقدران تماما مدى فائدة التعليم الجديد للحكومة الملكية لاسيما فى مجال القانون وكانا بارعين فى اختيار المتعلمين الذين خدموهما بإخلاص شديد . كذلك كان هنرى وفردريك مؤمنين بشكل رسمى ، ولكن حركة التدين التى انتشرت فى القرن الثانى عشر لم تكن تحركهما . فلم يكونا يعرفان الرحمة أو الشفقة فى متابعة أهدافهما ، كما أنهما لم يكونا متسامحين تجاه أعدائهما ، كان كل منهما يؤمن بنفسه أكثر من أى شئ آخر ، ولم يدر بخلد أحدهما قط أن يتساءل عما إذا كان نمو سلطته فى صالح المجتمع ورفاهيته أم لا .

وحين اعتلى هنرى الثانى ( ١١٥٤ - ١١٨٩ ) عرش انجلترا ، ليكون أول ملوك أسرة أنجو ، كان دوقا على نورماندي بالفعل ، وكونت أنجو ، كما كان هو أقوى أمير فى شمال فرنسا . وفى سنة ١١٥٤م كانت أحوال انجلترا مواتية لتحقيق طموح هنرى . إذ كان الأمراء الإقطاعيون قد خرجوا لتوهم من غمار حروب أهلية مرهقة استمرت عشرين عاما ، وكانوا ينشدون من الملك الأنجلو نورمانى أن يعيد إقرار السلام ويبنى الحكومة الصالحة . وهذا هو ما أعطاهم هنرى إياه . فقد أكمل ما عمله جده ، هنرى الأول ، بأن جعل محكمة المقاطعة محكمة ملكية برئاسة قاض جوال مفوض من الملك . كما نجح فى انتزاع اختصاصات المحاكم الإقطاعية الخاصة ، وجعل الفصل فى القضايا المدنية المتعلقة بالنزاع حول الأرض من حق القضاة الملكيين ، بعد أن كانت تنظر أمام القضاة المحلفين فى القضايا . كذلك وسع من نظام التحرى أو المحلفين ، وأدخل نظام القضاة المحلفين فى القضايا الجنائية . ويشكل عهد هنرى الثانى أهم عصور بناء مؤسسات القانون العام . ومن ثم فقد شاع بين كتاب العصر الفيكتورى تبجيل هنرى الثانى باعتباره مؤسس المؤسسات الإنجليزية الليبرالية والملكية الدستورية . وكان هذا آخر مايرد بخاطره . إذ لم تكن أهدافه تختلف عن أهداف الحكام المعاصرين من أمثال فردريك بربروسا فى ألمانيا وفيليب أوغسطس فى فرنسا ؛ فقد كان يريد لنفسه أقصى قدر مكن من السلطة . ولم يستغل هنرى الثانى وقضاته القانون الرومانى كثيراً، كما أنه لم يقم بصياغة نظرية عن السلطة التشريعية المطلقة على أساس قوانين جستنيان . ولكن السبب فى هذا راجع إلى أن المؤسسات التشريعية الإنجليزية كانت قد اتخذت بالفعل مساراً مختلفا عن المسار الذى اتخذته المؤسسات التشريعية فى القارة . ووجد هنرى أن من الأرخص والأجدى أن يحافظ على النظام السائد ، وأن ينظمه ويحسنه . ووفقا للتقاليد السياسية التى وجدها قائمة فى انجلترا ، اعترف هنرى بأن عليه أن يحكم بمشورة الأعيان من الكنسيين والعلمانيين ، رسميا على الأقل . وأدخل على القانون مايعنى تحسين النظام القانونى السائد بموافقة الأعيان ، وفقا للمفهوم الجرمانى عن التشريع ، وهو مفهوم كان مايزال موجوداً فى انجلترا . وكان بعض رجال بلاط هنرى يخاطبونه بمصطلحات السلطة الرومانية المطلقة ، بل وبمصطلحات التقاليد العتيقة عن الملكية الثيوقراطية ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لصياغة أيديولوجية عن السلطة الملكية المطلقة فى انجلترا . ذلك أنه قنع بالسيطرة الفعلية على المجتمع من خلال المؤسسات الملكية ، والقانونية ، والمالية ، ومن خلال وضعه كسيد إقطاعي أعلى ؛ وكانت سلطته مطلقة على الصعيد العملى ، على حد تعبير جوليف J.E.Jolliffe .

وقد جلب زواج هنرى من إليانو أميرة أكويتانيا إمارة جديدة ، حين ضمها إلى ممتلكاته صار حاكما على معظم الشطر الغربى من فرنسا . فقد كان رجلا ذا حيوية دافقة ، وقضى زمنا طويلا فى تناول شئون إماراته فى القارة . وفى إنجلترا قنع بتحقيق النظام والثروة والسلطة ، دون أن يشغل باله كثيرا بالأسس الأيديولوجية لحكمه . ويمكن أن نتأكد من كفاءة حكومة هنرى من كتاب « الحوار حول سلوك موظف المالية » ، وهو أول مقالة إدارية كبرى كتبت فى العصور الوسطى . وقد ألفها ريتشارد فيتزنيل Riehard Fitz Neal الذى كان رئيس الجهاز المالى فى حكومة هنرى ، والذى عُيِّن أيضًا أسقفًا للندن لقاء ماقدمه من خدمات. ومقالة ريتشارد عمل منظم حافل بالمعلومات بشكل يستحق الإعجاب ، وقد كتب فى صيغة حوار ، وهى الصيغة التى كانت تحظى بشعبية كبيرة فى القرن الثانى عشر . وفلسفة الإدارة التى توضحها مقدمة الكتاب ذات أهمية بالغة . إذ أن فيتزنيل يخبر من يلتحق حديثا بالإدارة المالية ألا يقرروا صلاحيتها أو عدم صلاحيتها . وهنا يتجسد موقف البيروقراطية المدنية التى لاترى أية سلطة أخرى غير الإرادة الملكية .

وقد ساعد على تقدم السلطة الملكية فى عهد هنرى الثانى غياب المعارضة المنظمة . ذلك أن العدد القليل من أبناء الطبقة الإقطاعية ، الذين عرفوا باسم الفرسان فى انجلترا ، أفادوا من إزدياد السلطة الملكية ، لأنهم كانوا يضمنون العدالة فى بلاط الملك أكثر مما يضمنونها فى محاكم سادتهم الإقطاعية الخاصة . ولم يكن كبار النبلاء راغبين فى الصدام مع الملك الذى كانت لديه هذه الموارد الهائلة ، والذى كان يمكنه أن يدمرهم ببساطة عن طريق القانون والضرائب . كذلك كان هنرى محبوبًا جداً لدى الأساقفة الإنجليز ، الذين كانوا قد بدأوا حياتهم موظفين وكتبة فى الإدارة الملكية ، وكانوا يشعرون بمشاعر الإمتنان الشخصى تجاه الملك . كذلك كان انتباه البابوية منصرفا عن انجلترا صوب الصراع ضد الإمبراطور الألمانى . وكانت المعارضة الوحيدة التى واجهها هنرى الثاني من مصدر غير متوقع : من توماس بيكيت Thomas Becket الذى كان قد عينه بنفسه رئيسا لأساقفة كانتربورى ، والذى كان مستشاراً ملكيا قبل ذلك . وكانت دوافع كبير الأساقفة لمحاولة تحديد سلطة الملك على الكنيسة الإنجليزية واستعداده للدخول فى نزاع مرير مع صديقه وحاميه السابق سببا فى كثير من التفكير والتدبر من جانب الكتاب المعاصرين والمؤرخين ومؤلفى الدراما المحدثين على حد سواء . ومن الواضح أن بيكيت لم يكن يتمتع بالاستقرار النفسى ، ولكن اتجاهاته لاتقلل من

أهمية صراعه ضد تقدم السلطة العلمانية ولاتنقص من وضعه كأول شهيد يروح ضحية الدولة العملاقة .

فقد كان بيكيت ابنا لفارس فقير ذهب فى تجارة إلى لندن . وهو مايعنى أن توماس كان بورجوازيا ارتقى إلى منصب عال جداً فى الحكومة الكنسية والملكية ، وهو منصب لم يكن معروفا فى زمانه بمنطقة شمال الألب . وكانت لوالده طموحات كبيرة نحو ابنه المبكر فى النضج فأرسله لكى يتعلم فى المدارس الفرنسية الجديدة . وبعد عودته إلى انجلترا صار السكرتير الأول فى أسقفية كانتربورى ، ثم مستشاراً ملكيا ، وأخيراً عينه هنرى رئيسا للكنيسة الإنجيلزية عندما مات كبير الأساقفة . وبدأ يناضل ضد السلطة الملكية بطريقة عنيفة تماثل طريقته فى خدمة الملكية من قبل ، مما أدهش هنرى وكدره للغاية . وباعتباره بورجوازيا ارتقى إلى أعلى الوظائف التى كانت حتى ذلك الحين ماتزال وقفا على ملاك الأراضى ، كان بيكيت أسير شعور قوى بعدم الإطمئنان والدونية ، وهو شعور كان يعوضه بالتفانى فى أداء واجباته. فقد عقد العزم على أن يكون خادمًا عظيمًا للكنيسة بقدر ماكان خادمًا عظيمًا للملكية . ولكن هذا أدى به إلى أن يتخذ موقفا ضد التراث الطويل من السيطرة الملكية على الكنيسة الإنجليزية . وأخذ يدعو إلى مذاهب عتيقة حتى فى روما نفسها . وكان رفاقه يضيقون به مثلما ضاق به الملك حين اتخذ بيكيت هذا الموقف ضده . وأشار أسقف لندن الذى كان إداريا وعالما ممتازا ، بتلميحات قاسية إلى خلفية بيكيت البورجوازية كما أن الأساقفة عموما اعتبروا أن كبير الأساقفة معتوه أو رجل أخرق . والمسألة التى تنازع عليها هنرى الثانى وبيكيت هذا النزاع المرير هى : هل تجب محاكمة القساوسة المتهمين فى الجرائم أمام المحاكم الكنسية أم أمام المحاكم الملكية ؛ وكان بيكيت يرى هذه المسألة جزءاً من مسألة أكبر تتعلق بخضوع الكنيسة الإنجليزية للسيادة القانونية التى كانت الحكومة الملكية تفرضها على المملكة بأسرها . وقد رفض أن يستسلم فى هذه المسألة ، وإذ لم يلق تأييدا من رفاقه الكنسيين هرب إلى المنفى فى فرنسا وطلب العون من البابوية. وقد أدى سلوك بيكيت إلى إرباك البابا كثيراً. فقد كان من الصعب عليه أن ينكر صحة الأسس النظرية الى قام عليها رأى كبير الأساقفة ولكن البابا لم يكن يرغب إثارة غضب واحد من أكبر وأقوى ملكين فى أوربا ، لاسيما وأن البابوية كانت متورطة فى صراع ضد الملك الآخر ( فردريك بربروسا ) . وأخيرا عاد بيكيت إلى انجلترا ليواصل نضاله بطريقة متهورة طائشة انتهت بالكارثة التى جلبها على نفسه . فقد لجأ

إلى حرمان بعض خصومه من الأساقفة الإنجليز ، وأخيراً صرح الملك الساخط لبلاطه بأنه يود لو خلصه أحد من هذا الرجل المزعج ، وقام أربعة من الفرسان الذين سمعوا هذه العبارة اللاهية، رغبة منهم فى الحصول على رضاء الملك ، بالتوجه إلى كانتربورى حيث ذبحوا كبير الأساقفة . ويبدو أن بيكيت كان يتوقع هذه النهاية . ولاشك فى أنه كان يرحب بالاستشهاد ، الذى سيكون إنجازاً غير عادى لواحد من البورجوازيين ،كما أنه سوف يحقق له رغبته فى أن يكون رجل كنيسة مثاليا . فقد كان ينتظر قاتليه فى هدوء عند المذبح العلوى فى كاتدرائية كانتربورى ، ولم يعترض سوى على أحد مغتاليه لأنه كان فصلا له ومن ثم فهو يحنث بيمين الولاء الذى قطعه على نفسه حين يقتل سيده .

وكان بيكيت ميتا أكثر فائدة للكنيسة منه حيا . فسرعان ماصار كبير الأساقفة المشاغب شهيد كانتربورى ، وظل ضريحه يجتذب آلاف الحجاج على مدى القرون الثلاثة التالية . أما البابوية التى كانت قد تجاهلت بيكيت فى حياته كثيراً ، فقد وجدت فى استشهاده فرصة للحصول على تنازلات من الملك الإنجليزى المفزوع . فلكى يبرئ الملك ساحته من موت بيكيت كان عليه أن يستسلم لمطلب القساوسة الإجراميين . ونتج عن هذا نظام خاص هو نظام «منفعة الإكليروس » الذى استمر موجوداً حتى عصر الإصلاح الدينى . فإذا كان هناك رجل أدانته إحدى المحاكم الملكية ، ويستطيع أن يثبت أنه من رجال الكنيسة ، تنتقل القضية إلى اختصاص القضاء الكنسى ؛ وعلى أية حال ، فالواقع أن القضاة الملكيين كانوا يواصلون نظر القضية قبل أن يتمكن المتهم من إثبات وضعه الكنسى . وأهم تنازل قدمه هنرى الثانى للبابوية هو اعترافه بأن كل رجال الكنيسة الإنجليزية يمكنهم اللجوء إلى المحكمة البابوية فى المنازعات الكنسية ، بما فى ذلك النزاع حول انتخابات الأساقفة ومقدمى الأديرة . كان هذا هو أول مثال على تغلغل بعض أشكال الولاية البابوية الفعلية على كبار الكنسيين الإنجليز . ويكشف اتخاذ البابوية لاغتيال كبير أساقفة كانتربورى ذريعة لتحقيق هذا الأمر عن مدى ماكانت عليه السيطرة الملكية على الكنيسة الإنجليزية منذ زمن وليم الفاتح . وكان تنازل هنرى هو المدخل الذى دلف منه النفوذ البابوى فى الشئون الكنسية الإنجليزية ، ولكن على العموم ، لم تتأثر السلطة الملكية بموت بيكيت إلا قليلا . فخلال السنوات الثلاثين التالية ظل الملك يعين مقدمى الأديرة والأساقفة ، كما كان يحدث من قبل ، ويتقبل يمين الطاعة والولاء من أولئك السادة الروحيين ، ويفرض الضرائب الباهظة على الكنيسة الإنجليزية . ذلك أن ولاء كبار الكنسيين الإنجليز للتاج لم يتأثر بالفاصل الذى شغله بيكيت .

كانت سلطة هنرى الثانى قائمة على أساس المزج بين الشخصية البطولية والمهارة الإدارية . أما ولداه اللذان أعقباه على العرش الإنجليزى ، ريتشارد الأول قلب الأسد ( ١١٨٩ - ١١٩٩ ) ، وجون ( ١١٩٩ - ١٢١٦ ) فلم يظهر أى منهما سوى صفة أو أخرى من صفات أبيهما ، ولم يحدث ذلك سوى بدرجة محدودة . فقد ذاع صيت ريتشارد كأعظم فارس مقاتل فى العالم المسيحى ، مما جعله محبوبا فى أوساط النبلاء بصفة شخصية ، ولكنه لم يكن قديراً فى شئون الحكم والقانون . وربما كان من حسن حظ السلطة الملكية فى إنجلترا أن قضى جل عهده فى مغامرات فيما وراء البحار تاركا الحكومة بأيدى الجهاز البيروقراطى القدير الذى بناه أبوه . ومن ناحية أخرى ، كان جون على قدر من العبقرية الإدارية وساهم مساهمات هامة فى أساليب الإدارة الملكية . ولكنه مصابا بجنون الإضطهاد بحيث كان يشك فى خيانة الجميع ، كما أنه أساء استخدام إجراءات القانون العام فى سبيل توجيه كراهيته ضد بعض الأسر النبيلة التى كان يشك فى خيانتها . وسرعان ماتحول أبناء هذه الأسر إلى متمردين لأن تلك كانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أنفسهم من الدمار . فضلا عن أنه كان مصابا بخلل عقلى يعرضه لحالات تهيج تعقبها فترات الجمود والكآبة ، ففى بعض الأوقات كان يبدى نشاطًا وطاقة متدفقة ، ثم يصير عاجزاً تمامًا عن التصرف ، لاسيما فى الأوقات الحرجة التى يكون حضوره فيها إلى ساحة القتال مطلوبا . وكانت نقطه الضعف الثالثة فى شخصية الملك جون متمثلة فى ميوله الشهوانية ، التى كانت بداية لسلسة من الحوادث التى أدت إلى هزيمته الشنعاء فى مواجهة الملكية الفرنسية . فقد اتخذ ابنة كونت فرنسى صغيرة زوجة له تشاركه الجلوس على العرش ، وكان أبوها قد وافق فعلا على خطبتها لأمير إقطاعى مغمور . ولجأ السيد الإقطاعى المفجوع ، الذى سرق منه الملك الإنجليزى خطيبته ضاربا عرض الحائط بتقاليد العصر ، إلى ملك فرنسا . وبما أن جون كان من الناحية الرسمية فصلا تابعا لملك فرنسا بسبب أملاكه الإقطاعية فى نورماندى ، وأكويتانيا ، وأنجو ، فإن فيليب أوغسطس ، ملك فرنسا ، كان هو السيد الأعلى لكل من طرفى النزاع . وكان جون فى إحدى حالات جبنه العميق فرفض أن يستجيب إلى الدعوة التى وصلته بالحضور إلى بلاط الملك الفرنسى ، وأعلن فيليب أوغسطس وبلاطه أن جون فصل إقطاعى مارق وأن عليه أن يعيد نورماندى وأنجو إلى التاج الفرنسى . ولو أن جون كان قد دفع بجيشه إلى الميدان بسرعة فربما كان سيمنع فيليب من الإستيلاء على نورماندى وأنجو ، ولكنه لم يفعل شيئا ، بل إنه حتى لم يرسل التعليمات إلى ضباطه فى نورماندى . وهكذا سقط وطن الملوك الإنجليز الأصلى فى يدى ملوك آل كابيه ودونما ضربة واحدة .

كان فقدان نورماندى كارثة ، ليس على أسرة أنجو فقط وإنما بالنسبة لكثيرين من النبلاء الإنجليز الذين كانوا يمتلكون الضياع عبر القتال الإنجليزى . ومن ثم كان عليهم منذ ذلك الحين فصاعداً أن يحصروا مصالحهم فى نطاق إنجلترا ، وأصبحوا بالضرورة أكثر إهتماما باستخدام جون للمؤسسات الملكية والقانونية والمالية . وكان أى ملك يلقى الهزيمة فى ساحة المعركة من ملوك العصور الوسطى عرضه لأن يفقد إحترام شعبه ويجد من يتحدى سلطته فى وطنه . ولكن جون كان ، ببساطة ، يستخدم بطريقة قاسية للغاية مؤسسات السلطة الملكية التى تطورت فى أيام أبيه . ولكن افتقاره التام للجاذبية الشخصية المسيطرة ، أزاح من الموقف السياسى الإنجليزى ذلك العامل الذى كان يعتبر عوضًا عن صرامة مؤسسات الملكية الإنجليزية الأنجوية من قبل .

كانت الصفات البطولية للملك ، والتى ساهمت فى نمو السلطة الملكية فى إنجلترا . إبان عهد هنرى الثانى ، هي المعول الأساسى للملكية فى ألمانيا فى خلال الفترة نفسها . ذلك أن حكم فردريك الأول بربروسا ( ١١٥٢ - ١١٩٠ ) كان إنجازاً هائلا ، وكان فعلا رائعًا حاول الملك من خلاله التغلب على العقبات الضخمة التى إعترضت سبيل إحياء السلطة الإمبراطورية. فقد هزمه أعداؤه الأقوياء فى جميع النواحى تقريبا ، ولكنه استطاع أن يخرج ظافراً فى النهاية بفضل جهوده الخارقة المتواصلة ، وبفضل ضربة حظ معجزة . وحينما ارتقى فردريك العرش كانت إحتمالات إحياء السلطة الإمبراطورية الألمانية تبدو ضئيلة . فخلال نصف القرن السابق كان كبار الأمراء الألمان قد زادوا من سلطتهم الإقليمية ، ولم يتركوا للملك سوى أملاك أسرته ، كما لم يبق له سوى أثر من السلطة على بعض الأسقفيات والأديرة. وعلى مدى ربع قرن سبق إرتقاء فردريك للعرش لم يكن الملوك الألمان يحاولون شيئا للحيلولة دون النتائج المدمرة التى أفرزها النزاع حول التقليد العلمانى . فقد كانوا متورطين فى الحروب الإقطاعية الكبرى التى إندلعت بين أحفاد الساليين وهم دوقات الهوهنشتاوفن فى سوابيا من ناحية ، وبين الفلفيين Welfs الذين كانوا هم دوقات بافاريا أولا ثم صاروا دوقات سكسونيا نتيجة زواج تحالف من ناحية أخرى . وحينما انتهى الخط السالى بهنرى الخامس سنة ١١٢٥ ، رفض الأمراء إعطاء التاج لابن أخيه دوق سوابيا خوفا من أن يحاول استعادة السلطة التى كان الملوك الألمان قد فقدوها أثناء الصراع حول التقليد العلمانى . وكان اختيارهم لدوق سكسونيا لوثير Lothair ( ١٢٥ - ١١٣٧ ) توريطا للأخير فى حرب

إقطاعية مريرة ضد أمراء الهوهنشتاوفن . وفى بحثه عمن يحميه ربط نفسه بزواج تحالف مع الفلفيين . وقد استطاع أحد أمراء الهوهنشتاوفن إرتقاء العرش العرش تحت اسم كونراد الثالث ( ١١٣٧ - ١١٥٢ ) عقب موت لوثير . ولكن الصراع بين الأسرتين الكبيرتين استمر دونما هوادة .

وحينما خلف فردريك بربروسا عمه فى سنة ١١٥٢ ، بدا وكأن هناك فرصة لإنهاء الحرب الإقطاعية ، لأن فردريك كان فلفيا من ناحية أمه . ولكن لم يكن ممكنا إرضاء هنرى الأسد ، دوق سكسونيا الفلفى ؛ فقد ظل هو العدو اللدود لملكية الهوهنشتاوفن . ولم يكن فى جعبة فردريك مايبدأ به سوى قوة شخصية ، ودوقية سوابيا ، ودوقية فرنكونيا ، وموارد أخرى ضئيلة . وكان التاج الألمانى مايزال يتمتع ببعض ظلال سيطرته السابقة على الأسقفيات والأديرة ، ولكن هذه لم تكن تستطيع أن توفر له الموارد اللازمة لسحق الفلفيين وغيرهم من الأمراء الكبار . وحاول على مدى فترة من الزمان أن يضيف إلى أملاك أسرته وأن يؤسس أملاكا للتاج فى أراضى الراين ، إلا أنه سرعان ما أدرك أن هذه مهمة سوف تستغرق زمنا طويلا . فضلا عن أنها فى النهاية لن تقدم له الموارد التى يحتاج إليها . وتركز أمله الوحيد فى سيطرته الفعالة على شمال إيطاليا ، وفرض الضرائب الباهظة على الكومونات الإيطالية . لأن ذلك فقط كان هو السبيل الذى سيوفر له الثروة التى تُيسر له سبيل هزيمة الأمراء الكبار . وكانت تلك خطة محفوظة بالمخاطر ، لأنه كان من المحتمل أن تقاوم المدن الإيطالية السيطرة الإمبراطورية الحقيقية ، كما أن مثل هذه الخطة قد تثير مخاوف البابوية . ولكن فردريك لم يكن أمامه بديل آخر إذا كان يرغب فى إستعادة السلطة الملكية فى ألمانيا . كذلك كان إحتمال تأكيد السيطرة الإمبراطورية فى ألمانيا يناسب ميول فردريك الشخصية . فقد كان لديه إحساس قوى للغاية بكرامة منصبه وما فيه من سلطات يقررها القانون الرومانى ، كما كان به ميل إلى تصوير نفسه فى صورة خليفة الأباطرة الرومان . فقد كان واقعا تحت تأثير المذهب الجديد القائل بسلطة الملك التشريعية المطلقة . ولم يكن بقادر على احتمال رؤية استمرار التناقض بين حالة الضعف السائدة والمجد والسلطة الملكية الى يقتضيها منصبه .

وقام فردريك بحملته الأولى على إيطاليا ١١٥٤-١١٥٥ . وكان يريد أن يقوم باستعراض للقوة ، لكى يؤكد الهيمنة الألمانية بصورة شخصية ، ولكى يتوج إمبراطوراً بيدى البابا . وقد حقق هذه الأهداف جميعًا ، من ناحية لأن البابا كان يواجه المتاعب مع الحركة الكومونية فى روما ، وهى حركة يقودها واحد من تلاميذ أبيلار المتحمسين هو أرنولد البريسكى ، الذى كان

ألمانيا الجديدة

الحدود عند تتويج فردريك بربروسا ١١٥٢ ميلادية

الحدود فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى

أراضى الكنيسة

البحر البلطى
دوقية بوميرانيا
بروسيا
كونتية هولشتين
دوقية سلافيا
مركيزية
كوينتز
براندنبرج
نهر الفستولا
برلين
بوسن
نهر وارث
مركيزية لاوزتس
مملكة بولندا
دوقية سكسونيا
درسدن
دوقية سليزيا
نهر الأودر
كراكاو
براغ
مملكة بوهيميا
مركيزية مورافيا
مملكة المجر
دوقية
دوقية بافاريا
فيينا
برسبورج
النمسا
نهر الدانوب
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
دوقية كارنثيا
دوقية ستيريا
مملكة إيطاليا
دوقية كارنيولا
تريستا
الجمهورية البندقية
البندقية
كرواتيا

يمزج بين الثورية الفكرية والثورية الاجتماعية . وقد أدعي أرنولد والكوميون الاستقلال عن المدينة وطلبوا مساعدة الملك الألماني ، ولكن فردريك لم يكن ليتعاطف مع الزعماء الحضريين فى إيطاليا ومثلهم الأعلى عن المدينة - الدولة City -State ؛ فقد كان هذا النموذج يتناقض مع هدفه النهائى فى حكم شمال إيطاليا . وقبض فردريك على أرنولد البريسكى ؛ وأمر بحرقه وذر الرماد المتخلف عن جسده فى مياه نهر التيبر .

كان هناك فرقاء ثلاثة في الموقف بشمال إيطاليا : الإمبراطور ، والكومونات ، والبابوية . وفي أثناء زيارة فردريك لروما أزعجه إصرار البابا على أن يقوم رسميا بمهام البابا وفقا لما تقضي به هبة قسطنطين . إلا أن حملة بربروسا الأولى على إيطاليا كشفت له أنه هو والبابا حليفان طبيعيان ضد المدن - الدول وضد مبادئ الحكم الذاتي . وعاد إلى ألمانيا لإعداد حملة كبيرة تضع ثروات إيطاليا تحت سيطرته . وفى الوقت نفسه نشب جدل كبير فى الدوائر البابوية حول ماإذا كان ينبغى على البابوية أن تربط نفسها بالتحالف مع فردريك ضد الحركة الكومونية ، أم أنها يجب أن تنضم إلى المدن - الدول وتعود إلى السياسة البابوية التقليدية وتحاول إبعاد الإمبراطور عن إيطاليا . لقد كان القرار صعبا . فقد اشتهر سكان مدن الشمال الإيطالى بمنازعاتهم مع الأساقفة وآرائهم المعادية لرجال الكنيسة بل ولسلطانهم الروحي . ومن المؤكد أن البابا لم يكن يريد وجود الكومون فى روما . فهل ترمي البابوية بثقلها إلى جانب البورجوازيين المشاغبين ؟ لقد كان الإختيار شاقا وحدثت إنقسامات فى صفوف الكرادلة . وكان أولئك الذين يعارضون فردريك يحاولون إحداث الشقاق بين البابا والإمبراطور بوسائل وأساليب استفزازية . فقد زعم أحد المندوبين البابويين وهو يخاطب بلاط فردريك سنة ١١٥٧ أن الأباطرة يستمدون سلطتهم من البابا ، وهو أمر كان يعرف أنه سوف يغضب الحاكم الشاب الطموح كثيراً . وقد اتجه أدريان الرابع ، البابا الإنجليزى الوحيد ، فى روية وبطء نحو التحالف مع الكوميونات ضد المبعوث الألمانى ، وحين اعتلى عرش القديس بطرس ذلك الكاردينال الذى كان قد أثار حفيظة الإمبراطور تحت اسم البابا اسكندر الثالث فى سنة ١١٥٩ ، بات واضحا أن السهم قد نفذ وأن لاسبيل لتجنب صراع كبير آخر بين الإمبراطورية والبابوية .

وخلال السنوات العشرين التالية قام فردريك بثلاث حملات كبيرة ضد مدن الشمال الإيطالى ، وأحرز بعض الإنتصارات الأولية بما فى ذلك الهزيمة التى ألحقها بسكان ميلانو

المشاغبين . وفى اجتماع عقد فى سهل رونكاجلى Roncaglian سنة ١١٥٨ أعلن أساتذة مدرسة الحقوق فى بولونيا أن مايدعيه الإمبراطور من حق تعيين كبار الموظفين وفرض الضرائب على المدن إنما هى حقوق تتوافق مع القانون الرومانى . وفى البداية ساعد فردريك على هذا ماكان موجوداً بين حكام المدن الإيطالية الأوليجاركيين من إنقسامات . فقد كان بعضهم ، الجبللينيين Ghibelline نسبة إلى الصيغة الإيطالية من كلمة Waiblingen إحدى ممتلكات الهوهنشتاوفن ، يرحبون بالإستسلام لمطالب فردريك والآراء لقانونية التى طرحها رجال القانون المدنى ؛ ولكن الأغلبية ، الجلفيين Guelphs ، نسبة إلى أعداء الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، كانت مصممة على تكريس كافة مواردها للنضال فى سبيل الفوز بالاستقلال . وعلى مدى سنوات قليلة كان الإمبراطور قد عقد العزم على إخضاع بعض المدن الإيطالية لسلطته المطلقة، ولكنه بعد مرور عشرين عاما اكتشف أن التحالف بين البابوية والكومونات أكبر كثيراً من إمكانياته . فقد كان البابا يساهم بالزعامة والقدرة التنظيمية كما عمل على توحيد معظم المدن ، التى كانت قد دأبت على محاربة بعضها البعض فى كراهية عنيفة فى العصبة اللمباردية (١١٦٧) وفي سنة ١١٧٤ ألحقت جيوش العصبة اللمباردية هزيمة ساحقة بالقوات الإمبراطورية فى معركة لينانو Legnano ، وقرر فردريك إنقاذ مايمكن إنقاذه والسعى نحو السلام . أما إسكندر الثالث ، فإنه بعد أن حقق هدفه بإبقاء الإمبراطور بعيداً عن إيطاليا ، استطاع أن يكون كريما : فعفا عن الإمبراطور الذى كان قد عين بابا منافسا ، وفقا للأسلوب التقليدى فى الصراع بين البابوية والإمبراطورية . وقد أتاحت معاهدة السلام التى عقدت فى كونستانس Constance سنة ١١٨٣ لبربروسا أن ينقذ ماء وجهه فقط . فقد اعترفت له البابوية بسلطة فضفاضة على شمال إيطاليا . ولكنه لم يخول حق تعيين موظفى المدينة وفرض الضرائب عليها . وبعبارة أخرى ، فبعد عشرين سنة من الحرب فشل فردريك فى السيطرة على الشمال الإيطالى ، وهى السيطرة التى كان يعرف أنها الخطوة الكبرى الأولى فى سبيل استعادة السلطة الإمبراطورية على الأمراء الألمان .

وحين عاد فردريك إلى ألمانيا بعد هزيمته فى شمال إيطاليا ، كان قد صار رجلا مرهقا تملؤه المرارة . أما الأمراء ، الذين كانوا أبعد مايكونون عن الخضوع والسيطرة الملكية ، فكانوا يحكمون سيطرتهم على الثروة والسلطة فى ألمانيا ، ويعززون مواقعهم كزعماء للمجتمع بقيادتهم لحركة الشعب الألمانى الكبرى صوب الشرق . ففى ثلاثينيات القرن الثانى عشر كان

الألمان ، وللمرة الأولى منذ عهد أوتو الثانى ، قد بدأوا يضغطون من جديد صوب العالم السلافى فى الشرق ، وعبروا نهر الألب Elbe . وفى القرن الثالث عشر كانت « ألمانيا جديدة » تمتد صوب الشرق حتى نهر الأودر Oder وحتى إلى ما وراء النهر . وفتحوا ساحل البحر البلطى وأسسوا مراكز تجارية مثل ليبك Lübeck . كانت « ألمانيا القديمة » غرب نهر الألب من خلق الكنيسة والملكية الألمانية . ولكن استيطان « ألمانيا الجديدة » وتعميرها تم بتوجيه من الأمراء الكبار الذين فهموا حركة التعمير فاندفعوا لقيادتها . ذلك أن الدوقات والأمراء الذين كانت لهم بالفعل إقطاعات كبيرة فى ألمانيا القديمة ، كونوا لأنفسهم آنذاك أملاكا شاسعة فى الشرق ، وبذلك أتموا عملية قلب موازين القوى فى ألمانيا وقللوا ، نسبيا ، من أهمية سلطة الهوهنشتاوفن القائمة . وكان توجيه الدوقات لحركة الزحف صوب الشرق Drang nach Osten لا تضع أى إعتبار للسلاف الذين راحوا ضحية المذابح والإستعباد ، ولكنها كانت حركة على قدر كبير من الكفاية والمهارة . فقد إجتذبت الأمراء الفلاحين من البلاد الواطئة وغرب ألمانيا ، ولاسيما أولئك الذين جربوا الأساليب الجديدة فى التعمير ، عن طريق شروط مغرية جداً للإستيطان . فقد وعدوا المهاجرين من الحدود الشرقية بالتحرر من الواجبات الإقطاعية والخدمات الإقطاعية القديمة ، وبمساحات واسعة من الأرض بدلا من الشرائط الإقطاعية الضئيلة . هذه العروض الجذابة ، حين امتزجت بخصوبة التربة والحماية التى كفلها الأمراء لفلاحيهم ، أوجدت حركة مستمرة باتجاه الشرق فى القرن الثانى عشر ، الأمر الذى أدى إلى خلق ألمانيا جديدة . ولم يلعب فردريك بربروسا أى دور فى هذا التطور وإنما سمح له أن يمضى فى طريقه دون أية محاولة للتدخل ، وزاد الأمراء فى أملاكهم وسلطاتهم زيادة كبيرة بسبب غيابه . وانتقد الكتاب المحدثون فردريك بسبب غفلته التى ورطته فى شراك السياسة الإيطالية على حين تجاهل فتح ألمانيا الشرقية ، حيث كان يمكن للهوهنشتاوفن أن يخلقوا الممتلكات الملكية التى كانوا بحاجة إليها لو أنهم تولوا زمام الحركة منذ البداية . وبالنظر إلى أحداث الماضى كان هذا خطأ فادحًا فى الحسابات حكم مستقبل الملكية الألمانية على المدى الطويل . ولكن من الصعب أن نقسو على فردريك لارتكاب مثل هذا الخطأ الجسيم ففى بداية عهده كانت الحركة صوب الشرق ماتزال حركة متواضعة . وكان فردريك يعتقد أنه يحتاج إلى زيادة سريعة فى موارده ، وظهرت إيطاليا كأنها المكان الذى يمكن أن يحقق له ذلك ، وكان خلق أملاك غنية جديدة فى الشرق احتمالا يبدو بعيد المنال .

لقد فشل رهان فردريك ، ولكن بنهاية سبعينيات القرن الثانى عشر كان فى حال أسوأ من حاله عندما بدأ ، ولكنه كان قد أختار أفضل الأختيارات وأكثرها معقولية من بين البدائل المطروحة فى ظل الظروف التى كانت متاحة أمامه .

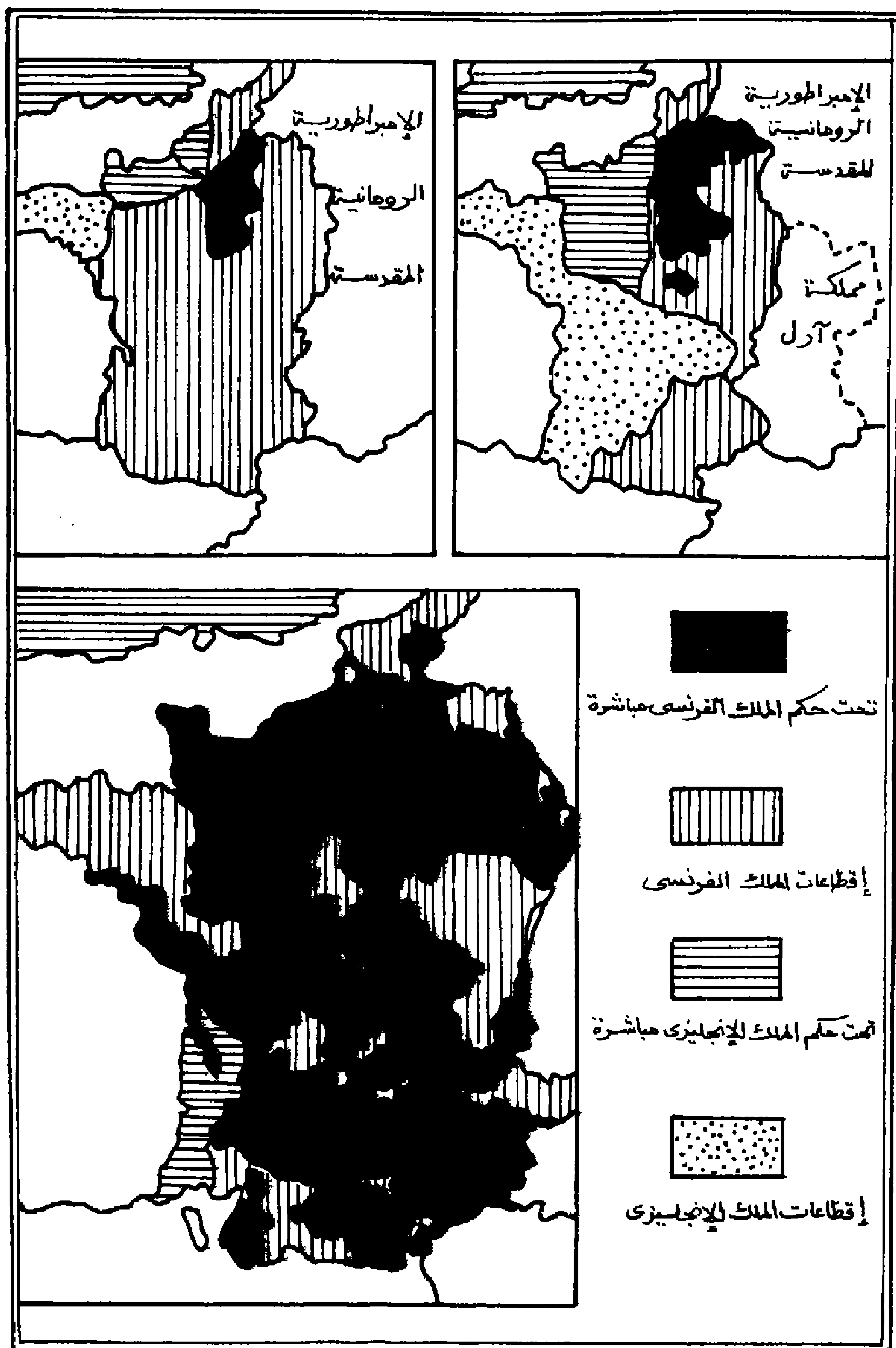
وحين عاد تلملك المسن إلى ألمانيا يجر أذيال الخيبة والإخفاق ، صب جام غضبه على عدوه الجلفى القديم ، هنرى الأسد . وكانت هناك بارقة أمل ضعيفة فى النصر تلوح أمام ناظرى فردريك ، تتمثل فى تسخير موارد التاج الإقطاعية بالطريقة التى كان الحكام النورمان والملوك الأنجويون قد اتبعوها فى انجلترا : على مدى مايزيد على مائة سنة ، وهى الطريقة نفسها التى سار عليها ملوك آل كابيه فى فرنسا بعد ربع قرن من الزمان . ولم يكن الإقطاع الألمانى هو الإقطاع الإنجليزى . ذلك أن الهرم الإقطاعى، فى الإمبراطورية كان مبتوراً ، وبينما كان كبار الدوقات هم أفصال الإمبراطور ، لم يكن أفصالهم يعترفون بأن الإمبراطور هو سيدهم الأعلى . ولكن هنرى الأسد ، باعتباره فصلا لفردريك ، كان يمكن استدعاؤه فى بلاط سيده للمحاكمة ، فإذا وجده أقرانه مذنبا أعلن تجريده من دوقية سكسونيا ودقية بافاريا . وعلى هذه الأسس القانونية بدأ فردريك محاكمته الإقطاعية الكبرى لعدوه الجلفى القديم متهما إياه بعدم تقديم الخدمة لسيده الإقطاعى فى الحملات الإيطالية ، وتهم أخرى غيرها . ولم يكن الأمراء عازفين عن رؤية دوق سكسونيا الكبير فى موقف الإهانة والتصغير ، وحين رفض هنرى المثول فى بلاط فردريك لمواجهة المتهم الموجهة ضده ، أعلنوا نزع إقطاعه منه . واستطاع فردريك أن يطرد هنرى من سكسونيا وبافاريا ولم يترك له سوى إماراته الشرقية التى لم تكن ضمن إقطاعات التاج ، ولكن الأمراء لم يكونوا ليتركون الإمبراطور يبتلع الدوقيتين المنزوعتين داخل ممتلكاته ؛ وكان عليه أن يقطع الإمارات الجلفية إلى أمراء آخرين . لقد كانت محاكمة هنرى الأسد هى اللحظة الحاسمة فى تاريخ الإقطاع الألمانى ؛ إذ لم يكن فشل الإمبراطور فى الاستيلاء على ممتلكات أعدائه الجلفيين يعنى أنه لايستطيع استغلال القانون الإقطاعى فى تدعيم سلطته ، كما كان الحال فى انجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان ، وكما حدث فى فرنسا بعد ذلك .

وفى السنوات الأخيرة من حياة الإمبراطور المسن كان عليه أن يتخلى نهائيا عن الجهود الهائلة والحروب التى خاض غمارها فى شبابه . فأخذ شارة الصليب ، ليموت فى الطريق إلى الأرض المقدسة سنة ١١٩٠ . ولكن الإمبراطور الكبير مات قرير العين وهو يعلم أن ابنه ستتاح

له الموارد التى كان هو يفتقر إليها ، والتى ستحقق النصر للسلطة الإمبراطورية . وبمزيج لايصدق من الظروف ، وجد ابن فردريك الذى اعتلى العرش تحت اسم هنرى السادس فعلا قبل رحيل أبيه فى الحملة الصليبية الثالثة ، أنه قد صار حاكما على مملكة النورمان فى صقلية ، التى كانت واحدة من أغنى بلدان البحر المتوسط . فقبل أربع سنوات كان بربروسا قد زوج ابنه من الأميرة النورمانية الصقلية كونستانس ولكن ذلك لم يكن يبدو مهما آنذاك ، لأن فرص كونستانس فى وراثة العرش كانت تبدو ضئيلة ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لما سمح البابا أبداً بمثل هذا الزواج . وفى السنة السابقة على موت بربروسا ورثت كونستانس العرش نتيجة لعدة وفيات فى عائلتها ، وأصبح زوجها مالكا لهذا النوع من الأراضى التى ناضل بربروسا دائما دونما نجاح على مدى ثلاثين سنة فى سبيل الحصول عليها . ولكن قرارات الحظ مهدت لها إرادة الإمبراطور التى لاتقهر ، فقد كان يجرب طريقة تلو الأخرى لتحقيق هذا الهدف ، وباءت جميع محاولاته بالفشل ، وكان جهده الأخير ، وهو الإتحاد بين أسرته والأسرة النورمانية الحاكمة فى صقلية ، على أمل أن يحدث يوما ما أن يحصل أحد خلفائه على العرش ، هو الذى أتى نتيجة سريعة تمثلت فى إرتقاء الهوهنشتاوفن لعرش صقلية .

كانت شهرة فردريك الذائعة كواحد من أعظم رجالات العالم المسيحى هى التى دفعت بالملك النورمانى الصقلى ، وهو الحليف التقليدى للبابوية ضد الإمبراطور الألمانى ، إلى الموافقة على التحالف بين الأسرتين الحاكمتين فى الشمال والجنوب . ذلك أن نضال بربروسا الطويل ضد البابا لم يقلل إطلاقا من الإعجاب الشعبى الشديد الذى كان يتمتع به . فنوع الحماسة التى حياه بها عمه أوتو الفريزى ، فى بداية حكمه ، استمر قائما طوال حياته ، وبعدها بزمن طويل . فقد صار بطلا شعبيا ، ونوعا من الشخصية المسيحانية التى قد ترجع يوما لتقود الألمان إلى أمجاد جديدة كما أشيع آنذاك . هذه الاستجابة العاطفية تجاوزت القيود التنظيمية القاسية التى كبلت الملكية الألمانية ، وأضفت على الهوهنشتاوفن هالة من الجلال والفضيلة التى يبدو أنها فى سنة ١١٩٠ أوصلتهم إلى أعتاب السلطة التى كانوا يسعون إليها منذ زمن طويل .

ولكن مزاج هنرى السادس وشخصيته كانت تختلف بشكل حاد عن مزاج وشخصية بربروسا . فقد ظهر بربروسا لمعاصريه فى صورة رجل عظيم الروح ؛ أما هنرى السادس فكان يفتقر إلى هذه الخاصية . فقد كان متغطرسا ، داهية ، مدبراً للمكائد . ويلطجيا . واستغرق




نمو المملكة الفرنسية

الأمر منه فترة امتدت حتى سنة ١١٩٤ حتى يحكم ملكيته لجنوب إيطاليا . وبعدها مباشرة بدأ يهاجم مدن الشمال الإيطالى وحقق بعض النجاح الأولى . ولم يكن بوسع هنرى أن يحجم عن المبالغة فى الإعلان عن الكيفية التى سيحقق بها الهوهنشتاوفن التفوق على الغرب ، بل وعلى العالم بأسره . وبث الرعب والهلع فى قلوب الأمراء الألمان ، ومدن الشمال الإيطالى ، فضلا عن البابوية التى وجدت نفسها على حافة الصراع من جانب سلطة الهوهنشتاوفن التى حاربتهم عشرين سنة لتبعدهم عن إيطاليا . وكان خطأ هنرى السادس الوحيد هو أنه لم يضع فى حساباته تأثير المناخ الإيطالى غير الصحى ، الذى أودى بحياة بعض الأفراد من عائلة زوجته وجعل منه ملكا على صقلية . فقد مات هنرى فجأة فى سنة ١١٩٧ تاركا طفلا فى الثالثة من عمره ليرثه فى عرشه ، على حين كانت أحوال إيطاليا وألمانيا تموج بالإضطراب . وكان هذا الفعل الإلهى فى صالح أعداء الهوهنشتاوفن أكثر مما حدث قبل ثمانية أعوام حين منحت ضربة حظ مماثلة لبربروسا معظم ماكان يريده . ومن الصعب على أي مؤرخ ألمانى معاصر أن يؤلف كتابا عن القرن الثانى عشر أو القرن الثالث عشر دون أن يسهب فى الحديث عن سوء الحظ المتمثل فى موت هنرى السادس المبكر ، ودون أن يعزى إلى هذا الحادث المفرد ماحدث بعد ذلك من إضطرابات ، ثم الإنهيار النهائى للإمبراطورية الألمانية فى العصور الوسطى . ومع هذا ، فحقيقة أن موت هنرى السادس كان كارثة كبرى يكشف عن أن الدعامة الأساسية للملكية الألمانية كانت هى شخص الملك نظراً لفقر مؤسساتها الإدارية . وليس هناك شئ فى التاريخ الوسيط ، يكشف بوضح عن قيمة وحدود الكارزما ، أكثر من تاريخ الإمبراطورية الألمانية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر .

٣ - صعود آل كابيه :

كان الإستيلاء على نورماندى وأنجو وإدماجهما فى ممتلكات التاج الفرنسى نقطة تحول كبيرة فى تاريخ فرنسا بل وتاريخ أوربا أيضا . ذلك أن مملكة فرنسا ، التى حكمها ملوك آل كابيه حتى سنة ١٣٢٨ فى خط متصل ، ثم بفروع جانبية من الأسرة ، مثل الفالوا والبوربون Valois, Borbons حتى القرن التاسع عشر - هذه المملكة كانت أهم مملكة أوربية حتى سنة ١٦٠٠م ، وفى رأى بعض المؤرخين أنها كانت أهم مملكة أوربية حتى سنة ١٨٧٠م . وإذا كان يمكن إخضاع الأراضي الواقعة بين جبال البرانس والفلاندرز وبين المحيط الأطلسى ونهر الراين لحكومة مركزية واحدة فعالة ، فلابد أن يكون لهذا تأثير عميق على الحضارة الأوربية لأن هذه

الحكومة سيكون بمتناولها عدد كبير من السكان ، وموارد فكرية ، واقتصادية ، عسكرية أكبر مما كان متوافراً لدى أية دولة أخرى فى أوربا . كان غزو نورماندى علامة ظهور مثل هذه الدولة ، ولكن لم تكن فرنسا موجودة قبل ذلك بقرن من الزمان ، إذ لم تكن سوى مجرد تعبير جغرافى ، وكانت تلك أرضا واسعة ممتدة لاتجمعها وحدة طبوغرافية ، أو سياسية ، أو اقتصادية ، أو لغوية ، أو ثقافية ، وكان أهل الشمال والجنوب يتحدثون لهجات رومانسية مختلفة . وكان الشمال الفرنسى هو أرض الإقطاع الكلاسيكى ، كما كان منطقة يغلب عليها الطابع الريفى ؛ وكانت الشخصية السائدة فيها هى شخصية البارون الإقطاعى . وكانت ثقافة الجنوب الفرنسى ومجتمعه ولغته تشترك فى كثير من خصائصها مع أسبانيا المسيحية وإيطاليا أكثر من شمال فرنسا . وكانت بلانجدوك ، إقليم اللهجة الجنوبية ، حضارة حضرية متذبذبة وطبقة بروجوازية متعلمة . كذلك كانت الطبقة الأرستقراطية فيها قد بدأت فى اتخاذ الطابع الحضرى ؛ مثل نبلاء شمال إيطاليا الذين كانت لهم منازل فى المدن والذين أفادوا من المزايا الفكرية لحياة المدينة . أما المنطقة الثالثة فيما صار فرنسا بعد ذلك ، فهى إقليم الراين، التى كانت تميل إلى التطلع شرقا صوب الإمبراطورية الألمانية ، التى كانت كثير من الأسقفيات والإمارات والمدن تنتمى إليها رسميا ، كذلك كان كثيرون من أهل هذا الإقليم يتحدثون الألمانية ولا يتحدثون بأية لهجة فرنسية . وفى وسط فرنسا كان يوجد إقليم جبلى كان بمثابة ملجأ للبارونات اللصوص ، وكان يعوق حركة السفر بين الشمال والجنوب . وهكذا ففى سنة ١١٠٠ لم تكن فرنسا بلداً واحداً سواء من حيث طبيعتها أو ماتحويه بداخلها . وكان الفضل لملوك آل كابيه فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر فى خلق فرنسا . ولم تكن هناك ضرورة لوجودها ؛ إذ لم يكن ثمة مصير وطنى لفرنسا قبل ظهور الملكية الفرنسية . ولكن إذا كان قد أمكن فى النهاية إخضاع البلاد للسلطة الملكية ، فإن ذلك وفر للملوك المدن الثرية ، والطبقة المحاربة الإقطاعية الكبيرة ، فضلا عن الجامعات وخريجيها ، وكان ذلك مزيجا قويا .

ولم يكن تاريخ آل كابيه قبل القرن الثانى عشر واعداً بشئ من النجاح الذى حققته هذه الأسرة فيما بعد . فقد حصل آل كابيه على التاج الفرنسى فى سنة ٩٨٧م ، ولكن الملوك الفرنسيين حتى سنة ١١٠٨ كانوا نكرات ليست لهم سيطرة على كبار الدوقات والكونتات فى ممتلكاتهم فى المنطقة التى تحيط بباريس Ile-de-France . فقد كانت باريس محاطة بقلاع البارونات اللصوص ، وفى بعض الأحيان كان الملك الفرنسى يخشى الخروج خلف أسوار المدينة. وكان أول ملك من آل كابيه يساهم في وضع الأسس التنظيمية للسلطة الملكية هو

لويس السادس السمين ، أو اليقظ ( ١١٠٨ - ١١٣٧ ) . وبسبب المعلومات التى نعرفها عن سيرة لويس ، التى كتبها وزيره الأول سوجيه مقدم دير سان دونى يبدو لنا شخصا حقيقيا أكثر من أسلافه الذين لانعرف ملامحهم ، والذين لايشتهرون بشئ غير تدينهم أو فضائحهم الشخصية . وكانت إحدى هفوات آل كابيه الأوائل هى تورطهم فى المحاولات الضخمة لتوسيع سلطانهم فى وقت لم تكن لهم سلطة حتى فى المنطقة المحيطة بباريس . وبفضل قيادة سوجيه الحكيمة الصبورة انتهج لويس ، بشكل عام ، سياسة أكثر تحديداً وفعالية فى الوقت نفسه ، ولم يكن متحرراً من أوهام العظمة الى اتصف بها أسلافه ، فقد قام بمحاولة لغزو الفلاندرز انتهت بالمهانة حين استأصل سكان المدن الفلمنكية شأفة جيشه . ولكنه عادة كان يقبع بالقرب من بلاده ونجح فى تدمير قوة الإقطاعيين المشاغبين والبارونات اللصوص فى منطقة جزيرة فرنسا حول باريس ، وبذلك ضمن قاعدة آمنة للعمليات العسكرية التى قام بها خلفاؤه .

وكان عهد ابنه لويس السابع ، الذى امتد زمنا طويلا ، هو نقطة التحول فى تطور المؤسسات الكابية وبداية ممارسة بعض السيطرة على كبار الأفراد الإقطاعيين . وكان لويس شخصا مخلصا ، كادحا ، بلا لون ، وقد عاني الكثير من المهانة والخسارة بسبب طلاقه من إليانور أميرة اكويتانيا . وقال بعض المؤرخين أن لويس السادس ترك انطباعا بعمله لبناء السلطة الملكية فى جزيرة فرنسا بلغ من قوته أن سعى دوق أكويتانيا البالغ الثراء إلى تزويج ابنته من وريث العرش الفرنسى . وهذا احتمال ، ولكنه ربما جاء نتيجة لنزوة من جانب دوق أكويتانيا ذى الصفات التروبادورية . وعلى أية حال ، فإن لويس الثامن فقد الزيادة الهائلة التى كانت إليانور قد أضافتها لممتلكات التاج وانتقلت هذه الدوقية إلى أملاك هنرى الثانى الزوج الثاني لإليانور . ونتيجة لهذا كان على لويس أن يواجه الحقيقة القاسية القائلة بأن هنرى الثانى ، الذى كان فصلا إقاعيا له من الناحية الرسمية ، يحكم النصف الغربى من فرنسا ، وأنه حتى بدون انجلترا ، كان أقوى كثيراً من لويس نفسه . ومع هذا فمع نهاية حكم لويس كان الملك الكابى قد بدأ يمارس نوعًا من الزعامة بين الأمراء الكبار الذين كانوا أفصالا إسميين له .

كان بلاط الملك الفرنسى ، بوصفه السيد الأعلى لكبار الإقطاعيين ، المحكمة العليا فى البلاد . ولكن قبل عهد لويس السابع كان هذا مجرد إمكانية نظرية . فقد كان الدوقات والكونتات يتجاهلون محكمة الملك فى تعاملهم مع بعضهم البعض ، ولم تكن لدى الملك أية سلطة لإرغام أفصاله على الحضور إلى بلاطه كما يقضى القانون الإقطاعى . وفي النصف

الأخير من حكم لويس بدأ كبار الأفصال الإقطاعيين يحضرون للتقاضى أمام المحكمة الملكية للمرة الأولى . وكان هذا راجعًا إلى التوازن الذى حدث فى منتصف القرن الثانى عشر بين الإقطاعيين الكبار ، ومانتج عن ذلك من تضاؤل إمكانية حل منازعاتهم عن طريق الحروب الإقطاعية علي الطريقة القديمة . وكانوا يعرفون أنهم سيلقون حكما عادلا فى بلاط الملك الكابى التقى المسالم . كذلك تحول الأمراء الإقطاعيون الفرنسيون تجاه باريس للمرة الأولى بسبب خوفهم من سلطة هنرى الثانى المهيمنة . ذلك أن الملك الإنجليزى ، بفضل أملاكه الشاسعة ، صار أكبر مصدر خطر يتهدد أمن الدوقات والكونتات ومستقبلهم ، وتمثل رد فعلهم فى أنهم تطلعوا بود شديد تجاه الملك الكابى باعتبار قطبا مضادا فى مواجهة هنرى الثانى . وعلى المدى الطويل أفاد لويس السابع كثيراً من زواج اليانور الإكويتانية من هنرى الثانى . فلأول مرة تجلت قيمة الملكية الكابية فى شئون فرنسا واضحة أمام كبار الإقطاعيين .

كانت الضياع الملكية الفرنسية تدار ، تقليديا ، بواسطة الحكام Prévôts أى السادة المحليين الذين يدفعون للملك مبلغا من المال لقاء زراعة الضياع التى يملكها . هذا النظام البدائى كان دليلا على عدم كفاءة ملوك آل كابيه الأوائل . فقد كان « الحكام » يخدعون الملك . ويستغلون السكان بلا رحمة ، كما أنهم حاولوا أن يحولوا سلطاتهم إلى تركات وراثية. وفضلا عن ذلك فقد الملك فرصة التأثير على المناطق المحلية من خلال ما للزعامة الملكية من تراث لأنه فوض الأمراء سلطته على هذا النحو . وبشكل عام ، واصل لويس العمل بهذا النظام المدمر فى الإدارة المحلية ، ولكن هناك دلائل فى الفترة الأخيرة من حكمه على أنه كان يجرب إرسال الموظفين من البلاط الملكى مباشرة لكى يشرفوا على إدارة الضاع الملكية .

وجاء ابنه فيليب الثانى أوغسطس ( ١١٨٠ - ١٢٢٣ ) لكى يحول هذه التجارب إلى نظام دائم فى الإدارة المحلية ، ظلت أسسه باقية حتى إنهيار النظام القديم ancient régime (أى النظام الإقطاعى ) . وكان هو ثالث الحكام الكبار فى أواخر القرن الثانى عشر ، إلى جانب هنرى الثانى وفردريك بربروسا ، على الرغم من أن فيليب كان يفتقر إلى صفاتهما البراقة الأخاذة . فقد كان أحدبا ، مخادعًا ، لاضمير له . ومن المحتمل أن اسمه المدوى (أوغسطس ) كان يقصد به « البادئ » ، ولم يكن مقصوداً به ربطه بالأباطرة الرومان . إلا أن صفات فيليب الشريرة كانت هى الصفات الوحيدة التى يمكن أن تؤدى إلى الإتساع الكبير

فى الأراضى الملكية الفرنسية . ففى أواخر القرن الثانى عشر كانت حدود أوربا السياسية قد رسمت ، وفى فرنسا كان تقسيم البلاد بين الإمارات الإقطاعية قد صار تراثا عفى عليه الزمن. ولم يكن ممكنا القيام بإعادة ترتيب خريطة أوربا السياسية بدون الصفات المخادعة الشريرة التى كان فيليب متفوقًا فيها . بيد أنه كان أيضا إداريا مجداً بارعا مهد لزيادة الأراضى الملكية بابتكار نظم البيلى bailli ، وهو الممثل المالى ، والقانونى ، والإدارى والعسكرى للملكية الفرنسية فى المقاطعات . وفى انجلترا كان الشريف هو الموظف المحلى الذى يمثل الحكومة الملكية . أما البيلى فكان يجمع بين كل من هاتين الوظيفتين ، وكان عليه أن يقوم بكل الخدمات الإدارية ، والقضائية والمالية لصالح الملك . وكان الشريف ، أو حاكم المقاطعة الإنجليزى ومساعدوه من الأثرياء من ملاك الأراضى المحليين ولهم مصالح قوية فى المقاطعة التى يعملون بها . وكان معنى هذا فى المدى الطويل أن على الملكية أن تراعى ماتريده عائلات الريف التى كانت تمثل الحكومة ، وإلاً تعانى من الشلل فى الحكومة المحلية . ولم يكن هذا واضحا تماما إبان حكم هنرى الثانى بسبب شعبيته الطاغية وسلطانه المهيمن ، ولكن بعد سنة ١٢٠٠ بات واضحا فى انجلترا أن الحكومة الملكية لايمكنها أن تعمل بكفاءة سوى بمساعدة وتعاون العائلات الكبرى فى الريف . أما السمات الاجتماعية والسياسية للبيلى فكانت مختلفة تمام الاختلاف . فقد كان موظفًا أجيراً ترسله الحكومة الملكية ولم تكن له أية جذور فى منطقة اختصاصه . لقد كان بيروقراطيا حقيقيا يعتمد فى دخله ومكانته الاجتماعية على وضعه كموظف ملكى . ومن ثم فإنه كان متعصبا فى ولائه للملك ، ولم يكن يهمه سوى ممارسة السلطة الملكية كاملة . وعلى عكس العائلات الإقليمية الإنجليزية التى خرج حكام الأقاليم وغيرهم من الموظفين المحليين من بين صفوفها ، لم يكن المندوب الملكى الفرنسى يضع فى حسبانه مسألة مدى صلاحية السلطة الملكية . وكان الفرق بين المندوب الملكى الفرنسى وحاكم المقاطعة الإنجليزى نتاجا للظروف الجغرافية والاجتماعية ولم يكن بسبب حكمة الملكية الفرنسية . ولم تكن الأراضى التى تعين على فيليب أوغسطس أن يديرها فى بداية الأمر تزيد عن حجم واحدة من المقاطعات الإنجليزية الكبيرة . والحقيقة أن المصطلح التنظيمى الذى يميز الموظف المحلى الفرنسى كان هو المحضر bailiff ، وهى كلمة استخدمت فى سائر أنحاء أوربا للدلالة على المندوب الشخصى أو المراقب . وفى بداية الأمر لم يكن المندوب الملكى الفرنسى bailli يختلف عن الناظر أو المراقب الذى يدير ضيعة أحد كبار

الإقطاعيين سوى من حيث الدرجة . ولكن مع نهاية القرن الثانى عشر صار المندوب الملكى الفرنسى موظفا عاما داخل نظم الملكية الفرنسية ولم يعد نظامًا خاصًا . ولابد أنه كان سيصعب تماما على ملوك آل كابيه أن يستمروا فى العمل بهذا النظام ويطبقوه على المناطق الجديدة التى فتحوها لو لم يعتمدوا على الثورة التعليمية التى حدثت فى القرن الثانى عشر . فقد كانت الجامعات هى التى أمدتهم بالكتبة والقانونيين الذين شغلوا وظائف المندوبين الملكيين ، وكان أولئك خير من يعملون فى الجهاز البيروقراطى المحلى ؛ إذ أنهم كانوا أذكياء، مجدين متعلمين كما أنه لم تكن أمام الكثيرين منهم فرص فى الحياة غير تلك التى يحصلون عليها فى خدمة الملكية . وخلال عهد فيليب أوغسطس ، كان كثيرون من المندوبين الملكيين أساتذة majistri ، أى تخرجوا من الجامعات لكى يعملوا فى إدارة المناطق الجديدة التى ضمت إلى أملاك التاج الفرنسى . وفى جنوب فرنسا عرف المندوبون الملكيون باسم sens-chals ، وهو مصطلح قديم جديد للدلالة على الممثل المحلى الذى تستأجره الملكية الفرنسية . وبمنتصف القرن الثالث عشر كان المندوبون الملكيون قد صاروا مجموعة قائمة بذاتها ، وكانوا أكثر تعصبا من الملك نفسه فى تأييد السلطة الملكية . كانوا هم الذين قللوا من أهمية العادات والنظم المحلية وأخضعوا أقاليم فرنسا المتباينة لسيطرة حكومة عامة . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن فرنسا كانت من خلق البيروقراطية التى بدأت تتخذ شكلها المتميز عند بداية حكم فيليب أوغسطس ، وربما بعد ذلك بقليل .

كان تقدم السلطة الملكية فى فرنسا محكوما بعلاقات الملك مع البورجوازيين والكنيسة . وأنها لأسطورة ترجع إلى القرن التاسع عشر تلك التى تقول بأن ملك فرنسا أدرك أهمية التطور الحضرى الجديد ، وأنه تحالف مع الطبقة الجديدة ضد النبلاء الإقطاعيين . وحتى لو كان هذا صحيحا ، فإنه لم يكن ليضمن له النصر ، لأن مدن شمال فرنسا كانت قليلة جداً ، وبغض النظر عن باريس ، كانت هذه المدن صغيرة جداً من حيث الحجم والثروة بدرجة تحول دون أن يكون لها تأثير عميق على بناء السلطة . والحقيقة أن لويس السابع وفيليب أوغسطس لم يكونا أكثر تعاطفا مع البورجوازيين من الأمراء العلمانيين والكنسيين . وقد نالت المدن الواقعة فى نطاق الممتلكات الملكية امتيازات كوميونية ضئيلة ، ولم يحدث ذلك سوى بعد نضال طويل ونفقات باهظة دفعوها للخزانة الملكية . ولكن سكان المدن كانوا يحبذون تقدم السلطة الملكية كقطب موازن فى مواجهة السادة الإقطاعيين . وذلك لأنهم كانوا يستطيعون

الحصول من الملك على قدر من التنازلات بالحكم الذاتى فى المدن أكبر مما يمنحهم إياه السادة الإقطاعيون ، على الرغم من أنهم كانوا يدفعون مبالغ طائلة فى سبيل ذلك .

ولقد لعبت العلاقة بين الملكية والكنيسة دوراً هاما فى انتصار آل كابيه النهائى . وقد اتضح مدى تخلف وضعف الملكية الكابية فى القرن الحادى عشر بسبب اعتماد الملك الفرنسى على بعض صفات الملكية الثيوقراطية ، بعد أن كانت الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية قد نبذت هذا التراث تحت ضغط البابا بزمن طويل . فمنذ أواخر القرن الحادى عشر كانت البابوية تنظر إلى الملكية الفرنسية باعتبارها حليفا مؤيداً ، حتى وإن كان السبب الوحيد فى ذلك هو اضطرار البابا إلى الحصول على تأييد بعض ملوك أوربا . فقد كان البابا يتورط من حين لآخر فى نزاع مع الإمبراطور الألمانى ، وكان يخشى عواقب أطماعه فى شمال إيطاليا . وبالنظر إلى سلطة الملك الإنجليزى وسيطرته على الكنيسة فى أراضيه ، والمسافة التى تفصل انجلترا عن روما ، لم يكن بوسع البابوية أن تربط نفسها برباط التحالف مع الملوك النورمان وملوك أسرة أنجو . ويظل الملك الفرنسى هو المرشح الوحيد ، كما كان ضعيفا لاضرر منه بحيث لم يكن من المحتمل أن يهدد سلطة البابوية . فضلا عن أن ملوك آل كابيه كانت لهم شهرة كبيرة بالتدين والتقوى ؛ وحتى فى القرن الثانى عشر كانوا معروفون بأنهم ملوك « مسيحيون جداً ». ومن ثم كان جريجورى السابع ، على غير العادة ، معتدلا فى علاقته بملوك آل كابيه . وخلال الشطر الأخير من القرن الحادى عشر ، وفى القرن الثانى عشر صارت فرنسا ملجأ وملاذاً للبابوات الذين طردهم الإمبراطور الألمانى من روما . فقد ذهب أوربان الثانى إلى فرنسا هربا من جيوش هنرى الرابع ولكى يدعو إلى الحملة الصليبية الأولى ، كما أن اسكندر الثالث طلب حماية لويس السابع فى ستينيات القرن الثانى عشر حين استولى فردريك بربروسا على روما لفترة من الوقت . وقد أتاح موقف البابوية المتعاطف للملوك الفرنسيين الفرصة للحفاظ على بعض التقاليد القديمة والمذاهب التى كانت ترتبط بالملكية فى العصور الوسطى الباكرة . وكانت ثمة رابطة قوية تجمع بين الملكية الكابية وبين دير سان دونى الملكى . فقد كانت شعائر التاج الفرنسى تحفظ فى هذا الدير . كذلك لعب سوجيه مقدم دير سان دونى دوراً هامًا بصفته الوزير الأول فى الإدارة الملكية الفرنسية فى عهد كل من لويس السادس ولويس السابع ، وإن جاء ذلك متأخراً كثيراً عن الأدوار الرائدة التى لعبها رجال الدولة الديريون فى خدمة الحكومات الأوربية الأخرى . فبينما كان احتفال التتويج فى ألمانيا وانجلترا فى طريقه

لأن يصبح مجرد مسألة شكلية رسمية ، كانت المزايا الدينية والعاطفية فى هذا الاحتفال ماتزال تحظى بالاهتمام في فرنسا . وقد تأكدت الرابطة التى كانت تجمع بين الكنيسة والملكية الفرنسية بشكل خاص خلال حكم لويس السابع الطويل المدى . إذ أن لويس ، الذى كان هو نفسه رجلا تقيًا للغاية ، أظهر أنه صديق عظيم للبابا ورجال الكنيسة الكبار في شتى أنحاء فرنسا . كما أنه استقبل اسكندر الثالث بأكبر قدر من التبجيل والاحترام ، ووقف إلى جانب الأساقفة ومقدمى الأديرة فى نضالهم ضد السادة الإقطاعيين المحليين . وكان بهذا يساعد على تقدم السلطة المحلية ويرضى ميوله الدينية فى آن واحد . وكانت محاولات لويس التاسع للسيطرة على كبار الكنسيين جزءاً من جهده العام لمد اختصاصات المحكمة الملكية . كما كانت شهرة الملك الكابى كصديق للبابوية وحليف لها من عوامل تدعيم هيبته في فرنسا وربما نفعته فى علاقاته مع كبار الإقطاعيين والملوك الآخرين فى أوربا .

لقد كانت التقاليد الأخلاقية والدينية لملوك آل كابيه « المسيحيين جداً » ذات قيمة كبيرة بالنسبة لفيليب أوغسطس . فقد وفرت له الواجهة الضروية التى تخفى وراءها وهو يواصل عمليات النهب ويتابع مؤامراته الخادعة . فقد حصل على كونتية Artois الشمالية بالزواج ، ثم تحول صوب ممتلكات الملك الإنجليزى الشاسعة فى شمال فرنسا . وكان تمرد أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم قد حول السنوات الأخيرة فى حياة هذا الملك إلى بؤس وشقاء . كذلك كان فيليب أوغسطس يتآمر بشكل مستمر ضد ريتشارد وجون . وبحلول سنة ١٢٠٤ أحرز انتصاره الكبير . فقد ضم كل شمال غرب فرنسا إلى ممتلكات التاج ، ولم يترك للملك الإنجليزى سوى جاسكونى Gascony وبواتو Poitou التى كانت أبعد الممتلكات التى كانت للملك الإنجليزى فى فرنسا قبل ذلك . وفى السنوات العشرين الأولى من حكمه كشف فيليب أوغسطس لخلفائه بوضوح عن كيفية تنمية أملاك التاج بالتزاوج : من خلال التزاوج بين الأسرات الحاكمة ، بواسطة الخداع السياسى والدبلوماسى ، وبتجريد الأمراء الإقطاعيين من ضياعهم ، ثم بالغزو فى الخارج . لقد صار الحليف العاجز القديم للكنيسة فجأة قوة كبرى فى شمال أوربا ، وكانت أهم المشكلات التى واجهت البابوية فى القرن الثالث عشر هى كيفية مواءمة نفسها مع هذا الموقف الجديد .

# الجزء السابع

## البحث عن توازن جديد

أوائل ومنتصف القرن الثالث عشر

« الحكام الأفراد لهم مقاطعات فردية ،
والملوك الأفراد لهم ممالك منفردة ، ولكن
بطرس يحكمهم جميعا .... » .

– إنوسنت الثالث

« لقد أحببنا الحياة في الفقر . وهجرنا
الكنائس . وكنا جاهلين ننقاد للجميع .....».

– سان فرنسيس الأسيسي

# الفصل التاسع عشر
# سلام إنوسنت الثالث

## ١ - إعادة تثبيت الزعامة البابوية :

ثمة تراث في تاريخ البابوية مؤداه أن الكرادلة غالبا ماكانوا يتأرجحون بين اختيار البابوات الأقوياء والبابوات الضعفاء مما يحقق دورات تبادلية بين البابويات العدوانية فالإصلاحية ثم الهادئة فالمحافظة . فمنذ موت اسكندر الثالث سنة ١١٨١ م اعتلى العرش البابوي عدد من الرجال الصالحين ، ولكنهم كانوا ضعافًا وظهروا في حال من الجمود والشلل بفعل المشكلات الرهيبة التي أثرت على الكنيسة من جراء التحديات التي ظهرت في القرن الثاني عشر في مجالات التعليم والتدين والسلطة . وكانت الزعامة البابوية تتحول إلى عامل تافه في الحياة الأوربية بدرجة جعلت الكرادلة يتطرفون في الاتجاه الآخر سنة ١١٩٨ . فقد اختاروا أقدر أعضاء مجمع الكرادلة ، وهو لوثاريو كونتي ، الذي اتخذ لقب إنوسنت الثالث ( ١١٩٨ - ١٢١٦ ) وعندما اعتلى إنوسنت الثالث العرش البابوي كان عمره سبعة وثلاثين عاما فقط ، أي أنه كان صغيراً على البابوية بشكل واضح . وقد نشأ إنوسنت الثالث في إحدى العائلات الأرستقراطية الرومانية البارزة . وكان رجلا يتمتع بطاقة غير محدودة ، وقدرة فكرية عالية ، ومواهب خارقة في الزعامة والإدارة . فقد كان من رجال القانوني الكنسي ، عالي القدرة ، وكان يحتمل أن يحرز سمعة كبيرة كلاهوتي لو كانت لديه فسحة من الوقت أو كان به ميل إلى هذا . وكان علي وعي تام بالمشكلات التي تواجهها البابوية في كل جانب ، ولم يكن يخالجه شك في قدرته على إيجاد الوسائل لمعالجتها ، وكانت درجة الثقة بالنفس التي تميز الرجال ذوي الصفات الخارقة تمتزج في حالة إنوسنت بإحساس غامر بتراث المنصب البابوي وسلطته . وكان يعتقد أن « كل شئ يدخل اختصاص البابا » ، وأن القديس بطرس فوضه المسيح « **لا ليحكم الكنيسة العالمية فقط ، وإنما لكي يحكم العالم بأسره** » . وكان إنوسنت مولعا بنظرية سلطة الهيئة الكنسية ، التي يعلو فيها سيف الروح على سيف الأرض، والتي فيها يتشابه خضوع الملكية للقساوسة مع اعتماد القمر على الشمس . وعلى أية حال ، لم يكن إنوسنت رجلاً ثوري المزاج ، ولكنه كان صاحب مزاج متحفظ بناء : فلم يكن تكراراً لجريجوري السابع . ولم يكن يقصد أن يشن هجوما أخرويا على القوى التي كانت تهدد

بالقضاء على زعامة الكنيسة فى مجتمع العصور الوسطى ؛ وإنما كان يقصد أن يفرض السلطة البابوية على مجتمع غرب أوربا المتغير بوسائل متعددة ، وأن يتحكم فى الآثار الناجمة عن التعليم والتدين والسلطة فى القرن الثانى عشر . كما كان يرغب فى توجيه هذه القوى الجديدة فى قنوات يمكن أن تعيد النفوذ الكنسى فى أوربا . لقد كان إنوسنت يريد توازنًا جديداً بين الكنيسة والعالم يحقق الاستقرار للمجتمع الذى يزرح تحت تأثير الأفكار والمؤسسات الجديدة للنظام السياسى والفكرى والدينى . ويرجع الفضل فى ذلك القدر الكبير من النجاح الذى حققه إلى مقدرته ، وبصيرته النافذة ، وعزمه الذى لايلين ، وحين مات ، تحت وطأة الإرهاق من العمل ، كانت الزعامة البابوية فى أوربا قد استعادت ثباتها ورسوخها ، كما كانت الكنيسة تشن هجماتها المضادة على جميع الجبهات ضد الهرطقة ، والفوضى الفكرية والسلطة العلمانية ، ومع ثلاثينيات القرن الثالث عشر كانت روح جديدة من التوافق والتفاؤل تشيع فى الحياة الأوربية . وبدا وكأن القوى التى فسخت عرى النظام العالمى فى العصور الوسطى قد توقفت ونحيت جانبا بفضل السلام الذى شاده إنوسنت الثالث .

كان الأساس الضرورى لكل الإنجازات الأخرى فى بابوية إنوسنت ، على حد تصوره هو ، أن يعيد بناء الإدارة الكنسية . وكان هذا يعنى التناول العقلانى العام وتوطيد السلطةالمركزية بحيث تحقق المذاهب التى كان رجال القانون الكنسى يدعون إليها ، وهى مذاهب تقول بسمو السلطة البابوية فى الكنيسة . وقد لخصت الإصلاحات التى أنجزها إنوسنت خلال بابويته وتأكدت فى المراسيم التى أصدرها مجمع اللاتيران الرابع سنة ١٢١٥ ، وهو المجمع الذى كان أحد أهم ثلاثة مجامع مسكونية فى الكنيسة الكاثوليكية ، أما المجمعان الآخران فهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع ترنت فى القرن السادس عشر . وأقر مجمع اللاتيران عدد الطقوس المقدسة المسيحية سبعة طقوس ماتزال قائمة حتى اليوم : التعميد ، وتثبيت العماد ، والزواج، والمسح النهائى بالزيت ( الذى يحدد مراحل حياة الإنسان ) ، والتناول ، والاعتراف ، ورسامة القساوسة ( أولئك الذين يحتلون مكان القلب من المسيحية اللاتينية ) . وكان الأسقف هو فقط الذى يمكنه القيام بتثبيت العماد ، ورسامة القساوسة . ولم تكن الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة قد حددت إطلاقا عدد الطقوس . وكان داميانى قد أعد قائمة بأحد عشر طقسا ، يدخل ضمنها رسامة الملوك . وكان كتاب اللاهوت الثابت ، الذى كتبه بطرس اللمباردى فى القرن الثانى عشر تحت اسم « الأحكام Sentences » ، قد أعد قائمة بسبعة

طقوس ، وتقبل مجمع اللاتيران هذا الرأى . وأصدر المجمع قراراً بأن على كل عضو فى الكنيسة أن يعترف بخطاياه إلى قسيس ، ويتناول القربان مرة واحدة فى السنة على الأقل كلما تيسر له ذلك . وكان هذا بمثابة إعادة تأكيد لسلطة القساوسة على العلمانيين ، وقصد به أن يكون تحديا مباشراً للمذاهب التى تنادى بها الهرطقات المعادية لسلطان الكنيسة . وكوسيلة لفرض المزيد من القيود على حركة التدين الجديدة وتأثيراتها المدمرة ، أعلن مجمع اللاتيران أنه لن يكون هناك قديسون جدد وذخائر مقدسة جديدة دون اعتراف قانونى من البابوية بذلك ، كما أعلن أنه يجب وقف تكاثر النظم الديرية .

وتزايد نظام المندوبين البابويين كوسيلة لإحكام السيطرة البابوية على أساقفة غرب أوربا بشكل كبير على يد إنوسنت الثالث ، وبينما كان بابوات القرن الثانى عشر يعينون كبار الأساقفة فى مختلف بلاد أوربا كمندوبين بابويين ، رغبة فى كسب المشاعر الوطنية ، عمد إنوسنت الثالث إلى اختيار الكرادلة الإيطاليين ليمثلوه لدى الكنائس الإقليمية . وفى مقابل ذلك ، تعين على الأساقفة أن يولوا قدراً أكبر من الاهتمام بشئون أسقفياتهم ، ولاسيما فيما يتعلق بنوعية رجال الكنيسة العاملين تحت حكمهم . وكان على الأساقفة ومساعديهم أن يقوموا بزيارات سنوية للأديرة في أسقفياتهم ، ويفتشوا بدقة عن رجال الإكليروس فى الكاتدرئيات والإبرشيات لكى يتأكدوا من جدارتهم بمناصبهم . وقد أكد إنوسنت الثالث ، بنجاح كبير ، حق البابا فى تعيين الأساقفة فى حالات معينة ؛ فى حالة النزاع حول الانتخابات والذى يطلب من البابا حله ، وإذا كان هناك منصب أسقفى شاغر على مدى ستة شهور ، أو إذا مات الأسقف السابق وهو فى زيارة لروما . وقد أتاحت المنازعات الكثيرة التى نشبت حول الانتخابات الأسقفية وجو روما غير الصحي ، فرصا كبيرة أمام البابوية فى القرن الثالث عشر لكى تزعم أن سلطة التعيين « انتقلت » إلى البلاط البابوى . وهكذا شهدت بابوية إنوسنت الثالث تزايداً كبيراً فى سلطات البابوية القانونية باعتبارها المحكمة العليا فى العالم المسيحى ، كما شهدت تطوير المؤسسات القانونية للكنيسة . وكان لتدعيم النظام الإدارى فى الكنيسة وزيادة سيطرتها المركزية على هذا النحو أثره العاجل فى تحسين صفات كبار الكنسيين وصغارهم على السواء . فقد كشفت الزيارات التى كان يقوم بها الكرادلة فى القرن الثالث عشر عن مئات الحالات من عدم الكفاية والقصور فى أداء الواجب بين رجال الكنيسة الديريين والأبرشيين ، وفى المقابل باتت الأسقفية رهينة الضغط المستمر والتفتيش

من جانب البابوية حتى تحقق رسالتها الرعوية . لقد كشف إنوسنت عن آثار حركة التدين الجديدة قد خرجت عن نطاق السيطرة بسبب قصور الإدارة ، كما أوضح أن أفضل وسيلة لصرف الناس عن حماستهم للقديسين الهراطقة هى أن نقدم للعالم رجال الكنيسة الكاثوليك الذين ميزهم وعيهم ، وحميتهم ، وتعليمهم .

كان البنيان الإدارى الهائل للبابوية ، شأنه شأن أى جهاز إدارى آخر فى الحكومات الأوربية ، يحتاج إلى قدر هائل من المال لكى يواصل عمله . وكان الكرادلة هم أمراء الكنيسة؛ إذ أنهم غالبا ماكانوا ينحدرون من عائلات مرموقة من الطبقة الأرستقراطية الإيطالية ، وكانوا معتادين على حياة الرفاهية ؛ وفى جميع الأحوال كان البلاط البابوى ، الذى إدعى لنفسه الأهمية القصوى فى العالم المسيحى ، لايستطيع أن يظهر فقيراً بالمقارنة مع بلاط حكام منطقة شمال الألب . فضلا عن أنه كان على البابا أن يجد المال اللازم لتمويل المغامرات السياسية والعسكرية إذا ماكان يريد فعلا أن يتصدى للسلطات العلمانية القوية فى أوربا .

فمن أين كان يمكن الحصول على الأموال اللازمة لهذا ؟ كانت للبابا ، مثله مثل أى ملك ، ممتلكاته التى هى الدول البابوية ؛ بيد أن هذه لم تكن تكفى للحفاظ على الإدارة البابوية ، والدبلوماسية والبلاط والجيش البابوى . وكان عليه أن يفرض أشكالا جديدة من الضرائب مثلما كان يفعل ملوك غرب أوربا . فقد كشفت ضرائب العشور البابوية الخاصة التى فرضت لتمويل الحملة الصليبية الثالثة عن مدى ضخامة الثروة التى يمكن الحصول عليها بفرض ضريبة عامة على رجال الكنيسة ، كما كشفت عن مدى سهولة إدارة الضريبة ، بالنظر إلى خضوع الأكليروس لسلطة البابوية ووجود موظفى الضرائب المخلصين المتعلمين فى خدمة الكنيسة . بناء عليه فرض إنوسنت فى سنة ١٩٩ أول ضريبة دخل عام على رجال الكنيسة الأوربيين لمواجهة احتياجات البابوية . وكان لنجاحها العظيم أن صارت هى الأولى بين العديد من الضرائب المتنوعة والتى فرضتها بابوية القرن اثالث عشر على رجال الكنيسة . هذا الدخل الثابت لم يسهل عملية تحسين الأداء البابوية ؛ وإنما أتاح أيضا للبابوية الموارد الإضافية التى كانت تحتاج إليها بسبب تورطها المتشابك فى السياسة الأوربية .

كان أمن البابوية فى روما هو أول ضمان لحرية التصرف البابوى تجاه ملوك شمال أوربا . وقد عمل إنوسنت بجد منذ بداية عهده على تقوية السيطرة البابوية على مدينة روما والدول

البابوية التى كان يسعى إلى توسيعها ، على حين صارت قوة الإمبراطور وقدرته على التدخل محدودة ، بسبب موت هنرى السادس المفاجئ وما أعقبه من نزاع حول العرش الألمانى . وقد مضى على إنوسنت وقت عصيب وهو يحاول تأكيد سيطرته الكاملة على حكومة المدينة الخالدة ؛ إذ كان النبلاء الغيوررون والكوميون يحاربونه فى كل خطوة ، ولكن بحلول سنة ١٢٠٥ كان قد وطد دعائم سيطرته فى مدينته . وبما أن روما كانت تحيا إلى حد كبير على عمل البلاط البابوى ، فإنها لم تستطع الصمود طويلا أمام طلب البابا بأن يسيطر على حكومتها البلدية . بل إن إنوسنت أحرز نجاحا أعظم فى ميرات القديس بطرس ، ففى خلال بابويته كانت الدول البابوية قد وصلت إلى الحدود التى حافظت عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وإذْ ضمن لنفسه الأمن فى وطنه ، استطاع إنوسنت أن يكرس مواهبه السياسية الفائقة فى تحديد علاقات البابا مع ملكيات الشمال الكبرى . وكانت « الشئون الإمبراطورية » ، على حد تعبير الدوائر البابوية ، هى أكثر المسائل السياسية إلحاحا . إذ أن هنرى السادس كان قد أخاف البابوية ، وكان انتباه إنوسنت موجها لفصل مملكة صقلية عن ألمانيا مرة أخرى ، وللحيلولة دون مواجهة البابوية مرة أخرى بخطر يتهدد استقلالها كما فعل هنرى السادس . وقد أتيحت له فرصة أكبر لتحقيق أهدافه بتجدد الحروب الإقطاعية حول التاج الألمانى بين الهوهنشتاوفن والجلفيين ، وهى الحروب التى زجت بألمانيا فى خضم الحرب الأهلية عقب موت هنرى . وقد اختار الهوهنشتاوفن وحلفاؤهم فيليب دوق سوابيا ، أخا هنرى ، ملكا على حين انضم بعض الأمراء الألمان الذين كانوا يخشون الهوهنشتاوفن إلى الفريق الذى اختار أوتو الرابع البرونسويكى Otto IV of Brunswick ابن هنرى الأسد . وقد تجاهل كل من الفريقين حقوق الطفل فردريك الثانى ، ابن هنرى ، الذى بقى فى صقلية مع أمه . وحاول كل فريق أن يحصل على تأييد إنوسنت الثالث لأن البابا كان هو فقط الذى يستطيع أن ينصب أحد المتنافسين إمبراطوراً . وانتظر سنوات ثلاث قبل أن يصدر قراره ، وكان هدفه أن يتيح للحرب الأهلية أن تدمر المزيد من قوة التاج الألمانى . وأخيراً ، أصدر قراره فى سنة ١٢٠٠ لصالح أوتو الذى اعترف بحدود الدول البابوية ، وسلم مابقى من سلطة ملكية على الكنيسة الألمانية، كما وعد بعدم التدخل فى إيطاليا . وبدا وكأن إنوسنت قد أزاح الخطر الألمانى على البابوية نهائيا . ولكن فيليب راح ضحية الاغتيال فى شجار شخصى سنة ١٢٠٨ وتزوج أوتو أخته

ليصبح صاحب العرش دون منازع . وسرعان ما سار أوتو على السياسة التقليدية للملوك الألمان وتحرك صوب شمال إيطاليا . وأحس إنوسنت بمشاعر الخيبة والغضب تجتاح صدره ، ولكنه لم يفزع ، لأن الملك الفلفى كان زعيما قاصراً لايستطيع الوقوف أمام البابا . وفى سنة ١٢١٢ اعترف إنوسنت بالشاب فردريك الثانى ملكا على ألمانيا ، بعد أن حصل من فردريك على وعد بأن يتنازل عن صقلية ونابولى حين يوطد دعائم حكمه فى ألمانيا . ثم كرس إنوسنت نفسه لتنظيم اتحاد كبير بين البابوية ، وفردريك الثانى ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ضد أوتو وجون ملك انجلترا ، الذى تحالف بالزواج مع البيت الفلفى ، كان هذا هو المثال الأول على الصدام بين التحالفات الدولية فى التاريخ الأوربى . وتم حسم الصراع فى معركة بوفينيس Bouvines سنة ١٢١٤ ، وهى المعركة التى كان لها أثر شامل الأول على الصدام السياسى فى أوربا القرن الثالث عشر . فقد ألحق فيليب أوغسطس هزيمة ساحقة بأوتو ، وبذلك فتح الطريق أمام فردريك للفوز بالعرش الألمانى . ومات إنوسنت سنة ١٢١٦ وهو على قناعة تامة بأنه قد حل المشكلة الألمانية . وكان فردريك الثانى ، الذى كان إنوسنت يعجب به شخصيا ويثق فيه ، يتمتع بتأييد النبلاء ، وكان قد وعد بالتنازل عن التاج الصقلى بمجرد الحصول على تأييدهم . كذلك لم يكن يبدو أن الإمبراطور الألمانى سوف يكون مصدر خطر على البابوية فى المستقبل ؛ إذ تقلصت سلطة وموارد الملكية بفعل عشرين عاما من الحرب الأهلية، وبفعل التنازلات التى قدمها المتنازعون على العرش للأمراء الألمان الذين دعموا سيادتهم الإقليمية ، وبذلك تقوض العمل الذى أنجزه فردريك الأول وهنرى السادس .

كان انتصار إنوسنت فى الشئون الإمبراطورية يسير فى خط مواز لعلاقاته مع الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية . فقد حط من شأن ملك إنجلترا كما حسن من احتمالات التحالف الفرنسى البابوى . إذ كانت البابوية قلقة على الدوام من أن تتورط فى نزاع مع الملك الإنجليزى ، ولكن إنوسنت خاض هذا النزاع وأحرز فيه انتصاراً كاملاً . وقد نشب النزاع بين الملك جون والبابا بسبب الخلاف حول انتخاب أسقف كانتربورى ، الذى لجأ إلى روما وفقا لشروط القانون الكنسى الجديد . وكان إنوسنت قد اعترض على المرشحين الذين تقدموا إليه وعين بدلا منهم ستيفن لانجتون Stephen Langton ، وهو رجل إنجليزى كان يشتغل باللاهوت فى باريس ، وكان فى ذلك الوقت كاردينالا فى البلاط البابوى . واعتبر جون ذلك انتهاكا صارخا للسلطة الملكية التقليدية على الكنيسة الإنجليزية ، بل إنه اعتبر لانجتون

عميلا للبابوية ورفض أن يعترف بانتخابه كبيراً للأساقفة ومنعه من دخول انجلترا ، ونشب صراع مرير استخدم فيه كل من الملك والبابا إجراءات متطرفة . فقد وضع إنوسنت انجلترا تحت وطأة قرار بالحرمان أوقف كل الخدمات الكنسية ؛ أما جون فقد استولى على جزء كبير من الأرض الزراعية المملوكة للكنيسة الإنجليزية . وأخيراً شجع إنوسنت فيليب أوغسطس على الاستعداد لغزو انجلترا تحت الراية البابوية ، أما جون الذى خشى أن يفقد انجلترا أمام عدوه اللدود مثلما فقد معظم ممتلكاته فى القارة ، فقد خضع للبابا . ولم يكتف بقبول لانجتون كبيراً للأساقفة ولكنه جعل من نفسه فصلا إقطاعيا تابعا للبابا وحول انجلترا إلى إقطاع بابوى . وبدا وكأن الحوادث المثيرة قد أوضحت أنه لايوجد ملك يصمد طويلا أمام الإدارة البابوية .

وحتى فيليب أوغسطس حليف البابا ، استفز غضبه . فقد تنازعا على مسألة خاصة ، ولكن إنوسنت ، باعتباره حامى حمى الأخلاق والعقيدة فى أوربا ، سخر كل السلطات الدينية والأخلاقية التى فى متناوله لكى يرغم فيليب على الرضوخ للإرادة البابوية . فقد كان فيليب قد دخل فى عقد زواج مع أميرة دانمركية اسمها انجبورج Ingeborg فى سبيل الحصول على مساعدة الأسطول الدانمرى فى إحدى مغامراته ضد ملوك بيت أنجو الإنجليز . وحين وصلت الأميرة الدانمركية الضخمة إلى فرنسا ، غير فيليب رأيه ورفض أن يتخذها زوجة . واستغرق الأمر عدة سنوات حتى اعتلى إنوسنت عرش البابوية فاتخذ إجراءاته الصارمة المعتادة ، بما فى ذلك إصدار قرار الحرمان ، حتى أجبر فيليب على التسليم . وسرعان ماتم التوصل إلى حل وسط يرضى الفرقاء . هذه الحادثة الغريبة تكشف عن فرط ثقة إنوسنت الثالث بنفسه وفى سلطان البابوية ، وعن مدى استعداده لاستخدام كافة الأسلحة التى بمتناول البابوية حتى المسائل الصغيرة . وعلى العموم ، كانت علاقات إنوسنت بفرنسا فى صالح الملكية الكابية . ذلك أن التحالف الذى أقامه مع فيليب أوغسطس ضد أوتو الرابع وجون أدى إلى تكثيف الارتباط الطويل المدى بين البابوية وملوك آل كابيه ، كما ستر سياسة فيليب التوسعية وأساليبه الخادعة بقناع من الأخلاقيات . وكانت أكبر أفضال البابوية على الملكية الفرنسية هى الحملة الألبيجنسية ، التى فتحت جنوب فرنسا ثم مهدت السبيل لضم هذا الإقليم إلى التاج الفرنسى . ولم يشارك فيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية الألبيجنسية ، وربما لم يدرك مغزاها تماما . ولكن هذه الحملة الصليبية قضت على قوة وسلطان النبلاء فى لانجدوك وجعلت خضوع جنوب فرنسا لآل كابيه أمراً محتوماً .

كان إنوسنت يأمل أصلا ، فى إعادة الألبيجنسين إلى حظيرة الكنيسة بإرسال المبشرين البارزين لفضح أخطاء « الأطهار cathari » . ولكن هذه الوسيلة لم تحقق سوى قدر ضئيل من النجاح ؛ إذ كانت المذاهب الألبيجنسية قد توغلت فى أعماق البيئة الفكرية والاجتماعية فى جنوب فرنسا . وكان مصرع المندوب البابوى فى سنة ١٢٠٨ ، الذى شاع أن لكونت تولوز يداً فيه ، قد حفز إنوسنت على أن يتخذ تدابير أكثر صرامة ؛ أى شن حملة صليبية ضد الهراطقة وكان إنوسنت قد تعود فعلا على استغلال المثال الصليبى فى بعض الأغراض البابوية. وكانت الحملة الصليبية الرابعة ، التى أعلن عنها إنوسنت قد تحولت على أيدى البنادقة عن هدفها الأصلى ، وهو محاربة المسلمين ، إلى الهجوم على القسطنطينية والإستيلاء عليها . وسرعان ماتقبل إنوسنت هذا التغير فى الخطط لأنه رأى فى المملكة اللاتينية فى القسطنطينية وسيلة لإعادة البيزنطيين إلى الاتحاد مع الكنيسة اللاتينية تحت سلطان البابوية . وإذا كان قد أمكن توجيه حملة صليبية ضد القسطنينينة ، فمن المؤكد إذن أنه يمكن توجيهها ضد الهراقة ، الذين كانت مذاهبهم الهدامة ، وأخلاقياتهم العكسية ، ومعقلهم فى جنوب فرنسا ، خطراً يتهدد وحدة العالم المسيحى اللاتينى . وقد استجاب نبلاء شمال فرنسا بشكل حماسى لإعلان إنوسنت الحملة الصليبية الألبيجنسية . واعتبروها فرصة من السماء لكى يستولوا على إقطاعات فى أراضى لانجدوك الخصبة . وقد ارتكزت الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين على الرغبة فى انتزاع الأرض . ذلك أن بارونات الشمال تحت قيادة سيمون المونتفورتى ، الذى كان من السادة الإقطاعيين فى جنوب فرنسا ، هاجموا جموع الهراطقة وغيرهم دونما تمييز ، وارتكبوا حمامات الدم فى مدن الجنوب . ونتيجة لهذا ، قام النبلاء الجنوبيون ، سواء كانوا متعاطفين أو غير متعاطفين مع مذاهب الأطهار ، بمقاومة الصليبيين مقاومة عنيفة ، كما أن ملك أرغونة ، الذى كان أبعد مايكون عن الهرطقة ، قد هب لمساعدة كونت تولوز . وفى معركة موريه Muret سنة ١٢١٣ لقيت القوات الجنوبية هزيمة نكراء . وبينما استغرق الأمر اثنتى عشرة سنة أخرى للقضاء على كافة جيوب المقاومة ، تأكد انتصار الشمال على المدى البعيد . وبشن هذه الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين مهّد إنوسنت سبيل استيلاء التاج الفرنسى على أراضى لانجدوك الخصبة ، وهو الأمر الذى تم نهائيا فى عشرينيات القرن الثالث عشر . وقد واجه إنوسنت انتقادات نبلاء الجنوب فى أيامه ، كما انتقده بعض الكتاب المحدثين لدعوته إلي هذه الحملة الصليبية ضد الأطهار . وقد قيل أنه

أساء استخدام الحركة الصليبية ودمر حضارة راقية فى جنوب فرنسا . وهناك قدر من الحقيقة فى كل من التهمتين ، إلا أنه لم يكن يملك بديلا آخر إذا كان يريد أن يستأصل داء الكاثارية السرطانى من جسد المسيحية .

وبشموليته النمطية لم يكن بوسع إنوسنت أن يترك مهمة استئصال شأفة الهراطقة ومحاكمتهم للموظفين الكنسيين فى جنوب فرنسا ، وهم الذين لم يكن يثق فيهم بأية حال . فقد كان يرسل المندوبين مع تفويضهم سلطة عقد المحاكمات للهراطقة . ومن هذه السوابق خرجت محاكم التفتيش البابوية العامة التى تأسست رسميا سنة ١٢٣٣ . وكان الخط الرئيسى لعملها وإجراءاتها قد تحدد بالفعل على يدى إنوسنت : فقد كان عليها أن تستخدم الإجراءات القانونية الكنسية الرومانية ، التى كانت تبيح التعذيب كوسيلة لتعقب الهراطقة والقبض عليهم ، وكان أولئك الذين يرفضون الاعتراف ، أو يعترفون ثم يعودون إلى الإنكار ، يعانون الموت حرقا . وكان انحياز محاكم التفتيش ضد المتهمين مثالا على أية محكمة رومانية تناولت قضية تتعلق بالوعى والضمير .

لم يكن ثمة شئ خارج اختصاص البابوية ، كما قال إنوسنت ، وقد أحس أنه مجبر على إضفاء الصفة القانونية ، لا على مسألة الهراطقة فقط ، وإنما أيضا على مسألة معاملة اليهود. فقد منع محاولات تنصيرهم بالقوة ، ولكنه كان يحبذ عزلتهم ، ونبذهم كنفايات اجتماعية من المجتمع الأوربى . فد أصدر مجمع اللاتيران الرابع قراراً يلزم اليهود بارتداء شارات صفراء حتى يمكن تمييز أولئك المنبوذين بسهولة . وصار هذا الطلب قضية تاريخية جليلة القدر فى غرب أوربا . فقد حاول بعض الكتاب إخفاء عيوب سياسة إنوسنت تجاه اليهود ؛ وزعموا أنه كان يريد نبذ اليهود لكى ينقذهم من أية مذابح جديدة ، وهى المذابح التى كان مرضا مستوطنا فى الحياة الأوربية نتيجة الإشاعات التى إنتشرت عن طقوس الدماء. ولايبدو أن إنوسنت كانت تحركه دوافع وأسباب إنسانية . فقد كان شريكا فى المسيحية العسكرية فى زمانه ، وكان الخطر الذى يتهدد الكنيسة من موجة معاداة سلطة الكنيسة يميل بزعماء الكنيسة فى اتجاه عدم التسامح والقسوة فى التعامل مع أولئك الذين يختلفون مع العقيدة الكاثوليكية . ولم يكن إنوسنت ليتوافق مع المحاولات التى جرت لتصويره فى صورة الرجل الليبرالى . فقد كان لديه اعتقاد لايتزعزع بصحة العقيدة الكاثوليكية وصحة تقاليد وتراث سلطة الكنيسة والنظرية البطرسية ، وهبة قسطنطين . وكان

استبداديا في مذهبه وفي شخصيته على السواء وعلى مدى ثمانية عشر عاما كرس إنوسنت مواهبه الإدارية والقيادية الهائلة لتدعيم هذا المذهب وحقق نجاحا بعيد المدى .

ولكن إنوسنت أدرك أن أساليبه الجديدة ستكون ذات أثر قليل في مواجهة مشكلات التدين والتعليم . إذ أنه كان قد أعاد تنظيم الكنيسة ، وأخضع الملوك وتسبب في شن الحرب ضد أسوأ الهراطقة ، ولكن أيا من هذه الفعال لم يكن ليستطيع حل الصراع الذى نشب في أذهان الناس من جراء آثار حركة التدين الجديدة والتحدى الذى طرحه العلم الأرسطى . ولايقلل من إنجازات إنوسنت كادارى وزعيم ، أنه كان يدرك مدى الحاجة إلى وسيلة أكثر إيجابية مما اتخذه هو نفسه ، وأنه تحقق من أهمية وقيمة العمل الذى قام به كل من سان دومينيك وسان فرنسيس .

٢ - المثل العليا الدومينيكانية والفرنسسكانية :

يكشف تأسيس منظمتى الدومينيكان والفرنسسكان عن حيوية حضارة العصور الوسطى المستمرة . فقد كانت تجسد استغلال جماعات الرهبان العاملة في الدنيا والتى كانت من نتاج تنظيم حركة الزهد في القرن الثانى عشر ، لمواجهة الآثار الناجمة عن حركة التدين والتعليم الجديدة ولتأكيد زعامة الكنيسة في المجتمع الأوربى ، ومن ثم استكمال أسس الوفاق الجديد الذى كان إنوسنت يعمل على بنائه ، إذ كان النظام الدومينيكانى يواجه القوى التى تحدت نظام العصور الوسطى بتعليم حقائق العقيدة الكاثوليكة وكشف توافقها مع العلم ؛ أما المدخل الفرنسسكانى فكان عاطفيا أكثر منه فكريا . فقد كان يستهوى أفئدة الناس أكثر مما يروق لعقولهم . وقد تأسس على مقدمة منطقية بأن التجربة الدينية الفردية العميقة يمكن أن تقوى العقيدة ولاتهدمها . وكان تطور الفكر ، والدين ، والثقافة في القرن الثالث عشر نتاجا لأعمال الدومينيكان والفرنسسكان ، ومضامين مثلهم العليا .

كان نظام المبشرين ، حسب اسمه الرسمى ، من نتائج الصراع ضد الألبيجنسيين . إذ قام قس أسبانى أسمه دومينيك ، كان يقوم بالتبشير ضد الهراطقة في لانجدوك بتجميع عدد من الأتباع ذوى الميول العقلية المتقاربة ، والذين يهدفون إلى حياة قديسية ، ليكونوا زهاداً مثل الكاملين الأطهار ، ولكى يقوموا في الوقت نفسه بالوعظ وطلب الغفران . وفى سنة ١٢١٦ حاز سان دومينيك على موافقة البابا على النظام الجديد الذى سار على القواعد المأخوذة عن الرهبان الأوغسطينيين Austin والبريمونتريين Premonstartensians . وقد اجتذب هذا

التنظيم منذ البداية عدداً من الشباب الذين كانوا يتناسبون مع مستواه السامى ؛ إذ كان ينبغى على المرشحين أن يكونوا رجالا ذوى نزعة تقشفية وقدرات عقلية من الدرجة الأولى . وفى النظام الدومينيكانى كانت المقدرة هى كل شئ ، بل أنها كانت تبطل مزايا التفوق . كان موظفو النظام مسئولين عن لقاءات مجلس الرهبان العام ، وكان المندوبون المرسلون إلى هذه الاجتماعات العامة ينتخبون تأكيداً لأن أفضل الرجال سيقع عليهم الاختيار فى الغالب ، بغض النظر عن أعمالهم أو طول الفترة التى قضوها فى الجماعة . وكان أعضاء جماعة المبشرين رجالا سخروا شخصياتهم ومواهبهم فى خدمة الكنيسة مثل دومينيك نفسه . فقد كان الدومينيكان هم قوات الطليعة الفكرية فى كنيسة القرن الثالث عشر . وكان هؤلاء هم رجال الأكليروس المثاليين الذين أداروا المحاكم الجديدة الموجهة ضد الهراطقة ، وفى القرن الثالث عشر كانت محاكم التفتيش عبارة عن مؤسسة دومينيكانية إلى حد كبير . كذلك فإن أهداف الجماعة الجديدة وتنظيمها ، والأفراد العاملين فى صفوفها ، جعلوا منها أداة مناسبة للتصدى للتحديات الأرسطية . وعلى مدى ثلاثين أو أربعين سنة ، كانت النصوص الأرسطية ترد باستمرار من العالم العربى ، وكانت كليات الفلسفة واللاهوت فى جامعة باريس ، وغيرها من المؤسسات ، مشغولة تماما بمحاولة ربط هذا العلم الجديد بتراث الكتاب المقدس ، وتفاوتت هذه الجهود فيما أحرزته من نتائج . وقد أقبل الدومينيكان على هذه المهمة فى حماسة وشغف، وبمنتصف القرن كانت لهم السيادة فى جامعة باريس . ولكونهم علماء ومفكرين اقتنعوا بأن الدين والعلم حقيقة واحدة . وباعتبارهم المدافعين عن مذهب الكنيسة ، أحسوا بمدى الحاجة إلى دفاع فلسفى عن المذهب المسيحى ، وكان أحد الأساتذة الدومينيكان فى باريس ، وهو توماس أكويناس ، هو الذى صاغ هذا النظام الفكرى صياغة محددة فى الربع الثالث من القرن الثالث عشر .

كانت رسالة الدومينيكان موجهة إلى المتعلمين ؛ إذ أخذ الفرنسسكان عى عاتقهم مهمة أكثر صعوبة وهى محاولة التوافق مع تأثير التدين على البورجوازى العادى ، والسيطرة على موجة التدين الحضرية التى أنتجت الحركة الكبرى لمعاداة السلطة الكنسية . ولم تكن فكرة سان فرنسيس St.Francis of Assisi (١١٨٢ - ١٢٢٦) أن ينظم أتباعه فى جماعة رهبانية مثل الدومينيكان . لأنه ببساطة كان يدعو الناس إلى أن يحيوا حياة المسيح قدر طاقاتهم ، وبذلك تكون الحياة القديسية لأتباعه « الأخوة الصغار Fratres minores » كافية

لأن تغسل قلوب الناس بالقدوة الحسنة وتحولهم صوب طرق أفضل . وكانت تلك أكثر الوسائل مباشرة لعلاج مشكلات المجتمع المسيحى . ذلك أن أسوار الكبرياء والكراهية التى أوجدتها تعقيدات الحياة الاجتماعية لم يكن من الممكن إزالتها سوى بإظهار الحب المسيحى . وكانت هذه هى أبسط وأعمق رسالة ممكنة ، وأزعجت مدلولاتها قادة الكنيسة بقدر إعجابهم بأعظم قديس أنجبته حضارة العصور الوسطى ، الرجل الذى سار على درب المسيح على أكمل وجه .

عاش سان فرنسيس حياة بسيطة ونقية مثل تعاليمه . كان أبوه تاجراً ثريا من آسيسى Assisi فى شمال إيطاليا ، وكانت أمه سليلة أسرة من النبلاء الحضريين . وكان هو شابا فاسداً يقرأ الروايات الخيالية ويحلم بأن يكون لانسلوت آخر . ولكنه حين حاول أن يصبح فارسا جرح وأهين . ومر بواحدة من تلك التحولات الكبرى التى مر بها مفكرون آخرون عظام فى المسيحية - مثل بولس ، وأوغسطين ، وأغناطيوس ليولا ، ولوثر ؛ إذ أنه أحس بأن رحمة الرب تتنزل عليه ، وبدلا من الحب الدنيوى ، صار أرقى أنواع الحب الدينى نبراسا لحياته . وعقد العزم على أن يعيش مثلما كان المسيح يعيش - متسولا معلما ، مداويا ، وصديقا لخلق الله ، ومبشراً بأبسط الحقائق وأكثرها سمواً . وأخذ يتجول بين مدن وقرى شمال إيطاليا يتقوت بالصدقات ، بإيمان كامل بأن رحمة الرب سوف تشمله . وكان يتوجه إلى الفقراء والمرضى ، بل والمجذومين الذين لم يكن يقترب منهم أحد سواه . وحاول أن يقود الأغنياء والأقوياء إلى حياة مسيحية خالصة ، ولم تضعف من عزيمته تلك الإهانات التى كانت توجه إليه . وقد احتفل بأمجاد خلق الله فى قصيدة غنائية رائعة خاطب بها الشمس ، كما كان يبشر الطيور التى اعتبرها أيضا أخوة له .

كان نموذج المبشر القديس الجوال قد صار مألوفا فى مدن شمال إيطاليا على مدى قرنين من الزمان ، وقد لعب أمثال هؤلاء الرجال دوراً هامًا فى إذكاء الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر . ولكن يبدو أن سان فرنسيس قد تفوق على هؤلاء القديسين بكمال حياته . فقد تأكد تحقيقه الكامل لحياة المسيح بظهور علامات تشبه جروح المسيح Stigmata على حسب ماقيل آنذاك . وسرعان ماجمع من حوله الرجال والنساء ، وأرسلهم عبر الطرق المتربة إلى إيطاليا ليحضروا الأناجيل المسيحية إلى العلمانيين كما كان هو نفسه يفعل . وكانت القواعد التى أرساها لأخوته الصغار مقولات عامة عن المبادئ ، ولم تكن قانونا محدداً لجماعة رهبانية . كان مطلب فرنسيس الأساسى من أتباعه أن يعيشوا مثل المسيح ، ويبشروا به ، ويواصلوا حجهم إلى مدينه الرب بإيمان كامل برحمته . وكان الإخوة الصغار « لايأخذون شيئا للطريق »،

وعليهم أن يكونوا فقراء بكل معنى الكلمة : فقراء فى الروح ، والممتلكات ، والوظائف والتعليم . فقد كان كل مايحتاجون إليه هو مملكة الرب فى داخل الإنسان . وكان على الرهبان، وفقا للقدوة المتمثلة في كنيسة الحواريين ألا يتملكوا شيئًا سواء بصفة فردية أو بصفة جماعية . وكان عليهم أن يعيشوا فى الكنائس المهجورة والكهوف أو فى أى مكان يستطيعون أن يجدوا فيه المأوى . كما أن العمل البدنى كان بقصد سد رمقهم ، وإذا لم يكن هذا كافيا ، فعليهم أن يتسولوا . ولم يكن لهم أن يحصلوا على أية إمتيازات من البابا ، كما لايجوز لهم أن يرسموا أساقفة . كذلك كان علهم ألا يسعوا إلى التعليم ، لأنه شرك ولهو ؛ إذ يكفى أن يعرفوا أنهم يجب أن يحبوا الرب ويخدموه .

هذه المثل كانت تحمل بعض وجوه الشبه الواضحة مع مواقف الهراطقة الوالدنسيين . وكان إنوسنت وغيره من الزعماء الكنسيين فى البداية مهتمين جداً بمضامين تعاليم سان فرنسيس . ولم يكن هناك شئ أكثر من ذلك . وكان هذا هو مصدر كل الفروق بين الطرفين ؛ فالقديس فرنسيس لم يكن معاديا لسلطة الكنيسة ، ولكنه كان راسخ الإيمان بسلطة القساوسة وكفاية الطقوس الكنسية ، كما أنه أخضع إخوته الصغار ( الرهبان ) لسلطة الكنيسة تماما . فقد قال فرنسيس لأتباعه أن القساوسة فقط هم الذين يمكنهم القيام بطقس التناول ( الأفخورستيا ) الذى يجعل الخلاص ممكنا . وقال أنه يؤمن فى القساوسة والطقوس بدرجة أنه يؤمن حتى بالطقوس التى يقوم بها قسيس سئ . وكان هذا نفيا قاطعا للهرطقة الدوناتية . ووافق إنوسنت على أن يواصل فرنسيس عمله كما وافق على تأسيس جماعته الصغيرة من الأخوة الصغار Friars Minor . وأدرك إنوسنت بذكائه أن سان فرنسيس كان يقدم الدعم الضرورى لمجهودات البابا فى سبيل استعادة هيبة البابوية وزعامتها . وكان للحركة الفرنسسكانية أن تشارك مشاركة فعالة فى توجيه المشاعر الدينية فى أوربا ، وهو الأمر الذى لم يكن ممكنا أن يتم على أيدى المبعوثين البابويين أو محاكم التفتيش . ومع ذلك أدرك إنوسنت الذى كان رجلا يختلف عن قديس أسيسى ، مدى فائدة هذا العمل للكنيسة . لقد كانت الحركة الفرنسسكانية نقطة تجمع لأولئك الرجال العلمانيين الذين لم تعد تكفيهم هيراركية الكنيسة ، ولكنهم لم يكونوا يريدون الإنفصال عن الكنيسة ليتوهوا فى غياهب الهرطقة . قد أتاحت تعاليم سان فرنسيس لأولئك الذين يمرون بتجربة شخصية عميقة أن يبقوا فى رحاب الكنيسة . وكان هذا هو أفضل عالم روحى ممكن ، كما كان بمثابة إشباع كامل للشوق الدينى المتأجج فى القرن الثالث عشر . والحماسة الكبيرة التى لقيها سان فرنسيس وأتباعه ، والتى هزت العلمانيين

بعنف فى القرن الثالث عشر وجددت ارتباطهم بالكنيسة كما سببت الإنتشار السريع للحركة الفرنسسكانية فى أوربا - هذه الحماسة لم تكن مجرد نتيجة للسلوك القديسى لأولئك الرجال الملائكيين ؛ وإنما كانت نتيجة لأن الفرنسسكان كانوا قديسيين وكاثوليك فى آن معا . لقد كان سان فرنسيس إفرازاً لنفسية الجماهير ؛ إذ كان العلمانيون فى زمانه يريدون مثل هذا الرجل ويحتاجون إليه ، وكان من حسن طالعهم أن يجدوا الرجل الذى يتناسب تماما مع مثلهم الأعلى .

وبعد إنوسنت الثالث صممت البابوية على استغلال الحركة الفرنسسكانية أكثر من ذى قبل كوكيل عن قيادة الكنيسة ، وذلك بتحويلها إلى جماعة ديرية على نسق الجماعة الدومينيكانية . وقد وافق سان فرنسيس على هذه التغيرات مرغما ، وتمت معظم هذه التغيرات أثناء غيابه فى شرق المتوسط فى محاولة لتنصير المسلمين . وبعد موته أخذ بعض زعماء الجماعة الفرنسسكانية ، بتشجيع من البابوية ، يخرجون عن القواعد الأساسية التى أرساها . كذلك صار الفرنسسكان والدومينكان قساوسة ، وصارت لهم سلطة التجول فى الريف ، وخلال المدن يسمعون الاعترافات ، ويقومون بالطقوس الكنسية ، مما أثار غضب قساوسة الأبرشيات ورجال الكنيسة فى الكاتدرائيات . وصار الأخوة الصغار Friars Minor يملكون الممتلكات الجماعية . كما برز العلماء الفرنسسكان مثل الدومينيكان بمؤلفاتهم فى الفسلفة والعلوم . ومع الربع الأخير من القرن الثالث عشر كان الأساتذة الفرنسسكان هم سادة أوكسفورد مثلما كان الدومينيكان زعماء باريس . وكان لابد لهذه التغيرات من أن تفرز نزاعات حادة داخل الجماعة ، ولكنها لم تقلل من الإخلاص والاحترام الذى حققه الفرنسسكان للكنيسة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر على الأقل . ومن بين القرارات العديدة التى اتخذها إنوسنت الثالث لم يكن هناك قرار يضارع فى أهميته قراره بالسماح لفرنسيس الأسيسى بأن يرسل « إخوته الصغار » فى مدن أوربا وقراها .

# الفصل العشرون
# الوفاق الجديد وعيوبه

## ١ - كاتدرائية الفكر :

كانت بابوية إنوسنت الثالث فاتحة لنصف قرن من السلام والإستقرار الواضح فى الحياة الأوربية . فلم تكن هناك حروب هامة منذ معركة بوفينيس سنة ١٢١٤ حتى تسعينيات القرن الثالث عشر . وكانت وفاته هي فصل الختام لفترة طويلة من النمو السكاني والاقتصادى ميزت الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن العاشر . وواصل البابوات الذين خلفوا إنوسنت الثالث العمل بسياسته الناجحة فى التعامل مع ملوك الغرب الأوربى . وكان حكام فرنسا وإنجلترا رجالا قديسين كانوا على وفاق مع البابوية ، على حين تجدد الصراع بين البابوية والهوهنشتاوفن لينتهي بإنتصار كامل للكنيسة . كذلك كان نصف القرن الذى أعقب موت إنوسنت بمثابة فترة التوازن والوفاق فى الحياة الفكرية ، فهى فترة حاول فيها مفكرو أوربا الغربية استخلاص المضامين الكامنة فى روح القرن الثانى عشر الإبداعية ، وكشف العلاقة بين الدين والعلم فى إطار الحقيقة الواحدة . وكانت البناءات الفكرية الطموح التى نتجت عن ذلك مصحوبة بوفاق جديد فى مجال الدين . ذلك أن الهجوم الذى شنته محاكم التفتيش على الهرطقة ، بدعم ومساندة قوية من الحماسة التى لقيها الفرنسسكان ، تمخض عن تدهور حاد فى تأثير حركة معاداة السلطة الكنسية التى كانت قد هزت النظام العالمى فى العصور الوسطى من أساسه فى نهاية القرن الثانى عشر . وما أن بزغت شمس سنة ١٢٠٠ حتى كانت الهرطقة الشعبية تافهة الأثر فى الحياة الأوربية . فقد نجح الفرنسسكان وأتباعهم فى توجيه النزعة الدينية المكثفة التى ميزت كل طوائف المجتمع آنذاك ، ولاسيما البورجوازيين ، فى إتجاه يثرى الكنيسة الكاثوليكية . وتبقى بعض الإنجازات التى تمت فى مجال الفن والأدب فى العصور الوسطى دليلا على كيفية إستغلال حركة التدين الشعبى فى صالح الكنيسة .

إذ أن الطراز المعمارى الجديد الذى كان قد ظهر فى منتصف القرن الثانى عشر فى جزيرة فرنسا وعرف فيما بعد باسم الطراز القوطى ، مضى من نصر إلى نصر منذ بدايته التجريبية زمن سوجيه . وعلى مدى القرن التالى إنشغل كبار الأساقفة فى شمال فرنسا - شارتر ،

باريس ، أورليانز ، راميان ، وسن Sens - فى منافسة حامية لتشييد الكاتدرائيات الهائلة على الطراز الجديدة ، بالبوابات الواسعة ، والنوافذ العالية ، والدعامات الشاهقة ، والأقواس المدببة ، والعقود المضلعة ، والنوافذ الوردية ، والواجهات التى تزينها التماثيل الرائعة . وقد استخدموا موارد أسقفياتهم الهائلة والعبقرية المعمارية فى أوربا لتشييد بنايات أكثر إرتفاعا ، وانتهوا إلى تشييد بنايات على هيئة الصلبان بفضاء داخلى أوسع ومتصل غير منقسم بشكل لم يعرفه الناس فى الغرب قبل ذلك . وسرعان ما انتشر الطراز الفرنسى الجديد فى إنجلترا وألمانيا ، بل أن تأثيره إمتد إلى فن العمارة الإيطالى ، حيث كان الطراز الرومانسكى Ro-manesque قد نشأ أصلا . وعلى أية حال ، فإن المنطقة المحيطة بباريس Iie - de - France هى التى شهدت أعظم إنجازات فن العمارة القوطى .

وكان السيد الإقطاعى ، أو الفرد البورجوازى أو الفلاح الذى يدخل كنيسة نوتردام أو شارتر يقع تحت أقوى انطباع عن طبيعة السماء . فقد كان تستخدم كل الفنون ، كما كانت تحرك كل المشاعر لكى تتوجه بنظرة خاطفة صوب أمجاد الحياة السماوية التى تستعصى على الوصف . فقد كان الزجاج المصبوغ «يعكس النور الإلهى » ويغرق إلى المذبح فى مزيج لايحصى من الألوان الإعجازية . وكان المصلون يقفون بالآلاف لكى يشاهدوا ويسمعوا القداس القداس العام فى جو تحيط به الضجة المرئية والموسيقى التى تناسب الكنيسة الإمبراطورية ، يتعجبون من الكيفية التى تم بها بناء حوائط الكنيسة الشاهقة . وكما كانت جوقة المرتلين فى الكنيسة تنغم الأصوات فى الترانيم والأناشيد ، وبينما كان الأسقف أو مساعده يقف أمام المذبح فى مسوحه المذهب ، وكما كان المسيح والعذراء والقديسون يتوهجون فى صورهم المرسومة بالفسيفساء الزجاجى فى نوافذ الكنيسة العليا ، بحيث يبدون فى الظلمة المحيطة بهم وقوفا مجسدين ، كان من السهل تصور جيش الملائكة وهو يقوم بدور الدعائم التى يرتفع فوقها بيت الرب .

هذه الآثار الرائعة للعقيدة باتت ممكنة بقدر هائل من التخطيط ، والمال ، والعمل . وكانت مهمة كبرى تلك التى يضطلع بها كل من يبنى كاتدرائية على الطراز القوطى ؛ إذ كانت تتطلب جهوده المئات من الرجال على مدى سنوات عديدة . والكاتدرائيات الفرنسية التى شيدت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لم تشيدها مجموعة قليلة العدد من القساوسة والعمال الأتقياء وهم يرتلون الترانيم للعذراء . وإنما شيدتها مجموعات من الحجارين الذين

كان يجب أن ينالوا أجوراً مرتفعة لقاء عملهم . ولم يكن الأسقف يقتصر على إستغلال دخله فقط ، وإنما كان يأخذ مبالغ من الملوك والنبلاء ، وسكان المدن . وقد أدى كبرياء سكان المدن إلى تدعيمهم لبناء الكاتدرائيات في مدنهم ، حتى وإن كانوا غارقين في نزاع مرير مع الأساقفة حول حقوقهم الكوميونية . ولم يكن الأسقف يتحرك دائمًا بإلهام من الدوافع السامية؛ إذ كانت الكاتدرائية هي الأثر الذي يجب أن يرتبط به ، فلم يكن الأسقف يعير إهتمامه لمعاناة الفلاحين والمعدمين من سكان المدن ، كما كان يبخل بإحسانه على الفقراء والمعوزين والمرضى ، ولكنه كان هو نفسه يشتهر بين معاصريه ، وفي التاريخ ، ببناء إحدى الكاتدرائيات . وحتى مع كل هذه الجهود ، كان إتمام بناء أية كاتدرائية على الطراز القوطي في مدى ثلاثين سنة يعتبر إنجازا طيبا ، وفي بعض الأحوال كان البناء يستمر على مدى قرن أو أكثر . فقد كان من الممكن أن تبرز كافة أنواع العقبات ، فقد يموت الأسقف الأصلي ولا يهتم خليفته كثيراً بالبناء ، وقد ينفد المال ؛ كما كان من الممكن أن يقع المهندسون والبناءون في مشكلات فنية . وتشييد كاتدرائية على الطراز القوطي عملية مكلفة حتى في عصرنا الحالي ، فضلا عن صعوبة ذلك – فقد تم بناء واحدة في نيويورك في مدة ستين سنة – ولم يكن في القرن الثالث عشر أقل تكلفة وصعوبة . ففي ذلك الحين كان هناك حجارون جاهزون ، وهو ماتفتقر إليه اليوم ، ولكن أدوات البناء في العصور الوسطى كانت بسيطة ، كما كانت معرفة القرن الثالث عشر بالبناء محدودة .

كان المهندس الذي يعمل في العمارة القوطية يضع مخططاته بنسب هندسية . ولم يكن يستطيع أن يحدد بالضبط قوة الضغط على أية نقطة في حوائط المبنى الذي يبنيه ، وكان عليه أن يخاطر كثيراً ، دونما نتائج سعيدة في كل الأحوال . وكلما كان طموح الأسقف الذي يستخدمه كبيراً ، كلما كان عليه أن يأخذ فرصة أكبر ، وكلما كان عليه أن يبني بنيانا أكبر من بنايات القرن الثالث عشر ، كلما كان عليه أن يزيد من تدعيم بنائه بالدعائم الشاهقة لضمان الأمن . وفي ظل هذه الظروف فلاعجب في أن المهندسين المجيدين ، الذين كانوا يبرزون من بين رؤساء البنائين ، كانوا يحظون بتقدير كبير وينالون أجوراً عالية . فقد كانوا صفوة حرفية صغيرة ، وكان أكثرهم نجاحا يتلقى عروضا ، ويعمل في عدة أعمال في وقت واحد .

ولم تكن مهمة المهندس المعمارى قاصرة على تخطيط وتنفيذ بناء الكاتدرائيات ، وإنما كان عليه أيضا أن يشرف على تزيينها . إذ كان هو المسئول على توجيه الحرفيين ، الذين كانت نوافذهم بزجاجها الملون ، وتماثيلهم وإطاراتهم ، وزخرفتهم تعتبر ضرورة للكاتدرائية مثلما كانت الرسوم التوضيحية ضرورة لأى مخطوط جيد آنذاك . وفى الأركان الغامضة فى الكاتدرائية ، أو فوق الحوائط الخارجية السامقة ، كانت تفاصيل الزينة التى لايراها الناظر من على الأرض . وفى بعض الأحيان كان يتاح للحرفيين أن يستخدموا خيالهم ، فابتكروا كافة أنواع الشخوص الغريبة والشاذة التى تتوافق مع روح السخرية العامة أو الأساطير الشعبية ، ولكن عمل الصور المقدسة iconography ، أو أيقونات التماثيل ، والزجاج الملون ، كان يتم بدقة ويتم تصميمه بحيث يستوعب كل التفاصيل تحت إشراف المهندس . وفى بعض الأوقات كان الأسقف أو مقدم الدير الذى بدأ البناء يقدم اقتراحات محددة عن الموضوعات والرموز التى يريد تصويرها فى كنيسته ، وفى أوقات أخرى كان العلماء العاملون فى خدمة الأسقف أو مقدم الدير يقدمون مشورتهم للمهندس . ومن المحتمل أن المهندسين المعماريين المتعلمين كانوا يقدمون العناصر الرئيسية ( الموتيفات motifs ) من لدنهم ، ولكن من الواضح أيضا أن معظم الرمزية فى الفن القوطى لم تكن نتاجا للفكر الواعى ، ولكنها كانت مجرد تحوير لتراث فن الأيقونات المسيحى الذى يمكن تتبع أصوله على مدى عدة قرون سابقة من خلال المخطوطات المصورة . وكان المهندسون المعماريون المثقلون دائما بضغط العمل ، يستعيرون الأفكار من الكنائس القائمة بالفعل . وقد حفظ لنا الزمن كتاب الرسوم الخاص بمهندس معمارى فرنسى من القرن الثالث عشر اسمه فيلار الهونكورتى Villard de Honnecourt وهو يكشف عن أنه طاف بعدة كاتدرائيات ، وعمل نسخا لكل عمل معمارى وأيقونى أعجبه.

وإذا لم تكن كل جوانب الفن نتاجا للفكر الواعى كما يعتقد بعض الكتاب المحدثين المتحمسين ، فإن كاتدرائيات شمال فرنسا تبقى مع هذا رموزاً دالة على الاتجاهات الفكرية التى سادت السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر . وإذا كانت النغمة المتكررة فى فكر القرن الثانى عشر هى الإبداعية والأصالة ، فإن النغمة الدالة فى أوائل القرن الثالث عشر ومنتصفه كانت هى النظام والضبط . وكما كانت الكاتدارائية القوطية تمزج كل الموارد الفنية والهندسية فى القرن الثالث عشر لتبنى بيتا للروح القدس ، حاول مفكرو تلك الفترة وكتابها أن يشيدوا كاتدرائية الفكر . ذلك أن التيارات غير المتجانسة ، والمتضاربة أحيانا ، التى

سادت الحياة الفكرية فى القرن الثانى عشر ، خضعت لعملية فكرية منظمة ، وتم توجيه التواءاتها وانعطافاتها المحيرة فى أطر ونماذج مباشرة ، فضلا عن أنه تم تحديد الحدود الواضحة لأهدافها بدلا من تلك الغايات المفتوحة التى كانت تسير تجاهها . كان الفكر فى القرن الثالث عشر شبيها بالكاتدرائية القوطية بشكل أو بآخر : فقد كان البناء محكوما بصحن مركزى وجناح مفتوح يسمح للجميع بالرؤية ، أى أنه كان فسيحا ، متقنا ، فخما ، ولكنه يحوى أيضا بعض الحجرات الجانبية والكنائس الصغيرة المعتمة والأقل بهاء ورونقا ، كما كان هناك ضغط على حوائط ذلك الصرح الفكرى الكبير الذى كان أحيانا يزعج المهندسين الذين شادوه .

كان لحضارة القرن الثالث عشر حافز يحث على جمع وتنظيم كافة أشكال المعرفة . فقد كان هناك شعور كامن بأنه إذا أمكن مجرد جمع كل المعارف المتاحة فى حقل معين فى نموذج منتظم داخل صفحات كتاب كبير ، لانتهت جميع الشكوك والفوضى ، ولشعر كل المتعلمين بالأمان والسعادة . وكان ذلك رد فعل طبيعى ضد الاتجاهات اللامركزية التى سادت ثقافة القرن الثانى عشر . وتكاتف الجهد المضنى والذكاء الراقى علي انجاز مثل هذه الملخصات المنهاجية ، وشاعت فى جميع المستويات والميادين فى عالم الفكر . فقد كانت هناك خلاصة Summa لكل اهتمام وكل ذوق ؛ وأكثرها شمولا وعمقا ، هو ذلك الكتاب العملاق « المرآة الكبرى Speculum Maius » الذى كتبه فنسان البوفيزى ، الذى كان راهبا فرنسيا من الدومينيكان . وكان للاهوت والفلسفة والقانون ، بكل أنواعه : مدنيا كان أم إقطاعيا ، أو كنسيا أو عاما ، جامعون يقومون بجمع مواده على أساس منهجى . كذلك كانت هناك كتب أساسية فى الكوزمولوجى [١]، تصف الكون على أساس نظريات بطليموس ، وأرسطو ،

---

١ - الكوزمولوجى Cosmology علم من علوم العصور الوسطى يضرب بجذوره فى الكتابات الواردة فى الكتاب المقدس عن الخلق كما يفسره آباء الكنيسة المسيحية ، وفى الفلسفة المسيحية ، والعلوم الطبيعية ، والدراسات العربية . وقد تبنى الغرب الوسيط انجازات الإغريق فى هذا المجال فيما كتبه بلينى الكبير فى التاريخ الطبيعى وكتابات أوغسطين ، وعلى أية حال ، فإن أهم مصادر الكوزمولوجى فى العصور الوسطى هى وجهة النظر الواردة فى الكتاب المقدس عن الخلق التى تؤكد على خلق الكون من العدم وفقًا لمشيئة الرب . ووفقًا لما يقوله علم الكوزمولوجى فى العصور الوسطى فليس هناك ترتيب منطقى للعناصر الكونية ، وإنما يجب أن نتقبلها كما هى وفهم النظام الكونى يتأتى من خلال الدين والمعرفة الإلهية . وكان هذا مذهب الكنيسة الرسمى الذى صاغه القديس أوغسطين . وفى ١٢١٥ أصدر مجمع اللاتيران الرابع قراراً بأن يكون=

والعلماء العرب ، وكانت هذه الكتب جميعا تقدم معلومات مختلفة عن الكون الذى مركزه الأرض بشكل يتفق مع ماجاء بسفر التكوين ، ومركز الإنسان كمحور لما خلقه الله من كائنات. وبالنسبة لمن هم أقل تعليما ، كانت هذه موسوعات تضم جميع أنواع المعارف ، وقد كتبت بعضها باللغات المحلية ، ولقيت ترحيبا وحماسة من النبلاء ذوى الميول الثقافية وسكان المدن الذين يحاولون تحسين أنفسهم . وكانت مجموعات القصص الأخلاقية التى تجرى على ألسنة الحيوانات تلقى رواجا كبيراً ، على الأقل لأنها كانت تصف وتصور حيوانات لم يرها إنسان من قبل .

وكان ولع القرن الثالث عشر بجمع كل المعارف فى ملخصات منهجية وموسوعات مصحوبا بإدماج كل نشاط فكرى هام فى إطار الحياة داخل المؤسسات الأكاديمية . ولم يحدث قبل القرن العشرين أن تحكمت جامعات الغرب الأوربى فى الحياة والفكر على هذا النحو ، بل إن الأكاديميين كانوا يحتكرون هذا التأثير فى القرن الثالث عشر بشكل أكبر مما هو عليه الآن . لقد كان الفكر فى القرن الثالث عشر مدرسيا Scholastic ، أى أكاديميا . فقد كان كل الكتاب المرموقين فى اللاهوت ، والفلسفة ، والقانون والعلوم « مدرسين » ، بمعنى أنهم كانوا أساتذة فى المدارس ، أى الجامعات ، كما أنهم كرسوا أنفسهم لتسخير المنهج الجدلى فى الاستدلال العقلى ، وهو الأمر الذى كان قد بات شائعًا فى القرن الثانى عشر . وكان الوسط التنظيمى الذى عملوا فى رحابه يحكم نظرتهم بطرق أخرى بالضرورة . لقد كانت تلك بيئة تضج بالجدية والمنافسة ، والالتزام ، وهى بيئة ربما كانت أفضل لتهذيب المذاهب السائدة منها لترك النماذج المقبولة وفتح خطوط جديدة للفكر لقد كان الأساتذة والطلاب فى العصور الوسطى يصورون أحيانا فى صور شخصيات بشوشة صافية ؛ ولم تكن تلك هى الحال بصفة عامة . وقد يكون من الأصح أن نصورهم فى صورة نماذج بائسة ، مقهورة ، وعدوانية .

---

= هذا هو الشكل القانونى لعلم الكون ( الكوزمولوجى ) فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقد ساند توماس أكويناس هذا الرأى بمجادلاته الفلسفية . ومن ناحية أخرى ، فإنه منذ القرن الثالث عشر ، وبتأثير العلوم العربية ، طور الفلكيون رأيين مختلفين بشأن الكون ، أحدهما أطلق عليه توماس كانتمبرى Thomas of Canntimpre الكوزمولوجى الأرسطى ، وهو يقوم على ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وهو الذى طوره روجر بيكون . وقد ظلت هذه المذاهب والآراء قائمة حتى قيام نظريات كوبكرنيكوس خلال عصر النهضة .

A.D. Sertillanges , L'Id'ee de la creation et ses retentissements en Philosophie(1945) .

( المترجم )

كانت الجامعة فى العصور الوسطى ، وهى التى تطورت عن المدارس الكاتدرائية الفرنسية والمدارس البلدية الإيطالية فى القرن الثانى عشر ، مساهمة مميزة وأصيلة فى عملية تنظيم التعليم العالى . وكانت منظمة على أساس تدريس فروع عديدة من المعرفة لعدد كبير من الطلاب بطريقة منهجية ورخيصة بقدر الإمكان ، وبهذا كانت أرقى من مدارس البلاغة وأكاديمياتها التى عرفها العالم القديم . لقد قام نظام جامعات العصور الوسطى على أساس التحاق الطلاب بها والدراسة من خلال برامج محددة ثم اعطائهم درجات تشهد لهم بالحد الأدنى من الكفاءة ؛ وماتزال هذه هى الفكرة الأساسية للجامعة فى الحضارة الغربية . كذلك طورت الجامعة فى العصور الوسطى منهجًا جديداً للتعليم يتضمن المحاضرات واستخدام الكتب الأساسية ، ومايزال هذا ساريا بشكل أساسى حتى اليوم ، بغض النظر عن صلاحيته أو سوئه . لقد كانت المحاضرة فى العصور السطى « قراءة » ؛ إذ كان الأستاذ يقرأ فقرة من نص ، مثل قوانين جستنيان ، أو الكتاب المقدس ، أو أحد مؤلفات أرسطو ، ويطور تفسيره بوضع هوامش على النص . وبما أن الكتب لم تكن ميسورة سوى فى شكل مخطوطات ، فإنها كانت مكلفة إلى حد كبير ، وكان الطلاب الأثرياء فقط هم الذين يستطيعون شراء نسخ الكتاب المقرر . وقد يشترك ثلاثة من الطلاب أو أربعة فى شراء كتاب ويدونون الهوامش التى يمليها الأستاذ على النص . وكانت المناقشة بين الطلاب والأساتذة قليلة أو معدومة . وكان الحوار السقراطى الوحيد فى جامعات العصور الوسطى يدور بين الأساتذة فقط؛ لأنهم كانوا يقومون بين الحين والحين بالتنافس على إعطاء محاضراتهم على نفس النص، وبذلك ينخرطون فى مناقشات عامة وواسعة حول الموضوعات محل الخلاف :

لقد نظمت الجامعات على أساس أنها نقابات خاصة لصناعة الرجال المتعلمين . وفى شمال الألب كان المدرسون يتصرفون مثل المعلمين فى أية نقابة أخرى ، إذ كانوا يقررون المدى والوقت الذى كان على الطالب أن يمضيه كتلميذ ودارس ماهر ، كما أنهم وضعوا الشروط التى تخول له حق الدخول فى زمرة الأساتذة والحصول على آخر درجاته العلمية . وجميع هذه الدرجات ، سواء كان الطالب يحصل بعدها على لقب معلم أو دكتور ، كانت من الناحية الفنية ترخيصا له بالتدريس ، على الرغم من أن معظم خريجى الجامعات لم يعملوا بالتدريس. وكانت تلك شهادات بالكفاءة ومدى المهارة اللازمة فى الحرفة التى تحترفها النقابة . وكانت المستويات الفكرية ومدى الدراسة التى ينبغى على الطالب انجازها قاسية . ففى مدارس

إيطاليا التى تخصصت فى القانون المدنى فى الشمال ، وفى الطب فى الجنوب ، كانت النقابة فى أيدى الطلبة ، أو طلاب شهادة البكالوريوس الذين كانوا يستأجرون المدرسين ، ويقررون القواعد التى تتطلب من المحاضرين أن ينتهوا من التعليق على النصوص المقررة قبل نهاية الفصل الدراسى . كان هذا هو الموقف البورجوازى تجاه التعليم . وكانت الامتحانات فى جامعات العصور الوسطى تتم شفويا ؛ وكانت شاملة وصعبة .

أما نقابات الأساتذة فى الشمال فكانت تحصل على الترخيص من الأسقف الذى يقومون بالتدريس فى مدينته . ومن آن لآخر كان الأسقف يتدخل فى شئون الجامعة إذا كان مهتما بالمدلولات المذهبية لما يقوله أو يكتبه أحد الأساتذة . كذلك كانت البابوية والملوك يشرفون على الجامعات . ونتيجة لهذا ، كان يحدث أن يمنع الأساتذة من التدريس وتدان آراؤهم ومذاهبهم بين فترة وأخرى . ولكن مايجذب الإنتباه هو درجة الحرية الكبيرة التى كان الأستاذ فى القرن الثالث عشر يتمتع بها ، حتى فى مجال اللاهوت والفلسفة . وكان النظام الذى يخضع له الأستاذ ويسمح بالسيطرة عليه مسألة محصورة فى نطاق الجامعة . إذ كان زملاؤه ينافسونه دوما بغية الوصول إلى التميز الفكرى ، وأفضل مراكز الأستاذية ، فضلا عن إخلاص الطلبة والرسوم التى كانوا يدفعونها أحيانا . وكان أى شذوذ أو فكر ثورى يجد تحديا قويا . كما أن كثيرين من الأساتذة كانوا أعضاء فى منظمات رهبانية ، لاسيما من الدومينيكان والفرنسسكان ، مما كان يؤدى إلى المزيد من التحكم فى أعمالهم .

وإنها لخرافة تلك التى تقول إن غالبية طلاب الجامعات فى العصور الوسطى كانوا متحمسين ويريدون أن يصبحوا من علماء اللاهوت . فالواقع أن نسبة الطلاب الذين كانوا يدرسون اللاهوت بين طلاب جامعات القرن الثالث عشر لم تكن تزيد عن النسبة الموجودة اليوم. فقد كانت أكثر كلية محببة فى أوساط الطلاب هى كلية الحقوق ، وماتزال هذه الكلية تجتذب اليوم عدداً كبيراً ولنفس الأسباب . فقد كانت هى الطريق إلى الوظائف الكبرى فى الكنيسة والدولة . ومن ناحية أخرى ، كانت دراسة اللاهوت ، على الرغم من إحتمال أنها كانت مبجلة كملكة بين العلوم ، دراسة طويلة وصعبة ، ولا تتيح سوى القليل من فرص التوظف بعد الحصول على الدرجة . وكانت حياة الطالب فى العصور الوسطى صعبة على الدوام ، وبائسة إلى أبعد الحدود . فقد كان معظم الطلبة أبناء لأسر الفرسان الصغار ، الذين لم يكن بمقدورهم أن يقدموا لأبنائهم سوى القليل عن طريق الإرث ، أو من سكان المدن الذين كانت الجامعات بالنسبة لهم سبيلا للهروب من طبقتهم والدخول فى خدمة الكنيسة أو الدولة .

وقد ساءت ظروف الطلاب بما فيها من إحباط بسبب الأسعار الملتهبة ، وعدم كفاية الطعام ، وتوفر المسكن فى المدن التى توجد بها الجامعات مثل باريس وأوكسفورد . كذلك كانت المشاجرات التى تنشب بين آونة وأخرى بين سكان المدن والطلاب ، بل وحوادث الشغب الواسعة النطاق ، نتيجة طبيعية لهذا . وكان المفروض أن يقوم الملك والأسقف بحماية الطلاب من الإستغلال . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الصعيد الواقعى . وقد تأسست جامعة كمبردج فى مطلع القرن الثالث عشر على أيدى الأساتذة والطلبة الذين تركوا أوكسفورد تأففا بعد شغب عنيف جداً إندلع بين الطلبة وأهل المدينة . وفى غضون القرن الثالث عشر بدأ بعض المحسنين الأغنياء ، ومنهم روبير السوربونى Robert de Sorbon فى باريس ، يشيدون بيوتا جماعية أو كليات Colleges للطلاب . وفى أوكسفورد صارت الكلية أكثر أهمية فى الحياة التعليمية فى الجامعة . وكان من المتبع أيضا فى باريس تقسيم الطلاب إلى « أوطان » معينة وفقا للإقليم الذى نزح منه كل فريق منهم . كان الطالب يجد دراسته طويلة وصعبة . وتكاليف المعيشة مرتفعة ، والنظام الذى يخضع له صارما . فلا غرابة فى أنه كان يجد لتعاسته متنفسا فى معاقرة الخمر ، والمقامرة ، فضلا عن مشاجرات الشوارع بين الحين والآخر. ولاغرابة أيضا فى أن بعضًا من ألمع مفكرى الحياة الجامعية فى القرنين الثالث والرابع عشر كانوا رجالا مشاغبين ذوى شخصيات مضطربة إلى حد ما .

كانت كلية الآداب تقدم الدراسات الأساسية فى جامعات العصور الوسطى ، وهى الدراسات التى كان الطلاب يمضون بعدها بالسرعة الممكنة إلى دراستهم المتقدمة فى القانون ، أو اللاهوت ، أو الطب . وعلى العموم لم يكن الأساتذة فى كلية الآداب هم أفضل مفكرى جامعات العصور الوسطى . إذ كان تناولهم للكلاسيكيات يفتقر تماما إلى القيم الإنسانية التى وجدها حنا السالزبورى فى الفنون الحرة . فقد كان حنا يخشى ألا تسود النزعة الإنسانية فى ظل الجو الجدلى المسيطر على الجامعة ، وقد أثبتت التطورات التالية لدراسة الآداب الحرة صدق حدسه . إذ كان المدرسون فى القرن الثالث عشر ينشدون الحقيقة ، ولكنهم لم يكونوا يقدرون الآداب العظمى سواء من حيث خصائصها الجمالية ، أو من حيث كونها معلما للأخلاقيات . فقد كان المدرسون فى كلية الآداب يتناولون الكلاسيكيات بطريقة تحليلية للغاية؛ كما كانت نظرتهم للنصوص القديمة تقوم على أنها مصدر للمعرفة ينبغى أن يخضع للجدل . وكان من الواجب تشريح البناء اللغوى والمجازى ، ثم تناولها بطريقة منهجية . ولكن مدخلهم النفعى المحدود لم يترك مجالا للأفكار أو القيم التى يحملها التراث الكلاسيكى على

حد سواء . وكان العالم القديم لايعنى شيئا بالنسبة لهم فقد كانوا مدركين فى قرارة أنفسهم أنهم منفصلون عنه . كان الفكر فى القرن الثالث عشر فى أضعف مواقفه بسبب عدائه للنزعة الإنسانية ، وعلى المدى الطويل قيض لهذا الفشل أن يكون ذا أهمية فائقة فى ثقافة العصور الوسطى المتأخرة . وكانت حركة الحفاظ على التراث الكلاسيكى ، وهى المهمة التى اضطلعت بها المدارس الكنسية منذ القرن السادس ، تجرى خارج الجامعة مرتبطة بالتراث الأدبى الرومانسى . فقد كان الشعراء الإيطاليون فى أخريات القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر هم أصحاب الفضل فى إحياء القيم الإنسانية ، وكانوا هم حقا خلفاء حنا السالزبورى . وكانت عداوة الإنسانيين فى عصر النهضة تجاه الجامعات ، على الرغم من أن معظمهم كانوا من خريجى الجامعات ، نتيجة معارضة الجامعيين للتراث الإنسانى فى القرن الثالث عشر .

كان المدرسيون يعتقدون أن منهجهم الجدلى وحصيلتهم الكبيرة من التعليم المسيحى واليونانى تؤهلهم لحل جميع المشكلات . فهم على سبيل المثال ، كانوا يكرسون وقتا كبيراً ومناقشات طائلة حول ما إذا كان الربا يتوافق مع العقيدة المسيحية ، وحول ماهية « السعر العادل » الذى ينبغى أن تسمح السلطات الكنسية للتاجر بأخذه . وبينما استنتج المدرسون أن هناك قيوداً أخلاقية على المشروعات الرأسمالية ، فإنهم مع هذا كانوا يسمحون لأصحاب المشروعات بعائد مربح من استثماراتهم وأموالهم . وعلى صعيد الممارسة الفعلية كانت القيود المدرسية على الفائدة أو المكسب تلقى التجاهل والاحتقار من التجار والمصرفيين .

وكان المطلب الخاص الذى كان المجتمع ، والكنيسة على نحو خاص ، يطلبه من المدرسيين ، يقع فى مجالات المنطق ، والميتافيزيقيا ، والمعرفة ، واللاهوت . فالمشكلات التى كانت قد طرحت جانبا من القرن الثانى عشر والتى صارت أكثر إلحاحا وضغطا نتيجة لإستيعاب العلم الأرسطى ، والتعليقات والإضافات العربية عليه ، كانت هى المشكلات التى تمرست فيها تماما المهارة الجدلية والقدرة العقلية الفائقة التى تميز بها المدرسيون فى القرن الثالث عشر . وبمنتصف القرن كانت هناك فوضى شديدة وتضارب بين الفلاسفة واللاهوتيين لأن النظم العقلية المتنافسة والمتضاربة كانت تقف فى وجه بعضها البعض . وكان مايزال هناك أولئك الذين يؤيدون الفلسفة الأوغسطينية القديمة ومذهب الأفلاطونية المحدثة ، إلى جانب من يؤيدون الموقف الواقعى القوى . وكان هناك أحد أساتذة كلية الآداب فى باريس ، وهو سيجيه البرابنتى Siger of Brabant الذى كان يناصر مذهب ابن رشد بعقلانيته الصارمة ، وإنكاره

للخلق من العدم وفردية الروح بشكل يتعارض تماما مع المفاهيم الدينية المسيحية . وكان هناك راهب دومينيكانى ألمانى فى باريس ، اسمه البرتوس ماجنوس Albertus Magnus ، يحاول أن يبنى موقفا مسيحيا أرسطيا ولكنه لم يحرز نجاحا كبيراً .

وعند هذه النقطة ، بدأ دومينيكانى آخر فى باريس ، هو توماس اكويناس[٢] Thomas Aquinas ( ١٢٢٥ - ١٢٧٢ ) يبنى نظامه الخاص . وكان عمله الذى أكمله فى القرن الثالث عشر وأجمله فى كتاب « خلاصة اللاهوت Summa Theologica » نقطة تحول فى الفكر فى القرن الثالث عشر ، فقد كان طفرة بالغة الأهمية . ولكن كان محيراً ومشوشا بقدر ماكان يرضى المثل العليا للمعاصرين . وليس هناك ماهو أبعد عن حقيقة ثقافة القرن الثالث عشر من أن نتصور أن الفلسفة التوماسية لقيت ترحيب الجميع باعتبارها الحل لمشكلات الكنيسة الفكرية . وربما تعتبر الكاثوليكية الحديثة أن الفلسفة التوماسية كانت هى الفسلفة الرسمية للكنيسة ، ولكن هذا بعيد جداً عن الموقف الذى كان سائداً فى أيام سان توماس وعلى مدى القرنين التاليين . إذ كان الكثيرون يعتبرون أن توماس مفكر ثورى ، فلسفى ومغرض إلى حد كبير . ولكن أهمية عمله كانت محل الإعتراف منذ البداية حتى من جانب أولئك الذين إنتقدوها . لأنه كان قد أوجد نظاما مضبوطا ، هائلا ومركبا ، وحاذقا ، مزج مابين العلم الأرسطى والدين المسيحى بأكبر قدر ممكن من الكمال . وبقى السؤال مطروحا ، على أية حال ، عما إذا كان هذا النظام يصلح فلسفيا أم أنه يلقى القبول من الناحية اللاهوتية.

ولم ينزعج أكويناس . ولم يُعكِّر النقد الذى وجه إليه داخل جامعته أو خارجها صفوه المعتاد . ذلك أنه لم يواجه الهجوم من جانب بعض زملائه فقط ، وإنما أيضا من جانب أسقف باريس ومن جانب أبرز فيلسوف دومينيكانى فى أوكسفورد . ولكن توماس إستمر فى تعاليمه وكتاباته ، وأخذ يضيف رويداً رويداً إلى بنيانه العقلى الذى قال مؤرخ الفن أيروين بانوفسكى Eruin Panofsky إنه يكشف عن كل خصائص الكاتدرائية القوطية . لم يكن

---

٢ - يرد ذكره فى بعض المؤلفات والترجمات العربية بلسم توما الاكوينى ، ولكننا نرى أن من الأفضل دائما أن يكتب الاسم كما ينطقه أبناء اللغة الأصلية .

(المترجم )

عبثا أن أكويناس صار يعرف باسم « الدكتور الملائكى » . فشخصية توماس أكويناس ، التى تتميز بالثقة فى النفس ، والصفاء ، والإعتدال فى النقاش ، غالبا ماكانت تعتبر الشخصية النمطية لأستاذ الجامعة فى العصور الوسطى ؛ ولكن هذه الخصال هى التى جعلت منه الاستثناء الكبير بين الأساتذة . فمن ناحية كان تفوقه العقلى سببا فى صفائه ، ولكن يجب أن نعزى هذه الصفة أيضا إلى سمنته الشهيرة وإلى خلفيته الطبقية أولا وأخيراً . فقد كان توماس سليل عائلة ارستقراطية من نابولى ، وكان يرتكز فى عمله الفكرى على ثقة وطيدة بالنفس نابعة من كرامة المحتد .

ويمكن القول بأن فلسفة توماس أكويناس المسيحية قد تأسست على التناقض ؛ فقد حاول أن يتوصل إلى معظم نتائج أوغسطين وماقالت به الفلاسفة الأفلاطونية المحدثة باستخدام أكبر قد ممكن من علم ابن رشد ومنطقه . وكانت تلك مهمة جسورة تحف بها المخاطر ، ولا غرو أنه حير معاصريه ودوخهم بجسارته وبإنجازه لهذه المهمة فى كتاب منهجى ضخم . ويقوم الفرض الأساسى لتوماس على أن الفلسفة الأرسطية لاينبغى أن تؤدى بالضرورة إلى الإستنتاجات التى إستقاها ابن رشد « الشارح » من أقوال أرسطو « الفيلسوف » . وعلى الرغم من أن ناقديه قد اتهموه ، دون وجه حق ، بأنه اقترب من الفسلفة الرشدية لأنه يستخدم العلم الأرسطى أساسا لفلسفته ، فإنه كان يريد أن ينفى إزدواج الحقيقة الى قال بها المفكر العربى العظيم[٣]. فلم تكن هناك حقيقة فى العلم وحقيقة أخرى فى الدين ؛ إذ كان من الممكن البرهنة على المذاهب الأساسية فى المسيحية بالمنطق العقلى . وكانت معرفته الأرسطية هى التى أتاحت له أن يتوصل إلى هذا الاستنتاج . ويقوم نظامه العقلى كله على مبدأ أن

---

٣ – ينسب الرشديون اللاتين ، وهم علماء أوربا الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد ، إلى هذا الفيلسوف العربى أنه قال بالحقيقة المزدوجة ذات الوجهين ، بمعنى أن ماهو صادق فى مجال الدين قد يكون خاطئا فى مجال الفلسفة . وعلى أساس هذا الاعتقاد نشبت الخلافات حول موقف ابن رشد . انظر : R.R., " Arabian Philosophy ", in Ency . Brit . , II, 195 .

وعن تلخيص موقف هؤلاء انظر : محمد عاطف العراقى ، النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ، ص ٢٨٧ – ص ٢٩١ . ويرى الدكتور محمد عاطف العراقى أنه « من الخطأ الظن بأن ابن رشد قد تكلم عن العلاقة بين العقل والشرع حاصراً نفسه فى دائرة الشرع ، أو واضعا فكرة فى قوالب جدلية ، بل معلنا لمبادئ عقلية برهانية يؤمن بها هو . وعلى هذا تكون نظرية التوفيق هذه نظرية تساوق مبادئ العقل مساوقة تامة » .

(المترجم)

معرفتنا لاتأتى من المشاركة المنيرة للعقل فى الأفكار الإلهية والخاصة ، كما تقول الفلسفة الأوغسطينية ، وإنما تبنى أساسا من التجربة الشعورية . وبوصفه مفكراً أرسطيا ، فإنه لم يكن يستطيع تقبل النظرية الأفلاطونية عن الأشكال ؛ لأنها لم تكن نظرية علمية فى رأيه ، وأية فلسفة مسيحية تقوم على هذه المعرفة الزائفة لابد وأن تفشل كما فشل الواقعيون فى القرن الثانى عشر فى مواجهة الهجوم الرمزى . وعلى أية حال ، فإذا كان أصل المعرفة الإنسانية فى الحواس ، فإن الأبنية الفكرية سوف تقوم على أساس سليم ، ويمكننا بذلك أن نمضى بالعقل لكى نتأمل طبيعة الحقيقة . وهكذا يصل أكويناس إلى الإستنتاج الذى يمكن أن نصفه بأنه « واقعية معتدلة moderate realism » ولكنه يتوصل إلى هذه الواقعية المعتدلة من نقطة انطلاق أرسطية لا أفلاطونية . وقد اعترف أن هناك مناطق نهائية فى العقيدة المسيحية لايستطيع العقل أن يتوغل فيها ؛ فمن المستحيل البرهنة على معجزة تجسد المسيح أو الثالوث . ولكن يمكن البرهنة العقلية على وجود الله ووجود الكثير مما ينسب إليه . وقد طرح أكويناس خمسة براهين على وجود الله ؛ وتقوم على أساس من الجدل الأرسطى عن وجود العلة الأولى . ولايمكن أن تكون هناك لانهائية فى السببية ؛ وإنما لابد أن يكون هناك محرك أصلى ثابت ، هو الذى قال عنه أكويناس أنه الله . ويمضى فى الجدل بحيث يتعرض لكثير من الشكوك حول هذا الموضوع لكى يصل إلى الله باعتباره كاملا ، عليما ، قادراً على كل شئ ، وحراً . وعلى نفس المنوال يمضى أكويناس من السببية الأرسطية من خلال الجدل المنطقى لكى يبرهن على الخلق من العدم ، ومن علم النفس الأرسطى يمضى إلى الروح الإنسانية ، ومن الأخلاق الأرسطية يمضى إلى الفضيلة المسيحية .

كان أكويناس يعتقد أنه اقترب جداً من المبادئ النهائية لتعاليم أوغسطين . وقد توصل إلى ذلك عبر طريق جديد ؛ وهو طريق الأفلاطونية التى أحلها محل العلم الأرسطى . وينقسم نقاد الفلسفة التوماسية إلى طائفتين : الرشديون ، وغيرهم ممن يدرسون أرسطو وزعموا أن توماس أساء استغلال مؤلفات الفيلسوف وأنه أنحرف بالسببية الأرسطية والمنطق الأرسطى . وقد أنكر أولئك الذين يأخذون بالمذهب الأفلاطونى الجديد والفلسفة الأوغسطينية أنكروا أنه توصل إلى الألوهية الأوغسطينية على الإطلاق . وإنما زعموا أن توماس قد زل فى القدرية الأرسطية . وقالوا إن الألوهية عند توماس ميكانيكية آلية وليست قادرة حرة - فالرب إله وليس المسيح . كما أدعوا أن الكون الذى نظمته التوماسية يقوم على أساس رفض أوغسطين

فى سبيل أرسطو . كما زعموا أن توماس قضى على التفرقة بين وجهة النظر العالمية الأغريقية ووجهة النظر العالمية المسيحية ، وهى التفرقة التى كان أوغسطين قد أرسى دعائمها . فقد كان أوغسطين قد أكد على تفوق الإرادة على العقل ؛ ولكن توماس حقق عالمه المنظم بأن أخضع الإرادة لتفوق العقل .

وكانت آخر الإنتقادات التى وجهت إلى التوماسية هى تلك التى وجهها الفلاسفة الفرنسسكان ، الذين كانوا قد بدأوا يسيطرون على كلية اللاهوت فى أكسفورد عند موت أكويناس . فقد كان معاصرا لتوماس الفيلسوف الإيطالى بونافنتيرا Bonaventura ( ١١٢١ - ١٢٧٤ ) ، الذى كان هو أيضا رئيس جماعة الأخوة الصغار ( الفرنسسكان ) . وقد نشر مقالة كبيرة أعادت تأكيد الموقف الأفلاطوني - الأوغسطينى فى مواجهة الفلسفة الأرسطية الجديدة . وفى نظام بونافنتيرا ترتبط النظرية الأفلاطونية الواقعية ، التى تقول بأن الكليات هى التى توجد المادة ، ارتباطا قويا بلاهوت أوغسطينى يتسق مع رؤية أتباع سان فرنسيس . فتفوق الحب ، والإرادة على العقل عاد ليتأكد من جديد ، كما تأكدت جلالة الرب ورحمته فى مواجهة الألوهية الآلية عند أرسطو .

كانت محاولة بونافنتيرا لطرح صياغة فلسفية للمثال الفرنسسكان تعبيراً عن تيار كبير معاد للفكر فى القرن الثالث عشر ، وهو تيار لم يَقُمْ على التمسك بهدوئه طويلا فى مواجهة مضامين ومدلولات الفلسفة التوماسية . فقد أعادت الفرنسسكانية إلى رحاب الكنيسة تيار التدين الذى كان قد فاض خارج الضفاف الكنسية فى القرن الثانى عشر مهدداً بتدمير تفوق وسيادة السلطة الكنسية . ولكن إذا كان التدين قد اعترف مرة أخرى بسلطة الكنيسة ، فإنه مع هذا كان مايزال يحمل مفهوما محدداً للغاية عن الرب ، ولم يكن هو ذلك المفهوم الذى ظهر فى كتاب خلاصة اللاهوت Summa Theolgia . وحتى عندما كتب توماس ترنيمة عن جسد المسيح Corpus Christi . كانت احتفالات من النمط القديم « بالأب الدائم ، والإبن الذى يحكم فى العلياء مع الروح القدس التى تنبثق من كليهما بشكل أبدى وخالد » . وكانت روح الترنيمتين الفرنسسكانيتين الكبيرتين فى القرن الثالث عشر ، واللتين نظم أولهما جاكوبون ديتودى Jacopone de Todi بعنوان Sabat Mater ، ونظم الثانية توماس سيلانو Thomas Celano بعنوان Dies Trae ، تختلف عن روح ترنيمة توماس أكويناس اختلافا كبيراً . إذ أن هاتين الترنيمتين توضحان سويا الموضوعين التوأمين فى وجهة النظر الفرنسسكانية العالمية : أى الحب الدينى وجلالة الرب :

أنت أيتها الأم ، يانبع الحب
إلمسى روحى فى عليائك
واجعلى قلبى يتوافق معك !
إجعلينى أشعر بما كنت تشعرين
واجعلى روحى تحلق وتذوب
فى حب المسيح سيدى .

* * *

لقد رحت أيها الرب ، ونحن نخافك بحيث أننا
نحتمى منك بك
وبجناحى حمامتك أنت
نطير إلى رحاب الحب

فى منتصف القرن الثالث عشر اتضح تماما تأثير الحركة الفرنسسكانية من خلال الشعبية الهائلة التى كان يتمتع بها مذهب ذلك الرجل الفقير القادم من آسيسى ( فرنسيس ) ، كما تصفه الحكايات المعروفة باسم « الزهور الصغيرة » وهى حكايات تتخذ طابع السيرة والأسطورة معا ، وقد ذاعت عقب موت فرنسيس مباشرة ، وفى قوالب كثيرة مختلفة . كذلك تكشفت أهمية الحركة الفرنسسكانية من خلال المفكرين اللامعين الذين اجتذبتهم ، على الرغم من أن سان فرنسيس نفسه كان يعارض التعليم على اعتبار أنه غواية خطيرة . وبحلول سنة ١٢٧٠ كانت الحياة الفكرية فى أوربا ، التى ظهر فيها صرح التوماسية شامخا للغاية ، قد بدأت تشهد بروز مجموعة من الفلاسفة الفرنسسكان الذين كانوا قد بدأوا يصوغون معارضتهم لما يقوم به الدومينيكان من خلط بين العلم والدين . وبعبارة أخرى ، كان ثمة انقسام خطير قد بدأ يحدث فى عالم الفكر المنهجى فى القرن الثالث عشر .

وتبدو البداية الغامضة للعلم الحديث وكأنها فرخ من أفراخ الفكر الفرنسسكانى فى القرن الثالث عشر . ويبدو الموضوع أكثر غموضا بسبب افتقارنا إلى إجماع الآراء حول طبيعة العلم الحديث الأساسية . فهل يمكن تعريف العلم بأنه ملاحظة طبيعية ؟ هذا تعريف غامض للغاية

يعجز عن تمييز العامل الجديد الذى يفصل العلم الحديث عن العلم القديم . فهل هو الخاصية الكمية للطبيعة ، أى التعبير عن الظواهر لطبيعية فى مصطلحات رياضية ؟ يبدو هذا تعريفا جيداً ، لولا حقيقة أن الرياضيات لاتصدق على الطبيعة فى بعض الأحيان ؛ ذلك أن الرياضيات تحدد العلاقات التى لاتوجد فى الطبيعة دائما . وقد يمكن للإنسان أن يعرف العلم الحديث من خلال المنهج التجريبى . وهناك ، على أية حال ، بعض الغموض حول طبيعة المنهج التجريبى على الرغم من أنه يمكن القول بأنه يتعلق بالمنطق الاستقرائى إلى حد ما .

وأيا كان التعريف الذى نعتبره تعريفا صحيحا لطبيعة العلم ، فإن مؤلفات أسقف لنكولن روبرت جروستست Robert Grosseteste ( ١١٧٥ - ١٢٥٣ م ) ، وحامى الفرنسسكان الإنجليز ، ومؤلفات الراهب روجر باكون Roger Bacon ( ت ١٢٩٢ ) يمكن أن ينسحب عليها هذا التعريف ففى كلتى الحالين كان ثمة مكسب للمعرفة الجديدة من خلال الملاحظة فى ميادين البصريات والفلك ، حيث كانت المعدات المطلوبة قليلة مع قدر ضئيل من فهم المنهج الاستقرائى والمنهج الاستنباطى . فقد أكد جروستست على الحاجة إلى التعبير عن الظواهر الطبيعية فى ضوء النسب الرياضية . وقد فتحت العلوم الرياضية العربية التى غزت أوربا أبواب البعد الرياضى فى الفكر الإنسانى أمام المفكرين الأوربيين للمرة الأولى . وفضلا عن ذلك تتميز كتابات باكون بنغمة من الجرأة الفكرية والاستقلالية التى يمكن ربطها بالموقف العام للعلماء المحدثين . والسؤال الهام الذى يبرز من ثنايا مؤلفات هذين الرجلين هو : لماذا جاءت الخطوات الأولى صوب العلم الحديث من الفرنسسكان ولم تكن نتاجًا للحركة التوماسية؟ من ناحية ، تكمن الإجابة فى طبيعة الفلسفة الأرسطية ، ومن ناحية أخرى ، نجدها فى الاتجاهات التى اتخذتها الحركة الفكرية الفرنسسكانية . إذ كان العلم الأرسطى هو أفضل العلوم المعروفة فى العالم حتى ذلك الحين ، وهذا هو مادفع توماس إلى التفكير فى إدماجه فى الدين المسيحى . ولكن بما أن هذا العلم كان قائما على أساس من السببية الاستنباطية على مقدمات منطقية ، فإنه كان طريقًا مسدوداً أمام محاولات توماس . وكان باكون هو أول من أدرك ذلك بوضح . وبهذا المزج بين العلم الأرسطى والدين حول توماس العلم إلى نظام مغلق لايمكن أن يتحرك فى اتجاهات جديدة . وربما كانت الحركة الفرنسسكانية ، بتدينها العاطفى ، تبدو نقطة بداية غريبة للعلم ، لكنها كانت ذات خصائص معينة أثبتت جدواها فى هذا السبيل . وكان أفلاطون هو الذى قال بأن الكون يعمل فى ضوء أشكال

تتناسب تناسبًا رياضيًا مثاليًا ، والضوء الأفلاطونى الأول كما عبرت عنه كتابات جروستست، هو الذى قاده إلى نظريته عن المدلول الكمى للطبيعة . أما باكون ، الذى كتب بعده بقليل ، فكان متأثراً بالثورة الفرنسسكانية ضد الأرسطية ، وهى الثورة التى كانت تهدد فى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر ، بانفصام كاتدرائية الفكر المدرسية .

٢ - السلطة الأخلاقية للدولة :

أدت محاولات سان توماس ، لوضع جميع مشكلات العقل الإنسانى فى إطار نظام مضبوط ، إلى قيامه بتطوير نظرية فلسفية كانت على درجة من الجسارة والأهمية تعادل جسارة وأهمية فلسفته وآرائه اللاهوتية . وكما اصطدم بالتراث الأفلاطونى للعصور الوسطى الباكرة في تفسير للطبيعة الإلهية ، فإنه أوجد ثورة فى مجال الفكر السياسى أيضا . ففى العصور الوسطى الباكرة كان الفكر السياسي محكوما بعداء أوغسطين للدولة وإنكاره للخاصية الأخلاقية المستقلة للسلطة السياسية . فقد كانت الفلسفة الأوغسطينية تضع الإرادة فوق العقل ، بخلاف التعاليم الأرسطية ؛ كذلك كانت الأوغسطينية السياسية تنفى وجهة النظر الإغريقية عن الدولة ككائن أخلاقى وجوده ضرورى لتحقيق الطاقات الإنسانية الكامنة. إذ لم يكن الإغريق يستطيعون الإقتناع بأن الإنسان يمكن أن يعيش بمعزل عن الدولة . ولكن أوغسطين كان يرى أن المهم هو الرجل الداخلى ، وليس الرجل الاجتماعى . كما أن العلاقة بين الروح الإنسانية والله القوى هى فقط التى تجعل للحياة الإنسانية معنى . وكان أوغسطين يرى أن الدولة ، بحد ذاتها ، مجرد مجموعة من اللصوص . ليست لها أية صفة أخلاقية ، كما أن الدولة لاتكتسب أية سجايا أخلاقية سوى بقدر ما تمضى فى سبيل تحقيق أهداف مدينة الله . وحين تحولت الأوغسطينية إلى مذهب أكثر تحديداً ، صارت هى النظرية السياسية للكنيسة فيما قبل القرن الثانى عشر ، وهى نظرية كانت تجعل من الدولة خادمًا للكنيسة ولم تعط للدولة من الصفات الأخلاقية إلا بقدر خضوع الملكية نفسها لمطالب وأوامر السلطة الكنسية والبابوية على وجه الخصوص ، وقد وصلت الأوغسطينية السياسية إلى أكمل شكل لها فى الجوانب الثورية للمذهب الجيلازى ، وهبة قنسطنطين ، وتصريحات جريجورى السابع . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حافظ رجال القانون الكنسى ، العاملون تحت حماية البابوية، على هذه السلطة النظرية السياسية فى صياغة جديدة تمثلت فى مذاهبهم القانونية عن السلطة البابوية المطلقة .

ولكن تدعيم السلطة العلمانية فى المجتمع على الصعيد الواقعى ، وبشكل مطرد ، جاء مناقضا لتراث السلطة الكنسية . ومنذ منتصف القرن الثانى عشر بدأ تيار جديد فى الفكر السياسى بين كبار مفكرى أوربا يطفو على السطح رويداً رويداً ... ودون التخلى عن نظرية السمو النهائى للكنيسة ، تمت محاولات لصياغة نظرية الدولة يمكن أن تتوافق بشكل أكثر واقعية مع الظروف الاجتماعية الفعلية ، تكون فيها الحكومة الملكية ضرورة لاغنى عنها . وقد خطا حنا السالزبورى ، وأوتو الفريزى ، فى القرن الثانى عشر ، الخطوات الأولى فى هذا الاتجاه الجديد ، وبقى على توماس أن يصوغ الاتجاهات الفكرية الجديدة فى القرن الثانى عشر فى مذهب محدد ، مثلما فعل فى مجالات الفكر الأخرى .

وكما كان الحال فى أعماله الفلسفية واللاهوتية ، وجد توماس فى العلم الأرسطى منطلقا لمذهبه السياسى . إذ كان تأثره بكتاب « السياسة » لأرسطو يعادل تأثره بما كتبه فى الميتافيزيقا ، والمعرفة ، والأخلاق . وعليه فإنه كان مستعداً لتقبل وجهة النظر الإغريقية عن الضرورة الأخلاقية للدولة ، ولتقبل مذهب أرسطو القائل بأن الإنسان كائن سياسى يمكن أن تتحق قواه الكامنة فى مجتمع سياسى . وهكذا كان مذهب أكويناس السياسى ثورة ضد تراث الأوغسطينية السياسية ، واستعادة للرؤية الإغريقية عن المضمون الأخلاقى لسلطة الدولة . ولكنه لم يكن يريد الإطاحة بما توصل إليه آباء الكنيسة . مثلما حاول فى مؤلفاته اللاهوتية حين رفض الأوغسطينية روحا ومنهاجا ، وإنما كان يريد أن يتوصل فى الفكر السياسى إلى نقطة لاتبعد كثيراً عن التراث الأوغسطينى ، وتستفيد ، فقط ، من حقائق العلم الأرسطى . وبعبارة أخرى ، كان توماس أكويناس يريد أن يحافظ على الخاصية الأخلاقية للدولة كما يقول بها أرسطو إلى جاب الاحتفاظ للكنيسة بالسمو النهائى فى المجتمع . وقد حاول توماس هذا المزج الاستفزازى الجسور بين القديم والجديد فى فكر العصور الوسطى السياسى من خلال فلسفته القانونية . فقد أكد أن قانون الدولة يجب أن يتوافق مع القانون الطبيعى ، الذى هو إنعكاس للقانون السماوى ، وحين يتوافق القانون الطبيعى للدولة بهذه الطريقة مع قانون الرب، تكون خاصيته الأخلاقية كاملة مطلقة . وبهذا المذهب القانونى كان أكويناس يظن أنه أعطى للسلطة السياسية خاصيتها الأخلاقية الضرورية ، كما أنه أخضعها فى الوقت نفسه لوكالة الكنيسة عن الإرادة الإلهية . وكان يعتقد أنه اعترف بقيمة الزعامة العلمانية فى المجتمع المسيحى ، وحافظ مع ذلك على المذهب الجيلازى التقليدى .

كان هذا التوازن الهش ، والمزج الواهى بين السلطة الكنسية والسلطة العلمانية فى النظرية السياسية التى وضعها توماس أكويناس ، يتناغم مع طبيعة العلاقات بين الملكية والكنيسة فى منتصف القرن الثالث عشر من عدة وجوه . ولاشك فى أن حقائق الحياة السياسية قد شجعت أكويناس على أن يصوغ هذه النظرية التى يتخلى فيها عن الرؤية الأوغسطينية للدولة؛ فإن ماكان يجرى فى إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا فى أيامه كان يبدو منسجما مع فلسفته السياسية بشكل ملحوظ . فقد كان الملك الإنجليزى ، هنرى الثالث ، رجلا قديسا طيعا استمر على نفس الموقف الودى الذى كان أبوه الملك جون قد أجبر على اتخاذه تجاه الكنيسة فى السنوات الأخيرة من حياته . وفى باريس نفسها تأكد المذهب التوماسى فى شخص لويس التاسع وموقفه، فقد بدا هذا الملك فى ناظرى توماس وكأنه تجسيد لمثاله السياسى . فقد ذاع صيت لويس بسبب الحملة الصليبية التى ضحى فيها بنفسه ، وبسبب اضطهاده للهراطقة ، وكراهيته لليهود . وتتكشف الصورة الشعبية للملك فى سيرته التى كتبها أحد نبلاء شمبانى البارزين ، وهو أمير جوانفيل ، وهى أول سيرة ملكية يكتبها رجل علمانى فى العصور الوسطى . وفى قصة جوانفيل عن لويس ، يبدو الأخير رجلا قديسا ، ولكنه شجاع ليس له من طموح سوى خدمة الرب ورفاهية شعبه . فهو يتحمل ، دونما شكوى، معاناة كبيرة أثناء حملته المنكوبة على مصر ، ويقضى نحبه فى تونس شهيداً ، وهو يحاول مثل سان فرنسيس ، تنصير المسلمين. وفى فرنسا يتحمل لويس ، دونما تذمر ، المعاملة السيئة من أمه حين كانت هى الوصية على المملكة ، ويتغاضى عن عصيان الأمراء المشاغبين دون أن يفكر فى الانتقام . وهو يصر على أن حكومته تحقق أسمى مثل العدالة المسيحية ، ولكى يؤكد هذا يجلس الملك تحت شجرة بلوط ويفصل بنفسه فى القضايا التى يرفعها إليه رعاياه المحبون له . لقد كان الدكتور الملائكى ( توماس أكويناس ) والملك القديس ( لويس التاسع ) متعاصرين تقريبا ، وكانت هناك حركة قوية فعلا لتقديسهما قبل موتهما . لقد كان سان لويس يبدو وكأنه التطبيق الحى للتوماسية السياسية .

وقد تأكد مثال أكويناس عن العلاقات بين الكنيسة والدولة بطرق أخرى أيضا . فقد شن الإمبراطور فردريك الثانى حربًا ضد البابوية فى إيطاليا ، ولكن البابا خرج ظافراً من هذا الصراع ، وخلال حياة أكويناس ، أزيحت أسرة الهوهنتشاوفن المتمردون الطغاة من على وجه البسيطة ، وسلم البابا أملاكهم إلى الأخ والملك المسيحى المثالى لويس التاسع . كما أن

التداخل بين السلطة البابوية والسلطة الملكية قد تكشف بوضوح خلال القرن الثالث عشر فى منح الحكومات الملكية نصيبًا من الضرائب الكنسية ، عندما يقوم الملوك بمغامرات تحبذها البابوية وتحث عليها . وقد تجلى هذا واضحا أيضا من خلال تزايد التدخل البابوى فى التعيينات الكنسية فى شتى أرجاء أوربا على أساس من سوابق القانون الكنسى . وفى سبيل الحفاظ على سيطرتهم الكاملة على المناصب الكنسية ، وجد الحكام العلمانيون أن من المفيد لهم أن يمنحوا البابا حق تحديد ووضع « شروط » ملء بعض الوظائف الكنسية داخل ممالكهم .

وهكذا بدت فلسفة توماس السياسية تعبيراً عن الوفاق السياسى الجديد فى الحياة الأوربية وجاءت تكملة لأعمال إنوسنت الثالث خلال نصف قرن بعد وفاته ، على الرغم من أنها كانت فلسفة ثورية استفزازية فى بعض جوانبها . فقد قام خلفاء هذا البابا بمواصلة العمل بسياسته ، ومنهم جريجورى التاسع ( ١٢٧ - ١٢٤١ ) ، وإنوسنت الرابع ( ١٢٤٣ - ١٢٥٤ ) اللذان كانا يماثلان إنوسنت الثالث من حيث دراستهما القانونية ، وتجربتهما الدبلوماسية والإدارية ، ودفاعهما المستميت عن المصالح البابوية . وقد أحرزا بعض الانتصارات المدوية ، وتمكنا بشكل عام من تقوية صرح البابوية الذى كان إنوسنت الثالث قد شيده . وعلى أية حال كانت هناك نواحى معينة فى علاقة البابوية بالملكيات الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، وجدتها البابوية مزعجة فى حياة توماس أكويناس ، وسان لويس ، ولم يكن الوفاق السياسى الجديد ، الذى كان مؤثراً إلى حد كبير ، خاليا من نواحى القصور القاتلة وأوجه الضعف الخطيرة ، فقد كانت هناك خلافات بين النظام المثالى التوماسى وحقائق الحياة السياسية لم يكن بوسع الدكتور الملائكى أن يستوعبها وهو قابع فى موقعه الممتاز فى جامعة باريس . إذ كانت هناك تغيرات تجرى فى المؤسسات والأيديولوجية التى قامت عليها ملكية القرن الثالث عشر ، وهى التغيرات التى لم تكن أهميتها قد اتضحت تماما حتى العقود الأخيرة من ذلك القرن .

كان الموقف السياسى الإنجليزى ، منذ السنوات الأخيرة من عهد الملك جون ، مثيراً لسخط البابوية على نحو خاص ، إذ كان قد تم إخضاع الملك الإنجليزى ، ولكن ماكان يحير الكرادلة الإيطاليين ويضايقهم هو اكتشافهم أن السلطة الملكية لم تعد تتحكم فى الحياة الإنجليزية . فقد كان للبابوية آنذاك فصل إقطاعى هو الملك الإنجليزى ، ولكنه كان عاجزاً عن فرض النظام داخل وطنه . وبدلا من ذلك كان البارونات الإنجليز ، بتشجيع ومساندة بعض رجال الكنيسة ، يضرمون نار التمرد والعصيان بغرض إحكام السيطرة على حكومة الملك . وروجوا

لنظريات قانونية تخضع الملك لسلطة القانون الذى لايمكن تغييره دون موافقة «مجموع المملكة» ، كما كانوا يزعمون . وكانت أنباء هذه التجارب السياسية والأفكار الدستورية تبدو غريبة على مسامع زعماء البلاط البابوى الذين التصقوا بالتراث الرومانى - الكنسى عن السلطة المطلقة . ولم تكن هذه مجرد صدمة لمشاعر الكرادلة وأفكارهم عن النظام الصحيح ، وإنما كانت أيضا خطراً يهدد سلطة الملك ( الفصل البابوى ) ، ومن ثم فهو يهدد التدخل البابوى فى انجلترا بطريق غير مباشر . ونتيجة لهذا ، وعلى مدى ستين سنة بعد خضوع الملك جون للبابوية ، ظل البلاط البابوى يساند السلطة الملكية فى انجلترا ويعادي التجارب والأفكار الجديدة فى مجال الدستور ، مما كانت له نتائج بالغة الأثر على العلاقات البابوية الإنجليزية .

وفى سنة ١٢١٤ لقى جون هزيمته الثانية ومهانته الكبرى على يد عدوه اللدود فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، إذ كان قد تحالف مع قريبه أوتو الرابع لشن هجوم على جبهتين على مملكة آل كابيه . وكان المفروض أن يأتى أوتو من ألمانيا عبر الفلاندرز ، أى عبر الطريق الذى كان على الجيوش الألمانية أن تعتاده فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، على حين يندفع جـون من بواتو Poitou فى حركة تطويق كبيرة . وأحرز جون بعض الانتصارات الأولية ، ولكنه لم يلبث أن أنهار تحت وطأة إحدى نوبات الإحباط التى كانت تعتريه . وظل بلا حراك على حين جرد فيليب معظم جيشه ضد أوتو وألحق بالإمبراطور الألمانى هزيمة نكراء فى بوفينيس . هذه الكارثة العسكرية الثانية كانت إشارة لبلورة عصيان البارونات ضد سلطة آل أنجو فى إنجلترا . وكان جون قد دأب منذ زمن طويل على استغلال حقوق التاج ؛ مثل ضريبة الاقطاع ، والخدمة العسكرية ، والبدل النقدى بطريقة قاسية للغاية لكى يزيد من دخل المملكة عن طريق الضرائب . وكانت حكومة جون تواجه ضغطا هائلا ؛ فقد كان لدى الملك جهاز إدارى ينمو بإطراد ، كما أنه كان مشغولا فى مغامرات عسكرية ودبلوماسية بعيدة المدى . ومع التطور فى مجال التسليح ، مثل الدروع المعدنية الثقيلة وغيرها من جوانب التحسين فى التكنولوجيا العسكرية ، فقد كانت نفقات الحرب تتزايد باستمرار ، وعلى أية حال ، لم يكن زعماء البارونات متعاطفين مع جون فى ورطته ، إذ لم يكن لديهم استعداد لدفع الضرائب الباهظة لتأييد ملك فاشل فى ساحة الوغى ، جعلهم يخسرون أراضيهم فى نورماندى ، كما أنه أفسد ساحات القضاء فى البلاد لاستصدار أحكام ضد عائلات البارونات الذين كان يشك فى ولائهم لأسباب تافهة ، أو دونما سبب فى كثير من الأحيان . فضلا عن أن الملك كان قد

لقى الهزيمة والإمتهان على يد البابا ، كما أنه دخل فى علاقة تبعية للبابا ، وهو الأمر الذى كان منعطفا خطيراً فى العلاقات الإنجليزية - البابوية منذ زمن وليم الفاتح .

كانت غالبية البارونات الكبار ، بقيادة بعض العائلات الشمالية التى عانت بشكل خاص من الإجراءات الفاسدة فى المحاكم الملكية ، قد أعدوا العدة لأول عصيان حقيقى ضد الملك فى إنجلترا منذ الغزو النورمانى . ويبدو أن الحركة البارونية كانت ذات أهداف محددة واعية حددها لها ستيفن لانجتون كبير أساقفة كانتربورى الذى كان أبعد مايكون عن التزلف إلى البابوية ، كما كان متوقعًا ، وإنما صار رجلا ذا موقف مستقل وقوى . وقد نسق ستيفن موقف الكنيسة الإنجليزية مع الزعامات العلمانية فى الشكل الذى عرف فيها بعد باسم «جماعة المملكة الإنجليزية » . متجاهلا بذلك حقيقة أن الملك جون هو الفصل الإقطاعى للبابا. ويبدو أن ستيفن هو الذى اقترح على البارونات أن يصوغوا شكاواهم فى شكل « وثيقة عظمى » أجبروا الملك على الموافقة عليها وختمها فى سنة ١٢١٥م . وكانت السابقة التى صاغ ستيفن على نسقها « الميثاق الأعظم » "Magna Carta" هى وثيقة تتويج هنرى الأول والوعود الى قطعها على نفسه فى هذه الوثيقة تجاه الكنيسة والشعب فى سنة ١١٠٠م. ويتضمن الميثاق الأعظم Magna Carta قائمة طويلة بحقوق البارونات والإمتيازات التى وعد الملك بعدم انتقاصها . وبطبيعة الحال ، كان الميثاق وثيقة فى صالح طبقة البارونات ، ولكن هذه الطبقة زعمت أنها تتحدث نيابة عن « **الشعب الإنجليزى بأسره** » . وقد وضع « الميثاق الأعظم » قيوداً صارمة على السلطات المالية للملك ؛ وقد حذفت قيود كثيرة منها فى الإصدار النهائى للميثاق على يد هنرى الثالث سنة ١٢٢٥ . وعلى أية حال ، فإنه لأمر بالغ الأهمية أن البارونات لم يحاولوا تدمير النظام العام القانونى الذى كان هنرى الثانى قد أكمله، كما أنهم لم يحاولوا أن يستعيدوا للمحاكم الإقطاعية الخاصة ماكان لها من سلطات واختصاصات انتزعتها منها المحاكم الملكية . كذلك لم يحاول أحد من كبار النبلاء أن يحصل على تنازلات خاصة له ؛ فقد كانوا يتحدثون كمجموعة تختلف حرياتهم من مكان لآخر فى سائر أرجاء المملكة . لقد كان هذا نتاجا لمائة وخمسين سنة من الحكم المركزى القوى فى انجلترا أدى إلى توحيد البلاد لدرجة أن كبار الأمراء المحليين لم يكونوا يقدرون على تصور حرمان أنفسهم من الإدارة الملكية والقانون الملكى الكفء ، على الرغم من أنهم كانوا يريدون تغيير السلطة الملكية . بل إنه حتى لم يرد بخاطرهم أن يقيموا إمارات تتمتع بالحكم الذاتى .

وأهم ما فى الميثاف الأعظم Magna Carta يتمثل فى النظرية القانونية التى تجسدها العبارة القائلة بأن على الملك أن يراعى « قانون الأراضى » ، وأنه لايستطيع أن يتصرف ضد

أحد دون اللجوء للإجراءات الواجب اتخاذها فى القانون العام ... وإذا رغب الملك فى أن يفعل شيئا يتخطى قانون الأراضى السائد ، مثل فرض ضريبة جديدة ، فإنه لايستطيع أن يفعل ذلك إلا بموافقة مجموع الأمة . وهكذا أعاد الميثاق الأعظم تأكيد المبدأ الدستورى الجرمانى الذى أدمج فى القانون العام : وعلى حد تعبير أحد كبار القانونيين الإنجليز فى القرن الثالث عشر « **فى انجلترا حكم القانون لا الإرادة** » . ولأن الميثاق الأعظم يعبر عن فكرة سمو القانون فوق الإرادة الملكية ، فقد صار بمثابة صيحة تنبيه هامة لأجيال الإنجليز اللاحقة فى نضالهم ضد السلطة الملكية . وإبان القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر كان السخط والغضب الناجم عن استبدادية سلطة الحكومة الملكية يعبر عن نفسه فى المطالبة بالتأكيدات الملكية للميثاق الأعظم . وقد رأى رجال القانون العام الإنجليز فى القرن السابع عشر أن الميثاق الأعظم قلعة تحمى الحرية الإنجليزية فى مواجهة الطغيان الملكى ، بل إنهم قالوا إن الميثاق الأعظم أكد المحاكمة عن طريق المحلفين بمعنى الكلمة . وعلى الرغم من أن نظام المحلفين الذين يصدرون الحكم لم يكن قد تطور فعلا حتى أواخر القرن الثالث عشر نتيجة لتحريم مجمع اللاتيران الرابع للمحنة كطريقة للتحقيق ، فإن التفسير الذى صدر فى القرن السابع عشر للميثاق الأعظم لم يكن تفسيراً عبثيًا كما قال كثيرون من النقاد المحدثين . فالمذهب الأساسى فى الميثاق الأعظم هو أن الملك لايستطيع أن يتصرف حيال أى فرد حر فى مملكته سوى باتخاذ الإجراءات الواجبة فى القانون العام السائد أيا كانت مؤسساته .

والعبارة الأخيرة فى الميثاق الأعظم تؤيد قيام البارونات بالتمرد العام diffidatio ضد الملك وعصيانه إذا لم يف بوعوده . وسرعان ماتوفر للبارونات السبب اللازم لتنفيذ هذا الشرط . فقد لجأ الملك جون إلى البابا إنوسنت الثالث ، سيده الإقطاعى ، لكى يحله من إيمانه التى قطعها على نفسه للبارونات ، والتى زعم أنها كانت على كره منه ، وسرعان ما استجاب البابا الذى لم تكن تروق له المدلولات النظرية فى الميثاق الأعظم ، كما أنه لم يكن راغبًا فى أن يقلل من سلطة الملك الإنجليزى . بل إن إنوسنت وبخ لانجتون على صياغة الميثاق وأوقفه عن ممارسة مهام منصبه . وحمل البارونات السلاح ضد الملك وطلبوا من ابن فيليب أوغسطس أن يساعدهم ، ولكن موت جون يسر السبيل لإعادة إقرار السلام بين الحكومة الملكية والأمراء. إلا أن هنرى الثالث ، وريث جون ، لم يكن أكثر نجاحا منه فى ممارسة السلطة الملكية . وبعد أن وصل إلى السن القانونى فى عشرينيات القرن الثالث عشر توالت الكوارث، الواحدة تلو الأخرى ، لتدمر علاقاته مع زعماء المجتمع فى المملكة ، حتى قام مؤتمر من

البـارونـات فى سنة ١٢٥٨ بانتـزاع سلطة الإدارة الملكيـة ، وفى سنة ١٢٦٤ حـاول هنرى أن يستعيد السيطرة المباشرة على الإدارة الملكية ولكنه هزم فى معركة أمام البارونات ووقع فى الأسر .

كـانت الأزمة الدستـورية فى عـهد هنرى الثـالث نتـيجة لضعـفه كـملك ولتطور الأفكار الدستورية الواردة فى شروط الميثاق الأعظم . كان هنرى رجلا مخلصا للغاية وذا ذوق جمالى. وكـان هو المسئول إلى حد كـبير عن بنـاء دير وستـمنستـر فى شكله الحالى . ولكنه فـشل كجندى؛ فقد خسر بواتو أمام لويس التـاسع ، الذى كان زوجا لأخت زوجتـه ، والذى كان يكن له قدراً كبيراً من الاحترام ويعامله بكل التبجيل والإكرام . بل إن هنرى كـان أكثر خضوعًا للبابوية بحيث سمح لنفسه بالتورط فى الخطط البابوية الرامية إلى استبدال الحاكم الألمانى من الهوهنشتاوفن بملك آخر أكثر خضوعًا . وقدم البـابا عرش صـقلية لابن هنرى لقـاء ثمن باهظ دفـعه الملك من دخل الخزانة الملكيـة . وكـانت الوسـيلة الوحـيدة ، لكى تحصـل الحكومـة الملكيـة على دخل غـير عـادى لهذا الغـرض وغـيره ، فرض أشكال جديدة من الضـرائب . وكـان الجهـاز الإدارى للملك جون قد جرب استغلال المبدأ القديم الخاص بالضريبة الإقطاعيـة المعروفة باسم «المسـاعدة اللطيـفة » . وكـانت هذه ضريبة خاصـة على الأفصـال أن يدفعوها لسيدهم لغرض معين ، ولكن بموافقتهم ورضاهم . وقد استطاع الملك جون ، باعـتباره السـيد الإقطاعى الأعلى لجميع الأمراء الإنجليز ، أن يحصـل على موافقة الأمراء على مسـاعدته لقتـال الملك الفرنسي . واستغلت حكومة هنرى الثالث هذه السابقة عدة مرات للحصول على الموافقة بفرض ضريبة عى موارد وممتلكات الأمراء وأفصالهم . وكان موظفو الأقاليم الذين لايتلقون أجوراً عن وظائفهم، هم المسئولين عن جباية هذه الضـريبة .. وكـانت الأسـاليب التى استخدموها مشـابهة لتلك التى استـخدمت فى جباية ضرائب العشور التى كانت الكنيسـة قد فـرضتـهـا سنة ١١٨٨ لتـمويل الحملة الصليـبيـة الثـالثـة . وحين زاد ضـيق الأمـراء من حكومـة هنرى ، لم يسـتطع الملك أن يحصل على موافـقتـهم بفرض ضـرائب جديدة . واضطر إلى أن يقصـر فى الدفع للبابوية ، مما جعل البـابا يسلم صـقلية إلى أخى الملك الفرنسى . وقـد أدى هذا إلى وضع هنرى الثـالث فى وضع لايحسـد عليـه . فقد كانت خزائنه خاوية ، كـما كـان البـارونات ينتـقدون إدارته بعنف . وكانوا غاضبين من جراء موقفه المتخاذل من البابوية ، وبسبب الوظائف الملكية والكنسية التى كان يهبهـا لأقاربه الفرنسيين ومؤيديه . وكـما حدث سنة ١٢١٥ ، قـام بعض رجال الكنيسـة ، ومنهم رئيس الفرنسسكان فى انجلترا بتوجيه السخط المضطرم فى انجلترا . إذ أحسن كثيرون

من الزعماء الكنسيين أن البلاط البابوى فى روما يتجاهلهم ويسلبهم حقوقهم ، ويسئ معاملتهم ، لاسيما وأن البلاط البابوى عقد الصفقات مع الملك لفرض الضرائب على رجال الكنيسة ، كما أنه ملأ الوظائف الكبرى فى الكنيسة الإنجليزية بالإيطاليين .

وقد وجد البارونات ورجال الكنيسة الساخطون إلهامهم فى شعور وطنى جنينى اتخذ شكل كراهية الأجانب ، وظهر أيضا فى تأكيدهم لضرورة مراقبة الملكية عن طريق ممثلى مجموع سكان المملكة . بيد أنه لم يعد بوسع البارونات أن يزعموا أنهم وحدهم المتحدثون باسم البلاد ككل . إذ كان أبناء الشرائح الدنيا من النبلاء وفرسان المقاطعات يلعبون دوراً هاما فى شئون الإدارة والضرائب فى المقاطعات . وكانوا فى سبيلهم لأن يصبحوا طائفة متمايزة ، أو طبقة ، فى المملكة . ولم يعد باستطاعة البارونات الكبار أن يزعموا أنهم ينوبون عنهم . كذلك فإن البورجوازيين ، ولاسيما فى لندن ، قدموا إسهامات تجارية هامة فى البلاد . وعلى الرغم من أن وضعهم القانونى والاجتماعى كان مايزال أدنى من وضع ملاك الأراضى ، فإنه كان من المفيد ربطهم بحركة البارونات ، بسبب مايتمتعون به من ثروة . وفى سنة ١٢٦٥م قام زعماء البارونات ، وربما كان ذلك بمشورة أصدقائهم الفرنسسكان ، بدعوة ممثلى الفرسان والبورجوازيين إلى اجتماع لمجلس المملكة الكبير ، وهو المجلس الذى يحضره أعيان الأمراء العلمانيين والكنسيين حتى اليوم . كان هذا هو أول مجلس مشترك للطائفتين اللتين كانتا تتقاربان سويا فى هذه اللقاءات التى كان المجلس فى أواخر القرن الثالث عشر يعقدها بين الحين والحين ، والتى عرفت باسم « البرلمانات Parliaments » . وفى سنة ١٢٦٥ اجتمع الفرسان والبورجوازيون للدعاية ، ولكن مجرد حقيقة أنهم دعوا إلى هذا الاجتماع تكشف عن وعى جديد من جانب البارونات بأنهم لايمكن أن يتحدثوا نيابة عن شعب المملكة بأسره . وكان المذهب الدستورى للبارونات هو أنه فى المسائل التى تخص المملكة كلها - مثل التشريعات ، والضرائب ، والسياسة الخارجية - يجب على الملك أن يتصرف بموافقة المملكة ككل . وكانت دعوة الفرسان والبورجوازيين تعبيراً عن هذا الرأى .

كانت المؤسسات النيابية شائعة فى أوربا القرن الثالث عشر . فقد استخدمت فى الاجتماعات الإقليمية لأمراء فرنسا ، وفى مجلس الضياع الأسبانى Spanish Cartes ، وفى حكومات المدن . وهناك رأى يقول إن هذا التطور كان نتاجا لنشر الفكرة القانونية الرومانية عن المراقبة القضائية والتفويض القانونى . وكانت انجلترا هى البلد الأوربى الوحيد الذى كانت فيه المؤسسات النيابية ، التى بدأت فى ستينيات القرن الثالث عشر ، تلعب دوراً بالغ الأهمية

فى الحياة السياسية ، مع أن إنجلترا هى البلد الوحيد الذى بقى خارج منطقة تأثير القانون الرومانى . فقد كان غالبية القضاة الإنجليز قبل نهاية القرن الثالث عشر من رجال الكنيسة المعتادين على القانون المدنى والقانون الكنسى . ومن الممكن أن تكون فكرة النيابة قد تسربت إلى المملكة عن طريق أولئك المشرعين . ولكن بينما يحتمل أن تكون فكرة الوكالة قد ساعدت على إعطاء الشكل الرسمى للحياة النيابية الإنجليزية ، فمن الواضح أنه كانت لهذا النظام جذوره العميقة في انجلترا . ففى صياغة القانون العام كان المفروض أن تقوم هيئة المحلفين بالكلام نيابة عن « البلاد » بأسرها فى المقاطعة . وكان المحلفون يحضرون سجلات جميع القضايا من المقاطعات إلى المحاكم الملكية ، كما كان أولئك المحلفون يمثلون البلاد أمام القضاة الملكيين . وكان اجتماع عموم المملكة من الناحية الفنية اجتماعا موسعًا للمحكمة الملكية Cu-ria regis ومن ثم فإن زعماء البارونات حين أرادوا فى سنة ١٢٦٥ عقد اجتماع موسع لمجلس عموم المملكة ، كانت فى أذهانهم فكرة وتجربة النيابة التى عرفوها من خلال ممارسات القانون العام التى خبروها بالفعل . وكان البرلمان فى القرن الثالث عشر عبارة عن اجتماع خاص للبلاط الملكى لبحث الأمور العظمى فى الدولة ، وكان من الممكن أن يدعى إليه ممثلون عن الفرسان فى المقاطعات وعن البورجوازيين أيضا ، من أجل استغلال هذه الفرصة الكبيرة للحصول عى موافقة جميع طوائف المملكة على سياسة الحكومة المركزية .

كان زعيم البارونات سنة ١٢٦٥ هو سيمون المونتفورتى Simon de Montfort الذى كان ابنا لسيد إقطاعى فرنسى يحمل نفس الاسم كان قد تولى قيادة الحملة الصليبية الألبيجنسية. وقد صار سيمون إيرل earl إنجليزيا عن طريق وراثة جدته ، وتزوج أخت الملك . وقد أهله ذكاؤه وقدرته ، وصداقته مع الفرنسسكان لأن يكون زعيما للحركة البارونية . وعلى أية حال، كان كثيرون من الأمراء الآخرين يفتقرون إلى سجاياه الممتازة ، وحين صارت لهم السيطرة على الإدارة المركزية وجدوا أن العمل شاق ويبعث على الضجر . ومن ثم بدأت الحركة البارونية تتحطم غداة انتصارها ، وتحول كثيرون من الأمراء عن شئون الحكم المركزى سعيا وراء مصالحهم الخاصة . وفى سنة ١٢٦٥ نجح جيش ملكى يقوده إدوارد ، وريث هنرى الثالث ، فى هزيمة سيمون المونتفورتى وقتله . واستعاد هنرى سيطرته على الجهاز الإدارى . ولكنه متاعبه كانت درسا لابنه إدوارد الأول Edward I حين اعتلى العرش سنة ١٢٧٢ . فقد كان إدوارد قد رأى مدى ما سببه الفشل العسكرى والخضوع لبابوية من خراب لأبيه . كما أنه صار على وعى بالمشاعر الجماعية والوطنية السارية فى البلاد ، وعقد العزم على توجيه هذه المواقف لإعادة بناء السلطة الملكية فى انجلترا .

وفى نصف القرن الذى أعقب وفاة إنوسنت الثالث كانت البابوية تنعم بإخلاص الملك الإنجليزى وولائه المطلق ، وهو ماكان يتناقض تماما مع طبيعة العلاقات البابوية الإنجليزية خلال السنوات المائة والخمسين السابقة . ولكن البلاط البابوى أحس بخيبة الأمل وهو يكتشف أن هذه الميزة الكبرى كانت ، فى جانب كبير منها ، ميزة تافهة بسبب الظروف الداخلية فى انجلترا التى كانت كل طوائف المجتمع فيها ، ومنهم رجال الكنيسة ، تريد تقييد السلطة الملكية . وكانت علاقات البابا بالإمبراطورية فى تلك الفترة تختلف من جميع الجوانب تقريبا . ففى هذا الاتجاه كان على البلاط البابوى أن يناضل ضد عدو فائق القدرة هو الإمبراطور الذى أعاد ذكرى الأيام الرهيبة لهنرى الرابع . وقد انتهى هذا النضال بأكبر وأكمل نصر أحرزته البابوية على الملكية فى العصور الوسطى .

إذ أن الحل الذى كان إنوسنت الثالث يعتبره حلا نهائيا للمشكلة الإمبراطورية لم يستمر زمنا طويلا . فقد كان قد أعطى التاج الإمبراطورى لفردريك الثانى ( ١٢١٥ - ١٢٥٠ ) شريطة أن يتنازل عن مملكته فى صقلية حالما يضمن ولاء الأمراء الألمان . وهذا ماتم له فى سنة ١٢١٨ عندما مات أوتو الرابع ، الذى كان المرشح الأصلى للإمبراطورية . بيد أنه لم تكن لدى فردريك أية نية للتنازل عن نابولى وصقلية ، اللتين كانتا بمثابة المعقل القوى لسلطته . والحقيقة أنه لم يكن مهتما بألمانيا على الإطلاق ، فلم يزرها سوى لتقديم تنازلات ضخمة للأمراء الألمان ، والأساقفة ، والمدن ؛ إذ اعترف لهم جميعا بالسيادة الإقليمية الكاملة ، وأطاح تماما بما كان باقيا مما فعله فردريك بربروسا وهنرى السادس لدعم السلطة المركزية . فقد كان فردريك إيطاليا ، وأراد أن يجعل من نفسه حاكما على إيطاليا كلها ، وأن يخضع مدن الشمال الكبرى ، التى نجحت فى مقاومة جده ، تحت سيطرته الكاملة . واتخذ موقفا غامضا حيال مسألة إدماج الدويلات البابوية ، وفى عشرينيات القرن الثالث عشر وجد أعضاء البلاط البابوى أنفسهم فى مواجهة احتمال بذوبان البابوية فى إيطاليا التى يحكمها آل الهوهنشتاوفن مرة أخرى .

لقد كان فردريك يزعم أن هدفه من غزو شمال إيطاليا لم يكون خطراً على استقلال البابوية، وربما كان صادقا فى هذا القول . ولكن البلاط البابوى لم يكن ينوى أن يختبر هذا على الصعيد الواقعى ، لأن فردريك كان رجلا غريبا : فهو « عجيبة الدنيا » الذى يخرج على النظام الأخلاقى فى زمانه . فقد تربى يتيما فى صقلية على أيدى عدد من الأمراء ،

ولقى معاملة سيئة فى شبابه . إذ كان إنوسنت الثالث هو الوصى عليه رسميا ، ولكن البابا لم يبذل جهداً كبيراً لحماية مصالح القاصر الذى يتولى الوصاية عليه . وحين كبر فردريك صار رجلا وسيما ذكيا موهوبا للغاية : فقد كان جنديا قديراً ، وراعيا للفنون والعلوم . كما ألف مقالة ممتازة فى فن الصيد بالصقور . ولكنه كان مصابا بجنون العظمة يعتبر نفسه فوق المستويات الأخلاقية المسيحية اللاتينية . ومن المناسب أن نشير إلى تأليه النازيين لفردريك فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين ، بل إن أشهر وأفضل سيرة حديثة له هى تلك التى نشرت فى ألمانيا سنة ١٩٢٧ وعلى غلافها الصليب المعقوف . لقد كان فردريك الثانى نمطًا من الفاشيين الثقافيين ، إذ كان رجلا ذا حس متأنق ، ولكنه مع هذا كان بلطجيا شرسا وكان بلاطه وجهازه الإدارى يغلب عليه طابع الاستبداد الشرقى . فقد تأثر كثيراً بالبيزنطيين والعرب الذين كانت أعداد كبيرة منهم تعيش فى مملكته ، وقد راق له التزلف والخضوع الذى كان الحكام فى البلاد الإسلامية يتمتعون به . ولم يكتف فردريك بتصوير نفسه كتجسيد متجدد للأباطرة الرومان ؛ بل إنه صور نفسه أيضا كزعيم ذى خصال مسيحانية . وكان هو ودعاته فى البلاط لايتورعون عن انتهاك الحرمات برسم جوانب التشابه بين حياة فردريك وحياة المسيح .

وإذ كانت هذه هى مواقف فردريك وشخصيته ، وموارده ، فقد اعتبرته البابوية عدوها اللدود ، وبعد عشرين سنة من التباطؤ دخلت البابوية دوامة العنف ضده فى أربعينيات القرن الثالث عشر . وكانت المناوشات الأولية بين فردريك والبابوية قد اندلعت حول مسألة تافهة ولم تكن تخلو من روح الفكاهة . إذ كان فردريك قد أخذ شارة الصليب ليضمن تأييد إنوسنت الثالث ، ولكنه كان عازفا عن الوفاء بقسمه الصليبى لأنه كان يتوق إلى شن حملته على شمال إيطاليا . وأخيراً ، فى سنة ١٢٢٨ ذهب فعلا إلى الأرض المقدسة وهو مايزال تحت وطأة الحرمان البابوى بسبب عدم وفائه بالقسم الصليبى من قبل . ولم يفعل شيئًا سوى التظاهر بقتال المسلمين[٤] ثم هرول عائداً إلى جنوب إيطاليا حيث قام جيش بابوى بغزو أراضيه ، على

---

٤ - تولى فردريك الثانى هوهنشتاوفن العرش الإمبراطورى سنة ١٢١٥ وفى عنقه قسم بالذهاب فى حملة صليبية ، واستطاع فردريك أن يؤجل الوفاء بنذره مرة بعد أخرى بسبب مشاغله الداخلية ، ثم تغير الموقف تماما سنة ١٢٢٥ بعد زواجه من يولاندا ابنة الملك حنابرين ، والوريثة الشرعية لمملكة عكا . وبحق الزواج صار فردريك صاحب مملكة عكا ، فقرر أن يذهب إلى الشرق للوفاء بنذره القديم المؤجل ، وللإطلاع =

الرغم من أن نجاح الغزو كان محدودا . وتم عقد معاهدة بين الإمبراطور والبابا ولكنها إنهارت حين أحرز فردريك نصراً ساحقا على جيوش العصبة اللمباردية سنة ١٢٣٩ ، وباتت سيطرته على شبه الجزيرة الإيطالية احتمالا قريبا . ذلك أن المدن الإيطالية لم تعد متحدة فى وجه السيادة الإمبراطورية كما كانت زمن فردريك بربروسا . ففى كثير من المدن كانت توجد عائلات أوليجاركية من الجبللينيين ، وهو الاسم الذى كان يطلق على أتباع الحزب الإمبراطورى فى المدن الإيطالية . وحين وجد البابا جريجورى التاسع نفسه فى مواجهة هذا الخطر ، استغل كل الموارد المتاحة للبابوية . فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور وأدانه بالهرطقة ، ودعا إلى مجمع كنسى فى روما ليكون لهذه الإجراءات وقع أكثر فعالية . ولم يكن الإمبراطور الذى يعتبر نفسه فوق الخير والشر ليهتم كثيرا بالسلطات الدينية . فأمر قائد أسطوله بإغراق أو أسر عدد كبير من السفن الى كانت تقل رجال الكنيسة من كافة أنحاء أوربا فى طريقهم إلى روما . هذا التصرف الوحشى أقنع البابوية بأن الإجراءات المتطرفة فقط هى التى يمكن أن تنجح ضد فردريك . وفى سنة ١٢٤٥ عقد إنوسنت الرابع مجمعا فى ليون ، أى فى أرض آمنة بالقرب من حدود مملكة لويس التاسع ، ودعا إلى حملة صليبية ، ولكنها لم تكن « حملة صليبية سياسية » تماما ، كما يطلق عليها فى بعض الأحيان . ذلك أن فردريك

---

= على شئون مملكته الجديدة فى الوقت نفسه . وفى الوقت الذى كانت البابوية تحث فردريك على الوفاء بقسمه الصليبى ، كان السلطان الكامل الأيوبى قد بدأ فى المراسلة الودية بينه وبين الإمبراطور على يد سفيره فخر الدين يوسف بن حمويه . وفى سنة ١٢٢٧ أبحر الإمبراطور بأسطول صغير من ثغر برنديزى بإيطاليا ولكنه مالبث أن عاد إلى إيطاليا مريضا ، وكان رد الفعل البابوى عنيفا حين وقع البابا قرار الحرمان على الإمبراطور.

وفى سنة ١٢٢٨ توفيت يولاندا بعد أن خلفت لفردريك ولداً هو كونراد ، وبدأ فردريك يطالب بمملكة عكا ، بحق زوجته المتوفاة ، فضلا عن حق الوصاية على ابنه منها وكان الملك العجوز حنابرين مايزال حيا . وفى تلك الأثناء كانت المراسلات بين الكامل وفردريك قد وصلت إلى مرحلة الاتفاق . فقرر الإمبراطور أن يذهب إلى الشرق لتوقيع الهدنة وتنفيذ شروطها – وغادر إيطاليا فى اسطول صغير وستمائة فارس . ومن المثير للسخرية أن البابوية أصدرت قراراً ثانيا بقطع الإمبراطور من رحمة الكنيسة لأنه قرر الوفاء بقسمه الصليبى دون إذن منها ، بل أنها دعت إلى حملة صليبية ضده وهو غائب فى فلسطين . وفى الشرق تمكن الطرفان من عقد معاهدة سلام على أساس الشروط الى كان السلطان قد عرضها على زعماء الحملة الخامسة ، وأهمها أن يتسلم فردريك مدينتى القدس وبيت لحم ، وأن تكون مدة المعاهدة عشر سنوات وهكذا عاد الإمبراطور بمكاسب ضخمة لم تستطع أية حملة أخرى تحقيقها دون أن يريق الدماء الإسلامية أو المسيحية .

(المترجم ) .

كان قد اغتال رجال الكنيسة وصدم المشاعر الأخلاقية فى العالم المسيحى ، وكانت معتقداته الشخصية تقترب كثيراً من الهرطقة ، إن لم تكن تخرج عن نطاق العقيدة المسيحية تماما فى الواقع . لقد كانت دعوة إنوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد فردريك إجراء متطرفا ، ولكن لم تكن هناك أية بدائل فى ظل الظروف السائدة ، كما كان من الممكن تبريرها على أساس دينى .

وعلى أية حال ، كان إعلان الحملة الصليبية ضد فردريك شيئا ، والعثور على حاكم كبير فى أوربا يقبل المخاطرة ضد الإمبراطور الذى يتحكم فى معظم موارد إيطاليا شيئًا آخر . وفى السنوات الخمس الأخيرة من حياة فردريك كانت الحملة الصليبية ضده عملا يتسم بالعشوائية إلى حد كبير ، وكانت فى أغلبها مجرد حرب دعائية . وحين اختفى رجل القرن الثالث عشر الخارق من على المسرح أخيراً فى سنة ١٢٥٠ ، عقدت البابوية العزم على مواصلة الحرب لتجعل منها حربا ضد أسرة الهوهنشتاوفن بأسرها حتى لايظهر وحش آخر مثل فردريك ليهدد نائب المسيح . وعلى أية حال ، فإن كونراد الرابع ( ١٢٥٠ - ١٢٥٤ ) الإبن الشرعى الوحيد، قد أبدى مقاومة عنيفة للغاية . ولكن موته ، دون أن يخلف لوراثته أحداً سوى طفل صغير أنهى خط الهوهنشتاوفن على العرش الإمبراطورى . وكانت هناك فترة من المشاجرات التافهة بين الأمراء الألمان وغيرهم من الحكام الأوربيين الذين رشحوا أنفسهم للعرش بانتخاب رودلف هابسبرج ملكا . وكان أميراً صغيراً متواضعا . وقد فرض الواقع على ألمانيا أن تكون عبارة عن مجموعة مختلفة من الدويلات المستقلة علي مدى القرنين التاليين .

أما فى صقلية ، فقد استمر خط الهوهنشتاوفن فى مانفرد Manferd ( ١٢٥٤ - ١٢٦٦) ، الابن الشرعى لفردريك ، والذى صار زعيما قادراً مثل أبيه ، وأخيراً قدمت البابوية اليائسة تاج صقلية إلى أخي لويس التاسع ، شارل دوق أنجو Charles of Anjou الذى وصل إلى إيطاليا مع جيش قوى فى حملة خاطفة وقتل مانفرد ، آخر حاكم من الهوهنشتاوفن فى صقلية . وبعد ذلك بعامين ، أى فى سنة ١٢٦٧ ، ظهر كونرادين Con-radin ، الإبن الأصغر لكونراد بجيش صغير فى جنوب إيطاليا ، وقضى عليه الحاكم الفرنسى بسهولة . وتم أسر كونرادين الذى أعدم علنا فى نابولى بإذن من البابا .

وتبدو أهمية النضال البابوى ضد فردريك الثانى وآخر ملوك الهوهنشتاوفن واضحة فى عدة جوانب . ففى المحل الأول انتهى هذا النضال بنصر درامى كامل كشف عن قوة البابوية

وقدرتها على تدمير الملكية التى انتهكت القانون الأخلاقى وازدرت بالكنيسة . ومن هذه الناحية أكدت التوماسية السياسية عندما أوضحت أنه حتى أقوى الأسر المالكة التى تحدت نائب المسيح كان لابد لها من السقوط فى قرار الهزيمة أمام السيوف الروحية والمادية المترابطة، والتى تمسك البابوية بها جميعا . ولكن البعض استطاعوا أن يخرجوا بدلالات أخرى من سلسلة الأحداث ؛ فعلى مدى خمس وعشرين سنة استطاع أحد الملوك أن يصمد لكل أنواع الأسلحة التى كانت بحوزة البابوية . فهل كان الكيان الضاغط للبابوية ، والذى أقامه إنوسنت الثالث وخلفاؤه ، هو الذى سهل سبيل الهجوم على الملكية والنيل منها ؟ وكانت النتيجة الثالثة للصراع البابوى الإمبراطورى فى القرن الثالث عشر هى حقن الحياة آنذاك بموقف جديد من العنف القاسى الذى بدأ يُسمم الجو الأخلاقى فى أوربا . فقد استخدم الإمبراطور ، ثم البابا ، أكثر الوسائل تطرفا وبعدا عن الأخلاق ، وهى وسائل كان من الصعب تبريرها حتى من جانب أخلص شركاء كل منهما . فقد اغتال الإمبراطور الأساقفة ، كما أن البابا اقتنص ابناء فردريك بدلا منه ومارس انتقاما دمويا ضد الشاب الذى كان آخر من بقى من سلالة الهوهنشتاوفن . وكما هى الحال دائمًا فى الحروب الطويلة اليائسة ، يستخدم المدافع، فى نضاله المحموم من أجل البقاء نفس الوسائل القاسية التى يستخدمها المهاجم .

كان تعيين البابوية لشارل أنجو حاكما لجنوب إيطاليا وصقلية بمثابة الهبة الثانية من البلاط البابوى لحليفه الملك الفرنسى فى القرن الثالث عشر . فقد كانت الهبة الأولي هى كل الجنوب الفرنسى تقريبًا ، نتيجة للحملة الألبيجنسية التى شنها إنوسنت الثالث . وكان الحدث الأخير هو أهم نقطة تحول فى تاريخ الملكية الكابية . ذلك أن فيليب أوغسطس قد جعل من نفسه حاكما لشمال فرنسا بجهوده الخاصة ولكن مهمة غزو أغنى مناطق فرنسا وأكثرها سكانا كان يمكن أن تكون مهمة جسيمة ، وربما مستحيلة ، دون الحملة الصليبية البابوية ضد الألبيجنسيين . ولم يكن فيليب قد شارك فى الحملة الألبيجنسية ، ولكن عندما قتل سيمون المونتفورتى سنة ١٢١٨ ، الذى كان زعيم بارونات الشمال الذين يستولون على أراضى الجنوب لحسابهم الخاص ، بات ضعف الحركة الصليبية واضحا بحيث برزت الحاجة إلى الزعامة الملكية . أما نبلاء الجنوب ، الذين كانوا يحاربون لأسباب شخصية ووطنية أكثر منها دينية ، فقد قاموا بآخر تحرك هام لهم . وأدى هذا إلى دخول جيش الأمير لويس ، وريث العرش الفرنسى ، فى الحرب حيث ارتكب مذبحة بشعة فى إحدى المدن الجنوبية . وخلال حكمه

القصير ، تحت اسم لويس الثامن ( ١٢٢٣ - ١٢٢٦ ) بدأ هذا المحارب المتوحش فى عملية ضم المقاطعات الجنوبية للتاج الفرنسى ، ووصل قضاة محاكم التفتيش الدومينيكان مع المندوبين المحليين الفرنسيين ، وفى غضون ربع القرن التالى دمروا ماكان قد بقى من الروح الاستقلالية لثقافة الجنوب الفنسى التى كانت عظيمة يومًا ما . وفى سنة ١٢٤٩ ، صار أحد أخوة ملك فرنسا كونت تولوز ، وبذلك حققت الملكية الكابية هدفها بالامتداد صوب البحر المتوسط ، على الرغم من أنها لم تكن قوية حتى فى المنطقة المتاخمة لباريس قبل قرن من هذا الزمان .

وسنحت الفرصة الأخيرة للإقطاعيين الفرنسيين لإيقاف تقدم السلطة الكابية فى القرن الثالث عشر فى السنوات الأولى من حكم لويس التاسع ( ١٢٣٦ - ١٢٧٠ ) ، عندما كان الملك مايزال قاصراً ، وكانت الحكومة تحت وصاية أمه بلانش Blanche of Castile ، التى كانت أول أميرة من تلك السلالة من الأميرات الأسبانيات التى أثرت على الحياة السياسية فى أوربا على مدى القرون الخمسة التالية . فقد انضم الشاب هنرى الثالث ملك انجلترا إلى الدوقات والكونتات المتمردين فى شمال فرنسا فى محاولة واهية لتقويض ماتم فى نصف القرن السابق ولكنهم لم يكونوا أنداداً لبلانش وابنها . وزاد من ألم هنرى أنه فقد المزيد من أملاكه الفرنسية ، وباستثناء دوق بريتانى المتوحش ، أظهر الأمراء الفرنسيون ، بما فيهم كونت شمبانى زعيم حركة التمرد عجزهم عن التصدى للسلطة الملكية ، حتى عندما يكون آل كابيه فى وضع سيئ .

كانت الصفة القديسية فى لويس التاسع هى ماتحتاجه الحكومة الملكية خلال نصف القرن التالى لكى تطور مؤسساتها وتعزز سيطرتها على الجيوب الباقية من السلطة الإقطاعية فى كل من الشمال والجنوب . فمع منتصف القرن الثالث عشر كانت محكمة الملك Curia regis الفرنسية قد بدأت تفرق بين الفروع المالية والقانونية المختلفة . ومن الفرع القانونى تطور برلمان باريس ؛ الذى كان يتألف من قضاة وقانونيين محترفين مما شجع المتقاضين من شتى أرجاء المملكية على اللجوء إليه ، وبذلك مد من نطاق السلطة القضائية الملكية وقلل من شأن محاكم البارونات . كذلك أكد البرلمان سيطرته على المحاكم الكنسية . كذلك عمل البيروقراطيون الملكيون بجد لتقليل استقلال المدن الفرنسية ، التى كانت أعدادها وثرواتها قد زادت كثيراً نتيجة لغزو الجنوب . وكان السخط الذى عم الكثير من المدن ضد الحكومات الأوليجاركية الفاسدة التى كانت تتحكم فى كومونات المدن هو الذريعة الى تذرعت بها

الملكيـة للتدخل فى شئون المدن وإخضاعـها للسلطة المركزية . واستـمرت الخصائص المميزة للبيروقراطية الفرنسية ، والتى كانت قد ظهرت فعلا فى عهد فيليب أوغسطس ، على حين زادت مسئولياتها وكبر حجمها . وكانت عبارة عن مجموعة قائمة بذاتها من رجال القانون الذين كان مبدؤهم المرشد الوحيد هو تنمية السلطة الملكية التى ربطوا أنفسهم بها ومدوا نطاقها بكل ذريعة قانونية كان يمكن لعلمهم وعبقريتهم أن تهتدى إليها . هذا الموقف القابض ربما كان هو السبيل الوحيد لبناء الدولة الفرنسية . ذلك أن المقاطعات الكثيرة التى ضمت إلى فرنسا كانت تحتوى على خليط من التقاليد الإقليمية ، والسلطات الإقطاعية المتضاربة ، والقوانين والعادات المحلية ، والامتيازات الأسقفية والبورجوزاية ، لدرجة أرهقت الملك فى محاولة بناء الهوية السياسية الخارجية الواحدة لهذا الكيان . وكان وجود ملك قديس على عرش البلاد واجهة أخلاقية مثالية أتاحت للبيروقراطية الملكية أن تستخدم مافى جعبتها من حيل وسلطان لخلق أقوى سلطة استبدادية فى أوربا . فالبارون ، والأسقف ، والبورجوازى الذين جربوا تجريدهم من امتيازاتهم السابقة باستمرار ، كانت تريحهم دائما حقيقة وجود سان لويس تحت شجرة بلوط لكى يحكم بالعدل . فهل كان الملك دائما هو الذى أمر بما فعله وزراؤه، أو هل كان يدرك مايفعلونه ؟ يبدو أنه لم يكن مجرد رئيس رمزى . إذ أنه كان يرسل « المحققين » ، الذين برز الفرنسسكان بين صفوفهم للكشف عما كان المندوبون الملكيون فى الأقاليم Baillis ومساعدوهم يفعلونه باسمه ، ولكى يسجلوا شكاوى الناس المحكومين . هذه التحقيقات كشفت ، تقريبا ، كل صنوف الاحتيال الذكى والقسوة الفظة التى عرفت عن البراعة الإنسانية. ويبدو أن سان لويس كان متعاطفا مع رعاياه ، ولكن أساليب الموظفين الملكيين هى التى لم تتغير .

وإذا كان امتداد السلطة الملكية الكابية على المملكة بأسرها يرجع إلى حد كبير إلى ماقام به الموظفون القانونيون الأفظاظ ، الذين يبدو أن سان لويس لم يكن يمارس عليهم رقابة شديدة، فإن توجيهه الشخصى للسياسة الملكية تجاه الكنيسة واضح تماما . فقد كانت تلك سياسة لم تجعل من الملكية الفرنسية خادما مطيعًا للبابوية ، على الرغم من أن هذه السياسة ربطت الحكومة الفرنسية مع البلاط البابوى بعلاقة تحالف قوية . ذلك أن هنرى الثالث ملك انجلترا ، وقريب لويس التاسع ، كان أكثر خضوعا فى علاقته مع البابا . فلم يحدث أبدا أن ضحى سان لويس بمصالح الملكية الفرنسية فى سياسته تجاه الكنيسة . وقد أكد علي حق الملكية الفرنسية فى السيطرة على رجال الكنيسة الفرنسيين . ورفض مساعدة الأساقفة فى مصادرة أملاك البارونات الذين وقع عليهم قرار الحرمان كما تحدث بحدة إلى عدد من أبرز

رجال الكنيسة لأنه اعتبرهم مقصرين فى القيام بواجبات مناصبهم . كذلك فإنه طلب من البابوية والكنيسة الفرنسية مطالب مالية باهظة لتمويل حملته الصليبية ضد مصر . ولم يستجب لدعوة إنوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد فردريك الثانى . لقد اتضح تماما مفهوم سان لويس عن العلاقات بين الكنيسة والدولة حين أزعجه استغلال المثال الصليبى للهجوم على ملك شرعى . بل إنه احتج على الضرائب البابوية على الأكليروس الفرنسى لتمويل هذه الحملة الصليبية . ولم يسمح لأخيه بغزو جنوب إيطاليا سوى بعد إملاء شروطه الخاصة حول هذه المغامرة . ذلك أن البابا جعل لشارل كافة الحقوق على ماكان يشكل مملكة فردريك ، وكان هذا البابا فرنسيا مثل سلفة الذى سبقه على العرش البابوى ، وبنهاية عهد لويس التاسع كان هناك حزب فرنسى قوى بين الكرادلة ، وكان لابد أن يتطلعوا صوب باريس طلبا لمن يتزعمهم.

كانت السيطرة الأنجوية على جنوب إيطاليا هى فصل الختام فى صعود السلطة الفرنسية فى أوربا ، وهو الصعود الذى بدأ بغزو فيليب أوغسطس لنورماندى ١٢٠٤ . وقد حدث تغير فى ميزان القوى فى أوربا سنة ١٢٧٠ . فقد كانت الملكية الألمانية قد فقدت أهميتها تماما فى صياغة السياسة الأوربية . وحلت محلها الملكية الفرنسية الكابية ، حليف البابوية القديم . أما البابوية ، التى حارب دهراً لكى تبقى الإمبراطور الألمانى خارج إيطاليا فكانت تواقة إلى تتويج أخى أقوى ملك أوربى على المملكة الإيطالية بدلا من الهوهنشتاوفن البغيضين . وبفضل موارد أغنى دولة فى أوربا . وبولاء الأكليروس الفرنسى ، وبوجود معقل فرنسى قوى فى صقلية ، وحزب فرنسى فى هيئة الكرادلة نفسها ، توفرت للملك الفرنسى الكابى القوة اللازمة للسيطرة على البابوية أكثر من أى ملك آخر منذ منتصف القرن الحادى عشر . ولكن فى سنة ١٢٧٠ لم تكن البابوية لتهتم باحتمال تعرضها للهجوم . وإنما على العكس ، تولت قيادة عملية التهليل للملك الفرنسى الذى ظهر وكأنه ملك مسيحى كامل . ولم يكن ثمة سبب يدعوها للخوف من حاكم أكد الثقة التوماسية فى الخاصية الأخلاقية للدولة .

٣ - اهتمامات المجتمع :

بينما كان الزعماء الفكريون والكنسيون والسياسيون لأوربا القرن الثالث عشر يسعون لمواجهة التحدى المطروح بسبب الروح الإبداعية فى القرن الثانى عشر ، كان السيد الإقطاعى والبورجوازى والفلاح يسعون إلى أن يلائموا بين مصالحهم وأهدافهم الخاصة وبين التغيرات الاجتماعية بقدر الإمكان . وحتى زمن قريب جداً كان من السهل على المؤرخين أن يصفوا نموذج النظام الاجتماعى والاقتصادى فى القرن الثالث عشر . فقد كتبوا عن حياة النبلاء ،

وعن مدينة العصور الوسطى ، وعن الضيعة . وكان هنرى بيرين هو النموذج الأمثل والأفضل لمؤرخ العصور الوسطى الاجتماعى من النمط القديم . وكان هذا المدخل يقوم على قدر كبير من الاستنباط التخيلى للأنماط الاجتماعية المثالية . وإبان السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية تحول اتجاه تاريخ العصور الوسطى الاجتماعى صوب الدراسات الإقليمية والمحلية المكثفة بعيداً عن التعميمات العريضة . وكان الفضل فى هذا يرجع أساسا إلى العلماء الفرنسيين الذين ألهمهم مارك بلوك . وكما هو الحال فى التطور العام لعلم الاجتماع فى العشرين ، تحولت الحركة عن التأملات الجسور للأنماط الاجتماعية المثالية إلى الجمع المكثف للمعلومات . ومن وجهة نظر أفقية عريضة للبناء الكلى لمجتمع العصور الوسطى ، صوب نظرة رأسية ، واقعية فى تفاصيل الحياة الاقتصادية والسياسية فى إقليم بعينه ، أو بلد محدد ، أو مدينة معينة . وتمثلت النتيجة الرئيسية لمثل هذا النوع من البحث المكثف المحدد فى طرح التساؤلات حول النماذج القديمة الموسعة ، وإعطاء الإنطباع بمدى جسامة التنوع والاختلاف فى الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى . لقد طرحت التعميمات القديمة للتساؤل ، وبدأت تعميمات جديدة تظهر فى بطء وعلى استحياء . ومع ذلك ، فإنه ليس مؤكداً بعد إلى أى مدى كان هذا الاختلاف الواضح مجرد نتيجة للمنهجية التطبيقية ( الإمبريقية ) الشائعة حاليا – وعما إذا كان الهجوم على صلاحية النموذج الذى صاغه المؤرخون القدامى للاقتصاد والمجتمع فى العصور الوسطى نتيجة ميل إلى التعميم وهوى إلى التشتت بالاختلافات الصغرى والتغاضى عن أوجه الشبه الهامة . وعلى أية حال ، فإن الدراسات الحديثة عن المجتمع في القرن الثالث عشر كان لها أثرها على الأقل من حيث التحذير من مغبة الخلق السهل للنماذج العامة ، ومن حيث تأكيد وجود فروق إقليمية قوية فى حياة كل من السيد الإقطاعى ، والبورجوازى ، والفلاح .

كانت جميع الطوائف والطبقات فى شتى أنحاء أوربا القرن الثالث عشر تجد أن حياتها محكومة بأربعة عوامل عامة . كان العامل الأول منها هو الزيادة الكبيرة فى السيطرة الاجتماعية بسبب نمو الحكومة والمؤسسات القانونية . وثانيا أن المجتمع كان فى سبيله للتحول من مجتمع يقوم على أساس المكانة الاجتماعية إلى مجتمع يقوم على أساس المال . إذ كان ميلاد الإنسان مايزال عاملا هاما فى تحديد مسار حياته : فقد كان من الصعب تماما فى كثير من مناطق أوربا على أكثر البورجوازيين ثراء أن يتمتعوا ببعض الإمتيازات التى كانت أمراً

مسلمًا به لابن السيد الإقطاعي : ولكن المكانة الاجتماعية ، من ناحية أخرى ، لم تكن كافية لضمان حياة سعيدة آمنة . فلم يعد يهم مايمكن أن يكون عليه أصل المرء من عراقة ، ولكن القدرة المالية كانت هي المعول عليها في الأوقات الصعبة . وكانت السنوات السبعون أو الثمانون الأولى من القرن الثالث عشر هي المرحلة النهائية لفترة من الإزدهار ، والنمو السكاني والغلاء الذي ميز الاقتصاد الأوربي منذ منتصف القرن العاشر . هذا الوضع الاقتصادي العام كان له تأثير عميق على كافة الطوائف في المجتمع . ورابعا ، وأخيراً ، كان القرن الثالث عشر هو عصر السلام الطويل المدى ، وهو أمر لم يتحقق ثانيا علي مدى عدة قرون تالية حتى الفترة مابين سنة ١٨١٥ وسنة ١٩١٤ . فمنذ معركة بوفينيس سنة ١٢١٤ م حتى بداية الصراع المدمر بين إنجلترا وفرنسا في تسعينيات القرن الثالث عشر لم تنشب أية حرب كبرى في أوربا ، وقد كان لحالة السلام هذه نتائجها الهامة والمختلفة على طبقات المجتمع .

ولم يكن النبلاء وملاك الأراضي المنحدرون من نسل السادة الإقطاعيين في القرن العاشر يتمتعون بنفس الأهمية التي كانت لهم قبل سنة ١١٠٠ ، سواء في مجال الحكم أو في المجال الاقتصادي . بيد أنهم كانوا مايزالون هم الطبقة السائدة في المجتمع ، وهو وضع احتفظوا به لأنفسهم حتى القرن التاسع عشر . فقد كان ثمة تغير مطرد في حياة النبلاء وتنظيمهم على المستوى الأفقي والمستوى الرأسي على حد سواء . ومن الممكن أن نبرز نماذج إقليمية محدودة. ففي إيطاليا وجنوب فرنسا كان النبلاء يعيشون حياة حضرية راقية . أما السادة الألمان فكانوا أقرب إلى الطبقة المحاربة في العصور الوسطى الباكرة : إذ أن تفكك ألمانيا إلي إمارات صغيرة مرتبكة أتاح للنبلاء الألمان فرصا عديدة للتصرف المستقل والدخول في الحروب المحلية. ولم تكن للحياة الحضرية أي تأثير يذكر على ملاك الأراضي في شمال فرنسا وإنجلترا . فقد نأوا بأنفسهم تماما عن الطبقة البورجوازية التي كانوا يعتبرون أبناءها في مكانة اجتماعية أدنى . وكان هناك استقطاب متزايد بين النبلاء من كبار الارستقراطيين من جهة ، وأولئك الذين يقلون عنهم ثراء من جهة أخرى . فقد صار كبار الارستقراطيين طائفة مغلقة من ذوي الدماء الراقية والأخلاق والمراسم الخاصة ، على حين أخذ صغار النبلاء يتحولون إلي سادة محليين ، يتسمون في كثير من الأحيان بنفس الغلظة والجهل اللذين يتميز بهما الفلاحون الذين عاش صغار النبلاء بينهم .

كان السيد الإقطاعى فى القرن الثالث عشر ، ولاسيما فى إنجلترا وفرنسا ، محدداً بنظم حكومية وقانونية وضريبية قوية . وكان شخصا يختلف تماما عن أولئك البلطجية الذين عاشوا فى القرن العاشر ، بل وعن كثيرين ممن اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، ينطبق بصفة خاصة على الشريحة العليا من النبلاء . إذ كانوا ، عموما ، ذوى حظ من التعليم قليل - بحيث يكفيهم لأن يكتبوا الخطابات باللهجات المحلية ، ويقرأوا روايات الفروسية الخيالية ، أو المقالات الصغيرة عن حياة أحد السادة أو أحد نظار الضياع . وكان معظم إنتاج هذا الأدب مكتوبا باللغة الفرنسية ، التى كانت قد صارت هى اللغة الدولية للطبقة الارستقراطية وظلت كذلك حتى القرن العشرين . وقد عرف القرن الثالث عشر ثلاثة ، على الأقل ، من النبلاء الفرنسيين كانوا أصحاب ثقافة عالية وعقليات راقية . فقد كتب وليم اللوريسى William of Lorris النصف الأول من « رواية الزهرة » ، وهى عبارة عن نوع من الموسوعات فى القصة الرمزية كانت محبوبة جداً فى أوساط القراء الأرستقراطيين ، ولايزال البعض يعتبرونها عملا أدبيا عظيما . وثمة نبيل فرنسى آخر هو فيلهاردوين Vil-lehardouin الذى كتب تقريرا أمينا وافيا عن الحملة الصليبية الرابعة التعسة ، لأنه كان أحد المشاركين فيها . وكتاب « سيرة القديس لويس » الذى كتبه جوانفيل يعتبر مذكرات شخصية كتبها أحد المقربين إلى الملك الفرنسى . وهى من بعض الجوانب تعتبر سيرة مثالية مثل السير الملكية السابقة التى كتبها مؤلفون كنسيون فى العصور الوسطى الباكرة . إلا أنها تقدم لنا الكثير من التفاصيل عن الظروف المحيطة بحياة لويس ، ومازالت هى السيرة الوحيدة التى تستحق القراءة من بين السير التى كتبت عن هذا الملك . وثمة سيد إقطاعى صغير عاش فى إنجلترا فى منتصف القرن الثالث عشر ، هو سير والتر هينلى Sir Walter Henley كتب لابنه مقالة عن إدارة الضياع . وهى منظمة جيداً وحافلة بالمعلومات العامة عن المحاصيل . وتربية الأغنام ، وإدارة الضياع الإقطاعية . وفى القرن الثالث عشر كان السادة الإقطاعيون يتلقون تعليمهم فى المنازل فى أغلب الأحوال . ولكن بعض النبلاء الحضريين فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا كانوا يتلقون تعليما جامعيا ويتشغلون بالقانون المدنى . ومنذ نهاية القرن الثالث عشر كان من الشائع فى إنجلترا أن ترسل الأسر النبيلة أبناءها إلى مدارس القانون العام فى لندن ، والتى عرفت باسم الهيئات القانونية Inns of Court لكى يتلقوا تعليما أوليا فى القانون ، يسمح لهم فيما بعد أن يكونوا فى موقف جيد فى قضاياهم التى لم تكن

تتوقف تقريبا حول حقوق الملكية . وكان الكثير من أبناء النبلاء الصغار ، بطبيعة الحال ، يعدون للعمل فى الكنيسة ويرسلون إلى الجامعات ؛ حيث صار عدد قليل منهم علماء وأساتذة.

كانت الحرب هى السبب الجوهرى raison d'être لوجود النبلاء أصلا ، ولكن خلال فترة السلم الطويلة فى القرن الثالث عشر لم تكن هناك فرص كثيرة لإظهار المهارة العسكرية - كذلك بدأت ثورة بطيئة تأخذ مجراها فى الحياة العسكرية . فالفارس ، المحارب المسلح على صهوة جواد ، صار أكثر تكلفة بسبب التسليح الثقيل المعدنى الذى بات يشكل نسبة متزايدة من تجهيزاته . ومن ثم فإن الفارس الذى كان يمكنه تجهيز نفسه كان عليه طلب كثير . وعندما كان أحد الملوك يضطر إلى أن يجهز جيشا كاملا ، كان ذلك يستنزف موارده ويجهدها تماما . ونتيجة لذلك ، اضمحل تقليد جمع الأفصال على حين تزايد الإعتماد على المرتزقة المأجورين. وفى مطلع القرن الثالث عشر كان الفارس ذو التسليح الثقيل هو اللحمة والسداة فى الشئون الحربية . وعند غروب شمس هذا القرن ، وعندما كان الفارس مازال هو العمود الفقرى للجيش، قلت قيمته الإستراتيجية بسبب الإعتماد المتزايد على المشاة . وكان لظهور أسلحة جديدة أثره فى تضاؤل قيمة الفارس تدريجيا على مدي القرنين التاليين . فقد أظهر المرتزقة الفلمنكيون والسويديون فى العقود الأخيرة من هذا القرن أن الفلاحين المنظمين جيداً والمسلحين بالحراب الطويلة يمكنهم صد أى هجوم يقوم به جيش إقطاعى . وفى القرن الثالث عشر إتضح أيضا أن الدرع يمكن أن يخترقه نصل معدنى يطلق من أى قوس منجنيقى . ولهذا أضاف القادة العسكريون فى جميع أنحاء أوربا فيالق رماة الأقواس المنجنيقية إلى جيوشهم . وكانت نقطة الضعف الرئيسية فى القوس المنجنيقى أنه يجب ملؤه فى نفس اللحظة التى يكون الرامى « قد أطلق مافى جعبته » ، وعادة ماكان يتواجد خارج نطاق المعركة ؛ وكان تأثير سلاحه المرعب الجديد ، الذى يعتبر سلفا للبندقية من بعض الوجوه ، محدوداً كذلك بمداه القصير وعدم دقته . وفى منتصف القرن الثالث عشر ، توصلت الجيوش الإنجليزية المحاربة فى ويلز إلى القوس الطويل ، وهو سلاح سريع الإطلاق طويل المدى استخدمه الإنجليز ضد الفرنسيين فى القرن الرابع عشر . وكان النصل المنطلق من السهم الطويل لايخترق الدروع فى أغلب الأحوال ، ولكن كان ييسر إمكانية إطلاق السهام بكثرة تثير الفزع والفوضى فى صفوف الفرسان المشتبكين فى المعركة . ونتيجة لهذه التغييرات فى التكنولوجيا العسكرية صارت

الدروع أكثر ثقلا والخيول أكبر حجما ، ولكن هذا لم يحفظ للفارس تلك الأهمية الفائقة التى كانت له من قبل . وبنهاية القرن الثالث عشر كان الفارس يرقد بلا حراك إذا أسقط من فوق فرسه بسبب الثقل الكبير للباسه المدرع .

وعلى الرغم من التضاؤل المستمر فى أهمية الفارس ، فلم يكن يخطر على البال إمكانية شن الحرب دون أن يكون النبلاء هم ضباط الجيش . فقد احتفظ النبلاء بسيطرتهم على الحرب، على الرغم من التغير التكنولوجى ، بسبب التقاليد والقيم الاجتماعية . وفقد صغار الأفصال الإقطاعيين ماكان لهم من أهمية ؛ إذ كان من قبيل المخاطرة أن يذهب المرء إلى الحرب برجال لايلتزمون بأداء الخدمة العسكرية سوى أربعين يوما فقط فى السنة ، وربما يكونون فى حال سيئة من الإستعداد والتجهيز والتدريب . وبمنتصف القرن الثالث عشر كان المرتزقة قد صاروا هم الوحدة الأساسية فى الحياة العسكرية فى أوربا . ولكن الملك كان يرسل أبرز النبلاء لتجنيد فيالق المرتزقة وإعدادها للخدمة فى جيشه . وبسبب فترة السلام الطويل التى سادت فى القرن الثالث عشر لم تكن هذه الخدمة مطلوبة كثيراً من الأرستقراطيين حتى تسعينيات هذا القرن ، مما أدى إلى شعورهم بالمهانة والإحباط . إذ لم يكن الفرد الأرستقراطى يعرف سوى القليل في مجالات كثيرة جداً - مثل شئون الحكم ، والقانون ، والأدب ، والزراعة - ولكنه كان خبيراً بشئون الحرب فقط .

وبسبب عدم استطاعة الكثيرين من كبار نبلاء القرن الثالث عشر إظهار تفوقهم العسكرى على غيرهم من فئات المجتمع ، فإنهم أخذوا يبحثون عن وسائل اجتماعية واحتفالية يعبرون بها عن مكانتهم . ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت الأرستقراطية قد تحولت إل فئة منغلقة على نفسها ، وكانت لها مفاهيم ومراسم لم يكن باستطاعة الإقطاعيين الأجلاف وعامة الفرسان أن يشاركوهم إياها . فقد تطور علم كامل عن الأنساب وفن شعارات النسب ، مما كان تعبيراً عن الإعتقاد بأن النبالة مسألة تتعلق بالدم والوراثة دون غيرها . وصارت طقوس الفروسية أكثر زخرفة وتعقيداً ، كما تم وضع قانون يحكم التعامل بين كبار الإقطاعيين على أسس أكثر شمولا ، وكان الصبى الكريم المحتد يرسل فى سن السابعة أو الثامنة ليكون وصيفا فى بيت أحد كبار الأرستقراطيين حيث يتلقى تعليمه الأولى . وبعد ذلك بسنوات سبع يصبح تابعا ويتلقى تدريبه على السلاح . وأخيراً وعندما يستطيع دفع التكاليف « يرتدى شعار الفروسية » فى إحتفال كبير يقسم فيه يمين الفروسية ثم يمنحه السيد الكبير لقب فارس . هذه الطقوس ومثيلاتها - التى ارتبطت فى أذهان العامة غالبا بالإقطاع - كانت فى حقيقة

أمرها نتاجا لمرحلة التدهور فى النظام الإقطاعي . إذ كانت هى الوسائل التي حاولت الطبقة الحاكمة من خلالها أن تحافظ على مكانتها السابقة ، وأن تستعيض بالإمتياز الطبقى عن فائدتها الاجتماعية .

وقد أدى إرتفاع منحني الزيادة السكانية والتضخم الذى ساد إبان الشطر الأعظم من القرن الثالث عشر إلى جعل هذه الفترة فترة رواج لملاك الأراضى . وعلى أية حال ، فإن ملاك الأراضى كانوا قد وقعوا فى براثن الديون الشخصية ، ولاسيما كبار النبلاء منهم . ذلك أن الإنفاق على البيت الأرستقراطى ومواصلة الحياة بأسلوب الإسراف الذى كان كبار السادة الإقطاعيين قد إعتادوه كان أكبر من مواردهم الشاسعة فى كثير من الأحيان . فقد أفسدت الملكية النبلاء . إذ كان لدى الملك مصادر دخل كبيرة ، وكان يستطيع استغلال دخله من الضرائب الخاصة للإنفاق على حياته ، ويعيش حياة الفخامة والأبهة . وتورط النبلاء فى الديون وهم يحاولون تقليد الملك ، كما أن السادة الصغار ، الذين كانوا بدورهم يقلدون كبار الأرستقراطيين ، دمروا أنفسهم وهم يحاولون الحفاظ على أسلوب المعيشة الذى يخرج عن نطاق إمكانياتهم . وثمة سبب آخر لمتاعب النبلاء الاقتصادية تمثل فى سوء استغلالهم لمواردهم . فقد تفوق بعضهم فى الزراعة ، ولكن غالبية كبار النبلاء كانوا مشدودين إلى البلاط والمبارزات طوال يومهم بحيث لايهتمون بالطريقة التى كان وكلاؤهم ونظار ضياعهم يديرون بها ممتلكاتهم الشاسعة . وربما كان كثيرون من نبلاء القرن الثالث عشر المرهقين يستغلون أراضيهم التى كانت غير خصبة ، بجهود بائس لحل مشكلاتهم المالية . ولكن هذه المحاولات لم تكن تؤدي سوى إلى تصعيد مشاكلهم الاقتصادية . وبنهاية القرن الثالث عشر كانت الأراضى التى اشتهرت بالخصوبة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا قد أنهكت بحيث لم تعد تصلح للزراعة .

كانت الاهتمامات السياسية لنبلاء القرن الثالث عشر تختلف من بلد إلى آخر إختلافا بينا. ففى إيطاليا كانت الحياة السياسية لكبار الأرستقراطيين مرتبطة بتطور المدن بطبيعة الحال . وحينما حدث فى أواخر القرن الثالث عشر أن اكتشف البورجوازيين أنهم لايستطيعون إدارة حكوماتهم بإقتدار ، رحبوا بدفع ثمن الاستعانة بالنبلاء وقبلوهم حكاما طغاة فى سبيل النزر اليسير من السلام والنظام . وهذا هو أصل « أمراء للنهضة » ذائعى الصيت . وقد أتاح تفكك ألمانيا السياسى الفرص لتقديم كبار النبلاء ، بل وصغارهم أيضا . إذ كان هناك دائما بلاط يمكن لأى نبيل متعلم ، ذكى وجرئ ، أن يجد لنفسه مكانا هاما فيه ، حتى ولو كانت

إمكانياته متواضعة . وظل هذا هو الوضع السياسى والاجتماعى السائد فى ألمانيا حتى القرن التاسع عشر . أما فى فرنسا وإنجلترا ، فإن حياة النبلاء كانت محكومة بمؤسسات الملكية الوطنية . إذ أن نبلاء فرنسا القرن الثالث عشر وجدوا إختصاصاتهم الإقطاعية تتبخر على حين تتحكم فيهم الإدارة الملكية الصارمة فى كل مجال . ولكن الضرائب الملكية لم تكن باهظة ، كما أن التاج أرسى دعائم السلام ، والنظام ، والأمن ؛ وهو ماكان الإقطاعيون يرونه ميزة فى صالحهم ، لاسيما أن الحرب لم تكن فى صالحهم . وبالنسبة للنوع الأكثر عدوانية بين النبلاء الفرنسيين فى القرن الثالث عشر ، كان ثمة متنفس لطاقتهم العدوانية فى الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين وحملة غزو صقلية . وبسبب إتساع مساحة الريف الفرنسى ، وتنوع التقاليد الريفية ، لم تكن الأرستقراطية الفرنسية أبدا مجموعة متقاربة سياسيا . كانت الحكومة الملكية هى التى تستطيع أن تجسد وحدة المملكة ، أما النبلاء فقد ظلوا يفكرون فى أنفسهم بإعتبارهم نورمان ، أو بريتونيين ، أو برجنديين ... أو غير ذلك . ولم يكن هناك مجلس عام للنبلاء الفرنسيين حتى اجتماع الهيئة العامة Estates Generale فى القرن الرابع عشر ، وكان هذا الاجتماع مجرد إجراء دعائى ولم يكن بداية لمؤسسة فعالة . وكانت المجالس الهامة الوحيدة لدى النبلاء الفرنسيين هى المجالس المحلية ، ومجالس المقاطعات ، والمجالس الإقليمية . ولم تكن الملكية الكابية تجمع النبلاء سويا للحصول على موافقتهم على الضرائب؛ وإنما كانت تتعامل معهم بطريقة جزئية تقسيمية ، وهو ماكان إنعكاسا لحقيقة أن النبلاء كانوا يميلون إلى التفكير فى ضوء مشاكلهم الخاصة دون الاهتمام بمشاكل المملكة ككل . أما الموقف فى إنجلترا ، فكان مختلفا تمام الاختلاف ، لأنها كانت بلادا أصغر مساحة من فرنسا من ناحية ، وبسبب التقاليد الأطول عمراً عن وحدة السلطة الملكية وإنسجامها والقانون العام الذى يحكم المملكة بأسرها من ناحية ثانية ، لأن كبار النبلاء غالبا ماكانوا يمتلكون الضياع فى مقاطعتين أو أكثر من ناحية ثالثة . ولم يكن النبلاء الإنجليز يفكرون فى أنفسهم باعتبارهم من كنت ، أو ديفون ، أو يوركشاير ، وإنما باعتبارهم زعماء للمجتمع فى المملكة ككل . ومنذ زمن الغزو النورمانى كانت تتم دعوتهم من كافة أركان المملكة لحضور الاجتماعات الكبرى فى محكمة الملك Curia regis ، وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا التقليد إلى استشارة كبار النبلاء حول الضرائب والتشريعات والحصول على موافقتهم عليها . وكانت الأرستقراطية الإنجليزية تعرف عن أعمال الحكومة الملكية قدراً أكبر بكثير مما يعرفه أقرانهم الفرنسيون ، وكان هذا من بين أسباب محاولتهم توجيه الإدارة الملكية في عهد هنرى الثالث .

..... الطرق البرية (مع الأنهار الصالحة للملاحة)
—·—·— الطرق البحرية
– – – البنادقة
–·–·– الجنوية
▬ العصبة الهانزية
• الأسواق الرئيسية

طرق التجارة فى القرن الثالث عشر الميلادى

كانت مشاعر المرارة تضطرم فى صدور البورجوازيين فى إنجلترا وشمال فرنسا من جراء استمرار سيطرة النبلاء على المجتمع ، وإستئثار كبار السادة الأرستقراطيين بالإمتيازات القانونية والسياسية . ويتسم الأدب البورجوازى بصوره الناقدة الساخرة من النبلاء ورجال الكنيسة الذين كانوا ينعمون بالإمتيازات الطبقية التقليدية ، والتى كانت فى نظر البورجوازيين ، شيئا لايستحقونه . فالقصص الرمزية التى تحمل قدراً من التمويه ، مثل القصص الخرافية الشائعة التى تدور حول رينارد الثعلب Reynard the Fox كانت تنفيسا مريرا عن مشاعر البورجوازيين وإحساسهم بأنهم ضحية الإستغلال وكانت نظرتهم للحياة بالضرورة أكثر عقلانية ، وأقل خيالية من تلك النظرة الى كانت سائدة فى آداب الفروسية . هذه العقلانية والسخرية هى التى تميز الجزء الثانى من « روايات الزهرة » التى كتبها جان دى مـــين Jean de Meun ، الذى كان بورجوازيا فرنسيا تعلم فى الجامعة ، عن مثالية أدب البلاط التى يتميز بها الجزء الأول من هذه الروايات . ولم يكن باستطاعة البورجوازيين عموما فى القرن الثالث عشر أن ينظروا إلى الحياة نظرة خيالية ؛ فقد كان عليهم أن يعتمدوا على مواهبهم الخاصة وطاقاتهم حتى يتجنبوا الوقوع فى فخاخ الفقر المزرى . لقد كانت أسوار المدينة فى العصور الوسطى تضم مجتمعا متنافسا للغاية ، على الرغم من الجهود التى كانت نقابات الحرفيين القديمة تبذلها للسيطرة على الحياة الاقتصادية ، وهو مجتمع كان فيه الإحسان إلي الضعيف والعاجز قليلا . ومع هذا فإن التاجر نفسه والذى كان ناقداً متشككا ، بلا أوهام ، وكان مخلصا تماما لزعامة الرهبان الفرنسسكان على الكنيسة ؛ إذ كان يقف ساعات طوال لكى يستمع إلى خطب الرهبان الحماسية ، أو لمشاهدة المسرحيات التى تتناول المعجزات والأخلاق ، والتى كانت موضوعاتها الرئيسية مأخوذة من قصص الكتاب المقدس . وكان البورجوازى يطلق نكاتا فجة عن رجال الكنيسة ، ولكن السماء والجحيم كانا مكانيين حقيقيين ولاشك فى وجودهما بالنسبة له . لقد كانت مدن العصور الوسطى المزدحمة غير الصحية ، والقيود السياسية والقانونية التى كان البورجوازى يناضل ضدها ، هى التى جعلت الناس المقهورين يتأرجحون ما بين التطرف فى السخرية والتهكم ، والإخلاص الدينى .

وإبان القرن الثالث عشر كان هناك تزايد مستمر فى ثروات المدن وتطور فى مؤسساتها ، ولكن هذا جلب فى أعقابه مشكلات جديدة للحياة البورجوازية التى كانت موبوءة بالفعل . ففى مدن الفلاندرز وشمال إيطاليا حيث الإنتاج الضخم للأقمشة الصوفية ، وحيث تزدهر

التجارة العالمية فى هذه الأقمشة ، كان ثمة استقطاب متصاعدة للثروة ، وتصعيد الصراع الطبقى . إذ كان هناك شعور بالكراهية المتبادلة بين المعلمين المسيطرين على النقابات الحرفية وبين العمال والصبيان فى كل من هذه النقابات . كما كانت هناك عداوة متبادلة بين النقابات الغنية التى تشتغل بتجارة الأقمشة الدولية والنقابات العادية التى تنتج البضائع للاستهلاك المحلى . ففى مدن النسيج الفلمنكية مثل غنت Ghent ، وفى المراكز الصناعية الإيطالية ، ولاسيما فلورنسا ، ظهرت طبقة بروليتارية كبيرة فى القرن الثالث عشر . وعلى الطرف الآخر من الميزان الاجتماعى كانت تتربع أقلية من المقاولين والمتعهدين الذين جعلوا همهم السيطرة على حكومات المدن ، وضمان الترتيبات التى تتناسب مع مصالحهم الخاصة ، وأخيراً نشب صراع مرير بين هذه الأسر الحاكمة فى سبيل الفوز بالسلطة . وكلما كانت المدينة فى العصور الوسطى كبيرة ، كلما كانت الصراعات السياسية والطبقية فيها أشد مرارة .

لقد حقق البورجوازيون فى القرن الثالث عشر تقدماً فى مجال التطور الاقتصادى . ذلك أن حجم تجارة البحر المتوسط ، والبحر البلطى ، والشرق الأوسط ، وأواسط آسيا وروسيا كان يتزايد بشكل مطرد . فقد استغل تجار شمال إيطاليا تجربتهم فى التبادل التجارى العالمى لتطوير المؤسسات المصرفية ، بل أنهم صاروا أكثر ثراء باعتبارهم الوكلاء الماليين للبابوية . وفى منتصف القرن الثالث عشر أعادت أوربا استخدام العملات الذهبية فى التجارة العالمية على نطاق واسع ، وقد صار الفلورين الذهبى ، الذى سك للمرة الأولى لسد حاجة التجار الهولنديين سنة ١٢٦٥ ، بمثابة العملة القياسية لأوربا . وقد حقق البورجوازيون مستوى عاليا من التعليم العام ، ولم ينعكس هذا فى مجال الأدب فقط ( فى فرنسا أولا ثم إيطاليا ) وإنما انعكس أيضا فى تطوير نظام الموثق المحترف الذى كانت مهمته كتابة أعداد لاتحصى من الوثائق التى صارت ضرورة لازمة لهذا المجتمع التجارى المتعلم .

ولكن البورجوازيين لم يكونوا قادرين على حل مشكلاتهم السياسية ، وعانت المدن الاضطراب الداخلى المستمر ، ولأن المدن كانت منقسمة على نفسها كما كان بنيانها طبقيا للغاية ؛ فقد صارت نظمها الانتخابية نظما غير مباشرة ؛ لأنه لم يكن هناك أحد يثق فى أحد آخر بحيث يعطيه صوته . ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت كثير من المدن الإيطالية تتخلى عن حرياتها الكومونية ، التى ناضلت قرونا فى سبيل الحصول عليها ، وهو أمر كثيراً ماتحسر عليه المؤرخون الليبراليون المحدثون . فقد تخلى البورجوازيون عن السلطات السياسية إلي

بودستا Podesta ، أى دكتاتور خرج من صفوف الطبقة الأرستقراطية المحلية ، بحيث أنشأ أسرة وراثية فى المدن التجارية الغنية .

وفى بعض مناطق أوربا حافظت الكومونات على استقلالها . إذ كانت ماتزال هناك « مدن حرة » فى أراضى الراين فى القرن الرابع عشر . وأبرز مجموعة من الكوميونات المستقلة هى مدن البلطيق الألمانية التجارية التى تألفت منها العصبة الهانزية . فلم يكن تجار شمال إيطاليا يشتغلون بالتجارة الواسعة فقط ، والتى كانت تمتد من روسيا حتى انجلترا ، ولكنهم كانوا أيضا يشلون تحالفات سياسية وعسكرية ، وحاربوا الملوك الاسكندنافيين فى سبيل الهيمنة على البحر البلطى . وحينما كانت توجد سلطة ملكية قوية ، كان الاستقلال الذاتى للبورجوازيين قليلا . فقد كانت المدن الفرنسية فى القرن الثالث عشر ، وكذلك بعض مدن الجنوب وإقليم الراين التى تتمتع بالامتيازات الكوميونية ، قد خضعت للإدارة الملكية الناهضة . أما فى انجلترا ، فإن الامتيازات السياسية والقانونية للبورجوازيين كانت أقل كثيراً من تلك التى حصل عليها نظراؤهم فى القارة . فد كان تجار لندن ، حتى نهاية القرن الثالث عشر تقريبا ، ساخطين من جراء إصرار وزير المالية على أن وضعهم القانونى لايكاد يختلف عن وضع الفلاحين فى الضياع الملكية ، وهو مايعنى أن يخضع كل البورجوازيين للضرائب الاعتباطية .

كانت إحدى الحقائق الأساسية فى حضارة القرن الثالث عشر تتمثل فى فشل الطبقات التجارية والصناعية فى إحراز قدر من الزعامة السياسية فى المجتمع . بل إن الكومونات الإيطالية كانت قد بدأت تفقد حريتها السياسية . فقد كانت حكومات الملكيات الصاعدة بأيدى ملاك الأراضى وخريجى الجامعات الذين لم يكونوا يهتمون بشئ سوى مصالح سادتهم الملكيين ، علي الرغم من أن كثيرين منهم كانوا من أبناء الطبقة البورجوازية . وكان الملوك . والسادة الإقطاعيون ، والعلماء مايزالون قادة للمجتمع الأوربى . ولم تترجم الأهمية الاقتصادية للبورجوازيين إلى زعامة سياسية واجتماعية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر .

أما أكبر طبقات المجتمع فى العصور الوسطى ، والتى كانت تضم غالبية السكان فقد كانت طبقة خرساء . فليس ثمة أدب يعبر عن الفلاحين فى القرن الثالث عشر ، ولم يحدث سوى فى القرن الرابع عشر أن ظهر نوع من الكتابة يمكن اعتباره معبراً عن وجهة نظر

الفلاحين. فالمرجع أن القصيدة المعروفة باسم Piers Plowman[٥] كتبها أحد القساوسة الإنجليز الفقراء ، الذين غالبا ماكانوا هم أنفسهم من أبناء طبقة الفلاحين . ذلك أن نغمة هذه القصيدة الملتاعة ، المريرة ، الأخروية ، تشى بأن الفلاح كان يدرك تماما أن الطبقة الحاكمة فى المجتمع تستغله ، كما أنه كان فى الوقت نفسه مخلصًا لتعاليم الكنيسة التى كان ينقلها إليه القساوسة الأبرشيون والرهبان الجوالون . وليس أمامنا من سبيل يجعلنا نعرف على وجه التأكيد كم كانت آراء وليم لانجلاند William Longland ، مؤلف قصيدة Piers Plowman متوافقة مع آراء الفلاحين .

إذ يخبرنا المؤرخون الاقتصاديون ، من واقع دراستهم للسجلات الاقطاعية ، أن الأحوال الاقتصادية للفلاحين كانت آخذة فى التحسن فى معظم أنحاء أوربا ، ولاسيما في فرنسا وألمانيا ، فى القرن الثالث عشر . ذلك أن التأثير المركب للاقتصاد النقدى ، وحركة التعمير ، أتاحت للفلاحين سبيل الهروب من الواجبات القنية والخدمات الاقطاعية القديمة . فقد بنى البعض « قرى جديدة » فى الأراضى الخالية ، على حين انضم البعض الآخر إلى حركة الزحف صوب الشرق حيث كان السادة الألمان يمنحونهم شروطا مغرية للاستقرار . أما أولئك الذين بقوا فى قراهم ذات الحقول المفتوحة ، فغالبا ماتمكنوا من التوصل إلى اتفاق مع سادتهم باستبدال الخدمات الإقطاعية بإيجارات نقدية . وهكذا ، كان القن فى فرنسا وألمانيا فى طريقه لأن يصير مزارعا صغيراً مستقلا . حقيقة أنه كان مايزال عرضة للاستغلال على أيدى السادة الإقطاعيين المحليين ، وكان محطا لإزدراء البورجوازيين ، وكان كبار القساوسة يتجاهلونه ، بيد أنه كان أفضل حالا مما كان عليه قبل قرنين من الزمان .

ويبدو أنه كانت هناك اختلافات أفقية ورأسية كبيرة فى وضع الفلاح . إذ كان الأقنان الإنجليز أقل توفيقا في تحقيق حريتهم ، ربما لأن الفرسان الإنجليز كانوا أشخاصا قساة قبعوا فى بلادهم واعتنوا بإدارة ضياعهم أكثر مما فعل السادة الفرنسيون . أما فى إيطاليا فقد كان

---

٥ - قصيدة Piers Plowman قصيدة رمزية انجليزية طويلة تنسب إلى وليم لانجلاند ( حوالى سنة ١٣٣٠ - ١٤٠٠ ) . وهى عبارة عن قصيدة دينية تجسد الكنيسة ، والحقيقة ، والعقل ، والغش ، والجوع .. وما إلى ذلك . وهى فى معظمها مكتوبة بلغة الحياة اليومية البسيطة ، ولكنها غنية بالمضامين ويكونها مصدراً للبحث العلمى . كما أنها كانت مفيدة كمصدر للمعلومات عن الحياة اليومية ، والجوانب المادية فى حضارة القرن الرابع عشر فى الريف الإنجليزى .

انظر : The Illustraed Ency . of Med . Civilization . (1980)

(المترجم )

الفلاحون يعانون من سيطرة البورجوازيين الذين كانوا يشترون الأرض ويستغلونهم دونما شفقة. وكان هناك تدرج عميق داخل طبقة الفلاحين نفسها - مابين أولئك الفلاحين الأثرياء الذين يملكون المحاريث ، والحيوانات ، والمزارع وأولئك العمال اليوميين ممن لايملكون أرضا والذين كان وجودهم هامشيا .

والتحسن العام فى أحوال الفلاحين إبان القرن الثالث عشر لاينبغى أن يعمينا عن حقيقة أنهم كانوا هم « الطبقة الداكنة dark people » فى حياة العصور الوسطى . فلم يكن أمام الفلاحين مهرب من مسار حياتهم الذى كان يبدأ بالميلاد ، وينقضى فى العمل ، وينتهى بالوفاة ، فقد كان هذا يبدو مساراً بلا نهاية . ولأن الفلاح لم يكن يملك العلف الكافى لحيواناته فى الشتاء ، فإنه كان يضطر إلى ذبح معظمها فى ديسمبر . وبعد أن يتخم نفسه بالأكل فى عيد الميلاد الذى يمتد إثنى عشر يوما ، لم يكن يتبقى له شيئ من اللحم الطازج حتى زمن الربيع ، وعبر سنوات طوال كان شبح الموت جوعا يحوم حول كوخه المتداعى . وكانت تسليته الوحيدة هى خدمة يوم الأحد الصباحية التى يقوم بها قسيس نصف متعلم ، أو موعظة يلقيها أحد الرهبان الجوالين . وبين هذا الفلاح البهيم الغبى ، والذى لم تكن شرارة الذكاء تبرق فى ثنايا عقله المعتم إلا فى أحيان متباعدة ، وكاتدرائيات الفكر التى كان الجامعيون يشيدونها فى المدن الجامعية النائية ، كان الجسد الكلى للتقدم الإنسانى يتثاءب نافضا عن نفسه غبار الرقاد الطويل .

# الجزء الثامن

# الإنهيار

## أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر

« إن من يعمل لصالح الدولة يكون الحق غايته » .

– دانتى أليجيرى

« لكل كاثوليكى الحق فى أن يستأنف القرار الصادر عن بابا مهرطق » .

– وليم اوكامى

# الفصل الحادى والعشرون
# فشل الوفاق الجديد

## ١ - رغبة الموت فى مجتمع العصور الوسطى :

فى سنة ١٢٧٠ ذهب الملك المسيحى المثالى ، لويس التاسع ملك فرنسا ، للقاء ربه ، ثم لحق به بعد عامين هنرى الثالث ملك انجلترا الذى كان خادما مطيعا للبابوية . وغلب على سياسة خلفائهما طابع جديد من الوحشية والعناد طوال السنوات العشرين التالية . ففى سنة ١٢٧٢ اختفى الدكتور الملائكى توماس أكويناس هو الآخر من مسرح الأحداث . وبينما واصل تلاميذه الدومينيكان سيطرتهم على كلية اللاهوت فى الجامعة ، كان عليهم أن يدافعوا عما قام به توماس من المزج بين العلم والدين . وفى سنة ١٢٧٧ قام أسقف باريس بحركة طائشة غير محسوبة ؛ إذ نشر عدة فرضيات وأدنها على أساس أنها أفكار رشدية خاطئة ، ولكنها من بعض الوجوه يمكن أن تفسر على أنها إدانة لبعض التعاليم التوماسية ؛ ومن الواضح أن هذا التلميح كان مقصوداً تماما . وقد أخذ بعض الفرنسسكان الشبان فى أوكسفورد ، ممن فرضت عليهم القيود بعد موت بونافنتيرا سنة ١٢٧٤ ، من الإدانة التى نشرت سنة ١٢٧٧ نقطة انطلاق للهجوم على التوماسية ، وبدأوا يتحركون نحو موقف رمزى ثورى . ففى سبعينيات القرن الثالث عشر ، أو بعدها بقليل ، كان النمو السكانى والإزدهار التضخمى الذى تميز به الاقتصاد الأوربى منذ منتصف القرن العاشر قد بدأ فى التلاشى والضمور ، وانزلقت أوربا شمال الألب فى تدهور طويل ومُرْبِك استمر حتى منتصف القرن الرابع عشر ، مما جلب السخط الاجتماعى والتمرد الذى يشيع فى مرحلة الانكماش الاقتصادى .

هذه الحوادث تميز سبعينيات القرن الثالث عشر باعتبارها الخط الفاصل العظيم فى التاريخ الوسيط . ذلك أنها كانت بداية فترة مدمرة من الإنهيار والعنف استمرت نصف قرن ، ولم تنته تماما حتى أخريات القرن الخامس عشر . وبحلول سنة ١٣٢٥ كان العمل الذى استغرق قرونًا قد انهار وتبعثرت أشلاؤه ، كما تحلل النظام الفكرى والأخلاقى لمجتمع العصور الوسطى. ففى غضون هذه السنوات الخمسين انقلبت الملكية الفرنسية على حليفتها ( التى كانت من أسباب وجودها إلى حد ما ) ، بابوية العصور الوسطى ، واغتالتها ببساطة لتحطم هيبتها وسلطانها فى سنوات قلائل . ولم يتمرد أكبر المفكرين فى نصف القرن الذى أعقب

وفاة توماس أكويناس ضد العالم الفكرى المنظم الذى خلقة فحسب ، وإنما هاجموا الكنيسة فى سلطانها ورجالها . كما أنهم كانوا يبجلون الدولة باعتبارها القائد الوحيد للمجتمع الأوربى . ومع شروق شمس سنة ١٣٢٥ أخذت رياح الهرطقة الشعبية العاتية ، التى كانت قد سكنت منذ منتصف القرن الثالث عشر ، تهب من جديد على أوربا . لقد أصيبت حضارة العصور الوسطى بجرحها فيما بين سنة ١٢٧٠ وسنة١٣٢٥ ، وبقى عليها أن تعانى من العذاب الطويل القاتل الناجم عن الفوضى والمصاعب خلال السنوات المائة والخمسين التالية .

فلماذا تحللت حضارة العصور الوسطى ، التى كانت من نتاج عمل إبداعى خلاق على مدى قرون عديدة ، فجأة وبمثل هذه السرعة ؟ من الممكن أن نجرب إجابة عملية جداً مؤداها أن الأخطاء فى السياسة البابوية ، وطموحات بعض الملوك ونزوات بعض المفكرين البارزين - كانت كلها من أسباب ماحدث .فلو أن سان لويس وسان توماس كانا ما يزلان يتحكمان فى عالمى السياسة والفكر فى العصور الوسطى ، لما حدثت هذه الكارثة على الإطلاق ! ولكن الحقيقة أن أولئك الزعماء الذين تولوا قيادة المجتمع فى السنوات الخمسين التى تلت سنة ١٢٧٠ ، كانت لهم أهداف وأساليب غير أهداف وأساليب أسلافهم . فلم يكونوا أقل قدرة من الدكتور الملائكى والملك القديس ، ولكنهم أرادوا أن يتصرفوا بوسائل مختلفة . وطريقة أنف كليوباترة لاتؤدى إلى شئ سوى تجنب السؤال الكبير فى التاريخ والقائل : لماذا اختلف زعماء المجتمع الأوربى فى سنة ١٣٠٠ بهذه القوة فى مواقفهم عن جيل منتصف القرن الثالث عشر ؟ .

من الممكن أن نطرح إجابة حتمية على أساسا افتراض أن الحضارات كائنات عضوية تمر بدورة حياتية ثم تختفى . فكل حضارة تمر بالميلاد ، والشباب ، والنضج ، والكهولة ، ثم الموت . ويعتقد فلاسفة العالم القديم فى هذه النظرية ، كما أن شبنجلر Spengler وكثيرين غيره من مفكرى القرن العشرين يؤمنون بدورة الحضارة فى الربيع ، والصيف ، والخريف ، ثم الشتاء . والحقيقة أن الحضارة لاتظهر لتكون كائنا عضويا يمضى فى مساره ثم يختفى ، على الرغم من أنه قد يكون ذا تأثير قوى على الأفكار والمؤسسات فى الحضارات المتأخرة ، ومن خلال تراثها ، تصبح خالدة ، ويخطئ التفسير الحتمى للتاريخ فى أنه ينكر الحرية الإنسانية . ولايجب الظن بأن الإنسانية تفتقر إلى القوة للسيطرة على مصيرها ، وعلى صيانة الحضارة التى أوجدتها قوى الإبداع البشرية . والمعالجة الحتمية للتاريخ معالجة معقولة ، بيد أنها تسئ إلى الأخلاقيات .

فالحضارة ، شأنها شأن أى إنسان لها إرادة الحياة ، ولكنها أيضا قد تصل إلى حال عصابية تجعلها راغبة فى الموت[١] . وحضارة العصور الوسطى ، خلال نصف القرن الذى أعقب سنة ١٢٧٠ ، بعنفها وتطرفها ، وتدميرها الانتحارى لقيمها ومثلها العليا ، كشفت عن أن لديها الرغبة الانتحارية فى تدمير نفسها ، تماما مثلما حدث فى العصور الوسطى الباكرة ، عندما أظهرت إرادة الحياة فى مواجهة العقبات المادية الرهيبة . فما هو أصل الرغبة العصابية للإنتحار لدى مجتمع العصور الوسطى ؟ لقد كان ذلك ناتجًا عن القمع والكبت ، كما هو الحال عند الأشخاص المصابين بالعصاب . ذلك أن الكبت المستمر للمشاكل الصعبة والمستعصية قد يؤدى فى النهاية إلى نقطة تصبح عندها هذه المشكلات صراعا لايمكن إخماده ، وتكون النتيجة إنهياراً مفاجئًا قاتلا . وهذا هو ماحدث لحضارة العصور الوسطى . ذلك أن الروح الإبداعية التى تجلت فى القرن الثانى عشر قد خلقت صراعات معينة وأساسية جداً ، دون أن تجد لها الحل فى المجتمع والفكر الإنسانى ؛ مثل الصراع بين الدين والعلم ، والصراع بين الكنيسة وحرية التجربة الدينية الفردية ، والصراع بين سلطة الكنيسة وسيادة الدولة . وخلال السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر بذلت حضارة العصور الوسطى أقصى مافى طاقتها لحل هذه الصراعات وكانت النتيجة وفاقا أوجد الهدوء المؤقت لكنه لم ينه هذه الصراعات .

والجزء الثانى من « روايات الزهرة » ، الذى كتبه بورجوازى جامعى فرنسى ، فى أواخر سبعينيات القرن الثالث عشر ، والذى يعتبر من أعظم ما أنتجته القرائح الفرنسية فى مجال الأدب فى القرن الثالث عشر - هذا الجزء يكشف فى كل صفحة من صفحاته عن أن السلام الذى أرساه إنوسنت الثالث ، والصياغة التوفيقية لفلسفة توماس أكويناس لم تكن ترضى المفكرين من جيل جان دى مون الذى ألف هذا الجزء . إذ أن المثالية الرومانسية التى عرفها القرن الثانى عشر كانت قد صارت باردة قاصرة « **وكم هو منحط ذلك العالم الذى جعل الحب**

---

١ - نحن لا نوافق المؤلف على هذا الرأى الذى يبسط مسيرة البشر الحضارية ، ومن خلال كلامه فى الصفحات التالية نجده يناقض هذا الكلام . وفى تصورنا أن إتساع الفجوة بين المثل العليا والقيم من ناحية والممارسات على أرض الواقع من ناحية أخرى من أهم أسباب سقوط الحضارات ، على أنه ليس السبب الوحيد بطبيعة الحال .فإن الفشل فى إدارة المجتمع ، والعجز عن حل المشكلات التى تواجهه ، وقصر النظر السياسى والاجتماعى لدى الحكام - كلها من بين الأسباب الرئيسية فى سقوط الحضارات .

( المترجم )

**للبيع** » على حد تعبير مون الذى رأى الطمع والفساد والعفن يسرى في جميع الاتجاهات . فهو يقول إن العلماء والقانونيين « **يبيعون مهاراتهم لقاء المال** » ، وعلى الرغم من أنه هو نفسه كان بورجوازيا فإنه لم يكن يرى أية إمكانية في حصول أبناء طبقته على الخلاص « **فليس هناك تاجر على الإطلاق يعيش فى راحة ؛ لأنه يمضى عمره فى حرب من أجل الربح ، ولكنه لايحصل على كفايته أبداً** » ولايشعر دى مون تجاه زعماء مجتمع العصور الوسطى بشئ سوى الاحتقار . فالملوك والأمراء « **أوجدوا الاستبداد والطغيان وسرقوا الشعب** » ، وفى كل اتجاه يرى « **قساوسة أشرار يهيمون على الأرض ، ويبشرون لكى يكسبوا الرضاء ، والشرف ، والمال** » كما أن المثل الأعلى الفرنسسكانى أخفق إخفاقًا ذريعًا « **الفقر ... مكروه بسببه جميع الناس** » . كذلك كانت كافة الجهود التى بذلت لخلق كومنولث مسيحى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تبدو عبثًا لاطائل وراءه فى نظر دى مون .

لقد وجد الجيل الذى عاش أواخر القرن الثالث عشر أنه يستحيل الحفاظ على النسيج المتهافت الواهى لذلك الوفاق الحاذق الذى شيده الجيلان السابقان عبر الألم والمعاناة . فقد كان النظام العالمى الذى تم بناؤه مع مطلع القرن الثالث عشر دقيقا فى توازنه بدرجة جعلتهم يكتشفون أن بقاءه ضرب من ضروب المستحيل . فضلا عن أنه لم تكن هناك أية حاجة للإبقاء عليه ، لأنه فشل فى تحقيق السعادة الإنسانية . لقد أرادوا إنهاء حال الكبت المرهقة والتى أجلت حسم الصراعات بحيث تراكمت من سنة ١١٩٨ إلى سنة ١٢٧٠ ؛ أى أنهم أخذوا يبحثون عن مخرج عدوانى صوب هدف واضح وثابت . لقد كانوا يريدون إما العلم أو الدين ، إمّا التدين الشخصى أو السلطة الكنسية ، وإمّا الدولة الحاكمة أو تفوق السلطة الكنسية . أرادوا إنهاء حال التركيب ، والدهاء والحلول التوفيقية التلفيقية ، وتعقيدات حضارة الحلول الوسط . أرادوا ترسيخ بعض الأهداف الثابتة الواضحة التى يمكن أن تكون نقط إنطلاق جديدة نحو العقيدة والحب . وإذ وجدوا أن التوازنات الحاذقة والحلول التوفيقية فى زمن توماس أكويناس لم تخلص المجتمع من الجشع والفساد ، كان لابد لجيل الفترة الأخيرة من القرن الثالث عشر أن يلقى باللوم فى الفشل الأخلاقى الذى حاق بمجتمعهم على التوليفة التوماسية نفسها . فعلى مرّ السنوات المائة والخمسين السابقة أجريت دراسات كثيرة ، وطرحت أفكار عديدة ، وراودت الناس أحاسيس كثيرة ؛ ومع ذلك لم تتحقق السعادة للبشرية ولم يتحقق الكومنولث المسيحى . لقد كان الناس فى أواخر القرن الثالث عشر يأملون فى أنهم إذا ما

اتبعوا أحد الطرفين - بدلا من الوسط الذى خذلهم - يمكن أن يجدوا الحب الجديد والمثالية الجديدة . وفى غمرة تطلعهم المشتاق إلى بساطة التطرف ، أخذوا يسعون نحو موت حضارة العصور الوسطى ، التى كانت قد باتت عبئا غير محتمل .

٣ - تفكك العالم الفكرى فى العصور الوسطى :

أقام الدومينيكان التوماسية مذهبا رسميا لجماعتهم فى سنة ١٢٨٤ م . وسعوا لكى تقبلها الكنيسة لاهوتا رسميا لها . وكانوا يعتقدون أن نظام توماس أكويناس قد حل المشكلات الفكرية الى ظهرت فى القرن الثالث عشر . وزعموا أن سان توماس قد جعل الأرسطية ، التى هى أفضل ماعرفه الإنسان من علم ، تتناغم مع حقائق الحياة المسيحية ، ويرهن على صحة العقيدة المسيحية بالعقل . فقد أوضح أن الإنسان يقف على قمة النظام الطبيعى ، ومع ذلك فهو على اتصال بما هو وراء الطبيعة « **لأن هدف الإنســـان هو تأمل الحقيقة والتفكير فيها** » . ولكن هذا النظام العقلى المهيب لم يرض بعضا من أفضل المفكرين فى الجيل الصاعد . ففى كل من شمال إيطاليا وانجلترا فى السنوات الخمسين التى أعقبت موت توماس قام المفكرون البارزون بإضعاف النظام التوماسى ، ثم هاجموه علانية ، وطرحوا مذاهب ذات طبيعة مختلفة تماما . وانتهى بهم الأمر إلى الفصل بين العلم والدين ، ورفع الدولة خارج وفوق النظام الأخلاقى كقانون قائم بذاته ، من خلال إنكارهم للأسس التى تقوم عليها السلطة الكنسية ، وإحيائهم لتعاليم الهرطقة الشعبية فى القرن الثانى عشر . وبعبارة أخرى ، فإنهم هجروا كاتدرائية الفكر التى قامت على اللاهوت التوماسى وتسببوا فى انفصام عرى العالم الفكرى فى العصور الوسطى .

ويمكن أن نتلمس بدايات التمرد ضد التوماسية فى فكر دانتى أليجيرى Dante Alighieri ( ١٢٦٥ - ١٣٢١ م ) بجوانبه المتعددة ، باعتباره صاحب الاسم الأشهر فى مجال الأدب فى العصور الوسطى . وكثيراً ماعرف دانتى بأنه الشاعر الذى صاغ خلاصة اللاهوت Summa Theologica فى منظومة شعرية ، وبأنه تلميذ من أتباع توماس أكويناس ، وهناك بعض الجوانب المعقولة فى هذا الرأى ، فلاشك فى أن دانتى تأثر كثيراً بالمذهب التوماسى . ولكنه أيضا كان متعاطفا مع بعض آراء الرشديين ، وفى تناوله للفكر السياسى نجد نغمة ثورية جديدة تتعارض بشدة مع المذهب السياسى التوماسى . لقد كان دانتى رجلا عالى التعليم عميق التدين . ولكن ثورية كومونات الشمال الإيطالى تتبدى واضحة أيضا فى

كتاباته . فقد كان يصل إلى آفاق فكرية جديدة لم تكن مفهومة تماما . إذ أنه يتذبذب ما بين طرفى مذهب العصور الوسطى التقليدى ، والثورية الجسورة ، مجسداً بذلك حيرة الجيل الجديد من مفكرى العصور الوسطى .

كان دانتى مواطنا فلورنسيا قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته منفيا خارج مدينته، التى كان يحبها حبا عميقا ، نتيجة إحدى المعارك الفكرية التى سممت حياة كومونات الشمال الإيطالى . وكان هو الذى جعل من اللغة الإيطالية الدارجة لغة للأدب . كما أدخل العناصر الرومانسية ، التى سادت الشعر الفرنسى مايزيد على قرن من الزمان ، فى الأدب الإيطالى . وفى قصائده يتجلى ذلك المزج الحاذق بين الحب الدنيوى والحب الإلهى الذى كانت الروايات الفرنسية والألمانية قد جعلته محوراً لبنائها الدرامى بالفعل ، كما أنه كان يجل فرجيل وغيره من عظماء الأدب اللاتينى والكلاسيكى ، وكان من رواد التوحيد بين الرومانسية والإنسانية .

والكوميديا الإلهية ، أكثر مؤلفات دانتى طموحا ، تعتبر أعظم ما كُتِب من أشعار فى العصور الوسطى بوجه عام . وهى ملحمة شعرية رمزية كانت نتاجًا لقدر هائل من الثقافة ، ومهارة أدبية لايشق لها غبار . وهى فى رأى البعض تلخيص للفكر المسيحى فى العصور الوسطى ، وصياغة رمزية فى شكل شعرى للمبادئ الجوهرية فى الفلسفة التوماسية . وهناك الكثير من جوانب القصور فى هذا الرأى . إذ أن دانتى يصف كيف أنه أقتيد فى رحلة من أعماق الجحيم ، عبر المطهر ، إلى الجنة ، فى صور جمالية أخاذة . وكان مرشدوه الثلاثة فى هذه الرحلة رموزاً لثلاث مراحل صاعدة من المعرفة . إذ أن فرجيل هو الذى يقوده عبر دوائر الجحيم حتى المراحل الدنيا من المطهر ؛ وقد قصد دانتى أن يرمز بهذا الشاعر الرومانى الذى كان يهيم به إعجابا إلى العقل الذى يمكن أن يعلم الناس بجهوده الخاصة كيف يهربون من اللعنة بالحياة الطيبة الخيرة . وفى المراحل العليا من المطهر ، وفى كافة مراحل السماء ، باستثناء المرحلة العليا ، تتولى إرشاد دانتى سيدة تدعى بياتريس ، وهناك سيدة بذات الاسم لعبت دوراً هاما فى حياة دانتى ، على الرغم من أنهما كانا يلتقيان نادراً ، كما أنها تزوجت من أحد المصرفيين الأثرياء فى فلورنسا . وهى ترمز إلى النموذج الرومانسى للحب الدنيوى والإلهى فى نظر دانتى ، كما أنها تمثل الرحمة أو الحب الإلهى فى الكوميديا الإلهية ، أى أنها تمثل الدين أو الكنيسة ، التى كانت خدماتها وطقوسها السبيل الوحيد إلى الخلاص

إيطاليا فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى

والدخول إلى السماء. وأخيراً ، كان دليله لمواجهة الروح القدس هو سان برنار الذى يرمز إلى التجربة الصوفية . وهناك تشابه بين الحج الدينى على هذه الصورة وبين الفلسفة التوماسية . إذ كان توماس ودانتى يتفقان على قدرة العقل لإرشاد الناس إلى مبادئ الحياة الطيبة وضرورة وجود الكنيسة لتحقيق هذه الإمكانية وفهم الحقائق السامية . وتحديد دانتى للصوفية بأنها أسمى أشكال المعرفة مستمد من تعاليم الفرنسسكان وليس من الفلسفة التوماسية الدومينيكانية . ويظهر كل من سان فرنسيس ، وسان دومينيك فى نفس الدائرة من السماء ، وأخيراً تنهى الملحمة الشعرية بصلاة للعذراء .

وعلى أية حال ، فهناك بعض جوانب فى الكوميديا الإلهية تختلف كثيراً مع مابها من تعاليم مسيحية وتقليدية عامة . إذ أن سيجيه البرابنتى Siger of Brabant ، الفيلسوف الرشدى المعارض لسان توماس أكويناس يسكن فى سماوات دانتى . كما أن الملحمة حافلة بالتعبيرات التى تجسد العداء تجاه مزاعم البابوية . إذ يضع دانتى إدانة مريرة على لسان القديس بطرس « للذئاب النهمة التى تتخفى فى زى الحملان » ، والذين خانوا مناصبهم ، كما أنه لم يكن راضيا عن معاصره بونيفاس الثالث بصفة خاصة ، فأرسله إلى الجحيم . ويرى دانتى أنه من المؤسف أن قنسطنطين أعطى هبته للبابا ، وبذلك ورط نائب المسيح فى الأمور الدنيوية . وهناك قصور أكثر عمقا يشوب إيمان دانتى ، كما أن رؤيته للجحيم ، والمطهر ، والنعيم تشى بأن المذهب الأخروى كان فى طريقه نحو الزوال . لقد كشف البناء الشعرى لهذه الصورة التفصيلية للكوزمولوجيا الدينية عن أن المذاهب التقليدية قد فقدت حيويتها وطرافتها ، وصارت أنماطًا عرفية . وليس معنى هذا أن دانتى لم يكن يؤمن بوجهة النظر الكاثوليكية عن الخلاص ، ولكنه أوغل فى هذه المذاهب بحيث أن الخط الفاصل بين الخيال الأدبى والحقيقة اللاهوتية بات غير واضح .

والمضامين الثورية فى فكر دانتى تتبدى أكثر وضوحًا فى مقالته عن « الملكية » . والظاهر أنها كتبت للدفاع عن حقوق الإمبراطور وسلطاته فى إيطاليا ، لأن دانتى كان يعتبره حاكم إيطاليا الشرعى . لأنه كان يعتمد عليه فى استعادته لمركزه . والحقيقة أن الملك الألمانى هنرى السابع جاء بالفعل إلى إيطاليا فى حياة دانتى ، ولكنه لم يلبث أن عاد دون أن يفعل شيئًا لإنهاء نفى دانتى وإعادته إلى فلورنسا مدينته المحبوبة . وأهمية الكتاب لاتكمن فى مناقشاته التقليدية المستمدة من التراث القانونى والتاريخى حول سمو سلطة الإمبراطور

الرومانى فى العالم ، وإنما تتمثل بشكل أكثر وضوحا فى موقفه الجديد . ويلمح دانتى بصورة طيبة إلى المذهب الرشدى عن الخلود الكلى للروح ، وهو أمر يتناقض بشكل غريب مع موقف دانتى نفسه من الخلود الشخصى والذى بنى « الكوميديا الإلهية » على أساسه . إذ أنه يناقش التفسير البابوى التقليدى للنص الوارد فى الكتاب المقدس عن بطرس ، وفى رأيه أن كلمات المسيح لبطرس « لايترتب عليها أن البابا يمكن أن يحل أو يربط فى أمور الإمبراطورية» وهو ينكر صحة المزاعم البابوية المؤسسة على هبة قنسطنطين لأن «**قنسطنطين لايملك سلطة نقل المنصب الإمبراطورى ، كما أن الكنيسة هى الأخرى لاتملك قبوله!** » وأهم ما فى الأمر هو دفاع دانتى عن السلطة الإمبراطورية ، ليس فقط على أساس التراث والقانون ونصوص الكتاب المقدس ، وإنما أيضا إنطلاقا من مذهب بسيط وثورى عن الضرورة النفعية ؛ فهو يقول إن مصلحة الجنس البشرى تتحق على نحو أفضل فى ظل الحكم الملكى . ويعتبر هذا انعطافا جديداً فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى . وما يلمح إليه دانتى فى مجادلاته هو أن السلطة السياسية لاتقوم على أساس من القانون الطبيعى والإلهى فقط ، وإنما تتأسس أيضا على الضرورة الاجتماعية .

والنظرية النفعية للقانون التى طرحها دانتى تتمثل على أوضح صورة فى كتاب « المدافع عن السلام » الذى نشره مارسيليو البادوانى Marsilio of padua ( ت ١٣٤٣م ) فى عشرينيات القرن الرابع عشر وهو نتاج آخر للحياة الكوميونية فى شمال إيطاليا . وما لم يرد صراحة فى كتاب « الملكية » لدانتى ، ناقشه مارسيليو بالتفصيل الشديد . فهو يقول بأن أساس القانون يكمن فى خاصيته الآمرة الملزمة . ولايحتاج القانون إلى أن يكون ذا محتوى أخلاقى ؛ إذ أن إرادة الشارع هى التى تصنع القانون وهكذا يعارض مارسيليو ، بأوضح صورة ، المذهب التوماسى القائل بأن سلطة الدولة تخضع لنظام خالد ومطلق من القيم والمثل العليا التى تجعل للقانون الوضعى قيمته . فليست للقانون ، فى رأى مارسيليو ، أية فعالية بدون الإرادة المطلقة للدولة . وهو بهذا يقترب من مذهب السيادة الذى عبر عنه بودين Bodin ونظرية هوبيز Hobbes النسبية عن القانون فى القرن السابع عشر . فالكنيسة ، مثل أية هيئة أخرى فى الدولة ، تخضع للقانون . وهكذا يقلب مارسيليو مذهب السلطة الكنسية القائل بتفوق سلطة البابا رأسا على عقب . فبدلا من أن تكون الدولة خاضعة تماما للمساندة المعنوية من الكنيسة : كانت الكنيسة هى التى تخضع لإرادة الدولة المطلقة . والسماح

للكنيسة بأية سلطات تشريعية ، أيا كانت ، « **أمر لايتوافق مع سلام البشر** » . وفى كتاب مارسيليو البادوانى تأخذ النزعة الثورية لدى أبناء الكوميونات الإيطالية شكلا فكريا محدداً ، وتعبر عن مذهب سياسى يهاجم الرابطة بين الدولة والسلطة الأخلاقية هجوما عنيفا للغاية . وكتاب « المدافع عن السلام » Defensor Pacis يجعل من الدولة قانونا بحد ذاتها .

وثمة نزعة رشدية ثورية تكمن خلف محاولة مارسيليو لفصل الدولة عن النظام الأخلاقى . ذلك أن نظرية ابن رشد عن الحقيقة المزدوجة ، وفصله بين دنيا العلم ، وعالم الدين ، تتجلى واضحة فى الفلسفة السياسية لنظرية مارسيليو النفعية التطوعية للقانون . فقد وقع مارسيليو تحت تأثير الفلسفة الرشدية فى شمال إيطاليا ، التى كانت عند مطلع القرن الرابع عشر قد تأثرت بتعاليم الفيلسوف العربى . وخلال القرنين التاليين كانت الفلسفة الرشدية تمثل تياراً هاما فى فكر العصور الوسطى ، حيث كانت تشع من إيطاليا ليصل نورها إلى بقية أنحاء أوربا .

وقد تأكد مذهب ابن رشد عن ازدواج الحقيقة عندما روج زعماء جامعة أوكسفورد الفرنسسكان لمذهب مماثل يفصل بين الدين والعقل ، فى الوقت الذى كانت الفلسفة الرشدية تنتشر من إيطاليا صوب الشمال فى القرن الرابع عشر . ولكن أولئك المفكرين الفرنسسكان فى أوكسفورد لم يكونوا رشديين : فالواقع أن إدانة أسقف باريس للفلسفة الرشدية سنة ١٢٧٧ ، كانت بمثابة نقطة البداية التى انطلقوا منها لتحقيق تطورهم الفكرى . ومع هذا فإن جامعة أوكسفورد الفرنسسكانية توصلت إلى نفس النظرية التى روج لها الرشديون بعد نصف قرن من هذا التاريخ : هذه النظرية مؤداها أن العقل والدين ينتميان إلى عالمين مختلفين ولايمكن أن يتحقق لهما الإندماج .

ومنذ البداية لم يكن الفلاسفة الفرنسسكان سعداء بفلسفة توماس أكويناس الأرسطية المسيحية . وانسجاما مع الموقف العام لجماعتهم ، كانوا يتطلعون صوب الفلسفة الأوغسطينية القديمة أكثر من تطلعهم إلى الفلسفة الأرسطية الجديدة . وكان سان بونافنتيرا قد طرح مذهبا يؤكد من جديد تراث العصور الوسطى بالأفكار الإلهية ، ونتيجة لهذه النظرية الأفلاطونية عن المعرفة تأكدت فلسفة سان آنسلم الواقعية بفضل الفلاسفة الفرنسسكان ، وخصوصا بونافنتيرا . فقد كان يؤمن بأن هذه الفلسفة الأوغسطينية – الأفلاطونية – الواقعية تقدم أرضية فكرية أكثر صلابة من الحتمية الأرسطية ، والإصرار الفرنسسكانى على القدرة

الإلهيـة وأولوية الإرادة . وقـد تابع خلفـاؤه نفس الهـدف ، كـمـا أنهم عـارضـوا أرسطيـة سـان توماس المسيـحيـة . بيـد أنهم تخلوا أيضـا عن واقـعيـة بونافنتيـرا الأفـلاطونيـة المحـافظة ، وتوصلوا إلى فلسفة رمزية ثورية قادتهم إلى الحل الواقعي .

كانت وفاة بونافنتيـرا سنة ١٢٧٤ ، من جميع الجوانب ، خطا فاصلا فى تاريخ الجماعة الفرنسسكانيـة فقد كان هو الفيلسوف المسيطر بين الفرنسسكان ، وعندما اختفى من على المسرح انطلقت الفلسفة الثورية التى يمثلها الفرنسسكان الشبان لاتلوى على شئ . فقد شدتهم إدانة الرشدية فى سنة ١٢٧٧ ، وكانت هذه أيضـا هى أداتهم فى انتقاداتهم القاسية للفلسفة التوماسية . إذ كانوا يعتقدورن أن التوماسية قد أخضعت قدرة الله الواسعة وحرية الإرادة الإنسانيـة لنظام آلى من الحتمية الأرسطية . ولذا فإنهم عملوا على الفصل بين الفلسفة والعلم من ناحيـة ، والدين من ناحية أخرى . وعلى أية حال ، فإن بونافـتيرا لم يكن أكبر فيلسـوف فرنسـسكانى فـحسب ، وإنما كان أيضـا الأستـاذ العـام لجماعتـه ، كـمـا أنه كان زعيم حزب المحافظين بين « الأخوة الصغار » . وكان المحافظون يتقبلون التغيرات التى شجعتها البابوية فى الحيـاة الفرنسـسكانية ، وأهمهـا السماح للجماعة بالامتلاك . وهناك مجموعة صغيرة فى الجماعة عرفت باسم « الروحانيين » رفضوا قبول هذه الانحرافات عن تعاليم سان فرنسيس الأصلية ، وبدأ نضال مرير قسم الجماعة إلى جناح ثورى وجناح محافظ . وبدأ «الروحانيين»، بإصرارهم على فقر الجماعـة ، يطالبون بالفـقر الحوارى للكنيسة بأسرها ، وأخذوا يطرحون التساؤلات عن السلطة العلمانية للبابوية وعن ممتلكاتها المادية على نحو خاص .

وفى خمسينيات القرن الثالث عشر أعاد « الروحانيون » الإيطاليون بعث أفكار يواقيم الفلورى الهرطقيـة والتى كانت الكنيسـة قد أدانتها منذ زمن طويل على أساس أنها من أشد الهرطقات خطورة . وطبقوا أفكار يواقيم على الموقف الذى كان قـائما داخل جماعتهم ، فقالوا بأن البابا هو المسيح الدجال ، وأن المحافظين هم عملاؤه . وزعموا أن عصر الروح القدس سوف يجئ ليطيح بالمسيح الدجال ، وينهى حكم القسـاوسة المعيب . وأن جماعة رهبانية متسولة جديدة ، سوف تنبثق من الفرنسسكان الروحانيين ستجلب العصر الجديد للروح القدس . وقد تسبب إخلاص الروحانيين للمثل الأعلى الفرنسسكاني الأصلى وإحياؤهم لمذهب الفقر الحوارى للكنيسة ، والهرطقة اليواقيمية – تسبب فى حدوث فوضى خطيرة بين الرهبان الفرنسسكان . ففى سنة ١٢٥٧ أدين الرئيس العام للجماعة بسبب تعاطفه مع الروحانيين وخلع من منصبه .

وخلفه سان بونافنتيرا ، الذى قبل الموقف المحافظ ولكنه حاول أن يلين عريكة الروحانيين ويعيد توحيد الجماعة . وتم ترتيب ذريعة قانونية أتاحت للبابا فرصة التحفظ على أملاك الفرنسسكان حتى يمكنهم أن يحتفظوا بوضعهم الرسمى كمتسولين . وفى الربع الأخير من القرن الثالث عشر أمكن تجنب تفكك هذه الجماعة الرهبانية التى كانت أداة فعالة فى استعادة هيبة الكنيسة بين العلمانين . فقد انسحب كثيرون من الروحانيين إلى حياة النسك ، وظل المحافظون يسيطرون على الجماعة . ولكن الروحانيين لم يتخلوا عن إيمانهم بمذهبهم الثورى ؛ إذ كان يساندهم بعض من أقدر الرجال فى الجماعة ، وبعد سنة ١٣٠٠ امتزج تيار الثورية الروحانية بين « الأخوة الصغار » بتيار الثورية الفلسفية بين أساتذة أوكسفورد الفرنسسكان .

بدأ تقدم فرنسسكان أوكسفورد صوب الرمزية بالعالم دونس سكوتوس ( ١٢٦٦ - ١٣٠٨ ) Duns Scotus الذى كان أعظم علماء المنطق فى العصور الوسطى ، وقد ولد باسكتلندا كما يتضح من اسمه ؛ وانضم إلى الفرنسسكان ، ودرس فى باريس ، واشتغل بتدريس اللاهوت فى أكسفورد . وهو يبدأ باستفسار علمى خالص حول قوة العقل الإنسانى ليخرج من نطاق المعلومات المحسوسة ويصل إلى استنتاج يتناقض مع التفاؤل التوماسى الذى كان يعتقد أنه يمكن أن يقيم بنيان معرفة عقلانية بالله على أساس معرفى مستمد من التجربة الحسية . والله قادر على كل شئ ، وهو حر فى إرادته ؛ أما العقل الإنسانى فعلا يمكنه أن يعمل خارج سلسلة من السببية حتى يمكنه أن يتعرف على الوجود الداخلى لله . ولم يكن سكوتس يحاول الحط من شأن الدين ، وإنما كان يحاول إبراز أهميته المتفردة ؛ لقد كان يحاول أن يجعل الدين هو المصدر الوحيد لمعرفة الوجود الإلهى . وكان يظن أنه قد حمى القدرة الإلهية وحرية الإرادة من تأثيرات الفلسفة التوماسية التى تضع القيود فى سبيلهما .

ومات دونس سكوتس وهو فى قمة قوته العقلية ، وقبل أن يتمكن من استكمال كتابه . وأهم دلالات مذهب سكوتس هى التى أبرزها وليم الأوكامى William of Occam (ت. ١٣٥٠ ) وهو فرنسسكانى من أكسفورد أيضا ، ولم يكن يتعدى الثلاثين من عمره . لقد أحدث وليم أوكام ثورة فى الفلسفة المدرسية حيث فصل تماما بين المنطق والميتافيزيقا . وكان سكوتس قد اقترح هذا بالفعل ، ولكن أوكام هو الذى جعل الفصل بينهما مطلقا وتاما . فقد قال بأن المنطق لايتعامل مع الوجود بافتراضات تبدأ من نقطة بداية بالتوافق مع الحقيقة أو الوجود . فالفروض العقلية هى أشكال خالصة من الفكر فارغة من كل محتوى ميتافيزيقى ،

ولاتربطها بالحقيقة النهائية رابطة . « ووجودها هو وجودها المدرك » . فالمنطق إذن لايتناول سوى صيغ المغزى ، أو « المصطلحات » ، ولكننا حينما نتساءل عما إذا كانت المعرفة الميتافيزيقية ممكنة ، أو إذا كان من الممكن للإنسان أن يعرف الحقيقة النهائية بالعقل ، يجيب أوكام على هذه الأسئلة بالنفى . فالكليات مجرد رموز عقلية ، بعيدة تماما عن الحقيقة الكلية، وهى رموز تتشكل بواسطة العقل خارج الحواس المتكررة والذاكرة المضطربة التى لاتصلح سوى للأشياء الفردية فقط . ومفاهيمنا عن السببية متوقفة على هذه العملية العقلية وليس لها وجود حقيقى خارج العقل . وبهذا يتوصل أوكام إلى فلسفة اسمية متطرفة تقترب من فلسفة هيوم الإمبريقية الراديكالية والتى ينادى بها أيضا بعض فلاسفة القرن العشرين .

كان هدف أوكام هو نفس هدف سكوتس ؛ إذ كان يريد أن يؤكد مازعمه الفرنسسكان من أن معرفة الله لايمكن أن تتأتى سوى من خلال الدين والفطرة فقط ، وأن الوجود الإلهى لايمكن معرفته بأية وسيلة عقلية . لأن ذلك يعنى بالنسبة له تحديد الوجود الإلهى . لقد استغل الفلسفة للقضاء على مكانة الفلسفة ولكى يعزز الأسلوب الفرنسكانى فى معالجة الألوهية باعتباره السبيل الوحيد إلى ذلك . وسرعان ماكان لرمزيته المتطرفة ، التى تجادل بقوة وفطنة، تأثير كبير على المدارس التى كانت فى ثلاثينيات القرن الرابع عشر مسرح نقاش وجدل كبير بين « المجددين » الأوكاميين ، كما عرفوا آنذاك ، وبين مؤيدى التوماسية « الطريقة القديمة».

كان أوكام يؤمن بأنه استخدم أسلحة المدارس الجدلية ضد رجال المدارس . إذ أنه كان قد أوضح أن نفس الفلسفة تدعم تعاليم سان فرنسيس عن المعرفة النظرية بالله . وقد أدى إخلاص أوكام لسان فرنسيس إلى تشككه فى عقائد الجناح الراديكالى من الرهبان الفرنسسكان . ففى نهاية القرن الثالث عشر كان الروحانيون قد نشطوا من جديد ، وأخذوا يبشرون صراحة بالفقر الحوارى للكنيسة وبالهرطقة الأخروية التى نادى بها من قبل يواقيم الفلورى . وإذ لم يقنع أوكام بهجومه على التوماسية بدأ يهاجم سلطة البابا الدنيوية ويطالب بالفقر الحوارى للكنيسة . وجلب على نفسه غضب البابا حنا الثانى والعشرين . وقضى السنوات الأخيرة من حياته فى بلاط الملك الألمانى لويس ، ملك بافاريا ، الذى كان هو الآخر على خلاف مع البابا . وانضم لأوكام الرئيس العام لجماعة الفرنسسكان الذى كان قد انضم إلى الروحانيين ، وأحدث بذلك الإنشقاق الذى كان يتهدد الجماعة الفرنسسكانية منذ منتصف

القرن الثالث عشر ، وكان السبب فى انضمامه إلى أوكام هو رغبته فى التمتع بالحماية الملكية، وفى سنة ١٣٢٣ أدانت البابوية مذهب الفقر الحوارى باعتباره هرطقة ، وأخذت محاكم التفتيش تطارد أكثر الروحانيين تطرفا فى إيطاليا ، وهم الذين عرفوا باسم الفراتيشيللى Fraticelli(٢) . وكانت هذه الصراعات بداية لتدهور حاد فى حيوية جماعة الفرنسسكان وزعامتهم لحركة التدين الأوربية .

وفى بلاط لويس البافارى تقابل أوكام مع مارسيليو البادوانى ، الذى كان هو الآخر قد هرب إلى هناك بحثا عن الحماية ضد الغضب البابوى . وواصل الإثنان عملهما فى ظل الحماية الملكية ، ويبدو أن أوكام قد تقبل مذهب مارسيليو عن تفوق سلطة الدولة على الكنيسة . فقد زعم أوكام أن البابوية ليست هى فقط التى يمكن أن تخطئ ، بل ويمكن أن يخطئ المجمع الكنسى العام أيضا . وبذلك جعل الضمير الفردى هو السلطة الدينية النهائية ، وزاد كثيراً فى سلطة الدولة . ولأنه أنكر عصمة البابوية والمجامع الكنسية العامة من الخطأ والزلل ، فقد جعل سيادة الدولة هى القوة العامة السائدة فى المجتمع . لقد كانت الفردية الدينية وسيادة الدولة وجهين مختلفين لعملة فكرية واحدة .

وهكذا التقى رافدان من روافد الفكر الثورى سويا . إذ أن مارسيليو كان قد بدأ بالفصل الرشدى بين العلم والدين ، وانتهى أوكام إلى مذهب مشابه عن الحقيقة المزدوجة ، وأنكر إمكانية معرفة الوجود الإلهى عن طريق العقل . وقد أدان هذان التياران سلطة البابا الدنيوية، وجعلا الكنيسة مؤسسة روحانية خالصة ، وسمحا بسمو سلطة الدولة وتفردها فى المجتمع . لقد شنت الحركات الفكرية الكبرى فى غضون نصف القرن الذى أعقب وفاة توماس أكويناس هجماتها على كاتدرائية الفكر من كل جانب ، وذلك بالتأكيد على تفوق الإرادة - تفوق الإرادة البشرية على العقل البشرى وتفوق إرادة الله المطلقة على العلة الضرورية الأولى المدركة عقليا والتى تنادى بها التوماسية ، وتفوق إرادة الدولة على النظام الأخلاقى .

---

٢ - فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر أطلق هذا الإسم على الأخوة الفرنسسكان فى إيطاليا . وفى بداية القرن الرابع عشر أصبح مرادفا للفرنسسكان الروحانيين الذين أدانوا اتجاهات الجماعة وتوافقها مع اتجاهات الكنيسة التقليدية وفى سنة ١٣١٧ بعدأن أدان البابا حنا الثانى والعشرون جماعة الروحانيين أسس انجيلو كلارينو Angela Clareno ( ت ١٣٣٧ ) ، الراهب الفرنسسكانى جماعة الفراتسيللى كجماعة مستقلة .

٣ - العنف الجديد :

كان تجريد مارسيليو البادوانى للكنيسة من سلطتها المعنوية المهيمنة هو الصياغة النظرية للحوادث الرئيسية التى جرت فى أيامه . ففى السنوات الخمسين التى تلت وفاة سان لويس كانت الدولة ، التى تحدد شكلها فى الملكية الفرنسية والملكية الإنجليزية ، قد صارت قانونا بحد ذاتها . إذ رفضت أن تعترف بسلطة الكنيسة وزعامة نائب المسيح ، وأخذت حكومة حفيد لويس التاسع على عاتقها مهمة اغتيال بابوية العصور الوسطى وإخضاعها . ذلك أن الكيانات السياسية البارزة فى الحضارة الأوربية آنذاك - وهى انجلترا وفرنسا والدولة الكنسية العالمية التى خلقتها البابوية - كانت قد طورت مؤسساتها وحددت أيديولوجيتها نهائيا فى نهاية القرن الثالث عشر . ولكنها اكتشفت أن أهدافها متضاربة . فقدت أدت الاتجاهات التوسعية لكل من الملكية الفرنسية والملكية الإنجليزية إلى نشوب صراع لايمكن التحكم فى مساره بين القوتين الكبيرتين فى أوربا . كما أن اتجاه الحكومة الملكية لفرض سيادتها على كافة الطوائف داخل المملكة كان يتعارض مع مزاعم البابوية عن سلطتها على الكنائس الإقليمية وسلطتها الأخلاقية على المجتمع . وكانت التوفيقات وعمليات التقارب قد فشلت كوسائل لحل هذه المنازعات ، واشتبكت انجلترا وفرنسا فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر فى حرب مدمرة أنهت السلام الطويل الذى ساد فى القرن الثالث عشر ، واستمرت هذه الحرب بشكل متقطع على مدى مائة وخمسين سنة ، وانتهت بفوضى سياسية واجتماعية أدت إلي تدهور كل من المملكتين . وتم إقرار الصراع بين البابوية والملكية الفرنسية باستخدام العنف المادى ضد البابوية نفسها فى العقد الأول من القرن الرابع عشر ، وهو أكبر عمل لا أخلاقى فى التاريخ الطويل للعلاقات بين الكنيسة والدولة فى العصور الوسطى .

وهكذا كان زعماء المجتمع الأوربى فى أخريات القرن الثالث عشر يحاولون حل مشكلاتهم عن طريق أكثر الإجراءات تطرفا وقسوة . وهو موقف من العناد والعنف حكم تصرفات كل من زعماء الكنيسة والدولة إبان تلك الفترة . ولم يكن هو ذلك العنف الناجم عن البداوة . والذى عرفته العصور الوسطى الباكرة ، وإنما كان عنفا ناتجا عن تفكك نظام متحضر وإنهيار المقاييس الأخلاقية . لم يكن عنف البرابرة ، على حد تعبير جاكوب بوركهارت ، ولكنه عنف « المتطرفين المرعبين » الذين لايستطيعون احتمال الحلول التوفيقية وصراعات الحياة المتمدينة، ولايشفى غليلهم سوى عدوان الوحشية المنظمة .

لقد وصلت ملكية العصور الوسطى إلى قمتها فى إنجلترا وفرنسا أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر ، ولم تشهد أوربا ممارسة السلطة السيادية على هذا النحو حتى قبل سنة ١٥٠٠ بقليل . ذلك أن متاعب الملكية الإنجليزية فى السنوات السبعين الأولى من القرن الثالث عشر كانت ، إلى حد كبير ، نتاجا للقصور فى شخصية الملك ، ثم وجدت الحكومة الملكية فى إدوارد الأول ( ١٢٧٢ - ١٣٠٧ ) ، مرة أخرى ، الزعيم الذى يستطيع استغلال السلطة التنظيمية للملكية الإنجليزية ، وهى السلطة التى كان الملوك النورمان والإنجويون قد أرسوا دعائمها من قبل . كان إدوارد يختلف عن أبيه هنرى الثالث ، التقى الطيع ، من جميع الوجوه تقريبا . فقد كان تدين الملك الجديد نوعا من التدين الرسمى ، الذى ينفع واجهة مفيدة لسياسة عدوانية ، دون أن يشكل عقبة فى سبيل ممارسة هذه السياسة . فقد كان إدوارد صليبيا ذكيا ، وجنديا عظيما استثار حماسة جميع الطوائف فى المجتمع الأوربى . كما أنه حقق إنتصاراً عظيمًا حين أخضع ويلز للمرة الأولى تماما للتاج الإنجليزى ، وحاول غزو اسكتلندة ، وعلى الرغم من أن هذه المحاولة حققت قدراً أقل من النجاح ، فإنها زادت من شهرة إدوارد كجندى .

كان إدوارد قد وعى تماما ذلك الدرس البائس الذى تعلمه من عجز أبيه عن السيطرة على البارونات والمجتمع فى مملكته . وبدلا من العودة إلى الممارسات الاعتباطية التى شهدها عصر الملك جون ، فإنه عقد العزم على الإفادة من التجارب الدستورية التى قام بها البارونات المتمردين لإحكام سيطرتهم على الإدارة الملكية ، ولكنه كان يهدف إلى استخدام هذه الإبتكارات التنظيمية لزيادة السلطة الملكية بدلا من تحديد نطاقها . فاستمر على نهج سيمون المونتفورتى من حيث الدعوة إلى اجتماع خاص فى البلاط الملكى ، يتم فيه عقد اجتماع كبير للأعيان بحضور ممثلين عن فرسان المقاطعات وعن البورجوازيين . هذه المناسبات الخاصة عرفت باسم البرلمانات ، وعند نهاية حكمه كانت هذه الاجتماعات تستغل كثيراً ، وبنجاح كبير ، لدرجة جعلت منها نظاما ملكيا لاغنى عنه - فالملك يحتفظ ببلاطه من خلال اجتماعات البرلمانات .

وكانت وظيفة برلمان إدوارد الأول ذات جوانب أربعة : قضائية ، وتشريعية ، ومالية ، ودعائية . فمن الناحية الرسمية كان هو المحكمة العليا ، وبذلك كان هو أعلى هيئة قضائية فى المملكة ، حيث يمكن نظر القضايا الكبرى بين الملك والأعيان وكبار السادة ، وحيث يمكن

للفرسان والبورجوازيين تقديم الإلتماسات بدلا عن الشكاوى . ويمكن أن يكون البرلمان تعبيراً عن إرادة أهل المملكة باعتباره مؤسسة تضم ممثلين عن كل الطبقات في المملكة . ومن ثم ، كان يمكن استغلاله ، وفقا للنظرية السياسية والقانونية في الميثاق الأعظم Magna Carta في سبيل الحصول على الموافقة على التغييرات في القانون العام . وفي سلسلة من التشريعات البرلمانية العظيمة قضى إدوارد على كثير من مظاهر الفوضى ، وملأ كثيراً من الثغرات في القانون العام ، الذى عانى من قلة اهتمام الملكية خلال العهد السابق . كذلك استغل إدوارد البرلمان في الحصول على الحقوق الملكية ؛ مثل الرسوم الجمركية ، والضرائب المفروضة على البورجوازيين ، التى كانت تتم بعد الموافقة البرلمانية . وكان من الأسهل كثيراً فرض ضريبة سبق أن حازت على موافقة ممثلى الأمة ، ولاسيما لأن جباة الضرائب كانوا فى معظمهم من فرسان المقاطعات الذين لايتلقون أجوراً ولم يكن من السهل إستمالتهم لتنفيذ سياسة ملكية لايوافقون هم أنفسهم عليها . وربما كانت الوظيفة الأخيرة للبرلمان ، في نظر إدوارد هى أهم وظائفه . إذ كانت تيسر السبيل للإعلام عن السياسة الملكية وتتيح لوزراء الملك أن يخطبوا في السادة الروحيين والعلمانيين ، وممثلى الفرسان والبورجوازيين بل وصغار رجال الكنيسة ، الذين كانوا يجتمعون من حين لآخر ، حول جدارة وصلاحية المسار المقترح للعمل الملكى . ومع بداية تسعينيات القرن الثالث عشر كان إدوارد قد جعل من نفسه أقوى ملك إنجليزى منذ هنرى الثانى . فقد استطاع تقليم سلطة البارونات بتشريع برلمانى يطلب منهم إيضاح المبرر الذى يبرر لهم حق الإحتفاظ بالسلطة الإقطاعية الخاصة ، وهو أمر كانوا يجدون صعوبة بالغة في إثباته أمام المحاكم .

وإعادة تثبيت الزعامة الملكية فى إنجلترا على يد إدوارد هو الذى أتاح الموارد اللازمة لخوض الحرب ضد فرنسا سنة ١٢٩٤م . وقد نشبت هذه الحرب بسبب مزاعم كل من الملكية الإنجليزية والملكية الفرنسية حول كونتية الفلاندرز الغنية ، ولكن إدوارد دافع عن سياسته أمام البرلمان عى أساس أن الملك الفرنسى عدو للثقافة الإنجليزية . وكان هذا الزعم يحمل قدراً من المبالغة لأن الملك الإنجليزى والأمراء كانوا عادة يتحدثون الفرنسية ، بيد أن هذا الزعم يشى بأن إدوارد كان يرى فى نفسه ملكا وطنيًا .

ورحبت الحكومة الفرنسية بالتحدى الذى طرحه الملك الإنجليزى . فقد كان الفرنسيون يأملون فى انتزاع آخر الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوربية ، في مقاطعة جاسكونى Gas-cony ، وبهذا يستكملون توسع الدولة الفرنسية إلى ما يمكن اعتباره الحدود الطبيعية

للمملكة . ذلك أن شمبانى ونافار كانتا قد صارتا من أملاك التاج الفرنسى نتيجة لزواج تحالف ، كما كانت ليون وغيرها من المدن المستقلة فى إقليم الراين قد ضمت بموجب ذريعة قانونية من تلك التى برع فيها الإداريون الملكيون . وكان فيليب الثالث ( ١٢٧٠ - ١٢٨٥ ) ، ابن سان لويس ، رجلا خامل الذكر ترك الحكومة بأيدى وزرائه الرئيسيين ، وسمح لهم بمواصلة الإجراءات التعسفية التى كان لويس التاسع نفسه يعارضها . واستمرت عملية إحلال مؤسسات التاج المالية والقانونية الشاملة محل الاختصاصات الإقطاعية ، والأسقفية دونما توقف . وكان أى سيد إقطاعى أو هيئة تقاوم الإرادة الملكية تتعرض للاضطهاد والملاحقة حتى لايكون هناك من سبيل سوى الاستسلام . ولم تكن الحكومة الملكية قادرة على التغلب على النزعات الإقليمية لدى الأمراء الفرنسيين ، مما كانت نتيجته عدم استطاعتها الحصول على الموافقة على الضرائب في مجلس واحد ، كما كان الحال فى انجلترا ، وحتى عندما اجتمعت الهيئة العامة Estates General فى سنة ١٠٣٢ م للمرة الأولى ، كان ذلك لأغراض دعائية خالصة ، ولم تكن لهذه الهيئة أية وظيفة من وظائف البرلمان الإنجليزي . وعلى الرغم من أن المملكة الفرنسية كانت أغنى وأكثر سكانا من انجلترا ، فإن الحكومة الكابية لم تكن تستطيع أن تجبى ضرائب كاملة على المملكة . ولكن الحصول على الموافقة من خلال مجال الأمراء الإقليمية ، والمفاوضات مع حكام المدن ، كانت توفر للملك الفرنسى من المال مايكفى لكى يجعله أغنى ملوك أوربا . فضلا عن أن الخزانة الفرنسية كانت تستطيع أن تحصل على نصيب من الضرائب البابوية المفروضة على الأكليروس بحجة أن هذه الأموال ينبغى أن تستخدم للأغراض الصليبية فقط .

كانت للسلطة الهائلة التى تمتعت بها الملكية الفرنسية عند ارتقاء فيليب الرابع ( ١٢٨٥ - ١٣١٤ ) العرش تأثير مفسد على العاملين فى الجهاز البيروقراطى الملكى ، خاصة الوزراء الرئيسيين للتاج . فقد كان أولئك رجالا ذوى أصول اجتماعية متواضعة ، من أقاليم الفرسان أو من المناطق البورجوازية ، وشقوا طريقهم فى الحياة بفضل معرفتهم القانونية ومقدرتهم الإدارية بعد نضال مرير فى مطلع حياتهم . والموارد الهائلة التى كانوا يتحكمون فيها باسم الملك ، وقدرتهم اللامحدودة على تدمير من هم أرقى منهم اجتماعيا ، جعلت منهم أوغاداً متغطرسين بلا مبادئ ، ومنذ عهد فيليب أوغسطس اشتهرت البيروقراطية الفرنسية بمواقفها الصعبة ، وكان ذلك أمراً ضروريا لكى تتوحد البلاد حقا تحت حكم التاج . ولكن جنون

العظمة عند وزراء فيليب الرابع كان شيئًا جديداً . فإلى جانب القسوة والمراوغة ، كانوا يتصفون كذلك بالافتراء ، والابتزاز ، والاغتصاب . فقد اكتشفت حكومة فرنسا فى أواخر القرن الثالث عشر أسلوب « **الكذبة الكبرى** » ؛ وهو مايعنى أنه كلما كان الاتهام خياليا كلما كان من السهل تدمير الخصوم العاجزين . وتعلمت هذه الحكومة كيف يمكن تحويل الإجراءات القانونية إلى مؤسسة استبدادية حصينة . إذ كانت الإدارة الملكية تتصرف دائما ضد ضحاياها العاجزين فى إطار شكلى من الرسميات القانونية ؛ لأنها كانت قد اكتشفت أن مجرد استغلال الحكومة لواجهة المؤسسات القانونية فى توجيه أكثر الاتهامات كذبًا وزوراً كفيل بأن يغير الحقيقة ويلونها فى عقول العامة المظلمة . وليس من السهل أن نحدد الدور الذى لعبه الملك فى هذا كله - فإلى أى مدى كان هو يوجه فعلا هذه السياسة الشريرة ، أم أنه كان مجرد ضحية مكر وزرائه وخداعهم ؟ ويبدو أن الاحتمال الأخير هو الأرجح . فقد كان فيليب تقيا شجاعا كشخص ، ولكنه كان أيضا صامتا غبيا مما يجعل منه أفضل واجهة يمكن للبيروقراطية أن تنفذ خططها فى سترها . وكان وزراؤه وحوشا وغاية فى الاستهتار ، ولكن يبدو أن الملك كان يصدق أكاذيبهم الكبيرة بالفعل . ولم تكن ثمة صعوبات تواجههم فى إقناعه بشرعية هجماتهم على من يقف فى طريقهم ، بما فى ذلك نائب المسيح نفسه .

بعد موت سان لويس وجدت البابوية نفسها فى مواجهة صعوبات تتصاعد باستمرار . ذلك أن مؤسساتها القانونية والمالية كانت محل الانتقادات من سائر أنحاء أوربا ، بما فى ذلك رجال الكنيسة الذين وجدوا أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة التى فرضتها عليهم البابوية، كما أنهم غالبا ماكانوا يلاقون الاضطهاد فى المحاكم البابوية . كان الكرادلة متعلمين وإداريين على مستوى طيب ، ولكنهم استحقوا سمعتهم السيئة بسبب المحسوبية والرشوة . إذ أن الإجراءات المتطرفة التى أتخذت ضد الهوهنشتاوفن أزعجت أصحاب العقليات الحساسة الذين كانت تراودهم الشكوك حول سلوك من يحتفظ بمفاتيح السموات ( البابا ) والذى يستخدم أساليب تناسب الطغاة الإيطاليين المشاغبين . فقد كان الفرنسسكان الروحانيون قد غرسوا بذور الفوضى حين قالوا إن الكنيسة والبابوية فشلت فى أن تسير على مبدأ الفقر الحوارى . ومرة أخرى ظهرت نزعة معاداة رجال الكنيسة ،ولكنها كانت فى هذه المرة موجهة بشكل مباشر ضد « *الذئب* » البابوى بشكل جعل من هذه *النزعة العنصر السائد فى الأدب* الغربى آنذاك . فضلا عن أنه كانت هناك مشكلات خطيرة داخل البلاط البابوى نفسه . فمنذ

القرن العاشر ، كان العرش البابوى محل نزاع بين الأسر الرومانية الطموحة على فترات متقطعة ؛ إذ كانت هذه الأسر ترى فى العباءة البابوية وقبعة الكردينال وسيلة للحصول على ثروات ملكية جديدة . وبالإضافة إلى الأحزاب التى ألفتها العائلات الأرستقراطية البارزة داخل هيئة الكرادلة ، كانت هناك أيضا مجموعة من الكرادلة الفرنسيين الذين تحمسوا لمطالب الملكية الفرنسية والحكم الأنجوى فى جنوب إيطاليا . وفى ظل هذه الظروف ، كانت تنتج عن كل انتخابات بابوية أزمة صغيرة وإشاعات فاضحة . وفى أوائل الثمانينيات من القرن الثالث عشر كانت البابوية فى وضع تسهل مهاجمته للغاية إذا ما ظهرت أية مشكلة كبرى فى أوربا يمكن أن تؤثر على مصالحها وتختبر عزم البلاط البابوى . وقد ثارت مشكلة من هذا النوع نجمت عن سلسلة غريبة وغامضة من الأحداث فى صقلية ، وظهر عجز البابوية من خلال ردود فعلها تجاه هذه الأزمة .

كان حكم أنجو صقلية وجنوب إيطاليا كريها فى نفوس المواطنين منذ البداية . فقد كان شارل أنجو ، بخلاف الحكام الهوهنشتاوفن السابقين ، لايستطيع أن يزعم أنه من سلالة البيت النورمانى الأصلى ، على الرغم من أنه تولى حكم هذه المناطق الغنية بترخيص من البابوية . ولم تكن معاملته لشعب صقلية وجنوب إيطاليا أفضل من معاملة نبلاء شمال فرنسا لأهالى لانجدوك فى مطلع هذا القرن . إذ كان ذلك مجرد اغتصاب جديد للأراضى على يد النبلاء الفرنسيين الذين لم يكن لديهم أدنى قدر من الاهتمام بصالح الشعب الذى قهروه وداسوا كرامته . وكان الحكم الأنجوى فى جنوب إيطاليا علامة البداية فى رحلة الأفول الطويلة التى قطعها هذا الإقليم ، الذى كان مزدهراً من قبل ليسقط فى هوة البؤس والفقر . وربما لم تكن كراهية الإيطاليين لتظهر لو لم يكشفوا عن كراهيتهم لطمع شارل أنجو فى امتلاك القسطنطينية . ففى سنة ١٢٦١ ، كانت المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ، والتى أقامتها الحملة الصليبية الرابعة ، قد قضت نحبها ، واستعاد أمراء باليولوجوس عرش القسطنطينية . وكانت موارد الدولة البيزنطية المحياة من جديد ضئيلة ، بحيث لم يستطع البيزنطيون كلهم أن يصمدوا فى وجه الأتراك حتى استطاع المسلمون فى نهاية الأمر أن يستولوا على المدينة الذهبية النائمة على ضفاف البسفور سنة ١٤٥٣م . وهكذا باءت بالفشل الخطة التى كان إنوسنت الثالث قد وضعها لإعادة توحيد الكنيستين البيزنطية والرومانية نتيجة للغزو اللاتينى للقسطنطينية . وعلى مدى عشرين سنة أخرى اشترى الحاكم البيزنطى الحماية من

الهجوم المضاد ، بالموافقة على اتحاد شكلى بين الكنيستين . ولكن فى سنة ١٢٨١م أدان شارل أنجو سلوك الحاكم البيزنطى التظاهرى ووضع خطة لمهاجمة القسطنطينية . كان البيزنطيون قد نسوا كيف يحاربون ، ولكنهم لم يكونوا قد نسوا كيف يتآمرون . ولعب الجواسيس البيزنطيون والذهب البيزنطى دورهم فى توجيه الكراهية المريرة التى كانت تضطرم فى وجدان أهل صقلية، الذين هبوا سنة ١٢٨٢ ليذبحوا الحامية الفرنسية فى تمرد وحشى عُرِف باسم الصلوات المسائية الصقلية Sicilian Vespers . والتفاصيل الدقيقة لحركة الصلوات المسائية الصقلية Sicilian Vespers [٣] حيرت الباحثين المؤرخين : إذ تجلت العبقرية التآمرية لأهل صقلية للمرة الأولى فى سنة ١٢٨٢ . ولكن من الواضح أن البيزنطيين كانت لهم الزعامة فى إشعال نار التمرد . وعلى أية حال فإن الصقليين أعلنوا ولاءهم لملك أرغونة الذى كانت زوجته هى ابنة مانفرد ، الإبن غير الشرعى لفردريك الثانى وآخر حاكم من الهوهنشتاوفن ، وقبل الملك الأسبانى صقلية ، وبعد أن نزل على أرض الجزيرة منع شارل أنجو من إعادة فتحها.

كان على العرش البابوى فى الوقت الذى حدثت فيه « الصلوات المسائية الصقلية » رجل فرنسى كان أداة بيدة شارل أنجو . فلم يكتف بتكريس موارد البابوية المالية لمساندة شارل فى حربه الاستردادية ، ولكنه أعلن أن عرش أرغونة يعتبر شاغراً ، وأعلن عن شن حملة صليبية

---

٣ - عرفت هذه الحركة الثورية المضادة للفرنسيين فى صقلية بهذا الإسم لأنها اندلعت فى يوم الإثنين عيد الفصح سنة ١٢٨٢ ، وبمجرد أنه دقت الكنائس أجراسها تعلن عن بدء صلوات المساء . وبشروق شمس الصباح كان كل الفرنسيين الذين لم يهربوا من الجزيرة قد لقوا حتفهم . وانتشر التمرد الذى عرف باسم صلوات المساء الصقلية فى سائر أنحاء الجزيرة . وكان هذا التمرد في جانب منه نتيجة للغزو الفرنسى للجزيرة فى سنة ١٢٦٦ حيث تم القضاء على حكم أسرة الهوهنشتاوفن . إذ كان يتزعم حركة التمرد مستشارو الملك مانفرد السابقون الذين ظلوا على ولائهم لابنته كونستاس زوجة بطرس الثانى ملك أرغونة الذى قدم مساعدته لأهل صقلية ضد الفرنسيين . ومن ناحية أخرى كان الإجراءات القهرية التى إتخذها شارل أنجو ضد أهل الجزيرة والضرائب الباهظة التى فرضها عليهم ، فضلا عن محاباته للتجار القادمين من بلاده ، واعتبار صقلية مجرد مورد للدخل - كان لكل هذا أثره فى غضب الصقليين . وانتهى التمرد بسقوط حكومة الأنجويين فى الجزيرة على حين فشلت جهود شارل فى سحق الحركة على الرغم من أنه كان يلقى التأييد والدعم من البابوية. ومن فيليب الثالث ملك فرنسا . وتم إعلان بطرس الثانى ، ملك أرغونة ، ملكا على صقلية بشرط أن يحكمها وفقا لقوانينها الخاصة وأن يعامل أهلها باعتبارهم سكان مملكة قائمة بذاتها .

انظر :

Robert S . Hoyt/Stanley Chodorow , Europe in the Middle Ages , pp . 488-ff;S. Runciman , The Sicilian Vespers (1957) .

ضد الجالس على هذا العرش . ولم يكن هناك أى مبرر أخلاقى أو دينى لهذا الإجراء المتطرف. فقد كان تجريد الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة شيئًا( بل إن الحملة الصليبية ضد الهوهنشتاوفن كانت على أساس معقول ) ولكن تجريد حملة صليبية ضد أرغونة كانت شيئًا مختلفًا ؛ فقد كانت حملة صليبية سياسية تماما ، وكشفت عن مدى هوان المثال الصليبى . إذ كان ملوك أرغونة دائما طليعة الجنود المسيحيين ؛ وها هو الحاكم الأرغونى يجد نفسه الآن يعامل كما لو كان عدواً للكنيسة ولأسباب سياسية خالصة . ولكى يضمن الاستجابة الفرنسية للحملة الصليبية خلع البابا لقب ملك أرغونة على ابن فيليب الثالث ، بل إنه قدم للملك الفرنسى الدخل الذى توفر للكنيسة من الضريبة الصليبية التى فرضت على الأكليروس الفرنسى . وتقدم فيليب الثالث صوب أرغونة ، على حين كان شارل يحارب الصقليين والأسبان لكى يستعيد صقلية . وقد لقى الفرنسيون هزيمة مخزية فى كلتى الجبهتين بسبب قوة الأساطيل الصقلية والأسبانية ، والمرض الذى تفشى فى صفوف جيش فيليب ، فضلا عن شجاعة الأسبان ومهارتهم العسكرية .

كانت الحملة الصليبية الثانية ضد أرغونة هى الفصل الثانى فى المأساة التى أدت إلي تدمير بابوية العصور الوسطى . فعلى مدى السنوات العشرين التالية أرهقت البابوية مواردها فى جهد يائس لاستعادة صقلية لحليفها الأنجوى . ثم كان عليها فى النهاية أن تعترف بانقسام جنوب إيطاليا إلى مملكتين هما صقلية الأرغونية ، ونابلى الأنجوية . وكان فيليب الثالث قد مات وهو فى طريق العودة من حملته الصليبية الخائبة ضد أرغونة ، وقرر وزراء ابنه الذين كدرتهم الهزيمة الأولى للجيوش الفرنسية فى القرن الثالث عشر أن يجعلوا من البابوية كبش فداء . وزعموا أن البلاط البابوى لم يلتزم بتعهداته فى تأييد المشروع الفرنسى ، وأقنعوا فيليب الرابع بحقيقة هذه الافتراءات . وبعد سنة ١٢٨٥ صار موقف الملكية الفرنسية تجاه البابوية أكثر قسوة وأشد عناداً . ومن الواضح أن الوزراء الملكيين كانوا ينتظرون فقط حتى تسنح الفرصة المناسبة لسحق البابوية مثلما أخضعوا كل شئ فى بلادهم .

ولم يكن عليهم أن ينتظروا طويلا . ذلك أن الخصومات والمنازعات التى نشبت داخل هيئة الكرادلة بين العائلات الأرستقراطية الرومانية جعلت من كل انتخاب بابوى أمراً صعبا ومحفوفا بالمخاطر والفضائح . وأخيراً فى سنة ١٢٩٢ ، عندما كان العرش البابوى شاغراً ، قام كل من الفرقاء فى هيئة الكرادلة بإلغاء الفريق الآخر ، ولم يستطع أى مرشح أن يحصل

على ثلثى الأصوات اللازمة لفوزه . وعلى مدى عامين كان العالم المسيحى ينظر بهلع إلى الكرادلة الذين ظلوا يتشاجرون ويحيكون الدسائس حول عرش القديس بطرس الذى كان مايزال شاغراً . وتم التوصل إلى حل توفيقى مؤقت فى سنة ١٢٩٤ عندما وافق جميع الفرقاء على انتخاب البابا كلستين الخامس Celestine V الذى كان ناسكا إيطاليا مشهوراً وزعيما روحيا ذائع اليت . وقد ارتبك كلستين تماما بواجبات منصبه ، وبعد شهور قلائل من الفوضى فى البلاط البابوى هجر العرش البابوى . وكان « رفض كلستين العظيم » ، على حد تعبير دانتى، فضيحة مدوية تسببت فى نزاع مرير ، لأنه لم يحدث أبداً أن تنازل البابا عن عرشه ، وزعم كثيرون من المخلصين أن وريث القديس بطرس لايمكنه الاستقالة من منصبه لأن البابا تختاره العناية الإلهية . وقال كلستين أن صوتا ملائكيا طلب منه التنازل ، على الرغم من الشائعات التى انتشرت لتقول أن هذه الرسالة إنما جاءت فى الحقيقة من الكردينال بندكت جايتانى Benedict Gaetani ، زعيم إحدى الفرق المتنازعة فى هيئة الكرادلة ، عن طريق أنبوب خفى . وتوقفت هذه الشائعات عندما انتخب جايتانى للعرش البابوى تحت اسم البابا بونيفاس الثامن ( ١٢٩٤ - ١٣٠٣ ) ، وعندما توفى كلستين بعد ذلك بقليل ، زعموا أنه مات مسوما بأوامر من جايتانى .

ولم يكن هناك شئ يفوق الفضيحة التى ارتبطت ببابوية بونيفاس الثامن سوى انتهاك حرمة البابوية بالشكل الذى أودى بها . ذلك أن البابوية فى سنة ١٢٩٤ م كانت فى وضع مكشوف للغاية . إذ كان سلطانها على العالم المسيحى قد تضاءل إلى حد كبير ، كما كانت الملكيات فى شمال أوربا قد تطورت إلى النقطة التى تجعل أى خلاف مع البابوية يترجم فى الحال إلى عداء وعنف ضد روما . ولكن بونيفاس كان مفتونا بنظرية سمو السلطة البابوية وبمؤسسات الحكم الأوتوقراطى البابوى بحيث أنه لم يستطع أن يواجه حقائق الموقف ويكبح جماح نفسه عن التصرف الأخرق . وكان متطرفا عديم المسئولية مثل أى وزير من وزراء الملك الفرنسى . كما كان قانونيا ماهراً ، وإداريا ممتازا ، وصادقا فى إخلاصه للكنيسة . ولم يكن مفهومه عن المنصب البابوى يختلف بشكل أساسى عن مفهوم إنوسنت الثالث ؛ ولكنه كان يفتقر إلى مهارة إنوسنت السياسية وأسلوبه الدبلوماسى ، والواقع أنه واجه موقفا محفوفا بالمخاطر التى تهددت البابوية ، وكان هذا الموقف أخطر من الموقف الذى واجهه إنوسنت الثالث. ولم ينل بونيفاس الثامن سمعة طيبة ، سواء فى زمانه ، أو بعد ذلك ولكن بعض

الانتقادات التى وجهت إليه كانت انتقادات ظالمة . فليست غلطته أن الحكومة الفرنسية كانت تحت سيطرة رجال مخادعين غلاظ الأكباد ، فقد كان تجردهم الأخلاقى أمراً جديدا على العالم المسيحى . ولكنه أخطأ لأنه لم يعترف بوجود هذا الوضع الجديد وفشله فى تعديل السياسة البابوية بحيث تتناسب معه . وبدلا من ذلك اندفع بلا روية ، وادعى للسلطة البابوية أكثر الدعاوى تطرفا (على الرغم من أنها لم تكن هى المرة الأولى فى هذا الصدد ) ، فلقى هزيمة مروعة .

ففى سنة ١٢٩٤ م كانت الحرب الحتمية بين المملكتين التوسعيتين فى انجلترا وفرنسا قد بدأت ولم تكن قد نشبت حرب كبرى فى أوربا منذ ثمانين عاما ، وسرعان ما اكتشفت كلتا الحكومتين أنها أخطأت فى تقدير النفقات العسكرية ، واستنزفت الحرب مواردهما بشكل قاس . وتطلعت كل من الحكومتين بحثا عن وسائل لزيادة الدخل الملكى . وكان المورد الأكثر وضوحًا هو فرض الضرائب على رجال الكنيسة ، وهو أمر كانت له سوابق مريبة فى مناسبات عديدة حين كانت الكنيسة تعطى للدولة نصيبا كبيراً من الضرائب الصليبية . وأدعت الحكومتان الملكيتان فى انجلترا وفرنسا أن هذا يعطيهما الحق فى فرض الضرائب على الأكليروس لأى غرض حربى ، وكانت ثمة حجة معقولة تدعم هذا الرأى . فقد بدا الفرق ضئيلا بين فرض الضرائب على رجال الكنيسة الفرنسيين من أجل الحرب ضد أرغونة من ناحية ، ومطالبتهم بتمويل الحرب ضد انجلترا من ناحية أخرى . أما الفرق الكبير ، فكان يتمثل فى أن البابا رفض الترخيص بالضريبة الجديدة واعتبرها خروجا صارخا علي القانون الكنسى . ونشر المرسوم البابوى المعروف باسم Clericis Laicos[٤] ، الذى يقضى بعدم فرض أية ضرائب علي رجال الكنيسة من قبل العلمانيين دون إذن بابوى ، وإلا كان العقاب هو الحرمان. وقد اتسم المرسوم البابوى بنغمته الحربية العنيدة . فالجملة الافتتاحية فيه تؤكد على أن «العلمانيين كانوا أعداء لرجال الكنيسة منذ أقدم العصور » ، وهى أكذوبة واضحة بالنظر إلى الحماسة الهائلة والإخلاص الذى أظهره العلمانيون ، وكانوا مايزالون يظهرونه ، نحو

---

٤ - أصدر بونيفاس الثامن هذا المرسوم فى ٢٥ فبراير سنة ١٢٩٦ لكى يحمى رجال الكنيسة فى انجلترا وفرنسا ضد الاستغلال المالى من جانب السلطات العلمانية . ويقضى المرسوم بمنع الأكليروس من إعطاء الدخل الكنسى إلي الحاكم العلمانى دون الحصول على إذن من البابوية بذلك ، كما يحرم علي العلمانيين قبول هذا الدخل ونظراً لأن لهجته كانت قاسية وعنيفة فقد أثارت كلاًمن فيليب الرابع ملك فرنسا وإدوارد الأول ملك إنجلترا . وبذلك كانت مقدمة لصراع عنيف طويل المدى . ( المترجم )

الكثيرين من رجال الكنيسة . وكان لافتقار بونيفاس للقدرة على ضبط النفس والاعتدال أثره في رسم الحدود بين السلطة البابوية والسيادة الملكية ، وكان رد ملكي انجلترا وفرنسا على التحدى الذى طرحه مماثلا فى عنفه . فقد أثار إدوارد الأول مشاعر الرعب والهلع فى قلوب الأكليروس الإنجليزى حين سحب منهم الحماية التى كان يوفرها لهم القانون العام ، وأظهر وزراء فيليب الرابع نذالتهم بحملة شاملة من المضايقات والسباب من النوع الذى كانوا خبراء فيه . كما طردوا المصرفيين الإيطاليين من باريس وفرنسا ومنعوا تصدير أية أموال خارج المملكة لكى يحرموا البابوية من شطر كبير من مواردها ، وأصدروا وابلا من المنشورات ضد بونيفاس يؤكدون السلطة السيادية للملك على رعاياه وعلى وجوب التزام رجال الكنيسة بالمشاركة فى الدفاع عن المملكة . وتم إرغام البطريركية الفرنسية على إخبار البابا بأن رجال الكنيسة سوف يعتبرون أعداء الدولة إذا لم يدفعوا الضرائب لتمويل الحرب الوطنية . وارتبك بونيفاس وارتعدت فرائصه ، وسرعان ما استسلم واعترف بأن ملك فرنسا له الحق فى فرض الضرائب على رجال الكنيسة فى مملكته ، وكان معنى هذا التسليم بحق جميع الحكام العلمانيين فى فرض الضرائب من أجل الدفاع عن ممالكهم . كان هذا اعترافًا صريحًا من البابوية بسيادة سلطة الدولة على الكنيسة الوطنية . وكانت تلك هى غلطة بونيفاس الثانية ، لأنها كشفت لوزراء شارل الرابع أنه يمكن إجبار البابوية على الخضوع بسهولة ، مما حفزهم على القيام بإجراءات أكثر تطرفا .

وحانت الفرصة للعنف الجديد فى سنة ١٣٠١ . فقد كانت سنة ١٣٠٠ مناسبة عيد كبير للكنيسة . وكان آلاف من الحجاج قد شقوا طريقهم صوب روما وهللوا للبابا فى غمرة المهرجانات الدينية . هذه المظاهرات أعادت لبونيفاس ثقته وغطرسته . فإذا كان شعب أوربا يدين بمثل هذا الولاء لنائب المسيح . فما الذى يدعوه للخوف من الملوك ؟ وكان على استعداد للدخول فى صراع جديد ضد الملكية الفرنسية ، على ألا يستسلم هذه المرة . وفى الوقت نفسه كانت الإدارة الملكية قد وجدت أن أحد أساقفة لانجدوك شخص متعب وصعب المراس ؛ فقد كان هذا الأسقف جنوبيا متعصبا يكره الشماليين لأنهم غزوا بلاده . قرر وزراء فيليب أن يجعلوا من هذا الأسقف للتمرد عبرة لمن يعتبر . وباستخدام أساليبهم المعتادة من الكذب والافتراء والحيل والذرائع القانونية ، تسببوا فى القبض عليه بتهمة الخيانة ، وطلبوا من البابا ، بصفاتهم المستهترة المعتادة ، عزل سجينهم من منصبه الأسقفى حتى يمكن عقابه على

جريمته الملفقة . وردّ بونيفاس على الاستفزاز بنفس الطريقة المتطرفة . إذ أوقف تنازله السابق للملك فرنسا بفرض الضرائب على رجال الكنيسة ، ووجه انتقادات قاسية إلى فيليب بسبب النهج اللاأخلاقي الذى تنتهجه إدارته ، ثم دعا إلى عقد مجمع لرجال الكنيسة الفرنسيين فى روما لإصلاح الكنيسة فى مملكة فيليب . وفى سنة ١٣٠٢ أصدر مرسوما بابويا آخر لإرساء السلطة الكنسية عرف باسم Unam Sanctam[٥] يزعم فيه أن كلا من السيف الروحى والسيف الزمنى بيد نائب المسيح على الأرض ، وإنه إذا كان هناك ملك لايستخدم السيف المدنى الذى أعير إياه على نحو صحيح يمكن للبابا أن يخلعه عن عرشه . وخلص من هذا إلى تأكيد وتوطيد السلطة البابوية : « **ونحن نعلن ، ونصرح ، ونحدد أن الخضوع لبابا روما ضرورى جداً لخلاص كل مخلوق بشرى** » .

وقيل إن أحد وزراء فيليب الجميل علق عند قراءة مرسوم بونيفاس الأخير بقوله : « **سيف سيدى من الصلب ، وسيف البابا من نافلة القول** » . ويبدو أن لهجة المرسوم البابوى العنيفة قد صدمت الملك نفسه ، ولكن وزراءه لم يخشوا شيئًا . فقد كانت ثقتهم كاملة فى فعالية أساليبهم الاستبدادية التى سحقت العديد من خصوم سلطة الدولة فى غضون العقدين السابقين، فأخذوا يوجهون سلاح الكذبة الكبيرة ضد البابا ، وهو سلاح مسموم . كانت القوة الرئيسية فى الإدارة الملكية آنذاك متجسدة فى شخص وليم النورجارتى William of Nogaret ، الذى كان رجل قانون معاديا لرجال الكنيسة ، عنيفا من أهل الجنوب ، ويبدو أن تصرفه كان رد فعل تجاه محاكم التفتيش العاملة فى موطنه ، فقد كان يتصرف بدافع من الكراهية العمياء للكنيسة . وفى أول اجتماع للهيئة العامة Estates General قرأ قائمة طويلة من الاتهامات الموجهة ضد بونيفاس ، واتهمه بكل جريمة ممكنة : بداية بالهرطقة

---

٥ - صدر هذا المرسوم البابوى سنة ١٣٠٢ لتأكيد تفوق السلطة البابوية ، وقد صدر بمناسبة الصراع بين بونيفاس الثامن وفيليب الرابع حول فرض الضرائب على رجال الكنيسة ، وولاء الكنسيين فى فرنسا . والمرسوم عبارة عن تجميع لعملية استمرت مائتى سنة ، وهو يجمع كل الحجج والقرائن التى تؤيد السمو البابوى منذ حركة الإصلاح الجريجورى فى منتصف القرن الحادى عشر . ويؤكد المرسوم على وضع البابا باعتباره زعيم الكنيسة وواجبه فى حماية مصلحة الكنيسة وتوجيه الشئون العلمانية فى خدمة الهدف الكنسى « فمن الضرورى أن يخضع كل مخلوق بشرى لبابا روما حتى يحصل على الخلاص لروحه » .

T.S.R. Boase , Boniface VIII ( 1933) ; H. Bettenson , (ed), Documents of thr Christian Church, (1943) .

كانت الكنيسة آنذاك فى حاجة إلى إنوسنت الثالث أو جريجورى السابع من جديد ، ولكنها بدلا من ذلك حصلت على بندكت الحادى عشر ؛ وهو راهب دومينيكانى هياب ، وقع قرار الحرمان على نوجاريه ، ولكنه برأ ساحة فيليب . وعلى امتداد سنة كاملة نشب صراع مرير بين الحزب الموالى للفرنسيين فى هيئة الكرادلة والحزب المعادى لهم . وتم عقد اتفاق وسط أدى إلى انتخاب كبير أساقفة بوردو تحت اسم كليمنت الخامس Clement V ( ١٣٠٥ - ١٣١٤ ) ، وهو رجل كان يفترض أن يكون تلميذاً مخلصا لبونيفاس ، ولكنه أقام علاقة سرية مع الإدارة الملكية الفرنسية . وعلى أية حال فإنه كان يخشى الملك الفرنسى ، كما كان يعانى المرض باستمرار طوال بابويته تقريبا ، وربما كان مصابا بالسرطان . وسيكون من الصعب أن نتخيل اختياراً أسوأ من هذا ؛ إذ أن كليمنت جعل من مأساة أناجنى كارثة دائمة على البابوية . بل إنه لم يذهب قط إلى روما ، وإنما أقام فى مدينة أفينون Avignon الصغيرة التابعة للإمبراطورية الألمانية ، والتى تقع عبر نهر الرون خارج خط الحدود الفرنسية مباشرة ، بحجة الظروف السياسية المضطربة فى الولايات البابوية ، مما جعله داخل نطاق النفوذ الملكى الفرنسى تماما . وكان « **الأسر البابلى** » للبابوية تعجيلا بتدهور هيبة البابوية فى شتى أنحاء أوربا . ذلك أن الحكومة الإنجليزية ، بصفة خاصة ، اعتبرت بابوية أفينون مجرد أداة فى يد الملكية الفرنسية ، وكانت تلك هى الحقيقة . وقد شجع هذا على إنسحاب الكنيسة الإنجليزية من نطاق السيطرة البابوية وزاد من سرعة هذا الإنسحاب . ولكن وزراء فيليب لم يقنعوا بهذا الهوان الذى حاق برأس الكنيسة ، وهددوا بمحاكمة بونيفاس غيابيا إذا لم يستسلم كليمنت لمطالبهم تماما . وقام البابا المغلوب على أمره بتبرئة نوجاريه وألغى مرسوم السلطة المقدسة الواحدة Unam Sanctum بل وأعاد الكرادلة الذين تواطأوا على اعتقال نوجاريه لبونيفاس إلى مناصبهم . ومضى نوجاريه ومساعدوه ، بعد أن تخلصوا من أى تدخل بابوى ، فى استخدامهم لأسلحة السباب ، والابتزاز ، واتخاذ الذرائع القانونية للقضاء على فرسان الداوية فى سبيل الاستيلاء على ودائع بنك الداوية فى باريس لصالح الخزانة الملكية . فاتهموا الداوية بالهرطقة واللواط ، واقتنع قضاة محاكم التفتيش الدومينيكان بإدانه زعماء الداوية بناء على شهادة بعض شهود الزور . وقام كليمنت الخامس بدوره الصورى فحل جماعة الفرسان الداوية ، على حين استولت الخزانة الفرنسية على أكبر بنك فى شمال أوربا من أجل الحصول على مزيد من الموارد لتمويل الحرب ضد انجلترا .




أوربا فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى

وهكذا ، عندما أخذت شمس العقد الأول من القرن الرابع عشر تميل نحو الغرب كانت الدولة فى أوربا قد حققت لنفسها وضعا سياديا وأجهزت على بابوية العصور الوسطى . ولم تكن البابوية بقادرة على التصدى لإرادة الملوك الفرنسيين والإنجليز ، الذين كانوا آنذاك يمارسون سلطانهم على الشعب دونما قيود الموافقات الأخلاقية . إلا أن ملوك انجلترا وفرنسا لم ينعموا بسلطتهم المطلقة طويلا . إذ أن إدوارد الأول ، ووزراء فيليب الجميل كانوا قد أساءوا حساب مواردهم وبالغوا فى تقديرها . لقد كانت أدوات الإستبداد أموراً جديدة على حضارة العصور الوسطى ، ولم يكن الناس قد تعلموا بعد كيف يسيطرون على هذه الأدوات . وتحولت الحرب بين ملوك انجلترا وفرنسا إلى حرب جلبت الدمار على كل من الطرفين . ذلك أن الضرائب الباهظة للغاية التى كان لابد من فرضها على السكان أدت فى النهاية إلى تفشّى مشاعر السخط والتمرد . وواجه إدوارد الأول ، فى سنى حياته الأخيرة ،معارضة قوية من الأمراء الذين اعترضوا بمرارة على محاولاته لفرض ضرائب جديدة أشد وطأة ، واكتشف خليفته إدوارد الثانى أن البرلمان يمكن أن يستخدم كوسيلة للحد من السلطة الملكية ، مثلما استخدم من قبل لتعزيز هذه السلطة . ففى سنة ١٣١١ انتزع مجلس البارونات حق إدارة المملكة ، كما كان الأمراء قد فعلوا من قبل فى عهد هنرى الثالث . وفى سنة ١٣١٥ ، أى فى السنة التى أعقبت وفاة فيليب الجميل أجبرت مجالس النبلاء الساخطين فى الأقاليم الفرنسية الملك الجديد على إصدار مواثيق تؤكد امتيازاتهم الإقطاعية . وتاريخ كل من انجلترا وفرنسا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لايتميز باستمرار نمو السلطة الملكية وإنما باعادة تأكيد الامتيازات الأرستقراطية ، وإحياء زعامة كبار النبلاء فى المجتمع . فقد تعلمت الطبقة الارستقراطية من الملكية فى أواخر القرن الثالث عشر مواقفها العنيفة وأساليبها القاسية واستخدمتها ضد السلطة الملكية . ولأن الزعماء الملكيين فى المجتمع كانوا قد هدموا المستويات الأخلاقية ، فقد شاعت التصرفات المخادعة الأنانية فى المجتمع آنذاك . لقد كانت الدولة الأوربية فى القرن الثالث عشر قد تمادت كثيراً بانتهاكها لكل مستويات التحضر والأمانة بحيث أفسدت الأسس الأخلاقية للحياة الاجتماعية وجعلت الناس أنانيين غلاظ الأكباد في علاقاتهم بالحكومة الملكية . وكان على قادة المجتمع الأوربى أن يعوا الدرس المرير بأن السلطة المطلقة تدمر نفسها ، لأنه لايوجد مجتمع يمكنه أن يتحمل غياب قدر من النظام الأخلاقى دون أن يتردى فى هوة الفوضى واليأس .

# الجزء التاسع

## نهاية وبداية

### القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

« فى إيطاليا ... يصبح المرء فرداً روحيا ويتعرف على نفسه » .

– جاكوب بوركهارت

« القرن الخامس عشر فى فرنسا والأراضى الواطئة مايزال من قرون العصور الوسطى قلبا ... ولكن كافة هذه الأشكال والصياغات كانت فى سبيلها للزوال ... إن المد يتحول ونغمة الحياة توشك أن تتبدل ... » .

– يوهان هويزنجا

# الفصل الثانى والعشرون
# بين عالمين

## ١ - « الخريف » و « النهضة » :

عرفت الفترة التى تمتد ما بين الربع الثانى من القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر بالعصور الوسطى المتأخرة ، كما عرفت باسم عصر النهضة أيضا . وكان المصطلح الأخير شائعا للغاية بين المؤرخين فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يواجه أي تحد حتى أربعين سنة خلت . هذه الرأى عن الفترة ما بين سنة ١٣٢٥ وسنة ١٥٠٠ كان محكوما بكتاب واحد هو كتاب جاكوب بوركهارت « حضارة النهضة فى إيطاليا » الذى نشر سنة ١٨٦٠ م . فقد كان بوركهارت نفسه إعادة تجسيد لحركة النهضة Der Renaissancemensch التى أعجب بها كثيراً ، لأنه كان حضريًا ، صاحب ذوق جمالى ، عارفًا بمعظم ميادين الثقافة الراقية دون أن يتشبث إطلاقا بأى منها . كان هذا الرجل الذى هو من سلالة الأرستقراطية فى باسل Basl يقدر الفردية ، والتعبير الحر ، وتطور العقل ، ويعلى من شأنها فوق كافة القيم ، فظن أنه رأى فى إيطاليا القرنين الرابع عشر والخامس عشر المكان والزمان اللذين شهدا تحرر الفردية من أغلال حضارة العصور الوسطى التى كانت نتاجا لخضوع الفرد للجماعة والكل . ويقول بوركهارت أن المدن الدول City-States الإيطالية خلقت نوعا جديدا من الصفوة الاجتماعية التى كان أفرادها يفكرون فى ذواتهم باعتبارهم أفراداً ، وليس باعتبارهم أعضاء فى مجموعة جامعة . لقد وجد الإيطاليون فى الناس فى العالم القديم أرواحا شبيهة بأرواحهم ، لأنهم كانوا نتاج نفس الحياة الحضرية المتحضرة ، كما أنهم استخدموا التراث الكلاسيكى كمرشد لهم إلى معرفة العوالم المادية والفكرية ، مما تمثلت نتيجته فى أنهم تخلوا عن النظرة « الخيالية » و«الطفولية» التى عرفتها أوربا العصور الوسطى و « أعادوا اكتشاف الإنسان والعالم » .

ولم يكن تفسير بوركهارت مبتكراً تماما ؛ إذ أن جزءاً من مفهومه عن تاريخ القرنين الرابع عشر والخامس عشر يمكن أن نجده فى كتابات الرومانسى الفرنسى جوليه ميشيليه Jules Michelet الذى عاش فى مطلع القرن التاسع عشر ، وفى كتابات الإنسانيين الإيطاليين أنفسهم بطبيعة الحال . ذلك أن المفكر الإيطالى الكبير بترارك ، الذى عاش فى القرن الرابع عشر ، كان مدركا تماما للفاصل الثقافى بين زمانه وبين « العصور المظلمة » .

كان تفسير بوركهارت موضوعا لمجادلات ومناقشات واسعة وحامية بين المؤرخين على مدى سنوات طوال ؛ ومضى وقت كانت فيه الجمعية التاريخية الأمريكية تضع فى جدول أعمالها للاجتماع السنوى جلسة موضوعها « النهضة - هل كانت أم لم تكن ؟ » وكان المتخصصون فى تاريخ العصور الوسطى حساسين تجاه الاحتقار المزرى الذى كان مؤرخو عصر النهضة يبدونه تجاه العصور الوسطى ، وكان بهم شغف إلى إيضاح أن الفترة العظمى فى الإنجاز الثقافى جاءت فى القرن الثانى عشر وليس فى القرن الرابع عشر ، وأن العصور الوسطى المتأخرة ، وهى أبعد من أن تكون فترة بعث وإحياء ، كانت فترة من التفكك والفوضى ، والظلام ، والفشل . وكان أعظم نقاد بوركهارت هو المؤرخ وعالم الاجتماع الهولندى يوهان هويزنجا Huizinga ، الذى كان يشبه بوركهارت من حيث كونه صاحب أسلوب حيوى ، ومن حيث ميله إلى بناء دراسته حول أنماط نموذجية مستمدة من سياق الفترة التاريخية . وكتاب هويزنجا « خريف العصور الوسطى » ( الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان Ahe Waning of the Middle Ages أى شحوب العصور الوسطى ) لم يسترع الانتباه كثيراً حين نشر للمرة الأولى فى عشرينيات القرن العشرين ؛ إذ كان المؤرخون آنذاك واقعين تحت تأثير الوضعية تماما ، ولم يكن بهم ميل إلى تقدير باحث يستخدم الآداب والفنون التشكيلية كبرهان تاريخى، وبعد ربع قرن من نشر الكتاب فى أول مرة ، لقى كتاب هويزنجا اعترافا واسع النطاق بصلاحية منهجه وتمكنه . وقد زعم هويزنجا أنه بفحص فرنسا والأراضى الواطئة فى القرن الرابع عشر لم يستطع أن يجد دليلا يؤيد رأى بوركهارت عن النهضة ؛ بل أنه بدلا من ذلك وجد اليأس والهزيمة فى كل مكان . فرقصة الموت ، على سبيل المثال ، كانت عنصراً شائعًا للغاية فى الفن والأدب فى العصور الوسطى المتأخرة . وقد كشفت دراسة هويزنجا لبلاط برجنديا عن أن الأرستقراطية كانت تحيا حياة نمطية تماما تخلو من الفردية ؛ والحقيقة أن بلاط برجنديا قد اشتهر باتباع تقاليد عفا عليها الزمن ، وهى علامة أكيدة على التحجر الثقافى . بل أن هويزنجا يقول إن المذهب الطبيعى الذى حكم الفن فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لايدعم الرأى الذى يزعم بأنه كانت هناك نهضة آنذاك . فالنزعة الطبيعية التى بدأت بجيوتو Giotto[1] عند نهاية القرن الثالث عشر فى إيطاليا ، وبلغت أوجها فى الفن الفلمنكى فى

---

١ - هو جيوتو دى بوندون Giotto di Bondone ( ١٢٦٦ - ١٣٧٧ ) ، وهو رسام ولد فى كول Cole بالقرب من فلورنسا التى عمل فيها وفى روما ونابولى وغيرها من المدن الإيطالية . وفى سنة ١٣٣٠ عينه =

أخريات القرن الخامس عشر ، إنما هى فى الواقع من أعراض التحلل الثقافى - فالحقيقة أن المجتمع الأوربى بصفة عامة لم يعد يستطيع التمسك بالرموز .

وليس من الضرورى أن نتطرف فى الاتجاه المضاد لبوركهارت بحيث لانعزى إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أى قدر من الأصالة ، مثلما فعل بعض المتخصصين فى العصور الوسطى ، لكى نتفهم خطوط التطور فى تلك الفترة . ولامهرب لنا من أن نعترف بالحقيقة الأولى القائلة بأن منطقة شمال الألب كانت تشهد حضارة قديمة تتمزق ، ولم تكن تشهد حضارة جديدة صاعدة . إذ أن النغمة السائدة فى الحياة كانت نغمة يأس وخيبة أمل ، ولم تكن نغمة إبداع وعزم على النجاح . وليس معنى هذا أن دلائل النجاح والإرادة كانت غائبة ، وإنما يعنى أنها كانت أقل أهمية من دلائل اليأس والخيبة . وتبدو إيطاليا كحالة خاصة ، على الرغم من كونها حالة هامة للغاية ، لأن اقتصادها ومؤسساتها السياسية مهدت لظهور نموذج الحضارة الحديثة . وفى المدن الإيطالية استمر تطور المؤسسات الرأسمالية وتزايد الولاء للدولة مع هبوط طفيف فى القوة الدافعة . وفى مناطق شمال الألب كان الموقف جد مختلف . ففى فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، والفلاندرز كانت حضارة العصور الوسطى تعانى سكرات الموت التى كانت هى نفسها آلام المخاض الذى سبق مولد العالم الحديث . وعموما فإن القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانا بمثابة عصر ينظر فى اتجاهين ، مثلما كان فى الحال فى القرن الرابع .

ولايقلل من قيمة بعض الأفكار والمواقف التى سادت فى مدن الشمال الإيطالى - التى كانت تطلعا واستشرافا لآفاق العالم الحديث على الرغم من أنها لم تكن جديدة - أن نصف نموذج التطور العام فى أخريات العصور الوسطى بأنه تطور يتميز بالحرب ، والعنف ، والمرض،

---

= روبرت ملك نابولى عضوا فى بلاطه الملكى Familiaris regis ثم ترك بلاط نابولى فى سنة ١٣٣٤ حين قدمت له مدينة فلورنسا منصب المشرف على الأعمال الفنية . وكان يستلهم موضوعات الكتاب المقدس ، واستخدمت هذه الرسوم فى تزيين العديد من الكنائس الإيطالية ، ولاسيما فى فلورنسا . وعينه البابا بونيفاس الثامن لكى يرسم صور كنيسة القديس بطرس فى روما . وكان جيوتو يرسم أيضا على الخشب واستحدث أسلوبا جديداً لحفظ الألوان على اللوحات الخشبية . وبدأ عصراً جديداً فى الرسم حين تخلى عن الأسلوب البيزنطى ، وحاول أن يجذب الانتباه نحو تصوير أكثر واقعية للموضوعات الإنسانية ، مع التزامه بالمثل الفرنسسكانية . ولكى يحقق هذا استخدم الملامح للكائنية ، وكان أول من ينتج التأثيرات الفراغية ، وهو أسلوب عرف به عصر النهضة . وكان مشهوراً جداً فى زمانه لدرجة أن دانتى ذكر اسمه فى الكوميديا الإلهية .

( المترجم ) .

والتمرد الاجتماعى ، فضلا عن القلاقل السياسية ، والتعاسة والبؤس العام . فقد كشفت البحوث التى أجريت فى السنوات العشرين الأخيرة عن أن المتاعب الاقتصادية كانت هى سبب السخط والمرارة الواضحة فى العصور الوسطى المتأخرة . ففى انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا كانت هناك حال من الإنكماش والهبوط الطويل المدى منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر حتى مابعد سنة ١٤٥٠ بقليل . كما أن منحنى السكان الذى كان يرتفع بإطراد منذ منتصف القرن العاشر ، هبط فجأة عن مستواه ، وربما يكون قد تدهور حتى قبل ذلك الوباء الكاسح الذى حمل فى طياته أكثر من ربع سكان أوربا . وهو الوباء الأسود Black Death الذى اجتاح أوربا فى منتصف القرن الرابع عشر . إذ توقفت حركة بناء الضواحى الجديدة والأسوار الجديدة فى مدن أوربا ، وربما كان حجم التجارة العالمية فى سنة ١٤٠٠ أقل منه فى سنة ١٣٠٠ ، على الأقل فى مناطق شمال الألب . ومن المؤكد أن الأرض قد صارت بوراً فى انجلترا وألمانيا ، كما أوضحت الدراسات الاحصائية . ويبدو أن هذا كان نتيجة إنهاك التربة والتدهور السكانى.

هذا التدهور الطويل المدى يفسر الحدة والقلق اللذين اعتريا الناس فى أوربا أواخر العصور الوسطى ؛ فقد وجد السادة الإقطاعيون أن ايجاراتهم تتضاءل قيمتها ، كذلك واجه البورجوازيون وقتا عصيبا . وإذا ما عرفنا النتائج المدمرة للهبوط الاقتصادى الكبير الذى حدث فى ثلاثينيات القرن العشرين ، فلن يدهشنا أن الناس فى القرن الرابع عشر كانوا يلجأون إلى جميع الوسائل اليائسة لحل مشكلاتهم التى كانت أسبابها غامضة بالنسبة لهم ، بقدر أكثر من غموض أسباب الانكماش الاقتصادى فى القرن العشرين بالنسبة لنا . فقد خانوا ، وخلعوا الملوك عن عروشهم ، واغتالوهم ؛ واشتبكوا فى حروب وحشية ضد بعضهم البعض ، وحاولوا الحصول على المساعدة الإلهية من خلال التجارب الصوفية أو عن طريق المذاهب الهرطقية ؛ كما أنهم كانوا يحرقون السحرة . ولكن شيئًا من هذا لم يكن ذا فائدة بالنسبة لهم .

لقد كان العالم على بداية طريق الشيخوخة فى عيون الناس فى العصور الوسطى المتأخرة ، مثلما حدث مع الرومان فى القرنين الثالث والرابع . وبدت متاعب زمانهم وكأنها تمهيد لنهاية العالم وتمهيد للأشياء الأخيرة ، تمهيد ليوم القيامة وقدوم المسيح لذبح المسيح الدجال . وكان العصر مناسبا لتكاثر المذاهب الصوفية ، والأخروية ، فضلا عن المذاهب الهرطقية . وتكلم

بعض المؤرخين عن « نمو الروح العلمانية » فى القرن الرابع عشر . وهذا العصر يتميز حقا بتعزيز الثقافة الدنيوية ، ولكنه كان أيضا عصراً أستشرت فيه المذاهب الدينية فى أكثر أشكالها كثافة وتنوعا . إذ أن الناس فى العصور الوسطى عادوا إلى البحث عن ملاذ ومهرب من إخفاقهم وبؤسهم فى مجال الحكم والاقتصاد عن طريق اللجوء إلى مملكة الرب بداخلهم . وكان بهم شغف إلى سماع المعلمين الدينيين الجدد ، كما كانوا تواقين إلى سماع الخطب والمواعظ الدينية العاطفية ، فقد كان الفن الدينى يهزهم من الأعماق . ويقدر ماكان عنفهم وانشقاقهم فى كثير من العلاقات الاجتماعية : كانوا مخلصين ومبالغين فى علاقتهم بالرب ، وهذه خاصية من خصائص عصر كان يحفل بالعذاب والغموض ، عصر انتقال وتحول ، وهو عصر إما تطرح فيه القيم والمثل العليا جانبا ، وإما يلتزم الناس بها فى تعصب شديد .

أما الكنيسة فكانت بحاجة إلى رجل من طراز إنوسنت الثالث وآخر من طراز سان فرنسيس لكى يتحكما فى هذه الانبثاقات الجديدة لمشاعر التدين فى العصور الوسطى المتأخرة ، ولكن الزعامة الكنسية كانت عاجزة عن أداء المهمة المطلوبة . ولم تكن هذه غلطة الكنيسة وحدها . لأن البابوية كانت قد أسرت فى أفنيون وتحولت إلى دمية بيد الملكية الفرنسية . وكانت النتيجة إنهياراً سريعًا للنظام ، إذ أخذ الصرح العظيم الذى كان إنوسنت الثالث قد أقامه يتصدع باطراد ثم انهار تماما . وإذ أنهار المركز الحيوى حدث التدهور العام فى كافة جوانب الحياة . فقد تجاهل الكنسيون القيام بزياراتهم الرعوية ، وأتيح للأساقفة أن يهتموا بمصالحهم الخاصة ، وفى كثير من الأحيان لم يكن قساوسة الأبرشيات يخضعون لأى إشراف؛ كما أن النظم الرهبانية فقدت حماستها وشهرتها ، بما فى ذلك الفرنسسكان والدومينيكان . وحاول بعض المؤرخين أن يحطوا من شأن بابوية أفنيون ؛ فهناك من المؤرخين من يحاولون الحط من قيمة أى شئ . كانت بابوية أفينون مسيحًا دجالاً جاء ليحط على الكنيسة كالوباء ؛ فقد كان بابوات أفنيون إداريين مهرة ، ولكنهم كانوا أيضا أنانيين ، وكانوا رجالا قصار النظر لم يكن يعنيهم شئ أكثر من ملء خزائنهم بعوائد الضرائب الكنسية ، التى كان يتم تحصيلها عادة من خلال الصفقات المشبوهة مع الحكومات الملكية . ولكن ماهو أسوأ من ذلك كان مايزال مخبوءاً فى المستقبل . ففى سنة ١٣٧٨ م عاد بعض الكرادلة إلى روما لينتخبوا بابا آخر ، على حين استمرت بابوية أفنيون ، وفى ذلك الحين كان الانشقاق العظيم فضيحة ووصمة عار فى جبين العالم المسيحى ، وبذر الشك فى جميع الاتجاهات . ولم ينته الانشقاق العظيم سوى فى مطلع

القرن الخامس عشر بإجراء إصلاحى تمت مناقشته طويلا من جانب رجال القانون الكنسى ونقاد سلطة البابوية المطلقة : فقد تم عقد مجمع كنسى عام لإنهاء الانشقاق وإصلاح الكنيسة . وقد أنهى مجمع كونستانس Gonstance ( ١٤١٤ - ١٤١٨م ) الإنشقاق ، ولكنه اخفق فى محاولة إصلاح الكنيسة؛ فما كاد المجمع يختار نائبًا واحداً للمسيح حتى أعاد هذا البابا تأكيد السلطة البابوية المطلقة . ذلك أن الإمبراطور الألمانى دعا إلى مجمع كونى آخر تحت ضغط التوفيقيين ، ولكن البابا طوقه فى سهولة ، وكسب مساندة الملوك ضد الحركة التوفيقية لقاء اتفاقات تعترف بالشخصية الوطنية للكنائس الخاضعة لهم . وفى منتصف القرن الخامس عشر سقطت البابوية بعد عودتها إلى روما ، مرة أخرى ، فى براثن الأرستقراطية الرومانية التى حولت صاحب مفاتيح السموات إلى طاغية إيطالى من طغاة عصر النهضة . ولم كن أسوأ من غيره من هذا الصنف ، كما أنه لم يكن أفضل منهم . .

هذه الفضائح والإخفاقات التى حاقت بالقيادة الكنسية أوجدت متنفسا لموجة جارفة من موجات العداء لرجال الكنيسة سرعان ماتحولت فى سهولة إلى حركة لمعاداة سلطة الكنيسة كما حدث فى القرن الثامن عشر . ولكن الهرطقة لم تعد تعتمد على المبشرين الفقراء الجوالين فى تحديد مذاهبها وتعريفها ؛ ففى ذلك الحين كانت الهرطقة تجد أقدر من يتحدث باسمها من بين أفضل المفكرين فى الجامعات . وتفكك عالم الفكر فى العصور الوسطى ، الذى كان كتاب وليم الأوكامى هو بدايته ، سار شوطًا أبعد على يد من خلفوه . والفلسفة الأوكامية تكشف عن التاريخ الفكرى فى العصور الوسطى المتأخرة ، ولاسيما فى انجلترا وفرنسا . ولاينبغى أن نندهش حين نكتشف أن مارتن لوثر ، الذى لم يكن راهبا بسيطا كما يعتبره البعض ، قد أعلن أنه أوكامى . إذ أن التراث الفكرى لهذا الراهب الفرنسسكانى الكبير يعتمد كثيراً على ثقافة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ويصل إلى اتجاهات كثيرة : مثل تدمير الفلسفة ، ووضع العلم على بداية طريق الانطلاق ، والإلهام المستمد من التصوف والهرطقة .

والخاصية العقيمة لمدرسية القرن الخامس عشر كانت فى الأساس نتاجًا لمذاهب أوكام . إذ أن إصراره على أن المنطق هو الشكل الوحيد الصالح فى الفلسفة ، وأنه ليست للميتافيزيقا واللاهوت العقلى أية صلاحية ، كان هو السبب فى أن خلفاء « الإصطلاحيين » ، أو الاسميين، كرسوا أنفسهم تماما للسلطة الغامضة المبهمة على حين لم يمسوا المشكلات التى كانت تثير خيال الأذكياء وتسترعى انتباههم ، إلا مسًا هَيْنًا ، ولاغرو فى أن المدرسيين كانوا

محط احتقار الإنسانيين الذين تحولوا عن الجدل صوب أعمال أفلاطون ذات الطابع الأدبى لتكون لهم نبراسا يرشدهم ويهديهم .

ومع ذلك ، فإنه بينما كانت استهانة الإنسانيين بالمدرسيين ، كحمقى تافهين ، استهانة مبررة إلى حد كبير ، فإن هجومهم على رجال المدارس ( الجامعات ) كان يشبه فى أحد جوانبه عجز الرجل العادى عن فهم رجل العلم وإدراك قيمة استدلاله المنطقى الذى يبدو للرجل العادى أمراً غير عملى . فإن أوكام لم ينته إلى تقوقع كامل ؛ وإنما كان يعتقد أن هناك أنواعا بعينها من المعرفة الإنسانية يمكن التوصل إليها . وقد استبعد الميتافيزيقا ، ولكنه أرسى الأسس المعرفية للعلم الحديث الذى كان سلفاه الفرنسسكان جروستست وروجر بيكون يعملان فى اتجاهه . وخلص أوكام إلى أنه بينما العلاقة بين الأشياء الفردية نتاج عقلى ، فإن الأشياء الفردية نفسها موجودة بالفعل ويمكن معرفتها . ومن خلال معلومات حسية بسيطة يمكن للعقل البشرى أن يتعلم إدراك هذه الأشياء الفردية الثابتة فى الطبيعة ، وهو الأمر الذى جعل العالم الفكرى لكل من جاليليو ، وكوبر نيكوس ، ونيوتن ممكنا . وقد اقترح عالم أوكسفورد الفرنسسكانى نفسه ( أوكام ) قانون القصور الذاتى ، على الرغم من أنه لم يكن هناك من معاصريه من يفهم مايقوله سوى مجموعة صغيرة فى كلية ميرتون Merton College فى أوكسفورد . وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر كانت المدرسة الأوكامية الباريسية ، التى سار أفرادها على خطى معلمهم فى رفضه للميتافيزيقا ، والاهتمام بملاحظة الأشياء وتحليلها ، حتى تقدموا إلى بدايات الميكانيكا ، والفيزياء ، والهندسة التحليلية الحديثة . فقد اقترح نيقولاس لورسمى Nicholas of Oresme[٢] ، الذى كان أبرز أعضاء هذه المدرسة دون شك ، مبدأ الدوران اليومى للأرض قبل كوبرنيكوس ، كما اكتشف قانون الأجسام الساقطة قبل جاليليو .

---

٢ - هو فيلسوف واقتصادى فرنسى ( ١٣٢٠ - ١٣٨٢ ) . بعد أن أتم دراسته فى باريس شغل عدة مناصب كنسية ، كان آخرها منصب أسقف ليزييه Lisieux (١٣٧٧) . كما كان مستشارا للملك شارل الخامس . ومؤلفاته التى كتبها باللاتينية والفرنسية تتناول السياسة والاقتصاد والعلوم الطبيعية . وأشهر مؤلفاته مقالته عن العملة De L'origin , nature, et mutation des monnayes وقد كتب أيضا باللاتينية De Montete ، وكان له تأثير كبير على النظريات الاقتصادية فى العصور الوسطى وكتابه عن السماء والعالم Livre du Ciel et du Monde عن حركات الكواكب توصل إلى بعض النظريات التى توصل إليها كوبرنيكوس فيما بعد . ( المترجم ) .

وهكذا كـان تلامـيـذ أوكـام يمتلكون كل الوسـائل الفكرية التى تمكنهم من تحقـيق انطلاقـة علمية عظيمة مثلما حدث فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . فلماذا لم يمضوا قدما فى عملهم ؟ لماذا أضمحلت هذه الدراسات العلمية على هذا النحو الكلى فى القرن الخامس عشر لدرجة أن اكتشاف أعمال نيكولاس الأورسمى وزملائه استغرق جهداً جهيداً من العلماء والباحثين ؟ تكمن الإجابات على هذه الأسئلة فى الخلفية الاجتماعية التى كان أولئك العلماء يعملون فى إطارها ، فلم يكن هناك أحد فى القرن الخامس عشر ، ولا حتى بين العلماء المدرسيين ، يدرك القيمة التطبيقية والفائدة الاجتماعية لقانون الأجسام الساقطة . والرجال الذين واصلوا هذه الدراسات الجديدة كانوا يفعلون هذا فى ظل معرفتهم بطبيعة عصرهم ، ولم يكن هناك أى تشجيع اجتماعى لهم . فلم تكن هناك كراسى خاصة بالعلوم فى الجامعات ، وإنما كانت توجد كراسى عديدة للاهوت والمنطق ؛ وكان من الأربح للعالم أن يشتغل فى مجال اللاهوت والمنطق بدلاً من أن يشتغل بالبحث العلمى الذى لم يكن يحظى بتقدير أحد ؛ اللهم إلا دائرة ضيقة جداً من العلماء وكان التغير فى التكنولوجيا العسكرية فى القرن السادس عشر هو الذى جعل من الميكانيكا علما ذا فائدة اجتماعية ، كما شجع على إحياء البحث العلمى . فقد كان استخدام بارود البنادق قد بدأ لتوه فى القرن الرابع عشر ، وكان الأوربيون مايزالون غير ماهرين ومبتدئين فى استخدامه . وبحلول القرن السادس عشر كانت الجيوش قد صارت ماهرة تماما فى إطلاق قذائف المدافع . لأن صياغة معادلة للقذائف الساقطة كانت مساهمة يدرك الناس مدى فائدتها التطبيقية .

والعامل الثانى فى إحباط الحركة العلمية الكبرى فى القرن الرابع عشر هو قصور المعلومات الرياضية ، لاسيما فى علم الجبر . فقد كان مفكرو العصور الوسطى المتأخرين يعرفون أن العلوم الطبيعية تتطلب التحديد الكمى للظاهرة الطبيعية ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق هذا الهدف سوى بشكل جزئى . ويتمثل السبب الإضافى فى إجهاض الإنطلاقة العلمية فى القرن الخامس عشر فى عداء الإنسانيين للمدرسيين ورفضهم النظر إلى ماتحت السطح لكشف ماهو قيم فى أعمال ألمع رجال المدارس . وكثيرون من الإنسانيين فى إيطاليا تلقوا تعليما جامعيا بالفعل ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن الأعمال التى تمت فى باريس وأوكسفورد على الرغم من قيمتها العالية . وكان بين الإنسانيين عند نهاية القرن الخامس عشر عدد من أبرز مفكرى أوربا وعلمائها ؛ ولكن عدم تعاطفهم مع الفكر الأكاديمى كان من

العوامل المساعدة فى إخفاق الثقافة الأوربية فى تحقيق الإنطلاق فى العلم حتى عندما كان أوكام وتلاميذه يمتلكون رؤية جيدة لهذا البعد الفكرى الجديد ، وهو البعد الذى قيض له أن يميز الحضارة الأوربية تماما عن غيرها من الحضارات .

ومما يكشف عن تزايد التدين فى أوربا أواخر العصور الوسطى أن المجتمع لم يستمد من الأكاومية فهمها لإمكانية قياس الخصائص الكمية فى الطبيعة ، وإنما استمد منها التشجيع على الاتجاه صوب الفردية الدينية . إذ كان أوكام قد بدأ بفرض يتعارض مع فروض ابن رشد الفلسفية تماما ، ولكنه فى الحقيقة توصل إلى ذات النتيجة : وهى أن العقل لايمكنه أن يرقى إلى الجلالة الإلهية ، ولايمكنه أن يقول شيئًا أكيداً فى المسائل اللاهوتية . وكان للأثر الناتج عن رفض الأوكامية للعقل كطريق لفهم الألوهية أن يؤكد التجربة الصوفية الفردية باعتبارها ركيزة للحقائق المستقاة من خلال الدين . وكتاب توماس آكمبيس Thomas á Kempis «تقليد المسيح » بما فيه من نزعة غيبية ومعاداة للعقل ، كان متوافقا مع تعاليم أوكام . كذلك فإن كتاب « التعاليم الجاهلة » الذى ألفه نيكولاس كوسا Nicholas of Cusa كان نتيجة حتمية للفلسفة الإسمية nominalism . فقد قال نيكولاس إن الموقف الصحيح للإنسان من الله هو موقف التقوى والخضوع ؛ وعلينا أن نقبع فى الظلام وننتظر صابرين فى انتظار « رؤية الرب » . كذلك انتشر الأدب الصوفى على نطاق واسع فى شتى أرجاء أوربا فى العصور الوسطى المتأخرة . ولايبدو أنه كن من قبيل المصادفة أن هذه المذاهب المتعلقة بالتجربة الروحية الفردية شاعت خصوصا فى انجلترا وألمانيا ، حيث لقيت الأوكامية أيضا أكبر قدر من التأييد . فقد كانت الأوكامية والصوفية متقاربتين إلى حد كبير .

كان المتصوفة فى أواخر العصور الوسطى موالين للكنيسة ورجالها بشكل عام ، ولكنهم ، كما حدث فى القرن الثانى عشر ، تجرأوا على انتقاد الأكليروس بسبب التأكيد الشديد على العلاقة بين الله والإنسان، وسرعان ماتجاسر بعض الأتقياء على إنكار صلاحية السلطة الكنسية . وكان أوكام نفسه قد زعم أن البابا ، والمجمع المسكونى ، يمكن أن يخطئ . ويبدو أنه قد استنتج أن المصدر الثابت للحقيقة هو الكتاب المقدس . وكان هذا الرأى يتضمن المدلول الثورى القائل بأن السلطة الدينية ينبغى أن تكون داخل الضمير الفردى لكل إنسان . وقد صار مذهب سلطة الكتاب المقدس أكثر أهمية بفضل زعيم هراطقة القرن الرابع عشر ، وهو جون ويكلف John Wycliffe ( ١٣٢٠ - ١٣٨٤ ) الذى كان أستاذاً بارزاً من أساتذة

اللاهوت فى أوكسفورد . وكان ويكلف شخصا ممرورا ، تعيسا ، عصابيا ، ولكنه كان رجلا ذا تعليم راق ومهارة لاتبارى . لم يكن أوكاميا ، ولكنه كان أفلاطونيا ؛ ومما يشى باستمرار انفصام عالم الفكر فى العصور الوسطى المتأخرة أن هذا المفكر الهرطقى العظيم الذى ظهر فى أخريات القرن الرابع عشر كان واقعيا . ويبدو أنه اقتنع بالكتاب المقدس كانبثاق عن العقل وإنعكاس للشكل الروحى ، باعتباره سلطة لاتقبل المناقشة . ومن هنا مضى فى تأليف موسوعة ضمت المذاهب الهرطقية التى ظهرت على مدى القرنين السابقين ، وجمعت مابين تعاليم بطرس الوالدوانى ، ويواقيم الفلورى ، ومارسيليو البادوانى . وأنكر سلطة القساوسة ، وعملية تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، كما هاجم البابا على أنه المسيح الدجال ، ودعا إلى خلق كنيسة روحانية خالصة وذلك بإعطاء الأراضى الكنسية للعلمانيين . وكان طبيعيا أن يكون هذا المبدأ الأخير من بواعث سرور الحكومة الإنجليزية والنبلاء ، ولم تستطع الكنيسة أن تضطهده . ولكن ويكلف فعل ماهو أكثر من مجرد نشر مكتبة صغيرة من اللاهوت الهرطقى ؛ فقد ترجم الكتاب المقدس للإنجليزية ، وألهم المبشرين الجوالين الذين عرفوا باسم اللولارد Lollards[٣] ، وشجعهم بشخصه على السفر والترحال فى كل مكان لنشر مذاهبه . وفى ثمانينيات القرن الرابع عشر كانت انجلترا ، التي خلت تماما من الهرطقة فى القرن السابق بحيث لم تعقد بها أية محكمة من محاكم التفتيش ، قد صارت مركزاً لأقوى حركة هرطقية فى أوربا .

وليس هناك شئ ، فى كتابات مارتن لوثر ، أو أى من المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر ، لايمكن أن نجده فى القرن الرابع عشر . ليس السؤال هو لماذا حدثت ثورة البروتستانت والإنشقاق فى القرن السادس عشر ، وإنما السؤال هو لماذا لم يحدث هذا قبل مائة أو مائة وخمسين سنة ؟ وربما يكون هذا هو أهم سؤال يمكن طرحه فيما يتعلق بالعصور الوسطى

---

٣ - أطلق هذا الاسم فى القرن الرابع عشر على أتباع ويكلف ، ثم امتد ليشمل نقاد المؤسسة الكنسية ، قد برزت جماعة أوكسفورد من مثقفى جامعة أوكسفورد ، ونظمهم نيكولاس هيرفورد أحد أتباع ويكلف . وكانوا يبشرون بتعاليمه وجذبوا إليهم أتباعا كثيرين من شتى أنحاء إنجلترا . قد أدين اللولارد بعد إخماد ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ ، لأن الطبقات العليا اعتبروهم من دعاة الثورة . وعلى الرغم من أن الكنيسة بدأت تضطرهم منذ سنة ١٣٨٢ فصاعداً ، فإنهم اكتسبوا شعبية بين البورجوازيين وأهالى الكوميونات . وفقدوا نفوذهم بعد تمرد قاموا به بقيادة جون أولد كاسل فى سنة ١٤١٤ م عندما أخمد هنرى الخامس عصيانهم بقسوة - انظر :

K.B. McFarlane , John Wycilffe and Beginning of the English Nonconformity "1953" .

(المترجم )

المتأخرة . ويمكن أن نقدم خمسة أسباب لفشل الحركة الهرطقية فى القرن الرابع عشر فى أحداث الإنشقاق فى العالم المسيحى . أولا لم يكن القرن الرابع عشر يعرف آلة الطباعة ، التى لم تستخدم حتى سنة ١٥٠٠م . وكان من الصعب تماما على المنظرين الهراطقة أن ينشروا مذاهبهم . ففى مطلع القرن السادس عشر انتشرت الأفكار نفسها انتشار النار فى أرجاء أوربا . فقد حملت مذاهب ويكلف إلى بوهيميا ، نتيجة لإحدى زيجات التحالف وماترتب عليها من علاقات بين انجلترا وهذه البلاد النائية ، ولكنه لم يكسب أى أتباع فى فرنسا وألمانيا . وثانيا إن الإنكماش الطويل الذى حدث فى العصور الوسطى المتأخرة ، أنتج مشاعر السخط ، وسلب من الناس طاقتهم ، وجعلهم فى حال من اللامبالاة بحيث لايتورطون فى صراع كبير ضد السلطة الكنسية . وثالثا ، هناك حقيقة تناقضية مؤداها أن البابوية كانت فى حال من الضعف فى القرن الرابع عشر بحيث لم تبذل سوى جهد قليل لغاية فى ضرب الحركات الهرطقية ، وإذ لم تستخدم البابوية القوة ضد الهرطقة الجديدة فإنها تركتها تستهلك نفسها بنفسها .

ولاشك فى أن السببين الأخيرين هما أكثر الأسباب أهمية . ذلك أن الطبقات الثرية فى أوربا كانت تخشى المدلولات الاجتماعية الواضحة فى الهرطقة . وبدا أنها سوف تثير التمرد الاجتماعى ، وكان هذا هو سبب تحول أبناء هذه الطبقات ضد الحركات الهرطقية حوالى سنة ١٤٠٠ . لقد كان القرن الرابع عشر هو عصر الثورات الاجتماعية الأولى فى أوربا . إذ كانت البروليتاريا الصناعية ، التى تكاثرت بفضل صناعة النسيج فى الفلاندرز وفلورنسا ، مشتبكة فى صراعات مريرة وفاشلة ضد الأوليجاركيين الذين يتسيدون الحياة فى المدن . بل إن الفلاح، الذى كان وضعه الاقتصادى قد تحسن فى مناطق كثيرة من أوربا بسبب نقص العمالة ، قد رفع رأسه للمرة الأولى . وحيثما كان فلاح ذلك الزمان الطيع الصامت يشعر بأن أحداً قد أساء إليه ، أو أن الحرية الجديدة التى أخذ ينعم بها تتعرض لعدوان أصحاب الأراضى اليائسين ، فإنه كان يلجأ إلى العصيان الوحشى - مثل ثورة الفلاحين Jaquerie[٤] فـــى

---

٤ - إندلعت هذه الثورة سنة ١٣٥٨ فى شمال فرنسا نتيجة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى فرضها النبلاء على الفلاحين عقب الوباء الأسود . وارتبط هذا التمرد أيضا بالصعوبات التى عانت منها فرنسا فى أعقاب هزيمتها فى بواتييه سنة ١٣٦ ، وقد إتسمت بالعنف الشديد وحاول المتمردون مهاجمة باريس بزعامة وليم كال Guillaume Cale على أمل الانضمام لثورة البورجوازيين بزعامة مارسيل Marcel Etien ولم تنجح حركة الجاكرى هذه سوى فى توحيد النبلاء والبورجوازيين ضدها بحيث تم سحق التمرد فى=

فرنسا وتمرد الفلاحين فى إنجلترا . ولاشك فى أن تمرد الفلاحين فى انجلترا قد لقى تشجيعا من المبشرين الجوالين الهراطقة ، وربما يكون قد تم تحت زعامتهم ، وأدى هذا إلى تحول الحكومة الإنجليزية والنبلاء ضد أتباع ويكلف . كذلك فإن أسلاف البروتستانت فى بوهيميا حولوا مذاهبهم إلى ديانة وطنية ، ورفعوا السلاح ، وأخافوا ألمانيا . وحتى بعد إحراق الزعيم الهرطقى جون هس John Huss ، بناء على أوامر مجمع كونستانس ، ظل تلاميذه وأتباعه يضايقون مناطق جنوب ألمانيا . وماحدث آنذاك هو أن الحركات الهرطقية ألهبت مشاعر السخط الاجتماعى والكراهية الوطنية ، كما قدر لها أن تفعل فى القرن السادس عشر . ولكن لم يكن هناك لوثر فى أواخر العصور الوسطى لكى يوقف مد رد الفعل بحيث يفصل الراديكالية الدينية عن التطرف الاجتماعى والسياسى ، ولم تكن مذاهب معاداة سلطة الكنيسة قد اختفت تماما فى القرن الخامس عشر ، ولكنها أدينت بسبب الأحداث المرعبة مثل ثورة الفلاحين والحروب الهسية ، وبذلك نزلت تحت الأرض لتختفى لمدة قرن آخر من الزمان .

والسبب الأخير فى عدم حدوث الإصلاح الدينى فى القرن الرابع عشر أو فى بداية القرن الخامس عشر ، هو أن الحكومات الملكية كانت مشغولة ومتورطة فى مشكلات أخرى بحيث فشلت فى إنتهاز فرصة الموقف الدينى كما فعل كثيرون من ملوك القرن السادس عشر . ففى العقود الأولى من القرن الرابع عشر بدا وكأن قدر الملكية الوطنية فى كل من فرنسا وإنجلترا أن تستمر فى زيادة سلطانها ، ولكن السنوات المائة والخمسين التالية تحولت إلى فترة حافلة بالمصائب للحكومة الملكية فى كل من البلدين . وكان على أوربا أن تنتظر حتى أخريات القرن الخامس عشر حتى تستطيع الدولة الإقليمية الحاكمة أن تضمن زعامتها فى المجتمع الأوربى . وفى الفترة الحاسمة سنحت للأرستقراطية فرصتها الأخيرة لكى تتحكم فى حكومتى دولتين مركزيتين ؛ ولكن كبار السادة الإقطاعيين لم يظهروا من جراء سيادتهم وتحكمهم فى الحياة السياسية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر سوى دلائل الطمع والكسل . وكانت النتيجة فوضى اجتماعية لم تعرفها أوربا منذ القرن العاشر .

---

= بقسوة الفة . والجدير بالذكر أن مصطلح Jaquerie مستمد من مصطلح Jacque الذى كان اسما عاما يطلق على الفلاحين – انظر .

G. Duby and A . Mandrou , History of French Civilization, (1963) .

( المترجم )

وهناك قدر كبير من اللوم يقع على الملكية في كل من فرنسا وإنجلترا بسبب الظروف الخطرة التي وجدتا نفسيهما في غمارها سنة ١٤٠٠ م . فقد استنفدتا مواردهما المالية والمعنوية ، وارتكبتا كل خطأ كان من الممكن أن يفتح الباب لصعود الأرستقراطية من جديد . إذ كان إدوارد الأول وفيليب الجميل قد اندفعا إلى مدى بعيد ، ومن ثم كان كل منهما يتصرف بطريقة طائشة ، لاسيما في مجال الحكومة الفرنسية ، مما كان له أوخم العواقب على خلفائهما . فالملكية التي كانت محبوبة للغاية في القرن الثالث عشر كانت تواجه الإفلاس الأخلاقي عند نهاية حكم إدوارد الأول وفيليب الجميل . وكان من الواضح أن الإدارات الملكية قد إهتبلت الفرصة لنفسها . وهكذا ، فإذا كان الملوك قد ألفوا أنفسهم في موقف صعب ، فلماذا لاينتهز الجميع الفرصة ليأخذ كل لنفسه أكثر ما يمكنه ؟ وكان إدوارد الثاني ابن إدوارد الأول ، جنديا فاشلا ، كما كان مصابا بالشذوذ الجنسي ؛ وبذلك تم إجباره على التنازل عن العرش ثم اغتالته مجموعة من السادة الإقطاعيين المتآمرين مع الملكية الفرنسية . وقد إنتهى خط أسرة كابيه نهائيا في سنة ١٣٢٨ ؛ وكان أبناء عمومتهم من أسرة فالوا Valois ضعفاء مرتبكين . وفي ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، كان ملك انجلترا إدوارد الثالث ، وملك فرنسا فيليب السادس يخوضان حربا حمقاء نزقة سعيا وراء المجد في ساحة القتال متجاهلين المشكلات التي سوف تنجم عن تجدد الصراع . وأدى هذا إلى المزيد من استنزاف الخزانة الملكية وتعريض الإدارة الملكية لمخاطر العصيان الأرستقراطي . فضلا عن أنه كان من المحتمل أن يزيد من أهمية السادة الاقطاعيين في البلاد .

وخلال السلام الطويل الذي ساد في القرن الثالث عشر ، كانت وظائف النبلاء العسكرية قد تقلصت ؛ ولكنهم في أتون الحرب اللانهائية التي نشبت آنذاك صاروا هم القادة الذين لاغنى للمجتمع عنهم . فقد عهد الملوك للسادة الإقطاعيين بتكوين الجيوش ؛ وصارت هذه الفيالق هامة للأرستقراطيين في الوطن بقدر أهميتها في ميدان القتال . ذلك أن امتلاك جيوش خاصة أتاح لكبار السادة الإقطاعيين أن يجابهوا الجميع ، وأن يتدخلوا في الشئون الملكية . لقد كان نظاما عسكريا مدمراً ذلك الذين أعاد أسوأ الأيام الإقطاعية القديمة ؛ وقد أطلق عليه بحق «الإقطاع ابن الزنا » .

وكان الأرستقراطيون من جانبهم غاية في الجذل والسرور بزعامتهم المتجددة للمجتمع ؛ فقد وجدوا أنفسهم مساقين إلى الحائط بسبب تدهور الاقتصاد الريفي ، وكان ملاذهم الوحيد هو تجريد حملات للنهب والتدخل في الشئون الملكية . وفي القرن الرابع عشر وأوائل القرن

الخامس عشر لاحت للأرستقراطية الإنجليزية والفرنسية فرصة ممتازة للمشاركة فى الشئون السياسية ، ومساومة المرشحين للعرش ، كما أن السادة الإقطاعيين الفرنسيين تآمروا مع الغزاة الإنجليز . وانتهجت كل من الحكومة الإنجليزية والحكومة الفرنسية سياسة إنتحارية حين سمحت بتكوين الممتلكات الشاسعة للأمراء داخل كل من المملكتين . ففى كل من البلدين حصل الأمراء على هذه الامتيازات ، ثم أخذوا يحاربون بعضهم بعضًا فى سبيل الفوز بالعرش. وكان هذا النظام الذى يمنح الاقطاعات لأبناء الملك الصغار ويؤكد ملكيتهم لها وهو نظام الأباناج appanage ، نظاما خاصا بفرنسا ؛ كذلك عانت إنجلترا من الممتلكات والضياع الأرستقراطية الكبيرة فى مناطق الحدود .

وعندما بدأ إدوارد الثالث حرب المائة عام فى أواخر ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، كانت هذه العوامل قد بدأت تفعل فعلها . وفى غضون نصف قرن كانت الفوضى السياسية والاجتماعية قد أنشبت مخالبها فى فرنسا وإنجلترا . وقد أحرز الإنجليز إنتصارات باهرة على الفرنسيين ، بسبب استخدامهم المتطورة لرماة السهام من ناحية ، ولكن الحكومة ، من ناحية أخرى ، لم تكن تستطيع أن تستمتع بفتوحاتها فى القارة . إذ أنها كانت مشغولة بتمرد الأرستقراطيين وحروب الأمراء داخل الوطن . فقد جلبت الجيوش التى استخدمها السادة الإقطاعيون فى ضرب الفرنسيين إلى أرض الوطن لكى تخوض المعارك فى سبيل طموحات الأمراء وتنافسهم على العرش . أما البرلمان ، الذى استخدمه إدوارد الأول كأداة فى خدمة السلطة الملكية ، فقد تحول إلى أداة بيد الفريق الأرستقراطى . وفى خمسينيات القرن الخامس عشر بلغت هذه الحروب ذروتها فيما عرف باسم « حروب الوردتين » ، وهى حرب أهلية بكل معنى الكلمة نشبت فيما بين الأرستقراطيين فى سبيل السيطرة على العرش الإنجليزى والحكومة الملكية . ولفترة من الوقت كانت فرنسا أسوأ حالا . ذلك أن أحد فروع الأسرة المالكة رمى بثقله مع الغزاة ، وأخذت الجيوش الفرنسية تعانى من هزيمة تلو الأخرى ، ولم ينقذ تاج فالوا ، الأسرة الخائبة المرتبكة ، سوى متاعب المملكة الإنجليزية الداخلية . لقد أتاحت هذه المشاجرات الإنجليزية الفرصة للصحوة الفرنسية التى بدأت فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر ، وبعد قرن من النهب الذى ارتكبه الإنجليز ، إتفق الفرنسيون أخيراً على أمر واحد ؛ هو أنه يجب طرد الإنجليز . ووجد الفرنسيون زعامتهم فى فتاة ريفية هستيرية اسمها جان دارك . وأخيراً اغتنم لويس الثامن ، بحركته البطيئة ، فرصة هذا الشعور الوطنى لطرد الإنجليز المنقسمين على أنفسهم وأعاد بناء السلطة الملكية .

لقد طرحت حلول كثيرة للمشكلات السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية التى عانت منها أوربا فى أواخر العصور الوسطى . إذ وجد الكثيرون راحتهم فى التجربة الدينية العميقة ، والعلاقة الشخصية مع الله . وقد طرح الإنسانيون الإيطاليون رأيا متفائلا عن قوى الذكاء الإنسانى النقدية والإبداعية ، كما زرعوا التراث الكلاسيكى والأفلاطونية المسيحية كموارد وينابيع للمستويات الأخلاقية التى يمكن أن تعيد الإستقرار إلى الحياة الأوربية . وفى أواخر القرن الخامس عشر ، اكتسبت هذه الإنسانية المسيحية ، كما قدمها العالم الهولندى ارازموس Erasmus ، أتباعها من أفضل مفكرى شمال أوربا . ولكن الجانب الآخر من برنامج الإنسانيين هو الذى لم يلبث أن تحقق على أكمل صورة فى الحياة الأوربية . فقد كان الإنسانيون الإيطاليون وطنيين غيورين متحمسين لمدنهم ، وقادتهم وطنيتهم إلى الترويج لمذهب raison d'état الذى أقره ميكافيللى بشكل محدود فى مطلع القرن السادس عشر .

كانت الدولة السيادية التى لاتعترف سوى بمنطقها هى التى اتجهت نحوها شعوب أوربا المرهقة الواهية فى نهاية القرن الخامس عشر . فقد أسس إدوارد الرابع وهنرى السابع فى إنجلترا ولويس الحادى عشر فى فلورنسا مايعرف باسم « الملكيات الجديدة » التى كانت فى حقيقة أمرها عوداً إلى حكومات إدوارد الأول وفيليب الرابع ، ولكن مع مزيد من الاهتمام بالواجهة الأخلاقية وتأكيد أكثر على المشاعر الوطنية . وبعد قرنين من الفوضى بدا أن الحل الوحيد هو إعادة زعامة الدولة . وقد هلل الإنسانيون لمجد الملكية التى أعيد إحياؤها ، والتى ستحفظ المستويات الأخلاقية وترعى الفنون . وبالنسبة للعلماء الذين تأثروا بالتراث الكلاسيكى إلى حد كبير ، بدت السلطة المطلقة هى الشكل الوحيد للحكومة التى يمكنها الحفاظ على النظام الاجتماعى والصالح العام . وبالنسبة لكثيرين ممن وقعوا تحت تأثير الأشكال المختلفة للفردية الدينية ، كانت الدولة السيادية محل ترحيب لأن الملك يستطيع أن يقف عقبة كأداة فى مواجهة السلطة الكنسية ، أو مايكون قد تبقى منها .

وفى سنة ١٥٠٠ م كانت جميع البلدان الأوربية فى حاجة ملحة إلى السلام الداخلى . فبإنتهاء الإنكماش الكبير الذى عرفته العصور الوسطى المتأخرة ، وما نتج عن ذلك من زيادة فى السكان ، صار الإزدهار ممكنا فى المدينة والريف على السواء بشرط إعادة القانون والنظام وبدا أن الملكية هى المبدأ الوحيد للنظام ، ومن ثم تفشت موجة جديدة من الحماسة لحقوق الملكية . قد عمل ملوك أواخر القرن الخامس عشر فى كل مكان على نفس النموذج الأساسى

للحكومة ، بلاط صغير وبيروقراطية ملكية صغيرة تنشر السلام بين الأرستقراطيين ، أو ، عندما تفشل هذه السياسة ، تقاتل كبار الإقطاعيين لمصلحة الكل الوطنى .

كان مؤرخو لقرن التاسع عشر يظنون أن ظهور « الملكيات الجديدة » قد تم بتأثير تحالف كبير بين الملك والبورجوازية ، وهو رأى لايصمد أمام الفحص الدقيق . ففى إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، حيث انتعشت الملكية كان المجتمع محكوما بالملكية الزراعية . وكانت أموال البورجوازيين تفيد الملك فى تكوين جيوش المرتزقة ، ولكن أهمية التجار والصيارفة فى الحياة السياسية كانت ضئيلة بالفعل . فقد كان الصراع بين البلاط الملكي ، والمجلس ، والبيروقراطية من جهة ، والأرستقراطية من جهة أخرى . وكانت كافة طوائف المجتمع الأخرى - أى الغالبية العظمى من الشعب - تظل خارج الوطن السياسى . لقد هللوا للملك لأن إعادة السلطة الملكية كان يعنى ضمانا للسلام والنظام ، ولكنهم لم يكن لديهم سوى القليل من الكلام حول مسار التغير السياسى .

كانت علاقة الملك بالأرستقراطية علاقة مبهمة . فقد كان يشاركهم رؤيتهم وأسلوب حياتهم، وإذا كانوا راضين عن مراكزهم فى البلاط والحكومة كان يتوق إلى التعاون معهم ويعطيهم مكانهم المعتاد على قمة المجتمع . وفقط عندما يهدر كبار الإقطاعيين القانون والضرائب الملكية ، لاسيما حين يظهر كبار النبلاء طموحا لإعتلاء العرش ، كان الملك يوجه جيوشه من المرتزقة ضد قلاع وحصون عائلات كبار ملاك الأراضى . فالبناء السياسى والاجتماعى لممالك الشمال ، باستثناء انجلترا ، لم يتغير بشكل أساسى على مدي القرنين التاليين .

وعند نهاية القرن الخامس عشر كان هناك شعور واسع النطاق بأن النظام الاجتماعى يتطلب خضوع كافة الطبقات ، والطوائف ، والهيئات للسيادة المطلقة والقانون . وهكذا تم استئناف الإتجاه السياسى الذى عرف القرنان الثاني عشر والثالث عشر ، وتم تصعيده . ومع هذا فقد كانت هناك قيود عملية قاسية سنة ١٥٠٠ تحد من ممارسة السلطة الملكية ، بغض النظر عما يقوله المنظرون عن حق الملوك الإلهى . فقد كانت الإتصالات والمواصلات فى سنة ١٥٠٠ على ماكانت عليه سنة ١٣٠٠ تقريبا . إذ كانت شبكة المواصلات النامية مازالت تعنى أن الحكومة الملكية ، بصرف النظر عن أيديولوجيتها السلطوية ، لم تكن تستطيع أن تفعل سوى القليل جداً للتأثير على الحياة اليومية للغالبية العظمى من الشعب . فقد كان الملك يقدم العدالة القانونية فى ساحات القضاء ، ويجمع الضرائب ، ويقود الجيوش ضد أعداء الوطن . ولكن

أوربا سنة ١٥٠٠ كانت ماتزال بعيدة عن الدول المركزية الحاكمة العاملة للصالح العام ، والتى عرفها العالم الصناعى الحديث ، مثلما كان الأمر سنة ١٣٠٠ . لم يتم تقليم الاستقلال الذاتى للعائلات ، والطوائف ، والهيئات ، والجماعات المحلية سوى بقدر محدود جداً ، وكان خضوع الفرد للدولة مباشرة فى نطاق ضيق للغاية . إذ كانت هذه النظم الثانوية المباشرة هى المعول عليها فى حياة ٩٥٪ من الناس . ونادراً ماكان الناس فى حياتهم العادية يشعرون بهيبة الدولة ، بالصالح أو بالطالح . وبهذا المعنى كانت أوربا سنة ١٥٠٠ ماتزال مجتمعا ، ينتمى إلى العصور الوسطى أساسا ، ولم يحدث التحول الكبير فى النظام السياسى والاجتماعى سوى إبان الثورة الصناعية .

وفى المدن الإيطالية كانت الدولة بالضرورة قريبة من حياة الناس بسبب صغر حجم هذه الكيانات السياسية . ولكن هذا الموقف الخاص لم يكن ذا أهمية كبيرة بالنسبة لأوربا ككل . أما ماساهمت به إيطاليا فعلا فى الحضارة الأوربية سنة ١٥٠٠ ، فكان نوعا جديدا من الثقافة الدنيوية يمكن أن نسميها بالإنسانية . فقد كانت النهضة الإيطالية تطوراً هاما فى الحياة الأوربية لأنها أقامت النظام التعليمى وأسلوب الحياة الذى شاع فى أوساط الأرستقراطية والشريحة البورجوازية العليا فى جميع أنحاء أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . فلكى يكون المرء عضوا فى الصفوة يجب أن يعتمد على المكانة الاجتماعية الموروثة ، وليست الثروة أيا كانت وسيلة جمعها . إذ كان ينبغى للمرء أن يكون عارفا بالكلاسيكيات ، وأن يكون رفيع الأدب ، وصاحب ذوق رفيع فى الفن ، والموسيقى والملابس، كما يجب أن يستخدم أسلوبا مهذبا بليغا فى الحديث . وقد استعار البورجوازيون الإيطاليون هذه المثل والأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية فى القرن الثالث عشر ، وتشربوها كى يبرهنوا على جدارتهم بالإنتماء إلى صفوة الحضارة الأوربية . ولكنهم هذبوا الأسلوب الأرستقراطى القديم . وأثروه كثيراً ، لدرجة أن الأرستقراطية الشمالية فى أواخر القرن الخامس عشر كان عليها أن تتعلم كيف تعيش وتتفوق على الإنسانيين الإيطاليين .

ومن السهل تماما أن نذم هذه الثقافة الإنسانية باعتبارها أيديولوجية الطبقات العليا ، ولكن هذا التعريف يخطئ إدراك النهضة الإيطالية وامتدادها صوب الشمال فى أواخر القرن الخامس عشر . ففى المحل الأول ، كانت هذه الإنسانية هى الثقافة الوحيدة المقبولة ، والأسلوب الوحيد الذى كان واعيا بذاته ، والذى استمر بفضل النظام التعليمى . ولم يحدث

حتى الثورة الصناعية وتطور التعليم الجماهيرى أن تطورت ثقافة واعية بذاتها ومتداخلة فى الحضارة الأوربية مثلما حدث في ذلك الحين . وثانيا ، أنه على الرغم من أن الإنسانيين الإيطاليين والإنسانيين فى الشمال كانوا مسيحيين أتقياء ، فإن الأخلاقيات الإنسانية كانت دنيوية فى جوهرها : فقد كان الرجل يحقق الواجبات الدينية المسيحية ، ولكن كبرياءه ، وقيمته فى المجتمع لم تكن ترتبط كثيراً بالهيراركية الثيوقراطية . لقد كان معيار إنتساب المرء للصفوة هو الجانب العلمانى فيه - أى تعليمه ، وأسلوبه وسلوكياته ، وهى أمور لم تكن متاحة سوى للأغنياء بطبيعة الحال . لقد كان ظهور هذه الأخلاقيات الدنيوية مؤشراً على تدهور الزعامة البابوية وصعود السلطة الملكية ، ولكنه كان كذلك مؤشراً على نهاية حضارة العصور الوسطى وبزوغ فجر عصر جديد . وأخيراً يجب أن نؤكد على أن الأخلاقيات الإنسانية، على الرغم من أنها تختلف عن أخلاقيات كنيسة العصور الوسطى ، كانت نتاجا لحضارة العصور الوسطى نفسها ، كما أنها كانت فى التحليل الأخير نتاجا للنمو الفكرى والثورة الرومانسية فى القرون الثانى عشر .

وبينما كانت الثقافة الإنسانية تمثل أيديولوجية الطبقات الحاكمة سنة ١٥٠٠ ، فإنها كانت بالفعل مؤشراً على تقدم كبير فى تاريخ الغرب : إذ أنها أكدت على القيم الفردية ، وعلى غرس نزعة التفوق الفردية وتحقيق عقلية حساسة متطورة . وأحد الموضوعات الكبرى فى تاريخ القرن الماضى هو ما إذا كانت هذه النزعة الفردية والكبرياء الشخصى يمكن تلقينها للجماهير ، أو بعبارة أخرى ، ما إذا كان تهذيب العقل والأخلاق الإنسانية ، الذى جعلته النهضة الإيطالية وقفا على الأقلية الثرية ، يمكن أن يتحول إلى تراث عام للإنسانية .

٣ - أفكار ختامية فى تاريخ العصور الوسطى :

من الشائع أن ننهى مسح تاريخ أوربا فى العصور الوسطى بتقارير ثابتة عن « تراث العصور الوسطى » إذ يتجشم الكتاب عناء إبراز حقيقة أن كثيراً من المؤسسات والمواقف التى ظهرت فى أوربا العصور الوسطى ماتزال معنا إلى اليوم : فالكنيسة الكاثوليكية ، والحكومة النيابية ، والجامعة ، والنزعة الرومانسية ، والعلم التجريبى ، والمؤسسات الرأسمالية ، وغيرها مما نعتز به ، من نتاج العصور الوسطى . وإنها لحقيقة أن وجود العصور الوسطى معنا أكبر من وجود التراث القديم ، كما أن حياتنا فى النهاية محكومة فى كثير من الجوانب بتراث العصور الوسطى . ولكن ، من ناحية أخرى ، فإن هذه المؤسسات والمثل العليا التى يمكن أن نجد أصولها فى العصور الوسطى ، قد تغيرت بشكل ذكى منذ القرن الثالث عشر ، وعلينا أن

نعترف بالفروق الأساسية بين عالمنا وعالم توماس أكويناس وسان لويس . ويمكن أن نجمل هذا فى القول بأنه إذا استطعنا أن نرجع القهقرى إلي القرن الثالث عشر ، فإننا سوف نجد الناس فى العصور الوسطى يختلفون عنا بالفعل . ولسوف تروعنا الروائح الكريهة المنبعثة من أجسادهم ، وعاداتهم الشرهة فى الأكل ، وإفتقارهم للراحة البدنية ، وتدينهم المتعصب ، وإعتقادهم العميق فى الخرافات ، فضلا عن العنف والقسوة اللذين يسودان حياتهم اليومية. وبعبارة أخرى فإن حضارة العصور الوسطى كانت فى كثير من جوانبها حضارة مجتمع ماقبل التصنيع . وحضارة العصور الوسطى لم تحقق التطبيق الكامل للعلم على التكنولوجيا ، وهو ماجعل اقتصادنا الاستهلاكى ممكنا . وهنا يكمن أوضح الخطوط الفاصلة بين الناس فى العصور الوسطى وبيننا . ومع هذا ، فإننا أقرب إلى أهل العصور الوسطى منا إلى أية حضارة أخرى فى الماضى . إذ أننا نستطيع أن نشارك فى تجاربهم أكثر مما نستطيع أن نفعله بالنسبة لإنسان العصور القديمة أو الشعوب الشرقية . لقد كانت العصور الوسطى تجربة طويلة جداً وحاسمة فى تطور الحضارة الغربية ، ومن ثم فهى جديرة تماما بأن تكون موضوعا للدراسة . ذلك أن فهم الماضى الوسيط أمر لاغنى عنه لكى نتعرف على هويتنا .

وعلى أية حال ، فهناك سبب آخر لدراسة تاريخ العصور الوسطى : ذلكم هو الدرس الذى يمكن أن نتعلمه من دراسة المسار الكلى لحضارة العصور الوسطى . قد عبر الفيلسوف سانتيانا Santayana عن واحدة من أكثر الحقائق عمقا حين لاحظ أن أولئك الذين يجهلون الماضى يدينون أنفسهم بتكراره . فماذا فى تاريخ أوربا العصور الوسطى يمكن أن نتمثله ونترسم خطاه أو نتجنبه ؟ من حسن الحظ أننا نعرف عن حضارة العصور الوسطى أكثر مما نعرف عن أية حضارة أخرى ماتت ومضت : ونحن نستطيع ، بثقة فى الصفة الترجيحية لمعلوماتنا عن التغير التاريخى ، أن ندرس نموذج تطور أوربا فى العصور الوسطى وأن نتعلم من هذه الدراسة دروسا تلهمنا وتمنحنا الوعى . فتاريخ العصور الوسطى يعلمنا أن الإنجازات الهائلة بمتناول مجموعة صغيرة من الصفوة التى ترشدها المثل العليا والقادرة على تحقيق هذه المثل ، أمر ممكن . وأكثر ما يبعث على السرور فى هذه الدراسة يأتى من التأمل فى الشخصيات والأعمال التى أتاها أولئك الرجال العظماء الذين قادوا أوربا على مدى قرون عديدة -من قسطنطين ، إلى جريجورى السابع ، حتى سان لويس - أولئك الرجال الذين كانت لديهم الجرأة على تحقيق أشياء عظيمة لأنهم أخذوا الرب مأخذ الجد .

وفى تاريخ العصور الوسطى كذلك درس نتعلمه عن انهيار الحضارة ، وفى تجاهلنا لهذا الدرس خطر كبير على ثقافتنا وعلى مجتمعنا . فقد خلقت حضارة العصور الوسطى ، بعد صراع طال خمسة قرون على أساس توليفة معقدة وعقلانية بين الروح التى تمثلها الكنيسة والعالم الذى تمثله الملكية . وقد رأينا فى هذا الكتاب كيف أن إنهيار التوازن فى القرن الحادى عشر ، حدث حين استهان هذا التوازن بمبادئ بعض الرجال الغيورين الدينية والأخلاقية، ففشلت محاولتهم لإعادة بناء المجتمع وفقا لمثلهم التطهرية . وقد تمت صياغة توازن أقل كمالا فى القرن الثالث عشر وضع فى حسبانه نتائج الإبداعية فى التعليم والتدين والسلطة . ولكن هذا الوفاق الجديد كان قائما على توازن دقيق وحساس بين الأطراف بحيث لم يستمر طويلا . وكانت النتيجة إنهياراً عصبيا اجتماعيا ، وبدأ السعى إلى إشباع رغبات المستهترين المرعبين الذين انتهكوا مبادئ النظام فى العصور الوسطى .

وهكذا ، فإن دراسة التاريخ الوسيط تعلمنا أن الحضارة نتيجة للتداخل المركب بين الروح والسلطة ، بين الموارد الروحية والموارد المادية ؛ وأن هذا الوفاق الحساس يصعب الحفاظ عليه ، لأن الحفاظ يتطلب ذكاء ناضجا ، وإعتدالا عاقلا ، ويقظة مستمرة ؛ وأن أعداء الحضارة ، بغض النظر عن البدائيين الذين لايفهمون ، هم أولئك الغلاة غير المسئولين والهازئون العصابيون .

# دليل للقراءة فى التاريخ الوسيط

هذه محاولة للإشارة إلى أهم وأحدث الدراسات والبحوث التى تتناول الموضوعات الواردة فى كل فصل من فصول هذا الكتاب .

**الجزء الأول : المصير الرومانى .**

**الفصل الأول** : الاضمحلال والسقوط .

Bury, J.B. History of the later Roman Empire , New York ; Dover , 1957 .

وهو عبارة عن تاريخ سياسى شامل .

Gibbon Edward . The Decline and Fall of the Roman Empire, D.Saunders, ed . New York : Viking 1974 .

وهو مايزال يحمل طابعا قصصيا داخليا على الرغم من مضى مائتى سنة على تأليفه .

Rostovtzeff M.I. The Social and Economic History of the Roman Empire . London : Oxford University Press , 1957 .

وهو موضوع يتميز بالأصالة والعبقرية ويتناول الصراع فى العالم الرومانى . وهو كتاب مثير

**المصادر :**

Apuleius . The Golden Ass. R. Graves . trans . Nork : Farrar , Straus and Givaux , 1945 .

وهى عبارة عن رواية رومانية تكشف عن الاضطراب الكامن فى الإمبراطورية المتأخرة .

Casson , L. , ed . Selected Satires of Lucian . New York : Norton . 1968 .

يتناول فترة الإمبراطورية المتأخرة والحماسة الدينية فيها .

**الفصل الثانى : الإمبراطورية المسيحية والكنيسة المسيحية .**

Alfoldi , A. The conversion of Conastantine and Pagan Rome , London : Oxford University Press , 1948 .

يصور قنسطنطين فى صورة المسيحى المخلص ؛ وهو كتاب دينى الطابع ولكنه مثير للاهتمام .

Burckhardt,I. The Age of Constantine the Great. New York : Pantheon 1949.

يصور قنسطنطين فى صورة الانتهازى السياسى المخادع ؛ وهو من أهم مؤلفات القرن التاسع عشر ، يلقى إدانة مستمرة من الباحثين ولكن لايمكن تجاهله .

Jonas, H. Gnostic Religion . Boston : Beacon 1963.; Lietzmann , H. History of the Early Church . 4 vols . Cleveland : Publishing , 1961 .

كتاب ذو طابع محافظ يروى بالتفصيل قصة ظهور المسيحية .

MacMullen , R. Constantine . New York : Harper and Raw , 1971 .

Palanque, J.R. Saint Ambrose et l'empire romain . Paris : L. de Bocard, 1933 .

يصور القديس أمبروز كرجل من رجال الحكومة الكنسية .

Prestige , G.L. God in Patritic Thought , 2nd ed . Noperville , Ind : Allenson , 1952 .

Smalley , B. The Study of the Bible in the Middle Ages . Notre Dame , Lnd. : University of Notre Dame Press , 1952 .

Walson , H. The Philosophy of the Church Fathers 3rd ed . Cambridge Mass. : Harvard University Press , 1970 .

دراسة هامة جداً ، وذات تأثير هام .

المصادر :

Saint Augutine . The City of God . D.Knowles, ed . Baltimore : Penguin , 1972 .

من أهم كتب العصور الوسطى عمقا وتأثيراً .

Saint Augustine . Confessions . F.Sheed, trans . New York : Sheed and Wad . 1942 .

يتناول الحج النفسى والروحى للمعلم الأكبر للكنيسة الغربية موضحا الجوانب المذهلة فى هذه الشخصية .

**الجزء الثانى : تحول الحكومة والمجتمع الأوربى .**

**الفصل الرابع : عصر الغزوات الجرمانية .**

Bury ,.J.B. The Invasion of Europe by the Barbarians : New York : Norton 1967 .

وهو عبارة عن سرد ممتاز للتاريخ السياسى .

Chadwick , H.M. The Heroic Age , Cambridge : Cambridge University Press , 1926 .

مقارنة حاذقة بين العالم الجرمانى والعالم البطولى .

Courcelle , P.P. Histoire literaire des grands invasions germaneques . paris : Hockette , 1948 .

وهو بحث مقنع وأصيل فى الثقافة الجرمانية ؛ ودراسة لم يسبق لها مثيل .

Dopsch , A. The Economic and Social Foundations of Europe . New York : H.Eertig , 1969.

مناقشة مكثفة تحاول إثبات أن الغزوات الجرمانية لم تحدث سوى القليل من الضرر الاقتصادى والاجتماعى . وهو دراسة تاريخية ذات اتجاهات نازية .

Latouche , R. Les grands invasions et le cris d'occident au Viem Siécle . paris : Aubier , 1946 .

أحسن تاريخ كتب عن الكوارث التى نجمت عن الغزو والتفكك الاجتماعى ، وهو دراسة ذكية بشكل يثير الدهشة .

Lott, F. The end of the Ancient World and the Beginning of the Middle Age. New York : Harper and Row , 1974 .

أحد المؤلفات الكبرى حول هذه الفترة التى تميزها الفوضى ، كتب فى العقد الثانى من القرن العشرين ، وهو يعكس عصره ؛ ومن آثار عصر الجمهورية الفرنسية الثالثة .

Salin , E. Le civilisation merovingienne . 5 vols . paris : A. et J . Picard 1959 .

محاولة بالدليل الأثرى والعملات وبالدليل الأدبى لإثبات أن الغزوات كانت كارثة مطبقة .

Wallace-Hadrill,J.M. The Babarian West, New York : Harper and Row 1952 .

**المصادر :**

Beowulf . M.Alexander, trans . Baltimore : Penguin , 1973 .

وهذه الملحمة عبارة عن واحد من أفضل موضوعات البطل الشعبى الجرمانية ؛ وهو كتاب معقد للغاية .

Gregory , Bishop of Tours . History of the Franks . L.Brehout , trans. New York : Norton , 1969 .

والكتاب يحكى قصة الفوضى ، والعنف ، والقسوة التى اتسم بها مجتمع بلاد الغال الفرنجية كما رآها أسقف أرستقراطى وهو مدهش .

Tacitus . Germania . H.Mattingly , ed . Baltimore : Penguin , 1971 .

وهو يمثل وجهة نظر أرستقراطى رومانى عن أساليب الحياة البدائية لدى الشعوب الجرمانية – وربما يكون هجوما على التدهور الرومانى .

**الفصل الخامس** : بيزنطة والإسلام .

بيزنطة .

Baynes , N., and Moss . H. Byzantium : Introduction to Eastern Roman Civilization . New York : Oxford University Press , 1948 .

Diehl , Ch. Byzantium : Greatness and Decline . New Brunswick , N.J.: Rutgers University Press , 1957 .

مقدمة طريفة عن الحضارة البيزنطية .

Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State . New Brunswick, N.J. Rutgers University Press , 1969 .

كتاب تاريخ نادر المثال فى معالجته لأحوال بيزنطة ، وبه قائمة شاملة من المصادر والمراجع .

Vasiliev . A.A. History of the Byzantine Empire . 2vols. Ann Arbor : Univesity of Michigan Press , 1968 .

ملئ بالتفاصيل ومفيد .

**المصادر :**

Hull , D.B.Digenes Adritas , The Two Blood Border Lord . Athens Ohio University Press , 1972 .

أعظم ملحمة بطولية .

Procopius . The Secret Histories , R. Atwater , trans . Ann Arbar : University of Michigan Press . 1964 .

صور بلا رتوش للإمبراطور جستنيان والإمبراطورة تيودورا .

The Institutes of Justinian . T.C. Sandars trans . 7th ed . London . Longmans, 1948 .

أكبر مجموعة قوانين تم جمعها ، وهى عالم قائم بذاته ، وقد تحولت لتخدم أوربا القرن الثانى عشر .

**الإسلام :**

Gibb , H. Mohammedanism . 2nd ed . London : Oxford University Press , 1953 .

Goitein , S.D. Studies in Islamic History and Instituions . New York : Humanities , 1966 .

مجموعة من المقالات الهامة حول جوانب مهمة من الحياة الإسلامية .

Grunebaum , G. von , Medieval Islam , 2nd . ed . Chicago : University of Chicago press 1953 .

Hitti , p.K. A history of the Arabs . 10th ed . New York : S.Martin , 1970 .

Rodinson . A . Mohammed .. Now York : Pantheon , 1971 .

سيرة للنبى ( ﷺ ) كتبها يسارى فرنسى ، وهو كتاب مثير .

Saunders , J . A history of Medieval Islam . New York : Barnes and Noble , 1965 .

Watt, W.M. A history of Islamic Spain . Chicago : Adline , 1965 .

كتاب مفيد يعالج واحدة من أزهى فترات الحضارة الإسلامية .

**الفصل السادس** : نمو الزعامة الكنسية .

Casper El Geschichte des Papstumo . 2vols . Tubingen . West Germany : Mohr , 1930 .

أفضل ماكتب عن البابوية فى القرن السادس ؛ وهو كتاب كلاسيكى ؛ مذهل فى معلوماته، رائع ويكشف عن رؤية داخلية للأحداث .

Dudden , H. Gregory the Great . 2vols . London : Russel , 1967 .

كتاب كئيب ولكنه مفيد .

Schmitz , P . Geschichte des Bendicktinerordens . Zurich : Benziger , 1960 .

Ullman , W . The Growth of the Papal Government in the Middle Ages London : Methuen , 1965 .

عمل يقنعك بأن نمو الكنيسة اللاتينية كان عملية عضوية ، وهو يمتاز بالحرفية وهام .

**المصادر :**

Gregory the Great . The life of St. Bendict . M.L. Uhlfelder , trans . Indianapolis : Bobbs-Merrill , 1966 .

The Rule of St.Benedict-Excerpts from the Holy Rule of St.Benedict . St.Charles III. : St.Charles House , 1974 .

Waddell , H. The Desert Fathers . Ann Arbor : University of Michigan Press , 1957 .

**الجزء الثالث : أوربا الأولى .**

**الفصل السابع : بناء الملكية الكارولنجية .**

Bieler , L. Ireland Harbinger of the Middle Ages . London : Oxford University Press , 1966.

Bair P.N. Introduction to Anglo-Saxon English . New York : Cambridge University Press , 1954 .

Chadwick , N. Celtic Britain . New York : Praeger , 1963 .

كتاب يتسم بالأصالة ، ودراسة قيمة .

Hanning , R. The Church in the Early Irish Society . Ithaca , Oxford University Press .

كتاب يكشف عن الإبداعية والحيوية والأصالة التى تميزت بها الكنيسة .

Huges K. The Church in the Farly Irish Society . Ityaca , N . Y . Cornell University press . 1966 .

استكشاف للتغيرات الثقافية فى القرن الثامن ، وهو كتاب هام يمتاز بالحرص والاتزان .

Schieffer , T. Winfred Bonifatius und die Cheistliche Grundle,gen Europas . Eng . : Pelican , 1950 .

مقدمة مفيدة جداً عن انجلترا الأنجلوسكسونية .

**المصادر :**

Bede . The Ecclesiastical History of the English People . L . Shirley - Price trans . Baltimore , Penguin , 1974 .

أحسن مؤلف تاريخى كتب فى العصور الوسطى الباكرة .

**الفصل الثامن : الثقافة والمجتمع فى أوربا الأولى .**

Bronsted, J, The Vikings. Balitmore : Penguin 1973 . Burns , C.D. The First Europe , London : Allen and Unwin , 1974 .

Caulburn , R, Feudalism in History . Princeton , N . J. : Princeton University Press , 1957 .

Fichtenau , H.The Carolingian Empire. P. manz , trans . New York : Harper and Row , 1963 .

Ganshof , F.Feudalism , P. Grierson, trans New York : Harper and Row 1961 .

________, Frankish Institutions Under Charlemagne , New York:Norton, 1970 .

عبارة عن مجموعة مقالات عن جوانب مختلفة من الإمبراطورية الكارولنجية .

Halphen , L. Charlemagne et l'empire carolingien . Paris : A.Michel , 1949 .

أحسن كتاب كتب فى هذا الموضوع : وهو عبارة عن توليفة جميلة .

Hinks, R. Carolingian Art. Arbor : University of Michigan Press , 1962 .

Laistner , M.L.W. Thought and Letters in Western Europe, Ithaca, N.Y, Cornell University Press , 1966 .

Latouche, R., The Birth of the Western Economy . London : Methuen 1961 .

Pirenne , H., Mohammed and Charlemagne . New York : Norton , 1939 .

علامة على طريق البحث التاريخى يتناول تأثير الإسلام على أوربا الغربية ، ومؤلفه واحد من أعظم علماء التاريخ الوسيط : اقرأه ولكن لاتصدقه بالضرورة .

Turville-Perte , G., The Heroic Age of Scandinavia . New York : Hutchinson's University Library , 1951 .

White, L., Mediveal Technology and Social Change. New York : Oxford University Press , 1966 .

كتاب هام يحلل بذكاء تأثير تكنولوجيا الحرب على التنظيم الاجتماعى فى أوربا .

**المصادر :**

Einhard and Notker the Stammerer . The Lives of Charlemagne. L. Thorpe : Penguin 1966 .

صورتان مثيرتان لأعظم ملك فى العصور الوسطى الباكرة .

Lupus of Ferrier . Collected Letters. G.W.Regenos , Trans . The Hague: Martinus Nijhoff , 1967 .

عبارة عن مجموعة كاملة من الخطابات التى كتبها أحد الأعضاء الثانويين فى « النهضة الكارولنجية ».

**الجزء الرابع : التوازن فى العصور الوسطى الباكرة .**

**الفصل التاسع : الكنيسة والعالم .**

Barraclough , G., the Origins of Modern Germany . New York : Putman , 1963 .

Focillon, H. The Year 1000 A.D. Wieck, trans . New York : Harper and Row 1969 .

عن تأثير إلهامات الألف الأولى على الفن في العصور الوسطى ، عقلي ومقنع .

Kantorowicz , E., Laudes Regiae , Berkeley : University of California Press , 1958 .

يتناول أيديولوجية الملكية الثيوقراطية ، وهو كتاب غير عادي ، وهام .

Schramm , P.E.Kaiser , Rom , und Renovatio . Berlin : B.G. Teubner , 1929.

Tellenbach , G.,Church, State, and Christian Society at the time of the investitiure Contest . New York : Harper and Row , 1970 .

أحسن دراسة عن الأسس الأيديولوجية للسياسة في القرن الحادي عشر ؛ وهو الكتاب الوحيد الذي يجب قراءته عن الإصلاح الجريجوري .

Thompson , J.W. Medieval Germany . Chicago : University of Chicago Press , 1928 .

الفصل العاشر : بيزنطة والإسلام ، والغرب .

Geanakopolos , D.J., Byzantine East and Latin West . New York : Harper and Row , 1966 .

Grabar , A. , Byzantine and Early Medieval Painting . New York : Viking , 1973 .

Hussy , J., Church and Learning in the Byzantine Empire . New York : Russell and Russell , 1963 .

مجموعة من المقالات تبحث في العلاقة بين الدراسة ، والدين ، والسياسة في العالم البيزنطي .

Lewis , B., The Arabs in History . New York : Harper and Row , 1966 .

Obolensky , D., The Byantine Commonwealth . London : Weidenfeld , 1972 .

كتاب مفيد ، يتضمن آراء أصيلة عن الثقافة البيزنطية والمؤثرات البلقانية فيها .

Southern, R.W., Western Views of Islam in the Middle Ages . Cambridge . Mass : Harvard University Press , 1962 .

المصادر :

Comnena , Anna . Alexiad , A.S. Dawes , trans . New York : Barnes and Boble , 1967 .

Hitti , P.K., Usamah ibn - Munqidh An Arab - Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades . New York : Columbia University . Press , 1929 .

كتاب « الاعتبار » للفارس السوري أسامة بن منقذ تعبير عن الرؤية الإسلامية للصليبيين .

ابن خلدون ، المقدمة .

الجزء الخامس : عصر الإصلاح الجريجوري .

الفصل الحادي عشر : على مشارف العصور الوسطى العالية .

Bloch , M. Feuda Society . L. Manyan , trans Chicago : phoenix 1966 .

Brooke, Z.N.Z. History of Europe 911 - 1198 . London : Methuen , 1938 .

Duby , G., Rural Economy and Country Life in the Medieval West . G. Postan , trans . London : Arnold , 1968 .

Focillen , H., The Art of the West in the Middle Ages . 2vols . New York : Phaidon , 1969 .

Hallinger , K. Gorge - Kluny . Rome : Studia Anselmiani , 1950 .

عن الإصلاح الديرى .

Kern , F. , Kingship and Law in the Middle Ages . S.B. Chrine , trans . New York : Harper and Row , 1970 .

مناقشة ذكية واعية عن نظريات الملكية ، والقانون المدنى ، والنظرية التشريعية فى العصور الوسطى .

Leclerq , J., The Love of Learning and the Desire for God , New York : Mentor , 1962 .

Lopez , R.S. The Birth of Europe . New York : M. Evans , 1967 .

كتاب واسع الأفق ، حافل بالمعلومات ، وهو عبارة عن تاريخ اقتصادى واجتماعى جيد .

Sackur, E., Die Cluniacenser . Darmstadt , Germany : Wissenchaftliche Buchgesellschaft , 1968 .

أشمل وأعمق ماكتب حتى الآن حول تأثير الإصلاح الديرى فى القرن الحادى عشر ؛ وهو مبهر من حيث مداه ومعلوماته الغزيرة . ( طبعته الأولى سنة ١٩١١ ) .

المصادر :

The Song of Roland. D.L. Sayers , trans . Baltimore : Penguin 1968 .

قصيدة ملحمية تكشف عن أخلاقيات ثقافة الطبقة الأرستقراطية المحاربة فى القرن الحادى عشر .

**الفصل الثانى عشر : الثورة الجريجورية العالمية .**

Fliche, A. Le Reform grégorienne et la reconquête Chrétienne, Paris : Bloud et Gay , 1950 .

على الرغم من أنه كُتب منذ أكثر من خمسين عاما ، فإنه مايزال واحداً من أحسن ماكتب من المؤلفات عن عصر الإصلاح الجريجورى ، ومؤلفه كاثوليكى محافظ .

Fournier ,p . and Le Bars , G., Histore des collections canoniques en Occident . Paris : Sirey , 1932 .

Klewitz, H.W., Reformpapstum und Kardinalkolleg . Darmstadt Germany : H. Center , 1957 .

دراسة ذكية للأيديولوجيات المتصارعة فى مجتمع الكرادلة .

Marrison, K.F., Tradition and Autority in the Western Church . Princeton N.J. Princeton University Press , 1969 .

Prinz, J., Popes from the Ghetto . New York : Schocken , 1968 .

رواية مثيرة للمشكلات عن العائلة اليهودية المتنصرة التي يقال إنها كانت تمول حركة الإصلاح الجريجوري.

Tierney , B. The Crisis of the Church and State . Englewood Cliffs , N.J.: Prentice-Hall, 1964 .

مقدمة مفيدة عن مسائل ومشكلات النزاع حول التقليد العلماني .

Whitney J.P., Hidebrandine Essays . Cambridge Univ . Press , 1923 .

**المصادر :**

The Correspondence of Gregory VII . E.Emerton, trans . New York Norton , 1966 .

**الفصل الثالث عشر : الملكية الأنجلو - نورمانية وظهور الدول البيروقراطية .**

Brooke, Z.N., The English Church and Papacy from the Conquest to the Reign of John . Cambridge : Cambridge University Press , 1939 .

Cantor , N.F., Church , Kingship , and Lay Investiture in England .New York : Octagon Books , 1967 .

______ , ed. William Stubbs on the English Constitution , New York : Crawell , 1966 .

Davis , R.H.C. , King Stephen . Berkeley : Univ . of California Press, 1967 .

Dougla , D.C. , William the Conquereor . Berkeley : University of California Press , 1969 .

سيرة جيدة ومحبوكة لواحد من أعظم ملوك إنجلترا وأكثرهم حيوية .

Haskins , C.H., The Normans in Europrean History New York : Norton , 1966 .

دراسة تفيض بالإعجاب عن طاقة ، وقدرة ، وكفاءة النورمان ، وهو كتاب ساذج ولكنه ممتع .

John , E., Orbis Britanniae . New York : Humanities , 1966 .

مجموعة مقالات تعالج موضوعات في تاريخ انجلترا في أواخر العصر الأنجلو سكسوني .

Knowies , D.,The monastic Order in England , Cambridge : Cambridge Univ . Press , 1940.

عمل هام يعالج كافة جوانب الحياة الديرية في انجلترا ؛ وهو عام قائم بذاته ، وقراءاته ممتعة .

Maitland , F.W., Domesday Book and Beyond . Cambridge : Cambridge Univ . Press 1907.

من أهم ما كتب في التاريخ القانوني والاجتماعي .

Richardson , H., and Sayles, G.O. The Governance of Medieval England Edinburg : Edinburg University Press , 1963 .

Sayles , G.O. The Medieval Foundations of England , New York : A.S. Barnes , 1950 .

المصادر :

The Ecclesiatical History of Odericus Vitalis . M. Chibnall , Trans , and ed . Oxford : Clarendon Press , 1964 .

كتاب شامل وساحر عن تاريخ الدوقات النورمان منذ مطلع القرن الحادى عشر حتى سنة ١١٥٤ .

الفصل الرابع عشر : الحملة الصليبية الأولى ومابعدها .

Alphandery , P. and Dupont , A., La Chrétienté et l'idée de Croisade . Paris A. Michel , 1954 - 59 .

Erdman, C., Die Enstelung des Kes Kreuzugsgedankens . Stuttgart : Kohlhammer , 1965 .

دراسة ذكية عن أصول وأسس المثال الصليبى . كتاب بالغ الأهمية .

Krek , A.C., The First Crusade . Gloucester , Mass . : Peter Smith , 1955 .

Runciman , S., A Hist . of the Crusades . 3 vols . New York : Harper & Row , 1955 .

Throop , p.A., Criticism of the Crusades . Amesterdam : N. Swets and Zeitlinger , 1940 .

المصادر :

Gesta Francorum , R.Hill , ed . Camden , N.J. : Nelson , 1962 .

Joinville , Jean de , and Villehardouim , Geoffri de . Chronicles of the Crusades . M. Shaw , ed . Baltimore : Penguin , 1963 .

الجزء السادس : التعليم ، والدين ، والسلطة .

الفصل الخامس عشر : النمو الثقافى لأوربا .

Cantor , N.F., The Meaning of the Middle Ages . Boston : Allyn & Bacon , 1973 .

Chenu , M.O., Nature , Man , and Society in the Twelfth Century . Chicago : University of Chicago Press , 1968 .

Chodorow , S.A., Christian Political Theory and Church Politics . Berkeley : University of California Press , 1972 .

Curtius , E.R. , European Literature and the Latin Middle Ages . New York : Harper & Row , 1963 .

Denomy , A.J., THe Heresy of Courtly Love . Gloucester , Mass . : Oeter Smith , 1965 .

دراسة تثير الجدل حول دلائل ومغزى الغراميات فى البلاط .

Dranke , P ., Medieval Latinand the Rise of the Love Lyric . New York : Oxford University Press , 1966 .

كتاب هام يتناول أصول ، وتطور ، وموضوعات شعر البلاط .

Ghellink , J . de. L'essor de la Literature latin au XII ie Siécle . Brussels Desclee de Brouwer , 1955 .

Gilson , E. A History of Christian Philosophy in the Middle Ages . N.Y. : Randon House , 1955 .

كتاب يمتاز بالحرص ، والتفصيل ، وهو فائق الأهمية .

______ , The Mystical Theology of St.Bernard . New York : Sheed & Ward , 1955 .

تحليل هام لمواقف سان برنار اللاهوتية .

Heer , F. The Medieval World . New York : Mentor , 1964 .

محاولة مثيرة لدمج السياسة ، والدين ، والفكر فى القرن الثانى عشر .

Kuttner , S., Harmony from Dissonance . Latrobe , pa . : Archabbey Press 1960 .

محاولة لفهم مكونات وبنية القانون الكنسى .

Le Bras , G., Lefebure , C., and Rambaud , J., L'âge classique . Paris : Sirey , 1965 .

Leff , G. Medieval Thought . Chicago : Quadrangle , 1959 .

مناقشة حاذقة للاتجاهات الرئيسية فى الفلسفة واللاهوت فى العصور الوسطى .

Lewis , C.S. The Allegory of Love . New York : Oxford Univ . Press , 1967.

Morris , C. The Discovery of the Individual . London : S.P.C.K., 1972 .

Panofsky , e. Abbot Suger and the Abbey Church of St. Senis . Princeton : Princeton University Press , 1948 .

Sikes , G. Peter Abelard . New York : Russell & Russell , 1965 .

سيرة جيدة تصف حياة أحد القادة الثقافيين فى القرن الثالث عشر .

Southern , R.W. The Making of the Middle Ages . New Haven : Yale Univesity Press , 1953 .

Vinogradoff , p. Roman Law in . Medieval Europe . New York : Barnes & Noble , 1968 .

Wolff , P. The Cultural Awakening . New York : Pantheon , 1968 .

المصادر :

Abelard , Peter . Historia Calamitum . Toronto : Pontifical Institute , 1964 .

إنتصارات ومآسى واحد من أعظم مفكرى العصور الوسطى : قطعة من التاريخ النفسى .

Eschenbach , Wolfram von . Parzival . New York : Random House . 1973 .

قصة الرومانسية الوسيطة : وربما يكون هذا الكتاب هو أكثر كتب العصور الوسطى خيالية.

John of Salisbury . The Statesman's Book . J. Dickinson , trans . N.Y. : Russell & Russell , 1963 .

أحسن مثل على التراث الإنسانى فى العصور الوسطى .

The Letters of St.Bemard . B.S. James , trans . Chicago : Regenery , 1953 .

الفصل السادس عشر : الفكر الإسلامى واليهودى : التحدى الأرسطى .

Baron , S.A. Social and Religious History of the Jews . 9 vols . N.Y. : Columbia University press , 1952 .

Husik , I.A. History of Medieval Jewish Philosophy N.Y. : Atheneum , 1966.

Katz , J. Tradition and Crsis . New York : Schocken , 1971 .

دراسة ممتازة للمشكلات التى واجهت الحياة اليهودية فى العصور الوسطى .

Peters , F.E. Aristotle and the Arabs . New York : N.Y. University Press 1968 .

Sharif , M.M. A History of Muslim Philosophy . 2 vols . Wiesbaden : Harrassowitz , 1966 .

كتاب جيد جداً عن تاريخ مشكلات ومدارس وتطورات الفلسفة الإسلامية فى القرن الثانى عشر .

المصادر :

مؤلفات ابن رشد .

Halevi , Judah . The Kuzari . into . by H.Slonimsky . New York . Schocken . 1964 .

Maimondes , oses . The Guide for the Perplexed. M. Fridlander . Trans . New York : Dover . 1904 .

الفصل السابع عشر : تنوع التجربة الدينية .

Borst , A. Die Catherer . Stuttgart : Hiersemann , 1953 .

Cohn , N. The Pursuit of the Millennium . N.Y.: Oxford Uinv . Press . 1970 .

دراسة اجتماعية للحركات الأخروية فى أوربا ماقبل العصر الحديث ، لايعتد به ولكنه مثير.

Grundmann , H. Religiose Bewegungen in Mittelatter . Hildesheim . West Germany : G.Olm , 1961 .

Koch . G. Frauenrfage und Ketzertum . Berlin : Deutsche Verlage , 1966.

تحليل اقتصادى اجتماعى لمكانة المرأة فى الحركات الهرطقية .

Lea . H.C. Inquistion of the Middle Ages . N.Y. : Harper & Row , 1974 .

Leff , G. Heresy in the Later Middle Ages .N.Y. : Barnes & Noble , 1967.

Runciman , S. The Medieval Manichee . Cambridge : Cambridge Univ . Press , 1955 .

مقدمة جيدة عن تاريخ الهرطقة .

Russel , J.B. Witchcraft in the Middle Ages . Ithaca , N.Y. : Cornell Unversity Press , 1972.

Thouzellier , Co Catharisme et Valdensianisme en Languédoc Louvain , Belgium : Nauwelaerts , 1966 .

Wakefield , W. Heresy , Crusade , and Inquisition in Southern France . Berkeley : University of California Press , 1974 .

أفضل مقدمة في هذا الموضوع لما تتسم به من إتزان ووفرة في المعلومات .

المصادر :

Evans , A.P., and Wakefield , W., eds . Heresies in the the High Middle Ages . New York : Columbia University Press , 1969 .

مجموعة شاملة وقيمة للمصادر الأصلية .

الفصل الثامن عشر : تعزيز الزعامة الدنيوية .

Cantor , N.F. The English . New York : Clarion , 1976 .

محاولة الربط بين السياسة ، والمجتمع ، والثقافة .

Chrimes , S.B. An Introduction to th Administrative History of England . Oxford University Press , 1962 .

Fawtier , R. The Capetian Kings of France . New York : St. Martin , 1960 .

Hyde J.K. Society and Politics in Medieval Italy . New York : St. Martin , 1973 .

Kantorowicz , E. The King's Two Bodies . Princetion , N.J.: Princeton Univ. Press 1957 .

Kelly , A.Eleanor of Aquitaine and the Four Kings . Cambridge , Mass . : Harvard University Press . 1950 .

Jolliffe , J. Angevin Kingship : London : A . and C.Black , 1963 .

Knowles , D. Thomas Becket . London : British Academy , 1949 .

Lot , F. and Fawtier , R . Histoira des institutions francaises au moyen age . Paris : Presses Univeritaires de France . 1957 .

Maitland , F.W. and Pollock , F. The History of English Law . 2vols. Cambridge : Cambridge University Press , 1973 .

دراسة ذكية ومركزة للقانون والمجتمع الإنجليزى فى العصور الوسطى .

Muntz , P. Frederick Barbarossa . Ithaca , N.Y.: Cornell University Press, 1969 .

Painter , S. French Chivalry . Ithaca . N.Y.: Cornell Univ . Press , 1957 .

____ , William Marshal . Baltimore : John Hopkis University Press , 1933 .

سيرة لفارس بارز من فرسان أواخر القرن الثاني عشر .

Schramm , P.E. Der Konig von Frankreich . Weimar : H. Bohlaus , 1960.

Warren, W.L. Henry II. Berkeley University of California Press , 1973 .

المصادر :

Fitzeale , Richard . The Course of the Exchequer . C.Johnson , ed . Camden . N.J. : T. Melson , 1950 .

العقلية البيروقراطية فى العصور الوسطى .

John of Salisbury . Historia Pontificalis . M. Chibnall , trans . Camden , N.J. : T. Nelson , 1962 .

مذهل من حيث أنه يكشف عن أساليب السياسة القذرة فى روما .

الجزء السابع : البحث عن توازن جديد .

الفصل التاسع عشر : سلام إنوسنت الثالث .

Brentano , R. The Two Churches . Princeton , N.J. Princeton Univ . Press , 1968 .

Jungmann , J. The Mass of the Roman Rite . New York : Benziger , 1955 .

Lambert , M. Franciscan Poverty . London : S.P,C.K. , 1961 .

بحث فى المسألة التى خلقت النظام الفرنسسكانى ، وأدت فى النهاية إلى حدوث الإنقسام فى صفوفه ، هام .

Luchaire , A. Innocent III .5 vols . Paris : A . Picard , 1925 .

Mortimer , R. Western Canon Law . Berkeley : A. and C. Black 1953 .

Packard , S.R. Europe and the Church Under Innocent III . New York : Russell & Russell , 1968 .

Pool , A . L. Lectures on te History of the Papal Chancery . Oxford : Clarendon Press , 1922.

دراسة عن الجهاز المحرك للحكومة البابوية .

Powice , F.M. Stephen Langton . Oxford : Clarendon Press , 1982 .

Sabatier , P. Saint Francis of Assisi . New York : Scribner , 1894 .

**المصادر :**

Brown, R.., ed . The Little Flowers of St.Francis . Garden City , N.Y.: Doubleday . 1971 .

الأيديولوجية والأساطير الفرنسسكانية ؛ وثقافة نقابات البورجوازيين ، تجدها في هذا الكتاب الذى يعطيك صورة قوية عن تأثير الفرنسسكان على المجتمع الحضرى .

**الفصل العشرون : الوفاق الجديد وعيوبه .**

Baldlwin , J.W. The Scholastic Culture of the Middle Ages . Lexington , Mass . : Heath , 1972 .

Branner, R. Gothic Architecture . New York : Braziller , 1961 .

Carté, M.H. Realists and Nominalists . New York : Oxford University Press , 1947 .

Carsten, F.L. The origins of Prussia . New York : Oxford Univ . Press , 1954 .

دراسة لحركة الزحف الألمانى صوب الشرق .

Copleston, F. Aquinas . Baltimore : Penguin , 1955 .

دراسة مفيدة عن حياة وفكر أعظم فيلسوف في القرن الثالث عشر .

Cromble, A. Robert Grosseteste and the Origins of Experimental Sience Oxford : Clarendon Press , 1962 .

Easton, S. Roger Beacon . New York : Columbia University Press , 1952.

Gilson, E.The Philosophy of St. Bonaventure . Paterson, N.J.: St. Anthony Guild Press . 1956 .

Gimpel, J. The Cathedral Builders. C.F. Jones, trans . New York : Grove, 1961.

Grabmann, M. Die Geschichte der Scholastichen Methode , Berlin : Akademie Verlag, 1966 .

Holt, J.C. Magna Carta . New York : Wiley , 1969 .

كتاب حديث ممتاز يناقش مشكلات وتفاسير الميثاق الأعظم .

Homans, G. English Villagers of the Thirteenth Century London : Russell & Russell , 1960.

دراسة اجتماعية متميزة للرجل العادى فى أوربا العصور الوسطى .

Kantorowicz , E.Frederick II. E.O. Lorimer , trans . New York : Ungar 1957.

تصوير للفاشية فى العصور الوسطي .

Leff, G. Paris and Oxford Universities in the Thirtennth and Fourteenth Centuries Grand Rapids , Mich Krieger 1968 .

كتاب محكم يجمع فى ذكاء بين كافة جوانب الحياة الجامعية .

Luchaire, A. Social France at the Time of Philip Augustus . New York : Harper & Row , 1970 .

Mâle, E.The Gothic Image . New York : Harper & Row , 1973. McKechnie, W.S. Magna Carta. New York, Franklin , 1958 .

تقرير كامل وشامل للغاية عن الميثاق الأعظم ، ولكنه غير عصرى إلى حد ما .

Noonan, J.T. The Scholastic Analysis of Usury . Cambridge, Mass . Haverd University Press , 1957 .

كتاب هام يتناول بالمناقشة التحليل المدرسى وأساليبه .

Painter, S. The Reign of King John . Baltimore : Johns Hopkins University Press 1941 .

كتاب فى التاريخ السياسى من الدرجة الأولى .

Panofsky, E. Gothic Architecture and Scholasticism . New York : World Publishing , 1967.

استكشاف داخلى لتأثيرات العادات المدرسية العقلية على فن البناء . وهو كتاب مثير للجدل .

Powicke, F.M. Henry II and the Lord Edward . Oxford : Clarendon Press, 1950 .

______ , The Thirteenth Century . Oxford : Clarendon Press , 1962 ; Rashdall, H. Universities in the Middle Ages .E. Emden and F.M. Powicke , eds. Oxford : Oxford University Press , 1936 .

دراسة مضنية عن الجامعات والحياة الجامعية فى العصور الوسطى.

Sarton, G. An Introduction to History of Sience . Baltimore : Williams and Williams , 1927.

Simson, O. von . The Gothic Cathedral. New York :Pantheon 1962 .

Steenbergen, F. von , Aristotle in the West . Louvain , Belgium : Nauewelaerts, 1955 .

Strayer , J.R. The Albigensian Crusade . New York : Dial 1971 .

تاريخ ممتاز يطرح أفكاراً حول السيادة والوجه القبيح للإستعمار الكابى فى جنوب فرنسا ، وهو كتاب صغير الحجم عظيم القيمة لواحد من أعظم المتخصصين الأمريكيين فى تاريخ العصور الوسطى .

Temko, A.Notre Dame of Paris . New York : Viking , 1955 .

Thorndike, L.A. History of Magic and Experimental Sience . New York : Macmillan , 1941 .

Waddell, H. Wandering Scholars . Garden City, N.Y Doubleday, 1955 .

ترجمات ممتازة لمؤلفات العلماء - الشعراء الراديكاليين الذين عرفوا باسم الجوليارديين .

Young, K. The Drama of the Medieval Church, Oxford : Clarendon Press , 1967 .

**المصادر :**

Lorris, Gillaum , and Meun Jean de. Roman de la Rose. S.G. Nichols, ed. New York : Appleton - Crofts, 1967 .

الجزء الأول عبارة عن تلخيص للمثل والقيم السائدة فى البلاط ؛ أما الجزء الثانى فكشف مثير عن تحلل الثقافة والمجتمع فى العصور الوسطى ؛ وهو كتاب هام للغاية .

Pegis, A.C., ed. The Basic Writing of St.Thomas Aquinas. New York : Modern Library , 1945 .

**الجزء الثامن : الإنهيار .**

**الفصل الحادى والعشرون : فشل الوفاق الجديد .**

Boase, T.S.R. Boniface VIII. London : Constable and Co., 1933 ; Hilton, R. Bond Men Made Free . London : Smith, 1973 .

تحليل ماركسى قيم لعصيان الفلاحين فى العصور الوسطى .

Leff, Gordon. Heresy in the Late Middle Ages . Manchester : University Press , 1967 .

دراسة واعية لأسس التحلل والثورة .

Macfarlane, B. John Wycliff and the Begining of English nonconformity . Londn : English Universities Press , 1952 .

Mollat, G. The Popes of Avignon. Camden, N.J. : T. Nelson, 1963 .

Perroy, E. The Hundred Years War. New York : Putnam , 1965 .

دراسة تنجح فى رصد بعض مظاهر الفوضى والعنف التى سادت إبان حرب المائة عام .

Runciman, S.The Sicilian Vespers. Cambridge : Cambridge University Press , 1958 .

مكتوب بطريقة جميلة .

Ullmann, W. The Origins of the Great Schism . Hamden , Conn : Anchon Books . 1976 .

Wilkins, E.H. The Life of Petrarch . Chicago : Chicago University Press , 1961 .

سيرة شاملة لأول العلماء الإنسانيين .

**المصادر :**

Dante Alighieri . The Divine Comedy . D.L. Sayers , ed. 3 vols . Baltimore , Penguin , 1954.

تعتبر عادة أعظم المؤلفات الأدبية فى العصور الوسطى – وهو كتاب يجسد تراث العصور الوسطى الذى يتطلع صوب عصر جديد .

Froissart, The Chronicles of England, France , and Spain. G.W. Dunn, ed . New York : Dutton 1961 .

Marsilius of Padua . Defender of the Peace . A. Gewirth , ed. New York : Harper &Row 1964 .

هجوم راديكالى جذرى على مزاعم وإدعاءات الكنيسة فى العصور الوسطى ؛ وهو تعبير عن النزعة العلمانية الجديدة .

Petrarch . Selected Sonnets, Odes, and Letters. F.G. Bergin, ed. Northbrook, III. : AHM Publishing Company , 1966 .

**الجزء التاسع : نهاية وبداية .**

**الفصل الثانى والعشرون : بين عالمين .**

Baron, H. The Crisis of the Early Italian Renaissance. Princeton, N.J. Princeton University Press , 1966 .

بحث دقيق فى القوى السياسية التى ولدت إزدهار فلورنسا .

Bloomfield, M. Piers Plowman as a Fourteenth Century Apocalypse . New Brunswick . N.J. Rutgers University Press , 1962 .

كتاب رائد فى دراسة التيارات الدينية فى القرن الرابع .

Brucker, G. Renaissance Florence, New York : Wiley 1969 .

تقرير ممتاز عن أحد مراكز النهضة الإيطالية ، قوى فى عرضه للسياسة والمجتمع .

Burckhardt J. The Civilization of the Renaissance in Italy . New York : Wiley , 1969 .

من أكبر مؤلفات القرن التاسع عشر ، يرى أن النهضة جاءت بنظرة جديدة للإنسان . مايزال مثيراً للجدل .

Burke, p. Culture and Society in Renaissnce Italy . New York : Scribner , 1972 .

تفسير بنائى ذكى ، أصيل ، وفائق الأهمية .

Calmette, J. The Golden Age of Burgundy . New York, Norton . 1963 .

Chrimes , S.B. Lancastrians, Yorkists , and Henry VII. New York; Macmillan , 1967 .

Clagge, M. The Science of Mechanics in the Middle Ages . Madison : University of Wisconsin Press , 1961 .

Du Boulay, F. An Age of Ambition . New York : Viking , 1970 .

دراسة ممتازة مقنعة للمجتمع والثقافة والسياسة فى انجلترا فى أواخر العصور الوسطى . هام .

Ferguson, W.K. The Renaissance in Historical Thought, Boston : Houghton Miffilin, 1948 .

Hay, D. The Italian Renaissance in its Historical Bechground . New York : Cambridge University Press , 1961 .

Huizinga, J. The Waning of the Middle Ages . Garden City. N.Y.: Doubleday , 1924 .

عمل شامل يستكشف تغلغل النماذج القديمة من فكر العصور الوسطى وسلوكياتها فى القرن الخامس عشر . وهو يكشف بطريقة مؤثرة عن التدهور فى العصور الوسطى المتأخرة .

Lewis C.S. The Discorded Image. New York : Cambridge University Press , 1968 .

مناقشة ذكية للنماذج الفكرية ، والرموز ، والخيال فى أواخر العصور الوسطى .

Mcluhan, M. The Gutenberg Galaxy . New York : New American Library , 1969 .

Meies, M. Painting in Florence and Siena After the Black Death , New York : Harper & Row , 1964 .

Oberman , H. The Harves of Medieval Theology . Cambridge , Mass : Harvard University Press , 1963 .

أزمة الفكر فى اعصور الوسطى المتأخرة .

Oman, G. The Great Revolt of 1381. Oxford : Clarendon Pres , 1906 .

Owst, G. Pulpit and Preaching Medieval England. Cambridge University Press , 1926 .

Robertson, D.W., Jr.A Preface to Chaucer, Princeton , N.J.: University Press, 1963 .

كتاب هام للغاية ، فهو دراسة أصيلة مقنعة لبناء الأدب في العصور الوسطى المتأخرة .

Stadelann, Rudolf. Vom Geist des Ausgebenden Mittelalters. Stuttgart Framman , 1966 .

على الرغم من أنه كتب في عشرينيات القرن العشرين ، فإنه مايزال هو الكتاب الكلاسيكي الذي يقوم بمسح شامل لأدب العصور الوسطى المتأخرة .

Tieény, B. Foundations of the Conciliar Movement, Cambridge : Cambridge University Press , 1955 .

**المصادر :**

Baccacio , Giovanni . The Decameron, G.H. Memilliam , trans . Baltimore : Penguin, 1972.

مثال على الروح العلمانية الإيطالية .

Chaucer, Geoffrey , Chaucer Reader . C.W. Dunn, ed. New York : Harcourt Brace Jovanavich , 1952 .

عموما يعتبر أعظم كتاب في الشعر الإنجليزي في العصور الوسطى .

Thomas a Kempis . Imitation of Christ .L. Shirley-Price, trans. Baltimore : Penguin 1973 .

Langland, William . Piers Plowman . Goodridge , J.F. Baltimore : Penguin 1966 .

تعليق لاذع على المجتمع في أخريات العصور الوسطى هو صوت الرجل العادي . هام جداً .

رقم الإيداع ٨٩١٩ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي 6- 258 - 322 - L.S.B.N. 977

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس/ ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨

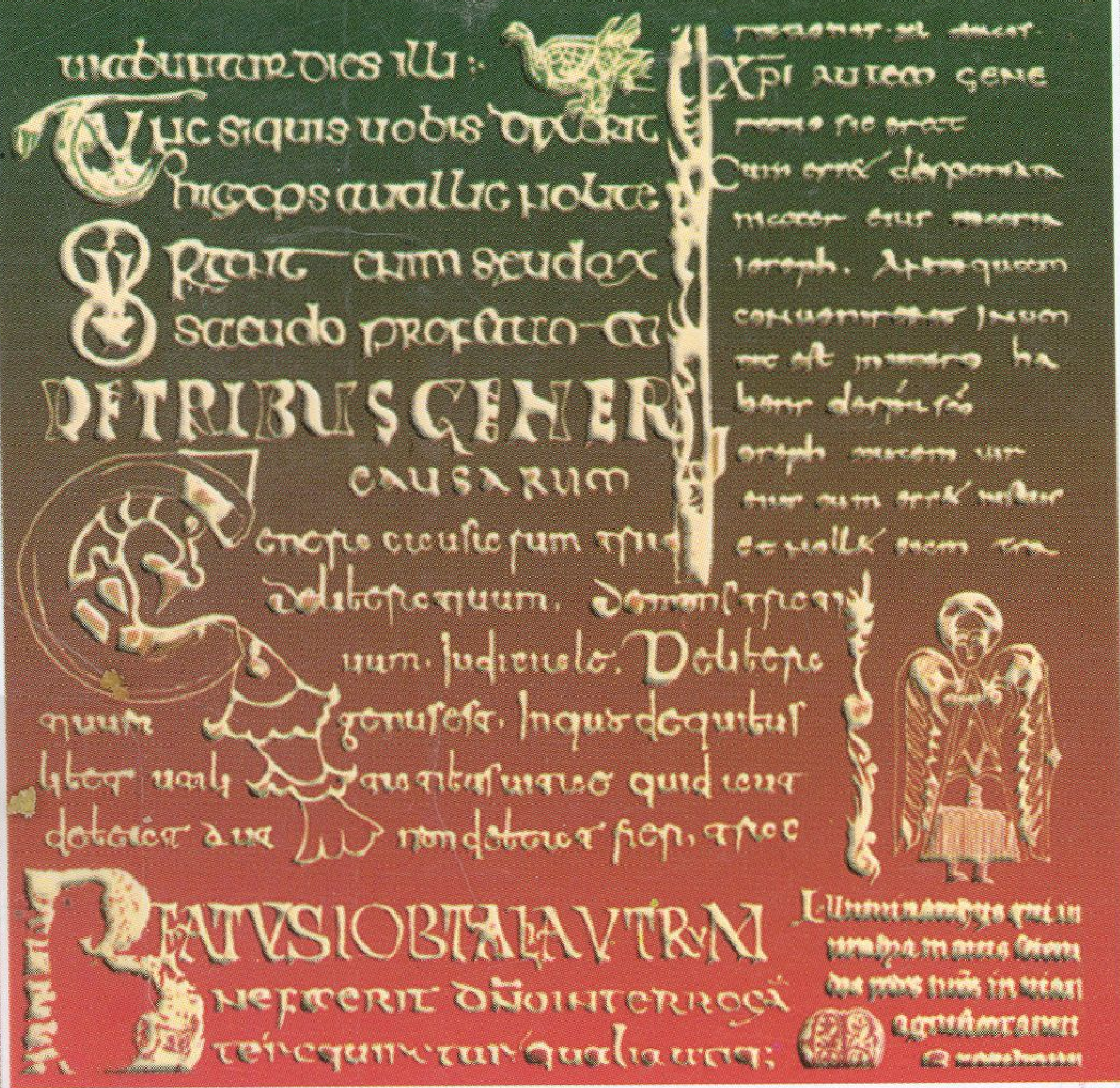


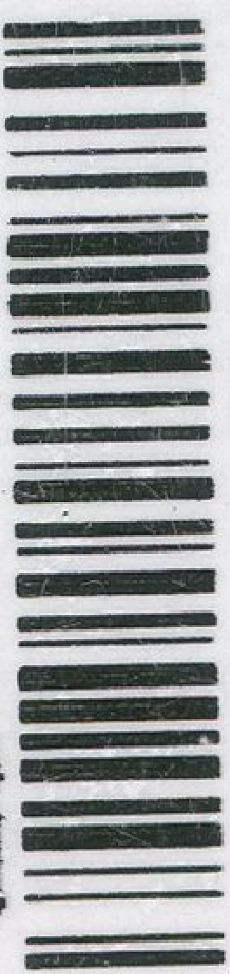
نورمان ف. كانتور

# التاريخ الوسيط

## قصة حضارة البداية و النهاية

ترجمة و تعليق: د.قاسم عبده قاسم









للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES